

الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس

٣ في الحب	طه حسين
١٩ مشكلة إيران	محمد رفعت
٣١ وحدة وادى النيل	سليمان حزين
٤١ المنيب (قصيدة)	حسين سرحان
٤٢ المستعين بالله ... الكاتب هاردي (قصة)	محمود تيمور
٥٨ محتان متشابهتان	محمد كامل حسين
٦٥ الآفاق الأوربية تفتح لى	سلامة موسى
٧٢ مقاومة الذعر من الواقع	ريمون جيران
٨٧ الكاتب المصرى	سليم حسن
٩٧ عامان فى الحبشة	مراد كامل
١٠٩ العمارة فى الأندلس	أحمد فكرى
١١٨ ليلة فى الصحراء (قصيدة)	إبراهيم محمد نجما
١٢١ بعيداً عن نواة الذرة	محمد محمود غالى
١٣١ عيونك الزرق (قصيدة)	عبد الرحمن صدقى

من هنا وهناك (سمير القلماوى ، مبارك إبراهيم ، أرفانا بران ،

محمود عزى ، مؤنس طه حسين) ١٣٢

شهرية السياسة الدولية ١٤٩ شهرية المسرح ١٥٢

من كتب الشرق والغرب ١٥٦ من وراء البحار ١٦٦

ظهر حديثاً ١٧١ فى مجلات الشرق ... ١٧٥



تصدرها دار الكاتب المصرى

شركة مساهمة مصرية

القاهرة

الى قراء اللغة الفرنسية

اذا أحببتم أن تطلعوا على خير ما يكتبه مشاهير الأدباء الفرنسيين فضلاً عن نخبة من أدباء الشرق فترقبوا مجلة « القيم » VALEURS وفي عددها الرابع الذي يصدر في نهاية يناير ١٩٤٦ تجدون أبحاثاً للرميه وآثراً لسارتر وميشو وكواريه وموريانا الياباني والدكتور حسين فوزي وجويون ويير لوى وإتيامبل فضلاً عن خلاصة المجلات الفرنسية والشرقية والعربية والكتب العربية والفرنسية .

POUR PARAITRE FIN JANVIER:

VALEURS

CAHIERS TRIMESTRIELS DE CRITIQUE ET DE LITTÉRATURE
PUBLIES AVEC LA COLLABORATION DES ECRIVAINS DE FRANCE
ET DU PROCHE-ORIENT.

Directeur: ETIEMBLE.

NUMERO QUATRE

SOMMAIRE

MALLARME

QUATRAIN INEDIT

J. P. SARTRE

LES VAINQUEURS

H. MICHAUX

AU PAYS DE LA MAGIE

A. KOYRE

LOUIS DE BONALD, PHILOSOPHE DE LA REACTION

K. MARUYANA

LETTRE D'UN JAPONAIS A SES AINES

HUSSEIN FAOUZI

LE CHAT YOGI

BERNARD GUYON

REFLEXIONS SUR UN FILM ARABE

PIERRE LOUYS

LETTRE INEDITE

ETIEMBLE

PAUL PELLIOT

Revue des revues de France et du Proche Orient; revue des revues arabes; revue des livres de France; des livres français publiés à l'étranger; des livres en arabe. Bulletin critique d'informations culturelles.

الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير
طه حسين

جلد ٢



القاهرة ١٩٤٦

الكاتب المصري



فبراير ١٩٤٦

ربيع الأول ١٣٦٥

مجلد ٢ — عدد ٥

في الحب

سيبسم لهذا الزمان قوم وسيعبس له آخرون ، وسيكون بين الاسمين من يبسم عن رضا لأنه يريد أن يقرأ عن الحب شيئاً ، ومن يبسم عن سخرية لأنه لا يرضى أن يكون الحب موضوعاً للحديث في مجلة ينتظر منها الجدل الصارم ولا يحب منها الإقبال على لغو الحديث . فأما العابسون فسيكون عبوسهم سخطاً خالصاً ؛ لأن حديث الحب هو كله ، وما أ كثر الصحف والمجلات التي تلهج باللهو وتغرق فيه !

ومع ذلك فقد كانت حياتنا في العصر الأول أسمح من هذا كله وأ كثر يسراً ، وكانت أحاديث الحب لا تثير سخطاً ولا عبوساً وإنما تثير رضا وابتهاجاً وتدعو إلى الروية والتفكير في كثير من الأحيان . وقد مضى في تاريخنا الأدبي والعقلي عصر لم يكن الحب فيه هزلاً ولا دعاية ، وإنما كان جدّاً خالصاً لا يخلو من صرامة وحزم في كثير من الأحيان . فلم يكن حب الغزلين في شمال الحجاز وفي نجد لهواً ولا مجوناً ولا مصدراً للدعاية والفكاهة ، وإنما كان جزءاً من جد الحياة اقتضته ظروف من السياسة والدين فدفع إليه الغزلون في شيء من التصوف لعله خير ما يستحق البقاء من شعرنا العربي القديم . ونحن نقرؤه فنجد راحة إليه واستمتاعاً به لا يشوبهما مجون ولا يتصل بهما ميل إلى العبث واللهو ، وإنما نجد فيهما النفوس غذاءً روحياً يرتفع بها عن صفائر الحياة ويعزبها عن هذه السفاسف اليومية التي تنزل بها عما تحب لنفسها من مكان رفيع . على أن هذا الهيام الذي تمثل النفس العربية في نجد وشمال الحجاز لم يتردد

في أن يغزو البيئات الدينية والعلمية الصارمة الحازمة في مكة والمدينة . فقد كان شعر جميل وكثير القيسين ينشد في المسجد الحرام وينشد في المسجد النبوي ، ويستمتع به في هذين المسجدين المطهرين قوم وققوا أنفسهم على رواية العلم والدين لا يجدون في ذلك حرجاً ولا جناحاً ؛ وربما تجاوز بعضهم هذا الاستمتاع بأحاديث الحب وما كان ينشد فيه من شعر إلى الحب نفسه ؛ فشقى بالحب إن كان الحب شقاء ، ونعم بالحب إن كان الحب نعيماً ، وذاق لذته المؤلمة وحلاوته المرة ، إن صح أن تكون اللذة مؤلمة وأن تكون الحلاوة مرة . وقد كان عبد الرحمن بن أبي عمار الجشمي صاحب قراءة للقرآن ورواية للحديث وإقبال على النسك والزهد وتفرغ للعبادة والطاعة ، حتى لقبه أهل مكة بالقس . فلم يمنعه ذلك حين رأى سلامة وسمع غناءها أن يحبها حباً انتهى به إلى الهيام وجعله شاعراً غزلاً كغيره من الشعراء الغزلين . لم يجد في ذلك حرجاً ولا جناحاً ؛ لأن ذلك لم يورطه في إثم ولا فسوق . وعبد الرحمن بن أبي عمار القس هو الذي يقول في سلامة هذين البيتين الرائعين :

سلام هل لي منكم ناصرُ أم هل لقلبي عنكم زاجرُ
قد سمع الناس بوجدى بكم فمنهم اللائم والعاذر

ويزعم الرواة أن سلامة أحببت القس وحببت إليه ، وهمت ذات يوم أن تقبله أو أن تضع فيها على فمه كما يقول الرواة ، ولكنه امتنع عليها . وثراً نقاء القلب وصفاء الضمير ، مشفقاً أن ينعم بحبها في الدنيا فيشقى بحبها في الآخرة . ويصبح من هؤلاء الأخلاء الأعداء الذين ذكرهم القرآن الكريم .

وقد أثر ابن عباس رحمه الله ، كما يعرف الناس جميعاً ، أن يسمع لغزل ابن أبي ربيعة على أن يسمع لأسئلة نافع بن الأزرق في الفقه والحديث وتفسير القرآن . فقد كان القدماء أسمح منا نفوساً وأحسن منا استقبالا لأمور الحياة ، يعنفون بأنفسهم في مواضع العنف ، ويرفقون بها في مواطن الرفق ، ولا يتكلفون هذا الجد السخيف والتمت الذي لا يدل على شيء . وأنا بعد هذا كله لا أريد أن أتحدث عن الحب مرغباً فيه أو مرغياً عنه محسناً له أو زارياً عليه ، بل لا أريد أن أتحدث عن الحب في نفسه ، وإنما أريد أن أتحدث عنه من حيث إنه كان موضوعاً للبحث والدرس والتأليف عند أديبين عظيمين : أحدهما عربي مسلم قديم ، والآخر أوربي

في الحب

مسيحي حديث . فأما أولهما فهو ابن حزم الأندلسي . وأما ثانيهما فهو ستندال الفرنسي . فقد عاش أولهما في القرن الحادي عشر ، وعاش ثانيهما في القرن التاسع عشر ، فبينهما نحو ثمانية قرون . وهما بعد ذلك يختلفان أشد الاختلاف ولا يكادان يتفقان إلا في الشيء اليسير جداً .

فابن حزم مسلم متعمق للإسلام يؤمن به إيماناً صادقاً متيناً يرتفع به إلى شيء يوشك أن يكون نسكاً . وهو قد وقف حياته أو أكثر حياته على تعمق العلوم الإسلامية والعربية ؛ فهو متقن لرواية الحديث ، محسن للفقه ، متخصص في الكلام متفوق في الجدل ، عالم بشؤون الفرق الإسلامية مهاجم لاكثرها مدافع عن أقلها ، منافع عن الإسلام ، ناقد لما ورث المسيحيون واليهود من المسيحية واليهودية ، عارض لكل مسألة من مسائل الدين بالدرس والنقد والتحليل ، مظهر رأيه فيها ، مؤيد له بما يرى أنه الحجة القاطعة والبرهان الساطع الذي لا يمكن الشك فيه . فهو بذلك رجل من رجال الدين ، ومن رجال الدين الذين وقفوا أنفسهم وحياتهم على درسه واستقصائه والذود عنه والقيام من دونه . وهو صاحب مذهب بعينه في الدين ليست عليه كثرة المسلمين ؛ فهو ظاهري يؤثر النص ويكره التأويل ، ولا يحب التأول ولا يعيل إلى التأويل . وهو من أجل ذلك لا يخاصم في الكلام وحده وإنما يخاصم في الفقه أيضاً . وهو من أجل ذلك متقن للغة أشد الاتقان ، متعمق لكل ما يتصل بها من علم أشد التعمق . فهو لغوي ، وهو نسابة ، وهو راوية للشعر والأدب والأخبار . ثم هو قبل هذا كله من أسرة قد تولت الوزارة واتصلت بالقصور وعملت في الدواوين ودبرت أمور السياسة ؛ وقد شارك في بعض ما نهضت به الأسرة من الأعباء . ولكنه صرف نفسه عن السياسة ، أو صرفته الظروف عن السياسة إلى العلم ، فأحاط بكل ما كانت تتكون منه الثقافة الإسلامية العربية في ذلك الوقت . ثم لم يكتف بأن يكون عالماً ممتازاً ، بل أراد أن يكون معلماً ممتازاً أيضاً ، ومؤلفاً ممتازاً كذلك ، هذا هو ابن حزم .

أما ستندال فقد نشأ في عصر الثورة الفرنسية ، وشارك في الخطوب السياسية والعسكرية التي امتلأ بها عصر نابليون وقاتل في غير موقعة من مواقع هذا القائد العظيم ، وشهد الأحداث الكبرى التي اضطربت لها فرنسا ثم اضطربت لها أوروبا ثم اضطرب لها العالم كله في آخر القرن الثامن عشر وفي النصف

الأول للقرن التاسع عشر . وهو بحكم نشأته وبيئته والعصر الذي عاش فيه مسيحي اللون حر الضمير واسع الثقافة إلى أبعد حد ممكن . ولكنه لم يكن وزيراً ولم يحاول أن يكون وزيراً ، ولم يكن معلماً ولم يحاول أن يكون معلماً ، وإنما عاش لنفسه أولاً ، ومنح قلباً ذكياً وعقلاً خصباً وضميراً حياً ونبوغاً فنياً ممتازاً ، فلم يجد بدءاً من أن يصور حياته وحياة الناس من حوله وحياة العصر الذي عاش فيه .

فالاختلاف بين هذين الرجلين بعيد إلى أقصى غايات البعد ، ولكنهما على ذلك يلتقيان في بعض الأمور . فكلاهما أوربي المولد والنشأة : ولد ابن حزم ونشأ وعاش في أسبانيا ، وولد ستندال وعاش في فرنسا وغيرها من البلاد الأوروبية . وقد ذكرت آنفاً أن ابن حزم عربي مسلم . وما أردت بعروبته هذا المعنى الضيق الذي يتصل بالجنس والنسب ؛ فقد يقال إن ابن حزم لم يكن عربياً صليبية ، وإنما أردت هذه العروبة التي تتصل بالثقافة والسياسة والدين واللغة والنشأة وهذه الخصال التي هي أهم ألف مرة ومرة من الجنسية والعنصرية .

فقد كان الرجلان إذن أوروبيين ، ولكن أحدهما عربي الحياة ، والآخر فرنسي الحياة ؛ وأحدهما من أبناء القرن الحادي عشر ، والآخر من أبناء القرن التاسع عشر . وقد كان الرجلان يلتقيان في شيء آخر ، فكلاهما عاش في عصر فتنة واضطراب عاش ابن حزم في عصر انهيار الدولة الأموية في الأندلس وانتشار النظام السيامي في هذا الجزء من أوروبا ، وقل إن شئت في هذا الجزء من العالم الإسلامي القديم . وقد شهد ابن حزم انتقال السلطان من بني أمية إلى حجابهم ، ثم انهيار الأمر حول هؤلاء الحجاب ، وقيام ملوك الطوائف ، وتدخل البربر في شؤون العرب الأسبانيين . ثم هو لم يشهد ذلك من برجه العاجي ، وإنما شهد هذه شهود المشارك فيه ، المصطفى بناره ، المتحمل لآثاره ، فذاق السجن ونفى من الأرض وتقاذفته مدن الأندلس ، بل تقاذفته مدن العالم الإسلامي الغربي ؛ فهو قد عبر إلى إفريقية ، وهو قد عبر إلى الباليار ، وهو قد لقي في هذا كله ألواناً من المحن وضروباً من الخطوب .

وعاش ستندال في عصر الثورة وفي عصر الحروب التي أثارها نابليون أو أثرت عليه ، وشارك في هذه الحروب فانتصر حين انتصر نابليون وانهمز حين انهمز نابليون . واضطرته هذه الحروب إلى التقلب في أقطار أوروبا ، فذهب إلى

في الحب

ألمانيا والنمسا والروسيا وأقام في إيطاليا فأطال الإقامة وعاد آخر الأمر إلى فرنسا .
وليس المهم بالقياس إلى هذين الرجلين أنهما عاشا في عصر الفتنة والاضطراب
وتأثرا بهما في حياتهما المادية ، وإنما المهم أن كليهما قد منح حساً دقيقاً
وشعوراً رقيقاً وعاطفة ثائرة ومزاجاً حاداً وذوقاً رفيعاً ، فتأثر بهذه الفتنة
وتأثرا بهذا الاضطراب ، وعاش عيشة سخط وشذوذ وقلق لا عيشة رضا
واطمئنان وحرص على ملاءمة الجيل الذي كان يعيش فيه .

كان ابن حزم شاذاً في أسبانيا المسلمة المضطربة . وكان ستندال شاذاً في
فرنسا المسيحية الثائرة . وكان كلاهما ساخطاً على ما يرى ، منكراً لما يشهد ، عاكفاً
على نفسه يتسلى بعلمه وأدبه عما يجري حوله من الخطوب .

في هذا كله كان الرجلان مختلفان ويتفقان . ومن هنا فرغ ابن حزم لعلوم
اللغة والدين ، وفرغ ستندال للقصص والإنشاء الأدبي الخالص . ولكن
ابن حزم ألّف كتاباً في الحب ، وستندال ألّف كتاباً في الحب أيضاً . ومن النافع
أن نقف عند هذين الكتّابين وقفة قصيرة ؛ فقد يكون من المفيد أن نرى
كيف عني الأديب المسلم القديم والأديب المسيحي الحديث بهذا الأمر الخطير
الذي هو الحب .

وإذا قلت إن الحب أمر خطير ، فإنما أصدر في ذلك عن ابن حزم من جهة
وعن ستندال من جهة أخرى . ولست في حاجة إلى أن أصدر في ذلك عن شعر
الشعراء ولا عن أدب الأدباء ولا عن الحياة نفسها ؛ لأنني لا أكتب فصلاً في
الحب من حيث هو ، وإنما أكتب فصلاً في الحب كما صورته هذان الأديبان .
والظاهر أن الحب قد كان خطيراً حقاً في أسبانيا المسلمة أيام ابن حزم .
وليس أدل على ذلك من أن هذا المحدث الفقيه المتكلم الفيلسوف المنفي من أرض
وطنه قد فرغ لكتابة رسالة فيه . وهو لم يفرغ لكتابة هذه الرسالة إلا لأن
صديقاً من أصدقائه الفقهاء المحدثين المتأدين قد طلب إليه أن يكتب هذه
الرسالة . فلولا أن الأمر له شيء من خطر لما طلب هذا الفقيه المحدث الأديب
إلى ابن حزم أن يفرغ له ويكتب فيه ، ولما أجاب ابن حزم إلى ما طلب إليه وهو
على جناح سفر قد أزغج عن وطنه واستقر في شاطبة لينتقل منها إلى منى
آخر . ثم نحن نقرأ كتاب ابن حزم فنرى أن الحب قد شغل ابن حزم في حياته
كلها كما شغله الفقه والتفسير والحديث والكلام ونقرأ كتاب ابن حزم فنرى أن

الحب لم يشغله وحده ولم يشغله مع صاحبه الذي طلب إليه تأليف الكتاب وحدهما ، وإنما الظاهر أنه كان يشغل الناس جميعاً في أسبانيا المسلمة لعهد ابن حزم . ولعله كان يشغل المثقفين والممتازين أكثر مما كان يشغل غيرهم من الناس . أما في فرنسا فالحب شيء خطير في كل وقت لا يحتاج ذلك إلى دليل . ولكنك ستري أن ستندال لم يكن يقدر الحب كما ألفه مواطنوه الفرنسيون . أكاد أعتقد أن في نفوسنا من أسبانيا المسلمة صورة غير مطابقة للحقيقة الواقعة أثناء القرن الخامس للهجرة على أقل تقدير . فنحن نقرأ فقها وفلسفة حديثاً وكلاماً وتفسيراً ولغة ، ونحن نقرأ أخبار الفتن والحرب فيخيل إلينا أن أسبانيا المسلمة قد كانت في القرن الخامس موطن الجذ المظلم والثورات المنكرة والاختلاف المؤذي للنفوس ، لانكاد نستثنى من ذلك إلا هذه البيئات الخاصة التي كانت تمتاز بالعكوف على الذات والانصراف إلى الشعر والموسيقى والغناء . ولكن ابن حزم يعطينا في كتابه « طوق الحمامة » صورة أخرى لأسبانيا المسلمة في ذلك العهد . صورة وطن كان الناس فيه جميعاً يذوقون الحب ويبلون لذاته وآلامه ، يتعرضون له كما يتعرضون لغيره من محن الحياة ، بل يتعرضون له كما يتعرضون للموت ، لافرق في ذلك بين أصحاب الجذ منهم وأصحاب الهزل ، ولا بين الذين يفرغون للعلم والدين والذين يفرغون للأدب والفن والذين يفرغون للسياسة والحرب .

وأكبر الظن أن أمور الناس كلهم تجري على هذا النحو في جميع أقطار الأرض . ولكن حظوظ الناس من الحرية في تصوير هذا والتعبير عنه تختلف باختلاف الأوطان والبيئات والظروف . والظاهر أن أسبانيا المسلمة كانت على حظ عظيم لا في الحب وحده بل في التحدث عن الحب أيضاً . ومن الحق أن ابن حزم تخرج شيئاً أو كاد يتخرج شيئاً من الكتابة في هذا الموضوع ، ولكنه لم يلبث أن يعنى نفسه من هذا الحرج بآثار رواها في أول الكتاب وبحض على الطاعة ونهى عن المعصية وترغيب في الفقه سجلها في آخر الكتاب . فقد روى ابن حزم بسنده المتصل إلى أبي الدرداء رحمه الله أنه كان يقول : « أجمشوا النفوس بشيء من الباطل ليكون عوناً لها على الحق » . وروى آثاراً أخرى عن جماعة من السلف الصالح رحمهم الله .

وكان هذا أشبه باستئذان للدخول في هذا الموضوع الخطير الذي يظهر أن ابن حزم فكر فيه وعاش معه منذ نشأ إلى أن مات . وأخص ما يتفق فيه

ابن حزم وستندال أنهما لم يريد أن يكتب في الحب كتاباً المتزيد المتكلف، وإنما أراد أن يكتب فيه كتاباً العالم الذي يؤثر البحث والاستقصاء، ويعتمد على الملاحظة والمشاهدة، ويستنبط من هذا كله أصولاً وقواعد هي أشبه بالعلم وأقرب إليه من شبهها بالأدب وقربها إليه. فليس الذي يعنيه أن يرويا الأخبار ولا أن يستنبطاً الخيال ولا أن يفلسفاً في غير موضع للفلسفة، وإنما الذي يعنيه أن ينظرا إلى الواقع ويعمداً إليه ويأخذاً منه في غير تكلف ولا تصنع ولا احتيال. ثم هما بعد أن يتفقا في هذا كل الاتفاق يختلفان فيه كل الاختلاف أيضاً كلاهما يريد العلم ويعتمد على الظواهر الواقعة. ولكن أحدهما يعيش في القرن الحادي عشر، والآخر يعيش في القرن التاسع عشر، وبين حياة العقل الإنساني في هذين العصرين أمد بعيد. فابن حزم يعيش في عهد الكلام وما بعد الطبيعة، وستندال يعيش في عهد العلم والتجربة. فليس غريباً أن يكون ابن حزم فيلسوفاً حين يفسر الظواهر الواقعة، وأن يكون ستندال عملياً حين يفسر هذه الظواهر نفسها.

ومن هنا عمد ابن حزم إلى تعريف الحب كما كان الناس في عصره يعملون إلى تعريف كل شيء. وعمد إلى تعريفه على النحو الفلسفي الذي ألفه أصحاب المنطق؛ فهو يثبت قبل كل شيء أن الحب حقيقة واقعة لا منصرف عنها ولا تخلص منها، وأنه من أجل ذلك شيء مباح لا ينكره الدين ولا العرف ما دام لا يتجاوز حدود الدين والعرف. وهو يذكر الحب الذي أُلِّمَ بطائفة من خلفاء بني أمية في الأندلس ومن خلفاء الفاطميين في مصر، والحب الذي أُلِّمَ ببعض الفقهاء من أبناء الصحابة والتابعين وما أفتى به ابن عباس رحمه الله في بعض الأمور التي تتصل بالحب. ثم يذكر بعد ذلك «مائة الحب» كما يقول، وهي كلمة يأخذها من «ما»، وهي توازي كلمة «الماهية» عند الشرقيين من أصحاب المنطق والفلسفة. كأن الشرقيين يأخذون كلمتهم من «ما هو»، وكأن ابن حزم وأصحابه الأندلسيين يأخذون كلمتهم من «ما» وحدها، فيجعلون الألف همزة حين ينسبون. ومائة الحب كما يقول ابن حزم أو ماهيته كما يقول الشرقيون هي عند ابن حزم «الاتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع». كان ابن حزم يذهب إلى ما ذهب إليه بعض الفلاسفة من قدماء اليونان من أن هناك عنصراً رفيعاً تألف منه نفس واحدة

قد قسمت أجزاؤها على المخلوقات ذوات النفوس . فقد يحدث اتصال بين بعض هذه الأجزاء المقسمة بين الناس فيكون الحب ، وقد يحدث انفصال فيكون البغض . وبمقدار ما يكون الاتصال قوياً أو ضعيفاً يقوى الحب أو يضعف . وبمقدار ما يكون الانفصال قوياً أو ضعيفاً يشتد البغض أو يلين .

وهذا الاتصال إنما هو ملائمة في الشكل وتشابه في الطبع وحنين جزء من النفس إلى جزء آخر من النفس ، والأعراض الطارئة هي التي تباعد بين هذه الأجزاء أو تتيح لها أن تقترب وتتألف . وابن حزم لا يحب أن يذهب مذهب إمامه محمد بن داود الظاهري ومذهب غيره من الفلاسفة الذين يرون أن النفوس كرات مستقلة تستقر في المخلوقات إلى حين ، وإنما هو يرى أن النفوس أجزاء من نفس واحدة قد قسمت على المخلوقات إلى حين ، ثم هي تعود إلى أصلها ، وإن كان ابن حزم لم يصرح بهذه العودة في هذا الكتاب . والشئ المهم هو أن الحب عند ابن حزم لا يأتي من الأجسام وإنما يأتي من النفوس . وليست الأجسام في حقيقة الأمر إلا وسائط ووسائل تتيح للنفوس أن تتقارب أو أن تتباعد . وآية ذلك أن من الناس من يحب شخصاً تنقصه هذه الخصلة أو تلك من خصال الجمال الجسمي وهو يعلم أن بين الناس من يستوفون خصال الجمال كلها أو أكثرها ومن يزيدون على محبوبه في هذه الخصال . فلو كان الجمال الجسمي مصدر الحب لما أمكن أن يحب الإنسان شخصاً قبيحاً أو منقوص الحسن ، ونحن نعلم أن العاشقين لمن لا يبلغ الحسن فيهم أقصاه ولمن يقدر عليهم القبح ليسوا قليلين . ولا تفسير لذلك عند ابن حزم إلا أن الحب ظاهرة تتصل بالنفوس ولا تتصل بالأجسام إلا اتصالاً عارضاً . فنحن هنا أمام بحث فلسفي يتصل بما بعد الطبيعة أكثر مما يتصل بالطبيعة نفسها ، أو قل إنه يتخذ الطبيعة سُلماً يرقى فيه إلى ما بعد الطبيعة . وليس شئ من هذا كله غريباً ، فإن حزم يعيش في القرن الحادي عشر ، والعلم عنده ما ورث عن الفلاسفة والمتكلمين .

فأما ستندال فهو لا يعمد إلى التعريف ولا يفكر في الاستنباط المنطقي ، وإنما يعمد إلى الاستقراء والاستقصاء . فهو لا يعرف الحب جملة وإنما يستقصى أنواع الحب عند أفراد الناس وعند أصنافهم . وهو يضع أصلاً في أول كتابه لا يكاد يحققه حتى يشك في دقته ويفتح باب الاستقراء والاستقصاء من جديد . فليس هناك حب واحد إذن ، وإنما هناك أنواع أربعة من الحب : أولها الحب الجامع

في الحب

الذي يملك على النفس أهواءها وعواطفها وحسها وشعورها، والذي يندفع كالسيل لا يلوى على شيء ولا يترك لصاحبه حظاً من أناة أو روية أو تفكير . والثاني الحب المترف الذي ينشئه التكلف وما تقتضيه الحضارة الراقية المصفاة من إتراف في الذوق وتأنق في فنون المتاع ، والذي لا يكاد يتصل بالنفس ولا بالقلب ، ولا يكاد يؤثر في العاطفة أو في الشعور ، وإنما هو لون من ألوان الذوق وفن من فنون الترف ، قد وضعت له قواعده وأصوله ، وأحاط الناس بأسراره ودقائقه ، فهم يصعدون فيه عن علم وينتهون إلى غايته عن بصيرة . والثالث الحب الجسدي الذي تدفع إليه الغرائز والذي يشترك فيه الإنسان والحيوان والرابع حب الغرور الذي ينشأ عن الكبرياء وإيثار النفس بهذه الظواهر الخداعة التي يكبر بها الإنسان أمام نفسه وإن لم يكبر بها في أنفس الناس . وقد مثل ستندال لأنواع الحب هذه بأمثلة تصورها تصويراً صادقاً وتدل عليها دلالة واضحة . فأبطال الحب المعروفون الذين تحدث عنهم التاريخ يصورون النوع الأول . والمترفون من الفرنسيين أثناء القرن الثامن عشر يصورون النوع الثاني . والصائد الذي يشتغل قروية رآها تهم في الغابة فأعجبه شكلها يصور النوع الثالث . وكثرة الشعب الفرنسي في عصر ستندال تصور النوع الرابع . على أن ستندال لا يلبث أن يلاحظ أن هذا التقسيم ليس دقيقاً ولا نهائياً ، وأن من الممكن أن ينحل كل نوع من هذه الأنواع الأربعة إلى أنواع أخرى جزئية يدل عليها بالفاظ أخرى . فأمور الحب أشد دقة وأكثر اختلافاً وأيسر تفاوتاً من أن تستقصى على نحو قاطع محتوم . وليس المهم عند ستندال أن تُخصى أنواع الحب أو تستقصى ، وإنما المهم أن تبين كيف ينشأ الحب وكيف ينمو وكيف يضعف وكيف يموت . وستندال يرى أن هذا كله إنما يجري طبقاً لقوانين يعرضها في هذا الكتاب . والإعجاب هو أول درجة من درجات الحب ترقاها النفس حين تتجاوز نظرتها العادية البريئة من الاكتراث إلى الشخص الذي كتب لها أن تحبه ، فهي تبدأ بالخروج عن عدم الاكتراث إلى التفات خاص لا يكاد يتم حتى ينشأ عنه إعجاب يقف النفس عند هذا الشخص الذي التفتت إليه . ولا يكاد هذا الإعجاب يتصل حتى ترقى النفس في هذا السلم إلى درجة أخرى ، وهي درجة التوق أو الشوق أو الطموح إن شئت . وهي الدرجة التي يقول فيها الإنسان لنفسه ، أحبيب إلى بأن أقبل هذا الشخص أو بأن يقبلني ، فهو طموح إلى الاتصال المادي بعد أن تم الاتصال النفسي .

ثم يرقى الإنسان إلى الدرجة الثالثة . فأنت تستطيع أن تتوق وأن تشاق وأن تطمح ، ولكن هذا كله شيء وانتظار الوصول إلى ما تطمح إليه شيء آخر . فإذا تجاوزت الطموح إلى الأمل فقد ارتقيت إلى الدرجة الثالثة في تصعيدك إلى الحب . ثم لا يكاد يستقر الأمل في نفسك ، أو لا تكاد تفك في الأمل ، حتى تبلغ الدرجة الرابعة ، وهي الدرجة التي يتم فيها تكون الحب . فأنت قد أعجبت ثم اشتقت ثم أملت ثم استحال هذا كله في نفسك إلى لذة قوية تحدث بمجرد أن ترى من تحب أو أن تسمعه أو أن تمسه أو أن تتصل بسبب من أسبابه . وأنت إذا وجدت هذه اللذة معرض لأن تجد الألم إذا انقطعت الأسباب بينك وبين من تحب . وكذلك لا تبلغ الدرجة الرابعة حتى تضرب بين ما يحدث الحب من لذة وألم ومن نعيم وجحيم . وإذا وجد الحب فلا بد له من أن ينمو إلا أن يقتل يوم مولده ونموه . يبدأ حين تبلغ الدرجة الخامسة ، وهي ما يسميه ستندال التبلور الأول ، ومنشؤها اتصال تفكيرك فيمن تحب . فأنت لا تفكر فيه كما هو قبل أن تلتفت إليه ، أو قل إنك لا تفكر فيه كما يفكر فيه غيرك من الناس الذين لا يحفلون به ولا يبهون له ، وإنما تسبغ عليه شيئاً من إعجابك به وشوقك إليه وأملك فيه ، وإذا أنت تضيف إليه محاسن تزعم أنها لا توجد في غيره ، وإذا أنت تقوى شعورك بالغبطة حين تتصل به بمقدار ما تضيف إليه من المحاسن . فهو وحده الذي يستطيع أن يرضى ما تطمح إليه نفسك من المثل العليا في اللذة والسعادة والنعيم . وغيره لا يقدر على أن يبلغك من هذا كله شيئاً ، لأن هذا كله موصول بما خلعت على محبوبك من المحاسن والخصال التي ميزته بها من الناس جميعاً . وكذلك تتصل نفسك به اتصالاً قوياً متيناً غير مقطوع ، وإذا أنت حريص أشد الحرص على استبقاء هذا الاتصال والترديد منه في كل لحظة ما وجدت إلى ذلك ميلاً . وإذا بلغت هذا الحرص فليس لك بدٌّ من أن ترقى إلى الدرجة السادسة ، فالحرص مصدر الخوف والشك . ومتى انتهيت من الحرص إلى غايته فلا بد لك من أن تشك في أنك موفق أو غير موفق . وأنت في هذه الدرجة السادسة تسأل نفسك بين لحظة ولحظة ، أيجد حبك صدى في نفس محبوبك أم لا يجد ؟ ثم أنت لا تكتفي بهذا السؤال ، ولا تطمئن إلى هذا الشك . ومتى اطمأن الإنسان إلى الشك ! إنما أنت مضطر إلى أن تلتمس الدليل القاطع على أنك لم تخطئ فيما قدرت ولم تتحقق فيما طلبت وعلى أن محبوبك يقارضك حباً

في الحب

يحب ويبادلک هیاماً بهیام . وأنت كذلك تسأل نفسك ثم تجيب نفسك ثم تشک فی الجواب فتستأنف السؤال . فإذا طال عليك هذا الأمر وظفرت بالإشارة الدالة أو اللوحة المطبوعة أو الآیة المقنعة فأنت راق علی رضحك إلى الدرجة السابعة وهي التبلور الثاني كما یسمیها ستندال .

فأنت قانع بأنك محبوب ، وأنت تزين لنفسك هذا الحب الذي تجده والذي تطمئن إلى أن له صدى فی نفس من تحب ، تخلع علی هذا الحب من صفات القوة والسعة والعمق والجمال ما شئت وما لم تشأ . ثم یصبح هذا الحب حیاتك التي تملك عليك كل شيء ، وتصرفك عن كل شيء وتأخذ عليك طريقك . وقد انتهیت الآن إلى قمة الحب ، فلم یبق إلا أن یتصل نعيمك به أو شقاؤك ، بما یمكن أن یعرض له من الضعف والفتور .

كذلك یعرض ستندال مقدمات الحب ونشأته ونموه وبلوغه إلى أقصى غایاته . ثم هو یعود إلى هذه الدرجات بعد ذلك فیدرسها درساً مفصلاً عمیقاً یضرب له الأمثال ویستدل علیه بالوقائع . فهو كما ترى بعید كل البعد عما بعد الطبيعة ، قریب كل القرب من الطبيعة نفسها ، لا یلتمس للحب حدّاً ولا رسماً ولا تعریفاً ، وإنما یميز أظهر أنواعه ثم یتبعه منذ تهيأ النفس له إلى أن تفتی النفس فيه . وواضح جداً أن ستندال حين یسلك هذه الطريق إنما یذهب مذهب العلماء المعاصرين له الذين تأثروا بنشأة العلوم التجريبية وتطورها ، فاعتمدوا علی الملاحظة المباشرة أكثر مما اعتمدوا علی أي شيء آخر .

وقد همّ ابن حزم أن یسلك هذه الطريق نفسها ، بل هو لم یسلك إلا هذه الطريق ، طریق الملاحظة المباشرة ؛ فهو لا یخترع أحاديثه عن الحب اختراعاً ولا یتكرها ابتكاراً ولا یخلقها من عند نفسه ، وهو لا یکاد یلم بالفلسفة إلا حين یحاول تعریف الحب . وهو لا یقرر أصلاً من الأصول ولا فرعاً من الفروع إلا مستمداً له مما رأى بنفسه أو مما وجد فی نفسه أو مما سمع من الذين لا یعرض الشك له فیما یلقون إلیه من الأحاديث . فابن حزم معتمد علی الملاحظة المباشرة كما یعتمد علیها ستندال ، ولكن ابن حزم لا ینتفع من ملاحظته المباشرة كما ینتفع بها ستندال . فبین الرجلین دهر طویل تطوّر فیهِ العقل الإنسانی وتطورت فیهِ مذاهب البحث ومناهجه ووسائل الملاحظة وأدواتها تطوراً عظیماً بعید المدى . فملاحظة ابن حزم دقيقة كملاحظات ستندال ، ولكنها قریبة لا تتعمق ولا تكاد

تتجاوز نفسها إلا قليلاً ؛ لأن ابن حزم لم يظفر من أدوات البحث والاستقصاء والتعمق بمثل ما ظفر به الكاتب الفرنسي الحديث .

وبين الرجلين فرق آخر ، وهو أن ابن حزم على شذوذه الذي لفت إليه المعاصرين جميعاً في الشرق والغرب ، بل لفت إليه الذين جاءوا بعده بوقت طويل ، لم يستطع أن يخلص من العادة المألوفة في التفكير والاستنباط ؛ فهو قد فكر كما كان الناس يفكرون من حوله بل كما فكر الناس من قبله ومن بعده ، واستنبط كما كانوا يستنبطون ، لم يستطع أن يتجاوز ذلك ؛ لأن وقت تجاوزه لم يكن قد آن ، ولأن وسائل هذا التجاوز لم تكن قد استكشفت بعد .

وقد يكون من الغريب أن ابن حزم قد صرح أكثر مما صرح سقندال . فسقندال يزعم صادقاً أو غير صادق — ومن المحقق أنه غير صادق — أنه لم يتخذ نفسه موضوعاً للملاحظة في أي فصل من فصول كتابه ؛ فهو لم يتحدث عن نفسه ولا عن عواطفه وشعوره بحال من الأحوال . أما ابن حزم فيحدثنا عن نفسه في صرامة رائعة حقاً ، ولعل أحاديثه عن نفسه هي خير ما اشتمل عليه الكتاب . وليس عليه من ذلك بأس ؛ لأنه يحدثنا صادقاً من غير شك أنه لم يقترب في الحب إثمًا ولم يورطه الحب في خطيئة كبيرة من الكبائر .

وهو من أجل ذلك يحدثنا عن نفسه في صراحة وإسماح ، ويقص علينا من أنبائه ما يثير في نفوسنا كثيراً جداً من الرفق به والثناء له والعطف عليه . فنحن نشهد في دار أبيه الوزير وقد تعلقت نفسه بجارية من جوارى الدار رائعة الحسن ، بارعة الجمال ، قوية النفس ، صادقة العزم ، حازمة الجدة ، لا تحب العيب ولا تميل إلى الدعابة ، وإنما تغرق في الجدة إغراقاً يكاد يدفعها إلى العبوس . وقد اجتمع أهل الدار في يوم من الأيام التي يجتمعون فيها لبعض الأمر ، وقد أُلِّمَ بهم ضيف فطعموا ونعموا ، وأشرفوا من بعض أطناف الدار على البستان ينظرون إليه ثم إلى النهر ، ثم يمدون أبصارهم إلى أبعد من البستان وأبعد من النهر ، فيرون من قرطبة وضواحيها منظرًا عجيباً . وقد وقعت هذه الجارية عند باب من أبواب الطنف تشرف منه على هذا المنظر الرائع الجميل ، وابن حزم يحتال متنقلاً ليدنو منها ويقف من مكانها غير بعيد ، ولكنها لا تجس احتياله ولا تلاحظ قربه حتى تنأى وتنتقل إلى باب آخر . وابن حزم يتبعها رفيقاً دائماً محتالاً دائماً متهاكاً دائماً ، وهي تبعد كل ما قرب وتنأى كل ما دنا . ثم يقترح مقترح أن تهبط الجماعة

إلى البستان وتجلس على عشب الأخضر بين ما يزينه من شجر وزهر فهبط القوم، ويحاول ابن حزم أن يدنو فتناهى صاحبه. ثم يقترح مقترحاً على الجارية أن تغني، وكانت بارعة في العزف متفوقة في الغناء، فتضرب وتغني، ويكون هذا كل ما استطاع ابن حزم أن يظفر به من هذه الجارية. ثم تمضي الأيام وتحدث الأحداث وتلم الخطوب ويبعد العهد، ويعود ابن حزم بعد أعوام إلى وطنه في قرطبة فيرى هذه الجارية وقد ابتدلتها حوادث الدهر واضطرتها الخطوب إلى أن تتكلف ما لا يتكلف أمثالها من المترفات، وإذا الزهر قد ذوى وإذا الحسن قد فاض، وإذا الضر قد بدا أو كاد يبدو. ونحن نرى ابن حزم يصور نفسه لنا وقد شغفت فتاة قلبه كما لم تشغفه فتاة قط، وقد اتصل الحب بينه وبينها ثم اختطفها منه الموت. فانظر إلى الجزع الذي ليس بعده جزع، والوجد الذي ليس بعده وجد، والعذاب الذي لا يشبهه عذاب، وإذا هو يقضي أياماً لا يضع نياحه ولا ينعم بطعام أو شراب، وإذا هو يذكر حبيبته مستيقظاً ويحلم بها نائماً، ويقول في حبه لها الشعر أثناء اليقظة وأثناء النوم. وإذا الأيام تمضي حتى تصبح أعواماً وأعواماً، والسن تتقدم بالفتى قليلاً قليلاً حتى يصبح كهلاً ثم يصير إلى الشيخوخة، وحبه لتلك الفتاة ما زال شاباً في قلبه لم يؤثر فيه من الزمن ولم يستطع السلوان أن يرقى إليه.

فابن حزم إذن يعتمد على الملاحظة المباشرة الحرة الصريحة يلاحظ نفسه وخطأه ويلاحظ الناس من حوله، ولكنه على هذا كله مقيد مقصوص الجناح، لا يكاد يتعمق ولا يكاد يرتفع؛ لأنه يفكر كما كان يفكر الناس في عصره؛ فأسبابه إلى التعمق والاستقصاء قصار لا تتجاوز به القواعد السطحية أو التي توشك أن تكون سطحية.

وقد رتب ابن حزم كتابه ترتيباً منطقيًا مقارباً، ولكنه كره أن ينفذ كتابه على النحو المنطقي الذي رتب به قبل أن يبدأ في إنشائه، وآثر أن يخالف بين الخطة المرسومة وتنفيذ هذه الخطة فوضع فصول كتابه حيث اقتضت مناسباتها أن توضع لاحقاً حيث اقتضى الترتيب المنطقي أن تكون وهذا أيضاً دليل على أن ابن حزم قد حاول أن يتخفف من أثقال عصره ويتحرر من قيود التفكير التي كانت تمنع معاصريه من الحركة الحرة كما نفهمها نحن الآن، ولكنه لم يبالغ بما أراد إلا أقله وأيسره. ودليل آخر على أن ابن حزم أراد أن يتحرر من هذه القيود فذهب إلى أبعد

مما ذهب إليه ستندال ولكنه مع ذلك لم يبلغ ما أراد ، وهو أن ابن حزم كره أن يرجع بحديث الحب إلى ما امتلأت به كتب الأدب من أخبار العشاق والمحبين ، فلم يحفل بكل ما كان من حديث الأعراب ومن غزل الغزلين في نجد والحجاز ومن تكلف الشعراء بعد ذلك لما تكلفوا من فنون الحب ، وأبى إلا أن يقصر ملاحظته على نفسه وعلى ما رأى وما سمع من معاصريه . على حين لم يكتف ستندال بما رأى وما سمع ، وإنما اعتمد على ما قرأ أيضاً ، وعلى ما قرأ من أخبار القدماء في جنوب فرنسا نفسها وفي أسبانيا المسيحية والمسلمة ، بل على ما قرأ من كتب الغرب أنفسهم ؛ فهو قد عرف كتاب الأغاني ونقل عنه أطرافاً من أخبار الغزلين ومن أخبار جميل وبثينة بنوع خاص . والغريب أننا نَعْجَبُ بابن حزم لأنه أعرض عما كان يعرف من أمر القدماء وأبى أن يعتمد على غير الملاحظة المباشرة . ونعجب في الوقت نفسه بستندال لأنه طلب ما لم يكن يعرف من حب القدماء ، فاستقصى حب الغزلين في جنوب فرنسا وتأثرهم في هذا الحب بحضور المسلمين في الأندلس . ثم مضى يستقصى أصل هذا الحب الأسباني حتى انتهى به «الأغاني» إلى صدر الإسلام ثم إلى العصر الجاهلي . وقد أخطأ فيما فهم من ذلك وأصاب ، ولكنه حاول ما لم يتعود أمثاله أن يحاولوه ؛ فنحن نعجب به من هذه الناحية ، كما نعجب بابن حزم لأنه ترك ما لم يتعود أمثاله أن يتركوه .

كلا الرجلين قصد إلى إجادة الدرس وإتقان البحث وتعمق الاستقصاء . ولكن أحدهما وفق لما لم يوفق له الآخر لأنه ملك من الوسائل والأدوات وأسباب العلم والثقافة ما لم يتح لصاحبه .

على أن هناك نواحي امتاز بها ستندال ولم تنظر لابن حزم على بال . فكلما الرجلين قد حاول درس النفس الإنسانية من بعض نواحيها . وكلا الرجلين قد اتخذ هذا الدرس وسيلة إلى نقد الحياة الاجتماعية المحيطة به . وكلا الرجلين قد أعطانا صورة دقيقة أو مقارنة لهذه الحياة . ولكن ابن حزم وقف عند هذا الحد ، فأما ستندال فتجاوز النقد إلى الاقتراح . فستندال ينقد الحياة الفرنسية نقداً مرّاً لا يكتفي بذلك بل يعرض لتربية الفتاة فيستخلص عيوبها ويرد إلى العيوب كثيراً من آفات الحب عند الفرنسيين بل عند الأوربيين . ثم هو لا يكتفي بذلك بل يقترح مذهباً جديداً في تربية الفتاة لتستطيع أن تحب حباً صحيحاً صالحاً نقياً ، وتلهم الفتى حباً صحيحاً صالحاً نقياً . ثم هو يتجاوز ذلك إلى

الزواج ، فينقد نظامه ، ويقترح ألواناً من الإصلاح تقرب المسافة بين الحب والزواج تقريباً بعيداً . وكل هذه أمور لم تخطر لابن حزم ؛ لأنه كما قلت كان مثقلاً بقيود عصره مقصوص الجناح لم يستطع أن يتعمق ولا أن يرتفع . وفي كتاب ستندال لون آخر من ألوان البحث لم يخطر لابن حزم ولم يكن يمكن أن يخطر له . فستندال يبحث عن الصلة بين الحب وبين طبائع الشعوب من جهة ، وبين الحب ونظام الحكم من جهة أخرى . وهذا اللون من بحث ستندال ممتع حقاً ، ولا سيما حين يعرض لبعض خصائص الشعوب والحكومات . فالحب مقيد بارد شديد الكسل والفتور في بلاد الإنجليز ؛ لأن طبيعة الإقليم وطبيعة الشعب وطبيعة الحكومة الأرستقراطية ، كل ذلك يقتضي أن يكون الحب الإنجليزى خجلاً مستخدياً لا يظهر إلا على استحياء . والحب في إيطاليا جامع مندفع لا يثبت أمامه شيء ، وهو لا يستخفى ولا يتردد ولا يستخذي ولا يخجل ، وإنما يظهر صريحاً حرّاً كما تظهر الشمس ؛ لأن طبيعة الإقليم الإيطالي والشعب الإيطالي وتفرق السلطان في إيطاليا لعهد ستندال ، كل ذلك يقتضي أن يكون الحب الإيطالي جريئاً عنيفاً مقداماً . والحب في فرنسا مغرور منافق لا يكاد يثبت ولا يستقر ؛ لأن طبيعة الشعب الفرنسي والإقليم الفرنسي ونظم الحكم في فرنسا بعد انهيار الإمبراطورية ، كل ذلك يقتضي أن يكون الحب الفرنسي مرئياً ثنائياً لا يقول شيئاً ولا يصور شيئاً . فأين نحن من ابن حزم الذي لم يتجاوز بالحب وطنه الأندلسي ! وقد خطر له مرة أو مرتين أن يعبر بالحب مضيق جبل طارق ففعل ، ولكنه تحدث إلينا عن أندلسي باع جارية له كان يحبها لبعض البربر ثم تبعها نفسه ، ولم يستطع السلو عنها ، ولم يرد البربري أن يعفيه من البيع ، فرفع أمره إلى السلطان في قصة طريفة مؤثرة .

وقد مضى ابن حزم بالحب إلى الشرق فأبعد حتى انتهى إلى بغداد ، ولكنه يحدثنا عن عالم أندلسي انتهى إلى حارة لا تنفذ ، ورأى في هذه الحارة جارية دلته على أن الحارة غير نافذة ، وكانت الجارية سافرة فراعها حسنها وشغفه حبها ، وخاف على نفسه ودينه الفتنة فسافر إلى البصرة ومات فيها شهيداً لهذا الحب . فكان ابن حزم لم يرد أن يعرض في كتابه لغير الحب الأندلسي ، درسه في موطنه ، ثم تبعه أحياناً إلى مهاجرة في إفريقية أو في بغداد .

على أن هناك مسألة هي فيما أعتقد أجل خطراً من كل ما عرضت له في هذا

الحديث إلى الآن . لماذا ألف ابن حزم كتابه طوق الحمامة ؟ ولماذا ألف ستندال كتابه في الحب ؟

أما أيسر الجواب على هذه المسألة فهو أن صديقا لابن حزم طلب إليه أن يضع له هذه الرسالة ففعل ، وأن ستندال أنفق حياته كلها متتبعا للحب على اختلاف صورته وأشكاله ومواطنه فألف فيه كتابا . ولكن هذا لا يقنعني ، ويخيل إلي أن هناك جوابا آخر قد يكون أجل من هذا خطراً وأبعد منه أثراً . فكتاب ابن حزم وكتاب ستندال لم يقصد بهما إلى الحب في نفسه ، وإنما قصد بهما إلى الفن ، إلى فن تصوير الحب والتعبير عنه . فقد ألف ابن حزم كتابه في البلاغة إذن ، وقصد به إلى أن يعلم الشعراء والكتاب والشعراء خاصة كيف يتصورون الحب وكيف يصورونه وكيف يصفونه في الشعر والنثر . وآية ذلك هذه النماذج الشعرية التي يثنها في كل فصل من فصول الكتاب ، وهي نماذج ينشئها هو ولا ينقلها عن غيره . وأكبر الظن أنه صنع كثيراً من هذه النماذج خاصة لهذا الكتاب . وأما ستندال فقد ألف كتابا في النقد وفن الجمال ، أراد به إلى أن يشرح أولاً مذاهبه فيما عرض من أمر الحب في قصصه المختلفة ، وأراد به بعد ذلك أن يعلم القصاص كيف يتصورون الحب وكيف يصورونه وكيف يعرضونه فيما ينشئونه من القصص الطوال والقصص . وآية ذلك هذه النماذج القصصية التي أضافها إلى كتابه بعد أن عرض نظرياته في الحب .

فنحن إذن أمام كتابين من كتب العلم لم يقصد بهما صاحباهما إلى العبث ولا إلى اللهو ولا إلى مجرد التجربة ، وإنما قصدا بهما إلى التعليم قبل كل شيء . وقد أعجب القدماء بكتاب ابن حزم ولكنهم لم ينظروا إليه إلا على أنه أثر أدبي ، على أنه غاية في نفسه لا وسيلة إلى فن الشعر . ولم يعجب المعاصرون لستندال بكتابيه في الحب حين نشره في أوائل القرن الماضي ، فقد بيع من طبعته الأولى في عشر سنين بضع عشرة نسخة ، فلما مضى على نشره عشرون عاما أنبأ ستندال نفسه بأنه لا يظن أن الذين ذاقوه وفهموه قد بلغوا المائة . أما الآن فقد تقدمت دراسات الحب من نواحيه المختلفة تقدما هائلا ، حتى أصبح كتاب ابن حزم وكتاب ستندال كتابين لهما خطرهما في التاريخ الأدبي ليس غير ، ولكنه خطر غير قليل .

في أفق السياسة العالمية

مشكلة إيران

لودري « زرادشت Zoroaster » الذي ظهر في إيران قبل المسيح بألف عام تقريباً وبشر الناس برسالة النور والحق ، أن النار المقدسة التي اتخذها رمزاً لعبادته ستتفجر يوماً من سفوح الجبال وبطون الأرض عيوناً سائلة فيها نور ودفء ولها بأس شديد ، وأن القوة الغاشمة ستفيد يوماً من هذه العيون المتفجرة فتعرض بلاده وأهلها للقمع والعدوان . — لودري « زرادشت » ذلك لآثر أن يحف هذا السائل وأن تفيض تلك العيون في قاع الأرض مستغفراً لأهله من خطيئتهم في حق الآلهة على أن تذهب بلاده فريسة لآلهة النار والحديد في هذا القرن العشرين !

وأول ما أنسل الناس إلى إيران في هذا العصر الحديث لاستخراج زيت البترول كان في بدء القرن العشرين حين حصل أحد رجال المال الانجليز من الحكومة الفارسية على امتياز استخراجيه لمدة ستين عاماً من مايو سنة ١٩٠١ ، وظل الرجل سبع سنين يحفر وينبش وينقب عن السائل النفيس ولكن بدون جدوى . وأخيراً في سنة ١٩٠٨ عندما صدرت الأوامر فعلاً بوقف العمل وصل رجاله إلى نبع لا ينضب معينه عند « مسجدى سليمان » في الجنوب الغربي من إيران . فتشجع الرجل وعاوده نشاطه ، وأخذت حقول البترول تتسع قليلاً قليلاً ، والآبار تكثر شيئاً بعد شيء والإنتاج يتضاعف رويداً رويداً ، حتى بلغ مبلغاً كبيراً ، وتكونت لاستنباطه الشركة الانجليزية الفارسية .

ولما رأت البحرية الانجليزية ان مصلحة الأسطول تقضى باستعمال البترول في تسيير سفنه بدلاً من الفحم ، وكانت موارد الإمبراطورية البريطانية وعملاتها تقصر عن إمداد الأسطول العظيم بكل حاجته من الوقود الأبيض ، عملت

الحكومة الانجليزية على ضمان مورد البترول من إيران فاشترت في سنة ١٩١٤ معظم أسهم تلك الشركة ؛ وبذلك تحول الامتياز من الفرد إلى الشركة ومنها إلى الحكومة ، وأصبحت إنجلترا منذ ذلك الوقت تعتمد على إيران في تزويد أسطولها بما يناهز ٢٠ ٪ من البترول الذي يلزمه .

وقد تكون مثل هذه الكشوف المعدنية في البلاد التي تعثر بحكوماتها وشعوبها مصدر ثروة وقوة لا يستهان بهما ، على أنها في بلاد كأيران تعاقب عليها ملوك وحكومات ضعيفة حقبة طويلة من الزمن ، لا تلبث هذه الكشوف أن تكون للأقوياء كالقصاص للجباة يتهافتون عليها ويتسابقون إلى اقتناصها



ويتشابكون، ولكنهم في النهاية يأكلون إلى حد التخممة، وصاحب القصعة جائع قائم على خدمتهم، لا يملك من أمره فتيلًا. وكذلك كان في إيران؛ فقد اقتضى كشف الزيت أن تقام معامل لتصفيته وتكريره، وأن توضع أنابيب وسكك حديدية وتمهد طرق وتنشأ مركبات لنقله، وأن تكون للشركة أوبالخرى للحكومة صاحبة الامتياز مراكز للرقابة والحراسة، لا في أماكن الآبار وحدها بل على طول الطرق والسواحل التي يمر فيها موكب البترول إلى الخليج الفارسي. ومن ثم نشأت للحكومة الإنجليزية هناك مصالح حيوية جعلتها تمد أخطبوطها الاستعماري إلى جزره وسواحله وموانئه لتجعل منه بحيرة إنجليزية.

وكانت روسيا وحدها في أول الأمر تنو بصرها نحو إيران جارتها الهزيلة المتخاذلة تريد أن تقص من أطرافها ما يتأخم إمبراطوريتها الواسعة التي أنشأتها في وسط آسيا وغربها في أثناء القرن التاسع عشر. ولكن هزيمتها المنكرة أمام اليابان سنة ١٩٠٥ جعلتها تتراجع مؤقتاً وتعقد مع إنجلترا اتفاق سنة ١٩٠٧، وبمقتضاه بدأ الجانبان بأن أكدا احترامهما لاستقلال إيران وسلامة كيانهما، ثم تنسبا بتقسيمها إلى منطقتي نفوذ: الشمالية منها لروسيا والجنوبية لإنجلترا، وترك مابين المنطقتين أرضاً حراماً محايدة تآمن بها إنجلترا خطر التصادم الروسي. وقد فسر كلا الطرفين أن احترام الاستقلال لا يتنافى البتة مع السيطرة وتثبيت النفوذ الاقتصادي والسياسي بجميع الوسائل مادامت جيوش الدولتين لا تحتل المنطقتين. ومع أن إيران كانت في ذلك الوقت قد استيقظت من سباتها وقامت بحركة دستورية أرغمت فيها الشاه على إعلان الدستور ودعوة المجلس الوطني إلى الاجتماع لإصلاح المفاسد التي شملت جميع مرافق البلاد، فإن عقد المعاهدة الروسية الإنجليزية، وما تلاه من تقسيم البلاد إلى مناطق نفوذ تجارية أو سياسية، قد خيب أمل الإيرانيين وجعلهم يمتقنون الروس والانجليز جميعاً، ويتربصون بهم الدوائر حتى إذا بدأ المصلحون يضطلعون بأعمال الحكومة ويباشرون إصلاح الحالة، أهملوا رجال الحكومتين ولجأوا إلى الحكومات المحايدة يستعينون برجالها في وضع أسس الإصلاح، فجعلت كل حكومة من هذه الحكومات تقطع لنفسها ناحية من نواحي الإصلاح، فكان من نصيب الولايات المتحدة إصلاح مالية البلاد، وجاء البلجيكيون ينظمون الجمارك، وتولى رجال السويد إنشاء هيئة قوية للشرطة وحراسة الأمن، واستخدم الطليان في تدريب الجيش، وإنشاء

الطرق . ولما كان الأمريكيون في مقدمة هذه البعثات أهمية إذ كانوا يشرفون على مالية البلاد أوجست روسيا خيفة من وراء الإصلاحات ، فأرسلت إنذاراً نهائياً إلى حكومة إيران تطالبها بطرد بعثة الولايات المتحدة ، وإلا زحفت بجيشها نحو طهران . فعز على الوطنيين الإيرانيين أن يذعنوا لإنذار روسيا ، ووقفوا في وجهها . ولو أن بريطانيا آذرت جانب الوطنيين ونصرت قضية الأحرار ضد استبداد الحكومة القيصرية ، لازدهرت حركة الإصلاح في البلاد وباءت روسيا بالإخفاق والخذلان . ولكن روسيا وبريطانيا كاتتا متحالفتين فلم تصنع بريطانيا شيئاً ، وزحفت روسيا فاحتلت جيوشها قزوین ومنها هددت طهران . وعندئذ سقطت حكومة الثوار وتولت الأمر حكومة رجعية ما لبثت أن حلت المجلس الوطني ، وأبعدت المستشار الأمريكي وأعوانه ؛ وبذلك صالحت الروس ، وعادت الحال في إيران سيرتها الأولى إلى نهاية الحرب العالمية الأولى .

ولما انتهت الحرب كانت الثورة الروسية قد اندلعت ، واستنكر الثوار المعاهدات التي عقدها الحكومة القيصرية مع الحلفاء ، فبطل العمل ضمناً بالمعاهدة الإنجليزية الروسية بشأن إيران . وكانت ألمانيا قد خرجت أيضاً من الميدان مدحورة ، فأصبحت إنجلترا وحدها أمام المسألة الإيرانية ولا منافس لها ، فحيل إليها أنها تستطيع تسوية علاقاتها معها على الوجه الذي يرضى مطامعها ، فعقدت معها في سنة ١٩١٩ معاهدة جديدة أكدت فيها النعمة التقليدية التي اعتادت الدول أن تفتتح بها معاهداتها مع الدول الضعيفة ، كتركيا في ذلك الوقت وكإيران ، فاستهلتها باحترام استقلال إيران ، وحفظ كيانها ، ثم نصت على شروط جعلت من إيران في حقيقة الأمر دولة تحت حماية بريطانيا في الوقت الذي كانوا فيه قد قيدوا اسم فارس في سجلات عصبة الأمم كدولة مؤسسة . وفان بريطانيا بعد الحرب العالمية الأولى أن روحاً جديدة قد بدأت تسرى في إيران على أثر إعلان مبادئ ولسون وقيام الثورة البلشفية على حدودها ، وأن هذه الروح تتطلب سياسة جديدة تخالف السياسة الاستعمارية العتيقة التي اتبعتها بعد الحرب لتثبيت أقدامها بالقروض المالية وبتعيين مستشاريها وموظفيها وضباطها في الجيش والمالية وسائر مصالح الدولة . وكما باءت سياسة إنجلترا بالخسران في مصر والهند وإيرلندة بعد الحرب العالمية الأولى كذلك أصابها

الإخفاق في إيران . فما هي إلا فترة قصيرة حتى قامت وزارة جديدة في إيران استندت إلى حكومة الثوار في روسيا فضربت بالمعاهدة الإنجليزية عرض الحائط ، وبدأت صفحة جديدة في حياة البلاد .

وكان البلاشفة في أول أمرهم حراساً على كسب عطف جيرانهم من الأتراك والأفغان والإيرانيين ليعوضوا بصداقاتهم ما فقدوه من ناحية أوروبا بعد أن قطع الحلفاء كل صلة بهم . ولذلك لم يكن غريباً أن تسخو روسيا مع الإيرانيين فتتزل لهم بمقتضى معاهدة سنة ١٩٢١ عن جميع ديونها وعن امتيازاتها وعمما كان لها في منطقة نفوذها من سكك حديدية ومهمات ، كما نزلت طبعاً عن معاهدة سنة ١٩٠٧ مؤيدة عزمها على عدم التدخل في شئون إيران أو المناس بمحقوقها بأي شكل كان . وكانت نتيجة ذلك أن تشجع الإيرانيون فقاموا ضد الإنجليز وأبعدوا ضباطهم ومستشاريهم وموظفيهم معلنين فسخ معاهدة سنة ١٩١٩ وأصبحت روسيا بعد ذلك الحليفة المفضلة لدى الإيرانيين .

وكما أن خاتمة الحرب العالمية الأولى في البلاد المستضعفة قد أنتجت أبطالاً أمثال سعد زغلول وديفاليرو وغاندي ومصطفى كمال — أولئك الذين أضاءوا الطريق أمام شعوبهم فوجدوا كلمتها وقادوها نحو الحرية والتحرر من نير الأجنبي تارة بالسلم وأخرى بالعنف وآناً بالصمت ، كذلك تمخضت الظروف التي تلت تلك الحرب في إيران عن بطل وطني عظيم في شخص الشاه السابق رضا خان بهلوي الذي نهض بمعاونة أحد الزعماء الصحفيين الإيرانيين من ضابط بكتيبة القوزاق الإيرانية إلى وزير للحربية في سنة ١٩٢١ ثم إلى رئيس الوزارة في سنة ١٩٢٣

وكان هذا الوزير الجديد من القوة والصرامة وسمو الروح الوطنية بدرجة جعلته معبود الشعب والدكتاتور المتسلط على شئونه في آن واحد ؛ لذلك خشى مناوئوه الإقامة في إيران ، فمنهم من رحل إلى العراق كصديقه الزعيم الصحفي ومنهم من فضل الإقامة في أوروبا لينعم بمباهجها كالشاه أحمد . وبذلك خلا الجو لرضا خان ، فبدأ في إيران عهد إصلاح لم تعرف البلاد مثله من قبل أو من بعد . وكان مصطفى كمال رائده في الحكم ومثله الأعلى ، فسار على نهجه في معظم إصلاحاته متجنباً منها ما كان يمس الدين واللغة والشعور القومي . فمن ذلك أنه آثر أن يتوَّج نفسه شاهاً على إيران في سنة ١٩٢٥ بدلا من أن يعلن نفسه رئيساً لجمهورية

يقيمها من جديد وأنه أبقى على الإسلام ديناً للدولة وعلى علماء الإسلام المجتهدين وعلى الكتابة العربية وحروفها ، وسار في إصلاحاته الأخرى بروح العزم . مستلهماً القوة من الشعب والجيش . وكان في مقدمة إصلاحاته النهوض بالجيش ، ونشر لواء الأمن والسلام في أرجاء الدولة ، وإلغاء الامتيازات الأجنبية ، وإنشاء السكك الحديدية والمعاهد والكليات والمصانع .

أما سياسته الخارجية فكان من الطبيعي بعد ما قاسته إيران أخيراً على أيدي بريطانيا أن يطرّد نحو العلاقات بينه وبين اتحاد السوفييت ، فوفد إلى إيران من روسيا عدد كبير من المهندسين والخبراء والصناع والفنيين ، وأخذت العلاقات التجارية تزداد وتقوى بين البلدين ، حتى بلغ نصيب روسيا ٤٠ ٪ من قيمة مجموع التجارة الخارجية لإيران .

وقد تأكدت الصلات السياسية بتجديد المعاهدة في سنة ١٩٢٦ . وكان من أهم ما نصت عليه تعهد روسيا لإيران برد الاعتداء عليها من ناحية أذربيجان وأرمينية ، وفي مقابل ذلك يصرح لروسيا بدخول قواتها البلاد إذا هاجمتها قوات من الجنوب وعجزت إيران عن ردها . وقد توثقت الصلات بين البلدين حتى أن ممثل روسيا في بلاط الشاه كان في رتبة سفير ، وهو امتياز لم تظهر به في إيران سوى تركيا وأفغانستان ومصر .

أما بريطانيا فقد توترت العلاقات بينها وبين إيران منذ البداية ، وظهر الخلاف جلياً في ثلاث مسائل : الأولى تمرد الشيخ خزعل صاحب « المحمرة » على خليج فارس ، وقد أبدل اسمها الآن وأصبح « حزام شهر » . وكان الشيخ معترفاً بصداقة بريطانيا ، فرفض أن يذعن لرضا خان كما أذعنت سائر الولايات التي كانت تتمتع من قبل بقسط وافر من الاستقلال والفوضى في وقت واحد ، فأرسل إليه الشاه قوة أخضعته وحملته أسيراً إلى طهران ، وحاولت الحكومة الإنجليزية فك أسره فلم تفلح .

وأما الحادث الثاني فكان بسبب الشركة الإنجليزية الإيرانية لاستخراج البترول ، وكانت شروط العقد مجحفة بإيران ، فاتهز الشاه فرصة هبوط إيرادات الشركة في سنة ١٩٣٢ على أثر الأزمة المالية العالمية ، وأصدر قراراً بإلغاء شروط الشركة ، فقامت إنجلترا وقعدت وحشدت قطعاً من الأسطول في شكل مظاهرة بحرية في الخليج الفارسي لإرهاب الشاه ؛ ولكنه ثبت في موقفه فاضطرت

الحكومة الانجليزية إلى عرض موضوع النزاع على عصبة الأمم ، فاحتج الشاه بأن موضوع النزاع لا يخص الحكومة الانجليزية ولا مجلس العصبة ؛ إذ أن القضية محصورة بين الحكومة وإحدى الشركات . وأخيراً سوى الموضوع ودياً بعقد اتفاق جديد بشروط سخية لإيران ؛ إذ اشترط ألا يقل نصيبها عن ١٠٥٠٠٠٠٠ جنيه في السنة ، ودفعت الشركة مليون جنيه تسديداً لما عليها . وقد زاد إنتاج الشركة بعد ذلك ، ووصل نصيب الحكومة الإيرانية إلى أكثر من ثلاثة ملايين من الجنيهات ، وبلغ الانتاج قبل الحرب الأخيرة ١٠٠٠٠٠٠٠ طن في العام .

وأما المسألة الثالثة فكانت بشأن « جزيرة البحرين » قرب الساحل الغربي للخليج الفارسي . وقد كانت هذه الجزيرة تابعة لإيران إلى قرب نهاية القرن الثامن عشر حين احتلها العرب . ولما بدت أهمية الخليج وظهر تنافس الدول بعضها مع بعض في سبيل التفوق فيه انحاز شيخ الجزيرة إلى بريطانيا ، فأعلنت حمايتها على الجزيرة إلى الآن . ولكن الحكومة الإيرانية لم تعترف بهذه الحماية ، وأخذ رضا خان يطالب بريطانيا برفع حمايتها ورد الجزيرة إلى إيران . والجزيرة من أهم القواعد البحرية لبريطانيا في هذه المنطقة . وأهل الجزيرة من العرب وبينهم إيرانيون ، ولا يمكن أن تتخلى عنها بريطانيا طوعاً .

وعلى رغم هذه الخلافات بقيت العلاقات بين إيران وبريطانيا مشوبة بروح العطف والتقدير من الجانبين . ودل الإنجليز على صفاء الجو بين الدولتين بإرسال بعثة شرف لتهنئة الشاه بمناسبة الاحتفال بزفاف ولي عهده في مارس سنة ١٩٣٩ .

وقد حرصت حكومة الشاه على أن تقوم علاقاتها مع الدول الشرقية على أقوم الدائم . فقد سوت علاقاتها مع الأفغان ، وأخذت صلاتها مع العراق تتحسن وخاصة بعد أن انتهى الانتداب البريطاني عنها وقبِلت العراق عضواً في عصبة الأمم سنة ١٩٣٢ وقد تأيدت الصداقة بزيارة الملك فيصل لطهران في ذلك العام نفسه . ولما استعصى حل مشكلة « شط العرب » الذي يفصل بين المملكتين عرض الموضوع على مجلس العصبة ، وتم الاتفاق في سنة ١٩٣٧ على أن يكون للشط حراً للسفن التجارية والحربية للدولتين وبقيت « عبادان » - وهي مركز تكرير البترول وشحنه - تابعة لإيران ، ورخص لكل من الدولتين

بأن تصرّح لدولة ثالثة بدخول أسطولها بشرط إخطار الدولة الأخرى .
 أما صلات الشاه بتركيا فكانت على الدوام مشبعة بروح الولاء والصداقة
 وتعاقبت الحكومتان في سنة ١٩٣٤ ، وفي نفس تلك السنة حقق رضا خان
 أمنية طالما تأقت نفسه إليها بزيارة الرئيس أتاتورك في أنقرة . وقد توجهت
 جهود الحكومتين في توثيق الصلات بين دول الشرق الأوسط في سنة ١٩٣٧
 بعقد ميثاق « سعد آباد » قرب طهران بين تركيا وإيران والعراق وأفغانستان .
 وفيه تأكيد لتبادل الصداقة بين المتعاقدين ، ووعد بعدم الاعتداء وبالتشاور
 فيما بينهم في كل ما يهم علاقاتهم الخارجية .

وعلى الرغم من أن الحرب الأخيرة قد وقعت عمل الميثاق كما وقعت ميثاق
 البلقان وغيره من المواثيق والمعاهدات الدولية ، فإن روح التعاون وتبادل
 المودة بين شعوب الشرق الأربعة ، قد أوجد لأول مرة في التاريخ الحديث
 شعوراً بالتضامن السياسي وإحساساً بالنضج والاستقلال عن دول أوروبا الكبرى ،
 وهو شعور لم يكن موجوداً من قبل . وليس من شك في أن ميثاق « سعد آباد »
 هو الذي أوجد النواة التي أنبتت ميثاق جامعة الدول العربية في أثناء هذه
 الحرب ، ولن يمضي وقت طويل حتى يتقارب الميثاقان .

أما مصر فقد جمع بينها وبين إيران رباط المصاهرة بين البيتين المالكيين ،
 وكانت الحفلات التي أقيمت بمناسبة زواج ولي العهد من الأميرة فوزية من
 أبلغ الدلالات على روح الأخوة والمودة التي بدأت تسود بين دول الشرق
 الأوسط وشعوبه .

وأخيراً تأتي ألمانيا ، وقد كان لظهور هتلر ومبادئه صدى بالغ الأثر في إيران ؛
 فقد كانت حكومة الشاه رضا خان جماعية عسكرية في أساسها ومهرماها .
 والإيرانيون يعتقدون أنهم سلالة الجنس الآري الذي نادى به هتلر وفضله على
 جميع الأجناس . وكان هذا مما دعا الشاه في سنة ١٩٣٥ أن يقرر تسمية بلاده باسمها
 القديم « إيران » وأن يخطر الدول بذلك . من هذه الأسباب لم تلبث العلاقات
 بين البلدين أن توثقت ، فأرسلت ألمانيا خبراءها الاقتصاديين والماليين
 والمهندسين ، وأنشأت الحكومة الشاه مصانع للأسلحة والدخيرة والحديد
 وبناء السفن ، وزودت الجامعة في طهران بعدد من الأساتذة والمستشرقين ، كما
 استقبلت في ألمانيا عدداً كبيراً من البعثات العلمية الإيرانية . وأخذت ألمانيا

من الحكومة امتيازاً لخطها الجوي إلى طوكيو ، وملأت السوق بالصحف والمجلات وكتب الدعاية وأشرطة السينما الألمانية .

وفي سنة ١٩٣٧ كانت إيران قد بلغت من المكانة وخطورة الشأن بين الدول مبلغاً دعا إلى اختيارها عضواً غير دائم في مجلس عصبة الأمم ، وقد ترأس ممثلها المجلس في يناير سنة ١٩٣٨ .

وقد أعلنت الحرب العالمية الثانية وإيران تنعم لأول مرة في تاريخها الحديث بحكومة وطنية مصلحة قوية ، وكانت صلاتها على خير ما يرام مع أخواتها من دول الشرق ومع دول الغرب أيضاً ، اللهم إلا فرنسا ، وقد كان سبب النفرة بينهما حادثاً تافهاً حول لفظة « الشاه » باللغة الفرنسية ، وإلا بريطانيا وقد راعها كثرة عدد الألمان في إيران وما أرسلته منذ إعلان الحرب من مدنيين وسيّاح ، استعداداً للعمل ضد الحلفاء عندما تحين الفرصة . ومع ذلك فإن إيران لم تتردد في إعلان حيديتها عندما بدأت الحرب . ولما هاجمت ألمانيا روسيا في صيف عام ١٩٤١ عادت إيران فأكدت حيديتها مرة ثانية . ولكن ألمانيا بدأت تستغل انتصاراتها وتحض إيران على انتهاز الفرصة للتخلص من الدولتين الطامعتين في أراضيها وهما بريطانيا وروسيا ، فتشبث الشاه بالحيدة الدقيقة . وليس أدل على ذلك من أن إيران لم تتحرك عندما أعلن رشيد عالي الكيلاني ثورته العسكرية في مايو سنة ١٩٤١ ضد الحلفاء وتسلم مقاليد الحكم في بغداد .

غير أن روسيا كانت تعاني الأمرين من جراء إغلاق البحر الأبيض المتوسط والمضائق في وجهها ، ولم يكن أمام حلفائها لنجدتها سوى طريق البحر الشمالى المتجمد ، وهو طريق طويل مخوف بالأخطار ، ثم طريق الهند وإيران وهو طريق ممهد ولكن لا سبيل إليه إلا باختراق أرض إيران وموافقة الشاه ، لذلك اشتد الضغط على إيران وجعلت روسيا وهي تقاسى أشد المحن أمام الهجوم الألماني تحض بريطانيا على ضرورة احتلال إيران قبل فوات الفرصة . وقد بدءوا بأن طلبوا إلى الشاه طرد الألمان النازحين إلى إيران ، وعز على الشاه أن تضطره الدول إلى خرق الحيدة التي أعلنها وإغضاب ألمانيا ، فأجاب أنه عازم على إبعاد الأجانب جميعاً من إيران ، وفي هذا إشارة إلى إخراج الإنجليز الذين يعملون في الشركة الإنجليزية الإيرانية للبتروول ، فلم يرق هذا الرد في نظر الحلفاء ، وقرروا

الزحف على إيران . وفي أغسطس سنة ١٩٤١ زحف الروس من الشمال واحتلوا أذربيجان ومقاطعات بحر قزوين ، وزحفت بريطانيا من الجنوب فاحتلت الأقاليم الجنوبية ، ولم يقو الجيش الإيراني على المقاومة أكثر من ثلاثة أيام فسقطت الحكومة وأساء الناس الظن بسياسة الحيدة التي اتبعتها الشاه ، ما دامت قد أدت إلى كارثة الاحتلال . وعلى ذلك تألفت حكومة جديدة موالية للحلفاء ، ونفى الشاه إلى جزيرة « موريشس » شرق جزيرة مدغشقر ، حيث مات في المنفى ودفن في مصر في العام الماضي .

وعلى الرغم مما أكده الحلفاء من أن احتلال البلاد كان لضرورة حربية مؤقتة ستزول بانتهاء الحرب ، وعلى رغم ما جاء في قرارات مؤتمر طهران في نوفمبر سنة ١٩٤٣ خاصاً بإيران من أن الدول الثلاث المؤتمرة : روسيا وبريطانيا والولايات المتحدة متفقة على الاحتفاظ باستقلال إيران وسيادتها وسلامة أراضيها - على الرغم من ذلك كله فإن البلاد منذ احتلها الأجني وغاب عنها سيدها وقائدها والنافخ في روحها قد دبت فيها عقارب التخاذل والقطيعة واضطرب حبل الأمن في النياقي السحيقة التي تفصل المدن والولايات بعضها عن بعض ، ولم تعد الولايات تحس بوطأة الرقابة ودقة الحراسة التي كانت تبديها الحكومة المركزية قبل الاحتلال ، وعلى ذلك بدت عوامل الانحلال التي نلاحظ مقدماتها الآن .

ووجه الخطر في مشكلة إيران أن روسيا تعتبر بلاد إيران وما جاورها داخلة في منطقة نفوذها الكبرى ، وأن ضمان السلام وحسن الجوار في هذه المنطقة يفرض على روسيا واجبات قد لا تكلفها دولياً ، ولكنها تراها ضرورة حيوية ، لتأمين حدودها الممتدة إلى مسافات شاسعة ، ولزيادة الرخاء في ربوع جمهوريات السوفييت الصغيرة المنتشرة وسط آسيا وغربها . وهي لذلك تعمل الآن على أن يكون لها النفوذ الأول لدى حكومات هذه البلاد وشعوبها . وإذا كانت روسيا في بدء ثورتها قد زهدت في ضم هذه المناطق إليها ، لأنها كانت في شغل شاغل عنها ، ولأن الصناعة والحركة العالمية في تلك المناطق لم تكن قد ارتقت بعد بحيث يتيسر تحويل البلاد إلى مبدأ الشيوعية ، فإنها الآن وقد انقضى ربع قرن من الزمن تطورت فيه شئون هذه المناطق تطوراً صناعياً ملحوظاً على أثر كشف آبار البترول وزيادة إنتاجه واصطبغت فيه سياسة روسيا

الخارجية بالصيغة الاستعمارية ، لا ترى مندوحة من بسط نفوذها في هذه المنطقة إما بالضم وإما باحتضان حكوماتها الوطنية .

وعلى هذا الأساس سارت روسيا في سياستها في إيران منذ احتلت جيوشها الأقاليم الشمالية في أغسطس سنة ١٩٤١ ، فقد عملت فيها كأنها باقية أبداً ، فأنشأت حزب الجمهور أو الشعب ، وكان محظوراً ظهور الأحزاب في عهد الشاه السابق . وجعلت روسيا تناصر الحزب الجديد وتعزز جانبه ، حتى استطاع في ولاية أذربيجان (وبها ثلاثة ملايين نفس من خمسة عشر في جميع إيران) أن يقف في وجه حكومة طهران وأن ينشئ فيها حكومة ذاتية لها جمعيتها الوطنية وجيشها ولقتها ويريدها وسائر مصالحها .

وإذا كانت الأنباء تؤكد أن الأذربيجانيين لم يعلنوا انفصالهم تماماً عن حكومة طهران ، فلا شك في أنهم سائرون في هذا الطريق ، وأن نجاحهم سيغري غيرهم في الولايات الأخرى ، وخاصة مناطق الأقليات كالأكراد وما كان منها متاحماً لحدود اتحاد السوفييت مثل قزوين وجيلان وشمال خراسان . ومتى استقلت أذربيجان واتخذت تبريز عاصمة ، فلا يبعد أن تبحث لها عن ميناء على الخليج الفارسي ؛ وحينئذ تبلغ روسيا مطمعها الأزلي في الوصول إلى المياه الدافئة سواء في أوربا عن طريق المضائق والبحر الأبيض المتوسط أو في آسيا بسبيل الخليج الفارسي والمحيط الهندي ؛ ولا مفر حينئذ من تصادم المصالح الروسية والبريطانية .

ولا عبرة البتة بما أكده روسيا من أنها لم تساعد ثوار أذربيجان حريئاً ، فيكفي أنها منعت قوات طهران من قمع الفتنه ، وكانت حجتها أن مهمة روسيا تنحصر في حفظ النظام ، وأنها لو سمحت لقوات طهران بالتدخل لاضطرب النظام وسفكت الدماء . وفي اعتقاد روسيا أن حكومات طهران الرجعية هي من الضعف والفساد بدرجة تجعلها عاجزة تماماً عن إخضاع الثوار . لذلك اشترط الثوار ألا يرسلوا ممثلين أمام المجلس الوطني بطهران إلا إذا أصلحت الحكومة . ومعنى هذا باللغة السوفيتية أن تكون الحكومة على وئام تام مع روسيا واملحقاتها من جمهوريات السوفييت .

والحكومات الضعيفة هي آفة هذا العصر ؛ فهي مدعاة لاضطراب الأمن وزعزعة الثقة في نفوس الشعب ، ومنها تنبت البذرة التي يتعهد لها رسل السوفييت

مشكلة إيران

وأغوانهم حتى تنمو وتتكاثر وتؤتي الثمرة الصالحة للثورة . فلو أن الحلفاء الذين أذلوا حكومة إيران واستباحوا حرمة أرضها بالاحتلال قد كفروا عن ذنبهم في حق الديمقراطية الصحيحة بتشجيع الوطنيين والأخذ بيدهم والسير معهم لتحقيق الإصلاحات التي أقامها الشاه السابق ، لمتاسكت الحكومة والشعب معاً ولا نسدت الثغرة التي ينفذ منها الأجنبي عادة إلى قلب الدولة . ولكن السياسة الدولية — كما قال الرئيس ترومان مرة — هي مجموعة مساومات بين الدول . ونرجو ألا يكون الحلفاء قد قاibusوا على إيران أو جزء منها ؛ فقد ترى روسيا أنها ما دامت تشارك مع الحلفاء وتتفاهم معهم في المسائل الدولية الكبرى التي تهمهم جميعاً فليس هناك معنى لأن يدقق معها الحلفاء في مسائل أقل شأنًا أو يناقشوها الحساب أمام مؤتمرات دولية . قد يتخرج فيها مركز السوفييت أمام العالم . وعلى ذلك يحتمل كثيراً أن تحاول الدول الثلاث الوصول إلى حل سريع لهذه المشكلة قبل أن يحين موعد جلاء الجيوش المحتلة في ٢ مارس المقبل ، وقبل أن تتألف جبهة معارضة لروسيا من الأتراك والإيرانيين وأنصارهم من ممثلي الدول الوسطى والصغرى . وهؤلاء إذا ما صرخوا بشكواهم في وجه روسيا أمام هيئة الأمم المتحدة هزوا أديم الأرض التي تقف عليها روسيا وحلفاؤها وهم يتساومون بشأن مصير الأمم الصغيرة ومصالحها .

محمد رفعت

وحدة وادى النيل

ومقوماتها الجغرافية والتاريخية

كثر الحديث فى هذه الأشهر الأخيرة حول موضوع « وحدة وادى النيل » ، وتناوله الكتاب من نواح مختلفة ، يقع بعضها فى متن السياسة ، وبعضها الآخر على هامشها . ولكن هناك ناحية أخرى لا تتصل بالسياسة اتصالاً مباشراً ، ومع ذلك لا يمكن إغفالها إذا نحن أردنا أن نرجع بموضوع وحدة وادى النيل إلى أسسه ومقوماته الأولى . تلك هى الناحية الجغرافية التى ترد الأشياء إلى أصولها الطبيعية ، والتى قد لا يملك أهل السياسة ورجالها أن يغفلوها إن هم أرادوا أن تأتى سياستهم مرآة صادقة لما تقتضيه الظروف الطبيعية لا سيما فى منطقة ارتبطت فيها حياة الناس وتاريخهم بالبيئة الجغرافية كوادى النيل . ولذلك قد يكون فى استعراض مسألة الوحدة التى نحن بصدددها من وجهة النظر الجغرافية ، وما يتصل بها من جوانب تاريخية ، بعض ما ينفع فى إبراز ما تسند إليه من مقومات .

لعل أول ما يسترعى نظر الجغرافى فى الحدود السياسية التى رسمت بين مصر والسودان بعد إعادة افتتاحه وعقد اتفاقية ١٨٩٩ ، أن تلك الحدود التى تسير فى مجلتها مع خط عرض ٢٢° شمالاً ، فيما عدا منطقة وادى حلفا ، إنما هى حدود غير طبيعية ؛ لأنها تسير مع خط وهمى ، وليس لها ما يسوغها من الناحيتين الطبيعية والبشرية . ولا أدل على ذلك من أن بعض القبائل التى تعيش حول ذلك الخط تشطرها الحدود السياسية ، فيعيش بعض عشائرها ويرعى إبله وأنعامه فى جنوبها ، ويعيش البعض الآخر ويرعى إبله وأنعامه فى شمالها . ولذلك لم يكن بد من إنشاء ما عرف بخط الحدود « الإدارية » ، وهو خط متكسر يتجه قليلاً فى جنوب الحدود السياسية ، ثم ينحرف كثيراً فى شمالها حتى يصل إلى البحر الأحمر ، والغرض منه ضمان توحيد

الإدارة فى أرض القبيلة الواحدة ، إما تحت إشراف حكومة السودان ، وإما ضمن الإدارة المصرية فى الصحراء الشرقية . وقد ترتب على ذلك أن انفردت مصر وانفرد السودان من بين أقطار العالم ، بفصل بينهما فى هذه المنطقة نومان من الحدود أحدهما « سياسى » والآخر « إدارى » . . . وهذه « الثنائية » فى حد ذاتها إن دلت على شىء فعلى أن الحدود القائمة غير طبيعية ؛ بل على أن الطبيعة فى هذا الإقليم لا تيسر الاصطلاح على حدود فاصلة من النوع المعروف ، الذى تتمشى فيه مقتضيات « السيادة » القومية مع ضرورات « الإدارة » المحلية (١) .

ومع ذلك كله فإن هذه الحدود سياسية كانت أو إدارية لا تتمشى مع ما يصح أن نسميه الحدود « الحيوية » . ولعل هذا مصدر الضعف الأول والآخر فى كيان مصر والسودان وشعبهما الذى يريد أن تتحقق له سيادته القومية الموحدة أو المتحدة داخل نطاق من الحدود الجغرافية الآمنة . ولكن أمر الحدود بين مصر والسودان أكثر تعقيداً من ذلك . ولا بد عند النظر فيه من أن نجمع بين المقومات الجغرافية والتاريخية ، وأن نقرنها جميعاً بالظروف البشرية التى تكيف حياة أهل الشمال وأهل الجنوب فى الوقت الحاضر . وليس هذا مجال التفصيل فى كل ذلك ؛ ولكن أقل ما ينبغى أن يذكره الناس فى مصر وفى السودان ، بل فى بريطانيا ، تلك الحقيقة الجغرافية الأولية التى تقول إن أحواض الأنهار إنما مهدتها الطبيعة لتكون وحدات جغرافية ، لا سيما تلك الأجزاء منها التى ترتبط حياة السكان فيها بمياه النهر ارتباطاً مباشراً فى الزراعة وغيرها ، كما هى الحال فى مصر والسودان . والحق

(١) لعل من الطريف أن نلاحظ أن مساحة المنطقة التى سلخت من الإدارة المصرية وأضيفت إلى إدارة حكومة السودان تبلغ أكثر من تسعة أمثال مساحة ما أضيف إلى الإدارة المصرية من أراضي السودان . ومع أن هذا الأمر قد لا يكون ذا خطر كبير أو صغير من وجهة النظر المصرية السودانية ، فإن المصورات والحرائط الجغرافية التى تطبع حديثاً فى بريطانيا ، بل التى تقوم على طبعها حكومة السودان ذاتها ، كثيراً ما تنفل أمر الحدود السياسية ولا تثبت إلا الحدود الإدارية !! ومع ذلك فإن المنطقة التى سلخت من مصر غنية بنباتاتها وهناك احتمال أن تكون غنية أيضاً ببعض المعادن ، فهى تقع قرب البحر الأحمر ويوجد بها جبل علبة وغيره من المرتفعات . فإذا اكتشف بها بعض المعادن كانت مواقعها ومناجها تابعة « للسيادة » المصرية من جهة وخاضعة للإدارة الثنائية من جهة أخرى !! وفى ذلك ما فيه .

أن الإنسان قد استجاب لهذه الوحدة الطبيعية في حوض النيل منذ أقدم العصور، رغم اختلاف مراحل التقدم في الحضارة البشرية بين الشمال والجنوب؛ فانتشرت العناصر وسارت الهجرات على طول الوادى متجهة من الجنوب إلى الشمال، ومن الشمال إلى الجنوب؛ وبذلك اختلط الجنس وامتزجت الدماء، حتى قبل ظهور الأسرات الفرعونية في مصر؛ بل إن الحضارة المصرية ارتبطت بالحضارة الإفريقية السودانية قبل بدء التاريخ. والرأى الأرجح الآن بين علماء الآثار أن الحضارة المصرية الأولى كانت إفريقية النشأة، وأن مصر العليا على الأقل قد تأثرت إذ ذاك بما يليها إلى الجنوب في وادى النيل: وبعد أن استقرت المدنية في مصر عادت بعض عناصرها إلى الارتداد على شكل موجات وهجرات متلاحقة أثرت في السودان الشمالى ثم الجنوبى، حتى بلغت هضبة إفريقية الشرقية. ولا تزال بعض تلك المؤثرات التى انتشرت من مصر في فجر التاريخ باقية ماثلة في نظم المجتمع بين سكان أعالي النيل؛ أولئك الذين يقال عنهم الآن إنهم أهل السودان الجنوبى، وإنهم يجب أن يبقوا في عزلة سياسية عن شمالهم من بقية أهل السودان وأهل مصر؛ مع أن أولئك السودانيين الجنوبيين لم يتصلوا قبل العهد الحديث بأحد من الشعوب الخارجية غير سكان وادى النيل في شمالهم؛ ولم يتأثروا بأية مدنية خارجية غير مدنية مصر، التى لا يبعد أن تكون قد أخذت عنهم، أو عن جوارهم، في بعض عهود ما قبل التاريخ، ثم ردت دينها واتصلت بينها وبينهم التجارة والثقافة في موجات متقطعة خلال عصر التاريخ. فالفصل بين هذا السودان الجنوبى وبين الشمال يعتبر في نظر من يدرسون انتشار الثقافة والمدنية قطعاً له عن العالم الخارجى، وقضاء عليه بالجمود؛ رغم كل ما يقال عن جهود بعض المبشرين في إيفاد قشور من مدنية الغرب، لا يستطيع أهل تلك البلاد النائية استساغتها، فضلاً عن استيعابها. وليس هناك شك في أن خير من يستطيعون أن يكونوا رسل الثقافة والمدن بين هؤلاء الأقوام من زنوج وغيرهم إنما هم سكان وادى النيل القاطنين إلى شمالهم، والذين تشيع بينهم ألوان من الثقافة والمدنية بعضها قديم يستطيع أهل السودان الجنوبى أن يتعرفوا على شيء من معالمه، والبعض الآخر حديث نسبياً، ولكنه على كل حال أدنى إلى ثقافتهم، وأيسر تناولاً بالنسبة إليهم من ثقافة الغرب، التى تفصلها عنهم شقة بعيدة الطول في الزمان وفي المكان.

كل هذا عما يربط السودان الجنوبي بما يليه شمالاً من روابط الثقافة والتاريخ . ولكن لهذه الروابط ناحية أخرى برزت قيمتها في العهد الحديث ؛ فظهرت بوادرها مع النهضة المصرية في عهد محمد علي ومن بعده ، عند ما استشعرت مصر حاجتها الحيوية إلى أن تعرف منابع هذا النهر العظيم الذي تعيش منه وعليه ؛ فأرسلت البعثات تلو البعثات لترتاد أعالي النيل ومديرية خط الاستواء لا سيما في عهد إسماعيل . وبذلك كانت مصر الكاشفة الأولى عن كثير من تلك الأصقاع ، وكان جنودها وعملاتها أول من دخلها وكشف عنها للعالم الخارجي . وقد ترتب لمصر على ذلك كله فضل وحق سجلهما التاريخ واعترف بهما العلماء ، وإن لم يعترف بهما أصحاب السياسة في جميع الأحياء . ولعل آخر ما أتفقت مصر وما زالت تنفق من جهد وبذل في سبيل الكشف عن أعالي النيل ما قامت عليه في السنوات الأخيرة من تصوير جميع منطقة حوض الغزال ، وأطراف الكونغو بالطائرات من الجو ، تمهيداً لإعداد خرائط جغرافية مفصلة لهذه الأقاليم .

والحق أن سعى مصر للتعرف على أعالي النيل والكشف عن مجاهلها ما كان إلا استجابة لما فرضته الطبيعة عليها ، ولما استشعرت من أن هذه الطبيعة التي جعلت من مصر هبة النيل ، قد ربطت حياتها وتقدمها الزراعي في المستقبل بأطراف النهر الجنوبية ، حيث ينتظر أن تنفذ بعض المشروعات لتدبير المياه اللازمة للرى . وكان بعض تلك المشروعات خارج حدود السودان السياسية الحالية في أوغنده من جهة ، وفي الحبشة من جهة أخرى ؛ وبذلك لم يكن لمصر إشراف مباشر عليها . ولكن بعض تلك المشروعات يقع في أراضي السودان ذاتها ، ومنها مشروع قناة بور في أرض حوض بحر الجبل والزراف ؛ وكذلك مشروعات بعض الخزانات في السودان الأوسط والشمالى كما سنرى بعد قليل .

ولكن من المهم هنا أن نجلو نقطة خاصة في الموازنة بين منابع النيل الاستوائية ومنابعه الحبشية ، من حيث قيمتها للمشروعات المصرية . فالحبشة يأتينا منها معظم الماء ، وما يحمل من غرين ومواد عالقة هي أصل التربة المصرية المعروفة وسر خصبها وثروتها ؛ ولكن بلاد الحبشة لا يقع فيها غير مشروع خزان بحيرة تانا ، التي لا تعد النيل الأزرق في الوقت الحاضر إلا بعشر مياهه ، أما بقية مياه ذلك النهر ، وأما مياه العطبرة والسوبات فلا علاقة لها جميعاً بتلك البحيرة ، ولا يجدى في الاستفادة منها غير خزانات وسدود تقام في أرض السودان

أو مصر . وفضلاً عن ذلك فينبغى ألا يغيب عنا أن مياه المنابع الحبشية تفيض كلها دفعة واحدة وفي فصل قصير ، فتصعب الاستفادة منها ، ويذهب معظمها إلى البحر . أما مياه منابع النيل الاستوائية فقليلة من حيث الكمية ، ولكنها مستمرة طوال العام ؛ ولولاها لجف نجرى النيل أو كاد ، خلال ما يقارب نصف العام . والواقع أن الزراعة الصيفية في مصر ، وزراعة القطن بنوع خاص ، تعتمد إلى حد ظاهر على هذه المياه الاستوائية التي لا يمكن أن تغنيها عنها موارد المياه الحبشية ، بل التي مكّنت انتظام جريانها من التوسع الزراعى الصيفى في مصر ، وكذلك من زراعة بعض المحاصيل الصيفية على ضفاف النيل في أجزاء مختلفة على طول النهر بالسودان .

من ذلك كله تتبين أهمية السودان الجنوبي بالنسبة لما يقع في شماله من أراضي وادى النيل ؛ تلك الأهمية الحيوية التي انعكست من قبل فيما بين تلك الأقاليم جميعاً من صلات قديمة ، والتي لم يزلها العصر الحديث ، وما تبعه من نهضة في أسفل وادى النيل إلا توثقاً ووضوحاً .

فإذا ما نحن انتقلنا إلى السودان الأوسط والشمالى وجدنا أنه كان يمثل على الدوام حلقة الاتصال بين أعلى النيل وأدانيه . فكان طريق الاتصال والتوسع الثقافى والسياسى من الشمال إلى الجنوب ؛ بل كان طريق التجارة بين أهل وادى النيل الأسفل وداخلية إفريقية . وقد أسبغ عليه موقعه هذا أهمية خاصة ، فتوسع فيه سكان الشمال ، ووثقوا صلتهم به ؛ واستطاعوا في كثير من الفهود أن يصبغوه بصبغة بشرية خاصة ، جعلته أقرب ما يكون إلى أرض وادى النيل الأدنى في الشمال . وقد جاء وقت استطاع فيه المصريون القدماء أن يستقروا في بعض ربوعه الشمالية ، لاسيما إقليم دنقلا ، حيث عنى فراعنة الدولة الوسطى بقياس فيضان النيل ، وسجلوا ذلك جنوب صخور الشلال الثانى ، وحيث ظهرت مدنية متأثرة إلى أبعد الحدود بالمدنية المصرية في منطقة نباتا القديمة في جنوب دنقلا . بل إنه جاء وقت استطاع فيه أمراء دنقلا هؤلاء أن يجمعوا من القوة ما مكّن لهم من التوسع بدورهم نحو الشمال ، وفتح وادى النيل الأدنى ، وأرض مصر على يد بعنخى في القرن الثامن قبل الميلاد ؛ ثم انتهى بهم الأمر إلى تكوين الأسرة الخامسة والعشرين ، التي حكمت أوجه النيل البحرى والقبلى والغربى جميعاً خلال خمسين عاماً . ولعل في هذا التاريخ القديم ما يذكرنا بمن

أبناء وادى النيل الأدنى بأن الصلة السياسية والعسكرية بيننا وبين السودان لم تتم دواماً وبالضرورة على أساس الغلبة من جانب مصر ! وهى ذكرى ينبغى أن تمثلها واضحة جلية إذا نحن أردنا أن تقوم العلاقة بيننا وبين الجنوب على أساس من المساواة التامة بين شطرى وادى النيل .

وفى أواخر العهد الفرعونى انتقل مركز القوة والحضارة فى السودان نحو الجنوب إلى منطقة مروي القديمة بين الشلالين الخامس والسادس ، حيث استمرت الحضارة المحلية حتى جاءت المسيحية ، فانتشرت من مصر أيضاً إلى هذا الإقليم ؛ واستمرت مزدهرة أو قائمة هناك حتى القرن الخامس عشر ، فلم يحل الإسلام محلها إلا بالتدريج . كذلك انتشرت المسيحية من مصر إلى إقليم آخر من أقاليم حوض النيل ، هو هضبة الحبشة . ومع أن انتشارها هناك جاء من طريق البحر الأحمر ، فقد احتفظت المسيحية الحبشية بصلاتها الوثيقة بالكنيسة القبطية عن طريق السودان البرى وطريق البحر الأحمر على السواء . وفى العهد العربى بدأت القبائل تنتشر من شبه جزيرة العرب إلى صحارى مصر وجوار وادى النيل ، ثم تسربت مع هذا الوادى بالتدريج نحو السودان ؛ لا سيما فى القرن الثانى عشر وما تلاه من قرون ؛ حتى استقر كثير من العرب واختلطوا بالسكان الأصليين فى السودان الشمالى والأوسط ؛ ووصلوا إلى بلاد الفونج فى جنوب الجزيرة ، وإلى بلاد كردفان ودارفور وبحر العرب فى الجنوب الغربى . ومن الطريف حقاً أن نلاحظ هنا أن العرب عند ما انتشروا من جزيرتهم ونقلوا الإسلام إلى ربوع السودان لم يعبروا البحر الأحمر مباشرة إلى شواطئه الغربية إلا بأعداد ضئيلة جداً ؛ وإنما هم قد داروا مع اليابس حول ذلك البحر ، فدخلوا شبه جزيرة سيناء ، ثم أطراف الدلتا ، ثم اتجهوا مع النيل صوب الجنوب . وبذلك كانت مصر حلقة الاتصال ، وطريق انتشار العرب وتوغلهم الجنسى والثقافى فى السودان . وهذا فى حد ذاته مما يبرز من قيمة الوحدة الطبيعية فى وادى النيل ، ويضفى على هذه الوحدة الطبيعية بعض ما يذكىها فى نظر الجغرافى والمؤرخ على السواء .

والواقع أن البشرية العامة ، والوحدة الثقافية بنوع خاص ، ظاهرتان قد جرى بهما التاريخ بين مصر والسودان الشمالى والأوسط خلال أعصره المختلفة فرعونية ومسيحية وإسلامية ، ولا يزال يجرى بهما حتى اليوم . بل إن سكان

هذا السودان يعتبرون من الناحية البشرية عامة والناحية الثقافية خاصة أقرب إلى الطابع المصرى العربى من سكان بعض المناطق الداخلة ضمن حدود مصر السياسية ، وأظهرها منطقة النوبة الشمالية بين أسوان ووادى حلفا . فكثير من أهل هذه المنطقة « المصرية » لا يتكلمون العربية ؛ وإنما يتكلمون « النوبية » أو « البربرية » وهى لغة حامية قديمة تختلف تمام الاختلاف فى أصلها ونطقها عن اللغة العربية التى يتكلم بها سائر أهل مصر والسودان الشمالى والأوسط وقليل من امعشر المصريين من يدرك هذه الحقيقة إدراكا واضحا ، وهى أن مواطن دنقلا الجنوبية أو الخرطوم أو كسلا أو أرض الجزيرة هو أقرب إلى مواطن مصر العليا بله مصر الشمالية من مواطن كلابشة أو كرسكو أو كثير غيرها من مواقع النوبة الداخلة فى حدود مصر السياسية ومع ذلك فإذا كان أهل النوبة المصرية قد استطاعوا أن يكونوا مواطنين مصريين صالحين ، وأن يشاركوا فى الوطنية المصرية كغيرهم من سكان وادى النيل الأدنى رغم اختلاف اللغة ، فما أحرى مواطنى النيل الأوسط فى السودان أن يشاركوا فى هذه القومية مشاركة كاملة موفورة ، بل مشاركة يضيفون بها إلى وحدة الوادى وشعبه من القوة والتركية ما قد لا يستطيعه بعض سكان مصر فى الشمال .

ومع ذلك فإن الوحدة بين المواطنين فى شطرى النيل الأدنى والأوسط ليست تاريخية ولا بشرية ثقافية فحسب ، وإنما هى تتعدى ذلك ، أو تسبق ذلك ، إلى مصالح الحياة وأسبابها المادية ؛ وتتمثل بصورة جلية واضحة فى الوقت الحاضر وفيما نحن بسبيله من مستقبل . وهذه المصالح المادية بعضها خاص بأهل مصر ، وبعضها خاص بأهل السودان ؛ ولكنها فى الغالب مشتركة ومتبادلة بين الاثنين . فمصر لا تستطيع أن تجد سبيلها إلى الحياة الآمنة المطمئنة بدون السودان . وآية ذلك أو من آياته تلك المياه التى تأتى بالحياة من أقصى الجنوب ولا تستطيع إلا أن تفيض وأن تجري على أرض السودان ؛ وتلك المشروعات الكثيرة لخن المياه وتنظيم فيضاتها وجريانها حتى تصل مصر فى مقادير معلومة وفى مواعيد منتظمة يرتبط بها التوسع الزراعى فى مصر أشد الارتباط ، كخزان جبل الأولياء ومشروع خزان النوبة العليا ، وغيرها من مشروعات هذا النهر العظيم التى نفذت أو التى لم تنفذ بعد ، وهى كلها بمثابة الصمامات من قلب مصر . ثم من آيات ذلك أيضا تلك المصالح والمرافق المادية الكثيرة التى أتقت من

أجلها مصر ما أنفقت من جهد كبير ومال كثير ، ساهمت بهما مساهمة فعالة في
تعمير السودان وإنهاضه نهضته الحديثة على نحو ما هو معروف .
وكذلك السودان فإن حاجته إلى مصر وارتباط حياته المادية بحياتها مما
تتعدد آياته ونما يغنى فيه التمثيل عن التفصيل . فهذه أرضه بكر تحتاج إلى المال
وإلى الأيدي العاملة وغيرهما من أسباب النهوض بالحياة المادية . وليس المقصود
بالمال ذلك الذى يأتى به المستعمر ، إذ يؤلف الشركات الاستغلالية كمشروع
الجزيرة ، فيشتري الأرض من الأهلى بثمان بخس ، ويحرمهم من الملكية
الزراعية ، ويستخدمهم مأجورين فى الإنتاج ، ويزرع ما يوافق حاجاته وينغذى
صناعاته من محاصيل تجارية كالقطن وغيره بدلا من زيادة إنتاج المحاصيل
الغذائية التى تيسر الاستهلاك الشعبى وترفع مستواه ... بل ينشئ هذه الشركات
الكبيرة التى لا يستطيع الأهلى محاكاتها وتقليد نظمها وأساليبها فى أعمالهم
الاتاجية العادية ؛ فهى نظم وأساليب معقدة ليس لديهم من الدراية ولا التجربة
الكافية ، بل ولا المال أو التعليم ، ما يمكن لهم من الاستفادة منها ، أو مما هم
مدفعون فيه من نهضة ظاهرية ، لا تمس حياة الشعب ونهضته فى الصميم لأنها
لا تتناول منها الأسس ولا المقومات ... ليس ذلك ما يقصد برأس المال ، وإنما
المقصود به والمطلوب منه ذلك الذى ينفق مرتخصاً ، ويبذل غير مقتّر فيه على
مرافق الحياة القومية العامة من إنشاء طرق المواصلات ، وإنفاذ المشروعات
العامة ، وإنعاش أسواق التجارة المحلية إلى جانب التبادل الخارجى ، وغير ذلك
بما ساهمت به مصر وأبناء مصر فى السودان فى غير من وبغير حساب .
وأما الأيدى العاملة فقصبتها غريبة ومؤلمة فى الوقت ذاته . فالسودان على
اتساع أرجائه فقير جداً بسكانه . ومع أن مساحته تعادل مساحة مصر مرتين ونصف
مرة على وجه التقريب فإن سكانه لا يزيدون كثيراً على ثلث سكانها ؛ وهو فوق
ذلك لا يقل غنى عن مصر فى موارده الزراعية والنباتية العامة بل يزيد إذا
أحسن استغلاله ... وقد قاسى السودان كثيراً فى نهضته الحديثة من جراء قلة الأيدى
العاملة فيه ؛ لاسيما الأيدى المدربة فى الزراعة . وهو لا يزال يلجأ حتى الآن إلى
استخدام بعض سكان السودان الغربى الذين يقدون عليه فى طريقهم إلى البلاد
المقدسة للحج ؛ فيقيمون فى ربوع السودان المصرى عاماً أو أعواماً ، مأجورين فى
الزراعة ، مرتزقين بما يسد أودهم ، ويمكن لهم من الحج والسفر فى الذهاب والإياب .

وحدة وادى النيل ومقوماتها الجغرافية والتاريخية

وهؤلاء المرتزقة يؤدون خدمة طيبة للسودان وشركات الزراعة من غير شك ؛ ولكنهم فى الوقت نفسه خطر على النهضة القومية هناك ؛ فهم لا يمثلون عنصراً ثابتاً فى السكان ، ولا يمثل نشاطهم وجهدهم جزءاً من نشاط الأمة وجهدها ؛ وإنما هو نشاط مستعار قد لا تخشى عواقبه فى بعض الأمم ذات الحياة المتقدمة والمستقرة ، ولكن له خطره الكبير فى حياة شعب يسعى إلى النهوض بنفسه كشعب السودان . وحقيقة ما يحدث الآن فى كثير من البقاع أن أرض السودان تستغل لحساب شركة أو شركات أجنبية ، وتفلح بأيد أجنبية مرتزقة . وذلك كله لا يمكن أن ينتهى إلى خير ، كثير أو قليل ، بالنسبة للسودان وأبنائه ، مع أن هذه الحالة قد تتغير لو سمح للعناصر المصرية بالهجرة والاستقرار فى السودان ، حيث تعمل وتعيش وتختلط وتزواج وتندمج فى النهاية بأبناء وادى النيل هناك . وليس صحيحاً ما يقال من أن المصريين لا يرغبون فى المخاطرة والمهاجرة ؛ فكل من يعرف السودان يعلم جيداً أن أبناء مديرتى أسوان وقنا يعيشون ويعملون ويتجرون ويتبادلون فى ربوعه . وهم عنصر جم النشاط يشتغل بالتجارة وبعض الزراعة ، ويشارك فى مرافق الحياة الأخرى مشاركة هى مثال لما يمكن أن يكون لو أن الهجرة كانت حرة لا تقف فى طريقها الحوائل والعقبات .

أما بعد ، فهذا قليل من حديث يمكن أن يطول . وإن هذه التى ذكرناها إلا مسائل ونقط مختارة تبرز لنا وحدة وادى النيل كما يراها دارس الشؤون الطبيعية والبشرية فى هذا الإقليم وإذا كان للسياسة منطقها فى الحديث من الوحدة التى نحن بصدددها ، وعما يلابسها من مشكلات ، فإن للطبيعة والتاريخ منطقهما الذى يقوم على درس الحقائق والوقائع مجردة ، وعلى محور ربما كان أيسر وأتمجج فى إقناع من يبدىهم تصريف شؤون السياسة ، وفى إنارة الطريق أمامهم كي يروا أن من الخير أن تتسق سياستهم مع ما تقتضيه طبيعة الأشياء ، وأن مثل هذا الاتساق ضرورى للوصول بأية مشكلة إلى حلها الموفق المعقول .

إن وحدة وادى النيل أمر طبيعى ، وظاهرة بشرية لها مقوماتها الجغرافية والتاريخية . وقد برزت تلك الوحدة وتمكنت أسبابها خلال أعصر التاريخ ،

وإن لم تتخذ صفة الوحدة السياسية المعروفة في كل العصور . وقد شاعت الظروف أن تتعدد شئون هذه الوحدة في العهد الحديث ، وأن تلابسها وتطغى عليها مشكلات كثيرة ، يرجع بعضها إلى تعثر النهضة القومية في مصر ، وإلى عدم التكافؤ في التقدم والنهوض القومى في مختلف أجزاء الوادى ، ثم إلى تداخل قوة ثالثة شاعت المقادير أن تكون لها يد أى يد في تصريف شئون هذا الوطن بشطريه في الشمال والجنوب . ولكن رغم ذلك كله فإن الزمن لم يتوقف عن المسير وكما سار هذا الزمن ودار معه الفلك ازدادت الحقائق الأساسية وضوحاً ، وانجلت عن قوتها الصحيحة الفعالة . وهكذا برزت وحدة وادى النيل من جديد ، وتبين أن كل ما أقامه البشر في سبيلها لم يكن إلا عَرَضاً مصيره إلى الزوال مهما طال الزمن ، ومهما قصر سكان هذا الوادى في الاستجابة لمقتضيات بيئتهم الموحدة ، بل مهما تأخر الزمن بحليفتنا العظيمة عن أن تدرك أن خير ما تستطيع أكثر أمم التاريخ الحديث حفظاً من القوة واتساعاً في الجاه أن تساهم به في تاريخ الإنسانية ، وأن تتوج به أعمالها التي ترجوها الخلود على الزمن ، هو أن تمد يدها مخلصاً إلى أعرق أمة في التاريخ ، وتخلى بين هذه الأمة وبين أن تستكمل وحدتها وتتبوأ مكاتها بين أمم العالم من جديد وبذلك وحده تصحح أخطاء الماضى القريب ، ويقوم ما بين بريطانيا العظمى وأمة وادى النيل على أساس من الإخلاص المتبادل والتعاون الصادق والإدراك الصحيح ومن يدري أفقد لا تطول بنا السنون أو الأيام قبل أن يتم الله نوره ، فتتهياً الأسباب جميعاً لأن يتصل ما قضت الطبيعة - وما أمر الله - به أن يوصل بين مصر والسودان ، ويستعيد أقدم شعب بعض ما كان له من مجد في أقدم وطن !

عليه هذى

المشيبي

يا لارتياع أبنتي لما رأت شعري
 قالت : مشيب ؟ وكم في الشيب من عبر
 أشاب فوهدى والعلباء خوضهما
 ريب الزمان يشيب المرء وهو فتى
 وكم رفيق أتى بعدى فعاجله
 شيباً وكرهاً أمضاً كل مصطبر
 وأى أمر من الدنيا نحاوله ؟
 كم تستمر على شيء مريرتنا
 حتى إذا امتدت الأيدي تقاذفها
 ورب امتنيّة في نفس صاحبها
 ماتت كمؤودة في كف قاتلها
 ما نأكل الزاد أعلاًئاً لمسغبة
 لا تحسبي أنني جانبت ذا خطر
 قد استوى [الكل] مهما كان مختلفاً
 فلا تلومي ! فخطي حظ مرتحل

في الرأس يومض مثل المرو في المطر
 إن لاح في كبر أو جاء في صغر
 في واضح من أذى الدنيا ومستر
 ولا يحير له جاراً على الكبر
 قرط الأذى فمضى يستن في أثرى
 على بعاءيهما أو غير مصطبر
 وقد أزيلت دواعي الهم والوטר
 حيناً فنأنس بعض الصفو من كدر
 مس من الداء أو حزّب من الغير
 عذراء تنفض عطف الحسن والخضر
 يتلها لجبيني ناعم نقر
 لكن تركناه ترك الصائف الحذر
 وأى شيء من الأشياء ذو خطر ؟
 إذا تناولته بالذهن والنظر
 نزر المقام ، وقد أعجبت في سفرى

المستعين بالله ... الكاتبن هاردي

حين اشتدت وطأة الغارات على العاصمة ، إبّان الحرب ، وأحسنا سحائب
الهم والفرع تنعقد في سماء حياتنا ، وتوترت الأعصاب أيما توتر ، فكر فريق
منا أن يهجر القاهرة إلى بعض الأما كن النائية يطلب فيها الطمأنينة والأمن ،
فكنت أحد السباقيين إلى الهجرة .

وقضيت في الضيعة بضعة أشهر ، أتتبع أخبار الغارات في الصحف ، وأتلقط
أحاديثها من الأفواه ... وكما علمت أن غارة روّعت سكان القاهرة أو الإسكندرية
وكان لها آثار وخيمة ، حمدت الله الذي وفقني إلى المبادرة بسكنى الضيعة لأبعد
بنى وبين منطقة الخطر ، فأكون منه بمنجاة .

ولكنى على الرغم من هذه الطمأنينة السابغة وجدت في قلبى ديب السأم
يتزايد ، وجعلت أشعر بضيق من تلك الوحدة القاسية ومما يحيط بى من بيئة
جديدة على فقدت فيها كثيراً من ألوان الرفاهية ، ونأيت فيها عن كثير من
مظاهر حياتى الاجتماعية التى ألفتها .

وبينما كنت فى رونق الضحى أجلس فى شرفة الدار الريفية التى نزلت بها ،
أطالب الوحدة وأنفى عن نفسى الملل بتصفح مجموعة من الأقاويص ، إذ أقبل
على الخادم برزمة البريد ، فتلقفتها منه فى شغف ، وانكبت على الصحف ألهم
أنباء الغارات ، فإذا الحالة تزداد سوءاً على سوء ، فأنقبضت نفسى ، ونجيت
الصحف عني ، وانصرفت إلى الرسائل فجعلت أقلبها بين يدي ، فاسترعى انتباهي
منها رسالة راعتنى بغرابة خطها ، كأن كاتبها تلميذ مجتهد يحاول أن يظهر براعته
فى حسن الخط . ولبثت أتأمل العنوان هنيهة ، ثم التفت عيني ، وهممت :
أمكن هذا ؟

وفضضت الغلاف متعجلاً ، ثم بسطت الرسالة ، وما إن وقع بصرى على

المستعين بالله . . . الكابتن هاردي

الإمضاء حتى ابتسمت ، وبان لي أب ظني لم يحب ، ورحت أقرأ :

« أتي هذا الصديق العزيز

سلامي إليك طيب عطر ، ثم أحمد إليك الله جلت قدرته ، وأنهى إليك آني
نزيل مصر منذ أشهر . وقد شغقت إلى رؤيتك نفسي ، فطلبتك في الهاتف
مرات ، وما حظيت مرة إلا بهذا الجواب المتكرر : أنت في معزلك ، أو بالحرى
في مهربك . وإذ طال تنظري لك على غير طائل استخرت الله في أن يطالعك مني
كتاب ، وإني مخبرك بمقامي في الحسين ، وامتداد إقامتي فترة . فإذا فككت
عن نفسك إسارها ، ورأيت عودا إلى القاهرة المعز ، فزرنى بداري « مغنى
الرشيد » نتناول أقداحاً من الشاي الذكي ، وتذاكر أحاديث الماضي الحبيب .
ولتكن على ثقة بأننا مقبلون على أيام طمأنينة وأمان . فلا تهولنك الأخطار ،
وأقبل شجاعاً غير هائب ، والله راعيكم .

أخوك المستعين بالله ، هاردي — كابتن بالجيش »

وطافت برأسي شتى الذكريات . . . المستعين بالله . . . المستر هاردي . . . بل
الكابتن هاردي . . . صديقي المستشرق الإنجليزى المسلم ، الذى عرفته متحمساً
للشرق وللإسلام أكثر منا نحن الشرقيين المسلمين . . .
وتوضحت لي على الفور صورة ذلك الصديق الكريم : قامه مبسوطة ، ووجه
مستطيل مشرق ، وبشرة وردية ناضرة ، وعينان زرقاوان يروغان بصفتها
الشفاف ، وصوت هادئ خافت يلقى بكلماته في تباطؤ وتنسيق ، يصمت بين
الكلمة والكلمة كأنه يتخيرها من معجم في رأسه ، ولهجة عربية تبين فيها
فصاحة اللفظ ولكنها لا تخلو من عجمة محببة .

وتوالت الذكريات والصور . . . حتى الحسين . . . جولتنا في أسواقه نبتاع
الطُرف والتحف ، وجلساتنا في نواديه نحتسى الشاي الأخضر . . . وكان من
عادة صديقي أن يتسمع في هذه النوادي إلى الجلاس من مختلف الطوائف ،
ويتصيد الألفاظ الغريبة فيقيدنها في دفتره الذى بليت أوراقه من طول الطي
والنشر ، وتشابكت سطورره من تكرار الزيادة والتعليق . . . وداره ، ذلك
المبنى الصغير الذى أطلق عليه اسم « الرشيد » تبهرك منه السذاجة والطابع

الشرقي الجليل . . . وكان الصديق يتخذ هذه الدار مثابة كلما قدم مصر في العام بعد الأعوام . وأقرب عهدي به كان منذ أربع سنين ، ثم انقطعت عني أخباره حتى خلت أنه ليس إلى عودته من سبيل .

وقمت أذرع الشرفة جيئة وذهاباً والرسالة في يميني . وقد هاجت في نفسي عاطفة الذكري لأيام رفاق قضيتها ناعم البال خلى الفؤاد . ورنوت إلى الرسالة ، فوقعت عيني على قول الصديق : « إننا مقبلون على أيام طمأنينة وأمان » . وما كدت أخطو خطوتين إلى مقعدي ، حتى أخذت عيني عنوانات على جبين الصحف تلفت النظر ، فيها بيان لما أحدثته الغارات من خسارة في الأموال والأرواح . فقذفت بهذه الصحف مغيضاً وهممت : شدة ما يغلون في رواية الأخبار !

وصحيت منادياً الخادم فقلت له على الفور : احزم حقائبى . . . سرحل مبكرين إلى القاهرة .

فقال لي مأخوذاً : والغارات يا سيدى ؟

— أتحسب أننا هنا ناجون من الأخطار ؟ الأعمار بيد الله .

وفي أصيل غدى ، كنت أغادر داري في القاهرة آخذاً طريقى إلى حى الحسين . . . ووقفت عن كذب من دار الصديق أتطلع إليها ، فألفيتها كما عهدت : الباب ذو المطرقة النحاسية ، وذلك اللوح المكتوب عليه بالخط الكوفى : « مَعْنَى الرشيد » . فأخذت بالمطرقة أدق الباب كما يفعل الطارق في العصور الوسطى . . . وانفتحت من أعلى الباب طاقة أطل منها رأس « مسرور » خادم السكاكيت الخاص ، فما لمحنى حتى انفرجت شفتاه عن ابتسامته الأنيسة ، وحيانى متلطفاً ، ثم شدَّ حبل الباب ، فانفتحت مغاليقه ، فدفعت بخطاى داخلا ، فإذا الفناء الصغير كما عهدته رطباً مظماً يظلاله عريش كوم عتيق . وجزت بتلك النافورة الساذجة وماؤها يقرقر كأنه يحيى القادم تحية الاستقبال .

ودلفنا إلى الدهليز الضيق تتدلى منه بعض قناديل ملونة ترسل أضواءً محتشمة هادئة . . . وقبل أن أصل إلى بهو الضيافة ظهر شبح صديقى المستشرق ، وقد بسط لى ذراعيه فتعانقنا عناق الود والمصافاة . وأخذ صديقى بيدي فسأيرته إلى البهو ، وهو يحجب فى عباءته الحريرية المفهافة وقبائه الزاهى ، وذلك الخف الأحمر يخفق به على الأرض خفقات هينة كأنها همس أطياف . . . واسترعى انتباهى فى

نظراتي إلى الصديق هزأه وامتناعه ، ومشيه متوكئاً على عصا يظلع بعض الظلع . . . ودخلنا البهو ، فجلسنا على الحشايا متقاربين ، وصاح صديقي قائلاً :
 زقد ضرب كتفي بيده : بما قولك في أني عثرت في مجريط على مخطوطة ديوان ابن زريق وقد استنقذتها من بين خرائب الحرب الأهلية ؟
 فقلت دهشاً : ما أندرها تحفة ! ألا تمتعني بالنظر إليها ؟

فزوى ما بين عينيه ، وسرح بفكره ، ثم همهم : تركتها في داري بلندن . . .
 ولا أدري ما هو حظها من كوارث الغارات هنالك ؟

فهزئت رأسي أسفاً ، ثم قلت له : أما تاح لك أن تنقل بعض النقوش الأثرية الباقية في أسبانيا من عهود الحضارة الإسلامية في الأندلس ؟

وكنيت أعلم أن لصديقي باعاً واسعاً في الرسم والتصوير ، فقال لي وهو على حاله منشرح الخاطر : لدى طرائف ولطائف استطعت أن أنقلها رسماً وتصويراً ، وهي الآن رهينة أقدار الغارات في خزانة كتي بلندن .

ثم صمت لحِيْظَةً ، وقال : حينما جُنِّدت لخدمة الجيش ، ونقلت إلى القاهرة ، لم أستطع أن أحمل معي شيئاً من كتب أو مذكرات أو صور . . .
 جئت هذه المرة أحمل الحديد والنار !

وسمعتة يصيح بخادمه « مسرور » : علينا بالشاي .

فقلت له : إني لأعجب لك كيف تتكلم عن الحرب والضرب وما أراك إلا كسابق عهدك في مَغْنَى الرشيد تتقلب في أحلام الشرق الهائثة . . . وها هو ذا « مسرور » ما زال قائماً بخدمتك !

فابتسم ابتسامة سائحة وقال : أنا في إجازة مرضية ، أفضي فترة النقاهة بعد علاجي من جراح أصابتنى .

ثم أشار إلى موضع في ساقه ، وواصل حديثه يقول : لقد أرادوني على أن أنزل الجيزة أو حلوان ، فقلت لهم دعوني أستجم في حيّ الحسين أنشق عير الراحة في مَغْنَى الرشيد ، وأملأ سمعي كل انبلاج فجر بسماع الأذان يهز نفسي هزاً ويرشح أعطافي طرباً .

ثم ابتسم ابتسامة وضيئة رحيبة ، وقال : ما أجل أن يقضي الإنسان عمره في ذلك الجو الساحر ، جو ألف ليلة وليلة . . . إني لأشعر بأنني أعيش حقاً !
 وعلا بصدره يملاً برثتيه بالهواء ، فتناولت مسبحة كانت مناعن كشب ،

وظفقت أعبت بحباتها وأنا أصدق فيها ، ثم قلت خافت النبرات : ولكنى أرى
أن شيئاً ينقصك . . .

— أى شيء ؟

فتباطأت هنيهة ، ثم قلت وأنا بالمسبحة أعبت : ينقصك شهر زاد !
ورفعت عيني إليه ، فألقيته يصعد نظره في عرض الحجرة صامتاً ، وهو
يتكلف ابتسامة شاحبة ثم ججم : شهر زاد ؟ ويحك من مهادر ! . . . أتني لي
بشهر زاد هذه ؟

وغشينا الصمت برهة ، ثم استأنف يقول وقد تزايدت ابتسامته في صوت
متخافت كأنه آت من مكان سحيق : شهر زاد ؟ . . . إنها بعيدة . . . بعيدة
كل البعد !

وأردت أن أثبت ما يعنيه وما يحاول أن يخفيه ، فابتدرنا « مسرور »
قادماً بصينية الشاي يتخطر بجسمه المتكفل الضخم وعمامته الطويلة التي تكاد
تلامس السقف ، فوضع الشاي بين أيدينا وانصرف يزلزل الحجرة بخطواته
الثقال . . . وصب صديقي الكابتن الشاي في الأقداح ، وأخذنا نحتسى على
مهل ، ونحن في صمت كأننا في شغل بالشراب . . . وجعلت أنقل بصرى في
الحجرة أتفحص ما حوت ، فوقعت عيني على صورة لم أكن قد لاحظت
وجودها ، صورة وجه نسوى . . . ليس بالوجه المكتمل ، وإنما هو عينان
دعجاوان ينبسط تحتها خمار أسود رقيق النسج يكاد يكشف عن ملامح وسمات .
فنهضت إلى الرسم أتوسمه ملياً ، وقد خلبتني هاتان العينان بحورهما الساحر
وأهداهما الوطاف . . . ورجعت إلى مجلسى ، فاحتسيت جرعة من قدح الشاي
وأنا أقول : صورة رائعة ، لقد تجلت براعتك في التصوير يا صديقي . . . !

— أترى ذلك ؟

— أمن وحي الخيال هي أم من عالم الواقع ؟

فصمت متشاعلاً بصب الشاي ، ثم قال مهمهما : من وحي الخيال .

— ألم تستلهم بعض السمات من نموذج حى ؟

— قلت لك من وحي الخيال .

وشرد ذهنه كأنه يتحرز من متابعة الحديث ، فأقبلت على قدحى أشرب
منه ، وقد خيم علينا الصمت بعض الوقت . فقلت أصل ما انقطع من الكلام .

ظننت أن شهر زاد تعوزك في « مغنى الرشيد » فإذا هي تحتل منه أعز مكان !
فأطلق ضحكة غامضة ، وقال وهو يتلاعب بملقعة في يده : لا وقت عندي
لشهر زاد يا صديقي المهدار !
— كيف تنفق يومك ؟

نجمع إليه ما انتشر من قبائه ، ثم نزع قلنسوته ، وأخذ يسوي شعره الأملس
ويقول : إني أستجم ، لا أبرح الدار إلا في الندرة .
— ألا تملّ هذا النمط من الحياة ؟

— إذا شعرت بحاجة إلى التسلية فعندي « مسرور » يفكهنى بنوادره
اللطاف . . . وقد أخرج ليلاً في ضوء القمر أطوف بالمساجد ، ثم أعود إلى الدار
مقبلاً على المطالعة .
— وماذا تقرأ ؟

— أراجع نصوص شعر العباس بن الأحنف ... إنه زادي كله في هذه الأيام .
— مالك ولهذا الشاعر ؟ إن ديوانه ينفع جداً وصبابة !
فسرح صديقي بصره لحظة أمامه ، وقال : إني لأقرؤه لسهولة وعذوبة
شاعريته ، لا لوجده وصبابته ، فما لي بالحب شأن .
— ومعجماك الأحمر ، كيف حاله ؟

فسنحت على ثغره ابتسامة وهمهم : تقصد الشيخ جاد الرب أستاذي ... إنه بخير .
— عجيب أن أسألك أنت ضيف مصر عن رجل تجمع بيني وبينه مدينة
واحدة . . . أتصدق أنني لم أره منذ زرتك معك آخر مرة كنت أنت فيها بمصر !
أعلى حاله هو ، لم يجد في شأنه جديد ؟

فأخذ صديقي يعيد القلنسوة إلى رأسه ، ويحكم وضعها على فوديه ، متمهلاً
في عمله ، مطيلاً لوقته ، ثم قال منحرف البصر عني : إنه كما تعهد ، لم يحدث له
شيء ذوبال ، إلا ما كان من أمر تافه . . .
— ماذا ؟

— زواجه . . .
— عجيباً . . . أيتزوج وهو شيخ فإنه نصف بصير نصف سميع نصف حي ؟
— هذا ما وقع .
— من تكون تلك التي رماها به القدر ؟

- نور العين . . . ربييته !
- الطفلة الغريرة التي كنا نضيق ذرعاً بمعابثاتها ؟ . . .
- أحسبتم تظل طفلة أبد الدهر ؟ لقد غدت فتاة يافعة ، إنها تستقبل عامها السابع عشر . . .
- ألم يذرف الشيخ على السبعين ؟
- لا بأس . . . لقد كفها طفلة ، وألف أن تتعهد به بالخدمة ، ولم يكن يقيم في البيت سواهما ، فلما قاربت طور الشباب لم يجد الشيخ بداً من أن يبنى بها ، فهو كما تعلم حريص على أن يصحح دينه ويبرئ عرضه . . .
- واسترخى صديقي في مجلسه ، وأشعل غليونته ، وراح ينفث الدخان وتبدأ مسبل الجفنين . .
- وعادت الذكريات تطوف برأسي ، ولاحت لي مشاهد من زياراتي قديماً لبيت الشيخ في صحبة الصديق المستشرق ، إذ كان يقرأ عليه بعض الكتب ، ويدرس معه بعض النصوص .
- كنا ندلف إلى حجرة الشيخ الغبراء المعتمدة ، فنجد غريقاً بين كتبه ، تشرف عليها عمامة الحمراء الضخمة ، رمزه العتيد الذي لا يترايل عنه مهما جد من أحداث ومهما تعاقب من أجواء . . . ولا نكاد نطمئن في مجلسنا إليه حتى يصفق بيدين هزيلتين ، صائحاً بصوته المختنق : القهوة يا نور . . .
- وما هي إلا أن تحضر « نور العين » حاملة صينية عليها إبريق تحف به أقداح بلدية وموقد يتوهج فيه الجمر وتتعالى منه سخائب البخور ، ثم تترجع عن كذب من الشيخ وتبدأ في صب القهوة ، وتقديم الأقداح مرة بعد مرة . . . وهي صبية سمراء فوارة العينين مراحا وحيوية ، كثيراً ما كانت تختلس إلينا النظر ونحن عاكفون على الدرس بين قارئ ومستمع . فإذا آتت من أحدنا غرة رمتها بحبات اللب أو الفول السوداني وهي تخفي بين طيات خمارها الأسود ما يغلبها من الضحك ، وتتشاغل بإذكاء الجمر أو ملء الأقداح !
- وبينا أنا في فيض من هذه الذكريات إذ تقابلت نظراتي ونظرات صديقي المستشرق وهو يتابع تدخينه ، فسمعتة يقول همساً كمن يحلم : ما كان أكثر معاكستها لنا !
- وأمسكت عن الكلام فترة أحرق فيه ، وقد راعني أننا كنا أثناء صمتنا في

رحلة على جناح الذكريات نسبح في آفاق ماض حبيب . . . ثم قلت : والآن ، كيف هي ؟
— تكاد تكون فتاة أخرى غير التي نعرف .

وشغل صديقي بوضع الطبق في غليونه وإشعاله . وفي هذه اللحظة قدم
« مسرور » يرفع من بين أيدينا صينية الشاي وهو يقول لسيدة : أذكرك
بالموعد . . . لقد أرف . . .

فقلت لصديقي على التو : أعلى موعد أنت ؟

— لا عليك . . . إن هي إلا زيارة غير محتومة لصديقنا المعجم الأحمر
لبعض مطالعات يمكن إرجاؤها . . .

فنهضت قائلاً له : بل تذهب لطيتك ، فإذا أذنت رافقتك على مألوف
العادة . . . إنها فرصة أغتنمها لتحية الشيخ ، فأني لم ألقه منذ زمن مديد . . .
فقال وقد لمّ شعته ناهضاً : يسعدني أن تكون معي !

وتهيأنا لمبارحة القاعة . وفيما نحن منصرفان لاحظت أن صديقي يسترق النظر
إلى الصورة المعلقة . . . ومضينا إلى الباب يخب صديقي في قبائه ، ويكور على
قلنسوته عمامة بيضاء أنيقة . . . وخرجنا نجتاز الدروب الملتوية نخوص فيها
الظلام الذي كان طابع الحياة الليلية في ذلك العهد ، ونحن صامتان نستبين الطريق
في محاذرة واحتراس . . . وبعد لأي بلغنا مأوى الشيخ ، فأخذ صديقي يقرع
الباب هنيئة ، فانخرج مصراعه كأنما تحركه يد ساحر ، ودلفنا إلى دهليز تطارد
ظلامه فلول من الضوء يبعثها قنديل منكمش خزيان . وفيما نحن نعاني وحشة
المكان إذ فاجأتنا سعة هزيلة متصلة الحلقات صاحبت خطانا تؤنسنا حتى باب
الحجرة وقد انفتح منه جانب يتسلل خلفه ضوء شحيح وتهب منه رائحة التبغ .
وصفق صديقي الكابتن تصفيقة خاصة ، فسمعنا صوتاً متداعياً النبرات يقول :
أهلاً وسهلاً . . .

فدخلنا القاعة ، فإذا هي هي في غربتها وضيقها وحلوكتها . . . كومات من
الكتب تتراءى وسطها عمامة ضخمة حمراء تبتلع وجهاً معروفاً ضئيلاً أكثره
لحية شعناء . . . ودنوت من الشيخ أذكره بنفسى ، فتناول يدي وأبقاها بين
يديه وهو يحلق في بعين كيلة حمرة تجردت من الأهداب ، وقال في صوت لم
يصف بعد من بقايا تلك السعلة الكريهة : أهلاً بصديقنا الهارب . . . أ كذلك
تسبانا دهرًا ؟

فقلت وأنا أشد على يده : حقاً غبت عنك طويلاً ، ولكن عذري في ذلك ما أحاط بي من مشاغل ومهام . . .

— ألم تستكمل يعد دراستك لشاعر المعرة أبي العلاء المعري ؟
— ماذا يستطيع أن يفعل ذلك الفيلسوف الحكيم في وقت رُوِّعت فيه النفوس واضطربت الحياة ؟

فهمهم صديقي الكابتين وقد اقتعد حشيته القديمة في مكانه المؤلف : إن أبا العلاء ينتظر زوال الحرب ليخرج من مخبئه ، وينفض التراب عن لحيته ! فقال الشيخ متضحكاً : أخشى أن يستبد النوم بأبي العلاء في محابسه ، فلا نستطيع إيقاظه بعد . . . طالما رغبت إلى صديقنا أن يذكر همة لإنجاز تلك الدراسة ، ولكنه يتأدى في تكاسله .

فقلت وقد اقتعدت حشيتي المعهودة بجوار كومة من الكتب : سأستمع لنصحتك . . . ادع الله لي أن أوفق !

وصفق الشيخ تصفيقته المتراخية ، وصاح ما وسعه جهده بصوت خشيت ألا يبلغ عتبة الباب : القهوة يا نور . . .

وجذب من جانب حشيته كتاباً أبلاه الطي والنشر ، ثم قال لصديقي الكابتين : لنبدأ من حيث وقفنا أمس .

وانطلق يتحدث عن شاعرية العباس بن الأحنف وغزله ، مستشهداً بمقطعات رفاق يحفظها له ، فكنا نسمع مأخوذين بطلاوة حديثه ، ودقة بحثه . وبينما نحن في نشوة السماع ، إذ أحسست خفيف ثوب ، فأرسلت نظرة خفية نحو مصدر الجفيف ، فطالعتني على الفور عينان دججوان تحتها لثام أسود هفهاف ، فشعرت بهزة تنتظمني ، وألفيتني أختلس النظر إلى الكابتين ، فوجدته مطأطئ الرأس ، يعبث بأطراف عباءته . . .

وقصدت «نور العين» مجلسها عن كذب من الشيخ كما كانت تفعل ، ووضعت الضيئة بإبريقها وأقداحها وجمرتها يتطاير منها عبق البخور . ثم شرغت تصب القهوة وتوزعها علينا قدحاً بعد قدح ، والشيخ ماض في حديث العباس ابن الأحنف ينشد من رقائق غزلياته وهو يتابع أنفاسه في جهد يستدر الإشفاق . وعلى الرغم من روعة حديث الشيخ لم أكن أوالى الإنصات له ، إذ كنت في الفينة بعد الفينة أرسل النظر إلى هاتين العينين الدججوان اللتين يخفق دونهما

الحمار الهفهاف ، فيخيل إلى أنهما عينان معلقتان في الفضاء لا يتصل بهما وجه ولا جسد . . . نبعان عميقان يخران بالأسرار الغامضة ويفيضان بالأحلام العذاب . . . ولم أكن أغفل عن مسارقة النظر إلى صديقي الكابتين ، فما رأيته إلا متجمعاً مسترخياً في جلسته يعتمد ذقنه بيده في إطراق وكأنه في غيبوبة روحية يهيم في آفاق مترامية ! . . .

وترادفت اللحظات ، ونحن في هذه الدنيا الغريبة : صديقي مسترسل في حلمه السحري يكاد لا يفيق ، وأنا في جلستي أدير النظر حولي في هوادة واسترخاء ، وهاتان العينان المعلقتان في الفضاء كأنهما نجمان يحاولان بلألئهما أن يفضيا إلينا في جنح الليل بكنه الحياة . وهذا الصوت الذي يردده الشيخ يبدو كأنه همهمة أشباح تنبعث إلينا من مكان سحيق .

وبغته أفقت من غفوتي على ضربة أوقعها الشيخ على كتاب أمامه ، وهو يقول : أليس مما يدعو إلى إكبار هذا الشاعر الفذ أنه عاش حياته للحب ، ووقف شاعريته على الحب ، ومات وفيًا صفيًا للحب ؟ .
ما أروع قوله :

سلبتني من السرور ثياباً	وكستني من الهموم ثياباً
كلما أغلقت من الوصل باباً	فتحت لي إلى المنية باباً
عذبتني بشيء سوى الصبر	فما ذقت كالصدود عذاباً

فقلت : لم يكن العباس إلا قلباً يتحقق صباية ، وروحاً تشفّ نقاء !
فسمعت صديقي الكابتين يهمهم ، وهو على حاله مطرق : ما أعظم فداء هذا الشاعر الفذ في سبيل حبه وقلبه !

واستأنف الشيخ يروي من شعر العباس في نعمة متساوقة ، وأحسست الثوب يتحرك ، وإذا بالعينين المعلقتين في الفضاء تأخذان طريقهما إلى الباب ، وإذا بالكابتين يعلو بهامته يشيخ الشبح الغارب بنظرات خاطفة . . . وغابت « نور العين » عنا كما قدمت ، لم نحس لها من حركة ولم نسمع من صوت ، كأنما هي طيف هبط علينا حيناً ، ثم تزايل عائداً إلى عالمه المستور !

ولم يطل مكوثننا بعد ، فنهض صديقي يستأذن شيخه ، ويضرب له موعد اجتماعهما القادم ، وتركنا الدار لندخل تلك المتاهة من الدروب الملتوية

والحارات المستغلقة السابحة في عباب الظلمات . وكنا نلتمس الطريق كأننا نسير مدفوعين بهدى الفطرة ، ونحن صامتان ، كلانا محلق في أخيلته ، مشغول بعالمه . . . وتماديننا في الصمت ، وكان الهواء حبساً كثيفاً زاد من وطأة الوحشة ، فأحسست الحاجة إلى الاستئناس بحديث الرفيق في الطريق ، وكأنه شعر بمثل ما شعرت به ، فأخذ يضغط يدي ويلطفها ، كأنه يستعيض بذلك عن الكلام . . . وتبين لنا أننا خرجنا من المتاهة إلى شبه ساحة لم يتوضح لنا من معالمها إلا ما آذن تشرّب بقاماتها المشوقة إلى العلاء ، كأنها تحاول أن تتخلص من عالم الظلام والصمت واحتباس الهواء !.. ووقف صديقي يحدق في تلك المآذن السامقة وقد شغفت قلبه ، وإذا بصوت حلو النغم يشق ذلك السكون منشداً :

كيف أسلو ومقلتي كلما لا ح بريق تلفت للقاكا
كل من في حماك يهواك لكن أنا وحدي بكل من في حماكا

وجعل الصوت يرجع في نشيده ، ونحن إليه بقلبيناهمفو مستمتعين بعذوبة الإنشاد ، ثم تزايد الصوت وتبدأ يطويه السكون والظلام . . . وخيل إلى أن المآذن كأن هاماتها تتضاءل وتقصر ، وألصقت نفسي وصديقي تتحرك عائدين إلى المتاهة نضرب في الحارات والدروب . . . وعاد الصمت يلقي علينا أثقاله ، وأنفاس الهواء تزداد احتباساً وكثافة ، والظلمات يتراكم بعضها فوق بعض طبقات ، ويد صديقي تلتمس يدي وتضغطها بين حين وحين . ووصلنا إلى « مغنى الرشيد » فاجتزنا الباب ، ودخلنا البهو المعهود ، وجلس كل منا إلى حشية نواجه معاً صورة العينين ينبسط تحتها الخمار الأسود الهفهاف . ولبثنا فترة موصولة أعيننا بهاتين العينين ؛ وهمت قائلاً : في هاتين العينين تجمعت معان من الطراوة والاستكانة والفتور !

فقال لي صديقي الكابتن في صوت هادئ النبرات : إنهما عينان لطيف بعيد . . . بعيد غاية البعد . . . ليس إلى الوصول إليه من سبيل ! وهنا أسبل جفنيه وكأني به قد أسلم نفسه لسلطان الكرى .

وكنت أزور الصديق المستشرق في الفينة بعد الفينة ما واثني الفرص ، وكان يؤسفني أنني لست بمستطيع أن أجيبه إلى ما يطلب من تواصل الزيارات ، إذ كان يحس أنه في حاجة إلى . . . في حاجة إلى من يأتنس بوجوده في دنياه التي

اختارها لنفسه ، دنيا الحيرة والوحدة ، وإلى من يفضي إليه بما يضيق به صدره من سر دفين . . . ولكنه على الرغم من ذلك كله لم يكن لينفّس عن نفسه بكلمة ، ولا يفتح صدره عن مكنون ، بل كان حيران في صمته المضطرب ، لا يزيد إذا اشتدت به الحال على أن يضغط يدي وبلاطفها في حنو ورفق .

ولم يجد في برنامج حياتنا جديد : جلسات الهادئة في « مَغْنَى الرشيد » ترعانا هاتان العينان ينبسط تحتها الحمار الأسود الهفاهف ، وزوراتنا لذلك المعجم الأحمر نستمع إلى ثرثرته الفيضة في شعر العباس بن الأحنف ، حيث تقبل علينا « نور العين » بحفيف ثوبها حاملة صينية القهوة عليها الإبريق والأقداح والمجمر الطيبة الشذا .

و مرة خرجت وصديقي في نزهتنا الليلية ، فقصصنا الساحة ذات المآذن السامقة ، نرعى السماء وقد تناثرت فيها النجوم المتألقة ؛ وبينما نحن واقفان في صمتنا وعيوننا موصولة بالأفق البعيد إذ بنجم يهوى محترقا وقد سطع بريقه سطوفاً يخطف البصر ، ثم ما لبث أن ابتلعت غياهب الظلمات . . . فقال صديقي وهو في وقفته منطلق النظرات : ما كان أشد توهج ذلك النجم وهو يلقي بنفسه في أحضان الليل البهيم ! . . . إني لأحس بذلك الليل وقد بسط للنجم ذراعيه ليضمه إلى صدره ضمة الأم الرؤوم ! . . . إن علماء الفلك ومن إليهم سيقولون في مثل هذا النجم إن انفجاراً حدث فيه أو إن اختلالاً وقع في نظام الجاذبية ، فكان أن تهاوى النجم محترقا وأدركه الفناء . . . ولكن لم حدث الانفجار ؟ لم وقع الاختلال ؟ لا يدري أحد ، وما كان النجم ليدري ذلك المصير . إنه أحس دفعة واحدة بتزلزل في كيانه أعقبه اشتعال ففناء . . . ليس في الوجود شيء بقادر على أن يحمي ذلك النجم مما أصابه . . . ثمة يد خفية تدبر الكائنات لا تسمو إلى إدراكها العقول والأفهام . . . ألسنا مسيرين في هذا الكون لا مخيرين ؟ .. علينا أن ندعن لما يمليه القدر بلا مكابرة ولا عناد !

ثم أخذ بيدي ، فسرنا الهويئتي ، وتابع صديقي قوله : أليست أعمار مرحلة في حياة هذا النجم وأعظمها هي تلك اللحظات التي احترق فيها ، فوهب كل ما اختزن في قلبه من حرارة وضياء ؟ إن ملايين السنين التي قضاها من حياته في مسبح الفلك لتعد تافهة زرّية إذا قيست بهذه اللحظات التي عاشها وهو يهوى محترقا في الفضاء ! . . . ما أجلها متعة وما أروعها حياة ! . . . شبيه بهذا

النجم إنسان يظل عمره جامد الحس بارده ، خالي الوجدان را كده ، وما هو إلا أن تنبعث في أعماقه شرارة الانفجار فيلتهب باهر الضوء خاطف البريق . . . لحظات يقضيها تحفل بمتعة الدنيا الخالصة ويمكن فيها سر الحياة الحقة لا يعدلها شيء في الوجود !

ثم غشيه الصمت ، فلم تنفرج شفتاه عن حرف ، كأنه يخشى أن يتسلى من بينهما سر كمين .

وتعاقبت الأيام ... ولاحظت على صديقي أنه لا يزور الشيخ إلا لماماً ، وأن شحوبه يتزايد ، وانطواءه على نفسه يتواصل ، وأن ذلك البركان الذي يحنى عليه ضلوعه يحتدم مضطرباً فلا يجد له من متنفّس ... وكان صديقي إذا اشتدت به كربته خرج إلى تطواف بعيد الشقة تكلّ منه الأقدام ، حتى لقد قتلغلغل في رحاب الصحراء ونكاد نقيه في شعابها الموحشة . وقد يتفق لنا أن نجوز بدار المعجم الأحمر ، فأرى الصديق يخفف من خطاه ويسير كأنه يطوف بأرجاء معبد أو مزار . وقد يرفع عينيه قليلاً إلى حيث نوافذ المنزل ينضّح منها ضوء هزيل . ثم يحث خطاه إلى مغناه وقد بلغ به الجهد كل مبلغ فيلقى بجسده الملتخاذل على الفراش !

ولما هالني اشتداد الأمر به ، اقترحت عليه أن يستبدل بداره مسكناً في حي آخر ينقله إلى بيئة جديدة وأسلوب من العيش جديد ، فقال لي : أتريد أن تسلبني ما أنعم به مما بقي لي من أيام إجازتي في هذا الفردوس ؟ فصحت به : أهذا تسميه فردوساً ؟ إنه الجحيم المستعرة . . . إنك تذوب وتحترق على عجل !

فابتسم لي وهو يشد على يدي ثم قال : لكل منا تفسيره لمعنى الجنة والنار . وأطرق برأسه وقتاً ثم قال : إني أذوب حقاً وأحترق ، ولكن الإنسان في بوتقة الانصهار تبرأ نفسه من النفايات ، ولا يبقى منها إلا الجوهر الخالص . . . وقصدت دار صديقي يوماً ، إذ كنت معه على موعد لقاء لزيارة شيخه المعجم الأحمر ، فقال لي : أنا اليوم مجهود ، فلتبق معي في الدار لا تبرحها . . . واتخذ كلانا مقعده على الحشايا ، ونحن نتناول الشاي وندخن . وكان أول ما استرعى نظري أنني وجدت مكان الصورة خالياً منها ، فالتفت إليه على الفور أقول : أين شهرزادك ؟

فابتسم ابتسامة أسي كظيم ، وغمغم : لقد اختفت ... استردها عالم الروح ..
ألم أقل لك من قبل إنها طيف من الأطياف ؟ !
قلت عليه قائلًا : زدني إيضاحًا ... ما هذه الأحاجي ؟
فرنا إلى بعينه الصافية الزرقة ، وظل وقتًا لا يتكلم ، ثم قال وقد ازورَّ
ببصره عني : ألك في أن تقرأ فصلاً من رسائل إخوان الصفا ؟ انتهت إلى
مخطوطة نادرة لبعض هذه الرسائل ...

فصعدت فيه بصرى فترة ، وقلت : وأين ابن الأحنف ؟
فرمى بنظره في عرض الحجرة ، وقال : طويته ... فرغت منه !
— وهل يطوى حديث الحب والغزل ؟
فأجابني وهو على حاله مشرَّد النظرات : متى كان في مقدورك أن تطوى
حديث الحب والغزل فافعل تحسن صنعا ...
وألقيته يستخرج مخطوطة الرسائل ، وأقبل يقرأ جهوري الصوت ، باذلاً
أكبر الجهد في التفهيم والتمعن والاستخلاص . وألقيتني أشاركه في الدرس
وأسأله الرأي . ومكثنا فيما نحن فيه كبير وقت ، وكان وجه صديقي يزداد
احتقاناً وعيناه يتوضح فيهما الجهد والكلال ؛ وإذا برأسه يترنح رويدا ، ثم
يسترخي على الحائط خلفه مطبق الجفنين ...

وتوالت أيام ، وأنا أجده صديقي تنتقل به الحال من ستيء إلى أسوأ ، فقد
لبث رهين الدار لا يبارحها في عشية أو غداة ، وعكف على رسائل إخوان
الصفا يتعمقها أدق تعمق ويعنت نفسه فيها أبلغ إعنت ، وكأنه يريد ذلك لنفسه
عن قصد ...

ولاحظت أنه كلما طاف بذهني شأن الصورة ذات العينين الدعاوين والعمار
المهفاه ، وحاولت أن أطرح صديقي الحديث فيها ، أراه — وكأنه فطن إلى
ما يدور بخلدِي — يأخذ على السبيل ، ويشغلي بأحاديث مختلفات تطوح بنا
بعيداً عن ذلك الحديث ...

وطالت قترات صمته وإطراقه ، وتبين في جسمه الضني والنحول ، حتى لقد
رأيت أصابعه تلازمها الرعشة حين تمتد لأخذ كتاب أو تناول قدح ... فأدركتني
رحمة لصديقي وإشفاق عليه مما حلَّ به ، فأمسكت يديه وقلت له في عزم
وتأكيد : لا أرضى لك هذه الحياة ... لقد صبح عزمي على خطة في شأنك ...

سأحضر بعد غد لأتقاك إلى مسكن آخر ، رضيت أو أبليت . . . نستطيع أن نسافر إلى الضيعة أو نقيم أياماً في إحدى الضواحي الطيبة الهواء . . . فلم يعقب على كلامي بشيء ، ولم يزد على أن ربت يدي ملاطفاً ، وهو يبعث إليّ بابتسامة مستغلقة زادتنى حيرة إلى حيرة . . . وفي اليوم الموعد ، وفدت على « مَغْنَى الرشيد » وقد اتتويت أن أنفذ عزمي على نقل الصديق إلى مسكن آخر . وما كدت أقارب الدهليز ، حتى أقبل عليّ « مسرور » يزحم الممرّ بجسمه المتكتل وعمامته الطويلة التي تناطح السقف ، وقال لي مبادراً : لك عندي رسالة من سيدي الكاتين . . . وأخرج الرسالة من نطاقه ، ودفع بها إليّ ، ففضضتها على الأثر ، وقرأت :

« صديقي الكريم

كان من مُقْتَرَحِكِ عَلِيٍّ أن أَسْتَبْدِلَ بِمَثَابِي مَثَابَةَ أُخْرَى ، فلم يَنْفَتَحْ لِي مِنَ الرَّأْيِ إِلَّا أَنْ أَخْتَارَ حَوْمَةَ الْقِتَالِ ؛ فربما أقدرني الله على أن أقوم هنالك بعمل ذي جدوى . سأذكر لك كرم صحبتك ، وأشكر لك صفو مودتك . . . هل يسمح الدهر بأن نلتقى يوماً ؟

محبتك المخلص المستعين بالله »

وبارحت الدار والرسالة في يدي وأنا في موجة من الدهول والأسى ، دون أن أبادل « مسرورا » أي لفظ . . .

ومضى شهر لم أعلم من نبأ صديقي شيئاً كثر أو قل . . . وبينما أنا يوماً في مكنتي بمنصرف إلى بعض عملي إذ دق التليفون ، فإذا المتكلم على ما بدا لي جنديّ هنديّ يبلغني رسالة مقتضبة يدعوني فيها إلى زيارة مستشفى الجيش البريطاني بالجيزة . . . وما كدت أضع السماعة حتى خفق قلبي خفقة وكنهٍ وجزع ، ونهضت من فوري عجلاً إلى ذلك المستشفى ، فلما بلغت ، واتخذت إجراءات الإذن بالدخول ، ذهب بي الحارس إلى حجرة الانتظار ، وكانت صغيرة بيضاء الأثاث بيضاء الطلاء ، تطل نوافذها على مروج وحقول . وكنت قلقاً لا يستقر بي المقام ، أذرع الحجرة تارة وأقف أمام النافذة تارة أخرى . . . وبعد وقت دخل عليّ ممرضٌ طلق المحيا أبيض الحلة يلتمع نظافة

وأناقة ، وقال : صديقك ينتظرك ... أرجو ألا تطيل زيارتك ... لقد أجريت له حديثاً عملية جراحية ذات خطر .

وخطونا إلى حجرة المريض ، فإذا هي حجرة مسدلة الأستار يشيع فيها الدفء ، وفي ركن منها سرير تبينت بين أغطيته ومفارشه وجهاً بالغ الشحوب شديد الامتقاع ... وجهاً لم يكن بالغريب على ... وتقدمت مضطرب الخسوط ، فقابلتني العينان الزرقاوان وقد زيدا تصفءا حتى ليكاد الناظر يستشف خلفهما طيف تلك الروح الوادعة الحنون ... وتخيلت على ثغر الصديق ابتسامة رفيقة ، واضطربت شفاته بصوت مهزول راعش :

— لقد سمح الدهر أن نلتقى !

ولا أدري على وجه التحقيق بأي كلام أجبت ، ولكنني أذكر أنه استل يده من بين الملاحف ، وأخذ يدي يشد عليها ، فشعرت بكفه مقرورة غير متبالكة .

ووقت صامتاً أطول أن أكسب وجهي مظاهر الرضا والاطمئنان ، حتى أخفى عن صديقي ما راعني من حاله .

وبعد قليل ترك يدي ، وراح يتحسس بأنامله طيات وسادته ، فإذا به قد أخرج صورة صغيرة يحتويها إطار أنيق ، ثم راح يتوسمها لحظات ... ورأيتة يسبل جفنيه ، وتتراخي يده ، فأنحدت الصورة منها حتى استقرت على موضع قلبه ... فاختلست النظر إليها فإذا هي عينان دججوان ينبسط تحتها خمار أسود هفهاف ... !

وخيل إليّ أن هاتين العينين الحالمتين ، وهما ترنوان إليّ ، كاتتا نديتين تتحير فيهما قطرات من دموع !

محمود محمود

محتان متشابهتان

خلق القرآن عند المسلمين ، تجسد المسيح عند المسيحيين

وحدة التطور التاريخي نظرية خلافة أخذ بها بعض المفكرين المحدثين وأنكرها البعض الآخر^(١) وأشهر من تعمق في بحثها إلى أبعد حد ، المفكر الألماني سبنجلر ، وأسرف في إثبات نواحيها المتشعبة في كتابه الضخم « اضمحلال الغرب » . وهو كتاب خطير على ما فيه من غموض وتعسف وإسراف . ولا يستطيع الإنسان أن يتجاهل نظريات مفكر يرى قبل الحرب العالمية الأولى أن الدين الجديد الذي يقوم في العصور الحديثة ، يقوم في روسيا ، ويتحقق ذلك بعد بضع سنين عند قيام الشيوعية ، ويرى أن عظمة باريس ولندن ستزول وتحل محلها موسكو ونيويورك ، وكل ذلك عنده نتيجة حتمية لتطور المدينات المختلفة ، وأن هناك تطوراً واحداً كان لا بد أن تخضع له الحوادث في الماضي ولا بد أن تخضع له الحوادث في المستقبل .

وليس لمثل ذلك نشأ على دراسة الظواهر البيولوجية إلا أن يؤمن بصدق هذه النظرية . فالجنس البشري وأجزاؤه التي تتكون منها المدينات المختلفة والأمم المتباينة ، كل هؤلاء كائنات حية تتبع قوانين التطور العامة . والناس كلهم شاهدوا من قديم أوجه الشبه بين الكائنات الحية ولكنهم لم يدركوا كنه هذا التشابه قبل أن تتبين للعلماء نظريات التطور . وكذلك أدرك الناس قديماً أن التاريخ يعيد نفسه ، ولكنهم لم يفهموا أن التشابه بين الحوادث التاريخية ليس تكراراً ولا عفواً ، ولكنه تحقيق لقوانين التطور الحيوي .

(١) أنكر فيشر في مقدمة كتابه « تاريخ أوروبا » أن يكون للتاريخ سير معين أو قوانين ثابتة فهو يرى أنه هو شخصياً لم توهب له القدرة على رؤية نظام معين يسير عليه تطور التاريخ وأنه لا يرى في التاريخ إلا مناسبات تقوم عليها ظروف تؤدي إلى وقوع الحوادث التي نشهد لها .

وقد لا يتسع المقام الآن لشرح ما يدعوني إلى الإيمان بهذه النظرية ولا إلى إظهار الانقلاب الكبير في التفكير الإنساني لو أخذ بها جمهور المفكرين ، وتبينوا أن الاتجاه العام للتاريخ لا سبيل إلى تغييره ، وأن الحوادث الفردية لا تؤثر فيه إلا أثراً محلياً مؤقتاً ، وأنه مثلاً لم يكن بد من هزيمة ألمانيا في هذه الحرب ، ولو قدر لها أن تنتصر بقنبلة ذرية لكان ذلك خطأ في التاريخ كما تخطئ الطبيعة ، فتكون الكائنات المشوهة كما ادعى سبنجر أن النصر في موقعة اكتيوم كان خطأ في تطور التاريخ ، وكان يجب أن تنتصر كلوباترا .

ومما يدعو إلى إثبات هذا الرأي أن توجد حوادث متباينة كل التباين وهي مع ذلك متشابهة جداً في تطورها . ولم أجد حادثتين تثبتان وحدة التطور مثل محنة خلق القرآن عند المسلمين ، ومحنة التجسد عند المسيحيين ، فرأيت أن أعرضهما على القراء ليروا مظهراً من مظاهر هذه الوحدة .

ودفعني إلى ذلك أيضاً أن مؤرخي العرب مثلهم في ذلك مثل غيرهم من المؤرخين القدماء كانوا يظنون أنهم مركز الكون كله وأنهم وحدهم المسرح الأول للتاريخ ، ولم يحاولوا أن يربطوا تاريخهم بتاريخ غيرهم . بل إننا لنجد المحدثين من المؤرخين المصريين لم يحاولوا بعد أن يقربوا بين تاريخنا وتاريخ الأمم الأخرى الحديثة والقديمة . ولو آمن الناس بوحدة التطور التاريخي عن علم واطمئنان لزال الوحشة بين المدينيات المتباينة وبين الشرق والغرب مثلاً ، ولسهل على الناس أن يلتقوا في صعيد واحد حين يعلمون أنهم كانوا يسرون في طريق واحد .

قليل من المسلمين من سمع بالجدل حول تجسد المسيح ، وقليل من المسيحيين من سمع بالخلاف حول خلق القرآن ، على أن كلا الفريقين حين يدرسون هاتين المحنتين سيدهشون حقاً للتشابه التام بينهما ، وسيرون أن الطبيعة البشرية واحدة في تطور عقائدها ومظاهرها إيمانها . وكلا المحنتين أبعد عن التفكير الحديث من أن يثير البحث فيهما عند المؤمنين من المسلمين أو المسيحيين أي أثر يزعم إيمانهم أو يمس شعورهم بحال ما .

وإليك أوجه الشبه من الناحيتين الفكرية والسياسية .

فمن الناحية الفكرية نرى أن عقيدة المؤمنين الأولين من المسلمين والمسيحيين كانت تتمثل في الإيمان الطاهر النقي البسيط الذي لا يشوبه التفكير الدقيق في مظاهر هذا الإيمان ، ثم لم يلبث الناس أن بحثوا في هذا الإيمان وحكموا المنطق

والعقل وتفسفوا ، ولكن إيمانهم كان لا يزال قويًا فلم يؤد بهم البحث إلى الكفر ، وإنما التمسوا الهداية عن طريق التأويل . وتبين بعد قليل أن بعض هذا الإيمان يجب أن يضحى حفظاً لقدسية البعض الآخر ، وهنا بدأت تنشأ الطوائف المختلفة .

١ - رأى كبار الأتقياء والعلماء المخاصون ومعهم الجمهور أن مما يحس قداسة القرآن أن يقال إنه مخلوق ، ورأوا أنه لم يرد على ذلك نص فلم يستطيعوا القول به ، وكان موقفًا سلبيًا غاظ أعداءهم أهل المنطق والكلام . وأنكر هؤلاء المؤمنون أن يكون لعلم الكلام دخل في مثل هذا البحث . . . وخشوا على أنفسهم أن يؤدي بهم الجدل إلى الانزلاق في المروق عن إيمانهم الذي يعتبرون به ، وأنه ما دام النص الصريح لم يرد عن النبي ولا عن الصحابة بأن القرآن مخلوق فالقول به جرأة على العقيدة الصحيحة .

وكذلك كان بين المسيحيين من يؤمن إيمانًا صادقًا بأن الاتحاد بين ثاني الثالوث وبين نفس إنسانية وجسم بشري كان اتحادًا حقيقيًا دائمًا ، وكان ذلك هو الرأي الشائع بين المسيحيين حتى أوائل القرن الخامس الميلادي ، وكان تقديس مريم من أهم ظواهر الإيمان الصحيح .

٢ - الفريق الثاني هم الذين حكوا العقل مع الإيمان ، وهم المعتزلة عند المسلمين هالهم أن يشركوا مع الله شيئًا في قدمه ، وكانوا يرون أن القول بقدم القرآن يتنافى مع التنزيه الواجب لله على كل مسلم ، وأن الآيات التي يخالف ظاهرها التوحيد المطلق يجب أن تقول وأن القول بغير ذلك شرك بالله .

كذلك كان عند المسيحيين من رأى أنه لا يليق بالإله أن يكون قد أقام تسعة أشهر في جسم مريم وأن يكون خرج من أحشائها كما يخرج الناس ، وأبى الاتقياء أن يتصوروا الطهارة الإلهية قابضة في جسم آدمي غير طاهر ، ولم يؤمنوا بأن الله الذي يشمل العالم يمكن أن يحد من نفسه في جسم مريم ، وهالهم أن يكون الله قد عذب وصلب أو أن علمه كان يشوبه الجهل ، وأزعجهم أن يكون مبعث الروح والأبدية لقي حتفه فوق جبل كالقاري .

ورأى هؤلاء أن يفرقوا بين طبيعتي المسيح ، واختلفوا في ذلك شيعاً ، فمنهم من آمن بأن المسيح رجل عادي وإن كان خير بني آدم فاختره الله ليهدى الناس لعبادته ، فلما عمّده يحيى في نهر الأردن حلت فيه روح ابن الله على هيئة روح

القدس في صورة حمامة، فلما سلمه الحاكم الروماني إلى اليهود تركته هذه الروح العالية يتألم ويعذب ويصلب .

ومنهم من قال بأن جسم المسيح ليس كالأجسام ، وأنه كان يأكل مع الحواريين دون أن يجوع أو يعطش ، فهو فوق العيوب الجسدية ، فالشكل والمادة كلاهما إلهي ، أما الرهبان المصريون فتمسكوا بأن الهيئة إلهية إنسانية ، لما ورد في التوراة من أن الله خلق الإنسان على هيئته .

٣ — فريق رأوا واجباً عليهم أن يبتعدوا كل البعد عن هذه الآراء المارقة فأسرفوا في تقديس القرآن حتى قالوا إن نطقنا به قديم وأن حروفه قديمة ، وهو شطط لا يسوغه إلا شدة الرغبة في مقاومة الآراء المارقة .

ومن المسيحيين من أنكر أن المسيح ولد وكبر ، ومنهم من لم يؤمن بما جاء في الإنجيل عن تاريخه قبل رسالته ، ويقولون إن ما رآه الحواريون لم يكن إلا شبحاً جعله الله القادر على كل شيء في صورة إنسان ليلقى إلى الناس تعاليمه ، وإن تاريخ رسالة المسيح كان تمثيلاً على مسرح بيت المقدس لمصلحة الناس . واعترض عليهم أن مثل هذا الخداع لا يليق بالواحد القهار ، ولكنهم كانوا يرون كما رأى كثيرون بعدهم أن الخداع لهداية الناس مباح .

٤ — فريق رأى أن كلام الله يجب أن يطلق على شيئين مختلفين كما هو الشأن في كلام الناس : الكلام النفسي وهو القائم بذاته وهو الأزلي القديم ، أما القرآن المكتوب المقروء فهو حادث بلا شك .

ويقابل هؤلاء عند المسيحيين من كانوا يؤمنون بفصل السيد المسيح الإنسان عن ربهم عيسى ، وكانوا يحترمون مريم على أنها أم المسيح ، وكان يؤذيه أن تسمى أم الله ، وحذراً أحد البطارقة الناس أن يسموها كذلك وقالوا تلك كلمة لم يعرفها الحواريون ولا التابعون ولم توافق عليها الكنيسة ، وإنها قد تفضل البسطاء وتسرع غير المؤمنين ، وهي بالضبط نفس الأسباب التي حرم من أجلها المحدثون النطق بخلق القرآن .

واشتد الجدل بين هذه الفرق ، وكان كل فريق يبلغ في جدله إلى حد معين ثم يزعمه أن يجد نفسه مسوقاً إلى القول بما يخشى معه الكفر ، فأصبح الجدل بين المسلمين منحصرأ في القول بأن القرآن مخلوق أو مجعول ، وقتل الناس للفرق بين هذين اللفظين .

وعند المسيحيين انتهى الجدل إلى هل المسيح من طبيعتين أو في طبيعتين ، وقتل الناس للفرق بين حرق الجر الذين لا يستطيع الانسان في هذا العصر أن يجد من الفرق بينهما ما يسوغ هذا العداء الحاد . ثم قرر المجمع الرابع أن المسيح واحد وفي طبيعتين ، وبذلك وضع رجال الكنيسة الحد الفاصل بين الحق والباطل وبين الكفر والإيمان وإن كان هذا الفرق أحد من السيف (١) .
أما من الناحية السياسية فأوجه الشبه واضحة :

١ — حاجة الداعين إلى عقيدة معينة إلى استعمال القوة السياسية بحمل الناس على الإيمان بها . فالمأمون أخذ على نفسه وهو صاحب الأمر أن يدعو الناس إلى القول بأن القرآن مخلوق حادث ، وحمل ولاته على أن يجمعوا الناس ويمتحنوهم فمن قال بخلق القرآن فقد ثبت إيمانه وصحت شهادته ، ومن لم يقل بذلك فهو مارق لا تصح شهادته لزيغ عقيدته . ثم اشتد المأمون في استعمال القوة فرأى أن من لم يقل بخلق القرآن فهو مرتد ويحل قتله ، وأمر ولاته أن يمتحنوا الناس فمن لم يقل بقوله ضربت عنقه .

أما عند المسيحيين فلم يبدأ الإمبراطور بحمل الناس على عقيدة معينة في أول الأمر ، ولكن البطارقة في القسطنطينية والاسكندرية كانت لهم قوة سياسية كبيرة رأوا استغلالها في حمل الناس على الإيمان الصحيح ، فكان القديس كيرلس بطريق الاسكندرية يحكمها في الواقع وكان يستخدم عماله في الضغط على الحكام المدنيين وطرده اليهود من المدينة لكفرهم ، وذبح أتباعه فتاة كانت تعلم الفلسفة في الاسكندرية وسلخوا لحمها عن عظامها بقطعة من الحمار داخل الكنيسة .
أما نسطورس بطريق القسطنطينية فقد استمد قوته من الإمبراطور فقال له عند توليه الحكم أعطني الأرض خالية من الكفار وأنا أعطيك مملكة السماء ، وبعد خمسة أيام أحرق ديراً لمخالفيه في العقيدة .

٢ — سرعان ما انقلب الخلاف الديني البحت إلى خلاف على النفوذ الديوى . فثلا غضب الواثق على أحمد بن نصر ودعا إلى قتاله لقوله بخلق القرآن ، وإن كان كثيرون يزعمون أن سبب ذلك أكثره يرجع إلى ثورة أحمد بن نصر وخروجه عن الطاعة .

(١) أكثر هذا منقول حرقاً عن كتاب ضحى الاسلام الجزء الثالث وعن كتاب جيون ، ثمحلل وسقوط الامبراطورية الرومانية في الفصل السابع والأربعين .

أما عن المسيحيين فقد صارت الغايات الدنيوية واضحة جداً في كل أدوار الخلفاء وتدخل رجال قصر الإمبراطور في المعركة واشتركت فيها أسرة الإمبراطور ينصرون إحدى العقائد اليوم وينصرون الأخرى غداً ، ولم يأنف القديس كيرولس نفسه أن يستخدم الذهب في ترجيح رأيه على رأى عدوه بل قبل على نفسه أن يعلن في غموض وعلى مضض ازدواج طبيعة المسيح (وهو ما لم يكن يؤمن به) ليتمكن من حمل الإمبراطور على الانتقام من عدوه .

٣ — أصبح الجمهور المؤمن الساذج عاملاً قوياً في النزاع في الحالتين ، فكان تقود عامة الشعب عند المسلمين في جانب المحدثين والسنيين ، ووجدوا بطلهم المنشود في أحمد بن حنبل لصلابته واتجهت أنظار رجال الدولة إليه ، ولم يستطع المعتصم أن يقتله كما قتل غيره لالتفاف الناس حوله ، ولو قتله لكانت فتنة واضطر إلى إخراجه من السجن بعد أن ضرب وعذب لأن الناس اجتمعوا حوله وضجوا حتى خاف السلطان ، ولعله أعجب هو أيضاً بشجاعته وثباته .

وكان للجمهور عند المسيحيين دور حاسم جداً في هذا النزاع الديني ، وكان أكثر الناس مخلصين للعداء لا يريدون أن يعتنقوا مذهباً ينقص من مجدها . وواضح أن التعمق في بحث طبيعة المسيح لا يوافق بساطة إيمان الجماهير ، فصاحوا في مجمع أفيسيوس الثاني أن من قسم المسيح فليقسمه الله ولتمزق أعضاؤه وليحرق حياً .

ومن غرائب المصادفات أن يلجأ المأمون إلى تجريح مخالفيه أمام الجمهور فيقول عن أحدهم إنه كان يسرق الطعام بالأنبار ، وعن آخر إنه مشغول بأكل الربا عن الوقوف على حقائق التوحيد .

وأن يلجأ رجال الدين في أحد المجامع المقدسة إلى أن ينسبوا إلى رجال الدين من مخالفهم أموراً مخجلة ، فقالوا عن أحدهم إنه له عشيقة ، وأن بيته كان مفتوحاً للعاهرات وتوسلوا بذلك إلى عزله وتقيته .

٤ — سياسة المجامع وعقدها لحسم النزاع بالمناقشة ، وحدث في كلتا الحالتين أن أصبحت قرارات هذه المجامع خاضعة للقوة : قوة السلطان تارة ، وقوة الجماهير والاتباع تارة أخرى .

ظالمون دعا وجوه المحدثين مخالفيه في الرأي وأمرهم أن يقولوا بقوله ، وقد وافقوه على ذلك لأنهم لم يستطيعوا أن يقاوموا السلطان وخاصة أن العقل

والحجة كانت في جانبه . وهذه الحادثة فتت في عهد المحدثين والعامّة وأحزنتهم ونعى أحمد بن حنبل على من وافقوا المأمون على رأيه هذا الخضوع للسلطان ، وكان يقول إنهم لو خالفوه حينذاك لنامت الفتنة قبل أن تستفحل .

أما إمبراطور القسطنطينية فقد دعا إلى مجامع كثيرة وتاريخ هذه المجمع طويل . والذي يهمنا منه الآن هو أن أقوى أسلحة المناقشة في هذه المجمع لم تكن للحجة والاقتناع ، وإنما كانت للقوة والمال وعدد الأتباع . ووقعت حوادث عنيفة جداً في هذه المجمع التي وصفت بعد بأنها مقدسة ، حدث في مجمع أفيسيوس الثاني أن بطريق الاسكندرية شتم زميله بطريق القسطنطينية ورفسه وضربه ضرباً أدى إلى موته بعد أيام ، وأحاط الجنود بالقسّ الحاضرين فهرب هؤلاء تحت الكراسي ووراء المنبر ووضعوا إمضاءاتهم على أوراق بيضاء ملئت بعد ذلك بالطعن على بطريق الاسكندرية .

هـ — كان لموت الأمراء أثر ظاهر في تاريخ الحركتين . فلما مات الواثق وبويع للمتوكل لم يتحمس للقول بخلق القرآن ولم يحمل الناس عليه ونامت الفتنة ، وقيل للفريقين إن كان قد وسع النبي والصحابة أن يسكتوا عن ذلك فهلا وسعكم ما وسعهم . وحدث أن وقع الإمبراطور من فوق فرسه ومات ، فتغيرت الحال وانقلب المهزومون إلى منصورين وغالى هؤلاء في الانتقام من أعدائهم وساموهم سوء العذاب على ما ارتكبوا حين كان السلطان معهم . وقال الإمبراطور الله يشهد أنه غير مسئول عن هذه الفوضى ، وحمل بذلك المتخاصمين كيرولس ويوحنا صاحب أنطاكية على التصافح فتصافحا خشية وحذراً لا عن التسامح القلبي الذي تدعو إليه المسيحية .

وكذلك حدث عند المسلمين عند ما انتصر الحنابلة أن انتقموا لأنفسهم من المعتزلة وكالوا لهم بكيالهم وتمكنوا من الحكومة فأسرفوا في حمل الناس على اتباع مبادئهم بالعنف .

هذا مجمل تاريخ محنتين متشابهتين في أهم مظاهرها ، وهو توافق في الواقع غريب جداً حين نذكر أنه لا تكرار توجد بينهما علاقة تاريخية أصلاً .

دكتور محمد لامل مسين
أستاذ جراحة العظام بكلية الطب

ذكريات

الآفاق الأوربية تتفتح لي

لما فوجئ العالم في أوائل أغسطس من هذا العام (١٩٤٥) بالقنبلة الذرية وجد كثير من شباننا « المتعلمين » أنهم محتاجون إلى أن يراجعوا حياتهم وأن يفتشوا أذهانهم كي يعرفوا موقفهم على هذا الكوكب . وقد اضطر كثير منهم إلى أن يغيروا الأوزان والقيم الثقافية التي كانوا يرتضونها من قبل وأن يستبدلوا بها قيما وأوزاناً أخرى . وقد أحدثت هذه القنبلة صدمة في أذهان هؤلاء المتعلمين أوكد أنها لا تقل في قيمتها الروحية عن الصدمة المادية التي أحدثتها في هيروشيما وناجازاكي في اليابان .

أعرف من هؤلاء الشبان اثنين كلاهما يستمتع بمركز مالي حسن ، كما أنه على اطلاع حسن بالتيارات الثقافية العصرية . وقد كان إلى أغسطس الماضي قانعاً بمعارفه وتطوراته الذهنية . ولكن هذه القنبلة كشفت له نفسه فجأة . فقال لي واحد منهما : « أشتى أن أعيش طويلاً كي أتعلم وأعرف كثيراً عن تطورات العالم بعد ظهور هذه القنبلة » .

وقال الثاني : « إني أحس كأنني أحتاج إلى تربية جديدة كاملة أولاد بها من جديد أتعلم معارف جديدة وأقف على كنه هذه القنبلة وعواقبها الحربية والمدنية » .

وقد ذكرت مثلي هذين الشابين كي أقول إني في ١٩٠٨ أحسست مثل هذا الوجدان ، وضأقت نفسي إلى حد الانفجار . فقد وجدت من الأدب الذي نقله إلى العربية فرح أنطون ومن نظرية التطور التي دأب في شرحها يعقوب صروف سنوات في « المقتطف » إني إزاء رؤيا أنا أعمى إلا عن بصيص منها ، وإن هناك آفاقاً مغلقة يجب أن يكون همى واهتمامى في حياتى أن أفتحها . وذلك بعد أن استقر عندى أن جهلى عميق ، وأنى في مصر أعيش في حياة ذهنية ضراوية تقفر من التفكير الخصب . لذلك قررت وأنا في التاسعة

عشرة أن أترك مصر وأرحل إلى أوربا كي أبحث عن الحياة وأربى نفسى وأولد من جديد . وكنت فى ذلك الموقف الذى وجدته فى أغسطس من ١٩٤٥ من ذينك الشابين الذين ذكرتهما ، وأحسست كأنى أريد أن أنسى ، عن ظهر قلب ، كل ما سبق أن تعلمت ، وأن أمسح لوحة ذهنى كي أنقش فيها المعارف التى اختارها بنفسى .

وكان من حظى الحسن أن الناحية المالية بفضل ما ورثت من عقار صغير مغل ، لم تحوجنى قط إلى الاهتمام . ولم يكن الإسراف أو الاستهتار فى مزاجى . ولذلك لم أبال فى دراستى أن أعين هدفا بنية الارتزاق والكسب ، بل كان كل قصدى ونشاطى أن أستنير وأن أقشع هذا الظلام المخيم على عقلى . وشرعت آخذ تربيته فى يدي وأن أعين برنامجى أو برنامجى لا للدرس بل للحياة . بل الحق أن الدرس كان عندى هو الحياة ؛ لأنى شعرت أنى أعيش لأدرس وأنى أدرس لأعيش . ويبدو لى أنى أحسنت الاختيار فى هذا البرنامج ؛ لأنى أجد فى ١٩٤٥ أن همومى الثقافية لا تزال هى نفسها تلك الهموم التى كانت تشغل قلبى وذهنى فى ١٩٠٨ و ١٩٠٩ . وإذا كان هناك تغيير فهو فى التوسع والتفرغ فقط . فى ١٩٠٨ سافرت إلى فرنسا وهبطت باريس :

شباب وقراغ وبازيس . وأنا فى التاسعة عشرة . ولكن لا افان باريس عندى لم تكن مدينة الأنوار التى كان يحج إليها المصطافون ويجدون فيها ما يشتهون . لأن هذا الذى يشتهون قد وضع لهم وحدهم . إذ أن سواد الباريسيين يجهله . وباريس من حيث الانغماس الجنسى تعد من أنسك العواصم الأوربية . ثم كانت شهواتى الملتهبة فى تلك السنين ذهنية أكثر مما كانت جنسية . وكانت الدهشة عندى على أعظم ما تكون حين وجدتنى فى مجتمع يخالف المجتمع الذى نشأت فيه فى مصر . ولم تكن دهشة منبهة بل كانت صدمة موقظة .

كنت فى مصر قبل ١٩٠٨ أعرف الحجاب وأرتضى شعائره ولا أجد غرابة أو عيباً فى التلميذات الصغيرات يدخلن المدرسة السنية الابتدائية وعلى وجوههن براقع بيض . وكنت أجد الفصل بين الجنسين شيئاً مألوفاً . والبيت فى مصر خدر كامل ونساؤنا مخدرات كاملات . ولا أكاد أذكر أن طيلة عمرى فى مصر قبل سفرى إلى فرنسا قد تحدثت إلى آتسة أو قعدت إلى سيدة أو فتحت عينى فى وجه امرأة مصرية . فلما وجدت المجتمع الباريسى واختلطت به

ورأيت فيه المرأة الفرنسية على حريتها وصراحتها وطلاقتها شعرت أن أفقا جديداً يتفتح أمامى لم يستطع يعقوب صروف أو فرح أنطون أن يفتحه لى من قبل . فأنهما لم يحسا هذا الموضوع ، أى حرية المرأة ، لسبب واضح وهو أنها مسيحيان . وكانا بالطبع يخشيان أن يعاب عليهما النقد للعقائد أو التقاليد . ولم أكن قد عرفت قاسم أمين . ولا أدرى العلة لغيابه عن وجدانى فى ذلك الوقت . لذلك كنت حين أضطر إلى محادثة إحدى الباريسيات أحس ارتباكاً يغمر كيانى فلا أجد اللعثة فى لسانى فقط بل أيضاً فى سائر أعضائى . وقد احتجت إلى سنوات كثيرة حتى أتغلب على هذا الشعور المتعس الذى غرسته فى نفسى تسع عشرة سنة من الفصل بين الجنسين فى مصر .

وواضح أن هذا الشلل النفسى منع عاطفة الحب أو كظمها فى الوقت الذى كان يجب أن تنفجر فيه أو تتسامى . ذلك أن للحب فناً كنا نجهله نحن فى مصر فى تلك السنين . وكانت أية محاولة منى نحو التعارف الحميم بأئسة تنتهى بخيبة تكوى القلب والعقل معاً . وفى مصر فى وقتنا هذا من ينظر إلى الاختلاط بين الجنسين بعين المقت أو النفور . ولكنى حين أقارن حالى سنة ١٩٠٩ وما كنت عليه من تعس حنسى ووكس عاطفى بحال شباننا الآن فى سرورهم ولهوهم أرانى مضطراً إلى الاعتراف بأنهم سعداء يغبطون فى ظروف كنت أنا فيها شقيئاً يرثى لى . وحبست نفسى فى مدرسة ابتدائية فى قرية قريبة من باريس تدعى موليرى من قرى القرون الوسطى . واندغمت فى عائلة ناظر المدرسة ، وشرعت أتعلم اللغة الفرنسية فى نشاط ومثابرة حتى نبزت بين المعلمين بعبارة « كيه فو دير سا » أى « ما المَعْنَى » وذلك لألحاحى على السؤال . ولم تمض أشهر حتى وجدتنى أقرأ الجريدة اليومية بل الكتاب فى فهم وتعقل بمساعدة المعلم . وكان انتفاعى بجرائد فرنسا اليومية عظيماً لأنها وجهتني فى السياسة وجهة عالمية كانت جرائدنا فى مصر فى ذلك الوقت تعجز عنها . وانقطعت صلتى بمصر باستثناء « الجريدة » التى كان يصدرها لطفى السيد وكان يلقي تعاليمه الجديدة : مصر للمصريين لا للأتراك ولا للإنجليز . حرية المرأة . الحكومة الدستورية بإيجاد برلمان . وكان يكتب فى هذه الشؤون وغيرها بأسلوب اقتصادى بعيد عن الزخارف التى كنا نتعلمها فى المدارس الثانوية ونحسب أنها قمة البلاغة وتاج الفصاحة . وقد عرفت أن مجلة المقتطف قد جمعت هذا العام (١٩٤٥) عدداً كبيراً من مقالاته التى كتبها

بالجريدة فيما بين ١٩٠٧ و ١٩١٤ . والقارىء يستطيع أن يجد فى هذه المقالات ذلك التوجيه الوطنى الذى وجدته أنا فى تلك السنين منها .

وكانت المرأة الفرنسية ، كما قد عرف القارىء مما ذكرت ، أعظم ما حرك وجدانى الاجتماعى . بل كذلك كانت حرية المرأة فى أوروبا الغربية . فان هذه الحرية كانت لها يوسع ويجرحنى فى كرامتى الوطنية كلما ذكرت حال المرأة المصرية . وإلى هذه السنوات وإلى هذا الوجدان تعود ثورتى بعد ذلك على التقاليد المصرية التى لم أعد أطيق صبراً عليها . وكثيراً ما فقدت صداقات كنت أحرص عليها لموقفى من هذه التقاليد . بل هناك من أصدقائى من يقول إنى فقدت مكاسب .

وبعد ذلك قرأت هنريك إبسن ودعوته إلى شخصية مستقلة للمرأة . ثم عرفت المنظمات والجمعيات النسوية التى كانت تطالب بحقوق الانتخاب والنيابة فى لندن . وامتلاً قلبى وذهى نوراً وتفاؤلاً بمستقبل البشر .

وقد نشأت فى مصر فى وسط ريفى . ولذلك التفت إلى الريف فى فرنسا وتعلمت منه . فأتنا فى مصر لا نرحل إلى الريف إلا مضطرين كارهين لأننا نتوقع الغبار فى السكك والإهمال الصحى فى المساكن . وريفنا فضلاً عن هذا صحراء الروح لما ينجم عليه من جهل وفاقة وقدر كأنه الدنس . ولكن ريف فرنسا جنة العين . وكنت أجد السعادة العظمى فى فسحة أقضيها ماشياً على الطرق الزراعية التى يكسوها البلاط (وقتئذ) بين حقول تموج بحركة الحياة النامية فى البقول أو تزدان بالكروم وأشجار الناكهة الزاكية . وما زلت أذكر أنى رأيت ذات مرة فى جولاتى هرماً أثار استطلاعى فقصدت إليه . فلما بلغته وجدته شجرة قد كساها التفاح الأحمر حتى كاد يخفى أوراقها

والقرية الفرنسية ، مهما صغرت ، تحتوى كثيراً من المرافق الاجتماعية حتى لكأنها مدينة صغيرة . فإن فيها المطعم والحانة والفندق والسوق الأسبوعية . ولذلك كثيراً ما يقضى الباريسى أسبوعاً أو شهراً فى الريف كما يقضى أحدنا مثل هذه المدة فى الاسكندرية أو رأس البر .

وفى الحرب الكبرى الثانية أشار الماريشال بيتان شبهاً وشكوكاً بشأن المجتمع الفرنسى أوهمت كثيراً من القراء المصريين أن هذا المجتمع مريض قد تفككت فيه العائلة وتزعزع الإيمان . والواقع أن كل هذا وهم ؛ فإنه ليس فى

الآفاق الأوربية تفتح لي

أوروبا عائلة متماسكة كالعائلة الفرنسية . ولا يزال نظام هذه العائلة بطريقتها لا يخرج فيه السلطة عن الأب . وليس في كل أوروبا الغربية أمة تحترم الكنيسة كما يحترمها الفرنسيون . وحسب القارىء أن يعرف أن جميع الكنائس في فرنسا ، وبعضها ينفرد في ريف ناء ، تترك مفتوحة ليلاً ونهاراً . ومع ذلك لا يسرق ما فيها من الأثاث الغالى الذى يقدر أحياناً بمئات أو ألوف الجنيهات . وهذا على الرغم من حرية الفكر المستفيضة . لابل على الرغم من الدعايات النشيطة ضد الدين والكنيسة . وما زلت أذكر منظرأ كان له أثر الصدمة الموجهة لأول شهر كنت فيه في باريس في ١٩٠٨ . فقد رأيت جنازة تسير في أحد الشوارع تتقدمها راية قد كتب عليها « لا رب ولا سيد » .

ومثل هذا المنظر يوم أن الأمة الفرنسية قد استفاض فيها الكفر والإلحاد . ولكن وقفة واحدة خارج الكنيسة أو داخلها يوم الأحد كانت تكذب هذا الوهم . فان كاهن القرية هو الرئيس الروحي الذى يخاطب السكان بلهجة الأمر محيط به هيبة التقاليد . والواقع أنه ليس في أوروبا كلها كنيسة حية كالكنيسة الفرنسية .

والحانة ، على الرغم من اسمها وشهرتها ، هي في باريس والمدن والقرى مؤسسة اجتماعية للسمر بين الرجال أو بين الرجال والنساء . وكثيراً ما يجد فيها الزائر الطعام إلى جنب الشراب . ومع أن في فرنسا آلاف الحانات ، ومع أن الاطفال يشربون الخمر ، فاني لا أذكر أنى رأيت طيلة إقامتي في فرنسا في ١٩٠٨ و ١٩٠٩ رجلاً سكران . ولعل مرجع ذلك أن الفرنسي يأكل ويشرب ويسكن ويلبس ويعمل وله في كل ذلك مأرب فتى يحمله على أن يتأنق في معيشته . فهو يتجنب السكر عن تأنق وفن كما يجد في التمالك كرامة ولياقة . والمائدة الفرنسية بأوانيتها وزهورها ، هي متعة فنية كما هي لذة الذوق بمهارة طهايتها .

ويدهى أن لتمامك العائلة الفرنسية نتيجة هي أن فرنسا أقل أقطار العالم كله طلاقاً . وأن البيت الفرنسى يشبه في كثير من الأحيان متحفاً يحوى كثيراً من التحف القديمة والطرف الغالية . والجيل الجديد يرث عن الجيل السابق تقاليد في البيت هي الشعائر الاجتماعية التى يتعارف بها الأفراد كما يرث الأبناء تراث الآباء من أثاث مادي أو ذكريات روحية .

وتعلمت اللغة الفرنسية في سرعة عجيبة . وقد هبطت وحدى بلا معونة على

طريقة ، وجدت بعد ذلك أن المربين قد التفتوا إليها ، هي أن الجملة ، دون الكلمة ، هي التي تحفظ وتستذكر . وحين كنت أزور باريس كنت على الدوام أعني محضور إحدى الدرامات . وقد أتيج لي أن أستمع برؤية سارة برنار وهي تمثل « النسيير » ولكنها كانت في كهولتها قد ذهبت عنها لمعة الشباب مع بقاء البراعة الفنية .

ودأبت في قراءة الجرائد الفرنسية اليومية . وكانت تباع بأثمان التراب . وتعرفت إلى الأحزاب الفرنسية وشغفت بقراءة الأومانيته التي كانت تعبر عن الاشتراكيين . وكانت الاشتراكية رؤيا جديدة حملتني على أن أذكر الطبقة الفقيرة في مصر وأجعلها موضع إهتمامي . وأكسبتني الجرائد الفرنسية العقلية السياسية الأوربية ، واستطعت أن أفهم كثيراً في ضوء المذهب الاشتراكي . وكانت جرائدنا في مصر « محلية » قد أنهكها الكفاح للاستقلال وحال بينها وبين دراسة الشؤون العالمية . ولذلك انتفعت كثيراً بهذه النظرة الواسعة . وخاصة لأن إقامتي في فرنسا صادفت تلك السنوات التي سبقت الحرب الكوكبية الأولى . فكانت الحماز تختمر لمن يتشمم الأخبار ويتنسم الطوالع .

ومع أن اللغة الفرنسية هي لغة الافصاح والابحاض ، لغة الأدب الحر ، ومع أن باريس بؤرة الآداب الأوربية بل مشعلة الثقافة التي نعشو إلى ضوئها عيون الأوربيين ، ومع أن فرنسا لا تزال في وجداني فكرة أكثر مما هي فطر ، فاني لا أنجأه العلمي وجدتي في مستقبل أيامي أميل إلى قراءة الكتب الإنجليزية وأثرها على الفرنسية . لأن الإنجليزية نعت عن نزعة عملية تحقيقية كثيراً ما نجدها بعيدة أو غائبة عن المزاج الذهني الفرنسي . ولذلك أعزو تربيتي الثقافية إلى الإنجليزية أكثر مما أعزوها إلى الفرنسية .

وإذا سألتني القارئ : هل وجدت في الإنجليزية أدبياً له مرانة الفن ودقة الحس وإنافة التفكير وجمال التعبير مثل أناطول فرانس ؟ فاني أجيب بلا . كما أنني أعترف أن هناك غير أناطول فرانس ممن أثمرتهم الثقافة الفرنسية ولا يوجد من يضارعهم من أدباء الانجليز أو الأمريكيين . ولكن ميزة الكاتب الإنجليزي ، وأسمى كتاب الانجليز عندي هو برنارد شو ، ميزته أنه يلصق بالحقائق ، وله قدم ثابتة في الأرض حتى حين يرتفع رأسه فوق السحاب . ومع أنني مازلت إلى الآن أوتر الجريدة الفرنسية في القاهرة على الجريدة الإنجليزية ،

الآفاق الأوربية تفتح لى

ولا أترك نزعة أدبية فرنسية تقوتنى ، فانى حين أحتاج إلى دراسة تطالبنى بالهرس والطحن أعمد إلى الكتب الانجليزية .

وفضل فرنسا على أنها جعلتني أوربي التفكير والنزعة . وقد تركت باريس في نفسي إحساساً بأنها عاصمة العالم المتمدن . ولم يتركني هذا الإحساس إلى الآن . بل إنى أرى من الحق أن نصف المصرى أو الألماني أو الروسى أو الصينى الذى استشبع بالثقافة الفرنسية بأنه « فرنسى » كما كان يوصف سكان البحر المتوسط من الرومان والمصريين والمشاركة بأنهم « هليونيون » إذا استشبعوا بالثقافة الإغريقية ونزعوا النزعة الآتينية . لأن إغريقيا لم تكن وطناً جغرافياً للإغريق فقط بل كانت أيضاً وطناً ثقافياً لغيرهم من أبناء الأمم المجاورة . وكذلك فرنسا ليست الآن وطناً جغرافياً للفرنسيين وحدهم ، وإنما هى وطن كل مثقف درس الثورة الفرنسية وأحب باسكال وروسو وعرف كلود برنار وأناطول فرانس . ولا يستطيع أحد أن يقول مثل هذا القول عن أى قطر آخر . لقد فتحت لى فرنسا الآفاق الأوربية التى لا تزال تنبسط أمامى فتكسب حياتى مغزى حتى حين أعيش فى وسط ليس له معنى فضلاً عن مغزى . وأى عزاء أكبر من هذا ؟

محمود موسى

CONTRE UNE TERREUR DES FAITS

RAYMOND GUERIN

مقاومة الذعر من الواقع

[أنشئ هذا البحث الممتع لمجلة « الكاتب المصرى » خاصة ونحن ننشره بالعربية قبل أن ينشر فى نصه الفرنسى ، ونرجو أن يعنى به الأدباء عامة والذين يشتغلون منهم بالقصص خاصة فقد يحملهم تدبره على أن يراجعوا بعض المذاهب فى إنشاء القصة وتصوير أشخاصها وعرض ما يجرى فيها من الأحداث] .

يُزعم بعض المتطبين أن القصة سقيمة مريضة ؛ فهم ينحنون على فراشها ، يصطنعون فى مكر الرثاء لحالها ، ويقترحون لها علاج العجائز . وقد يذهبون إلى أبعد من ذلك فيزعمون أن قُضى عليها ، ويعلنون إفلاسها ، ويتباحثون فى كيفية إنزال الضربة القاضية بها . بل يصلون أحياناً إلى دفنها حيّة دون أن يقفهم أقل استحياء . ويخيل إلينا أنهم يحاولون عبثاً . فالقصة التى يزعمون أنها تُختسّرُ تنعم مع ذلك بصحة لا بأس بها . لهم أن ينقموا منها أو يسخروا ، أو يزدروا بل أن يضحكوا ، فهى على الرغم من ذلك كله تمضى قدماً غير حافلة ولا آبهة . تختلف عليها الصور والأشكال طوعاً للظروف ، ولكنها ، على ذلك ، فتية نشيطة ، خلابة جذابة . حتى أنه يمكن إن يقال إنها أصابت فى الأدب مكانة رفيعة ممتازة ، فصارت على مرّ السنين ، وعلى الرغم من جميع ألوان السخرية والاحتقار التى تعرضت لها ، الوسيلة الناجعة لتصوير الفكر الحديث والتعبير عن الإحساس الحديث ، والقالب القذّ الذى يكلفُ رجل القرن العشرين كلفاً متزايداً فى أن يفرغ فيه حظه من الحياة وأهواءه وقلقه النفسى .

لذلك لا يتحدث عن أزمة القصة إلاّ النقاد المتشائمون . أما القصص أنفسهم فيسغون إليها كما تسعى مياه الأنهار إلى البحار . وأما القراء فلا يزورون عنها

ولا يزهّدون فيها ، إنما يلتمسون فيها مرآة تعكس حياتهم الخاصة ، وصوراً تعرض ما يعتقدون من أمل وما يفقدون من رجاء ، ويجدون فيها الأحلام التي لم يحققوها أو تلك التي أشفقوا من أن يواجهوها ، ويلقون فيها أشخاصاً يدنون منهم في الشبه أو يناون عنهم ، ويستعينون بها آخر الأمر على الاتصال بالعالم الذي يضطربون فيه والجماعة التي يحيون فيها .

إن الذين يقطعون بأن الإنسان مفطور على الشر ، وأنه لا يخلص من هذا الشر إلا بافتداء وهمي ، وكذلك الذين يقطعون مخلصين بأن الإنسان مفطور على الخير ، يوشكون أن تغمرهم جميعاً الحيرة والدهشة أمام ما تصطنعه القصة لنفسها من حرية وجراءة . وسواء أكان الكاتب القصصي متبعاً أو مبتدعاً ، فهو يبتكر أشخاصاً وبيئات وأجواء ومناظر طبيعية وألواناً من النزاع والخصام . وهو إذا ألقى شباكاً على العالم في مهارة وأبى أن تضلله المذاهب المقررة ، فسيشعر من غير شك أن الأشخاص الذين يبعث فيهم الحياة ليسوا اختياراً كل الخير ، ولا هم أشرار كل الشر حين يُبينون عن غرائز جامحة ، ويدعون لمقاييس خلقية تحسن أحياناً وتسوء أحياناً أخرى ، وأنه لا يمكن تحميلهم كل تبعة أعمالهم .

فلن يضيع الكاتب وقته في القضاء على هؤلاء الأفراد ، ولا في تحرير أثبات المتهمين ، ولا في الإحصاء والاستقصاء ، فضلاً عن تقرير الذين يتراءون اختياراً أو لوم الذين يتراءون أشراراً ؛ إنما يعني أن يتبين لماذا وكيف يدفع الطموح — مهما يكن حسناً أو رديئاً — أشخاص قصته إلى هذا التخالف الذي يجعلهم مقسمين بين المطلق والنسبي ، بين الحلم والعمل ، بين الخيال والواقع .

ومهما يكن الطعن الذي وجه إلى القصة فليس هو شيئاً يذكر بالقياس إلى البُغض الذي تصبته النفوس المريضة على « الواقع » . وعنف هذا البغض يصور ما لهذا الواقع من خطر . فكل فنان جادٍ مقدّر لفنّه مضطر إلى أن يتخذ لنفسه موقفاً بازاء الحقيقة الواقعة ، فهي قابلة لأن يقال فيها كل شيء إلا أن ينكر وجودها . فقد دلّت التجربة على أن الإسراف في لزوم الأصل كالاِسراف في الابعاد في نقله إلى أفق آخر يقطعان الصلة الضرورية بين الفنان والعالم .

أما اصطناع الخيال ، فلا بأس به . ولكن بشرط أن يدعمه الواقع البين الذي لا مفرّ منه . هذا ما لم يدركه إميل زولا ، ولا جان جيروودو . وأنا

أذكرها على سبيل التمثيل للتطرف في كل من الاتجاهين : الإذعان للواقع من ناحية ، والإبعاد في ثقله وتصويره من ناحية أخرى . فالأول انتهى الأمر به إلى أن انغمس في المستنقعات اللفظية للمدرسة الطبيعية الكريهة الذوق . والثاني وصل إلى ابتداع عالم خيالي رائع من غير شك ، لكنه يبتعد أشد البعد عن المعقول ، فأشخاص الظلال الرقيقة الرافهة التي يعرضها علينا لا حظ لها من ثقافة أو كيان أو حياة ، نشأت منذ مولدها هزيلة منتقصة ، تأثرت في ذلك بتكلف المؤلف للاستقصاء وتصنعه لعدم الاكتراث وتهاونه الأرسطوقراطي . أحدهما عرض واقعاً مزيفاً ، والآخر عرض خيالاً محضاً . وكلاهما خضع لسلطان الأساطير بما تحتوي من إغراق أو تصنع ، ومن ابتذال أو برقة ، ومن إقذاع أو ترفع . لكن أين الحياة في كل هذا ؟ مازلنا نسائل أنفسنا عن ذلك حتى اليوم . أين هذه الحياة التي يحتاج إليها الإنسان ليحيا ؟ أين هذه الحيوية النابضة التي هي جوهر وجوده ؟

قد تأتي على الناس جميعاً بلا شك أحيان يملؤها الأسى والتخاذل . وهم في مثل هذه الأحيان يلتمسون في الكتب معونة على أن يخلصوا من الشقاء والمشاكل والأفراح ، يريدون أن يحتسوا كأس النسيان ، أو أن يجتروا خيبة آمالهم . يختلف هذا باختلاف أمزجتهم . هناك يقرءون زولا أو جيرودو . وقصص الواقع الحديث العهد بالأدب ما عسى أن يكون موقفه من هذا النزاع ؟ لقد انغمست حياته انغماساً عنيفاً في لجة الشدائد التي تلم به كل يوم ، وأذعن إذعاناً أليماً للتسلط القاسي الذي تفرضه عليه الهيئة الاجتماعية ومنشآتها ، وللأنظمة والظروف التي هبئت للطبيعة الإنسانية . لذلك وُسم بهذه العوامل ومما عميقاً . وعلى القارئ أن يقبله كما هو ؛ لأن الصيحة التي يبعثها والمداد المثلث الذي يخط به كتبه ، كل هذا يجده القارئ هو أيضاً في نفسه .

فالكاتب القصصي يرفض إذن حين يكتب أن يغلو في الانسلاخ من الحياة الواقعية ، فيصل إلى العدم أو الإحالة . إنما يتخذ لنفسه منزلة وسطاً ، فلا هو بالحيوان ولا هو بالملاك ، على حد قول باسكال . ولا يفكر إلا في أن يستوعب الحياة في جميع مظاهرها ، ولو كلفه ذلك اجترأ في غير تردد ، أو الظهور بمظهر المتجاوز لحدود الفن . ولما كان قد اختار القصة ليعرب بها عما يريد ، لأن القصة تمتاز ، على الرغم من كل شيء ، بماعداها من الوان الأدب بأنها اللون

الذى تتاح فيه الحرية ، واللون الذى يصبح الكاتب فيه فعلا صاحب السلطان الوحيد المسيطر على العالم الذى ينشئه وعلى أشخاصه وما يعرض لهم من أحداث ، وعلى شكله وحدوده ، وعلى كثافته واتساعه ، فإنه أزمع أن يؤكد حقه فى أن يقول كل شئ وأن يصور كل شئ ، وأن يثبت رغبته فى أن يستعمل جميع الألفاظ وأن يواجه جميع الحوادث التى تشغل بها حياته أو تزدهم .

كتب مسيو بوالو فى أسلوب يخلو من الرشاقة : إني أسمى الهرّ هرّاً ، وأصف مسيو روليه بأنه خدعة . وليغفر لى القراء هذه الصورة البيانية ، فلم يدفعنى إلى ذكرها ما لاقت من رواج كبير ، بل ذكرتها لأنها تحسن التعبير عما تعنى . مع هذا الفارق البسيط (فإن الجماعة المرائية تجيد الدفاع عن نفسها) وهو أن مسيو بوالو نفسه هو الذى كان ينبغى وصفه بالخدعة لو أن الحق دفعه إلى الانتقال من الأقوال النظرية إلى العمل . والواقع أنه احتاط كل الاحتياط وامتنع عن ذلك ، كما نعلمه جميعاً . فقد كان رجلاً حذراً . نعم إن العصر لم يكن مهياً لثورة الكتاب ، إذ كان السلطان للمحافظة . ولكن ينبغى ألا نضلّل أنفسنا ، فلم يتغير من الأمر شئ . وما زال قصص الواقع معروضاً حتى اليوم لأن تلحق به أشد الإهانات . ويحتمل أن نزوة من نزوات ذهن قصير تكون سبباً فى مصادرة كتبه والسخر منها والتشنيع عليها ، بل فى التشهير بالكاتب نفسه . على أنه يجب أن يكون معلوماً أن هذا الطغيان لن يقفه ، فهو مصرّ على أن يبلغ الغاية مهما يُقَمّ فى سبيله من عقاب .

إن القراء ، بوجه عام ، أشخاص طيّعون . بمعنى أنهم لا يسرعون إلى الملل ولا يسرع الملل إليهم بقدر ما يسرع إلى المؤلّفين ، من حيث الأساليب الممكنة للتعبير . وقد أعرض الآن عن قصص الفروسية ، ولكن ما زال بينهم من يُقبل على أدب بلزاك ، ويعتبر بلزاك غاية الغايات . ولا يصدّ هؤلاء القراء عنه ما تنطوى عليه فلسفته فى الحياة من أسلوب نمطى ضيق ، أوّل ، محدود الأفق بشكل شنيع .

وكل قيمة الإنسان فى رأى بلزاك (وفى رأى مقلديه) تتركز فى إرادته . أى إن بلزاك يغلو فى تقدير الأفعال . وهو بذلك يحدّ الممكنات الانسانية حدّاً

كبيراً، وينتهى إلى أن يجعل من الإنسان، بل من كل إنسان، سهماً غليظاً يريد أن ينطلق مباشرة نحو الهدف في اتجاه محدد تحديداً دقيقاً، سواء اعترض هذا السهم في انطلاقه عائق أم لم يعترضه . والواقع أنه صور الإنسان على الشكل الذي سوتّه عليه الهيئة الاجتماعية خلال القرون ، لا على الشكل الذي يحتمل أن يكون عليه إذا منح الفرصة لإنماء كل الملكات الكامنة فيه . وكان من تأثير بلائك أن رأينا الإنسان في صورة معينة محدّدة ؛ فهو هذا الرجل أو ذاك ، ولم نحاول أن نحرّره من هذه الخواص الموروثة لتهيأ له الفرصة في أن يحيا حياة كاملة .

هذا التحديد هو الذي يحاول قصصى الواقع أن يثور عليه . ومن قبل ذلك ظهرت ثم استقرت مذاهب مختلفة في التصوير والتعبير . منها مذهب التحليل النفسى غير الموجه (وهو مستقى من ستندال أودوستوفسكى) ، ومذهب افتقاد الزمن واسترداده (وهو مستقى من بروس) ، ومذهب التطويق الذهني (وهو مستقى من جويس) ، ومذهب رمزية ما وراء الطبيعة (وهو مستقى من كيركيجارد ومن كافكا) . ولقد أثرى الأدب القصصى أثناء هذه السنين العشرين الأخيرة إثراءً عظيماً بفضل هذا الإمداد الجديد . ويستطيع أن يزيد ثراءه إذا أتيح لقصصى الواقع أن يواصل جهده الثورى . ولكن ماعسى أن نقول عن هذه الثورة ؟ فقد بقيت حتى الآن في معامل الفكر والذهن ، ولم تشع في جمهرة القراء إلا في مشقة عظيمة . ولا أظننى أغضّ من هذا الجمهور إن قلت إنه لم يكتسب بعدُ سداد الرأى الذى يسمح له بإدراك ما يقصد إليه قصصى الواقع . فمن أين جاءه قصوره عن متابعة هذه الحركة ؟

يخيل إلى أن هذا الجمهور إنما يضيق أكثر ما يضيق بما يعرض عليه من نصوص فيها جرأة وشدة ، وبما يرى من ازدراء قصص الواقع للتقاليد والمواضعات ، واستهائته بكل ما يمكن أن يناقض مبادئه الخاصة ؛ لأن هذا الجمهور مقصور على العالم الضيق الذى هيء له تهيئاً يكاد يكون محتوماً ، وهو لا يريد أن يخرج منه . والأمـر مع ذلك لا يتصل بالواقعية ، أو على الأقل لا يتصل بها كما كان يفهمها فلوير أو ميرابو أو ديكنس أو تورجينييف . إنما يتصل بشيء آخر ، يتصل بتصوير الحق مع افتراض أن هذا الحق قد يتخذ كل الأشكال وقد يختلف باختلاف الأشخاص .

مقاومة الدعر من الواقع

ومن الخطأ الذي كثيراً ما يقع فيه القارئ أن يندفع في غير تفكير إلى ما يقرأ ، إلى القصة التي تقص عليه ، إلى الدُعي التي تنفخ الحياة فيها أمامه وله ، فيخيل إليه أن الكتاب حين يعنون في وصف عالم رذل أو شخص بغيض إنما يدافعون عن هذا العالم أو عن هذا الشخص ويحاولون فرضهما وتمجيدهما . وهو مخطيء في ذلك ؛ فليس من الضروري أن يكون هذا الشخص وذلك العالم صورة لما يؤثره الكتاب في أعماق نفوسهم . فالكتاب حين يؤدون شهادة تطابق الحق مطابقة دقيقة لا يؤدونها على أنها مثال يحتذى ، إنما يكتفون بعرضها على القارئ ، وكأنما يقول له كل كاتب : انظر إلى هذه الصورة ، إنها تمثل الأشخاص والعالم والأهواء والطباع والهيئة الاجتماعية ، وليست بالشئ الجميل ! ولكني لا أعرضها عليك نماذج مثالية ، إنما أظهرك عليها لأحثك على اجتنابها ولأحث نفسي على اجتنابها ، ولأعينك وأعين نفسي على مقاومتها ، بل على تبديلها إن استطعنا . فالن عند قصصى الواقع ليس عكساً للصور ، ولا استيعاباً لها ولا تحويراً ، إنما هو يستغل العكس والاستيعاب والتحوير ليتعمق استقصاء الأشياء . ويبدو لأول وهلة أن هذا أصل من الوضوح والظهور بحيث لا يحتاج إدراكه إلى ذكاء خاص . فلم قلّ الذين يفقهونه ويرعونه ؟ يرجع هذا أولاً إلى أن واقعية الأشياء تستند إلى وهم خطير . وهو وهم يحتفظ به في الأذهان عن قصد أو عن غير قصد .

فإذا جاز لنا أن نتحدث عن أوهام الواقع ، فإنما ذلك لأن هذا الواقع يعتمد على مجموعة من الظواهر تستمد جوهرها من الأساطير : فأساطير الشرف ، وأساطير الطهر ، وأساطير الأسرة ، وأساطير المنصب ، وأساطير المغامرة ، والأساطير العنصرية والدينية ، والأساطير السياسية والاجتماعية ، وأساطير « الرجل » . . . كل شئ أساطير منذ وجدت أذهان تفكر ، وألفاظ تعرب عن الأفكار ، وحوادث تبينها . أولاً تذكرنا الهيئة الاجتماعية وما يشتمل عليه نظامها من تركيب معتقد بمجلس للآلهة يتسلط على الأفراد بدون علمهم ؟ كما لو كان للضمير سلطان « زوس » يسيطر على أهوائنا وغرائزنا ، على آلهة الواقع وهي الكبرياء والكذب والفجور والعنف والصدقة والبخل . فكما كان القدماء يخضعون لقوانين آلهتهم ، ينعمون برضاهم ويشقون بغضبهم ، فالإنسان الحديث يخشى في كل لحظة ضرورات الواقع ويتوسل إليها .

وقد فقدت الآهواء والغرائز الصور التي كانت تظهر بها فيما مضى . فلم يبق من الآلهة الذين كانوا يسمون إيروس ومارس ومينرف وبسيشيه وكاساندر ونمزييس وبارك وكاستور وبولوكس وپان أو كرونوس وأورفيه أو أوديب وأبولون أو ريونيزوس وهرمس أو تيتيس ، إلا أسماء لاتدل على شيء ، ولكنهم ، على ذلك ، مازالوا مستقرين في نفوسنا بما كان لهم من قوة الأساطير القديمة . وسواء عاش الإنسان لنيل السعادة ، أم كان غرضه في الحياة إدراك ما يحيط به والسعى إلى الكمال ، فإنه لا يستطيع الفرار من المشكلات التي تقيمها علاقاته مع الهيئة الاجتماعية . وعبثاً يحاول حل هذه المشكلات . فهو لا يرى إلا حوادث وتناج ، وأهواء وصراعاً وأوهاماً ، ومقدمات وعلا . وهو يغفل عن أن كل حدث من أحداث الواقع إنما هو نتيجة قانون أو بدعة أو عادة أو ثورة ، وأن هذه العوامل كامنة فيه (كما هي كامنة في كل واحد من أترابه) وأنها بذلك تكتسب طابع العموم . وهذه الخواص المشتركة هي التي تكون الأساطير . والأساطير نفسها يوجد فيها التفكير الآلى للجماعة ، فتبدأ حينئذ تعمل ، ثم تتخذ لنفسها معنى ، وسرعان ما تطبع الواقع بطابعها سواء كان هذا الواقع عملاً أو شعوراً . ولعل من الجائز أن نقول إن الواقع لا يؤثر في الإنسان إلا بمقدار ما يكتسب هذا الواقع من البدهة التي تفرضه عليه . هنالك لا يفكر الإنسان ، بل يسير بغريزته في الاتجاه الذي رسمته الجماعة له ، ويصبح السلطان للأساطير . على أن ضعف الإنسان إلى هذا المدى أمام القدر ، وعجزه عن السيطرة على القوى الكامنة فيه ، وحرمانه إلى هذا الحد حقه في تقرير مصيره (مهما ادعى لنفسه من تحرر) فهذا نفسه هو الذي يجب أن يحثه على الانتصار على نفسه . ويجب لتحقيق ذلك أن يكون له علم دقيق بالأساطير ، كما يجب أيضاً أن ينظم لنفسه نوعاً من الدفاع يقاوم به ما للواقع من تسلط أسطوري .

فالإمعان في معرفة أساطير الواقع هذه وتفسيرها ، وتحديد هذا النوع من أساطير الواقع الخاصة بكل فرد (ويجب أن يكون في وسع كل إنسان أن يصنع ذلك مهما كانت الصورة التي تتخذها هذه المحاولة : قصة أو اعترافاً أو أسطورة) إنما هو محاولة وضع الإنسان من جديد في مواجهة الأقدار التي تسحقه أو ترفعه ، وإنما هو تحديد مركزه في علاقته بالهيئة الاجتماعية ، شأن القدماء في خضوعهم للأقدار التي كانت تفرضها آلهتهم عليهم . وكذلك يستطيع الإنسان الحديث ، بل

يجب عليه ، أن يستخلص درساً نافعاً من التفسير الأسطوري لما يخضع له من حوادث ومغامرات ، من لغة ومن تفكير ، من معنى ومن لا معنى . وهذا الموقف يستتبع البحث عن الوسائل التي تعين على التخلص من هذا الرق ، وعلى مدّ الرجل الحديث بملكات تسمح له بالانتصار على قهر الهيئة الاجتماعية . ومعرفة الوقائع بما ينطوي عليه من قسوة ومن جو أسطوري فاجع يلائم كل الملاءمة الثورة على ما في الهيئة الاجتماعية من قوى شريرة تتعسف بالفرد وتتخكم فيه ، كما يتفق مع العزم على مقاومتها والتخلص منها .

وفي ميدان الكتابة (وهو الذي يهمننا هنا دون سواه) إذا أردنا (في جميع الأحوال) لتسمية الهرّ هرّاً ، أن نشترط حرية كاملة في التفكير والأداء ، ثم أن نتخلص من مادية المذهب الواقعي (فضلاً عن المذهب الطبيعي) فنعيد إنشاء الواقع على أساس أسطوري جديد ، فإن ذلك يقتضينا عزيمة صادقة . فلنتصور هذه المجموعة الضخمة من المقررات المبتسرة الخاطئة التي يجب أن نقهرها ، وهذه الدقة التي يجب أن نصطنعها ، لنستخلص من الحوادث اليومية ومن الألفاظ الحارية على الألسنة ومن الآراء الذائعة بين الناس (ثم من أندر الحوادث والألفاظ والأفكار) شعوراً قوياً ممتازاً ، بل متعة ذهنية لم تكن لتخطر على بال حتى الآن . وواضح أن هذا يتطلب رياضة دقيقة يجب القيام بها . فالألفاظ التي تنطق بها (شاعراً أو غير شاعر بالخطيئة) ، والأفعال التي تأتيها ، والخواطر التي تجول في أعماق نفسك ، يشق عليك أن تقبلها كما هي ألفاظاً مطبوعة في كتاب . ترى الحياة من ناحية (وتعلم أنك لا تبلغ مستواها دائماً) وترى الفن من ناحية أخرى . أنظر إلى المصادفات كيف تلتقي ، وإلى الأخلاق كيف تُجرّف عن موضوعها ، وإلى الحياة الواقعة الخصبية كيف تشوّه تشويهاً منكراً حين يُراد نقلها إلى صورة أثر فني !

فالإنسان شجاع مادام إنساناً يضطرب في الحياة ، ولكنه يضعف ويتردد حين يحاول الفن . يخشى الأحداث ، ثم يخشى الألفاظ التي تعتبر عنها . فمن العسير أن تقبل ما يراه جان بولان من أن الألفاظ عالم مستقل على هامش الحياة بعيد عن الأحداث التي يصوّرها . وليس من اليسير أن تتعود على اتخاذ الألفاظ مجردة كأنها قطع من أحجار اللعب تستعمل فقط في ملء الخانات وفي

حلّ المشكلات . وإنما النطق بالألفاظ ولو همساً ، ولو بين الإنسان وبين نفسه ، ينفخ الحياة في الألفاظ . أمصدر هذا أن ضمائر الناس ليست مطمئنة ؟ أتقدر أنهم يميلون بطبعهم إلى الشر ويشفقون من ظهور هذا الميل ؟ مهما يكن من شيء فمن الخير أن يخلص الناس ما استطاعوا من سلطان الألفاظ عليهم ، وأن يُثبتوا استقلالهم بآرائها ، فلا يتأثروا بها (منطوقة كانت أو مكتوبة) أكثر من تأثرهم من خفقان نبضهم أو حركة تنفسهم .

هذه هي المشكلة التي يواجهها قصصى الواقع في الوقت الحاضر . ولنرسل الكلمة الحاسمة : فالقانون الخلقى لا يوجد بالقياس إليه ، وأشد ما يخشاه أن يكون معلماً للأخلاق . والحياة عنده فوق كل شيء ، وبخاصة لتنوعها . ولكن ماذا يضع في كتبه ؟ ممّ تتألف هذه الكتب ؟ ماذا سنجد فيها ؟ لا شك أنها ستسأنف دراسة المشكلات الجوهرية الخطيرة : ما الحياة ؟ ما الإنسان ؟ ما طاقة الإنسان ؟ أى معنى يستطيع الإنسان أن يعطيه حياته ؟ وهذا الإنسان كيف تتصوره ؟ أين الباطل ؟ أين الحق ؟

ويذهب قصصى الواقع إلى أنه ينبغي للإنسان أن يجرؤ على أن يعيش دون تقيّد بعقيدة أو مذهب أو قانون ، ودون تعليل النفس بالأوهام ، دون الخنوع لأوامر خلقية . فليواجه الحياة بما تنطوى عليه من أخطار وممّات دون محاولة الفرار منها . فلا تكن غايات تبرّر الوسائل ، وليظهر كل واحد مظهره الحقيقى دون أن يشعر بالضرورة فى أن يستعير لنفسه مظهراً تحت تهديد أى مذهب مقرر . ولتتبع السيرة المشتركة ، والورع الناشئ عن الخوف من الأحزاب أو من خشية الحياة الأخرى . (وأنا إذ أذكر ذلك أفكر فى أولئك الذين كثيراً ما يقولون : أما أنا فلو لم يوجد الله لغرقت فى الأثم إلى القاع . أو : أما أنا فلو لم يوجد نظام الحزب لأصبحت أبشع المجرمين) . إنما يجب أن يكون الإنسان رجلاً يعرف كيف يؤثّر الفضيلة ويكون خليقاً بمكانته عن إرادة حرّة لا عن خوف سيف مسلط عليه . أن يكون رجلاً خبير الحياة ، ولكنه مع ذلك لا ينساب فى سخف إلى الملل والسأم ، بل يعرف كيف يستمتع بكل لحظة من لحظات حياته . ثم هو يعمل عن رأى لا عن شعور . ويجب دون أن يمثل ، ويفكر تفكيراً مجرداً عن الشهوات .

ولا تجرّه عن قصد السبيل . فما زال بين الكتاب في جميع العصور من أعلنوا أن من الحقائق البديهية أن الحياة لا مغزى لها (وهم مع ذلك يعجبون بجهاها) وأن الإنسان سخيـف (وهم مع ذلك يعترفون بحاجته إلى المثل العليا) . وآثارهم ، سواء منها الاعترافات القائمة المظلمة ، أو الصيحات التي تملؤها الحماسة والحمية ، كانت تقتصر على تقرير ذلك ؛ وكأن هؤلاء الكتاب وجدوا أنفسهم أمام مشكلة لا حل لها ويجب الإذعان لحكمها على أى حال ، فهم يضربون صدورهم ، أو ينوحون ، أو يثيرون مشاعرهم . يختلف موقفهم باختلاف مزاج كل منهم ؛ ولكنهم لا يتجاوزون ذلك .

وآخرون جدّوا في الوقت نفسه باستجلاء هذا السر الغامض ، ولم يسعوا إلى شيء سعيهم إلى البحث عن حل ، على شرط أن تبين صحته . وأخذوا - وهم من أعماق الهوة - يفكرون في الحل : فهل ينبغي قبول العون الذي يوحيه الدين ؟ أو ذلك الذي تبتدعه الأخلاق ؟ أم الإيمعان في القلق حتى يصبح مصدراً للذة ؟ أم الانتهاء إلى الانتحار المنقذ ؟ أو استسلام العقل في سخرية ؟ أم قبول الفاجعة في استهزاء ؟ أو العيش على هذه الفاجعة كما تعيش البراغيث على جلود الكلاب ؟ أم التغلب عليها من طريق التحدّي ؟ أم الإقلال من قيمتها ؟ أم إنكارها في كبرياء أثناء ثورة من ثورات حب الذات ؟ كانت كل هذه الحلول جائزة في نظرهم إذ يرون المهم في رأيهم ألاّ يُستسلم ولا يُتخذ موقف سلبي ، وأن يثبتوا وجودهم لأنفسهم من طريق الإدراك لما يجدون .

والهم الأساسى . الذى يشغل بال الكتاب ، وهو سعيهم في إدخال ما وراء الطبيعة فى الفن ، ليس حديث العهد ، مهما ادّعى المدّعون . ولكن لن ينكر أحد أنه تغلغل فى الأدب الحديث وسيطر عليه . بل لقد اتخذ فى هذه السنوات الأخيرة مظهراً أشد حدة وتفاذاً . وزاه عند فريق يستند إلى مذهب بطلان قيمة الحياة (ولا يدفعهم ذلك إلى عدم الاكتراث الذى يلجأ إليه الفارون الذين يبتغون أن ينجوا بأنفسهم ، ولا إلى العنف الذى يتخذه المتمردون الثائرون ، بل يقصدون إلى أن يحشوا الإنسان على العدول من هذا الفرار اليأس ، وعن هذه الثورة المغرية الشديدة الإغراء ، وعلى ممارسة الفضائل التى لا يمكن إنكار قيمتها حتى إذا نظرنا إلى الحياة على أنها باطلة فارغة) . وزاه عند فريق آخر يستند إلى المذهب الوجودى ، فيرغم الإنسان على أن يخرج من العدم الذى هو فيه وأن

يمتاز عن غيره وأن يحدد نفسه ويمجد شخصيته . وعلى أساس كل من المذهبين يجوز أن يكون حياة الإنسان معنى ، ما دام هذا الإنسان قد صمم على أن يسمو بكل قواه إلى تمجيد شخصه وإلى تأكيد وجوده تأكيداً قوياً جلياً ، على الرغم من سخف البيئة المحيطة به وابتذالها وميلها إلى الشر . وواضح أن هذين مذهباً في فلسفة البطولة الباسلة ، يندفعان في غير تردد ، دون أن يفقدا الأمل في رفع الحياة الإنسانية ، والاستقرار بها أخيراً في هذا المستوى الجديد .

ولسنا نقصد من ذلك مخاصمة هذين المذهبين ، بل على العكس من ذلك نضع نظريتهما وآثار أصحابهما موضع تقديرنا الكامل ، وقد أوجدتا بين أصحابهما وبيننا إخاء صادقاً . ولكننا (إذا تركنا جانباً ما لمثل هذه المذاهب من بصيرة نافذة) نسائل أنفسنا : ألا تتعرض أحياناً لخطر التفرير والانحدار ؟ فما الذي يحدث لو أن الإنسان استطاع أن يصل إلى أبعد غاياته في الاتجاه المنشود ؟ وما الذي يحدث أيضاً لو أنه ، على عكس ذلك ، أخفق إخفاقاً شاملاً ؟ لقد أدرك ذوو البصيرة النافذة من أصحاب هذين المذهبين الفلاسفة أن حل المسألة حلاً كاملاً لا يمكن أن يؤدي إلا إلى الغثيان أو إلى الانتحار ، كما أنهم لمسوا الاستحالة المطلقة لتمجيد الفرد أو لتأكيد وجوده تأكيداً حقيقياً دقيقاً مجدياً .

أما نحن فنعتقد اعتقاداً قوياً جازماً أن الذي يكسب الحياة قيمتها ويجعلها جديرة بأن يحياها الإنسان ، إنما هو استمرار الحيرة بين هذين الحلين استمراراً رهيباً مزعجاً . فالحياة ناقصة ، والأحياء ناقصون أيضاً . وهذا خير . والأشياء لا تنمو إلا بالقياس إلى نقائصها . وليست الحياة حياة إذا لم تكن مزاجاً من الخير والشر . وليس للخير قيمة إلا إذا قيس بالشر . كما أنه ليس من المحقق أن عالماً فردوسياً لا ينتهي إلى الملل والسأم . والذي يكسب حياتنا قيمة ، كما ذكرت بل الذي يكسب أروع لحظات حياتنا قيمة (فهذه اللحظات موجودة بلا شك ، ولا يستطيع إنكار ذلك) إلا من اضطرب تكوينه الفكري) أنها تنبعث من الرجز ، وأنها نحياها بين انغماسين في أعماق الأجزاء المنحطة من حياتنا . وليس لنا أن نرفض هذا التناوب . وفي نهاية الأمر ، إذا أمعنا التفكير تبين لنا أن كل شيء يجري كأن الإنسان وهو يستمتع بلذة الحياة لا يستطيع الاحتفاظ بهذه اللذة إلا إذا وقف نفسه دائماً في منتصف الطريق بين الشقاء الذي يدفع إليه بطلان الحياة ، وبين الحماسة التي يبعثها تمجيد النفس وتأكيد الوجود . وإذا ما استطاع

تزيين عالمه بالألوان الزاهية البهية فذلك أنه لا يرسب من الياس إلى القاع ، كما أنه لا يصل أبداً إلى تحقيق شخصيته تحقيقاً كاملاً . وعلة وجوده هي الأمل ، والأمل وحده ؛ فهو في حاجة إلى الثقة من أن مصيره ليس إلى الشر المطلق ولا إلى الخير المطلق . نعم إنه يرجو ألا يهوى أبداً في أعماق العدم ، ولكنه يرجو أيضاً ألا يبلغ نفسه أبداً ؛ لأنه إذا انكشف له العدم كان معنى ذلك الموت ، كما أن إدراك ذاته يؤدي أيضاً إلى الهلاك ؛ فهو يتقدم إذن مستقر العزم . على أن هذه الرغبة في التوازن لا تنقصها الشجاعة ولا الذكاء . وهي تستند على الاعتقاد بأن الكفاح في ذاته خير من النتيجة ، وأن السعى نفسه أكرم من الاكتفاء .

بل نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول : إن استمرار النزاع في داخل نفس الإنسان بين أرقى مطامحه وأسوأ ما يبلغ من هذه المطامح ، هذا ما يعينه على أن يعيش . حتى إنه لو لم يقم هذا النزاع المستمر لوجب إيجاده . بل إن من حظ الإنسان بلا شك ألا يتمكن من تجنب هذا النزاع ، كما لا يتمكن من أن يجد له حلاً . فحل النزاع ، إذا لم يكن بد من أن يحل ، ليس إلا في التناقض بين العناصر التي تكوّنه . فالذي يخلع على الحياة مثل هذه الفتنة الجذابة هو أن يظل التعارض بين ما للحياة من معنى عميق وبين انعدام معناها قائماً بدون حل . فما ينبغي للإنسان أن يمضي في حزن جذب على بطلان الحياة ، ولا عليه من ناحية أخرى أن يعرض عن الرجاء في حياة تنطوي على بعض المعنى ، حتى كان هذا الرجاء لا يعتمد إلا على الأوهام .

فإذا اتّهبنا إلى هذا وجدنا أنفسنا في ظروف مهياة تهيئاً حسناً لوضع قواعد — هي في الواقع في غاية البساطة — عن فن الاعتراف أو القصة الخيالية أو حتى عن الأسطورة لا يتعرض فيها كل من الإنسان ، والحياة ، والأشياء ، والألفاظ ، للتشويه عن طريق تصوير يُتعمد فيه أحياناً التفاؤل المنظم أو يتعمد فيه أحياناً أخرى التشاؤم المنظم ، بل تُستقصى كل هذه الصور في أمانة ودقة سواء تناوبت عليها الأشكال أو اقترنت . ونستطيع بهذا أن نضع قواعد في الفن نَعْتَمِدُ في وحيها على التنوع والتفاوت والاقتران . فيكون هذا الفن في الوقت نفسه واقعياً ومثاليّاً ، شعريّاً دون أن يتخذ شكل الشعر ، جذاباً حتى حين يكون رذلاً بشعاً ، مشغوقاً بتعرف الاتصالات الإنسانية في تنوعها وغرابتها

من الناحيتين البسيكولوجية والفيسيولوجية . ولا يتردد في أن يجمع في الأثر نفسه بين أشد القطع تنوعاً واختلافاً ، وإن شق ذلك على القراء الذين اعتادوا قراءة المؤلفات ذات الوتيرة الواحدة ، والنغمة الواحدة ، والحساسية الواحدة . وقبل الدخول في تفاصيل هذه القواعد يحسن أن نبين كيف ولماذا ظهر لنا الأدب كأنه أخفق إلى الآن . فإن الأدب أراد أحياناً أن يلتزم حدّاً وسطاً مريحاً ، وأحياناً أخرى ألقى بنفسه في غير اعتدال في اتجاه أو في آخر حسبما أوحى الفن إلى المؤلفين . وكتاب آخرون نادرون اهتدوا إلى هذه القواعد وعرفوا قيمتها ، ولكنهم لم يجرؤوا على السير مع أشخاص قصصهم سيرتهم مع أنفسهم حين ترجوا عن حياتهم الخاصة ، من حيث تطبيق هذه القواعد . ويعتبر ستندال مثالا عجيباً لهذا النوع الأخير من الإخفاق .

فإذا كان هناك كاتب لا تجهل اليوم مصادره ولا خفاياه ، ولا ميوله ولا نظرياته ، ولا عيوبه ولا مجازفاته ، وقد أنصف آخر الأمر ، فهو ستندال . فقد عرفنا الآن ، بفضل آثاره التي نشرت بعد وفاته ، وبفضل أوراقه المبعثرة المشتتة ومذكراته الخاصة ، وكذلك بفضل شراحه ومفسريه ، أنه كان رجلاً جذاباً فريداً على الرغم من كل ما أشاعه حوله عوام الكتاب من افتراء . وقد أغفل ما أذيع عنه من سخف اتهم فيه بالجفاء ، والأناقة المتكلفة ، والزهو . وقد أجمع أكثر المفكرين تشدداً في الفن على الاعتراف له بالفطنة الفائقة في تحليل الأهواء الإنسانية في قصصه . كما أن الرأي استقر من ناحية أخرى على أن أكثر كتبه صراحة تعتبر مشاركة قيمة في دراسة القلب الإنساني .

وحسبنا أن نعاشر ستندال ، ولو وقتاً قصيراً ، لكي نتبين ما أعطى من نفسه لأشخاص قصصه . فليس جوليان سوريل أو فابريس ديل لونجو أو لوسيان لويين إلا صوراً لهنري بيل^(١) الضابط في جيش إيطاليا أو الزائر المتردد على صالونات الكونتيس پالفي أو مدام بونيو ، أو صاحب المشروعات الخيالية التي كان يهيم بها ، يحرقه الطموح وهو في الوقت نفسه يعدو وراء السعادة . نجده كاملاً في هذه الشخصيات على الرغم مما أدخله عايتها من تمحوير . فامسه خلال تلك

(١) الاسم الحقيقي لستندال ، إذ أن « ستندال » اسم استعاره في الكتابة . (المترجم) .

مناومة الذعر من الواقع

الخطط الغرامية التي يضعها لغزو قلب لوازون أو ميتياد ، أو في سيرة جوليان مع مدام دي رينال الفاتنة ، أو في غزل لوسيان المتهالك على أقدام مدام دي شاستلير . نلمسه في ذلك الجندي الباسل الذي يعبر نهر البريزينا ، وفي فابريس الذي يشهد موقعة واترلو دون أن يراها . نلاحظه كذلك وقد استولى عليه الملل والضجر في سيفيتا فيكيا ، أو حين يجد لوسيان نفسه منفياً في الأقاليم ، أو إذ يتحرق فابريس غيظاً في البرج الذي سجنه فيه الجنرال كوتى . كما نلمسه وهو يكيد للتقرب من أسرة دارو أو يسخط على أسرة ، كذلك في النزاع بين جوليان والآب كاستانيد البغيض ، أو إذ يشترك في السياسة الحزبية طاعة لالجاح والده الرأسمالي .

على أن ستندال ليس أقل بروزاً في صفحات اعترافاته الخاصة ؛ بل نستطيع أن نعتبر أن محتويات برولار والذكريات الشخصية واليوميات لا تقل قيمة عن محتويات قصصه . فإن شخصيته تظهر هنا وهناك . وهو في الوقت نفسه كل بطل من أبطال قصصه . فهو ذلك الطفل من أطفال جرينويل الذي يضطرب عند وقوع نظره على ثدي أمه الرائعين ، وهو الشاب المتردد على بيوت الإثيم ، وهو الرجل الذي يلزمه الإخفاق ، وهو المزدري القاسي لحماقة معاصريه .

ما السبب إذن في أن ستندال أبى وهو يصور أشخاص قصصه أن يصور نفسه في مظاهرها المختلفة ؟ لقد رضى أن يمنحهم من نفسه ما به من إيمان بمضاء العزيمة ، ومن كبرياء متسرعة ، ورقة عواطف ، وبغض للكذب والمال . كما منحهم دائماً أكثر اندفاعه نحو النساء حساسية وأشدّه التهاباً . لقد اجتهد ما استطاع في الارتفاع بهم ، فمنحهم من نفسه خير ما كان فيها . ولكنه لم يرض أو لم يفكر في أن يصور لنا هؤلاء الأشخاص بالصورة الخليعة التي ظهر بها هو نفسه في مذكراته الخاصة ، أو على الشكل الصريح الذي ظهر به في يومياته . هل يزعم لنا أحد أن هؤلاء الأشخاص تبدل شخصياتهم لو أنه جعلهم يقبلون على ممارسة بعض رذائل العزلة ، أو يخفقون في غزواتهم الغرامية في اللحظة الأخيرة الدقيقة ، ويسرفون في العريضة مع رفقاء جمعتهم بهم ظروف عارضة ، أو يعستون سوق السيدات من دون المائدة أثناء العشاء ، أو يعنون إذا ما سنحت الفرصة في استعمال ألفاظ سوقية مبتذلة ، أو يبسطون أماننا حساباً شحيحاً

تضطرم إليه ميزانية ضيقة محدودة، أو يستجدون وساماً في غير استخذاء؟ (١) كلا! أو ليست حقائق الأشخاص الذين ابتدعهم ستندال مستقاة كلها منه نفسه؟ ومع ذلك فهو لم يجرؤ على نقل صورته اليهم نقلاً كاملاً. لم يخف علينا شيئاً من نفسه في نجواه الخاصة. فقد كانت لديه إذن مادة يجهّز بها أشد نواحي أبطال قصصه غموضاً واضطراباً، ولكنه أصر على الصمت إصراراً. أيرجع هذا إلى قصور في الشعور الفني كان لا يزال تقليدياً؟ أم إلى الاشفاق من إضعاف القوة القصصية لأبطاله؟ أم إلى تردد أمام عصره؟ أم إلى حياء شخصي؟ أم إلى دراية عميقة بالدوافع التي تجذب عواطف الجمهور الساذج؟ أغلب الظن أنه يرجع إلى شيء من كل هذا مجتمعاً. والظاهر أن ذلك لم يذهب سدى.

وكثير من أنصار ستندال بل حتى أتباع هنري بيل (٢)، ومعظم المشغوفين العاديين بالقصة الخيالية يحمّدون له عرض الأشخاص الذين ابتدعهم في صور مثالية. وقد يسوءهم أن يبدو لهم هؤلاء الأشخاص فجأة كما يحيون في الواقع. وقد يزداد استياؤهم لو أن ستندال طبق على نساء قصصه القواعد الإباحية التي جرى عليها في مذكراته الخاصة، فأظهرهن عاريات كما أظهر نفسه أحياناً في صراحة وجرأة نادرتين.

(يتبع)

محمود مبراهيم

قلها عن الفرنسية الدكتور توفيق شحاته

-
- (١) كل هذه كانت من خصال ستندال في حياته الخاصة.
- (٢) ستندال باعتباره الكاتب القصصي، وهنري بيل باعتباره صاحب المذكرات الخاصة.
- (الترجم)

الكاتب المصرى

نشأته ومكاته فى المجتمع

مقدمة فى ظهور الضمير وانفراع الكتابة

لقد مر طور على الإنسان كانت غرائزه فيه هى التى توحى إليه ما يعمل وما يترك ؛ فلم يكن يحس شيئاً عن السلوك ولم يكن يفقه شيئاً عن الأخلاق ، ولم يكن يحسب حساباً لما يجب أن يفعل وما يجب أن يترك ، بل كان يعيش هائماً على وجهه : يسعى إلى الطعام كلما وخزته غريزة الجوع ، ويكرع من الماء إن ألح عليه الظمأ ، غير مدرك سبباً لما يفعل ولا نتيجة لما يذر .

لم يقف الإنسان عند هذه الوحشية التى كان عليها فى عصر ما قبل التاريخ ، بل سار على مركب من تجاربه الشخصية نحو التقدم حتى تراءت له لمع من عناصر الأخلاق فكان ذلك تقدماً هائلاً فى حياة البشر ، ثم سار الإنسان قدماً فى طريقه الموفق حتى وصل إلى مرتبة أدرك فيها أن من الأخلاق ما يستحب ومنها ما يستهجن ؛ فصار تقدمه بذلك أعظم خطراً وأقوى أثراً لأنه سما به درجة نحو الوعى الإنسانى .

هذا الوعى ، أو بتسمية أخرى هذا الضمير ، استمر فى نموه حتى صار قوة اجتماعية كبيرة لها تأثيرها فى عالمها . ولها أيضاً تأثير رجعى على تلك البيئة الاجتماعية المبكرة التى خلقت هذا الوعى وأخرجته إلى عالم الوجود : فصياد ما قبل التاريخ بدأ حياته يكافح بين ذوات الظفر والحافر ، واستمر لا يعرف من الحياة غير الكفاح فى سبيل القوت والبقاء . واستمر على تلك الحال طويلاً إلى أن أحس هاتفاً يبدو خافت الصوت والأثر ينبعث من نقطة بعيدة فى باطنه لا يكاد يستبينه أو يدرك كنهه ، إلا أنه فى جملته يختلف عن الهاتف إلى الطعام إن ألم به

الجوع والهاتف إلى الدفاع إن ملأه الخوف وأحيط به . ثم أخذ هذا الهاتف يظهر ويستبين ولكن في بطاء وثقل واطمئنان حتى استوى على ساقيه فكبر أثره وعظم خطره . ولم يقتصر تأثيره على تحريك إحساس واحد تاركاً بقية المشاعر هادئة في نومها مطمئنة ، بل حرك لأول مرة كل العوامل النفسية في وقت واحد معاً .

فمن أين نبت هذا الهاتف ؟ وأنى له أن يكتسب تلك القوة الآمرة المسيرة للإنسان ؟ وكيف نهض حتى أصبح قوة راسخة مهيمنة في المجتمع الإنساني ؟ إنه الضمير ! وإن ظهوره لتقدم عظيم ، وقلب لما تواضع عليه الناس في حياتهم وطرق معاشهم ، ولكننا لم نستطع أن نصل إلى كنهه أو نتتبع أطواره إلا عند انبثاق فجر التاريخ حين جرى القلم بتدوين الوثائق وتسجيل الأفكار وتصوير ما تكنه نفس الإنسان عن تجارب ماضيه البعيد .



الكاتب ومعه أدوات الكتابة

على ضوء فجر التاريخ رأينا الوعي الإنساني وعرفنا التطورات التي صار بها قوة اجتماعية أنتجت عصر الأخلاق . وقد استغرق هذا التطور كما يقول علماء الاجتماع والجيولوجيا آماداً طويلاً لا تقل عن ألف ألف من السنوات ، واستطاع الإنسان في نهايتها أن يبني تلك الحياة الراقية التي أطل منها برأسه عصر الأخلاق .

الكاتب المصرى

وصلنا إذن إلى الضمير في فجر عصر التاريخ؛ لأننا قرأنا للقوم منذ فجر عصر التاريخ؛ فهذا العصر يحدد لنا بداية الكتابة. وقد ثبت من البحوث العلمية والكشوف الأثرية التي ظهرت حتى الآن في كل بقاع العالم أن أول من خط بالقلم هو المصرى، وأن الفضل للمصريين في اختراع الكتابة والتصرف فيها، وذلك منذ ٣٤٠٠ سنة قبل الميلاد.

اتخذ الكاتب المصرى أول أمره صحائفه من الأحجار يثبتها أفكاره، ويسجل عليها آراءه، ثم لجأ إلى أوراق البردى وإن غلا ثمنها لسهولة حملها وطبها، فخرج العالم بفضل الكاتب المصرى من جهالة عصر ما قبل التاريخ الذى غمر العالم بموجبه المظلم نحو ألف ألف من السنوات إلى عصر التاريخ ذلك العصر المشرق الذى ما زلنا فى بدايته.

سريرة الكاتب المصرى القديم

إن الكاتب المصرى الذى كان أول إنسان خط بالقلم وضمن للحياة العقلية البقاء، كانت له مكاتته الرفيعة عند قومه فأحلوه المحل الأول فى صفوفهم، وبذلك قدروا العلم وأرسوا بنيانه، وأجلّوا الكاتب المثقف وأعلوا مكانه، فمن يبرع فى الكتابة فله عندهم أسى المراكز وإن لم تسمح مواهبه الأخرى بذلك، بل لم يكن للحاكم نفسه قيمة إلا إذا كان كاتباً. من أجل ذلك رأينا كبار الموظفين القدماء يلحون فى أن يصوروا أنفسهم كتاباً؛ لأن الكتابة فى نظرهم موضع الشرف والامتياز، والكتابة سلم يعرج فيه الكاتب إلى مركز الوزارة. والرجل الذى يستطيع الإبانة عما فى ضميره بأسلوب جميل هو ذلك الشريف المهذب الذى تتفتح أمامه الأبواب المغلقة والآفاق الواسعة؛ فكم من وزير فى الدولة المصرية القديمة بدأ كاتباً، وكم من منصب رفيع دلف إليه الكاتب وأغلق دون غيره. ومن هنا شملت الكتاب موجة من الغطرسة والكبرياء وراحوا يُدِلُّون على غيرهم بمركزهم الاجتماعى. والكبرياء وإن كانت فى ذاتها مكروهة فإن المثل العليا التى رسمتها طائفة الكتاب للموظف الذى يعتد بنفسه ويحترم رأيه ومبدأه ويرتفع بكرامته، جعلتنا نتجاوز عن ناحية الصلف، ونعترف لهم بأنهم أول من رسموا للموظف خطة الأمانة والحق، وأنهم جعلوا من

واجبه ان يكون كالميزان لا يحيد ، عادلا ينتصر للمظلوم ويأخذ من الظالم ، حاذقاً يعرف كيف يتغلب على الصعاب ، ويشق طريقه بين أعظم الصخور وأمنع العقاب . وكانت آراء الكاتب تحترم فى مجلس الشورى ، وكل قول له يجب أن يقدر ؛ فقوله الفصل ، ورأيه القاطع ، وحرفته أسمى الحرف وأعلاها . بهذه الروح كان الموظفون يعملون ، كما نشئوا الشباب من طائفتهم على هذه المبادئ نفسها .

ومجمل القول أن الكاتب المصرى القديم كان مثاليًا فى مبادئه وخططه وطرائقه فى الحياة ، وأنه كان رفيع القدر بين قومه ، وأنه رسم للأحداث من الكتاب خطة قوية عمادها الحق والواجب ، وأن له الفضل فى اختراع الكتابة من قديم ، فكنا من متابعة الحياة العقلية منذ عصر التاريخ إلى الآن ، وأن اللفظ (شش) بمعنى كاتب وإن لم يظهر إلا فى عهد الأسرة الثالثة فإنه من غير شك قديم العهد لاشتقاقه من مادة كتب القديمة . ذلك إلى أن لفظ (حرسشتا) بمعنى كاتم السر أو سكرتير ظاهر فى الألقاب الحكومية منذ الأسرة الأولى أى منذ بدء استعمال الكتابة ، فلا مرأى فى أن المصريين أول الكتاب فى العالم .

أعداد الكاتب المصرى القديم

لم تكشف لنا التربة المصرية عن وثائق صريحة تصف لنا المدرسة المصرية ونظامها ومنهجها ، وغاية ما عثرنا عليه إشارات تدل على وجودها ؛ ففى إحدى مقابر الدولة القديمة وجدنا لقب « معلم أولاد الملك » . ويرجح أن مدارس تلك الدولة كانت ضمن مباني المعبد أو فى عاصمة الملك . وقال لنا « خيتى » صاحب التعاليم المشهورة صراحة : « إن مدارس الدولة الوسطى كانت فى مقر الملك » ، كما ذكر « آنى » فى تعاليمه جملة تشعر بأن المدن كانت تضم بين جدرانها مدارس . أما مدارس الدولة الحديثة فيظهر أنها كانت على درجتين : الأولى ما نسميه نحن المدرسة ويسميه المصريون القدماء « بيت التهذيب » . ومنهجها تعليم الكتابة والأدب القديم على لوحات من الخبز وشظيات من الحجر الجيرى (استراكا) توفيراً للبردى الغالى الثمن . وقد أسعدنا الحظ بمعلومات عن مدرسة

من هذا النوع كانت ملحقة بالمرسيوم وهو المعهد الذي بناه رعمسيس الثاني للإله آمون في الجهة الغربية من طيبة . وبدرس القطع الخزفية التي كان يكتبها تلاميذها ويلقونها في هذا المكان وجدنا أنها تحتوي على موضوعات إنشائية تنسب لعصر الدولة الحديثة ، وعلى مقتطفات من كتب أدبية ثلاثة هي : التعاليم المنسوبة إلى الملك أمنمحات الأول ، وتعاليم « خيتي بن دواوف » ، وأنشودة النيل ، وكلها من مؤلفات الدولة الوسطى . ومن الغريب أننا وجدنا هذه القطع الثلاث منسوخة على برديتين ترجعان إلى أصل منفي ، وأن مختارات منها وجدت مكررة في أمكنة مختلفة مما يحمل على الاعتقاد بأنها كانت نصوصاً مقررمة تحفظ وتكتب .

وإذا اجتاز التلميذ الدرجة الأولى من التعليم قيد كاتباً في إدارة حكومية . وهنا تأتي الدرجة الثانية إذ يتخذ من كبار الموظفين الذين حذقوا فن الكتابة اساتذة له يتلقى عنهم ويتخرج في دواوينهم ولا يضيرهم وإن كانوا رؤساءه المباشرين أن يتحملوا هذا العبء ؛ فإنما هي ضريبة العلم يؤدونها لمن بعدهم كما استوفوها ممن قبلهم . وكان المكان الذي يعلمون فيه يسمى « بيت الحياة » . ومن الجائز أن يحظى الإنسان بشرف تعليم ابنه بشرط أن يكون من كبار الموظفين وجملة القلم . وسادت هذه الطريقة عهد الدولة القديمة ؛ فهذا « بتاح حتب » الحكيم المصري العظيم وصاحب الأمثال والحكم الرائعة يطلب في تواضع من الفرعون السماح له أن يتولى بنفسه تعليم ابنه حتى يخلفه في وظيفته . واستطاع كثير غيره من الكتاب الذين أتوا بعده في عصره وفي العصور التي تلت أن ينالوا هذا الشرف فيتولوا بأنفسهم تعليم أبنائهم .

وكان الطالب المصري مجتهداً ، ولم يقف نشاطه عند نقل بعض سطور مما فرض عليه بل قد استطاع بعض الطلاب أن يكتب ثلاث صحائف في يوم واحد على ما في الكتابة على البردي من صعوبة لا تقل عنها طريقة الكتابة المصرية نفسها . ويعنى الأستاذ عناية كبيرة بتصحيح أخطاء التلميذ على هامش البردية إذا كان هذا الخطأ متعلقاً برسم الحروف ، أما إذا كان الخطأ متعلقاً بالهجاء مما يفسد المعنى ويؤدي إلى خلط في انسجام العبارة واتساقها فهذا لا يعنى به المعلم كثيراً مما جعلنا نعتقد أن درسه تجويد للخط لا تعليم للغة .

ولقد دلتنا النسخ الخطية المدرسية التي آلت إلينا من تراث المصريين

القدماء على أن الغرض الأول من التعليم عندهم هو التربية وتخليد الذكر، ويأتى فى المرتبة الثانية الإعداد للأعمال التجارية وخدمة الحكومة وحسن الخط والإملاء وتزويق العبارات .

وليس من الغريب أن يكون حسن الخط والإملاء هدفاً من أهداف التربية والتعليم عندهم؛ فإن من يعرف نظام الكتابة الهيرغليفية يدرك مبلغ تعقدها واستعدادها لقبول الأخطاء، ثم يدرك شدة الحاجة إلى جعلها غرضاً يهدفون إليه. ولدينا كتاب يدلنا على عظيم عناية القوم وشدة حرصهم على كتابة الكلمات الفردية كتابة صحيحة، وقد وضعه كاتب اشتهر « بكاتب كتاب الإله فى بيت الحياة »، واسمه « أمنموبى بن أمنموبى » وهو غير « أمنموبى » الحكيم المصرى القديم، وقد أراد أن يجعل من نفسه كاتباً يعلم التلاميذ جميع المواد والعلوم المعروفة لعصره، فجعل عنوان كتابه ضخماً يتناسب مع المدى الواسع لأفقه العلمى، فسماه: « التعاليم التى تجعل الفرد أديباً، وتعلم الجاهل علم الكائنات كلها، وكل ما صنعه بتاح (إله الحرف والصناعات)، وما سجله تحوت (إله العلم)، والسماء ونجومها، والأرض وما عليها، والجبال وما تخرجه، والبحار وما تجود به، وما له علاقة بكل شيء تضيئه الشمس، وكل ما ينمو على الأرض » .

وينتظر القارئ من وراء هذا العنوان الضخم معلومات ضخمة عن المواضيع التى سماها، ولكن الأمر لا يعدو قوائم مرتبة ترتيباً منطقيّاً لأبأس به لأسماء وألقاب بعضها معروف وبعضها غير مألوف؛ فيذكر لنا أولاً السماء وما فيها والشمس والقمر والنجوم والجوزاء والدب الأكبر والقرد والمارد والخزيرة والسحاب والعاصفة والفجر والظلام والضح والنقى إلى غير ذلك من الظواهر والكائنات التى لإعداد لها .

وللوصول إلى خلق القدرة فى التاميد على تنميق عبارته كلّف نقل نماذج رائعة من رسائل حقيقية وخيالية ومن نصائح الأعلام من الحكماء وتحذيراتهم. ولم يكن التعليم مقصوراً على طبقة معينة تعد لهذا الغرض، بل كان كل كاتب مصرى يحذق فن الكتابة وله قدرة على بذل النصيح وشرح قواعد الكتابة والصبر على الإفهام الحق فى أن يكون معلماً، ولا يضيره أو يغض من منزلته أن يكون ذا حرفة أخرى. فيها هو ذا كاتب خزانة فرعون، ورئيس سجلات الخزانة، وكاتب المصنع، كل منهم يشتغل بالتعليم، ولكل تلاميذ يأخذون

الكاتب المصرى

عليه . بل إن المطلع على المباراة الأدبية فى « ورقة أنستامى الأولى » ليرى أن موظف الإصطبل الملكى ، معلم ماهر له دراية تامة بتقويم البلدان فى عالم المعروف حينئذ ، ومهارة فى الحساب والرياضة ، وقدم راسخة فى هندسة البناء . وكان الكتاب الموظفون يباشرون التدريس أثناء عملهم اليومى لإغرامهم بالتعليم ؛ فالمشرف على نحت مقبرة « رعمسيس » التاسع فى صحراء « وادى أبواب الملوك » لم يطق صبراً على ترك مهنة التعليم حتى فى ذلك المكان القفر المنعزل ، فكان يعطى تلميذه التمارين والواجبات على شظيات من الحجر الجيرى المتخلف من النحت ، وقد عثرنا منها على نماذج خطابات وقصائد قديمة فى مدح « رعمسيس » الثانى وصلوات جميلة لشخص اضطهد ظلاماً ، كما رأينا يد المعلم فيها قد تناولت بعض الأخطاء بالتصويب والتكميل .

أهراق الكاتب المصرى

إن من يعنى فى النظر إلى كتب الحكمة المصرية يرى أن غرض الكاتب المصرى يسمو فوق طلب الوظيفة أو الثروة ، فهو يغزو الآفاق المغلقة أمام قومه ، ويبصرهم بنواحي الحياة ، ويرشدهم إلى الطريقة السديدة فى الحوار والمناظرة ، وإلى السبيل الذى يسلكونه ليتغلبوا على خصومهم بالنقاش المنطقى والأجوبة المسكتة . ويرى الكاتب المصرى أن من وصل إلى تلك المرتبة كان سعيداً ظاهراً فى دنياه مقبولاً فى آخرته عند الله . ولقد كان الكاتب يضمن لاسمه الخلود إذا سمحت تعاليمه وعلت حكمته حتى لتضير إرثاً لدوى العقول الناضجة يتوارثونها ويتناقلونها . من أجل ذلك كان المصرى يتخذ راويته من أعز الناس عليه وأقربهم إليه ؛ لأنه كان يرى صروح الحياة جميعها فى نظره عرضاً زائلاً وعارية مستردة بجوار أدبه الخالد الحى الذى يقرع الزمن فى البقاء ويسمو على البروج النحاسية فى القوة ومصارعة أهوال الزمان . جاء فى كتاب بردى من عصر الرعامسة : « . . . ولكن إذا فعلت هذه الأشياء (أى التى ذكرت من قبل) أصبحت كاتباً حاذقاً . وحذاق الكتاب المتنبئون بالمستقبل والمنتصون إلى عهد ورثة الآلهة قد خلدت أسماؤهم مع أنهم تواروا عنا ، ومع أن كل ذريتهم قد أرخت الزمان عليها ذيل النسيان ، ومع أنهم لم يشيدوا لأنفسهم أهراماً نحاسية ولا

صفائح قبور من حديد ، لم يتركوا من خلفهم ذرية تراث أسماءهم وتخلد ذكرهم ، بل تركوا كتباً وتعاليم كانت خلائفهم فى الأرض ، وتركوا إضمادات البردى لتكون كاهناً مرتلاً ، وألواح الكتابة لتكون ابناً باراً ، وكتب الحكمة لتكون أهرامهم ، والقلم ابنهم ، وصفحة الحجر زوجهم ، وجعلوا الناس كبيرهم وصغيرهم أطفالاً لهم لأنهم أساتذة الناس ورؤساؤهم . وإن كانت قبورهم قد درست ونسيت معالمها وانقرض كهنتها فما زالت أسماءهم تردد لاقترانها بمؤلفاتهم ، وتخرج صاعدة فى مرقى البقاء والخلود بقدر ما يذل مؤلفها من عصارة ذهنية ، وما وصل إليه من عمق فى التفكير والإيقان . فكن كاتباً ، وضع ذلك فى قلبك يبق اسمك . وإن مؤلفاً واحداً لأجل فائدة من لوحة قبر منحوتة ومن جدران لحد مؤسسة ؛ لأن هذا المؤلف بمثابة مقاصير وأهرام فى قلب من يقرأونه .

« إن من الخير أن يبقى اسم الإنسان على أفواه الناس فى الجبانة ؛ فالرجل يموت وجثته تصير جيفة قدرة ، وذريته كلها تصبح تراباً ، ولكن الكتب التى يؤلفها تجعله مذكوراً فى فم من يراها . وإن كتاباً واحداً لاكثر نفعاً من بيت مؤسس ، ومن مقبرة فى الغرب ، وأجل منظراً من قصر منيف ، ومن نصب تذكارى أقيم لصاحبه فى المعبد ، فهل هناك مثل « حردادف » أو « أمحتب » ؟ كما أنه ليس فى عصرنا أحد مثل « تفرى » و « خيتى » ، ولا تنس « بتاح - إم - تحوتى » ، ولا « خعخبر - رع - سنب » . وهل هناك من يماثل « بتاح حتب » أو « كارس » ؟ هؤلاء كلهم حكماء تنبئوا بالمستقبل ، وقد وقع فعلاً ما توقعوه ، وقد وجد كلامهم مدوناً فى كتبهم ، وقد رزقوا أولاد غيرهم ورثة لهم كأنهم أولادهم من أصلابهم ، وقد اختفوا ولكن سحر كتابتهم ما زال نافذ الأثر فى كل من قرأ تعاليمهم ، ولقد ذهبوا ولكن الكتب التى تركوها جعلت المرء يذكرهم . »

فهذه الفقرة الفذة تشير إلى الأثر البعيد الذى يتركه الأديب فى نفوس الناس ، وإلى منزلته بين قومه . ولا يكون للأديب هذه المنزلة بين المصريين إلا إذا كان للأدب خطره فيهم وقيمتهم عندهم ، حتى إن الأديب ليعتد بأدبه ويمرص عليه أكثر من حرصه على الأهرام المشيدة والصروح الشاهقة . ولقد جاء فى تضاعيف هذه الفقرة أسماء أعلام من رجال الأدب المصرى القديم : « حردادف » كان حامل لواء الأدب فى عهد الملك « خوفو » . وقد عثر حديثاً على جزء من

تعاليمه و « أحتب » الحكيم عاصر الملك « زوسر » . ولا نعرف عن الكاتب « نفرى » شيئاً . ولقد برهن الأستاذ جاردنر على أن الأديب « خيتى » هو مؤلف التعاليم التى نسبت إلى الحكيم « دواوف » والتعاليم التى نسبت للملك « أمنمحات الأول » . أما الشاعر الحكيم « خعخبر - رع - سنب » الذى جاء ذكره فى هذه الفقرة فهو من رجال الثورة التى اشتعلت عقب سقوط الدولة القديمة حوالى ٢٠٠٠ ق . م . فأنسهم فى وصف الكوارث التى حاقت بالبلاد وشجع الخطة التى تصل بالبلاد إلى مأمنا . بقى من هؤلاء الأعلام « بتاح حتب » وهو ذلك الحكيم الذى تعد حكمه وأمثاله أقدم ما عرف حتى الآن فى تاريخ البشر ، وهو من رجال الدولة القديمة . وأما « كارس » آخر من أشارت إليه الفقرة فيؤمنفنا ألا نعرف عنه شيئاً .

محنة الأدب فى المجتمع المصرى القديم .

نستطيع أن نقول مطمئنين إن الأدب المصرى القديم كان له أثره العميق فى نفوس المصريين القدماء لا يقل عن أثر ميرابو وزملائه الأدباء فى إشعال الثورة الفرنسية ، ولا عن أثر مصطفى كامل وعبدالله النديم وسعد زعلول فى إيقاظ الشعور المصرى فى العصر الحديث ؛ فإن كتابنا القدامى أمثال « إيبور » و « خيتى » و « خعخبر - رع - سنب » كانوا حين تتفزع البلاد يسكبون من أدبهم فيضاً من الأمن والاطمئنان يهبط على المصريين فيشعرهم برد الراحة ، ويؤملهم فى عيش ناعم ومستقبل باسم ، فيندفعون بتأثير هذا الأدب إلى الغاية التى رسمتها أقلام الكتاب وهدف إليها المفكرون والأدباء .

وكثيراً ما كان القلم يعمل مالا يعمله السيف ؛ فهام أولاء الأدباء القدماء ينظمون حملة يتخذون فيها سهامهم من سحر الأدب ، ويقومون قبيل الأسرة الثانية عشرة بوصف ماحق بالامة من أوصاب وأوجاع ، ثم يرسمون صورة مغرية للعهد السعيد الذى ينبغى أن تتمتع به ، ويلقون محبى هذا العهد على اعتلاء « أمنمحات الأول » عرش البلاد ، فإذا بالمليك الجديد يستوى على أريكة الملك ، وينتزع الصولجان من سابقه بفضل الأدب وتأثير الأدباء بعد أن عجز السيف عن إقرار النظام واستئصال الفوضى .

الكاتب المصرى

وبعد - فهذه منزلة الكاتب المصرى ، وهذا أثره فى العصر القديم ، يبعث الراحة والاطمئنان ، ويهز العروش ويزلزل التيجان ، ويشير الإحن ويقضى على نفوضى ، ويغذى العقل والعاطفة . وهو بذلك يبلغ أسمى مراتبه لدى أرقى الدول وأرهفها إحساساً . ويكفيها دلالة على مكانته أن الفرعون إذا ثقلت عليه تكاليف الحياة وأحس وطأة الأعمال الثقالة ، وتطلعت عينه إلى الراحة والرفه لجأ إلى الكاتب الأديب فيخاطبه فى تواضع وتقدير ويقول : « يا أخى . لقد لقيت من عملى هذا نصيباً ، وإن قلب جلالتي ليتوق إلى من يرفه عنه ، فهل لك أن تسوق إلى من رائع القصص وجميل الحكم ما يرتاح إليه قلب جلالتي ؟ » فيقول الكاتب فى أدب جم : « لبيك يا ملىكى » . ويعطيه الكاتب من نفسه وروحه وأدبه ما يرتاح إليه مولاه ، وينال به عطفه ورضاه .

سليم مسى

عامان في الحبشة

٢ (١)

العادات والأعراف

وجدت الحبشة كغيرها من الأمم الشرقية متمسكة بعاداتها القديمة محافظة على تراثها وتقاليدها إلى درجة أكثر مما نحن عليه . ولم أكن أتوقع أن أرى هذه التقاليد قد تغلغت في جميع نواحي الحياة الحبشية حتى أصبحت بمثابة قوانين يصعب التخلص منها . فتجد أهل الميت يشيعون النعش رجالا ونساء وقد كشفت النساء عن صدورهن وأخذن في الولوج والعيول وضرب الصدور حتى يواروه التراب ، وهم يقيمون لذكراه الولائم ويقدمون الخمر بكثرة في الأيام الثلاثة الأولى ثم السابع والرابع عشر وكل أسبوع إلى الأربعين ثم السنة ثم في تمام السنة السابعة . وكذلك يولمون ويقدمون الخمر في أفراحهم وفي المناسبات المختلفة كالولادة والتعميد . ونظام « النقوط » موجود عندهم . ولهم مراسم في الضيافة طويلة ، فهم يقدمون الخمر والخبز ثم يقدمون القهوة بالملح ثلاث مرات مرة بعد كل غلوة .

أما العلاقات بين الطبقات المختلفة مثل علاقة الخادم بسيده أو الرجل بامرأته أو الابن بأبيه ، فتراعى فيها تقاليد مختلفة معقدة في التحية والمجاملة ولغة الحديث والملبس وما يصح عمله وما لا يصح . وهم يحيون عادة بالانحناء ثلاث مرات مع تبادل السلامات والتحيات . ويرفع الرجل قبعته عند التحية ، وقد يتبع التحية تقبيل الوجنات وهم يقبلون بطريقة سريعة عجيبة .

(١) الكاتب المصري عدد ٢ (نوفمبر ١٩٤٥) .

وهم يركبون البغال لأن البغل هو الحيوان الوحيد الذي يمكنه أن يتحمل مشاق الطرق الجبلية ووعورتها ولا يجفل ولا يتعب بسرعة ، وله حاسة غريبة في جس الأرض بحافره حتى يقدر لرجله موضعها . ولركوب البغال آداب ، منها أن يسير خدام الراكب وأهله في ركابه حتى يمكن معرفة قدر الراكب من عدد الذين يتبعونه . فإذا تقابل راكب البغل مع راكب آخر أعلى من طبقته وجب أن يترجل حتى يسلم عليه .

وهكذا تجد التمسك بالعادات والآداب متغلغلا في نواح كثيرة من حياتهم . والشعب الحبشي شعب مرح جداً كثير الغناء ، وقاما تجد رجلا أو امرأة لا توقع على القيثاره . وهم أكثر الشعوب حبا لشرب الخمر يشربونها عوضاً عن الماء ويقولون في أمثالهم : « الماء للضفدع » أو « الماء للطفل والقرد » . وهم يصنعون الخمر من الشهد ويسمى الشدج . ونوع آخر رخيص يصنع من الشعير ويسمى الطلاء ، ولكنهم يحبون العرق أيضاً ولا يكرهون الكونياك .. ويظهر أنهم لجأوا إلى شرب الخمر عندما وجدوا أن الماء لا يصلح للشرب طوال مدة الجفاف (من أكتوبر إلى فبراير) .

والحبشي قوى الأعصاب هادئ المزاج ، يتكلم بصوت خافت لا يحرك يديه عند الكلام . والشعب في جملة جم الأدب كثير الوقار والاعتزاز بالنفس . وهو أكثر الشعوب تحفظاً في الكلام ، لا تجد في لغتهم لفظة « لا » فهم يسوفون كل شيء بقولهم نعم غداً « إيشي ناجا » وغدا لا يأتي . وبلغ بهم التحفظ أنك لا تسأل أحدهم عن شيء إلا وجدت جوابه خالصاً : لا أدري « إينجا » وهي لفظة تسلمك من العواقب . ويقولون في أمثالهم « ليس أثقل من حبّ الأدجا ، ولا أضر من عشب المندجا ، إلا قولك إينجا » . وإن التحفظ في الكلام فيما بينهم أمر معروف فما بالك بالتحفظ من الأجني الذي تأصل في أخلاقهم وجرى في عروقهم حتى ظهر أثره في عصورهم التاريخية . ولعل هذا التحفظ من الأجانب أحد الأسباب التي حافظت على استقلالهم وحميتهم من مطامع الاستعمار .

أما الحالة الاجتماعية عند المسيحيين هناك فهي تسترعى الالتفات ؛ إذ أن عدم الطلاق في المسيحية الأرثوذكسية جعلهم — على ما يظهر لي — يهابون الزواج . فزواج الكنيسة قليل ولكنهم استعاضوا عنه بالزواج العرفي والتزامات بسيطة مما جعلهم على التراوج الكثير . ونتج عن هذا تحلل وعدم

استقرار الحياة العائلية ؛ فإنك تجد في المنزل الواحد عدة أطفال لآباء وأمهات مختلفين ، ومع ذلك لم ألاحظ اختلافاً في أمر النفقة عليهم مما يدل على أنهم اعتادوا هذا الوضع وهياًوا نفوسهم لقبوله وملافة مشاكله . وإننا إذ نلاحظ في حياتهم الاجتماعية أثر حضارة قديمة وتقاليدها متوارثة منذ أجيال ، نلاحظ أيضاً أن هذه الحضارة قد اقتصرت على نواح دون أخرى . فإذا أخذنا ما كلهم مثلاً لذلك وجدناه — على خلاف ما في بعض البلاد الشرقية الأخرى — بسيطاً لا تعقيد فيه بل أقول لا حضارة فيه . ويذكرني هذا بوليمية كنت قد دعوت إليها في برلين أستاذ التاريخ القديم بجامعة هايدلبرغ ، وشاعراً من شعراء الألمان المعروفين ، وكانت قائمة الطعام تحتوي على أرز بالكبد والصنوبر وباذرجان مسقعة وغير ذلك . وبعد الأكل التفت الشاعر إلى أستاذ التاريخ وقال له : « إن ما تريد أن تثبته عن حضارة مصر القديمة من آثارها وأدبها لا يساوي شيئاً إلى جانب ما يمكنك إثباته من ألوان الطعام الموجودة في مصر اليوم والتي تدل على ما خلفته الحضارة على الأجيال من أثر في الإتيقان والتي تطور معها الطعام حتى وصل إلى ما وصل إليه الآن » . ومع أن في هذا بعض المبالغة فإن بما لا شك فيه أن التفتن في طهي الطعام ما هو إلا نتيجة من نتائج الحضارة .

لا يمكننا أن نحكم على جميع عناصر الشعب الحبشي حكماً شاملاً ، فإننا نقصد هنا خاصة الأجناس السامية التي هي أكثر الأجناس هناك تحضراً . وقد يظهر لنا أحياناً حكم القبائل بعضها على بعض من الأمثال السائرة ، فيقول الأمهرا عن قبيلة الأجو « لشبان الأجو تسعة قلوب يخفون ثمانية ويظهرون واحداً » ويقولون عن الجالا « صداقة الجالا كاللحم المعلق لا بد أن يجف » أو « أمانة الكلب والجالا لا تدوم » والجالا قبيلة كبيرة ، ومن أظهر عاداتها الزار وقد أخذتها عنهم القبائل السامية ثم نقلت إلينا . وكلمة الزار معناها الروح النجس إلا أن الزار هناك لا يقتصر على النساء بل إن الرجال كثيراً ما يؤلفون حلقات الزار . واشتهرت نساؤهم بتصنيف شعورهن وضميرها جدائل صغيرة على حين اشتهرت نساء الأمهرا بترك شعورهن تنمو إلى أعلى ثم يدهن شعورهن بالسمن حتى تقيهن حرارة الشمس . وقد سمعت قصة طريفة تدل على أظهر ما في أخلاق أهالي المقاطعات الثمان القديمة من خصائص في أثيوبيا : « أتى من أورشليم إلى أثيوبيا ثمانية أشخاص : الخماقة وصلابة الرأي والأثرة والحضارة

والشجاعة والأمانة والبساطة والسياسة . فلما وصلوا إلى بلاد التجري قالت الجماعة وجدت بلدي وسأستقر به . ولما وصلوا بلاد سمين قالت صلابة الرأي قد وجدت مكاني وسأمكث به . ولما وصلوا بلاد وجارا قالت الأتفة قد وصلت إلى أملاكي وسأعيش فيها . ولما وصلت الحضارة إلى بلاد جوندان قالت يا إخوتي وجدت معسكري وسأمكث فيه . وسار الأربعة الباقون فلما وصلوا إلى بلاد بيجامدر قالت الشجاعة سأستقر هنا فقد أعجبنى المكان . ولما بلغوا دير ثابور وقفت الأمانة على قمة الجبل ونظرت إلى بلاد جوجام وقالت أستاذن منكن لأبحر إلى وطني وتابعت الأخيرتان السير إلى بلاد أمهرا فقالت البساطة لاختها سأقيم هنا ثم تركتها ، فسارت السياسة إلى أن استقرت بمقاطعة شوا وحكت هناك .

الدين

مشكلة من مشكلات الشرق إلا أنه في الحبشة لا يعد من المشكلات ؛ فقد أسلفت القول بأن سياسة الحبشة قائمة منذ القدم على الجنس ، لذلك تركت للأديان حريتها إلا فيما ندر ، فهي من البلاد القلائل التي ترتع فيها الوثنية إلى جانب المسيحية والإسلام . والوثنيون هناك يعبدون السماء ويذبحون الذبائح على قمم الجبال ويعتقدون أن الشمس هي عين الإله ، ثم يؤمنون بأن هناك عدداً من الأرواح تسكن الأشجار أو الأنهار وهم يقدسونها ويقدمون لها النذور . وكل تعارض قد نشأ في يوم من الأيام بين أهل الأديان المختلفة إنما كان مصدره الجنس لا الدين في الحقيقة . وليس معنى هذا أنهم لا يهتمون بدينهم ، بل إننا نجد المسلم يتمسك بدينه كما نجد المسيحي متمسكا بدينه أيضاً ، ولكننا لا نجد تعصباً من دين نحو دين . وأظهر ما في التمسك من جانب المسلمين أو المسيحيين هو التمسك بالطقوس إلى حد يدعو إلى التعجب . والواقع أن الأزهر كان يمكنه أن يؤدي رسالته على وجه أكمل في تلك البلاد لتفقيه أهلها في الدين إذا وجهت العناية الكافية لذلك . وإن العدد القليل الذي يدرس في رواق الجبرتي والذي لا يتم معظمه دراساته لا يكفي لسد حاجة البلاد مع أنهم يتلقفونهم لشغل وظائف القضاء والشرع . كما أن الكنيسة المصرية قد قصرت في أداء واجبها من ناحية التعليم

الدينى من العصور القديمة . فانّ فهم الدين على حقيقته يساعد كثيراً بل هو أساس لفهم الحضارة وقبولها في مثل هذه البلاد . ولعل تحفظ الأقباش نحو الأجانب جعلهم يشكّون في كل إرسالية تبشيرية . وقد حدث مراراً في تاريخ الحبشة منذ القرن السادس عشر أن طرد الأقباش رجال الإرساليات الكاثوليكية أو البروتستانتية كلما أحسوا منهم بتدخل سياسى ، ولذلك فقد تعودوا مراقبة المبشرين . وقد أصدرت الحكومة أخيراً قانوناً يحدد مناطق نشاط المبشرين حتى تتمكن من مراقبة حركة التبشير في الحبشة . والواقع أن المصريين هم الوحيدون القادرون على مساعدة الأقباش لتفقيهم في دينهم المسيحى أو الإسلامى ؛ لأن الأقباش يأمنون جانبهم بعد ما خبروهم وعرفوا أنهم أبعد الناس عن المطامع السياسية أو التعرض للشؤون الداخلية

الكنيسة

والكلام على الدين يسوقنا إلى الكلام على الكنيسة ، وخاصة أننا نقرأ في الصحف هذه الأيام عن مشكلة الكنيسة . والواقع أنه ليست هناك مشكلة بل هى مسألة أثارها الأقباش بعد استرداد أثيوبيا من يد الطليان . يتمتع المطران القبطى في الحبشة بمركز ممتاز حافظ عليه في جميع العصور التاريخية . وهو بمجرد وصوله يأخذ الجنسية الاثيوبية ، لذلك لم نسمع في التاريخ بأحد من المطارنة تدخل في سياسة البلد الداخلية أو كان له مطمع مالى أو سياسى ، وإن حدث أحياناً كان رائده في ذلك صالح الأقباش . مثال ذلك ما حدث عند ما خلع المطران السابق الإمبراطور يسيج ياسوعام ١٩١٧ وولى مكانه الإمبراطورة زوديتو . أما المطران الحالى فله مركز خاص في نفوس الإمبراطور والأقباش معاً لأنه أنقذ كنيستهم عندما رفض انفصالها عن الكنيسة المصرية تحت وعود الطليان ثم تهديدهم . وقد اضطر الطليان أمام هذا الموقف المشرف أن يتحملوا تبعه فصل الكنيسة الحبشية عن المصرية فصلاً تاماً ، فأصدروا قانوناً بفصلها ونصبوا عليها بطريركاً من أهلها ولما عاد الإمبراطور أعاد للكنيسة وضعها السابق .

إذن ما الذى يريده الأقباش الآن ولماذا ؟

رأى الأقباش في القرن الحالى ما تقوم به الإرساليات الأجنبية من جهود

في الحبشة من إنشاء المدارس إلى فتح المستشفيات إلى غير ذلك ، ثم إذا هم قارنوا ذلك بما تقوم به كنيستهم للمساهمة في التعليم والنهوض بمستوى الشعب أو ما تتخذه من وسائل للحد من انتشار التبشير ، وجدوا أنه جهد لا يذكر . وكذلك أحيا فيهم الضغط الإيطالي النزعة الاستقلالية ، أو بتعبير أصح النزعة القومية . فبدءوا ينظرون بعين النقد إلى كنيستهم . وقد دافع رجال الدين عن أنفسهم بأن ركزوا كل لومهم في المطران القبطي الذي يمثل الكنيسة المصرية هناك ، وظنوا أنهم إن هم طالبوا الكنيسة المصرية بأن تسمح لهم بتعيين مطران منهم وأساقفة من بينهم أمكنهم بذلك أن يستقلوا بكنيستهم استقلالاً ذاتياً تحت إشراف الكنيسة المصرية ، ويؤهلهم هذا أن يرتقوا بكنيستهم إلى مصاف الكنائس الأخرى حتى يمكنهم أن يدرءوا عنها الخطر . ومن الخطأ أن نفهم أنهم أرادوا أن يستقلوا بكنيستهم استقلالاً تاماً ، بل كان من الممكن أن يبقى الإمبراطور الكنيسة عند عودته على حالتها الاستقلالية كما كانت أيام الاحتلال ولكنه لم يفعل . زد على ذلك أنهم خطوا خطوة تدل على مقدار تمسكهم بالكنيسة المصرية حينما أنشأوا السنة الماضية كلية لاهوتية كبيرة لتخريج القساوسة وتقوية رجال الدين فاختاروا لها المدرسين من الأقباط والأحباش . وقد سمعت بعض أبيات من الشعر يتداولها الناس لشاعرهم كيدانا ولد كفى تدل على ما يشعر به الأحباش نحو هذه المسألة :

« الأقباط مغتبطون ، متى يجتمعون ليقرروا ؟
لا يصنعون شيئاً ، ففخرهم بالاسم فقط .
في بلادنا ألقاب عظيمة لرجال الدين
هي ألقاب مطارنة ، ليست لصعاليك
لا حرية لهم في بلادهم كغيرهم من رجال الدين .
لا يمكن أن تقول بكمال وقارنا وتما حريتنا
فالسوريون والأرمن يختارون ويرسمون لهم
بطريركا ومطرانا دون أن يكون لهم ملك
لا يوجد في العالم جنس آخر غير الآثيوبيين
لا يختار ولا يرسم من جنسه مطراناً »

هذا يدل على أن كل أمانهم هو أن تسمح لهم الكنيسة المصرية برسامة مطران من جنسهم . ولكن مما يحد من توجيههم اللوم إلى الكنيسة القبطية ، أن تسارع إلى المساهمة في رفع مستوى الشعب الثقافي والاجتماعي حتى تؤدي ما عليها من واجب وتعوض بعض ما فاتها فتخفف من توتر أعصابهم وتقلل من قلقهم لتتلاشى أسباب الشكوى ، وتحمد ما أثاره أنصار النزعة الاستقلالية من مسائل .

تكوين الدولة

الدولة يحكمها الإمبراطور ولقبه التقليدي « الأسد القاهر من سبط يهوذا المختار من الله ملك ملوك إثيوبيا » . ومع أنه لا يوجد الآن ملوك في إثيوبيا إلا أنه لا يزال يحتفظ بلقب ملك الملوك أو الإمبراطور . أما الأسد القاهر من سبط يهوذا فنصه مقتبس من آية من الإنجيل ، (رؤيا يوحنا ٥ : ٥) والاشارة هنا إلى أن الملك الجالس على عرش إثيوبيا من سلالة سليمان الحكيم بن داود من سبط يهوذا وملكة سبأ كما جاء في نص الدستور (مادة ٣) .

وقد منح الإمبراطور هيلاسلاسى الأول بلاده دستوراً في يولييه سنة ١٩٣١ بمحض إرادته نزل فيه للشعب عن بعض حقوق السيادة التي كانت له . ويتبين من نصوص الدستور أن الحكومة الإثيوبية ملكية وراثية وشكلها نيابي ولكنها ليست برلمانية . ويتمثل شكل الحكومة النيابي في وجود مجلسين تشريعيين مجلس شيوخ ومجلس نواب . وأعضاء الشيوخ يعينهم الإمبراطور ويختارهم من بين الأعيان الذين خدموا الإمبراطورية مدة طويلة مثل الأمراء والوزراء والقضاة وقواد الجيش .

أما أعضاء النواب فالمفروض مبدئياً انتخابهم ، لكن نظراً إلى أن الشعب لم يصبح حتى الآن أهلاً لانتخابهم بنفسه فإن أمر اختيارهم يبقى مؤقتاً من اختصاص الإمبراطور الذي يختارهم من بين الأعيان والرؤساء المحليين . وقرارات كل من المجلسين تكون بأغلبية أصوات أعضائه على أنها لا تكون نافذة إلا بعد تصديق الإمبراطور عليها .

فالنظام الإثيوبي ليس برلمانيا بل يشبه من بعض الوجوه النظام النيابي

القائم في الولايات المتحدة . ويلاحظ أن الدستور الأثيوبي استمد لخصوصه من المبادئ الدستورية الحديثة المعمول بها في الدول المتقدمة مع مراعاة عدم تعارضها مع عادات البلاد وتقاليدها ومع ملاحظة المرحلة التي وصل إليها الشعب الأثيوبي فيما يتعلق بما يجوز منحه من حقوق وما يجوز تكليفه من واجبات . ومما تصح الإشارة إليه أن الحكومة الأثيوبية أنشأت فندقاً في أديس أبابا تسهيلاً لإقامة أعضاء البرلمان في العاصمة لا يتزل به غيرهم .

والحكومة تنقسم إلى وزارات : وزارة القلم — الداخلية — الخارجية — المالية — التجارة والصناعة — العدل — البريد والتلغراف والتيلفون — المعارف — الحرب — الزراعة — أشغال عمومية .

ولكل من هذه الوزارات وزير أو نائب وزير وقد يجمع بين الاثنين ، ومدير عام وسكرتير عام . وأخيراً أنشئ مركز رئيس وزراء . ومجلس الوزراء يرأسه الإمبراطور أو من ينوب عنه .

والوزراء مسئولون أمام الإمبراطور يتلقون الأوامر منه ، بل إن لكل وزير مقابلة أو أكثر أسبوعية يعرض فيها دقائق أمور وزارته على الإمبراطور . ولا يجوز للوزير أن يدخل مجلس النواب أو الشيوخ إلا إذا طلب منه الإمبراطور ذلك لإعطاء بيان أو للدخول في مناقشة .

أما اختصاصات الوزارات فهي لا تختلف كثيراً عن اختصاصات الوزارات عندنا ماعدا وزارة القلم ، وأهم اختصاصات وزير القلم :

- ١ — حامل أختام الإمبراطور .
- ٢ — عليه قيد مواليد ووفيات وزواج الأسرة الإمبراطورية .
- ٣ — قيد أوامر الإمبراطور .
- ٤ — يحفظ جميع المعاهدات وأوراق الدولة .
- ٥ — يقدم القوانين والمشروعات — صلة الاتصال بين الوزراء ورئيس مجلس الوزراء — يوقع على جميع القوانين والمشروعات والتعيينات التي تنشر في الجريدة الرسمية — العمل على تنسيق اختصاصات الوزارات — يقرأ تعليمات الإمبراطور إلى مجلس النواب أو الشيوخ ، وكذلك يلقي خطاب العرش إن لم يلقيه الإمبراطور — يشرف على إدارة البروباجنده والاستعلامات والمطابع .
- ٦ — لوزير القلم الحق أن يتعامل مباشرة مع جميع الموظفين في

الإمبراطورية . وقد كان لكل وزارة مستشار بريطاني بحكم المعاهدة البريطانية الأثيوبية لسنة ١٩٤١ إلا أنه لم ينص على ذلك في معاهدة ١٩٤٤ .

التعليم

كان أول تنظيم لشؤون التعليم في الحبشة عام ١٩٠٦ حينما استدعى الإمبراطور منليك مدرسين من المصريين للقيام بأعباء التعليم هناك . ففتحوا مدرسة منليك في أديس أبابا ، وقسموها قسمين : إنجليزية ، وفرنسية ، وظل التدريس في هذه المدرسة على أيدي مدرسين مصريين إلى وقت دخول الطليان . وتخرج عليهم معظم رجال الدولة المعاصرين ، وقد تولوا التدريس أيضاً في مدينة هرر . ثم توالى فتح المدارس ، ففتح الإمبراطور الحالي (وكان حينئذ ولياً للعهد) مدرسة تحمل اسمه « تفرى مكون » في أديس أبابا ، ووجهت المفوضية الفرنسية اهتمامها بهذه المدرسة ، فأحضرت لها مدرسين من الفرنسيين والسوريين تولوا التدريس فيها . وكذلك فتحت مدرسة هيلاسلاسى الأولى ، تولى السوريون التدريس فيها . إلا أن هذه المدارس جميعها ، وكذلك جميع المدارس الأولية في أثيوبيا اضطرت إلى إغلاق أبوابها في عهد الاحتلال الإيطالي الذي وجه التعليم توجيهاً إيطالياً بحثاً .

ولم يكد الإمبراطور يعود إلى بلاده حتى وجه عنايته إلى التعليم ، وأولى وزارة المعارف رعاية خاصة . وأراد أن ينحو التعليم منحى قومياً على أن تكون اللغة الإنجليزية هي اللغة الأجنبية الأولى ، وطلب مساعدة المجلس البريطاني والحكومة المصرية ثم حكومة الولايات المتحدة . وقد فتح المجلس البريطاني معاهد في أديس أبابا ، وهرر وجه وديسى لتدريس اللغة الإنجليزية . أما الحكومة المصرية فقد لبّت طلب الحكومة الأثيوبية إلا أن عدد المدرسين في المدارس قليل لا يفي بالحاجة . أما المدرسون الأحباش فإنهم يحتاجون إلى توجيه فني ، وقد بدأ المجلس البريطاني وحكومة الولايات المتحدة في إرسال بعثات من الطلبة إلى الخارج حتى يسدّوا هذا النقص .

أما الطالب الحبشي فهو على قدر من الذكاء ، وهو مثال للمثابرة والاجتهاد وإطاعة المدرس ، مغرم باللغات والحساب ، ولا يرى فائدة ملموسة في

دراسة المواد الاجتماعية ، وقدرته في العمليات الحسابية لا تبارى إلا أنه لا يحسن التطبيق .

والتعليم كله بالمجان ، بل تصرف للطلبة الكتب والأدوات المدرسية دون مقابل ، وفي بعض المدارس تتكفل الوزارة بمأكلهم وملبسهم .

والاتجاه بسياسة التعليم الآن يختلف عما كان عليه من قبل . فبعد أن كان تقسيم المدارس يرجع إلى جنسيات المدرسين أصبحت المدارس في أديس أبابا مدارس خاصة ، فمدرسة لأولاد الملاك الكبار (الأعيان) ومدرسة لأولاد القتلى من المجاهدين ، ومدرسة لأولاد قتلى الحرب ، وهناك مدرسة واحدة لعامة الشعب .

ومدة الدراسة في المدارس الأولية ست سنوات ، يدرس بالأمهية فقط في السنوات الثلاث الأولى وبالانجليزية (بقدر مايسمح عدد المدرسين) في الثلاث السنوات التالية .

وفي أديس أبابا مدرسة ثانوية واحدة يدخلها الممتازون من الناجحين في هذه المدارس ، ولكن عدد الأما كن محدود إذ أنها داخلية بالمجان والتعليم فيها باللغة الانجليزية . والمدارس المتوسطة ثلاث : واحدة للصناعات ، وأخرى للتجارة ، وثالثة للمعلمين . وليست هناك إلى الآن برامج عامة معمول بها ، وقد قصد إلى ذلك حتى لا يتقيد المدرس الأجنبي ببرنامج وحتى تتاح له الفرصة ليبذل كل ما في وسعه لفائدة الطلبة . وكذلك يعطى مدير المدرسة حرية تامة في التصرف في أمور مدرسته ، وبذلك تتاح له الفرصة أيضاً لإظهار شخصيته . وللوزارة مدارس في عواصم المقاطعات والبلاد الكبيرة فيها . منها مدارس في الجهات الإسلامية اعتبرت لغتها الأولى اللغة العربية ، كما عين لها المدرسون لتدريس الدين الإسلامي والعبادات . أما الإرساليات التبشيرية فلها مدارس في الجهات التي سمحت لها الحكومة بمزاولة عملها فيها .

الصوائف

يرجع تاريخ الصحافة في الحبشة إلى عام ١٩٠١ حين أحضر أحد الأجانب مطبعة صغيرة قوامها حروف لاتينية ، وأصدر جريدة بالفرنسية عام ١٩٠٣ في

مدينة هرر، ولم تكن جريدة بالمعنى المعروف بل صحيفة توزع على المشتركين ثم حولت سنة ١٩٠٥ إلى مجلة شهرية .

وفي سنة ١٩٠٩ أحضر لها حروفاً لاتينية كافية واستقرت إدارتها في مدينة ديريداوه، ثم اختفت هذه المجلة في أوائل الحرب العالمية الأولى .

وفي عام ١٩٠٢ ظهرت مجلة « أئمرو » باللغة الأمهرية . ولم تكن المطابع الحبشية قد عرفت بعد في الحبشة فصار رئيس تحريرها يكتب ٢٤ نسخة يوزعها أسبوعياً، ثم أمكنه أن يرفع عدد النسخ إلى ٢٠٠ بالبالوظة، وفي سنة ١٩٠٦ أشرفت عليها الحكومة وقد اختفت عام ١٩١٤ وعام ١٩١٦ . ولما كان عام ١٩٢٤ تعهدتها الحكومة الأثيوبية بعد أن أحضرت مطبعة سنة ١٩٢٣ واستمرت في الظهور أسبوعياً . وفي هذه السنة أيضاً خرجت الجريدة الرسمية (برهان ناسلام) باللغة الأمهرية .

وفي عام ١٩١٣ ظهرت جريدة باللغة الفرنسية مرتين في الأسبوع وكانت تطبع ٧٠٠ نسخة . وفي عام ١٩٢٨ ظهرت مجلة شهرية كانت تطبع بعدة لغات ٢٠٠٠ نسخة، واختفت سنة ١٩٣٢، وظهرت مجلة تجارية باللغة الفرنسية عام ١٩٣٢ . وهناك مجلة يونانية كانت تصدر منذ ١٩٢٦ وأدخلت عليها بعض تعديلات سنة ١٩٣٣ ثم احتجبت بعد ذلك بقليل . وقد أخرج الحزب الفاشستي في أثيوبيا مجلة باللغة الإيطالية عام ١٩٣٣ .

وفي عام ١٩٣٤ ظهرت مجلة شهرية بالأمهرية « كساتي برهان » وكذلك مجلة بالأمهرية اسمها « أطبيا كوكب » .

وكانت في أديس أبابا حتى سنة ١٩٣٤ سبع مطابع .

هذه هي أهم المجلات والجرائد منذ ظهورها إلى عهد الاحتلال الإيطالي، وهي في مجلتها متنوعة الأغراض حرة في تحريرها، ماعدا إشراف الحكومة عليها من الناحية السياسية . فلما جاء الطليان وقتت جميع هذه الصحف عن الظهور . ثم غمر الطليان أثيوبيا بسيل من الجرائد والمجلات لا تتفق مع مستوى الشعب أو تعليمه . وإليك ما أخرجته الحكومة الإيطالية مدة الاحتلال: كان يطبع في أثيوبيا ١٠ مجلات رسمية باللغة الإيطالية — ١٠ جرائد متنوعة باللغة الإيطالية — ٤ جرائد باللغة الأمهرية — جريدة واحدة باللغة العربية . أضف إلى هذا ٣٥ مجلة أخرى تتعلق بشؤون أثيوبيا كانوا يطبعونها خارج

أثيوبيا . وإني أسألك نفسي هل يمكن أن يفيد هذا السيل من الجرائد والمجلات قطراً محتاج إلى تعلم القراءة قبل كل شيء ؟ وهل يمكن للصحافة أن تقوم بتأدية رسالتها الحقيقية على هذا الوجه ؟

عند عودة الإمبراطور إلى بلاده أخذت الصحافة شكلاً غير الذي كانت عليه قبل الاحتلال . فقد أنشئت إدارة البروباجندا والاستعلامات فتولت نشر مجلات شهرية وجرائد أسبوعية . فهناك مجلة بالأمهرية ، وأخرى بالإنجليزية . وأخيراً صدرت مجلة تجارية صناعية زراعية بالإنجليزية . وتصدر الجريدة الرسمية وهي شهرية أيضاً باللغتين الأمهرية والإنجليزية . أما الجرائد الأسبوعية فتصدر واحدة بالأمهرية ، وأخرى بالإنجليزية ، وثالثة بالعربية ، وبالأمهرية ، وليست الأمهرية ترجمة للعربية . وفي أثيوبيا ثلاث مطابع اثنتان حكوميتان وثالثة خاصة . وهذه المجلات والجرائد حكومية ، محرروها موظفون في إدارة البروباجندا والاستعلامات . وهناك جريدة أسبوعية ظهرت أخيراً هي شبه حكومية أصدرها اتحاد أرتريا — أثيوبيا ، وهو الاتحاد الذي تكون في أثيوبيا للمطالبة بضم أرتريا إليها .

أما الجرائد المصرية فتصل إلى الحبشة متأخرة بضعة أسابيع لصعوبة المواصلات ، إذ يظهر أن إدارة البريد تنقلها عن طريق عدن — جيبوتي ومواصلات هذا الطريق غير منتظمة .

مراد لامل

العمارة في الأندلس

تربط سلسلة التاريخ حلقات غريبة ، ومدنية الأندلس من أغرب هذه الحلقات وأقواها ، وما زالت تحيط بهذه المدنية قصص وأساطير ، يتناقلها الناس من قرون عدة ، ولم تأت البحوث التاريخية الحديثة بما يحيط من شأن هذه الأساطير ، أو يخفف من زهاء تلك المدنية . ويكاد المرء يتصور خيالا ما كانت عليه هذه البلاد من العظمة والسمو ، أو يحسب مغالاة ما لا حصر لعدد من أظلتهم من رجال بارزين ، في العلم والأدب والدين والفن والفلسفة والسياسة ، وفي كل نواحي الحياة والتفكير . ومع ذلك فآثارهم وفنونهم أصدق دليل على حقيقة هذا الخيال .

ازدهرت الفنون في الأندلس بتولى عبد الرحمن بن معاوية الحكم فيها وبقيام دولة إسلامية كان لها شأن كبير في تاريخ تلك البلاد بل في التاريخ عامة . وكانت قرطبة عاصمة هذه الدولة ، يحدثنا المؤرخون عنها ، أنها كانت أم المدائن وسرة الأندلس ، ومدينة العلم ومعدن العلماء ، وأنها كانت آهلة بالسكان ، واسعة المسالك ، فسيحة الأسواق ، بهيجة المظهر ، زاهية المباني والعمارة ، كثيرة الرياض والبساتين . وأن بها جامعا ليس في بلاد الإسلام أعظم منه ، ولا أعجب بناء وأتقن صنعة .

ولم ينحطى المؤرخون أو يغالوا ؛ فما زال مسجد قرطبة أنعم المساجد وأعظمها . أقامه عبد الرحمن بن معاوية سنة ٧٨٦ ميلادية ، على أنقاض المسجد العتيق ، وزيد فيه بعد ذلك مرة أولى ، في عصر عبد الرحمن الأوسط سنة ٨٣٣ ، ومرة ثانية في عصر الحكم المستنصر بالله سنة ٩٦١ ، ومرة ثالثة بعد ذلك بست وعشرين سنة على عهد المنصور ، ولي الخليفة هشام بن الحكم . وقد تضاعفت مساحة المسجد ما يقرب من ثلاث مرات في هاتين المئتين من السنين .

وللمسجد تسعة عشر رواقاً ، عرض كل منها سبعة أمتار تقريباً ، ما عدا رواق المحراب فعرضه يقرب من ثمانية أمتار . ويحف بالأروقة من كل جانب صف من الأعمدة ، رص عليه منها اثنان وثلاثون . فالداخل إلى المسجد من صحنه ، يجتاز واحداً وثلاثين أسكوباً حتى يصل إلى المحراب . وعرض كل أسكوب يقرب من ثلاثة أمتار . وجدار القبلة في المسجد يمتد على مائة وثلاثين متراً . أما أسواره الجانبية فطول كل منها مائة وثمانون ، أي أنه مستطيل يزيد طول مجموع أضلاعه عن ستمائة متر .

وبالمسجد تسعة عشر باباً ، ينفذ منها عشرة إلى بيت الصلاة ، والباقي إلى البهو . أما بيت الصلاة فيه ، فكان يتسع وحده لأكثر من خمس وعشرين ألفاً من المصلين ، ويتسع بهو المسجد لما يقرب من نصف هذا العدد . وتمتد في بيت الصلاة أكثر من ستمائة عقد ، ترتفع فوقها السقف وتظل من تحتها مساحة أربعة أفدنة ، هي مساحة بيت الصلاة .

وإذا كانت هذه الأرقام تدل على ضخامة هذا المسجد وسعته ، مما لم يصل إليه أي مسجد آخر من مساجد الإسلام ، فإن العناية بعناصر بنيانه ، تدلنا على مبلغ نخامته ومدى أهميته الفنية .

فالداخل إلى مسجد قرطبة ، تأخذه روعة يقصر التعبير عنها ، ويهيبه انتشار الأعمدة إلى ما لا يدرك النظر مداه ، وتعددها إلى ما لا حصر لعدده ، ويدهشه العناية الفائقة بالبناء ، والوحدة الشاملة لجميع أطرافه ، ويخيل إليه أنه يتجول في غابة واسعة الفضاء ، رهيبة السكون ، غرست أشجارها بنظام محكم ، وترتيب جميل .

أما هذه الأعمدة ، فقد انتزع جزء كبير منها من آثار سابقة للإسلام ، وجلب البعض الآخر من بلاد المغرب الأقصى ومن غيرها من البلدان ، فليس معظمها من الفن الأندلسي في شيء . ولكن إبداع هذا الفن ، يتجلى أولاً في تنسيق هذه الأعمدة بما يشعر بالرهبة والجلال ، ويتجلى ثانياً في ابتكار موفق توصل إليه ببناء المسجد الأول ، في عصر عبد الرحمن الداخل . ذلك أن الأعمدة التي استعان بها هذا الأمير في إقامة المسجد قصيرة ، بحيث يقرب ارتفاعها من ثلاثة أمتار ، وكان يتطلب العمل منه أن يقيم عليها عقوداً ، ويمد على هذه سقف المسجد ، وإن امتدت السقف على هذا الارتفاع القليل ، لم ينفذ الضوء

ولا الهواء إلى بيت الصلاة ؛ إذ أنه يخلو من النوافذ ولا يصل إليه الضوء إلا من البهو ، وجدار القبلة كان يبعد حينئذ عن هذا البهو أربعين متراً . وقد هدى البحث بناء قرطبة إلى أن يقيم على هذه الأعمدة القصيرة دعائم فيتضاعف ارتفاعها ، ويقيم على هذه الدعائم عقوداً توصل بها أن يرفع السقف على ارتفاع يقرب من ثلاثة أضعاف ارتفاع الأعمدة . وأقام بين رؤوس الأعمدة صفّاً ثانياً من العقود تستند عليه الدعائم . وهكذا وصل الضوء وفيراً إلى أرجاء بيت الصلاة حتى بعد امتداد هذا البيت وابتعاد المحراب عن البهو الذي هو منبع الضوء لهذا البيت بما يزيد عن مائة من الأمتار . والفضل في هذا يرجع إلى ابتكار فكرة العقود المزدوجة . وهذه الفكرة التي اتبعها البناء في مسجد قرطبة عند زيادته في العصور التالية لم يكن لها نظير في أي بناء سابق .

ولهذا البناء المبتكر شأن كبير في العمارة الإسلامية ؛ فهو لم يكتف بهذا الابتكار بل أضاف إليه ابتكاراً آخر . ذلك أن الحجارة لم تكن وفيرة عند شروعه في البناء فاحتال على ذلك باستخدام الآجر ، ولكنه استعان به على وجه جعل عقود مسجد قرطبة فريدة في التاريخ ، تتناوب فيها ثمانى قطع من الحجارة البيضاء مع ثمانية صفوف من الآجر الأحمر . وكان لهذا مظهر زخرفي جميل ، انتشر في العمارة الإسلامية ، وأخذ منها البناء في أوروبا في العصور الوسطى . وهذا المظهر الزخرفي الذي يبدو في غير تصنع أو حلية خارجية ، هذا التناوب في الألوان ، لم يكن له نظير في أي بناء سابق . وبالرغم من بساطة الفكرة ففضل ابتكارها يرجع إلى بناء مسجد قرطبة .

ولهذه العقود ميزات أخرى ، فالصف الأول منها عقود متجاوزة ، وهي الشبيهة بحدية الفرس ، وهي عقود ابتكرها الفن الإسلامى في عناصر العمارة ، وعم استعمالها في بلاد المغرب والأندلس حتى أصبحت عنصراً مميزاً للعمارة في هذه البلاد .

ونجد من العقود في مسجد قرطبة أشكالاً أخرى ، يزداد بها بيت الصلاة رونقاً وبهاء . فقد تجزأ العقد إلى ثلاث فتحات أو ثلاث أسنة ، فكأنه ورقة من الأزهار ترسم في الفضاء . وهذا عنصر آخر من العمارة والزخارف يرجع الفضل إلى الفن الأندلسى في تنسيقه ونشره . وكان هذا العنصر محبوباً إلى رجال الفن ، وكانهم أرادوا أن يؤكدوا تعلقهم به ، فوضعوه في مكان الشرف من

مسجد قرطبة أمام اسطوانة المحراب وحول عقود قبته . وإنها قلما نلتقى في العمارة الإسلامية عنصراً أجمل شكلاً منه أو أنقى حدوداً . ولا شك في أن الفكرة الأولى في ابتكار هذا الشكل كانت فكرة حسابية هندسية ، ترتكز على قواعد التجزئة والتكرار . فنصف الدائرة هنا مقسم إلى ثلاثة أو خمسة أجزاء من أنصاف دوائر . ولكن الهندسة تركت المجال للخيال ، فكان هذه العقود أغصان تتفرع من الأعمدة ، وتلتوى في ارتقاؤها إلى القباب ، أو كأنها في الفضاء أهلة تعكس الضوء وتضيء الظلام .

وتشابكت العقود من ناحية ، وتعددت أنواعها من ناحية أخرى ، وتجزأت وحداتها ، ولم تجتمع بأشكالها كلها ، بمثل الإبداع الذي اجتمعت به ، في المقصورة المجاورة لمحراب قرطبة ، والتي تنسب اليوم إلى القديس فرناندو . في هذه المقصورة ارتقت العمدة الواحد فوق الآخر ، كما ارتقت العقود وتشعبت ، بحيث لا يدرك النظر أين تبتدى وأين تنتهى .

ونرى في الصف الأعلى من هذه المقصورة عقوداً على شكل حدية الفرس وأخرى على شكل ورقة الزهرة المقصوصة إلى ثلاث وريقات ، ونشاهد على جوانب هذه المقصورة نوعاً من العقود المسننة ، قص كأنه الصخر حفرتة الأمواج .

كان عصر الحكم بن هشام من أزهى عصور الأندلس وأكثرها فخامة . ويتحدث المؤرخون عن هذا العصر بما لا يكاد يصدق العقل ، إلا أن هذا الخليفة ترك في مسجد قرطبة صفحة لا يشوبها الشك وصورة واضحة لعصره .

ولست أعرف في تاريخ العمارة قبة أبدع تكويناً وأجمل مظهراً من قبة المحراب التي أقامها هذا الخليفة . وهي على حد قول أحد المؤرخين الأقدمين « مؤلفة ، مهللة كأنها تيجان ، رصع فيها ياقوت ومرجان » . وإبداع هذه القبة يعجز البيان عن وصفه . فلم يترك البناء ولم يترك الفنان ركناً فيها أو سطحاً إلا كسواه حلية ثمينة ، أو أضافا إليه عنصراً يزيد جمالا . إن دلت هذه القبة على شيء فهي تدل على سعة الخيال الفنى عن البناء المسلم . لقد استطاع أن يجعل من القباب ، وهي عنصر معمارى شاق التنفيذ ثقيل التكوين ، استطاع أن يجعل منها تاجاً محكم الوضع بديع الصناعة ، واستبدل بالكتلة الثقيلة في هذه القبة هيكلًا جعل ما بين ضلوعه حشواً أو غلافاً رقيقاً . هذا الخيال الفنى يرى الجمال فى كل شيء ، ويرى

الجمال في الخفة والحركة ، حتى في أشد العناصر تطلباً للثبات ، وفي أقربها للجمود ، ينصب الخيال عليها فيجزئها ثم يربطها ويصل بين ما انفك منها ، ويجعلها شبكة من الخطوط متحركة ، أو كأنها كذلك ، ويكسوها بحلية تستمد جمالها من تنوع أشكالها ، ويفرض على هذا كله فكرته في الطبيعة فكرة اللانهاية .

أما محراب قرطبة ، فقد قال فيه أحد المؤرخين المسلمين إنه : « قد قوس أحكم تقويس ، ووشم بمثل ريش الطواويس ؛ حتى كأنه بالجرمة مقرطق ، وبقوس قزح بمنطق ، وكأن الازورد حول وشومه ، وبين رسومه ، تتف من قوادم الحمام ، أو كسف من ظلل الغمام » .

ولهذا المحراب قصة ؛ فقد قيل إن الحكم طلب من إمبراطور بيزنطة أن يرسل إليه بنفسه يساء يحلى بها المسجد ، فأرسل إليه الإمبراطور ما أراد ، وأرسل مع قطع الزجاج المذهبة ، عاملاً علياً بسر تنسيقها ، وأن هذا العامل استخدم معه عاملين من الأندلس ، فما لبثا أن تفوقا عليه في صناعته . والمستشرقون يصدقون النصف الأول من هذه القصة وينكرون على رجل الأندلس مهارتهما في تعلم هذا الفن الجديد . أما أنا فأصدق القصة بأكملها ، وليس من المغالاة أن نصدق أن الذي أحكم إطار المحراب ، وأبدع تنسيقه ، وحلاه بالرسم ، وجمله بالكتابة ، أعجزه أن يرص القسيفساء حولها ، أو يتعلم رصها بمهارة ، وهو هذا العامل الأندلسي الذي أعاد لجدار المحراب لوحات من الرخام ، منحوتة برقة فائقة ودقة ظاهرة ، تتفرع الأغصان عليها من شجرة الحياة ، فكانت غلالة بديعة التطريز ، تتدل على جدار المحراب .

ولن يمل المرء التجول داخل مسجد قرطبة ، وفي كل خطوة يخطوها يستوقف نظره كل بديع ورائع ، وتحبى أمامه ذكرى الجلال والعظمة . والخارج إلى صحن المسجد ، تأخذه حيرة ما ترك ، ولكنه يجد فيه صدى للهدوء والسكينة التي أحاطت بتجوالة في الداخل ، ويرى في رسم العقود وجمال نسبها ، ما يشغله عن أشجار البرتقال وثمارها .

وإذا خرج إلى أسوار المسجد ، دفعته إلى تزهة طويلة ، ليشبع النظر من جمال الزخارف وتنوعها ، فهي تكسو الجدران بثياب ثمينة . وكان تقوشها توقيعات تحت السائر من جهة ، وتدفعه من جهة أخرى ، من باب إلى باب ، فيستوقفه جمال الرسم ، ودقة الحدود ، وتنوع الألوان ، وبساطة المظهر أمام

إحدى البوابات التي ترجع إلى العصر الأول لبناء المسجد ، أو يشغله امتلاء المسطحات ، على بوابة أخرى ، فلا يقع نظره إلا على لون زاه ، أو خط ملتو ، أو غصن حائر ، أو مادة ثمينة ، أو إطار بدیع ، أو رسوم متشابكة ، أو كتابة جميلة ، أو أعمدة متراصة ، أو عقود منتشرة ، كل هذا اجتمع في مكان واحد ، وانتشر على المسطحات كلها ، في حركة دائمة ، وتنوع مستمر ، يطرد الملل ، ويثير الإعجاب .

وثمار هذا الإعجاب باق على مضي السنين . فمسجد قرطبة ، فريد بين آثار العمارة كلها ، ولن نجد أثراً مثله ، ينطق وحده بتاريخ دولة بأسرها . وقد لا نجد مصداقاً أفضل من مسجد قرطبة لقول الشاعر :

هم الملوك إذا أزدادوا ذكرها من بعدهم فبالسن البنيان

وقد لا نجد معبداً له روعة هذا المعبد . أما من الوجهة المعمارية ، فقد تعدى أثره فنون الشرق إلى الغرب ، وترك على كثير من آثار أوربا طابع الإسلام ، وظل صفحة ناصعة من المدنية الإسلامية ، لا يشوب وحدتها إلا ما أصابه من الهدم والإضافة ، عند سقوط قرطبة في أيدي الأسبان ، وإقامة كنيسة في وسط بيت الصلاة ، لما رآها الإمبراطور شارل كان ، حزن وغضب وقال للكهنة : « أقم هنا ما يرى الناس مثله في كل مكان ، وهدمتم ما لا نظير له في العالم » .

تعددت المساجد في الأندلس وابتنيت القصور ، والكثير منها قد اندثر ، ولم يبق إلا أن نقرأ عنه في كتب المؤرخين . ومن هذه القصور قصر في مدينة الزهراء التي أقامها عبد الرحمن الناصر ، في النصف الأول من القرن الرابع الهجري والتي استغرق بناؤها مدة خمسة وعشرين عاماً ، وقد قدرت النفقة فيها بثلاثمائة ألف دينار في كل عام ، وجلب إليها الرخام الفاخر من جميع البلاد ، « وتضمنت العجيب من إتقان الصنعة ، ونفاعة الهمة ، وحسن المستشرف ، وبراعة الملبس والحلة ، ما بين مرمر مسنون ، وذهب موزون ، وعمد كأنما أفرغت في القوالب ، وتقوش كالرياض ، وبرك عظيمة محكمة الصنعة وحياض ، وتماثيل عجيبية الأشخاص لا تهدي الأوهام إلى سبيل استقصاء التعبير عنها » .

أشاد المؤرخون ممن شاهدوا هذه المدينة في وصف بدائعها ، وقد كشف عن آثارها منذ أعوام ، وكتب أحد علماء الآثار في أسبانيا : « إن الحفائر في مدينة الزهراء تكشف لنا جديداً كل يوم ، فتزداد ثقة بصحة ما رواه المؤرخون ». وقد تجولت بين آثار هذه المدينة مراراً ، وشاهدت موضع دورها وقصورها ، وبساتينها وجداولها وبركها ، وكثيراً مما تحدث عنه ابن خلدون وغيره من المؤرخين . وأستطيع أن أؤكد أن العناية ببناء هذه المدينة فاقت كل حد ، وأنه لم يترك بها حائط إلا ألبس حلة المرمر المسنون ، أو ألواحاً من الحجارة المنحوتة ، وأن هذه الزخارف قد تنوعت بحيث تكون وحدها مجموعة شاملة للزخارف الإسلامية . وأول ما يسترعى النظر فيها تصويرها للأزهار والنباتات والثمار ، كأنما أرادوا أن تتسلق الأغصان على الجدران ، أو كأنهم لم يقنعوا بجمال الطبيعة في بساتينهم ، فأرادوا أن تنطبع صورها في دورهم ، فلا يفرغوا من التأمل فيها .

ويدلنا هذا على أن الروح الفنية كانت متشبعة من النفوس ، فلم تكن مظاهر أريد بها بهر النظر ، وإدخال الروعة في القلوب . وأقوال المؤرخين شهيدة على ذلك ، فقد أثبتوا اتباع الناس خلفاءهم في تعلقهم بالفنون ، وتنشيطهم للبناء . وكان الرحالة من المسلمين يضعون في الصف الأول بين فضائل البلاد التي وصفوها ، ما كانت تظهر عليه مبانيها من العظمة والفخامة ، وجمال التنسيق ، وحسن الهندسة . ولهذا فقد أشادوا بدائع الأندلس ، وأطنبوا في ذكر آثارها وعددوا مناقب مدنها ، ومن بينها سرقسطة . أصاب قصرها من صروف الزمن ما لم يبق منه إلا طُرفٌ تؤويها المتاحف . وكان أقام هذا القصر الأمير أبو جعفر المقتدر ، وعنى بينائه عناية تتضح من آثاره . ويتجلى الجمال من رشاقة زخارفه ومن درجة الإتقان والدقة التي صنعت بها ، ومن الخفة البديعة التي أفرغت فيها ، وقد أخذت يد الفنان تتلاعب في الخطوط بحرية كبيرة ، وانصب الخيال عليها فجعل من الأقواس والخطوط شبكة ترتقى على الجدران كأنها أغصان وفروع ، تتناثر منها الأوراق والأزهار . وربط الخيال بالحقيقة ، إذ فرغ الزخارف بالتخريم ، فأنفذ إليها الهواء ، فكانها أغصان تهتز وتحرك ، بخفة وانسياب .

وإذا انتقلنا من سرقسطة إلى قصر الحمراء في غرناطة ، تجلى لنا الإبداع بمظهر الثراء والفخامة . ونحيل إلى السائح أن هذا القصر صقوة ما أخرجته العمارة الإسلامية في الأندلس ، إلا أن هذا يرجع إلى ما علق بأذهان الناس مما كان يدور في هذا القصر من الحوادث والأحداث . وكان قصر الحمراء مدينة قائمة بذاتها ، وحصناً منيعاً للسلطين . أقيم في القرن الرابع عشر ، على عهد أسرة بني الأحمر أو بني نصر ، أمراء غرناطة ، واحتفظ بروائعته بالرغم مما لحقه من التعديل في العصور الحديثة . وهذه الروائع تتبعنا أينما حللنا به ، فإذا مررنا بقاعة السفراء ، أو انتقلنا إلى قاعة الشقيقتين ، شعرنا بالثراء والفخامة إلى أقصى حد . تتدلى من السقف في كل مكان حلية بهية من المقرنصات ، كأنها أوكار في الأشجار ، تتساقط على العمدة كأنها أغصان ، وترتقي العقود في قاعة الخلافة ، فكأن الطير تسكنها ، وكأنها تغرد في كل مكان . وقد شبهت هذه العقود « بتيجان تتحلى بها رؤوس العرائس في الأفراح » . وما أحسب أن العمدة في العمارة ، كانت يوماً ما أبدع مما نراها عليه في الأروقة المحيطة بهو السباع ، ممشوقة البدن ، رفيعة القوام ، والناظر إليها يحيل إليه أن رؤوسها لن تقوى على حمل العقود . وابل بهو السباع قد فاقته شهرته كل بناء . وهو من أعمال السلطان محمد بن يوسف الذي بويح صبيّاً ، ودام حكمه ما يقرب من أربعين سنة ، استتب فيها السلطان لأسرة بني نصر ، بالرغم من الدسائس والثورات والحروب ، ونلتقى صدى هذا الاستقرار في قصر الحمراء . اشتق اسم هذا البهو من النافورة التي يحيط بها اثنا عشر تمثالاً لسباع من الرخام ، تفتح أفواهها فينصب الماء منها ، ويجرى من فوقها وحولها بشكل يثير الإعجاب . وهذه النافورة أنموذج لما كانت تحويه قصور الأندلس ، وهي لاشك أقل فخامة من كثير غيرها . فقد كانت في قصر الزهراء الذي تحدثنا عنه نافورة صغيرة منقوشة ومنحوت عليها ، « اثنا عشر تمثالاً من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس الغالي » . ويقول المؤرخون إن هذه التماثيل الذهبية « كانت صوراً لاثني عشر حيواناً وطيئراً مختلفاً وكان الماء يخرج من أفواهها » .

وجمال هذا البهو في الأروقة المحيطة به ، والتي تطل عليه بعقود مختلفة الرسم ، تعددت أسنتها وطالت أطرافها ، وظهر منها المقوس المتجاوز ، والمذيب المنكسر ، والذي يجمع بين هذين الشكلين . وقامت فيها الأعمدة منفردة تارة ،

العمارة في الأندلس

ومزدوجة تارة أخرى ، وتوجت رؤوسها بقيجان أندلسية ، تكسوها الزخارف النباتية ، وتلتف حولها أشرطة منسقة ، وارتفعت من فوقها الحدائر ، حملت صمداً صغيرة ، تنبت منها أوكار العقود والسقف ، كأنها لهيب يخرج من المواقد . هذه الزخارف المتناهية رقة وإتقاناً ، يزيدان جمالاً تنوع ألوانها ، من أحمر قاتم ، وأزرق وأبيض ومذهب وأسود . وبقصر الحمراء صور آدمية رسمت على القباب ، تمثل إحداها مجلس السلطان ، والآخرى أسطورة من أساطير الحب . وليس للتصوير في الإسلام نظير لهذه الصور .

وكذلك ليس لآثار العمارة في الأندلس نظائر في الفن الإسلامي ؛ إذ أنه كان لها طابع خاص . ولعل فيما قرأناه عن بعض هذه الآثار صورة لما كان يسجله هذا الطابع في مبدئية الأندلس ، من مجد ونخامة ، ورقة ورخاء .

أحمد فكري

ليلة في الصحراء

موكب النور تهادى في جمال وجلال
يسكب الأفراح في الوادى ... على تلك الرمال
ويغنى فاذا الحب يغنى في خيالى
صور فتانة النور ، رشيقات الظلال
فاهتفى يا طير بالبحر ، وغنى يا روابى
واسبحى الليلة في بحر من النور المذاب

*

الريبع البكر حيانى بأفراح السماء
وتولت بكآبى سحابات الشتاء
فاذا بالنشوة البيضاء تسرى في دمائى
مثلا تسرى أغانى الحب في هذا المساء
وإذا بي أغنى بأغانى شبابى
والهوى ملء فؤادى ، والصبا ملء إهابى

*

هذه الصحراء بيضاء كاحلام العذارى
نسج البدر لها من رائع النور إزارا
فغدت للحب والأحلام والسحر قطارا
وبدت كالكأس رفقت خمرها نورا ونارا
ونجوم الليل فيها راقصات كالحباب
فانهلى يا نفس من هذا الرحيق المستطاب

ليلة في الصحراء

إيه يا بدر سجي الليل بهاتيك البطاح
وتغنى بالهوى العُدريُّ أرغول الرياح
أنا ظمآن ، وقلبي مثل أزهار الآفاحي
فاسكب النور على قلبي كأنداء الصباح
أو فصّخ مني ملاكا طائراً فوق السحاب
علني أنسى كآبائي ويأسي وعذابِي

*

أنت يا صحراء حرّمت على عيني المناما
وملأت القلب شوقاً وحنيناً وهياما
إبعثي « ليلي » فقيسٌ حُجْنٌ بالحب وهاما
يشرب الدمع - من الأحزان واليأس - مُداما
ويناجي طيفها الساري على تلك الرحاب
فاذا طار ليلقاه تولى كالسرّاب

*

أقبل ليلاي كالفجر ضياءً وصفاء
أقبل ليلاي كالعرسٍ نشيداً وغناء
أقبل كالروض أطيّاراً وأزهاراً وماء
واسكني الأفراح في قلبي ؛ فقد ذاب بكاء
وأعيدني إلى عشي ؛ فقد طال اغترابي
ودعيني أسكر الليلة من خمر الرّضاب

*

أنا يا ليلاي روح بالهوى السامي يغني
يعرف الليل أناريدى ، ويروي الفجر عني

ليلة في الصحراء

أنا طيف دائم الآشواق ، موصول التمتني
لهفتي طالت إلى الحب ... وأين الحب مني ؟
ما أجحى لي فرصة اللقاء ، وأمرار العتاب
بين روحين من العشاق في فجر الشباب

*

ها هو البدر مع النور من الأفق يغيب
ها هي الصحراء قد غشي محيطها الشحوب
طالت النجوى ، ولم يسمع لنجواي الحبيب
يا حياتي إني وحدي على الأرض غريب
ها أنا أمضي إلى داري ؛ فقد طال غيابي
ومع النور معادي ، ومع البدر إياي

ابراهيم محمد نجا

بعيداً عن نواة الذرة

كنت أومن بظفرة الفيزياء أو علم الطبيعة كما جرى اسمه خطأً على الألسن في مصر ، وكانت رياضيات ماكسويل الإنجليزى وتجارب هرتز الألماني وعمل برانلى الفرنسى وتطبيقات ماركونى الإيطالى فى الوصول إلى تحقيق اللاسلكى مما يثير العجب ، ولكن الناس تنسى ويذهب منها العجب ، وتعتاد الأشياء فلا تفكر فى أصولها ولا تتأمل فى عظمتها .

فأنت عندما تتوجه للتاجر لتشتري جهازاً للراديو تنظر لجمال الصندوق وروثقه ، وتسأل عن نوع الخشب ومتانته ، وتهتم بعدد ما بداخل الصندوق من صمامات أشبه بالمصابيح ، ولكنك لا تحاول أن تعرف كيف يمكنك بهذه الصمامات أن تستمع لمذيع فى أى جزء من هذه الأرض الفسيحة دون أن يكون بينك وبينه أسلاك أو طريق مادى من صنعك .

هذه الصمامات التى صنعت بيد الإنسان كما تصنع عرائس الحلوى فى الموالد أو ساعات التوقيت على الحوائط أو أية صناعة انحطت أو علت ، هذه الصمامات ليس المهم صناعتها بقدر ما يهمنا طريق البحث للوصول إلى الفكرة فيها ، إلى أى حد تعثر أمامها الإنسان وإلى أى مدى نجح فيها الإنسان . ويتلخص الحادث فى نهايته أنه بحفنة من الرمل (أى الزجاج) وقليل من المعدن أو قل إنه بقطعة صغيرة من الأرض التى نعيش عليها يصنع هذا الصمام الذى يتيح لنا سماع صوت الإنسان مهما بعد عنا ؛ وفى فترة صغيرة من الزمن ، كلنا يعلم اليوم أن الإذاعة التى نسمعها فى بغداد من القاهرة تصل فى واحد على مائتين من الثانية ، باعتبار أن المسافة بينهما على الخط المستقيم ألف وخمسمائة كيلومتر .

دع الراديو وتأمل معى ما هو أعظم وأعجب ، تذهب إلى التاجر من جديد لتشتري صندوقاً آخر تسمع منه هذه المرة المذيع أو المحاضر ، وتراه رأى العين ، وتستمتع برؤية من حوله فى الحفل أو القاعة ، هذا ما أحدثه « التلفزيون » .

ولقد رأيته لأول مرة سنة ١٩٣٣ في السراى الكبرى بباريس فشاهدت على لوحته العمال فى أحد المصانع التى تبعد عن باريس بضعة كيلومترات . كذلك تذهب إلى مكتب رئيسى للأبناء ، فترى كيف تُنقل الصور باللاسلكى من نيويورك إلى لندن أو إلى القاهرة ، وذلك بواسطة البيلانوجرام Bélinogramme من اسم بيلان مكتشفه ، وقد أحدثك فى فرصة أخرى عن جهازه فى شىء من الإفاضة والإسهاب .

هذه مسائل أرجو أن تُجبل النظر فيها وتأملها . وقد أردت بذكرها أن أردك إلى شىء من اليقين فأصور لك من مشاهداتك قوة العلوم الفيزيائية . فبينما تسير العلوم كلها بخطوات وثيدة متزنة تخطو الفيزياء خطوات واسعة سريعة ، تفاجئنا خلالها بوثبات عالية ، نأمل أن ترقى بالمدنية إلى حد فوق التصور ، وألا تستغل لتدمير هذه المدنية وإهلاك الجنس البشرى . أرانى قد أطلت مقدمتى ، ولكنى أحرص أن تكون مؤمناً بهذه العلوم ، عندئذ أستطيع اصطحابك إلى حيث المعرفة الحقة وإلى حيث الفلسفة مستقاة لا من منطق أرسطو فحسب بل من منطق المادة وما نستخلصه فيها من ظواهر وأحداث . وسأعود بك مسرعاً إلى المادة التى تتكوّن منها والتى أكونُ منها ، المادة التى تُكوّن الورق الذى أكتب عليه والمجلة التى تطالعها . أريد منك إذاً إيماناً بقوة الفيزياء ، فى نظامها اعطيت هذه الصناديق الساحرة فخاطبت من خاطبت ورأيت من رأيت . وإنى لأحدثك اليوم عما فى المادة من كيان ونظام ، وسأبتعد فى الذرة بعيداً عن النواة فأحدثك عما حولها من عوالم يقف عندها العقل حائراً ويسبح فيها الخيال متأملاً .

إنما نريد أن ننظر إلى المادة مكونة من عناصر مختلفة ، كل عنصر مكون من ذرات متشابهة . وقد ذكرنا فى مقال سابق أنه لم يمكن تحويل ذرة عنصر إلى ذرة عنصر آخر بغير الوسائل الفيزيائية المكتشفة حديثاً ، كذلك ذكرنا أن الذرة مكونة من مجموعتين من الجسيمات :

بعبارة عن نواة الذرة

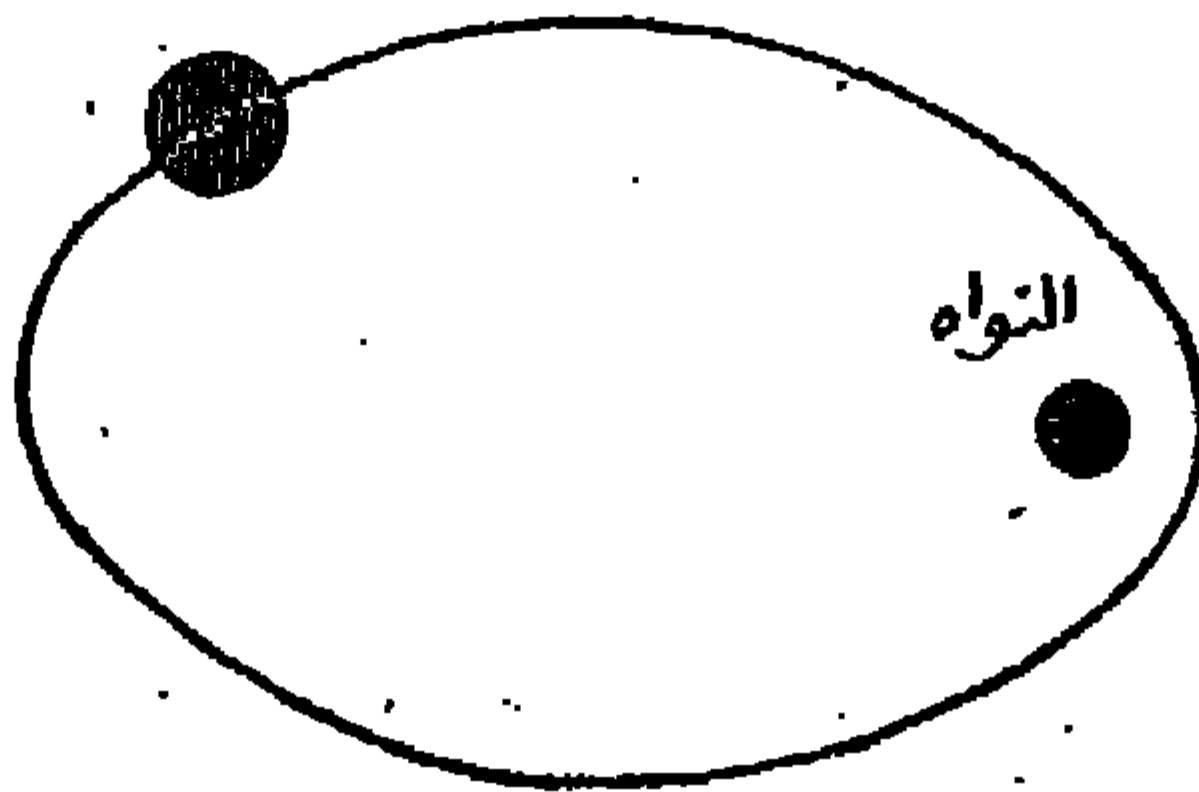
المجموعة الأولى — تلك الجسيمات المتجمعة في الوسط والتي نطلق عليها اسم النواة ويتركز فيها الجزء الأكبر من كتلة الذرة .

والمجموعة الثانية — تلك الجسيمات التي تدور حول النواة في مدارات بعيدة عنها ، جسيمات أقل في الكتلة وتسمى كهارب أي الكترونات .
والذرة بهذا مجموعة شمسية تتوسطها شمس تدور حولها سيارات .

على أننا نرجو أن يستقر في ذهن القارئ تلك الضالة البالغة التي عليها الذرة بأكملها والتي عليها نواتها الوسطى والتي عليها هذه الألكترونات الحائرة حولها . ولنفرض أننا منحنا عيوناً ترى هذه الذرات ، ووضعنا أمامنا ذرة واحدة من غاز الهيدروجين وأخرى من الليتيوم ، فإننا نرى في الأولى شمساً وسطى يطلقون عليها برتوناً ، ونرى كوكباً كالارض يدور حولها بسرعة كبيرة كما يدور حول نفسه ، وبينهما فضاء كالفضاء الذي يفصلنا عن الشمس ، بحيث لا يبلغ قطر هذه الشمس داخل الذرة إلا واحداً على مائة ألف من قطر ذلك الفضاء . كذلك إذا نظرنا إلى ذرة الليتيوم وجدناها مجموعة شمسية أخرى لها شمسها الوسطى ويدور حولها ثلاثة ألكترونات في مدارات مختلفة .

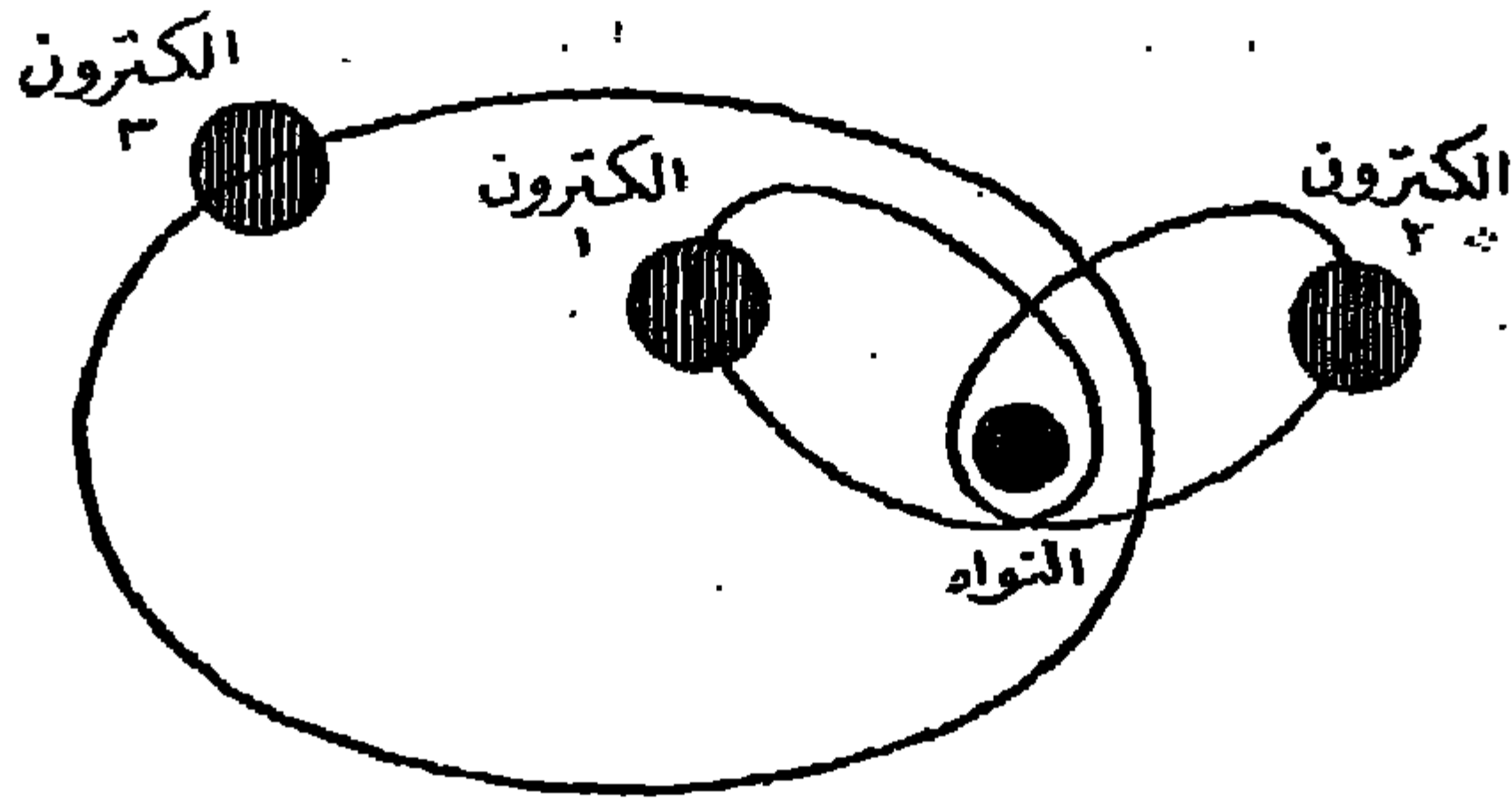
على أننا نعرف أن كتلة الذرة واقعة كلها تقريباً في هذه الشمس رغم صغرها بالنسبة للفضاء الشاسع حولها وبالنسبة للسيارات التي تدور في هذا الفضاء . وتبلغ كتلة النواة في الهيدروجين كتلة الألكترون الدائر حوالي ألفي مرة . ولكي تدرك مبلغ النواة من الصغر أذكر أنه إذا كان لا بد لنا من أن نضع عشرة ملايين ذرة الواحدة بجوار الأخرى لكي نبلغ مليمترًا واحدًا في الطول ، كما ذكرنا في مقالنا السابق ، فإنه يجب أن نضع من النواة عشرة ملايين

الألكترون



نموذج ذرة الهيدروجين

بعيداً عن نواة القرة



نموذج ذرة الليثيوم

مضروبة في مائة ألف أى عشرة ملايين المليون الواحدة بجوار الأخرى لى
تبلغ مليمترًا واحدًا في الطول .
ونحن نُقرّد بحثنا هذا لدورة الألكترون حول النواة ، ولماذا افترض
العلماء هذه الدورة ؟ وهل لنا أدلة من البحث التجريبي على صحتها ؟

نعود إذاً إلى الألكترون الحائر الدائر . وإني أعيد إلى ذهن القارىء صورة
لضآلته ودقة كتلته ، فهذا المنظار الذى يعلو أعيننا يحوى كل واحد على ألف
من المليجرام من المادة المكونة للزجاج فيه أو لأطاره ملايين الملايين من هذه
الألكترونات ، بل إن هذه النقطة التى تعلو أى كلمة فيما تقرأ الآن تحوى من
حبر الطباعة على ملايين الملايين من ذرات المواد المكونة لهذا الحبر وأضعاف
ذلك العدد العديد من الألكترونات ، وهى تدور الآن وأنت تطالع هذا المقال ،
وستظل تدور وتدور .

وتستطيع أن تتصور من جديد ضآلة الألكترون بأن تتصور كرة من
الصلب قطرها ٨ مليمترات أى ما يعادل إحدى حبات المسبحة وكذلك الكرة
الأرضية ، ونضع فى محل المقارنة ثلاثة أجسام :

(١) الألكترون .

(٢) هذه الكرة .

(٣) الكرة الأرضية :

فإننا نجد أن النسبة بين كتلة الألكترون وكتلة هذه الكرة الصغيرة
كالنسبة بين هذه الكرة والكرة الأرضية التى تعيش عليها ، بمعنى أنه يجب

أنت نذهب حدًا في الصغر من حبة الخرز لكي نصل إلى الالكترتون بقدر ما نذهب في الصغر من الأرض لكي نصل إلى هذه الحبة الصغيرة . ولا يظن القارىء أن المسألة تقريبية أو أننا أخطأنا بالحساب ، فنكل الذين يدرسون العلوم الطبيعية يعرفون جيدًا كيف يزنون الأرض بل كيف يحددون كثافتها (١) . نريد أن نقف إذاً بالفكر قليلاً تتأمل هذا الوضع الذى يتجاوز كل خيال ، ولا نجمل فيما نكتب اليوم الأعمال التجريبية الخاصة بهذا الكائن الحائر ، ولكنى أكتفى بأن أشير إلى أن أحد العلماء « اندروز مليكان » الأمريكى قد تمكن من فصل جسيم كان يحوى فيما يحوى ألكترونًا زائدًا أى يحوى شحنة سالبة واحدة ، واستطاع مليكان بين كفتى مكثفه أن يصعد بهذا الجسيم وينخفض به ، بل استطاع أن يقفه فى الحيز الذى كان يحركه فيه وأن يرقبه بواسطة الألترا ميكروسكوب (٢) كما يرقب الرائي ليلاً أحد الكواكب .

ولقد أضحت عملية مليكان بدعة يواجه بها الأساتذة الطلاب عند بدء تحضيرهم للرسائل العلمية ، فقد حدث لى ذلك عند ما طلب منى كوتون Cotton أن أعيد تجربة « مليكان » قبل أن أبدأ دراسة حركة الكرات الصغيرة فى السوائل ، وكان ذلك مصادفة فى ذات الغرفة التاريخية التى حدد فيها جان بيران شحنة الالكترتون .

* * *

رُبَّ سائل يسأل مالنا وللألكترتون ، هذا الكائن الضئيل ؟ ولماذا نخصه بهذه العناية ؟ مع أن جدول مكونات الكون يحوى جسيمات أخرى هى بدورها غاية فى الضآلة وتختلف خواصها عن خواص هذا المخلوق الحائر فالذين يدرسون الذرة أو الذين طالعوا مقالنا السابق يعرفون وجود البروتون والنيوترون والنتريتو والبوزيتون والفوتون والميزترون . إنما أردنا أن ننحس الالكترتون بالذكر لتنبه الأذهان إلى أمرين :

الأمر الأول — إن المادة التى نعرفها واعتدناها ، المادة التى نشيد بها مدتنا وكنياتنا ونطبع بها كتبنا ، المادة التى تكون أجسامنا فى الحياة بل تكون أجسادنا

(١) اذكر الذين يهتمون بذلك أن كثافة الأرض ٢.٤ ره .

(٢) إنك فى الليل لا ترى النجوم والكواكب بذاتها إنما تلاحظ مواضعها .

فى الرمس بعد الملمات ، هذه المامدة مكمونة من بعض المكمونات السابقة ومن هذه الالكترونات ، أى إنها مرتبطة بعلاقة كبرى مع الكهرباء التى تُثير مصابيحنا لئلاً ونُدير مصانعنا نهارة .

الأمر الثانى — إن الضوء ، وهو من أهم الظواهر لنا فى الكون إذ به نرى أنفسنا ونرى الأشياء ، هو بدوره أمواج كهرومغناطيسية . وسنرى أن لانبعاثه علاقة بهذا الالكترون الحائر الدوار .

ومن هنا تفهم للالكترون أهميته ؛ إذ بالله ماذا يبقى من هذه الدنيا لولا المامدة التى هى الكهرباء ، ولولا الضوء الذى مرجعه المامدة ؟ وسنرى فى الحال هل لفت الالكترون نظر العلماء ؟ ، وماذا أفادوا حين فطنوا إليه .

لقد استرعى الالكترون انتباههم ، فشغل به الآلاف من العلماء وطلاب البحث العلمى . وبقدرة تقدم العلم التجريبي باحثاً عنه بقدر ما كان تقدم العلم النظرى ، وكثيراً ما حدث أن غذى أحدهما الآخر ، بحيث إنه يمكننا أن نعتبر أن معارفنا عن الالكترون هى نتيجة لتعاون وثيق بين إبداع العلم التجريبي وقوة العلم النظرى .

نُرى هل وضع الفيزيائيون نماذج يستوعبون بها حركة الالكترون حول النواة فى الذرة ؟ وهل اتفقت بعض نتائج العلم التجريبي وهذه النماذج ؟ بمعنى أنه هل باتت معروفة لدينا مواضع الالكترون الحائر فى المكان وفى الزمان ؟ وما الذى ينتج من أوضاعه المختلفة من ظواهر كونية ؟ هل تحققت هذه المعرفة أم ما زال هذا كله فى باب الحدس والتخمين ؟ هذا ما تتناوله بالبحث والاستقصاء .

لعل أول خطوة فى هذا السبيل هى للعالم الإنجليزى « رذرفورد » الذى نظر إلى الذرة طاملاً شمسياً وجسيمات منفصلة بين بعضها وبعض قوى للجذب تتعادل مع القوى الصادرة عن المركز الخاصة بحركة جسيماتها الدورية ، وتشبه هذه القوى تلك القوى الموجودة بين الشمس والسيارات التى تدور حولها . فهذه السيارات لا تندفع إلى الشمس ولا تهرب منها . ولا يختلف نموذج رذرفورد فى الذرة عن النموذج الشمسى إلا أن طبيعة القوى المؤثرة فى الذرة كهربائية فى

بعيداً عن نواة الذرة

حين أن طبيعة القوى المؤثرة في الكواكب هي الجاذبية النيوتونية المعروفة (١) .
إن الفيزيائيين النظريين اليوم مجربون حتى في نظرياتهم ، فهم يبدئون بفروض
ولكنهم ينتظرون أن تحقق التجارب هذه الفروض .

ولنبحث ملياً هل احتفظ فيزيائيو هذا العصر بنموذج رذرفورد الشمسي ؟
ولنتأمل المغزى الفيزيائي للضوء المنبعث من مصباح أو من قطعة من ملح
الطعام وضعناها في اللهب ، وتأمل الحوادث الواقعة في الذرات المكونة
لهذا الملح .

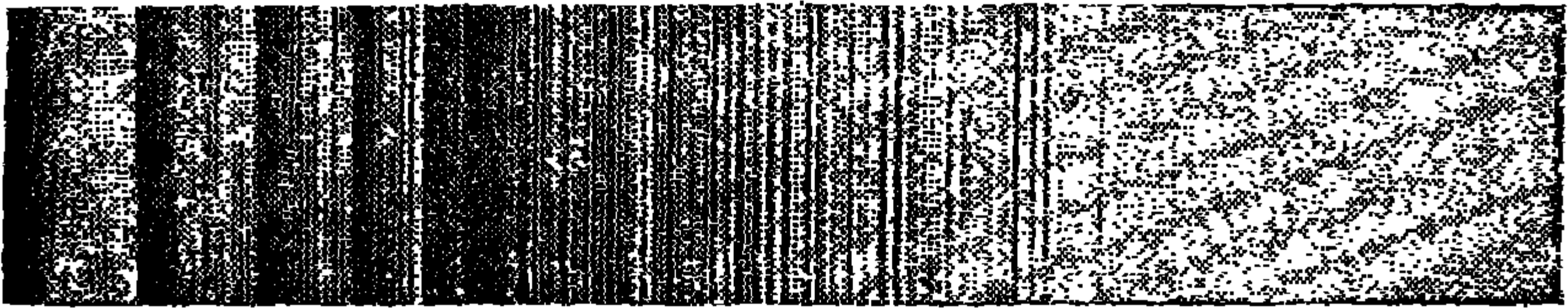
لكي تستطيع الذرات المادية أن تبعث ضياءها يجب علينا أن نهيجها
فنضع قطعة الملح على لهب مصباح « بترن » مثلاً ، فتأخذ هذه القطعة من الملح
لوناً أصفر تراه العين ونراه في المطياف spectroscope ، وهو جهاز خاص
بتحليل الضوء . إن هذا اللون الأصفر هو في الواقع رسالة منبعثة من الحدود
الخارجية لذرة ملح الطعام ذاتها . كذلك إذا أدخلنا أثراً لغاز الهيدروجين في
غلاف زجاجي مفرغ من الهواء وأحدثنا بين طرفي الأنبوبة تفريغاً كهربائياً تحت
ضغط كهربائي عال ، فإن الغاز يتلون داخل الأنبوبة ويبعث إلى العين ألواناً معينة
كتلك الألوان التي نراها ليلاً من أنابيب النيون الوهاجة ذات اللون الأحمر
البديع والمستخدمة ليلاً في الإعلانات وعلى دور السينما . هذه الألوان بدورها
رسالة عظيمة أتت من الحدود الخارجية لهيكل الذرة .

وترانا مضطرين أن نشير بلغة سريعة للتحليل الطيفي فنقول : لكي نحلل
الضوء المنبعث من أي منبع نستخدم ما يسمى بالمطياف ، ويتركب من منشور
زجاجي وثلاث أنابيب رئيسية موضوعة أمام المنشور ، إحداهن تستخدم
لأدخال الضوء المراد تحليله وتسمى بمُجمِّع الضوء . والثانية تستخدم في
رؤيته بعد مرور تحليله في المنشور وتسمى المنظار « التلسكوب » . والثالثة
تستخدم للقياس إذ بها مسطرة مدرجة تدريجاً دقيقاً ، وهي قضاء من الخارج ،
كما توضع بطريقة تنعكس في التلسكوب فسنستطيع تقدير مواضع الألوان
أو الخطوط الطيفية المختلفة ، هذه المواضع تحدد لنا ما نسميه أطوال أمواج

(١) العالم الكبير ألبرت أينشتاين A. Einstein اعتبارات جديدة عن الجاذبية لاجمال
قد كرما الآن .

هذه الألوان ، بحيث إذا ضيقنا فتحة الأنبوبة التي يدخل منها الضوء ظهر الطيف على شكل خطوط منفصلة الواحد منها عن الأخرى .
ولقد اتضح أن لكل مادة خطوطاً معينة تتميز بها ، وهذه الخطوط الطيفية (١)
رسائل هامة من داخل الذرة فللهيدروجين خط واضح في الأحمر واثنان في الأزرق وآخران في البنفسجي . والبوتاسيوم خطان في الأحمر وآخر في البنفسجي . والصوديوم خط واضح في الأصفر يتبين في التحليل الدقيق أنه خطان متجاوران .

ولقد تقدمت هذه الناحية من العلم لدرجة أصبح فيها التحليل الطيفي طريقة دقيقة للتعرف على وجود العنصر الكيميائي في المادة الموضوعة تحت الفحص مهما صغر المقدار منها ، بمعنى أنه إذا أخفقت الوسائل الكيميائية في التعرف على وجود أثر قليل جداً من عنصر معين فإن التحليل الطيفي يجزم بوجود هذا الأثر إذا ظهرت الخطوط الطيفية المميزة لعنصره ، بمعنى أن التحليل الطيفي أفضى وسيلة أدق من الوسائل الكيميائية .



طيف القوس الكهربي للفحم
من كتاب الفيزياء لمؤلفه سبرنجر (Springer) المجلد ٢١ برلين

وفي الصورة نرى مثلاً من التحليل الطيفي لقوس الفحم الكهربائي المستخدم في الفانوس الذي يطلق عليه الفانوس السحري ؛ فإنه بتحليل الضوء الواقع من الشرارة الحادثة من اقتراب طرفي الفحم عند مرور التيار الكهربائي نحصل على هذه الخطوط الطيفية .

(١) إتأ لا ندخل في تفاصيل خطوط الامتصاص وغيرها من الخطوط الطيفية .



لقد ألمعنا بشيء عن الخطوط الطيفية . ولنبحث الآن علاقة هذه الخطوط بالذرة ذلك العالم الشمسي الصغير الذي تحدثنا عنه . ويفترض لذلك العالم الكبير « لورنتز » حركة ذهاب وإياب للألكترون داخل الذرة لاجرة دورية حول النواة . ويقرر الفيزيائيون اليوم أن مثل هذه الحركة في الذهاب والمجيء تسبب انبعاثاً لموجات كهرومغناطيسية هي الموجات الضوئية ، وذلك بمقتضى نظريات معروفة لمكسويل بحيث إن عدد الذبذبات لهذه الموجات هو عدد ذبذبات الإلكترون داخل الذرة ، ومن هذا يمكن أن نستنتج طول الموجة لخط طيفي معين . ولقد أدى حساب لورنتز إلى نتائج مرضية . من هذه النتائج أنه أمكن تفسير تكرار بعض الخطوط الطيفية بالطريقة التي يتكرر بها الصوت . إننا نعرف أنه إذا تعرض جسم لذبذبة ميكانيكية نحصل على تردد معين ، كما نحصل على ما نسميه توافقاً يعادل ضعف أو ثلاثة أو أربعة أضعاف عدد الذبذبات الأصلية ، وهكذا أمكن للورنتز تفسير تكرار خطوط الطيف . ومع ما صادفه نموذج لورنتز من النجاح فقد لقي نموذج صعبوبة في تفسير بعض الخطوط الطيفية . وعلى أية حال فهو لا يتفق مع نموذج رذرفورد السابق الذكر حيث للألكترونات حركة دورية لاجرة بندوقية . وهكذا فسر نموذج لورنتز الانبعاث الضوئي دون أن يفسر الخطوط الطيفية . فهل من سبيل لهجر نموذج لورنتز والاحتفاظ بنموذج رذرفورد على شرط أن يفسر لنا الانبعاث الضوئي ؟

أويكون للانبعاش الضوئي ارتباط بفقدان الطاقة للألكترون في حركته الدورية ؟ إننا نعلم أن مثل هذا الفقدان لا يمكن أن يتأني إلا على حساب تغيير في طول الحيز الذي يقطعه الإلكترون . ولو أن هذا حدث ل زاد عدد دورات الإلكترون حول النواة .

من منا لا يعرف اليوم أن فترة الدورة الكاملة للكواكب في مجموعتنا الشمسية قصيرة للكواكب القريبة من الشمس طويلة للكواكب البعيدة عنها ، بحيث إن عطارد وهو أقرب الكواكب إلى الشمس يتم دورته في ٨٨ يوماً ، على حين تتم الأرض دورتها في سنة . أما بلوتون وهو أبعد هؤلاء الأبطال التسعة فإنه لا يتم دورته حول الأم وهي الشمس إلا في ٢٤٨ عاماً .

بعبداً عن نواة الذرة

وعلى هذا الأساس لو أردنا أن نحتفظ بنموذج رذرفورد من أن الإلكترون يدور حول النواة وتفسر في الوقت ذاته الانبعاث الضوئي فإننا نواجه صعوبة كبيرة هي تعديل في فترة الدورة ، وبالتالي زيادة في تردد الضوء أي تغيير في طول الموجة ، وذلك بحالة مستمرة ، وهو ما ليس حادثاً . من هنا نشأت صعوبة كبيرة في تفسير الانبعاث والإشعاع الضوئي مع التمسك بنموذج رذرفورد الذي يميل إلى التمسك به فريق كبير من العلماء المعاصرين .

وسنشرح في مقال قادم الكيفية التي تغلب العلماء فيها على هذه الصعوبات فنأتي على ذكر الأعمال الخالدة التي قام بها عالم معاصر هو نايلز بوهر . عند ذلك يعلم القارئ أن للألكترون الحائر وثبات في عالم الذرة ، وثبات لم يحدث على الأقل لعالمنا الأرضي .

محمد محمود عمالي

عيونك الزرق ..

ما فارقَتني منذُ ودَّعْتُها عيونكِ الناعسةُ السُّومُ
مُحَلِّقاتٌ مثلما حَمَلتْ آخرُ ما حيَّاكِ رَمَتِي فَمِ
نَبَّهَها تَقْبِيلُها بَغْتَةً فَالْتَفَتَتْ نَجْلاءُ تَسْتَفْهَمِ
مُسْتَشْرِفاتٍ ما رَنَتْ مِثْلَها قَدَيْسَةٌ لِّلَّهِ تَسْتَرْحِمِ
مِنْ لَازِوَرْدٍ صَاغَ تَكْوِيرُها مَنْ فَوْقَنا تَكْوِيرُهُ الْأَعْظَمُ (١)
لَوْزِيَّةُ الْأَمَاقِ ، مَكْحُولَةٌ أَجْفَانُها ، مَسْقُومَةٌ تَسْقَمِ
أَهْدَابُها الْوُطْفا طَفَا ظِلُّها عَلَى خُدُودِ ظانِها الْعَنْدَمِ (٢)
وَلَحْظُها الذَّاهِلُ مَسْتَرْسِلٌ أَجُوفٌ لَا يُبْدِي وَلَا يَكْتُمُ
شَاخِصَةٌ ما رَفَّ حِمْلُها سَاجِيَةٌ كَأَنَّها تَحْلُمِ
كَأَنَّ رُؤْيَا قَدْ تَرَاءَتْ لَها فَأُتِيتُ تَرْقُبُ ما يُلْهَمُ (٣)
رُؤْيَاكِ نَوْرَانِيَّةٌ ، مِرْها فِي النُّجُلِ مَعْكُوسُ السَّنَائِرِ سَمِ
نَوَافِذِي لِلْخُلْدِ هَذِي الَّتِي حَجَّيْها سَتْرُ الرَّدَى الْمُظْلَمِ
تَفْتَحُها الذِّكْرَى ، وَلَكِنْ كَمَا يُفْتَحُ عَنْ كُوءَاتِهِ الْمَجْجَمِ (٤)

عبد الرحمن صديقي

(١) اللازورد : معدن يتخذ للحلى ذو زرقه شفافة صافية .

(٢) الوطفاء : الكثيرة الشعر . العندم : صبح أحمر .

(٣) أُنْأَرَ نَظْرُهُ أَحَدَهُ .

(٤) المججم كالجمجم : مكان النار الموقدة المتأججة .

من هنا وهناك

عودة فرنسا

عاش الكاتب الانجليزي « تشارلز مورجان » زمناً في فرنسا فأحبها حب من عاش أهلها عن كسب ، ودرس ثقافتها عن تغلق وفهم . ولقد كتب عنها كثيراً ودافع في عدة مقالات عن رسالتها التي أدتها وما زالت تؤديها للمدينة الانسانية . ومن أحدث ما كتب قصة شائعة سماها « الرحلة » أصدرها سنة ١٩٤٠ وقد أهداها إلى « رجل وامرأة من فرنسا » لم يسمها ، وكل ما وصفهما به أنها عاونا على تمكين حب فرنسا من نفسه . وهو يأسف إذ قطعت المحنة التي تجتازها فرنسا ما بينهما من صلات وحالت دون وصول هذا الكتاب إليهما . ولكن فرنسا كما يقول « فكرة لا يمكن للمدينة الانسانية أن تفرط فيها » . وفي عام ١٩٤٤ أصدر كتاباً سماه صوراً تعكسها المرأة . فيه عدة مقالات متفرقة في موضوعات مختلفة ، منها مقال عن عودة فرنسا كتبه في ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٤٢ صور فيه حقيقة هذا البلد في وقت نظر الناس إليه نظرة إقلال من شأنه بسبب أحداثه السياسية . ولطرافة هذا المقال وما في آرائه من إخلاص ووفاء رأينا أن ننقله إلى قراء « الكاتب المصري » .

تري لو اجتمع انجليزي وأمريكي وفرنسي في مقهى من تلك المقاهي التي تواجه كنيسة « نوتردام » في باريس وقد انقضت أعوام وأعوام على هذه الحرب ، فنظروا إلى الكنيسة تحترق صفو سماء ليلة من ليالي يونيو ، فقال أحدهم : « لقد حانت للمدينة الانسانية فرص إذ ذاك . . . » ثم أنصتنا نحن من خلل الأعوام التي طوتنا وطوت زماننا فإذا نسمع إنهاء لتلك الجملة ؟ أيقول : فاتهزتها أم يقولون : ولقد أفلتت منها ؟ وماذا يا تري يكون شعور كل منهم نحو الآخر ؟ ماذا يحس الفرنسي ساعته نحو رفاقه ؟ وما يشعر الأمريكي والانجليزي نحو فرنسا ؟ أيكون شعور سائح أتى ليتطلع إلى آثار فرنسا دهشاً عجباً لا يفقه شيئاً ولا يستسيغ معنى ، أم شعور سائح أتى بلداً أحبه لأنه عرف مدنيته معرفة حقّة وأشرب قلبه حباً وإجلالاً لهذا الذي قد عرف ؟

لا شك أن بين الأمريكي والانجليزي والفرنسي اختلافات في المزاج والطبع من العيب أن نكرها . بل إن الفرنسي أقل الناس انخداعاً بما يبيده الأمريكيون والانجليز من ضروب الذوق واللباقة يخفون بذلك ما يتعصبون من أجله ضد فرنسا وما ينقمونه عليها . ففي عام ١٩٤٠ سلمت فرنسا ، وكان شعبها كالأمريكيين والألمان يعتقد أن إنجلترا لا بد مسلمة هي أيضاً . وصرح أولو الأمر في قبشي ولم يكن ذلك أثراً لارهاق أو ضغط عليهم ، أنهم يرجعون بنصرة ألمانيا . بل لقد صرح بعض الكتاب الفرنسيين اللاجئين إلى أمريكا ، في ظل ما أسبل عليهم من حرية ورعاية ، بانتصارهم لقضية ألمانيا . وما يمكن أن يفتقر للتجار والساسة لا يمكن أن يفتقر لكتاب ، فالكاتب رسول رسالة سماوية عليه أداؤها . إنه كرجل الدين ليس من حقه أن يقصر في أداء رسالته . فلناس جميعاً أن يساوموا في أمور دنياهم ، ولكن ليس لحامل رسالة الفن أن يفعل شيئاً من ذلك . لقد ارتعشت في تلك المحنة يد الكثيرين من رسل

من هنا وهناك

الفن في فرنسا دون ريب . ولكن أكون هذا سبباً في أن نتقص من قدر فرنسا ؟ إنما لو بدأنا تعدد مساوئ فرنسا لنقارنها بمساوئنا أو لنزنها بمحاسنها لنرى أى الكفتين ترجح . لفتشنا باب نقاش ممل سخيف لا نهاية له ، ولبعدنا عن جوهر المشكلة الحق التي تواجه فرنسا بها العالم اليوم .

فليست الأمة فيما تسديه للمدنية بمجموع أفرادها ، فاهم إلا جيل من أجيال أبنائها في الماضي والحاضر والمستقبل . وهي ليست في ذلك بحكومتها ، فالحكومة هيئة وقتية مفتعلة متكلفة . وإنما هي بفكرتها التي تمثلها . وكما أن للانسان حقيقة ليست في ملامح وجهه أو صفاته أو فيما يأتي به من أفعال مختلفة إن خيراً وإن شراً ، وهذه الحقيقة هي شخصيته التي تلي عليه كل هذا وتلونه ، فكذلك للأمم شخصيتها أو فكرتها التي تميزها من سائر الأمم والتي بفضلها تقدم للمدنية نصيبها من الرق والتقدم . وفرنسا فكرة يجب أن تتيقن وسط هذا الغمام من حوادث الحرب ، فإذا نحن أخفقنا في أن تتيقن لم نجزم في حق فرنسا وحدها ، وإنما نجزم في حق أنفسنا وحق المدنية الانسانية كلها .

إن في الرجل السياسي ميزة لا أجد لها اسماً أقرب من أن أقول عنها إنها لباب الحنكة السياسية . هذه الميزة هي التي تجعل السياسي لا ينظر إلى الانسانية اليوم أو غداً وإنما هو ينظر إلى لبابها . ويقدر تبعته نحوها لا بالأجيال ولكن بالقرون . إن مهمة هذا الحنك السياسي هي أن ينظر إلى نهر المدنية فيصون مجراه وينقى عنه كل ما قد يجرفه التيار إليه من سموم وأوحال ، يرفع السدود حتى لا يقف جريان النهر ، ويحول مجرى النهر إذا رأى من التربة ما يجب أن يرويه ، ويجاهد في سبيل أن يظل النهر وحدة كاملة لا يعتوره انقسام ولا يصيبه ضعف أو هزال . إنه لا يرى الماضي والحاضر والمستقبل تعاقب أزمان وتتابعها ، وإنما هو ينظر إليها جميعاً نظرة الرسام الفنان فيراها كلها في إطار واحد يراها أجزاء من صورة واحدة . لقد يرى الممثل السياسي لأمة بصفته رجلاً سياسياً ، الأمم في مصافها وما يكون بينها من تضارب القوى إن حرباً وإن سلماً ، ولكنه بوصفه رجلاً سياسياً محنكاً مجرباً يجب أن يشغل نفسه بفكرة هذه الأمم أو بشخصيتها أولاً وقبل كل شيء . وإن النظرتين لتختلفان اختلاف نظرتي رجل الدين والشرطي إلى أخطاء الناس وخطاياهم ، أو اختلاف نظرتي الصحفي والمؤرخ إلى حوادث الحياة ، بل اختلاف نظرتي للمسجل والشاعر نحو سير الحياة وأحداثها . فبالنظرة الأولى يحاول أن يرى مظاهر الأمم وتصرفاتها ، وبالنظرة الثانية يحاول أن يتفقد إلى لب حقيقتها . في الحال الأولى يسأل عن فرنسا ماذا عملت وماذا تعمل وماذا ستعمل . وفي الحال الثانية يسأل ما هي فرنسا ؟ ماذا كانت وماذا ستكون ؟ وما هي ألمانيا ماذا كانت وماذا ستكون ؟ وبذلك يرتفع عن ناظره ضغط الحوادث وتخفت في أذنيه أصوات الأحزاب ، فيرى بعقله وحسه ، فإذا حكاه أصدق وأصرح ، وإذا حبه أخلص وأثبت . فإن يكن قد أحب فرنسا حقاً فإنه ليرأها الآن في محنتها فيحبها كما أحبها من قبل . يرى فرنسا من خلال الأحداث فإذا فرنسا هي لم يتغير فيها شيء .

ما أكثر ما ينتاب الأمم من تغير الأحوال بل من تغير الآراء ، ولكن شخصية الأمة تظل هي كما تظل شخصية المرء لا تتغير ، فإذا قوته تبدت من خلال ضعفه ، وطفولته تظهر من خلال رجولته ، بل إذا الأمل يلوح من خلال يأسه . إن فكرة الأمة قد تتغير ولكن شخصيتها ثابتة . والذي أخافه أن تقع نحن الانجليز في هذا الخطأ فنظن أن فرنسا قد انحلت

فكرتها وتسمت شخصيتها لأن أبنائها قد سلموا في يوم من الأيام . أو نظن أن فكرة ألمانيا فكرة سليمة جدية بأن تغذى نهر المدينة الانسانية ، قبل أن تطهرها الأيام والسنوات مما قد علق بها من أو حال أترأ للنظام الجديد ، لا شيء إلا لأن ألمانيا انتصرت في يوم من الأيام . إننا إن فعلنا ذلك فما أحرانا أن نصم آذاننا حتى لا نسمع آخر الجملة التي قالها بها أحد هؤلاء المجتمعين في مقهى من مقاهي باريس قرب « نوتردام » : « لقد حانت للمدينة الانسانية فرصة . . . » ترى هل انتهزتها أم أنها جعلتها تمر بها فأفلتت منها .

والآن ما هي فكرة فرنسا ؟ إن أهم ما يبرز من وراء تفكير أبنائها وتصرفاتهم هي فكرة التماسك والوحدة والكل . إن الفرنسي يفكر في الفرد ثم في الأمة . وإنه ليتردد بطبيعته في أن يكون عضواً في جماعة أو نقابة أو حزب . إن نظام الأحزاب في فرنسا بعيد كل البعد عن الثبات والاستقرار اللذين يتمتع بهما في أمريكا وإنجلترا . والحكومات في فرنسا متزعزعة غير ثابتة . إن الفرنسي وحده دون سائر أبناء أوروبا أو أمريكا هو الذي يستطيع أن يأبى على رئيس مجلس النواب حقه في أن يطلب الاقتراع على مسألة من المسائل أو أمر من الأمور . حتى الثورة الفرنسية أبت على الفرنسي أن يفنى شخصيته في المجموع ، في إبان الحماسة ارتفع صوت الناقدين عالياً . والنقد الذي يسارع باخفاء رأسه في التراب أمام أي تهديد بالقوة في ألمانيا ، يرفع رأسه عالياً في فرنسا ليتحدى أي سلطان . ففرنسا تريد ناقداً لكل متحمس ممسكاً العنان لكل جامع — تاليران لكل نابليون ، وفولتير لكل ثورة . وهذا ما يصدم المتحمسين من الإنجليز الذين يسارعون في الاندفاع المتحمس لكل بارقة أمل تلوح في الوصول إلى الأرض الموعودة . ولهذا الخلق عيوبه بلا شك ، ولكن فلتعترف أولاً وقبل كل شيء بمزيتة في ميدان السياسة . إنه ليس مجرد التسليم بالأسر الواقع وليس النغلة عما يحدث ، بل ليس اليأس من كل إصلاح ، إن هو إلا حس عميق أملتته التجارب بفشل الجماعات . إنه الشعور القوي بأن الحماسة المشتركة تنقص من قوة الشخصية . لذلك كثيراً ما يرى الفرنسيين يحملون الحماسة وينقدونها في سبيل المحافظة على قوة الشخصية وتماسكها .

ويقول الإنجليز منتقدين : إن الفرنسيين منطقيون أكثر مما يجب . إنهم قوم لا إيمان لهم ، إنهم لا يستطيعون أن يحلقوا في الآفاق ولا أن يروا ما وراء الأفق البعيد . وفي اختصار : قوم قساة جامدو المواطن . فهل من الحق أن الفرنسيين قساة جامدون ؟ فهم إنهم كذلك ، بل إنهم كذلك في النقد خاصة . إنهم لا يقتفرون مثلاً لمثل تقصيره في تمثيل دوره لأنه كان في يوم ما معبود الجماهير . ولكنهم — ويجب أن نعترف بذلك — لا يمكن أن يهاجموا مثله لأن سنها كبرت أو لأن الدور الذي تلعبه لا يلائم سنها . إنهم لن يرحموا مسنة أو شابة جميلة أو قبيحة إذا ما قصرت في أداء دورها ، فتى أعادته فليس لهم عليها أي اعتراض . وأما نحن فانتنا على العكس من ذلك ، فنحن نقاليدنا أن نتفرق بشخصيات للمسرح الذين جنى عليهم الدهر فذهب يحماهم . في مثل هذا نرى أن الفرنسيين أجد منا طائفة وأقى . ولكن أليسوا في هذا أصدق منا وأخلص للحق ؟ إنهم لا يعرفون الاحسان في المواطن لا في المسرح ولا في الأدب ولا في السياسة . فإذا العمل استحق النقد وجهوه لا للشخص الذي يقوم بالدور ولكن للدور نفسه . بذلك لا يمكن للمغنى الذي شاخ وكبر أن يجد لنفسه عيشاً في باريس ، ولذلك انهجى التعصب لنابليون بعد سيدان . ولذلك أيضاً نجد

من هنا وهناك

أن الشيء المؤكد الوحيد في رخص الشكوك التي تحيط بفرنسا هو أن الجمهورية الثالثة قد ماتت إلى غير بعث .

ولعل الاتهام الخطير حقاً هو قولنا إن فرنسا ضيقة الأفق بسبب حرصها الشديد على الوصول إلى لب الحقيقة . فانه يقال مثلاً إن تصميمها على أن تكون المعاهدات بين الأمم رسمية ، وريبتها من كل ما يقع بين الأمم من اتفاقات غير رسمية أو معلقة قلقة ، كل هذا قد أدى بفرنسا في ربع القرن الأخير ألا تقدر تقاهات السياسة وصنائرها حق قدرها . واتهمة نفسها توجه إلى لغة الفرنسيين وأدبهم . فانه يقال عن حق إن اللغة الفرنسية وإن تكن قادرة على أن تحقق كثيراً من المجال الفني والامتياز في الرشاقة والخفة والوضوح والدقة ، فان كلماتها عاجزة حتى في يد أمهر الكتاب عن أن تؤدي معنى غير ما قد حدده لها القاموس . وبعبارة أخرى إن الكلمة الفرنسية عاجزة عن أن تقبل في معناها ظلالاً أو ألواناً جديدة . كذلك يقال ، ولعله عن حق أيضاً ، إن هذا العيب نفسه في أدب الفرنسيين . فلقد أدى أدباء فرنسا إلى العالم ثروة لا تقدر ، ولكنها تمتاز بافتقار عجيب في التصوف . حتى عند « مالارمي » Mallarmé حيث نجد العبقرية الفرنسية تكشف عن أخس مزاياها ولا نجد التصوف بمعنى الكلمة . هذه العبقرية التي ترى الحضار في الحضرة والفرد في الجماعة والوحدة التي تستطيع أن تؤلف وتجمع السكل المتنافر في واحد متنسق ، هذه العبقرية التي ترى التجربة الحسية كلاً تاماً متاكلاً . نعم حتى عند « مالارمي » لا نجد هذا التصوف وإن أشبه « بليك » Blake وإنهما ليسيران في سيلين متقابلين ولكنهما لا يلتقيان . ومن يدري ! لعلهما يلتقيان هناك في اللانهائي حيث لا ندري .

مهما تكن ظاهرة الحياة الفرنسية التي تحملها فإن الخاصة التي تسيطر على كل هذه الظواهر ولا يمكن أن تخلو منها ظاهرة مهما تكن ، هي الفرار من التفكك والتحلل . هي أن ترى الأشياء على حقيقتها وأن يقارب بين بعضها وبعض حتى تؤلف كلاً تاماً منطقياً من متفرقات تبدو متباغدة متنافرة . وفي اختصار ، هو التوحيد والتأليف ، هو الاتمام والاكمال . إن حب فرنسا لهذا التأليف بين الأجزاء المتنافرة ، هو لباب ما قدمت للمدينة الفرية . ولهذا الخاصة وحدها قصدها الشباب من جميع أنحاء الأرض ليتعلموا بها ، لا ليتلقوا ما تلقيه جامعاتهم عليهم من دروس ولكن ليشعروا بأنهم يجدون في فرنسا المرأة التي يرون فيها أنفسهم على نحو لم يكونوا يعرفونه من قبل أو يدركونه .

إن لفرنسا عيوبها بلا جدال . ولقد برزت هذه العيوب في هذا العصر الحديث بروزاً قوياً ، فلا يمكن أحداً أن يجادل في أن فرنسا كانت خائفة وجلة ، وأن هذا الخوف قد جعلها تصرف قوتها في إعداد وسائل الدفاع إعداداً جعلته شدة الخوف مضطرباً .

وكانت فكرة فرنسا فكرة التأليف والتوحيد مهددة وفي خطر . وكان الأعداء المهددون متعصبين ، وكانت فرنسا تعبئة نهكتها حرب السبعين وأثمنت جراحها حرب الألمان الثانية . وإن فرنسا لتمر بفترة من فترات خلودها ، فترة تحس فيها بالكبر وإذا العدو يهجم مرة أخرى . لقد هجم وهزم ، وكان أسلوب العدو معها منتصباً كأسلوبه في الإعداد للهجوم : أسلوب تبرز فيه فكرة المجموع يعمل على حساب الأفراد ويعمل لتفكك الشخصية الانسانية تفككا وانحلالها انحلالاً تاماً . ووسيلته أن يعرض على هؤلاء المتعصبين السريعي التأثير فرصة العمل في وحدة زائفة مصطنعة طاغية .

من هنا وهناك

إن الفناء في المجموع في حياة الأمم كالجنون أو كانهراف العقل يصيب الأفراد . إنه ليحطم كل قيمة إلا قيمة القوة ، ويمحو كل فضيلة إلا فضيلة الطاعة . إنه تسميم لكل تفكير أو عقل ، وخنق لكل إيمان يمكن أن ينقد التعصب للتفاني . وإن ما ينتج عن هذا من إلغاء لميزان العقل وقدرته بوساطة هذا الميزان على التمييز بين الطيب والحديث الجريئة لا يمكن أن يقاس بها شيء من فظاعات النازية . إنها جريمة إفناء الروح الانساني . وما زال هناك من الطيبين والطيبات من يظنون أننا إنما نحارب مطاعم جماعة جشعة ، أو أن فرنسا تمتحن محتتها في سبيل مطاعم عصاية يجب أن تفنى ، فيغفلون بطيبة قلوبهم عن أننا إنما نحارب وحشاً وتقاتل غولا قد طغى على روح أمة فأفسدها ، فأرادت بدورها أن تقسد العالم حولها . ولكن الحق يكتب اليوم في فرنسا ، ألا فليقرأه كل من أراد أن يقرأ . ففي بولندا التي لم تكن مركز فكرة التوحيد والتأليف في يوم من الأيام والتي لم تنظر إليها ألمانيا إلا على أنها عائق طبيعي في سبيل التوسع شرقاً ، كان الأسلوب المتبع في التغلب عليها هو الإفناء والقتل ، وكان ذلك كافياً . ولكن في فرنسا ، فرنسا الأمانة على المدنية الأوروبية كلها ، كانت السياسة المتبعة شيئاً آخر غير الإفناء والقتل : كانت التفرة والاذلال والافساد والاستعانة ببعض على البعض الآخر . فاذا استطعنا بالقوة للمادية أن نخرج الألمان من أرض فرنسا ، فإن تلك السياسة ستظل على نحو ما قائمة فيها . إن ألمانيا لا تحارب من أجل النصر للمادى وحده ، ولكنها تريد أن ينتصر التفكك الروحي والانحلال المعنوي .

وإن المسيحية لتأبى هذا التفكك ، وإن العدل الرحيم الذي يرفع لواءه القانون وهو لباب الديمقراطية الانجليزية ليأبى ذلك هو أيضاً ، وإن فكرة التأليف والتوحيد التي تنطوي عليها فرنسا لألد أعدائه . لذلك كانت فرنسا ضرورة لنا لا يمكن أن نقرط فيها . ولذلك كانت فرنسا إذا حطمت ضرورة لألمانيا لا نقرط فيها . إن معاملتنا لفرنسا لامتحان لفراستنا وحكتنا . فكل أمة أمريكا كانت أو انجلترا أو ألمانيا ترى إذا ما تطلعت في وجه فرنسا خطوطاً لو استطاعت أن تقرأها لعرفت ما قد كتب لها أو عليها .

سهرير القلمحاري

رأى في حدوث اللغة ونشأة الحروف

هل فكرت يوماً ما فيما للغة المنطوقة من جلال الشأن ؟ إن التمدن يصبح شيئاً تافهاً حقيراً ، لو لم تكن الكتابة التي تمكنا من نقل آراء واكتشافات الماضي السحيق إلى الأجيال المقبلة .

أما إذا عدنا اللغة المنطوقة فقد عدنا كل شيء ، وأصبحت الحياة وجوداً مجرداً لاخير فيه ولا غناء .

فاللغة المنطوقة هي الوسيلة التي نستطيع بها أن ننقل أفكارنا إلى الآخرين ، وإن نستفسر عما نريد ، وأن نصف ما يحالنا من إحساس وشعور .

وفما يلي سنقص قصة اللغة المنطوقة ، وقصة اللغة المكتوبة ، وما نالها من تطور منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا .

من هنا وهناك

إن أقدم اللغات المكتوبة ليس لها أبجدية من أى نوع . ولكنها تعبر عن نفسها بمجموعة من الصور التي تمثل الأشياء والأفكار .

وقبل أن تكون أية لغة مكتوبة كانت هناك لغة منطوقة . أما أصل هذه اللغة المنطوقة فعلمه عند علماء اللغات ، وعلمهم في هذا قليل لا ينفع غلة ولا يشفي غليلاً . ولهم في هذا العلم القليل نظريات مختلفة .

ويجب ألا يضرب عن بالنا أن اللغة ليست شيئاً يولد معنا ، بل هي شيء يجب أن نتعلمه كما نتعلم كيف نكتب . وبرهان ذلك قائم في حالة الأطفال الذين يولدون صماً . ذلك أن الذين يسمعون يستطيعون أن يقلدوا في سهولة ويسر ما يسمعونه ممن هم أكبر منهم سناً . ولكن الأطفال الصم ليسوا بقادرين — بحكم فقدانهم حاسة السمع — على أن يتعلموا الكلام بغير سראה خاصة وتدريب طويل .

لغة العيون

كنا في الماضي نسمع الشيء الكثير عن الصم والبكم . أما الآن فانتنا نعلم أن الموصوفين بهذه الصفة ليسوا بكما إنما هم صم ليس غير . ولذلك فانتنا نسميهم الصم — البكم .

وهم في أغلب الحالات أوتارهم الصوتية لا عيب فيها ولا نقص . فإذا تعلمت عيونهم أن تراقب حركات فم من يكلمهم أمكنهم أن يتعلموا الكلام ، وإن كان معروفاً أن تعلم الكلام بطريق الأذن هو أسهل وأيسر من تعلمه بواسطة العين .

ولكن الأطفال الصغار وكذلك الصم البكم يستطيعون أن يعبروا عن رغباتهم بغير الكلمات . وطريقة التعبير التي اختصوا بها هي طريقة الإشارة والايحاء ، فهم يشيرون إلى الأشياء التي يشتهونها ، وهم يصدون عن الأشياء التي لا رغبة لهم فيها . وهم يتسمون لمن يحبون ، وهم يعبسون في وجه من لا يحبون .

والرأي عند بعض العلماء أن لغة الایحاء والإشارة قد سبقت لغة الكلام . ولغة الایحاء والإشارة مازالت سائدة حتى يومنا هذا بالرغم من تقدم لغة الكلام ووصولها إلى ما يقرب من درجة الكمال .

وهذا مشاهد وواضح كل الوضوح عند الوعاظ والساسة . بل هذا واضح حتى في الأحاديث العادية التي نستعمل فيها الإشارة لتوكيد كلماتنا وتوضيحها .

ومن الثابت أننا لا نعرف معرفة يقينية هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن يستطيع الكلام إطلاقاً . ولكن الثابت ثبوتاً لا شك فيه أن الإنسان في عصوره الأولى كان يستعمل قليلاً من الكلمات .

وإنتنا لنجد في عصرنا هذا أن لغة الشعوب التي هي أقرب إلى الهمجية لا تعدى مجموعة ضئيلة جداً من الكلمات بحيث لا تجوز المقارنة بينها وبين لغة كالانجليزية مثلاً ، فإن قاموس أكسفورد الكبير يحتوي ٤٠٤٨٢٥ كلمة مختلفة وضع أمام كل منها تعريفها . ويبلغ مجموع الكلمات مضافاً إليها شرحها خمسين مليون كلمة .

وقد قيل إن مجموع كلمات اللغة الانجليزية ٧٠٠٠٠٠ كلمة . . . ولا يستطيع أحد — بالطبع — أن يستعمل كل هذه الكلمات . ولا نستثنى كبار الكتاب والأدباء .

من هنا وهناك

وقد استعمل شكسبير ما يقرب من ١٥٠٠٠ كلمة . ولكن الفلاح أو العامل الأجير لا يعرف من اللغة غير ٨٠٠ كلمة ، ويستعمل أكثرنا بضع آلاف من الكلمات .

لغة الايماء

يقول العلامة سايس (١) : إن لغة الايماء هي أول طريق اكتشف للتفاهم بين الناس . والهنود الجر قد برعوا في هذا النوع من اللغة ، وكذلك سكان جنوب إيطاليا هم جد مفرمين بلغة الايماء وبخاصة أهل نابلي وأهل صقلية . وكذلك التجار يستطيعون أن يتفاهموا فيما بينهم دون أن ينطقوا بكلمة من الكلمات .

ومن الاشارات البسيطة التي يعرفها كثير منا : إغماض العين وحنى الرأس مستندة على اليد دلالة على النوم . ومنها الرجفة دلالة على الخوف . ومنها إخراج اللسان دلالة على التحقير . ولكن لغة الايماء تستطيع أن تأتى بالمعجائب . وقد قص المستر جلوديت (٢) — وهو من أشهر من تولى تعليم الصم — قصة عجيبة تبين لنا قدرة تلك اللغة على حسن الأداء . قال : زارنى فى مدرستى أحد توابغ الفنانين ، فأثنت أثناء حديثى على ذكاء أحد تلاميذى من الصم وقدرته على قراءة أسرة وجه مخاطبه ، وتفسير خطوط جبهته . فطلب منى الفنان إقامة الدليل ، فطلبت إليه أن يختار أية حادثة من حوادث تاريخ اليونان أو الرومان أو الانجليز أو الأمريكان من تلك الحوادث التى يمكن شرحها بالتمثيل النظرى والتى يمكن رسمها على لوحة التصوير . فقال الفنان : قل له إن بروتس قد حكم على ولديه بالاعدام لوقوفهما فى وجهه ولأنهما عصيا أوامره . وكان التلميذ على علم بأهم حوادث التاريخ الرومانى ، ولكنه لم يكن يعرف أية حادثة سلتخذها موضوعا لحديثنا معه .

فبدأت الامتحان بالإشارة المعروفة عند معلمى الصم كرمز على الرجل الرومانى وهى الأنف الأتقى . ثم رفعت عيني إلى أعلى ثم إلى أسفل وحركت رأسى إلى وراء مرات متعددة ، لأدل على أن الحادث من الحوادث القديمة .

ثم رسمت بوساطة ملامح وجهى صورة توحى إلى ذهن التلميذ أن صاحبها الذى أعنيه كان وحلا بأمر قنطاع ، وأن مخالفة أوامره قد تؤدى بمخالفه إلى المشنقة . ثم تابعت الصور التى رسمتها بلامح وجهى ممثلا حنان الوالد ورجوعه فى الحكم الذى أصدره باعدام ولديه ثم قلب حب السلطة الذى جعل قلب الوالد يقسو قسوة القانون فينفذ حكم الاعدام فى الولدين . فلما انتهيت من تمثيلى بأدب التلميذ إلى لوحة فكتب عليه القصة كاملة لم يحرم منها حرفا . . .

لغة الأصابع

وهناك لغة الأصابع . وقوامها إشارات بالأصابع أجازها العرف لتقوم مقام الأبجدية المعروفة .

(١) العلامة أرشيبالد سايس ١٨٤٥ — ١٩٣٣ أحد العالمين باللغات من الانجليز . من مؤلفاته كتاب النحر الأشورى المقارن . وكتاب الديانتين المصرية والبابلية .

(٢) توماس هوبكنس جلوديت ١٧٨٧ — ١٨٥١ معلم أمريكى شهر بقدرته على تعليم الصم والبكم .

من هنا وهناك

كيف تطورت لغة الكمام

للعلماء في ذلك نظريات عدة ، منها : نظرية الاستخفاف والسخرية . وقوام هذه النظرية أن اللغة بدأت بمجموعة من أصوات التعجب المنبعثة من شعور الألم أو شعور السرور أو شعور الدهش .

ونحن نجد في اللغة الانجليزية الكلمات الآتية : Ah! Oh! Pooh! Ho. Hi. ويمكننا ان نستدل من ذلك أن كثيراً من الكلمات نشأت بهذه الطريقة . فثلا كلمة Pooh تأتي من النفخ بالشفيتين علامة التحقير .

ومنها نظرية الجؤار والجوار The Moo Moo Theory وقوام هذه النظرية أن اللغة بدأت بتقليد الأصوات الطبيعية . ولتمثيل لتلك النظرية ذكروا كلمة Hiss للدلالة على الصغير والفحيح وكلمة Click للدلالة على دقة الساعة .

والأطفال في بلاد كثيرة ومنها إنجلترا يسمون الكلب Boow-Wow تقليداً لباحه . وهناك نظرية العلامة مكس ملر (١) المعروفة بنظرية الطنين أو نظرية دق الاجراس Ding-Dong Theory وهي نظرية تقوم على فرض أن الانسان عنده ملكة الاستنباط؛ فهو يستنبط تعبيراً صوتياً لكل صوت يحدث في مخه هزة وقد اختفت تلك الملكة لما قدم الانسان وأصبح لا حاجة له بها . وكل هذه النظريات صحيحة إلى حد كبير . ولكن إحداها أو جميعها لا تستطيع إقناعنا إقناعاً كافياً عند ما نريد أن نعرف أصل لغة الكلام . وكل ما نعرفه هو أن الانسان حيوان ناطق منذ المصور الأولى ، وأن لغته قد ارتقت واتسعت بمرور الزمن .

كيف نشأت الكتابة

كانت الصور ترسم لتمثل الأشياء التي تصورها ، وكان هذا يسيراً سهلاً . فلما أراد الانسان أن يصور الحواطر والأفكار كالفضيلة والتقوى والمرض ، لجأ إلى طريقة رسم مجموعة من الصور تؤدي في مجموعها معنى الفكرة أو الحاطر . وقد تطورت هذه الصور وظهرت في أسى حلها في مصر القديمة التي خلقت لنا أجمل لغة مصورة وأوقاها . فكانت النحلة مثلاً رمزاً للإلهة الملك ، وكذلك رمزاً للجد في الصناعة . وكانت الخزمة من ورق البردى رمزاً للعلم والمعرفة .

الأممجة

ثم تتابعت المصور وظهر رجال أذكاء عرفوا ان جميع الكلمات إنما صنعت من مجموعة

(١) مكس ملر ١٨٢٣ — ١٩٠٠ ولد ألمانيا ثم تبحس بالجنسية الانجليزية وأصبح من الانجليز العالمين بالغات ثم صار أستاذاً للغات الأوروبية الحديثة في جامعة اكسفورد . ومن مؤلفاته كتاب كتب الشرق المقدسة ، وكتاب تاريخ الاداب السنسكريتية القديمة ، وكتاب علم اللغة .

من هنا وهناك

قليلة — قلة نسيية — من الأصوات فرسموا علامات تدل كل علامة منها على واحد من تلك الأصوات . وكان هذا مولد الأبجدية . والعالم كله مدين بهذا لمصر القديمة . وكانت هذه العلامات أول أمرها فيها صعوبة وفيها تعقيد ، ثم بسطها المصريون ، وجاء من بعدهم الفينيقيون فزادوا الحروف تبسيطاً ، ثم نقلوها إلى الإغريق الذين علموا الرومان تلك الحروف .

مبارك إبراهيم

نقلت عن الانجليزية

من ذكريات أيام الاحتلال في فرنسا

كيف السبيل إلى وصف سأم هذه الأيام المضي ! كنا نحس كأن الدم يسرى في قلوبنا سرياناً بطيئاً ، وكأن الحياة تتمد فينا شيئاً فشيئاً . كان على الذين قدر لهم ألا يجازفوا بحياتهم ويجهدوا جهاد الأبطال ، أن يواصلوا العيش والثقة والأمل ، وأن يكون النصر النهائي . رائداهم الذي به يحتلون الحياة .

ولن أذكر مما يرد على الفكر من ذكريات تقف القلب كله سوى ما اتصل بحياته كل يوم ، هذه الحياة التي كنا نحرص عليها بكل ما فينا من قوى ضعيفة محطمة ، كنا نشعر بتحطمها إذا ما استيقظنا في الصباح على صدى نعال الجند تدوى وهم يضربون الأرض بأقدامهم ضرباً وسمعنا أناشيدهم العسكرية التي كان ينقبض لها القلب ويتأذى ، وشاهدنا من خلف النوافذ في يأس وأسى أعلامهم السوداء والحمراء البغيضة .

أما عن هذه الجموع المصطفة التي كانت تقف ساعات لاتنقضي أمام حوانيت منلقة أوفارغة ، أما عن أولئك الصبية الشاردين الذين كانوا يبيعون في سراديب « المترو » بطاقات الخبز للسروقة وقد ارتسمت على وجوههم المتعبة الناحلة آثار الجوع والحزمان ، فلا أتكلم كما لا أتكلم عن أولئك المساكين الذين أذركهم الهرم ، وأخني عليهم الدهر الذين كانوا يلتقطون من القمام قشور الخبز اليابس وبقايا الطعام ليتهموها التهاماً . لا ! لا أريد أن أتحدث عن هذه الصور الآلمية ، وإنما أريد أن أتحدث فقط عن بعض أشياء اتصل بحياتنا العقلية كنا نجد فيها ما يبعث فينا الصبر ويحيي الأمل ويساعدنا على الانتظار .

وأفكر قبل كل شيء في المعارض المعدة التي كانت تقام لنا لتحدثنا عن ماضينا الجليل . وكنا نرى في هذه المعارض الفن الفرنسي يتجلى في أروع آياته ونحن ننقل آثار بعض نوابغ الفن في القرن السادس عشر وآثار نوابغه في القرن العشرين . وأفكر في هذه الحفلات التمثيلية التي كان الباريسيون يحيونها في قاعات باردة لأدفع فيها ويقبلون عليها أشد الاقبال وكأنهم أشد اقتناعاً بالمواضيع الجدية الرصينة . ويتبادر إلى ذهني في الحال إذا ما فكرت في هذه الحفلات صور بعض الأبطال وبصفة خاصة صورة « أنتيجون » بطله قصة الكاتب « جان أنوى » Jean Anou ثم « جان دارك » بطله قصة الكاتب بجي « Peguy » وكيف كانت تلهيان حاسة وتحدثان عن البطولة إلى شعب كانوا يبذلون الجهد في تعليمه أن يزدري نفسه . ثم أفكر في صورة جان دارك للكاتب « فرموريل Vermorel » وهي عندي أدنى إلى الإنسانية ، أراها وهي تلهج وتصبح من أعماق سجنها بحبها للحرية .

من هنا وهناك

ثم أفكر في هذا الحى اللاتينى الذى قارقه حياة الصخب والعنف والمرح وغدا يسود فيه الهدوء . على أننا كنا ندرك أن خلف جدران الكليات كانت حياة العلم تستمر عنيقة يقبل عليها الشباب فى حماسة بالغة ، فكنا نفكر أن حياة العلم على الأقل لم تنقطع ، وندرك أنه لا يمكن أن تنقطع أبداً .

وقد غدت حياة الطلاب من بعد يوم ١١ نوفمبر سنة ١٩٤٠ شاقة عسيرة مهددة ؛ فقد أغلقت جميع الكليات فى ذلك اليوم وانتشر بين الطلاب هذا الخبر المروع الذى لا يس قرار الاغلاق وهو القبض على كل من لا عمل له ونقله عنوة إلى ألمانيا . ولقد رأينا حينئذ هذه المعجزة تحدث وهى أن كل طالب أمسى وأصبح وله عمل منتظم . فلما رأت السلطات ذلك عمدت تنظيم الترحيل إلى ألمانيا . على أن ذلك لم يجدفان الأغلبية الساحقة من الشباب رفضت الرحيل ، ونشأ عن رفضهم حوادث أليمة وأمور معقدة .

أما هذا الخط الفاصل بين المنطقة المحتلة والمنطقة غير المحتلة فلهم آثار فى وجهتها عقابا وصعوبات . كنا لا نستطيع اجتياز هذا الخط إلا مزودين بجواز مرور كانت السلطات الحاكمة ترضى بمنحه وتقرر فى عطائه حتى فى الظروف الاستثنائية . وأنا أعرف صديقة لى كانت ترغب فى إتمام البحوث الخاصة برسالتها وكان عليها أن تجتاز هذا الخط المتكود حتى يتاح لها ذلك . ولما يئست من الحصول على جوازها حاولت أن تجتازه خفية فقبض عليها وقضت ثمانية أيام فى السجن وهى لا تدري ما كتب لها ، ولم تنجح فى إقناع مدكراتها من الاحتراق إلا بفضل تدخل بعض الشخصيات البارزة فى المنطقة التى قبض عليها فيها . ولكن ما كان أكبر سرورها لما أتيح لها أن تقرأ فى وعاء للمربي عنوان المرشد الذى كان عليه أن يدها على الطريق الذى تسلكه لتعبّر الخط الفاصل وذلك تحت أعين حراسها أنفسهم . وقد استطاعت صديقتى أن تتم تحرير رسالتها ، ومناقشتها أمام أساتذتها ، وأحدهم مؤرخ قدير قبض عليه بعد ذلك مع عدد من إخوانه أسانذة المعهد وأودعوا السجن بضعة أيام .

على أن الذكريات تتوالى إذا ما فكرت فى هذه الدار القديمة للوقرة السكائنة فى شارع رشيلىو ، وأغنى « دار الكتب الوطنية » فانها لم تغلق أبوابها قط ولم ينقطع الطلاب والأسانذة والباحثون عن التردد عليها . وقد سمح لهم بالجلوس فقط فى قاعه المطبوعات الفسيحة التى كانت تشبه بفناء محطة السكة الحديدية أو فى قاعة المحفوظات المستطيلة ذات الجدران المكسوة بأخشاب أنيقة الصنع .

وكان البرد شديداً فى هاتين القاعتين . على أن ذلك لم يمنع القراء من الاقبال فى كل صباح على باب المكتبة وانتظار ناقوس الجرس الذى يأذن لهم بالدخول إلى الدار والجلوس فى أماكنهم المعتادة وهم يرتعدون من البرد . ولعلمهم كانوا يعودون فى المساء إلى بيوتهم كوميث إلا أنهم كانوا يعودون وفى نفوسهم هذه الغبطة التى يشعر بها الباحث إذا ما اكتشف المخطوط الذى يلزمه لنشر نص معروف مشتهر ، أو إذا ما قلب فى لذة وحنو صفحات سفر من الأسفار القديمة وعثر على ملاحظات دونها عالم من علماء القرن السادس عشر ، وغير ذلك من ألوان هذه الغبطة العقلية التى يجدها طلاب العلم والباحثون .

كان عدد المترددين على الدار كبيراً متنوعاً ، فهم الطلاب وفهم الأسانذة وفهم الصحفيون والعلماء والباحثون وكل من أحب الكتب وطاب له أريجها . وهم وإن كانوا يتحملون فى غير تدمير شدة البرد ، قد كانوا يظهرون بعض الضيق إذا ما رأوا طلبهم لاستعارة بعض مجموعات

من هنا وهناك

بالذات مرفوضاً . كانت بعض الأنوار الكهربائية معطلة ولم يكن في الامكان الحصول على هذه المجموعات في الظلام ، على أن بعضهم لم يكن يفهم ذلك . ولقد عرض أحدهم في تهكم ثقابه للبحث عن كتابه وهو لا يمي أن البحث عن كتاب قد يتطلب أحياناً زمناً طويلاً لا ينفع فيه ثقابه . بل لقد حدث يوماً أن أحد القراء أحضر معه إلى الدار مصباحاً ضخماً وألزم أحدنا بالبحث له عن كتابه واستحضاره .

وكان موظفو الدار يعملون دون أن يخلعوا معاطفهم أو تفازاتهم أو كوفياتهم ، بل كان بعضهم وهو أصلي يحتفظ بقميصه دون مبالاة بالتقاليد . أما الذين كانوا يعملون في الداعات التي لا يصرح بالدخول فيها للجمهور فقد كانوا يلتفون في أغشية من الصوف . كنا جميعاً نرتعد من البرد ، ومع ذلك كنا نعمل وكأنا لا نبالي بالبرد . وحدث أن انقطعت التدفئة عن جميع القاعات ولم يتبق إلا قاعة واحدة في الدور الأسفل كان بها جهاز صغير يحجج إليه موظفو المكتبة كل بدوره ليتدفأ بحرارته ويدخر منها ما يعينه على مجابهة شدة برد الأدوار العليا .

أما صلتنا بالقراء فقد تعقدت بعض التعقد . كان البعض ظريفاً لم تؤثر في مزاجه مؤثرات الحرب . ولقد عرض على أحدهم وعاء مليئاً بعسل مقطوف من خلايا نحله الخاص إذ كنت قد فت ببعض البحوث له . وكان البعض متوتر الأعصاب لا يستطيع صبراً ، كان لا يدرك أن انقطاع التيار الكهربائي عن الدار أو على الأقل تخفيفه كان لا يعيننا على الاسراع . وأن جميع للمساعد والآلات الرافعة عاطلة لا تعمل . وأن رجالنا لم يكونوا جميعاً خفافاً أصحاء .

واقضى منا الكشف الذي ذكرت فيه الكتب التي حرمت السلطات تداولها بذل صنوف من الكياسة والسياسة لا قناع القراء بعجزنا عن إرضائهم ، ولم يكن من اليسير علينا إفهامهم كل ما في هذا الكشف اللعين من خبت .

وكانت مهمتنا تزداد صعوبة في خلال إنذارات الخطر ؛ إذ كان القراء ملزمين بترك القاعات للتوجه إلى المحايء ، فكان بعضهم لا يفارق مقعده إلا بعد إلحاح شديد ، وكان بعضهم يفتي في سذاجة حمل الكتب معه ليقرأ في خلال ما بين الانذارين . وأخيراً كان يلتقي الجميع في المحايء حيث كانت تدور مناقشات فلسفية وتاريخية يختتمها صفيح الانذار المزعج .

واستمرت الدار تعمل كما كانت تعمل في الماضي ، رغم ظروف لا تواتيها ، ورغم تعذر وجود الأيدي العاملة ونقص الورق ؛ فقد واصلت الدأب على إصدار « فهارسها » وإقامة معارضها دالة بذلك على أن الحرب لم تصرفها عن مهمتها العلمية والثقافية . واستطاع الناس أن يشاهدوا تطور فن الطباعة الفرنسي ويعجبوا بتقدمه ، وبصفة خاصة تقدم الطباعات الخاصة المترفة ؛ إذ كان الحجم الكبير الذي كانت تصدر به هذه الطباعات يسمح بجرأة موقفة في أساليب الطبع والإصدار . فكنت تستطيع أن ترى الصورة التي تشغل صفحة كاملة من الكتاب مبهورة بتوقيع أكبر الحفارين المعاصرين ، كما كنت تستطيع أن تعجب بجمال الورق ونعومته وأناقته .

وكنا قد اضطررنا إلى إخراج الأسفار والمخطوطات النادرة من الدار لوضعها في مخبأ أمين ، وكان بودنا لو استطعنا أن نقدها كلها ، على أنه كان علينا أن نختار من بينها أقومها . فشمنا اختيارنا الأسفار التي يرجع عهدها إلى نشأة فن الطباعة ، كما شمل أسفاراً من القرن

من هنا وهناك

السادس عشر فريدة في نوعها ، وبعض طبعات مصورة من القرن الثامن عشر كانت من مكتبة ماري أتوانيت الخاصة .

هذه الكتب التي أمسكتها في حرص وعناية وخوف أيدي الأمراء أو الرهبان كنا ملزمين بتكديسها تكديساً في أعماق الصناديق بعد أحاطتها بأوراق الجرائد ثم إرسالها وفك رباطها وإيداعها خزائن أمينة . وكنا نتساءل في قلق على أي حال سوف تعود إلينا . يا للأسف ! لقد اضطررنا الحرب أن تفارق أجل ما لدينا من مؤلفات ، ولكنها كانت من جهة أخرى تأتينا بهذه المجموعة الطريفة من الجرائد والمجلات والمنشورات والكتب المطبوعة خلسة وفي خفية عن أعين الاحتلال . وبديهي أن إغارة هذه المجموعة إلى القراء كانت أمراً لا سبيل إليه ، بل على النقيض من ذلك كان واجبنا يحتم علينا أن نخفي عن القراء هذه المجموعة الأدبية الطريفة . فلو أن شرطياً من الذين كانوا يلزمون الدار دري بها وسأل إحداً عن أمر هذه الوثائق المحبأة في خزائنها لعجزت عن الرد . وكان الكثيرون منا يعجبون بروح هذه المؤلفات إعجاباً شديداً . ولن أنسى أبداً الأثر الذي أحدثته في نفسي مطالعة «الدقر الأسود» لموريك الكاتب و « شرف الشعراء » لأراجون الشاعر ، هذا السفر الذي كان الشعر فيه يغلي ويشور . وهكذا استطعنا أن نكون مجموعة فريدة أتاحت لنا فيما بعد على أثر تحرير بلادنا أن نقيم معرضاً عن « فرنسا في أيام الاحتلال » أقبل عليه الجمهور في شنف عظيم واهتمام بالغ .

وكانت روح الزمالة والصداقة في الدار سائدة ، ولعلها كانت من أهم العوامل في الترفيه عنا وتخفيف الهموم والآلام التي كانت في صدورنا تضطرب . فكان من أصيب منا في عزيز — وما أكثر من أصيب في أثناء هذه الحرب — يجد من الدار العطف والحنو والعزاء . ولم يكن الاختلاف يمتد في الرأي بالشئ الذي يذكر ، فقد كانت آمالنا جميعاً موجهة إلى شئ واحد نصبو إليه .

وهذا الشعور بالتضامن يمتد لنا أن نواصل العمل والمجهود ؛ حتى إذا رأينا فرنسا تحرر واجتاحت البلاد بأكلها موجة الفرح الكبرى شعرنا في شئ من الغبطة بأن مجهودنا لم يذهب عبثاً .

ولقد تحسنت الأحوال عامة على أثر التحرير إلا أن الصعاب كلها لم تزدل . كنا قد واجهنا صعاباً أكبر ، فلا عجب أن تتحمل هذه الصعاب التي لن تدوم ، وأن نواصل رسالتنا في سرور تلك الرسالة التي لم يمنعنا عن أدائها مانع . لقد ألقنا الجهد واستمرأنا الكفاح . وإنني لواثق كل الثقة بأن هذه الدار القديمة سوف تعرف كيف تحيا بمجهودها حياة جديدة . وهي في جهودها للمقارضة تساهم بنصيبها مع الوطن الفرنسي كله في سبيل هذه النهضة الحية المباركة الشاملة التي سوف يفيض ضياؤها كما كان يفيض من قبل .

ألفانا برابه

رسالة من لندن

أين تجتمع الأمم المتحدة

« سنترال هول » و « تشرش هاوس » هما المكانان المخصصان الآن في لندن لاجتماعات هيئة الأمم المتحدة التي افتتحت الفترة الأولى من دور اجتماعها الأول ، في الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة والأربعين من بعد ظهر الخميس العاشر من شهر يناير لسنة ١٩٤٦ . والمكانان واقعان في « وستمنستر » على مثنى متر من دار البرلمان العتيق ، يلاصق أحدهما الكنيسة العظمى ، وتفصل أحدهما عن الآخر ساحة يتفرع منها شارع « فكتوريا » الموصل إلى محطة لندن الشهيرة عند أهل « القارة » وسائر الأجانب . والمكانين على السواء صفة دينية مميزة ، وقد ظل أولهما منذ بنى في سنة ١٩١٢ مركز « الاصلاحين الأحرار » من رجال المذهب « البروتستانتى » تعقد فيه اجتماعاتهم وتدور مباحثاتهم وتصدر عنه فتاواهم ودعواتهم . وخصص الثانى لنزول الوافدين منهم من مختلف الديار أثناء تلك الاجتماعات والمباحثات .

ولسنترال هول إلى هذا عند « المجاهدين » منزلة . فقيه كانت تعقد مؤتمرات حزب العمال البريطانى السابقة لتوليه الحكم في السنة الماضية . وفيه اجتمع مستر تشرشل وهو رئيس للوزارة البريطانية إبان واقعة « العلمين » بزعماء عمال المناجم يناشدتهم وطنيتهم ويدعوهم إلى مضاعفة إنتاجهم من الفحم في ساعة الخطر المداهم حتى لا تقع الكارثة وتتناثر الامبراطورية . وفيه خطب « دييجول » احرار الفرنسيين الأوائل القلائل معلناً كلمته الحافزة : « إن فرنسا قد خسرت الموقعة ولكنها محتفظة بالايمان بالنصر » . ولذلك فقد اعتبر اختياره مكانا للاجتماعات العامة — إلى جانب تخصيص « تشرش هاوس » لاجتماعات اللجان — اختياراً موقفاً ، إذ ترفرف على المجتمعين فيه — وهم رؤساء الوفود وأعضاؤها ومستشاروها وسكرتيروها ورجال الصحافة والاذاعة ، وقد جاءوا إليه من كل فج — روح القدسية والرغبة في الوئام .

على أن « سنترال هول » لم تبق له قشاقته الصوفية الأولى التي تتميز بها بيوت العبادة والدين ، بل أدخلت عليه مظاهر الفخامة وإن كانت قد ظلت في حدود البساطة ولم تتجاوزها إلى الترف غير المستساغ . فقد غطيت أخشاب أرضه « البلوطية » بالطنافس التي تنور في وبرها الأقدام ، وغطى بيت الموسيقى الكنسى بالفاخر من « القطيفة » ذات اللون الأزرق اللوحى ، تكتنفه ذات اللون الأصفر الموحد أيضاً . وتوسط الأزرق المستطيل رمز « الأمم المتحدة » الذهبى يمثل الكرة الأرضية تربط بين أجزائها الحلقات .

وفي مقدمة المنصة التي يشرف عليها ذلك الرمز محاطاً بذلك الجلال المستند إلى تلك البساطة تقوم منضدة الرئاسة من « البلوط » الانجليزى الفاتح ، وإليها ثلاثة مقاعد غطيت بالحرير ، وانفرد أوسطها — وهو مقعد الرئيس — بارتفاع المسند الظهرى ، وفوقها دواة كبيرة من الفضة وكوب وإبريق من البلور النفيس جنى بها جميعاً من بين كنوز المتاحف . وعند سفح المنصة وفي وسطه يقوم المنبر مرتفعاً عن الأرض درجتين ، وإلى جانبيه ملتصقة بالسفح منضدتان صغيرتان المترجيتان ، إلى الانجليزية وإلى الفرنسية ، خلفهما مناضد متباينة الحجم ، مخصصة للسكرتيرين والمعاونين .

من هنا وهناك

ثم صفت خلال القاعة الكبرى مناضد مختلف الوفود ، موزعة على ثلاثة أروقة ، كل رواق ستة صفوف روعي في الجلوس إليها نظام الحروف الهجائية . وقد شاءت الوفود التي سار عليها المنظمون أن تتجاوز الثلاث الدول العظمى ، وأن تتقارب العربية السعودية وسوريا ، وأن يتلاصق لبنان والعراق ، وأن تتوسط مصر القاعة كلها إذ كانت في الصف الرابع من رواق الوسط .

ولكل وفد نوعان من المقاعد : أمامية يستند الجالسون عليها إلى المناضد ، وقد خصصت للرؤساء والأعضاء ، وخلفية يجلس إليها المستشارون . وصفت إلى جانبي القاعة مقاعد خصصت للسكرتيرين والملحقين .

وفي الطابق الأعلى مدرجات ثلاثة : وسط ويمين وشمال ، الوسط أكبرها وقد خصص للصحفيين ، وهو يسع خمسمائة مقعد مرقوم ، إذ لكل صحفي على بطاقته رقم مقعده المعلوم . كما خصص اليمين إلى مدعوى وزارة الخارجية البريطانية من رجال السلك السياسي والشخصيات الممتازة . وخصص الشمال للجمهور الذي وقف ينتظر دوره قبل الافتتاح بخمس عشرة ساعة . وإلى أعلى مدرج الشمال أقيمت تسع قاعات زجاجية صغيرة جهزت بأدوات الاذاعة ، وخصصت لشركات الاذاعة العالمية ومصالحها كي يحتلها ممثلو هذه المصالح والشركات ، ويذيعوا منها أنباء ما يجري في الاجتماع خلال أرجاء العالم جميعاً . وفوق المداخل الرئيسية لمدرج الطابق الأعلى وضعت « كشافات » تسلط منها الأنوار على منصات الرئاسة والوفود . وفي هذا الطابق أيضاً خصصت غرف لتسجيل الاذاعات ، وخصصت مقاصير للتليفون متصلة أسلاكها بشركات الأنباء اتصالاً مباشراً دون مرور على « سنترال » ودون إدارة لأرقام . وفيه كذلك أعد مكان للاسعاف .

وفي الدور الأرضي غرفة كبيرة للتحرير زودت بنحو ستين آلة من الآلات الكاتبة ، خصصت لاستعمال الصحفيين ، تقابلها ردهة للبريد والبرق والتليفون تتصل الوفود وتتصل الصحفيون عن طريقها بداخل إنجلترا وخارجها على السواء .

وفي « تشرش هاوس » المعد لاجتماع اللجان ، مثل ما في « سنترال هول » من وسائل التيسير والاتصال . وفيه فوق هذه الوسائل مكتبة عامرة — على قصر المدة التي انقضت على نهيتها — بالمؤلفات والتقارير ، وفيه مطعم ومقصف .

وقد عهد بالحراسة والمحافظة على النظام في المكانين لقوة من مشاة البحرية البريطانية .

محمود هزيمى

رسالة من باريس

الثقافة الفرنسية في الخارج

أنشأت مدرسة المعلمين العليا في باريس سلسلة من المحاضرات تلى هذا العام حول انتشار الثقافة الفرنسية في الخارج وعن وسائل استبقائه بل تقويته .

وقد بدأ هذه السلسلة الأستاذ جان توما خريج المدرسة ، وهو يدير الآن مكتب الصلات الثقافية بين فرنسا والعالم الخارجى . وهذا المكتب المهم يتصل في وقت واحد بوزارة الخارجية ووزارة التربية الوطنية . وقد ألقى هذا الشاب الممتاز محاضرتين في الحادى عشر والثامن عشر

من ديسمبر سنة ١٩٤٥ . وكان إلقاءها في قاعة المحاضرات بالبناء الجديد وهي التي تسمى قاعة دوسان ، وشهدا عدد قليل من المستمعين أكثرهم من طلاب المدرسة ، يتقدمهم مديرها الأستاذ بوفيليه وسكرتيرها العام الأستاذ بايون ؛ وقد قدم المدير المحاضر بكلمة موجزة . وسيتعاقب بعد الأستاذ توما جماعة من الاختصاصيين يتناولون بعض النواحي لهذه المسألة المتشعبة ، ولا سيما الصلات الثقافية بين فرنسا والبلاد الانجليزية السكسونية وبينها وبين البلاد الاسلامية . وسنأخذها للقراء بعد إلقاءها .

وكانت المحاضرة الاولى متصلة بالموضوع من نواحيه العامة على حين كانت الثانية فنية كما سنرى . وقد بدأ المحاضر بالإشارة إلى خطورة الموضوع الذي سيتناوله ؛ فقد عني مؤتمر سان فرنسكو بالتنظيم الدولي للثقافة ، ولكن المشكلة أشد خطورة من ذلك بالقياس إلى فرنسا فقد احتلها العدو خمس سنين من جهة ، وكان انتشار ثقافتها من جهة أخرى أملا لها لم تقصر قط في استحضاره . وهي بعد ذلك ترى قوتها العسكرية والاقتصادية منقوصة إلى حين فلا يبقى لها إلا سلطانها العقلي . والفرنسيون جميعاً يتفقون على هذا المقدار .

ثم عمد المحاضر بعد هذه المقدمة إلى موضوعه الأساسي فقسه إلى قسمين : أولهما يتصل بالمصاعب التي تواجه فرنسا في واجبها الثقافي ومهمتها الجامعية . وهذه المصاعب مصادر أربعة . أولها هزيمة يونيو سنة ١٩٤٠ ومن الأدلة الخطيرة على تأثير هذه الهزيمة في الثقافة الفرنسية في الخارج أن عدد الطلاب المنتسبين إلى أوسام اللغة الفرنسية في جامعات الولايات المتحدة الأمريكية قد بلغ النقص فيه من ثمانين إلى خمسة وثمانين في المئة . وتعليل هذه الظاهرة يلتمس في الدهول الذي أصاب الأمريكيين حين انتهى إليهم نبأ الهزيمة ، وفي الغيظ الذي أصابهم من ذلك وقتاً ما . ولكن أهم سبب لهذا النقص يرجع إلى تفكير الطلاب في مستقبلهم . فالذين كانوا يريدون أن يكونوا أساتذة للغة الفرنسية قد قدروا أن فرنسا ستصبح دولة صغيرة وسيعرض الناس عن تعلم لغتها ؛ فلا معنى لاضاعة المستقبل في الاستعداد لتعليم هذه اللغة . ولذلك انصرفوا عنها إلى اللغة الأسبانية التي ورثت في ذلك الوقت مركز اللغة الفرنسية ولا سيما وقد ظهر الميل إلى التقرب من دول أمريكا الجنوبية . ولا شك في أن الأمر قد تغير منذ ذلك الوقت ، فرجع الأمريكيون إلى اللغة الفرنسية . ولكننا نخطيء إن ظننا أنها استردت مركزها القديم . وإذا كانت اللغة والآداب الفرنسية تدرس وتقر في الجامعات الأمريكية كجامعة ييل وكولومبيا وهارفرد فاتها تتفهم في الكليات والجامعات في الولايات الجنوبية . وشيء آخر ليس أقل من هذا خطراً ، وهو أن المؤتمر الذي انعقد في لندن سنة ١٩٤٣ لاختيار لغة دولية قد شهد على خلاف المألوف بلاداً كهولاندا والنرويج تقترح أن تكون الانجليزية لا الفرنسية هي اللغة الدولية . وقد كان الجهاد عنيفاً ليعترف للغة الفرنسية بأنها لغة دولية رسمية . كالانجليزية .

وكانت الأحداث السورية من آثار الهزيمة أيضاً ؛ فلم يكن من شأن هذه الأحداث أن تقوى مركز اللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية في الشرق الأدنى ، فلم يضطرب المركز الفرنسي في هذه البلاد قط ، كما هو مضطرب الآن . إذ لم تبق فرنسا كما كانت من قبل صاحبة المركز الثقافي الممتاز ، وإنما تشاركها في ذلك على قدم المساواة إنجلترا وأمريكا وروسيا من الناحية النظرية على الأقل !

المصدر الثاني انقطاع الصلة المادية بين فرنسا وغيرها من البلاد خمس سنين ؛ فقد نشأ عن

من هنا وهناك

ذلك أن الطلاب لم يستطيعوا أن يأتوا لمواصلة الدراسة كما تعودوا أن يفعلوا حين كانوا يأتون إلى باريس وعواصم الأقاليم . وقد طال هذا الاقطاع ، وأصبح من الحق علينا أن نرغبهم في الرجوع إلى جامعاتنا . وليس هذا بالشيء اليسير لأسباب كثيرة ، منها النقص في وسائل المواصلات السريعة المريحة ، ومنها المصاعب المادية المختلفة بالقياس إلى شباب لم يعودوا الحرمان ، ومنها أزمة المساكن وندرة المنتجات التي يحتاج إليها في كل يوم ، وقسوة الجو وغير ذلك .

وقد تحدث إلينا الأستاذ توما عما وقع في نفوس بعض الطلاب والطالبات من خيبة الأمل ؛ فقد أسرعوا إلى فرنسا متحمسين ، فلم يكادوا يرون هذه المصاعب حتى انطفأت حماسهم . فقد كان الطلاب المصريون بنوع خاص أشدهم تبرا ، ولعلمهم لم يستقبلوا كما كان ينبغي أن يستقبلوا . المصدر الثالث فقدان الكتاب الفرنسي في البلاد الأجنبية . وهذه الظاهرة من أشد الظواهر خطراً على ثقافتنا ، وهي ما زالت باقية إلى الآن ، يشكو منها اللغويون الثقافيون جميعاً . فالمجلات الفرنسية مثلاً لا تتجاوز الحدود إلا بمقدار . فليست هناك سفن ولا طائرات تستطيع نقلها ، وليس أصحابها حرصاً على إرسالها ، وليس في فرنسا كثير من الورق لطبع الكتب والمجلات . ومع ذلك فقد بذلت خارج فرنسا جهود مدهشة . فقد كان كثير من الفرنسيين متفرقين في أقطار الأرض فأنشأوا المجلات ونشروا الكتب ونظموا هذا النشر في كندا والولايات المتحدة والمكسيك والبرازيل والأرجنتين ومصر ولبنان ، بل في بريطانيا العظمى نفسها ، وكان هذا عملاً رائعاً .

وبين هذه المجلات يجب أن نسمي اثنتين على الأقل : إحداهما المجلة التي أصدرها روجيه كابوا في عاصمة الأرجنتين وهي الآداب الفرنسية *Les Lettres Françaises* والثانية المجلة التي أصدرها ريليه اتيانبل في الاسكندرية وهي « قيم » *Valeurs* .

المصدر الرابع المنافسة الدولية الثقافية . وهذه المنافسة قد أصبحت الآن منظمة تنظيماً حسناً . وقد كان الألمان وحدهم قبل الحرب ينافسوننا منافسة جدية . أما الآن فقد أخذ الانجليز دون نية سيئة من غير شك يعنون عناية شديدة بالاعلان . وربما كانت هذه الكلمة بغيضة ، فلنقل إنهم يعنون بنشر الثقافة الانجليزية . فهم قد أدركوا خطورة هذا النشر . ويكفي أن نذكر المجلس البريطاني وما بث من المعاهد في أقطار الأرض ، وقد أنشأ بعضها أخيراً في مدينة براج . وهم أكثر منا مالا ، وهم يستطيعون أن يستعينوا بحلفائهم الأمريكيين الذين يشاركونهم في حب الألعاب الرياضية والأندية والمعاهد .

فالي جانب هذا التنظيم القوي يتضاءل ما تبذله جماعة الاليانس فرانسييز من الجهود . وقد ظهرت النتيجة مسرعة ، وأخذ ينتشر في إيطاليا مثلاً ميل إلى تكلم الانجليزية . ولا ينبغي أن نهمل المنافسة الروسية وهي تظهر بنوع خاص في البلاد السلافية حيث أظهر الإحصاء أن الطلاب الذين يتحولون إلى اللغة الروسية ، قد تضاعفوا عشرين ضعفاً منذ أعوام قليلة .

وعلى المجلة فإن الهزيمة الفرنسية وضعوبة المواصلات ونقص الكتب والمجلات والمنافسة الأجنبية المتزايدة ، كل ذلك يجعل موقف ثقافتنا حرجاً وانتشارها عسيراً أشد عسراً مما يظن المتفائلون .

وبعد أن بين الأستاذ توما هذه المصاعب التي تواجه الثقافة الفرنسية عمد في التسم الثاني إلى بيان أنواع التيسير التي يمكن أن تظهر بها هذه الثقافة ، إن صح هذا التعبير .

فأمام فرنسا فرص عظيمة مواتية ، وذلك لسببين :
أولهما أن فرنسا تستفيد من ضعفها بمعنى أنها لا تهدد أحداً ، وذلك يعطف عليها قلوب أكثر
الناس . وكذلك ت يجد أمريكا اللاتينية في التراث الفرنسي ثقلاً توازن به التأثير للرهق
للولايات المتحدة التي تفرقها بالبعثات والدعوات . فكثير من الجمهوريات الصغيرة في أمريكا
اللاتينية ، تطلب إلينا الأساتذة ، بل تطلب إلينا أن ننظم شؤون التعليم فيها .
والأمر قريب من ذلك في الصين ، وفي إيران حيث ينوء السكان بثقل الدول الثلاث العظمى .
السبب الثاني أنه لا سبيل إلى أن ينكر أحد أن النفوذ الفرنسي ما زال قائماً فيما يتصل بالعلوم
والفنون والآداب . وقد عيب على فرنسا منهجها في تعليم العلوم أو بعبارة أدق في الانتفاع
بتعليم العلوم . عيب عليها بعض مجالس الدرس في الكوليج دي فرنس ، تلك المجالس التي كانت
تختلف إليها سيدات رشيقات مغرورات يقصدن إلى الرياء أكثر مما يقصدن إلى العلم . ولكن
يكفى أن تتحول عن قاعات الدرس إلى معامل البحث لئلا يرى العلماء الشبان يبحثون في مشقة
وصبر ، وفي هذا وحده ما يرد على هذا النقد . أما الفن فإن أوروبا وأمريكا تطلبان إلينا في
غير انقطاع معارض لآثار الفنانين الفرنسيين الذين يحتاجان إلى معرفتهم أو إلى رؤية آثارهم .
ويقام الآن في لندرة معرض لآثار بيكاسو وماتيس . ومع الأسف تقوم في سبيل هذه
المعارض مصاعب النقل ومصاعب الحصول على إذن المالكين لهذه الآثار . والأمر كذلك
بالقياس إلى الموسيقى . وقد أقامت جماعة الكونسير بالكونسرفتوار في لندرة حفلات
موسيقية ظفر فيها الموسيقار العظيم شارل مونش بفوز عظيم . وقد لاحظ المحاضر في خاتمة
حديثه أن هذا كله حسن مشجع ، ولكنه لن ينتج ولن يفيد إلا إذا أقيم على أساس صحيح
حتين من التعاون والتبادل . فلا ينبغي أن نظن أن فرنسا تشرف البلاد الأجنبية حين ترسل
إليها ثقافتها . فهذا الظن سخيف ، وقد أساء إلى فرنسا أكثر مما أحسن إليها . وهناك
صعوبة تقوم في سبيل التبادل ، وهي أن الأستاذ مثلاً في فرنسا موظف من موظفي الدولة .
فن العسير في ظاهر الأمر أن توجد في فرنسا كراسي يشغلها الأساتذة الأجانب ، وقد يكون
عكس ذلك عسيراً أيضاً . ولكن لا بد من أن يبذل جهد في هذه السبيل ، ويجب أن نحصل
إلى تحقيق المعادلات بين الدرجات والأجازات والشهادات مهما يكن مصدرها . وهذه المعادلات
إلى الآن أدنى إلى أن تكون نظرية منها إلى أن تكون عملية لا نستثنى من ذلك إلا قليلاً .
ويختم الأستاذ توما محاضرتة بهذه الكلمة التي يرى أنها ستكون مقدمة لمحاضرتة الثانية
وهي أننا في حاجة إلى الرجال . وهؤلاء الرجال يجب أن يكونوا شباناً ، والخير أن يكونوا
أساتذة . ومن الحق أن ذخيرتنا من الأساتذة أقل من حاجتنا ، فإنا نكاد نرسل بعضهم إلى
الخارج حتى يضطرب الأمر وتشكو المدارس والمعاهد . فإذا لم يمكن أن نرسل سيلاً من أساتذتنا
فلا أقل من أن نحسن تخير الذين نرسلهم . فإن الأستاذ يستطيع أن يحسن كثيراً بسيره
ومسلكه . وليس أدل على ذلك من النجاح الذي أحرزه الأستاذ هنري بير في الولايات
المتحدة الأمريكية . إنه خرج هذه المدرسة . وأنا واثق بأن كثيراً من الذين يستمعون لي
الآن سيكونون رسلاً للثقافة الفرنسية في أقطار الأرض .

شهرات

شهرية السياسة الدولية

سعدت مصر أثناء شهر يناير بتشريف حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز آل سعود لها زائراً لحضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم فاروق الأول . وكانت هذه الزيارة رداً لزيارة تفضل بها ملك مصر الكريم ، في العام الماضي للبلاد العربية السعودية . وقد التقى الملكان العظيمان ذلك اللقاء التاريخي الذي أعطى اسم رضوى معنى جديداً في التاريخ العربي الحديث . معنى جديداً له أثره البعيد ، وقيمته الخافضة بالتناجح العظيمة التي ظهر بعضها ، والتي ستكشف الأيام عن سائرها ، والتي تصور أصدق تصوير مكانة الملكين العظيمين من الشعوب العربية وحرصهما على تقوية العروبة ، وتمتين الصلات بين شعوب الشرق العربي من جهة ، وتمكين هذا الشرق العربي من أن يقف قوياً ، مجتمع الكلمة موحد الرأي ليواجه الحوادث العالمية الكبرى وليشارك غيره من أقطار الأرض المتحضرة ، في إقامة العالم الجديد على أساس من الحق والعدل ، والكرامة والمساواة بين الشعوب ، وقد فهم الشعبان هذه المعاني ، وقدرها حق قدرها . فكان في الحفاوة التي لقيها ملكنا العظيم حين زار الحجاز ، وفي الحفاوة التي لقيها الملك العربي الكريم حين زار مصر ، دليل قاطع على أن هذين الشعبين قد ران حقائق السياسة ودقائقها ، ويشعران بما تحتاج إليه البلاد العربية في هذه الظروف من جمع الكلمة ، وتوحيد الرأي ، وتحقيق التعاون ، وثيقان كل الثقة بأن ملكيهما العظيمين يشاركتهما في هذا الشعور ، وفي هذا التدبير ، وينهضان بما تقتضيه الحياة الحديثة للشعوب العربية من الواجبات ، على أحسن وجه وأكمله . وليس من شك في أن هذه الأعياد الشعبية الرائعة التي أقيمت للملكين العظيمين في الحجاز ومصر ، ليست مجرد آيات للفرح والابتهاج ، ولكنها تدل على أشياء أبعد مدى من مجرد الفرح والابتهاج ، تدل على أن هذين الشعبين العظيمين يريدان ما يريد ملكاهما من تحقيق العدل ، والحرية ، ورعاية الكرامة الإنسانية ، لا في الحياة الداخلية للشعوب فحسب بل في الصلات الخارجية بين الشعوب أيضاً . فكل مظهر من مظاهر الفرح ، وكل آية من آيات الابتهاج ، وكل دليل من دلائل البشر والسرور ، وكل دعاء بحياة الملكين ، وتأيد ملكهما ، إنما هو إعلان لحرص الشعبين على ما يتناهى الملكان العظيمان ، ويعملان له من أن يعيش الناس في حياتهم الخاصة والعامة ، وفيما يكون بينهم وبين أبناء الشعوب الأخرى من صلات عيشة توامها الأمن والعدل والحرية والثقة . والملكان العظيمان قبل كل شيء ، وبعد كل شيء رمزان عظيمان لمجد مؤثر عظيم أقامته بلاد العرب ، وأقامته مصر على مر العصور ، ولا بد لهذا المجد من أن يظل رفيعاً ، ومن أن يزداد رفعة وشمواً كلما تقدمت الأيام ، ومن أن تشارك الأمم العربية كلها في تثنيته والتمكين له والاضافة إليه . وهذه هي الأغراض التي يسعى إليها فاروق الأول ملك مصر ، وعبد العزيز آل سعود ملك الدولة العربية السعودية ، وهي الأغراض التي التقيا من أجلها في اجتماع رضوى ، والتقيا من أجلها في مصر ، ومن أجلها لم تنفرد مصر والبلاد العربية السعودية

شهرية السياسة الدولية

لا يحتاج لهذا اللقاء والاعتباط به ، وإنما شاركت فيه الأمم العربية كلها ، من الخليج الفارسي إلى المحيط الأطلنطي ، لأن هذه الأمم كلها طامعة في العدل ، طامحة إلى الحرية والكرامة وهي تعلم أن للملكين العظمين لا يسعيان إلا لذلك ، ولا يفكران إلا فيه وهي تسعى لها في مساهمة الكريم أكمل النجاح وأعظم التوفيق .

وليس من شك في أن الأمم العربية قد اهتمت لتبادل الزيارات بين الملكين العظمين لأنها تقدر نهضة الشرق العربي وتحسب لها كل حساب وإذا كان للعرب أن يتمنوا شيئاً فأنما هو أن تكثر هذه الزيارات الكريمة وأن تتجاوز مصر والبلاد العربية السعودية إلى غيرها من أقطار العروبة . وفق الله الملكين العظمين إلى الخير والنجاح وهياً لها وللملوك العرب وأمرائهم ورؤسائهم من أمرهم رشداً .

وفي نفس اليوم الذي كان الملك العربي الكريم يشرف مصر فيه بزيارته وهو العاشر من شهر يناير كانت هيئة الأمم المتحدة تفتح اجتماعها الأول في لندرة . فكان البشر شاملاً لأقطار الأرض كلها ، وكان الأمل باسماً لأجيال الناس في كل مكان . هيئة الأمم المتحدة أداة أنشئت لبناء العالم الجديد على أساس متين من العدل والمساواة بين الشعوب ، وفي ظل من السلام الشامل الكامل الموقور للناس جميعاً . وهي في الوقت نفسه أداة أنشئت لتحقيق التعاون على ترقية الحضارة وإشاعة الرضاء وتأمين الناس من الخوف واليؤس والحرمان . وهي قد أنشئت بعد أن عبرت الانسانية أشد الأخطار وأعنف أعوام الهول ، فليس غريباً أن تستقبل الأمم اجتماعها الأول بكثير من البشر والأمل المبتسم الرضى . وقد مهدت الدول الثلاث الكبرى لهذا الاجتماع بالاجتماع وزراء خارجيتها الذي انعقد في موسكو ، وقدر الناس أن هذه الدول الكبرى الثلاث قد رتبت أمرها ، وصفت ما ينتها من خلاف ، وأن اجتماع هيئة الأمم المتحدة سيمضي في طريق ميسرة منزلة لا تقوم فيها العقاب . وكانت الخطب التي أُلقيت في الأيام الأولى لهذا الاجتماع خليقة أن تملأ القلوب ثقة وأملاً . وزاد هذه الثقة وهذا الأمل ما كان من انتخاب مجلس الأمن ورعاية الجغرافيا في تأليفه فقد مثلت فيه الدول الخمس الكبرى بحكم الميثاق ومثلت فيه أمريكا الجنوبية ، ومثل فيه الشرق الأوسط بانتخاب مصر ، ومثل فيه شمال أوروبا بانتخاب هولندا .

ولكن الأمور لم تجر كما كان الناس ينتظرون . فقد أثارت المسألة الإيرانية ، فكانت أول مشكلة امتحن بها مجلس الأمن ولم يكده مجلس الأمن يجتمع للنظر في هذه المشكلة حتى أثارت روسيا مشكلة اليونان ومشكلة أندونيسيا . وقد كان الناس يظنون أن الريح ستجرى رخاء في الاجتماعات الأولى . فإذا هي تتصف من كل مكان ، وإذا الانسانية الآملة التي تتوق إلى الأمن والثقة تنظر فتري أن استواء سطح البحر واضطراب أمواجه في خفة ورشاقة لم يكن يصور ثقة ولا أمناً ولا هدوءاً ، وإنما كان يخني أمواجاً في القاع تصطبغ في عنف شديد . فقد ظنت روسيا أن خلفاءها البريطانيين هم الذين دفعوا إيران إلى إشارة مشكلتها إلى مجلس الأمن . فلم تدفع الحكومة اليونانية إلى إثارة مشكلة اليونان وإنما أثارتها هي لأن الحكومة اليونانية لا تستطيع أو لا تريد أن تثير هذه المشكلة ولم تدفع أندونيسيا إلى إثارة مشكلتها لأن الأمم المتحدة لم تعترف بعد بالاستقلال لهذه البلاد . ولذلك أثارت أوكرانيا ، وهي من الدول الروسية السوفيتية ، مشكلة أندونيسيا .

شهرية السياسة الدولية

ونحن نكتب هذا في الثالث والعشرين من شهر يناير والأمور معتدة أمام مجلس الأمن ، وكل شيء يدل على أن الأمم المتحدة تواجه طريقين ، إحداهما تحقق العدل والحرية والمساواة وهي أخذ الأمور بالحزم ، ورد الحقوق إلى أهلها ، وإجلاء المحتلين عن الأرض التي يحتلونها منها يكن هؤلاء المحتلون ، ومهما تكن الأرض التي يكون فيها الاحتلال .
والأخرى تؤجل الشر ولكنها لا تلغيه ، ولعلها إنما تؤجله لتقويه وهي أن تسام الدول الكبرى على حساب الدول الصغيرة ، فيخلى بين روسيا وإيران ليخلى بين بريطانيا العظمى واليونان ، وبين هولندا وأندونيسيا . وأكبر الظن مع الأسف الشديد ، أن هذه الطريق الثانية هي التي ستضطر هيئة الأمم المتحدة إلى سلوكها .

و بينما تتعدد الأمور في لندره على هذا النحو ، تنشأ في باريس أزمة مناجمة يهتم لها العالم الخارجي أشد الاهتمام . فقد استقال الجنرال دي جول من رئاسة الحكومة المؤقتة وأعلن عزمه على اعتزال السياسة ، والقراء يذكرون أننا لاحظنا حين علقنا على انتخاب الجمعية التأسيسية في فرنسا أن طبيعة الأشياء تقتضي أن يأتلف الاشتراكيون والشيوعيون لينهضوا معاً بأعباء الحكم ، وإن قد كان هناك ميل إلى أن ييا من الاشتراكيون ويأثلقوا مع الجمهوريين الشعبين اتقاء لخطر الشيوعية وإيثاراً للتعاون مع بريطانيا العظمى لما بين البلدين من التجاور في أوروبا وفي غيرها من القارات .

ولكن الجمعية التأسيسية أنشأت حكومة مؤتلفة من الأحزاب الثلاثة وتم الائتلاف حول الجنرال دي جول على أن هذا الائتلاف واجه مصاعب خطيرة لم تنقطع واضطر الجنرال إلى أن يستقيل ، لأنه لا يريد أن يحتمل تبعات لا يطمئن إلى احتمالها .

والمسألة الآن هي هل يبقى الائتلاف بين الأحزاب الثلاثة أم يزول . وكل شيء يدل إلى اليوم وهو الثالث والعشرين من شهر يناير على أن الأحزاب تحاول استبقاء الائتلاف إلى أن يتم وضع الدستور وإجراء الانتخابات البرلمانية . ولكن هذا الائتلاف سيظل عسيراً أشد العسر لأنه مخالف لطبيعة الأشياء . فالشعب الفرنسي مياسر ما في ذلك من شك ، وكان الشيوعيون مصدر المصاعب للجنرال دي جول ، فإذا بقي الائتلاف بعد استقالة الجنرال سيكون الجمهوريون الشعبيون هم مصدر المصاعب للحكومة الجديدة . ذلك لأن قوة الجنرال دي جول كانت تؤيد الميامنين من الجمهوريين الشعبيين والاشتراكيين . فقد أصبحت كفة المياسرين هي الراجحة بعد استقالة الجنرال دي جول وسيقوم الحزب الجمهوري الشعبي في خلق الصعوبات للحكومة الجديدة مقام الحزب الشيوعي في خلقها للحكومة الجديدة .

والخير كل الخير أن تواجه الحقائق كما هي وأن تؤلف الحكومة من قوم يأثفون في أهوائهم ومذاهبهم في النظم السياسية والاجتماعية إلى أبعد حد ممكن . ولو قد أنشأ الفرنسيون لأنفسهم حكومة مؤتلفة من الاشتراكيين والشيوعيين منذ انتخبت الجمعية التأسيسية وقام الميامنون جميعاً بالمعارضة لجنبوا أنفسهم مصاعب كثيرة في سياستهم الداخلية والخارجية ولكنهم آثروا وما زالوا يؤثرون حكومة تصور الوحدة القومية إلى أن يوضع الدستور . وتجري أمورهم في مجراها الطبيعي . وهم من غير شك أعلم بما يريدون وأقدر على تحقيق ما يريدون .

شهرية المسرح

مضت سنوات الحرب ونحن محرومون الاستمتاع برؤية المسرحيات الفرنسية التي كانت تسوقها إلينا في كل موسم فرقة «الكوميديه فرنسيز» ، متشوقون إلى سماع ممثلين فرنسيين يقدمون لنا أجل ما كتب في الأدب الفرنسي وأروع ما أنتجه كتاب فرنسا . ولم تكد تنتهي تلك السنوات الست التي كادت تمنعنا من كل اتصال عقلي أو روحي مع الفرنسيين حتى أنبثنا بدوم فرقة أعضاؤها منتخبون من الفرق التمثيلية الكبرى في باريس . ونظرنا إلى البرنامج الذي كان قد أعد فاذا هو برنامج حافل بأسماء كتاب أكثرها كان مشهوراً منذ أمد بعيد ، والآخر لم يعرف إلا أثناء هذه الحرب الأخيرة .

الرسول تأليف هنري برنشتين (١)

وبدأت الفرقة موسماً مسرحية «الرسول» لمؤلفها هنري برنشتين ، وهي قصة رجلين منفيين في مجاهل أفريقيا الوسطى ، أحدهما نقولا جاوز الأربعين وقد وخط الشيب شعره ، والآخر رولان وهو مهندس في ريمان شبابه . ومن حديث يدور بين الاثنين نعلم أن نقولا متزوج من امرأة جميلة — ماري — لم ينادرها إلا ليكفل لنفسه حياة مستقبلية سعيدة هنيئة في ظل حب متصل . وطال الحديث عن تلك المرأة وتكرر على طول الأيام ، حتى أواع بها الشاب رولان فلم يتحمل الحياة بعيداً عنها . فادعى المرض وسافر إلى فرنسا ليبتقي بماري التي لم يكن قد رأى منها إلا صورة أهدتها إلى زوجها قبيل سفره . ولما التقى الاثنان كان رولان قد أعياه ثقل حبه لامرأة صديقه ، وكانت ماري قد أخذت تشكو لصديقتها جيو وحدتها واشتياقها إلى الحب الذي لم ترضه خطابات زوجها المليئة بعبارات الغرام المسكرة . كانت هي على حافة الهاوية ، فما بثها رولان حبه حتى أسلمت نفسها إليه . وبينما كان العاشقان يتذوقان عذب الهوى حضر الزوج فجأة وأفهمهما أنه على علم بعلاقتهما وتركهما في حيرة لا حد لها . انتحر رولان لأنه خان صديقه . أما ماري فقد نجحت بعد موت عشيقها في أن تستميل قلب نقولا وأن تنال منفردته .

إن فكرة المسرحية في نفسها جميلة لا عيب فيها . شاب تأثر من حديث رجل عن امرأته فأولع بها دون أن يراها . وامرأة سئمت حياة مقفرة لا حب فيها ولا سعادة فأسلمت نفسها لأول شاب حدثها حديث الهوى . ولكن لم ينجح المؤلف في عرض الحوادث ، فأخرج لنا مسرحية كلها تصنع وتكلف ، مشاهدتها طويلة أحياناً حتى أملت جمهور النظارة . فالفصل الأول بالرغم من أهميته لأنه يقدم لنا أشخاص المسرحية كان حوارهم ثقيلاً متعباً . حاول المؤلف أن يجعله شيقاً لطيفاً فأدخل عليه بعض الفكاهات البذيئة التي تنفر منها الآذان وتصور العقيلة الفرنسية صورة غير صحيحة ، فأخفق في محاولته وأضاع القليل من اللذة التي كان يمتاز

شهرية المسرح

بها الحديث . وأراد برنشتين أيضاً أن يجعل من عودة الزوج منظرأ تهزله مشاعرنا ، فأخفق أيضاً في المحاولة الأخرى وساق إلينا مشهداً يذكرنا بسخف مسرحيات الميلاودرام . وحاول للمؤلف أخيراً أن يدخل صبغة مرحة على الفصل الثالث فكانت الفكاهات ثقيلة لم تثر الضحك بين السامعين .

هذا أمر القصة . أما الممثلون فقليل منهم نجح في أداء دوره . كان مسيو جان هرفيه يقوم بدور تقولا دونج وهو ممثل قدير لا شك في ذلك . ولكن المدرسة الحديثة لاتستطيع تمثله للتكلف . ولربما نجح في إخراج تلك الشخصية لو أنه لزم شيئاً من الهدوء في بعض المناظر ولطف من بعض تعبيراته ولم يأت بهذه الحركات التي أراد بها التأثير في الجمهور والتي لم تؤد إلا إلى إثارة الضحك بين النظارة . ومثل جان مارسان دور الشاب رولان ، فكان وسطاً بين الاخفاق والنجاح إذ أنه توصل إلى إبراز ما كان عليه هذا الشاب من هيام وتردد وخجل وضعف ، ولكنه أشعرنا بأن هذه الشخصية لم تلائمه في كثير من الأحيان . ومثلت شخصية ماري مدام ميشيل برجييه فأعجبنا بملابسها الأنيقة وحسن ظلعها ورشانة حركاتها ، ولكن لم يرقنا أدائها لأنها لم تظهر لنا ما كان يدور في فؤادها من صراع شديد بين حبها لزوجها وشغفها برولان . ولم تكن في الفصل الأخير نادمة على خطيئتها كما يجب حين جاءت لتستغفر زوجها ، ولا سعيدة كما ينبغي لما فازت بهذه النفرة .

أما الأدوار الثانوية فقد كانت ناجحة كل النجاح . مثلت مدام جاكلين جوير دور بيريت ، صديقة ماري ، وهي امرأة مرحة مستهتره تبحث عن الحب في غير طائل . وأخرج لنا مسيو جوتيه - سيلا دور جيو ، صديق الزوجين ، وهو رجل أعزب يتمتع بكل ما قدم له الحياة من ملذات ومرح . كان تمثله طبيعياً حقاً لا تكلف فيه ولا تصنع ، فالإعجاباً خليقاً ببراعته .

ولم توفق الفرقة في اختيار المناظر والآثا على غنى دار الأوبرا الملكية بالآثا الفاخر والمناظر الكثيرة الرائقة . أما ملابس السيدات ، وخاصة في الفصل الثالث ، فقد كانت آية في الإبداع تصور الذوق الفرنسي المترف أجل تصوير .

الحب البغيض تأليف فرنسوا مورياك (١)

مسرحية ذات ثلاثة فصول مثلتها في دار الأوبرا الملكية الفرقة الفرنسية . قصة قوية متقنة نالت إعجاباً وتقديراً عظيمين من الجمهور المصري كما نالتها حينما مثلت في باريس على مسرح « الكوميدي فرانسيز » . لقد اعتدنا أن نرى في قصص مورياك شخصياته الشاذة ، ولكننا لم نرها مطلقاً تحياً أمامنا : تتألم فتبكي ، وتسعد فتضحك . إذ أن المؤلف لم يكتب إلا مسرحية واحدة ، « أسموديه » ، لم تلق نجاحاً قط ولم تمثل إلا قليلاً جداً .

وصف لنا مورياك في « الحب البغيض » العاطفة القوية العنيفة ، تلك العاطفة التي تتحكم في الأشخاص وتقدهم ورشدهم ، تسيرهم كما شاءت وأين شاءت . أب أثر أحب ابنته الكبرى الزايت حتى لم يقو على فراقها . فطم سعادتها حينما أحبت الشاب آلان وأرادت الزواج منه . فلم يأذن لها بذلك مدعياً أن أختها ماريان تحب الشاب نفسه ، فضحت الزايت بحبها . ونجح

شهرية المسرح

الآب في زواج آلان من ماريان وإبقاء ابنته الكبرى بجانبه . أما ماريان هذه فهي فتاة في الثامنة عشرة من عمرها ، عاشت بعد وفاة أمها لا تستمتع بعطف أبيها ، فشبت ساخطة على من حولها . وحاولت أن تفوز بحياة زوجية سعيدة مع آلان ، فرضيت عن تضحية أختها . ولكنها أخفقت في أن تجد السعادة لأن زوجها كان يحب الزايت ، فكأنه بعيد عنها وهو قريب منها ، غائب عنها وهو حاضر معها . وهكذا حطم الآب حياة ثلاثة أشخاص : الزايت وماريان وآلان . ولم يعجب الجمهور بالقصة فقط بل بالتمثيل أيضا ؛ إذ أن الممثلين قاموا بأدوارهم خير قيام . ومع ذلك لم تحسن مدام برناديت لونج (ماريان) إلا في الفصل الثاني حينما التقت بآلان ، وقد كانت تعتقد أنه أحبها ثم غدر بها ليتزوج من الزايت . كان اليأس واضحا في نبرات صوتها وتعبيرات وجهها وفي كل ما أتت به من حركات . أما في الفصلين الآخرين فقد سار تمثيلها على وتيرة واحدة في حين كان الدور يتطلب أن تكون تارة ساخطة ، وتارة قاسية ، وتارة يائسة .

وقد كانت مدام إيغلين فولتي (الزايت) جامدة باردة في الفصل الأول بالرغم من السعادة التي كانت تغمرها لفوزها بآلان . ولكنها أكملت هذا النقص في الفصل الثاني واتقدت ناراً وهي تدافع عن سعادتها التي أراد أبوها أن يسلبها إياها . ومثل شخصية الآب مسيو جان فالكور . وقد ألقن دوره تمام الاتقان . لمنا في تمثيله فهماً لشخصية الآب المركبة وأخرجها لنا كما أرادها المؤلف . وقد قام بدور آلان مسيو جان مارسان . كان في أدائه قلقاً مضطرباً كما رسم المؤلف هذه الشخصية . ولكنه لم يشعرنا في تمثيله بما يجول في فؤاده من فرح وحزن وأسى . ومهما أخذ به الممثلون في أسلوبهم التمثيلي فلا يسع أى شخص إلا الثناء عليهم والاعجاب بهم والتقدير لقنهم ولحسن اختيارهم للمناظر والملابس والآلات .

أوديب ملكاً تأليف سوفوكليس (١)

طال انتظارنا لهذا المساء الموعود الذي تمثل فيه مأساة أوديب ملكاً . وما كنا لتتصور أن نرى ما رأينا من تمثيل هزل ومناظر لا تمت بشيء إلى مكان المسرحية ولا إلى عصرها . لست أدري أكان مسيو جان هرفيه في دور أوديب يمثل كوميدياً أم مأساة سوفوكليس ؟ فكل ما جاء من حركات وقهقهة من أصوات اهتزت لها جدران دار الأوبرا الملكية لم يبعث إلا إلى الضحك .

لست أدري أتسلم فرقة الممثلين الفرنسيين بأن هناك فروقاً بين الفن الإغريقي والفن المصري في البناء أم لا تسلّم بذلك . وإن كانت الفرقة تعترف بهذه الفوارق فلماذا اختارت مدخلا فرعونياً لقصر أوديب مع أن هذا القصر يقع في ثيبة في اليونان ؟

لست أدري أكانت سجدات الشعب وصلواته أمام قصر الملك مسيحية أم إغريقية ؟ ومع ذلك كانت هناك عناصر ناجحة في المسرحية . لقد أدى أدوارهم ممثلو الأدوار الثانوية أداءً حسناً . كان مسيو جان فالكور في دور كريون طبيعياً ، لم يلتجئ إلى تكلف مسيو جان هرفيه بحجة أنه يمثل مأساة إغريقية . ولذا نجح حقاً بالرغم من قصر دوره . وجاء

شهرية المسرح

تمثيل جوتييه - سيلا متقناً مطابقاً لقوة الشخصية الجبارة التي كان يقوم بها وهي شخصية تيرسياس . أما مدام إيفلين فولتي فقد أظهرت مواهب تستحق إعجابنا وتقديرنا في دور صغير لا أهمية له وهو دور فتاة من ثيبة .

وبالرغم من وجود هذه العناصر لم تنجح المسرحية ، فلم توفى الفرقة في اختيار المناظر ولا في أداء الممثلين . وقد تكون الترجمة أمينة ولكنها أدت في شعر لبله لم يبرأ من عيوب خطورة ، ولم يكن إلقاء الممثلين لهذا الشعر أقل قصيراً من الشعر نفسه .

الاهباء المتاكسرون للكاتب الإنجليزي نويل كوارد^(١) (نقلها إلى الفرنسية فرجنيا فرنون وكلود أندريه بوجيه)

مسرحية مريحة متقنة الحوار مليئة بالفكاهات الحلوة والنكات اللبقة . قصة عاشقين فطيعين في حبهما وهما دانييل وأنيت . لم يكدا يجمعهما الزواج حتى فرق بينهما الطلاق . ثم يلتقيان في الفصل الأول بعد خمس سنوات وقد تزوج كل منهما : هو من لوسي وهي من فيكتور . ولكنهما لم يكادا يلتقيان حتى استأنفا الحب وفرا إلى باريس ليستأنفا فيها الحياة . وقد استأنفا حياتهما أثناء الفصل الثاني فاذا هي عود إلى الخلاف والوفاق والحصام العنيف . وفي أثناء هذا كله كان الآخران يبحثان عنهما ثم يهتديان إليهما في آخر الفصل . وفي هذا الفصل الثالث كان المنتظر أن يعود كل زوج إلى زوجته ، ولكن العاشقين ينقلان عدوي الخصومة إلى الآخرين ثم ينسلان في حين يختصم الآخران .

وما كنا لتصور أن نرى مسيو جان فالكور يمثل دوراً هزلياً مثل دور دانييل . كان فكها في كلامه رشيقاً في حركاته طبيعياً في تمثيله . أما مدام برناديت لونج ، وكانت تقوم بدور أنيت ، فقد أثبتت لنا بأدائها للثقة أنها ممثلة فائقة في الكوميديا بقدر ما هي رائعة في الدراما . ولم ينجح مسيو جان مارسان في دور كامنيج في هذه القصة ، وهذا يدل على أن فنه الأصلي هو الكوميديا . وكانت مدام چا كلين چوير تمثل دور لوسي وأحسنت أدائها هي أيضاً وخاصة في الفصل الثالث في المشاجرة التي جرت بينها وبين فيكتور . ووقت الفرقة في اختيار مناظر بدیة وأثاث جذاب رائع ساهم بقسط كبير في نجاح المسرحية .

بشرى لأم

Noël Coward, *Les Amants Terribles* (trad. Virginia Vernon (١) et Claude André Puget).

من كتب الشرق والغرب

أغاني شيراز

نظم حافظ الشيرازي وترجمة الدكتور ابراهيم أمين الشواربي

عشت أياماً جميلة مع « حافظ » أتاحها لي ولقراء العريضة الدكتور ابراهيم أمين . لست أدري كيف أشكره ؛ فهذه الساعات الحلوة التي أتاحها لي لا تقدر بثمن . وكيف تكافئ من ينقلك في هذه الأيام الثقيلة الصاخبة الكثيبة ، إلى جو ظليق هادئ رفاف ، تشيع فيه الأنداء والأضواء ، وترف فيه الانسام والأصداء ، ويستقبلك بالطلاقة والبشر والابتسام ؟ لقد أخذت — مع حافظ — إلى البناء العذب بروح صادقة ، لا تكدرها شوائب الحياة ، ولا هموم العيش ، ولا أحقاد الناس ، ولا تقسدها كذلك غواشي القلق ، ولا هموم الفكر ، ولا الضرب في يدهاء الجهول .

كأس من الخمر ، ووجه جميل ، ورقاق مسعدون ، وطبيعة باسمة . وعلى الدنيا السلام !

— أي شيء أجل من رقعة الأحباب ، والتمتع باللهو والرياض والريح الجميل ؟
فأين الساق ؟ قل له : ما هذا الانتظار الطويل ؟
— واعتبر ما يتها لك من طيب الوقت فرصة عزيزة وغنية كبيرة .
فلا علم لأحد بما تكون عليه نهاية الأمور .

وهذه الأغاني هي المعروفة بغزليات حافظ ، وهي أربعائة وست وتسعون مقطوعة ، كل منها يسمى « غزلاً » . [والغزل أو الغزلية في الشعر الفارسي عبارة عن منظومة قصيرة ، تتراوح بين سبعة أبيات وخمسة عشر بيتاً غالباً . وموضوعه الغزل أكثر الأحيان ، ويكون أحياناً غرضاً آخر من أغراض الشعر . ويلتزم الشاعر ذكر لقبه الشعري ، أو « تخلصه » — كما يقول الفرس والترك — في آخر بيت من الغزل] (١)
وقد استغرقت ترجمة غزليات حافظ والفهارس الدقيقة الكاملة عن طبعتها وترجاتها

(١) من مقال للدكتور عبد الوهاب هزام عن « أرزان الشعر وقوافيه » اقتبس المترجم في كتابه :

من كتب الشرق والغرب

وشروحها مجلدين ضخمين ، تقرب صفحاتها من الستمائة . وصدر الأول في العام الماضي والثاني في هذا العام . وقد تضمن الجزء الأول مقدمة بقلم الأستاذ العميد الدكتور طه حسين بك يارك فيها هذا الجهد الضخم الذي بذله الدكتور الشواربي . وفيها يقول :

« . . . وهذه طرفة أخرى تقيسة رائعة ، يسعدني أن أطرف بها قراء العربية ؛ لأنها ستنتفعهم من جهة ، ولأنها ستزيد ثروة الأدب العربي من جهة أخرى ، ولأنها بعد ذلك ستثير في نفوس الكثيرين منهم ألواناً من التفكير المنتج ، وفتناً من الشعور الحصب ، ولعلها أن تفتح لبعض الشباب أبواباً في الحس والشعور والتفكير لم تفتح لهم من قبل ؟

وهذه نبوءة تصح من غير شك لو خلى بين الأدباء الشبان خاصة وهذه المجموعة من شعر حافظ . فإن ثلة النسخ المطبوعة منها ، وارتفاع ثمنها بالقياس إلى مقدرة هؤلاء الشبان ، قد يجعلان الانتفاع بها محدوداً في الوقت الذي يجب أن تكون في متناول الأيدي جميعاً . إن هذه الأغاني تجمي في وقتها المناسب — والشعر العربي يعاني أزمة يحتاج فيها إلى مثل هذا الزاد — فلقد آن للشعر أن يكون غناء بحتاً ، بعد ما طوح بنفسه في مجالات لم تعد له ، أو لم يعد يبدو فيها بأجل ألوانه . . . طوح بنفسه في مجال الفلسفة ، وفي لجج الفكر ؛ كما أخذ بطوح بنفسه كذلك في مجال القصة والمسرحية وما إليها ، بعد أن عادت روح العصر لا تستسيغ القصة ولا المسرحية الشعرية .

والموجة الفكرية الفلسفية في الشعر العربي الحديث ، كانت ضرورة في وقت من الأوقات ؛ لأنها كانت رد فعل طبيعي لموجة أخرى سبقتها : موجة الأسلوب اللفظي ، أو الأسلوب الإيقاعي . فكانت مهمة الموجة الجديدة أن تدخل القصد والمعنى إلى الأدب ، وأن تعد الشعر بروافد نفسية وفكرية حية ، لتنقذه من ذلك العبث بالمحسنات البديعية الجوفاء ، ومن الإيقاع الموسيقي الذي لا يحمل وراءه حياة ولا جداً . وقد استطاعت أن تحيي الشعر العربي وتجدد مجده ، وتزيد عليه متاعاً قيمياً من صور الحالات النفسية الصادقة ، يكاد يعدل عنده ماضي الشعر العربي كله ويربى عليه أيضاً ، ولكنها وقفت بالشعر الحديث حيث لا يجوز الوقوف ، قصت من أجنحته الرفرفة ، وغضت من غنائيمه للمنغمة ، وأقلت فيه من السبجات والومضات ، وجعلت عنصر الوعي الفكري بارزاً فيه .

والشعر يجب أن يدع للنثر الفني مجاله بعد ما فضح هذا النثر نهائياً وأصبح قادراً على هذه المجالات ، ثم ينطلق هو مرفرفاً لا تثقله هموم الفكر ، ولا تقيده مشاكل الفلسفة . يجب أن ينطلق صرخات عميقة قوية ، وأشجاناً روحية خالصة ، وأشواقاً مرفرفة وضئمة ، وأحلاماً مهومة طائفة ، وإشراقات وجدانية لطيفة ، وسبجات علوية شفيفة . وفرحات رفاقة طليقة . يجب أن يكون تعبيراً عن لحظات الاشراف والتهويم ولحظات التوهيج والانطلاق في النفس الانسانية ؛ تلك اللحظات التي يستحيل فيها الشاعر روحاً أكثر ما تكون مجرداً ، أو حساً أشد ما يكون توهجاً . تلك اللحظات التي ينطلق فيها التعبير كأنما يكون نفسه — وإن كان الوعي يعمل فيه — وهي لحظات يعرف مثلها كل شاعر ملهم في حياته الطويلة . وما عداها من اللحظات والحالات فقير جدير بالشعر في اعتقادي ، أو إنه من الدرجة الثانية أو الثالثة في حياة الشاعر الفنية .

وأحسب أنه قد آن الآن لانتحصر الموجة الفكرية الفلسفية ، تاركة للشعر غنائيمه وبساطته ورفرفته ، كيما يتأدى إلى الحس بأشواقه وأحلامه ، وبصوره وظلاله ، مثلما تتأدى للموسيقى

الطليقة ، والصور الفنية الموحية ، على قدر ما تسمح طبيعة الشعر ، وطريقة تناوله لموضوعه ، وفيها اختلاف لا بد منه ، عن طريقة الموسيقى وطريقة التصوير في الأداء .

و « أغاني شيراز » تأتي في حينها المناسب لتساعد على انحسار الموجه الفكرية عن الشعر الحديث . وقد لا تلي هذه الأغاني كل مطالب الشعر في هذه الفترة ؛ لأن الحس يئلب عليها ، والأشواق الروحية الخالصة تقل فيها — على الرغم من طابعها الصوفي — ولكنها على كل حال تزيد من رصيد الغناء في الشعر العربي زيادة لها قيمتها . وحسبها أنها تجعل الشعر غناء خالصاً لا تهبطه أثقال الفلسفة إلا حيث تعرض في سرعة وتختفي سريعاً ، ولا تبرده ثلوج الفكر — وإن كان فيها على ما سيجيء — لعب بالألفاظ والصور والمعاني ، ولكنه لعب لطيف حلو لا يغض من حلاوة الغناء الطليق .

ثم إن لها عندي مزية أخرى :

فقارئ هذه الأغاني يستروح فيها عطر الشرق البعيد ، وبساطته ومرحه ، وغيبته وتصوفه ، ونحن اليوم أحوج ما نكون إلى استرواح هذا كله ، حين تغمرنا موجة العقلية الغربية ، وهي موجة قوية طاغية ، لا نجد لها في حاضرنا الروحي كفاء .

وفي أغاني حافظ ، كما في رباعيات الخيام الفارسيين ، وكذلك في أشعار تاجوز الهندي — على بعدما بينهم في الاحساس والاتجاه — ذلك الروح الشرق العميق ، الذي يستطيع اليوم أن يسعفنا ويحفظ أتراننا الشعوري في وجه التيار .

وهذا هو ما أعنيه باسترواح الشرق البعيد ؛ فليس نموذجاً واحداً ما أريد ، ولكنها نماذج شتى ، تجمعها سمات أصيلة ، تعبر عن الموروث والمذخور في نفس الشرق من رصيد . والآن فالي غزليات حافظ أو أغاني شيراز :

إنها لمجيبة مدهشة تلك التي تجعل القارئ يتابع حافظاً في لذة وإرتياح ، فلا يمل ولا يسأم ذلك التكرار الذي لا ينتهي في الغزليات ، وذلك اللعب بالنكات اللفظية والتعبيرية التي ترحم الديوان ، والتي كانت نظائرها في شعر البديعيين في اللغة العربية كفيلاً بأسقاط هذا الشعر ، وكفيلاً كذلك بالسأم والضيق إلى حد الاختناق (١) .

ولكن حافظاً لا يدعك تسأم أو تمل ، وهو يكرر ويكرر إلى غير ما نهاية : أوصاف طرة الحبيب التي هي تارة شباك لصيد المحبين ، أو سلسلة يأوي إليها العشاق راضين ؛ وتارة تالفة مسك يفوح منها الطيب ، أو صولجان من العنبر يسجبه الحبيب على القمر المشرق في وجهه الجليل . . . ثم أوصاف غمازته التي هي بئر ، وعينه التي هي نرجسة ، وحاجبه الذي هو قوس أو ركن تتعلق به عيون العباد ، وقامته التي هي شجرة سرو أو شمشاد . . . إلى آخر هذا الحشد المكرور من التشبيهات .

كذلك لا يدعك تسأم أو تمل ، وهو يحشد في غزلياته ما لا يحصى من الإشارات إلى أحداث التاريخ ، وسير العشاق ، وقصص القرآن والكتب المقدسة ، والأساطير ، وطبائع الطير والحيوان ، واصطلاحات الفلك والهندسة والطب ، وإشارات التصوف ورموز أهل الطريق !

(١) أودع كثيراً أن يكون حافظ شديد التأثر بهؤلاء البديعيين وبخاصة إذا ذكرنا أنه عاش في القرن الثامن .

تلك الحبيبة المدمشة هي روح حافظ الحلوة ، التي تطالعك في غزلياته المكرورة ؛ وهي روح أنيسة لطيفة عذبة ، تشيع في محياك الابتسامة الراضية عن هذا الصديق الودود ، الذي لا تملك إلا أن تنصت له وتهش لحديثه ، ولو راح « يخرف » في بعض الأحيان ! وأنا أعني كلمة « يخرف » هذه . حافظ في كثير من الأحيان — إن لم يكن في جميع الأحيان — يطالعك بوجه « درويش » . « يخطف » في حديثه ؛ ويلقي كلمة من هنا وكلمة من هناك ، حتى ليخيل إليك في بعض الأحيان أنه لا توجد في « الظاهر » رابطة بين الاشارات والایماءات ؛ إنما تربطها في « الباطن » رؤى درويش متصوف ، تطالع من وراء « الغيب » فيرمز لها ولا يبين !

ولكن هذا لا يعنى التفكك في أسلوب حافظ الشعري . ف وراء هذه الاشارات والایماءات جو موحد تعيش فيه النزلية الواحدة ، بل تعيش فيه النزليات جميعاً ، ذلك هو جو « الشهود » إذا استعرتنا اصطلاحات الصوفية . وما لنا ألا نستعير هذه الاصطلاحات وحافظ في غزلياته يبع « طريق » الصوفية في التعبير ، وطبيعتهم في الشعور ؟ وجو « الشهود » هذا هو الذي يجعلك تقبل من حافظ إيماءاته وإشاراته المتناثرة ؛ فكما أصداء لطيفة . لانتعالات شاردة ، تتوالى على حس مرهف ، في « حضرة » الحبيب ؛ ويربطها جميعاً ذلك الرباط اللطيف الدقيق .

خذ مثلاً هذه الغزلية :

- إن شفة الحبيب يا قوّة ظمأى إلى الدماء
- وأنا من أجل رؤيتها أضحي بالروح . وهذا هو عملي وشغلي الشاغل .
- وهلا ينجل من تلك العين المكحولة بالسواد ، وهذه الأهداب الطويلة المديدة من رأى كيف يسلب الحبيب القلوب ، وهو مع ذلك ينكر أحوالى ؟ !
- فيا حادى العيس ! لا تحمل رحلى إلى الباب ، فليقة هذه الجادة يتشعب الطريق الرئيسي إلى منزل حبيبي وداره
- وأنا عبد لحظى وطالعى ، قد تملكنى في قحط الوفاء
- عشق هذه « النورية » المخمورة الرأس !
- وقارورة عطر الورد ، وذؤابة الحبيب التي تقوح بالعير
- هما فيض لشمة واحدة من روائح « عطاري » الذكية
- فلا تطردني أيها البستاني عن بابك ؛ فأنا كالنسيم
- وماء روضتك من دموعى الجراء التي تشبه زهرات الرمان
- ولقد أمرت لي عين الحبيب بشربة من القند ممزوجة بماء الورد من شفته الندية
- وكانت عينه الشبيهة بالترجسة الغضة هي الطيب لقاي العليل
- وحبيبي « الجلو الكلام » ، « النادر الأقوال »
- هو الذي علم « حافظاً » الدقائق في إنشاد « النزل »

فهي انتقالات وقفزات دائمة . ولكنك ترقبها كما ترقب الطائر الخفيف يقفز من فنن إلى فنن ، ويخلق هنا وينقض هناك ، في رشاقة ولطف وإغراء !

من كتب الشرق والغرب

وليست كل الغزليات من هذا القبيل ، ولكن هذه السمة واضحة فيها حتى لو كان فيها التسلسل . لأن طابع « الدرويش » الذى يوزع الكلمات والإشارات والإيماءات هو الطابع العام . وهذه غزلية أخرى تصور ما أعنيه :

- مبعثر الخصلات ، محمر الوجنات ، ضاحك الأسنان ، تلعب به الخمر ، سكران ممزق القميص (١) ، يتغنى بالآلحان ، فى يده إبريق من بنت الحان !
- عيناه كأنهما زهرات النرجس توحى بالعريضة ، وشفته الرقيقتان ساحرتان أقبل فى نصف الليل أمس ، فجلس إلى وسادتي بضع ثوان !
- ثم أدار رأسه إلى أذنى وهمس فيها لحناً حزيناً قائلاً : « يا عاشق القديم ، هل أنت تأم نعان ؟ !
- والعاشق الذى يعطونه مثل هذه الخمر الليلية يكفر بالعشق إذا لم يصبح عابداً للخمر والدنان !
- فاذهب — أيها الزاهد — ولا تهزأ بمن يتجرعون الثمالة فانهم لم يعطونا غير هذه التحفة منذ أقدم الأزمان !
- ولقد شربنا ما صبه الساقى فى كئوسنا سواء كانت خمره من خمر العريضة أو من خمر القراديس والجنان !
- وابتسامة كأس الشراب ، وطرة الحبيب المجمدة الملتفة ما أكثر ما كسرتا من توبات مثل توبتك أيها « الحافظ » الوهان !

فهنا التسلسل فى المعنى إلى حد ما . ولكنها حافلة بالإيماءات والإشارات للتناثر فى شتى الأغراض .

أما التكرار الذى أثرت إليه آتقاً فهو ملحوظ بوفرة فى هذه الغزليات ، ولكنه كما قلت لا يبعث مللاً ولا سآمة ، وهذا هو العجيب ...

ولقد سبق حافظاً شاعر فارسى آخر ، دأب التكرار أيضاً لمقاطعته ولعمائيه ، دون أن يسم هو الآخر أو يعمل ... ذلك هو الخيام .

ولكنك هناك واجد حرارة لاذعة ، وأسى عميقاً ، ومعنى تقسياً ضحياً . وهذه كلها قد تليقك الترجيع والتكرار فى « الرباعيات » ولا نظير لها هنا فى « الغزليات » التى تمضى لطيفة شفيفة ، لا يفارقها روح الدعابة ولا خفة الروح ، حتى فى مواقف المحرقة والآسى . . . فلم يبق إلا أن فى روح حافظ تلك الجاذبية اللطيفة التى تدفع السأم والملالة ، بل تبث النشاط والخفة والانس فى جو الغزليات .

وعلى ذكر الخيام فإن هناك اشتراكاً فى الظاهر فى خصائص الشاعرين واتجاههما ، ولكن ما أبعد ما بينهما فى الحقيقة .

وحينما تروعك فى « الرباعيات » تلك الالهفة المحرقة لاستجلاء السر الأعظم الذى أوصدت دونه الأبواب ، فراح « الخيام » يدقها دقاً عنيفاً متواصلاً ، حتى كلت يدها وأدركه الإعياء وغشاها اللال،

(١) لعلها إشارة إلى يوسف وقميصه المقدود .

من كتب الشرق والغرب

يجلس يفرق أشجانه في كأس من الشراب ، ويتسلى هنيهة عن ذلك السر المحجب الذي يكرهه
هينيه ، ريثما يساود الدق على الأبواب من جديد على هذا النحو الشجي المرير :

أحس في نفسي ديب الفناء	ولم أصب في العيش إلا الشقاء
يا حسرتا إن حان حيني ولم	يتح لفكري حل لغز القضاء
لبست ثوب العمر لم أستشر	وحرث فيه بين شتى الفكر
وسوف أنضوه برغمي ولم	أدرك لماذا جئت أين للقر ؟
أشرب فتواك التراب المهيل	بلا حبيب مؤنس أو خليل
وانشق عبير العيش في فجره	فليس يزهو الورد بعد الذبول
كم آلم الدهر فؤاداً طعين	وأسلم الروح ظعين حزين
وليس ممن فاتنا عائد	أسأله عن حالة الراحلين
لم أشرب الخمر ابتغاء الطرب	ولا دعنتي قلة في الأدب
لكن إحساسي نزاعاً إلى	إطلاق نفسي كان كل السبب
أقنيت عمري في اكتناه القضاء	وكشف ما يحجبه في الخفاء
فلم أجد أسراراً ، واقضي	عمري وأحسست ديب الفناء (١)

حينما تروعاك من « الحيام » هذه اللفظة العارمة ، وذلك الشجي الكظيم ، وترى الكأس
في يده يحاول أن يفرق فيها أشجانه بعد أن كلت يده من دق الأبواب . . فانظر تر « حافظاً »
في طريقه إلى دار الخمر في وداعة واستبشار ، لا يفرقهما ولا ليسكت حيرة ، بل لينتشي
ويشمل ويتسلى محاسن الحبيب ! ولقد يئس هو الآخر من استجلاء سر الغيب ، ولكن هذا
لا يكرهه ولا يهنيه ، فالخلق للخالق ، والسر عتقاء ليست صيداً لأحد . فهات كئوسك أيها
الخمار لعنا نرى في الكأس وجه الحبيب ؛ وربما تقتتحت لنا فيها أسرار الغيوب ، ورأينا
ما مضى فيها وما سيأتي ، كمرآة الاسكندر التي كانت تكشف البعيد كالقريب !

— الآن ونسيم الجنة يهب من البستان
إلى بالجر المفرحة وبالخوراء التي قامت كحور الجنان
— ولم لا يفخر السائل المسكين بأنه أضفى اليوم سلطان الزمان
وقد عقد له السحاب خيامه ، وبسطت له الحقول مائدة الخوان ؟
— وهذا الربيع الجميل يحكي لي حكايته الجميلة
فيقول : « ليس عاقلاً من يفضل النسيئة ويترك النقد
— فعمر قلبك بالشراب ، فلا هم لهذه الدنيا الحرة
إلا أن تحيل ترائبنا إلى لبنات وآجرات » . . . الخ

(١) من ترجمة رامي لرباعيات .

من كتب الشرق والغرب

وحتى عند ما يتخذ الموضوع وطريقة التعبير بينهما وكثيراً ما يقع هذا (١) فانك تلمح الفارق بين القلق العميق الاليم في الخيام ، والراحة اللذيذة السالية في حافظ ، الذي لا يفتي أبداً تورياته وجناساته ولعبه الجميل !

يقول الخيام في رباعياته :

سمعت صوتاً هاتفاً في السحر	نادى من الحان : غفاة البشر
هبوا املثوا كأس الطلي قبل أن	تغم كأس العمر كف القدر
أفق وصب الخمر انعم بها	واكشف خبايا النفس من حجبها
ورو أوصالي بها قبلما	يصاغ دن الخمر من تربها
أين النديم السمع أين الصبوح	فقد أمض الهم قلبي الجريح
ثلاثة هن أحب لى	خمر وأنفام ووجه صبيح

ويقول حافظ في غزلياته :

— ايها الساق لقد أذن الصبح فاملاً القدح بالشراب
وتعجل ، فدورة الفلك ليس فيها ريث واتشاد
— وقبلما يتحطم هذا العالم القاني ويتخرب
أسرع إلى تحطيمي وتخريبي بكأس شرابك الملهب المتقد
— ولقد طلعت شمس الخمر من مشرق كأسك
فاذا أردت صفاء العيش ، فقم من فقلتك وادفع النعاس من رأسك
— وقبلما يأخذ الفلك طينتنا ويصنع منها السكيزان والاكواب
تبه واملاً صحاف رءوسنا بالخمر والشراب . . . الخ

وحافظ — كما ترى — في نشوة بالخمر وبالجمال في الطبيعة وفي الوجوه الحسان . وجمال الطبيعة دائماً في خاطره وهو يتنزل بالوجوه الجميلة . والنشوة بخمر الجمال دائماً في حسه وهو يشمل بخمر الدنان . والدنيا كلها ربيع دائم باسم ، لا تذبل زهراته الجميلة ، ولا تجف أعواده اللينة . والحب جميل حتى مع الهجر والفراق ، والتأوهات والدموع لذينة كالقبل والعناق « فيارب لا تجعل العالم خالياً من أنين العاشقين . فأصداء أفيهم بهيجة حسنة الترجيع والتلحين » والحبيب معبود يعبد واصلًا راضياً ويعبد هاجراً قالياً . وحافظ طاب صوفي يتمسح بالاعتاب ، ويصدع بالإشارة ، ويمرغ خديه بالتراب — كما يقول — في جدل وانجذاب !
وأنا أعني كلمة « انجذاب » هذه ؛ فحبه وخمره يستوى أن يكونا في الأرض أولاً في السماء . فهو ينتقل من هذه إلى تلك في رشاقة وخفة وفي تهوية ناعسة ، فلا تدرى أيهما هواه . وخمره

(١) الخيام سابق فقد عاش في القرن الرابع ومطلع الخامس .

من كتب الشرق والغرب

نواسية أو إلهية . فهو في « الحان » كما في « الخاقان » درریش مجذوب ، ثمل بالشراب .
أيما كان كنهه الشراب !

- البستان جميل ، وأجل منه صحبة الحلات والأجباب
- فليطب وقت الورد ، فيه يطيب وقت الشارين والشراب !
- وفي كل لحظة تعطر مشام روحى بما تحمله الصبا من غير
- ولكن « أرباب الهوى » أقاسهم دائماً محبة تستطاب
- ولقد عزمت الوردة على الرحيل قبلما تفتح عن غلالاتها
- فتوح أيها البلبس فتواح أصحاب القلوب الجريحة مستطاب
- ولتكن لك البشرى أيها الطائر الجميل الصوت . . . في طريق العشق
- يستحسن لدى الحبيب نواح « القأمين بالأسحار » ويستطاب ! . . . الخ

وهو في هذه الدنيا الجميلة مشغول بسبجاته ولحظاته ، عن مواضع المجتمع وزحمة
الأطباع ومعتك الحياة . . . إنه مستهتر في عشقه الصوفي أو النزلي ، تشوان بخمره الإلهية
أو النواسية ، وليقل من شاء كيف شاء ، فهو خير عند نفسه وعند الله من المرائين المناقين
ومن الوعاظ الثقلاء !

- لقد انقضى الصيام وأقبل العيد (١) ، وارتفعت القلوب بالابتهاال والضراعة
- واجمرت الحمر في حانوتها ، فاطلب الكأس بما تملك من قدرة واستطاعة ؟
- وانقضت نوبة « بائعي الزهد » ثقلاء الأرواح للمناقين !
- وآن أوان الشراب والعريضة للشاربين والمعريدين
- وأي لوم على من يحتسى مثل هذه الحمر وهذا الشراب ؟
- وأي عيب نعيبه عليه إذا فقد الوعي وأضاع الصواب ؟
- وشارب الحمر الذي لا رياء فيه ولا تقا
- خير من « بائع الزهد » الذي يكون فيه الرياء وضعف الأخلاق
- ولسنا نحن من المعريدين للمرائين ولا من المصطنعين للرياء
- وشاهدنا على هذه الحال هو « عالم السر والخفاء » . . . الخ

وفي غزلية ثانية يقول ، زاهدا في المطامح والآراب :

- وقل لمن مضجه في النهاية قبضتان من التراب :
- ما حاجتك إلى رفع الإيوان إلى الأفلاك ؟

(١) يقول شوقي :

رمضان ولي هاتما يا ساقى مشتاقا تسعى إلى مشتاق

وفي غزلية أخرى يقول متهماً على الطموح وكل شيء إلى زوال :

- « لقد ذهبت عظمة « آصف » (١) ومركبه على الريح ومنطقه مع الطير
وضاعت جميعها ولم يتمتع بشيء منها !
— فلا تظر بجناحك وريشك وترتفع عن « الطريق » فالسهم الريش
يرتفع مدة في الهواء ، ولكن سرعان ما يهبط إلى الأرض

هل كان حافظ متشائماً كما يبدو من هذه الآيات الأخيرة ؟ يقول الدكتور عبد الوهاب عزام في الجزء الثاني من كتاب « قصة الأدب في العالم » صفحة ٥١١
« وحافظ يبين في شعره عن انقباض واكتئاب وحزن ، ويعرب عما يمتحن به في هذا
العالم ، ويغلب عليه التشاؤم ؛ ولكنه يبين عن فرجه وسروره أحياناً ، وعن تهله وإشراقه ،
وتأمله وانبساطه ، كأنه برئ من مرض ، أو استراح من ألم ، أو ظفر بما يريد بعد عناء ،
أو حم له بعد طول الفراق لقاء » .

والذي يقرأ غزليات حافظ قد يعن له أن يخالف الدكتور عزام في تصويره لنفس حافظ
فيراه — على عكس ما يرى الحيام — كثير الانقسام قليل الانقباض ، ويرى التشاؤم في حديثه
طارحاً خفيفاً ، لاسمة أصيلة . وإنما يراه في جميع أحواله هادئاً لطيفاً . ضحكته ابتسامة ،
وصرخته آهة ، وهو برئ النفس من الحقد والألم جميعاً ، مشغول عن الحقد والألم
بالسبجات الصوفية واللحظات الغزلية ، واستجلاء الحسن والجمال ، في هذه وتلك ، وفي
الغيب والبيان .

وهناك خلاف بين الدكتور عزام والدكتور إبراهيم أمين على تصوير أسلوب حافظ
الشعري في لغته . فالدكتور عزام يقول :

« ولحافظ في الشعر أسلوب دقيق جميل يشبه النغم الموسيقي المحكم ، جانت كل لفظة
صاحبها ، وأصابت كل كلمة دلالتها . ومعانيه بين التصريح والتلويح ، والظهور والخباء
تستغرق عناية القارئ وتستولي عليه فيتأملها حريصاً عليها معجباً بها . وقل من يساير حافظاً
في إحكام السبك ، ودقة النسيج ، وإجادة النظم ، فلا تجد في أوزانه وقوافيه — على كثرة
ما كنى ووزى وجانس — تكلفاً أو اضطراباً أو فضولاً » .
ثم يقول :

« وعابر ديوان حافظ كالسائر في حديقة ورد ، تروعه الصور الكثيرة والألوان المختلفة ؛
ولكنها كلها ورد . فهو يعرض صوراً كثيرة لحقائق قليلة . أو هو كالمطرب يسمتك كثيراً
من الأوزان والألحان والأنغام ، ولكنها لا تعدو حديث الحبيب في جماله ووصفه وهجره
وبعده وقربه ورضاه وغضبه ، وكل ما سمعت من هذا معجب مطرب رائع ، وكأن كل قطعة
— بأحسن التعبير وإجادة التصوير — تتضمن معاني جديدة لم تتناولها قطعة قبلها » .

وهذا التصوير لأسلوب حافظ في لغته يبدو — حتى لمن لا يعرفون مثل هذه اللغة — أكثر
انطباقاً ؛ لأنه يتفق مع السمات النفسية للشاعر ، ومع موضوعات فنه وطابعها الرقيق الجميل

(١) يضع آصف بن برخيا في مكان سليمان .

الحلو . قلت أدري من أين إذن جاء الدكتور إبراهيم أمين بهذا الوصف الآخر « لطريقة الأداء عند حافظ » . قال :

« كان شاعراً عاتياً ، فلم يكن يأبه لشيء ، ولم يكن يهتم بشيء . . . كان يعلم أن أقواله تفتن الجماهير ، ولكن ذلك لم يشغله إلا إلى قدر يسير . وكان يعرف أن أشعاره تفتن الألباب ولكنه لم يكن يهتم بهذا الإعجاب ، بل كان يعمى في طريقه كالجيش اللجب ، يطوى يدها الحقب ، في أناة أو صخب .

« وكان كالنهر العاتى ، يفيض على جنبات الوادى ، فيكتسح حطامه ، ويهدر ركامه ، ويدفع ما أمامه ، جبار عنيد ، يشتد هديره ، ويزداد نذيره ، وهو ماض فى سبيله على نهضة الدائمة التى لا تنهدأ ولا تسكن .

« وكان قنانياً ، فكان يرضى نفسه قبل كل شيء ، تهتف به فيليبيا ، وتناديه فيجيها ، ومحدثه فيقبل عليها ، ثم يستمع إلى نبرات الحاققة التى لا تكاد تبين ، ويتعسس سكناتها الصامتة التى تخفى فى قراره المعين . فإذا فرغ إلى نفسه مرة أخرى ، ردها فى أسلوب منصف مبين ، أو سجلها عليها كلمات معجزة تنحدر من عليين ، أو أعادها إلى نفسه ليؤكد لها ما جاشت به من قول مخلص أمين » .

وعلى ما فى هذا التصوير لطبيعة حافظ وطريقة أدائه من تناقض واضح بين بعضه وبعض وانقطاع فى سجعات رنانة قد تقوى البقة على الأداء ، فإنها فى صميمها تخالف صورة حافظ وطبيعته التى يستشفها قارئ النثرىات . وهى مخطئة فى هذا لأن النص الفارسى ليس فى متناول يدى ، فما هو ذا تصوير الدكتور عزام لأسلوب حافظ يؤيدنى . وأغلب الظن أن التوفيق هنا لم يحالف الدكتور إبراهيم أمين .

وأسلوب الترجمة ؟

ربما لم أكن صاحب حق فى تقديمه — ككل من لا يعرفون الفارسية — ولكن هذا لا يمنع من التعبير عن إحساسى بأن روح حافظ للشرق اللطيفة ، كانت تحبو وتمنحس فى بعض الأحيان ، ثم تبقى من وراء الألفاظ توصوص وتشير فى جهد إلى جوهرها اللطيف !

وقد قل للترجم بعض النثرىات القليل منظوماً كلها منشوراً . فأحسن فى هذه الحطة . فالنظم باللغة العربية عسير محتاج إلى مبة خاصة ، ولعله يكون أعسر حين يراد منه نقل مثل هذه اللغات الخفيفة السريعة ، التى تربطها روابط خفية دقيقة . وذلك يبدو عند مراجعة النثرىات التى نقلها نثراً ونظماً فى النظم لا تكاد تبين ، وفيها بعد واضح عن حقيقتها البادية فى النثر قدر ما يستطيع .

ويجب أن أشهد بعد ذلك بسلامة لغة الترجمة فيما عدا أخطاء يسيرة ، لعلها من السهو فى الكتابة .

ولكم وددت أن أستغنى عن هذه الصفحة الأخيرة ، ليخلص للدكتور إبراهيم أمين ثنائى وشكرى بالنيابة عن قراء العربية . فإليق — فى الواقع — أن يجزى صاحب هذا الفضل بنير الثناء المطلق والشكر الجزيل .

سير قطب

من وراء البحار

معرض صور تيت بلندن وقيمته الفنية

يهتم جمهور لندن الآن اهتماماً خاصاً بمعارض الصور التي أقيمت في المتاحف الفنية وقد كتب لنا بهذه المناسبة الكاتب أريك نيوتون مقالا عن متحف « تيت » Tate Gallery المعروف بلندن يقول فيه :

إن ما يقوم به المتحف الأهلئ للفن بلندن بالنسبة لصور العباقرة من قدماء المصورين يعادل ما يراد أن يقوم به متحف تيت بالنسبة للمصورين المعاصرين . وقد وضعت هذه العبارة « ما يراد » عن قصد لأن الحكومة لم تظهر إلا في الزمن الأخير سخاء نحو الفن الحديث مثل ما أظهرته نحو فن الزمن الماضي .

وقد يستغرب المرء لو قارن بين ما يتفق من مال على المتحف الأهلئ وما يتفق على متحف تيت ، إذ يميل إليه أن الهيئات الرسمية بالمثل ترا تكاذ تعتمد تجاهل رجال الفن الحديث على حين هي تعبر عن تقديرها للقدماء بما تفدقه من مال .

ولكني لن أذكر الأرقام ، إذ ربما كانت مضللة كالكثير من الإحصاءات ، إذ أولا أتمان الآثار الفنية القديمة مرتفعة جداً بالقياس إلى الصور الحديثة . وإذا ثانياً أن متحف تيت لا يعتمد ولم يكن ليعتمد مطلقاً على المساعدات الرسمية ، فلقد كان المتحمسون للفن الحديث أسخياء إلى درجة غريبة ، فاستطاع متحف تيت أن يجمع مجموعة مناسبة وإن لم تكن عديدة النظير من الصور والتماثيل من صنع رجال الفن في القرنين التاسع عشر والعشرين . ولم يخرج المتحف الأهلئ سليما من الحرب العالمية الثانية ، ولكن القاعات التي تفتح للجمهور الآن كافية . أما متحف تيت فقد أصيب إصابات وقفت عمله وستمضي سنة أو سنتان قبل أن يستطيع عرض كنوزه . لذلك خصص لمجموعته عدد من غرف المتحف الأهلئ عرضت فيها نخبة من صوره الآن للأناظر .

ولا ريب في أن هذا المعرض من أهم المعارض التي تجد إقبالا ، إذ أن صوره لم تشهد منذ قيام الحرب العالمية الثانية . وإذا كان هذا الكلام ينطبق على صور الأساتذة القدماء فليس من المستغرب أن يهتم البريطانيون بخير ما ظهر في فنون الأمس واليوم وبخاصة طلبنة الفن في هذا الجيل الذين قطعت صباهم بالطبع بمذهب اللوحة أو مذهب ما بعد اللوحة وغيرها من الحركات في إنجلترا وفي الخارج .

وقد رتب المعرض ترتيباً حسناً وأحسن الاختيار .

وترجع الصور المعروضة إلى عصر هوجارث (وقد عرضت مجموعة صوره عن الزواج الجديد . . .) إذ أن هوجارث هو من وجهات متعددة أول مصور انجليزي حقيقى ، ومجموعة متحف تيت هي أولا مجموعة صور بريطانية .

من وراء البحار

وبعد أن أُنشئت المعرض مركز هو جارت باعتبارها منشأة للمدرسة البريطانية أشار إشارة قصيرة إلى جت. بورو . وعرضت مجموعة بديعة لمناظر الطبيعة صورها ترز وكونستابل . ثم هنالك غرفة صغيرة مليئة بالمصورين الذين عادوا إلى الأسلوب السابق لرفايل (ومنها صورة ميليه البديعة التي تصور المسيح في دار أبويه) . ثم عنى المنظّمون بأن يلتزموا تياراً وسطاً بدلاً من التزام تاريخ الفن الانجليزي وحده ، فأولوا اهتمامهم بالفن الفرنسي بدلاً من الفن الانجليزي . ومن المؤكد أن مذهب اللوحة الفرنسي في الربع الأخير من القرن التاسع عشر كان يبعث الحياة في التصوير الأوربي . ويحتوي متحف تيت على مجموعة قيمة من صور مونييه ومانييه وبسارو ويمكن مشاهدة الصفات الرفيعة لهذا الفن في النخبة المعروضة .

وقد شغلت صورة مانييه « الساقيات » المركز الرئيسي في قاعة تحتوي كذلك على صورة جميلة هادئة للمصور ديجا وصورة صغيرة بديعة لكورو وعدد من المصورين الذي جاءوا بمد مذهب اللوحة . ومنها المنظر الطبيعي العجيب الذي صورته سيزان ، وصورة لجانجوان من مناظر ناهيتي ، وثلاث من صور فان جوج وهي كرسى وازهار عباد الشمس وشجر البلوط .

صورة لبسارو

ولم يمثل المصورون للتأخرون في المعرض مثل هذا التمثيل . ووجد صورتان يمثلان المصور للتجول بكاسو في دورين من أدوار تطوره ، إحداهما تمثل الدور « الأزرق » والأخرى تمثل الدور الكلاسيكي . ولكن لن يكون المعرض كاملاً إذا لم يحتو على بضع عشرة من صورته تمثل ألوان تأثيره في الفن اليوم .

وليس في المعرض أية تماثيل مع أن مجموعة تيت تحتوي على قطع مشهورة من صنع مايول ورودان وابستين .

ويتطلع الناس إلى اليوم الذي تعود فيه الصور والتماثيل إلى مكانها الحقيقي في متحف تيت . وليس ثمة شك في أنه تمت حركة قوية بين رجال الفن البريطانيين في أثناء الحرب العالمية الثانية . وستقبل خير الصور التي صورها فنانون الحرب وهي معروضة الآن في دار برلنجتون إلى متحف تيت ، وستكون سنو الحرب ممثلة خير تمثيل .

والآن وقد انتهت الحرب العالمية الثانية يخشى أن الدولة التي أظهرت شعوراً قوياً بالتمسك نحو الفن والفنانين قد تعود شيئاً ما إلى سياستها السابقة للحرب من الاعتماد على الحماسة الفردية . وهي لا تفعل ذلك في هذه المرة عن عدم اهتمام بالفن ، فان عدم الاهتمام بالفن قد قضى عليه بل يخشى أن تكون لبعض الأمور الهامة السابقة في أموال الدولة . كما أن مبدئي المتحف نفسها لا يمكن إصلاحها قبل إيجاد حل لمشاكل السكن لدى الأمة . ولذلك قد تهمل محتويات المتحف إلى أن تمضي فترة الانشاء الإقتصادي .

وقد يكون هذا الإهمال خطيراً ولكنه ليس منظوراً ، فان لبريطانيا مجلساً للفنون من واجبه أن يرحي حسن خدمة الفن . ولكن إذا كان عمل هذا المجلس في أثناء الحرب أن يرحي انتشار حب الفن في أنحاء البلاد فاني على يقين من أنه لا ينبغي أن مجموعة الفن الحديث ذات شأن كبير .

مؤتمر التعليم في لندن

عقد في لندن أثناء إجازة عيد الميلاد مؤتمر الجمعيات التعليمية لأول مرة بعد الحرب. وظل هذا المؤتمر يعقد قبلها سنوياً مدة ٢٧ عاماً ، وقد اشترك في هذا المؤتمر أربعون هيئة مختلفة ولم تمثل فيه جمعيات الأساتذة فحسب بل مثلت فيه كذلك هيئات كثيرة مختلفة ، فمن قاعة الدراما البريطانية إلى مجلس التربية للوطن العالمي ، واتحاد الجامعات لتحسين حال الحيوان ! وجاء في أخبار المؤتمر أنه عقد برئاسة ليدي سيمون التي تكلمت عن علاقة الآباء بالمدرسة ، وأشارت إلى أن قانون التعليم الجديد يثير عدة مشاكل يجب أن يبحثها الآباء والأساتذة معاً ، مثل الاختيار للمدارس الثانوية ، ورفع السن في المدرسة ، ومنهج المدرسة الحديثة . وطالبت بأن يمثل الآباء في الهيئات الحكومية واللجان التي تشرف على التعليم .

وتكلمت مسز ستوكس ناظرة كلية وستفيلد للفتيات بلندن عن التوحيد بين المدرسين في مهنة التدريس ؛ فإن القانون الجديد يقسم للمدارس إلى نوعين ابتدائية للتلاميذ حتى الحادية عشرة من عمرهم ، وثانوية لمن هم أكبر سناً ، وقد صار مدرس للمدارس الثانوية يعتبر نفسه أرقى من المدرس في المدارس الابتدائية .

وطالبت هذه السيدة بتحسين أحوال المدرسين الشخصية والاجتماعية حتى لا تهم مهنة التعليم بأنها منفردة وقائمة بذاتها .

وقال مستر تيجل باري في هذا المعنى إن بعض المحترفين لمهنة التعليم هم من ذوى الصفات للتفوق ، وإنهم فضلوا هذه المهنة على غيرها من المهن التي تدر ربحاً كبيراً ، وإن القانون الجديد يحدد عدد طلبة الفصول بأربعين تلميذاً في الفصول الابتدائية و ٣٠ تلميذاً في الفصول المتقدمة . على أن هذا النص لا يعمل به الآن ، لقلة عدد الأساتذة والحاجة إلى الأبلية . وأشارت مس سترادفيك ناظرة مدرسة سان بول وهي من أهم المدارس العامة إلى أهمية التأثير الشخصي في المدارس المستقلة ذات الفصول الصغيرة ، وأهمية المدارس التي لا تخضع لنظام الدولة في بريطانيا . وتكلم مستر هوارد في هذا الموضوع أيضاً . وأشار مستر هوايتهاوس إلى أهمية إدخال النشاط في الفنون والحرف في المنهج النظامي فإن ذلك يزيد من القوى الفعلية للتلميذ ، وليس ذلك فقط ، بل إنه يكون أساساً لتربية هواية مفيدة لديه .

وأعلن مستر سيرل ون رئيس مفتشي الموسيقى بوزارة المعارف في المؤتمر نبأ إنشاء مدارس ثانوية يقيم فيها الطلبة والطالبات الذين عندهم ميل قوى نحو الموسيقى ، فدل بذلك على اهتمام وزارة المعارف بمواد كانت تعتبر قديماً مفضى خارج نطاق المدرسة .

وتكلم مستر وود في إعداد اللاجئين الألمان من الأساتذة والمنظمين الاجتماعيين للقيام بواجبهم في ألمانيا فيما بعد الحرب . وأشار في إحدى الخطب إلى وجوب تدريس اللغة الروسية في منهج الدراسة بالمدارس الإنجليزية ، وقد أدخلت دراسة هذه اللغة فعلاً في بعض المدارس على سبيل التجربة .

وتكلم ممثل لمجلس الفنون لبريطانيا مقترحاً دعوة جوقات الأوبرا من باريس وستوكهلم وبراغ ، وربما كانت كذلك روسيا لتمثيل في لندن أثناء الموسم القادم .

الحركة الأدبية والفنية بفرنسا

قد تكون الحالة السياسية بفرنسا غير مستقرة الاستقرار الواجب ، ولكن فرنسا استعادت نشاطها الفنى والأدبى أو كادت تستعيده . فمن أخبار فرنسا نعلم أن جورج ديهاى الكاتب الفرنسى المعروف عاد إلى أرض فرنسا بعد أن قام برحلة موقفة في الولايات المتحدة ، وكندا ألقى فيها عدة محاضرات . وكانت حقيقته عند عودته مليئة بالكاتب الفرنسية الأخيرة التى نشرت في موتريال بكندا . ومن المعروف أن قسماً كبيراً من سكان كندا يتكلم الفرنسية .

وزار العاصمة الفرنسية لفييف من الأدباء البلجيكيين برئاسة رئيس جمعيتهم جورج راندى لاستقبالهم مسيو جورج لكومت رئيس جمعية الأدباء الفرنسيين .

ووفد على باريس أرست أريك نوث الكاتب الألمانى الذى يكتب باللغة الفرنسية ، وهو الذى وضع من قبل مؤلفات صائبة تنبأ فيها بنهاية الهتلرية واضطر للفرار إلى الولايات المتحدة وعمل في البحرية الأمريكية . وقد قال عند عوده : « لست أعرف أى حاجة إلى فرنسا ولكنى أعرف أنى في حاجة إليها » .

ونال جائزة الخلفاء الأدبية روجيه فايند لكتابه « لعب عجيب » وبجئت الجمعية عن المؤلف فلم تشر عليه إذ أنه لم يرد أن يظهر للجمهور وهو شاب مستقل عرف في حركة المقاومة السرية ، وكتابه مرآة لهذه الحركة . وكان مراسلاً حرياً ففرف مسالك الفوج والالزاس وألمانيا . وهو يعمل الآن مراسلاً برلمانياً لاجدى الصحف الصباحية .

وعقد في باريس المؤتمر الجامعى ، وقدم المندوبون الفرنسيون والأجانب تقاريرهم عن المشاكل الكبيرة التى تعترض تعميم التعليم . واقترحت اللجنة المشكلة للانتقال من التعليم الابتدائى إلى الثانوى ومن التعليم الثانوى إلى العالى أن ينتخب الطلبة حسب استعدادهم فيوجه البعض إلى الحياة العقلية ويوجه البعض الآخر إلى الأعمال اليدوية .

ومنحت جامعة باريس الدكتوراه الفخرية لاثنتين وثلاثين عالماً أجنبياً . ومن أشهرهم لورد كينس من جامعة كامبردج وممثل من جامعة كولومبيا وسيرهنرى ديل وسيرالكسندر فلمنج وكلاما حائز لجائزة نوبل ، وهوبكنز من كامبردج وكابترا من موسكو ونيلز بوهر الدماركى الحائز لجائزة نوبل .

أما في ميدان العلوم فقد صدر مرسوم بتعيين أعضاء لجنة البحث في النشاط الذرى وهى مؤلفة من فردريك جوليو كسورى الأستاذ بكونليج دى فرانس ومدير المركز الوطنى للبحوث العلمية وإيرين جوليو ويير أوجيه مدير التعليم العالى وفرنسيس بيران والثلاثة الآخرون أساتذة في كلية العلوم بباريس . وعين مسيو راوول دوثرى مديراً عاماً ومندوب الحكومة في تلك اللجنة .

وفردريك جوليو كورى مولود في باريس في ١٩ مارس سنة ١٩٠٠ وقد حصل مع زوجته على جائزة نوبل لاكتشافاتها العلمية .

أما أوجيه وبيران فقد درس في النورمال وراول دوثرى خريج مدرسة الهندسة . وستنشر في العدد القادم مقالاً قيمياً للأديب الفرنسى المعروف أندريه مالرو عن فن السنا ويجعل أن نذكر بهذه المناسبة أنه حصل على جائزة لويس دليك من أجل شريط منأى اسمه

من وراء البحار

« الأمل » وهذه الرواية السنائية هي قصة نضال الجمهوريين الاسبانيين في جبال تزويل ، وقد اشترك المؤلف في هذا النضال إذ كان طياراً في الفرقة الدولية .
ومن أبناء السنما في فرنسا أنه عرض في باريس شريط فلون للأخبار الجارية وكانت الإخراج موقفاً .

وقد صنع بناء على طلب وزارة الخارجية الفرنسية شريط سجل عزف سبعين موسيقياً
فسمفونية سيزار فرنك (أن ريه) وأخذت مناظر في سويسرا لإظهار قصة أندريه جيد
المسماة « السمفونية الزيفية » في السنما .

ظهير حديثا

الباب الضيق تأليف أندريه جيد وترجمة نزيه الحكيم (دار الكتاب المصري)

ليس القراء في حاجة إلى أن يقدم إليهم أندريه جيد ؛ فالمثقفون جميعاً في أقطار الأرض كلها يعرفون هذا الكاتب الفرنسي العظيم الذي غذى عقول الفرنسيين بكثير من آثاره الخالدة ، وكون للأمة الفرنسية غير جيل من الكتاب البارعين . وليس من شك في أن اللغات الحية كلها تعرف آثار هذا الكاتب القذ ، وفي أن قراء الأمم الأوربية والأمريكية على اختلافها يستمتعون بما في هذه الآثار من غذاء دسم للقلوب والعقول جميعاً ، ولكن لغتنا العربية لا تكاد تعرف من هذه الآثار شيئاً كما أنها لا تكاد تعرف شيئاً من آثار الكتاب البارعين في اللغات الأوربية الأخرى . ومع ذلك فقد أذاعت لجنة التأليف والترجمة والنشر قبل هذه الحرب الأخيرة بوقت غير قصير كتاباً من كتب أندريه جيد هو السنفونية الريفية ، نقلها إلى العربية الدكتور حسن صادق . وطبعت هذه الترجمة غير مرة فكان ذلك دليلاً على أن قراء العربية لا يريدون إلا أن يقرأوا بشرط أن يجدوا ما يقرأون ، وأن يقدم إليهم المترجمون والمؤلفون ما يحتاجون إليه لارضاء حاجاتهم إلى هذا المتاع الفنى الرفيع .

وقد أخذت دار الكتاب المصري تعلن منذ الصيف الماضى أنها ستقدم إلى قراء العربية ألواناً من الأدب والفن والعلم ، منها ما ينشئه المؤلفون ومنها ما ينقله المترجمون . ويظهر أنها قد أخذت تبر بهذا الوعد ؛ فهي تقدم إلى قراء العربية الآن طائفة من الكتب هي التى سنتناولها في هذا الحديث . وأولها بالطبع « الباب الضيق » الذى ألفه أندريه جيد وترجمه نزيه الحكيم .

والباب الضيق قصة رائعة من طراز خاص غير مألوف في الأدب الفرنسي المعاصر ، بل هي من طراز خاص غير مألوف في أدب أندريه جيد نفسه . فهي قصة الحب النقي الممتاز الذى يرتفع عن خطوط الحياة اليومية ، ويرفع أصحابه عن هذه الخطوب ؛ وما يزال يرتفع ويرفع أصحابه حتى يبلغ بنفسه وبهم نوعاً من التصوف يترجى بالحب الإلهى امتزاجاً .

شخصان تجمع بينهما القرابة : فتى يدرس في مدرسة المعلمين العليا ، وفتاة تعيش بين أبنائها وأبائها وأختها في مدينة الهافر . وقد نشأ الحب بين هذين الشخصين منذ أواخر الصبا وأوائل الشباب ، ولكنه حب مجهول نفسه ولا يكاد بين إلا عن حنان قوى . وهذه الشجرة الضئيلة القوية النقية تنشأ في بيئة كريهة ولكنها لا تخلو من بعض الشر . ففي الأم دغابة وميسل إلى الحجون ، وفي تنهى بالفرار مع من تحب وتترك ابنتها لأبيها البائس الحزون . والفتى يتردد على هذه الأسرة ، فترداد شجرة الحب بينه وبين الأخت الكبرى أليسا قوة ونمواً حتى يتبين أمر هذا الحب للعاشقين . ولكن الأخت الصغرى ليست بمأمن من حب الفتى ، فهي تحبه أيضاً وتختلس فرصة تظهره فيها على هذا الحب . ولكن الفتى لا يكن لها إلا هذا الحب البريء الذى يكون بين الأقرباء ، فأما الحب الآخر فقد خص به أختها الكبرى . وقد ظهرت الأخت الكبرى على ما يعلم قلب أختها من شفت بالفتى ، وعرف الثلاثة ما بينهم من هذا الأمر المعقد . فأما الأخت الصغرى فقد ضحكت

ظهر حديثاً

بنفسها واقتربت على كره منها بالزوج الذي قدمته الأسرة لها . وأما الأخت الكبرى فقد عرفت تضحية أختها وأبت أن تستمتع بهذا الحب الذي تركته لها . فهي لا تقتن بالفق ولكنها لا تصد عن حبه ، وإنما تحاول أن ترفع هذا الحب إلى منزلة النقاء والظهور لم يتعود الناس أن يبلغوها . والقصة كلها تدور على هذا الحب الذي صمم على أن يظل قتيلاً وأبى أن يزهد في نفسه أو يفتى في السلو والصدود ، فهي صراع بين نوازع النفس إلى إرضاء عواطفها ونوازع النفس إلى بلوغ للث الأعلى . ولست أدري ، وليس أحد يدري أى هذه النوازع قد انتصر . فقد ذهبت أليس ضحية هذا الصراع ، ولكنها ذهبت تقيّة مطهرة مبرأة من كل لثم .

فأنت ترى من هذا الحديث القصير أن أندريه جيد قد ذهب في قصته هذه مذهباً لم يكذب يآلفه في قصصه الأخرى ، بل لم يكذب يآلفه غيره من الكتاب ؛ ولذلك دهش حين طلب إليه المترجم أن يأذن له في نقلها إلى اللغة العربية . فهي قصة لم يكذب يآلفها المسيحيون الكاثوليكيون في أوروبا فكيف بالمسلمين الذين يظن أندريه جيد أن دينهم لم يعودهم أن يشيروا في نفوسهم مثل هذه المشكلات .

وقد ترجمت القصة ترجمة حسنة وإن كنت أشك كل الشك في أنها تنقل إلى العربية دقائق الفن الأدبي الرفيع كما يصدر عن أندريه جيد . والشئ الذي لا شك فيه هو أن الترجمة صحيحة صادقة في نقل الحواطر والأفكار . وسنرى حين يظهر عليها القراء أوفق المترجم حين اختارها ليهدىها إلى قراء العربية فأهدي إليهم شيئاً يلائم أذواقهم ، أم وفق أندريه جيد حين شك في حسن استقبال القراء المسلمين لهذه القصة التي لم يكذب يطمئن إليها القراء المسيحيون . وسيعرف القراء رأى أندريه جيد في ترجمة هذا الكتاب وردى عليه فيما ظن من أن الاسلام يحمل أهله على الهدوء والاطمئنان واجتناب ما يثيره القلب في النفوس من المشكلات .

صورة دوميانه ميراي تأليف أوسكار وايلد وترجمة لويس عوض (دار الكاتب المصري)

والمتقنون يعرفون أوسكار وايلد بين كتاب الانجائز كما يعرفون أندريه جيد بين الكتاب الفرنسيين . ولعلهم قد عرفوا من أمر الكاتب الانجليزي أكثر مما يعرفون من أمر الكاتب الفرنسي . فلم تجر حياة أوسكار وايلد هادئة ولا مطردة ، ولكنهم لم يقرأوا آثار أوسكار وايلد في العربية ، ولعلهم شهدوا بعض قصصه التمثلية تعرض عليهم باللغة العربية . ومن أجل ذلك محمد الأستاذ لويس عوض ترجمة هذه القصة ، كما نحمد لدار الكاتب المصري نشرها . وصورة دوريان جرائ قصة يسيرة جداً في ظاهرها ، ولكنها في الحقيقة معقدة أشد التعقيد والجمع بين السر والتعقيد في قصة واحدة على هذا النحو أو تيسير الأشياء المعقدة على هذا النحو الذي أتبع لأوسكار وايلد آية من آيات التفوق في الذكاء من جهة وفي فن التعبير من جهة أخرى . فدوريان جرائ فتى رائع الحسن يارع الجمال يرسم صورته فنان ممتاز . وهذا الفنان قد أحب الفتى حباً عميقاً متحرّجاً شديد التبر . ولكن الفنان صديقاً هو اللورد هنري ، لا يكاد يرى الفتى بخفى يكلف به كلفاً شديداً . والفنان رجل تقي الطبع مستقيم السيرة محافظ على الأخلاق الموروثة . واللورد هنري رجل قد أفسده الترف فساء خلقه وساء سيرته وساء تقديره للأشياء وحكمته عليها فهو يشك في كل شئ وفي الأخلاق والأوضاع الاجتماعية بنوع خاص . وقد استطاع أن

ظهر حديثاً

يستحيل الفتي إلى نفسه ، وأن يحابه بمحدثه العذب وشكه الهادي وسخرته اللاذعة . وقد تمت صورة الفتي فاذا هي آية من آيات التصوير . ولكن الفتي يتعنى فيما بينه وبين نفسه ، وقد سمع كثيراً من الثناء على شبابه وجماله ، لو احتفظت له الأيام بهذا الشاب النض وأثرت في الصورة لا في شخصه . وهي أمنية ساخرة كما ترى ، ولكن الأيام تحول السخيرة إلى جد كما تحول الجلد إلى سخرية ؛ فقد اندفع الفتي بتأثير اللورد هنري حتى تورط في سيرة قوامها الإباحة وقسوة القلب وبخور النفس والازدراء لكل شيء . ولكنه يرى ذات يوم آثار هذه السيرة المنكرة في صورته ولا يراها في وجهه ، فوجهه مازال محتفظاً بجماله الرائع وحسنه البارع ، وهو كلما أقدم على إثم أو تورط في خطيئة رأى أثر ذلك في صورته لا في وجهه ، وهو يضيق بالصورة فيخفيها على الناس ولا يراها إلا قايلاً بين حين وحين . وهو يمضي في القسوة والاثم والفجور إلى أقصى غاياتها حتى يصبح حديث لندرة . وهو ينتهي إلى القتل وإلى إكراه صديق له على إخفاء جريمة القتل ومحو آثارها . وتأتي هذه الجرائم كلها تظهر في الصورة دون أن تظهر في وجهه . ثم يمسه الندم آخر الأمر فيعذب عذاباً شديداً ، وهو يعمد إلى الصورة التي تصور جرائمه فيمزقها بنفس السكين الذي قتل به أخيراً . ولكن السكين لا يكاد ينفذ في الصورة حتى تسمع صيحة هائلة ويخرج جسم صريع على الأرض ، وإذا الفتي قد قتل نفسه ، وإذا الصورة قد استردت جمالها الرائع وحسنها الخلاب .

وليس هذا تلخيصاً للقصة وإنما هو إشارة لموضوعها . فالقصة أوسع وأعمق وأدق من أن تلخص في هذه الكلمات القليلة . وهي من أشد النصوص تصويراً لحياة المترفين من الانجليز ولما يكون بينهم من هذا الاقبال على العيش في تكلف وفي بساطة وفي جد وفي سخرية وفي تأني وفي إهمال ، كل ذلك يصور في القصة تصويراً رائعاً . وقد وفق المترجم إلى نقلها في لغة عربية لا ترتفع إلى أوج البيان ، ولكنها يسيرة سائنة لا تشق على أحد ولا يضيق بها المخرجون .

ملاحظات فارسية للدكتور يحيى الخشاب (دار الكاتب المصري)

والدكتور يحيى الخشاب كثيره من شباب المعهد الذي أنشئ في كلية الآداب الشرقية ، يريد أن يحيى سيرة ابن المقفع وأن ينقل إلى العرب المحدثين كما نقل ابن المقفع إلى العرب الأقدمين ألواناً من أدب الفرس وحكمتهم وسياستهم . وهو من أجل ذلك قد أهدى إلى القراء هذا الكتاب الصغير الكبير في وقت واحد . فهو صغير في الحجم لا يكاد يبلغ مئتي صفحة ، ولكنه كبير بما اشتمل عليه من آداب وحكمة وسياسة . وهو يحمل إلى قراء العربية عيراً رقيقاً حسن الموضع في النفس من هذه الحياة الفارسية الممتازة بما فيها من رقة وفطنة وفكاهة .

وقد عدل الدكتور يحيى الخشاب عن الترجمة الحرفية كما امتنع عن الانشاء الخالص ، فقارب النص الفارسي ولم يطابق بينه وبين النص العربي مطابقة دقيقة . وأحسن بذلك صنعا ؛ لأنه لا يؤلف للمختصين وإنما يؤلف لعامة المثقفين . وهو على ذلك لم يهمل المختصين إهمالاً ، وإنما رد كل قصة إلى أصلها ليرجع إليها المختصون إن شاءوا . وإذا لم يكن بد من أن تأخذ هذا الكتاب بالمتع الطريف بشيء فقد نحب أن نطلب إلى الدكتور يحيى الخشاب العناية بتصحيح كتبه حين يطبعها

ظهر حديثاً

وفضلاً من العناية باللغة والنحو . فقد نجد في كتابه هذا ما يمكن أن يغضب سيبويه والقراء .
وقد وقع ابن المقفع في بعض الخطأ حين نقل من الفارسية إلى العربية ، ولكن ليس من
الضرورى أن تسمي سيرة ابن المقفع حتى حين يخطئ .

من مولانا للأستاذ محمد سعيد العريان (دار الكاتب المصرى)

أما الأستاذ محمد سعيد العريان فلم يترجم عن فرنسية ولا عن إنجليزية ولا عن فارسية ، وإنما
ترجمه عن الحياة المصرية المعاصرة . فهو لا ينقل أدب غيره وإنما يعرض أدب نفسه . والأدب الذى
يعرضه قيم ممتع خلى بالعناية حقاً ؛ فهي صور صغيرة للحياة المصرية المعاصرة يعرضها في قصص صغار
قصار . والصور كلها جميلة رائعة ، منها ما يؤثر في النفس تأثيراً عميقاً بعيداً ، ومنها ما يدعو
إلى التفكير المتصل ، ومنها ما يتيح التسلية العابرة . ولولا أنى قرأت للأستاذ العريان قصة
« قطر الندى » وعرفت منها أن خياله قوى يستطيع أن يبعد إن مضى أمامه ، وأن يعين في التحديق
إن ارتفع في الجو ، لوصفت خياله في هذه القصص الصغار بشئ من الضعف . فلنقل إذن إنه أمسك
خياله فأبى عليه أن يبعد أو أن يعين في الارتفاع ، حتى لا يشق على القارئ ولا يكلفه عناء ثقيل ،
لأنه يريد أن يرفه عليه وأن يلهيه عن نفسه ويلفته إلى غيره من المعاصرين المصريين الذين يشقون
من حوله في غير إبعاد ولا تكلف للشقاء .

والأستاذ العريان تلميذ لمصطفى صادق الرافعى رحمه الله ، تأثر به تأثراً شديداً في أسلوبه
ومذهبه في التعبير ، وإن كان قد وجد شيئاً يقوله على حين لم يكده الرافعى رحمه الله يقول شيئاً .
وربما كان من الخير للأستاذ العريان أن يتخفف بعض الشئ من تراث الرافعى ، ويؤثر السهل على
الحزن ، ورقة اللفظ ولينه على التصعب والتشدد فيه . ففي لفظ الأستاذ العريان شدة متكلفة ورصانة
لا تخلو من الصنعة ، وإثارة لبعض الألفاظ والأساليب التى لعل زمانها أن يكون قد انقضى . وفي
الأستاذ العريان ميل إلى التأكيد أخذ في أكبر الظن من تأثره للرافعى وتكلفه للرصانة . ولذلك
يكثُر استعمال « إن » في كلامه ، وقد تتابع « الانات » حتى يضيق بها قارئ مثلى ، فكيف بالقارئ
الذى لا يتخذ الأدب صناعة ، ولا يتكلف العناية بمذاهب القدماء .

ومهما تلاحظ على أسلوب الأستاذ العريان فلن نستطيع أن نتكر أن هذه القصص نماذج قيمة
يحسن أن يقرأها الشباب ليتعلموا منها كيف يكون التعبير الصحيح الصادق عن المعاني التى تصورها
صاحبها تصوراً صحيحاً صادقاً .

طه حسين

في مجلات الشرق

طبيعة العقاب وتأثيره

في الجزء السادس من السنة التاسعة لمجلة «المعلم الجديد» التي تصدرها وزارة المعارف العراقية في بغداد، مقال بهذا العنوان للأستاذ أحمد عبد الباقي مفتش المعارف بلواء بغداد، يقول فيه : « من الطبيعي أن الألم الناشئ من العقوبة أهم أمر فيها » ولذلك كان من الضروري الاهتمام به وتوجيه الفرد للعقاب نحو الجهة الصحيحة المفهومة ، فإن هذا الألم يترك في نفس الفرد للعقاب شعوراً بالبغض والكراهية لواحد من الاثنين : إما لنفسه ، وإما للشخص المعاقب . فالعقوبة الصحيحة هي ما يجعل ذلك الفرد يدرك أن السبب الوحيد لما أصابه من عقوبة إنما هو سلوكه ليس غير ، وفي هذه الحالة يتوجه غضبه على نفسه فيحاسبها ، وقد يحاول إصلاحها إذا ما توافرت له الأسباب . أما إذا لم يتيسر له أن يفهم العقاب الذي ناله بهذا الشكل فإن العقوبة تخسر التأثير الذي توخيناه منها ، فيتجه غضب الفرد إلى الشخص المعاقب ، ولو بغير إرادته وشعوره ، بل قد يظهر غضبه في شكل مقاومة للتعليم وكره للمدرسة ، فيكون طاملاً في إحداث متاعب أخرى كانت للمدرسة في غنى عنها لو أحسن استعمال العقاب . وهكذا يؤدي العقاب إلى عكس ما نأمله منه إذا لم نجعل الفرد للعقاب يدرك أنه هو المسئول عما ناله من عقوبة . »

الحقائق الجارية ١

في العدد ٤٢٠ من مجلة «المكشوف» التي تصدر في بيروت مقال للأستاذ زهير زهير بعنوان « أوسكار وايلد في مجلتي عريتين » عرض فيه الكاتب لمقالين عن ذلك الأديب الانكليزي نصر أحدهما في « الكاتب المصري » والآخر في مجلة « الكتاب » فلم يعجبه نهج الكاتبين فيما كتبوا ، وختم مقاله ذاك بالعباراة الآتية التي تلخص فيها أوجه اعتراضه على ذينك المقالين : « إن التزمتم والتخرج في كتابة سيرة الأدباء ودرس آثارهم على ضوء حياتهم ، أقل ما يقال فيها إنما لا يصلحان سبيلاً قوياً لظهور الحقيقة في عريها الكامل . ويطلب على الظن أن المتحدثين عن أوسكار وايلد في مجلتي « الكتاب » و « الكاتب المصري » قد استسلموا إلى نوع من التزميت يكاد يشبه ذلك التزميت الفيكتوري الذي ذهب ضحيته فنان موهوب كأوسكار وايلد . »

لنحطم السدود ١

في عدد شوال من مجلة « الثريا » التي تصدر في تونس مقال بهذا العنوان للأستاذ الهادي العبيدي يقول فيه : « ... الترجمة والنقل : ذلك هو الطور الذي لم نجتزه بعد ، والذي يجب أن يكون

في مجلات الشرق

للمرحلة التأسيسية في نهضتنا الادبية والفنية ؛ لانه القاعدة التي سارت عليها كل الأمم ، وما تقدمت أمة طاشت منكشحة على نفسها ولم تتعرف إلى ما يجري خارج حدودها . يجب تحطيم هذه السدود السميكة التي تحول دون أدبائنا ودون أدباء العالم . إن الآداب والفنون والمدنيات تتلاقح ويقتبس بعضها من بعض . ومن العجيب المدهش أن نشعر بضرورة اقتباس أزياء ومواعين أمم الغرب ، فتردى البنطلون والجاكيت بدل الجبة والملتان ، وتير يوتما بالقوانيس الكهربائية بدل سراج الزيت ، ونمتطي السيارة بدل ظهر الحمار ، ثم فنض الطرف في عالم الآداب والفنون عن واجب التعرف لما تعالجه تلك الأمم من الأساليب وتتفق عنه أذهان أبنائها من رائع عجيب . ليكن عمل الترجمة في نهضتنا التونسية عملاً أساسياً يهتم له ويعنى به ، ولينظم وتؤسس اللجان وتنتخب له الأقلام ليفيد ويؤثر الاثر المرغوب فيه . أما أن يبقى (غية) بعض الكتاب ونوعاً من أنواع تسليتهم فستقطع السنوات التي تتألف منها القرون دون أن نظفر بناية . وعلى هذا السن سارت وتسير مصر والشام وبلاد المشرق الناهضة . »

أعمال الأدباء التونسيين

وفي عدد ذي القعدة من المجلة نفسها ، كلمة بهذا العنوان يقول فيها المحرر :
« يتطلع أدباء الجضرء إلى عودة الحياة العادية إلى العالم واتصال تونس بالخارج بأعناق مشرقة وعيون متوسلة مترقبة وصول المواد الأساسية للطباعة ... للشر مؤلفاتهم الثمينة التي حبروها خلال الحرب وخشوا ضياعها أثناء احتدام القوات بالبلاد التونسية وانهمار مطر القذائف الجهنمية أكثر من خشيتهم على أرواحهم وعيالهم ومتاعهم ... »
ثم أورد المحرر أسماء طائفة من هذه الكتب التي يشير إليها ، فمنها كتاب « صدور الأفارقة » وهو كتاب ضخيم يضم تراجم علماء وأدباء إفريقية الذين أضافوا إلى كنوز المعرفة العربية نقائس خالدة ، وهو من وضع صاحب المعالي أمير الأمراء وزير الدولة التونسية السيد حسن حسني عبد الوهاب ... وكتاب « مشاهير القرن الرابع عشر » ويتحدث فيه مؤلفه الأستاذ محمد الفاضل بن عاشور المدرس بكلية الزيتونة — عن عظماء الشمال الافريقي في العلم والسياسة والأدب ... إلى كتب أخرى غير هذين تدل على نهضة تأليفية في تونس نرجو لها الترفيق بعون الله .

انزلوا إلينا !

في العدد السادس من السنة السابعة لمجلة « النرى » التي تصدر في النجف بالعراق ، كلمة للأديب هادي محيي الجفاجي يتحدث فيها عن الأدب والأدباء ، فيقول :
« قيل إن الأديب مرآة عصره . ومعنى هذا أن الأديب مرآة المجتمع الذي عاش أو يعيش فيه ، ومرآة الأمة التي نشأ أو ينشأ فيها ، مرآة تعكس كل صورة من صور ذلك المجتمع وتلك الأمة في عزها وذلها ، وتقدمها وانحطاطها ، وحريتها واستعبادها ، وشعبها وجوعها وسلمها وحربها ؛ مرآة ، ولا كالمرايا التي تزول صورها بزوال أشباحها ، تحتفظ بصور

في مجلات الفرق

كل ما يقع من أحداث وما يجد من أوضاع وما يبلى من نظمات ، فتسلمها إلى الأجيال واضحة جلية يقرأون فيها تاريخهم وتاريخ آبائهم . ولن يتم كل هذا ما دامت « المرأة » في السماء و « الأشباح » على الأرض ؛ أفلم يأن لكثير من أدبائنا المخلقين في عليا سمواتهم أن يهبطوا قليلا إلى المدى الذي يصرون فيه جراح أمتهم ويتحسسون أوجاعها وآلامها ، فلعلمهم يستطيعون — إن أعجزهم أن يكونوا من أساتها — أن يكونوا تاريخها للآتي من الأجيال ! »

إصرار !

في عدد أول يناير من مجلة « ام درمان » قصيدة بهذا العنوان للشاعر الشاب كمال الحفوق ، تقتطف منها الآيات الآتية :

أخي ، هل نحن تحت الأرض أعشاب وديدان
أخي يأيها الانسان ، هل في مصر إنسان
أراها مسرح الأشباح قد وارتة ألوان
هي الفلاح ، والفلاح أسهال وأكفان
هي العمال ، والعمال إجهاد وحرمان
أرانا نجمع الأشواق ، هل للشوك ريحان
أخي ، ما الصبر ؟ إن الصبر كفران وخذلان
أخي ، ما نحن بالاحرار لكن نحن عبدان
لقد ضاقت بنا الأوطان ما للعبد أوطان
أخي ، ما السجن ؟ هل في السجن تعذيب وحرمان
وهل يجدي مع الاحرار قضبان وسجان
سوانا يرهب القضبان أو تثنيه جدران
إذا كنا شرارات فنحن اليوم بركان !

سيوف من خشب !

وفي العدد ٣٠ من مجلة « الأصداء » التي تصدر في سوريا كلمة بهذا العنوان ، جاء فيها :

« هذا الشيخ ، بعلمته التي تشبه البرج ، وقافته وراءاته التي تخرج مفخمة مضخمة كأنها من وراء مكروفون . يقف كل يوم جمعة ، هو وعشرات أمثاله ، ليرغوا ويربدوا ، منذرين الضالين بعذاب السعير وبئس المصير . ألا فاسألهم وكن متلطفاً في سؤالك : أهذه كل بضاعتكم ؟ ولا تنتظر الجواب ، فالجواب واضح على كل حال . فإذا ترك أسيادنا للمسجد مخاذر من اقتفاء خطواتهم والتلصص عليهم ، لأنهم لا يقرؤك على هذا المنكر ، وإنه لمنكر

في مجلات الشرق

أن ترى الشيخ يفعل في دنياه غير ما قاله في مسجده ! لقد كان المسجد مجلساً للشعب ، تدار فيه شئون دولة مترامية الأطراف ، وكانت منه تسير الجيوش وتجرد الحملات . . . حينما كان الخطيب يتسمم المنبر ويده سيف من فولاذ . . . أما خطيب اليوم ، فانه يكافح ببقائه وراءاته ، حتى السيف ، فانه لم يعد اليوم سوى سيف . . . من خشب ! »

زيادة الخير شر ! . . .

للثعلب المعروف : « زيادة الخير خير » وفي مصر يقولون : « إن في زيادة الخير خيرين ! » ولكن الدكتور سليم حيدر يأبى إلا أن يتخذ هذا العنوان لمقاله الطريف في عدد يناير من مجلة « الأديب » التي تصدر في بيروت ، ويعض في الاستدلال لرأيه بأمثلة عدة ، تقتطف منها ما يلي :

« زيادة الغيث عاقبتها الجفاف : تطنى الأنهر ، فتغرق المزارع ، فتشرق المزروعات ، فإذا لسعها الهجير ذوت وترك الهجير عليها مسحة الخير الذاهب !

« زيادة الاحسان ، وهل أندى من الاحسان ؟ . . . يفيض بركة على المحسن . ويسرأ على المسكين ، ويمسك رفق الفرد ، ويحفظ كيان المجموع ، زيادة الاحسان عدم وإقلال !

« زيادة المال ، وأى متاع أعز من المال ؟ . . . يطنى على الفنى حب الاستزادة ، فينزلق من راية الاقتصاد إلى هوة الشح . . . ويقضى هذا الفنى الشحيح ، فيتساق أولاده إلى تبذير ما جمعت يده . . . وتذهب ثروة لا صاحبها عاش بها مرضياً ، ولا وارثها عاش بها مكفياً ، ولا استفاد منها عضو صالح في المجتمع !

« زيادة الجاه غرور ، وزيادة القوة شرور ، وزيادة الود نفور ، وزيادة الجمال قسور ! »

كيف نحارب الطائفية ؟

وفي العدد نفسه من مجلة « الأديب » مقال آخر بهذا العنوان بقلم عبد اللطيف شرارة ، يقول فيها :

« إن التوفيق بين الدين والفلسفة محاولة عقيمة ، وقد قام بها ابن سينا منذ قرون ، فاتهى به الأمر إلى اعتباره زنديقاً من قبل رجال الدين ، قصير النظر من قبل الفلاسفة ، وهذا كل ما زججه في تجربته ! كما أن التوفيق بين دين ودين انتهى على يد الكثيرين في أوروبا وفي الشرق إلى مأس ردد التاريخ صداها . . . والانسان ، وبالتالي المجتمع الانساني ، ينطوى على غريزة دينية لا يجوز ولا يمكن إهمالها في كيانه النفسى والاجتماعى ، فالاستغناء المطلق عن العقائد الدينية أمر ثبتت استحالاته ، بله إضراره ، فالدين معنى قائم لازم لا بد منه . . .

« وإذا كانت بلادنا في حاجة إلى شيء من اشياء الفكر ، فهي محتاجة إلى من يغذى في قلوب أهلها جلال القانون الأخلاقى . . . وذلك لن يتم إلا بإيقاظ الحس الدينى الخالص من كل شائبة مذهبية أو نفعة سياسية . »

اندریه چید

الباب الضيق

تقریب
نزیه الحکیم

مقدمة لاندريه هيد وطر حسين

«ترجمة كتي الى لغتكم ؟ . . . الى أى قارىء يمكن أن تساق ؟ وأى الرغبات يمكن أن تلي ؟ ذلك ان واحدة من الخصائص الجوهرية في العالم المسلم فيما بدا لي ، أنه وهو الانساني الروح يحمل من الاجوبة أكثر مما يشير من أسئلة .
أخطئ انا ؟ »

أندريه چيد

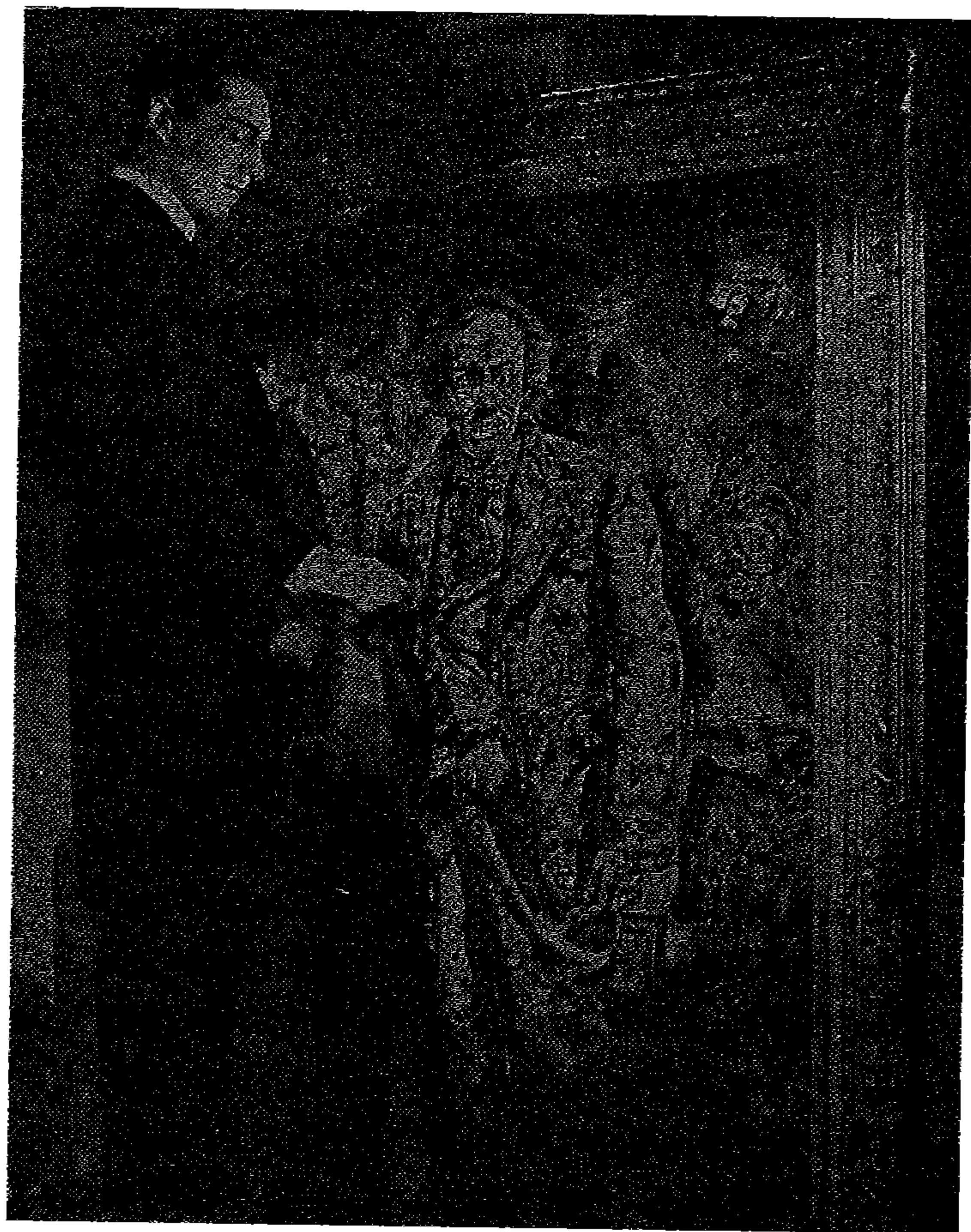
«لم تخطئ أنت ، وإنما دفعت الى الخطأ . لقد خالطت كثيراً من المسلمين ولكنك لم تخالط الاسلام . . . »

طه حسين

التمن ١٨ قرناً
أجرة البريد ١٢ ملياً



ظهر حديثاً



صورة دورین حای

الثمن ۳۰ قرشاً
أجرة البريد ۲۴ ملماً



ظهر هدیئا

صورة دوريان جراي

تأليف

أوسكار وايلد

تحت الطبع

شبح كاتريفيل

تأليف

أوسكار وايلد

تعريب لويس عوض

وهي سجل طريف للمحن التي ألمت
بشبح قصر آل كاتريفيل حين انتقل هذا
القصر التاريخي إلى وزير أمريكا المفوض
في بلاط سانت جيمس .



طبعة مزية بصور مختارة من فيلم « شبح
كاتريفيل » إنتاج « مترو جولدوين ماير »



نقلت حديثاً إلى اللغة العربية
قصة أوسكار وايلد الشهيرة « صورة
دوريان جراي » .

وهي قصة شاب انجليزي جميل
الطلعة ولكنه انغمس في الرذائل ،
وكانت له صورة من أحد كبار
الفنانين المعجبين به يعتر بها وفي هذه
الصورة سر غريب إذ تظهر عليها
كل العلام التي تنتاب المقبلين على
اللهو والمسلذات ، فهي تهرم بينما
صاحبها محتفظ بشبابه . والرواية
تعتبر الآن مثالا للروايات الأخلاقية
وإن أثارت في زمنها سخط الناس
ورموا مؤلفها بالتهتك .

نقل هذه القصة إلى العربية
الأستاذ لويس عوض مدرس الأدب
الانجليزي بكلية الآداب بجامعة
قواد الأول .

وقامت بنشرها دار الكاتب
المصري في طبعة أنيقة وهي تحتوي
على عدة صور ورسوم مختارة من
فيلم « صورة دوريان جراي » إنتاج
« مترو جولدوين ماير » .



الى هواة القصص الفارسية تسوق دار الكاتب المصري مجموعة منها عنى بعرضها الدكتور يحيى الخشاب
المدرس بمعهد اللغات الشرقية بجامعة فؤاد الاول . ولاءم فيها بين الطابع الايراني والحكمة
الفارسية الموروثة وبين الذوق العربي .

التمى ٢٠ قرناً
أجرة البريد ١٦ ملياً



حكايات فارسية
بقلم يحيى الخشاب

محمد سعيد العريان

سِن حَوْلَنَا

قصص مصرية

جيل من الناس في أفراحه وآلامه ، يرى كل قارئ في
مرآته صورة من نفسه ، أو صورة من حوله ،
في إطار قصصي رائع في بيانه وفي فنه .



التم ٢٥ قرناً
أجرة البريد ٢٠ مايا



ظهر هديتنا

تحت الطبع

مدرسة النساء

تأليف

أندريه جيد

تعريب صبرى فهمى

تحت الطبع

كايخسرو وحياة العاصفة

تأليف

ليون دوديه

تعريب حسن محمود

العقيدة والشريعة في الإسلام

للمستشرق الكبير جولدتسيهر

نقله الى العربية وعلق عليه

على حسن عبد القادر

دكتور فى العلوم الاسلامية
مدير المركز الثقافى الاسلامى بلندن

عبد العزيز عبد الحق

المدرس بكلية الشريعة
بالجامع الازهر

محمد يوسف موسى

المدرس بكلية أصول الدين
بالجامع الازهر

تحت الطبع



الى قراء اللغة الفرنسية

إلى الذين يريدون أن يطلعوا على خير ما يكتبه الأدباء الأوربيون وأدباء الشرق تقدم
فهرس عدد يناير من « مجلة القاهرة » *La Revue du Caire* وهو حافل بمقالات
تتناول شتى نواحي الحياة الأدبية والفنية لديثوش وچاك تاجير ودبرتويه وبوريس پولقوى
ودى قو والدكتور لوت وروبرت كيب ورينه دومينيل .

LA REVUE DU CAIRE

REVUE DE LITTÉRATURE ET D'HISTOIRE

*

SOMMAIRE DU NUMERO DE JANVIER

- J. L. DESTOUCHES . . Les récents travaux de Logique en France.
JACQUES TAGHER . Naissance des bibliothèques dans l'Egypte
moderne.
DUPERTUIS Demolins et l'Ecole Nouvelle (*à suivre*).
BORIS POLEVOI . . . Le soldat russe.
— Le n° 21 A.
G. DE VAUX Souvenirs d'une journée historique vécue à
Stockholm le 25 juillet 1914.
Dr LOTTE Ambroise Paré, le père de la chirurgie
moderne (*fin*).
ROBERT KEMP La Comédie des Dupes est une tragédie
rustique.
RENE DUMESNIL . . . Les Œuvres complètes pour orgue de Jean-
Sébastien Bach, éditées par Marcel Dupré.

Abonnements pour l'Egypte P.T. 100
pour l'Etranger le port en plus.

Administration: 3, Rue Nemr, Le Caire.

الكاتب المصري

مجلة ادبية شهرية

تصدرها دار الكاتب المصري

شركة مساهمة مصرية

وتطبع بمطبعتها

رئيس التحرير

طه حسين

سكرتير التحرير

حسن محمود

إدارة الكاتب المصري

هـ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة

الاشتراك

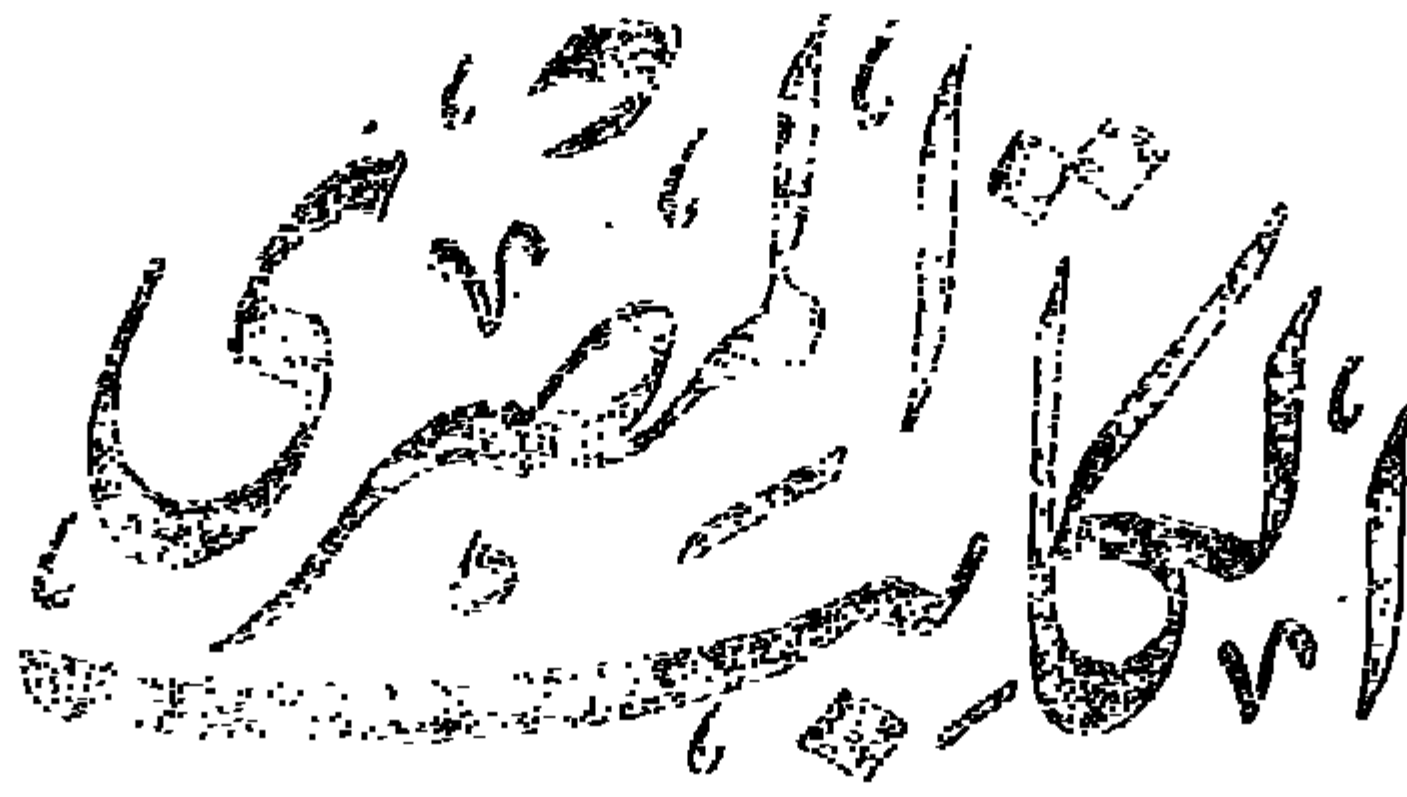
يدفع مقدماً باسم « الكاتب المصري »

١٠٠ قرش في السنة لمصر والسودان

١٢٠ قرشاً في السنة للخارج أو ما يعادلها

مجلة الكاتب المصري تعني بكل ما يرد إليها من المقالات
والرسائل ولكنها لا تلتزم بنشرها ولا ردها

التمن بمصر : ١٠ قروش



مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس

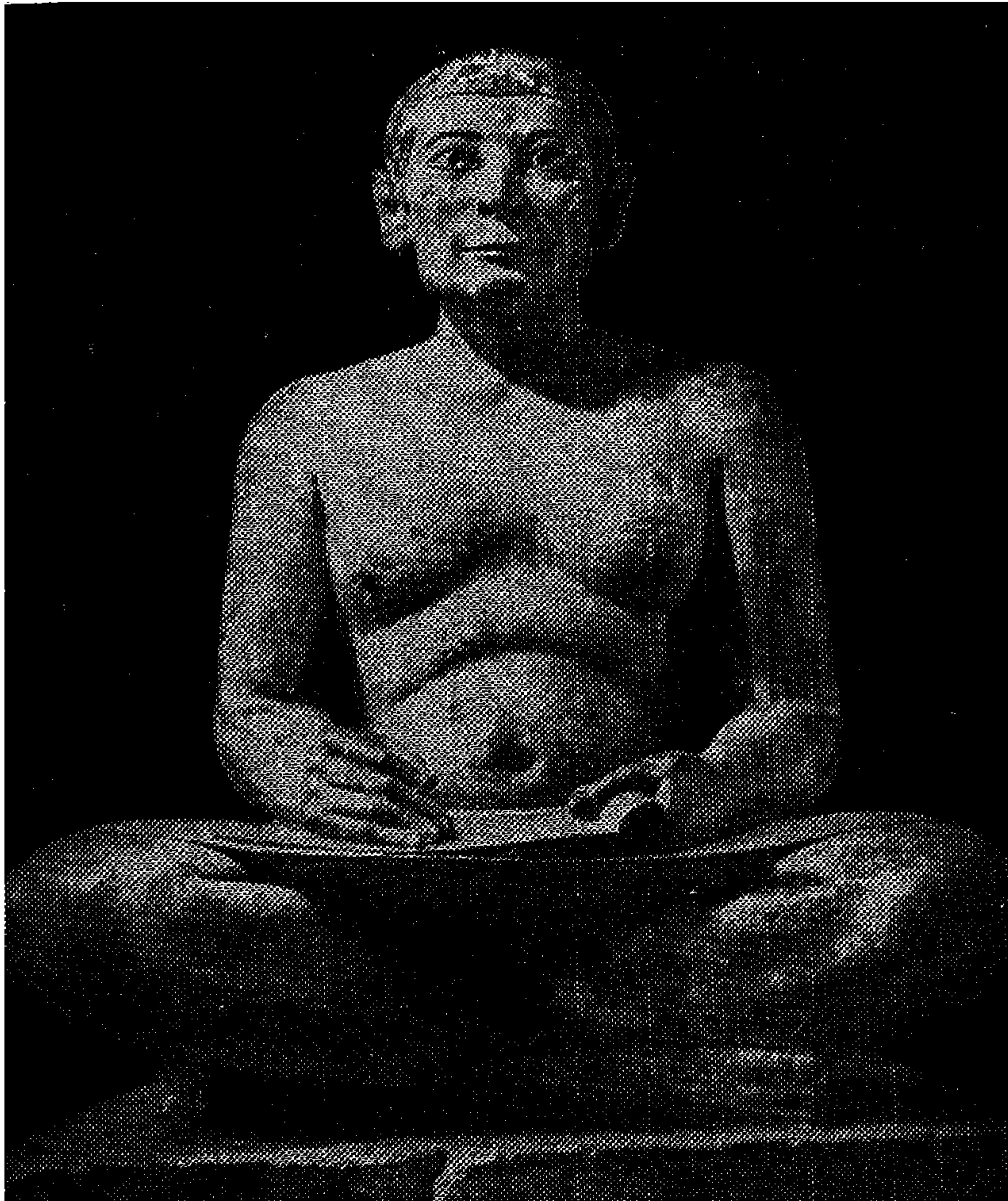
١٨٥	المعذبون في الأرض (قصة)	طه حسين
١٩٩	الانتداب والوصاية والاستعمار	محمد عوض محمد
٢١٤	بين تركيا وروسيا	محمد رفعت
٢٢٥	في ردهة الرقص (قصيدة)	علي الخطيب
٢٢٨	قصة معبد (قصة)	سهير القلماوي
٢٤٣	تاريخ يعيد نفسه في شرق الأردن	سليمان حزين
٢٥٦	رحلة في برقة	عزيز سنوريال عطيه
٢٦٨	عصبة الأمم القديمة وعصبة الأمم الجديدة	محمد عبد الله عنان
٢٧٦	أبو عبيدة	طه الحاجري
٢٩٠	مقاومة الذعر من الواقع	ريمون جبران
٣٠٤	مغامر (قصة)	حسن محمود
٣١٠	جيترا (مسرحية)	طاغور
٣٢٣	من هنا وهناك (محمود عزمي ، مؤنس طه حسين ، راجيه فهمي)	
٣٣٦	شهرية المسرح	٣٣٥
٣٤٨	من وراء البحار	٣٤١
٣٦٠	في مجالات الشرق	٣٥٢
	ظهر حديثاً	



تصدرها دار الكاتب المصري
شركة مساهمة مصرية
القاهرة

الكتاب المصيري

شركة ميثا هيمتا مصرية



اطلبوا قائمة المطبوعات التي تصدرها الدار

بإشراف الدكتور طه حسين بك

الإدارة : ه شارع قنطرة الدكة بالقاهرة

جميع الحقوق محفوظة لدار الكتاب المصري

الكاتب المصري



مارس ١٩٤٦

ربيع الثاني ١٣٦٥

مجلد ٢ — عدد ٦

المعذبون في الأرض

[إلى الذين يجدون ما لا يتفقون ، وإلى الذين
لا يجدون ما يتفقون ، يساق هذا الحديث] .

كان يسعى في ظلمة الليل القاتمة ، قد هدأ من حوله كل شيء ، وجثم على
الكون سكون رهيب مرهق . ولو قد رفع رأسه إلى السماء لرأى فيها نقطة
من النور ضئيلة منتثرة ، ولكنه لم يكن يرفع رأسه إلى السماء ، ولم يكن يطرق
رأسه إلى الأرض ، وإنما كان يمضي أمامه يمد بصره كأنما يريد أن يخترق به هذه
الحجب الكثيفة من الظلام ، بل لم يكن يلتفت عن يمين ولا عن شمال ، وإنما كان
أشبه شيء بقطعة من الجمد قد صورت في صورة إنسان ، ولو قد عدا أو أسرع
الخطو لجاز أن يشبه بسهم حي يشق هذه الظلمات المتكاثفة أمامه ، ولكنه لم
يكن يسرع الخطو وإنما كان يسعى هادئاً مطمئناً ، لا يتردد في سعيه كأنما تدفعه
إلى أمام قوة خفية رفيقة ؛ فهو يسعى سعياً مستأنياً رفيقاً ، لا يتعجل شيئاً
ولا يقف عند شيء ، وإنما يمضي إلى غايته كما يمضي الزمان إلى غايته ، في آناة ومهل
وحزم . ولو كان شاعراً أو راوية للشعر أوعلى حظ من ثقافة ، لذكر تلك الأصبع
الوردية التي تشير إلى ظلمة الليل بأن تنجلي ، أو لتصور سهماً ضئيلاً من النضة
النقية يمضي في هذه الظلمات المتكاثفة ، فتتهزم أمامه هذه الظلمات متهاككة ،
وتساقط أمامه نجوم السماء في الأفق الغربي كأنما يدعو بعضها بعضاً إلى الفرار .

ولكنه رأى نور الفجر يمد لسانه الدقيق من وراء النهر ، وسمع صوتاً قد أقبل من ورائه في الجو ضئيلاً نحيلاً ماضياً أمامه إلى الشرق ، كما نما يريد أن يلتقي بالتحية والترحيب ذلك الضوء الضئيل . ثم رأى النور يمتد طويلاً وينبسط عرضاً حتى أحس كأن الجو كله قد أخذ يمتلئ نوراً وغناء . فأما النور فكان يوقظ الأشياء وينبئها بمطلع الفجر . وأما الصوت فكان يوقظ الأحياء وينبئهم بأن الصلاة خير من النوم . ولم يذكره شيء من هذا كله بشعر ولا بنثر ولم يخرج من أعماق ذاكرته أدباً قديماً أو حديثاً ، لأنه لم يكن من هذا كله في شيء ، ولم يكن يقدر أن شيئاً من هذا كله يمكن أن يوجد أو يخطر لأحد على بال . وكل ما في الأمر أن أخاه الشيخ الضرير قد قال له ذات يوم : إنك تسعى في ظلمة الليل فتطيل السعي ، وتعتمد بك الطريق مخوفة غير آمنة ، فاحفظ هذه الآية من القرآن ورددها في قلبك أو بلسانك ، فإنها تؤمنك من خوف ، وتؤنسك من وحشة . ثم اقرأ الآية الكريمة : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب » . فكان لا يخرج من بيته الحقيير المتضائل ساعياً إلى النهر في ظلمة الليل ، إلا ترددت هذه الآية في صدره تردداً متصلاً ، فلأت ضميره أمناً وراحة وهدوءاً . فإذا أحس نبأه من قريب أو من بعيد ، تجاوزت هذه الآية الكريمة قلبه إلى لسانه واندفع بها صوته إلى الفضاء ، فأمن كل كيد وجنب كل مكروه .

وكان في تلك الليلة يمضي أمامه ، تؤنس قلبه هذه الآية التي تردد فيه . فلما رأى ما رأى ، وسمع ما سمع ، لم يخف شيئاً ، ولم يذكر شيئاً ، وإنما كف عن التلاوة ، وسأل نفسه مسرعاً : أيمضي إلى النهر أمامه ، أم يرجع إلى المسجد وراءه حتى إذا أدى الصلاة مضى إلى النهر ، فاستخرج منه ما ساقه الله إليه من رزق ؟ ولم يشك طويلاً حين ألقى على نفسه هذا السؤال ، وإنما استدار إلى المسجد فأدى صلاته لم يكلم أحداً ولم يكلمه أحد ، ثم استأنف سعيه إلى النهر هادئاً مطمئناً وحيداً ، لا يذكر شيئاً ولا يكاد يفكر في شيء ، وإنما هو قطعة جامدة قد صورت في صورة إنسان تمضي أمامها في أناة ومهل ، لا تنظر في السماء ولا تنظر في الأرض ، ولا تلتفت إلى يمين ولا إلى شمال ، ولا تحس جلال الليل المنهزم ، ولا جمال الصبح المنتصر ، وإنما خرجت من ذلك البيت الحقيير وسعت إلى ذلك النهر العظيم ، تلتمس فيه ما ساقه الله لها من رزق . فلم

يكن قاسم شاعراً ولا راوية للشعر ، ولا محباً لجلال الليل وجمال النهار ، بل لم يخطر له قط أن الليل جلالاته . وأن للنهار جمالاته ، فلم يكن قاسم إلا رجلاً جاهلاً بأئساً مريضاً ، يلتبس في النهر ما يستعين به على أن يقيم أوده ويقوت امرأته أمونة ، وابنته سكيئة ، في بيته ذلك الحقيير . ولولا أن قاسم كان يردد في صدره هذه الآية ، ويؤدي صلاة الفجر إن أدركته في طريقه إلى النهر ، ويفكر أيسر التفكير وأهونه في بيع ما يخرج له من ممك النهر ليقوت نفسه وأهله ، لولا ذلك لكان سعيه بين بيته وبين النهر شيئاً غريزياً خالصاً يشبه سعى النمل والنحل إلى أرزاقها .

وقد كان قاسم عليلاً قد نهكه المرض ، وكاد يسلب جسمه سلاً ، رهن أجل ذلك لم يكن يجده ولا يكده ، ولا يضطرب في شؤون الحياة كما يضطرب غيره من الناس ، وإنما كان ينفق أيسر الجهد ليمسك الحياة على نفسه وعلى أسرته الصغيرة . يسعى إلى النهر بين حين وحين ، فإن ساق الله إلى شبكته شيئاً من السمك باعه في غير مشقة ولا مساومة ، ثم عاد بما يغل ذلك عليه من نقد فاشترى في كثير من الفتور والسأم ما يصلح أمره وأمر زوجته وابنته ، ثم يعود بذلك كله إلى البيت فيلقيه بين يدي أمونة إلقاء ، ويسعى متخاذلاً متهاكاً إلى حصير بال رث قد ألقى في ناحية من نواحي البيت ، فيمتد عليه ضئيلاً نحيلاً يكاد السقم يفنيه إفناء . وما يزال على حصيره ذاك لا ينطق كلمة ولا يفكر في شيء حتى تهيب امرأته ما يمكن أن تهيب من الطعام فتضعه بين يديه ويصيب ثلاثتهم منه ما يصيبون . وما أكثر الليالي التي لم يكن قاسم ينهض فيها للصيد فيقعده الداء ، وتثقل عليه العلة فيستقر في مكانه مثبتاً لا يأتي حركة ولا ينطق بكلمة ، وفي نفسه ما فيها من حسرة وألم إن استطاعت نفسه أن تحس حسرة أو ألماً . وربما كلف نفسه فوق ما تطيق ، وحمل جسمه أكثر مما يحتمل ، ونهض وهو لا يقدر على النهوض ، وسعى وهو لا يقدر على السعي ، وبلغ النهر فوجده كريماً بالقياس إلى غيره من الناس ، بنحلاً بالقياس إليه ، فعاد إلى بيته مكدوداً محزوناً ، صفر اليدين ، وألقى إلى امرأته نظرة حزينة مريضة ، ومضى إلى حصيره فامتد عليه لا يقول شيئاً ولا يصنع شيئاً .

هناك كانت أمونة تخرج متباطئة ، فتلم بهذه الدار أو تلك تعين أهلها من أمرهم على بعض ما يصنعون ، وتعود حين ينتصف النهار ،

وقد حملت ما يمسك عليها وعلى زوجها وابنتها الحياة ويرد عنهم الجوع .
 في ذلك الصباح خرج قاسم من المسجد بعد أن أدى الصلاة فسعى إلى النهر
 مطمئن القلب هادئ النفس على ثغره ابتسامة ضئيلة شاحبة تريد أن تصور الراحة
 والرضا فلا تستطيع أن تصور إلاحزناً هادئاً فيه شيء من أمل يسير . وقد صادف
 النهر كريماً في ذلك اليوم ، وساق الله إليه رزقاً حسناً ، فخرجت له شبكته بسمكة
 عظيمة لم يكد يحس ثقلها ولم يكد يرى طولها وعرضها حتى اضطرب في قلبه
 فرح ضئيل ، اتسعت له الابتسامة التي كانت مرتسمة على ثغره ، وذهب عنها
 ما كان يظهر فيها من شحوب ، ولمع في عينيه الصغيرتين نور منها لك ضئيل . ثم
 أحس أنه لن يستطيع أن يحمل صيده إلى أمد بعيد ، فأقام أمامه ينظر إليه حيناً
 وإلى النهر حيناً ، ويتلفت من حوله حيناً ، ويرفع رأسه إلى السماء بالشكر حيناً ،
 وينتظر أن يمر به بعض الأصحاء من شباب المدينة فيحمل له هذا الصيد إلى بيت
 العمدة . فقد استقر في نفسه منذ رأى هذا الصيد الرائع الجميل أنه لا ينبغي أن
 يباع في السوق ، وإنما ينبغي أن يحمل إلى بيت العمدة هذا الرجل الموسر الذي
 يرفق به ويعطف عاياه ويوصيه بين حين وحين بأن يحمل إلى داره ما قد يتاح له
 من صيد حسن .

وكانت فتاة من فتيات الدار قد نهضت مع الصبح قبل أن تستيقظ الأسرة
 من نومها ، فبدأت بما تعودت أن تبدأ به مع الصباح من كل يوم ، وأخذت
 تكس فناء الدار وترده إلى هيئته التي ينبغي أن يكون عليها ، فتصفف الكرامى
 في أماكتها ، وتنفض التراب عن تلك الدكة الطويلة التي كانت تمتد في صدر
 الفناء ، وتهيئها لمجلس سيدنا حين يقبل مطلع الشمس ليقرأ السورة ويشرب
 القهوة ويتحدث إليها حديثاً يطوله حيناً ويقصره حيناً حسب ما يكون عليه من
 عجلة أو ريث . وإن الفتاة لفي ذلك وإذا بالباب يطرق طرقة خفيفة ، فاذا فتحت
 رأت قاسماً حزيناً تظهر على وجهه الشاحب آية الرضا والامل ومن وراءه غلام
 يحمل عنه عبئه . فخيا قاسم وحيا معه الغلام ، ثم دخل الرجلان صامتين ووضعما
 صيدهما العظيم على هذه الدكة في صدر الفناء . وقال قاسم في صوته الخافت
 المريض : ما أشك في أن السيدة ستسر بهذا الصيد . وهم صاحباه أن ينصرف
 ولكن الفتاة ألقت في يده شيئاً قبله راضياً وولى محبوراً . وهم قاسم أن ينصرف

ولكن الفتاة أشارت إليه أن أقم ، ثم غابت عنه لحظة وعادت إليه بقليل مما يؤكل ويقدم من القهوة فأكل وشرب ودعا . وهو في ذلك وإذا سيدنا الضرير يقبل كما تعود أن يقبل في كل صباح متكفلاً شيئاً من العنف في دفع الباب أمامه رافعاً صوته بدعاء ربه الستار ، يريد أن ينبيء الأسرة بمقدمه . حتى إذا أغلق الباب وراءه في غير رفق سعى إلى دكته في صدر الفناء ولكنه لم يكده يجلس حتى وثب مرتاعاً وجلاً ، قد ملكه دعر ضرير مثله لم يعرف كيف يظهر ولا في أي عضو من أعضائه يظهر ، فوجهه يضطرب ، وجسمه يرتعد ، ويداه تذهبان وتحيثان في الهواء ، وفمه مفتوح عن أسنان متحطمة ، وصوته يتردد في حشيرة بين جوفه وشفتيه . ويرى قاسم وتري الفتاة معه هذا المنظر ويشهدان هذا الدعر فيدفعان إلى ضحك عال متصل . ويثوب سيدنا إلى نفسه وقد أمن بعد خوف وظن أن فتیان الدار وفتياتها قد كادوا له بعض الكيد . حتى إذا علم آخر الأمر أن أحداً من أهل الدار لم يهيء له كيداً ، وإنما أخطأ قاسم فوضع هذه السمكة في غير موضعها ، وشغلت الفتاة بالصيد والصائد عن مقدم سيدنا فلم تهيب له مجلسه . تضاحك الشيخ الضرير من نفسه ومن قاسم ومن الفتاة ، ثم جلس على كرسي وأبى أن يقرأ السورة حتى يشرب قهوة قبل القراءة لا تغني عن قهوته تلك التي تعود أن يشربها متى فرغ من الترتيل . وقد شرب القهوتين ، ولكنه قال وهو ينهض للانصراف : إن حكمة الله بالغة ، لقد ضحكتماني وأضحكتاني من نفسي ، ولكن الله قد أراد بي خيراً ؛ فلن أتكلف لأهلي طعاماً منذ اليوم انبىء السيدة يا ابنتي بأن هذه السمكة قد ملأت قلبي رعباً وبأني أنتظر منها نصيبي حين يتقدم النهار ، وما أشك في أنكم ستأخذون منها ألواناً مختلفة ، وما أرضى أن ترسلوا لي لوناً واحداً وإنما يجب أن أصيب من هذه الألوان جميعاً . وانصرف الشيخ الضرير راضياً عن نفسه مستبشراً بهذا اليوم الذي يسر الله فيه رزقه حسناً دون أن يسعى إليه . والله يرزق من يشاء بغير حساب .

وقد استيقظت الأسرة كلها على دعر الشيخ الضرير وعلى تضاحك الصائد والفتاة وعلى قراءة القرآن ، فأخذت تستقبل النهار كما تعودت أن تستقبله بعمل بعضها ، ويكسل بعضها ، والصائد في مكانه لا يبرحه لعله نسي نفسه ، أو لعله يفتقر بمن صيده ، أو لعله قد أنس إلى الدار لما أكل فيها وما شرب ، وما وجد من تسلية من همه وسقمه . ومهما يكن من شيء فقد رآه صاحب الدار ، فقال له قولاً حسناً

ووضع في يده قروشاً ، وخرج الصائد راضياً مغتبطاً ، ولكنه لم يمض إلى داره وإنما استدار وذهب إلى السوق .

والقارىء يستطيع أن يلاحظ أننا قد اتينا إلى مفرق من مفارق الطرق في هذا الحديث ، فأنا أستطيع أن أذهب معه إلى السوق التي ذهب إليها قاسم الصياد . وأنا أستطيع أن أذهب إلى هذه الدور ، التي يلم بها سيدنا كل صباح ليقرأ القرآن ، ويشرب فيها القهوة ، ويجاذب أهلها أطراف الحديث ، لا يضعف صوته ، ولا يضيق جوفه بما يلقي فيه من أقذاح القهوة المرة . ثم أذهب معه إلى الكتاب الذي سينتهي إليه سيدنا حين يرتفع الضحى وتوشك الشمس أن تزول . وأنا أستطيع أن أترك قاسماً يشترى في السوق ما يشاء ، وأن أترك سيدنا يطوف بالدور وينتهي إلى الكتاب ، وأن أقيم في الدار لا أبرحها ، وإنما أتبع السمكة إلى حيث نقلت من الفناء واستقرت في مكانها من المطبخ بين القرن وهذا الصف الطويل من الكوانين التي تختلف سعة وضيقاً ، وارتفاعاً وانخفاضاً ، وأشهد إقبال النساء على هذه السمكة العظيمة ، ينظفنها ويقطفنها ويهيئنها لما يراد أن يتخذ منها من ألوان الطعام . ولكنى لن أقيم في الدار ، ولن أتبع قاسماً ، ولن أتبع سيدنا ، وإنما سأخرج من الدار وسأنحرف إلى الشمال فأسعى حيناً ، ثم أنحرف إلى الشمال مرة أخرى ، فأسعى قليلاً ، ثم أنحرف إلى يمين فأمضى أمامى خطوات ، ثم أجدى أقصى هذه الحارة الحقيمة حجرة حقيمة قد اتخذت من الطين ، لامن الحجارة ولا من الطوب الأحمر ولا من اللبن ، وإنما اتخذت من الطين الذي سوّيت قطع منه تسوية ما ، وخليط بها شيء من القش والتبن ، ورص بعضها إلى بعض ، حتى ارتفعت في الجو ارتفاعاً ما ، وأحاطت بقطعة متضائلة من الأرض ثم ألقى عليها شيء من سعف النخل فأصبح لها سقفاً ، ثم نصب في فرجتها لوح ضيق قليل الطول من خشب رقيق فأصبح لها باباً . فهذا البيت هو الذى أوتره على السوق ، وما يعرض فيها من السلع وما يدار فيها من التجارة ، وعلى الدور وما يكون فيها من حدث ، وعلى الكتاب وما يكون فيه من جد ولعب ومن سذاجة ومكر .

أوتر هذا البيت الحقيم لأنى أحب أن أجده فيه أمونة وابنتها سكينه وقد استقبلتا النهار بأستين كما استقبلتا الليل بأستين . أحسنا قاسماً وهو ينهض

متثاقلاً في جوف الليل ، ويخرج متثاقلاً يحجر قدميه ، ويغلق الباب الضئيل من وراءه ، وينغمس انغماساً رقيقاً مستأنياً في ظلمة الليل يرجو أن يبلغ النهر وأن يجد فيه رزقه ورزقهما . أحستا نهوضه في جوف الليل ، فلم تنهضاً معه ولم تقولاً له شيئاً . ولم تنهضان؟ وما عسى أن تفعلنا؟ ولم تقولان؟ وما عسى أن تقولنا؟ مضى قاسم وأقامتا واشتملتهما الليل ساكنتين نائمتين كما اشتمله يقظان ساعياً . وأسفر الصبح لهما ساكنتين نائمتين كما أسفر له ساعياً إلى الرزق . فأما هما فقد نهضتا من نومهما حين أشرقت الشمس فجلست كل واحدة منهما في مكانها واجبة لا تدري ما تصنع ولا تعرف ما تقول . وظلتا تنتظران قاسماً لعله يعود إليهما بشيء من خير . وقد جرت العادة إذا طال عليهما الانتظار أن تصيبا شيئاً من خير جافٍ تبعدان به الجوع عن نفسيهما أو تبعدان به نفسيهما عن الجوع ، وربما خرجتا من البيت فتحدثتا إلى الجارات .

وسكينة فتاة في السابعة عشرة من عمرها ، فيها دعة ولين ، وفيها سداجة تشبه الغفلة ، وعلى وجهها مسحة من جمال توشك أن تروق الناظرين ، لولا ما يبدو على الفتاة من الضر ، وفي جسمها تناسق وفي قدها اعتدال يظهران للناظر دون أن يتكلف التماسهما . فالفتاة عارية أو كالعارية ، لا تستر جسمها إلا أسنمال تتكشف هنا وهناك عن حسن أليم .

على أن وجوههما في ذلك الصباح لم يتصل إلا قليلاً . وقد قالت أمونة لا يبتها فجأة في صوت فائر منكسر : ألم تنهض وتتركي البيت بعد أن خرج أبوك إلى النهر . بساعة قصيرة ؟ قالت الفتاة : بلى قد نهضت وخرجت من البيت ، ولكنني عدت بعد لحظة . قالت أمونة : فاني قدرت ذلك وانتظرت أن تعودى بعد لحظة ، ولكن هذه اللحظة طالت واشتد طولها حتى أشفقت عليك من بعض الشر ، وحتى هممت أن أخرج في التماسك ولكنني أكرهت نفسي على البقاء مخافة أن يقطن إلينا الجيران . وما زلت أنتظرك وانتظرك حتى أسفر الصبح وإذا أنت تقبلين مترفقة وتدخلين متلصصة وتندسين في مضجعك حريصة على ألا أحس بمقدمك كما كنت حريصة على ألا أحس انسلااك من البيت . فإني أين ذهبت ؟ وماذا كنت تصنعين ؟ وقد سمعت سكينة حديث أمها مرفوعة الرأس أول الأمر ولكنها لم تلبث أن انخفض رأسها فجأة ، كأنما عجزت الأعصاب والعضلات أن تمسكه فانكب نحو الأرض انكباً . ولبثت الفتاة ضامته لا تقول شيئاً

جامدة لاتأني حركة . وقد أعادت أمها عليها المسألة مرة ومرة ، فلم تظفر منها برجع الحديث . هنالك تنمرت أمونة ، وظهر في وجهها شيء من الجدة ، لم يلبث أن استحال إلى غضب منكر عنيف . وقالت لايتها في صوت مكظوم : ستنبئيني إلى أين ذهبت وماذا كنت تصنعين ؟ ثم انحرفت بنصفها الأعلى إلى يمين وتناولت عوداً يابساً من سعف النخل كانت تصنعه في تقليب الخبز وإنضاجه ، ثم استقبلت الفتاة ملوحة بهذا العود اليابس ، وهي تقول لها في صوتها المكظوم : ستنبئيني أين ذهبت وماذا كنت تصنعين ؟

ولم تقل الفتاة شيئاً ، ولكن العود أخدق بين كتفها في عنف شديد وثبت له الفتاة كأنما دفعها إلى الوثوب لولب في الأرض ، أوجذبها إلى الوقوف سبب في السقف . على أن وقوفها لم يطل ، فقد أخذ العود يصيب من جسمها ما شاءت المصادفة الغاضبة ، وإذا الفتاة تبحثو وقد جمعت يديها إلى وجهها وهي تتلوى من الألم ، تدافع شهيقاً يريد أن ينطلق ويكاد أن ينفجر عنه حلقها . ثم يستأثر الغضب بأمونة ، فإذا هي لم تبق امرأة ، وإنما استحال إلى جنينة ثائرة ، وقد ألقت العود من يدها ووثبت في سرعة وخفة ، فكبت الفتاة على وجهها وجمعت شعر البائسة بين يديها ، وجعلت تجذب الفتاة من شعرها في غير رفق وتدفع بقدميها وجهها في غير نظام . وقد انفجر صوت الفتاة عن صيحة منكرة ، فتلقي أمونة نفسها على ابتها وتضغط بيدها على فم الفتاة وتنبيهها في صوتها المكظوم دائماً بأنه الموت إذا لم تكظم صوتها ، ولم تضبط نفسها ، ولم تنبهها في هدوء وصدق إلى أين ذهبت ، وماذا صنعت ، حين انسلت من البيت في ظلمة الليل .

وقد ضاق صدر الفتاة لثقل ما حملت من جسم أمها ، ولهذا الضغط المتصل على فمها ، فاستيقنت أو كادت تستيقن أنه الموت ، ولكنها جاهدت جهاداً عنيفاً حتى تخلصت من ثقل أمها واستوت جالسة ، وظهر في وجهها هدوء حازم عنيد ودفعت يد أمها عن فمها وقالت في صوت مكظوم كصوت أمها ولكنه ينم عن التحدي والعناد : تريدن أن تعلمي إلى أين ذهبت وماذا كنت أصنع حين انسلت من البيت في ظلمة الليل ؟ فاعلمي إذن أنني لقيت زوج عمتي غير بعيد من مزرعته ، وأقمت معه ما أقمت ثم رجعت حين كاد الصبح أن يسفر . أعلمت الآن ما كنت تجهلين ؟ أراضية أنت بما عملت !

وجئت أمونة شيئاً ثم قالت مستخزية : ومتى لقي الفتيات أزواج عماتهن في

جنح الليل ! إنك لتلقينه متى شئت في وضوح النهار . قالت الفتاة ألقاه في وضوح النهار وألقاه في ظلمة الليل ، ذلك شأنه وشأني ، وما أنت وذاك ! فانه لا يعنيك من قريب ولا بعيد . هنالك استأنف العود تمزيقه لجسم الفتاة ، ولكن الفتاة قالت لأمها في صوت تكلفت كظمه : ستكفين يدك عني أو أستغيث بالجيران ؟ قالت أمونة وقد سقط العود من يدها : الجيران ! يا للفضيحة ! يا للعار ! ثم انحنى أعلاها على أسفلها وجعلت تنتحب غير جاهرة بالنحيب . وظلت الفتاة في مكانها واجمة ساهمة كأنها قطعة من المرمر ، على أنها لم تلبث أن فرقت بين أخفائها فانهل على وجهها دمع غزير .

وفي القارئ حب للاستطلاع أقل ما يوصف به أنه يضايق الكاتب ويأخذ عليه الطريق ، ويضطره إلى الوقوف حين كان يؤثر المضي في كتابته ، أو يضطره إلى الاستطراد حين كان يفضل ألا يتجاوز الموضوع الذي يعرضه أو يقول فيه . والقارئ لا يكفيه ما أنبأته به من أن هذه الفتاة قد تغفلت أمها واتهزت غيبة أبيها وانسلت من بيتها في ظلمة الليل ، واعترفت لأمها آخر الأمر وبعد مذاقت من عذاب بأنها خرجت لغى لا لرشد ، وبأن قد كان بينها وبين زوج عمته إثم بغيض . القارئ لا يكتفي بهذا ، وإنما يحب أن يعرف كيف نشأت هذه الصلة المنكرة بين فتاة في السابعة عشرة من عمرها ، ورجل قد جاوز الشباب ، وهو زوج عمته . ولولا أني أرفق بالقارئ ولا أحب أن أشق عليه ولا أن أردّه خائباً حين يحب الاستطلاع ، لمضيت في الحديث كما بدأت ، ولأبيت الانحراف إلى نشأة هذه الصلة البغيضة لأن الحديث عنها بغيض . ولكن لا بد مما ليس منه بد ، فمن حق الكاتب أن يذهب ما شاء من المذاهب في كتابته ، ولكن من حق القارئ أيضاً أن يفهم في وضوح وجلاء ما يقدم إليه الكتاب من المقالات والفصول . وقد عرف القارئ أن قد كان لقاسم أخ شيخ ضرير أقرأه آية كريمة من القرآن تؤمنه من خوف وتؤنسه من وحشة ، فقد ينبغي أن يعرف القارئ الآن أن قد كانت لقاسم أخت فاتنة لعوب ، خلبت عقول كثير من الشباب حين واناها الحظ ، وابتسمت لها الدنيا ، واستقامت لها الأمور ، ثم تولت عنها الدنيا كما تتولى عن كثير من الناس ، وأصاب حسنها ذبول ، وألم بجهاها ذواء حين دخلت في الكهولة ودنت من الشيخوخة . وقد كانت خليقة أن تضطر إلى بؤس كبؤس أخيها الصياد أو أخيها الضرير لولا أنها صادفت الحاج محمود وكان

رجلا يقيم في طرف من أطراف المدينة ، فيه بقية من قوة وفضل من شباب ويملك قراريط من الأرض يستغلها في استنبات البقول . وقد لعبت الأيام بالحاج محمود كما لعبت بتلك المرأة ، ثم أحس حاجة إلى شيء من الاستقامة ، فاصطنع الهدوء وتكلف التقوى وحافظ على الصلوات ، ثم سعى إلى الحج وعاد وعليه زى من وقار ومسحة من تقاء ، فاتخذ هذه المرأة له زوجاً واستقر في حياة مطمئنة لا يظهر أحد منها على بأس . وكان غريزته كانت أقوى من إرادته ، وكان ميله إلى اللهو كان أقوى من طموحه إلى التقوى ، وكان دنو امرأته من الشيخوخة أو دنو الشيخوخة من امرأته قد حول نفسه عن القناعة والرضا إلى المجانة والطمع ، فكان يمشى في المدينة زائغ الطرف ، يدير عينه يميناً وشمالاً ، ويقصر بصره إلى هنا ويمد بصره إلى هناك ، وكان كل شيء في قلب وجهه واضطراب بصره يدل على أن في نفسه طموحاً إلى الشر ونزوعاً إلى ما لا يستحب من الأمر . وكان قاسياً على أخى امرأته يرمقه في ازدراء ويتحدث عنه في استخفاف ، ولا يمد إليه يداً بالمعونة ولا يظهر إشفاقاً عليه مما كان يهظه من الفقر والبؤس والداء . ولكنه رأى ابنة هذا الرجل فتاة كاعباً تستقبل الحياة في قوة وجمال وفي بؤس وشقاء أيضاً ، فلم يرق لبؤسها ولم يرحم شقاءها ، وإنما اشتهى جمالها وطمع في محاسنها ، وابتغى إليها الوسائل . وما أكثر وسائل الإغراء للذين يهظهم الشقاء ! وقد رأى هذه الفتاة الجميلة البائسة تنظر ذات يوم نظرة فيها كثير جداً من الأمل إلى رجل من هؤلاء الباعة الذين كانوا يطوفون في المدن والقرى يحملون هذه السخافات التي تطمح إليها نفوس البائسين من أهل المدن والقرى : يحملون حقيبة فيها هذا الصمغ الذي يوضع في الأفواه ويسميه أهل القرى « لباناً » ، ويسميه المترفون من أهل المدن « لادناً » . ويحملون حقيبة أخرى فيها صنوف من الخرز وضروب من الخواتم والأساور قد اتخذت من المعدن الرخيص . ونساء الريف يكلفن بهذه السخافات ، يتخذن من الخرز عقوداً ، ويزين أيديهن ومرافقهن بهذه الخواتم والأساور ، ويتجملن بمضغ اللبان يدرنه في أفواههن ويحدثن في مضغه بين حين وحين صوتاً يفتن به الرجال المكتملين والشباب الناشئين . وقد رأى الحاج محمود تلك الفتاة البائسة ذات الجمال البارع وقد تعلققت نفسها بشيء من هذه السخافات بين يدي رجل من هؤلاء الباعة ، قد أطاف به النساء والفتيات من أهل المدينة يأخذن منه شغفه الرخيص ويدفعن إليه نقدهن القليل .

وسكينة تنظر وتشتهى ولكنها لا تستطيع أن تأخذ شيئاً ؛ لأنها لا تستطيع أن تدفع شيئاً . فرق الحاج محمود لهذه الفتاة أو مال قلبه إلى هذه الفتاة ، فاشترى من سقط المتاع هذا شيئاً قليلاً أدى له ثمننا ضئيلاً وملاً قلب الفتاة به فرحاً وأفعم به نفسها سروراً ، وأفاض على وجهها بهجة زادت حسنًا إلى حسن وروعة إلى روعة . ومنذ ذلك اليوم وقع في قلب الحاج محمود لهذه الفتاة الغافلة حب أثيم . ومنذ ذلك اليوم جعل الحاج محمود يسعى بالخير بين حين وحين إلى هذه الأسرة البائسة : بدأ بالحديث الرفيق ، وثنى بالمعونة اليسيرة ، واختص الفتاة بعطف كاد يتصل لولا أن الحاج محمود كان محتاط ويتحفظ ويخشى الريبة . وكان قاسم وامراته يتلقيان هذا الود الجديد في تردد بين ما يحمل إليهما من خير وما يثير في نفسيهما من بعض الشك ، ولكن الحاجة كانت أقوى من الحيطة . والشئ الذي ليس فيه شك هو أن الفتاة قد اطمأنت إلى هذا الرجل ووثقت به ، وتعلقت نفسها بما كان يطرفها به بين حين وحين من هذه الطيبات المتواضعة . فأكثرت التردد على دار عمته ، ثم اتصلت المودة بينها وبين هذا الرجل الذي كانت تسميه عمها .

وهنا يحتاج القارئ فيما أظن إلى أن أمضى به في هذا الحديث البغيض إلى غاية ؛ فهو يستطيع أن يبلغها وحده ، وأحسبه قد أطل الانتظار لقاسم هذا الذي ذهب إلى السوق وفي يده أو في جيبه قروش العمدة . فلينظر إليه إن شاء عائداً من السوق قد امتلأت يداه بالخير وظهر على وجهه الشاحب حبور كئيب ، وأقبل يسعى إلى بيته الحقيق متباطئاً كثير الخطو ، وفي نفسه شئ من رضا ؛ فسيطعم امرأته وابنته ما لم تعودا أن تصيبا منه إلا نادراً حين يكرم النهر أو حين يتصدق الموسرون . ومهما يبلغ الفقر بالناس ، ومهما يثقل عليهم البؤس ، ومهما يسئ إليهم الضيق ، فإن في فطرتهم شيئاً من كرامة تحملهم على أن يجدوا حين يأكلون مما كسبت أيديهم لذة لا يجدونها حين يأكلون مما يساق إليهم دون أن يكسبوه أو يمتثلوا فيه . فقد كان قاسم في تلك الساعة يشعر بشئ من هذه الكرامة ، ويريد أن يعتد بنفسه ، لولا أنه كان أشد بؤساً وتضاؤلاً وإذعاناً للعة من هذا الاعتداد . وهو على ذلك كان يسعى متباطئاً كثير الخطو ، ولم يكن يسوءه أن يلحظه الجيران كلما دنا من بيته ، وأن يروا ما يحمل من طيبات السوق ، وأن يقولوا في أنفسهم : لقد حسن صيد قاسم منذ اليوم ، وسينعم مع

امراته وابنته بطعام لذيذ . يقول بعضهم ذلك لنفسه مع كثير من الرفق والإشفاق ، ويقول بعضهم ذلك لنفسه مع كثير من الحسد والغيظ . ويرى قاسم هذا كله في لحظ العيون واضطراب الوجوه . ويكاد قاسم يجد في نفسه الرضا عن رفق الرفيق وحسد الحسود . ولكنه يبلغ البيت ويدفع الباب الدقيق الضئيل ويخطو وقد جعل الدم يصعد إلى وجهه ، وجعلت عيناه تبرقان وشفته تنفرجان ، وهم صوت الخافت أن يصبح أهله بالخير ، وهمت يدها المتهاكتان أن تضعا بين يدي زوجها ما حمل إليها من طعام ، وهم أن يداعبها في بعض الحزن . ولكنه يخطو وينظر ، فإذا امرأة تساقط دموعها غداراً وهي جامدة هامة ، وإذا فتاة تنتحب ، وتدافع شهيقاً لا تحب أن يسمع . وإذا قاسم واجم أول الأمر ، ثم سائل بعد ذلك ، ثم مكرر للمسألة ، وإذا امرأته ترد عليه في صوت مختنق متقطع بكلمات تقع من قلبه البائس موقع الجمر ، وإذا يدها تسترخيان ، وإذا هذا الخير الذي كان يحمله حفا به ، حريصاً عليه ، يسقط إلى الأرض في غير نظام ، وإذا عيناه تنطفئان ، وإذا شفته تلتقيان ثم تمتدان ، وإذا هو يسعى إلى حصيره ذاك البالي فيجلس عليه متهاكاً ، ثم يمتد وقد نهكه ما أصاب جسمه النحيل وقلبه العليل الضئيل من جهد ، وإذا امرأته تسمع صوتاً خافتاً يأتي من بعيد ، من بعيد جداً ، وهو يقول : لو رزقنا الله مكانها غلاماً لم تتعرض لهذا الحزى ، ثم يعيد : لهذا الحزى . ثم ينقطع الصوت حيناً ثم يعود أشد خفوتاً ، وأعظم بعداً ، وهو يقول : ما ينبغي للفقراء أن يلدوا البنات . ثم ينقطع صوته فلا تسمعه امرأته سائر النهار ليس نائماً وليس يقظان ، وإنما هو شيء بين ذلك . وقد هممت حين تقدم النهار أن تنظر إلى هذا الطعام وتحاول تهيبته ، ولكنها تنظر إليه ثم تعرض عنه ، وتظل في مكانها هامة جامدة ، تنهل دموعها حين تجود عيناها بالدموع ، وتنقطع دموعها حين تجمد عيناها عن البكاء . والفتاة ملقاة في مكانها لا هي بالحية ولا بالميتة ، وإنما تأخذها رعدة بين حين وحين ثم يشتمل عليها الحمول والجمود . ولم ير الجيران في ذلك اليوم أمونة تخرج لالتماس الحطب ، ولم ير الجيران في ذلك اليوم دخاناً يخرج من ذلك البيت ، ولم يشم الجيران في ذلك اليوم رائحة الطعام الذي تنضجه النار ، وقد كانوا مع ذلك يتوقعون هذا كله حين رأوا قاسماً يروح إلى داره وقد امتلأت يده بالخير .

وسعت الشمس إلى مغربها متباطئة ، وأقبلت ظلمة الليل فنشرت أرديتها السود على كل شيء ، وجثم الليل على المدينة ثقيلًا مرهقًا ، فاضطر الناس إلى مضاجعهم وفرض الهدوء والصمت على كل شيء ، وانتثرت في السماء نقط ضئيلة من النور ، ونهض من فراش قاسم شخص ضئيل يوشك أن يكون شبحًا ، فأنسل من البيت لم يلتفت إلى أحد ولم يلتفت إليه أحد ، وغمس نفسه في ظلمة الليل وجعل يمضي فيها متباطئًا وإن أراد الإسراع ، متثاقلاً وإن كان في نفسه خفيفًا . مضى أمامه لا يرفع رأسه إلى السماء ، ولا يلتفت إلى يمين ولا إلى شمال ، قد نفذت ظلمة الليل إلى نفسه فأصبح ضميره فحمة قائمة ليس لها حظ من صفاء ، وقد نفذ سكون الليل إلى قلبه فلم يتردد فيه صدى ، ولم تخطر له الآية الكريمة : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب » ، ولم يشعر في الوقت نفسه بشيء من خوف لأنه قد استحال كله خوفاً .

وقد تجاوز المسجد في طريقه إلى النهر ، وأقبل أمامه من الشرق ضوء الفجر ضئيلاً يمتد طويلاً وينبسط عرضاً ، وأقبل وراءه من المسجد صوت المؤذن ضئيلاً يمتد طويلاً وينبسط عرضاً ، وامتلاً الجو من حوله ضياء يوقظ الأشياء وغناء يوقظ الأحياء ويدعو الناس إلى الصلاة . ولكن قاسم لم يرضياء ولم يسمع غناء ، قد أظلمت عيناه وسدت أذناه ، ومضى أمامه كأنه السهم الكليل الفاتر تدفعه قوة كلية فاترة ، وجعل يمضي أمامه ويمضي مترقياً ، حتى أحس أنه يخطو في فراغ ، ثم أحس برداً يأخذه من جميع أقطاره ، ثم لم يحس شيئاً ، ولم يحسه شيء ، وإنما مضى إلى الغيب كما تمضي في كل لحظة أشياء كثيرة إلى الغيب . وما من شك في أن الشمس قد أشرقت بعد ذلك بنور رهبا ، وفي أن المدينة امتلأت حياة ونشاطاً ، وفي أن الناس اضطربوا في أعمالهم بما يضطرب في قلوبهم من نزعات الخير والشر ، وفي أن أمونة وابنتها قد انتظرتا أن يعود إليهما قاسم كما تعودتا أن تنتظرا كلما سعى إلى النهر من آخر الليل . ولكنهما أطالتا الانتظار ، ولم تظفرا منه بشيء .

وقد يحب القارئ أن يعرف كيف عبث بهما الأمل ، وكيف بطش بهما اليأس ، وكيف لعبت بهما صروف الأيام . ولكن القارئ ليس في حاجة إلى أن أقص عليه هذه الخطوب ، فأيسر شيء عليه أن ينظر إلى هذه الحياة الصاخبة من حوله فسيري فيها « أمونات » و « سكينات » كثيرات لا يحصين بالمثلث

ولا بالآلوف ، وإنما يحصين بمئات الآلوف وقد يحصين بالملايين ، تطلع الشمس عليهم في كل يوم مشرقة بنور ربها ، ولكنها لا تحمل إليهم رضا ولا غبطة ولا أملا في الرضا أو الغبطة ، ويقبل الليل عليهم مظلماً قائم الظلمة يزدان بهذا القمر في أطواره المختلفة ، ويزدان بنقط النور هذه التي تنتثر في السماء ولكنه لا يحمل إليهم راحة ، ولا أملا في الراحة وإنما يدفعهم إلى نوم ثقيل بغيض كربه يشقن فيه بأحلام بغيضة تصور ما يشقن به في النهار من حياة بغيضة لا تحفل الشمس بهم حين تطلع ولا يحفل الليل بهم حين يقبل . ومتى حفل الليل والنهار بيؤس البائسين ونعيم الناعمين ! ولكن الغريب أن الأحياء من الناس الذين أتيحت لهم قلوب تشعر ، وعقول تفكر ، ونفوس تميز بين الخير والشر ، ونعيم كان خليقاً أن يلفتهم إلى جحيم البؤس ، هؤلاء الناس يمضون حياتهم كما يمضي الليل والنهار إلى غايتهما ، لا يحفلون بأمانة ولا بسكينة ولا بقاسم ، شغلهم أنفسهم عن كل شيء وعن كل إنسان .

طه حسين

الاتداب والوصاية والاستعمار

لعل الحركة الاستعمارية الحديثة ، التي أثرت في النظام السياسي للعالم الذي نعيش فيه اليوم ، أبلغ التأثير ، هي أحق الظواهر السياسية بأن ننعم النظر فيها ، وأن ندرسها دراسة عميقة . فليس في ميدان السياسة العالمية اليوم حقيقة أظهر أو أبرز من ظاهرة الاستعمار ، التي باتت من نتائجها أن قسمت الأرض إلى ثلاثة أقسام : بلاد مالكة ، وبلاد مملوكة ، وبلاد « مستقلة » ليست بمالكة ولا مملوكة . وربما أضيف إليها نوع رابع ، ليس بمالك ولا مملوك ولكنه في حالة وسط . وهو على الأرجح من الأمثلة القليلة التي يمكن أن يقال فيها : « شر الأمور الوسط » .

معنى الاستعمار

وجدير بنا — ونحن في سبيل دراسة هذه الظاهرة دراسة دقيقة — أن نبدأ بتعريفها ، وتحديد معناها . ولقد يخطر لأحدنا أن يبدأ دراسته لمعنى الاستعمار بمراجعة المعاجم أو كتب اللغة أو دوائر المعارف . ولكن الباحث في هذه الأسفار لن يثوب حتى يخفى حنين . فإن في لسان العرب مثلاً عشر صفحات في مادة « عمر » ، ولم يرد فيها حتى كلمة الاستعمار . ودائرة المعارف البريطانية خالية من مادة إمبريالزم ، كعادة مستقلة ومن أية مادة أخرى في هذا المعنى . وقد اشتقت الكلمة العربية في شيء من التفاؤل من مادة « العمر » و « العمران » . ولم يدر بخلد الواضعين لهذه الكلمة أن سيجر هذا العمران المزعوم إلى شر أنواع التخريب والتدمير .

وبديهي أن من العبث أن نرجع إلى أسفار اللغة في تعريف معنى الاستعمار ؛ لأن هذا لفظ اصطلاحى بحث ، وإن لم يكن من الألفاظ التي أصبح معناها مقرراً محددًا لدى جميع الكتاب . وقد استخدم هذا اللفظ بعض الكتاب في

معنى مختلف عما أراده الآخر . وعلى سبيل المثال أسوق هنا مثلاً مقتبساً من أحد الكتاب المتعصبين للاستعمار والمستعمرين . ولا بد لي أن أورد هنا النص باللغة الأصلية — لفائدة الذين يعرفون الانجليزية من القراء — قبل أن أحاول ترجمته للعربية :

« Imperialism is Nationalism transfigured by a light from the aspirations of universal humanity ». (١)

ومن الممكن أن نحاول ترجمته إلى العربية فيما يلي :

« الحركة الاستعمارية هي الحركة الوطنية تحولت صورتها بتأثير ضياء من آماني البشرية العالمية ... »

وعلى الرغم من أن هذه العبارة ليست واضحة المعنى تماماً ، فإن من الممكن أن يستخلص منها القارئ بعض المعاني التي تدور بخلد فلاسفة الاستعمار ، الذين أخذوا على عاتقهم تفسير مظاهره وتبرير سياسته أمام الناس .

وإذا أراد القارئ أن يطالع إشارة أخرى إلى الاستعمار من كاتب فرنسي لبق وشيق فاني أسوق إليه العبارة الآتية المقتبسة من كتاب منتسكيو المشهور « روح القوانين » :

« Si j'avais à soutenir le droit que nous avons eu de rendre les nègres esclaves, voici ce que je dirais:

Les peuples d'Europe ayant exterminé ceux de l'Amérique, ils ont dû mettre en esclavage ceux de l'Afrique, pour s'en servir à défricher tant de terres.

...Ceux dont il s'agit sont noirs depuis les pieds jusqu'à la tête; et ils ont le nez si écrasé qu'il est presque impossible de les plaindre.

On ne peut se mettre dans l'idée que Dieu, qui est un être très sage, ait mis une âme, surtout une âme bonne, dans un corps tout noir ».

De l'Esprit des Lois, Livre XV, Chap. V.

(١) ص ١٣ من كتاب الأستاذ كرامب Cramb ، وعنوانه :

Origin and Destiny of Imperial Britain.

« إذا طلب مني أن أدافع عن حقنا المكتسب لامتخاذ الزنوج عبيداً ، فأني أقول : إن شعوب أوربا ، بعد أن أفنت سكان أمريكا الأصليين ، لم تردداً من أن تستعبد شعوب إفريقية لكي تستخدمها في استغلال كل هذه الأقطار القسيحة . والشعوب المذكورة ما هي إلا جماعات سوداء البشرية من أخمص القدم إلى قمة الرأس . وأتقها أقطس فطساً شنيعاً ، بحيث يكاد أن يكون من المستحيل أن نرثي لها . ولا يمكن للمرء أن يتصور أن الله سبحانه وتعالى ، وهو ذو الحكمة السامية ، قد وضع روحاً — وعلى الأخص روحاً طيبة — في داخل جسم حالك للسواد ... »

وفي وسعنا أن نذكر أمثلة أخرى لتعريف الاستعمار . ولكن القارئ سيجد هذه الأمثلة مختلفة اختلاف نزعات الكتاب ، وميلهم إلى تمجيده وتمظيمه ، أو للسخرية منه . وهي لذلك قليلة الفائدة من الوجهة العلمية الخالصة . ومن المفيد ألا نمر بعبارة منتسكين هذه دون أن نشير إلى أنها ليست مبنية على مجرد السخرية . فإن الإشارة إلى أن الشعوب السوداء أو الحمراء لأرواح لها قد كانت مظهرآ من مظاهر الاستعمار الأوربي الحديث في أوائل عهده . ورجال الدين أنفسهم لم يتورعوا عن مثل هذه النزعات . وقد كان قادة الدين في مراحل الاستعمار الأولى بأمريكا الشمالية ، يشيرون إلى الهنود الحمر بأنهم من سلالة الشيطان . وكانوا يأمررون بالقضاء عليهم بمختلف الوسائل . وكان من هذه الوسائل أن تنشر بينهم الأمراض الجديدة التي ليس للأمريكيين الأصليين تلك المنعة منها التي اكتسبتها شعوب العالم القديم . ومن أهمها مرض الحصباء ، فكانوا يوصون بأن يمسح الهنود الأمريكيون من الاستيلاء على الأغشية (البطاطين) التي كان يتغطى بها المرضى المصابون بالحصباء . وكانوا يرون أن هذا الإجراء مما يتفق تماماً مع الدين .

وصفوة القول أننا في حاجة لأن نعرف لفظ الاستعمار تعريفاً سهلاً واضحاً ، تيسيراً لدراستنا هذه ؛ فالاستعمار المقصود هنا هو العمل — أو مجموعة الأعمال — التي من شأنها السيطرة أو بسط النفوذ بواسطة دولة — أو جماعة منظمة من الناس — على مساحة من الأرض لم تكن تابعة لهم ، أو على سكان تلك الأرض ، أو على الأرض والسكان في آن واحد . وهذا التعريف كاف — فيما يخص لي —

لأن يشمل جميع أنواع الاستعمار ، قديمه وحديثه . وهو تعريف طويل ، ولكن ليس من السهل أن تأتي بتعريف واضح وموجز لظاهرة بعيدة عن البساطة والسهولة . . ولا بد لنا ، لكي نظهر ما اشتمل عليه هذا التعريف من المعاني ، أن نتبعه ببعض ملاحظات تفهيمه وتبرز منه بعض النواحي التي لا تبدو واضحة لأول وهلة وضوحاً كافياً . .

١ — فالأعمال المشار إليها قد يكون منها استخدام القوة الحربية ، وهذا هو ما يحدث غالباً . وقد تحدث السيطرة على أرض بشرائها ، كما اشترت الولايات المتحدة ألسكا من روسيا ، أو تحدث بمزيج من استخدام القوة والشراء ، كما اشترت جزر الفلبين من أسبانيا . أو قد تحدث السيطرة برضا الدولة المختصة ، كما حصلت بريطانيا على جزيرة قبرص من الدولة العثمانية ، في مقابل خدمات خاصة .

٢ — وعبارة السيطرة أو بسط النفوذ ، تفيد أنه ليس من الضروري أن يكون الاستعمار سافراً بحيث تتسلط الدولة على جميع مرافق البلاد ، بل يكفي أن يكون لها نفوذ سياسي ، تنفرد به دون سائر الدول ، وتقيده بحرية البلاد التي يسيطر عليها ذلك النفوذ . وعلى سبيل المثال نذكر أن إيطاليا كان لها نفوذ سياسي على ألبانيا لغاية شهر أبريل سنة ١٩٣٩ ثم تسلمت عليها بعد ذلك تسليطاً تاماً ، فانتقلت الحال من استعمار خفيف إلى استعمار ثقيل .

٣ — والنص على الدولة أو جماعة منظمة من الناس ، أريد به أن يشمل الاستعمار تلك الشركات التي تألفت في العصور الحديثة ، مثل شركة الهند الشرقية ، وشركة إفريقية الشرقية ، وقامت بأعمال استعمارية عنيفة وتسلطت على مرافق البلاد الأجنبية دون أن يكون للدولة شأن في ذلك سوى الإذن بتأليف الشركة .

٤ — والإشارة إلى أن التسلط قد يقع على الأرض فقط ، فهذا هو ما يحدث في بلاد خالية من السكان ، أو في حكم الخالية من السكان ، والمستعمرات اليونانية القديمة خير مثال لهذا النوع . ومن الأمثلة الحديثة استيلاء البريطانيين على جزيرة سانت هيلانة مثلاً . وربما أمكننا بشيء من التجاوز أن نعد استيلاء الأوربيين على أمريكا الشمالية من هذا النوع ، على الرغم من وجود عدد قليل من السكان الأصليين .

أما أن السيطرة قد تقع على السكان دون الأرض ، فذلك يكون بترك الأرض ومراقبتها لسكانها الأصليين ، فلا تفتصب منهم ولا يكلفون الجلاء عنها . ولايضاح هذه الناحية نذكر مثالا وهو شرق إفريقية (مستعمرة كينيا مثلا) حيث يتسلط المستعمرون على الأرض والسكان . وأما غرب إفريقية ، فقد سمح للسكان الأصليين بالاحتفاظ بأرضهم . والسبب في ذلك أن أرض شرق إفريقية المرتفعة تصلح لسكنى الأوربيين ، وأرض إفريقية الغربية منخفضة شديدة الحرارة لا تلائم سكنى المستعمرين .

٥ — وقد يبدو للقارئ أن يتساءل : هل يدخل في هذا التعريف النفوذ الاقتصادي أو الثقافي ؟ وهل من الاستعمار مثلا أن تنشئ دولة أو رعاياها المعاهد العلمية ، أو أن ينشئوا شركات اقتصادية ؟ وهذا أمر قد يختلف فيه الآراء . وقد تبلغ النعرة الوطنية ببعض الناس حد التطرف ، فيتوهمون أن قيام بلجيكا مثلا بإنشاء شركة التزام أو شركة هليوبوليس ، أو دخول رأس المال الأجنبي في أية صورة من الصور ، هو ضرب من الاستعمار ، حتى لو أدى إلى استخدام آلاف من الأيدي العاملة الوطنية . والصواب في هذا وفي أمثاله أن المشروعات الثقافية والاقتصادية ليست من الاستعمار في شيء ، ما لم تكن سبباً أو نتيجة لنفوذ سياسي . وقد استخدم رأس المال الأجنبي في إنشاء السكك الحديدية في الولايات المتحدة وفي غيرها من الأقطار الأمريكية ، ومع ذلك لم يترتب عليه أي نفوذ سياسي ، كما أنه لم يكن نتيجة لأي تسلط سياسي أجنبي . وفرنسا كثيراً ما تنشئ المعاهد الثقافية في بعض البلاد الأمريكية دون أن يكون لهذا أي مظهر من مظاهر الاستعمار . أما إذا أرادت فرنسا أن تجعل من وجود بعثات علمية أو دينية ذريعة تتذرع بها لبسط سلطانها السياسي في قطر من الأقطار ، أو لاحتلاله احتلالاً عسكرياً ، فهذا بالطبع عمل استعماري ، ومثله كمثل الخير الذي يراد به شر . فالبعثات العلمية والمشروعات الاقتصادية ليست في ذاتها عملاً استعماريّاً ، ولكن التدخل في شؤون القطر والتسلط على حكومته ، هو العمل الاستعماري . ومن الواجب أن نفرق بين ظاهرة الاستعمار ، وبين الذرائع التي تتذرع بها للقيام بعمل استعماري . وسيرى القارئ فيما يلي أن دول الاستعمار لن تعوزها الذرائع ، للقيام بأعمالها الاستعمارية . بل إنها كثيراً ما تخلق هذه الذرائع وتوجدتها من العدم .

الاستعمار القديم والحديث

من الواضح أن الاستعمار في حدود التعريف الذي شرحناه ، ليس بالشئ الجديد . وسواء أكان الغرض من الاستعمار احتلال أقطار جديدة خالية أو شبه خالية من السكان ، أو كان الغرض منه توسيع رقعة الدولة بالاستيلاء على أقطار حاضرة بالسكان ، فاننا نجد أمثلة لهذين النوعين في العهود البشرية القديمة . فقد أسس الفونيقيون مستعمرات مختلفة في البحر الأبيض المتوسط ، وأنشأ اليونان مستعمرات عدة في سواحل الأناضول والبحر الأسود ومضيق البسفور ، وفي صقلية وعلى سواحل فرنسا وأسبانيا . وهي تشبه في كثير من الوجوه استعمار البريطانيين لأمريكا الشمالية : الولايات المتحدة وكندا وأستراليا ونيوزيلندا الجديدة .

وقد شهد العالم القديم إنشاء دول ضخمة مثل إمبراطورية بابل وإيران وآشور ، ومثل الدولة الرومانية العظيمة . وفي العصور الوسطى قامت الدولة العربية واتسعت رفعتها حتى شملت شطراً كبيراً من العالم القديم . كما أنشأ المغول دولا عدة في شرق آسيا وغربها ، بل لقد بلغ نفوذهم قلب القارة الأوروبية نفسها .

وهناك فروق جوهرية بين ضروب الاستعمار القديم والحديث . وسترى فيما يلي أن الطراز القديم ليس مقصوراً على العصور التاريخية القديمة والوسطى ، بل إن هذا الطراز ينطبق أيضاً في العصور الحديثة على الدولة الضخمة القصيرة العمر التي أسسها نابليون بونابرت . وسنحاول فيما يلي إظهار تلك الفروق الأساسية بين الطرازين القديم والحديث .

١ — لم يكن الاستعمار في العهود القديمة عملاً تقوم به الدول ذات الحضارة المتقدمة وحدها ، بل كثيراً ما كان المستعمرون قبائل أو جماعات أقرب إلى الوحشية ، ولكن لهم من القوة الجريية والنظام ما مكنهم من السيطرة على أقاليم سكانها ذوو حضارة ممتازة . أما الدول الاستعمارية اليوم فإنها بوجه عام دول قد ضربت في الحضارة بسهم ، وقد وجهت أعمالها الاستعمارية نحو بلاد في حالة ضعف سياسي ، أو تأخر اقتصادي وثقافي . وليس في العالم اليوم شعوب

وحشية ينحشى من غاراتها الاستعمارية كما حدث من إغارات المغول على دولة الصين والدولة الرومانية ، وعلى الدولة العربية . والعدوان الاستعماري اليوم مقصور على الأقطار المتمدنة ، التي بلغت الشأو الأعلى في التطور السياسي والمالي والحربي .

٢ — إن التوسع الاستعماري الحديث قد شمل العالم كله ، ولم تعد المسافات الشاسعة ، ولا المحيطات الواسعة عائقاً يحول دون امتداد مغالب الاستعمار إلى قلب القارات ، وإلى الأقطار الواقعة وراء البحار . ولم يبق ركن من سطح الأرض في مأمن من أن تناله يد الاستعمار . والفضل في هذا يرجع إلى الكشف عن جميع الأقطار المجهولة ، وإلى سهولة الانتقال وسرعته بواسطة المخترعات الحديثة .

٣ — هذا وقد ترتب على هذا التوسع في الميدان الاستعماري ، أن أصبحت الدول الحديثة عبارة عن أقطار مبعثرة في أركان الأرض ، لا كتلة مندمجة ، كما كانت الدول القديمة ؛ فأصبحنا نرى أن دولة مثل البرتغال تسيطر على مساحات واسعة في إفريقية الشرقية والغربية ، وعلى مساحات أقل منها في الهند وفي جزر الهند الشرقية . ومثل هذا يقال عن هولندية ، التي تسيطر على مساحات عظيمة في آسيا وأمريكا . وهذه الظاهرة أكثر وضوحاً بالطبع في الدول الاستعمارية الكبرى مثل بريطانيا وفرنسا .

أما الإمبراطوريات القديمة فكانت تسيطر على مساحة كبيرة من سطح الأرض ، ولكنها تشتمل على أجزاء متجاورة متلاصقة . والدولة الرومانية نفسها ، على الرغم من اشتغالها على أقاليم موزعة في ثلاث قارات ، فإنها كانت كلها مركزة حول البحر الأبيض المتوسط . والدولة الوحيدة في عصرنا هذا التي تشبه الإمبراطوريات القديمة هي الدولة الروسية ، التي كان انتشارها دائماً بواسطة التوسع البري .

٤ — ويلحق بهذه الظاهرة — تقارب وتجاور الأقطار — أن العناصر الجنسية التي كانت تتألف منها الدول القديمة كانت أكثر تجانساً وتشابهاً . ولذلك أمكن على مدى الزمن أن يحدث بينها نوع من الاتحاد والاندماج . فالدولة الرومانية على الرغم من اشتغالها على عناصر من الأسبان والبول (أجداد الفرنسيين) واليونان والعرب والبربر ، فإنها كانت أكثر انسجاماً في تكوينها

من أية دولة استعمارية نعرفها اليوم . وهذه الشعوب كلها في نظر علم الاجناس تنتمي إلى سلالات بشرية ليس بينها اختلاف كبير . أما الإمبراطورية الحديثة فانها تشتمل على جميع الاجناس والألوان في جميع مراتب الحضارة المختلفة .

هـ — ولعل أهم الفروق بين الاستعمار القديم والحديث ، هو أن التوسع القديم كان من عمل الحاكم الأعلى للدولة ، سواء أكان ملكاً أم سلطاناً أم عاهلاً أم قيصرأ . وذلك من أجل زيادة مملكته ورعيته وتوسيع نطاق دولته ، فيعلو بذلك شأنه وشأن أسرته ، وشأن الطبقة الحاكمة التي تؤازره وتؤيده .

وكانت الشعوب التي تدخل تحت حكم العاهل الجديد تنضم بهذه الطريقة إلى مجموعة شعوب الإمبراطورية ، وتشاظرها حظها من الشقاء أو السعادة والنظام أو الفوضى ؛ فتغيبط إذا كان الحكم صالحاً ، وتتألم من مفسده وشروره . ولم تكن هنالك تلك الروح القومية التي تجعل الناس يحسون أنهم تابعون لسلطان أجنبي .

فالدولة الرومانية أسستها روما . ولكنها لم تلبث أن اشترك في أعمالها شعوب كثيرة غير سكان روما وإيطاليا . ولقد تولى حكم الدولة الرومانية قياصرة من أصل أسباني في بعض العهود ، دون أن يبدو للناس أن في هذا إجراء شذوذاً . وكذلك الدولة العربية قد بسطت سلطانها على المشرق والمغرب . فكان للعرب في بداية عهدها بعض المزايا على سائر الشعوب ، ولكن لم تلبث سائر العناصر أن اشتركت في الحكم ، وفي نشر الثقافة العربية ، وفي جميع نواحي النشاط المختلفة .

أما الاستعمار الحديث فانه ليس من صنع ملك يريد أن يستكثر من الرعية ، بل الاستعمار اليوم من عمل الشعوب نفسها . فصاحب الشأن هو الشعب البريطاني أو الشعب الفرنسي أو الشعب الهولندي ؛ ولذلك كثيراً ما نسمع الواحد من أبناء تلك الشعوب يتحدث عن مستعمراته وممتلكاته في شيء من الزهو والخيلاء . ومن الظاهرات الغريبة في الاستعمار الحديث أنه ليس من الضروري أن تقوم به الدولة بنفسها ، بل كثيراً ما تولى الأفراد — في صورة شركة — جميع أعمال الاستعمار ، كما ذكرنا من قبل ؛ فهم يعدون البعثات العسكرية والسفن والأسلحة اللازمة . ومع أن الغرض الاسمي لتأليف الشركة هو التجارة ، فإن أعمالها لا تقتصر على التجارة ، بل تتناول الفتح والغزو والحكم ، واتزاع

الأراضي من سكانها ، وتوزيعها على الجنود والأنصار ، وجباية الضرائب ، والفصل في القضايا . أى إن الشركة كانت دولة حاكمة مستعمرة بكل معانى الحكم وكل مظاهر الاستعمار .

وقد تناول الاستعمار بواسطة الشركات أقطاراً عظيمة الأهمية في القرن السابع عشر ، منها الهند ، وجنوب إفريقية وجزر الهند الشرقية . وفي القرن التاسع عشر ألفت شركات عدة لاستعمار القارة الإفريقية ، وقد تم فعلاً تسلط جماعات أوربية على مساحات واسعة من تلك القارة في الربع الأخير من القرن التاسع عشر . ونضرب على سبيل المثال الشركة التى ألفتها سسل رودس ، واستولت على مساحة تزيد على ألف كيلومتر مربع . وشركة إفريقية الشرقية البريطانية ، التى لها « الفضل » فى الاستيلاء على شرق إفريقية وأوغنده . وحتى الملك ليوبولد نفسه لم يرد أن تتولى بلجيكا استعمار الكنجو ، بل أنشأ لذلك هيئة مستقلة سماها « الاتحاد الدولى للاستكشاف ونشر الحضارة فى الكنجو »

« Alliance Internationale pour l'exploration et la civilisation du Congo ».

كان قيام الشركات بهذه المشاريع الاستعمارية ، بدلاً من أن تضطلع به الدولة نفسها ، عملاً ملائماً للحكومات كل الملاءمة . فقد استطاعت أن تترك الأفراد يرتكبون ما يشاءون من الفظائع من أجل الفتح والاستيلاء ، ومهما اقترفوا من الإثم والوحشية ، فهم على كل حال أشخاص غير مسئولين . وتستطيع الحكومة فى النهاية أن تقضى بحل الشركة — بعد تمام الفتح والاستيلاء على المستعمرة — وتتولى إدارتها بنفسها بعد أن تمنح الشركة تعويضاً كريماً فى مقابل ما أنفقت من الجهد والمال . وهكذا تبجى الدولة فى صورة المنقذ المخلص للشعب الإفريقى من مخالب الشركة التى سمحت هى بإنشائها ، وبذلت لها غير قليل من المعونة والإرشاد .

وهكذا نرى أن من أهم ما يمتاز به الحركة الاستعمارية الجديدة أن الدولة لا تنهض بأعمال الاستعمار وحدها ، بل قد يسبقها أو يشاركها أفراد من الرعية والنظام الديمقراطي يجعل الشعب هو المرجع الأول فى سياسة الدولة ، ولذلك لا بد للدول أن تحصل على تأييد شعبها فى سياستها الاستعمارية . ولا بد لها من تربية العقلية الاستعمارية لدى جميع أفراد الشعب بقدر الإمكان .

أسباب الاستعمار

من أهم مزايا الاستعمار الحديث أن له كتاباً وفلاسفة يدافعون عنه ويشرحون أغراضه ومراميه . أما الغزاة الفاتحون من القدماء ، فقلما رأوا ما يدعو لتبرير سياستهم وشرح الأسباب التي تدعوهم إلى التوسع والتسلط على أقطار جديدة ، اللهم إلا إذا استثنينا أحوالاً قليلة كان فيها بعض الالتجاء إلى ذكر مبررات للغزو ، مثل الحروب الصليبية والدينية ، أما فيما عدا ذلك ، فقد كان العاهل العظيم يرى من حقه أن يغزو ويستولي ، استجابة لباعث لا حاجة به إلى تفسيره أو تبريره ، أما دعاة الاستعمار اليوم فلهم مذاهب وأقوال كثيرة :

١ — من الجائز أننا إذا فتشنا ضمائر الاستعماريين اليوم ، لم نجد أسباباً أو دوافع حقيقية تدعوهم إلى انتهاج الخطط الاستعمارية ، وإنما هو مجرد غريزة الاستيلاء وشهوة السيطرة ، تحرك الدول اليوم كما كانت تحرك الملوك القدماء . وهناك عدد من الكتاب قد ذكروا مبررات للاستعمار لا تختلف كثيراً عما يذكره طاهل قديم مثل جنكيزخان ، لو أنه أتيح له أن يفسر أو يبرر سياسته الاستعمارية . فيقول اللورد كرزون مثلاً : « إن الهند هي محور عظمتنا ، ومقياس مجدتنا أو إخفاقنا . ولئن فقدنا الهند ل يكون هذا إيذاناً بغروب شمسنا » . ويقول الكاتب الفرنسي لروابوليو : « إن فرنسا لا بد لها من أن تكون دولة إفريقية عظيمة ، وإلا فسرطان ما تغدو دولة أوربية من الدرجة الثانية . ولن يكون لها في العالم شأن أعظم كثيراً بما لدولة مثل اليونان ورومانيا . »

فأصحاب هذا المذهب يرون أن الدولة لن يكون لها شأن أخطر إلا بالتوسع والاستعمار . ومثل هذا المذهب هو الذي اعتنقه النازيون بعد ذلك وابتكروا له كلمة جديدة فقالوا إن شعبهم لا بد له من شيء اسمه Lebensraum أى مجال حيوى ، يشتمل على بلاده وبلاذ غيره . وذهب الغلاة منهم إلى أن هذا المجال الحيوى ذو مرونة عظيمة بحيث يجوز أن يشمل العالم كله . « اليوم لنا ألمانيا . وغدا العالم كله ! » .

٢ — المذهب الاستعماري الثانى — وله بعض الارتباط بهذا المذهب الأول — ينادى بأن الدولة صاحبة الشأن لها « رسالة عالمية مقدسة » لا بد لها أن

تنشرها وتبثها بين الشعوب ، ألا وهي رسالة المدنية والحضارة ، رسالة تقضى عليها بأن تبذل وتضحى لرفع مستوى الشعوب والأمم . وليس الفتح والغزو غاية بل وسيلة لإعلاء البشرية والسمو بها إلى آفاق العزة والكرامة والحرية .

وقد وصف أصحاب هذا المذهب تلك الرسالة التي تؤديها الشعوب الأوربية بأنها « عبء الجنس الأبيض » *The White Man's Burden* . وهو عبء ثقيل فادح ، ولكنه محبب إلى تلك النفوس الاستعمارية ، التي جعلت هدفها رفع شأن بني الإنسان في كل مكان . . .

ونحن الذين نشاهد أعمال الاستعماريين عن كثب ، قد نسخر من هذه الأقوال أو نراها ضرباً من الهذيان أو من النفاق ؛ ولكن هنالك من غير شك أشخاص يدلون بهذه الأقوال عن عقيدة وإيمان ، ويتبعهم عدد غير قليل من الناس في كل دولة استعمارية . وقد يكون عدد هؤلاء الناس كبيراً في بعض البلاد صاحبة المستعمرات ، فتضطرو إلى أن تلتطف من حدة سياستها الاستعمارية .

٣ — بعد هذا الطراز الاستعماري ، الذي ينشدهما يتوهمه المثل الأعلى ، يجيء طراز آخر من نوع لا شك أنه شرير ، وهو المذهب الذي ينادى بضرورة الاستيلاء على أقطار جديدة لسكنى رعاياه وإقامتهم ، مع أن في تلك الأقطار سكانها الأصليين الذين استوطنوها منذ قرون عدة . إن الحكومات الاستعمارية التي من هذا الطراز تنادى بأن شعبها آخذ في الازدياد ، وأنه لا بد له من أراض جديدة يعيش فيها ، وأن جميع اعتبارات العدل والإنسانية لا قيمة لها أمام هذه الحاجة الملحة في نظرهم .

ومن الغريب أن كثيراً من البسطاء القليلي العلم والتفكير ، في بلاد عدة ، قد انخدعوا بهذه الدعاية وتوهموا أن مثل هذا التوسع أمر لا مفر منه ، وأن الدول التي تنشدها العذر كله أو بعضها . وقد كثر التضليل في هذا الموضوع حتى بات من الصعب على الناس أن يدركوا ما انطوت عليه تلك السياسة من الكذب والرياء .

وحينما نسمع الدعاة الفاشستين يتصايحون بأن الشعب الإيطالي لا بد له من المستعمرات لتفسيح المجال لسكانه المتزايدين ، يتوهم بعضنا — بل كثير منا — أنهم على صواب فيما يزعمون . ولكي يظهر بهتان هذه الدعاية يجب علينا أن نذكر :

أولاً — أن هنالك شعوباً أخرى قد ضاقت بها بلادها ، فوجدوا في العالم الجديد ميداناً للهجرة والاستقرار . ذلك ما فعله الشعب الأيرلندي ، والشعوب الاسكندنافية ، وشعوب البلقان ، وسوريا ، بل الشعب الإيطالي نفسه . فقد استطاعت الملايين من أبناء هذه الشعوب التزوح إلى القارة الأمريكية وغيرها حيث يعيشون اليوم في الجمهوريات الجديدة ويعملون فيها كعنصر نافع من رعاياها .

ثانياً — أن الدعاية الفاشية قد اشتدت في طلب المستعمرات في الوقت الذي أخذ فيه نمو السكان يتناقض في إيطاليا نفسها بدرجة واضحة ملموسة . فليس طلب المستعمرات إذن نتيجة لازدحام السكان في إيطاليا ، لأن الهجرة إلى أمريكا قد خففت من ذلك الازدحام تخفيفاً واضحاً . ولكن الذي تبغيه الحكومة الاستعمارية هو أن يهاجر رعاياها إلى أقطار تملكها وتسيطر عليها ، مع أنها قد لا تتسع إلا لعدد محدود جداً من المهاجرين ، كما حدث فعلاً في ليبيا وبلاد الحبشة وأرتريا . فان العنصر الإيطالي المهاجر إلى مختلف المستعمرات الإفريقية تافه جداً إذا قورن بالجاليات الإيطالية الهائلة في الولايات المتحدة والبرازيل والأرجنتين وغيرها من بلاد العالم الجديد .

فالمطالبة بمستعمرات للسكان المتزايدين لم يكن في أي وقت من الأوقات سوى ضرب من النفاق السياسي وستار زائف للمطامع الاستعمارية ، التي تلتبس المبررات من أي نوع كانت .

٤ — الطراز الرابع من الاستعمار هو الذي نعرفه نحن سكان مصر خير المعرفة ؛ لأننا قد اضطررنا لأن نسمع صوته يتردد من حين لآخر ، ذلك هو الطراز الحربي أو الدفاعي . وأصحاب هذا المذهب يرون أنه لا بد لهم من التسلط على قطر أو عدد من الأقطار لضرورات عسكرية ، أو لأن الموقع الحربي لهذا الإقليم أو ذاك هو من الخطر ، بحيث لا بد لهم أن يضمنوا سلامته من كل عدوان . وهذه الأقاليم ذات الأهمية العسكرية تنقسم إلى أنواع : فمنها الأقطار المتاخمة لحدود الدولة والتي ترى أنها لازمة للدفاع عن أرضها ، مثل التيرول الجنوبي ، الذي اقتطعته إيطاليا من بلاد النمسا لكي تحمي أرضها وتدافع عنها من الناحية الشمالية . والأراضي الفنلندية التي استولت عليها روسيا لتحسين دفاعها عن الأقاليم الشمالية الغربية .

الانتداب والصاية والاستعمار

ومنها الجهات التي تعترض خطوط المواصلات الإمبراطورية ، مثل جبل طارق ومالطة وقناة السويس وعدن ومنغافورة ، وإنما بالنسبة للولايات المتحدة . فهذه الجهات كلها في نظر الدول الاستعمارية لا بد من بسط النفوذ عليها لضمان سلامة المواصلات في وقت الحرب . وعلى الرغم من أن هذه المواصلات قد تعطلت تماماً في أثناء الحرب العالمية الأولى والثانية ، فإن هؤلاء الاستعماريين لا يزالون متمسكين بهذه الحجة .

وأخيراً هنالك أقطار لا علاقة لها بطرق المواصلات ، ولكنها يخشى عايتها إذا وقعت في أيدي معادية أن تهدد تلك المواصلات ، مثل جزيرة قبرص وبعض البلاد الواقعة على الخليج الفارسي . فهذه كلها بعيدة عن الطرق البحرية ، ولكن التسلط عليها ضروري لكي لا تقع في أيدي أخرى معادية .

هـ — الطراز الخامس والآخر من الاستعمار هو الذي أطلق عليه الاستعمار الاقتصادي ، أي طلب المستعمرات وحيازتها ، لكي تكون ميداناً لكسب المال وجمعه بمختلف الطرق بواسطة شركات رأسمالية . وكثير من الكتاب يرى أن هذه الصيغة النفعية هي الغالبة على الحركة الاستعمارية الحديثة ، وأن رجال المال هم بوجه خاص الذين دفعوا الدول نحو التوسع الحديث ، وهم السبب الأول في ذلك التسابق والتكالب على الاستعمار الذي شهدناه في السبعين عاماً الماضية . إن هؤلاء الرجال لهم بالطبع نفوذ كبير في الدولة ، وهم لا يتورعون عن استخدام هذا النفوذ لجمع الثروة وجني الأرباح الطائلة . والمشروعات التي يمارسونها ، إما تجارية ، أي إنهم يجعلون من المستعمرات ميداناً لتصرف البضائع والسلع ، أو زراعية بإنشاء مزارع واسعة لغلات الأقاليم الحارة مثل المطاط والقطن ، أو معدنية للبحث عن الثروة المعدنية واستغلالها . هذه هي المذاهب الاستعمارية الرئيسية ، التي حاول دعاة الاستعمار أن يعبروا عنها ويشرحوها ويدعوا لها ويدافعوا عنها .

تطبيقات الاستعمار

حاول الكاتب الشهير تورمان إنجل أن يثبت في غير واحد من كتبه أن الاستعمار يكلف الدولة نفقات باهظة ، ولا تجني من ورائه تعافاً يستحق الذكر ،

وأن الشعب يمون الاستعمار بما يدفعه من الضرائب ، وبما يفقده من أرواح أبنائه دون أن يكون للمستعمرات أقل أثر حقيقي في تحسين حالة الشعب المادية والأدبية . وقد أورد أرقاماً عدة عما تتكلفه الدولة من الأساطيل الحربية ومن وسائل الدفاع المختلفة ، وأثبت أن ما تجنيه من ربح مستعمراتها لا يتكافأ مع تلك النفقات . وقد تبع نورمان إنجل كتاب كثيرين في رأيه هذا . والراجح أن القائمين بحكم الدول الاستعمارية لا يحاولون أن يجعلوا من الاستعمار مشروعاً اقتصادياً يجب أن تفي إيراداته بنفقاته ؛ لأن هنالك مطامع استعمارية أخرى ، غير مجرد الربح المادي . وهذا هو ما يدعونا إلى أن نظن أن الاستعمار شهوة في النفوس تدفع الحكومات إلى اتباع السياسة الاستعمارية سواء أكانت تلك السياسة مؤدية إلى مكسب أو خسارة مادية أو أدبية .

الاستعمار يفسد الحياة الدولية

كان لبعض الدول في الميدان الاستعماري مزية سبق ، لأنها دخلت الميدان قبل سواها ، ومن أجل ذلك نرى دولة مثل البرتغال لها مستعمرات عظيمة . ونرى هولندية تمتلك جزر الهند الشرقية كلها تقريباً . ونرى بريطانيا قد استطاعت أن تتسلط على الهند وأقطار أخرى ، قبل أن يتم تكوين ألمانيا وإيطاليا . ثم جاءت الحركة الاستعمارية الحديثة في القرن التاسع عشر ، فاستولت بريطانيا وفرنسا على نصيب الأسد من القارة الإفريقية ، ودخلت ألمانيا وإيطاليا الميدان متأخرتين فلم تفوزا إلا بنصيب قليل نوعاً بالنسبة لألمانيا ونصيب تافه بالنسبة لإيطاليا .

واشتد التنافس الاستعماري في العصور الحديثة اشتداداً هائلاً ، وأخذت الدول يكيد بعضها لبعض ، وتتنافس في بناء الأساطيل واتخاذ الأهبة للحرب . ولئن حاول المؤرخون أن يجدوا أسباباً مختلفة للحرب العالمية الأولى والثانية ، فإن من المستحيل أن ننسى أن من أهم تلك الأسباب التنافس الشديد في الميدان الاستعماري ، وحرص كل دولة كبيرة على أن تنال ما تدعوه « نصيبها » من التوسع والتملك . فقد جعلت السياسة الاستعمارية شهوة التملك أمراً مألوفاً ، كأنه حق من الحقوق المقررة . واستباححت الدول الاستعمارية في سبيل تحقيق

شبهونها أن ترتكب الزور والإثم ، وتحنث بالآيمان ، وتحنون العهود ؛ حتى انحطت الأخلاق الدولية إلى الدرك الأسفل ، وسرى السم في العلاقات الدولية . فلم تعد الدول تتورع عن ارتكاب العدوان وعن التفنن في الكذب والرياء . وصفوة القول أن التكالب على الاستعمار والمستعمرات ، إن لم يكن السبب المباشر في الحربين ، فإنه على الأقل هو السبب في إفساد العلاقات الدولية ، وفقدان الشعور الإنساني ؛ وبذلك كان على الأقل سبباً غير مباشر في هذه الحروب العالمية وفي النكبات الهائلة التي أنزلتها بجميع الشعوب . وقد أخذت الدول الكبيرة صاحبة المستعمرات بعد ذلك تدافع عن قضيتها ، وتزعم أنها ليس لها مطامع استعمارية ولا تسعى وراء مغنم . وعندما انهزم الأعداء في الحرب العالمية الأولى والثانية ، تاركين أرضاً ودياراً كانت في حوزتهم ، رأت الدول المنتصرة ألا تضم تلك الأقطار والديار « ضمّاً » على الطريقة الاستعمارية القديمة ، وقررت أن تجعل منها بلاداً تحت الانتداب في المرة الأولى ، وتحت الوصاية في المرة الثانية . وسنحاول في المقال التالي أن نوضح الخصائص الرئيسية لهذين النظامين .

محمد عرصه محمد

في أفق السياسة العالمية

بين تركيا وروسيا

ما فتئت روسيا طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تتجرش بتركيا وتنقم عليها وقوفها عند المضائق وعلى منفذ البحر الأسود تسد في وجهها طريق الوصول إلى مياه البحر المتوسط الدافئة ، وما زالت تستعدى عليها الشعوب السلافية التي كانت خاضعة لسلطان تركيا وتناصرها سرًا وعلانية ، حتى توالت على تركيا الثورات والحروب وتعاقبت عليها الهزائم ، وأخذت الولايات المسيحية تنفصل عنها واحدة تلو الأخرى ، وتداعى البنيان حتى أوشك أن ينهار كله وتصبح تركيا أثرًا بعد عين ، لولا بقية من حيوية الجندي التركي الباسل ، ولولا ديب الخلاف بين الدول الكبرى بسبب التنافس على أملاك الدولة . ولقد نشأ من ضعف تركيا وبقائها على هذه الحال اليائسة زمانًا ما عُرف في التاريخ بالمسألة الشرقية و « الرجل المريض » .

ولو قدّر للطامعين في ميراث الرجل المريض أن يتفقوا فيما بينهم على توزيع ذلك الميراث وتحديد مصير المضائق والقسطنطينية ما اتوانوا لحظة واحدة في الإجهاز على ذلك المريض ليقسموا فيما بينهم تركته . وقد سبق في نهاية القرن الثامن عشر أن آنست روسيا ضعفاً حريباً من بولندة وهي جارتها من الناحية الغربية ورأت فيها تحاذلاً شبيهاً بما كان في تركيا ، فلم تتردد في الاتفاق مع حليفاتها بروسيا والنمسا على تقطيع أوصال بولندة وتجزئتها مرة وأخرى وثالثة حتى أتين عليها جميعاً ، وانمحت بولندة من خريطة أوروبا السياسية .

ولم يكن هناك ما يمنع من أن يكون هذا مصير تركيا أيضاً في القرن التاسع عشر لولا رحمة من الله أدركت الرجل المريض ، فقد ظل الورثة مختلفين بشأنه حتى قامت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ ودخلتها تركيا إلى جانب ألمانيا ، فأيقن الورثة أن تركيا قد حان حينها ، وأن آخرة الرجل المريض قد دنت ، وأنه لا حرج

بين تركيا وروسيا

من تقسيم التركة واعتبار المريض كأنه لا محالة قد مات . ولم يطل اختلاف الورثة بشأن التركة ، فقد كانت رضى الحرب تدور طحوناً ، وكان عشرات الآلاف من المحاربين يموتون فى كل يوم ، حتى لقد بدا أن الحرب قد لا تبقى على شىء يستحق أن يورث بعد الحرب ، وأن من صالح الحلفاء أن يتناسوا أحقادهم وأن يتساهلوا فى تقسيم التركة حتى يفرغوا لأنفسهم ويثبتوا جميعاً لقتال العدو المشترك حتى يتغلبوا عليه . ولما كان إعلان معاهدات التقسيم ، والحرب لم تزل قائمة والرجل المريض لم يزل حياً يرزق ، مما يجافى أبسط قواعد الحياء ، فقد أحاط الحلفاء مفاوضاتهم بالكتمان وجعلوا اتفاقاتهم سرية حتى لا يظهر عليها أحد إلا بعد كسب الحرب .

وكانت روسيا أولى الدول التى خشى الحلفاء أن ينالها السلم قبل غيرها ، فأرادوا أن يقدموا لها طعاماً شهياً يستهويها ويجذبها نحو الحلفاء إلى نهاية الحرب ، فعقدوا معها أولى معاهدات التقسيم السرية فى لندن سنة ١٩١٥ وبمقتضاها اتفقت كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا على أن تكون القسطنطينية والمضائق وما يجاورها من أراض من نصيب روسيا بعد الحرب ، وبذلك تتحقق



لروسيا أعز أمانها السياسية . وفي سبيل كسب الحرب ضجعت كل من بريطانيا وفرنسا بما بذلتا من الجهود الدائبة في أثناء القرن التاسع عشر لمنع الدب الروسى من التوغل جنوباً نحو البحر المتوسط .

وجاءت المعاهدة الثانية في مايو سنة ١٩١٦ حين التفت الحلفاء إلى الجانب الشرقى من التركة ، فاتفقوا بمقتضى المعاهدة التى عرفت باسمى المندوبين الانجليزى والفرنسى على التوالى سيكس بيكو Sykes-Picot على أن تأخذ روسيا معظم بلاد أرمينية ، وأن تكون بلاد المشرق تحت نفوذ فرنسا ، وفلسطين والعراق تحت نفوذ بريطانيا . وكنلت اتفاقات . التقسيم بمعاهدة مع إيطاليا نالت بها جزر الدوديكانيز وأزمير وجزءاً كبيراً من الساحل الغربى للأناضول ، وباتفاق مع الشريف حسين أمير مكة على إعلان الثورة ضد الأتراك وتكوين دولة عربية تضم بلاد العرب وأجزاء أخرى داخلية فى نطاق معاهدة سيكس بيكو . وبذلك لم يبق للرجل المريض مجال حيوى يعيش فيه حتى يلفظ نفسه الأخير سوى رفعة محدودة فوق هضاب الأناضول أبى كرم الحلفاء إلا أن يحفظوها له لتكون فيه مقبرة جنسه ومثواه الأخير .

ولكن عناية الله كانت تلحظ الرجل ، فأدركته الرحمة الإلهية على يد أقرب الوارثين إليه داراً وألد أعدائه خصومة فى الوقت نفسه وهى روسيا . ففى مارس سنة ١٩١٧ والحرب لا تزال فى عنفوانها قامت الثورة البلشفية ، فانسحبت القوات الروسية من الحرب ، وأعلن الثوار أنهم يؤمنون بالتعاون والمساواة بين الشعوب ، ويستنكرون اغتصاب الأراضى التى ليست لهم ، وفرض الغرامات الجريبة ، ولا يقرون المعاهدات السرية ويتبرءون منها ومن شروطها . وكانت نتيجة ذلك أنهم نزلوا عما وعدوا به بمقتضى معاهدة لندن السرية سنة ١٩١٥ . فلما كسب الحلفاء الحرب فى سنة ١٩١٨ وسارت مواكب النصر فى طريقها إلى القسطنطينية لم تكن روسيا فى الموكب ولم يسمح لها القدر أن ترفع رايتها على معقل الأتراك وحصن الإسلام فى ذلك الوقت ، فقد تألفت لجنة دولية لحراسة المضائق واحتلال القسطنطينية . وتلفت الحلفاء يميناً وشمالاً يبحثون عن دولة تصلح للانتداب على هذه المنطقة العظيمة الخطر . فأبت فرنسا أن يكون الانتداب لانيجلترا ، وتوجست انجلترا الشر من نيات فرنسا ، وكاد الأمر يستقر على الولايات المتحدة ولم تنجح أمريكا فى ذلك الوقت إلى سياسة

بين تركيا وروسيا

العزلة الدولية ونبذت سياسة ولسون ومعه ميثاق العصبة والانتدابات . وعلى ذلك لم يكن هناك مفر من بقاء الاخلال العسكرى والإشراف الدولى على القسطنطينية والمضايق .

وكانت معاهدة « سيجر » المشثومة فى أغسطس سنة ١٩٢٠ وفيها أقر الرجل المريض الوصية التى أعدوها له ، فقد استقل الحجاز وانفصلت الولايات العربية ، وأخذ الإغريق تراقيا وجزر الأرخبيل ، وأخذت إيطاليا جزر الدوديكانيز وجزءاً من آسيا الصغرى ، واستقلت أرمينية وكردستان ، وتسابقت إيطاليا واليونان على أزمير وغربى الأناضول فاحتلتها اليونان بمساعدة الحلفاء ، وظلت اللجنة الدولية التى تمثل الحلفاء تتحكم فى القسطنطينية والمضايق كما تألفت لجنة دولية أخرى للتصرف فى الشؤون المالية .

وبينما الرجل المريض يعالج سكرات الموت وشهادة الوفاة التى سجلت فى سيجر تتناقلها أيدي الحكومات للموافقة عليها ، إذا بروح جديدة تنبعث من جسم الرجل المريض الميت فتتقمص قائداً فذاً من صباط الجيش التركى فينسل من غرفة الموت ماضياً فى طريقه إلى هضاب الأناضول حيث قرر الحلفاء أن تكون مقبرة الجنس التركى . ومن هذه الهضاب دوى صوت الثورة الكمالية فى يوم من صيف سنة ١٩١٩ فكأنما تفخ فى الصور ، وكأنه يوم النشور ، فإذا الحياة تدب فى أجسام الموتى وإذا الهزيمة والجوع والعوز تتلاشى أشباحها أمام إرادة أمة قد صممت أن تحيا مستقلة عزيزة الجانب لاسلطان لأجنبى عليها وإن تألبت عليها جميع القوى الغاشمة .

عند ذلك تلاقت الثورة الكمالية فى تركيا والثورة البلشفية فى روسيا ، وإن لم يقر الترك مبادئ الشيوعية . فكلتا النهضتين كانت بعثاً جديداً لأمة مغلوقة خلقتها خلقاً جديداً ، وكلتاها قضت على عناصر الرجعية والاستبداد واستعدت لكفاح الأجنبى الذى كان يتمنى جاهداً لو استطاع القضاء على الثورتين . وكان نزول روسيا عن معاهدة لندن السرية فى سنة ١٩١٥ قد بعث الطمأنينة فى نفوس الأتراك الكمالين فتقاربت مساعى الدولتين ، وسرمان ما اعترفت روسيا بحكومة أنقرة الجديدة ، وحل محل العداوة القديمة بين الدولتين عهد صداقة وإخاء توطدت أركانه بعقد معاهدة الصداقة بينهما فى سنة ١٩٢١ إذا اتفق الحليفان على تسوية مسائل الحدود الشرقية بينهما ليفرغا لمواجهة

القوات الأجنبية التي كانت تناوئهما من الغرب ، فاحتفظت تركيا بقارص وأردهان وارثيفان على الحدود الشمالية الشرقية ، كما استردت روسيا باطوم وضمت جورجيا وأرمينية إلى جمهوريات السوفيت .

ولما أمن الكاليون على حدودهم من ناحية الشرق سدّدوا ضرباتهم نحو الأجني ، فأنجلى الفرنسيون من شرق الأناضول ، وآثر الطليان ألا يزجوا بأنفسهم في حرب جديدة ، وبقي الإغريق ولا نصير لهم سوى بريطانيا . وكانت الدول المتحالفة قد سرحت جيوشها بعد عقد الصلح ، وكانت الشعوب قد سئمت الحرب واستنكرت محاربة الأتراك وهم في عقر دارهم . لذلك لم يلق الإغريق من بريطانيا إلا معاونة بحرية لا تكاد تذكر إلى جانب الروح القوية المتدفقة التي كانت تسيطر على الكاليين وظلت تقودهم من نصر إلى نصر حتى دحروا الإغريق في معركة سقاريا الشهيرة وقذفوا بهم إلى البحر ، فأنجلوا عن أزمير والأناضول من غير رجعة بعد أن أشعلوا النار في المدن والساكن وكل ما صادفهم في منحدرهم إلى البحر .

بعد ذلك التفت الكاليون إلى القسطنطينية والمضائق ، وكادوا يهاجمون القوات البريطانية المرابطة بها بعد انسحاب الفرنسيين والطليان لو لم يسارع الحلفاء إلى مواجهة الحقائق ومفاوضة الكاليين في الصلح . وكانت جل أمانى الأتراك أن يمزقوا شهادة الوفاة التي خطتها يد الحلفاء ضد تركيا في « سيقر » وأن يعلنوا للعالم ميلاد تركيا الجديدة . فقر الرأي على عقد مؤتمر الصلح في يولية سنة ١٩٢٣ في « لوزان » البلد المحايد ، لا في باريس ولا في لندن .

وفي هذا المؤتمر لم يعمل الحلفاء شروطهم كما أمّلوها على ألمانيا والنمسا في قرسايل وكما اعتادوا أن يعملوها على تركيا من قديم . فقد أخذ عصمت باشا ممثل تركيا الجديدة مكانه في المؤتمر واجها لورد كيرزون ممثل إنجلترا ، وجعل يعرض مطالب تركيا ويرد على اللورد حجة بحجة حتى كسب منه الصلح . ومن العجيب أن يكون « شين » المولود الجديد في هذا المؤتمر هو « شيشرين » Chicherin ممثل حكومة السوفييت وهي وإن لم تكن تربطها في ذلك الوقت بدول الحلفاء صلات سياسية أو اقتصادية قد دعيت لتبدى رأيها في مناقشة مشكلة المضائق ، فكان ممثليها أقوى نصير لتركيا وكان هو محاميها الأول ضد الحلفاء عامة وضد بريطانيا بصفة خاصة .

بين تركيا وروسيا

وكانت بريطانيا التي ظلت طوال القرن الماضي تناضل عن استقلال تركيا وسلامة كيائها ضد روسيا ، وتنادى في سبيل هذه الغاية بضرورة التمسك بحق السلطان في إغلاق المضائق أمام جميع السفن الحربية منعاً لروسيا من التسلل بأساطيلها إلى البحر المتوسط — قد جاءت إلى مؤتمر لوزان تدعو الدول إلى إعلان حرية البحار وحرية الملاحة داخل المضائق، وتطالب إلى تركيا عدم تحصينها ونزع سلاحها لتكون منطقة محايدة حرة للجميع . وظهر أن هذه النظرية الجديدة لم تكن في صالح تركيا ولا روسيا . فحيدة المضائق تحرم على تركيا تسليحها وتعرضها لهجوم الأعداء ، كما تيسر هذه الحيدة لبريطانيا وحلفائها اختراق المضائق بأساطيلهم الحربية في أى وقت يشاءون ، وبذلك تظل روسيا أبداً مهددة بالعدوان .

لذلك ناضلت روسيا بقوة لدحض النظرية الجديدة ولكنها لم تفجح . ولم يسع تركيا إزاء ما كسبته في لوزان من استرداد أدرنة وتراقيا ومنطقة المضائق وعدم تقييدها بشروط حربية كالتى قيدت بها ألمانيا — لم يسعها أن تسترسل في معارضة إنجلترا ، فوافقت على سياسة الحيدة التى أرادوها للمضائق بعد أن اعترفوا بحقها في تأمين نفسها بتحسين القسطنطينية وجعلها قاعدة بحرية بها حامية حربية قوتها ١٢,٠٠٠ جندي . وبقيت هذه الحالة قائمة أكثر من اثنتى عشرة سنة استطاعت تركيا في أثناءها أن تفرغ لتنفيذ برنامج الإصلاح الكمالى الذى خلق من تركيا دولة فتية موطدة الأركان عزيزة الجانب ومن الأتراك شعباً جديداً ناهضاً سرعان ما استرعى العالم بنهضته وحيويته .

ولم تنس تركيا لروسيا مؤازرتها لها في أيام محنتها ، كما ظلت روسيا تذكر بكل خير صداقة تركيا وانضمامها إلى إيران والافغان في معاهدات ودية مع حكومة السوفييت في الوقت الذى كانت فيه حكومات الغرب تعتبر مجرد التنويه بالبلشفية جريمة لا تغتفر وتأمراً على قلب نظم الحكم يعاقب عليه بالنفى والتشريد .

ولما فرغت كل من تركيا وروسيا من تثبيت قواعد نهضتها الثورية في بلادها، وبانت ثمرات الإصلاحات الداخلية الشاملة في البلدين، كانت آثار النظم الفاشية والنازية قد ظهرت واضحة لكل ذى عينين، وبدا للشعوب أن الموائيق والمبادئ

التي أعلنتها عصبة الأمم لن تغنى قليلا عن الحرب المتوقعة . وأيقن ستالين أن بلاده مستهدفة لعدوان النازية عاجلا أو آجلا إن لم يكن من ناحية هتلر في الغرب فمن ناحية اليابان في الشرق ، وقد تنمرت اليابان على الصين واغتصبت منها منشوريا في سنة ١٩٣١ متحدية في ذلك عصبة الأمم . وكذلك أيقن كمال أتاتورك أن تركيا معرضة لخطر داهم من ناحية موسوليني والفاشية ، وأن مصلحة البلدين تركيا وروسيا تقضى عليهما بالخروج من العزلة الدولية التي فرضاها على نفسيهما . حتى لقد بلغ الأمر بكمال أتاتورك أن يهجر إسطنبول نهائيا ويتخذ عاصمته أنقرة . وحتى لقد كادت الدول تعتبر الدولتين آسيويتين ، وأخيرا نبذت كلتا الدولتين سياسة العزلة .

أما روسيا فقد ظفرت في سنة ١٩٣٤ بمكان دائم في مجلس العصبة ، ثم دخلت مع كل من فرنسا وتشيكوسلوفاكيا في معاهدة ، وكانوا جميعا يخشون عدوان ألمانيا على أراضيهم . وبدأ ستالين مشروع السنوات الخمس مرة بعد مرة ، حتى شهد العالم وهو مشدود مبهور إحدى معجزات القرن العشرين الاقتصادية حين رأى روسيا تتحول إلى بلاد صناعية تنتج ما تحتاج إليه البلاد حربيًا واقتصاديًا إلى جانب نهضة زراعية اجتماعية وثقافية أصبحت مضرب الأمثال في مداها وكفايتها ، فكأنما كان ذلك كله في سرعته سحر ساحر لا مجهود بشر !

وأما تركيا فواصلت نهضتها الصناعية والثقافية أيضا ، واتجهت في سياستها الخارجية خطة مبتكرة ما لبثت أن رفعتها إلى مكان الزعامة بين دول البلقان والشرق الأوسط . وقد بدأت تركيا خطتها هذه بأن عقدت معاهدة صداقة مع الإغريق ، ثم أقنعت دول البلقان بأنه لا فائدة ترجى لهم من الاستناد إلى دولة من الدول الكبرى وأن نضجهم السياسي وحرصهم على عدم الانزلاق في منحدر المنافسة الدولية يجتاز عليهم أن يعتمدوا على أنفسهم أولاً ، وأن يتحدوا جميعاً ليكونوا صفًا واحداً أمام كل عدوان . وعلى أساس هذه الخطة تكون اتحاد البلقان سنة ١٩٣٤ ، ولم تشذ سوى ألبانيا وكانت في سياستها تابعة لإيطاليا ، وبلغاريا وكانت لها مطامع ترمي إلى تحقيقها من وراء عدم التمسك بالحالة القائمة .

ثم التفتت تركيا إلى الشرق الأوسط فوثقت علاقاتها مع إيران الجديدة وجعلت تسعى بالصلح بين أعضاء الأسرة الشرقية الإسلامية حتى تم تكوين

من تركيا وروسيا

ميثاق سعد اباد في سنة ١٩٣٧ بين تركيا والعراق وإيران وأفغانستان على الأسس نفسها التي قام عليها ميثاق البلقان .

ولما شرعت إيطاليا تتحدى العصبة وتعتدى ظلماً على أثيوبيا وتبعتها ألمانيا باحتلال إقليم الرين وتحصينه وإعلان الخدمة الإجبارية مخالفة بذلك نصوص معاهدة فرساي وميثاق لوكارنو ولم تقو العصبة على رد عدوان إيطاليا أو كبح النزعات الجامحة في ألمانيا — انتهزت تركيا الفرصة لتعديل معاهدة لوزان واسترداد كامل حقها في تحصين المضائق وتسليحها حتى لا يتعرض أمنها وسلامتها لعبث دولة مهاجمة كالإيطاليا مثلاً . وكانت العلاقات بين روسيا وتركيا لم تزل ودية ، فأيدت روسيا تركيا في طلبها هذا لتكون حارسة لها على البواغيز فتمنع تسرب أساطيل الأعداء إليها . وكان من صالح إنجلترا كذلك أن يكون أصدقاءها في البحر المتوسط مسلحين وبمأمن من هجمات العدو المشترك .

وعلى ذلك عقد مؤتمر مونترو سنة ١٩٣٦ بين تركيا وبريطانيا وفرنسا واليابان وروسيا وباقي دول البلقان ، وقرروا إلغاء القيود الدولية التي وضعت في مؤتمر لوزان بشأن الرقابة على المضائق ، ونص فيه على حق تركيا في تسليحها وتحصينها كما تريد . ومع أنه قد نص في المعاهدة على أن دول البحر الأسود لها حق مرور أساطيلها في المضائق — ومن هذه الدول روسيا طبعاً — فإن المعاهدة أبقت حق التصريح بالمرور ومنعه بيد تركيا نهائياً تستعمله كما تشاء سواء في السلم أو في الحرب ، وهذا ما يضايق روسيا ويقض مضجعها الآن .

ولما اكفهر الجو الدولي في أوروبا وأوشكت أن تندلع شرارة الحرب العالمية الثانية كانت العلاقات بين روسيا وتركيا قد بدأت تتوتر؛ فقد ارتابت روسيا من سياسة تركيا حين وثقت الروابط بينها وبين إيران وتزعمت اتحاد سعد اباد في حين كانت روسيا تطمح أن تبسط نفوذها على الأقاليم الإيرانية المتاخمة لجمهوريات السوفييت ، وترنو ببصرها إلى حقول البترول في الشرق الأوسط ، لتدخر مواردها من بترول القوقاز . وكذلك ساءها من تركيا أنها تزعمت دول البلقان وكادت تخلق اتحاداً سلافياً إذا كان الغرض المباشر منه منع إيطاليا من العدوان فما لا شك فيه أنه سيقوى على مر الزمن ويقف حجر عثرة في طريق روسيا نحو الجنوب . ومنذ نشأت هذه الريبة بين الدولتين سارت كل منهما على النهج الذي اختطته لنفسها ، فلم نعد نلاحظ في خططهما ذلك التناسق الذي كان يبدو جلياً في

الماضي . فبينما كانت تركيا ترتبط بمعاهدة الصداقة وتبادل المساعدة مع بريطانيا في سنة ١٩٣٦ كانت روسيا لم تزل حائرة مترددة بين ألمانيا وبريطانيا ، وكانت بريطانيا تعرض عليها الدخول في الحرب على حين كانت ألمانيا لا تريد منها سوى الترام الحيدة ، وعلى ذلك آثرت التعاقد مع ألمانيا .

ثم نشبت الحرب في سبتمبر سنة ١٩٣٩ فأعلنت تركيا حيدها وأخذت تحيط نفسها بما يؤكد هذه الحيدة ، فعقدت مع روسيا معاهدة عدم الاعتداء ، كما عقدت مع إنجلترا وفرنسا معاهدة تقضي بمساعدتها إذا هاجمتها دولة أوروبية . ولما رجحت كفة ألمانيا في أوائل الحرب عقدت معها تركيا سنة ١٩٤٠ معاهدة صداقة وتبادلتا أهم ما كان يلزمهما ، فأخذت تركيا تُعدّداً ومهمات حربية وأعطتها به معدن الكروم الذي كانت ألمانيا في مسيس الحاجة إليه في ذلك الوقت . وحاولت روسيا وقتئذ أن تقنع تركيا بفتح البوغاز لاساطيلها ، فأرسلت دعوة إلى رئيس الوزارة التركية لزيارة موسكو ، ولكن تركيا تمسكت بتعهداتها الدولية ولم تستمع لنداء صديقتها القديمة .

ثم تطورت الحرب وانتقلت خطاها إلى الشرق ، ومضت ألمانيا تخضع حكومات البلقان واحدة بعد أخرى ، وخيل للناس أن تركيا لا بد داخله الحرب إلى جانب الحلفاء تنفيذاً لميثاق البلقان . ولكن دخول تركيا الحرب في ذلك الوقت لم يكن في صالح الحلفاء ؛ فقد كانوا في حاجة قصوى إلى السلاح ولم تكن تركيا في حالة تمكنها من مقاومة الألمان طويلاً ، فلو أنها دخلت الحرب لاستطاع الألمان بسهولة أن يأخذوها ممرّاً إلى آسيا ويهددوا قناة السويس وخليج العجم في آن واحد .

لذلك قبضت تركيا على حيدها وكانت في موقفها كالحقايضة على الجمر؛ فقد كانت ترى بعينها مصارع الشعوب التي داستها النازية بأقدامها الحديدية فتجفل وترتاع . ثم دخلت الحرب في أهم أطوارها في صيف سنة ١٩٤١ إذ هاجم الألمان روسيا وأصبح من صالح الحلفاء أن يمهّدوا طريقاً للاتصال بها حتى يمدوها بما تحتاج إليه في كفاحها من سلاح وغذاء ، وكان طريق المضائق إلى البحر الأسود هو أقرب السبل إلى روسيا ، فحاولوا إقناع تركيا بفتح الدردنيل والبسفور لسفنهم ، فأبت تركيا عليهم ذلك كما أبت على روسيا حينما كانت محالفة لألمانيا . واضطر الحلفاء إلى الاتصال بروسيا ، إما عن طريق خليج العجم فايران

بين تركيا وروسيا

والقوقاز ، وإما عن طريق البحر المتجمد من الشمال ، وكلا الطريقين وخاصة الثاني منهما طويل مخفوف بالآخطار . ثم اشتد الضغط الألماني على روسيا ، وكادت ألمانيا تصل إلى آبار البترول بالقوقاز وباطوم ، وكان مما ينقذ روسيا أن تدخل تركيا الحرب فتهدد الجناح الأيمن للجيش الألماني الذي كان يستند إلى البحر الأسود ، ولكن عبثا حاول الحلفاء إقناع تركيا بالخروج من حيدتها ، وبقيت كذلك إلى أن لاحت في الجو بوادر النصر للحلفاء ، وبدأ الرؤساء يجتمعون في مؤتمرات موسكو والقاهرة وطهران في أواخر سنة ١٩٤٣ ودعى الرئيس إينونو إلى التحدث معهم في القاهرة ، وحينئذ قبلت تركيا أن تمنع تصدير معدن الكروم إلى ألمانيا ، ولكنها لم تعلن الحرب إلى جانب الحلفاء إلا في النهاية ، ليتسنى لها أن تشارك مع سائر الأمم المحاربة في مؤتمر سان فرانسكو .

وتقمت روسيا على تركيا موقفها الجأء في إبان محنتها الكبرى ، فانقلبت الصداقة القديمة بينهما إلى عداوة أعادت إلى الذاكرة ما كان بين الدولتين في العهد القيصري من جفاء ومرارة وعداء مستحكم . لذلك لم يكن مستغربا أن تنذر روسيا تركيا في مارس سنة ١٩٤٥ برغبتها في إعادة النظر في معاهدة منترو وأن تتوتر العلاقات بين الحكومتين بدرجة استرعت اهتمام الدول . وتقضى المادة ٢٨ من معاهدة منترو بأن مدة المعاهدة عشرون سنة ، ولكن المادة ٢٩ تجيز للدول أن تطلب تعديل موادها في كل خمس سنوات من تاريخ سريانها ، وعلى ذلك تكون المعاهدة قابلة للتعديل في سنة ١٩٤٦ وقد انقضت عليها فترتان .

ويبدو أنه لن تستطيع تركيا أو أية دولة أخرى بعد أن خرجت روسيا من الحرب ، وهي أقوى دولة حربية في أوربا ، بل لعلها في العالم — أن تحرمها حق المرور في المضائق بأساطيلها دون أن تستأذن في ذلك تركيا . فلم تعد روسيا تخشى مهاجمة الدول كما كانت في الماضي . بل هي على العكس يهمها الآن أن تفتح أبواب المضائق لتتصل بسياسة البحر الأبيض المتوسط الذي برهنت الحرب الأخيرة على أنه المركز الرئيسي للنشاط الحربي العالمي . وقد بدأت روسيا تطالب بنصيبها في قواعده الاستراتيجية ، فأخذت مكانها إلى جانب إنجلترا وفرنسا وأمريكا في منطقة طنجة الدولية ، وجعلت تطالب بالوصاية على طرابلس ، ويقولون

إنها تطالب بمقعد في مجلس إدارة قناة السويس كما كانت تريد إيطاليا الفاشية ،
وبقاعدة حربية في منطقة المضائق نفسها .

ولن ترضى روسيا أن تستعيد تركيا مكاتها في البلقان ، فستعمل روسيا على
أن تكون لها الزعامة بين الشعوب السلافية ، ليكون مقامها بينها كمكان الولايات
المتحدة من جامعة الجمهوريات الأمريكية ، بفارق واحد هو أن جمهوريات أمريكا
تتمتع باستقلالها وبسيادتها التامتين ، أما حكومات البلقان فتريدها روسيا
وفق نظامها وعلى هواها .

وتلقى تركيا الآن أشد العنت من جانب روسيا ، فهي تهددها من ناحية
البلقان ، وقد نشرت تفوذهها على حكوماتها جميعاً وخاصة بلغاريا التي لا تزال
تحلم « بأدرنة » ، وتهدها كذلك من ناحية إيران . فان حدود تركيا من جهة
الشرق تتاخم أذربيجان ، وإذا نجحت روسيا في فصل هذا الإقليم من جسم
إيران فستكون روسيا سداً حائلاً بين تركيا وإيران ، فلا يبقى بين الدولتين
ذلك الاتصال الوثيق الذي ساعد على تأليف ميثاق سعد اباد ، وستبذل روسيا
جهداً لمنع تجديد هذا الميثاق أو وصله بالجامعة العربية حتى لا تسترد تركيا
زعامتها القديمة .

وهناك جورجيا وأرمينية وكلتاها من جمهوريات السوفييت ، وهما تطالبان
تركيا بإعادة قارص وأردهان وأرتيقان . وكانت روسيا في سنة ١٩٢١ قد رضيت
بإضمام هذه الأقاليم إلى تركيا بعد استفتاء أهلها . على أن هذه الأقاليم كانت تحت
يد تركيا قبل سنة ١٨٧٨ حين استولت عليها روسيا ، فاحتفاظ تركيا بها الآن
لا يعدو أن يكون استرداداً لبضاعتها . والآراء مضمعون على الدفاع عن حقوقهم
وعن أرض الوطن شبراً فشبراً . وإذا أصرت روسيا على اقتطاع هذه الأقاليم
وتعديل معاهدة منترو وفق مصلحتها وعلى غير ما ترضى به تركيا ، فلن يمضي
وقت طويل حتى تظهر في أفق السياسة العالمية « مسألة شرقية » جديدة تختلف
من أجلها الدول وتناضل فيها تركيا وتقف منها كما وقفت في سنة ١٩١٩
لا كما كان يقف الرجل المريض في الماضي . وسترى روسيا حينئذ أنها أمام
صخرة قُدَّتْ من عزمات أناتورك العظيم .

في ردهة القصر

مهادي حسان^(١) الحى في ردهة القصر
 يفيضن شباباً في فتون وبهجة
 كأن الشفاء الجون^(٢) بين صفيحها^(٣)
 نواهد أبدين الترائب والطلى
 وأبرزت أكتافاً وعريين أيدياً
 على البشر البض الغضير تألقت
 جوارحهن الكاسيات موائل
 محاسن أعضاء تناهى انسجامها
 لدان^(٤) كأنفاس الربيع متى سرت
 ريش^(٥) من الديباج بصت شياتها^(٥)
 تأقن في زيناتهم عرائساً
 فأشرقن والأنوار في كل جانب
 وظلت عيون القوم فيهن رتعا
 فجررت الغيد الديول مدلة
 أرائك حول المائدات شغلها
 على حلقات الشرب دارت سقاتهم
 تلامست الأقداح ثم ترشفت
 على السمع أنداء الحديث تساقطت
 فن نخب مستملحات نريغها

منضرة المرأى ، مصففة الشعر
 لدى أين نجل ، لدى أوجه غور
 أزاهير حمر في أضاميم من نور
 وكشفن عن أعلى المتون إلى الخصر
 وكن بما أظهرن في رونق مغر
 أساور من ماس ، فلائد من در
 كما شاءت الأزياء من بدع العصر
 نسبن القدود الفارقات إلى الشعر
 تضويع منهن السرى من العطر
 عليهن من بيض وسود ومن حمر
 بنات خيال ما خطرند على فكرى
 فولى ظلام الليل من طلعة الفجر
 تنقل بين البيض والسمر والشقر
 بتكوينها المرموق في صمتها النضر
 وصحب من الفتيان كالأنجم الزهر
 ودارت على الأقداح آنية الحمر
 وأدسى الندامى لا لصحو ولا سكر
 كما ظل أزهاراً نثيث من القطر
 إلى نكت بالآريحية تستندى

(١) الحى : الجماعة . — (٢) الجون جمع : الحون وهو الأجر الخالص .
 (٣) الصفيح : جمع صفيحة وهي بشرة جلدة الوجه . — (٤) الريش : اللباس الفاخر .
 (٥) الشفت هنا : الألوان .

والحنن ترجيع^١ يناغم جرسه
تساقق في موجاته مترسلاً
زخارف وشي تمقت في غضونه
تماحي^٢ ، نخلناه اضمحل ، إذابه
وقن يراقصن الرجال إجابة
يلين على مهل ويشتد معجلاً
يثن حيناً أو يشفق هادراً
يجلجل مراحاً وينساب رائقاً
وأسلمهم قاماتهم برقة
وما ضمها حتى تولته نشوة
وما اتحد الصنوان حتى تدافعا
يمور بها والصدر بالصدر لا تذب
ويقبل حيناً ثم يدبر تارة
يُرى الحفل فوضى بين غاد ورائح
عجبت لفوضى يستتب خلاها
يدورون مشتي^٣ وأخطا تتبع الخطا
يجولون جولاً يبتدى حيث ينتهى
فين دوران يستقيم ويلتوى
وصنوين جداً فاستقلا بحيز
وشيكا ومهلاً يمضيان ، سراهما
وبينا بها يرتد عجلان^٤ ، ينثنى
 ويفصلها عنه فتاي وتدثني
تدور حوالبه فيرعى مدارها
يلق إحدى راحتها بكفه
وما انقلت إلا استدارت حياكاً^٥

مشاعرنا ، مارن^٦ إياه تستقرى
أرق من العُتبي^٧ وأندى من الزهر^٨
مهارة ذى عزف ، براعة ذى زمر
على صخب يعلو ويهبط في يسر
إلى نغم لا يستقر^٩ على نبر
ويبغم في أنس ويصدق في دعر
فيشكو ويرجو أو يضح فيستضرى
لنا منه في حاله دنيا من الشعر
وكل^{١٠} تلقى صنوه طافح البشر
من الفرح الطاغى بمفترة الثغر
فطوراً بها يجري وطوراً به تجرى^{١١}
وكف^{١٢} إلى كف وكف^{١٣} إلى الظهر
تسايره الهيفاء بالكر^{١٤} والفر^{١٥}
فهذا على طور وهذا على طور
نظام يسود الراقصين بلا أمر
تشايح إيقاع المعازف والنقر
يروح مع الأنغام كراً على كسر
إلى جولان يستدير على حذر
توقف منه الراقصون عن السير
طليق على قيد ، يسير على عسر
بها داهباً نحو الأيامن والبشر^{١٦}
فنشر إلى ضم^{١٧} وضم^{١٨} إلى نشر
فكيف اغتدت يغدو وأنى سرى تسرى
ويطلقها تفتن^{١٩} في رقصة بكر
شراشر^{٢٠} ذيل من حرائرها الخضر

(١) هذا على ما يراه غير الراقص . — (٢) الحياك : طرائق الرمل .

(٣) شراشر الذيل : ذباذبه وما انتصر منه .

تَلَفْتُ بِسَاقِهَا الدَّلَازِلَ إِنْ وَنْتَ
إِلَى صَنُوهَا السَّاعِي إِلَيْهَا مَرَاقِصًا
وَصَفَّقَ إِعْجَابًا وَشَارَكَ رَاقِصًا
تَرَى حَرَكَاتِ الرَّاqَصِينَ كَثِيرَةً
فَمِنْ هَمْسَاتٍ لَسْتُ تَبْلُغُ كُنْهَهَا
أَبْقَيْنَا عَلَى وَدٍّ؟ أَوْ عَدَا؟ أَدْعُوَّةٌ؟
وَمِنْ لَفَاتٍ تَسْتَبِيكَ رَشَاقَةً
سَوَاحِرُ تُبَدِّلُ الْمُبْهَمَاتِ مِنَ الْمَنَى
غَمُوضٌ كَأَطْوَارِ الْمَلَحِ مُحِيرٌ
إِذَا لَمْ تَجِدْ عَمَّا أُسْرَتْ وَأُبْهِمَتْ
وَيَارَبَّ! إِعْجَابٌ لَدَيْكَ مُلْكُهُ
سُرُورٌ سَاعٌ يَنْقُضِي بِانْقِضَائِهَا
تَمَلُّ أَفَانِينَ الْحَاسِنِ وَابْتِهَاجِ
خَلِيطِ كَلْتَفِ الْعَصُوفِ شَخُوصِهِ
شَخُوصِ تَنَاءِي فِي مَجَالٍ وَتَلْتَقِي
وَمَا آتَيْتِ الْإِنْعَامَ حَتَّى تَفْرُقُوا

عَنْ الْقَتْلِ حَتَّى تَسْحَبَ الذَّيْلَ فِي كِبَرٍ
فَكَانَا كَبَيْتِ الشَّعْرِ شَطْرًا إِلَى شَطْرِ
مِنَ الْحَفْلِ مَنْ يَبْغِي الْمَزِيدَ مِنَ الْحَبْرِ
فَمِنْهَا عَلَى سِرٍّ وَمِنْهَا عَلَى جَهْرِ
وَمِنْ بَسَمَاتٍ يَنْطَوِينِ عَلَى سِرٍّ
أَمْ أَنْ أَبْتَسَامَ الْخُودَ لَوْزٍ مِنَ الْمَكْرِ؟
وَمِنْ نَظَرَاتٍ لَا رَجِدَ وَلَا هَزَرَ
وَتَأْتِي عَلَيْكَ الْمُقْضِيَّاتِ إِلَى الْحَزَرِ
فَأَنْتَ بَقِيَّةٌ مِنْ غَوَامِضِهَا الْكُثْرِ
بُلَيْتَ بِحَالٍ مِنْ مَكَايِدِهَا وَعَرِ
بِمَا كُنْ فِيهِ مِنْ خِلَالٍ وَمِنْ حَجَرٍ
فَلَا تَنْفَقْهَا غَيْرَ مَنْشَرِ الصَّدْرِ
حَيَالُكَ مَا يَرْقِيكَ مِنْ حُزْنِ الدَّهْرِ
أَفَاءَ عَلَيْنَا الْوَارِقَاتِ مِنَ السَّحَرِ
عَلَى بَارِعِ الْأَلْحَانِ مِنْ حَيْثُ لَا تَدْرِي
وَمَادُوا وَعَادَتْ آيَةُ الْكَأْسِ وَالسَّعْرِ

[بغداد]

على الخطيب

من كتاب همس الصحراء

قصة معبد

إذا قلت المحال رفعت صوتي
وإن قلت اليقين أطلت همسي
أبو العلاء المعري

من أيام شهر يوليو وكأنا حرارة الطقس قد مدت في ساعات هذا اليوم الصائف الحار فأصبح كأنه الأبد لا يشعر بانتهاء . فخرجت إلى تلك الصحراء القريبة التي أحسن فيها وحدها الحرية ، والتي أعود منها دائماً ، وقد فهمت هذا الكلام الذي أقرؤه في الكتب حول معاني الحرية ولا أحسه في حياة تبدأ أيامها قيوداً ، وتنتهي قيوداً . وما كدت أسير في الصحراء وأستنشق هواءها الجاف حتى بُعث في نفسي على دفئه نشاطاً لم يكن لأي شيء سواه أن يبعثه ، وإذا هذا النشاط يغريني بالسير ، وإذا أنا مطمئنة إلى هذا الإبعاد في الصحراء ، وكأني واثقة أنني مهما قضيت فيها من الزمن فسأعود قبل أن ينتهي هذا اليوم الطويل . ولا يعرف سحر الصحراء إلا من سار فيها راغباً في هذا السير الذي لا يوصل إلى غاية ، ولا يقصد به قطع الطريق . فلعل أجمل ما في الصحراء هو هذا الشعور المطمئن بالضياح . إنه شعور عجيب يجمع بين تقيضين ، وليس أبلغ في التأثير في النفس من اجتماع المتناقضين .

وعن بعد لاح لي بناء لم أكن رأيت من قبل . فقلت في نفسي : لعل اتجهت اتجاهًا جديدًا . ولم أسترسل في هذا التفكير ، فقد كان شيء غامض يسرع بخطاي نحو هذا البناء ، فأسرعت حتى سكنت أعدو عدواً ، والبناء تظهر لي معالمه وتقترب ، فأعجب لهذه القبة الشائخة من بناها في هذه الصحراء ، ترى ومن يعمرها ؟ أهى أثر قديم أم أن أحدا يسكنها سأحدثه ويحدثني فأرى صاحب هذه العزبة الجبارة الذي بناها أو صاحب هذا الحظ السعيد الذي يعيش فيها ؟

ترى لم أفرد نفسه هنا وسط هذا الفضاء الواسع ؟ أعابد هجر الحياة مختاراً ، أم سجين أفردوه قسراً وانتقاماً ؟ لا ولكن القبة كبيرة فخمة ، ولا يمكن أن تكون لفرد . إنه معبد قديم فيما يلوح . وعدوت وعدوت ، وإذا بناء فخم ليس في المدينة ما يماثله أو يدانيه . إنه يذكرني بالمعابد التاريخية القديمة ، فإن شيئاً في حجارته ونخامته يوحى بالخلود والأبد . ولكن أمره عجيب فهو جديد ولا شك ، ولكنه مهمل إهمالاً فاحشاً ، فلم يبق من جَدته فيما يظهر إلا معالم لولا وضوحها لكانت قلتها كافية لخفائها . وكنت كلما اقتربت أحسست وحشة ورهبة كانتا كفيلتين برجمي أو إثباتي حيث أنا لولا حب الاستطلاع . وإذا أنا قد كدت أصل إلى أسوار المعبد الخارجية فأرى شيخاً لفتني إليه مظهره . فقد كان يجلس على الأرض ، وفي يده عود قصير يداعب به الرمال في هدوء وتأمل طويلين حالمين . وما كاد يحس خطواتي حتى رفع جفنيه في تثاقل . ولم يكد نظره يرتفع إلى أكثر من ساقى حتى عاد إلى رماله يداعبها كأن نسمة من نسبات الصحراء مرّت على وجهه الأسمر الدقيق . فوقفت هنيئة أتأمل هذا الشيخ في ملابسه البيضاء الناصعة ، ولحيته الفضية التي توحى بالهيبة والوقار ، ووجهه الوسيم الشاب الذي لا تكاد تلمح فيه أثراً إلا سيراً للتجاعيد . وكان لهذه اللحية البيضاء على الوجه الأسمر الشاب لسحر جميل . وتأملت ألقه الدقيق وجهته العريضة ، وسألت نفسي : ماذا تكون أخلاق رجل هذه ملامحه ؟ ثم ابتسمت في نفسي من مثل هذه الأفكار تلوح لي في هذا الموقف . وأفقت ، وإذا انتظاري قد طال ، فبدأت أحس شيئاً من الارتباك ، فلو لا هذه الخطوط القصيرة التي كان يرسمها الشيخ في بطنه لم يكن من الصعب أن أظن أن هذا الذي أمامي تمثال دقيق الصنعة ، قد ألقى في الصحراء إلقاء . ترى ماذا يمكن أن أقول له . وإذا صوت من بعيد ، فنظرت فإذا طائفة من الشبان تدخل هذا المعبد الفخم ، وتختفي وراء الأسوار الحديدية التي أحاطت به . وقبل أن أفكر في شيء كنت أعدو نحوهم لأسألهم عن أمر هذا المعبد ، ولكنهم تواروا داخله قبل أن أقطع نصف المسافة التي تفصل هذا الشيخ عن الأسوار . فعدت مرة أخرى ، ولما لم أجد هذا الشيخ قد تحرك فقد صبري فقلت : « يا سيدي » وكأنما كان صوتي يخرج من جوف الأرض لا من حلقى . وما كدت أنطق بهذه الكلمة حتى رفع إلى بصره في تثاقل ، فإذا عينان تفتدان إلى نفسي ، فأحس كأنها عارية

خجلة تكاد تتلاشى من خجلها في هذا الفضاء ذرات متناثرة ، وإذا صوت وقور نقي يقول : « وماذا أتى بك يا بنتى إلى هنا ؟ » . قلت : سيدى وما هنا هذه ؟ ولماذا تنظر إلى هكذا ؟ وأحس الرجل أنى خائفة أحاول إخفاء خوفى فى التلهف على معرفة ما لم أكن أعرف . قال : « أما هنا يا بنتى فهذا المعبد . وأما نظرتى فأغفريها لى ، إنى لم أرفع البصر عن الرمال منذ أعوام ، ولم أر إلا لونها الأصفر الأبيض حتى كدت لا أميز الألوان . قلت : وكيف تعيش ؟ قال : « إنى أعرف بعض سدة هذا المعبد فهم يقومون بخدمتى ، ولكنى لا أرفع بصرى إليهم لأنى لا أريد أن أراهم . ولولا أنى لا أملك البعد عن هذا المعبد ما أطق العيش هنا فى جوار هؤلاء . عودى يا بنتى من حيث أتيت فإن فى صوتك إخلاصاً ، وفى ملامحك سذاجة يقتلها هذا الجو الخائق » . قلت : « ولكن ماذا يضطرك إلى هذا ياسيدى ، وأمامك المدينة واسعة ولن تعدم من الأصدقاء فيها من يسر لك عملاً تعيش منه قرير العين فلا تحتاج إلى هؤلاء الذين لا تطيق أن ترفع فى وجوههم بصرك ؟ » . فابتسم الشيخ ابتسامة عابرة من جهلى وقال : « إنى لا أطيق الإقامة فى المدن والبيوت . عودى يا بنتى . ألم أقل لك إن فيك إخلاصاً وسذاجة ؟ » .

وعاد يداعب رماله فى حركة إن تكن أسرع من حركاته الأولى فإنها لا تزال بطيئة حاملة . وخفت ألا يجيبنى فقلت : سيدى سأعود فى الحال ، ولكن لى رجاء . قال ولم يرفع بصره : « حتى أنت ! » قلت : وماذا ؟ قال : لا تعملين إلا بشئ . قلت : رجائى أن تقص على قصة هذا المعبد ، وأؤكد لك أنى لن أسألك شيئاً ، ولن أستفسرك عن شئ ، قص على من أمره ما شئت ، واحذف من خبره ما ترى ، ولكن لا تدعنى أذهب وفى النفس ظمأ إلى معرفة أمر هذا المعبد فأعود إليه وأنت لا تريد أن أعود . قال : كلا يا بنتى ليتك تعودين ، وقد تبدلت الحال ؛ بل ليتك جئت إلى هنا منذ أعوام إذن لتلقيتك بالترحاب ، ولدخلت المعبد فلا تبرحين . ولكن . . . ثم رفع بصره إلى السماء ، وتهد تهيدة مكتومة حائرة ولم يقل أكثر من « يارب » ثم صمت . وشع نداؤه حاراً فى الصحراء وفى جوار المعبد إحساساً بخشية الله لا يمكن أن يوصف . إنه غيبة عن هذا العالم يتصل الروح فيها بشئ غامض قوى فتغمر النفس سعادة ويسرى فيها أمن . وأفقت على أصوات منكرة تنبعث من هذا المعبد ففرغت

وهملت بأن أعدو هاربة ، وقد خيل إلى أن وحوشاً ستنتطلق في أثرى ، لولا أن الشيخ قال لا تفزعى يا بنتى إنهم يرتلون آياتهم في الصلاة ، اجلسى على هذه الصخرة فسأقص عليك قصتهم ، وإنها لحقيرة مؤلة ، ولكنهم لا يقدرُونَ إلا على هذا . إستريحى يا بنتى فلقد سرت طويلاً واهترت أعصابك هزات عنيفة لم تتعوديها ، إني قد علاني المشيب منها وأنا في شرح الشباب . قلت في نفسى إن أمره لا خطر مما قد دار في خلدى . هذا الصوت النقي الوقور ، وهذه اللحية البيضاء وهذا الوجه الشاب ، ثم هذه الجلسة التى لا يفيق منها ويكاد يقضى حياته فيها . إن أمره لأعجب من أمر المعبد . قلت : سيدى أتحدثنى حديثك أنت ولترك أمر المعبد ومن فيه ، فقد تضائل شأنه بعد ما سمعت من أصوات سدنته المنكرة ؟ قال : إن قصتنا لواحدة .

منذ أعوام طويلة جاء إلى هذه الصحراء ثمر من شبان المدينة عرفوا الحياة يقيناً ، فزادهم يقينهم بها إيماناً ، وتطلعوا إلى خير ما يتطلع إليه إنسان ، فزادهم تطلعهم حماسة وإخلاصاً ، وأجمعوا أن خير ما ينفقون فيه أعمارهم هو التفرغ لعبادة من خلقهم مستعينين على التقرب إليه لا بالصلاة والتسبيح حسب ، ولكن بالسعى أيضاً وراء المعرفة ، والبحث عن الحقيقة . فى السعى وراء المعرفة تسبيح ، وفى البحث عن الحقيقة صلاة . وقالوا : إننا لنفرغ لعبادتنا يجب أن نبعد عن المدينة وما فيها من لهو وزين ومطامع وأغراض ، وتقيم هنا فى هذه الصحراء لا نزور المدينة إلا مضطرين أو ساعين . نحتك بالناس لنعرف طبائعهم ، ونعامل الناس بالقدر اليسير الذى نحتاج إليه لمعاشنا ، أو بالقدر الذى عليه علينا حبنا لمعرفة الإنسان هذا المجهول الذى أتعب العلماء والباحثين منذ خلقوا . وفيما عدا ذلك فمقامنا فى هذه الصحراء يعين بعضنا بعضاً ، على ما يدرس ويقوى صوت أحدنا أصوات إخوانه فيما ترتفع به من تسبيح بحمد الله . وقليلًا قليلًا قويت جماعتهم ، وبهرت فكرتهم بعض أهل المدينة ، فبنهم من انضم إليهم بروحه ونفسه ، ومنهم من وجد فى فكرتهم مجالاً لخلود الذكر ، فقال لهم نبني لكم معبدًا . وراق لهم هذا العرض وتقبلوا فضل هؤلاء المخلصين وتفاءلوا به . وقالوا : هكذا يمن الله علينا ليشرحنا على السير فيما بدأناه . وتنافس الناس فى المدينة لإقامة هذا المعبد لهؤلاء المؤمنين ، منهم من دفع من ماله لا يبتغى إلا المشاركة بما يملك فى تحقيق فكرتهم الجميلة ، ومنهم من رأى فى ذلك فرصة للمباهاة

والظهور . والآنسان قد فطر على التنافر والتفاخر . وشيئا فشيئا شيد هذا المعبد الفخم . لو رأيته يا بنتى يوم كمل بناؤه ! لقد كان آية من آيات الجمال ، كان عليه ضوء من السماء كأنما السحب قد انقشعت من فوقه وحده فأنارته وقد حجبت النور عن سائر ماحوله . كان لؤلؤة مضيئة لامعة فى رمال هذه الصحراء الباهتة . ودخل الشبان معبدهم ، وعكف كل منهم على ما كان يعكف عليه من قبل . ولست أذكر من مرى شيئا إلا أنى كنت أهيى فى هذه الصحراء ، وفى ذاكرتى خيالات مفرقة ، وصور قديمة عن معابد سكنتها حيناً . وخرجت منها لا أدري كيف ولا متى . فرأوتى هائماً فى الصحراء فأدخلوتى معهم وأكرموتى وأحبوتى ، فأحببتهم جميعاً حتى إنى لم أطق أن أقيم فى غرفة بعينها من غرف المعبد ، ورجوتهم ألا يكون لى مكان معين فيه ، وأن يأذنوا لى بزيارة من أشاء منهم . فحياتى التى جبلت عليها تأبى على الاستقرار فى المعابد . وفرحوا لهذا وازدادوا بى تعلقاً ، وفى خدمتى تقانياً ، وعاشرتهم زمناً .

لو سمعت يا بنتى أناشيدهم التى كانوا يسبحون بها ربهم لكل مطلع شمس ومغربها ! كانت أصواتهم أجمل نعم يمكن أن يسمعه الإنسان . أصوات آدمية بلغت من الصفاء أقصى مبلغ ، ومن الحلاوة مالا يمكن أن تصل إليه آلة مهما تكن . وكان ترتيلهم يتصاعد من هذه القبة اللازوردية فى طريقه إلى السماء ، فيحس سامعه ومنشده أنهما قد رفا من فوق هذا الأرض وقد أصبحتا شيئاً آخر غير أهلها ، شيئاً قريباً من عالم الملائكة بروائه وجلاله . حتى إذا خرج الصوت من القبة وتجاوبت أصداؤه فى قبة السماء ، ثم أخذت أنغامه تغيب فاسحة لغيرها ملى الصوت حناناً ، وفتح بحلاوته آفاقاً وآفاقاً ، من الجمال والجلال والروعة ، وإذا الأطيوار تدنو زرافات من أطراف الصحراء تدخل المعبد وتخرج منه مخلقة مع الصوت فى آفاق السماء مرددة ألحان التسبيح خجلة أول الأمر من أصواتها ثم متشجعة بعد حين ، مقننة أصواتها الخاطفة القصيرة فى هذه الأنغام المليئة الطويلة . إن الأصوات الوحشية التى سمعتها الآن ، والتى أفزعتك هذا الفرع الذى أشفقت عليك منه ، لا يزال أصحابها يريدون من سامعها أن يكشف لهم عن مثل هذه الآفاق ، ونسوا أو تناسوا أنهم لا يتطلعون إليها ولا يحسون من الحنين إليها شيئاً ، بل إن صورها أصبحت لا تدور بخيالهم الذى ملى رياء وزيفاً وما رُبَ تفسد عليهم الحياة نفسها .

ومكثت معهم زمناً، فاصطفيت أحدهم وأحببته أكثر من إخوانه . لقد كان أدقهم تصوراً لفكرة هذا المعبد، وأشدهم تحمساً لها، وإن حنينه إلى الوصول إلى الكمال في أمر هذا المعبد كان أقوى من حنين إخوانه ، لسعة خياله واتقاده حسه ، وإمكان روحه أن يخلق فوق ما تشغل به النفس عادة من أمر هذه الحياة . وكان كثير التأمل شامل النظرة ، فاتسع صدره لماسم تتسع له صدور الآخرين وقوى جلده وصبره على ما لم يقو عليه جلد الآخرين وصبرهم . وكنت أراه من حين إلى حين ينتحى مكاناً في المعبد يطيل فيه التفكير فأعوانه ، وإذا هو يفضي إلى بدخيلة نفسه في سداجة الرجل العظيم ، ودقة القلب الكبير . وكان إخوانه يحسون هذا الجو الذي شع عليهم في المعبد ، وهو مشبع بالحب والخلوص للتعبد ، فلم يغاروا من حبي له وإنما فرحوا به ، ولم يشغلوا أنفسهم بأمر إقصائه عني ، أو بحسبان ما يمكن أن يطرأ على علاقتنا من تغيير بفعل الزمن أو الظروف أو الناس ، وإنما شاركوني في حبي له ، فأحبهم هو وفسح لهم الطريق إلى قلبي . وكثيراً ما حدثني عنهم يحاول أن يكشف لي ما ظن أنني لم أكن أعرف من محاسنهم . وفي يوم أرادوا أن يكون لهم رئيس ينظم أمر جماعتهم ، وأعمالهم وبحوثهم ، فلم يجدوا خيراً مما اصطفت فبايعوه فرحين به . وارتفعت أصواتهم بالدعاء والشكر على ما وفقوا له في أمرهم فكانت في أحلى نغم وأرقه وأصفاه . ونظرت حولى في أرجاء المعبد فتمتعت عيناى بجمال الفن وروائه : فهذه تماثيل صنعوها وقد وضعوا كلامها على قاعدة تظهر أدق ما في فنه من آيات . ودخلت أشعة الشمس من قبة المعبد الزرقاء الصافية ، من تلك الفتحة الصغيرة في القمة ، فتلاعبت بهذه الزرقة وألقت على التماثيل ألواناً وأشعة ، فزادت فتنتها وكل جمالها . وهذا أحدهم ما كف في ركنه يقرأ ويكتب ، وهذا آخر يفكر ويتأمل ويطيل التفكير ويتعمق التأمل ، وهذا ثالث ينحت ويصور ، وتلك جماعة تتناقش وتتحدث ، وأخرى تصلى وتتعبد

وكانوا قد أفردوا جزءاً من المعبد يستقبلون فيه شبان المدينة الجدد الذين يريدون أن يتعرفوا أمرهم ، فنه من كان يقرأ معهم ويتعبد فتحلوه الإقامة ويمكث معهم وقد ماهدهم وعاهد نفسه أن يظل منهم مدى الحياة . ومنهم من كان يرى في حياة العزلة تلك مشقة لا قبل لمثله بها فيرجع إلى المدينة شاكراً حامداً وفي نفسه منهم أطيب ذكرى وأخلص حب . وسدنة المعبد يرحبون به

إذا قرر المكوث معهم ويودعونه آسفين محزونين إذا قرر الرجوع إلى المدينة . وهو إذا مكث في المعبد أصبح من سدنته يقوم على خدمته كهؤلاء الذين سبقوه يعمل في إخلاص ونشاط كل ما من شأنه أن يجعل المعبد وييسر الحياة الطيبة لمن فيه ، يتعاون معهم في ذلك حسب سنه ومواهبه . حتى إذا نما هذا الوافد الجديد واكتمل بدأ يضيف هو أيضاً من جهده إلى جهودهم ما يحقق فكرة عبادة الخالق صلاة وعلماً .

وكان منظر هؤلاء الوافدين الجدد طريفاً بديعاً ، فقد كانوا يتحسسون جدران المعبد ، كما يتحسس الرقيق الجلف قطعة من الحرير ، كأنما في اللبس وحده لذة فائقة . وكانوا يتطلعون إلى كبارهم ، كما يتطلع الطفل إلى أبيه في إعجاب وحب ورغبة شديدة عمياء في أن يقلده ، فهم يسيرون وراءهم يسألون في إلحاح عن كل ما يخطر لهم ، والآباء يحدبون عليهم ويفتحون ما أغلق دونهم وينيرون ما أظلم عليهم . فإذا أتى من الوفود الجديدة من يسأل سؤالاً كانوا هم سألوه من قبل ضحكوا منه ضحكة لذيذة ، كأنما يرون فيه أنفسهم من جديد .

وأحب صاحب هؤلاء الجدد ورأى فيهم حجراً أساسياً في بناء المعبد . إن حياة الإنسان لقصيرة ، وفكرة المعبد أبدية أزلية . ترى من يقوم بها إذا أقعدت السن من بدءوا غير هؤلاء الشبان . ومن خير ما تخدم به فكرة المعبد أن تكون الخطوة الجديدة فيه خيراً من السابقة ، وأن يكون الذين سيلون الأمر فيه خيراً بمن يلونه الآن . وتحس صاحب تحمسه لكل فكرة صائبة تلوح له ، وقال لهؤلاء الجدد : إننا نريد أن نعدكم لتكونوا خيراً منا . وملاً الغرور الطموح المحب تقوسهم المتطلعة الشابة فقالوا : وإنا لندرجو أن نكون كذلك . قال : إن معبدنا هذا واحد من آلاف المعابد القائمة في صحارى العالم الشاسع الواسع . ومن الخير لهذا المعبد أن يعرف القائمون بأمره ، لا ما يدور في معبدهم فحسب كما يعرفون الآن ، ولكن ما يدور أيضاً في تلك المعابد الأخرى حتى يقفوا على أحسن الوسائل التي تتحقق بها فكرة المعبد العظيمة . إن من المعابد الأخرى القديم ، وإن منها ما قد مرز في التجارب قروناً ، فليذهب كل منكم إلى معبد من تلك المعابد وسيرحب به أهله دون شك ، فليمكث فيه زمناً ، ثم ليعد إلينا وقد عرف ما لم يكن له أن يعرف لو أقام هنا طوال عمره مهما أخلص . لقد زرت هذه المعابد مراراً وأقيمت حيناً في غيرها ، ولكن الزمن يسير ، والسكّال لا يدرك في جيل ،

فلتذهبوا إليها ولتقيموا فيها ، ولتحسنوا الدرس والآناة في الدرس ، لعل فيكم الخير لمستقبل هذا المعبد المقدس . وتحمس الشباب الطموح لفكرة الرحلة في ذاتها ، وأكبر أستاذه أكثر مما كان يكبره بعد أن ظن أنه قد بلغ النهاية في إجلاله وإكباره . وودع أهل المعبد إخوانهم الصغار الراحين ، وفي نفوسهم حسرة على فراقهم ، وفي تفكيرهم رضا عما سيكون منهم حين يعودون .

ومنذ ذلك اليوم الذي تولى فيه صاحبي أمر المعبد وأخذ يعنى بحضره ومستقبله أحسست في نفسي أمناً ورضاءً ، واطمأنت إلى أن الحياة في هذا المعبد ستسير كل يوم نحو غايتها ، وستبعد عنها الغاية كلما بدت دانية فينعم سددته بأمتع لذات الحياة ، لذات السعي إلى غاية لا تدرك ، فلا يمكن السأم أن يتطرق إلى حياتهم ولا يمكن كسل النجاح أن يعميت نفوسهم إذا ما وصلت . إنهم سيسعون أبداً وستبقى حياتهم في هذا السعي وهم راضون متحمسون ، بل وهم محتقرون كل من يريد أن يريحهم أو يغيرهم أن يستبدلوا بغايتهم غاية أدنى وصولاً وأيسر سعياً . وبينما كنت أحس الطمأنينة كلما فكرت فيهم كنت أحس القلق إذا ما فكرت في نفسي : ما مقامى هنا بل ما مجيئى ومتى ذهابى . إني يابنتى لا أعرف شيئاً عن نفسي ولا أدري من حياتى إلا خيالات صور مشتتة غامضة . ولو تركت إلى نفسي حيناً لاتسع الوقت لأن أعرف من شأنها شيئاً ، ولكنى موكل دائماً بأمر ، مشغول بفكر . وأحسست يوماً وأنا أجول حول المعبد برغبة في أن أmeen في هذه الصحراء . لقد كانت الصحراء أمانى كل يوم ، فما أحسست لجمالها إغراء ولا لسحرها فتنة . ولكنى في ذلك اليوم أحسست إغراءها وفتنتها ، واستطعت بعد مشقة أن أقاوم إحساسى فلا أتبه في مجاهيلها . فلما عدت إلى صبحى إذا بهم قلقون مضطربون يتحدثون في أمر جاءهم من المدينة ، فهذا حاكمها أرسل إلى رئيسهم يريد أن يشخص إليه . وعاد منهم من المدينة من عاد ، فقد كانوا يخرجون إليها إما للدرس وإما للعاش ، فقالوا إن أهل المدينة في أشد حالات الاضطراب ، فقد قام عليها حاكم متكبر جبار يريد أن يخضع فيها كل شيء لأمره . فلما قاوموه تعسف وقتل فأذعنوا مرغمين ، وفي صدورهم براكين من الغيظ ، وفي نفوسهم فيض من ألم الذلة وذل المسكنة . وظل الحاكم عاماً أو نحو ذلك لا يستطيع أحد إلا موافقته على ما يفعل أو يقول . وترامت إليه أخبار المعبد وما ينعم به أهله من حرية وكرامة ، فعز عليه أن يكون حر أو كريم

لا يخضعه لسلطانه ، فأرسل إلى رئيس المعبد ليسير إليه . ولا يعرف السدنة الآن ماذا سيكون من أمرهم مع هذا الطاغية ، واضطربت نفوسهم أشد اضطراب . ولأول مرة أحسست أنى غريب عنهم ، وأننى لا أحس ما يحسون ، ولا أفكر فيما يفكرون ، ترى ماذا جعلهم يضطربون ؟ ولأول مرة أيضاً أحسست الندم لأنى قاومت إغراء الصحراء وفتنتها . وتطلعت إلى صاحبي فإذا هو الوحيد الذى لم يضطرب ، وإذا هو يتحدث إليهم بما أصبحت أفهمه وإن غابت عنى بعض معانيه . إنه أخذ يعيد الطمانينة إلى قلوبهم ، وإذا هم يفيقون من حديثه أقوىاء متحمسين . وتجاوبت الحماسة فى نفوسهم فقيوت وازدادت قليلاً قليلاً حتى ملأت قلوبهم . إنهم لن يفرطوا فى رئيسهم ، ولن يذهب إلى الحاكم لأنه دطاه . إن حاكم المدينة لو طرق بابهم ما أجابوه . وما لهم وما يتناحرون من أجله هناك ؟ إنهم زاهدون فى السلطان ، راغبون عن المال ، حسبهم من عيشهم هذه الحياة التى يحيونها مفعمة بلذة القرب من الله سبحانه وتعالى يتعبدون ويدرسون فيحسون حجب الكون تتكشف لهم حجاباً حجاباً ، وفى كل كشف لذة تطفى وسعادة تغمر .

ولكن الحاكم لم يصبر على هذا الثبوت له ، وإذا جنده يقتحمون المعبد ويخرجون الرئيس بالقوة . ولا تسألنى يا بنتى عن الهلع الذى اعتدى تلك الجماعة المؤتلفة المتحابة . وكانت غضبتهم غضبة قوية دوت بها الصحراء كلها ، إنهم لن يرتضوا غير رئيسهم ، ولا بد أن يرد إليهم . وسعى إليه من سعى فى عزلته وجفاه من جفاه . وهذا الزمن من ثورة النفوس ، وإذا الشدة كعادتها تكشف عن حقيقة النفس ، وسرعان ما كشفت عن تلك النفوس التى سما بها الجو حولها ، فغارت فيه وهى ليست منه . فلما نضبت الكأس ظهرت رواسبها التى كانت تعوم فيها . إن هؤلاء القلة الذين كانوا النواة الأولى لم يحسنوا اختيار إخوانهم ، فضموا إليهم بعض من فقه فكرة المعبد وبعض من لم يفقهها أصلاً . بل لقد ضموا بعض من بهر بهاء المعبد ، ولكنه عاش غريباً فيه يسائر أهله وهو لا يحس أنه منهم . كل ما فى الأمر أنه وجد فى المعبد أمناً ودعة لم يتوافرها له خارجه ، وظن أن سيكون لهذا المعبد شأن دنيوى سريع ، فإذا عليه لو شارك فى هذا الشأن منذ الآن فيكسب بمر الزمن . لقد كانوا أعرف بطبيعة الحياة والإنسان من هؤلاء المثاليين المؤمنين الأولين .

وكان أمر الوافدين الجدد مضطرباً بين هؤلاء وهؤلاء ، منهم من آمن مع الأولين فاقتنع بوجهة نظرهم ، ومنهم من عاد بعد قليل فأمن بوجهة نظر هؤلاء العاملين ، ونسوا ثورتهم العظيمة ؛ فالزمن كفيل بأن ينسى أعظم الأشياء وأجلها شأناً في الحياة . أما سدة المعبد فلقد غفلوا أو تغافلوا عما بينهم من اختلاف ، وكانت أصوات العاملين تضيق في أصوات المخلصين وعمقها وهم يرتلون من قلوبهم ، فظلت أنغامهم تخرج حارة قوية مع أن عدداً ليس بالقليل منهم كانت تراتيله لا تجاوز الشفاه خجلاً وخوفاً .

ولكن المحنة أتاحت هؤلاء العاملين أن يتكلموا وأن تعلو أصواتهم الخائفة ، ومر الزمن فاذا أصواتهم تعلو في الترتيل ، وإذا أصواتهم تعكر صفو هذا اللحن الصافي الرقاق . وقال قائلهم إنه كان يجب على رئيسنا أن يجيب الحاكم فلا يعزله ولا يعذبه . وقال آخر إن للحاكم سلطاناً على كل شيء وسلطته مهمل بالغ فيها يجب ألا تعارض ، وإلا ضاعت هيبة السلطان في كل زمان ومكان . ولكن ظل من المؤمنين الأولين من يقول إنه ليس للحاكم أن يتدخل في أمرنا ، إننا لا نتعرض له ولا لسلطانه ، فنحن قوم جعلنا بيننا وبين المال والسلطان آمداً واسعة . والمال الذي يأتينا من المدينة إن هو إلا قرايين أهلها إلينا لا يدفعه الحاكم من ماله ولا يتكلف في سبيل إيصاله إلينا شيئاً . ولكن صوت هؤلاء المؤمنين وإن يكن كله إخلاصاً فقد كان فيه غير قليل من فتور خيبة الأمل والاشمئزاز من حولهم فلم ، يكونوا ينتظرون إلا أن ترى الجماعة في مثل هذا الموقف رأياً واجداً تراه أول الأمر ولا تحيد عنه إلى النهاية .

وغضب سدة المعبد المخلصين وتلاميذهم ما شاءوا ، ولكنهم عرفوا آخر الأمر ما حاولوا نسيانه ، وهو أن الحاكم الظالم لا تقاومه إلا جماعة متماسكة كل التماسك . أما هم فقد تفككوا وظهرت لهم العناصر الغريبة عنهم التي تعيش بينهم ، ومادوا سيرتهم الأولى ، وقد فترت حماستهم ونظر بعضهم إلى بعض بعين الريبة والشك ، كل منهم يظن في صاحبه ما لا يظهر . لقد كانت التجربة قاسية . ثم أرسل الحاكم أوامره فحاولوا أول الأمر مقاومته ، ثم أذعنوا وولوا عليهم من ارتضاء الحاكم حتى لا تنفذ في المعبد إلا أوامره . لقد تقب هذا الرئيس الجديد أول ثغرة في حصن المعبد المقدس ، فقد جعل للحاكم فيه أمراً لم ينته بل ازداد على مر الأيام .

ومنذ ذاك يا بنتى اتصل أمر المعبد بالحكم القائم اتصالاً أفسد عليه كل أموره . فالذين كانوا من أبنائه يقضون النهار في البحث والتسبيح لله ، والليل في التهجد والتفكير والتأمل ، أصبحوا يقضون اليوم في المدينة باحثين عن الأسباب التي توصلهم إلى رضا السلطان وعطفه ، وليلهم في التفكير في وسائل هذا التقرب وكيفيته . فإذا صحا خيالهم وألم بهم إلمامة ما ، لم يفكروا في جنات عدن ، وإنما تخيلوا ما يمكن أن يصلوا إليه من سلطان ، وما يمكن أن ينعموا به من مال . وأصبحت صلاة المؤمنين المخلصين منهم تجمد على جدران المعبد الخرساء الباردة قبل أن تنزل في طريقها إلى السماء . وبذلك أصبحت الحياة في المعبد جحياً لا يطاق . وأمر الرئيس الجديد ، ونهى وأطاعه بعضهم ، وتحاشاه الآخرون ، فقترب وأبعد ، وأفسد ما شاء له الإفساد .

ويشاء الله ، جلت حكمته أن تعارض ، أن يعود في تلك الآونة شبان المعبد المسافرون في صحارى العالم ، وفي قلوبهم حماسة الشباب المؤمنين ، وفي عقولهم علم وأمل واسع عريض ، فإذا المعبد حوله أسوار لم تكن أيام كانوا فيه . فنفرت نفوسهم من تلك القضبان الحديدية ، وما ترمز إليه من معنى السيطرة والسلطان ، بل من معنى القيد والذل . ولكنهم جاوزوا الأسوار ، وإذا وجوه إخوانهم وكبارهم توحى بنفرة أشد وخوف أقوى . إنهم لم يرحب بهم أحد ولم يهش لمقدمهم إنسان ، وتقدموا للعمل فلم يشجعهم أحد ، بل أحسوا رغبة خفية في التخلص منهم . ولما عرفوا حقيقة الأمر وجوا حيناً ، وأفاقوا من وجومهم فريقين : فريق زار معابد الصحراء زيارة عابرة لم تذكر في نفسه تاراً بل أخذت ما أضاء له أساتذته الأولون في معبد الصحراء هذا ، لذلك آثر أن ينحونحو من رآه في المعبد يقوم بالأمر ، وقد أسبغ عليه سلوكه هذا مسحة فلسفية استمد منها بعض ما يدافع به عن نفسه أمام إخوانه . واستمر يصعد في سلم المادة وهو آمن مطمئن يفسر انتقاد إخوانه حسداً ، ويرى تأنيب ضميره رجعية ، وإذا هو وحش كتلك الوحوش التي سمعت أصواتها ، وارتفع صوته يقوى أصواتها فازدادت غلظة ونكراً . وأما الفريق الآخر فقد آثر الانزواء في المعبد بعيداً تحققت من صلاته ويُدارى من تسبيحه وقد انصرف عن كل أمر في المعبد ، لا يكاد يدري مما يدور فيه شيئاً ، وهو غارق في الدعاء لله أن تنجلي المحنة وأن تعود للمعبد حياته الأولى . ولما طالت بهذا الفريق الأعوام

ثبت منه من ثبت ، وتغير منه من تغير ، بل فر منه من المعبد من فر .
وهكذا فقد المعبد الروح الذى يحذب عليه ، وأصبحت عقول سدنته
وقلوبهم خارجة عنه وإن ظلت أجسامهم فيه . ولم أطق العيش معهم ، فخرجت
إلى هذه الصحراء أجوبها من جديد ، وعدت إليه بعد أعوام لما ترامى إلى سمعى
من أن رئيسهم القديم عاد إليهم . ولكم تأملت عندما وقع بصرى على المعبد بعد
أن تركته طوال هذه الأعوام ! إن القبة الزرقاء أصبحت رمادية مما تراكم عليها
من تراب . إن الجدران اللامعة الملساء قد تآكلت ، وتحفرت ، كأنما نخر فيها
السوس . إن الأرض البيضاء الناصعة قد اسودت من أقدام الوافدين الذين هان
عليهم أمر معبد ، هان على سدنته من قبل . إن الهواء الطلق الجميل الذى كان
يمر بالمعبد فى جلال الحرية وشموها أصبح يدخله من خلل قضبان كأنما هى
أنابيب لا تطلقه إلا بمقدار . ورحت إلى صديقى أرى ما فعلت به المحنة فإذا هى
قد تركت فيه آثارها . لقد بلا فيها ما لا يمكن لإنسان أن يبلاه ليظل إيمانه كما
هو وإخلاصه كما كان . نعم إن إخلاصه لم يطقاً . إنه ما كاد يطأ بأقدامه أرض
المعبد ، ويسمع أصوات بعض المخلصين من صحبه حتى نسى أو تناسى ما كان
من أمر السدنة طوال هذه الأعوام . وبدأت حرارته تنير المكان ، وبدأ السدنة
يلتفون من حوله ، وبدأ ترتيبهم خافتاً ولكنه كان صافياً ، وإذا الأطياف
تعود فرادى لتخلق حول القبة الزرقاء تتلقى الأنعام فتردها خجلة من ترددها
الرفيع ، ثم متحمسة شيئاً فشيئاً حتى يفنى صوتها فى عمق أصوات السدنة المخلصين .
ودخلت المعبد من القبة الزرقاء تريد أن تقيم فيه من جديد ، ولكن صدها
ما رأت . إن العناكب متراكمة على جدرانه ، وإن وجوه سدنته ساهمة ،
وعيونهم زائغة ، أكثرها عالق بالأرض يحسب وزن ، ولا يتطلع إلى السماء
ليحلم مطمئناً .

وسار الزمن بالمعبد فى حالته الجديدة خطوات ، تحسبونها أشهراً أو سنوات ،
وإذا الرئيس نفسه قد يئس من أمر المعبد . لقد كان الفساد فيه أشمل من أن
يؤخى بأمل فى إصلاح . إن جهاد الإصلاح أعسر من جهاد الإنشاء ، ومقاومة
أهل المعبد أنفسهم أعسر وأشق من مقاومة السلطان . إن هؤلاء الغرباء الذين
ظلوا فى المعبد وأصبح الأمر لهم إلى حد بعيد كان من الصعب إغفالهم ، ومن
الأصعب التعاون معهم . ولم يكن الرئيس قوى الثقة بأبنائه الشباب ، فقد أظلم

نظرتهم إليهم ما بلأه فى كبرهم ، فظلمهم وظلم نفسه بل ظلم المعبد فيهم . ولم تكن هذه القلة المخلصه الضافيه من شباب أبنائه بكافيه عددآ لتعين على إصلاح جبار كالذى تتطلبه الحال . وهى قد ألفت العزلة والحذر من المشاركة فى أمر ، فلما جاء الرئيس كانت هى أيضاً ضعيفه الأمل فى الإصلاح أو عوده الحال . وحاول الرئيس ما حاول ثم مل وسئم ، وظلت هذه القلة عاكفة على نفسها لم تسأم ولم تياس كل اليأس . واتصل اليأس بالمتفائلين منهم ، فغلب ياسهم الحار تقاؤهم الخجل الفاتر . ولم تعد للرئيس حياه فى مثل هذا الجو فقر يأسآ إلى المدينه ، يشق لحياته طريقآ آخر ، ويرسم لنفسه غايات جديده ، لست أدري من أمرها شيئآ : أتتصل آخر الأمر بالمعبد أم هى قد قطعت كل ما بينهما من أسباب .

إن أعمار الرجال يا بنتى لقصيره ، وإن قصرها وحده خلقي أن يشع فى النفس معانى وتقديرات تقلب وجهه النظر إلى الحياه كلها . فإذا ما تقدمت هذه الأعمار وأحس أصحابها لأول مره إحصاسآ قويآ أنها ستتهى بعد حين ، وإن هذا الحين ليس طويلا كما كانوا يحسونه فى الشباب ، أشع هذا الإحساس فى نفوسهم من الأحاسيس والمشاعر ما هو كفيل بأن يغير مجرى الحياه . ولكن ما لنا وللرئيس ! لقد هجر المعبد وهجره معه الأمل فى عوده الحال سيرتها الأولى . وهكذا يا بنتى ظلت أمور المعبد تسير من فساد إلى فساد ، ومن يأس إلى يأس ، حتى نصبوا عليهم أخيراً شرهم خلقا وأبلاهم حسآ ، وأضيقهم أفقآ . رجلا لا يدري من أمور الدنيا إلا ما يقيدده وينفعه تفعا ماديا . إنه كبعض حيوان الصحراء الذى لا يفيق من نومه إلا على خطر يهدد حياته ، وإذا هذه الغفلة الطويله والنوم العميق يستحيلان إلى يقظة وذكاء لا قبل لهذا الحيوان بهما . فإذا ما زال الخطر عاد يغط فى نومه وينعم بغبائه من جديد . ولا تسألنى عما أفسد فى نفوس أهل المعبد وأموره ، فكما أن الروح السامى يرفع من حوله إلى عليين كذلك يتزل الروح الشرير بمن حوله من ضعاف النفوس إلى أسفل سافلين . ووصلت الحال أخيراً إلى ما قد سمعت من صوت ، وما رأيت من مناظر .

قلت : سئدى ولماذا ولوا عليهم شرهم ؟ قال : إنه أمر السلطان . لقد كان أهل المدينه يرسلون خيراتهم إلى أهل هذا المعبد وهم يرونها قربانآ لأهله وتقربآ إلى الله وسدنته ، وكثيرآ ما أسفوا على أنها ليست أكثر مما يرسلون بالفعل . ولكنهم اليوم ، بفضل سوء الحال عندهم وفى المعبد نفسه ، أصبحوا يحسون أنهم يدفعون

إلى أهله مالا يستحقون ويمنون عليهم بما ليس لهم فيه حق . وسدنة المعبد لا يهمهم من هذا شيء . إنهم ساعون دائماً لمل بطونهم حتى يغطوا في نومهم ، وتضخم أصواتهم إذا ما أفاقوا . وهم يرون في ضخامتها جلالاً ، وفي نكرها إشعاراً بعظمتهم ، وهذه أصواتهم تعلو من جديد ، إنصتى إليها .

قلت : سيدى ولكن أليس عندك أنت أمل في عودة الحال ؟ قال : إني لا أعرف إلا ماضياً وحاضراً ، أما المستقبل فلا يكشف لي عنه إلا سدنة مخلصون ، وقد مات هؤلاء من دنياى . قلت : ولكن تلك القلة من شبابه ألا تصحو يوماً ؟ قال : من يدري ! . . نعم من يدري !

ثم عاد يداعب رماله بعوده من جديد . وخفت أن يصمت فقلت : ولكن أليس هناك ما يمكن أن يعمل ؟ ولكنه لم يجب . ولو قد أجاب لضاع صوته في تلك الصيحة المنكرة التى سدت الآفاق من سدنة المعبد ، تثير في النفس خوفاً واشمئزازاً بعيدين كل البعد عن الإجلال أو الإعظام . قلت : سيدى ! ولكن الشيخ ظل كما هو لا يتحرك . وجأة هبت الريح قوية أول الأمر ثم عاتية قاسية حتى رفعت كثيراً من رمال الصحراء إلى آفاق السماء ، فأقفلت عيني حتى لا تعميها ذرات التراب ، فاذا الخوف يبلغ منى مبلغاً عظيماً ، فهذه أصوات منكرة وسط الظلام ، وتلك رياح عاتية تكاد تقتلعني من الأرض . وصحت في خوفي : سيدى أين أنت ؟ ولكني لم أسمع لنفسى صوتاً . وازدادت العاصفة قوة ، فاذا بي أندفع إلى حيث لا أدري ، أعدو كأنما الريح هى التى تحملنى . وجأة وجدت نفسى على أبواب المدينة وقد كاد النهار الطويل أن ينتهى . وعدت إلى بيتى متعبة ، ومنظر المعبد وشيخه وحديثهما ، بل الصوت المنكر ، ملء نفسى وخيالى . وما كاد الصباح يلوح هادئ النسيم ، كأنما الطبيعة تستريح من جهاد عاصفة أمس ، حتى أسرعرت إلى الصحراء أبحث عن المعبد وشيخه فلم أجد لها أثراً . وطال بحثى وتجوالى حتى كلت قدماى ، وعادت البحث مساءً وصباحاً أياماً وأياماً بلغت أشهراً وأعواماً حتى يئست من أمرها . ترى ابتلعتهما عاصفة الصحراء أم حملتهما إلى صحراء أخرى من صحارى الأرض . ولما بلغت حيرتى أشدها شككت في أمر نفسى ، فسألتهما : أراتهما فعلاً واستمعت إلى الشيخ حقاً ؟ قالت : أما ذاك فليس في أمره شك . قلت : ولكن أين ذهب . قالت : أما المعبد فلا يمكن أن يكون قد رفع على متن الريح . وأما الشيخ فقد

كان أكثر تعلقاً بالأرض ولصوقاً بها من أحجار المعبد على ضخامتها . قلت : إذن أين هما ؟ قالت : في الصحراء . قلت : وما لي لا أراها ؟ قالت : إنها صحراء صامتة خرساء قاحلة جرداء ، ولكن عليها أزخر حياة وملؤها أشهى حديث ، ولا يحس حياتها ولا يسمع حديثها إلا من أحبها ، ونسى نفسه فيها . قلت : وهل أحب الصحراء مثلي أحد ؟ قالت : أنسيت العاصفة وما أثارته فيك من خوف واضطراب ! مما فررت ؟ وعلام حرصت ؟ أعلى الصخرات ؟ قلت : لقد زالت العاصفة . قالت : ولكن آثارها لا تزال . وهل يزول في الوجود شيء .

سهرية القلمادى

تاريخ يعيد نفسه في شرق الأردن

يتفق الجغرافيون والمؤرخون فيما بينهم على كثير من الأشياء ، ولكنهم يختلفون على أمر واحد خطير ، يتصل بتقدير ما بين الإنسان والبيئة من علاقة ، وبتفسير حوادث التاريخ واتجاهاته الأساسية . فهل البيئة الجغرافية بمظاهرها المختلفة هي المسؤولة الأولى عن توجيه نشاط الإنسان ، وتعريف حوادث التاريخ ، وتحديد اتجاهاته ؟ أم إن الإنسان ، فرداً أو جماعة ، هو سيد الطبيعة ، والمسيطر الأول على الحوادث والتاريخ ؟ وأصحاب الجغرافيا مهما اختلفت نزعاتهم ميالون بحكم دراساتهم إلى تغليب أثر البيئة . بل يذهب بعضهم إلى إقرار ما يسمونه « بالحتم الجغرافي » . فالجماعات البشرية في نظرهم مسيرة بحكم ما تعيش فيه من ظروف طبيعية ، فالإنسان مهما كدح ومهما اجتهد فإن الطبيعة هي الغالبة . ولئن كان هذا الإنسان قد استطاع أن يحوّر بعض مظاهر الطبيعة بين حين وحين ، فإن ذلك التحوير لم يخرج بها عن قواعدها الثابتة وقوانينها الحاكمة . وغاية ما هنالك أن الإنسان استطاع بذلك أن يستغل موارد الطبيعة الصالحة ، فبدأ كأنه المتحكم فيها ، مع أن الأمر قد يكون غير ذلك ، فالطبيعة ذاتها كثيراً ما توجى إلى الإنسان طريق الاستغلال ، فتوجهه من حيث لا يشعر .

وأما أصحاب التاريخ فيندر بينهم من يبدأ بالبيئة ، أو يسلم لهم بأكثر من تأثير ثانوي . وكثرتهم تفضل ، بحكم الدراسة أيضاً ، أن تبدأ بالإنسان على أنه كائن حر التصرف ، في حدود ما تقضى به القوانين والنظم الوضعية ، أي التي توضع عليها الناس . بل إن حوادث التاريخ في نظر كثير من هؤلاء المؤرخين إنما ترتبط ارتباطاً مباشراً بأعمال الناس ، التي توجهها في الغالب إرادة نفر قليل هم قادة المجتمع وكتاب التاريخ .

ولكن الحق أن هذا الاختلاف بين الجغرافيين والمؤرخين لا يشملهم جميعاً ، وإنما هناك فئة من أولئك وهؤلاء ترى في هذا الاختلاف لوناً من ألوان التعصب

الفكرى لا مسوغ له ، ولا تقع فيه ؛ بل هو يناقض ما تقضى به روح العلم الصحيح من اتساع الأفق ورحابة الفكر ، ومن الاستعداد دوماً للأخذ والعطاء وتقليب الفكر بين الإقناع والاعتناع . وليس أضر على العلم والمتعلمين ، ولا أضر على البحث والباحثين ، من ضيق الفكر والتعصب لرأى معين أو مجموعة معينة من الآراء . ومن يدرينا ! فقد تكون التفرقة بين الإنسان والبيئة في حد ذاتها أمراً لا مسوغ له ؛ بل قد يكون الفصل بينهما وهماً لا وجود له في الواقع . فالإنسان عنصر أساسي من عناصر البيئة بمعناها الأشمل ، وبدونه لا تكتمل صورتها العامة ، ولا يكون للحياة على سطح الأرض طابعها المميز من وجهة نظر الجغرافى والمؤرخ على السواء . وليس من الممكن عقلاً أن تتصور تاريخاً يجرى في الطبيعة لو أنها عقت من الإنسان ، ولا أن تتخيل أن الإنسان يستطيع أن يخلق تاريخاً لو أنه عاش في الفضاء . وإذن فقد يكون عبثاً أن تفصل بين الاثنين ، أو حتى أن نحاول المفاضلة بينهما ؛ فقد تكون الطبيعة هي العنصر الغالب في مكان ما ، وفي زمان معين ، فيجرى النشاط البشرى في حدود معينة مرسومة ؛ أو قد يكون الإنسان هو العامل الأول فيستغل الطبيعة حيناً ، ويستجيب لها بمحض إرادته حيناً آخر . ولكن الشئ المهم أن النشاط البشرى في مجلته إنما هو نتيجة لما يتم بين البيئة والإنسان من تفاعل ، لا يهم فيه كثيراً أن تكون الطبيعة موجبة والإنسان سالباً ، أو أن يكون الأمر عكس ذلك .

وإذا نحن نظرنا إلى تاريخ البشر هذه النظرة ، فقد يعيننا ذلك على تلمس ما قد يكون هناك من حقيقة في الحجة القائلة بأن التاريخ يعيد نفسه . ذلك أن التفاعل بين البيئة والإنسان مهما اختلفت ظروفه التفصيلية فهو لا يخلو من بعض العناصر الأساسية الدائمة . فطبيعة البيئة الجغرافية من جهة ، وطبيعة النفس البشرية من جهة أخرى ، لا تتطور إلا في ببطء شديد ، ولا تتحول إلا بقدر معلوم ؛ وإذن فلا بد من أن تتشابه نتائج التفاعلات بينهما من عصر إلى آخر ، في المكان الواحد والمجتمع الواحد على الأقل .

وبقدر ما يطول التاريخ البشرى في إقليم ما ، تتعدد الأدلة والشواهد فيه على تشابه الحوادث وتكرارها على مر العصور . وظاهر أن الشرق الأدنى أحد تلك الأقاليم التى يطول فيها التاريخ . وقد يكفينا أن نبحت منه منطقة واحدة صغيرة لتبين تشابه بعض أوجه التاريخ وصوره من عصر إلى عصر . وسنختار إحدى

تاريخ بعيد نفسه في شرق الأردن

مناطقه الداخلية ، والتي كانت بمثابة حلقة اتصال بين أطرافه في الشرق والغرب وفي الشمال والجنوب ... تلك هي منطقة شرق الأردن ، التي كان تاريخها إلى حد بعيد صورة واضحة من تاريخ الاتصال بين مختلف أجزاء ذلك الشرق ، وارتباطها بعضها ببعض ارتباطاً شمل نواحي الحياة التجارية والثقافية والسياسية جميعاً .

ويقع شرق الأردن في قلب القسم الشمالي من الشرق الأدنى ؛ ويحتل الحافة الشرقية لمنخفض البحر الميت ، وهي مرتفعات مؤاب الوسطى ، وما يليها جنوباً في بلاد إدوم القديمة ووادي العرابة ، وشمالاً في شعاب اليرموك وروافده التي تنتهي إلى سهل الأردن . ويبلغ بعض مرتفعات مؤاب أكثر من ١٥٠٠ متر فوق سطح البحر ؛ وهي تتلقى الرياح الغربية الممطرة في الشتاء ، فتتصرف مياهها في أودية عميقة شديدة الانحدار نحو البحر الميت من جهة ، وفي أودية أخرى قليلة الانحدار ، تتجه نحو بادية الشام وأطراف صحراء النفود من جهة أخرى .

وهذه المرتفعات تكسو جوانبها الخضرة والأعشاب في أشهر الشتاء والربيع ؛ وتجوّد في أوديتها وأخواضها التربة ، ولطيب الغرس والزرع ولو في بقاع محدودة بالنسبة للمساحة الكلية . ولذلك كانت هذه المرتفعات قاعدة لحياة تمثل فيها جانب البداوة والتنقل ، وجانب التحضر والاستقرار . وقد حماها البحر الميت ومنخفضه ؛ فمنع عنها ما وقعت فيه أرض فلسطين من اضطرابات شغلت التاريخ إلا أقله ، كما حماها البادية والقيافي من الشرق ، فتمت لها بذلك الوقاية ، وضمن لها الهدوء النسبي من الغرب والشرق . ومع ذلك فقد اتصلت هذه المرتفعات ببقية الشرق الأدنى اتصالاً منتظماً عن طريق الجنوب والشمال ؛ وأصابها من ذلك الاتصال خير كثير وشر غير قليل . بل إن موقعها الجغرافي جعل منها عقدة التقت عندها روابط الشرق ، وتعاقبت أو أصره ؛ واحتكت فيها البادية بالحضر احتكاكاً لم يخل من عنف في بعض الأحيان ، ولكنه مع ذلك أنتج أطيب الثمرات .

وإلى الجنوب من مرتفعات شرق الأردن ووهاده تأتي الطرق من نواح متفرقة ؛ فيأتي طريق من الخليج الفارسي وشمال نجد وتيماء والجوف ودومة الجندل ؛ ويأتي طريق آخر من اليمن والحجاز وعين صالح وجبال مدين في شمال الحجاز (وهو طريق رحلة الشتاء والصيف في الجاهلية وطريق الحج بعد ذلك) ؛ ثم طريق ثالث من البحر الأحمر ورأس خليج العقبة حيث قام ميناء أيلة القديم وحيث تقوم العقبة الآن ؛ ويأتي طريق رابع من مصر وشبه جزيرة سيناء أو من

ميناء غزة إلى أطراف فلسطين الجنوبية ثم وادي عربة وأرض بطرا والنبط القدماء . أما من شمال مرتفعات شرق الأردن فيأتي طريق من العراق الأوسط وبادية الشام إلى اليرموك وشمال مؤاب ؛ وطريق آخر من العراق الأعلى وتدمر إلى دمشق وعَمَّان ؛ وطريق ثالث من سوريا الشمالية وحلب وحمص إلى دمشق وأرض حوران ثم الجنوب ؛ وطريق رابع من شمال فلسطين عابر الأردن حتى يلتقي بطريق الشام ويمتد إما جنوباً وإما شرقاً وإما صوب الشمال . وهذه الطرق التي أسلفنا جميعاً يلاقي بعضها بعضاً ، أو تتقاطع على الأقل ، في أراضي شرق الأردن . وقد سلكها التجار وحداة الإبل منذ أقدم العصور ؛ وجاء هؤلاء التجار من جميع أطراف الشرق الأدنى يحملون السلع ويجمعون في الأسواق ، فيتبادلون الفكر وألوان الثقافة ، وبذلك تعارف الشرق وتألف في كثير من الأحيان . كذلك سلكت الغزوات والحملات نفس هذه الطرق ، التي قامت عليها الحاميات ، وأقيمت فوق روايتها القلاع ، تشرف على الطرق وتحمي المسافرين وتنظم اتصال البادية بالحضر ، واحتكاك الرعاة والبدو بوسطاء التجارة والقائمين على تقطع التبادل والأسواق .

وهكذا كان شرق الأردن موقع اتصال واحتكاك منذ القدم ، واستمر كذلك على مر العصور . نفذت إليه السلطة المصرية من وقت إلى آخر ؛ وامتد إليه النفوذ العراقي في كثير من الأحيان ؛ وحاول أهل الشام وأهل فلسطين الشمالية وما وراءها أن يفرضوا سلطانهم عليه بين حين وحين ؛ بل إن أهل جنوب بلاد العرب والحجاز توسعوا في أطرافه الجنوبية واستقر بهم المقام في أكثر من مكان هناك . ولم يكن الأمر مقصوراً على هذه العناصر جميعاً ؛ وإنما امتدت الأيدي إلى شرق الأردن من أقاصي الأرض ؛ لأنه كان عقدة الشرق الأدنى ورباطه من الناحية العسكرية ؛ فنفذت إليه جحافل الرومان وأقامت حامياتها وعبّدت طرقها في ربوعه ؛ ثم اهتمت له بيزنطة فتدخلت في شؤونه العسكرية والسياسية إلى أبعد الحدود . ثم جاء عهد صارت فيه شؤون هذا الإقليم إلى أهله وسادته من أمويين وغيرهم . حتى إذا جاء العهد الصليبي نفذ الصليبيون من جديد إلى بعض قلاعه فأقاموا بها ، وكانت حامياتهم هناك شوكة في جنب العرب والمسلمين . فإذا ما جاء الأتراك العثمانيون اهتموا بأمره كطريق للحج ومنفذ إلى الأراضي المقدسة . وأخيراً جاءت الإمبراطورية البريطانية ،

فاتخذ رسلها ومبعوثوها إبان الحرب الماضية قيادتهم في فيافي هذا الإقليم الداخلي . وانهى الأمر في أعقاب تلك الحرب بأن حصلت بريطانيا على حق الانتداب على هذه المنطقة العسكرية الهامة ، التي غدت قاعدة حربية من الدرجة الأولى ؛ وقد برزت أهميتها بل تضاعفت إبان هذه الحرب المنتهية . وأغلب الظن أن بريطانيا ستستمسك ببعض الإشراف العسكري على أراضي هذا القطر الشقيق حتى بعد أن يحصل على استقلاله المرتقب ؛ فيقوم احتفاظها بقواعدها البرية والجوية هناك وإشرافها على ميناء العقبة على أساس الاتفاق والمعاهدة بينها وبين شرق الأردن ، بدلا من أن يستند إلى نظام الانتداب أو الوصاية أو غيرها من مظاهر الارتباط والتفويض والدولى .

ولن نستطيع هنا أن نسوق أكثر من أمثلة محدودة تبرز لنا قيمة هذا القطر من أقطار الشرق العربى ، وتبين لنا كيف أن التاريخ قد استعاد في عهده الحديث بعض صوره واتجاهاته الأساسية في بعض أعصره القديمة . ولم يكن ذلك إلا لأن قيمة هذا القطر كواسطة اتصال ونقطة سيطرة على طرق الشرق الأدنى وعلى منافذ أقطاره المختلفة كانت قيمة دائمة لا طارئة ، وكانت عاملا أساسيا باقيا ، أفاد منه واستجاب له سكان المنطقة نفسها ، كما أفاد منه واستغله كثير من الطامعين في السيطرة العالمية ، ومن امتدت أيديهم إلى الشرق الأدنى في تاريخه القديم وتاريخه الحديث على حد سواء .

وقد يكفينا في هذا الصدد أن نغنى عناية خاصة بالموازنة بين عهد الإمبراطورية الرومانية وعهد الإمبراطورية البريطانية . فكلتا الإمبراطوريتين كانت لهما يد أى يد في تصريف شؤون الشرق الأدنى وتوجيه تاريخه . وكلتا الإمبراطوريتين كانت لهما مصالح مادية فيما وراء ذلك الإقليم ذات المين وذات الشمال . وكلتاها لم تقنع بأن تكل أمر الوساطة التجارية بين الشرق والغرب إلى العرب وغيرهم من سكان هذا الشرق ، وإنما فرضت نفسها وسلطانها عليهم فرضا ، وتدخلت في شؤونهم بما يضمن لتجارتها الشرقية مع الهند وغيرها مرورا آمنا ورواجا مضمونا . وإذا كان التاريخ قد استعاد بعض فصوله في هذا الإقليم بين هذين العهدين المتباعدين فإن ذلك لم يكن مجرد المصادفة أو محض الاتفاق ، وإنما هو قد ترتب على اجتماع عدد من الظروف والعوامل الطبيعية والبشرية الواحدة أو المتماثلة في الحالتين .

ولكننا قبل أن نصل إلى الإمبراطورية الرومانية ينبغي أن نشير إلى من سبق الرومان في شرق الأردن ، أو في جانب كبير منه على الأقل . أولئك الأنباط أو النبط الذين ازدهرت حضارتهم خلال ستة قرون ، كان أعظمها ازدهاراً ذلك القرن الذي يتوسطه مولد المسيح عليه السلام . وكانت قاعدة ملكهم في سلاع أو بطرا التي تقع على الحافة الشرقية لوادي العرابة ، والتي لا تزال آثارها باقية منحوتة في الصخور الرملية الوردية اللون ؛ وهي التي نزلت في أصحابها الآية الكريمة «وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ» . وكانت بطرا هذه عند ملتقى عدد من طرق التجارة التي أشرنا إليها من قبل ؛ فكانت سوقاً هامة أفاد أصحابها من التجارة والوساطة التجارية في الشرق ، وأصابهم من اتصالهم بالعالم الخارجي خير كثير ، تمثل في تلك الحياة الثقافية والفنية الراقية التي امتازت بها مدينتهم العتيقة ، حيث انعكست في معابدها وهياكلها المنحوتة والمشيدة مؤثرات الفن الآشوري والفن المصري البطليسي والفن الإغريقي ، بل حيث تأثرت الحياة العامة بضروب مختلفة من المدنية المادية والتنظيم الاجتماعي ، وبألوان متباينة من الثقافة العقلية والفكر الديني ، بعضها سامي خالص توارثه النبط عن أسلافهم من الساميين القدماء في بادية بلاد العرب نفسها ، وبعضها سامي غير خالص أخذوه عن الآشوريين في الشمال وعن السبئيين والحميريين في أقصى الجنوب وفي مستعمرة عين صالح في شمال الحجاز ، ثم بعضها مصري قديم أو بطليسي مختلط ، وأخيراً بعضها إغريقي أو روماني أتى عن طريق شرق البحر الأبيض المتوسط . ومع ذلك كله فإن اختلاط المدنية والفكر والثقافة لا يجوز أن ينتقص شيئاً من قيمة حضارة النبط ؛ لأن الواقع أن شرق الأردن كان بحكم موقعه النقطة الوحيدة التي يمكن أن تلتقي فيها تيارات الثقافة المختلفة . وقد أثمر هذا الاختلاط ثمراته الطيبة ؛ وكانت ثقافة النبط وكتابتهم على وجه الخصوص أساساً من أسس الثقافة العربية والكتابة العربية التي ظهرت فيما بعد . والثابت الآن أن الخط العربي المعروف قد تطور عن الخط النبطي القديم .

وعند ما ظهرت أطماع الإمبراطورية الرومانية في الشرق القريب ، واقتربت تلك الأطماع بمصالحها التجارية في الهند ، ومصالحها الأخرى في بلاد الشرق الوسيط ، لم يقتنع أباطرة روما بأن تكون لهم قدم راسخة في مصر وشمال البحر

الأحر ، وإنما أدركوا أن حماية المصالح حماية كاملة تقتضي أن تمتد يدهم إلى شرق البحر المتوسط وشمال بلاد العرب ، ليضمنوا السيطرة على طرق القوافل ويؤمنوها للمسافرين من جهة ، وليمدوا أيديهم من هناك إلى رأس الخليج الفارسي ويشرفوا على بعض موانئه من جهة أخرى — والخليج الفارسي كان إذ ذاك ، كما هو اليوم ، أحد الطرق المؤدية إلى الهند ، بلاد الثروة والغنى ، ومورد كثير من النفائس والطيبات ! — وهكذا استقر رأى تراجان إمبراطور روما على أن يضع يده على مملكة النبط ، فغزا بلادهم في عام ١٠٦ الميلادي ، واستولى على عاصمتهم ، ثم على مدينتهم في أيلة ، ومد يده آخر الأمر إلى طرف الخليج الفارسي .

وتحول شرق الأردن إلى ولاية رومانية ، وبقي كذلك ، أو فيما يشبه ذلك ، بضعة قرون . وعنى الرومان بشأنه عناية خاصة ، لأنهم أدركوا قيمته العسكرية والتجارية إدراكاً كاملاً صحيحاً . وقد وطدوا نفوذهم فيه وحافظوا على سيطرتهم عليه بعدة وسائل : منها أنهم أقاموا الحاميات القوية في عدد من مواقعه الهامة ، حيث بنوا القلاع والشكنات ، وشيدوا الهياكل والملاعب وغيرها مما لا يزال قائماً في جرش شمال عمان ، وفي فيلادلفيا وهي عمان نفسها ، ثم في يثرا وهي سلاع أو بطرا التي تعرف الآن بوادي موسى . ومن وسائل الرومان أيضاً أنهم مدوا الطرق الرومانية المعبدة والمرصوفة رصفاً جيداً يسمح بمرور العربات الحربية وانتقال الجند ونقل العتاد وغير ذلك ، ولا تزال بقايا تلك الطرق قائمة حتى اليوم . ومنها أنهم جندوا الأعراب والبدو ، واتخذوا منهم جنوداً مرتزقة ، هم أقدر على العمل ، وأقوى في الحرب وأعمال الحراسة وحملات التأديب في البادية من جنود الإمبراطورية غير الأعراب . ومنها أنهم شجعوا حياة الحضر المستقرة على حساب حياة البادية المتنقلة ، فحفروا الآبار وبنوا الصهاريج ، وشجعوا الملكية الصغيرة ، فاستوطن البدو ، وبنوا بيوت الحجر الثابتة بدلاً من بيوت الشعر المنقولة ، فسهل بذلك حكمهم ، وسلس قيادهم . ثم منها كذلك ، وقبل ذلك ، تشجيع الرومان لعناصر « النخدن » وألوان الثقافة الجديدة في أن تتوغل في حياة الأعراب ، لا سيما بعد أن اعترفت الإمبراطورية بالمسيحية في القرن الرابع ، فانتشرت ديانة المسيح بين أعراب البادية تدريجياً منذ أواخر ذلك القرن ، وانتشر معها شيء من روح المساواة بين أعراب كان كفرهم من قبل منكراً ، وكان مراسهم شديداً . كل هذه وغيرها وسائل عمد إليها الرومان الغريون

والبيزنطيون الشرقيون من بعدهم لضمان سيطرتهم على هذا القسم من بلاد العرب . ولكن الشيء الغريب — أو لعله ليس غريباً — أنها كلها قريبة جداً مما تبعته الإمبراطورية البريطانية في الإقليم نفسه من وسائل كان القصد منها أن تؤدي إلى غاية رعى إلى مثلها الرومان منذ قرون وقرون .

ولكن الرومان لم يلبثوا أن أدركوا أنهم لن يستطيعوا أن يثابروا على حكم البلاد كولاية رومانية ، وأنه خير لهم وأبقى أن يستعينوا بالبدو أنفسهم وبسادتهم في حكم البلاد . وهكذا صالح الروم القبائل ورحبوا بتنوخ من قضاة ، عند ما جاءوا من جنوب بلاد العرب إلى خليج فارس ثم حدود الفرس فحدود الروم حيث تزلوا في أواسط القرن الثالث الميلادي ؛ كما رحب الروم بعد ذلك بظهور الغساسنة ، وتأسيس ملكهم على حدود الإمبراطورية ، وفي ظل حكم بيزنطة الاسمي . وقد وجد الروم في إمارة الغساسنة ومملكته بعد ذلك أداة طيبة تحمي حدودهم من ناحية البادية ، وناحية الفرس وعملاء الفرس في أرض الحيرة المقابلة على الجانب الآخر من بادية الشام . وبلغ من تشجيع بيزنطة لغسان أن توجت المنذر بن غسان ملكاً على العرب حول عام ٥٨٠ الميلادي ... ولكن المهم أن نهضة غسان لم تكن كلها راجعة إلى الروم وتشجيعهم ، وإنما هي كانت راجعة أيضاً إلى العرب أنفسهم إذ ذاك . فقد عرفوا كيف يستفيدون مما حولهم من ظروف ، وتحكموا في تجارة الروم وإمبراطوريتهم الشرقية ، وأفادوا من موقعهم الجغرافي إلى حد بعيد ، وأقاموا مجدهم على أساس من النهوض بالحياة في مظاهرها المختلفة ، لا سيما ناحية الفكر والثقافة . فكان بلاط غسان مركزاً تطور فيه الأدب والفكر العربي قبل الإسلام ؛ وكان صنوه في ذلك بلاط ملوك الحيرة اللخمين على حدود إمبراطورية الفرس في العراق .

فإذا ما نحن تركنا هذا العهد ، وانتقلنا إلى عهدنا المعاصر ، وظهر نفوذ الإمبراطورية البريطانية في هذا القسم من الجزيرة العربية ، وجدنا صورة من التاريخ لما تتم فصولها ، ولما يتكامل مظهرها النهائي ، ولكنها قريبة الشبه بما حدث في عهد الرومان الغربيين والروم الشرقيين . وقد بدأ البريطانيون يلتفتون إلى الشرق القريب في أعقاب حملة نابليون . وحاولوا أن يمدوا يدهم إليه ، ولكنها كانت محاولات متردة . فأتوا إلى مصر مرة أو مرتين في مطلع القرن التاسع عشر ، ولكنهم رُدُّوا عنها أو ارتدوا عنها ؛ لأنهم لم يكونوا فيما

يظهر جادين في أمرها ، كما كان الرومان تماماً أيام وفد يوليوس قيصر على مصر ثم رجع عنها . ثم جاء البريطانيون إلى مصر مرة أخرى في أيام الثورة العراقية ؛ ولكنهم كانوا قد استيقنوا من أمرهم وأمرها ، وآمنوا وصدقوا بقيمتها ، فعدوا النية على أن تكون لهم هذه المرة ! وكذلك تماماً فعل الرومان أيام واقعة أكتيوم ! وفوق ذلك فقد قنع الانجليز بمصر وبقناة السويس وطريق البحر الأحمر ؛ وبقوا كذلك ثلث قرن كامل قبل أن يفكروا بطريقة جديدة في أمر طريق الهند الآخر عبر بلاد العرب الشمالية إلى رأس الخليج الفارسي . ومثل هذا حدث أيام الرومان وإن كانت الفترة بين فتح مصر وفتح بطرا والوصول إلى خليج فارس طالت إذ ذاك إلى قرن وثلث قرن .

وحانت الفرصة مواتية لبريطانيا إبان الحرب العالمية الأولى . ولعل هذه الحرب ، وما طمعت فيه ألمانيا من الوصول إلى الهند عن طريق أملاك الإمبراطورية التركية والعراق بنوع خاص ، هي التي استعجلت اهتمام بريطانيا بشمال الجزيرة العربية ، وجعلت البريطانيين يسبقون الرومان في ذلك بقرن كامل ؛ مع أن الرومان ، والحق يقال ، لم يكونوا أقل من غيرهم حذقاً لشؤون السيطرة وفنونها . وقد بدأت بريطانيا سبيلها إلى التدخل العسكري في شؤون العالم العربي بأن استعانت بالعرب أنفسهم ، واستنجدتهم ضد الأتراك ، بعد أن بذلت لهم من الوعود ، وأخذت على نفسها من العهود ما هو معروف . وقد أرسلت بريطانيا عملاءها ومبعوثيها ، وبينهم لورنس الشهير ، فجدوا البدو وسلحوا الأعراب في قلب البادية ، وهاجموا مؤخرة الجيوش التركية في جنوب شرق الأردن ووسطه ؛ وكانهم بذلك قد دللوا على حصافة هيئة قيادتهم ، وحسن استقراءها للظروف الجغرافية العسكرية ، عند ما وضعت أصابعها على مفتاح الموقف في الشرق العربي الشمالي . ومهما قيل عن القيمة النهائية لمناوشات لورنس وأصحابه في قلب البادية ، فليس من شك في أن أقل ما فعلته أنها تفحخت في أعراب البادية ، وألهبت فيهم روح الثورة والكفاح ، مما انتهى آخر الأمر إلى إذكاء ثورة العرب ، وزعزعة حكم الأتراك من الأساس .

وعند ما استقر الأمر لبريطانيا بالانتداب على شرق الأردن عمدت إلى تمكين سلطتها وسلطانها بوسائل كثيرة : منها أنها أقامت الحاميات والمعسكرات والقواعد الجوية في كثير من مواقعه ، لاسيما عمان نفسها ، التي لم تلبث أن

برزت قيمتها من جديد عند ما جعل منها سمو الأمير عبد الله عاصمة للإمارة . ولا يملك من يزور عمان ، خليفة فيلادلفيا وورثة موقعها ، إلا أن يلحظ على إحدى ربوات المدينة موقع الحصن والحامية الرومانية القديمة ، وأمام آثارها بأسفل الوادي مدرج الملعب الروماني القديم ، وكنيس كان الجند فيما يظهر يؤدون فيه بعض ما عليهم من عبادة . فإذا انتقل الزائر إلى ربوة أخرى من ربوات المدينة وصعد إلى سطحها المستوي وجد قاعدة قوة الطيران البريطانية ، ووجد قبل ذلك معسكر الجيش العربي ، وإلى أسفله مسجد هذا الجيش . فإذا دقق الزائر استطاع أن يتعرف على آثار الطرق القديمة ومعالم اتجاهاتها الأساسية ، وهي الطرق التي حددت موقع المدينة منذ نشأتها الأولى ؛ ولا تزال الطرق الحديثة تتبع نفس الاتجاهات ، فتشخص إلى بغداد والشام ، أو تأتي من فلسطين ، أو تتجه نحو الجنوب إلى رأس خليج العقبة . وقد مد البريطانيون من الطرق العسكرية مثل ما مد الرومان من قبلهم . وكثيراً ما يلحظ المسافر على الطريق الحديث آثار الطريق الروماني المرصوف تجري في محاذاته . ولم يكن الرومان في إدراكهم قيمة شق الطرق وتعبيدها كأداة للفتح والاتصال أقل من خلفائهم البريطانيون ؛ بل إنهم ربما كانوا أحذق منهم إذا راعينا الزمن الذي عاشوا فيه ؛ وهذه بعض طرقهم لا تزال قائمة بعد أن مضى عليها ما يكاد يقارب ألفي عام . كذلك لم يقف البريطانيون عند شرق الأردن ؛ وإنما مدوا نفوذهم إلى خليج فارس كما نعلم ؛ بل إلى خليج العقبة نفسه ، حيث مكنوا لإمارة شرق الأردن من أن تحتفظ بميناء العقبة ؛ لأنه مهم من وجهة نظر الأسطول البريطاني ، وكذلك لأنه قاعدة لتدريب الأسلحة بالبحر إلى البدو في الصحراء . وربما كان هذا هو السر في أن بريطانيا وقفت إلى جانب شرق الأردن عند ما طالبت المملكة العربية السعودية بذلك المرفأً على أنه تابع لساحل الحجاز ومملكته السابقة .

ثم إن بريطانيا قد استعانت بالبدو في حراسة الطرق وتأمينها ، وفي تمكين الأمن ونشره ، كما فعل الرومان تماماً . وهذاها ذلك إلى تأليف الجيش العربي ، والاتفاق على تسليحه من الخزانة البريطانية . ويقال إن هذا الجيش يبلغ الآن زهاء ثلاثة عشر ألفاً ؛ بل يقال إنه قد بلغ الثمانية عشر ألف رجل ، وإنه مزود بأحدث الأسلحة ؛ وتتولى قيادته هيئة من الضباط البريطانيين . كما يقال إن

بريطانيا استخدمته وأفادت منه في إخماد ثورة العراق في الشرق ، وفي احتلال سوريا والشام في الشمال ، وفي حراسة حدود فلسطين ضد تهريب اليهود من الشمال الغربي ، كما أنجبت به ، أو ببعضه ، جيشها الثامن في مصر يوم تخرجت الأمور . ولعل هذا في حد ذاته يكشف لنا عن قيمة موقع شرق الأردن كقاعدة عسكرية يمكن أن تنبعث منها الجيوش والقوات إلى مختلف أرجاء الشرق العربي الشمالي في كل اتجاه .

كذلك انتهى الأمر ببريطانيا — أو لعله بدأ معها ، لأن البريطانيين كانوا أحكم من الرومان من هذه الناحية — بأن أدركت أن من غير الممكن ولا اليسير أن تحكم الإمبراطورية شرق الأردن كما تحكم الولايات والمستعمرات ؛ فالعرب ، وأهل البادية منهم بصفة خاصة ، لم يخلقوا لمثل ذلك ؛ ويظهر أن الله لم يجعلهم على ما جبل عليه غيرهم من أهل المدنية والحياة الناعمة ؛ فهم لا يتقبلون الضيم ولا يرتضون الحكم الخارجي المباشر . ولذا عمدت بريطانيا منذ البداية إلى ما لم يعتمد إليه الرومان إلا بعد حين وبعد دروس . فتركت بريطانيا حكم البلاد الداخلي لأمير شرق الأردن وسنده الجديد ؛ ومدت إليه يد المعاونة في أن يوحد الأعراب ويجمع كلمتهم في هذا الوطن الناشئ الصغير ، الذي لا يزيد سكانه على ثلث مليون . وفوق ذلك فإن العرب من جانبهم لم يدعوا كل أمورهم للبريطانيين ؛ وإنما أخذوا كثيراً من أسباب نهضتهم بأيديهم ؛ واستطاع أميرهم أن يشيع في بلاده وشعبه نهضة مادية وأدبية وقومية عامة يلمسها من يزور هذا القطر العربي . والطريف أن هذه النهضة الحديثة تشبه من وجوه كثيرة ما سبقها من نهضات في عصور التاريخ الغابرة ، وأنها تستعيد نهضة ألفي سنة بنوع خاص . فالأراضي الزراعية بدأت تتسع على حساب الفياق والقفار ، لا سيما في وادي الأردن نفسه ، وفي بعض الأودية والبقاع المرتفعة حيث يزيد المطر زيادة نسبية ، وحيث تجود التربة في كثير من الجهات . وحياة الزراعة والاستقرار بدأت تعم على حساب حياة البادية والتنقل وراء الكلاً والمرعى ؛ وبيوت الحجر أخذت تظهر وسط بيوت الشعر وخيام الوبر ، وطرق التجارة بدأت تفتح وأسواقها تزوج وتعمر . وثروة البلاد المعدنية بدأ البحث عنها واستغلالها . وموقع البلاد الجغرافي كقاعدة للتبادل والتجارة مع داخلية بلاد العرب أخذ يبرز من جديد ، ويفيد من أصحاب البلاد وسكانها . والنهضة الاقتصادية بصفة عامة ظهرت آثارها

ودلائها لكل زائر ، حتى لو كان سائحاً لا يعنى بغير المظهر . . . ويكفى أن يسير المرء في شوارع عمان أو غيرها من مدن شرق الأردن ، أو حتى أن يزور بعض نجوع الأعراب ليرى بنفسه كيف أن مستوى الكسب والمعيشة في هذا القطر الداخلي من العالم العربي لا يقل عنه في نظرائه من أقطار بلاد العرب بما في ذلك مصر (١) . كذلك نهضة البلاد التعليمية والثقافية تسير على منهج يبشر بخير كثير . وقد يكون من الطريف — والمفيد أيضاً من وجهة النظر المصرية والعربية العامة — أن نلاحظ أن ميزانية وزارة المعارف في شرق الأردن لا تزيد كثيراً على خمسة وأربعين ألفاً من الجنيهات . ولكن تلك الوزارة تعلم بذلك المبلغ ، أو تشرف على تعليم ، اثنين وعشرين ألفاً من التلاميذ ؛ لا يمكن أن يقال إن تعليمهم ينقص في كیفه وقيمتة عما تقدمه وزارة المعارف في مصر أو العراق مثلاً لتلاميذها . وآية ذلك ، أو إحدى آياته ، أن شباب شرق الأردن ، ممن لا يكلف الدولة تعليمهم أكثر مما يعادل جنهين مصريين اثنين للتلميذ في السنة ، يتمون تعليمهم الثانوي في بلادهم ثم يحضرون إلى مصر فيتابعون دراستهم في إحدى جامعاتها على خير ما يتابعه الطلاب الجامعيون من أبناء مصر . وفي ذلك مثال طيب يحسن أن تدرسه وزارة المعارف في مصر إن كانت تريد أن تحتفظ بمكاتها من زيادة النهضة التعليمية في الشرق العربي (٢) .

(١) أمضى كاتب المقال أياماً متنقلاً في شرق الأردن منذ ثلاثة شهور ؛ ولس فيما استطاع أن يلمس هذه الناحية بالذات . ويكفى أن تذكر أن متوسط أجر العامل العادي في عمان لا يقل الآن عما يعادل أربعين قرشاً في اليوم ، وكان قبل الحرب عشرة قروش . وقد ساعدت الحرب على رفع الأجور ، ولكنها لم تكن العامل الوحيد في ذلك ؛ فارتفاع الأجور في شرق الأردن يمثل ارتفاعاً حقيقياً في مستوى الكسب والمعيشة العامة ؛ أو على الأقل هو أدنى إلى أن يمثل ذلك من الحالة في بلد كمصر . وفي شوارع عمان لا يرى الزائر أكثر من ١٥ ٪ من الحفاة بالنسبة لمجموع السكان ؛ ولا يكاد يرى غير قليل من آثار سوء التغذية والفاقة بين طعام أهل المدينة . وكذلك الحال إلى حد ظاهر في البادية .

(٢) يتفق الجانب الأكبر من ميزانية التعليم في شرق الأردن على المعلمين أنفسهم . فلا يقل راتب المعلم عن ستة جنيهات في الشهر بحال ، ولو كان في أصغر مدرسة ؛ ولا يزيد كذلك على أربعة وعشرين . وفي ذلك من إنصاف هذه الطاقة وتحقيق العدالة الاجتماعية شيء كثير . بل إن ذلك ربما كان أحد أسرار نجاح التعليم في تلك البلاد رغم مواردها الحكومية المحدودة .

تاريخ يعيد نفسه في شرق الأردن

أرأيت معي يا صاحبي القاري كيف أن التاريخ يعيد نفسه في شرق الأردن؟ وكيف أن الحاضر، وما يلابسه من ماض قريب ومن مستقبل قريب أيضاً، يمكن أن يعتبر مرآة لبعض ما كان في الماضي البعيد من صور ومن فصول؟ ثم أرأيت معي أيضاً أن تجدد التاريخ واستعادته نفسه أمر طبيعي في كل هذا الشرق القريب ذي الحضارة العريقة والتاريخ الطويل؟ إن كان ذلك فلعلك توافقني على أن من المفيد أحياناً أن ندرس بعض تاريخنا، وأن نراجع صفحاته؛ فقد يكون في ذلك ما ينير السبيل أمامنا في استشفاف بعض ما ينتظر أن يكون عليه المستقبل؛ وما أشد حاجتنا في هذه الأيام، وفي هذا الشرق العربي كله، إلى أن نستبين معالم هذا المستقبل، ولو من بعيد!

مليانه هذين

رحلة في برقة (١)

لمحة تاريخية

تاريخ برقة من الموضوعات التي شملها الغموض والإهمال بين جمهور المؤرخين، بالرغم من أن المصادر التاريخية تشير بوضوح إلى ما كان لهذا الإقليم من مجد تالد ومدنية عريقة في العصور الغابرة . ويرجع أقدم عهدنا بظهور برقة على مسرح الحوادث في حوض البحر الأبيض المتوسط إلى القرن السابع قبل الميلاد ، حينما نزل جماعة من الإغريق من سكان جزيرة ثيرا من بحر إيجه على سواحل برقة ، واستوطنوا بها ، وأسسوا في سنة ٦٤٠ ق. م. مدينة ثورينا (الشحات) ، وهي أول المدن الخمس التي اشتهرت فيما بعد باسم « بنطابوليس » . بذلك تدخل برقة ضمن نطاق النفوذ الإغريقي الشرقي القديم في الوقت الذي يلاحظ فيه أن طرابلس تذهب إلى الفينيقيين المقيمين غرباً من قرطاجنة . وبعدئذ تتوالى الأحداث والغزوات التي تعزز هذا الاتجاه الشرقي في برقة منذ بداءة تاريخها . فغزوة قبيلز لمصر سنة ٥٢٥ ق. م. يتلوها خضوع برقة لسلطانه ، وما حدث في عهد قبيلز يتكرر بشكل أقوى وأوضح عند غزوة الإسكندر المقدوني لمصر

(١) أرى من واجبي وأنا في صدد الكتابة لأول مرة عن هذه الرحلة أن أبدأ بتقديم شكرى وتقديرى للجميع من تفضلوا بمساعدتي خلال مدة إقامتي في برقة ، سواء في ذلك رجال الحرب الذين يديرون دفة الحكم هنالك في الوقت الحاضر ، وإخواتنا العرب الذين يعيشون اليوم في أمن وطمأنينة . وأريد أن أخص بالذكر في هذا المقام والى برقة البريجادير د. س. كامنج Brigadier D. C. Cumming الذي لم يأل جهداً في تسهيل مهمتي بكل الوسائل الممكنة ، فقد وضع تحت تصرفي عربة خاصة أتوجه بها حينما شئت ، وأرسل معي مرشداً من رجاله الممتازين الذين يعرفون برقة وآثارها حق المعرفة ، كما أنه أنزلني ضيفاً مكرماً في نوادي ضباطه وفي دور الحكومة بالأقاليم حينما خلت . وإنى لولا هذه العناية الفائقة لما استطعت أن أقوم في أسبوعين فقط بما كان يصعب على القيام به في شهور لو أنني اعتمدت على وسائل النقل البدائية في بلاد واسعة الأرجاء لاكتنفها الطرق الحديدية أو المواصلات السهلة الحديثة .

رحلة في برقة

سنة ٣٣١ ق. م. ، وتظل برقة في أيدي البطالسة إلى أن تنتقل هي ومصر ذاتها لحكم الرومان سنة ٣١ ق. م. والحكم الروماني في برقة فآثر في مجمله ، لا يصحبه ذلك النشاط التجاري والإنتاج الزراعي الذي كانت البلاد تتمتاز به في العصر السابق . وأهم حادث في القرون المسيحية الأولى هو ثورة اليهود التي اندلع لهيبها في طول البلاد وعرضها سنة ١١٥ ميلادية ، عندما قام نحو خمسين ألف يهودي مساحين يقيمون في برقة ، وانهزوا فرصة غياب الإمبراطور تراجان وانشغاله في حروبه الشرقية على حدود فارس ، فذبحوا الأهلين الآمنين ، وأخذوا في تخريب المدن الإغريقية الزاهرة تخريباً منتظماً لمدة عامين كاملين ، حتى قيل إن برقة لم تستطع منذ تلك الحركة اليهودية العابثة استعادة مكاتها من العالم القديم في القرون السابقة . وفي سنة ٢٩٧ م. عندما قسم دقلديانوس الإمبراطورية الرومانية إلى قسميها الشرقي والغربي ، تذهب برقة مع مصر إلى القسم الشرقي البيزنطي ، وتبقى في حكم أباطرة القسطنطينية إلى أن تدخلها جحافل العرب الظافرة بقيادة عمرو بن العاص في سنة ٦٤٢ م. ولكن الفتح العربي لم يغير كثيراً من عادات الناس وعقائدهم وطرق معاشهم في برقة إلى نهاية القرن العاشر الميلادي ، غير أن قبائل البدو المعروفة باسم بني هلال وبني سليم تهاجر من الجزيرة إلى مصر فبرقة في القرن الحادي عشر ، وتعتبر هجرتهم هذه أعظم حادث في تاريخ برقة الوسيط ؛ لأن تلك القبائل العربية الخالصة تقيم هناك ، وتستأصل العناصر الغريبة عنها من إغريق وغيرهم شيئاً فشيئاً كما تختلط بالسكان الأصليين من البربر الرحالة وتمتصهم في صلبها ، فينتج من ذلك عنصر تغلب عليه العروبة ، وهو العنصر الذي ظل سائداً في برقة حتى اليوم ، بالرغم من استيلاء الأتراك عليها عام ١٥١٧ ، وقيام أسرة القره منلي التركية التي استقلت بها في سنة ١٧١١ . وفي سنة ١٨٣٥ يستردها السلطان مراد الثاني لسلطنته ، وفي سنة ١٩١١ تنتقل برقة مع طرابلس بمقتضى معاهدة لوزان إلى حكم الإيطاليين . إلا أن الحرب العظمى الأولى تحول دون دخول هؤلاء الحكام الجدد في مستعمراتهم الإفريقية ، ولا يتم استيلاء الإيطاليين الفعلي على طرابلس وبرقة إلا في سنة ١٩٣٢ بعد كفاح طويل مجيد من أهل تلك البلاد . ولكن الحرب العالمية الثانية كما يعلم الخاص والعام تستأصل شأفة المستعمرين الإيطاليين من إفريقية ، وتغير مجرى تاريخ برقة إلى هدف لا يعرفه اليوم إلا الله .

التعريف ببرقة

من الأمور التي تدعو للأسف جهل الشرقيين ببرقة جهلا يكاد يكون تاما ؛ وأغلب الظن أن هذا الجهل يرجع إلى عاملين : الأول وقوف الإيطاليين أيام استعمارهم في وجه الأجانب وردتهم عن زيارة ذلك القطر . والثاني إغراض الناس أنفسهم عن هذه الزيارة لاعتقاد شائع بأن برقة ليست إلا جزءاً من الصحراء الكبرى ، ومن ذا الذي يرغب في زيارة الصحراء ؟ وربما يدهش القارئ عند ما تؤكد له بأن نضرة الأودية ، وخضرة الجبال ، وجمال الطبيعة ، وتنوع المناظر التي تأخذ بمجامع الالباب ، ورقة الهواء وصفائه ، تتجلى في ربوع برقة ، حتى إن المرتحل ليؤخذ خياله وهو بين جبالها ووهادها إلى أجل ما في أوروبا الجنوبية من مرتفعات وأودية وسواحل تبهر الأنظار . وليس من المبالغة في شيء ما قاله بعض الكتاب الأوروبيين بأن طبيعة برقة وهواءها لا يختلفان عن طبيعة أواسط إيطاليا وهوائها ، على حين يصريح بعض علماء طبقات الأرض بأن الجبل الأخضر الواقع بين خليج سرت وخليج السلوم إنما هو امتداد لجبال أوروبا الجنوبية وإيطاليا على وجه أخص .

ويضاف إلى جهلنا بطبيعة برقة جهلنا بآثارها ؛ فقد اعتاد الناس على التفكير بأن ربوع برقة خالية من شواهد عزها القديم ورخائها التجاري العظيم في العصور اليونانية الرومانية . وحقيقة الأمر أن آثار برقة ظلت معالمها مطموسة حتى دخلها الإيطاليون ، فأوفدوا لها الوفود والبعثات العلمية التي أخذت في التنقيب وترميم الأبنية الأثرية المتداعية إلى آخر عهدهم بها . ومع أنهم كشفوا عن الكثير من تلك الآثار ، فلا زالت هنالك فرص هائلة لبعثات عدة في المستقبل ؛ إذ لا تزال في برقة مناطق أثرية واسعة لم تمسها يد الحفارين بعد . ومهما يكن من شيء فإن برقة أصبحت الآن طامة بالعاديات التي تستحق العناية والزيارة والبحث العلمي .

وخطأ آخر شائع بين الناس ، ألا وهو اعتبار برقة جزءاً من طرابلس بقدر ما هي في نظرهم جزء من الصحراء اللوية . وما هذا إلا نوع من الشطط الذي كانت تعليمه الدعاية السياسية والظروف الاستعمارية القاسية التي ربطت

وحلة في برقة

حتف برقة بطرابلس أيام الحكم الإيطالي . ولكن جغرافية برقة تختلف كل الاختلاف عن جغرافية طرابلس ؛ كما أن تاريخ برقة غير تاريخ طرابلس ، وقبائل برقة غير قبائل طرابلس ؛ فهم أنقى عنصراً في عروبتهم من أعراب طرابلس ؛ وأشد تمسكا بيداوتهم من غيرهم ، ولغتهم أقرب اللهجات إلى اللغة العربية الفصحى القديمة .

كل هذه المظاهر والخصال لمستها خلال رحلتى التى أضعتها اليوم بين يدي القارئ الكريم على أشد ما نكون من الاختصار ، حرصاً على صفحات « الكاتب المصرى » وما تحتويه من جواهر الكلم ، وأملاً فى إصدار رسالة أخرى مستقلة فى هذا الموضوع الذى يجب أن يكون له مكان فى مكتبة كل قارئ عربى .

الى طريق ثم درة

ركبت القطار الحربى الكبير الذى يبرح القاهرة فى يوم الأحد من كل أسبوع إلى طريق ، فكانت رحلة ممتعة على ما فيها من عناء ، يشاهد فيها المسافر ذلك المسرح الخالد الذى دارت فيه رحي وقعة العالمين بالصحراء الغربية التى تمتد آثارها من العامرية إلى مرسى مطروح وما وراءها . فى كل مكان يشاهد الانسان مناطق الأسلاك الشائكة التى تجمد الجهات العامرة بالألغام ، وطواير الديابات العاطلة ، والمدافع والعربات المحطمة ، وخطوط الدفاع المنقورة فى الصخر وغير ذلك من المشاهد العديدة التى ساعدت على فوات الوقت سراعاً ؛ إذ أننا تركنا القاهرة قبيل التاسعة صباحاً ووصلنا العامرية فى منتصف الثالثة بعد الظهر ، وشاهدنا ما أمكن مشاهدته فى منطقة العلمين حتى أدركنا الليل ، ثم أصبح الصباح علينا فيما وراء الحدود المصرية . وقبيل ظهر الاثنين وصل بنا القطار مرتفعات طريق الشرقية ، وعلى ذلك تكون هذه المرحلة الأولى قد استغرقت حوالى ٢٧ ساعة من القاهرة إلى طريق بالقطار .

هناك قابلنى مندوب الوالى ، وكان ترحابه بى حاشية . فبعد أن تناولت غذاء عربياً على مأثدته قمنا للطواف بالمدينة ، فإذا بشوارعها تكاد تكون خاوية ، وبيوتها فى جملتها مهدمة ، إلا ما أصلحه رجال الإدارة والحكومة لإقامتهم .

رحلة في برقة

وطبرق تقع على هضبتين يفصل بينهما وادٍ غير سحيق ، يهبط منه الواحد شمالاً إلى خليج واسع عميق هو ميناء المدينة ، ولا يرى فيه إلا إنسان غير المراكب الغارقة من فعل الغارات الجوية . ويبدأ من الطرف الجنوبي للوادي ذلك الطريق العظيم الذي عبده الإيطاليون من طبرق إلى حدود تونس ، ويبلغ طوله نحو ألفي كيلومتر . أما الهضبة الشرقية التي بها محطة طبرق فهي منطقة حرام تشغلها الجنود ويعمتها عتاد الحرب . وتقع المدينة أو بالأحرى ما بقي منها على الهضبة الشرقية . وليس بطبرق من آثار قديمة تذكر سوى أجزاء نافذة من الحائط الروماني ومخزن المياه البيزنطي وهو كبير وعميق في شكل مستطيل منقور في الصخور الجنوبية ليجتمع فيه ماء المطر للاستعمال وقت التحريق .

بعدئذٍ ركبنا السيارة الحربية التي خصصها الوالي لخدمتي ، واتجهت صوب مدينة درنة على بعد مائتي كيلومتر من طبرق ، وفي هذه المرحلة من الطريق تكثر على جانبيه آثار موقعة إفريقية الشمالية بين الحلفاء وجنود المحور ، من طواير مصفحة عاطلة ، إلى هياكل طائرات محترقة ، وعربات مقلووبة ، ومدافع قواعدها مهشمة ، وغير ذلك من أدوات القتال . ولاتنس مقابر القتلى يراها الرائي بين آونة وأخرى . وأول هذه المقابر وأوسعها مقبرة العلمين ، تظهر للمسافر من القطار على المرتفعات الشمالية في شكل ثلاث غابات كبيرة من الصلبان البيضاء ، أولها لقتلى الإنجليز ، والثانية للألمان ، والثالثة للإيطاليين ، ويرفرف عليها جميعاً في أعلى النقط علم أبيض كبير .

وأهم ما لفت نظري في هذا القسم الأول من الرحلة هو عظمة ذلك الطريق الكبير الذي عبده موسولينى في عرض البلاد ، ثم جعله مركزاً مبدئياً للنشاط الاقتصادي والزراعي في برقة ، فأسس المزارع على جانبيه ، وابتنى الاستراحات لضمان راحة المسافرين على مسافات تبلغ نحو عشرين كيلومتراً ، ولكنها أصبحت خاوية على عروشها ، إذا انتزع الأعراب الرحل أبوابها ونوافذها ، وحملوا ما كان بها من أثاث .

وبعد مسيرة أربع ساعات انحرف السائق بالسيارة عن الطريق الرئيسية شمالاً تجاه البحر . فلما وصلنا حافة المرتفعات الداخلية وإذا بنا نطل على منظر من أبدع ما رآته العين : يهبط الجبل فجأة إلى سهل شديد الخضرة ، ينتهى

رحلة في برقة

بخليج شديد الزرقة ، قامت عليه مدينة بيوتها ناصعة البياض ، تحيط بها الحدائق الغناء . وقد شغف الطليان بدرنة في أيامهم ، ووصفوها لجمالها بأنها جوهرة البحر الأبيض ، وزارها موسوليني في زمانه ، وآثار الترحيب به شاخصة في أعلى الجبل حيث 'نقشت' في حروف كبيرة جتارة العبارة W il Duce « ليحيى الزعيم » .

ليس في درنة مخلفات تاريخية قديمة تستوقف السائح ، ولكن جمال المدينة وحسن تنسيقها ، وصفاء حماماتها البحرية ، وتوفير سبل الراحة في منازلها ، وكثرة حدائقها ، ونظافة شوارعها ، وطيب هوائها ، جعلها محط رحال السائحين الإيطاليين في الماضي .

وقد شاهدت بها قباب المرابطين ، وزرت سوقها وتتكوّن من عدة شوارع ضيقة متراسة مرصوفة بالحجارة ومسقوفة بالخشب كعامة الأسواق الشرقية في أغلب مدن إفريقيا الشمالية . وتعدّ دار الحاكم فيها آية في فن المعمار ، وربما كانت المبالغة في تجميلها راجعة إلى إعدادها لاستقبال موسوليني .

قورينا

قورينا أو سيرين أو الشحات كما يسميها عرب برقة اليوم تقع على مسافة تبلغ نحو ثمانين كيلومتر غرب درنة على مقربة من الطريق الرئيسي ، وبينها وبين ساحل البحر عشرة كيلو مترات حيث توجد مينائها أبو لونيا التي تدعى الآن مرسى سوسة .

وقورينا عاصمة برقة القديمة في العصور اليونانية الرومانية ، كما أنها أهم مركز للعاديات في تلك البلاد ، وقد تعدل أعظم المدن والعواصم الاثرية مثل الأقصر وأثينا وروما إلى حد بعيد ، غير أن نصيبها من التخريب كان أدهى وأشد ، نظراً لما أنزله اليهود بها في ثورتهم الكاشحة سنة ١١٥ - ١١٧ م . حين ذبحوا سكانها ، وهدموا معابدها ومبانيها . ولقد حاول الإمبراطور هادريان أن يعيد لها مكاتها الأولى ، فبادر بينائها من جديد ، ولكن جهوده لم تثمر كثيراً ، إذ أن قورينا التي كانت مركزاً من مراكز الفن والثقافة

الإغريقية^(١) تأخذ بالرغم من ذلك في التدهور السريع ، ويهجرها من بقي من سكانها القبائل ، حتى إنك لتجدها وقد أضحت خراباً بلقماً في غضون القرن السادس الميلادي .

نشأت المدينة القديمة ، كما يتضح من آثارها ، على جبلين يفصل بينهما وادٍ ضيق غير عميق ، تكتنفه الطريق الحديثة الوحيدة التي قامت على جانبيها قرية الشحات اليوم . ويمكن تقسيم آثار قورينا إلى مجموعات ثلاث ، الأولى منها على قمة الجبل الغربي حيث الأكروبول ، وأهم مشتملاته قبر الملك باتوس مؤسس قورينا (٦٤٠ ق . م .) ، والسوق الكبيرة (الفوروم) التي تضارع في اتساعها ودقة بنيانها أسواق روما القديمة ، ومعبد جوبيتر ، وآخر لعبادة قياصرة الرومان (قيصرين) ، وعدد من القصور التي كشف عنها حديثاً ، نخص بالذكر من بينها قصر جانوس العظيم^(٢) من مؤسسات العهد الميلادي الأول ، ويمتاز إلى جانب دقة الفن والمعمار بأمثلة نادرة من الفسيفساء التي ازدانت بها أرض حجراته ، فهذه حجرة تتوسطها رأس ميندوسة ، وتلك أخرى صوّرت في أركانها رسوم آدمية تمثل الفصول الأربعة ، كلها ناطقة في ثوبها القشيب من الألوان الزاهية .

أما المجموعة الثانية فهي على الجبل الشرقي ، وتشمل المعبد العظيم للإله زيوس ، وملعب المدينة ، وبقايا كنيسة كبيرة من العصر المسيحي . غير أن الجانب من المدينة قد عفت أكثر رسومه ، ولم يبذل الآثريون والحفارون للآن جهداً مذكوراً للكشف عن معالمه الدارسة .

(١) من بين الأسماء الخالدة التي أنجبها ثورينا في عالم الفلسفة والأدب والعلوم الإغريقية تذكر على وجه التمثيل أريستيب (٤٣٥ — ٣٦٠ ق . م .) Aristippes تلميذ سقراط ومؤسس مدرسة قورينا الفلسفية ، وقلبياق (٣١٠ — ٢٣٥ ق . م .) Callimachus ، الشاعر اليوناني وإيراتوستين (٢٧٦ — ١٩٥ ق . م .) Enatosthenes أول جغرافي قاس محيط الكرة الأرضية ، وكارنياد (٢١٤ — ١٢٩ ق . م .) Carneades مؤسس الأكاديمية الجديدة في أثينا ، والأسقف المسيحي سينيريوس (٣٧٥ — ٤١٦ م .) Synesius آخر فلاسفة الأفلاطونية الحديثة .

(٢) إن جانوس هذا كان كبير كهنة الإله أبلاو ، ويزعم بعضهم أنه كان من أثرياء تجار قورينا وربما جمع بين الصناعتين بدليل الثروة والرفاهية التي في قصره ، ويظهر أنه عاش في القرن الأول وأوائل القرن الثاني الميلادي .

والمجموعة الثالثة واقعة عند مخرج الوادى حيث توجد هضبة تطل على السهل المنبسط عند قاعدة الجبلين . وعلى تلك الهضبة بنى القدماء من الإغريق معبداً للإله أبولو على مقربة من مغارة سميت باسم الإله نفسه ، ومنها تتدفق المياه الجارية من بطن الجبل ليل نهار ، وكان الناس يهرعون للاستشفاء بها من جميع أقطار العالم القديم . وإلى جانب معبد أبولو يوجد معبد أرتميس وهو صغير . وفي ناحيته الجنوبية حوض السباحة والجمامات العامة ، وفي أحد أبنائها مجموعة من التماثيل الفنية الرائعة ، يتوسطها تمثال كبير من الرخام للإسكندر المقدونى وهو نادر ، ورأس دقيقة الصنع للإله زيوس . وفي الجهة الشمالية وراء المعبد عدة أبنية ، أهمها دار التمثيل (هيبودروم) من العصر الرومانى وهى صغيرة بعض الشيء ولكنها من أحسن الأمثلة فى هذا الصدد .

ويحيط بكل هذه الآثار التى تمثل مدينة الأحياء حائط حصين كثيف طوله نحو ثلاث كيلواترات . وخارج هذا الحائط من كل النواحي ، تقع مدينة الأموات التى تفوق جميع مثيلاتها فى العالم اليونانى الرومانى القديم من حيث الكم والكيف على السواء . والناظر من الهضبة الغربية إلى سطح الجبل الشرقى يرى المئات بل الآلاف من المقابر المنقورة فى الصخر طبقات فوق طبقات من أعلى الجبل إلى أسفل السهل ، أكثرها قد كشف ، ولكن بعضها بدون شك لم يكشف عنه بعد . غير أن محتويات تلك القبور نهبت إلا التوايت الحجرية الثقيلة ، ولم يبق من النقوش الفنية على جدرانها سوى اليسير . ومن الظواهر الغريبة أن عرب تلك المنطقة وضعوا يدهم على أغلب تلك القبور ليستعملوها منازل لهم ومراحاً لقطعانهم فى الليل .

وأبولونيا أو مرسى سوسة ، وهى كما ذكرنا ميناء قورينا ، على مسيرة عشرة كيلومترات إلى الشمال الشرقى منها ، وليس فيها من الآثار سوى كنيستين من العصر المسيحى البيزنطى ، إحداها ترجع إلى القرن الخامس الميلادى ، وأغلب الظن أن عُمدها الكثيرة قد أخذت من بناء أو معبد وثنى أقدم عهداً . وفيها أمثلة حسنة من الفسيفساء ذات الرسوم الحيوانية والنباتية . أما الثانية فقد بناها الإمبراطور جستنيان حوالى عام ٥٣٥ م وجاء بأعمدتها الرخامية من محجره الشهير فى بروكونوسوس على شاطئ الدردنيل ، وحالتها أقل جودة من حالة الكنيسة الأولى لطغيان البحر عليها . أما المدينة الحديثة فهى أكبر بكثير من قرية

الشحات ، تأنق الطليان في تزيين ميادينها الفسيحة وشوارعها المستقيمة الواسعة بالأشجار الباسقة والنوافير الجميلة التي تتفجر منها المياه الجارية. ولا أدري لماذا نزع الطليان إلى طلاء منازلها باللون الأحمر الوردي على خلاف عادتهم في طلاء مساكنهم في بقية المدن بإقليم برقة باللون الأبيض الناصع .

ذكريات من الشحات

إذا ذكرت قورينا أو الشحات فلا أذكر معها آثارها فحسب ، وإنما أذكر رحلتى إليها من درنة وزيارتي رأس الهلال ومثزل بالبو الصيفي في الطريق ، كما أذكر البيت الذي خصصته لإدارة لسكنائى ، وأذكر يوماً قضيتته مع مشايخ عربان قبيلة الحاسة ، وآخر في زيارة قرية البيضاء .

أما رأس الهلال فالطريق المؤدية لها تتفرع من الطريق الرئيسية شمالاً عند مكان يدعى ملودة ، وطول الطريق الفرعية عشرة كيلومترات أسسها الجنرال بالبو أيام صولته خصيصاً للوصول إلى البقعة التي انتقاها لكي تكون مقره الصيفي . ولا نبالغ إذا قلنا إن المنطقة التي يخترقها المسافر في طريقه إلى رأس الهلال لا تقل في جلالها عن مناطق السياحة المعروفة بأوروبا ، حتى إن المتأمل في جبالها وأوديتها ليسبح به الخيال إلى جبال الغابة السوداء أو جبال ويلز أو منطقة البحيرات الإيطالية أو ساحل الريشيرا . أما مثزل بالبو — وهو اليوم قاع صفصف وأثر بعد عين — فإن موضعه آية من آيات الله في جمال الطبيعة وجلالها ، ابتناه صاحبه على رأس جبل صغير متفرع من سلسلة الجبال الغربية عند فم الوادى على غرار حصون القرون الوسطى التي طالما يراها المرء في سياحاته بوادى الرين ، يهبط منه البصر إلى سهل سحيق تتوسطه قرية رأس الهلال بين المزارع في حللها السندسية ، ويظهر البحر وراءها في زرقة عجيبة لم أشاهد مثيلها إلا من الطائرة على ارتفاع كبير . هنا تتجلى بحق روعة الطبيعة وهدوءها ، وهنا مهبط للوحى والشعر ، وهنا رقة الهواء وشفاءه .

وقرية الشحات ذاتها تذكرنى تماماً بقرى ويلز الشمالية ، كما يذكرنى المثزل الذى أسكننى الحاكم إياه بمنزل كنت أقطنه صيفاً فى إحدى تلك القرى النائية ، فهو مثله على جبل طال أطل منه على وادٍ فسيح تحده سلسلة أخرى من

رحلة في برقة

المرتفعات والتلال ، وجميعها مكسوة بالخضرة التي تريح البصر والنفس والدهن المضني ، وكلاهما خالد للهدوء ، ويتخلل البدن فيهما ذاك الهواء الجبلي المنعش ، غير أن متلى بالشجرات امتاز عن نظيره في ويلز بمحديقة تحوى من أشجار الفاكهة ومن الزهور ألواناً شتى لا نعرفها في تلك المناطق الشمالية الباردة . ولا أنسى يوماً قضيته مع المتصرف (أو الحاكم) بين مشايخ قبيلة عربان الحاسة داخل الجبل الأخضر في إحدى المزارع التي كان الإيطاليون قد عمثروها ثم هجروها أثناء الحرب (١) . فبينما نحن في طريقنا بين تلك المزارع ، لاحظت وجود خيام منصوبة بجوار البيوت المشيدة التي ابتناها المستعمرون الإيطاليون في الماضي واستولى عليها العرب في الحاضر . فلما سألت عن ذلك قيل لي بكل بساطة إن العرب يفضلون البقاء في خيامهم ويتركون المنازل للسعى (أى الماشية) في الليل . وإن دل هذا الموقف العجيب على شيء فإنما يدل على احتفاظ عرب برقة بحياة البداوة القديمة أكثر من إخوانهم الذين نزحوا من جزيرتهم الأصلية للحضر شرقاً وغرباً وشمالاً فتحضروا بحضارة أوطانهم الجديدة وذهبت بداوتهم هباءً منثوراً .

(١) مشروع الاستعمار الزراعي الإيطالي لبرقة من الموضوعات التي جلبت عليهم سخط العالم العربي ، لأنهم انتزعوا أكثر تلك الأراضي بالعنف ، وأسكنوا فيها أسرات المستعمرات ، وبنوا لهم فيها البيوت والمزارع . وفيما يلي بيان الأراضي الصالحة للزراعة مما استولى عليه المستعمرون الإيطاليون ما بين سنة ١٩٢٢ وسنة ١٩٣١ :

٤٣ر٤٤١	هكتاراً اشترت من العرب
٨ر٨٤٤	» تابعة أصلاً للحكومة (وهى الدومين)
٦ر٠٠٠	» صودرت من الثوار العرب
٦٢ر٢٢٥	» صودرت من الزوايا السنوسية
١٢٠ر٥١٠	» المجموع

والهكتار الواحد يساوى حوالى فدانين ونصف ، فتكون جملة ما استولى عليه الإيطاليون من الأراضي الزراعية يوازي أكثر من ثلثمائة ألف فدان ، بنوا عليها ما بين سنة ١٩٣٣ وسنة ١٩٣٩ من البيوت والمزارع المعدة على أحسن طراز أوربى ١٨١٥ منزل ومزرعة ، يراها المسافر على جانبي الطريق الرئيسية في الجبل الأخضر ، وبين المنزل والمنزل نحو أربعة كيلومترات للزراعة ، وتنقسم هذه المزارع إلى مجموعات ، لكل مجموعة في إقليمها الخاص شركة تعاونية لها مركز مشيد ، يشتري منها الزراع حاجاتهم ، ويودعونها محاصيلهم ، ويلحق ببناء الشركة صالة كبرى يقيمون فيها حفلاتهم ونشاطهم الاجتماعى ، وكنيسة يصل فيها المصلون يوم الأحد من كل أسبوع .

وصلنا الدار التي اجتمع فيها للقائنا مشايخ الحاسة ، وتناولنا طعام الغداء ، ولم يكن مع الأسف عربياً خالصاً كما كنت أرجو ولم يكن أورياً بحتاً ، وإنما أراد صاحب الدار أن يسر أنظارنا بما ظنه يثيق وذوقنا الحضري ، فقدم لنا الحساء فالدجاج والخضر مع الخبز الأوربي ثم من الفاكهة قدرأ من البرقوق والكثري والعنب ، وهي بلا شك من الأشجار التي زرعها سلفه الإيطالي ، فجنى ثمارها خلفه العربي . وكنت أود أن أجد نفسي جالساً القرفصاء في صحن الدار مع هؤلاء المشايخ حول نار متقدة نتناول من عليها شواء الماعز والخراف فنأكله كما كانوا يأكلون .

وإذا كان رجائي قد خاب في أمر البداوة القديمة عند الغداء فقد جاء ما أصلح خاطري في المراسيم البدوية الحديثة المتعلقة بعملية صنع الشاي وتقديمه للزائرين ، إذ جاء الابن الأكبر لصاحب الدار ، وجلس عند باب الحجرة ، وأمامه موقد عليه إناء فيه ماء ، ويجواره إناءان أخريان وثلاثة أطباق من القش المجدول ، على الواحد سكر أسمر ناعم ، وعلى الثاني شاي ، وعلى الثالث زبطة كبيرة من عيدان النعناع الأخضر . وبدأت صناعة الشاي في حركات سريعة بحذق ومهارة ، فهو يصب الماء المغلي على الشاي من إناء إلى إناء ثم يعيد صبه من جديد ، وغايته من ذلك أن يركّز الشاي إلى أقصى حدود التركيز ، وهو إذ يضع السكر مع الشاي بحفنته في نفس الإناء يتذوقه في قدح من الأقداح الصغيرة التي ستدار علينا ، ثم يعيد الكرة ثانية وثانية إلى أن يضبط مرارة الشاي خلاوته فدرجة تعطيره ، ذلك لأن التقاليد العربية البدوية تقضي بأن يدار الشاي على الزوار مرات ثلاثاً : الأولى يكون فيها مر المذاق ، والثانية حلواً ، والثالثة يضاف إلى الشاي فيها النعناع والسكر لدرجة الإشباع . وهكذا أديرت علينا عشرات الأقداح الصغيرة دورات ثلاثاً ، الواحدة تلو الأخرى تتبادل فيها نفس الأكواب على اختلاط بعضها ببعض بغير كلفة . فإذا ما انتهينا من شرب الشاي الحلو المعطر ، أصبحنا في حل للرحيل . ولكننا قبل أن نعود أدراجنا شاهدنا بعض حجات المنزل والاسطبلات والمخازن المنظمة التي بناها الإيطاليون على مثال أحدث المزارع الأوربية ، وكذلك البئر التي يحبسون فيها مياه الأمطار ، والحديقة العامرة بالكروم وأشجار الفاكهة والرياحين ، ثم ركبنا وركب معنا شيخ مشايخ العربان لتوديعنا إلى بابنا في الشحات .

رحلة في برقة

وأخيراً وليس آخراً أذكر زيارة قرية البيضا على مقربة من الشحات على الطريق المؤدى غرباً إلى المرج . وسيدكر التاريخ هذه القرية لسببين : الأول أنها كانت مركز قيادة رومل ، والبيت الذي كان يدير منه دفة الهجوم الإفريقي قائم يسكنه اليوم السيد إدريس زعيم السنوسية . والسبب الثاني هو أن موسولينى عند زيارته برقة قبيل هجوم المحور على مصر جمع مشايخ عربان المنطقة في الساحة الكبرى بتلك القرية لينخطب فيهم خطبته المشهورة في كلمة واحدة لاثاني لها ، فصعد مدرجاً جالياً بنى خصيصاً لهذا الغرض — وهو موجود إلى اليوم — وأخرج من جيبه منديلًا ولوّح به لسامعيه مشيراً إليه صارخاً « مصر » ثم وضع المنديل في أحداً كمامه وانصرف ، كأنما الاستيلاء على مصر في نظره من السهولة بقدر استخراج ذلك المنديل من جيبه ووضعه في كفه . فسبحان مخلف الظنون !

عزيز سوريال عطية

عصبة الأمم القديمة ، وعصبة الأمم الجديدة

١

كان مشروع عصبة الأمم أمنية دولية جميلة وردت لأول مرة ضمن النقط الشهيرة التي أعلنها الرئيس ولسون في يناير سنة ١٩١٨ لتكون دستوراً لعقد الصلح مع ألمانيا الإمبراطورية في الحرب العالمية الأولى . وقد تضمنت هذه النقط في الوقت نفسه أهم المبادئ الأساسية التي يجب أن تقوم عليها عصبة الأمم المستقبلية ، وهي العمل على تحقيق الاستقلال السياسي والسيادة الإقليمية لجميع الأمم صغيرها وكبيرها ، وتسوية المسائل الاستعمارية بمراعاة مصالح الشعوب ذات الشأن ، وضمان حرية البحار ، وإلغاء الحواجز الجمركية ، وخفض السلاح وغيرها . وبالرغم من أن تصريحات الرئيس ولسون لم تحقق كلها عند وضع معاهدة فرساي فإن قيام عصبة الأمم كان من أهم ما تحقق منها . وقد أدمج دستور عصبة الأمم بالفعل في معاهدة فرساي واعتبر جزءاً لا يتجزأ منها . وكان إدماجه على هذا النحو في صلب المعاهدة التي أمليت على الدول المهزومة ، وكانت تمثل يومئذ سلطان الحلفاء الظافرين فيما تضمنته من شروط فادحة ، من أعظم الأخطاء التي صدرت فيما بعد من هيئة هذه الهيئة الدولية الجديدة التي أقيمت لتعمل على منع الحرب وتوطيد أركان السلم ، وتحقيق العدالة الدولية بين الأمم .

وبدأت عصبة الأمم القديمة حياتها في أول يناير سنة ١٩٢٠ وهو تاريخ البدء في تنفيذ معاهدة فرساي ، واتخذت مدينة جنيف مقراً لها لكي تعمل في جو محايد بعيداً عن المؤثرات القومية . وانتظمت بها في البداية اثنتان وأربعون دولة ، منها ثمان وعشرون دولة متحالفة وأربع عشرة دولة محايدة ، وهو عدد الزداد فيما بعد إلى نحو ستين ، وذلك حينما انتظمت في العصبة دول الأعداء السابقين ، وفي مقدمتهم ألمانيا ، وبعض الدول الصغرى التي حصلت على استقلالها

مثل مصر والعراق . واتجهت الدول الصغرى والأمم المغلوبة بأبصارها إلى ذلك الصرح العتيد ترجو أن يكون قيامه فاتحة لهدد جديد في العلاقات الدولية ، وأن تظهر على يديه بتحقيق أمانها وحقوقها المسلوبة ، وأن يكون لها خير عون على مغالبة منطق القوة الغاشم وكبح جماح النزعات الاستعمارية الجشعة .

ولكن عصبة الأمم ما كادت تبدأ العمل لتحقيق مهمتها الدولية العظيمة حتى أخذت بوادر الشك تبدو حول تصرفاتها واتجاهاتها ، وأخذت الآمال العظيمة التي علقت على قيامها وخطورة رسالتها ، تنجو شيئاً فشيئاً ، وأخذت الدول الصغرى والأمم المغلوبة بوجه خاص تشعر بأن ما يحيط بنشاط العصبة من الأوصاف والداوى الخلافة ، مثل إقامة العدالة الدولية ، وتأييد حق تقرير المصير ، وإنصاف الدول المظلومة ، وأمثالها ، إن هي إلا ألفاظ جوفاء لاحقيقة لها . والواقع أن عصبة الأمم ما لبثت أن كشفت عن جانب الضعف الحقيقي في تكوينها ؛ فهي لم تكن سوى أداة للدول الظافرة الكبرى التي أنشأتها ، واستأثرت بالمقاعد الدائمة في مجلسها ، والتي ألقت فيها وسيلة دولية ناجعة لتحقيق ما ربهها البعيدة المدى ، والاستتار وراء ما يمكن أن تسبغه العصبة بصفتها العالمية ، على خططها من ضروب التأييد والتبرير . أجل استطاعت العصبة في بعض الأحيان أن تذلل بعض الأزمات الدولية الخطيرة ، وأن تضع حلولاً مقبولة لبعض المشاكل الإقليمية ، ولكنها لم تستطع بتصرفاتها وقراراتها أن تقنع دولة من الدول الصغرى ، أو أمة من الأمم المغلوبة ، بأنها تجري دائماً على مبادئ الحق والنزاهة . والامر بالعكس فقد كانت تصرفات العصبة دائماً إزاء هذه الأمم الصغرى يطبعها لون واضح من التحامل والإجحاف . ويكفى أن نذكر هنا موقف العصبة إزاء الأمم العربية التي وضعت تحت الانتداب ، وما اشترطته على العراق يوم طلبت الانضمام إليها من شروط فادحة لم تفرض على أية دولة أخرى .

وكما أخفقت عصبة الأمم في تحقيق مبادئ العدالة الدولية فكذلك أخفقت في تحقيق مشروع نزع السلاح الذي كان نجاحه من أعظم أهدافها . ثم كان بعد ذلك عجزها المؤلم عن دفع الاعتداء عن دول هي من صميم أعضائها ، مثل الصين والحبشة والنمسا وتشيكوسلوفاكيا وألبانيا ، واكتفائها بإصدار القرارات النظرية ، العقيمة في أخطر المواقف الدولية .

عصبة الأمم القديمة وعصبة الأمم الجديدة

ولما نشبت الحرب العالمية الثانية كانت عصبة جنيف جثة لا حراك بها .
وعبثاً حاولت أن ترفع صوتها الخافت لآخر مرة في أواخر سنة ١٩٣٩ ، حينما
نشبت الحرب الفنلندية الروسية . ولم يكن ثمة مجال لأن تعمل الهيئة التي عجزت
عن العمل المثمر في ظل السلام والتأييد الإجماعي ، تحت قصف المدافع وفي ظل
المعارك المضطربة . وسرعان ما غدت عصبة الأمم أثراً من آثار الماضي لا يدل
عليها اليوم سوى قصرها الفخم المهجور في قلب جنيف ، وسوى بعض آثارها
العملية في ميادين النشاط الاجتماعي والاقتصادي والثقافي ، مما كانت تقوم به
لجانها الفنية العديدة في هذه الميادين .

٢

على أن اختفاء عصبة جنيف في غمر المعارك الطاحنة لم يحل دون بقاء الفكرة
حية قوية خلال الحرب ذاتها ، ولم يمنع الدول الديمقراطية من أن تؤكد تمسكها
مرة بعد مرة بالمبادئ التي قامت عليها العصبة القديمة . وفي المؤتمر الذي عقد في
موسكو في أكتوبر سنة ١٩٤٣ أصدرت الأمم المتحدة قراراً بوجوب إنشاء
هيئة دولية عامة تقوم على مبدأ السيادة والمساواة بين جميع الأمم المحبة للسلام ،
وتفتح باب الانضمام فيها لهذه الأمم جميعها صغيرها وكبيرها ، وذلك للمحافظة على
السلام والأمن الدولي ؛ فكان هذا القرار بمثابة التمهيد لإنشاء عصبة الأمم الجديدة .
ونحن نعرف ما تلا ذلك من خطوات ، ففي أغسطس سنة ١٩٤٤ عقد مؤتمر
دمبرتون أوكس وفيه وضعت الأسس الدستورية للهيئة الدولية الجديدة .
ثم بحث مشروع دمبرتون أوكس في مؤتمر عالمي حافل عقد في سان فرانسيسكو
من أواخر إبريل إلى أواخر يونيو سنة ١٩٤٥ وشهدته أكثر من خمسين دولة ،
وفيه تم الاتفاق على ميثاق « الأمم المتحدة » أو عصبة الأمم الجديدة .

عقد ميثاق « الأمم المتحدة » عقب انتهاء الحرب الأوربية بأسابيع قلائل ،
وفي الوقت الذي حققت فيه الأمم المتحالفة نصرها الشامل على ألمانيا النازية ،
وأخذت الأمم تستقبل سمات السلم الأولى وتتطلع إلى المستقبل بقلوب مبهجة
تحدوها الآمال العظيمة . وبالرغم مما بدأ يومئذ في الميثاق من أوجه النقص ،
وبالرغم مما شعرت به الدول الصغرى من انتقاص لحقوقها ومكاتها وما ساورها

من جراء استئثار الدول الكبرى بالسلطان والتوجيه ، فقد اعتبر الميثاق دطامة عظيمة في صرح السلم المستقبل . ولما تم النصر على اليابان بعد ذلك بأسابيع قلائل زادت النفوس أملاً واستبشاراً ، واتجهت سائر الأمم بأبصارها إلى هيئة الأمم المتحدة أو عصبة الأمم الجديدة ، تلتمس على يديها الحلول الموفقة لسائر المشكلات التي يعاني منها استقرار السلم .

ولم يكن يخطر يومئذ ببال أحد أن حوادث الشهور الأخيرة من عام النصر سوف تغشى بأكدارها الكثيرة هذا الأفق المتألق ، وتقلب تفاؤل الشعوب بسرعة إلى موجة عامة من التشاؤم . فإخفاق أول مؤتمر لوزراء خارجية الدول الكبرى ، والتنافس الخطير على أسرار القنبلة الذرية ، ومشكلة إيران وتمزيقها على يد حلفاء الأمم ، والخلاف التركي الروسي ، وغيرها من المشكلات التي تعاقبت في الأشهر الأخيرة ، تسمم الأفق الدولي وتندّر بأخطر العواقب .

وفي ظل هذا الأفق الكدر المثقل بسحب الأزمات الدولية ، عقدت هيئة الأمم المتحدة جمعيتها العمومية الأولى في العاشر من شهر يناير بحضور ممثلي إحدى وخمسين دولة . ومن غريب الاتفاق أن يكون شهر يناير هو نفس الشهر الذي صدرت فيه تصريحات الرئيس ولسون الأولى عن عصبة الأمم (١٩١٨) ، وعقدت فيه عصبة الأمم القديمة جمعيتها العمومية الأولى (١٩٢٠) ، وهو أيضاً نفس الشهر الذي ألقى فيه الرئيس روزفلت تصريحه الشهير أمام الكونغرس عن الحريات الأربع (١٩٤١) .

وانتخبت الجمعية العمومية للأمم المتحدة الأعضاء المؤقتين لمجلس الأمن وهو أول وأهم الهيئات التي تقوم عليها . ونحن نعرف أن الدول الكبرى ، وهي بريطانيا وروسيا وفرنسا وأمريكا والصين ، قد احتفظ لها في ميثاق سان فرانسيسكو بالكراسي الخمسة الدائمة في مجلس الأمن . وانتخبت للكراسي الستة المؤقتة البرازيل والمكسيك وبولندا وهولندا ومصر وأستراليا . وقيام مصر في مجلس الأمن لتمثل كتلة الدول العربية مكسب أدبي لاشك فيه ، وقد اختيرت مصر أيضاً للجلوس في محكمة العدل الدولية ، وهي أيضاً إحدى الهيئات الملحقه بالأمم المتحدة . وكذلك مثلت الدول العربية الأخرى في مختلف اللجان التشريعية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية للأمم المتحدة . وكل ذلك حسن بلا ريب ، ولكن العبرة بالنتائج العملية . وربما كان لنا أن نتفاعل بمثل هذه

المكاسب الادبية في ظروف أخرى غير التي تجوزها مصر وتجاوزها بلاد الشرق الأدنى .

وقد سمعنا قبل انعقاد الجمعية العمومية للأمم المتحدة كلاماً كثيراً عن تحول السياسة البريطانية في الشرق الأدنى إلى وجهة جديدة ، واعتزامها أن تقوم بتغييرات سياسية تتفق مع الظروف الجديدة . وربما كان من علام ذلك التغيير ما أعلنه مستر بيثن وزير الخارجية البريطانية في الجمعية العمومية من أن الحكومة البريطانية تعترف في المستقبل القريب أن تعترف بـ الشرق الأدنى دولة مستقلة ذات سيادة . ونحن نعرف بالتجارب المرة ماذا يعنيه مثل هذا الاستقلال في نظر السياسة البريطانية . وكذلك صرح مستر بيثن في خطابه بأن بريطانيا تعترف أن تنزل عن انتدابها على الكرون وتوجولند وتنجانيقا (وهي مستعمرات ألمانيا السابقة) إلى مجلس الوصاية الدولي أحد هيئات الأمم المتحدة . ولكنها ستحتفظ بانتدابها على فلسطين حتى تنتهي لجنة التحقيق من مهمتها . ولا جديد في مثل هذا التصريح ؛ لأن نظام الوصاية الذي ابتدعه دستور الأمم المتحدة هو نظام الانتداب نفسه مدعوماً مشدداً .

٣

إن عصبة الأمم الجديدة تبدأ حياتها العملية في جو مليء بالسحب وروح الثقة في المستقبل تكاد تفيض بين الأمم ، وعوامل التشاؤم تخيم على كثير من الأمم التي كانت بالأمس القريب تحدوها أعظم الآمال .

فايران ترى كيانها على وشك الانهيار نتيجة للتدخل الأجنبي السافر . وتركيا تشعر بأنها مهددة بمثل هذا المصير . وسوريا ولبنان ترى كلتاها مصيرها يبت فيه دون رأيها بين الدولتين المحتلتين ؛ وتحتفظ إحداها بحق إبقاء جنودها في لبنان صوفاً لما تسميه مصالحها الخاصة . ومصر بعد كل الذي تكبدته في سبيل الأمم المتحدة وفي سبيل بريطانيا من التضحيات المادية والادبية الفادحة، ترى السياسة البريطانية تنظر إلى مطالبها العادلة وحقوقها المشروعة في الجلاء والسودان بنفس النظرة القديمة ، فتعتبرها مسائل قابلة للجدل والمنع والمنع ، وتأني عليها الدول المتحالفة أن تشترك في مؤتمر الصلح الخاص بإيطاليا مع ما لها من الحقوق

والمصالح الجوهرية في شهوده ، ومع ما لها من حقوق تاريخية ومصالح حيوية في بعض المستعمرات الإيطالية . وهذه الدول جميعاً من أعضاء عصبة الأمم الجديدة ، والمفروض أنها ، بمقتضى نصوص ميثاق الأمم المتحدة ، يجب أن تكون بعيدة عن كل اعتداء على سيادتها واستقلالها وأن من حقها الواضح أن تلجأ إلى مجلس الأمن الدولي إذا ما استهدفت هذه السيادة وهذا الاستقلال لأي مساس أو اعتداء .

وإنه لمن بواعث الأسف أن تكون المظاهر الأولى لنشاط مجلس الأمن في مشتهل حياته العملية مطبوعة بطابع الفتور والتردد ، فيما تراه الأمم ذات الشأن مسألة حياة أو موت لها . فقد رأت إيران مثلاً أن تثير مسألتها أمام المجلس ، وتناولها المجلس كارها متردداً ثم تنحى عن بحثها مؤقتاً مفضلاً أن تعالج بمفاوضات خاصة تجري بين الطرفين المتنازعين وهما إيران وروسيا . وليت شعري هل يستطيع المجلس إذا ما أخفقت هذه المفاوضات أن يصدر قراره بوجوب سحب روسيا وبريطانيا وأمريكا لجنودها من أراضي إيران المستقلة ؟ وهل تنزل الدول الثلاث عند مثل هذا القرار إذا ما صدر ؟ إن الظواهر الأولى تدل كلها على أنه ليس من المرجح أن يقدم المجلس على اتخاذ مثل هذه الخطوة الحاسمة في مسألة إيران أو غيرها من المسائل القومية الشائكة ، أو أنه يستطيع أن يفرض على إحدى الدول الكبرى القيام بأية خطوة لا تود اتخاذها مهما كان في ذلك من استجابة لمقتضيات الحق والعدالة .

وقد طرحت في نفس هذه الدورة مسائل شائكة أخرى مثل مطالبة روسيا لسحب الجنود الإنجليزية من اليونان ومطالبة أوكرانيا بسحبها من أندونيسيا . وتنوى سوريا ولبنان أيضاً إثارة قضيتهما أمام مجلس الأمن إذا لم تسحب الجنود الأجنبية منهما في الحال . ولكن مجلس الأمن لم يشأ أن يواجه الأمر قط برأي أو قرار عملي . فاتهت مسألة اليونان بسحب روسيا لطلبها وبقاء الاحتلال الإنجليزي . وأحيلت مسألة أندونيسيا لتسوى بمفاوضات خاصة بين هولندا والوطنيين وقرر المجلس أن بقاء الجنود الإنجليزية هنالك لاغبار عليه . ومن المرجح أن يقف المجلس إزاء مسألتى سوريا ولبنان مثل هذا الموقف . أو يكتفي باتخاذ بعض القرارات النظرية وكل هذه بوادر لا تبعث على التفاؤل . وهذا التناقض الواضح بين الحقائق الواقعة وبين ما نسمعه من التصريحات الرنانة في ساحة الأمم المتحدة عن حقوق الأمم وحرّياتها ، هو أخطر ما في الأمر

كله ، وهو أكبر بواعث التشاؤم وتزعزع الثقة . ونحن الآن نشهد تطوراً سريعاً في عقلية الأمم يعتبر نذيراً شديداً للخطورة . فقد خرج العالم دامياً ممزقاً من أروع صراع عرفه التاريخ قاست فيه الأمم أعظم المحن والكوارث ، وبذلت فيه أفدح التضحيات ، ولكنه خرج ليواجه بعد أشهر قلائل فقط حالة لم يكن تتوقعها معظم الأمم المحاربة والمسالمة على السواء ، وهي حالة أقل ما يمكن أن توصف به هو أنها تؤذن بأن الأمم الكبرى التي كتب لها النصر ، لم تعتبر بعبر الحرب المؤلمة ، ولم تنتهيا ويلات الحرب المروعة التي قاستها مدى ستة أعوام ، عن وسائلها ونزعاتها القديمة ، وهي التي كانت في ذاتها من أهم العوامل والأسباب في إضرام نار الحرب العالمية الثانية .

ولقد لبثنا خلال أعوام الحرب الستة نسمع خلال مناظر السفك والتدمير الهائلة أطيّب الوعود وأقدسها عن حقوق الأمم وحرّياتها ، وعن الغايات الإنسانية النبيلة التي تخوض الأمم الديمقراطية من أجلها هذا الصراع العالمي ؛ فكان عهد الحريات الأربع التي أعلنها الرئيس روزفلت أمام مجلس الكونغرس ، ثم كان ميثاق الأطلنطيق الذي يؤكد في غير موضع قدس الحقوق والحريات القومية ، وحق جميع الأمم الطبيعي في استقلالها واختيار الحكومات التي تلائمها ، كما يؤكد حقها في المشاركة في فرض الرخاء الاقتصادي . ثم جاء بعد ذلك مؤتمر يالطا في أواخر مراحل الحرب ليؤكد مرة أخرى ما جاء في ميثاق الأطلنطيق . وكانت هذه الوعود العظيمة الخلابية تبدو خلال الظلمات المدهمة كأنها بريق أمل ساطع تنطوي عليه سائر الأمم الصغيرة التي انحازت إلى جانب الديمقراطية ، تشاطرها المحنة وتوازرها بكل ما وسعت من القوى المادية والأدبية ، إيماناً بما قطعت على نفسها من عهود ومواثيق مقدسة .

والآن وقد انجلت الغمرة المروعة ، وخرجت الأمم المتحدة ظافرة منتصرة ، وعادت تتبوأ مكاتها من السلطان والنفوذ ، فما الذي نرى ؟ نرى العهود والمواثيق وقد غلت ألقاظاً عقيمة . ونرى الدول الكبرى وقد استأنفت سياستها القديمة في دعم نفوذها على حساب الدول الصغرى ، ونراها تتنافس في إحراز مناطق النفوذ ، وتتفاهم فيما بينها على توزيع المغام والأسلاب دون اكتراث لحقوق الأمم الصغرى . ونرى السياسة الاستعمارية الشرهة تعود إلى سابق عهدها بل أشد . وهكذا تتضاءل الآمال العظيمة التي عقدت على تحقيق العدالة

عصبة الأمم القديمة وعصبة الأمم الجديدة.

الدولية سراعاً ، وتشعر الأمم الطامحة إلى استرداد حقوقها وحرياتها ، بأنها خدعت وأنها تغدو مرة أخرى فريسة لمشيئة الظافرين المتحكمين .

إن التاريخ يعيد نفسه ، وإن أشد ما نخشاه هو ألا نجد في هيئة الأمم المتحدة سوى عصبة الأمم القديمة تتشح بثوبها الجديد . وإذا كان المقام لا يتسع هنا للمقارنة التفصيلية بين دستور العصبة القديمة ، وميثاق الأمم المتحدة ، فإنه يكفي أن نلفت النظر هنا إلى أن ميثاق العصبة الجديدة يحتفظ في هيكله بنفس الأسس القديمة . فالدول الكبرى تحتفظ لنفسها بالكراسي الدائمة في مجلس الأمن (وهو المماثل لمجلس العصبة القديمة) ، ونظام الوصاية يحل محل نظام الانتداب القديم ، ونزعة السيطرة القديمة التي تمحصر عليها الدول الكبرى لا تخفيها ألفاظ المساواة البراقة في الميثاق الجديد .

وتمتاز العصبة الجديدة فوق ذلك بأنها سوف تحتكم على أداة مادية من القوى العسكرية لتنفيذ قراراتها حين ترى تنفيذها بالقوة القاهرة . وإذا كان ذلك يندو من بعض الوجوه ميزة عملية فإنه من جهة أخرى قد يغدو خطراً إذا أسئ استعمال هذه القوة ، أو إذا لم تتوافر عناصر النزاهة والعدالة في قرارات العصبة ومراميها .

وقد أشار رئيس الوفد السوفييتي في خطابه في الجمعية العمومية إلى أن هيئة الأمم المتحدة يجب أن تختلف عن عصبة الأمم القديمة فضلاً عن أنها يجب أن تكون أداة فعالة لحماية مصالح الشعوب المحبة للحرية ، ويجب كذلك أن تشعر بأنها تعيش في جو سليم ، وأن العمل المشترك فيها يتم بوسائل جديدة . أما إحياء الوسائل التي كانت تتبعها العصبة القديمة فلا يترتب عليه سوى الضرر بهيئة الأمم المتحدة .

وفي هذه الملاحظة تمثل المسألة كلها . فإذا لم تبادر هيئة الأمم المتحدة إلى تقديم الأدلة العملية على أنها قامت لتحقيق العدالة الدولية بين سائر الأمم كبيرها وصغيرها ، وإذا لم تشعر الأمم الصغرى بالطمأنينة على استقلالها وحرياتها في ظل هذا الصرح الدولي الجديد ، فقدت الأمم المتحدة تأييد الشعوب وثقتها بسرعة ، وكان مصيرها المحتوم إلى ما صارت إليه عصبة الأمم القديمة .

محمد عبد الله عناية

أبو عبيدة

كان أبو عبيدة معمر بن المثنى ، شيخ الأدب في مدينة البصرة ، منذ قضي شيخه أبو عمرو بن العلاء ، وخلا مكانه في المسجد الجامع ، في منتصف القرن الثاني . وقد ظل بطلاً ذلك المكان أكثر من نصف قرن ، وظلت شخصيته القوية وصيته البعيد يجتذبان إلى مجلسه طلاب الأدب والمتأدين في البصرة وما وراءها . وقد تخرج عليه معظم الذين كانوا يمثلون الأدب ويوجهون الحياة الأدبية في ذلك العصر ، كالجاحظ والمازني وعمر بن شبة وأبي عبيد القاسم بن سلام وأبي حاتم السجستاني وأبي نواس وأهل طبقة من الشعراء كابي العيناء والحسين الضحاك .

وإلى جانب هذه الأستاذية القوية لذلك الجيل ، كان أصلاً من الأصول الكبيرة التي قام عليها الكتاب العربي ، واستمد منها النثر الفني . ولقد بلغت الكتب المسندة إليه نحو المائتين في الموضوعات المختلفة . وقد بقيت لنا منها بقايا نستطيع أن نضعه بها في موضعه الحقيقي من تاريخنا الأدبي .

وكان — فيما يبدو — من أنشط الناس في الدرس ، وأكثرهم تمثلاً للاتجاهات المختلفة في عصره ، حتى جاز لأبي عثمان الجاحظ أن يصفه بهذه العبارة : « لم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع العلوم من أبي عبيدة » . وهذه العبارة وحدها تدلنا على مكان أبي عبيدة من الحياة الأدبية والعقلية لذلك العهد ، وعلى المنزلة التي كان يتمتع بها بين تلاميذه وأهل عصره . ومع ذلك كله لم يكد الرجل يظفر من البحث الأدبي الحديث بأكثر من تلك الإلمامات البسيطة التي لا تكاد تغني عن العلم شيئاً . وقد كتب الأستاذ أحمد أمين شيئاً عنه في كتابه « ضحى الإسلام » في الفصل الذي عقده عن « اللغة والنحو والأدب » ، ولكنه جزء من فصل من باب من كتاب ، فلم تكن « هندسة الكتاب » تأذن بأكثر مما كتب فيه عنه .

وسنحاول في هذا الفصل أن نتبين أبا عبيدة متصلاً بعصره ، وبالتيارات الغالبة عليه ، وأن تتمثله تمثلاً مستمداً من آثاره . ومهما تكن الأقدار قد أصابت هذه الآثار فببديتها وأضاعت معظمها ، فلا محيص للباحث الذي يتلمس مظاهر الحياة الأدبية في القرن الثاني ، ويتتبع تاريخ النثر العربي في ملامساته المختلفة ، ويقتفي الأطوار التي مر بها الكتاب العربي ، من محاولة التعرف إليه واستبطن حقائقه ، بتقصي أخباره ونثار آثاره في المصادر المباشرة وغير المباشرة . وقد بقي لنا من آثاره قطعة من كتاب « مجاز القرآن » محفوظة في مكتبة الجامعة المصرية ، إلى جانب قطعة أخرى في دار الكتب المصرية ، ثم كتاب النقائض ، على نظر في ذلك نرجو أن نعرض له بعد . وفوق هذا لا يكاد كتاب من كتب الأدب العربي العامة يخلو من الرواية عنه ، والنقل لبعض آثاره ، في المواضع المختلفة ، وإن كان أكثر هذا النقل لا يسند إلى كتاب بعينه .

١

لا نكاد نعرف شيئاً عن أصل أبي عبيدة وأوليته — كما هو الشأن في أكثر أهل هذه الفترة المضطربة — إلا ما تحسسه تحسناً في بعض النصوص التي تروى عنه . ولدينا في ذلك نصان ذكرهما ابن النديم ، أحدهما عن علان (أو غيلان) الشعوبي ، يقول إنه من أهل فارس ، أعجمي الأصل . والآخر ينسب إلى أبي عبيدة نفسه إذ يقول : « حدثني أبي أن أباه كان يهودياً بباجروان » فأما فارس فهي ذلك الإقليم الذي يقع على بحر الهند أو الخليج الفارسي بين إقليم البصرة والاهواز وكرمان ، وهي إقليم إيراني عريق بعلمه من أول الأقاليم التي صدرت عنها النزعة الشعوبية واتخذت فيها منهجاً منظماً ، وأما باجروان فهي مدينة قصية على التخوم الإيرانية التركية ، والأمر فيها يختلف بين الجنس الإيراني والجنس الطوراني . ويقول عنها ياقوت : إنها « مدينة من نواحي باب الأبواب ، قرب شروان ، عندها عين الحياة التي وجدها الخضر عليه السلام ، وقيل هي القرية التي استطعم موسى والخضر عليهما السلام أهلها » . وباب الأبواب (دوبند) التي تقع بباجروان في نواحيها واقعة — كما يقول ياقوت عن الإصطخرى — على بحر طبرستان ، وهو بحر الخزر أو بحر قزوين ، بباجروان إذن واقعة في تلك

الأقاليم الجبلية التي تشرف على ذلك البحر . وحديث المستوفى عنها يجعلنا تتمثل موقعها تمثلاً أدنى إلى الدقة من هذا ؛ إذ يقول : إنها القصببة القديمة لإقليم موقان ، على أربعة فراسخ شمال برزند ، وموقان هي إحدى ولايات أذربيجان ، وإذن فهي إلى الجنوب الغربي من بحر قزوين . ويقول ياقوت في وصفها : « ولاية فيها قرى ومروج كثيرة ، يحتملها التركمان للرعى ، فأكثر أهلها منهم » . وهكذا تنتهي بنا هذه النصوص إلى تصور المفارقات الكثيرة التي تفرق بين « فارس » التي يذكرها نص إعلان الشعوب ، « وباچروان » التي يذكرها نص أبي عبيدة نفسه . على أنه لا تعارض عندنا بين النصين ؛ فنص أبي عبيدة يتعلق بأصله الأول ومقام أجداده ، والنص الثاني يتعلق بمنشئه ، حيث ولد ونشأ نشأته الأولى ؛ فالجهة منفكة كما يقول المنطقة ، إذ كان كل من النصين يعني شيئاً لا يعنيه النص الآخر . ومما يقوى لدينا نص أبي عبيدة : أن جده كان يهودياً من يهود باچروان ما يبدو من أن ذلك الإقليم كان من الأقاليم التي اتخذت الديانة اليهودية فيها مكاناً ظاهراً ، بدليل هذه الذكريات اليهودية التي تتصل به وتحموم حوله ، كما رأينا في النص الذي أوردناه عن باچروان ، ومثل هذا نجده في الكلام عن شروان ، إذ يقول ياقوت : « ويقولون بالقرب منها صخرة موسى عليه السلام التي نسي عندها الخوت في قوله تعالى : (قال أرأيت إذ أؤينا إلى الصخرة فإني نسيت الخوت) . قالوا : فالصخرة صخرة شروان ، والبحر بحر جيلان ، والقرية باچروان » ويصرح البشاري في كلامه عن بعض المدن هنالك بما يدل على أن اليهودية كانت ظاهرة في ذلك الإقليم ، كما في كلامه عن « إتل » و « خزر » في سياق الحديث عن « إقليم الديلم » .

وإذن فأبو عبيدة من أسرة يهودية خزرية الأصل ، حتى إذا كانت إحدى تلك الغزوات التي جعل المسلمون يشنونها على تلك الجهات وقع جده في الأسر ، ثم صار إلى فارس في ولاء أحد التيميين . وهنالك نشأت هذه الأسرة الصغيرة إلى جانب موالها : بني عبيد الله بن معمر التيمي ، حتى خرج منها معمر بن المثنى . وقد ولد في أوائل القرن الثاني ، على اختلاف كبير في سنة مولده بين سنة ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ . ثم يعترض هذه الأقوال كلها في سنة مولده نص يذكره ياقوت في ترجمة قتادة بن دعامة السدوسي ، يرويهِ التوزي عن أبي عبيدة إذ يقول : « ما كنا تفقد في كل أيام السنة راكباً من ناحية بني أمية ، ينبئ على

باب قتادة ، يسأله عن خبر أو نسب أو شعر . وقتادة هذا مات — كما يقول الأصمعي في حكاية ياقوت عنه — « بالبصرة سنة سبع عشرة ومائة ، في أيام هشام بن عبد الملك » . فإذا صح هذا الخبر ولم يكن محرفاً كان علينا أن نجعل مولد أبي عبيدة قبل سنة ١١٠ بسنوات .

ومهما يكن من أمر ، فقد نشأ معمر بن المثنى في البصرة — ولا ندرى متى كان انتقاله إليها من فارس — وقد صادفت نشأته هذه اليقظة القوية التي هزت العقل الإسلامي هزة عنيفة منذ ذلك الوقت ، حين جعل الموالي يحسون بشخصيتهم ، ويتوثبون ليظفروا لأنفسهم في ذلك المجتمع بالمكانة اللائقة بهم ، والجذيرة بتاريخهم وبالدور الذي قاموا به في التمهيد لهذه الدولة الجديدة . وكذلك أخذت تحفزهم هذه الحوافز القوية العميقة وما جعل يلابسها من ملابس مختلفة إلى مجازاة هؤلاء العرب في ثقافتهم ، ليكونوا نظراءهم ، إلى جانب استحيائهم ثقافتهم القديمة ، ثم ما يستتبعه الاستطرداد في هذه السبل من محاولة الغرض من العرب ، ثم ما يترتب على ذلك من شعور العرب بهذه المنافسة والمغالبة ، وما يوقظه ذلك في نفوسهم من الحرص ، وما يدفعهم إليه من التحفز والتسلح بشتى الأسلحة ؛ وبذلك امتلأ الجو نشاطاً وحيوية ، وأخذت الحياة الأدبية والعلمية تتخذ في مدينة البصرة ، منذ أول القرن الثاني ، مظهراً رائعاً ، لا في استحياء الآثار الأجنبية القديمة فحسب ، بل في درس الأدب العربي ومظاهر الحياة العربية درساً ذائباً منظماً كذلك ، بتأثير تلك الحالة التي ذكرناها .

في مثل هذه الفترات المضطربة التي تختلف فيها العناصر ، ويشتد التنافس ، وتعظم الحيوية ، يوجد نوع من الطموح الأدبي يغمر النفوس ويضع أمامها صوراً من المجد الأدبي متألفة فائنة . وكذلك أقبل صاحبنا معمر بن المثنى على الدرس واتخذ سبيله إلى العربية . وسنفسر هذا الاتجاه فيما بعد من بعض وجوهه . على أنا نستطيع أن نقول منذ الآن : إن لمكانة أبي عمرو بن العلاء في البصرة ولشخصيته القوية أثراً غير قليل في هذا التوجيه ، فاتخذ معمر شيخاً له ، وأخذ مكانه في حلقاته ، وكانت من أكثر حلقات المسجد توفراً وأحفلها بالطلاب . وقد ظل أثر أبي عمرو فيه أبقى الآثار وأكثرها غلبة عليه . وقد كان أبو عمرو رجلاً واسع المعرفة إلى حد بعيد ، حتى ليذهب الجاحظ

في صفته إلى القول بأنه « كان أعلم الناس بأمور العرب ، مع صحة سماع وصدق لسان » . ويصفه أبو عبيدة نفسه — كما يروى الجاحظ عنه — بقوله : « كان أبو عمرو أعلم الناس بالعرب والعربية والقراءة والشعر وأيام الناس ... وكانت كتبه التي كتب عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً له إلى قريب من السقف ، ثم إنه تقرأ فأحرقها كلها ، فلما رجع بعد إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حفظه بقلبه . وكان عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية » . وهذا الوصف الذي يصف به أبو عبيدة شيخه الأول وأستاذه الأكبر هو طابع علمه هو الذي ظل مخلصاً له ؛ فقد كان أكثر اتجاهه إلى علوم العرب والعربية والشعر وأيام الناس ، وكان مكبراً لهذه الناحية وفيها طمأ ، ملتصقاً بالأسباب المختلفة لتحقيقها ، فلم يكتف بالأخذ عن أبي عمرو ، بل ذهب يتلمذ على أحد تلاميذه المطبوعين بطابعه ، وهو أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب . وهو وإن كان يختلف عن أستاذه أبي عمرو بأنه كان من هؤلاء الموالى الذين اتجهوا إلى درس العربية ، قد كان أعرابي الطابع ، و « كانت حلقة تجمع فصحاء الأعراب وأهل العلم والأدب » كما يقول ياقوت . ويذكر أبو عبيدة أخذه عنه بقوله : « اختلفت إلى يونس أربعين سنة أملاً كل يوم ألواحى من حفظه »

ثم لم يكف هذا أبا عبيدة في إرضاء تلك النزعة ، فاتجه إلى الأعراب أنفسهم ، يأخذ عنهم ، ويستتم مادته بما يلقونه إليه من الأخبار ، وما ينشدونه من الشعر . ولم يذكر ابن النديم ولا البغدادى ولا ياقوت في ترجماتهم له هذا الأخذ عن الأعراب ، ولكن ابن النديم ذكر في الفصل الذي عقده بعنوان : « أسماء فصحاء العرب المشهورين الذين سمع منهم العلماء وشئ من أخبارهم وأنسابهم » رجلاً من هؤلاء الأعراب اسمه أبو سوار الغنوى ، وفي حديثه عنه ذكر أن من أخذ عنه أبا عبيدة . وأبو سوار هذا هو الذي يذكر في الأغاني أحياناً بهذه الصورة : « أبو سوار » وإحدى الصورتين محرفة عن الأخرى ، والأقرب عندنا أنه أبو سوار لا أبو سرار

ونحن نستطيع أن نعرف — عدا أبي سوار هذا — كثيراً من أسماء الأعراب الذين أخذ عنهم أبو عبيدة ، من خلال الفصول التي نقلها عنه صاحب الأغاني ، فمنهم من الغنويين ، أبو يحيى ، وعبد الحميد بن عبد الواحد ، ثم أبو برزة القيسى ، وأبو حية النيرى ، وأبو محمد عصام العجلي ، ومقاتل الأحول

ابن سنان ، ومالك بن عامر بن عبد الله بن بشر بن عامر ملاعب الاسنة ، إلى غير هؤلاء ممن يذكر في هذه الفصول وفي غيرها ككتاب النقائص . وإذا كنا لا نكاد نعرف شيئاً عن أكثر هؤلاء الأعراب ، فإننا نلاحظ — أول شيء — أن الأخبار التي يرويها عنهم إنما هي في الأعم الأغلب أخبار تتصل بقبائلهم . ولعلنا نستطيع بالإلحاح في الدرس وتتبع رواياتهم ومقابلتها ، أن نتمثل شيئاً عنهم ، وعن الأجواء التي كانت تحيط بهم .

وهكذا نرى أبا عبيدة قد حدد اتجاهه ، منذ تعلمد على أبي عمرو ، بعالم العرب من لغة وشعر وخبر ، ثم أخذ يوغل في هذا السبيل حتى استطاع أن يأخذ مكان أستاذه من بعده . ولا تكاد كتبه التي تدل أسماؤها على موضوعاتها ، ولا آثاره وأخباره المنثورة ، فيما وقع إلينا ، تتجاوز ذلك . وإن ذهب الأستاذ أحمد أمين في الفصل الذي أشرنا إليه إلى أنه كان موزعاً بين ثقافات ثلاثة : يهودية وفارسية وعربية . والأصل في هذا — كما يقول الأستاذ — إنه « فارسي الأصل ، يهودي الآباء ، تيمى بالولاء » . وظاهر أن هذا لا يكفي فيما ذهب إليه . وقد يكون للرجل ثقافة ما فارسية أو هندية أو ما إلى ذلك ، ولكنه كان يتلقفها مما كان يغمر الجو العلمي والأدبي في البصرة ويشيع فيه ، كالذي جاء في كتاب الآمال^(١) مما نسبته إليه أبو حاتم ، من حكاية بعض الحكم الماثورة عن فارس ، أو ما جاء في عيون الأخبار^(٢) من حكايته عن بعض الهنود المقيمين بالبصرة شيئاً مما يتعلق بالبيطرة أو طب الخيل .

وقد عرف بهذه الناحية ، وأقبل عليه الطلاب يلتمسونها عنده . وكان ينافسه على هذه المنزلة فيها أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي . وكان الأصمعي يُدَلِّ بمكانته لدى السلطان ، وبقدرته على حفظ الأخبار وحسن أدائها ، واختلاجه الأسماع بذلك ، ولهذه الصفات قيمتها في مجلس السمر ، فهو — كما يقول أبو نواس في صفته — بلبل في قفص ، ولكن غناءها في حلقات الدرس غير كبير . فأما أبو عبيدة فكان أستاذاً قبل كل شيء ، وكان طلاب الأدب يكبرونه لأستاذيته هذه ، ويُقبلون على حلقاته ، لأنهم — على حد تعبير بعضهم — « كانوا إذا جاءوا مجلس الأصمعي اشتروا البعر في سوق الدر ،

(١) ١ : ٢٤٠ — (٢) ١ : ١٥٩

وإذا أتوا مجلس أبي عبيدة اشترى الدر في سوق البعر ؛ لأن الأصمعي كان حسن الإنشاء والزخرفة ، قليل الفائدة .

ولسنا نعلم إلى أي مدى بلغت هذه الخصومة بين الرجلين . ولكننا نستطيع القول بأن أبا عبيدة ظفر بخصمه في حلقات الدرس في البصرة أولاً ، ثم ظفر به بعد ذلك لدى السلطان في بغداد . وقد جاءه هذا الظفر عفواً ، وتهيأت له أسبابه دون أن يقصد إليه . وقد ذكر صاحب الأغاني طرفاً من هذه الأسباب ، في أخبار إسحاق بن إبراهيم الموصلي ، قال :

« كان إسحاق يأخذ عن الأصمعي ويكثر الرواية عنه ، ثم فسد ما بينهما ، فهجاه إسحاق وثلبه وكشف للرشيده معاييه ، وأخبره بقله شكره وبخله وضعة نفسه وأن الصنيفة لا تزكو عنده ، ووصف له أبا عبيدة معمر بن المثنى بالثقة والصدق والسماحة والعلم . وفعل مثل ذلك للفضل بن الربيع واستعان به ، ولم يزل حتى وضع مرتبة الأصمعي وأسقطه عندهم ، وأنفذوا إلى أبي عبيدة من أقدمه . »

وهكذا أتيح لأبي عبيدة أن يدخل بغداد ويتصل بالسلطان فيها ، وأن يشهد الحفاوة به في مجلس الخليفة وأهل خاصته ورجال دولته كالفضل بن الربيع وإسماعيل بن صبيح . وكان ذلك سنة ١٨٨ كما نص على ذلك الخطيب البغدادي ، أي بعد نكبة البرامكة ، وإن ذكر الأستاذ أحمد أمين ما يشير إلى صلته بهم ، وأنهم « كانوا يقدمونه على الأصمعي ويزاحمونه به عصبية منهم » . ولا يكاد يستقيم هذا مع ما يذكره الأصمعي والبغدادي من ملائسات دخوله بغداد ، وأن ذلك كان من عمل الموصلي والفضل بن الربيع . ونحن نعرف بعد ماذا كان بين الفضل بن الربيع هذا والبرامكة من جفوة وعداء ، وهذا فضلاً عن التاريخ الذي أشرنا إليه .

ولبت أبو عبيدة في بغداد فترة من الزمن ، قرئت فيها كتبه عليه ، قرأها عليه علي بن المغيرة الأثرم الوراق ، واتجه فيها إلى وضع كتابه مجاز القرآن . ثم لم يلبث أن عاد إلى البصرة ، وكان هذا الكتاب من أول ما عني بوضعه بعد عودته ، وكان من أكثر كتبه إثارة للموجدة عليه ، وبعثاً للخصومات ضده . وكان الأصمعي رأس هذه الحملة التي وجهت بسبب هذا الكتاب إليه .

وقد ظل بقية حياته في البصرة موفور النشاط في الدرس وإخراج الكتب ،

وإلى جانبه وراقه الخاص به ، أبو غسان ربيع بن سلمة العبدى ، المقب بدماء .
وربما كان أول من اختص بين العلماء والمؤلفين بوراق يروى كتبه وينسخها
ويذيعها وينزل منه مترلة الراوية من شاعره في عهد الشعر .

٢

وبعد ، فقد كان أبو عبيدة — كما رأينا — خزرى الأصل ، من هذه الأقاليم
التي ظلت ميداناً للحروب المتصلة بين الإيرانيين والآتراك ، وظلت مضطربة بين
هذه الجنسين ، وإن بقي العنصر التركي غالباً عليها ظاهراً فيها . وإذن فالقول
بفارسيته فيه تجاوز كثير ، والمبالغة في استنتاج النتائج من هذه الفارسية ،
وتفسير الظواهر المختلفة بها ، مجانبة للدقة . ولسنا نقطع بشيء إلا أنه من هذه
الأقاليم النائية ، وتلك الأجناس البعيدة التي لم تكن دخلت بعد في معترك
الأجناس في العراق . ولهذا الحقيقة عندنا أثرها في توجيه حياته .
ولعل مما يلفت النظر ويدعو إلى التساؤل أن نجد كثيراً من رواة اللغة
والأخبار وصور الحياة العربية في هذا العصر ينتسبون إلى هذه الأقاليم وتلك
الأجناس ، فإلى جانب أبي عبيدة في البصرة نجد خلفاً الأحر ، وهو ليس إيرانياً
على إطلاق القول ، إذ كان من فرغانة ، فيما وراء النهر ، على تخوم التركستان .
وفي الكوفة حماد الرواية ، وهو ليس إيرانياً كذلك ، بل هو من تلك الأقاليم
التي ينسب إليها أبو عبيدة ، إذ كان من بلاد الديلم . وفيها ابن الأعرابي ، وهو
سندى الأصل ، إذ كان أبوه — فيما يقول ياقوت — عبداً سندياً . وهذه
ظاهرة غريبة ولا ريب ، تكاد تؤدي بنا إلى القول بأن رواية الحياة العربية
بأشعارها وأخبارها مرادة بين العرب كأبي زيد والأصمعي والفضل الضبي ،
وبين هذه الأجناس البعيدة كأهل الديلم وفرغانة والسند ، كما رأينا في أبي
عبيدة وخلف وحماد وابن الأعرابي . فما تأويل هذه الظاهرة ؟
يقول الأستاذ أحمد أمين عن أبي عبيدة ، في سياق الكلام عن طابع علمه ،
إن فارسيته حرزته من الخضوع للعصبية العربية . ولكن هذا إذا جاز أن
يقصر نزعة الشعبوية ، فإنه يتعارض تعارضاً كبيراً مع هذا الاستغراق الشديد
في الحياة العربية متمثلة في أشعار العرب وأخبارهم ، كما لاحظته معاصروه ، وكما

قراه واضحاً جلياً في هذه البقية الباقية من آثاره ، وحتى جاز له أن يقول وأن يقبل هذا القول منه : « ما التقي فرسان في جاهلية ولا إسلام إلا عرفتهما وعرفت فارسهما » . ولو أنه كان يدرس الحياة العربية ليستخرج منها مثالب العرب إرضاء لفارسيته كما قد يذهب الزعم لقد كان يكفيه في ذلك القليل من درس هذه الحياة ، ولما اقتضى منه ذلك المذهب هذا « الاستغراق » الذي يبهرننا حقاً حين نقرأ بعض الآثار التي بقيت لنا منه ، وفيها إلى جانب الصور العربية التي يمكن أن توصف بأنها زرّية كثير من الصور النبيلة المجيدة التي تبعث على الفخر ، والتي هي جديرة أن تقوى العصبية العربية . لقد كان حق القول أن يقال : « إن فارسيته أقبلت به إلى الثقافة الفارسية » . وهذا ما لا نكاد نجده عند أبي عبيدة ، ولدينا جزء غير قليل من آثاره ، كما أننا نعرف أسماء كتبه ، وقليل بينها ما يحتمل الاتجاه الفارسي .

ولكن عبارة الأستاذ أحمد أمين مع هذا تفتح لنا السبيل إلى تفسير هذه الظاهرة التي ساءلنا عنها . فإذا كانت فارسية أبي عبيدة مما يحرره من الخضوع للعصبية العربية ، فإننا نستطيع القول بأن جنسية أبي عبيدة الخزرية مكنته من التحرر من العصبية الفارسية والعصبية العربية جميعاً . وكذلك يمكن أن يقال هذا عن بقية الرواة الذين أشرنا إليهم ، كجهاد وخلف وابن الأعرابي . على أنه ربما كان لمثل هذه الجنسية أثر في التمكين لهم من هذا المذهب الذي اتجهوا إليه ، وهو التحرر من ربة الإلف للحياة العربية ، وهو الإلف الذي يحيط بالعربي ، ويصد عنه شعور العجب ، وهو الشعور الذي يعتبر من أكبر البواعث على أن يتنبه الرجل لما حوله تنبهاً قوياً ، حتى يراه جديراً بالتسجيل .

ذلك أن هذه الجنسية كانت لا تزال حتى ذلك الوقت بعيدة عن معترك الأجناس التي كانت تضطرع على السلطان ، وتختلف على صفات العظمة والسمو والمآثر المستمدة من التاريخ القريب والبعيد . وبذلك استطاعت أن تقف طليقة لا تغيرها هذه المشاعر المحتدمة المضطربة ، واستطاع أصحابها أن ينظروا فيما حولهم نظرة حرة واسعة مجردة ، وأن يختاروا لأنفسهم الميدان الذي يملكون فيه التبريز والغلبة ، أو يحققون فيه لأنفسهم بعض الغايات أو الميكانات الاجتماعية التي يتشوقون إليها ويتطلعون إلى الظفر بها . هذا هو — فيما نحسب — مفتاح ذلك السر ، ونقطة البداية في تحقيق تلك الظاهرة . ولعل

أبو عبيدة

أقدم من يمثلها حماد الراوية ، وربما كان بشخصيته وأوليته هذه من الأسباب القوية التي مكنت لها ، فالمواطنة أو شبه المواطنة التي نراها بين حماد وخلف وأبي عبيدة كالمعاصرة تثير التأسي وتبعث على الاقتداء .

وقد نجح حماد نجاحاً يكاد يكون منقطع النظير في عصره ، في رواية الحياة العربية بأخبارها وأشعارها ، كما نجح إلى جانب ذلك في الظفر بتلك المكانة الاجتماعية التي تطمح الأبصار إليها . فكان — كما يقول أبو الفرج — « من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها ، وكانت ملوك بني أمية تقدمه وتؤثره وتستزيده ، فيفد عليهم وينادهم ، ويسألونه عن أيام العرب وعلومها ، ويجزلون صلته » . فلا جرم كان بشخصيته هذه وبذلك المكانة التي وصل إليها من أفضل الأسى التي تبعث على الاقتداء ، وتعمل عملها في قيام الظواهر المختلفة ، ولا سيما إن كان هنالك نوع من الصلة كالذي كان بينه وبين أبي عبيدة مثلاً .

ويقول ابن النطاح في حكاية الباعث الذي بعث حماداً على اتهاج تلك السبيل — كما يروي أبو الفرج — أنه « كان في أول أمره يتشطر ويصحب الصعاليك واللصوص ، فنقب ليلة على رجل فأخذ ماله ، وكان فيه جزء من شعر الانصار ، فقرأه حماد فاستحلاه وتحفظه ، ثم طلب الأدب والشعر وأيام الناس ولغات العرب بعد ذلك ، وترك ما كان عليه ، فبلغ من العلم ما بلغ » . وهذه قصة قد تصح وقد لا تصح . ولكن الذي لا يكاد يداخلنا فيه الريب أن حماداً كان يحس منذ صغره أنه غريب في المجتمع الذي كان يعيش فيه ، وهو المجتمع الكوفي ، فلا هو نبطي ولا هو فارسي ولا هو عربي ، فكان لا بد له ، في طبيعة الأشياء في مثل هذه الحالة ، أن يستكمل هذا النقص ، وأن يملأ هذا الفراغ الذي يحيط بعشائره ، فيصطنع إحدى هذه الجنسيات التي حوله ، وكلها سواء بالنسبة إليه ، إلا أن العربية كانت ترجحها بطبيعة الحياة في ذلك الوقت ، فواليه الذين نشأ فيهم وتربى بينهم هم بنو شيبان ، والدولة القائمة عربية في حقيقتها وفي ذوقها . وما هؤلاء الفرس ومن إليهم ممن يضررون الخروج على الدولة ، إلا ثوار لا يمت إليهم بصلة ، ولا يشعر نحوهم بأصرة . وإذن فلا بد له من أن يصطنع العربية ، وأن يظفر من ذلك الاصطناع بما يملأ ذلك الفراغ ، فيحيا حياة عربية بدوية تملأ حواسه بالمظاهر العربية . ولعل تلك الحياة هي التي يشير إليها ابن النطاح

بالتشطر وصحبة الصعاليك واللصوص ، وأن تكون حياته المعنوية عربية أيضاً ،
 فيملاً عقله وخياله من الصور العربية الفنية ، يلتمسها في هذه الأشعار ، وفيما يتناقله
 الأعراب من الأخبار . فإذا تم له هذا فقد وجد نفسه في سبيل اتخاذ صناعة
 جديدة ، هي صناعة « الرواية » ، وقد تهيأت له أسبابها ، واجتمعت لديه مادتها
 بما لم تجتمع لأحد قبله . وما أشد حاجة الكثير من رجال هذه الدولة العربية
 إلى هذه الصناعة ، وبذلك يستطيع أن يحقق لنفسه هذه المكاة الأدبية
 والاجتماعية التي تصحح له موضعه .

هذه صورة من الحالات النفسية كما يمكن أن تصورناها لنا الملابس التاريخية
 والأدبية لحماة الرواية . وحاجتنا إلى معرفة هذه الصورة متصلة بتعرف الحوافز
 التي دفعت أبا عبيدة لسلوك سبيله تلك التي سلكها ، وهي بعينها سبيل حماد
 الرواية . فالرجلان يلتقيان في هذه السبيل ، كما يلتقيان في جنسية واحدة هي
 الجنسية الخزرية . وإذا كانا يختلفان بعدد في ظروفهما ، إذ نشأ أبو عبيدة في إبان
 الانقلاب العباسي ، وبين عوامل التوثب على الجنس العربي ، فإننا نحسب أن هذه
 القدوة التي كانت تتمثل في حماد الرواية أمام أبي عبيدة وهو في مفترق الطرق ،
 — وهي قدوة تملك كل عناصر التأثير — كانت مما يعوض عن هذا الاختلاف ،
 ويسدده في تلك السبيل ، وإن بقي بعد ذلك في أبي عبيدة شيء من آثار هذه
 الظروف كالتزعة الشعوبية ، وهي نزعة وجدت من العوامل الشخصية ما أبرزها ،
 كما نرجو أن نعرض لذلك بعد ، فقد كان هذا أمراً لا بد منه في طبيعة الأشياء .
 ولكننا نبادر فنقول منذ الآن إن هذه الشعوبية لا صلة لها بالفارسية ، ولكنها
 — فيما نحسب — شعوبية على الأصل في هذه التسمية ، وهو التسوية بين الشعوب
 المختلفة التي تتكون منها الأمة الإسلامية ، فلا فضل لعربي على عجمي . ذلك هو
 الأصل عندنا في شعوبية أبي عبيدة ، ويرجحه لدينا ما هو معروف عنه من
 أنه كان خارجي المذهب ، وقد نص على ذلك الجاحظ ، كما ذكر ابن النديم
 وياقوت أنه وضع كتاباً في «خوارج البحرين» . ومذهب الخوارج يتفق مع هذه
 الشعوبية بمعنى التسوية ، فالناس في هذا المذهب سواء ، ورأيهم في الأحق بالخلافة
 أنه الأصلح لها عربياً كان أو غير عربي صريح في الدلالة على ذلك . ولو أن شعوبيته
 كانت شعوبية فارسية لكان الأقرب إليها والأدنى إلى الاتفاق معها ، أن يكون
 شيعي المذهب ، وهو ما لا نعرف عن أبي عبيدة أنه كان يقول به أو يذهب إليه .

هذا هو الأصل في اتجاه أبي عبيدة إلى الحياة العربية يتعرف أخبارها ويدرس أشعارها . وقد أقبل على ذلك — كما قلنا — مستغرقاً فيه ، ملتصقاً كل سبيل إليه . فلم يكتف في ذلك بالتلقى عن شيوخ البصرة الذين تلقوا عن الأعراب كأبي عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب ، وإنما سلك سبيل هؤلاء الشيوخ ، فجعل يأخذ عن الأعراب كما كانوا يفعلون .

وكان هؤلاء الأعراب سوق كبيرة رائجة في هذه الأمصار ، ولا سيما البصرة بلد أبي عبيدة التي نشأ فيها كما قلنا ، منذ نشأت الحاجة إلى درس العربية واستنباط قواعدها وتثقيف اللسان بها ، والاعتماد في هذا الدرس على مصادره الأولى ، وهي الشعر الذي يرويه هؤلاء الأعراب ، واللغة التي يتكلمون بها ، والأخبار التي يقصونها . فلم تعد الدوافع التي تدفع هؤلاء الأعراب إلى المصر مقصورة على التجارة فيما اعتادوا أن يتجروا به ، فقد نشأت لهم هذه السوق الجديدة يتجرون فيها بالحياة العربية التي يحيونها والتي يروونها ، مع هؤلاء النفر الذين اتخذوا من هذه الحياة وروايتها ودرسها وتسجيلها مادة علمهم وميدان نشاطهم ، سواء أكانوا من رجال النحو أم من أصحاب الشعر والخبر .

وقد نشأت هذه السوق في البصرة بمرورها ، حيث كان هؤلاء الأعراب يقدون للتجارة بأموالهم ، ولما كانوا أول الأمر يتجاوزونه . حتى إذا أقبلت هذه السوق الأدبية الجديدة ، وأحس هؤلاء الأعراب بإقبالها ونشاطها ، وبأنها أجدى عليهم وأكثر عائدة لهم ، أخذوا يدخلون المصر ، ويتصلون بالبيئات العلمية فيه ، بل جعل بعضهم يستقر به ، وأخذ فريق منهم يجدد في أسلوب هذه التجارة الأدبية ، فلا يقتصر على الرواية ، بل يصطنع إلى جانبها الوراثة ، فقد أحس أن القوم يتجرون بعلمه ، ويفيدون منه أضعاف ما يفيدهم ، فأخذ يزاحمهم في سبيلهم . وبذلك أخذنا نرى من هؤلاء الأعراب من يذكر عنه أنه كان يورق في الحضر ، كالذي يذكره ابن النديم عن أبي مالك عمرو بن كركرة .

ولقد كان إقبال الأعراب على البصرة بهذه الصورة من العوامل القوية في نشاط هذا الاتجاه العربي في الحياة الأدبية بهذه المدينة ، نشاطاً استطاع أن يعادل ذلك الاتجاه الآخر إلى رواية الحياة الفارسية ويغالبه ، وهو الاتجاه الذي نراه عند ما ندرس ابن المقفع مندفعاً في سبيله بجميع قوته لا يكاد يعأ

بشيء، ولكنه لم يلبث أن رأى ذلك الاتجاه العربي الذي كان الأعراب يزيدونه قوة، ويملاؤن به الجو الأدبي في البصرة، يناظره ويغالبه ويأخذ عليه سبيله، ويكسر من حدة نشاطه؛ فقد كان يملك الوسيلة التي يملكها مناظره، وهي روح القصص وتصوير البطولة في صورها المختلفة. وهي الروح التي تفتن الجمهور وتقبل به وتسيطر عليه. ولا ريب أن هذا الأثر الأعرابي من أخطر الآثار في الحياة الإسلامية: الأدبية والاجتماعية معاً، وهو عندنا أخطر من جميع ما ينسب إلى الأعراب في تاريخ الأدب العربي، من الاستعانة بهم في وضع النحو وجمع اللغة وما إلى ذلك. ويكاد يعادله عندنا ما أتيح لهذا الاتجاه العربي من رجل كأبي عبيدة، احتتمع له من المواهب العقلية والفنية، ومن القدرة على الدءوب والصبر، ما استطاع به أن يجعل ذلك الأثر الأعرابي قوة منظمة، وأن يسبغ عليه من المظاهر العلمية والأدبية ما يجعله بعيد الأثر، جديراً بمناهضة ذلك الاتجاه الفارسي.

ولكن قبل أن نأخذ في عرض ما عمله أبو عبيدة في هذه السبيل لا بد لنا أن نتساءل أولاً عن العوامل التي أدت إلى اجتماع هذا الفيض الزاخر من أخبار الحياة العربية وصورها، حتى أتيح لأبي عبيدة أن يصنع منه هذا البناء العظيم الذي يمثل الحياة العربية البدوية تمثيلاً يأخذ بجوانب النفس، أو بعبارة أخرى: كيف أتيح لبادية البصرة أن تضم هذه الأطراف المختلفة من صور الحياة الجاهلية؟

الامر في هذا قريب هين متصل بطبيعة المجتمع البصري منذ أول عهده. ذلك أن البصرة كانت أكبر المراكز التي ثارت فيها الخصومات العنيفة المتصلة بين القبائل العربية، وكانت هذه الخصومات الحديثة والمنافسات الجديدة سبباً في إثارة الأحقاد القديمة الكامنة في أعماق هذه القبائل. ومنذ ثارت هذه الأحقاد وجدت من الشعراء من يؤرثها ويهيجها ويشير الذكريات المختلفة المتصلة بها، كما وجدت من الرواة من يجعل همه في اقتصاص أخبارها وتتبع أحاديثها.

وليس من شأننا هنا أن نذكر الأسباب المختلفة لهذه الخصومات، فانما قايطنا المتصلة بموضوعنا أن نسجل نتائجها الأدبية. ومن أول هذه النتائج ما أشرنا إليه من قيام الشعراء بها، واستثارة الذكريات الجاهلية في أشعارهم حين يفخرون بقبائلهم، ويغضون من قبائل خصومهم، ويلجئون في هذه

لجأوا بعيداً كلما تجلت الخصومة ، حتى لنرى من أهل هذه القبائل من يشفقون من صنيع هؤلاء الشعراء ، كالذي يحكيه ابن سلام من أن رجلاً من تميم مشى بين جرير والتميم ، وقالوا : والله ما شعراؤنا إلا بلاء علينا : يثيرون مساوينا ، ويهجون أحياءنا وأمواتنا . ولقد كثر الشعراء الذين شاركوا بشعرهم في هذه الخصومات بيادية البصرة كثرة ظاهرة ، وكثر الشعر الذي ينفذونه ويذيعونه كثرة غامرة ، وبالغوا في استثارة الذكريات وخلق المفاخر والمثالب مبالغاً كبيرة . وكان هذا الشعر يجد من رجال هذه القبائل المختلفة آذاناً مصيخة ، وأعناقاً مائلة ، وأعصاباً هياؤها هذه الخصومات للطرب الشديد به . وطبيعي أن تنشأ حول هذه الأشعار ، وما تشير إليه من أحداث ، وما تترنم به من مفاخر ، طائفة من الأخبار والأقاصيص تفسر إشاراته ، وتفصل مجملاته ، وتسير إلى جانبه في استثارة النفوس ، واستفزاز المشاعر الحاقدة .

هذه الحركة الأدبية القصصية التي نشأت حول أشعار الفرزدق وجرير والراعي والبُعَيْث وابن لجأ التيمي والبسّلتان العبدى وغيرهم من شعراء هذه البادية في القرن الأول هي الأصل في اجتماع ذلك الفيض الزاخر من أخبار الحياة الجاهلية المختلفة في تلك الفترة من الزمن ، وفي ذلك الإقليم . وقد يكون من هذه الأخبار ما هو صحيح ، وقد يكون منها ما هو مبالغ فيه ، وما هو مختلق موضوع ، ولكنها جميعاً تشترك في أنها صور للحياة العربية البدوية . والأصل فيها هو تلك الخصومات القبليّة أولاً ، ثم ما نشأ عنها من خصومات شعرية ، ثم لم تلبث هذه الأخبار والأقاصيص أن صارت مادة من مواد الدرس والطلب في بيئات البصرة الأدبية والعلمية ، تلتبس لذاتها ولما فيها من متعة فنية ، وتلتبس لما فيها من تصوير للحياة الجاهلية العربية ، وتلتبس لما تتضمنه من تفسير لشعر هؤلاء الشعراء . وقد جاء أبو عبيدة فجعل يطلبها في حلقات الدرس ، كما جعل يلتبسها عند أولئك الأعراب .

والمسألة التي تواجهنا الآن هي : ماذا صنع أبو عبيدة بهذه الأخبار والأقاصيص ؟ أو بعبارة أخرى : ما هو أسلوبه وخصائصه في رواية الحياة العربية ؟

CONTRE UNE TERREUR DES FAITS

RAYMOND GUERIN.

مقاومة الذعر من الواقع

(١) ٢

ما أغرب هذه الحاجة (ولعلها حاجة غريزية) التي تضطر الناس إلى أن يضعوا على وجه الحق البين قناعاً كاذباً مضللاً . وكأن النظر إلى ما هو واقع ، أو مجرد قراءته يؤذيهم ويصدّهم ، فهم لا يقبلونه ولا يطيقونه . إنما يرضون عن الأقاصيص التي تقصّ لهم حوادث الجنّيات الساحرة ، فهم في حاجة إلى الصور التي تسحر العيون وتخلب العقول . أما الضوء الواضح الذي يكشف عن أدق التفاصيل المتوارية ، ويبعث الظلال القوية ، فانه يخيفهم . وهم مؤثرون على الحق الواقع جميع ألوان الريبة البسيكولوجية ، وجميع ضروب النفاق النفسيولوجي . ليس في حياتهم الخاصة فحسب ، بل لعلمهم يؤثرون ذلك بنوع خاص في الكتب التي يقرأونها . وهم يطلبون تارة إلى هذه الكتب أن تكون لها مزايا المخدر وآثاره ، ويتطلبون منها تارة أخرى أن تذرّ الرماد في أعينهم ، يريدون أن ينقلوا إلى عالم آخر ، لا يعينهم في ذلك أن يكون هذا العالم قد تجاوز قدّمهم ، أو أن تكون الأشباح التي تضطرب فيه قد فقدت ما تمتاز به أشخاص الحياة الواقعية من قوة وغموض .

ومن ذا الذي ينكر أن الحياة قد تكون أحياناً أشد فتنة مما تجري عليه عادة ! فلها ذرى بهجة وتألق . وبين الحين والحين ينجم من اطرادها الفاتر العام أشخاص ممتازون يتجاوزون الحدود الطبيعية ، كما تظهر ألوان من الإخلاص هجيبة ، ومن الشعور الذي يفوق الطاقة الإنسانية . وليكن هذا هو مقياسها الطبيعي ؟ كلا ! فان فيها ، بل وفيها أكثر من أي شيء آخر ، هموماً وضبعة ،

(١) الكاتب المصري عدد ٥ (يناير سنة ١٩٤٦) .

وأعراض ركود. وعندئذ يستطيع أشد أشخاصها بروزاً أن يخلعوا عن أنفسهم حلقتهم الذهبية وثيابهم المزركشة ، وأن يتجردوا من هذا البهرج الذي بهروا به الناس ، فيرتدوا أسماهم اليومية الرثة البالية التي تخبب لها الآمال ، ويضطروا إلى حياة قبيحة بشعة .

فأى عجب إذن في أن يتزع المؤثثون إلى أن يبعثوا في كتبهم ، وإلى أن يصورتوا فيها كل ما يجيش في ذهن الإنسان ، أو ما كان راكداً فيها ، كل ما اتصل بأعماله الظاهرة أو بحركاته الداخلية الخفية ، بأفكاره الخارجية الواضحة أو بأشد وساوسه ارتباكاً ، وأى عجب في أن يطمحوا طموحاً عالياً إلى الملاءمة بين الأضداد وتناول أرقى الحالات وأدناها بنفس الرغبة الاستطلاعية وبنفس روح التفهم في كلا الحالتين فكل شيء قائم في الإنسان ، متناوباً أو مقترناً . وإذا لم يصل هؤلاء الكتاب بعد إلى أن ينسوا هذا الأمر فلعل مرجعه أن الحياة بدلا من أن تقتصر على أن تظهر لهم ضوءها وحده أو ظلمتها وحدها كما تبدو للكثيرين ، قد غمستهم في النور والظلمة دولة واقتراناً .

وقد مكنتهم هذه الحياة من الاتصال اتصالاً يزداد توثقاً على مر الأيام (وكثيراً ما يكون اتصالاً مرّاً شنيعاً) بما تشتمل عليه من تعدد وتعقد . ومتى انتهى هؤلاء الكتاب ، إما بدافع المزاج أو الوراثة أو على أثر فاجعة في تربيتهم ، إلى أن ينعشوا جميع الأمكنة . فيترددون في نفس الوقت على الصالونات الفخمة والمآوى الحقيرة ، كما يدخلون غرف السيدات ومصانع العمال ، يختلطون بجميع الأوساط ، ويعرفون جميع ألوان القلق النفسي واللذة والاشمئزاز والمتعة . تعرّضوا لجميع ضروب الحظ وسوء الحظ ، لجميع أنواع الاستطلاع وعدم الاكتراث ، كما عرفوا جميع أشكال الحرية والتقييد . سمعت عقولهم حتى بلغت أقصى درجات الشغف ، كما انخفضت حتى زحفت في الوحل . وهم يريدون أن تحفل كتبهم بهذا كله . نعم ! هم يعافون منذ الآن أن يقتصر تصويرهم على ناحية كلها فضيلة كما يعافون تصوير عالم يقتصر على الرذيلة دون سواها ، على بيئة مألوفة من المتكلمين المتصنعين أو من الخليعين المهتكين ، على بيئة كلها قد يسون أو كلها خاطئون ، على بيئة منظمة أو أخرى مضطربة ، على بيئة رقيقة رفيعة أو أخرى فظة غليظة . فاذا ما أوتوا من القوة والبراعة حظاً كافياً ، وكانت شخصيتهم من الغنى والخصب والتنوع بحيث يقدمون على هذه المغامرة ، فإن العالم الذي

سيعرضونه علينا سيكون متعة ذهنية لنا ، وسيتألف من جميع البيئات الممكنة . سيكون طاملاً جديداً في إنشائه ، فيعوضنا من هذا العالم اليومي الذي تقضى فيه حياتنا .

ولنؤمن لهم ؛ فقد أطلوا التفكير في الصعاب التي تعرضهم لها هذه المغامرة . وهم قد احتملوا من غير شك أكثر من غيرهم هذا النير الثقيل الممض الذي تفرضه الجماعة على أفرادها حين ينحرفون عن الطريق القويم . فمن الناس من يتكفون الفضيلة عن غفلة أو عن تقاع ، وهؤلاء يتأذون عندما يخيل اليهم أن رجلاً يجنح إلى التحرر من مواضعات اللياقة العتيقة ، حين يقرر أن يتخذ شيئاً من الحرية فيما بينه وبين نفسه أو مع غيره من الناس . فليس يكفيهم أن يبعثوا « المركيز دى ساد »^(١) أو « رستيف دى لا بريتون »^(٢) ، ولكنهم يقتنعون وجوههم حين يرون « بروسست » أو « جويس » يتعمقان الطبيعة الإنسانية ويقتحمان طرقاً كانت مواضعات السلوك تنكرها حتى ذلك الوقت . يشورون على هذه الدقة التي يسمونها مجوناً ، وعلى هذه الصور المشتقة من صميم الحياة التي يسمونها أقذاعا ، ويعلنون أن تشریح نفوسنا وعرضها على هذا النحو لا يمكن إلا أن يسمم العقول ، وإذا لم يكن من هذا بد فإيثار الصمت خير . ولعل هؤلاء المتكلمين المنافقين إن أتيح لهم من السلطان بعض التأييد أن يفرضوا على الأدب رقابة تصطنع مظاهر العفة . وقد دلت التجربة على أن مثل هذه الرقابة تلحق بالأدب أضراراً جسيمة في كل مرة ظهرت فيها ، حتى إننا لنخجل لها من عنفها الضيق المحدود الآفق ومن عدم تسامحها . إن التعصب والطغيان إن لم يصلا قط إلى منع الحقيقة من الفوز والتحرر آخر الأمر حتى حين يعتمدان أشد العنف ويلجآن إلى التحريق .

وإذ يعجز هؤلاء الغافلون والمنافقون عن أن يبلغوا أقصى غاياتهم في تنفيذ نواهيهم ، فإنهم يحتمون في الأقل على الفنان الذي ينتفع في آثاره بما في الحياة

(١) كاتب فرنسي من كتاب القرن الثامن عشر توخى في آثاره تصوير أقيح ما في الحياة الإنسانية من الفظائع والأثم .

(٢) كاتب فرنسي من كتاب القرن الثامن عشر عدل من أسلوب معاصره إلى أسلوب له حظ عظيم من الصراحة ومواجهة الواقع .

من قبيل مردول ، أن يهضم ذلك ويتمثله قبل أن يحاول عرضه أو التعبير عنه .
ومسألة المستساغ وغير المستساغ في الفن مسألة أخرى لا تقل دقة وشأناً .
وما أكثر الذين يعجبون إعجاباً شديداً بطائفة من الكتاب شهدوا أبشع المناظر
(مناظر الرق والهمجية وما في الحواضر من البؤس والشهوات المخزية وهوان
الفكر والانغماس في اللذات والإفراط في العريضة والفسوق) فلم يصوروا في
كتبهم ما رأوا ، وإنما صوروا فيها شعورهم به على نحو جعل هذه الكتب ،
وإن ظلت فاجعة ممزقة للنفوس ، تبدو كأنها تسبح في عالم خيالي غير واقعي
له سحره الذي لا ينكر . وإذا كانوا أشد إخلاصاً من أن يصوروا عالماً يلائم
مثالهم العليا ويعرفون أن هذا العالم لا يوجد ، فهم قد أزمعوا الفرار نهائياً من
كل ما يجمعهم بالعالم الواقعي . وما داموا لا يستطيعون الاكتفاء بعالم بعيد
عن الكمال الذي يبتغونه له ، فقد اختاروا أن يضطروا أنفسهم في شيء من الأثرة
إلى تفضيل الانخداع بالمظاهر على الحق . لم ينظروا إلى الأشياء كما هي ، وإنما أبوا
إلا أن ينظروا إليها كما يحبون أن تكون ، فلبجأوا إلى أبراج عاجية من مذاهب
الفن يعتصمون فيها ، فهم يستمعون بأعذب الألفاظ وأبعد الصور خفاء .
يشوشون ورق اللعب ، ويغشون «الظهر» ، ويتلفعون في عبادة من الاستعارة ،
ويتحولون إلى أرواح خالصة ، ويتشدقون بالروحانية كأنهم جن أو سحرة من
عالم غير عالمنا هذا ، وكأن طبيعتهم من جوهر علوي ممتاز . كل ما تجرى به أفعالهم
مثالي محجب غير واضح الخطوط ولا بين الملامح . وقد يمزق قوسهم ما في
الحياة الواقعة من ألم وبشاعة ووحشية ودعارة . ولكنهم مع ذلك يحرصون على
أن يصوروا كتبهم من هذه الأوزار . أيديهم اليمنى التي تكتب تجهل ما تمسه
أيديهم اليسرى التي لا تكتب . أرجلهم غائصة في الوحل بل في الدم أحياناً ،
ولكن رؤسهم في السماء . هؤلاء على الأقل هضموا ما يلفظه العالم من قبج .
وإذا أعجزهم أن يرفعوا أشخاصهم فإنهم لم يترددوا في أن يكذبوا على أنفسهم
ليرفعوا أشخاص قصصهم .

وليس كل إنسان قادراً على التلاعب بالألفاظ بهذا اليسر .
وكتاب آخرون بلغ تعطشهم إلى الطُّهر والمثل الأعلى والحق المطلق حدّاً
جعلهم يذعرون لجرد الاقتراب من الحياة الواقعية العادية . لا يستطيعون أن
يفتحوا أعينهم أو أن يمدوا أعمارهم دون أن يعتريهم غثيان . يرون كل بغيض

في الحياة شيئاً لا يقبل . وينتهي بهم هذا إلى العجز عن التحول عن الواقع الشنيع . وهم من أجل ذلك لا يكادون يمسكون القلم حتى يخلصوا أنفسهم في غير تردد مما تضيق به نفوسهم ولا يغروا بالالفاظ ؛ فالالفاظ أمامهم يستعملونها كما هي في مدلولها الساذج الأصلي سواء كان ما تبدل عليه قياً أو متبذلاً . فليست الالفاظ إلا وسائل ، وليست هي الغاية الأساسية ، إنما الغاية الأساسية هي هذا السرطان الذي ينخر جسم الإنسان . يجب مهما يكلف ذلك من ثمن إخراج الصديد من هذه الجراح المتقيحة ، وفتح هذه القروح ، وتفريغ هذه الأمعاء .

ولا ينبغي أن نورط أنفسنا في الخطأ . فهما تدثبت أيدي هؤلاء الكتاب في هذه المهمة الكريهة ، ومهما اشمأزوا من أنفسهم بسبب القذارة التي يكشفون عنها ، فإنهم مع ذلك أشد ما يكونون تلهفاً إلى الجمال البعيد المنال . فهم لا يزالون يتمنون اليوم الذي يتاح لهم فيه أخيراً ألا يكتبوا إلا ألفاظاً كلها حنوً ورشاقة وهدوء ، كما يفعل غيرهم . ذلك اليوم الذي يكفون فيه آخر الأمر عن مثل هذا العلاج القاسي . ولكن ليس هذا كله ، مع الأسف ، إلا أحلاماً وأوهاماً . فهم أتقذ بصيرة من أن يعتقدوا أن يوماً قد يأتي قبل وفاتهم تهدأ فيه نفوسهم وأجسامهم هدوءاً تاماً ، ويستطيعون أن يحيا في عالم مطلق غير مقيد . والكتب التي تخرج من أصمق الشقاء الذي يغرقون فيه ليست إلا منافذ يخلصون بها أنفسهم من شر ما تلقى .

يأبون أن يستسلموا لما في الحياة من بشاعة كما يفعل أولئك الذين ينحازون في أثره وجبن إلى هذه الناحية العذبة الراقية ، ناحية الفن للفن . ويفضلون أن يُغنوا آثارهم بكل ما بقي فيهم من شر ليظهروا بذلك أنفسهم منه . وهم في هذا على العكس من أولئك الذين يجيدون كتابة النثر الرفيع والشعر البديع والذين تزداد قلوبهم سواداً إلى سواد ونفوسهم فساداً إلى فساد . فكيف يلامون على ما يلفظون في كتاباتهم ! لا يمكن أن يقال إنهم مدفوعون إلى ذلك بالرغبة في العرض والإظهار ، أو الإيمعان في التلذذ بالذيلة ، أو أن مرجع ذلك تشويه ملازم لطبيعتهم ، أو ابتذال في فكرهم . إنما يتوخون في عملهم هذا دقة عجيبة تقدم تعلم الحياة والتمرس عليها على تعلم الفن ومكابدة مضاعبه . وتلك إرادة تصمم على التذكير أن لا شيء في الإنسان أعظم من الإنسان . وهؤلاء

الكتاب لا يحفلون بآيات البيان ، بل يسعون في محاولة يائسة ، ولكنها كريهة ، إلى أن يشقوا لحياتهم طريقاً قد تصير هذه الحياة نفسها في نهايته من آيات البيان .

قد يعترض علينا بما يأتي : ما مصاحبة محب الأدب الرفيع في هذا النوع من الكتب ؟ وجهيل بلا شك أن يجعل المؤلف من حياته آية من آيات البيان ، ولكن ما نتيجة ذلك آخر الأمر ؟

وقد وجه الكتاب القصصيون المحدثون لأنفسهم هذا الاعتراض ، واقتنعوا دون صعوبة بأن آثارهم لو أنها غرقت في الدمامة فلن يستطيعوا النظر إليها إلا مشمئزِينَ . وأغلب الظن أنهم سينتهون بالعدول عن الكتابة وإيثار الصمت . وإذا بقيت لديهم بقية من همة الكتابة فذلك لأنهم لم يفقدوا الأمل (وهو دائماً أمل لا يتخلله وهم) في أن يتجاوزوا مألوف الحياة ويأتوا بشيء جديد . ومهما تأذوا مما يتبينون من دنس ومن رذيلة في أنفسهم ومن حولهم فإنهم يشعرون (ولعلهم في شعورهم هذا أشد إحساساً من غيرهم) بهذه الصور المضحكة المسوخة بهذا البذخ المفرط ، وبألوان السعادة هذه التي قد تمنحها الحياة أحياناً . وهم يرون أن أي أثر يتعمد فيه وصف القذارة ، أو اتخاذ موقف التعنت المرضى السقيم ، أو تصوير الوسواس الإجرامية أو الجنسية ، لا يزيد في قيمته عن التزين التافه المائع الذي يظهر في تلك الأقاصيص التي تقرأها الأسر مجتمعة في المساء من حول النار .

على أنهم لا يدعون احتكار الحق كله ؛ فهم لا يريدون أن يتبعهم جميع الكتاب في هذا السبيل ، بل يريدون احترام مبدأ حرية الاختيار . يريدون أن يتركوا مجالاً لهذه الآثار التي أنشأها كتاب من أولى البصائر النافذة ، والتي تعبر عن نظرة للعالم وتصور له لا تفرضهما الطبيعة بل يختارهما الكتاب لأنفسهم اختياراً وهم يعرفون ما يقدمون عليه . فهم يعامون حق العلم أن جميع الكتاب الآخرين الذين أذعنوا لمزاجهم أو تأثروا بظروف مولدهم أو نشأتهم ، كتبوا هم أيضاً كتباً قيمة . وهم لا يؤاخذونهم بقصورهم ولا بإصرارهم على بعض اللوازم ، بل يقبلونهم كما هم ، ويقدرهم كتبهم على أنها وثائق دقيقة . فالعالم الذي يصوره مريدث أو جيمس كله عن الطبقة الوسطى البورجوازية . وعالم كالدويل أو دايت كله عن

مقاومة الدعر من الواقع

طبقة العمال . وعالم ديكنس شعورى . وعالم سترنس أو باتلر كله تهكمى . وهو عند جيد أو هكسلى عقلى . وعند تشيكوف فهو إقليمى . بينما عالم كافكا قاصد كله إلى ما وراء الطبيعة . وهو عند دستوففسكى شيطانى . وعلى عكس موريس مارتان دوجارفعاله يصور الأسرة . وعالم مالرو يصور البطولة ، بينما هو عند لورنس جنسى . ولكل منهم ناحية صدق واقتضاء وضرورة .

كما أن هؤلاء الكتاب القصصيين يرون أن القارئ حر فى أن يؤثر الكتب التى لا تقتصر على الحياة اليومية الجارية ولكنها تبعد عن الواقع المألوف . فالقارئ حين يأخذ كتاباً إنما يلتبس فيه ما يريه أو ما يعينه على الهرب من الحياة المحيطة به . وهذا العالم الخيالى الذى يستكشفه فى الكتاب ، وهذه الدى التى على هامش الحياة ، وهذه الصور البيانية نفسها حتى حين تكون اتصالات مغرقة فى الحماسة ، كل هذا جذاب ، بل هو جذاب لهذا السبب نفسه . فالقارئ لا يلتبس فى مثل هذه الكتب شخصيات محقة ، وإنما يريد أن يفقد شخصيته هو فيها . ولا يفجؤه أن يتجاوز أشخاص القصة الحجم الطبيعى المألوف ، أو أن تتخذ الألفاظ التى ينطقون بها والمناظر التى يضطربون فيها صورة الملحمة ، بل أن يتشخص الحيوان والنبات وعناصر الطبيعة نفسها . كما لا يفجؤه أن يدخله الكتاب فى بيئة لا تنعكس الحياة فيها إلا مشوهة ، قد شوهتها هذه المرايا المحرفة وهى مرايا التشبيه الشعري والعبث الغليظ ، والمرايا التى تعكس إشباح الموتى وظلال الوهم . بل لا يفجؤه أن يدفع إلى أغرب ما ينسجه الخيال من ألوان الخلط والقتل والخلاعة والاختطاف والخراب والثروة .

فالقارئ مستعد دائماً لأن يتخذ لنفسه إهاباً غير إهابه (يكاد ذلك يرجع إلى فطرته) وهو مستعد لأن يخلبه السحر ، ويقهره التسلط ، ويستهو به اللعب . فمن الجائز جداً أن يمتنع القارئ على قصصيين لا يريدون أن ينقلوه إلى أى مكان ، بل يقتصر همهم على أن يبصروه بنفسه وأن يجلوا أمامه مرآة لا رحمة فيها ليس لدى هؤلاء الكتاب لعب يدعون إليه . ليس فى وسعهم أن يحولوا الرجل أو المرأة إلى تمثال من ملح ، أو إل قطر من ذهب ، أو إلى طائر أزرق ، أو إلى حسناء نائمة فى الغابة ، أو إلى قط منتعل ، أو إلى إهاب حمار (١) . لا يبتغون إلا

(١) يشير بهذا كله إلى الأقاصيص والأساطير المعروفة فى الآداب القديمة والحديثة .

أن يرفعوا له الستار عن الوجود مصوراً في شكله الجديد ، بما ينطوي عليه من اضطراب وإخفاق ، من طموح وانحدار ، من حلم وعمل ، من يأس وخيبة أمل . ومع ذلك فلن يستسلم هؤلاء الكتاب ، لأنهم يدعون لمقتضيات الاخلاص والصدق . هم يلتصقون نماذجهم عند أي فرد من الأفراد ، في أي ظرف من الظروف ؛ لأنهم يرون في غير تردد أن لا خطر لشيء ، وأن الحياة لا تستحق الإغراق في العناية بها ، وأن اتساق الحوادث ليس أجل خطراً من الآراء التي تناقض ولا من البدع ولا من الأهواء . وهم من أجل ذلك يضعون يد القارئ على سخافة الحياة التي يدعون لها الفرد أو التي يختارها لنفسه ، وغرور ما يبذل من الجهود لتحرر منها ، ومبلغ ما يصطنعه مع ذلك من مثابرة في سبيلها ، بل طموحه الرفيع إلى إدراك مستوى إنساني ممتاز ، ثم تبينه في الوقت نفسه أن بلوغ هذه الغاية مستحيل .

فأنت ترى ما في مثل هذه المحاولة من شجاعة ومرارة . فهي حقاً محاولة من صمم على ألا يتخلص من أي تبعة ، وأزمع على ألا يتراجع أمام أي حادث ، أمام أي استكشاف . فلا شك أن هذا التصميم يفيد آخر الأمر في تمكين الناس من أن يعرفوا بعضهم بعضاً .

ولنقرر أيضاً أن في هذه المحاولة مقاومة حاسمة لأولئك الذين يعلنون أنفسهم بأوهام السراب ، ويركدون في سحب الخيال ، ويحتجون بأن الحياة اليومية تبدو لهم غير محتملة فينبون لأنفسهم ، في شح ، طاماً صناعياً مفتعلاً ، عليهم مع ذلك أن يخرجوا منه في كل لحظة ، رضوا أو لم يرضوا ، لينغمسوا كغيرهم من عباد الله في ألوان شنيعة من القبح تتركهم متخاذلين مضطربين في حيرة من أمرهم .

ولنقرر أنها حاجة ملحة تدعو إلى مواجهة الحقائق المرة ، ويستعان بها لقهرها ، وإلى استبعاد ما يحيط بالأشياء من مظاهر خداعة ليصلوا إلى حقائقها . ولنقرر آخر الأمر أنها محاولة (لعلها مازالت في حاجة إلى الخلق) لإنشاء عالم يشعر الواقع فيه بما ينطوي عليه من غرابة ومن قوة دلالة في آن واحد . وكل من المقاومة هذه ، والحاجة الملحة ، والمحاولة ، يقتضي حتماً شيئاً من القسوة ، ويقتضي بطريقة غير مباشرة شيئاً من الحنو .

ينشأ من ذلك بانقياس إلى الكتاب الذين يريدون أن يروضوا أنفسهم

على هذه الأمور في غير ضعف ، مذهبان في الفن والأخلاق يتصلان بسلوك الإنسان ويدعمهما في الأثر المكتوب نفسه تشرح لارفق فيه وابتكار وتجديد في الأسلوب الانشائي تبعثهما ممارسة الحياة اليومية . ولكن هذا الابتكار وهذا التجديد في سبيل المحافظة على الحق لا يسترسلان في تصوير الانشاء الفني على شكل مثالي أعلى ؛ فقد يكون هذا التصوير شعرياً ، ولكنه خداع مغرٍ . لا يضيرهم في ذلك أن يتهموا بالقصور عن معرفة أسرار الالفاظ والصور ، وعن إدراك سحر الأفكار . فلا يقتصرون إذن على درس نفسية الفرد أو الجماهير ، بل يدرسون الوجود من الناحيتين الفسيولوجية والبيسيكولوجية . لا يقتصرون على كائن حي في نفسه أو على جماعة بعينها ، إنما يدرسون الكائن الحي في نوعه . وينشأ عن ذلك بصفة خاصة أن هؤلاء الكتاب سيترفعون في إباء عن كل ما يشبه أن يكون اغتصاباً للسلطان . فالكائن الحي الذي سيسعون إلى إعادة تصويره يجب أن يظل حراً في التصرف في نفسه . فلا ينبغي أن يوجه في اتجاه أو في آخر عن طريق القهر أو بدافع نزوة ، أو أن يستغل لأغراض نظرية أو لأهداف مغرضة ، أو أن يستعمل لإثبات أمر . كما يجب بلا شك أن يتجنب إخضاعه لمراكز وأزمات وحالات من الاضطراب لا تتفق مع استعداده . وينبغي أن يكون شخص قصتهم مطابقاً بالضبط لما هو حقيقة ، وألا يتقدم إلا في حدود طاقته . كما أن حياته قد تكون خصبة بالانفعالات وقد تكون جديده ، باختلاف ما يقضى به مركزه في المجتمع . ومعنى هذا ، على الجملة ، أن من الممكن أن توجد حياة لا تقع فيها أية حوادث ، ولا يحتم أن يحتل فيها الحب والبغض والطموح والمال المركز الأول كما جرت بذلك العادة في الأدب التقليدي ، وقد تنعدم فيها الدوافع التقليدية للقصص ، ولا يشترط فيها حتما تحقيق الروح القصصية عن طريق تلك الحيل البالية التي كثيراً ما استغلها كتاب كثيرون مبتذلون ناجحون .

ينشأ منها أيضاً أن هؤلاء الكتاب سيشعرون أنهم يدفعون بأنفسهم في طريق يعلوها الشك والتساؤل . فهم يرفضون الاعتقاد بتبعية « الفرد » ، ولا يجروون على إصدار حكم أو على اتخاذ موقف . لا يطرون ولا يذمون ، بل يقتصرون على الافتراض . يعرضون مسائلهم دون أن يستبيحوا لأنفسهم الحق في احتكار حلها . فلا هم دعاة إلى الأخلاق ولا إلى ما يناقض الأخلاق . يحرصون

على ألا يكونوا خصائص الفرد قبل وجوده متأثرين بهذا الرأي أو ذاك ؛ وعلى ألا يفرضوا على هذا الفرد عقاباً ، وألا يهبوا له تعويضاً على غير أساس . يحترمون كل ما يقع تحت الحس من عمل أو لفظ ، وكل ما قد ينبث في أعماق الأذهان من فكر أو رغبة ، ولكنهم ، إلى هذا ، يعرفون كيف يسبقون إلى الضحك من أنفسهم ، ومن تلك المهازل التي تجمع بين الجد والفكاهة الساخرة والتي يتنافس فيها اللهو والفجيرة بأعين الناس وهم لا يشعرون .

وقد أراد حسن الحظ أن هؤلاء الكتاب لم ينتظموا في هيئة واحدة ؛ فهم لا يزالون قليلين يمكن إحصاؤهم على أصابع اليدين . ولعل من الأمانة أن تقرر أن أحداً منهم لما يستكمل شخصيته ، وأن كل ما قيل هنا عنهم سابق لأوانه إلى حد ما . ولعله يوجد بينهم في المستقبل القريب واحد على الأقل يتقدم في شجاعة إلى نهاية المغامرة .

ولا يعني أن تكون قد ذكرت بصدد هؤلاء الكتاب بعض عبارات غريبة تشير إليهم ، منها : المركب الشعري ، والكتابة القاسية ، والتحليل البسيكولوجي بواسطة المشرط ، وأنتومولوجيا ^(١) الحوادث الحقيقية الضئيلة التافهة ، وفينومولوجيا ^(٢) العمل ، وفلسفة علل الوجود على أساس ما وراء الطبيعة ، وإبراز الأشياء والألفاظ ، والصياغة الموضوعية ، وأعمال البطولة التي لا علة لها ، والتطويف الذهني ، والاعترافات غير المحتملة .

فلا بد مع ذلك أن تكون الضرورة التي دفعتهم في هذا السبيل مطابقة لحاجة عامة ، حتى إنهم جميعاً قد حاولوا تصوير الإنسان على صورة أكثر وضوحاً وأشد رسوخاً من الصور السابقة ، دون أن يتفقوا على ذلك فيما بينهم ، وأن يعتمد كل واحد منهم على غير وسائله الخاصة .

فما عسى أن تكون هذه الضرورة ؟

يجب في مبدأ الأمر أن نتبين بوضوح قصور ما بين أيدينا من وسائل البحث البسيكولوجية . وإذا ألقينا نظرة إلى البسيكوجيا في عهدها البدائي ، ولنفرض البسيكولوجيا ذات البعدين ^(٣) (تلك التي نجدناها عند لا برويير وبلازك) أو في

(١) علم الحشرات . — (٢) علم الظواهر . — (٣) يستعير الاصطلاح الرياضي .

عهدا الحديث الراقي حين أصبحت ذات الأبعاد الثلاثة أو الأربعة حين استكشفت أدق نظرياتها في « الزمان والمكان » (وتلك التي نجدها عند ستندال وعند بروس) فأننا نزداد ثقة بالألا يمكن تفسير شيء إذا أصررنا على استبعاد هذه الدراسات البسيكولوجية عن مكلها الفسيولوجي الذي لا غنى عنه .

والواقع أنه لا بد من تثبيت الإنسان بالتصور على قاعدة من القيل (شأن الضفدع التي يشرحها الطالب في قسم الحيوان) حتى يصل الكتاب إلى أن يستخرجوا في آن واحد اتصالات جسمية ونفسية ، وفيضاً غير متوقع من الألفاظ ، ومن الاضطرابات ، ومن التعقيدات العاطفية ، ومن الحرص المستتر ومن الجمجمة الغامضة ، ومن العادات السرية ، ومن الحركات العصبية ، ومن الحوادث التافهة . وهي كلها أمور أشد إفصاحاً عن الطبيعة العميقة الدفينة من أي شيء آخر .

وما عدا ذلك فسخف وتكلف للبيان . ولا يغيب أبداً عن بال هؤلاء الكتاب أن سلوك الإنسان يعتمد أولاً على تكوينه الفسيولوجي . وهم يرون أن أقل قرار ، وأن أتفه عمل ، وأن الاستعداد النفسي مثل الميل الشديد ، وأن الرغبة الشاردة مثل التعنت والإصرار ، كل هذه الأمور خاضعة خضوعاً وثيقاً لحياتنا العضوية . وبعبارة أخرى إن من يتحدث عن طباع رديئة ، أو أحلام رديئة ، أو غرائز رديئة ، عن عيوب أو دوافع محركة ، عن رذائل أو فضائل ، يجدر به أن يتحدث عن تكوين جسم الإنسان . فليست المخلوقات شيئاً في رأي هؤلاء الكتاب إلا بأعضائها الداخلية تسوسها وتبعث الحياة فيها . ومن هنا كان من السخف تقرير مسئولية الفرد أمام غيره . فمن ذا الذي يجرؤ جاداً أن يعاقب عسر هضم ، أو احتقاناً كلوياً ، أو قرحة ، أو انحرافاً في الصحة ، أو روماتزماً ، أو أرقاً ، أو حمى ، أو هستيريا ، أو حالة ثمل ! ومن ناحية أخرى من ذا الذي يجرؤ أن يثيب صحة موفورة ، أو نشاطاً معويّاً مستمراً ، أو نوماً هادئاً ، أو عدم وجود اضطرابات على الإطلاق فالحر والبرد والجوع والعطش والحرمان من الهواء أو شدة الهواء وسهولة التمتع بحاسة البصر والشم والسمع واللمس أو صعوبتها ، كل هذه عوامل تفرض نفسها أيضاً على الإنسان وتساعد بطريق غير مباشر على أن يميل إلى السيرة المعتدلة أو المسرفة ، إلى

الحمود أو الهياج ، إلى الحسد أو عدم الاكتراث ، إلى الغباوة أو الحماسة الفكرية ، إلى الابتذال أو الرقة ، إلى الطيبة أو الشر .

واحترام مثل هذه المقتضيات في ميدان الإنشاء الكتابي معناه إذن بالقياس إلى هؤلاء الكتاب التعمق في بحوثهم والخروج بها عن الحدود المرسومة لها إلى الآن ، والبدء بإنكار الذعر من الحوادث ، كما أنكر جان بولان الذعر من الألفاظ ، لأن كليهما يشل .

ومعناه تأكيد الحاجة إلى فن يقال فيه كل شيء ، هذا اللون من الفن الذي استحدثه ديوجين ، وكان أول أستاذ له في العصور الحديثة مونتاني ، يشاركه في ذلك شكسبير وسرفانتيس ، ويعتبر بروست وجويس أصدق ممثلي له في هذه الأيام .

ومعناه الإلحاح في المطالبة بحرية مطلقة أزاء المبادئ التقليدية ، للفن والكتاب نفسه ، ولما يعرض من فلسفة وما ينشئ من دمي . ومعناه الرغبة في التحرر نهائيا من الأوامر الباطلة ومن المبادئ الخلقية الملتوية . ومعناه إمالة اللثام عن الخداع المضني الذي يخفيه الذين يعنون في إبقاء الإنسان في رقة بدعوى الحياء والاحتشام . ومعناه مساعدة كل واحد في التحرر من الأغلال التي تمسكه ، فيتبين مدى ما يملك من حرية في تعديل حياته إذا ما رغب في ذلك وعرف كيف يتحد مع نظرائه وكيف يثبت في مكانه . ومعناه إنماء حرية النقد التي تشجعه على ألا يذعر من النواطير . ومعناه آخر الأمر إنكار كل ما من شأنه استبقاء الأشياء في مواضعها والآراء في مخابئها والأطماع في أعماق القلوب . معناه مهاجمة الراقعين الراضين الفاترين المسترخين الذين يرون أن كل شيء يمضي على أذلاله ، والذين يمنعون قلوبهم من أن تتأثر بالظلم وسوء النية لأنهم ينتفعون منهما .

ومعناه كذلك ، في نحو آخر من التفكير ، احتقار الموضوع الذي يمارسه الفن . فكما أن بعض الرسامين اتفقوا على العدول عن نوع اللوحات التي تواضعت التقاليد عليها ، وعن اللوحات التاريخية والرمزية الكبرى ، ووجهوا عنايتهم إلى استخراج القيمة التصويرية أو الشكلية من رسم قيثارة أو برتقالة أو صدف أو وردة ، بل من رسم مجموعة من البقع والأحجام والاسطر ، معرضين عن حكاية أي شيء . كذلك يرى هؤلاء الكتاب أن لهم ، في الميدان الأدبي ، أن

يهملوا ما كان مدينا للإطار والقصة والعقدة والموضوع ، وأنه يجب عليهم ، على العكس من ذلك ، أن يمعنوا في تصوير الشكل الإنساني نفسه ، والأشياء (ملموسة كانت أو غير ملموسة) وغمغمة الحديث والفكر ، والزوايا ، والمعادلات ، والأضواء التي تكشف عنها انفعالات الأحياء في البيئة الاجتماعية والذهنية التي يضطربون فيها .

ولنسجل مع ذلك بعض التحفظات .

فهما قوى البغض للجزع من الواقع ، واشتد التمرد على الأصول السخيفة التي تنظم ما يقال وما لا يقال ، ما يعمل وما لا يعمل ، ما يكتب وما لا يكتب ، فقد نستطيع أن نتبين بوضوح مقدار الضرر الذي يصيب الفن من الإصلاح الذي ينشده هؤلاء الكتاب . فلا شك أن الرغبة المنظمة في أن يقال كل شيء ، قد تستتبع ابتذالا في اللغة ، فتنحط الآثار ويقل حظها من البقاء . وحسبك بتحريف اللغة وإفسادها كافياً لانحراف الأجيال المقبلة عما كتبوا .

ثم إن الكاتب إذا استبعد الجزع من الواقع حين يكتب ، فإنه يتعرض للحد من ميدانه في الشعور وفي التحليل النفسي ، كما يتعرض للابعاد في التحليل العضوي والإسراف في القحة ؛ ولا ينكر قصصى الواقع أخطار مثل هذه المحاولة . قد يؤخذ على بروسه الإسراف في الإذعان للغة الأكاديمية الرسمية وفي التقيد بشكل الجملة (وهذا الإذعان يحد بلا شك حظه من التوفيق) ولكن يؤخذ على جويس من جهة أخرى أنه حين حرص أشد الحرص على أن يواجه الحوادث ويستقصيها ويزدريها ويقول كل شيء ، قد صور الإنسان والعالم المحيط به في صورة تنحل آخر الأمر إلى أعضائه الداخلية وإلى عقله . فكل شيء عنده مركز في الحواس وفي العقل . وعبثاً نحاول أن نستكشف في كتابته طائفة أو ابتهاجاً أو حالة من حالات القلق أو طموحاً نفسياً أو تردداً شعورياً يشبه ما نلقاه عند كتاب بلغوا حظاً كبيراً من الرقة والدقة أمثال بوشكين أو أرلان . فعند جويس تطفئ السخرية والبراعة الجافة للفكر على التأثير واضطراب النفس وتسودان دون غيرهما ، بحيث نشعر شعوراً جلياً أنه لم يصور الإنسان كله بل نقص منه شيئاً .

قصصى الواقع يتمنى إذن أن يبدد السراب الذي توجده أساطير الواقع . فهو يريد فنناً يصل بدقته وجلالته وإفصاحه إلى قهر الأساطير الحديثة . يريد فنناً

مقاومة القدر من الواقع

يحفظ للنظ جمال ووضوحه دون أن ينتقص من طرافته أو غرابته . يريد فنّا
يحاول أن يبدّد هذا الإبهام السائد في الأذهان ، فيهاجم في غير تردد أو هوادة
تسلط الألفاظ والحوادث ، ويكافح في سبيل إزالة الكابوس الذي يضلل الفكر
ويغرقه ، لتقصر المسافة بعض الشيء بين الحق وبين أولئك الذين يلتمسونه في
الظلمة منذ عهد بعيد ، أولئك الذين عقدوا آمالهم بالحرية .

محمود ميرانه

جهلها إلى العربية الدكتور توفيق شحاته

مغامر

كان ذلك في القطار الذي قام من روما قاصداً إلى فلورنسة ، وقد جلستُ في مقعد مقصورة من مقصورات العربات ، وملاً المقاعد الخمسة الأخرى مسافرون آخرون أكثرهم من السيدات ، بل الواقع أنه احتل كل المقاعد السيدات ما عدا مقعدين . وسار القطار مسرعاً في الطريق إلى فلورنسة ، وكان الجو حاراً والشمس ساطعة والسماء صافية زرقاء عميقة الزرقة ، يقطعها أحياناً قزحٌ من السحاب الأبيض المتكاسل ، وهو يتخذ أشكالاً غريبة ، فمن جسد نمر إلى رأس مارد ، وأحياناً تأتي في الصفاء غمامة داكنة حزينة تجري بسرعة ولا تلبث أن تغمر القطار بدموعها ثم تهزول في طريقها ، فتعود السماء صافية باسمة . وكان المنظر يكاد يكون ثابتاً بأشجار الصفصاف الطويلة تمتد أعناقها إلى السماء . وهو منظر يعتبر رائعاً في أي بلد آخر غير هذه البلاد موطن الجمال الطبيعي . ولذلك كان الجالسون الستة لا يلتفتون إلى النوافذ إلا قليلاً ، وأخذ الأصدقاء منهم ، في حديث طويل .

كان الأصدقاء هؤلاء فتاتين دخلتا معاً إلى القطار ، وجلستا ساكتتين في مبدأ الأمر ترقبان السيدتين الجالستين أمامهما في انتباه ، وهما سيدة عجوز جاوزت الكهولة إلى الشيخوخة ، وسيدة نصِّفٌ تشبهها ، فهي إمامنة أو أخت صغيرة . ولاريب أن الفتاتين كانتا ترقبان ملابس السيدتين وحلاهما بعين نسوية ناعمة ، ثم أخذتا في الحديث بصوت خافت ، ثم ارتفع صوتهما شيئاً فشيئاً . وكيف يكون الحديث خافتاً ونحن في إيطاليا !

لم أكن إلى تلك اللحظة مصغياً إلى تفصيلات حديثهما ، إذ كنت في شغل بمطالعة بعض الصحف الإيطالية ، وآثرت قراءتها قبل أن يصبح الحديث عامّاً بين المسافرين ، ففي إيطاليا تتعذر القراءة في القطار ومضت ساعة ، وحدث ما كنت أتوقع ، وتجاذبت الفتاتان الحديث مع الرجل الجالس أمامي ، وكان هو البادي بالحديث ؛

إذ أبدت إحدى الفتيات ملاحظة فأبدى هو ردًا ظريفًا مقابلاً ، فكان ضحك ، وكان حوار .

رأيت أن قد حان الوقت لأترك جريدتي ، ولكنني لم أتركها في التو ، بل اتخذتها حجة للتأمل في الجالسين ، وفهمت في الحال ماذا دعا الرجل الذي أمانى إلى التدخل ؛ فقد كانت إحدى الفتيات صبوح الوجه ، وكانت الأخرى غزلة لعوبا . أما الرجل فقد قدرت له من العمر ما يقل عن الثلاثين قليلاً ، وهو ضخيم الجثة متوسط القامة ذو رأس غزير الشعر بين الصفرة والحمرة . ولقد كنت أظنه من الجنس الجرمانى لو لم يكن يتكلم الايطالية في لهجة بعيدة عن لهجة الأجانب . وليس بمستغرب أن تجد رجلاً أشقر في إيطاليا فالشقر من الرجال بين أهل شمال إيطاليا كثيرون .

وانتهت للحديث إذ كانت إحدى الفتيات تسأله من أى وطن هو . وليس هذا السؤال في إيطاليا إنكاراً لجنسيته الايطالية ، وإنما هو سؤال عادى يقصد به معرفة الإقليم ، ففي إيطاليا لا تزال التزعة إلى استقلال الأقاليم قوية .

أجاب الشاب : إني من نابولي .

قالت الفتاة : نابولى ؟ لا أظن !

قال الشاب وقد أخذ يمد وينغم كلماته على طريقة أهل نابولى في لهجتهم الثابتة : أوكد لك أنى ولدت ونشأت في نابولى ، وأعرف جبلها كما أعرف أعينها . وأنت من أى موطن تكونين ؟ أجابت وقد ذهب منها كل شك : إني من أهل فورلى وإن كنت أقيم الآن في فيرنزى .

قال الفتى : إنها إقليم الورد ، لذلك كانت حدود الفتيات متوردة . ضحكت الفتاة وقالت : تباً للرجال !

سأل ضاحكاً : لماذا ؟

قالت : لا يابون إلا العبث

قال : إن الرجال يعبثون بالقول ، ولكن الفتيات يعبثن بالقلوب ، وضحك الجميع وشاركتهن في الضحك .

وسأله السيدة العجوز : كم بقى من الوقت للوصول إلى فيرنزى أى فلورنسة .

أجاب : لا أعرف فإني أنزل قبل ذلك .

وتدخلت في الحديث : أظن أنه بقيت ساعة ونصف ساعة .

قالت إحدى الفتيات : هذا كثير .

فقلت : ليس كثيراً مع أن القطار سريع .

وعندئذ تبينت أن الفتى كان يتطلع إلى مند زمن وسألني : وما موطنك أنت؟ قلت له : مصري . وحينئذ رأيت في وجهه شيئاً من الإنكار ، وإن لم تفسح عينيه تلك السحابة الخفيفة التي أخشاها ، والتي تعبر عن شعور كامن في نفس الأوربي ، عندما يكتشف أن مخاطبه من غير الأوربيين .

لم أر في عينيه تلك السحابة وإن رأيت شيئاً يدل على الإنكار والحيرة ، ولكنه لم يجرؤ على أن يوجه إليّ سؤالاً كان يريد أن يوجهه .

قال : لقد أقيمت في الاسكندرية ستة أشهر ، وأنا أعرف مغانيها وأعرف لغتها وقال بلغة عربية لا بأس بها : سلامات ! أزيك ، فأجبت : الله يسلمك .

وحينئذ لم يبق بد من توجيه سؤاله :

— هل أنت مسلم ؟

قلت : نعم !

قال : هذا غريب !

قلت : وما وجه الغرابة ؟

قال : معذرة فإني لم أكن أظن أن المسلمين يعرفون اللغات الأجنبية .

قلت : إذا فاعذل عن هذا الظن بعد الآن ، فنحن كالأمة الأوربية فينا من

يعرفون وفينا من لا يعرفون .

ودار بيننا حوار رقيق في جمال السيدات وتسلطنهن ، وكنت قد

عقدت العزم على سؤاله عن نفسه كما سألني هو ، فقلت له : هل أنت حقاً من

سكان نابولي ؟

أجاب : ولم لا ؟ فسألته : هل أنت تاجر ؟ فأجاب إجابة مبهمّة : في مثل

هذا النوع من العمل ، ولكنني كنت قبل الآن مؤلفاً ومن قبل في

أسبانيا ، وقد وضعت كتاباً عن تلك الحرب ، وأود أن أهدي إليك نسخة إذا

قبلت الإهداء .

قلت : شكراً لك ، فأخرج نسخة من كتابه وقال لي : ما اسمك الذي

أكتبه في عبارة الإهداء ؟ وكأنه كان يود أن يتأكد للمرة الأخيرة أني

مصري ومسلم .

فأدليت إليه باسمي : « محمد عادل فاضل » ، فكتب عبارة الإهداء ثم قال :
« الثمن عشر ليرات » .

فأخرجت تقودى وناولته الثمن ، وأخذت الكتاب وقرأت عنوانه واسمه
« سنة بين الحمر » . وجلست أقلب فيه لحظة ثم وضعت في حقيبة ملابسى .

من ذا الذى يستطيع أن يفتح كتاباً في فلورنسة ! إن في كتاب الدهر غنى عن
القراءة . فهذه المدينة من المدن القليلة التى لا يحتاج المرء فيها إلى مجهود فكري
كى يعود إلى الزمن الخالى أيام مدينتى وسافونارولا ، وعصور رجال الأدب
والفن . فهنا موطن دانتى ، ومكيافلى ، وهنا موطن جيوتو ، وميكلائيلو ،
ودوناتللو . لتقطع ساحة قصر الحكم ، أليس ذلك المكان الذى كان مسرحاً
لحوادث فلورنسة وتاريخها ! ألا تتمثل فى الحال تلك المنصة التى أقيمت لإحراق
سافونارولا ، ذلك الراهب الطاهر الذى دانت لدعوته المدينة فحكمها بيد
من حديد وهو يعمل على الإصلاح ولكنه نسى أن خطبه الخلافة لا يمكن أن
تخضع الناس وتقلب المدينة بيعه كبيرة واحدة ، وهى مركز الثراء والترف والفن
ونسى أن الدين والزهد والتقشف شيء ، والكنيسة بعزها وسلطانها وثرائها
شيء آخر .

إنك لتسير فى أضيق منعطف وتدور حول أضلم زاوية فلا تجد إلا ما يذكر
بتاريخ حافل أو باسم خالد . وتلك الآيات الفنية الملقاة فى الشوارع إلقاءً ، هل تجد
ما يماثلها فى أى مكان آخر ؟ فأى كتاب أدب تقرأ لتدع مرورك على الجسر القديم
مرتين وثلاثاً بل مائة مرة ! وأى كتاب تقرأ لتدع نزهة إلى سان مياتو أو
زيارة لقصر بيتى أو معرض الصور فى الأوفيزى !

لنختار مدينة أخرى للقراءة ، فما كانت فلورنسة بالمدينة الصالحة .
الواقع أنى ما وطئت أرض فلورنسة حتى نسيت الكتاب وصاحبه ولم أذكره
إلا بعد نصف شهر ، وكنت قد انتقلت إلى مدينة بيروجيا القديمة وشبعت من
التفرج على آثارها واستيحاء تلك الانتقامات الدموية بين أسرها .

كان اليوم حاراً بالرغم من علو المدينة وجثومها فوق قمة جبل وقد تناولت
طعاماً شهياً من المكرونة والشواء ، وشربت قدراً من نبيذ الالياتكو ثم ذهبت
إلى غرقتى فشعرت بالنعاس فسمت قليلاً ، واستيقظت وأنا أشعر بأنى أصبح
مأكون . وبين يدي من الزمن ما بعد الظهيرة بأكله فإذا أفعل ؟

قد أستطيع أن أذهب إلى متحف أو كنيسة ، وقد أستطيع أن آوى إلى دار كتب الجامعة ، وقد أستطيع الجلوس في قهوة أتناول من المثلجات ما لا يوجد مثله في بلد آخر. لا ! إنني أريد قبل كل شيء الهواء والنور ، ثم لا مانع بعد ذلك من القراءة . فمدت يدي نحو الحقيبة وتناولت كتاباً من الكتب القليلة التي أحملها معي وكان هو كتاب رفيق السفر .

سرت الهويني لأختار مكاناً على مقعد حجري عند السور القديم الذي ينتهي ببناء الجامعة . جلست أنظر إلى الوهاد العميقة ترتفع وراءها الجبال ، والمنظر تحجبه غلالة شفاقة من ضباب أزرق ، ثم بدأت أفص ورق الكتاب وأقرأ تارة وأتأمل في سكون إلى المنظر أمامي تارة أخرى .

لم يكن الكتاب كبير القيمة ، فهو يحتوي على تفاصيل عدة عن مختلف الفرق التي كانت تقاتل وتناضل في الجرب الأهلية بأسبانيا من أجل مبدأ الجمهورية أو الشيوعية أو الفوضي أو إن شئت اللادينية ، وما بين هذه الفرق من تنافس وتناحر وهي أمام العدو المشترك . والكتاب يحتوي على حشد من المعلومات ولكنه كتاب ميت لأنه كتب بلا عقيدة ؛ إذ الكاتب لاهم له إلا أن يتلمس نقائص هؤلاء الجمهوريين الذين سماهم الحمر ، مع أنه منضم إليهم . وهو يفعل ذلك لأنه يريد أن يعيش أو يكتسب في أرض إيطاليا وفي ظل الفاشست . ولا أعتقد أنه كان أكثر إخلاصاً للفاشية .

على أن ما استرعى انتباهي بنوع خاص هو المقدمة التي أهملت قراءتها في مبدأ الأمر ، فإذا لم يعجبني الكتاب عدت إليها : « كنت وأنا هولندي ، أعيش في باريس كمئات من الشريدين أمثالي الذين يأوون إلى تلك المدينة وقد عضني الجوع وضاعت بي سبل العيش ، فإذا بمن يغريني بالمال فأذهب معه إلى أحد المكاتب العديدة المنتشرة في باريس ، وأنخرط في سلك المتطوعين للقتال مع الحكومة الجمهورية القائمة في اسبانيا »

في هذه العبارة فقط رنة الصدق بين جميع آراء الكتاب ، وحينئذ تمثلت لي صورة ذلك الفتى الهولندي المغامر بوجهه المكتنز باللحم وشعره الغزير بين الصفرة والحمرة وجسمه القوي الضخم ، ذلك الهولندي الذي عاش في باريس ، ولعله زعم أنه فرنسي ، ثم ذهب إلى أسبانيا ثم تركها وجرب الحياة في مصر ، ثم هو في إيطاليا يزعم أنه إيطالي ومن أهل نابولي . وفي كل هذه الأحوال يتشكل للحياة

مغامراً غير عابئ وما هو غرضه من مثل هذه الحياة الخطرة : الغنى والثروة ؟
أم لذة الأخطار نفسها ؟ ربما كان هو نفسه لا يعرف مرماه . ولعل مثل هذه
الحياة المليئة بالتقلبات هي أكبر غم في الحياة نفسها .
ودارت في خلدي خواطر أخرى ومسائل لا تقل خطورة عن لغز الحياة
والموت ، وإذا بي أنتبه فجأة إلى الشمس وهي تغيب من وراء الجبل وقد خنقها
الضباب فلم يظهر غير قرصها دون الشفق ، وقت ألتبس مخرجاً من أفكاري التي
أخذت تظلم من جوى النفساني بأن أقصد إلى القهوة لأجلس بين الناس وأرشف
شرباً ذا مرارة .

حسن محمود

جيترا

مسرحة في فصل واحد

المشهد الأول

- جيترا : أنت رب السهام الخمسة ، إله الحب ؟
- مادانا : إني أنا المولود البكر في قلب الخالق ، أنا من أربط بروابط من السعادة والالم
حيوات الرجال والنساء .
- جيترا : أدري ، أدري ، ماذلك الالم ، وما تلك الروابط . ومن أنت الآخر يا سيدي ؟
- فاستنا : أنا صديقه فاستنا ، ملك الفصول . إن الموت والهرم ليخترمان العالم حتى العظم
ولكني أدركهما ، وأهاجهما بثبات ، أنا الشباب الخالد .
- جيترا : إني أنتحي لك يا أيها الاله فاستنا .
- مادانا : فما نذكرك الخطير يا أيتها المليحة الغريبة ؟ لماذا تدبلين بالزهد والامانة شبابك النض ؟
لا يليق بعبادة الحب قربان كهذا . من أنت ، وماذا تلتسين ؟
- جيترا : أنا جيترا ابنة البيت الملكي من مانيبور ، وقد من الاله شيقا برحمته
الالهية على أجدادي الملوك فوعدهم أن يرزقهم بسلالة من الأبناء الذكور ، غير
منقطعة أبداً . ولكن الكلمة المقدسة عجزت عن تغيير شرارة الحياة في رحم أمي .
ومع أنني كنت أنتي فقد جئت قوية للراس كذلك .
- مادانا : نعم ، وذلك الذي دعا أباك إلى أن ينشئك تنشئة البنين . فقد علمك يرى القوس ،
وواجبات الملك جميعاً .
- جيترا : نعم ، وهذا الذي من أجله تزييت بزي الرجال ، ونبذت عزلة المرأة في خدرها .
فأنا أجهل مكر النساء في اجتذاب القلوب . إن يدي لتقويان على طي القوس ، غير
أنني لم أتعلم رماية كيوييد ولا سحر العيون .
- مادانا : لا يحتاج ذلك إلى تعلم ، أيتها المليحة . إذ العين تعمل عملها غير معلمة ، وعند من
أصيب في الصميم من قلبه الخبر اليقين .
- جيترا : لقد خرجت ذات يوم للتصيد ، فتجولت وحدي ، فانهيت إلى الغابة على ضفة نهر
البورتا فربطت جوادى إلى جذع شجرة ودخلت إلى حرج كثيف فيها ، مقتفية
أثر ظبي ، فوجدت ممشى ضيقاً متعرجاً يمتد في خلال ظلام الأغصان ، وكانت أوراق
الشجر تهتز بصري الحشرات حينما جئت فجأة إلى رجل قد اضطجع على فراش من
الورق اليابس ، قاطعاً طريق ، فطلبت منه بمجرقة أن يتنحى جانباً عن الطريق ،
ولكنه لم يكثر ، فوخزته عندئذ بالطرف الجاد من قوسي في شيء من الاحتقار ،

فاتنفض من فوره قائماً ، وكانت أطرافه مستقيمة وافية ، فكأنه لسان من اللهب قد اندلع من كومة من الرماد ؛ وارتسمت على زوايا فيه بسمة طابثة قد تكون من جراء رؤيته طلعت الصيانية ، فأحسست حينئذ — أول مرة في حياتي — حس امرأة ، وشعرت بأن رجلاً كان أمامي .

مادانا : في الساعة المباركة أعلم الرجل والمرأة هذا الدرس البليغ ليعرفا نفسيهما . وماذا تم بعد ذلك ؟

جيترا : وفي شيء من الوجع والتعجب سألته قائلة : « من أنت ؟ » فأجابني : « إني أرجونا من بطن كورو العظيم » ، فجمدت جمود الصنم ، وقاتني ان آخر ساجدة له .

أكان ذلك حقاً أرجونا ، معبود أحلامي ؟

أجل ! فقد طرق سمعي منذ أمد بعيد أنه نذر على نفسه التزام العزوبة إثنا عشر عاماً . ولقد طالما ساقني طموح صباي إلى تحديه ، ودعوته إلى مبارزتي بالرمح لاناؤه متتكرة في جولة واحدة فأثبت له براعتي في منازلته بالسلاح .

آه ، أيها القلب الاحق ، إلى أي مدى ذهب ادعاؤك ؟ أواه لو أتيحت لي أن أستبدل حفنة تراب تحت قدميك بشبابي وأمانيه كلها ، إذاً لكنت تلك لعمدة عظمي . ولست أدري في أي لجة من الافكار كنت غريقة حين رأيته يختفي بين الاشجار . أيتها الحقاء ! لا حيثه ، ولا كلمته بكلمة ما ، ولا طلبت منه الصفع ! بل وقتت أمامه وقفة امرأة متوحشة ، إذ كان ينطلق عنك زارياً .

وفي اليوم التالي خلعت عني ثياب الرجال ، وتحليت بالقلائد والخلائل والاساور ، ولبست ثوباً من الحرير الأرجواني . فكان هذا اللباس الذي لم أعتده يحتاج بهاري الزائل . إلا أنني بادرت إلى البحث عن سؤلي فألفت أرجونا في معبد قاعة الاله شيقا .

مادانا : قصي على القصة حتى نهايتها ، فاني أنا الاله ابن القلب ، وإني لأفهم سر هذا الاغراء .

جيترا : لست أتذكر ما قلت وما تلقيت من أجوبة عليه إلا تذكرأ غامضاً ، فلا تسألني أن أقص عليك الامر بجذافيره . لقد انقض العار على انقضا الصاعقة ، ولكنه لم يستطع أن يخطئني ، فما أنا ذى في غاية القسوة ، وفي شبه الرجل تماماً . كانت كلماته الاخيرة : « لقد نذرت العزوبة على نفسي ، فلست أصلح أن أكون لك زوجاً » . كانت تلك الكلمات كالابر المحارة من شدة الاحماء تخرق أذني وأنا في طريق قافلة إلى الدار .

فيا لنذر الرجل ! إنك — وأنت إله الحب — لتعرف يقيناً أن قديسين وحكماء لا يحصيه عدد قد وضعوا الثمار التي جنوا من حياة التقشف الطويل عند قدمي امرأة .

لقد كسرت قوسي ، وأحرقت سهامى ، وكهرت ذراعى القوة للمرنة للدرية على القوس . فيا أيها الاله ، يا أيها الحب ، لقد أذلت زهو رجولتي الباطل إلى الأرض ، وسحقت دريتي التي هي دربة الرجال ، فسقطت آثارها ذليلة عند قدميك . فلعني الآن دروسك . أمددني بقوة الضعيف ، وأعطني سلاح اليد العزلى .

مادانا : ساكون رفيقك . ولاجيتن بقاهر الدنيا أرجونا أسيراً بين يديك ليسمع منك حكم تمرده .

جيترا : لو اتسع لي مجال الوقت لاستطعت أن أخضع قلبه شيئاً فشيئاً ، بنير استعانة بالآلهة . كنت إذا ألزم جانبه على أني رفيقه ، وأقود جياد مركبته الحربية الشرود ، وأقف على حراسة باب خيمته آناء الليل ، وأعينه في كل واجبات الجندية الجليلة ، منقذة الضعفاء ، ومقيمة قسطاس العدل حيث يجب . لا شك أنه كان سيجيء يوم ينظر إلى فيه ويتعجب قائلاً : « من هذا الفتى ؟ لعل عبداً من عبيدي الذين خدموني في سالف أيامي اقتنى أثرى اقتفاء أعمال الصالحة ؟ » ما أنا بالمرأة التي تغذى بصمت الوحشة قنوطها ، وترضعه بدموعها في الليل ، وتغطيه باقتسامتها الصابرة في النهار ، فكأنها أرملة منذ الولادة . لن تسقط زهرة املي على الأرض قبل أن ينضج ثمرة إلا أنه لكي يتمكن المرء من تعريف الناس بحقيقة نفسه ، وحملهم على احترامها ، فعليه أن يسعى إلى ذلك طوال عمره . لذلك فقد وقفت بيا بك أنت ، يا إله الحب ، قاهر العالم . وبيا بك أنت يا أيها الاله الفتى قاستنا ، إله الفصول أرفنا من جسمي هذا الجور الآبد ، هذا القبح الشنيع ، واجعلاني يوماً واحداً جميلة ، رائعة الجمال ، في مثل جمال الحب المزدهر في قلبي فجأة . هيا لي من لدنك يوماً واحداً قصيراً من الجمال الكامل ، ولكما مني الطاعة في الأيام القابلة .

مادانا : لقد استجبت دطاك يا أيتها السيدة .

قاستنا : لا يوماً واحداً فحسب ، بل ستكسو روعة أزهار الربيع أطرافك سنة كاملة .

المشهد الثاني

أرجونا : أسكنت أحلم ، أم كان ما رأيت عند البركة هناك حقيقة ؟ لقد كنت جالساً على الحيلة مسرحاً الذهن في السنين الماضية ، في ظلال المساء المائلة ، حين بدت بين طيات ورق الشجر القاتم ببطء هياة من جمال اتخذ شكل امرأة سوية التكوين ، ووقفت على لوحة بيضاء من الرخام عند ضفة الماء ، فكأن قلب الأرض كان يخفق شدة فرح تحت قدميها البيضاء العاريتين ، فحسبت أن أقنعة بدننها متقشعة ، من النبطة في الهواء تقشع ضباب الفجر الذهبي من أعالي الربى الشرقية الكاسية بالثلوج . وقد انحنت على امرأة البركة الوضيئة ورأت انعكاس وجهها عليها ، ثم نهضت محزونة ، ووقفت جامدة ، ثم تبسمت ومدت ذراعها اليسرى إلى شعرها فأصلحته بحركة لا تتم على اهتمام وتركته ينسدل فيصل إلى الأرض محاذياً قدميها . وقد كشفت عن صدرها ونظرت إلى ذراعها فكأنتا في أحسن تكوين ، زاخرتين بقوة عناق عنيف . ولما حنت رأسها رأأت نظرة شبابها ، وطراوة أديمها وغضارته ولونه الوردى ، فأشرق وجهها بإشراق السروز والعجب . أفكانت — لو فتحت عينيها في الصباح على براعم اللوتس البيض تطوق جيدها ورأت صورتها في صفحة المساء — تقضي سحابة نهارها بالتعجب ؟ غير أنه بعد لحظة خاضت تلك الابتسامة من وجهها ، وظهرت في عينيها غشية الحزن . ثم إنها عقدت ضفائرها

جيترا

وأسدك الحجاب على ذراعها وتحسرت حسرة بطيئة وسارت مثل مساء جيل يئيب
في ظلام الليل . وقد خيل لي أن إدراك غاية المني قد كشف عنه لي في طرفة عين ثم
ما لبث أن زال . ولكن من ذا الذي يدفع الباب ؟

[تدخل جيترا في زى امرأة]

واجبا ! ها هي ذى . قاطعت يا قلبي . لا تخيفيني أيتها السيدة فاني جئتي !
جيترا : سيدى الكريم ، أنت ضيفي . وأنا أعيش في هذا الهيكل ، ولست أدري كيف
أستطيع أن أكرمك .

آرجونا : أيتها السيدة الطيبة ، رؤيتك في الحقيقة هي غاية الاكرام التي ما بعدها غاية . وإن لم
تري أن من قلة اللياقة أن أسألك سؤالا ، فلت .

جيترا : ذلك لك .

آرجونا : ما تذكر الخطير الذي يجمعك رهينة هذا الهيكل المنزل ، حاجبة عن أعين البشر
جميعاً هذه الملاحه ؟

جيترا : إني أضمر في قلبي أمنية خفية ، أصلي من أجل بلوغها للرب شيئا كل يوم .
آرجونا : واحسرتاه ! وأي شيء تستطيعين أن تمنني أنت ، يا منية العالم بأسره ؟ لقد سافرت
من أقصى قم الربي الشرقية التي تطبع عليها الشمس أول آثار أقدامها النارية ،
إلى نهاية مغرب الشمس ، ورأيت كل نادر على وجه الأرض وكل جيل وعظيم ،
فقلولي ماذا تطلبين وعمن تبحثين ، أفض إليك بكل ما عندي من العلم .

جيترا : من أبحث عنه ، معروف لدى الجميع .

آرجونا : أحق ذلك ؟ ترى من يكون ذلك السيد الذي اصطفته الآلهة ، واقتنصت شهرته فؤادك ؟

جيترا : إنه منحدر من أرفع أرومة ملكية . إنه لأعظم الأبطال .

آرجونا : لا تقدي — يا سيدتي — ثروة كالتى أوتيت من الجمال إلى مدح الشهرة المتغيرة
الكاذبة . فالشهرة الكاذبة تنتشر على الألسنة انتشار ضباب أول الفجر قبل
الشروق . خبريني من ذلك البطل العظيم ، سليل أسنى البيوتات المالكة ، الذي
تبحثين عنه ؟

جيترا : أراك — يا أيها الناسك ، تفار من شهرة غيرك من الرجال . ألم تعلم بأن بيت
كوروس الملكي أرفع البيوت المالكة في العالم وأبعدها شهرة ؟

آرجونا : بيت كوروس ؟

جيترا : ثم ألم تسمع بأعظم اسم في ذلك البيت الذي طبقت شهرته الآفاق ؟

آرجونا : دعيني أسمع ذلك من شفتيك أنت .

جيترا : يا آرجونا ، يا غالب العالم بأسره ، لقد اخترت ذلك الاسم الخالد من أفواه
الناس ، وأخفيته بعناية في قلبي . أيها الناسك ، مالك بادي القلق ؟ أليس في ذلك
الاسم من شيء غير البريق الكاذب ؟ قل ذلك ، فلن أتردد في كسر هذا الحق
من قلبي لأرى بجوهرة الكاذبة في التراب .

آرجونا : كوني أنت اسمه وشهرته ، وكوني أنت بطولته وشجاعته ، إن حقاً وإن كذباً ،
ولاً تبعديه عن قلبك رحمة به ، لأنه جاث عند قدميك الآن .

جيترا

جيترا : أنت أرجونا ؟
أرجونا : نعم ، أنا هو ، الضيف الطارق بابك ، الظامى حباً .
جيترا : إذا قلبس حقاً أن أرجونا قد نذر العزوبة على نفسه أحد عشر طاماً .
أرجونا : ولكنك قد بددت نذرى تبديد القمر نذر الليل فى الأظلام .
جيترا : صه ! يا للعار ! ما الذى رأيت فى حتى كذبت نفسك ؟ عمن تبحت بهاتين العينين السوداوين ، وهاتين الذراعين البيضاءوين إن كنت باذلاً لها ثمن استقامتك . إني هلئ علم بأنها ليست تلك نفسى ، فلا ريب أن هذا لن يكون هو الحب ، وليس هو اسمى احترام الرجل للمرأة . إنه لمن دواعى الأسف أن هذا التنكر العاجز ، أعنى الجسد ، يعنى الانسان عن نور الروح الخالد . لقد عرفت الآن ، أصدق معرفة ، أن صيت بطولتك يا أرجونا صيت مكذوب .
أرجونا : عجباً ، إني لشاعر بتفاهة الصيت الذائع والافتخار بالشجاعة . ويخيل إلى أن كل شيء موهوم ، وأنت أنت وحدك الكاملة . أنت ثراء هذا العالم ، غاية النيات كلها ، وهدف المساعي جميعها ، أنت المرأة الوحيدة . إن فى العالم غيرك لا يعرفهن الناس إلا يبطء ، فى حين أن رؤياك لحظة واحدة هى رؤية السالك الأعلى مرة وللأبد .
جيترا : واحسرتاه يا أرجونا ! لست أنا هذه ، وإنما هذا خداع إله ، فاذهب ، اذهب عنى يا بطل . لا تنازل الكذب ، ولا تقدم للوهم الحادع قلبك العظيم . هيا انصرف .

المشهد الثالث

جيترا : كلا ، مستحيل ، مستحيل مجابة تلك النظرات التى تمسك بحناق المرء إمساك يدي روح جائع فى داخله . مستحيل الشعور بأن قلب المرء يلبض فى داخله نبضاً جاهداً ليقطع نياطه ، وليستعث الصرخة للؤلؤة لتسرى فى البدن كله ، ثم يصرقه صرف شحاذ . كلا ، لن يكون ذلك .

[يدخل مادانا و فاستنا]

آه ، يا إله الحب ، ما أروع هذا اللهب الذى ضربت نطاقه حولي ، فأنا آشتعل وأحرق كل ما أمس ؟
مادانا : أريد لأعرف ماذا تم البارحة ؟
جيترا : لقد اضطجعت فى المساء على فراش من العشب اثثرت عليه أوراق أزهار الربيع ، وتذكرت جميع ما قد سمعت من عجيب إطراء أرجونا بجمالى ، مترشفة قطرات العسل الذى خزنته طوال النهار للمديد قطرة قطرة ، وقد نسيت تاريخ أيامى السالفة ، نسيان تاريخ أدوار حياتى الأولى ، فشعرت شعور الزهرة إذ لم يبق لها غير ساعات طابرة لتسمع فيها جميع اللدائهن الطنانة والهمسات الحاققة من النابات ، ثم قنض طرهما وتحنى تويجها ، وتسقط بنفس واحد إلى التراب بغير صراخ . وبذلك تنتهى القصة القصيرة ، قمة اللحظة الكاملة التى لا ماضى ولا مستقبل لها .

جيترا

قاسنا : قد تزدهر حياة المجد غير المحدودة ثم تنتهي في صباح واحد .

مادانا : كمعنى لا نهائى في مدى أغنية ضيق .

جيترا : لقد دفعتني مداعبة النسيم الجنوى إلى أحضان النوم ، وتساقت على جسمى قبلات

صامتة من ظلة « المالاتى » الزاهرة فوق رأسى ، فاختارت كل زهرة منها على

شعرى وعلى صدرى وقدمى لنفسها فراشا تموت عليه . وقد أغفيت ، وإني لفي

أعماق نومي إذ شعرت بنقطة كأن نظرة قاسية متعطشة أشبه ماتكون بأصابع مستدقة

من اللهب قد مست بدنى الناعس ، قهضت فرأيت الناسك واقفاً تجاهى . وكان

القمر قد جنح إلى الغرب ولاح من بين أوراق الشجر ليرقب أنجوبة الفن للمقدس

المركبة في هذا الأطار البشرى السريع انكساره ؛ وكان الجو معطراً ، وسكون

الليل مسموحاً من صرير الجنادب ، وكانت صور الأشجار في البركة بغير حراك .

فوقف وعصاه في يده : « مديد القامة ، مستقيماً ، ساكناً كأنه شجرة من أشجار

البابية . وقد خيل إلى حين فتحت عيني أنى قد قطعت بينى وبين هذه الحياة الأسباب ،

وأنى أولد ولادة خيالية في أرض من الخيال . وقد سقط الحياء إلى قدمى سقوط ثياب

محلولة الوثاق . وسمعت نداءه : « أيتها الحبيبة ، يا أعز حبيبة ! » فأنجذت أدوار

حياتى للنسيئة في واحدة ، ولييت نداءه قاتلة : « خذنى على علائى إليك » ،

وبسطت له ذراعى . وكان القمر قد غاب وراء الأشجار ، فاندل غطاء ظلام لف

شمل الكون . وكانت السماء والأرض ، والزمان والمكان ، والمرة والالم ، والموت

والحياة قد غاصت جميعها في وجد غالب .

ومع أول شعاع من النور وأول لحن من الطير استيقظت وجلست متكئة على

ذراعى البنى .

ولبت هو نائماً ، وقد ارتست على شفتيه ابتسامة غامضة كأنها هلال على صفحة

الصباح . وكانت حمرة نور الفجر الوردية تساقط على جبينه الكريم ، فتحسرت

وقت وأمطت أوراق الكرم التي حجبت عن وجهه أشعة الشمس الساطعة عليه ،

وتلفت حولى فرأيت الأرض القديمة بعينها ، فتذكرت ما كنت أن أكون ،

وعدوت مثل ظلية نقرت مذعورة من ظلها في ممشى غابة قد انتثرت عليه أزهار

« الشفالى » . وقد انتبذت زاوية قصية جلست منطية بكلتا يدي وجهى ، وحاولت

أن أجهش بالبكاء والمويل ، ولكن الدموع لم تفرق في عيني .

مادانا : واأسفا يا ابنة البشر ؛ لقد سرقت من الحزن المقدس الشراب السماوى العطر ،

وأترعت به ليلة أرضية ، ووضعها في يدك لتشربى ، ومع ذلك فهأنذا أسمع

صرخة الالم هذه !

جيترا : من ذا الذى شربها ؟ لقد بلغت غاية اللئى في حياتى ، وهى وصال الحب الأول ،

إلا أن ذلك انتزع منى . وسيسقط عنى هذا الجمال المستعار ، هذا الكذب الذى

يكتنفنى ، آخذاً معه أثر ذلك الاتحاد الحلو ، سقوط أوراق الزهرة للمرأة .

وستجلس المرأة الحجلى من فقرها العارى باكية ليل نهار . يا إله الحب ، إن هذا

للظهر اللعين ، الذى يرافقنى مراقبة الشيطان ، يسلبنى كنوز الحب جميعاً — وهى

جميع القبلات التى يظناً قلبى إليها .

جيترا

مادانا : وا اسفا ! يا لعمري ليلتك اليلة الواحدة تلك ! إن سفينة السرور قد ظهرت للعيان ، ولكن الموج حال دون بلوغها الشاطئ ، الأمين .

جيترا : لقد دنت السماء من يدي دنواً أنساني ، لحظة واحدة ، أنها لم تبلني . ولكن وجدت — إذ استيقظت من حلمي في الصباح — أن بدني قد أصبح منافسي ! فواجبي البنيض يحتم علي أن أزيته كل يوم ، لأرسله إلى معبودي ، فأراه في أحضانه . فيا إلهي استرجع مني نعمتك التي أنعت علي .

مادانا : وكيف تستطيعين التوقف أمام حيييك إذا أنا استرجعتها منك ؟ أليس من القسوة أن تخطفي من شفته الكأس وهو لم يكبد يجمع جرعة اللذة الأولى ؟ بأي غضب معرض سيلتاك حينذاك !

جيترا : لذلك أفضل من هذا بكثير . سأكشف له عن نفسي الحقيقية التي هي اسمي وأنبل من هذا المظهر ، فإن رفضها وطردي وكسر قلبي ، احتملت ذلك في صمت أيضاً .

قاسنتا : اتعطي بنصحي ، إنه متى انتهى فصل الازدهار بمجيء الخريف فحينئذ تأتي دولة جني الثمار الناضجة . ولا بد من يوم يأتي عفواً فتذبل الزهرة المفعمة بالحرارة ، زهرة الجسم ، فيه ، ويتقبل أرجونا مسروراً الحقيقة المرة الباقية فيك . فيا أيتها الطفلة عودي إلى عيدك المجنون .

المشهد الرابع

جيترا : لماذا تنظر إلي أيها الجندي الحبيب ؟ أرجونا : إنني أشاهد كيف تنسجين ذلك الأكليل . إن التوأمين المهارة والسلام ، يتراقصان فرحين على أطراف أصابعك ، فأنا أنظر وأتأمل .

جيترا : وفيك تفكيرك ياسيدي ؟ أرجونا : أفكر في أنك بهذه الحقة ، خفة اللبس ، والعدوية تنسجين أيام منغاي في إكليل خالد لتوجيهي حين أعود إلى الوطن .

جيترا : إلى الوطن ؟ ولكن ليس هذا الحب لوطن ما . أرجونا : أليس هو لوطن ما ؟

جيترا : كلا ، لا تتكلم في هذا أبداً . خذ إلي وطنك كل قوى لا يزول . ودع الزهرة البرية الصغيرة حيثما ولدت ، دعها تمت جيلة في نهاية اليوم بين الزهر الذابل والأوراق المتساقطة . لا تأخذها إلى قاعة قصرك لترميها إلى أرضه الصخرية التي لا تعرف الرحمة بالأشياء الذابلة المنسية .

أرجونا : وهل من ذلك النوع حبنا ؟

جيترا : نعم ، وليس من نوع آخر غيره . وما لك تأسف عليه ؟ فإخصص لأيام البطالة يجب ألا يعمر أكثر منها . لأن السرور ينقلب إلى ألم حين ينفلق عليه الباب الذي كان يجب أن ينفذ منه . غذه ، واحتفظ به إلى حين ينتهي ، ولا تأذن لكظة مسائك أن تطلب أكثر مما تستطيع رغبة صباحك تيله . لقد مضى النهار ، فالبس هذا

جيترا

الأكليل ؛ إني تعب . خذني بين ذراعيك أيها الحبيب ودع عنك هذه الجهود
الضائعة عبثاً في ألا تنفصل ، تمت في التقاء شفاهنا العذب .
آرجونا : مه ! واصني يا حبيبتي إلى رنين أجراس المصلين في هيكل القرية البعيد ينسل محمولا
على متن الهواء طائراً الأشجار الصامتة .

المشهد الخامس

فاستنا : لا أطيع مجاراتك يا صديقي . إني تعب ، وإبقاء النار ؛ التي أضرمت ، موقدة
واجب عسير . فهذا الناس ينشأ ، وهذه اللوحة تسقط من يدي ، وهذا الرماد
البارد يفشي سحر النار . ولقد أقتت من نعاسي ثانية وأتقذت اللهب التعب ، بكل
ما أوتيت من قوة ، غير أن هذا لن يدوم .
مادانا : إني لأعرفك طائشاً كالطفل . فأما لعبك فدائم الحركة ، على الأرض ، أوفى السماء .
وأما الأشياء التي بنيت منذ أيام بعناية لا حد لها فما أنت تعصف بها ، غير آسف ،
في لحظة واحدة . غير أن عملنا المشترك يواشك الانتهاء ؛ فأيام السرور المجنحة تطير
طيراناً سريعاً ، والمام وهو على وشك الانتهاء يرتعى معنى عليه في أحضان السعادة
الناصرة .

المشهد السادس

آرجونا : لقد نهضت في الصباح فوجدت أن أحلامي قد ولدت جوهرة ، ومع أنه لا صندوق
لدى أودعها إياه ، ولا تاج ملكٍ عندي أضعها عليه ، ولا سلسلة لي أعلقها فيها ،
فاني لا أملك القلب المطاوع على رميها . وهذه ذراعي العسكرية التي تمسكها مابثة ،
نابية ما عليها من الواجبات .

[تدخل جيترا]

جيترا : جدني بأفكارك ، يا سيدي .
آرجونا : ذهني اليوم مشغول بخواطر الصيد . أنظري إلى المطر كيف ينهر هتونا ، فينحدر
بنزارة على جوانب الراية ، وانظري إلى السحب اللدنية إذ تطبق كثيفة على
الغابة ، وإلى الجاري المتدفقة تدفق الشباب الطائش إذ تجتاز الحواجز ضاحكة
ضحكة الاستهزاء . في يوم ماطر كهذا ، علينا — نحن الأخوة الحمة — أن
نخرج إلى غابة جيترا كما لصيد الوحوش الأبدية . ولقد كانت تلك الأيام أيام
سرور ، فكانت قلوبنا تتراقص على قرع طبول السحاب القاصف ، وكانت الأحراج
تردد أصوات صرخات الطواويس ؛ ولم يكن الظبي الخجول ليمز وقع أقدامنا إذ
قترب ، لاشتداد ضوضاء المطر وخرير المياه . وقد ترك الثور آثار سيرها على
الأرض الرطبة ، فتم على مخابئها ، فإذا آن رياضتنا أن تنتهي جراً بعضنا بعضاً على
العودة إلى البيت طابرين تلك النيران الرائجة سباحة . ولقد استولى على ذلك
الروح الذي لا يعرف الاستقرار الآن . فأنا أشتي الخروج للصيد .

جيترا

جيترا : عليك أولاً أن تنزل في المقام الذي تجدد فيه قلبك الآن ، هل أنت واثق ثقة تامة أن الظبي المذعور الذي أنت في طلبه في حاجة إلى أن يصاد ؟ كلا ! ليس كذلك . فهذا الحيوان الأبدي كالحلم يخدمك أدنى ما يكون منك منالاً . أنظر إلى الرياح كيف يطاردها المطر المجنون الذي يسدد خلفها ألف سهم وهي مع هذا تمنح حرة لم تقهر . كذلك رياضتنا أيها الحبيب . إنك لتطارده روح الجمال السريعة الخطى ، مصوباً نحوها كل سهم في يديك . إلا أن هذا الظبي السحري ما انتك يمدو حراً دائماً لم يحسه أحد .

آرجونا : أليس عندك ، يا جيتري ، موطن تنتظر عودتك فيه قلوب شفيقة ؟ موطن كنت قد زينته بخدمتك الرفيعة ، ثم لما تركته خبا ضوؤه ؟

جيترا : ولم هذه الأسئلة ؟ هل انتقضت ساعات السرور الطائش ؟ ألم تعلم بأنني لا أزيد على ما ترى أمامك شيئاً ! أما أنا فلت أرى وراء ذلك شيئاً أبداً ، لأن قطرة الندى التي تتعلق على ذؤابة زهرة « كنسوكا » لا اسم لها ولا وطن ، وهي لا يجب على أي سؤال . وشأن من أحببت كشأن تلك القطرة السوية من الندى .

آرجونا : أليس لها بهذا العالم من صلة ؟ أفي استطاعها أن تكون مثل كسر من السماء وقع على الأرض من قلة اهتمام إله طائش ؟

جيترا : نعم .

آرجونا : آه ، وهذا هو السر الذي يشعرني دائماً بأنني على وشك أن أضيعك . إن قلبي قلق ، وذهني لا يعرف السلام . اقتربي مني يا من يستحيل وصلها ، أسلمني نفسك وأذعني لقيود الاسم والوطن والنسب ، وأحس قلبي من كل جوانبه بوجودك ، ليعيش معك في طمانينة الحب وسلامه .

جيترا : لم هذه المحاولات الضائعة في إمساك أصباغ السحاب والاحتفاظ بتراقص الأمواج وروائح الأزهار ؟

آرجونا : سيدتي لا تؤملي أن تخمدى الحب بالأوهام ، أعطيني ما أضمه وما يستطيع أن يستمر أطول من السرور ، وأن يدوم ولو على المكروه .

جيترا : يا بطل ، إن السنة لما تقته ، وها أنت ذا منهوك القوى . وإني لأعرف أن من رحمة السماء أن جعلت أمد الزهرة من الحياة قصيراً . فلو مات بدني هذا وذوي مع أزهار الربيع الأخير إذاً لمات ميتة الشرف ولا ريب ، ومع ذلك فإن أيامه معدودة أيها الحبيب ، فلا تدخره واضنطه حتى يحجب رحيقه ، لأن الفزع يراجع قلبك الملحاح ثانية وثالثة برغبة شديدة لا تشبع ، مراجعة النحلة أزهار الصيف الساقطة ذاوية في التراب .

المشهد السابع

مادانا : هذه ليالك الأخيرة .

فاستنا : فجمال جسمك سيعود إلى مذاخر الربيع الدائمة وحرمة شفتيك قد تمحورت من ذكريات قبل آرجونا ، وسوف تتفتق من جديد تفتق زوج من ورق « آسوكا » الجديدة ، وغضارة أديمك وبضاضته سوف تولد ثانية في مئات من أزاهير الياسمين المطر .

جيترا

جيترا : يا أيها الالهان : استجيبا لي دعائي ، واجبلا جمالي هذا يشرق الليلة في ساعته
الآخيرة . بأسطع سنائه مثل آخرة ارتجاف اللهب إذ يخبو .
مادانا : لقد أوتيت سؤالك .

المشهد الثامن

القرويون : من سيجيئنا بعد الآن ؟
آرجونا : لماذا ؟ أي خطر يخيفكم ؟
القرويون : إن اللصوص لينحدرون علينا من التلال الشمالية انحدار السيل من جبل ، لتدمير قريتنا .
آرجونا : أليس لكم في هذه المملكة من حارس ؟
القرويون : كانت الأميرة جيترا تفرع الأشجار جميعاً ، فانها حين كانت بهذه الأرض
السعيدة لم تخف غير الميئسات الطبيعية . وقد ذهبت الآن إلى الحج ، فلا يدري
أحد أين يراها ؟
آرجونا : وهل حارس هذه الأرض امرأة .
القرويون : نعم ، فهي أمنا وأبونا . مجتعيين في شخص واحد .

[يخرجون . تدخل جيترا]

جيترا : لماذا تجلس وحدك ؟
آرجونا : إني أحاول أن أتخيل من أي نوع من النساء تكون هذه الأميرة جيترا .
إني لأسمع كثيراً من النقص عنها من الرجال على اختلاف مشاربهم !
جيترا : آه ، ولكنها ليست بحسنة ، فليس لها عينان كميتي الجميلتين السوداوين
اللتين كأنهما في سوادهما الموت . وفي طوتها خرق كل هدف تشاء غير قلب بطنا .
آرجونا : إنهم يقولون عنها إنها رجل في البسالة ، وفي الرقة امرأة .
جيترا : وتلك في الواقع مصيبتها العظمى ، إذ حين تكون المرأة امرأة فحسب وتلف
نفسها حول قلوب الرجال لفاً ، بابتساماتها وتحركاتها وبمخدراتها وعناقها المتعجب ،
فانها تكون إذ ذاك سعيدة . ما فائدة التعليم ، والمآتي العظيمة لها ؟ إنك لو رأيتها
البارحة في ساحة معبد الاله شيقاً عند ممشي الغابة ، إذاً لمرت من غير أن
تتكرم بالنظر إليها .

ولكن هل أضناك جمال المرأة بحيث إنك تبحث فيها عن قوة الرجل ؟
لقد صنعت فراش قيلولتنا من ورق الشجر الأخضر المرطب برذاذ الزبد المتناثر
من مسقط الماء في كهف مظلم كأنه الليل . فبرودة العشب الأخضر الناعم المتكدس
على الصخور التي يقطر الماء منها ، قبل عينيكَ لتنام فدعني أقدمك إلى هناك .

آرجونا : ليس اليوم أيتها الحبيبة

جيترا : ولم لا يكون ذلك اليوم ؟

آرجونا : لقد تراءى إلي أن عصاة من اللصوص قد شارفت السهول فتم على أن أذهب لأعد
السلاح فأحمي القرويين المذعورين .

جيترا

جيترا : لا حاجة بك إلى الخوف عليهم ؛ فإن الأميرة جيترا قد أرسلت قبيل أن تبدأ حجها حراساً أشداء إلى ممرات الحدود كافة .

آرجونا : ومع ذلك فاسمح لي هنية أن أبدأ عملي الحربي ، لأشرف هذه الذراع العاطلة بفخر جديد ، وأجعل منها وسادة تليق برأسك .

جيترا : فما قولك إن رفضت السماح لك بأن تذهب ، واحتفظت بك مطوقة إياك بذراعي ؟ أنتخطف نفسك متحرراً بفظاظة وتنادرنى ؟ إن كان ذلك فتذهب إذاً . ولكن اعلم حق العلم أن الكرملة التي قد تنقسم إلى جزأين لن تتحد ثانية أبداً . اذهب إذا كان في ذلك رى غلتك ، ولكن إذا لم تكن كذلك فتذكر أن إلهة السرور مترددة وأنها لا تنتظر رجلاً . إجلس هنية يا مولاي واقصص علي : أى الخواطر الصعبة بزعبك ؟ من ذا الذى شغل ذهنك اليوم ؟ أهى جيترا ؟

آرجونا : أجل إنها جيترا . وإني لأعجب العجب كله ، من أنها إيفاء لآي نذر تكون قد حجت . ما عسى أن تكون حاجتها ؟

جيترا : حاجتها ؟ ولماذا ؟ وأى شيء كان عندها ؟ عند تلك المخلوقة الناعسة ؟ إن صفاتها الخاصة كجدران سجن تضم قلب امرأة في خلية عارية . إنها خاملة جدباء . وحبا النسوى لا بد له من الاكتفاء بثوب خلق ؛ هي محرومة الجمال . فتلهما مثل روح صباح غام ، جالس على قمة الجبل الصخرية وكل أضوائه قد محتها النجوم السوداء . لا تسلى عن حياتها قلن تنغم ننا جيلا لأذن الرجل !

آرجونا : إني متلهف إلى معرفة كل شيء من أمرها ، شأني في ذلك شأن غريب قدم بلداً في جوف الليل ؛ فقصورها وأبراجها ، وأشجار جنانها تبدو له مبهمة مظلمة ، وأنين البحر الكئيب يمجى في دفعات من خلال سكون النوم ، فهو ينتظر مطلع النهار بلهفة ليكشف له عن أعاجيبها الغريبة كافة ، فتص على بالله قصتها ،

جيترا : وماذا بقى ليقل عنها ؟

آرجونا : إني لأتوهمها بمهتية صهوة جواد أشهب ، وممسكة مسكة اختيال بالعنان في يدها اليسرى ، وبالقوس في يدها اليمنى ، فكأنها إلهة النصر تنثر من حولها الأمل السار ، وهي كالنبوة المتيقظة إذ تحافظ على أشبالها في مخبئها بالحجب الشرس . إن ذراعي ولو أنهما لم تزيئا إلا بالقوة المظلمة فأنهما جيلتان . أيتها الحسناء إن قلبي قفنى كأنه ثعبان قد استنشق من إغفاءه الشتوية الطويلة . تعال ودعينا نتسابق على فرسين سريعين جنباً إلى جنب مثل نجمين صنوين يجريان في الفضاء ؛ لنخرج من هذا السجن ، سجن الظلمة الخضراء الذى يبعث السبات ، من هذا الغطاء الكثيف العفن ، غطاء الثمل العطر ، من هذا النفس الخائق .

جيترا : أصدقنى يا آرجونا أو لو تمكنت الآن من فوري واستطعت بقوة سحرية أن أحرر نفسي من هذه النعومة الشهوانية ، من الاشرقة الخجلى ، إشراقة الجمال المستطير فرقاً من مسة العالم القوية الصحيحة هذه ، فأرهبها عن جسمي زمية الثياب للتمارة أكنت تطيق إذا ما أصنع ؟ أو لو أنى وقتت الآن منتصبية قوية بجمراًة القلب الجسور بعيدة عن المكر ، وقتون الاغراء بالضعف ؛ ورفعت رأسي طالياً طالياً رفيعاً كأنى جيل سرو شامخ صنير ، غير طائفة إلى التراب مثل الكرملة ،

جيترا

أكنت أحلى في عين الرجل ؟ كلا ، كلا ، لن تطيق ذلك . غير لي أن أنتشر دوماً حولي جميع ألاعب الشباب الزائل اللطيفة وأنتظرك صابرة ؛ فإن سرك أن تعود فأصعب لك شراب السرور باسمه الثغر في كأس هذا البدن الجميل . وحين تتعب أو تصيب كفايتك من ذلك الشراب فني وسعك الذهاب للعمل أو اللعب . وإذا ما أدركتني الشيخوخة فأقبل بتواضع وشكر أية زاوية تترك لي . فخل في هذا سرور لبطولة نفسك لو أراد أن يكون رفيق لعبك في الليل شريك مساعيك في النهار ، وتعلمت الذراع اليسرى مياطرة الذراع اليمنى الفخور على حمل العبء .

أرجونا : ما أراني عرفتك حق معرفتك قط ؛ إنما تراءى لي آلهة مخبوءة في صورة من الذهب . لا أستطيع أن أملك ولا أستطيع أن أوفيك ديونك على هباتك التي لا تقدر بثمن . وهكذا فإن حي ناقص . ولتد أحظي أحياناً في قرارة نظراتك النامضة الحزينة ، وفي كلماتك المرحية ذات المعاني الساحرة ، بلمحات من مخلوقة تحاول أن تشق جمال جسمها الذابل لتخرج عبارة من خلال غشاء البهائم السديمي تلمع الآلم النفيسة . إن الوهم هو أول صور الحقيقة ؛ إنها تتقدم نحو عشاقها متكررة . ولكن سيجيء الوقت الذي ترمى فيه حليها وأقتنيتها فتقف في وقار عريان . وإني لا تلمس فيك تلك النهاية ، تلك البساطة المجردة ، بساطة الحقيقة .

لم هذه الدموع يا حبيبتي ؟ لماذا تنطين وجهك يديك ؟ هل آلتك يا عزيزتي ؟ تناسى ما قلت .. سأكتفي بما هو موجود . ولتأت كل لحظة منفصلة من لحظات الجمال إلى جيئة طائر ضامض من عشه غير المنظور في الظلام ، حاملاً رسالة للموسيقى . دعيني أجلس أبداً بأمل على حافة الحقيقة ، وهكذا أنهى أياي .

المشهد التاسع

[جيترا وأرجونا]

جيترا (وقد لبست عطاءً) : — مولاي هل افرغت الكأس حتى آخر قطرة فيها ؟ أحقاً أن هذه هي النهاية ؟ كلا ؛ فإنه حين ينتهي كل شيء ، فلا بد من شيء واحد يبقى ؛ وهذا آخر قربان أقربه تحت قدميك . لقد جلبت معي من الجنة أزهاراً لا نظير لها في الجبال أريد أن أعبدك بها يا إله قلبي . فإذا انتهت الشعائر ، وذوت الأزهار ، فلأرهم خارج للمعبود . تكشف عن ثيابها الأصلية ثياب الرجال . أنظر الآن إلى طابتك بعينيك النيتيتين ؛ لست بالجميلة ، تمامة الجمال ، جمال الأزهار التي أتعبد بها ، في جملة عيوب ولطخات . ما أنا سوى مسافر في طريق العالم الكبير ، فخلي قدرة ، وقدماي تنزف الدم مما فيها من أشواك . أتني أن أتم صنع زهرة الجمال الطافر من حياة لحظة . إن الهدية التي أنا غور بتدعيمها إليك هي قلب المرأة ، فيه تتجمع الآلام والأفراح كلها ، وفيه تتجمع آمال ابنة التراب في مخاوفها وحياتها ؛ هنا يبعث الحب مكافئاً للحياة الخالدة ، هاهنا القمص المنطوى على النبل والعظمة . فإذا انتهت خدمات الأزهار ، فتنبئ هذا يا سيدي خادماً في الأيام التالية .

جيترا

إني أنا جيترا بنت الملك ، لعلك تذكر يوما جاءتك فيه امرأة إلى معبد
الاله شيئا محملة الجسم بالزينة والتهويل ، تلك المرأة الجسور ، جاءت إليك
لتداعبك كأن لو كانت رجلا ، قهرتها وقد أحسنت صنعا ، مولاي : إني أنا تلك
المرأة وكانت هي نفسي متشكرة . . . ثم إني بنعمة الالهة أصبت غاية ما يستطيع
البشر تقمصه من البهاء ، وأتعبت قلبي ببطل بذلك الحمل من المداع . فأنا على
التحقيق لست تلك الحسناء . أنا جيترا ، لا أنا بالهة تعبد ، ولا أنا كذلك موضع
الشفقة الممتن الذي ينبذ نبد الهوام بلا اكتراث . فان تفضلت بأن أبقيتني بجانبك .
في ممر الخطر والاقدام ، وسمحت لي أن أشاطرك أعباءك في الحياة ، فستعرفني ، حق
معرفة عندئذ . إن جاء ولدك الذي في رحي الآن ذكرا فسأعلمه بنفسي كيف
يكون أرجونا آخر ، وسأرسله إليك مي آن الأوان . وعندئذ ، وأخيرا ستعرفني
المعرفة الحققة . إني لا أستطيع إلا أن أقدم لك اليوم جيترا ، آتية معك .
أرجونا : يا حبيبي ، لقد اكتملت حياتي .

طافور

شعريب غري شهاب

من هُنا وُهنا لـ

رسالة من لندن .

العالم في هباب الريح

تنفس الصعداء

تنفس الناس في أرجاء العالم كلها الصعداء ، يوم انعقدت هيئة الأمم المتحدة في لندن منذ أسبوعين اثنين ، فسمعوا خطب الافتتاح من جانب ممثلي الثلاث الدول العظمى تشيد بالإنجاز الجديد للسياسة الدولية الجديدة ، وتبشر العالم في عهده الجديد بالأخوة والمساواة والهناء العميمة . وحسب المتفائلون أن ما احتمله البشر خلال الست سنوات التي عمت فيها نكبات الحرب وويلات الخراب والدمار ، قد علم الانسان الرحمة بأخيه الانسان وأقنعه بأن التعاون والتضامن هما خير نظام لهذا الكون المتطور .

لكن . . .

لكن ما كاد الرئيس المؤقت — وكان هو رئيس اللجنة التحضيرية — يعرض أسس انتخاب الرئيس الدائم حتى تكشف الحال غير الحال ، وتبين أن الانسان لا يزال هو الانسان ، وأن المصالح لا تزال هي المصالح ، وأن التنافس بين الدول لا يزال هو التنافس ، وأن إساءة الظن بخاصة لا تزال هي إساءة الظن المتبادلة . وتماقت الجلسات بعد الجلسات ، وتماقت الخطباء إثر الخطباء ، فاذا الاحساس يتجلى بأن الدول الكبيرة ، لا تزال تحرص على أنها الدول الكبيرة ، وبأن الدول الصغيرة لا تزال تحس أنها الدول الصغيرة ، فتقول الأولى من باب الطمأنينة : إن المساواة في السيادة بين الدول الكبيرة والدول الصغيرة هي المبدأ الأساسي الذي يقوم عليه العهد الجديد ويستند إليه ميثاق الأمم المتحدة . وتقول الأمم الصغيرة إنها ترجو أن تكون تلك المساواة عند ما يجيء دور التطبيق حقيقة مادية لا مجرد حكم مكتوب من أحكام الميثاق النظرية ، وتذكر تدليلاً على خشيته أن حتى الرفض والاعتراض الممنوح للدول الكبرى ، ولكل واحدة منهن على انفراد ، إنما يتنافر تنافراً جلياً مع مبدأ المساواة الذي يلح خطباء الولايات المتحدة والمملكة المتحدة والاتحاد السوفيتي في إبرازه .

وأخيراً . . .

وأخيراً لا يجيء يوم السبت التاسع عشر من شهر يناير لسنة ١٩٤٦ وهو اليوم العاشر

من أيام اجتماع هيئة الأمم المتحدة ، وهو اليوم الأخير من أيام فترة الجلسات العامة التي تسبق فترة أعمال اللجان والمجالس — لايجب ، مساء ذلك اليوم حتى يعلن أن الوفد الإيراني قد انتهى إلى إبلاغ السكرتيرية العامة المؤتته شكوى حكومته من التدخل السوفيتي في شؤون إيران الداخلية الخاصة ، قصد عرض الأمر على مجلس الأمن وفقاً لأحكام مادة من مواد الميثاق الذي لم يجف بعد خبر التوقيع عليه في « سان فرانسيسكو » . وراحت الصحف وراح المقبولون فيها وفي محطات الاذاعة ، يكتبون ويقولون إن الأمر المعروض إنما هو من الأمور « الكبيرة » لأن أحد الطرفين فيه دولة كبيرة ، لها حق الاعتراض والرفض ، ولها بهذا الحق ، وقف مفعول كل قرار يصدر في غير مصلحتها من جانب مجلس الأمن أو من جانب الجمعية العامة ، وأخذوا يتساءلون من الآن : ترى هل يستعمل الاتحاد السوفيتي حقه إذا صدر قرار ضده ؟ وترى ماذا سيكون أثر موقفه في سمعة المنظمة الدولية الجديدة وهي لا تزال بعد في مهدها ، وهي في شدة الحاجة إلى الدعم ، ولا سيما بعد كل تلك الهجمات التي وجهت خلالها إلى « عصبة الأمم » البائدة التي لم يكن لها من السلطان مثل ما للهيئة الجديدة في سبيل تقدير الحق وتنفيذ القرارات ؟

الحوادث تتداعى

ولم ينقض يوم على ذلك الحادث الإيراني ، بل لم تنقض ساعات ، حتى تداعت بعده الحوادث الماثلة له في الطبائع المخالفة في الاتجاه . فقد جاءت الأنباء تترى بأن قيامة قد قامت في إيران أيضاً ، ولكن في القسم الجنوبي منها هذه المرة . والجزء الجنوبي لا تزال تحتله القوات البريطانية ، كما لا تزال تحتل الجزء الشمالي القوات السوفيتية ، وبأن القيامة ترجع إلى تدخل سلطات أجنبية في شأن من شؤون « محافظ الاقليم » الذي ترضى عنه القبائل أو لا ترضى .

وجاءت الأنباء بعد ذلك أو في الوقت عينه ، بأن قيامة قد قامت في بلاد اليونان ، وأن الأحكام العرفية قد أعلنت في غير واحد من أقاليمها ، وأن الدعاية ضد الملكية تمجرف قبيل إجراء الانتخابات ، وأن هناك تدخلا أجنبياً مقترضا ينصر الملكية وينأوى الجمهورية . ثم لم تلبث الأنباء أن جاءت آخر الأمر بأن الحكومة البريطانية قد أوفدت في مهمة خاصة إلى جاوة سفيرها في موسكو ليحاول تهدئة خواطر الأندونيسيين والوصول إلى التوفيق بينهم وبين الحكومة الهولندية .

ومعنى الحادثين الأولين أن في غير « أذربيجان » تدخلات من سلطات أجنبية (ولتقرأها الإنجليزية) وأنه إذا كان التدخل السوفيتي قد وصل إلى أن ينظر فيه مجلس الأمن في هيئة الأمم المتحدة ، فليس هناك ما يمنع — نزولاً على مبدأ المساواة المقرر — من أن يصل التدخل البريطاني في شؤون إيران الجنوبية وفي شؤون اليونان إلى المجلس ذاته أيضاً . ومعنى الحادث الثالث أن إنجلترا ، وقد أحست ذلك الاتجاه في الجو ، تريد أن تبادر إلى تهدئة الأندونيسيين وإقامة التفاهم بينهم وبين هولندا حتى لا يضاف إلى الحادثين السابقين حادث تدخل بريطاني ثالث في الشؤون الجاوية يقول القائلون بأنه يستدعي هو أيضاً أن يعرض على مجلس الأمن كما عرض الحادث السوفيتي الإيراني .

من هنا وهناك

وبالتالى.

ثم لم تنتض ساعات معدودات على هذه الاقوال التى تواترت فى محاليل « سنترال هول » و « تشرش هاوس » اللذين تجتمع فيهما هيئات الأمم المتحدة ، حتى عرف أن الوفد الاكرانى قد تقدم بمذكرة يطالب فيها أن ينظر مجلس الأمن فى الحوادث الجارية فى أندونيسيا ، وأن الوفد السوفيتى قد تقدم بمذكرة أخرى يطالب فيها أن ينظر المجلس ذاته فى الحوادث الجارية فى اليونان .

وقد استندت المذكرتان إلى ما استندت إليه المذكرة الإيرانية من اعتبار ما يجرى تهديداً للأمن الدولى ، ورجعتا إلى ما رجعت إليه من حكم المباداة الخامسة والثلاثين من مواد ميثاق الأمم المتحدة الذى « يحرص الجميع الحرص كله على قيامه واحترامه » .

وإذن

ولا يدري أحد مدى التطور الذى يبلغه الحادثان اللذان تداعيا أخيراً فى جنوب إيران وفى اليونان . ولا يدري أحد نتيجة المسعى الذى راح سر أرشيلد كلارك كار — وقد أنعم عليه اليوم بلقب اللوردية — يبدله فى جاوة . ولا يدري أحد بماذا يتمخض النقد فى غير إيران واليونان وجاوة . وسيكون لهذه التطورات كلها أثر فى تكييف الجو الذى يتعقد فيه مجلس الأمن للنظر فى المشاكل التى صادفته غداة انتخاب أعضائه .

وإذن فالاستقرار لم يكتب للعالم بعد ، بل إنه لى مهاب الرياح من جديد . وإذا كانت رياحه اقلاماً ليست مما يهدد بمواصف عسكرية ، فهى بلا ريب مما يؤذن بزوايج دبلوماسية على الأقل . وسترى .

محمود عزمى

فى ٢٢ يناير سنة ١٩٤٦

رسالة من باريس

الثقافة الفرنسية فى الخارج

[نلفت القراء إلى هذه المعلومات والمقترحات الدقيقة . فقد يكون فى تدبرها نفع كثير ، لأن مصر تستوفد الأجانب ، كما توفد المصريين إلى بعض البلاد العربية]

هذه المحاضرة الثانية من سلسلة المحاضرات التى ألقاها الأستاذ جان توما فى مدرسة المعلمين العليا عن انتشار الثقافة الفرنسية فى الخارج .

من هنا وهناك

بدأ المحاضر حديثه بلفت مستمعيه إلى أن محاضراته ستقتصر على سرد بيانات ومعلومات .
وفرضه من هذا الحديث أن يبين نظام التعليم الفرنسي في الخارج ، والطابع الخاص الذي
يمتاز به هذا النظام ، وهو التنوع .
الترم مسيو جان توما خطته المنتظمة التي درج عليها في البحث ، فعمد إلى تقسيم موضوعه
إلى أربعة أقسام كبرى ينطوي كل منها على أقسام داخلية ، و انتهى إلى نتيجة استخلصها من
هذه الدراسة المركزة .

القسم الأول خاص بالتعليم الثانوي وهذا التعليم يشتمل على المدارس الآتية :

(أ) المدارس الثانوية التي تعينها الدولة الفرنسية . ووجود مثل هذه المنشآت على
أرض دولة أجنبية من دواعي الاعتبار والاعجاب . فنجد في روما مدرسة ثانوية فرنسية
هي « اليسييه شاتوبريان » ، وأخرى في براج ، واثنتين في أسبانيا . ومعظم طلبة المدارس
من أبناء الجاليات الفرنسية المقيمة في تلك المدن ، هذا إلى أن عدداً من للشبان الوطنيين
يختلفون إليها . فاليسييه الفرنسي في لندن يشتمل على ستمائة طالب ليسوا جميعاً فرنسيين ،
لكن بينهم كثيراً من الأجانب ، بل من الانجليز . وإذا كان عدد الطلبة الأجانب في هذه
المدارس محدوداً فرجع ذلك إلى أن شهادة الدراسة الثانوية الفرنسية ليس من شأنها أن
تيسر أمر الطالب الايطالي أو الأسباني كل التيسير حين يريد أن يتخذ لنفسه مهنة .

(ب) وتوجد إلى جانب ذلك المدارس الثانوية للبعثة العلمانية الفرنسية ، وهذه
المدارس تعينها الحكومة الفرنسية .

(ج) وتضم جمعية « الابلانس فرانسيه » بعض المدارس ، ولكن ليس لها حظ من
الاتساع والرواج .

(د) وتوجد في أمريكا اللاتينية معاهد لدراسة التجارة ، ويطلق عليها خطأ اسم
« المدارس الثانوية » ، وتعينها الجاليات الفرنسية في تلك البلاد ، والسفارات أو
المفوضيات الفرنسية في دول أمريكا الجنوبية .

(هـ) وعلينا أن نشير هنا إلى مدرسة لها حالة خاصة ، وهي مدرسة جالاتا - سراي
في استامبول ، فهي معهد وطني تركي يطلب من فرنسا أساتذة من ذوى المؤهلات الدراسية .

القسم الثاني

إذا ما تركنا التعليم الثانوي وجدنا المعاهد ، وهي في مستوى التعليم العالي ، والاتحاق
بها مباح مبدئياً للجميع . وتلقى فيها دروس ومحاضرات طامة تتجه بصفة خاصة إلى الدين

يشتمول ببعض الفراغ من الوقت ، كالسيدات المتقدمات في السن ، وآنسات الطبقة الراقية ، وأرباب المعاشات . وليس معنى هذا أنها محظورة على الطلاب . وعلينا أن نعترف بأنه يلاحظ في مختلف أنحاء العالم شيء من « التكلف المتوارث لتذوق الأشياء الفرنسية » . وهذا الليل هو ما قصدت المعاهد إلى الانتفاع به . وطبيعى أن مديري هذه المعاهد وأساتذتها يجب أن يكونوا على مايرام من العلاقات مع زملائهم الذين يتولون التدريس في جامعات البلاد التي يوجدون بها . فالأمر أمر تعاون لا تنافس ، ويجب أن يفهم على هذا الوجه . هذه على الأقل الروح التي دفعت إلى أن ينشأ في الوقت الحاضر معهد فرنسي في كوبنهاجن . ويقبى أن تكون جميع هذه المعاهد أماكن اتصال ومراكز للثقافة الفرنسية ، تنظم فيها أحاديث ومعارض وحفلات موسيقية وحفلات استقبال الخ . . . ومن هذه المعاهد واحد في إنجلترا وآخر في اسكتلندا ، واثنتان في أسبانيا وعدد منها في إيطاليا ، وواحد في كل من لندن الآتية : أمينا ، بلجراد ، زاجريب ، سوفيا ، براج . وهناك ثلاثة منها في بولاندا لم يستأنف افتتاحها بعد ، ومنها ما كان موجوداً في ليتوانيا واستونيا . ويرى مسيو توما أن الوقت ليس مناسباً لاستئناف فتح هذه المعاهد الأخيرة . ومن هذه المعاهد ما هو موجود في الدول السكندنافية . وقد وجد منها في ألمانيا والنمسا . ويفكر أولو الأمر في إعادتها أو في إنشاء معاهد جديدة في هذه البلاد . وبمحل القول أن جميع هذه المعاهد الفرنسية تؤلف في مختلف أنحاء العالم شبكة ذات حظ كبير من الخطورة والتشعب . وهذه المعاهد متنوعة يجب أن نميز بينها :

(أ) فيها المعاهد الدراسية .

(ب) ومنها معاهد البحوث .

(ج) ومنها المعاهد المختلطة ، أى تلك التي تجمع بين الدراسات والبحوث .

وليست هذه المعاهد الفرنسية مقصورة على القارة الأوروبية ، فيوجد منها في مكسيكو وريودى جانير و بواتوز ايرز ومونتيفيديو . ولم يذكر مسيو توما المعهد الفرنسي بالقاهرة . ولعل ذلك كان سهواً منه . وسينشأ واحد في الهند . وأخيراً معهد نيويورك ويعتبر مقراً لعدد كبير من الشباب الناعمين بالبحوث ، يتضون فيه فترة تمرين تتراوح بين عام وعامين (وهم رجال الاتصال) . وبديهي أن يكون لذلك مقابل ، وهو في الواقع مقابل طبيعي ، وهو إنشاء معاهد أمريكية في باريس . والمعاهد الفرنسية في الخارج هي خير مكان يستطيع فيه خريجو مدرسة المعلمين المحدثون أن يتولوا التدريس . أو أن يواصلوا بحوثهم . ومما يجدر التنبيه إليه أنها جميعاً ملحقة حتماً بأحدى الجامعات . ولو أن الأمر كان على غير ذلك لأصبحت موضع شبهة ، وصارت مثل هذه المنشآت التي كانت تطلق على نفسها اسم « المعاهد الإيطالية أو الألمانية » والتي لم تكن إلا مراكز للدعاية والاستعلامات . وما دامت هذه المعاهد تمنح درجات علمية فهي تمنحها باسم إحدى الجامعات . مثال ذلك معهد لندن وأندبره فهما متصلان بجامعة كان وليل ، ومن ثم فهما متصلان في نهاية الأمر بجامعة باريس .

القسم الثالث

بعد المعاهد تأتي المدارس الكبرى . وعددها محدود جداً . نذكر منها مدرسة الحقوق الفرنسية في القاهرة ، ومصيرها التحول عاجلاً أو آجلاً إلى معهد للدراسات القانونية حتى لا تنافس كلية الحقوق المصرية . ومنها أيضاً جامعة سان جوزيف في بيروت . وهذه الجامعة تابعة للفايكان ؛ لأن الذين يتولون إدارتها آباء يسوعيون ، ولكنها خاضعة لرقابة جامعة ليون .

القسم الرابع

وهو خاص بأعضاء هيئة التدريس الذين يجتازون شخصياً ويضعون تحت تصرف جامعات أجنبية . ويجب هنا أيضاً أن نميز بين فئات من أعضاء هيئة التدريس هذه .

(أ) قنهم أولاً المدرسون . وهم إما مساعدون (وفي هذه الحالة يتولون دراسة عملية في لغة بلادهم) ، وإما مدرسون فعلاً (جنسيتهم ولقنهم أجنبيتان) . ولدى هولاندا مثلاً وظائف تحت تصرف « مدرسين » فرنسيين .

(ب) ومنهم الأساتذة ذوو الكراسي في ريو دي جانيرو مثلاً توجد كراسي جرت التقاليد بأسنادها إلى الأجانب ، وللفرنسيين من بينهم مركز ممتاز . وهذه هي الحال أيضاً في جامعتي القاهرة والإسكندرية ، وفي ذلك شيء من الاحتفاظ ببعض التقاليد القديمة . على أن نظام « الاختيار الحر » قائم أيضاً ، ويلاحظ بصفة خاصة في الولايات المتحدة . وكأن الأمر هنا يتصل بسوق حقيقية للأساتذة . ومن الأمثلة البالنة الدلالة بهذا الصدد شغل مسيو بير منصب رئيس القسم الفرنسي في جامعة يابل منذ ست سنوات . وقد توثقت هذه التقاليد بعض الشيء من جراء الحرب ، إلا أنها أخذت تعود وتعم في معظم البلاد . ولا يزال في بريطانيا العظمى بعض الأساتذة الفرنسيين ، في أكسفورد وليقربول وبرستول . ولكننا بدأنا نفقد هذه المراكز ، لأن الانجليز أخذوا شيئاً فشيئاً يشعرون في أنفسهم بالكفاية لشغل كراسي اللغة الفرنسية والأدب الفرنسي ، وهذا أمر طبيعي . بقي أمامنا أن نقترح تعيين أساتذة مساعدين تتحمل حكوماتهم رواتبهم ، ويعيد تبادلهم بغيرهم ما اقتطع من تيار فكري بين فرنسا والبلاد الأجنبية .

ولا شك أن كل هذا يقتضينا مناقشات طويلة ودقيقة في معظم الأحوال ، وهو ما يجري الآن مع البرازيل . وهنا تظهر فئة من الاختصاصيين يسمون الملحقين الثقافيين أو المستشارين الثقافيين . وتختلف درجة اتصالهم بالسفارات والمفوضيات الفرنسية في الخارج . قنهم ليسوا منتظمين في سلك موظفي الدولة ، ولا تعترف بهم وزارة المالية ، ويمكن وصفهم بأنهم مكفونون « مؤقتاً » ببعض المهام . وكثيراً ما يكونون أساتذة من ذوي المؤهلات الدراسية أو كتاباً ، أو من رجال الأدب . ولهم بعض السلطان على الفرنسيين من أعضاء هيئة

التدريس في البلد الذي يوجدون به . ونستطيع اعتبارهم موظفين ثقافيين ذوي سعة تنفيذية . وهم أدوات اتصال دائم بين بلدهم والخارج في الميدان الفكري . وفي الحق أن مهمتهم من أشق المهام، ولكنها من أنفعها .

والنتيجة التي استخلصها مسيو جان توما أنه لا يرى من مصلحة الشبان الفرنسيين أن يقضوا حياتهم في الخارج يمارسون مهنتهم ، وأنه يرى من ناحية أخرى أن من المصلحة الملحة تجديد الأساتذة المتدربين إلى الخارج بين حين وحين . على أن من دواعي الأسف أن الأساتذة يتعلقون بالحياة التي كونوها لأنفسهم وألفوها . ثم إنه يجب أن نواجه ما يصادفهم من مشاكل إدارية عند عودتهم : فهل يعتبرون حين يرجعون إلى فرنسا في نفس المركز الذي كانوا عليه عند سفرهم ؟

في أوائل شهر نوفمبر سنة ١٩٤٥ صدرت لائحة تنظم مركز الأساتذة الفرنسيين المتدربين للخارج ، وقرر أنهم سيتمتعون بنفس الحقوق التي يتمتعون بها لو أنهم عملوا في فرنسا ، سواء من حيث العلاوات والترقيات وما إلى ذلك ، فيمكن ترقيةهم إلى وظيفة جامعية في إحدى السكليات في فرنسا مهما طالت غيبتهم . وبين أحد نصوص اللائحة الحكم الخاص الذي يجب تطبيقه على هؤلاء الأساتذة سواء عينوا مدة انتدابهم للخارج ، أم عينوا عند عودتهم « على وظائف » لا تزال مشغولة حتى تخلو هذه الوظائف فينقلوا إليها نهائياً . أما الناحية المالية للموضوع فقد حلت على الوجه الآتي : يمنح الأستاذ المنتدب إلى الخارج راتباً أساسياً مساوياً للراتب الذي يمنحه في فرنسا ، ثم يعامل معاملة موظفي السلك القنصلي أو السياسي باختلاف الوظيفة التي يشغلها . وأخيراً تمنح إعانة خاصة غير ثابتة .

على أنه يجب اليوم أن ننظر إلى الأمر من حيث إنه امر تبادل . واختتم المحاضر حديثه ذاكرة أنه يجب لذلك إعداد الأساتذة إعداداً خاصاً . فينبغي أن يقف الأستاذ الموفد إلى الخارج على ماسيلقي في البلد الذي يندب إليه من مسائل دينية وسياسية واجتماعية واقتصادية ولغوية وخلقية الخ بذلك فقط يتجنب الأخطاء التي كثيرا ما تقع حتى اليوم والتي تضر بمصلحة فرنسا بالغا . فإذا ما وصلنا إلى تزويد الأستاذ بهذه المعلومات ، وتولى البلد الذي يرسل لنا بدلا له تزويده بمثل هذه المعلومات قبل إيضاده إلى فرنسا ، حينئذ نكون قد حققنا للطرفين فائدة فكرية وعلمية ممتازة في سبيل فرنسا وفي سبيل ثقافتها التي ما زالت منتشرة .

مؤنس طه حسين

أدجار آلن پو

كان الأدباء الأمريكيون ، وما زالوا حتى اليوم ، يعتمدون كل الاعتماد في النهضة الفكرية والتطورات الحديثة في الأدب على الأمم الأوروبية . ولم يعرف للأمة الأمريكية في تاريخ الأدب مذهب اجتماعي يؤثر في الأدب أو حركة فكرية تغير من اتجاه الكتاب والشعراء أو حتى مدارس فنية إلى منتصف القرن التاسع عشر حين ظهر من بينهم كاتب وشاعر عظيم كان له شأن كبير في توجيه الأدب الأمريكي ، لما أنشأه من مدرسة فنية جديدة تبعها كثيرون من الكتاب الأوروبيين أولاً ، ولأسلوبه في فن القصة ثانياً ، وذلك هو أدجار آلن پو .

غير أن الأمة الأمريكية ، لما اعتادته من نقل دون ابتكار أو خلق ، لم تقدر الشاعر حق قدره فأنزله في مرتبة ثانية من بين مراتب أدبائها ، ولم يتفق النقاد الأمريكيون من جهم لبواسة حياة هذا الشاعر إلا جزءاً يسيراً لا يقارن بالجهود التي بذلها الأوروبيون لدراساتها . مع أن حياة پو خليفة بدراسة عميقة لما فيها من أحداث خطيرة ولما اعتراه من مؤثرات قوية وتيارات عنيفة جارية كثيراً ما غيرت مجرى حياته وجعلت منه مخلوقاً تعساً يكتنف شخصيته كثير من الغموض ، ويحيط الابهام بكثير من تصرفاته في حياته الخاصة وحياته الفنية . غير أن دراسة حياة الشاعر يجب ألا تغطي علينا قمتنا من دراسة آثاره الفنية التي أدت إلى اعتباره مؤسساً للحركة الرمزية في الأدب ، وإلى اعتباره — وهي ناحية أخرى لا تقل عن الأولى خطراً إن لم تكن أبعد أثراً — أنه مبتدع القصة القصيرة .

ولد پو سنة ١٨٠٩ من أبوين اعتليا خشبة المسرح ، وبسم الحظ لأمه فتجحت في هذا الميدان ، وأخفق أبوه بعد أن كان قد ترك دراسة القانون ليتفرغ للتمثيل . كانت حياة پو سلسلة من المآسي ، بدأت بفقد أمه وهو ما يزال في الثانية من عمره . وقد تركت الأم بين يدي القدر أطفالاً ثلاثة وهي لا تدري ما يكون مصيرهم بعد أن هجرها زوجها وهي في نيويورك . ولا نعرف بعد ذلك كثيراً أو قليلاً عن حياة داويد پو : كيف عاش أو كيف مات ، مع أننا نعرف أنه كان مصاباً بالمرض الذي توفيت به زوجته وهو مرض الرئة . ويحدثنا پو عن موت أبيه حديثاً لا نركن إليه ولا نطمش إلى تفاصيله ، شأن كل ما حدثنا به پو عن حياته الخاصة أو عن أسرته . ونحن لا يهمنا من داويد پو ومن حياته شيئاً ، غير أن هذا الغموض الذي اكتنف حياته استمر صفة خاصة لازمت حياة الشاعر . كما أن الظروف المؤلمة التي استهل بها پو فجر حياته جعلته لا يثق بنفسه ولا يطمش إلى من حوله ، فأفسد عليه ذلك حياته العملية .

نشأ پو وهو لا يعرف أبويه ، ولكنه ورث عنهما صفات كثيرة ، أخصها ضعف البنية ورقها ، وإن لم يكن مصاباً بمرض في رثته . ولقد أثار مرض الأم كثيراً من الشفقة والالام بين جيرانها ، فما كادت تلفظ أنفاسها الأخيرة حتى توزع أطفالها كل منهم في رعاية أسرة من الأسر . وكان أدجار من نصيب أسرة تاجر موسر ، يدعى جون آلن وزوجه التي لم يرزق منها أطفالاً . ولكن حياة پو بين هذه الأسرة لم تكن مريحة ، بل قد يستطيع الروائي أن يخلق منها قصة . فهذا طفل ضعيف البنية مرهف الشعور دقيق الحس وقاد

القرينة ، بل لقد بدأت مخايل النبوغ تظهر عليه ، هذا الطفل عاش مع أب فقط غليظ القلب ضيق الصدر لا يفهم نفسيته . ولم يكن هناك من يلفظ من حدة هذا الأب وقسوته إلا أم عطوف كثيراً ما حنت على صغيرها لتحاول أن تزيل آثار وحشية جون آلن . غير أن القدر يتدخل مرة أخرى فلا يترك بو ينعم بهذا العطف والحنان طويلاً ، فماتت الأم وما زال بو في أشد الحاجة إلى أن تكون بجانبه . ولم يكد جون آلن يرث عملاً له حتى بادر بإرسال بو إلى جامعة فرجينيا ، ولكن العلاقة توترت بين الأب وابنه بحيث اضطر بو إلى ترك أسرته غاضباً معلناً استقلاله . ومرة فترة من الزمن قبل أن يلتحق بمدرسة « وست بوينت » (الكلية الحربية) لا نعرف خلالها عن حياة بو إلا ما رواه لنا من أنه رحل إلى أوروبا وانضم إلى الجيش اليوناني لمحاربة الأتراك . ويقص علينا بو مغامراته في أوروبا وما وقع له من حوادث في فرنسا وسانت يترزبورج .

وتدل سجلات المدرسة الحربية التي التحق بها بو على أنه كان تلميذاً مجداً . وقد كانت هذه الفترة التي قضاها بو في المدرسة الحربية هي الفترة الوحيدة التي عاش فيها عيشة منتظمة ! ولم تظهر عليه علامات التبرم من النظام العسكري القاسي ، بل كان قانماً به وراضياً عنه ، مما يدل دلالة واضحة على أن بو كان تواقاً إلى العيشة المريحة . وكان موت مسز آلن في هذه الفترة سبباً لرجوعه إلى أسرته واستئناف العلاقات ، حتى إن أباه وعده بالمساعدة المادية حين عرف أنه التحق بالمدرسة الحربية وأنه يجتهد في الدراسة . غير أن جون آلن لم يف بوعده . ولا ندري لذلك سبباً اللهم إلا أنه مخلوق شاذ لا يعتمد عليه . فیدفع هذا بو إلى التجرع كما دفعه الضعف الذي شعر به في جامعة فرجينيا إلى القمار . وقيل عن بو إنه لم يكن يرى إلا وهو سكران بعد أن نقض أبوه يده منه وأنه استدان حتى اضطر آخر الأمر إلى ترك المدرسة . وقد ألهمته الطبيعة الجميلة التي تحيط بهذه المدرسة إحدى قصصه ، وهي قصة « الحشرة الذهبية » . وكان بو يعتمد على أبيه في وفاء ديونه فكان هذا سبباً في اندفاعه في هذا التيار . ومن ذلك الوقت إلى موت بو تسلط على مجرى حياته ثلاثة عوامل كان لها أبعد الأثر في إنتاجه الفني . أما العامل الأول فهو الفقر ، دفعه الفقر وموارته الآلية إلى الدين ، وكلما استدان ازداد فقره وشعر بالرق والعبودية مما دفعه إلى السخط على العالم وما فيه . والعامل الثاني الذي لا يقل عن الأول قوة إن لم يفقه في التأثير من الناحية الفنية هو الخمر ، بل المخدرات أحياناً ، وأثرهما القوي فيه . وأخيراً علاقته بعمته مسز « ماريكليم » التي عاش معها بعد تركه وست بوينت . والذي لا شك فيه أن العاملين الأولين متداخلان ، فكلمة اشتد فقر الشاعر ، هذا الفقر الذي كثيراً ما بلغ أقصى حدود الحرمان أحياناً ، رمى بنفسه بين أحضان الخمر لينسى أو يحاول أن ينسى آلام العالم وهمومه التي تكالبت عليه . غير أن اللذة التي كان يجنيها من وراء الشراب كانت وبالا عليه ، لأنها أضعفت بنيته كما أثارت حوله جواً من الانتقاد المر .

أما تأثير مسز كليم في بو فقد كان عظيماً ، فإن العلاقة التي قامت بينهما تختلف أشد الاختلاف عما كانت عليه حياته في أسرته ، إذ نشأ بينهما رباط عاطفي قوي ، حتى إنه لم يستطع أن يعيش بعيداً عنها بعد موت زوجته « فرجينيا كليم » ابنتها . والقد كان لهذا الجو الذي كان يعيش فيه بين أحضان الأم وابنتها وما غمرته به من عطف ومحبة أثره القوي في إيقاظ الشعور بالتبعة ، مما جعله يخجل من ضعفه أشد الخجل .

ولم تكن المعونة التي كانت تتلقاها منه مسر كليم ذات قيمة مادية كبيرة ، إذ ظل النحس حليفه حتى في أشد أوقات الضيق والمرض ، أي مرض زوجته بالسل . غير أن آماله في الكسب كانت واسعة ، وكثيراً ما كان يتحدثها عن هذه الآمال وهي تصنى إليه وتشجعه بكل صبر وهدوء وعطف . وكثيراً ما أمضيا سهرات يقرأ لها شيئاً من كتاباته وهي تسمع لها مبدية إعجابها به وبمؤلفاته .

ولم يكن أحد من النقاد أو القراء حتى ذلك الوقت قد التفت إلى مؤلفات بو . وأخيراً أعلنت إحدى جرائد بليمور عن جائزة قدرها خمسون دولاراً لأحسن قصة ، وجائزة أخرى قدرها خمسة وعشرون دولاراً لأجل قصيدة . فتقدم بو بمجموعة من القصص القصيرة ، اختار المحكمون واحدة من بينها هي « مخطوط وجد في زجاجة » ومنحت هذه القصة الجائزة الأولى مع الإعجاب الشديد ، بل أوصى المحكمون بنشر هذه المجموعة لأنها « تمتاز بخيال فطري قوى شعري ، كما تمتاز بأسلوب قوى وتفكير خصب مبتكر ، وعلم متنوع عجيب » . ومع أنه لم يظفر بنجاح مادي من وراء هذه التوصية ، كان هذا الحكم بداية جديدة لحياة بو الفنية ، إذ ساعده أحد المحكمين قدمه إلى أحد أصحاب الصحف . وهنا بدأ حياة صحفية عظيمة الشأن بعيدة الأثر ، ولأول مرة أصبح له راتب ثابت . ولا شك أن بو كان صحفياً بارعاً متمكناً نشاطاً وحيوية . فإلى من صحيفة تولى رئاسة تحريرها إلا تضاعف عدد القراء من خمسة أضعاف إلى عشرة أضعاف .

وكان بو يأمل أن يمتلك مجلة يسميها « القلم » فيضل بها إلى الأرستقراطية الوحيدة التي اعترف بها وهي أرستقراطية العقل . واعتقد أن تحقق هذا الأمل سيجعله من أهم الرجال لا في أمريكا بحسب بل في العالم أيضاً . غير أن إخراج فكرة كهذه على النحو الذي أرادها لها بو كان سابقاً لأوانه . فلم يكن الجمهور الأمريكي مستعداً لقبول مثل هذه الأفكار الجديدة مع أنه تقبل التجديد الذي استحدثه بو في الصحف بقبول حسن . وقد حاول بو عدة مرات أن يكون شريكاً لأصحاب الصحف التي اشتغل فيها ، غير أن الحركات السبب الأساسية في رفضهم مثل هذه الشركة . وكما كانت الحمر سبباً في إفساد حياته الفنية وحياته الخاصة فقد كانت السبب المباشر في وفاته ، إذ أسرف في الشرب في دعوة انتخابية للبرلمان الأمريكي حتى مات . واستمر بو يعمل صحفياً حتى موته دون أن يحقق أمله في الحياة . وليس من شك في أنه لو كان جون آلن قد عطف على هذا المخلوق الضعيف ذي الحس الدقيق لتغير مجرى حياة بو ولما اختار الأدب سبيلاً إلى تحقيق آماله .

كانت حياة بو الفنية مضطربة ، وتدلت آثاره على ذلك ، كما كانت حياته الخاصة . فبينما نجده يسمو ويرتفع في إحدى قصصه حتى يبلغ ذروة الكمال دون أن يستطيع الناقد أن يأخذ عليه خطأ فنياً ، إذ نراه في أخرى مشتمت الذهن ، مضطرب الفكر يكاد يهذى . ولا يعلل هذا الاضطراب إلا بتأثير الحمر الشديد فيه بل بتأثير المخدرات أحياناً . قصة « قناع الموت الأحمر » . قصة ممتازة لا أثر للخطأ فيها من الناحية الفنية ، وهي تدل على مهارة صانها ومقدرته كما تمتاز بطرافة الفكرة التي تقوم عليها .

ويقال عن بو في هذا الميدان إنه مخترع القصة القصيرة ، وإنه أول من حمل لواءها . والحقيقة التي لا جدال فيها أنه لو لم يكن بو ، ما كانت المجلات على شكلها الحالي . والحق أن القصة البوليسية بدأت في التوراة كما تذكرنا بذلك دوروثي سايرز . وقد اكتشف بو

من هنا وهناك

القصة المفزعة عند الألمان . وتاريخ القصة العلمية التحليلية يعود إلى سيرانودي برجرارك ، أو إلى لوشيان ، غير أن بو قام بعمل عظيم وخطوة واسعة ، لأنه قرب كل هذه الأنواع المختلفة من القصص إلى الجمهور وحببه لها ، كما وصل بها إلى درجة الكمال . أما من الناحية الفنية فقد اخترع طريقة فعالة مؤثرة لرواية القصة في قليل من الكلمات يتراوح بين ثلاثة آلاف وخمسة آلاف كلمة . وكان بو أول من أدرك أن على القاص أن يرمى إلى هدف معين ، وأن كل ما يقال في هذا المجال يجب أن يكون له علاقة بهذا الهدف ، حتى يستطيع القارئ أن يرى كل الحوادث مجتمعة كالبرق الخاطف ، فن الأسطر الأولى لقصة « سقوط آل اشتر » . يشعر القارئ بالجو القابض الذي تخلفه الكلمات ، كما يتوقع الأحداث الفاجعة التي تدور عليها القصة . ولا يمكننا أن نتصور طريقة أخرى أروع ولا أجمل من تلك التي كتب بها قصتنا « الهوة والبندول » و « مخطوط وجد في زجاجة » .

ولقد كان تأثير بو في القصة البوليسية عظيماً . ومن العسير أن ترى فنا من فنون القصة له من الاتباع ما لفن بو ، فقد احتداه عدد عظيم من الفنانين أمثال جابريو وكونان دويل الخ ، أولئك الذين ساعدوا على تطور القصة ونموها . وقد اعترف كونان دويل صراحة بفضل بو عليه ، كما أن التراجم الفرنسية لقصصه حركت الفن وألهبته عند جابريو . وكان بو واضح أقوى تقليد في هذا النوع من القصص ، وهو وجود شخصية أخرى إلى جانب البوليس السري تتأثر وتدهش وترتبك من حوادث القصة حتى يكشف لها البوليس عن الحقيقة . وإليه أيضاً يعود الفضل في بدء القصة بحادث تام في ذاته يظهر قوة إدراك البوليس السري للأمور حتى يسيأ القارئ للمعجزات التي ستتابع في القصة نفسها . ففي « جريمة في شارع مورج » نرى دويان ، رجل البوليس السري ، يرد على أفكار صديقه التي لم يكن قد حدثه عنها شيئاً ، ثم يفسر له دويان بعد ذلك الطريق الذي اتبعه في رده على تأملاته . وهذا يظهر بصيرية بو الطبيعية من ناحية بيان القصة القصيرة . وهكذا ساهم بو بأهم نصيب في هذا الفن من تسلية القارئ مع مساهمته في ميادين أخرى للقصة . ويجب أن نقف قليلاً عند القصة البوليسية من ناحية أنها مظهر من مظاهر عقلية بو وطبيعته ، فهي تمثل على شكل قوى رغبته للثقة في إظهار تفوقه على الآخرين . وكثيراً ما قال في كتاباته إنه يستطيع أن يحل أي رسالة مبنية على ألفاظ حرفية تكون مكتوبة باللغة الفرنسية أو الإيطالية أو الأسبانية أو الألمانية أو اللاتينية أو اليونانية أو أي لهجة من لهجات هذه اللغات . وقد اختبره أحد القراء فأظهر براعة فائقة بالرغم من أن الطريق الذي سلكه يبدو الآن بسيطاً ، ولكنه يدل دلالة واضحة على إعجابه بقوة ذكائه ومقدرته .

وقصة « ولیم ویلسون » قصة رمزية . وهذا ميدان جديد في القصص طمح إليه بو . وكان يأمل أن يوفيه حقه . ولا شك أن الفكرة التي دارت حولها القصة كانت نواة لأسكار ويلد عند ما كتب « صورة دوريان جراي » . غير أن بو في ولیم ویلسون تكلم عن شخصية مزدوجة ، لا صورة ، ينشب بينهما صراع عنيف ينتهي بقتل الشخصية الشريرة ، ولكن بعد تحطيم حياة بطل القصة . وفي هذه القصة بعض الحقائق الواقعية ، إذ أن النقاد وجدوا صلة بين حياة ولیم ویلسون المدرسية وبين ذكريات بو عن هذه الفترة ، وتبرهن القصة جميعها عما كان يشعر به بو . حقا أنه لم يرتكب جريمة كما لم يقيم بأفعال مزرية كما فعل ولیم ویلسون ، ولكنه أترف قواه ومقدرته على العمل ، وباستسلامه لأهوائه خيب آمال الذين كانوا يعتمدون

عليه ، فرأى خطاياهم بصورة مجسمة وشعر بندم عظيم وألم عبر عنه بكل قوة وجمال . ولا نجد في قصص بو خيالا أخصب مما نجد في « سقوط آل آش » . فالقصة هنا صورة لما كان يعانيه بو من آلام أزيمته . وما الصورة التي تصورناها هنا هذه القصة إلا مرآة لروحه . وهنا نجد خلاصة لأقصى مساهمة ساهم بها بو في الأدب العالمي . والقصة عنوان للضعف ، غير أنه من إغراق النفس في الضعف إلى هذا الحد استمدت قوتها وروحها . ولا شك أن روح بو تجلت فيها على أكمل وجه مما حببها إلى المعجبين بها من غير الأمريكان . فلهذا ولقوتها ولاسرافه في الوصف المبدع وطريقة عرضه للأمور ، تعد هذه القصة القصيرة من أسمى وأعظم ما كتب .

لم يكن بو قاصاً من الطراز الأول وشاعراً وناقداً فحسب ، بل كان كذلك حلة اتصال أساسي للتطور العقلي ، كما أنه يعد رمزاً أو ، على وجه أصح ، مصدر إلهام للحركة الروحية التي قامت بعد موته واستمرت زهاء نصف قرن . ولا شك أن منزلة بو في الأدب الأمريكي لا ينافسها في هذا الميدان إلا والت وتمان الشاعر .

ترجمت مدام إليزابيث مونييه بعض قصص بو . ومن هنا بدأت الحركة الرمزية التي يمتد بو منشئها : إذ أنه وجد في بودلير تلميذاً متحمساً قصر حياته على نشر حكمة أستاذه وتعاليمه . ويستطيع مؤرخو الأدب الرجوع ببداية الحركة الرمزية إلى ذلك الوقت . ومع أن عناصر هذه الحركة وجدت أثناء الحركة الرومانتيكية ، لوجودها عند كولريج مثلاً ، فإنها لم تقو وتظهر إلا على يدي مبدعها بو وتلميذه بودلير وفيرلين ، وقد كانا سبباً في نشرها في داخل فرنسا وخارجها . ولم تكن الحركة الجديدة إلا رد فعل لكل أحداث ذلك العصر ، فهي ثورة على الثمرات التي خنت بفضل الثورة الفرنسية ، وهي ثورة على الثورة الصناعية وعلى العلوم وما أشبه . وترى الحركة الرمزية إلى تحريك العاطفة والشعور عن طريق الإشارة . وتأثير بو في فيرلين في « فنون الشعر » Art Poétique واضح . ولم يكتف فيرلين بمحاولة اقتفاء آثار بو الأدبية ، بل حاول تقليده في طرق معيشته وفي استسلامه لأهوائه وإشباع رغباته . وقد أمنت مجهودات بو وآتت ثمارها بعد موته بفضل تلامذته المظام فيرلين وبودلير ، فاندفع الكتاب الأوروبيون وراءهم في هذا التيار الجديد . ونجد مالارمييه في « حلم ليد » rêve caressant يترجم أشعار بو ترجمة جميلة . وكانت عناية بو باللفظ وبالناحية الفنية وقوداً ألهمت الكتاب من بعده ، حتى إن عناية ريمبو باللفظ فاقت عناية واضح هذا التلميذ . وضمت الحركة إليها ماثرنك في بلجيكا وغيره آخرين في البلدان الأوروبية . وأخيراً يعد ميستيس الشاعر الإيرلندي ، وهو أعظم شعراء عصره ، وريث بو الوحيد .

وعلى هذا النحو تتجلى عظمة بو وتلامذته ، فهم قوم استسلموا لأهوائهم وأشبعوا رغباتهم ، فاقسموا في الضراب والمذات ، وحاربوا وتألموا ، ولكنهم أخرجوا إلى العالم جمالا جديداً برآه في حياتهم ومؤلفاتهم . ولا شك أن في آثار بو لطريق من طرق الجمال ما جعله أحد هؤلاء القلائد الذين يؤدون أجل الخدمات للأدب والإنسانية .

د. أمين فسيحي

شهريات

شهرية السياسة الدولية

لعل أهم أحداث السياسة العالمية أن كل شيء فيها لا يزال معلقاً على رغم ما كان من اجتماع هيئة الأمم المتحدة وانتخاب مجلس الأمن واجتماعه وإثارة كثير من المشكلات أمام الهيئتين . فلم يتخذ قرار قاطع في مشكلة من المشكلات التي أثرت ، ولم يكن من الممكن أن يتخذ قرار قاطع ؛ لأن طبيعة السياسة الدولية لم تتغير بعد ، وليس من اليسير أن يتنبأ أحد بالوقت الذي يمكن أن تتغير فيه . وطبيعة السياسة الدولية هذه تقتضي أن تحمل المشكلات العالمية بالاتفاق والتراضي أو بالثوة والعنف . والدول التي يمكن أن تتفق وتراضي أو أن تختصم وتحارب لم تصل بعد إلى أن تقارب بين آرائها ومذاهبها ، وهي ليست مستعدة للحرب ولا راغبة فيها ، بل هي تفيضها أشد البغض وتنفر منها الآن أشد النفور ؛ لأنها لم تخلص بعد ولا ينتظر أن تخلص قبل وقت طويل من أعبائها الثقيلة وإتمامها البغيض .

والمشكلات التي كان العالم يظن أنها ستحل في أثر انتهاء الحرب نوعان : أحدهما يتصل بالصلح بين المنتصرين والمنهزمين ، ولم يكن من شأن هيئة الأمم المتحدة ولا مجلس الأمن أن يقضيا فيه ، وإنما أسره إلى مؤتمرات الصلح . وقد اجتمع مجلس وزراء الخارجية للدول الخمس الكبرى في الحريف الماضي محاولاً أن يمهّد لبعض هذه المؤتمرات فلم يصنع شيئاً ، لأن أعضائه لم يتفقوا . واجتمع ممثلو الدول الكبرى الثلاث في موسكو ليضيقوا مسافة الخلاف ويصلوا ما انقطع من أسباب الخلاف ، وقرروا أن يعقد أول مؤتمر من مؤتمرات الصلح في شهر مايو المقبل بباريس ، وأن يستأنف التمهيد لهذا المؤتمر .

وأهم ما سيعنى به هذا المؤتمر إمضاء الصلح مع إيطاليا . وسنرى أيتفق المنتصرون على شروط هذا الصلح أم يختلفون . فهناك مشكلة المستعمرات الإيطالية أترد إلى إيطاليا أم توضع تحت الوصاية . فإذا كانت الثانية فلن تكون هذه الوصاية ؟ الدولة بعينها أم اللجنة التي تمثل هيئة الأمم المتحدة أم لجامعة الأمم العربية بالقياس إلى بعضها دون بعضها الآخر . وإذا وضعت تحت وصاية دولة بعينها فما عسى أن تكون هذه الدولة بالقياس إلى هذه المستعمرة أو تلك ؟ فالناس يعرفون أن مضر مثلاً تريد الاستقلال للووية ، فإذا لم يكن من الوصاية بد فهي لا تكره أن يعهد إليها بهذه الوصاية . والناس يعلمون أن روسيا تريد أن تكون وصية على طرابلس . وكل أن هناك مشكلات أخرى أوروبية تتصل بإيطاليا ، أهمها ما بينها وبين يوجسلافيا من خلاف على بعض الأقاليم . وكانت روسيا تؤيد يوجسلافيا ، ولكنها تمحلت فجأة عن موقفها ذلك وأخذت تناهب إيطاليا . وجعل بعض الساسة الإنجليز يشفقون من هواقب هذه المداعبة الطارئة . فكل ما يتصل بالصلح معلق إذن إلى شهر مايو على أقل تقدير .

أما النوع الثاني من المشكلات فهو الذي يتصل ببعض الأمم المحررة والدول التي أعانت

شهرية السياسة الدولية

الحلفاء على الحرب أو شاركتهم في احتمال أفعالها . وقد أثير بعض هذه المشكلات أمام مجلس الأمن ، ولكن مجلس الأمن لم يقض فيها بشيء ، ولم يكن يستطيع أن يقضى فيها بشيء حاسم دون أن يقضى على نفسه ؛ ولذلك آثر العافية وطلب إلى المختصين أن يحلوا مشكلاتهم بالمفاوضات . هناك مفاوضات بين روسيا وإيران ، ومفاوضات بين سوريا ولبنان من ناحية وبريطانيا العظمى وفرنسا من ناحية أخرى ، ومفاوضات بين هولندا والاندونيسيين . وقد تركت مسألة اليونان معلقة ، وأشيع أن هناك مفاوضات خفية تجري بشأنها بين بريطانيا العظمى وروسيا وإن كان الانجليز يتفون هذه الاشاعات . وقد احتاطت تركيا فلم تعرض شؤونها على مجلس الأمن وإنما وقفت قوية تستعد للطوارئ . أما مصر فقد أعلن وزير خارجيتها أن شؤونها لن تعرض على مجلس الأمن ثقة منه بحسن نية البريطانيين ، بل يقال إنه أعلن أن مجلس الأمن ليس مختصاً بالنظر في شؤون مصر . وقد خالفته الحكومة التي كان يتضامن معها في ذلك ، فأعلن رئيسها في البرلمان أن الحكومة المصرية ترى من حقها الاتجاه إلى مجلس الأمن إذا اقتضت الظروف ذلك . على أن المسألة المصرية قد أثيرت بين الحكومتين المصرية والبريطانية ، فأرست الأولى إلى الثانية مذكرة رقيقة رفيقة تطلب فيها تحديد موعد للمفاوضات ، وردت الثانية بمذكرة رقيقة رفيقة أيضاً تقبل فيها مبدأ المفاوضات بعد محادثات تمهيدية تجري في مصر مع السفير البريطاني .

وفي المذكرة المصرية مبالغة في الرقق ، وفي المذكرة البريطانية مبالغة في الالتواء . ولذلك ناز الرأي العام للمصري وحدثت اضطرابات نشأت عنها استقالة وزارة وقيام وزارة أخرى . فكل شيء في العالم معلق إذن ينتظر أن يتفق المختصون ، والمختصون هم الذين يمثلون الدول الثلاث الكبرى . فهل يتاح لهم أن يتفقوا ؟ وعلى أي أساس يمكن أن يتم هذا الاتفاق ؟ هذا هو السؤال الذي لا يستطيع أحد أن يجيب عنه وإنما الأيام وحدها هي التي ستجلب وجه الحق فيه .

ط

شهرية المسرح

صراع الحب والموت تأليف رومان رولان (١)

كتب المؤلف الفرنسي الشهير رومان رولان سلسلة من المسرحيات عن الثورة الفرنسية منها تلك المسرحية التي قدمتها إلينا في الشهر الماضي فرقة التمثيل الفرنسية . وهي مسرحية تصور لنا حالة الشعب أبان الثورة وحالة الفرد أيضاً في تلك الفترة المضطربة من تاريخ فرنسا . وكان الحوار يدور حول الشخصيات الكبرى التي لعبت دوراً مهماً أثناء عصر الثورة ومنهم روبسيير ودنتون أو حول الجمعيات التي تكونت وقتئذ . وكان حظ الحوادث في المسرحية ضئيلاً . فهي مناقشات متواصلة بين أشخاص الرواية عن حالة الشعب النفسية أو للمادية وحكم

Romain Rolland, *Le Jeu de l'Amour et de la Mort*. (١)

شهرية المسرح

هؤلاء الأشخاص على الثورة نفسها أو على من تولى قيادتها من كبار الساسة الفرنسيين .
والمرحبة كما قدمها لنا المؤلف لا تصلح مطلقاً للتشيل لأن أهم عنصر فيها هو الحوار
والنقاشات بين أشخاصها . ولو أنه لم يدخل عليها قصة ذلك الرجل الذي ضحى بحياته لينقذ
من أحبته امرأته. لاخفقت تماماً في المسرح . ولو أن المؤلف قدم إلينا أفكاره وخواطره
التي يمرضها علينا في « صراع الحب والموت » في صورة قصة أو بحث لكان ذلك أقوى
وأصلح .

أما التمثيل ، فقد أخفق بالطبع ولم ينجح في إبراز بعض الشخصيات إلا قليل من الممثلين
فدام ميشيل برجييه مثلاً لم تحفظ دورها ، بل لم تحاول أن تخفى هذا على النظارة . كان
واضحاً تماماً في إيماءاتها أنها تطلب إلى الملحن أن يفتح عليها بما نسبته أو أهملت استذكاره .
وترتب على كل هذا أنها لم تمثل إنما تلت علينا دورها كما يتلو التلميذ أمام معلمه ما حفظ من
الدروس .

ولم تكن مدام إيشلين قولني خيراً من مدام برجييه في تمثيلها مع أن عهدنا بها ممثلة
قديرة حقاً . كانت تتلو هي الأخرى دورها دون أن تظهر لنا أنها تحي على المسرح الشخصية
التي تمثلها .

أما مسيو جان هرقيه فلم يغير من أسلوبه التمثيلي شيئاً ما ، بل هو استمر في المحافظة على
إيماءاته المهددة ، وحركاته المتصلة وتعبيراته العنيفة المضحكة .

ولم يحسن حقاً في أداء دوره إلا مسيو جان قالكور ، وكان يمثل شخصية رجل هرب
من اللقطة إلى الريف ، ولكن اضطره حبه لامرأة باريسية إلى العودة إلى باريس ليراهما
مرة أخيرة قبل أن يموت . كان يعبر بحركاته وتقاطيع وجهه ونبرات صوته عما يجول في
قواده من غرام لعشيقته وبغضه للساسة الذين كانوا يحذون فرنسا واحتقاره لتلك الخدمة
من الجبهة التي أرادت قتله .

ولم يجود قالكور وحده . بل لقد أثبت مسيو روبري أوبري هو أيضاً أنه ممثل قدير .
إذاً أنه أخرج لنا شخصية كازنو بلا تصنع ولا تكلف ، والتزم طول المشهد الذي ظهر فيه
الهدوء التام في تعبيراته وحركاته . فبدى طبيعياً للغاية .

هدوء السر تأليف كورتلين (١)

وانتهت الحفلة التمثيلية بمسرحية ذات فصل واحد تأليف كورتلين الكاتب المسرحي المعروف .
وهي مسرحية «هدوء السر» لا داعي لتلخيص موضوعها لأنها شهيرة جداً ، وقد مثلت مراراً
في القاهرة خلال سنوات الحرب . ونحنا مسيو جان قالكور نحواً فريداً في تمثيل دور الزوج
فأخرجنا لنا إخراجاً بديعاً نال كل الإعجاب والتقدير الخلق به .

أما مدام جيلبرت جوير فلم تخرج لنا شخصية الزوجة كما رسمها المؤلف ، بل كانت في تمثيلها
كأنها تمثل دور فتاة صغيرة لا امرأة شابة متزوجة . وعلى كل حال فقد توصلت إلى اضحاكتنا
في كثير من الأحيان ، وهذا دليل على أنها قد أحسنت في الأداء .

Courteline, *La Paix chez soi*. (١)

شهرية المسرح

ليلة أكتوبر من شعر ألفريد دي موسيه (١)

وليلة أكتوبر هي حوار شعري بين الشاعر وآلهة الإلهام قام بتمثيلها مسيو جان مارسان ومدام إيفلين قولني . وقد كان تمثيلهما رديئاً مملاً أقصد كثيراً من روعة شعر موسيه وبجالة . وقد كان واضحاً من حركات مسيو جان مارسان التكلفة أن الذي قام بإخراج هذه التمثيلية هو مسيو جان هرقيه . وكانت مدام إيفلين قولني جامدة لم تحرك يداً ولا قدماً . أما إلقاؤها للشعر فكان شديد الرداءة . وقد بدت هذه القطعة الشعرية جد مملة .

استجوره تأليف جان انوى (٢)

ليست هذه المسرحية مأساة سوفوكليس وإن كان المؤلف احتفظ فيها بالشخصيات نفسها وللوضوح نفسه . فإن الكاتب الشاب أدخل عليها عناصر جديدة مستجدة كما أدخل تغييرات على الشخصيات نفسها . فكريون ليس هو الطاغى المستبد في حكمه بل هو ملك رحيم لم يصدر حكمه على اتيجون لأنها خالفت أوامره بل لأنها أرادت هي أن تموت . لقد حاول كريون أن ينقذها من مخالب الموت ، ولكنها أبت إتقاذ نفسها مؤثرة الموت على الحياة . ولم تر على المسرح شخصية أوريديس امرأة كريون ولكن سمعنا عنها وعللنا بوفاتها حينما علمت بما أصاب ابنها هيمون . ولم نر أيضاً تيريسياس الذي ينبيء كريون في مأساة سوفوكليس بما سيحل عليه من مصائب . وكان الحوار في المسرحية يدور حول أشياء لم تظهر إلا في عصرنا هذا مثل السيجار والبار ولعب الليسر والقهوة للمزوجة بالبن وأشياء أخرى . وقد رأى بعض النظارة أن المؤلف لم يحسن في ادخال هذه الأشياء في المسرحية ، وهؤلاء هم أبناء الجيل القديم ، وأنصار المدرسة القديمة ، في حين قد أعجب الشبان أبناء جيلنا هذا بتلك العناصر المستجدة واستساغوها وقدروها جرأة المؤلف على مزج القديم بالحديث في المسرحية . ومهما وجه إلى هذه الآلية الفنية الرائعة من تقدم وما أخذت به من معائب ، فهذا كله لم يحل بينها وبين النجاح .

لم يكن التجديد في المسرحية لحسب بل كان في الإخراج أيضاً . فعند ما رفع الستار كانت شخصيات المسرحية كلها موجودة على المسرح في فناء بين قصر كريون والمدينة . وكان النظر في غاية البساطة : ستار من الخمل على هيئة نصف دائرة في نهاية المسرح وأمامه درجتان أو ثلاث ، وعلى الجانبين مدخلان أحدهما مدخل القصر والآخر مدخل المدينة . وبينما كان الضمت يسود الحاضرين أخذ من يقوم مقام الجوقة يقدم لنا شخصيات المسرحية ويحللها وينبئنا بما سيحدث لسكل منهم . ثم استخفوا جميعاً وابتدأت المأساة .

وقد قام بدور الجوقة مسيو جان هرقيه . ومع أن هذه الشخصية من الشخصيات الحادة لقد أباح مسيو جان هرقيه لنفسه أن يحولها إلى شخصية هازلة كثيراً ما أثارت ضحك جمهور

Alfred de Musset, *La Nuit d'Octobre*. (١)

Jean Anouilh, *Antigone*. (٢)

شهرية المسرح

ليس له دراية بهذا النوع من المسرحيات . وحسبنا أن نقول إنه أفند من ملامح الشخصية كما رسمها المؤلف .

وأخرج لنا ميسيو جان فالكور شخصية كريون ملك ثيبه . وقد أجاد وأحسن في تمثيله هذا الدور كما عهدنا فيه حسن الأداء وعدم التكلف في التعبير والحركة .

وقامت بدور أنتيجون مدام برناديت لوتج . ولولا أنها خالفت بين تمثيلها فلم تؤد دورها على وتيرة واحدة وغيرت من نبرات صوتها وعنف تعبيراتها في بعض المواقف ، لقلنا إنها أجادت كل الإجابة في هذا الدور .

وقد راقبنا أيضاً تمثيل مدام جيلبرت جنان في دور مربية أنتيجون إذ أخرجت هذه الشخصية بما فيها من سذاجة وحنان وعطف على الأميرة الأغريقية العسة .

وفي القصة عنصر هزلي ساهم في نجاحها ، وهو دور رئيس الحرس . فقد أعجبنا حقاً بأسلوب ميسيو رويير أوبري الذي قام بتمثيله .

ومع كل ما أخذ به المؤلف من منهجه الحديث في هذه الأساة القديمة ومع كل المايب التي تأخذ بها الممثلين فليس لنا بد من أن نعترف بأن مسرحية أنتيجون كانت أجمل مسرحية قدمت إلينا في الموسم التمثيلي الفرنسي .

بريتانيكوس تأليف جان راسين (١)

واختتمت الفرقة الفرنسية موسماً التمثيل بأساة بريتانيكوس . وهي الأساة الثانية التي قدمتها إلينا الفرقة . ولم يكن حظها أحسن من الأولى ، فقد كان الإخراج والتمثيل جد رديين .

تجرى حوادث المسرحية في قصر نيرون . ففي الفصل الأول تعلم من حديث يدور بين أجريين ورفيقها ألبين أن نيرون قد أبعد أمه عن شئون الحكم مع أنه لم يول إمبراطوراً إلا بفضل جرائمها . ولم تكن أجريين راضية عن سياسة نيرون : فلقد اختطف جونى عشيقه بريتانيكوس وأنه ولا بد شارع في تدبير مؤامرة أخرى . وما تكاد تجرى مشاهد الفصل الثاني حتى نعرف أن نيرون يهيم بها بجونى وأنه يفكر في طلاق امرأته اكتافى ويشجعه على هذا نارسيس العتيق الذي كان مكلفاً بمراقبة بريتانيكوس . ويضطر الإمبراطور بحبوبة جونى إلى أن تظهر الجفاء لعشيقتها . ولكنها في الفصل الثالث تفلن لبريتانيكوس

بأن هذا الجفاء كان مصطنعاً لأن الإمبراطور كان قد أمرها بذلك . وبينما هما يتبادلان عبارات الحب يحضر نيرون وقد أنبأه نارسيس بالتقاء العاشقين ، فيأمر بالتبعض على غريمه وعلى والدته أجريين . وتستطيع أجريين في الفصل الرابع أن تقابل ابنها نيرون فتذكره بالذسائس والجرائم التي اقترعتها من أجله . فاتهمها بأنها ذات مطامع ولا مبالاة بها كانت تريد أن تنصب بريتانيكوس إمبراطوراً مكانه . ولكن أجريين أدلت بما يسوغ سلوكها فامتنع نيرون براءتها وعفا عن بريتانيكوس وأعرض عن خبه لجونى . لم يكن هذا الصلح إلا خدعة فقد كان موت بريتانيكوس محتوماً . وقد ثبت نيرون على عزمه هذا مستشاره نارسيس . ويحدث في الفصل الأخير أن يدعو نيرون غريمه إلى وليمة ويدس له السم . ولما ذاع

شهرة المسرح

خبر وفاة بريتانيكوس صبت أجزيين اللعنات على ابنها القاتل. وذهبت جوتى إلى معبد فيستا لتصبح كاهنة في هذا المعبد على حين يفرق نيرون في يأس شديد .

وما من شك في أن الإهمال في الإخراج كان من أهم عوامل إخفاق المسرحية . فكانت تمحى إلى المشاهد بسرعة لا حياة فيها ولا حركة . وكان أكثر الممثلين يتلون مقطوعاتهم وهم جامدون في أماكنهم . وبذلك جاء العرض مملاً ثقيلًا . هذا مع أن الفرقة قد وقفت في اختيار منظر لا تكلف فيه : استار من الخمل ترى من خلاله سماء صافية الزرقة رائعة الجمال .

وما كنا لنذكر الإهمال في الإخراج لو أن الممثلين أجادوا تمثيلهم . ولكن هل يمكن أن تنجح مسرحية ما ومسيو جان هرقيه يضطلع فيها بالدور الرئيسي ؟ فهذا الممثل لا يبالي بمجهوره ويقتل ما لهذا الجمهور من حقوق عليه . فمن الواضح أن مسيو جان هرقيه قد الضمير للمنى لأنه مثل شخصية نيرون تمثيلاً مزرياً تناسى فيه أنه يقدم مأساة كلاسيكية فرنسية وتناسى فيه أيضاً ما يلزم لمسرح راسين من رقة في التعبير والحركات . وقولنا إنه مثل شخصية نيرون اختراء إذ لم يمثل إلا شخصية مهرج .

ولم تكن مدام سوزان دلقيه أحسن منه تمثيلاً . فقد كان أداؤها لشخصية أجزيين شيئاً وكان أداؤها لشعر راسين أشد منه سوءاً .

وما كنا لتصور أن يعهد إلى مدام ميشيل برجييه بالتمثيل في مأساة ما دام يوجد في الفرقة ممثلة بارعة مثل مدام برناديت لوني . ومن الأفضل أن تدخر مدام برجييه مواهبها الضئيلة للشودفيل أو الكوميديا الخفيفة . فهما تبدل من جهود في الدراما أو في المأساة — هذا إذا افترضنا أنها تأتي بمجهود ما في تمثيلها — فانها تبدو لنا ممثلة قليلة القناء .

ولم توفق الفرقة في إسناد دور بريتانيكوس إلى مسيو جان مارسان بعد أن اتضح أن فنه الأصيل هو الكوميديا .

وأخفق مسيو جوتيه — سيلا في شخصية بوروس مؤدب نيرون . جاء تمثيله وحركاته في فصول المسرحية الخامسة على وتيرة واحدة .

ولم ينجح حقاً في هذه المأساة إلا مسيو جان فالكور وكان يمثل شخصية نارسيس العتيق إذ قام بهذا الدور خير قيام مشعراً إيانا بما يجري في فؤاده من مكر تستر طيبة قلب كاذبة ودهاء يخفيه ادعاء إيشاز الغير .

ومع أننا نقدر استئناف الممثلين الفرنسيين حضورهم إلى مصر وتمثيلهم فيها ، ونقدر ما لذلك من قيمة ثقافية وما فيه من ترفيه على النظارة من أهل مصر بعرض آيات الفن الفرنسى علينا فليس لنا بد من أن نتفق على الذين يختارون الممثلين في الأعوام المقبلة أن يذكروا أن للنظارة في مصر ذوقاً وحكماً وتميزاً بين الجيد والردى ، وأن يصطنعوا الله في اختيار الممثلين . ففى ذلك النفع كل النفع لفرنسا ومصر جميعاً .

مضى ليل

من كتب الشرق والغرب

قصة عشرين قرناً (١)

لقد نشر أخيراً في بريطانيا كتاب عجيب هو من نسج الخيال ، ولكنه ليس برواية قصصية . وسلسلة الحوادث التي يتألف منها الكتاب تمتد إلى ألقى سنة تمر على قم خاص من بريطانيا .

وفي هذا المقال نريد أن نصف موضوع الكتاب وأسلوبه إذ ينتظر أن يكون نجاحه كبيراً .

نشر في شهر فبراير كتاب هو من نسج الخيال ولكنه ليس برواية قصصية ، بل هو في الحقيقة سلسلة قصص تختلف كل منها عن الأخرى ، ولكنها مرتبطة بعضها ببعض ؛ لأنها حدثت في مكان واحد من أقسام انجلترا على مر عصور تبلغ ألقى سنة . فالحوادث حدثت في شمال لانكشير في تلك البلاد الوعرة الموحشة التي تكتنف نهر لون . ففي تلك البلاد فتح المهندسون الرومانيون الطريق سنة ٨٥ بعد الميلاد ليربطوا حصون ديقا ومانكونيوم بقواعد أجريكولا والمستودعات الخزينة في أطراف كاليدونيا . ويبدأ الدكتور ادوارد فرانكلاند مؤلف هذا الكتاب قصته برجل يعمل في غابة تنحدر تدريجاً نحو نهر لون ، وهنا يصف المنظر الذي تقع فيه الحوادث في أثناء العصور المختلفة إلى سنة ١٩٣٧ . فهو يكتب :

« كان طنين الذباب الغاضب في الجو يختلط بالخرير الرقيق لياه النهر . وفي داخل الوادي تسمع النغمة المنتظمة لوقع الفؤوس وصوت تكسر الأحجار والصخر ، وبين حين وآخر دوى سقوط إحدى الأشجار . وكانت الشمس تميل نحو التلال الوعرة في الغرب ، وهي التي غطتها النباتات إلى القمة وكان الجو ثقيلًا وعطناً بين أشجار البلوط القديمة يخالطها عبق زهور المراعي والأشجار المتكسرة » .

وقد أظهر المؤلف مهارة كبيرة في اختيار منظر كتابه في ذلك القسم من انجلترا الذي ظل محتفظاً بطابعه إلى اليوم ؛ فشمال لانكشير لم يتغير كثيراً منذ عشرين قرناً ، وهناك سبب لتهوى من مجرد اختيار بضعة أميال من الأرض تكون في سنة ١٩٣٧ مماثلة لما كانت عليه ل سنة ٨٥ بعد الميلاد .

The Story of Twenty Centuries, by Frank Tilsley. (١)

ذلك أن المؤلف أراد أن يبرهن أن الناس في وجوه كثيرة متشابهون في هذه الفترة الطويلة من التاريخ ، وأن جذورهم واحدة وإن بعدوا في الزمن والمعادن والبيئة والأخلاق ، وأن بعض الصفات والنزعات استمرت قائمة بحكم عناد الخلق الانجليزى ، وأنها قوية الآن بل هي أقوى مما كانت من قبل ، ولم يكن مجرد مصادفة أن سمي هذا الكتاب « انجلترا في النمو » (١) .

كان الدكتور فرانكلاند حكيماً جداً في أنه لم يعمل على التأثير في قرائه ؛ فقد كان من السهل عليه أن يخلق أشخاصاً متشابهين في الظاهر من جيل إلى جيل ، ولكن الدكتور فرانكلاند يعمل ما هو أهم من هذا كثيراً ، فهو ينصرف إلى بيان السبب الذى حمل هؤلاء الرجال والنساء على المسالك التى سلكوه ، وهو يبحث عن هذه الأسباب فى الأرض التى عاشوا . عملوا فيها وفي تاريخ الأزمان التى كونتهم والتى كونوها هم بدورهم . ووصفه فى كتاباته للمناظر الريفية قوى وبعيد عن العاطفة وخال من التصنع ، فهو لا يكتب إلا لنرض :

« كان ذلك فى مساء أحد أيام الحريف فى سنة ١٥٠٥ . وظهرت التلال المجلجلة بالغابات على جانب الوادى كأنها بساط من البلوط النحاسى اللون والزان الأصفر وشجر الروان الأحمر . وقد نما البلوط الصغير الآن حتى صار مارداً يغطي جوانب الوادى . وربما كان هذا علامة على تقلص المجهود الإنسانى لا فى وادى نهر لون وحده بل فى ولاية بريطانيا الرومانية القديمة بأسرها . وكانت القرية لا تزال قائمة هناك ، ولكن لم يبق منها إلا بضعة عشر من الأسقف للمدينة ترتفع فوق الحائط الذى يكاد ينطيه البلاب والنباتات المتسلقة . وكان الطريق مرسوماً بدقة وهو يمر بين الخشاش . وقد صار المستنقع مجرد أثر أخضر صغير تقلص أمام انحسار المياه » .

ونرى الطريق الرومانى القديم قائماً على مر القرون ولوأنه صار فى أماكن منه مجرد ممر ، والقرية تنمو ثم تضمتل ويدمرها المغيرون ويحرقها الاسكتلنديون . وفى القرن الرابع عشر يتعب صاحب الأرض من البيوت الخشبية التى احترقت خمس مرات فى مدى ذكرى البشر ، فيبنى قاعة متسعة ذات برج من الحجر ، وهذه تظل قائمة كجزء من دار صاحب الضيعة الذى تحدث له تغييرات كثيرة فى القرن الحالى . وبما أن الكثير من الحجارة التى بنى بها البرج هى من حجارة منازل قديمة فى القرن الأول فبذلك وجدت صلة تربط عصور الرومان والسكسون والدايمركيين والنورمان بعصور أسرة تيودور الماكرة وعصور الفرسان الشجعان والرجال الذين عاشوا فى أول حكم الملكة فكتوريا وفى القرن العشرين .

وتجد زوجة ناظر المدرسة مرتبطة إلى دار أجداده برباط عميق سرى هو نداء الدم ، وهذا الرباط يستمعى فهمه وتحليله حتى على المنطق العادى المجرد .

ورجال هذا الوادى هم خليط خشن ، فمنهم أسرة « أوثويت » التى بنت دار صاحب الضيعة الأول ، ومنهم المزارع بريت وهو رجل غليظ ولكنه يمثل روح ذلك الاستقلال العنيد

من كتب الشرق والغرب

والتجدي غير المعقول الذي يدفع بالرجل الانجليزي إلى سلاحه ، ومنهم فرانسيس أوثويت الذي قاتل أنصار كرومويل الحديدين في سيل الملك شارل ، ولم يكن ذلك عن اعتقاد بأنه يدافع عن جانب الحق بل لأنه لا يريد ان يرى الرجال يقاتلون في معركة وهو واقف موقف للتفرج . وإتنا لنجد متأصلة في الخلق الانجليزي تلك الكراهية للسلامة على حين يبذل الآخرون دماءهم ، ولقد بذل فرانسيس أوثويت دمه في هذا السيل .

ولقد عرضت لوسي أوثويت نفسها للمنى من أجل اليقويين في حين طورد زوجها وهو رجل شجاع من رجال أعالي أسكتلندة ، حتى لقي حتفه ، وذلك في زمن كانت الحياة فيه في الوادي مستقرة وأكثر رخاء من أى زمن سابق .

حتى إذا ما جاء دور مسز بنتام السيدة المهذبة التي عاشت في لندن في عصر فيكتوريا نجد أنها كرهت ذلك الموقع « فهنا في الشمال نجد الطبقات الدنيا تتدخل بوقاحة في حياة الانسان ، فأصواتهم العالية للتوحشة لا تنخفض في حضرة السادة . والواقع أنهم يكادون يظهرون استقلالاً ثورياً في مسلكهم ويظهرون من الاحتقار أكثر من التطلع عند رؤيتهم أجانب تبدو عليهم مظاهر الرخاء » .

ولكننا نرى أن بيت أوثويت آخذ في الاضمحلال وأنه صار مهجوراً ، إلى أن تأخذ زوجة ناظر المدرسة في القصة الأخيرة في ترمه .

وليست إنجلترا في القرن العشرين بالعصر الذهبي للدور الأثري ، ولكن من المستحيل ان نقرأ كتاب الدكتور فرانكلاند من غير أن نصل إلى نتيجة هي أنه عصر مزدهر للرجال والنساء ، إذ أن هناك صفة أساسية في جميع أشخاص هذا الكتاب يشتركون فيها من قرن إلى قرن ، وهي أن المحن تظهر فضائلهم ، وهي نوع من التجدي ترفع من نفوسهم وكأنهم يتقبلون جزءاً من مصيرهم .

فكتاب الدكتور فرانكلاند إذا كان يصف زمناً يعتد عشرين قرناً فإنه كتاب هذا الزمن ، وأعتقد أنه سيكون محط الأنظار في هذا الشهر .

فرانك تاسلي

(مقال خاص للمجلة ترجمة ج . م .)

الأدب الفرنسي في عهد الاحتلال

عاشت فرنسا بأسرها أكثر من أربعة أعوام طوال ترسف في القيود تحت نير الاحتلال . فنجد شهر يونيو سنة ١٩٤٠ خيم صمت عميق على باريس مدينة اللهو والصاخب والعلم الزاخر والفكر الرفيع ، وأصبحت بين عشية وضحاها مدينة الاتراح بعد أن كانت موطن الأفراح . حبط عليها صمت رهيب ثقيل وخفت صوتها ، وانقطعت كل صلة بينها وبين العالم الخارجي ، فلم يسمع عنها أولاً إلا ذلك الأنين الحزين أنين شعرائها المنتحبين ، فعرف الناس أن الحياة لم تغارقها بعد وأن أنفاسها لا تزال تردد صيحة الحرية والأمل . ثم ارتفع ذلك الأنين الذي ظلله الغزاة حشرة ، ارتفع رويداً رويداً حتى ملأ أجواز الفضاء وعم فرنسا كلها ، فأضجى صرخة تدوى في السماء تضم الآذان وتهتف بزوال الإذل وبشن حرب عوان على الخوثة والغزاة الناجين .

أخذت فرنسا تدق شيئاً فشيئاً من ذهول الصدمة الأولى وهول الكارثة التي حلت بها ، فاجتمعت فئة من الكتاب الذين لم يدعوا لسلطان القوة الناشئة ولا لأمر تكيم الأفواه ، وأسسوا في الحفاء داراً للطباعة والنشر لإصدار الكتب وتوزيعها ، للحض على المقاومة ولبث الأمل في النفوس ، ولحمل شعلة الفكر التي إن ذوى وهبها فجدوتها لا تنطفئ أبداً . تألفت تلك الجمعية من كتاب وشعراء عديدين مختلفي المشارب مؤتلفي المآرب يتقربون لكل الأحزاب السياسية ، ولكنهم يبتغون جميعاً الوصول إلى المقاصد القومية ، فكان منهم الشيوعي مثل الشاعر أراجون ، وكان منهم الكاثوليكي مثل الروائي فرانسوا موريك طووا الجوانح على الخراصات القديمة ووجدوا كلمتهم على الخلاص من ربقة الاستعباد . أقاموا داراً للنشر سموها « دار منتصف الليل » *Les Editions de Minuit* وقد أرادوا بهذه التسمية أن تكون رمزاً لعلمهم في الحفاء تحت ستار الليل ليل الاحتلال الخالك ، وقد وطدوا العزم على تبديد ظلماته حتى يظهر نور الحق ساطعاً متألقاً في سماء الحرية .

قامت هذه الدار بأعمال جليلة تطلبت شجاعة نادرة ورباطة جأش فائقة واستخفافاً بالأخطار الداهية ، إذ كانت تطبع الكتب في الحفاء وتشرها بين الناس في الحفاء بل توزعها عليهم أحياناً دورهم رغم مطاردة الجستابو لهم ورغم صرامة العقاب الذي يهددهم ، إذ كان الأعدام جزاء من يقع منهم في قبضة العدو . وكَم من دماء ظاهرة أريقت ! وكَم من نفوس بريئة أزهرت في سبيل القيام بهذا العمل الجليل ! وما فتئت هذه الدار تنشر روائع الأدب الحفي من شعرونثر بين قصة وبحث وقصيدة حتى جاء يوم التحرير ، فظهرت بين الناس مجلة الهام وضياء الجبين غوراً بما أسدته من تشجيع وقت الذل ، وبما أحيته من آمال وقت اليأس ، وبما قدمته من تحف أدبية أثناء ضياع القيم الروحية ، غوراً لتردد صدى صوتها أيام الصمت .

وأما الآن أعرض على القارئ العربي صفحة من روائع ذلك الأدب الحفي كانت مطوية ، وأحدثه عن كتاب صدر لأول مرة في باريس في ٢٠ فبراير سنة ١٩٤٢ كان له أثر عميق في نفوس الفرنسيين فبرز مشاعرهم وأثار همهم ، وصمت شهرته فرنسا كلها بل تعدتها إلى العالم الخارجي ، فشر الكتاب في إنجلترا باللغة الفرنسية أولاً — وقد تسربت نسخة منه إليها أثناء الاحتلال — ثم نقل إلى الإنجليزية فذاع صيته في العالم بأسره ، وبادرت مجلة « لايف » الأمريكية بتقديمه إلى ملايين القراء الأمريكيين فأعجبوا به إعجاباً جماً .

أما عنوان هذا الكتاب فهو « صمت البحر » *Le Silence de la Mer* وأما مؤلفه فقد اتخذ لنفسه اسم « فركور » *Vercors* وهو اسم مقاطعة فرنسية تسمى للمؤلف باسمها إذ كان يقوم فيها بأعمال المقاومة السرية ضد الألمان . وغنى عن القول أن جميع الكتاب الذين أسسوا دار « منتصف الليل » اتخذوا شتى الأسماء المستعارة لاختفاء شخصياتهم الحقيقية حتى لا يعرضوا أنفسهم للخطر .

وقد ظلت شخصية « فركور » سرّاً مكتوماً أثناء الاحتلال ، ولم يهتد أحد من القراء إلى معرفة الرجل الذي يتستر تحت هذا الاسم المستعار ، وقد ذهب الجمهور في سبيل التحقق منه بمذاهب مختلفة ، وظن أغلب الناس أنه لا بد كاتب معروف أو شاعر من الشعراء النابيين ، مدللين على ذلك بطول باعه في الكتابة وجمال أسلوبه ورقة حسه . وقد خبت الحقيقة هذا الاعتقاد فظهر أن « فركور » رسام لا كاتب ، وأن كتابه « صمت البحر » أول عهده بالكتابة والتأليف ، إذ لم يسبق له قبل الحرب أن خط حرفاً ، فزاد هذا قراءه إعجاباً به .

ألف « فركور » قصته في شهر أكتوبر من عام ١٩٤١ ، وهي قصة قصيرة إذ لا تزيد عن ستين صفحة يضمها كتيب صغير الحجم مفعم رقة وروعة .

أما هذه القصة فيرويها شيخ هرم يقطن مع ابنة أخيه الشابة منزلاً بسيطاً في إحدى المدن أو القرى الفرنسية قصد المؤلف عدم تعيينها ، فهي مدينة أو قرية تقع في الريف ، وقد فرض عليه أن يضيف في بيته المتواضع ضابطاً ألمانياً ، إذ كانت القيادة الألمانية تفرض النزلاء قسراً على السكان الفرنسيين في المدن الصغيرة التي لا يتوافر فيها مسكن مريح لرجالها .

جاءه ذات يوم ذلك الضابط الألماني وأقام في المنزل واستقر . كان « ورنفون أبرناك » رجلاً طويل القامة جميل الطلعة حسن الهندام . وقد اعتاد طوال مدة إقامته أن يقضي بعض الوقت في المساء في غرفة الاستقبال حيث كان يجلس الشيخ يدخن غليوناً وبجانبه ابنة أخيه تطرز نوباً أو تقرأ كتاباً ، وكان « ورنفون أبرناك » يظل واقفاً بقرب المدفأة يتحدث اليلة بعد اليلة حديثاً طويلاً متنوعاً إلا أنه كان يتحدث دائماً وحده فلا يسمع إطلاقاً صدى لصوته كأنه يقوم بدور تمثيلي في مسرح خلو من النظارة ، إذ لم يشاطره الحديث أحد ولم يلتفت إليه أحد ، كأن لم يكن ثمة متكلم . والاصغاء إليه عبء يتحملة الشيخ والشابة دون حراك أو همس ، وكل منهما منهما إما في التدخين وإما في التطريز إلى أن يتقطع الضابط عن الكلام من تلقاء نفسه ، ويمخضه بقوله « أتمنى لكما ليلة سعيدة » ثم يأوى إلى فراشه .

ظل « ورنفون أبرناك » يسترسل في الحديث العذب يوماً بعد يوم ، يتناول تارة حبه لبلده ومسقط رأسه يصف جماله ، وتارة إعجابه بفرنسا وشفقه بأدبها وأمله في هزتها من عثرتها ووعثامها مع ألمانيا ، وتارة أخرى يتحدث عن الموسيقى وولعه بها ولوعاً حداداً به إلى أن يؤلف قطعاً موسيقية . هذا والشيخ منصرف إلى التدخين والفتاة لا تعيره — أو بالأحرى تبدو كأنها لا تعيره — أي اهتمام ، إذ كانت منكبة على تطريزها مطمطئة الرأس لا ترفع بصرها . ويظل شبح الصمت حائماً في الغرفة لا يبدده إلا صوت الألماني وحده إلى أن تحين ساعة النوم فيقول عبارته المألوفة : « أتمنى لكما ليلة سعيدة » .

اعتاد الألماني أن يتحدث كل ليلة كأنه يحدث نفسه دون أن يعتريه كل أو ملل . وكان أثناء حديثه يرمق الشابة بنظرات عميقة بل ينشب نظراته فيها آملاً أن تقوى بكلمة واحدة أو ترنو بطرفها إليه وهي لم يتغير موقفها كأنها تمثال جميل لا أثر للحياة فيه تتمسك بأهداب صمت مطبق رهيب يشبه ظلام غابة موحشة ، لا تنفجر شفتاها عن كلمة أو ابتسامة . كان ورنر رجلاً عذب الحديث حلو الشمائل رقيق الشعور مرهف الحس ، كان موسيقياً يتحدث عن باخ وبيتهوفن حديثاً يدل على أن الموسيقى تملأ جوانبه وتهز مشاعره . كان يعتقد أن ألمانيا بعد أن هزمت فرنسا في معركة شريفة سوف تمد لها يد الصداقة والمساعدة ، وأنها تتوى أن تعيش معها حياة هادئة مبنية على حسن الجوار ، كما كان يأمل أن تهذب فرنسا قليلاً من غطرسة الألمان وتشذب غصونهم فتجعلهم يقلعون عن القسوة والعنف . وكان يعتقد بل يؤمن أن الحرب التي شنها هتلر في أوروبا يقصد بها خلق جو من الوثام والسلام بين القطرين المتجاورين ، فيكمل أحدهما الآخر وتتوثق أواصر الصداقة والحب المتبادل بينهما .

ثم حدث أن تغيب ورنر فون أبرناك بضعة أيام وسافر إلى باريس ، واستمرت حياة الشيخ والفتاة كما كانت ، إلا أن شعوراً غريباً غامضاً خالجهما أثناء غياب الضابط الألماني ولم يصارح أحدهما الآخر بأنه يفكر في الغائب ويشعر بشيء من الأسف والقلق لا تقطعه عنهما ، وكأن

الفتاة كانت ترقب عودته بلهفة في قرارة نفسها . وفي ذات يوم طاد الضيف وطلق رماحها بنظرات ملؤها الآسى واللوعة والحياة وهي منحنية الرأس تلف حول أصابعها خيوطاً من الصوف ثم قال بصوت عميق : « أريد أن أدلى بكلام خطير » فكفت الفتاة عن لف الخيوط ولأول مرة — نعم لأول مرة — رفعت رأسها وألقت على الضابط نظرات فاحصة فألقته مضطرباً يحرك يديه حركات عصبية وتعلو وجهه أمارات الحزن وخيبة الأمل ، ثم فتح فاه وقال بصوت متهدج أجش : « إني قابلت القوم المنتصرين في باريس وتحدثت معهم فهزءوا بي وبددوا أوهامي وأفهموني بعد أن أشبعوني سخرية وتهكماً أنهم يتصدون بهذه الحرب إخضاع فرنسا للأبد والقضاء على قوتها وروحها بل على روحها بنوع خاص ، إذ يرون الخطر كل الخطر في بقاء روحها . أفهموني أنهم ينوون خداعها بالوعود والابتسامات حتى تخضع لهم كما تخضع الكلبة الزاحفة . نعم قالوا هذا ، وقالوا إن مهمتنا الآن تنحصر في تنفيذ هذه الخطة » ثم سكت الضابط منهوكة وقد تقلص وجهه وتفضلت أساريره وأخذ يحدق في الفتاة بنظرات جامدة واستطرد بصوت خافت : « لا أمل ، لا أمل » . ثم طأطأ الصمت من جديد وأجال بصره على صفوف من الكتب المرصوفة على رفوف المكتبة — كتب راسين وروسو وبروست وبرجسون — وقال صارخاً : « إنهم سوف يطفثون الجدوة نهائياً ولن يضيء أوروبا هذا النور » . ثم قص مقابله لأخيه في باريس وقد كان شاعراً رقيق الحس قبل الحرب فألقاه الآن رجلاً قاسياً لا يعرف للرحمة معنى ، وقد قال له ضمن ما قال عن الشعوب للثغرة عامة والفرنسيين خاصة : « إنا سوف نجعلهم يبيعوننا روحهم مقابل طبق من العدى . إن واجبنا الآن أن نشيد لآل ألف سنة مقبلة ، ولكن علينا أن نبدأ بالهدم » . ثم صرخ الضابط « إنه كفاح ، إنه كفاح جبار بين الجسد والروح » . ثم أطارق هنيهة وقال : « إني طلبت من القيادة العليا نقلى إلى خطوط القتال الأمامية في الميدان الشرق وغداً أسافر . . . إلى الجحيم » . فاصفر وجه الفتاة وامتنع لونها واضطربت شفتاها وتصبب جبينها عرقاً . ثم فتح ورنر فون ابرناك الباب واستند على الحائط وقال بصوت لا نبرة فيه : « آتمنى لك ليلة سعيدة » . ثم رد طرفه إلى الفتاة وظل يعمد فيها النظر طويلاً وتتم : « وداعاً » وعيناه الجامدتان شاخصتان إلى الفتاة إلى أن حركت أخيراً شفتيها فلمع في عينيها برق غريب وسجها تنتم أيضاً « وداعاً » ، فافتت ثمره عن ابتسامة حائرة وانصرف .

تلك قصة « فركور » ، وهي قصة رائدة لم يقصد من ورائها التهجيم على الألمان ورميهم جميعاً بالوحشية ، وإنما كشف فيها الستار عن شخصية شاب ألماني رقيق الشعور صقلته للموسيقى فهدبت نفسه وملأت جوارحه عطفاً ونبلاً ، وخدعته الدعاية للفرضة . ولما تبين الحقيقة سافرة وأدرك مبلغ الخداع الذي انطوت عليه جوارحه ، آثر أن يقذف بنفسه في آتون الحرب في الميدان الشرق — في الجحيم كما قال — حيث قد يلقي حتفه على أن يحيا ليرى انتصار القوة الناشئة . أظهر المؤلف سجايا الضابط الحميدة وسعة آفاقه في الحياة وسهو أفكاره ، كي يقيس بها بل يعكس عليها صورة سائر النزاة وأغراضهم الحقيقية من الفتح ، قاصداً بذلك أن ينبه أذهان مواطنيه ويرفع عن أبصارهم غشاء الخداع الذي طفق الألمان ينسجون به بعمارة فائقة ليدخلوا في روع الفرنسيين أنهم لا يضربون لهم شراً ولا يكونون لهم ضغينة ، حتى تنطلي عليهم الحيلة فيصدقوا وعودهم للمسولة ويستسلموا لهم آمنين . وادعين وحيث يتنقض عليهم النزاة انقضاء للسر

من كتب الشرق والغرب

على فريسته ، يسلبون الأرواح ويعملون على إفناء تراث فرنسا الحالد وتشتيت شملها وتطبيع أوصالها إرباً إرباً . أراد « فركور » أن يميظ اللثام عن حيل الألمان الغادرة حتى لا يُخدع بها الشعب الفرنسى كما خدع بها الضابط الألمانى نفسه ، لكي يعتصم الفرنسيون بجبل الصبر ويفدوا نفوسهم بالآمال وكى يشحنوا همهم ويناتلوا العدو ما بقى فيهم رفق ، ويجتازوا محنتهم موفورى الكرامة .

وهى أيضاً قصة فرنسا المتألمة التى قهرتها القوة المادية الناشئة فلم تخضعها ، بل احتفظت بروحها سليمة لم ينل منها العسف الذى أصاب جسدها ، ولم تعهد للظافر طريقاً للقضاء على فكرها الرفيع أو لافناء كنزها العتلى المجيد ، ولم يتطرق إليها الشك فى مصيرها أو فى مستقبلها ، ولم تتخل عن مثلها العليا ولم تترك لليأس سيلاً إلى قلبها ، وإنما صبرت وتجلدت وقاومت مقاومة سليمة وإيجابية مادية وروحية تجاوزت حدود طاقة البشر ، وتأملت وكأخت وتحملت وفاضلت فى صمت رهيب يخفى تيارات جارفة كهبت البحار .

وقد بين المؤلف أن العاطفة قد تغير الأفتدة فتعلكها حيناً ، ولكن العقبات والحوائل الدنيوية لا تلبث أن تعوق نموها وتمنع ظهورها . فقد حاولت الفتاة بادية ذى بدء كبت شعورها نحو الفتى الألمانى لأنه كان ينتمى إلى قوم فاتحين ، ولأنه أحد الأعداء للغتصين الذين جرعوا الفرنسيين كؤوس الذل والمرارة حتى الحثالة ، ولكن روحها هامت به إذ شغفت بشاعريته ورقة إحساسه وأعجبت بجموله للموسيقية الرفيعة ، فقلبها نبل أخلاقه وسمو تفكيره وسعة آفاقه فاستسلمت لحبها بعد أن كآفته طويلاً ولكنها أسرتة فى نفسها وطوته فى قلبها لم تقض به للفتى وهى موقنة بأن الفتى مدله فى غرامه بها . وكلاهما لا ييوح للآخر بسرهما ، وكلاهما يشعر أنهما مؤتلغان روحاً وعقلاً وأن أحدهما يكمل الآخر ، ولكن الفتاة لم تدعن لهواها ولم تخضع لفرزتها ، وآثرت أن تكتم حبها وتطويه فى صمت عميق كهبت البحار . . .

فؤاد رصفى أبو الذهب

من وراء البحار

أحاديث ألمانية بعد الهزيمة

يتساءل العالم الآن دائماً ماذا يجري في ألمانيا؟ وكيف يعيش الألمان؟ وفيهم يفكرون؟
فلقد خفت الصوت الألماني بعد أن ظل ست سنوات مطمح أنظار العالم.

وقد اطلعنا أخيراً على مقال للأديب الإنجليزي ستيفن سبندر، نشره في مجلة هورايزون (عدد ديسمبر) وصف فيه رحلة قام بها إلى بلاد الراين، فذكر ما وجدته في مدينة كولونيا الكبيرة من تخريب عجيب، حتى بدا له لأول وهلة أنه لم تبق فيها دارقائمة، ولكنه علم فيما بعد أنه لم تبق في تلك المدينة العظيمة غير ثلاثمائة دار جديدة بالسكنى! وقد يمر المرء في شارع بعد شارع فإذا النوافذ مفتوحة قد أحاط بها سواد الحريق، ويرى الشوارع مليئة بأفواج من الناس سائرين من غير مقصد، وكان هؤلاء يمضون أوقاتهم منذ سنوات قليلة في التفرج على نوافذ الحوانيت وما فيها من معروضات ثمينة أو في الذهاب إلى السينما.

على أن ما تريد أن تنقله من وصفه، هو زيارته لأستاذ ألماني في مدينة بون، كان يعرفه منذ نصف وعشر سنين، وهو رجل كان معادياً للنظام النازي قبل أن يتولى هتلر السلطة، ولكنه لم يهجر ألمانيا بعد ذلك بل عمد إلى العزلة. وكانت داره مجتمع أولئك الذين ينتقدون النظام للقاء في ألمانيا وقتئذ وبخاصة من الوجهة الكاثوليكية.

ذهب «سبندر» إلى زيارته، فوجد غرفة التي كانت مليئة بالآثاث حسنة الإضاءة، عارية من هذا الآثاث وتكتنفها الظلمة. وبدأ سبندر الحديث بأن قال إنه جاء إلى هذه المدينة ليقف على ما فيها من حياة عقلية، فرد عليه صاحب الدار قائلاً: لم تعد هناك حياة عقلية في سائر أنحاء ألمانيا، ولكنه من المهم أن يتحدث أديب مثلك إلى الناس كي يعلموا ما هو حادث في ألمانيا. وانتقل بهما الحديث سريعاً إلى الحرب، فأبدى الأستاذ أن من الخطأ الظن بأن الألمان للناهضين للنازي كانوا يستطيعون وقف الحرب، ثم قال يظهر أنكم كنتم تتوقعون منا أن نقف أو نخرج إلى الشارع قائلين إتنا نعارض في الحرب وتناهض الحزب. فإذا تكون نتيجة ذلك غير القضاء علينا؟ ومن المؤكد أن هذا العمل لم يكن ليقف الحرب. فلسنا نحن، أبناء ألمانيا، بل أتم، أعني الديمقراطيات من إنجلترا وفرنسيين وأمريكيين، الذين كانوا يستطيعون وقف الحرب عند احتلالهم للراين. لقد كنا نأمل أن تفعلوا ذلك وقتئذ، ولكن ماذا تفتظرون أن نزن عند ما نراكم تسمحون لهتلر بالدخول إلى أرض الراين؟

— إذن أنت تظن أن ألمانيا غير مسئولة عن هذه الحرب؟

— هذا طبيعي! فمن الواضح جداً أن هتلر هو الذي بدأ الحرب، ولا ريب في ذلك، وهو الأمر الذي يجب أن يعترف به كل ألماني. وبالرغم من دعاية جوبلز يجب أن يعتبر الألماني الذي يقول غير ذلك إما جاهلاً وإما كذوباً. والواقع أن كارثة الألمان هي أنهم يبعدون عن التجارب في الحرية السياسية؛ فقد ظلوا حتى القرن الماضي يحكمونهم بطغمة من

من وراء البحار

أصاغوا الأمراء ، ثم حكمتهم العسكرية البروسية ويجبان يتحرروا من عادة الاستسلام ؛ إذ هم لم يسبق لهم أن حكموا أنفسهم .

ولما أبدى سبندر دهشته من أن الطبقة المثقفة لم تظهر أية مقاومة ، وضرب مثلاً بالأساتذة الذين كانوا يلتقون التعاليم النازية عن تفوق الجنس الجرمانى ، وأمثال ذلك من ضروب المذاهب النازية ، أجيب بأن مهنة التعليم كانت تسودها الأفكار النازية . فقال سبندر :
— إذا كنت تتهم مهنة التعليم بأسرها فإن ذلك لأمر خطير جداً معناه اتهام الأمة بأسرها .
فأجيب :

— إنكم قطعتم رأس ملك منذ مئتين السنين ، وقام الفرنسيون أيضاً على ملكهم والطبقة الأرستقراطية فيهم . فأساس الحرية في الديمقراطيات هو أنهم يستطيعون في أى وقت أن يثوروا على الطاغية . والألمان لم يثوروا قط على طاغية ، وليسوا هم الذين تاروا في الأيام الأخيرة على هتلر ، فالألمان يستسلمون دائماً .

وقد قابل سبندر عدداً من رجال الجامعة في بون منهم مديرها الدكتور كونن وهو رجل في السبعين من عمره ، وجرت بينه وبينهم أحاديث . وكان في هذه الأثناء يتردد على صاحبه الأستاذ . وفي ذات مرة انتقل بهما الحديث إلى مساوىء الألمان في البلاد المحتلة ، فقال له الأستاذ : عند ما تكلمت منذ ليالٍ في أمر تبعة الحرب كنت أريد أن أقول لك شيئاً هو أن الألمان مذنبون وقد ارتكبوا جرائم فظيعة ، وأنهم لا يستطيعون أن يقيموا شيئاً جديداً دون أن يأسفوا على جرائمهم . لقد كنت بعد الحرب الأولى شاباً وكنت مليئاً بالآمال في قيام ألمانيا جديدة ، ولكننا أخفقتنا . وفي هذه السنوات الأخيرة شعرت بازدياد كراهيتى لبنى جنسى ولم أعد أتق بهم . وإني لأعلم بأننى سأصبح رجلاً قانياً منهتماً قبل أن نبرأ من هذا الداء .

أنباء الأدباء في فرنسا

فاز الروائى ريمون جابرييل بالجائزة الكبرى للتحرير وقدرها خمسون ألف فرنك عن قصة اسمها « الأخوان من الأنصار » ، وحصل جون بيرو على جائزة قدرها عشرة آلاف فرنك . وأخذ الأديب هنرى موندور في جمع مقتبسات من رسائل للمرمية لم تنشر بعد ، واختار منها ماله علاقة بالشعر والشعراء ، وأخذ ينشرها تحت عنوان « ملاحظات عن الشعر » وهى توضح لنا تطور هذا الشاعر وتكوينه .

واتصل ترستان تزارا بالجمهور بعد انقطاع خمس سنوات ، إذ قرأ في مسرح قبيه كولومبيه قصيدته التمثيلية المسماة « الفرار » وقد كتبها على أثر جزع الفرنسيين وفرارهم أمام الألمان في سنة ١٩٤٠ وسينشر تزارا مجموعة من خمس وعشرين قصيدة تعتبر بدء الحركة المعروفة باسم « دادا » .

ونشر لويس دى فيلفوس كتاباً عن لامنيه أو « الفرصة المضاعة » . وفي هذا المؤلف يصف العراك الداخلى في نفس لامنيه ، و« مأساة الكنيسة وهى في مفترق الطرق » . وهذا الكتاب هو قصة الكاثوليكية أمام قلب الصناعة وسيطرة رأس المال . وقد أظهر المؤلف في كتابه براعة في فن الرواية مع سعة الاطلاع .

من وراء البحار

وكتب هيدجر زعيم المدرسة الوجودية قدماً لجان بول سارتر، فقال إنه لم يسمع عنه إلا منذ شهرين أو ثلاثة، وإنه لم يجد في كتابه « السكائن والعدم » إلا كثيراً من الاضطراب، وهو يفضل عليه موريس مارلويونتي.

وتكلم إميل هنريوه عند انتخابه عضواً في الأكاديمية فرانسيز عن مارسيل بريغوه مفصلاً حياة هذا الأديب المخرج في مدرسة الهندسة. ورد عليه جيروم تارو باسم زملائه واصفاً حياة العضو الجديد ومجتهوده الأدبي، وانهى من خطبته قائلاً: « إن مساعدتك ستكون قيمة في وضع القاموس ».

وقد أخذت موجة من الكتب السياسية تظهر في عالم التأليف في فرنسا. فأصدر جان تكسييه كتاباً أسماه « كتب في الليل » وهو مجموعة خواطر مؤلفة سجلها في زمن المحنة وتحلو قراءتها اليوم. كما أصدر قفسان أوريول كتاباً أسماه « الأمس والغد » فيه آراء سديدة عن التنظيم الدولي في المستقبل. وكان مسيو جان بول بونكور قد أخذ في زمن الاحتلال في نشر كتاب « بين حريين » وقد ظهر الجزء الثاني من هذا الكتاب وفيه يبين الفرص التي أضعها الحزب الاشتراكي وأضعها جمعية الأمم المتحدة، وهو يقول: « إن ما كان ينقص هذه الجمعية هو قوة مسلحة ضرورية للمحافظة على احترام قراراتها ». ويحمل بير هرفيه في كتابه « خيانة الحرية » على الأخلاقيين للشعبين بآراء الطبقة البورجوازية، وهو لا يرى خلاصاً إلا فيما يقوم به الشعب ويقرره.

وجمع موريس توريث التقارير التي قدمها للحزب الشيوعي في كتاب سماه « سياسة العظمة الفرنسية » وهو كتاب مفيد يدل على حياة.

وجمع ليون بلوم المقالات التي نشرها في جريدة « البويوليير » بين يناير سنة ١٩٣٢ ويونيه سنة ١٩٤٠ في كتاب تحت اسم « التاريخ سوف يحكم ». ولاريب في أن بلوم مثالي التزمه ولكنه واقعي المنطق، فقد كان دائماً يأخذ على الحكومة الفرنسية شدتها نحو بلاد النمسا، ثم ينتقد تخاذلها وضعفها أمام ألمانيا وإيطاليا واليابان.

مسرحية جديد لجيرودو

كتب الناقد الفرنسي بير لا نسير مقالاً تكلم فيه عن مسرحية « مجنونة شايبو » التي مثلت أخيراً لأول مرة على مسرح أثينيه في باريس، وهي من تأليف الكاتب جان جيرودو ولم تكن مثلت في حياته. ويرى الناقد أن هذا الحادث كان من أهم حوادث المسرح في السنوات الأخيرة، وكان الجمهور شديد الترقب له، أولاً ليعود إلى سماع مؤلف « إلكتر » و « حرب تروادة » و « سجنريد » مرة أخرى بعد أن شبع من المسرحيات الضعيفة التي تقدم له، ثم ثانياً ليرى جان جوفيه لأول مرة بعد غيبته الطويلة في أمريكا.

ولقد سحر الجمهور من مسرحية جيرودو منذ أول منظر، إذ ما لبث الكاتب أن اجتنب الجمهور ببراعته في العبارة المسرحية وسبك الحوادث وقوة خياله، وهذا معهود في مسرحياته السابقة، إلا أنه جاء بمجديد هو أننا نرى في هذه المسرحية جيرودو الناثر، فهو يرسم لنا صورة من الهيئة الاجتماعية القديمة التي « تنزل خطاً من قطن رديء » حيث المال هو

من وراء البحار

المسيطر عليها . وهذه الهيئة أيامها معدودات إذ أنه محكوم عليها بأن تذهب إلى غير رجعة . ويسيطر في هذه الهيئة الاجتماعية رجال سماهم « الملك » وهي كلمة عامية رفعها الكاتب إلى مصاف اللغة الصحيحة . ولعلها مأخوذة من القلب الذي يتمتع به بعض زعماء القبائل في أواسط إفريقيا . وهو يقصد بها رؤساء مجالس الإدارة والمديرين والمتدينين والكرتيرين العاملين للأعمال وأمثالهم . ثم هنالك زعماء أقل شأنًا مثل متعهدي اللحوم وغيرهم .

والقصة قائمة على أنه تألفت جماعة من أصحاب المصارف وقررت تدمير حي « شاو » كي تكتشف تحت الانقراض إما البترول وإما الذهب . ولهم في نظرهم أن يصدروا الأسهم التي تجذب الناس وتجذب بينهم مسيو جوجو الطيب القلب الذي خدع أكثر من مرة ومع ذلك ظل شديد الثقة بالأسهم .

وقررت « أوريلي » مجنونة ذلك الحي أن تقاوم هذا السيل ، وسعت بالاتفاق مع ثلاث من أمثالها من نساء الأحياء الأخرى كي يقضين على هذه الجريمة . ونشبت الحرب بين الأغنياء بما لهم من مال وتقوى وأخذوا يفسدون الرجال والشبان ، وبين هؤلاء النسوة الضعيفات المجنونات اللاتي ينتصرن في آخر الأمر على هؤلاء الزعماء الجشعين ويقضين عليهم قضاء مبرما . وليس من حاجة لن عرف جيروودو في مسرحياته أن نصف مهارته الفنية وقوته الأدبية في مثل هذه الموضوعات .

جائزة الموسيقى دبوسى

أعلنت سيدة أمريكية اسمها مسز بليجنلدر من أهل نيويورك أنها رصدت مبلغ ألف دولار لجائزة توهب في سبتمبر سنة ١٩٤٦ لأحسن عازف على البيانو يقوم بعزف برنامج معين من مؤلفات كلود دبوسى للموسيقار الفرنسى الشهير .

وهي لا تميز جنسية أوسنا أو دينا أو تعلما ، بل الباب مفتوح للجميع . وستقام حفلات مبدئية في عدة من مدن الولايات المتحدة وكندا والمكسيك في مايو القادم ، ثم يتقدم للتفوقون للمباراة الأخيرة بسان فرانسيسكو في سبتمبر .

وهكذا نرى هذه السيدة الأمريكية تقدر ذكرى هذا الموسيقار الفرنسى العظيم المجدد لمجرد حبها للفن .

ظـهـر حـدـيـثـا

العقيدة والشريعة في الاسلام تأليف المستشرق العظيم اجناس جرلدتسيهر
ترجمة الأساتذة محمد يوسف موسى — عبد العزيز عبد الحقي — علي حسن عبد القادر
(دار الكاتب للمصري)

هذا العنوان وحده يوحى بأشياء كثيرة قد لا يتسع لها هذا العرض الموجز . فهذا علم من
أعلام المستشرقين الذين عاشوا في القرن التاسع عشر وفي هذا القرن ، يضع كتاباً في الاسلام
يدرس فيه عقائده وشرائعه درساً تعمقه أحسن التعمق وأدقه ، وبسطه أكمل البسط وأجمله ،
وتوخى فيه الانصاف ما استطاع إلى الانصاف سيلاً ، كما توخى فيه الارتفاع عن النزعات
والاهواء ما أتاحت له طبيعته الانسانية أن يرتفع عن النزعات والاهواء . وحرص فيه على
ألا يقول شيئاً حتى يردده إلى أصله الذي استنبطه منه ، متفهماً نصوص القدماء بقدر ما استطاع
أن يفهمها . فهو إذن يعرض دراسة علمية للعقيدة الاسلامية ، والشريعة الاسلامية ، ولما
أصابهما من تطور على اختلاف العصور ، وتفاوت الظروف . وهو قد يخطئ هنا وهناك
وقد يقصر عن فهم هذا النص أو ذاك ، وقد يرضى المسلمين حيناً ، وقد يسخطهم حيناً آخر .
ولكن الشيء المؤكد هو أنه لم يتعمد تعصباً ، ولم يتكلف تشويهاً للنصوص ، ولا تحريفاً لها
عن مواضعها ، ولا تفسيراً للحقائق ، ولا التحكم فيها بالشهوة والهوى ، وإنما أصاب حين
أصاب لأنه اجتهد فأتيح له التوفيق ، وأخطأ حين أخطأ لأنه اجتهد فلم يتيح له التوفيق .
والناس جميعاً يصيبون ويخطئون ، لأن وسائلهم إلى البحث مهما تكن متقنة دقيقة ، فهي لم
تبلغ حد الكمال في الدقة والاتقان .

والكتاب بعد هذا كله نموذج متقن من نماذج البحث العلمي الدقيق في تاريخ الديانات ،
والمذاهب والآراء . فيه تعمق واستقصاء للتفاصيل ، وفيه بعد ذلك استخراج للخلاصة
الحقائق العامة من هذه التفاصيل . وينبغي أن نذكر أن هذا المستشرق العظيم قد كان مجرى
الجنس يهودي الدين ، وأن كتابه هذا لم يكتب للمسلمين ، وإنما أعد ليكون طائفة من
المحاضرات تلقى في جامعة أمريكية ، ثم أعيد النظر فيه ، وأخرج على أنه كتاب يتجه إلى
إلى المثقفين عامة ، وإلى المختصين في الدراسات الدينية خاصة من الأوربيين والأمريكيين .
فاذا قرأناه فأنما يقرؤه المثقفون منا ليستفيدوا ويتفعموا ، وليروا كيف يتحدث العلماء
المستشرقون المنصفون ، أو المحااولون للانصاف ، عنا وعمما ورثناه من عقيدة ، وما تأثرنا به
من شريعة في حياتنا العامة والخاصة . ويقرؤه المتخصصون منا قراءة العلماء لما يكتبه العلماء ،
يعرفون حيناً ، وينكرون حيناً آخر ، ويتفعمون دائماً .

وقد قسم جولدتسيهر كتابه ستة أقسام : خصص القسم الأول منها لمحمد صلى الله عليه وسلم ،
والقسم الثاني لتطور الفقه الاسلامي ، والقسم الثالث لنمو العقيدة الاسلامية وتطورها ، والقسم
الرابع للزهد والتصوف في الاسلام ، والقسم الخامس للفرق الاسلامية ، والقسم السادس

في الحركات الدينية الأخيرة عند المسلمين . وظاهر من سرد هذه العناوين أن الكتاب قد درس الحياة العقلية الإسلامية درساً دقيقاً مفصلاً ، وحاول أن يصور العنصرين الأساسيين اللذين تأتلف منهما فروع الحياة الإنسانية مهما تكن ، وهما عنصر الثبات والاستقرار ، وعنصر التطور والتجدد .

وما من شك في أن الذين يقرءون هذا الكتاب من المثقفين العرب لن يجدوا في قراءته لذة ومتعة فحسب ، ولكنهم سيجنون من هذه القراءة ثمرات لا يستطيع كثير منهم أن يجنيها من قراءة كتبنا القديمة التي بعد العهد بينها وبين عقلنا الحديث .

ففي قل هذا الكتاب إلى اللغة العربية خدمة عظيمة للثقافة عامة وللثقافة الإسلامية خاصة . فإذا أضفت إليه أن الكتاب لم ينقل إلى اللغة العربية لحسب ، وإنما أضيفت إليه تعليقات قومت منه ما أعوج ، وأصلحت مواضع الخطأ فيه ، وردت أمور الخلاف بين المؤلف والمسلمين إلى نصابها ، عرفت أن قل هذا الكتاب ليس خدمة للثقافة وحدها بل هو خدمة للإسلام أيضاً ؛ وليس في ذلك شيء من الغرابة .

فالذين أهدوا إلى اللغة العربية هذه الهدية القيمة ثلاثة من علماء الإسلام تخرجوا من الأزهر الشريف وأتقنوا علوم اللغة والدين ، ثم سافروا إلى أوروبا فدرسوا فيها وأتقنوا الدرس ، ثم عادوا إلى وطنهم ، وقد وصلوا قديم الشرق بحديث الغرب ، وكونوا لأنفسهم هذا المزاج المعتدل الحصب الذي لا تقوم نهضة إلا عليه ، ولم ينحرفوا عما ألفوا من الدرس ولكنهم استقبلوا درس اللغة والدين بعقل جديد ، قد استكمل وسائله للدرس المنتج والبحث للمتع .

وهم من أجل ذلك قد قدروا هذا الكتاب للأسباب التي قدمتها ، وأقبلوا على نقله إلى اللغة العربية وعلى تعيين وجه الحق فيما أشكل على المؤلف . فمن الحق أن نحمد لهم هذا العمل الخطير وأن نبتهج في دخائل نفوسنا وأعماق ضمائرنا ؛ لأن الأزهر الشريف قد تحرر من ركوده القديم ، واستشعر حقه وواجبه ، ونهض بالواجب قبل أن يطالب بالحق ، وأخذ للمتأززين من أبنائه يؤدون واجبه للثقافة الدينية كأحسن ما يؤدي الواجب : ينقلون رأي الأوربيين في قديمنا وحديثنا ، ويقومون بهذا الرأي ويلائمون بينه وبين طبائنا وأمزجتنا ومثلنا العليا بالضبط ، كما كان الإعلام من فقهاء المسلمين ومتكلمهم وفلاسفتهم يصنعون في العصور الإسلامية الأولى .

ومهما أثنى على الأساتذة المترجمين بما وقفوا له من دقة النقل وبسر الأسلوب وحسن التعبير قلن أؤدى إليهم حقهم من الثناء حين أذكر جهداً عظيماً بذلوه موقنين كل التوفيق وإلهه ألا يكون أقل مشقة ولا أثقل حملاً من جهد الترجمة . فقد اعتمد المؤلف على نصوص كثيرة في كتب متفرقة منها القريب ومنها البعيد ، وفي طبقات متفاوتة منها الشرق ومنها الغربي ، وقد حرص المترجمون على ألا يترجموا هذه النصوص من الألمانية والفرنسية وعلى ألا يكتفوا بالإشارة إليها ، ولكنهم استقصوها في مظانها حتى وجدوها ؛ فساروا مع المؤلف في طريقه العلمي سيراً دقيقاً لا تخلف فيه ، وعرفوا كيف فكر ، وكيف قدر ، وكيف وجد النص وكيف فهمه ، وكيف استخرج منه نتائجها التي انتهى إليها .

فلينقل الأساتذة الأجلاء محمد يوسف موسى وعبد العزيز عبد الحق وعلي حسن عبدالقادر أصدق التهنية بما بذلوا من جهد ، وما أصابوا من توفيق . وما أشك في أن جمهور المثقفين سيهدون إليهم من التهنية مثل ما أهدى ، وسيترفون لهم بمثل ما أعترف لهم به من الجليل ،

الحب الأول تأليف الكاتب الروسي العظيم إيثان ترجنيف ، ترجمة الأستاذ محمود عبد المنعم مراد (دار الكاتب المصري)

من المشكلات التي نواجهها الآن ، كما واجهها العرب في العصر العباسي الأول ، ترجمة بعض الآثار الأدبية والعلمية التي لا يمكن الاستغناء عنها في أمة تقدر الثقافة وتريد أن تشارك في الحضارة إذا كانت هذه الآثار قد كتبت في بعض اللغات التي لم تعود درسها ولم يشع العلم بها في مصر .

قد واجه العرب هذه المشكلة حين أرادوا أن يترجموا ثقافات الأمم الأجنبية في القرن الثاني والثالث للهجرة ؛ فقد كانت هذه الثقافات الأجنبية في لغات منها ما كان قريباً من العرب يسيراً عليهم ، ومنها ما كان بعيداً عنهم عسيراً عليهم . فقد كانت اللغة الفارسية قريبة منهم تعرب أصحابها وتعلمها بعض العرب فكان النقل منها وإليها يسيراً لا مشقة فيه . ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة إلى لغات الهند وإلى اللغة اليونانية . فإذا نقلت آثار الفرس إلى اللغة العربية نقلت مباشرة فقد نقلت آثار الهند نقلًا غير مباشر ، ترجمت إلى الفارسية أول الأمر فيما يظهر ثم نقلت منها إلى العربية . ونقلت آثار اليونان إلى العربية نقلًا غير مباشر أيضاً ، بل كان في قلبها كثير من التعقيد . فهي قد نقلت أول الأمر نقلًا من الدرجة الثالثة ، إن صح هذا التعبير ، لم تترجم الكتب اليونانية ترجمة مباشرة أو غير مباشرة ، وإنما أذيعت في العرب آراء ومذاهب يونانية عرفها أصحابها من طرق مختلفة ، أذاع الفرس شيئاً من هذه الآراء والمذاهب ، وأذاع السريان والنصارى واليهود بوجه عام شيئاً آخر من هذه الآراء والمذاهب . ثم عرف العرب الترجمة غير المباشرة ، فترجمت الآثار اليونانية عن تراجم سريانية ، ولم تترجم الآثار اليونانية عن لغتها الأولى إلا في عصر متأخر ، كما لم تعرف آثار الهند معرفة مباشرة إلا في وقت متأخر جداً .

وقد كان للعرب من الأعذار في العصور القديمة ما ليس لنا ؛ فهم لم يعرفوا في عصورهم الأولى التعليم الإلزامي ولا التعليم العام للنظم ولا التعليم الإلزامي للغات الأجنبية ، وهم لم يتصلوا بالأمم الأجنبية اتصالاً دقيقاً منظمًا على نحو ما نتصل نحن الآن بالأمم الأجنبية . وهم لم يملكوا من وسائل التعلم والتعليم شيئاً يقاس إلى ما نملك نحن الآن . فإذا اضطروا إلى أن يكتفوا أول الأمر بالترجمة غير المباشرة فلهم عذرهم . ومن الحق أن نعرف لهم هذا التفوق علينا في حب المعرفة والحرص على تحصيلها . ونحن الآن نواجه نفس المشكلة بالقياس إلى أكثر اللغات الأجنبية وإن كنا لا نواجهها بالقياس إلى لنتين أو ثلاث . فنحن ننقل نقلًا مباشرًا عن الفرنسية والإنجليزية وقد أخذنا ننقل نقلًا مباشرًا عن الألمانية منذ وقت قصير ، وأخذنا نحاول كذلك النقل عن اللغة الفارسية ، ولكننا لا نستطيع إلى الآن أن نترجم مباشرة عن الروسية ولا نكاد نترجم عن الإيطالية ، فأما اللغات الأوربية الأخرى فنكاد لا نعرف عنها إلا ما يحدثنا به الإنجليز أو الفرنسيون . ليس فينا من ينقل مباشرة عن لغات أوروبا الشمالية ولا عن اللغة الأسبانية . ومع ذلك ففي كل هذه اللغات حياة عقلية لا تقل قوة وخصباً وتأثيراً في الحضارة الإنسانية العامة عن اللغتين الفرنسية والإنجليزية .

ومن الطبيعي أن نسرع إلى الاتصال بهاتين اللغتين من لغات أوروبا الغربية لأن ظروف التاريخ والجغرافيا والسياسة تقتضي ذلك ولكن من الطبيعي أن نحزم أمرنا ونحرص على

ظهر حديثاً

الاتصال باللغات الحية الأخرى لأن ظروف الحضارة والثقافة تقتضى ذلك أيضاً . وقد كانت لحضارة والثقافة لغة واحدة في العصر القديم هي اليونانية في الشرق واللاتينية في الغرب ، ثم ظلت للحضارة والثقافة لغة واحدة في العصور الوسطى هي العربية في الشرق واللاتينية في الغرب . أما في العصر الحديث فقد نامت العربية حيناً ثم استيقظت ، وأصبحت اللغة اللاتينية وسيلة من وسائل الدرس لا لغة حية يمكن الاعتماد عليها . وهمت اللغة الفرنسية أن تكون لغة الحضارة والثقافة في أول العصر الحديث ، ولكنها لم تستطع أن تقهر لغات الأمم الأوربية الأخرى المتوثبة ، فزاحتها الإنجليزية والإسبانية . ولم يكد القرن التاسع عشر يتقدم حتى أصبحت اللغات الأوربية كلها ألسنة للحضارة والثقافة والعلم . فطبيعة الأشياء تقتضى إذن أن توجد في مصر مدرسة أو مدارس للغات الحية الكبرى على الأقل ، وأن تتسع مدارسنا الثانوية لأكثر من اللغتين الإنجليزية والفرنسية . والمهم هو أننا أخذنا نشعر منذ حين بضرورة النقل عن الألمانية ثم بضرورة النقل عن الروسية ، فعدنا إلى الترجمة غير المباشرة : قرأنا آثار الألمان والروسين في الإنجليزية والفرنسية ثم قلناهما عن هاتين اللغتين . وأعود فأكرر أن هذا شيء أقل ما يوصف به أنه لا يلائم طموحنا إلى الرقي الصحيح . ولكن شيئاً خير من لا شيء ، كما يقال ، وعلى هذا النحو نستقبل كتباً كثيرة أنشأها الأدباء الروسون الممتازون وينفلها لنا الشباب المصريون قلا غير مباشر من اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

والكتاب الذى نتحدث الآن عن ترجمته من هذه الكتب أنشأه الكاتب الروسى العظيم ترجيف وترجمه الأستاذ محمود عبد النعم مراد إلى العربية ترجمة غير مباشرة . والشئ الذى لا شك فيه هو أن هذه الترجمة إذا لم تصور أثر الكاتب الروسى العظيم تصويراً دقيقاً فانها تعطينا منه صورة مقاربة فيها كثير جداً من الجمال والروعة يأتيان قبل كل شئ من هذه البيئة الجديدة التى لم تعود أن نراها فيما قرأنا من آثار الفرنسيين والإنجليز ، بل من آثار من الألمان والإيطاليين . فلحياة الروسية طابعها الخاص الذى يرد الشعور الإنسانى والتفكير الإنسانى أيضاً إلى أصول من هذه السذاجة الشرقية المحببة إلى النفوس . وقد يكون من الأوليات أن تقول إن الرجل المصرى يرى نفسه في الأدب الروسى أكثر مما يراها في الأدب الأوروبى والغربى لأن حياة الروسين لم تتفقد بعد كما أن حياتنا نحن مازالت بعيدة عن التعقيد . و«الحب الأول» قصة صغيرة ساذجة ، يتحدث بها رجل إلى رفيقين من رفاقه ، فيصور لها كيف نشأ الحب في قلبه لأول مرة حين كان غلاماً في السابعة عشرة من عمره ، وحين رأى في الريف فتاة جميلة في العشرين . وهو يصور ما أحدث جمال هذه الفتاة من فتنة في قلوب مختلفة يتفاوت أصحابها في أسنانهم ومراتبهم وطبقتهم الاجتماعية ، كما يصور أن هذا الحب قد وقع في قلبه هو كما وقع في قلب أبيه ، وأنه أخذ في هذه القلوب المختلفة صوراً مختلفة ، ولكن صورة واحدة منها هي التى تفوقت وسيطرت على غيرها من الصور . وهي صورة الحب الذى وقع في قلب الأب . فالأب هو الذى استطاع أن يستأثر بالفتاة من دون غيره من العاشقين ، منع أنه لم يظهر عشقاً ، ولم يحدث بينه وبين الفتاة صلة ظاهرة . والناحية المؤثرة حقاً في الكتاب ، هي ناحية التصوير لهذا القلب الناشئ ، الذى يندفع إلى الحب في غير احتياط ولا تحفظ ، ويلقى في هذا الاندفاع آلاماً وآمالاً ، ثم لا تلبث آماله أن تخيب قليلاً قليلاً حتى تنتهى إلى اليأس ، حين يثق الفتى بأنه كان يحب عشيقته أبيه . والكتاب يقرأ في سهولة ويسر ، لأن المترجم اصطنع لغة سهلة يسيرة .

المقامر الكاتب الروسي العظيم فيدور دوستويفسكى ، ترجمة الاستاذ شكرى محمد عياد
(دار الكاتب للمصرى)

والمتقنون جميعا يعرفون الكاتب العالمى العظيم دوستويفسكى أكثر مما يعرفون ترجيف ، وكثير منهم سمع بقصة « المقامر » أو قرأها ، وكثير منهم يعرف ما بين هذه القصة وبين مؤلفها من صلة . فقد كان دوستويفسكى نفسه ممتحناً بداء القمار ، وقد لقي منه فى حياته شراً عظيماً . فلتست فى حاجة إذن إلى أن أعرض القصة ولا أن أحلها والقراءة خير من التحليل على كل حال . ولكن ألاحظ أن قصة ترجيف التى تحدثت عنها آنفاً تقع فى روسيا نفسها على حين تقع قصة المقامر فى ألمانيا وفرنسا .

فاذا كانت القصة الأولى تصور لونا من حياة الروسين فى بلادهم ، فالقصة الثانية تصور لونا من حياة الروسين خارج بلادهم . وأحب أن ألاحظ أيضاً أن القصة الأولى تصور حياة ريفية هادئة تتصل بالحب وتعنف فيها الأهواء عنفاً متتداً ، لأن ترجيف كان صاحب دعة وهدوء وشعور قوى ووجدان شديد التأثير . فأما قصة دوستويفسكى فأنها لا تعرف دعة ولا هدوء وإنما تصور حركة متصلة لا تريح ولا تستريح ، كما تصور عنفاً شديداً يملك على القارئ نفسه ويستأثر بمحاجته إلى الاستطلاع .

ولست أدري أين قرأت فى قصص دوستويفسكى عنصراً شيطانياً ، فهذا العنصر الشيطاني يظهر ظهوراً قوياً فى قصة المقامر . والقصة آخر الأمر موعظة كلها ، سيجد الذين يقرأونها لذة فنية ، وعبرة خلقية نافعة .

سبح لانترفيل الكاتب الانجليزى أوسكار وايلد ترجمة الاستاذ لويس عوض (دار
الكاتب للمصرى)

وهذه قصة انجليزية صغيرة ، توشك أن تكون حكاية طويلة ، قد كتبها أوسكار وايلد فى أسلوبه الفكاهى الساخر ، الذى يمزج بين التفاؤل والتشاؤم ، وبين الابتسام والعبوس . وهى تصور الاختلاف بين استمساك الانجليز بما ورثوا من الأساطير واستمساك الأمريكين بما يستحدثون من الجديد . فقد اشترى غنى أمريكى قصراً لبعض الانجليز المحافظين ، ونبه البائع هذا الأمريكى إلى أن فى قصره شبحاً يظهر أثناء الليل ، فينفض على النائمى نومهم ، ويعرضهم لالوان من الخوف ، قد تجر عليهم شراً عظيماً . ولكن الأمريكى لا يحفل بالشبح ، لأن الأمريكين لا يؤمنون بهذه السخافات . على أنه لا يكاد يستقر فى القصر حتى يظهر له الشبح بالفعل ، فيعامله كما تعامله الأسرة كلها على الطريقة الأمريكية ، لا يخافون منه ، وإنما يستهزئون به ويعلمون بذلك قلبه حزناً وعمماً . ولكن فتاة من أبناء الأسرة ترق له وتمطف عليه ، وما تزال ترفق به وتواسيه ، حتى ترده إلى الهدوء والأمين وإلى التوبة والتندم على ما قدم من خطيئة ، فيموت ، وقد أهدى إلى الفتاة جواهر ثمينة .

ظهر حديثاً

وليس المهم في القصة هذه الأنباء التي تروى عن الشيخ ، وإنما المهم هذه الموازنة الظريفة للساخرة بين العقل الانجليزي المحافظ ، والعقل الأمريكي المجدد . ويحيل إلى أن الأستاذ لويس عوض قد تعجل الترجمة ، وأن دار الكاتب المصري قد تعجلت الطبع ، ف وقعت في القصة على قصرها ، أغلاط مؤلة في النحو العربي ما كان ينبغي أن تقوت المترجم ، وما كان ينبغي بنوع خاص أن تقوت للمصحح ، والأستاذ لويس عوض جامعي ، وتخصصه في الانجليزية لا يفيده من تبعات الخطأ في اللغة العربية . فسي أن يصطنع الأناة فيما يترجم ، ولعل دار « الكاتب المصري » أن تصطنع الأناة في تصحيح ما تطبع وتذيع في الناس .

طه حسين

تاريخ النقائض في الشعر العربي للأستاذ أحمد الشايب (مكتبة النهضة بالقاهرة)

أخرج لنا الأستاذ الشايب منذ قريب كتاب « تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني » حاول فيه وصف هذا الفن الأدبي في أطواره المتعاقبة منذ نشأته في الجاهلية إلى نحو منتصف القرن الثاني للهجرة ، وقد ذهب في تفسير الشعر السياسي في كتابه ذاك مذهبين متقابلين يسيران جنباً إلى جنب ، أحدهما قريب يقف عند قنوفه المعروفة : نسيباً ، ووصفاً ، ومدحاً ، وهجاء ، وحامسة وغرراً ، من حيث يتجه الشعر في أى ألوانه هذه إلى شخص ، أو قبيلة ، أو حزب ، أو أمة ... ، والثاني ينظر إلى هذا الشعر من حيث الغاية أو الهدف الذي أنشئ في سبيله أيا كان هذا الهدف : كتأييد حزب سياسي ، أو تمجيد قبيلة ، أو مدافعة شعب أجنبي ، أو انتصار لمذهب حكومي ، أو غير ذلك من الأهداف .

وقد اتخذ المؤلف فيما أنشأ من فصول ذلك الكتاب نهجاً طاماً يقوم على أصليين ، أحدهما سياسي يسائر التكوين الطبيعي للجماعات العربية منذ كانت ، ويصف أطوارها وطايعها السياسي في كل طور ؛ والثاني فني يقوم على الخواص الأدبية للشعر السياسي نفسه في كل طور من تلك الأطوار ، وعلى للمشخصات الذاتية لكل شاعر من شعراء ذلك الفن ، وعلى العوامل للمكانية أو الجماعية أو الشخصية التي كان لها أثرها في توجيهه الفني .

ولقد كان هذا الكتاب بمنهجه وموضوعه ومذهب مؤلفه في البحث محاولة جديدة في دراسة الأدب العربي حقيقة بعناية الباحثين ، ولعلها أن تكون مقدمة لمباحث أخرى في هذا الباب الذي مهد الأستاذ الشايب إليه طرائق البحث وذلل مسالكه !

وهذا كتاب جديد ، في موضوع جديد ، يخرج به الأستاذ الشايب إلى قراء العربية قبل أن نحضي بضعة أشهر على كتابه الأول !

و « النقائض » في الشعر العربي هي اسم معروف لتلك القصائد الطوال التي يناقض بها الشعراء بعضهم بعضاً هاجين أو مغاخرين ، وأشهرها « النقائض » التي دارت بين جرير والفرزدق والاختل في العصر الأموي ، والتي أوشكت لشهرتها أن تستأثر بهذا الاسم حتى

ظهر حديثاً

لا يكاد الناس يعرفون عن « النقائض » إلا أنها تلك الأماجي والمفاخرات التي كانت بين جرير وصاحبيه الآخرين وحسب !

هلى أن الأستاذ الشايب في بحثه هذا الطريف لم يقتصر حديثه على نقائض هؤلاء الشعراء الثلاثة وحدهم ؛ إذ بدا له أن هذا الفن الذي ظهر قوياً رائداً في زمن الأمويين لا بد أن تكون له مقدمات وسوابق قبل عصر الأمويين عادت طرقه وهيأت وسائله وتطورت به حتى بلغ ذلك المبلغ القوي الرائع . ومن هذه النقطة بدأ الأستاذ الشايب بحثه فرجع إلى ماضي الشعر العربي في الجاهلية وصدر الاسلام دارساً منقياً ، باحثاً عن هذا الفن أين بدأ وكيف تطور ، فظفر بحلقتين في تلك السلسلة في عصرين ممتازين في تاريخ الشعر العربي ، هما عصر الجاهلية وعصر البعثة المحمدية ، فتكون منهما ومن العصر الأموي تاريخ كامل للنقائض أخذ الأستاذ في بحثه ودرسه على منهاج علمي صحيح فاتهى من بحثه ودرسه إلى هذه الفصول التي نشرها في ذلك الكتاب !

فهو إذن كتاب جديد في موضوع جديد كذلك ، قد بذل له المؤلف جهداً وأتقن زماناً ، فهو حقيق بأن يلقى من عناية الباحثين وطلاب الأدب كفاء ما بذل المؤلف من جهده وما أتقن من زمنه في موضوع لعله ليس من المبالغة أن أقول إنه نصف الأدب العربي في عصوره الثلاثة للتقدمة !

المسؤولية والجزاء للدكتور على عبد الواحد وافي (مطبعة عيسى البابي الحلبي بالقاهرة)

هذه هي الحلقة السابعة من سلسلة مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية ، وهي جمعية يشترك فيها طائفة من أعلام الباحثين في الفلسفة والاجتماع في مصر ، وهدفها استئناف النهضة العلمية في الشرق وتبسيط مسائل الفلسفة حتى تصير في متناول كل قارئ وإن لم يكن له اختصاص بالفلسفة ومباحثها المعقدة .

والدكتور على عبد الواحد وافي مؤلف هذا الكتاب هو أستاذ الاجتماع بكلية الآداب ، وهو رئيس هذه الجمعية . وإنه لعمل حقيق بالتنويه أن يحاول أستاذ الاجتماع في الجامعة ألا يقتصر جهده في هذا الفن الخاص من فنون المعرفة على طلابه في الجامعة ، فيؤلف ، أو يرأس هذه الجمعية ، وينشر هذا الكتاب ؛ هو عمل حقيق بالتنويه لأنه مظهر من مظاهر الإيمان بالعلم ، وهو كذلك مظهر من مظاهر الديمقراطية في هذا العلم وإن كان لموضوعه مظهر الأرستقراطية !

وكل فرد في الجماعة لا بد له أن يعرف بما عليه من « مسؤولية » في الجماعة التي يعيش بينها ، وما ينتظره من « جزاء » يكافئ ما يحمل من تلك المسؤولية ، سواء أكانت هذه للمسؤولية وذلك الجزاء مما تشرعه الأديان ، أو مما تقرضه القوانين ، أو مما تعارف عليه الناس ؛ فلا جرم أن يكون حقاً على كل فرد في الجماعة أن يلتبس أسباب المعرفة في باب للمسؤولية والجزاء ؛ وهذا هو المعنى الذي قصد إليه الدكتور وافي بكتابه هذا الذي أخرجه لقراءته على الوجه الذي أراد له ليتحقق به النفع العام ، وأحسب قد وفق لتحقيق ما أراد !

ساء محاسن الأستاذ صلاح المنجد (مطبعة النرق بدمشق)

وهو الحلقة النازية من سلسلة منشورات أصدقاء الكتاب التي يصدرها في دمشق طائفة من الأدباء وأهل البحث والنظر

في هذا الكتاب يتناول الأستاذ المنجد طائفة من قصص الحب في الأدب الفرنسي لدام دلافيت ، وروسو ، وستاندال ، وفلوبير ، فيدرس شخصياتها النسائية دراسة يربط بها بين الحياة الخاصة التي كان يحياها مؤلفو هذه القصص وما كان للمرأة في هذه الحياة من أثر وبين النساء الماشقات الذين أبدعوا تصويرهن في هذه الآثار الأدبية الخالدة ، ثم يأخذ في تحليل عواطف هؤلاء الماشقات أو المعشوقات على أنهن شخصيات حية كان لها وجود حقيقي ، إن لم يكن في الحقيقة والواقع ففي أنفس أولئك المؤلفين الذين حاولوا أن يصوروا — حين صوروهن — شخصاً حياً ، أو نماذج لشخص حية كان لها في حياتهم أثر وتوجيه ولست أجحد مقدار ما وفق له الأستاذ المنجد في تحليل ما تناوله من القصص وتصوير مؤلفيها وشخصياتها ، فقد بلغ في ذلك مبلغاً يهنا عليه . ولكن ألم يكن أجدر به أن يبدأ فينتقى جهده هذا في ترجمة هذه القصص كلها أو بعضها إلى العربية قبل أن يفكر في إخراج هذه الدراسات التي تشبه أن تكون حاشية أو تعليقاً جيداً على كتاب ليس بين يدي القارئ متته ؟

وماذا يفيد القارئ من الشرح للدروس والتعليق الجيد على هامش كتاب ليس بين يديه متته ؟

صاحب المزمار — أنس الوجود — مع الريف قصة ، وخواطر أدبية طريقة بقلم ممدوح مصطفى عبد الرازق

للثعلب المصري يقول : « ابن الوز عوام ! » وهو مثل لا يصدق كثيراً ، ولكنه هنا في موضع الاستدلال الصادق ؛ فهذا فتى لأبيه ، وفيه على مستقبله بشائر ! أما الفتى فهو التلميذ الناشئ « ممدوح » وأما أبوه فهو شيخ الأزهر الحالي ، ووزير الأوقاف السابق ، وأستاذ الفلسفة في جامعة فؤاد الأول قبل ذلك ، والأديب البارع من قبل ومن بعد ، وهو مصطفى عبد الرازق :

وحسب القارئ أن يطلع على هذه « الورقات » التي أخرجها مؤلفها الصغير في « مجلدين » وأن يعرف من ذلك المؤلف ومن أبوه ، ليعرف أن هنا « بذرة أديب صغير » نسأل الله أن يحوطه برعايته حتى يصير في يوم قريب « أديباً كبيراً » طويل الباع فسيح الذراع !

محمد سعيد العمري

في مجلات الشرق

أغلاط الإفرنج

في الجزء الأول من المجلد الحادي والعشرين من مجلة «المجمع العلمي العربي» بدمشق بحث طيب بهذا العنوان ، للأستاذ محمد كرد علي ، أورد فيه طائفة غير قليلة من أغلاط الإفرنج في بعض ما يعالجون درسه من الشئون الشرقية والإسلامية ، سواء أكان هذا الغلط لفظياً ، أو فكرياً ، وبعد أن صحح ما أورد من تلك الأغلاط قال في خاتمة مقاله :
« وبعد فكثيراً ما وددت لو قام بعض أرباب الكفاية منا فنشروا في القاهرة أو دمشق أو بغداد مجلة تعنى برد ما ينشر من هذا القبيل في الكتب والمجلات الإفرنجية تدفع به هذه الأباطيل للقصودة عن تاريخنا ومقدماتنا وتنقي العلم من هذا الزؤان والزغل ، فعصرنا عصر دعاية ، ومن لا يدعوا لما يهه لا يهتم له أحد ويظل التباين بينه وبين من يريد أن يكون معهم على وثام متأصلاً . »

واجب كل عربي

في العدد الأول من المجلد العاشر لمجلة «الكلية» التي يصدرها فريق من طلاب الجامعات في بيروت ، كلمة بعنوان « هل من متخلف عن تأدية الواجب ؟ » جاء فيها :
« لن نكون أمة محترمة ما لم يشعر كل منا بمشاكلنا الاجتماعية ويسعى لحلها . لن نكون أمة محترمة ، ولن نعلو إلى رتبة الأمم الراقية ما دام في البلاد أطقال يموتون من الأمراض وقلة الغذاء ، وأيتام مشردون لا أنيس لهم ولا معين يفتشون في فضاء الله عن مأوى يلجأون إليه ، ما دامت الأمية تسيطر على السواد الأعظم من الشعب والملايا تصارع الفلاح المسكين ، والسجون تجمع بين الصغير والكبير والجاني وسارق الرغيف .
« فإذا أردنا أن نكون أمة محترمة فعلينا أن تهض بمجتمعنا ونرفعه إلى مستوى أعلى بكثير من الذي هو فيه اليوم ، فإلى كل من آمن بالقضية العربية أقول : اخدم المجتمع وانخرط في حيوش مكافحة الأمراض والأمية ومنظمات الترفيه عن العامل والسجين والمتشرد . »

أدباؤنا المعاصرون

في العدد الثالث من مجلة «الوادي» التي تصدر في بغداد مثال للأستاذ رفائيل بطي تناول فيه خطبة الدكتور طه حسين بك التي قدم بها زميله في مجمع قواد الأول للغة العربية

معالي عبد الحميد بدوي باشا ، والتي نشرتها مجلة « الكاتب المصري » في عدد مضى ، ثم انتهى من مثاله هذا إلى قوله :

« ولكنني أؤاخذ رئيس تحرير الكاتب المصري على قصيره في حق مجلته وقرائه إذ لم يفتح باباً جديداً فيها فيعرف في كل جزء زميلاً له من رجال الفكر والأدب العرب المحدثين من مصريين وغيرهم بالطريقة التي عرف بها معالي بدوي باشا في خطابه في الأتاديبي العربي . وعلى توالي الأيام تضم المكتبة العربية سفيراً فذاً في تحليل أدبائنا المعاصرين بقلم عميدهم طه حسين . »

الفنانون يكرهون الحياة

في عدد شباط (فبراير) من مجلة « الأدب » التي تصدر في بيروت مقال عنوانه « الأخلاق عند الأدباء » بقلم عبد اللطيف شرارة يحاول فيه تحليل بعض الظواهر الشاذة في أدباء السوء ، فيقول :

« كل ما يختلف به رجل الفن عن غيره هو بالضبط أنه لا يحب الحياة ، هذه المشكلة التي فرضت عليه قرصاً دون أن يكون له في الأمر حق الاختيار أو المشورة على الأقل ! فكأنه يولد — حين يولد — وفي جيلته الأصلية هذا النفور من حياته ، فلا يلبث أن يعبر عن فطرته بعد أن يكبر وينمو بحب الانعام إن كان موسيقياً ، ومطالعة الكتب إن كان أدبياً ، ونحت الأحجار إن كان مثالا ، وتزويق الألوان إن كان رساماً ، وهلم جرا . ولا هم له أن يعيش بمقدار ما يصرف همه في وسائل فنه وأساليبه ونماذجه وإخراجه ، وهو في جميع حالاته منصرف عن الحياة إلى حياة أخرى لا نعرفها إلا حين يصورها لنا بما أوتي من براعة خاصة واتجاه خاص ! »

وحدة الثقافة العربية

وفي العدد نفسه من مجلة « الأدب » رسالة للأستاذ عبد الله برى من مهاجرة في ديورن ميشن بالولايات المتحدة ، عنوانها « الوحدة الثقافية قبل الوحدة السياسية » يقول فيها : « نحن في بلاد العرب بحاجة إلى وحدة ثقافية قبل الوحدة السياسية . والشباب العربي إجمالاً بحاجة إلى العلم لا إلى السياسة ، والبلاد المستقلة في بلاد العرب تحتاج أيضاً إلى نمو نشاط ثقافي قبل حاجتها إلى التوحيد والاستقلال — الاستقلال بمعناه الكامل — الذي يقوم على العلم والفن لا على الجهل والادعاء ، والذي إذا قام على الثقافة رفع اسم الشعب وعزز اقتصادياته ومقدراته ، وأفاد في نموها وانتشارها في جميع الوجوه الاجتماعية المعروفة . »

الى قراء الامة الفرنسية

اذا أحببت ان تطلعوا على خير ما يكتبه مشاهير الأدباء الفرنسيين فضلا عن نخبة من أدباء الشرق فترقبوا مجلة « القيم » VALEURS وفي عددها الرابع الذي صدر في نهاية يناير ١٩٤٦ تجدون أبحاثا للرميه وآثارا لسارتر وكايوا وميشوه وكواريه وموريانا الياباني وميلر والدكتور حسين فوزي وجويون ويير لويس وخطابان من أندريه جيد وطه حسين وإتيامبل فضلا عن خلاصة المجلات الفرنسية والعربية والكتب العربية والفرنسية .

VALEURS

CAHIERS TRIMESTRIELS DE CRITIQUE ET DE LITTÉRATURE
PUBLIES AVEC LA COLLABORATION DES ECRIVAINS DE FRANCE
ET DU PROCHE-ORIENT.

Directeur: ETIEMBLE.

SOMMAIRE DU QUATRIEME CAHIER

STEPHANE MALLARME

QUATRAIN INEDIT POUR MERY LAURENT

JEAN-PAUL SARTRE

LES VAINQUEURS

ROGER CAILLOIS

GRANDEUR DE SAINT EXUPERY

HENRI MICHAUX

AU PAYS DE LA MAGIE

ALEXANDRE KOYRE

LOUIS DE BONALD

HUSSEIN FAOUZI

LE CHAT YOGHI

HENRY MILLER

CAUCHEMAR CLIMATISE

KUNI MARUYANA

LETTRE D'UN JAPONAIS A SES AINES

PIERRE LOUYS

LETTRE INEDITE

ANDRE GIDE — TAHA HUSSEIN

DEUX LETTRES

N. BALADI, J. CHEVALLIER, ETIEMBLE, H. FELIX, E. FORTI,
B. GUYON, G. HENEIN, H. EL KAYEM, E. MERIEL, E. SIMON.

PAUL PELLIOT, LE CINEMA,
REVUE DES LIVRES, NOTULES, LES REVUES,
BULLETIN.

الى قراء اللغة الفرنسية

إلى الذين يريدون أن يطلعوا على خير ما يكتبه الأدباء الأوربيون وأدباء الشرق تقدم
فهرس عدد فبراير من « مجلة القاهرة » *La Revue du Caire* وهو حافل بمقالات
تتناول شتى نواحي الحياة الأدبية والفنية لأندرية كلوفيس ورينيه دومينيل وقانسو
والدكتور لوت ودبرتويه وجان أودير وروبير كامب .

LA REVUE DU CAIRE

REVUE DE LITTÉRATURE ET D'HISTOIRE

*

SOMMAIRE DU NUMERO DE FEVRIER

- ANDRE CLOVIS Été 1944, aux lisières du Maquis (*à suivre*).
RENE DUMESNIL La querelle du Diapason.
VINCENOT Une expérience sociale dans un village
d'Egypte: El-Agaïza.
Dr. LOTTE Sémantique et Zoologie (du canard à
l'anatife).
DUPERTUIS Demolins et l'Ecole nouvelle (*fin*).
JEAN AUDEBERT Aperçus nouveaux sur les religions primi-
tives.

CHRONIQUES

G. W. — Robert KEMP

Abonnements pour l'Egypte P.T. 100
pour l'Etranger le port en plus.

Administration: 3, Rue Nemr, Le Caire.

الباب الضيق

تأليف

اندريه جيد

تغريب نزيه الحكيم

مع رسالة من أندريه جيد الى المترجمين
ورد ط حسين الى أندريه جيد

قصة الحب النقي الممتاز الذى يرتفع
عن خطوب الحياة اليومية ، ويرفع
أصحابه عن هذه الخطوب ، وما يزال
يرتفع ويرفع أصحابه حتى يبلغ بنفسه
وبهم نوعاً من التصوف يمتزج بالحب
الالهى امتزاجاً .

١٤٦ صفحة

الثنى ١٨ قرشاً (البريد ١٢ ملجاً)



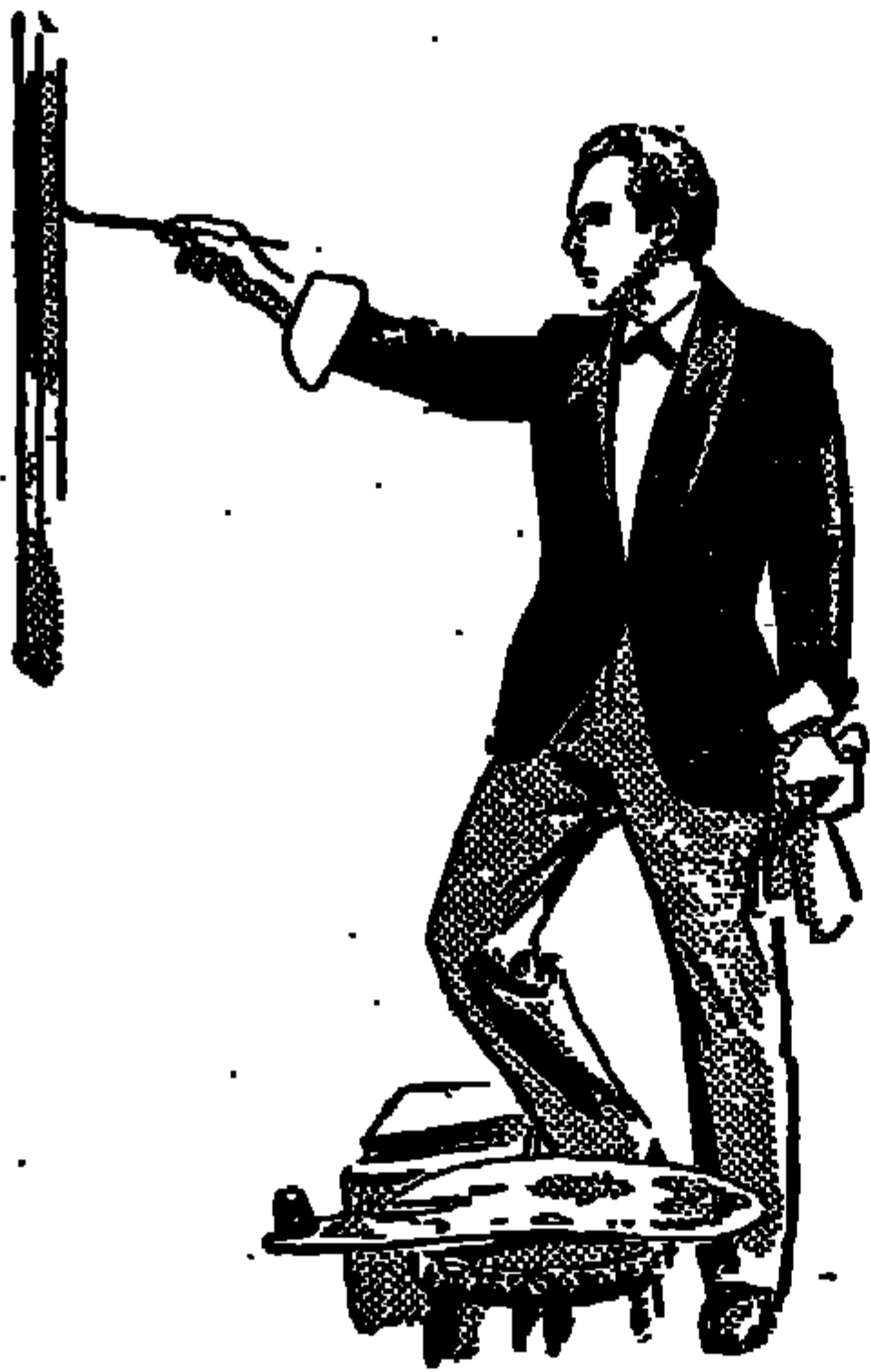
صورة دوربان جرای

تأليف

أوسكار وايلد

تغريب لويس عوض

طبعة مزينة بصورة مختارة من فيلم
« صورة دوربان جرای »
انتاج « متروپوليتين ماير »



٣٠٠ صفحة

الثنى ٣٠ قرشاً (البريد ٢٤ ملجاً)



سِرَج كَانِتْرِ قِل

تأليف
أوسكار وايلد
تعريب لويس عوض

طبعة مصرية بصور مختارة من فيلم "م.ج.م."



التمن ١٨ قرشاً
(البريد ١٦ ملياً)



ظهر حديثاً
١٢٨ صفحة



حكايات فارسية

بقلم
يحيى الخشاب

كتاب يحمل إلى قراء العربية عبيراً
رقيقاً حسن الموقع في النفس من
هذه الحياة الفارسية الممتازة بما فيها
من رقة وفطنة وفكاهة .

١٩٦ صفحة

الثنى ٢٠ قرشاً (البريد ١٦ ملياً)



من حولنا

قصص مصرية

تأليف
محمد سعيد العريان

جيل من الناس في أفراحه وآلامه ،
يرى كل قارئ في مرآته صورة من
نفسه ، أو صورة من حوله ، في
إطار قصصى رائع في بيانه وفي فنه .



٢٦٠ صفحة

الثنى ٢٥ قرشاً (البريد ٢٠ ملياً)



الحَقِيقَةُ وَالشَّرِيعَةُ

فِي الْإِسْلَامِ

تاريخ التطور العقدي والتشريعي في الديانة الإسلامية

للمستشرق الكبير

جولدتسيهر

نقله إلى اللغة العربية
وعلق عليه

على حسن عبد القادر
دكتور في العلوم الإسلامية
مدير المركز الثقافي الإسلامي بلندن

عبد العزيز عبد الحق
المدرس بكلية الشريعة
بالجامع الأزهر

محمد يوسف موسى
المدرس بكلية أصول الدين
بالجامع الأزهر

الثمن ٨٥ قرشاً
(البريد ٤٠ ملياً)

ظهر حديثاً
٤٠٠ صفحة



ظهر حديثاً

قصتان

من الادب الروسى الرفيع

المقايير

تأليف

فيدور دستويشفسكى

تعريب شكرى محمد عياد

١٦٩ صفحة

الثنى ١٨ قرشاً (البريد ١٦ ملياً)

*

الحسب الاول

تأليف

إيخان ترجنيف

تعريب محمود عبد المنعم مراد

١٠٤ صفحة

الثنى ١٥ قرشاً (البريد ١٢ ملياً)

تحت الطبع

مدرسة الزوجات

تأليف

أندريه جيد

تعريب صبرى فهمى

تباع كتب
دار الكاتب المصرى
فى المكتبات الشهيرة

وإن أردتم أن تصلكم كتبنا
رأساً بالبريد فارسلوا إلى الدار ثمن
ما تختارون منها مع إضافة أجرة
البريد المحددة .



ليون دوديه

كايخسرو وحياته العاصفة

تعريب حسن محمود



تحت الطبع



طبعة مزينة بالصور

الكاتب المصري

مجلة ادبية شهرية

تصدرها دار الكاتب المصري

شركة مساهمة مصرية

وتطبع بمطبعتها

رئيس التحرير

طه حسين

مكتبة التحرير

حسن محمود

إدارة الكاتب المصري

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة

الاشتراك

يدفع مقدماً باسم « الكاتب المصري »

١٠٠ قرش في السنة لمصر والسودان

١٢٠ قرشاً في السنة للخارج أو ما يعادلها

مجلة الكاتب المصري تعني بكل ما يرد إليها من المقالات
والرسائل ولكنها لا تلتزم بنشرها ولا ردها

التمن بمصر : ١٠ قروش

الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرست

٣٦٩ الساحرة المسجورة	طه حسين
٣٨٥ انطباعات من أوروبا ومن هيئة الأمم المتحدة	محمود عزى
٣٩١ مشكلة أسبانيا	محمد رفعت
٤٠١ الانتداب والوصاية والاستعمار	محمد عوض محمد
٤١٤ الحروب العالمية وموقع مصر	سليمان حزين
٤٢٥ الجناح الأبيض (قصيدة)	ملكة عبد العزيز
٤٢٧ جان بول سارتر ومواقفه	نجيب بلدى
٤٣٥ رحلة في برقة	عزيز سوريال عطيه
٤٤١ الملكة شجرة الدر	محمد عبدالله عنان
٤٥٢ أريتريا - مشاهدات وآمال	مراد كامل
٤٦٣ أبو عبيدة	طه الحاجرى
٤٦٨ مصرع طائر (قصيدة)	خليل هنداوى
٤٦٩ سلطان اللفظ	روجيه كايوا
٤٨١ العراق	بهية فرج الله
٤٨٦ جنابة (قصة)	حبیب الزحلاوى

من هنا وهناك (بشر فارس ، ابراهيم الوائلى ، على حافظ)
 شهرية السياسة الدولية — شهرية المسرح والسينما
 من كتب الشرق والغرب — من وراء البحار — ظهر حديثاً
 فى مجلات الشرق



تصدرها دار الكاتب المصري
 شركة مساهمة مسجلة
 القاهرة

العقيدة والتشريع في الإسلام

تاريخ التطور العقدي والتشريعي في الديانة الإسلامية

للمستشرق الكبير جولدتسيهر

نقله إلى اللغة العربية
وعلق عليه

محمد يوسف موسى	عبد العزيز عبد الحق	علي حسن عبد القادر
المدرس بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر	المدرس بكلية الشريعة بجامعة الأزهر	دكتور في العلوم الإسلامية مدير المركز الثقافي الإسلامي بلندن

أبواب الكتاب :

محمد صلى الله عليه وسلم والإسلام — تطور الفقه
نمو العقيدة وتطورها — الزهد والتصوف
الفرق — الحركات الدينية الأخيرة
ولكل باب حواش من المؤلف وتعليقات من المعربين

كتاب ضخمة يقع في ٤٠٠ صفحة

الثمن ٨٥ قرشاً (البريد ٤٠ مليماً)



جميع الحقوق محفوظة لدار الكاتب للمصرى

الكاتب المصري



أبريل ١٩٤٦

جمادى الأولى ١٣٦٥

مجلد ٢ — عدد ٧

الساحرة المسحورة

فتح الحب العابس لها باب الدنيا ، وفتح الحب الجاد لها باب الآخرة ،
فسلكت بين هذين البابين طريقاً عسيرة بُشت فيها العقاب واكتنفتها المصاعب ،
وملأتها الآلام ، ولم تخلُ مع ذلك من لذة قليلة ، وبهجة ضئيلة ، ومتاع عقلي
متصل . فلما اختطفها الموت قدر الناس أنها قد أورثت بعض القلوب والعقول
حزناً عظيماً وبؤساً ممضياً ، وأصبحت حديثاً من أحاديث التاريخ الأدبي
ستحفظه ذاكرة الأيام وقتاً يقصر أو يطول ، ثم يمسه النسيان قليلاً قليلاً حتى
يمحوه في يوم قريب أو بعيد ، كما محوا كثيراً من الأحاديث لكثير من الناس في
كثير من العصور وفي كثير من البلاد . ولكن القرن التاسع عشر لم يكد
يتقدم قليلاً حتى تبين أنها لم تترك للناس ذكراً فحسب ، وإنما تركت لهم آية
أدبية من أروع آيات الأدب ، لا في وطنها الفرنسي وحده ، ولا في القرن الثامن
عشر وحده ، بل في جميع الأوطان المتحضرة ، وفي جميع العصور التي عُنيت فيها
الإنسانية بالإنتاج الأدبي الرفيع .

هذه هي مدموازيل دي لسبيناس التي أريد أن أحدثك عنها في هذا
المقال ، والتي ولدت سنة ١٧٣٢ وتوفيت سنة ١٧٧٦ . لنفرغ من ذكر الأرقام
التي يظهر أن المؤرخ لا يكون مؤرخاً إلا إذا حفظها وحققها ، واستقصى
ما يتصل بها من الأحداث والخطوب .

واحب أن تعلم منذ الآن أنى لا أريد في هذا الفصل أن أكون مؤرخاً للأدب الفرنسى ، فليست من تاريخ هذا الأدب فى شىء ، وإنما قرأت عن هذه الأنسة فى بعض ما أقرأ فأعجبني حديثها ، فحاولت أن أتعق هذا الحديث فازددت به إعجاباً ، وجعلت لا أمضى فى استقصائه إلا دُفِعتُ إلى مزيد من التعمق حتى أتفتت فى ذلك شهراً وبعض شهر . ولعلى أغالط نفسى بعض المغالطة ؛ فقد أتفتت فى ذلك شهرين أو أكثر من شهرين ، ولم أفرغ منه بعد على كثرة الكتب والمجلات التى تجتمع بين يدي ، وتنتظر أن أفرغ لها ساعة من ليل أو ساعة من نهار . وأنا مع ذلك معرض عنها مُصِرّاً على هذا الإغراض ؛ لأن أحاديث هذه الأنسة ما زالت تدعوني ، وتلح فى الدعاء ، ولأن هذه الأحاديث لا تكاد تنقضى . لا تنتظر منى إذن بحثاً عن التاريخ الأدبى الفرنسى فى القرن الثامن عشر ، ولا تحقيقاً للحوادث ، ولا تحليلاً للنتائج والمقدمات ؛ فما أحب أن أعرض لشيء من ذلك الآن ، وما أكره أن أعرض له فى يوم من الأيام ، ولعلى أن أخصص كتاباً أعرض فيه حياة هذه الأنسة عرضاً مفصلاً دقيقاً ، فأما فى هذا الفصل فليكن تحدتى إليك عنها سهلاً ممتعاً لا يكلفك ولا يكلفنى مشقة ولا عناء ، وإنما نرسل فيه النفوس على سجيته ، وتقف فيه أحياناً عند هذه العاطفة أو تلك وتتعق فى أحياناً أخرى هذا الخاطر أو ذاك . وأنت تعلم من غير شك أن حياة الطبقة الممتازة من الفرنسيين فى النصف الأول من القرن الثامن عشر كانت قد دفعت إلى نوع من الحرية المسرفة يوشك أن يكون إباحة وإمعاناً فى المجون . دفعتها إلى ذلك أشياء كثيرة ، منها حاجة الفرنسيين إلى شىء من الهواء الطلق والتنفس الحر ، بعد أن ثقلت عليهم تلك الحياة التى فرضها حكم لويس الرابع عشر عليهم ، نصف قرن أو أكثر من نصف قرن ، وكلفهم فيها كثيراً من الجهد وعرضهم فيها لكثير من الخطوب ، وحملهم فيها كثيراً من التضحيات . فلم يكد هذا الملك العظيم ينتقل إلى الحياة الثانية حتى أحسن الفرنسيون كأن عبثاً ثقيلاً جداً قد حُطَّ عن كواهلهم ، فأصبحوا أقدر على الحركة ، وأميل إلى النشاط ، وأسرع إلى الاستمتاع بالحياة فى غير تكلف ولا استخفاء . ومنها أن العقل الفرنسى كان قد اتصل بالنهضة العلمية التجريبية كما تأثر بالفلسفة الحديثة التى تحررت من قيود أرسطاطاليس ، فتغير فيه كثير من القيم ، وعرف كثيراً مما كان ينكر ، وأنكر كثيراً مما كان يعرف ، ونظر إلى الحياة التقليدية نظرة

الساحرة السحورة

فيها كثير من السخرية والازدراء . ولم تلبث الحياة العملية أن دُفعت إلى الحرية التي دُفِع إليها العقل ، فأعلن الناس كثيراً مما كانوا يَسْرَوْنَ ، وأظهروا كثيراً مما كانوا يخفون .

ومنها أن الأدب الفرنسي نفسه كان قد أخذ في هذا العصر يضيق بالقيود والقوانين التي قُرِضت عليه أثناء القرن السابع عشر ، ورسمت له طرقاً لا ينبغي أن يعدوها ، ومذاهب لا ينبغي أن يخالف عن أمرها ، تخضع بذلك لمذاهب القدماء من اليونانيين والرومانيين ، كما صورت في إيطاليا أو كما صورها الفرنسيون لا تقسمهم في فرنسا نفسها أثناء القرن السادس عشر وفي أول القرن السابع عشر . فلم يكد عصر لويس الرابع عشر ينتهي أو يقارب الانتهاء حتى ظهر الخلاف ثم اشتد بين القدماء والمُحدثين . وما من شك في أن هناك أسباباً أخرى كثيرة دفعت الطبقة الممتازة في فرنسا إلى استئناف هذه الحياة الجديدة الحرة المأجنة المتهاكة التي ظهرت قوية في عهد الوصاية ، وجعلت تزداد قوة وتسلطاً كلما تقدمت الأيام . وهذه الأسباب تتصل بالسياسة ، وتتصل بالاقتصاد ، وتتصل بالثقافة ، وتتصل بهذا المركز الممتاز الذي أُتيح لفرنسا في ذلك العصر وجعلها أعظم مركز من مراكز الحضارة في أوروبا . ثم تتصل آخر الأمر بهذه العلاقات القوية التي استوثقت بين الفرنسيين وبين البلاد المجاورة لهم ، فجعلوا يرحلون إلى هذه البلاد ويظهرون على ما فيها من ألوان الحياة ، كما جعل أهل هذه البلاد يرحلون إلى فرنسا ويظهرون على ما فيها من ألوان الحياة أيضاً . والواقع من الأمر على كل حال هو أن فرنسا دُفِعت في هذا العصر إلى حياة جديدة تحرر فيها الممتازون من كثير جداً من قوانين الخلق والعرف والدين .

ومولد الأنسة التي أريد أن أتحدث عنها في هذا الفصل مظهر من مظاهر هذا الانحلال ، وأثر من آثاره في وقت واحد . فقد كانت أمها سليلة أسرة نبيلة غنية ، وكان زوجها الكونت دالبون سليل أسرة نبيلة غنية أيضاً . وكان هذان الزوجان قد نعا بالحياة عصراً ورزقاً في أثناء ذلك الولد من الذكور والإناث . ولكن الأمر بينهما فسد — وما كان أكثر ما يفسد الأمر بين الأزواج — فانصلت أسباب الزوجة برجل نبيل غني هو الكونت جيسبار دي فيشي ، ورزقت منه غلاماً انتهت به الحياة إلى التربية الدينية ، وإلى أن أصبح رجلاً من رجال الدين ، ورزقت منه طفلة هي هذه الأنسة التي تتخذها موضوعاً

لهذا الحديث . وقد عُمِّدت هذه الطفلة في كنيسة من كنائس ليون ، ولكن اسمى أبويها قد اختراهما اختراعاً مخافة العار ، فلم تنسب إلى أمها ولا إلى أبيها ، وإنما ذكر للقسيس اسمان من أسماء الطبقة الوسطى العاملة . واطمأنت الأم إلى أن نفس ابنتها قد أصبحت نفساً مسيحية . وما ينبغي أن تقترض أن الأم قد قصرت في ذات ابنتها أو أحبتها حباً فائزاً ، فقد كلفت الأم بابنتها كلفاً شديداً ، وعُنيبت بتربيتها عناية متصلة ، لم تستخف بشيء من ذلك ولم تحتط فيه ، وإنما ضمت ابنتها إليها ، وقامت على تأديبها وتثقيفها ، ومنحتها من حبا وعطفها مكاناً ممتازاً . ولم تقصّر إلا في شيء واحد هو هذا الذي يتصل بالحياة المدنية الرسمية ؛ فهي لم تلحقها بأبيها لأن ذلك لم يكن ممكناً ، ولم تلحقها بأمها لأنها لم ترد أن تعترف على نفسها بالإثم ، وإنما أعطتها اسماً من أسماء الأرض التي كانت ملكاً لأسرتها الخاصة ، فسميت جولي دي لسبيناس ، ومنحتها بعد ذلك كل ما كانت تملك لابنائها الشرعيين من الحب والعطف والإيثار .

على أن المشكلة لم تلبث أن ثارت غير مرة حين تقدمت السن بالفتاة . وربما كان أيسر الأشياء ، أو قل أيسر الخطوب التي عرضت لهذه الفتاة ، أمر مستقبلها حين تقدمت السن بأمها وأخذت تحس أنها تسعى إلى الموت بسرعة ، أو أن الموت يسعى إليها متمهلاً ، كما يتمهل دائماً في سعيه إلى الناس . فلم يكن من الممكن أن ترث الفتاة أمها ، وتشارك في تركتها الضخمة . لم يكن ذلك ممكناً ؛ لأن الأم لم تستلحق ابنتها ، ولأن إخوة الفتاة لأمها يكرهون ذلك أشد الكره ويمنعون فيه أشد المناعة . ولم يكن من الممكن أن توصي الأم لابنتها بشيء ذي خطر يحجبها من حاديات الأيام ؛ فقد كانت الأسرة تراقب هذه الأم وتراقب تصرفها في ثروتها كلما دنت من الموت أو دنا الموت منها .

ولذلك لقيت الأم البائسة من التفكير في مستقبل ابنتها عناء شديداً ، وانهت آخر الأمر إلى أن أوصت لها بإيراد ضئيل ، إن لم يتح لها الترف وخفض العيش فإنه يعصمها من البؤس ، ويكفل لها حياة محتلة .

على أن الأم قد احتالت لإيثار ابنتها ببعض الخير ، فادخرت لها مقداراً من الذهب لأبأس به ، وأظهرت الفتاة على مكانه ، وأسرت إليها أن احتفظ لنفسك بهذا المال حين يدركني الموت . ولكن الفتاة كانت تقيه النفس ، كريمة الطبع ، نزيهة الخلق ، محبة لإخوتها ، فلم تحتفظ لنفسها بشيء ، وإنما أدت إلى أخيها الأكبر كل

شيء . وسنتبين بعد حين أثر هذا كله فيما تعرضت له الفتاة في حياتها من الأحداث . على أن المشكلة الخطيرة التي عذبت الفتاة عذاباً شديداً ، وعذبت أمها عذاباً ليس أقل مما احتملت الفتاة هولاً ، ولعله أن يكون أعمق أثراً وأعظم نكراً ، هي هذه التي ثارت حين أحب الكونت جسبار دي فيشي أبو الفتاة الآنسة ديان دالبون أخت الفتاة لأمها ، فخطبها واتخذها لنفسه زوجاً . ولم تستطع الأم البائسة أن تمنع أو تقاوم ، لأسباب تتصل بالثروة والشرف والعلاقة بين أسر النبلاء . وقد كانت هذه الخطبة وما تبعها من الزواج أساساً للمأساة التي قتلت نفس الأم وعذبت نفس الفتاة عذاباً طويلاً ، وأثرت في الأدب الفرنسي كله آثاراً بعيدة المدى . وهذه المأساة التي لم يتخيلها أحد ولم ينشئها كاتب قديم أو حديث ، وإنما أنشأتها الظروف ومثلتها الحياة ، هذه المأساة ليست أقل روعة من أي مأساة أخرى تصوّرناها القدماء أو المحدثون .

فهناك امرأة ترى عشيقها وأبا ابنيها يخطف ابنتها الشرعية ويتزوجها . فدفع كرامة هذه المرأة ودع شرفها ، وقف عند الصراع العنيف بين حب المرأة لخليتها وحبها لابنتها الشرعية ، وحبها لابنتها الأخرى ، وشعورها بهذا الإثم المنكر وما نشأ عنه من تعقيد بغض في حياة أبنائها ، وعجزها عن أن تقول في هذا كله شيئاً ، أو أن تقاوم هذا كله بشيء ، وإذعانها لحكم القضاء الذي لا مردّ له ولا منصرف عنه ، وعذاب نفسها المتصل حين ترى ابنتها زوجاً لخليتها وزوجاً لأبي أخويها .

ثم قدّر موقف الفتاة نفسها من هذا كله ؛ فقد كانت تشعر به شعوراً غامضاً ، ثم جعل هذا الشعور يتضح شيئاً فشيئاً حتى عرفت الفتاة معرفة دقيقة .

فقدّر موقفها من أبيها الذي أصبح لأختها زوجاً ، ثم قدّر موقفها حين ماتت أمها ، وحين انتقلت إلى قصر الكونت دي فيشي ، فعاشت بين أختها وأبيها . ثم قدّر موقفها حين رزقت أختها الولد فأصبح أبناء أختها لها إخوة قد منحهم الحياة أب واحد . وهي تعيش في هذا كله ، وتحتمل أثقال هذا كله ، وتألم من أعقاب هذا كله ، ولا تستطيع أن تبهر منه بشيء أو أن تنكر منه شيئاً ، أو أن تدفع عن نفسها من آثاره شيئاً .

قدّر هذا كله وحدثني أيهما أروع في التصور ، وأقدر على الابتكار ، وأمر في ابتداع المأساة : خيال الكاتب والشعراء أم خيال الحوادث والظروف ؟

مهما يكن من شيء فقد أتقت الفتاة في قصر أبيها وأختها أياماً طويلاً ثقلاً ، ثم أرادت الظروف أن يزداد بؤسها نكراً حين تقدم إخوتها وأبناء أختها في السن ، فقامت منهم مقام المربية المؤدبة . وقد كانت الفتاة كريمة النفس ، نبيلة القلب ، نقية الطبع ، فأجبت هؤلاء الأطفال حباً شديداً ، وأخلصت في تربيتهم وتأديبهم أتم الإخلاص وأمتنه . واقتضت ظروف الحياة في عام من الأعوام أن يرتحل الزوجان عن القصر في غيبة تطول بعض الشيء ، فقامت هذه الأخت الخالة من إخوتها مقام الأم وشملتهم من العطف والرعاية والحنان بما حمل الأبوين على شكرها حين عادا إلى القصر . ولكن السعادة الخالصة لم تقدر للناس ، وازدراء المنافع المادية لم يُتَحْ لكثير منهم ، والارتفاع عن الظلم والطغيان والبطر لم يقدر إلا لآفراد يُحْصَوْنَ بين حين وحين . فقد كان الزوجان يضيقان بهذه الفتاة على رغم وداعتها وصماحتها ونقاء ضميرها . تضيق بها أختها لمكان هذه الأخوة الآثمة ، ولجورد التفكير في أن هذه الأخوة قد تثير اختلافاً حول المنافع المادية في يوم من الأيام . ويضيق بها أبوها لمكان هذه الأبوة الآثمة ، ولحرصه على المنافع المادية أيضاً بالقياس إلى نفسه وإلى أبنائه ، ولهذا الحرج الثقيل الذي لم يكن بدٌّ من أن يجده بين حين وحين كلما فكر في أن قصره يظل أختين إحداهما امرأته والأخرى ابنته . ولم تكن الفتاة أقل ضيقاً بهذه الحياة المنكرة من هذين الزوجين ، يدفعها إلى هذا الضيق شعورها بهذا الألم الذي يحيط بها والذي لا تحمل أوزاره لأنها لم تقترف منه شيئاً ، وشعورها بهذا الحق المضيق والكرامة المهذرة بين قوم كان من الحق عليهم أن يشملوها بالحب والعطف والحنان . أبٌ من الحق عليه أن يبر ابنته وهو ينكرها ويظلمها . وأخت من الحق عليها أن تؤثر أختها بالمودة ، وهي تعقها وتستأثر من دونها بالخير كله ، وتصرف عنها قلب أبيها ، وتتخذها خادماً أو شيئاً يشبه الخادم . ومن أجل هذا كله أخذ الأمر يفسد شيئاً فشيئاً بين الزوجين وبين هذه الفتاة . وقد احتملت الفتاة ما استطاعت أن تتحمل ، فلما لم تجد إلى الصبر سبيلاً فكرت وقدّرت ، وأزمعت أن تخرج من هذا السجن البغيض .

وكان أمامها طريقان للخروج من هذا السجن : إحداهما يسيرة سهلة ولكنها بغيضة إلى نفسها أشد البغض مناقضة لطبعها أشد المناقضة ، وهي الطريق إلى الدير لتصبح راهبة . وما أكثر الراهبات اللاتي دفعن إلى الدير لا تائراً بالدين

ولا تهالكاً على التقوى ، ولكن تفهمن ظروف الاقتصاد ، أو ظروف الاجتماع عن الحياة العاملة ! ولكن الفتاة لم تكن تطبق التفكير في الدير ولا في الانقطاع للدين ؛ فقد كانت حياتها أقوى وأغزر وأخصب وأكثر بعداً عن التصوف من أن تُعيدّها لهذا الانزواء الخامل الجذب في أعماق الدير . أما الطريق الثانية فلم تكن ميسرة ولا خالية من العقاب . فقد كانت الفتاة تؤدّ لو استطاعت أن تستقل ، وتنعم بحياة حرة لا تخضع فيها لأحد . ولكن كيف السبيل إلى ذلك وإيرادها أضيق من أن يسع حاجاتها ومطالبها ! أليس من الممكن أن يعينها أخوها ذاك الذي يعمل ضابطاً في الجيش والذي أظهر حبّاً لها وعظماً عليها ؟ فلتعتمد عليه إذن ولتكتب إليه . ولكنه يردّ عليها مخيباً أملها ، لا بخلاً ولا فسوة ، ولا تعمداً لا يذاتها ، ولكن ظروفه لا تسمح له بأن يبذل لها المعونة التي ترجوها ، وهو من أجل ذلك يتقدم إليها في ألا تحاول هذا الاستقلال ولا تطمع فيه .

وفي أثناء ذلك تزداد الحياة ثقلاً في القصر ، ويزداد الخلاف نكراً بين الاختين . وتلم بالقصر زائرة ذات خطر ، تواسى الفتاة وتسليها أول الأمر ، وتجد لها مخرجاً من ضيقها وفرجاً من حرجها آخر الأمر ، وهذه الزائرة الخطيرة هي مدام دي ديفان .

ومدام دي ديفان ليست في حقيقة الأمر إلا عمة الفتاة ، نشأت كما نشأ أخوها في هذا القصر ثم اختلفت بهما أسباب العيش ، فتزوجت من المركز دي ديفان ، ثم فرقت بينهما الأحداث ، فسلكت في باريس وفي قصر الوصي على العرش مسالك الريبة والعبث ، واستمتعت بالحياة الملاجنة وقتاً ما ، ثم ثابت إلى نفسها وراجعت أمرها وجددت سيرتها ، واتخذت لها رفيقاً خليلاً من رجال القضاء ، ومضت تدبر حياتها في حزم وجد حتى اكتسبت لنفسها في باريس مركزاً ممتازاً . ثم اتخذت لنفسها داراً ملحقه بدير من الأديار في باريس ، وجعلت تستقبل في هذه الدار أعلام الأدب والفلسفة والسياسة ، حتى أصبح « صالونها » من أهم المراكز الثقافية الممتازة في العاصمة الفرنسية . وقد توثقت الصلات بينها وبين الأعلام الممتازين في الحياة الفرنسية حتى أصبح اسمها عكماً من الأعلام في الحياة الأدبية الفرنسية وفي التاريخ الأدبي الفرنسي بوجه عام . وقد جعلت كلما تقدّمت بها السن تشعر بشيئين يدفعانها إلى التشاؤم دفعاً شديداً : أحدهما مادي

وهو هذا الضعف الذي أخذ يصيب بصرها شيئاً فشيئاً ويصورها لنفسها ضرورة بعد وقت طويل أو قصير . والآخر معنوي وهو هذا البغض لأوضاع الحياة والشك في قيمتها والإينكار لهذه القيمة آخر الأمر ، حتى انتهت إلى مثل ما انتهى إليه أبو العلاء حين قال :

هذا جناح أبي علي (م) وما جنيت علي أحد

فقد كانت تقول إن أبغض شيء في حياة الإنسان هو حياة الإنسان . ولذلك أحست شيئاً شديداً من الضيق ، والتمست إلى العزاء والشفاء وسائل مختلفة ، ومن بين هذه الوسائل زيارتها لقصر أخيها . وفي هذه الزيارة لقيت هذه الفتاة فكلفت بها أشد الكلف ، وأعجبت بها أعظم الإعجاب ، ثم لم تلبث أن رأت في هذه الفتاة رفيقاً لها في حياتها البائسة في باريس . فجعلت تتقرب إليها وتلطف لها حتى ارتفعت بينهما الكلفة ، وأخذت الفتاة تبثها آلامها وأحزانها وتجد عندها التسلية والمواساة .

وقد عادت مدام دي ديفان إلى باريس ، وصحبت الفتاة على ترك القصر ، وفارقتة بعد خطوب ، وأوت إلى دير من الأديار في مدينة ليون ، لم تلتحق به ، وإنما اتخذته لنفسها مثوى كما يأوي الناس إلى الفنادق الآن . وقد أقامت في هذا الدير وقتاً غير قصير ، ريثما تقنع أخاها بحسن رأيها في الحياة المستقلة . وقد كان هذا الإقناع عسيراً ، جدت فيه الفتاة ، وجدت فيه مدام دي ديفان ، وتوسط فيه أحد الأساقفة ، وانتهت الفتاة بعد لاي إلى ما كانت تريد ، وظفرت مدام دي ديفان بعد مشقة بما كانت تتمنى . ووصلت الفتاة ذات يوم إلى باريس واستقرت عند عمتها أو صديقتها في الطابق الأعلى من الدار . وقد فتن المختلفون إلى صالون مدام دي ديفان بهذه الفتاة الوافدة من الأقاليم ، لا لجمالها فلم تكن بممتازة الجمال ، ولكن لظرفها وخفة روحها ورجاحة عقلها ، وسعة معرفتها وقدرتها على المشاركة في كل الأحاديث التي كانت تدور في هذه الاجتماعات .

وما أحب أن أفصل حياة الفتاة في هذه الدار ، فذلك شيء لا يتسع له هذا الحديث ، ولكني ألاحظ أن إقامتها في هذه الدار لم تطل حتى صبت إليها بعض القلوب ، فوجدت في نفسها بعض الصدى ، ولكن في كثير من التحفظ

والاحتشام . صبا إليها قلب هذا القاضى الذى كان خليلاً لعمتها ، وصبا إليها قلب نبيل فرنسى أديب آخر ، وصبا إليها بنوع خاص قلب نبيل إيرلندى كان يختلف إلى الدار ، وهمّت الفتاة أن تصبو إليه ، ولاحظت مدام دى ديفان ذلك فاصطنعت بعض العنف ، وطردت هذا الإيرلندى من دارها . ولم تلبث الفتاة أن ثابت إلى الرشد والحزم ، أو ثاب إليها الرشد والحزم .

على أنها لقيت فى صالون مدام دى ديفان فرنسيًا آخر لم تلبث أن صبت إليه كما صبا إليها ، وإذا حياتها تتغير تغيراً جوهريًا . والغريب من أمر هذا الفرنسى أنه كان يشبهها من بعض الوجوه ، ولعل هذا الشبه أن يكون له أثر فى هذا الود .

هذا الفرنسى هو دالمبير ، والقراء يعرفون من غير شك المركز الممتاز الذى كان دالمبير يشغله فى الحياة العقلية الفرنسية فى ذلك الوقت . فقد كان دالمبير فيلسوفاً وأديباً ورياضياً ، وكان متفوقاً فى هذا كله تفوق النبوغ ، وكانت الأندية الباريسية تختصم فيما بينها أشد الاختصام : أيها يظفر به ويحظى بزيارته . وكان دالمبير ، كما كانت فتاتنا ، قد ولد لأبوين نبيلين سنة ١٧١٧ ، ولكنه ولد مولداً غير شرعى ، كما ولدت الفتاة مولداً غير شرعى . وقد حظيت الفتاة بعطف أمها ، فأما دالمبير فقد فقد هذا العطف فقدماً تاماً . وجده رئيس من رؤساء الشرطة عند كنيسة من الكنائس ، فالتقطه وعمده واتمس له المراضع خارج باريس .

فقدت الفتاة عطف أبيها ، وحظيت بعطف أمها ، وفقد دالمبير عطف أمه مدام دى تنسين ، ولكنه ظفر بعطف أبيه مسيو دى توش . فقد عاد هذا الرجل إلى باريس من بعض المهمات التى كان كلف القيام بها ، فعرف مولد الطفل واطراحه والتقاط الشرطة له ، وجدته حتى اهتدى إليه واتمس له المراضع فى باريس نفسها ، ولم يستطع أن يستلحقه لأنه كان متزوجاً ، فقام على تربيته وأوصى له بما يكفل له حياة متواضعة .

وقد نشأ الصبي نشأة حسنة فى حجر مرضعته الفقيرة ، فدرس حتى تخرج فى الأدب والفلسفة والطب والرياضيات ، وبرع فى هذا كله حتى أصبح عالماً من أعلام الثقافة الفرنسية بل طابعاً لهذه الثقافة فى القرن الثامن عشر .

وكان الود متصلاً بينه وبين مدام دى ديفان ، حتى استأثرت به استئثاراً ،

فلم يكن يختلف إلا إلى صالونها ؛ أو لم يكن يواظب إلا على صالونها . وكانت تأثيره أشد الإيثار وتختصه بمودتها وبرها . ولكنه لقي عندها هذه الفتاة ، فصبا إليها وصبت إليه ، واتصل بينهما ودٌّ لم تلبث صاحبة الدار أن ارتابت فيه ، ثم ضاقت به ، ثم لامت ، ثم عنفت في اللوم ، فاضطر دالمبير إلى أن يسافر من باريس ويذهب إلى برلين ، مستجيباً لدعوة فردريك يلتبس في هذا السفر إرضاء مدام دي ديفان ، وسلوفاً عن مدموازيل دي لسبيناس . على أنه عاد إلى باريس ، فاذا قلبه ما زال كما كان حين ارتحل عنها ، وإذا قلب الفتاة ما زال كما كان حين فارقها .

على أن دالمبير إن اتفرد بحب الفتاة فهو لم ينفرد بإكبارها والكلف بحديثها ، وإنما شاركه في ذلك جماعة من الذين كانوا يختلفون إلى الدار ، فجعلوا يقدمون موعد زيارتهم ويصعدون إلى حيث كانت الفتاة تقيم ، فيتحدثون إليها ويسمعون منها ، حتى إذا كان موعد الاستقبال عند مدام دي ديفان في الساعة السادسة من المساء هبطوا إليها ، وقد عرفت صاحبة الدار هذا الأمر ، فسخطت له أشد السخط ، ونفت عن دارها مدموازيل دي لسبيناس كما نفت عن دارها دالمبير . وأثيرت حرب شعواء بين السيدة والفتاة ، وانقسم الناس في أمرها انقساماً عظيماً ، كانت له آثاره في الأدب الفرنسي . والمهم هو أن أصدقاء الفتاة من الرجال والنساء منحوها كثيراً من العطف والود ، واتخذوا لها داراً غير بعيد من دار مدام دي ديفان ، فأقامت فيها وجعلت تستقبل أصدقاءها . وما هي إلا مدة قصيرة حتى أصبح صالونها ممتازاً في باريس ينافس صالون مدام دي ديفان منافسة خطيرة حقاً .

أقامت في الدار وحدها أول الأمر ، ولكن الظروف كانت تريد أن تجمع بينها وبين دالمبير في دار واحدة . وقد كان دالمبير يعيش عند مرضعه في بيتها الحقيق ، لم يخطر له أن يفارقها ، ولكنه مرض مرضاً شديداً فقامت على تمريره مدموازيل دي لسبيناس ولم تفارقه حتى أتيح له الشفاء .

ثم مرضت مدموازيل دي لسبيناس نفسها ، أصابها الجدري حتى عرض حياتها للخطر ، وقام على تمريرها دالمبير حتى أتيح لها الشفاء .

وكذلك قضت الظروف أن يعيش الصديقان في دار واحدة : تعيش الفتاة في الطابق الأدنى ، ويعيش الرجل في الطابق الأعلى ، وألف الناس منهما ذلك ، فلم

ينكروه ولم يضيّقوا به . والواقع أن هذا الأمر لم يكن فيه ما يدعو إلى ضيق أو إنكار ؛ فقد تحابّب الصديقان ولكن في غير ريبة . ومع أن الألسنة لم تمتنع عن التعريض والتلميح في أول الأمر ، فقد تبين أن الحب بين الصديقين لم ينزل قط عن مكان الحب الأفلاطوني النقي البريء .

ومنذ ذلك الوقت أصبحت مدموازيل دي لسبيناس عالماً من أعلام الحياة العقلية الفرنسية ، وأصبح صالونها مركزاً من مراكز الثقافة العليا في الأدب والفلسفة والفن والسياسة والاجتماع . يختلف إليه مرات في كل أسبوع زعماء الحياة العقلية في باريس ، فيحاورون ويجادلون ويقررون أيضاً . ويختلف إليه في الوقت نفسه أعلام الأجانب الذين يمرون بباريس أو يقيمون فيها إقامة متصلة . من هؤلاء الأجانب أدباء وساسة وفلاسفة ممتازون ، من الإنجليز ، والإيطاليين ، والأسبانيين ، والألمانيين أيضاً . ثم كانت مدموازيل دي لسبيناس وصديقتها دالمبير يغشيان الصالونات المختلفة في باريس عند مدام جوفران ومام دي شوازل ومام نيكرو ومام هلقسيوس ومام دي لكسمبورج ، وعند طائفة أخرى من السيدات اللاتي كن يتخذن هذه الصالونات مراكز للحياة العقلية القوية الخصبية .

في هذا الوقت لقيت مدموازيل دي لسبيناس في أحد هذه الصالونات فتى أسبانياً ممتازاً امتيازاً أجمعت عليه الصفوة الباريسية كلها ، وهو مسيو دي مورا . كان ضابطاً في الجيش الأسباني ، وكان أبوه سفيراً في باريس . لم تكدمدموازيل دي لسبيناس تلتقي هذا الفتى حتى صُبت إليه ، ولم يكدم هذا اللقاء يتكرر حتى وقع حبه في قلبها كما وقع حبها في قلبه . ولم يكن هذا الحب طائراً ولا سطحياً ، وإنما كان من هذا الحب الذي لا يكاد يبلغ القلوب حتى يستقر فيها ويستأثر بها ويملك عليها كل شيء ، ويصبح فتنة لا تمجد النفوس عنه منصرفاً ، ومحنة لا تمجد القلوب إلى التخلص منه سبيلاً . وقد كان هذا الحب محنة بأدق معاني هذه الكلمة ، سعى به العاشقان سعادة تعجز النفوس عن احتمالها وتقصر الألسنة عن وصفها ، وشقى به العاشقان شقاء كان سبيلهما إلى الموت . كان حباً نقيّاً معنّياً في النقاء ، ولكنه على ذلك لم يكتف بنقائه الأفلاطوني وإنما حاول أن يسلك طريقه الشرعية إلى الرضا ، فهمّ العاشقان أن يقتربا ، وقامت دون أمنيتهما هذه أهوال ثقالة . أهوال مختلفة ، بعضها جاء من اختلاف

الطبقة ، فقد كان الفتى من أرفع الأسر الأسبانية منزلة وأعلاها مكانة وأعرقها نسباً وأعظمها ثروة وأوسعها جاهاً وتقوياً . وكانت مدموازيل دى لسبيناس كما علمت لا أسيرة لها وليس لها نسب إلا هذا الذى يعتز به المتنبي فى كثير من شعره ، والذى لا يرجع إلى الأسيرة وما يكون لها من مجد قديم ، وإنما يرجع إلى الشخص وما يستحدث لنفسه من المجد .

فليس غريباً أن تضيق الأسيرة الأسبانية بفكرة الزواج هذه وتراها ضللاً وانحرافاً عن الجادة ، وتقيم فى سبيلها العقاب التى لا يمكن تذليلها .

وليس غريباً أن يصمم الفتى على بلوغ ما أراد ، وأن تثار حرب عنيفة منكرة خفية بينه وبين أبويه . ولو أتاحت الصحة للفتى وواتته الظروف لكان من الممكن أن ينتصر آخر الأمر ، فقد كان حازماً حازماً شديد المضاء ، ولكن الأيام والحوادث كانت أشد منه حزمًا وعزماً وأبعد منه مضاء . أغرت به الأسيرة وأغرت به المرض أيضاً ؛ فقاوم الأسيرة ما وسعته المقاومة وكاد ينتصر عليها ، وقاوم المرض ما وسعته المقاومة ، ولكن المرض انتصر عليه وهو فى طريقه إلى باريس عائداً إليها من وطنه ليتم ما صمم عليه من الزواج .

ولم تصل إلينا الرسائل التى تبادلها العاشقان ، وقد كانت كثيرة ما فى ذلك شك ؛ فقد كتب الفتى إلى صاحبتة اثنتين وعشرين رسالة فى عشرة أيام ، ولم يكن بعيداً عنها ، وإنما كان قريباً منها فى ضاحية من ضواحي باريس . وإنما عرفنا أخبار هذا العشق وخطوبه من رسائل أخرى لمدموازيل دى لسبيناس ومن رسائل تبودلت بين دالمبير وأسيرة الفتى فى مدريد .

على أن أمور مدموازيل دى لسبيناس تعقدت فجأة تعقداً غريباً هو الذى أظهر الأدب على شخصيتها هذه الفذة وأورثه فيها هذا الرفيع . كان عاشقها فى مدريد يقاوم أسرته ويقاوم علته ، ويتخذ من حبه القوى أداة ناجعة لهذه المقاومة . وكانت هى فى باريس تنتظر ، سعيدة بالانتظار شقية به أيضاً ، مشفقة أشد الإشفاق على حبيبها من هذه العلة المرهقة . ولكنها أجابت ذات يوم مع دالمبير إلى ولية من الولايم فى ضاحية من ضواحي باريس ، فى قصر نغم تحيط به طبيعة رائعة قد نسقتها الحضارة والفن أحسن تنسيق ، فجمعت فيها بين ترف المدينة وسذاجة الريف . فى هذا القصر لقيت مدموازيل دى لسبيناس فتى فرنسياً قبيلاً كان الناس قد أخذوا يكبرونه ويعظمون شأنه لأنه أظهر تفوقاً وامتيازاً .

كان ضابطاً في الجيش ، وكان قد أصدر كتاباً في فن الحرب اعجب به المختصون وفتن به المثقفون عامة ، وقيل إن بونايرت كان يصحب هذا الكتاب بعد ذلك في جميع مواقع الحربية الكبرى . وكان هذا الفتى حلو الحديث راجح العقل حسن المحضر لطيف المدخل ، قد جمع إلى براعته في فنه العسكري ظرفاً فاتناً وثقافة واسعة وأدباً رفيعاً ، حتى إن كثيراً من الأدباء والفلاسفة الفرنسيين كانوا ينوون به آمالاً عراضاً ، ويعتقدون أن مسيو دي جيبير سيكون البطل الذي ينتقد فرنسا في يوم من الأيام .

لقيت مدموازيل دي لسبيناس هذا الفتى في ذلك القصر ، فتحدثت إليه وصمعت منه . وأكبر الظن أنها سايرته غير متكلفة في بعض هذه الحقائق الرائعة ، فوق من نفسها وأعجبها حديثه وظرفه وثقافته . فلما عادت إلى باريس قرأت كتابه فازداد إعجابها به وإكبارها له ، ولم تملك نفسها فكتبت إليه تثنى على هذا الكتاب . وأقبل هو يزورها ليشكر لها هذا الثناء . ولم يتصرف من هذه الزيارة حتى ترك في قلب مدموازيل دي لسبيناس جذوة لا سبيل إلى إطفائها . وأصحاب علم النفس والمتعمقون لدقائق الحب وما يثير في القلوب من العواطف والأهواء يستطيعون أن يجيبوا على هذا السؤال : كيف اجتمع السيفان في غمد ، وكيف ائتلف الحبان في قلب ، وكيف قامت الجذوة القديمة التي أوقدها الفتى الأسباني منذ سنين إلى جانب الجذوة الحديثة التي أوقدها الفتى الفرنسي منذ أيام ؟ وقد أجاب جوت على هذا السؤال حين قال في بعض كتبه : « إن القلب الإنساني كبير يسع كل شيء وضعيف يحطمه أيسر شيء » . وقد اختلف الكتاب اختلافاً شديداً جداً في حل هذه المشكلة . وما يعنيني من اختلافهم شيء ، فأنا لا أكتب حديثاً في الحب ، وإنما أقص قصة امرأة جمعت في قلبها بين حبين .

فهي لم تسلم عن فتاها الأسباني ، وإنما ازدادت به تعلقاً ومحبة استمساكاً . ومن الحق أنها دافعت الحب الجديد عن نفسها فلم تستطع ، ثم خادعت نفسها عن هذا الحب فصورته على أنه مودة فلم يغن الخداع عنها شيئاً ، ثم وقفت حائرة ممزقة بين هذين الحبين : نصف قلبها في أسبانيا ، ونصف قلبها الآخر في باريس . أستغفر الله ! بل غرب نصف قلبها إلى أسبانيا وشرق نصفه الآخر إلى ألمانيا ، فقد سافر الكونت دي جيبير إلى ألمانيا والنمسا وكاد يسافر إلى روسيا ، فتبعه قلب

مدموازيل دي لسبيناس أو قل نصف قابها ، أو قل إن شئت إنها جعلت ترسل إليه قلبها أفساطا منجّمة في هذه الكتب التي كانت تكتبها إليه

وقد علمت مدموازيل دي لسبيناس أن قلب صاحبها الفرنسي لم يكن خالصاً وأنه كان يحب سيدة نبيلة أخرى ، وأنه لم يكن يبخل على نفسه باجتناء زهرات الحب واقتطاف ثمرته حين كان ذلك يتاح له بين حين وحين . علمت ذلك فذاقت مرارة الغيرة واصطلت بنارها المحرقة ، وعذبت نفسها وعذبت صاحبها في ذلك عذاباً شديداً ، واستيقنت منذ أحست هذه الغيرة أن قابها لا ينعم بالمودّة الهادئة وإنما يشقى بالحب العنيف .

وما رالت تعذب نفسها وتعذب الفتى حتى استخلصته أو ظنت أنها استخلصته لنفسها من دون النساء . وقد عاد الفتى الفرنسي إلى باريس ، وأختر المرض عودة الفتى الأسباني إليها ، فكانت تلتقي صاحبها الفرنسي في كل يوم تقول له ويقول لها ، والأمر بينهما مستقيم لا يتجاوز النقاء الأفلاطوني البري . والناس يعلمون أنها تكبره وتؤثره بالود ، وأنه يكبرها ويؤثرها بالإجلال . والناس يعرفون ذلك ولا ينكرونه . حتى كان يوم من أيام فبراير سنة ١٧٧٢ ذهب الصديقان فيه إلى الملعب وسمعا فيه الموسيقى ، وكان للموسيقى في نفسها أثر أي أثر ، فلم يتفرقا حتى شربا من تلك الكأس التي لا يعرف الناس أتقدم لشاربيها وحيقاً أم حريقاً ، كما يقول ابن الرومي ، أتقدم إليهم شراباً صفواً أم سمّاً زعافاً . مهما يكن من شيء فقد كان قلب مدموازيل دي لسبيناس ينقسم نصفين : نصف لحب الفتى الأسباني ونصف لحب الفتى الفرنسي . فقد أصبح منذ ذلك اليوم ينقسم أثلاثاً ، ولا يخلص للحب وحده وإنما يقوم الندم فيه بين هذين الحبين مقاماً غريباً ، يشتد ويقسو حتى يخيل إليها أنها آثمة مجرمة قد خانت الرجل الذي تحبه وحده وتؤثره بحبها كله من دون الناس . ثم يضعف ويتضاءل حتى ينسبها نفسها وينسبها كل شيء ويقدمها ضحية متهاكمة متضائلة إلى هذا الحب الآخر الجامع الذي لا يعرف قصداً ولا اعتدالاً . وقد أرادت الحياة أن تمن في القسوة حتى تبلغ بها أقصى غاياتها ، وأن تجعل كل شيء من أمر هذه المرأة غريباً حقاً . ففى نفس اليوم الذي أتمت فيه اشتدت العلة على صاحبها الأسباني حتى بلغت حد الأزيمة المهلكة . وصلت إليها الأنباء بذلك بعد أيام ، فسجلته وسجلت معه ندماً ما أعرف أنه صور في أدب من الآداب كما صور في رسائل مدموازيل

دى لسبيناس . ثم جاءت بها الأنباء بأن صاحبها الأسباني قد مات في طريقه إلى باريس ، فلم تشك في أن خيانتها له قد قتلتها وإن لم يعلم من أمر هذه الخيانة شيئاً . وقد همت أن تقتل نفسها ، ولكن صاحبها الفرنسي ردها عن الموت أو رد عنها الموت . فعاشت بعد ذلك عيشة رائعة مروعة حقاً : تحب كما لم يحب أحد قط ، وتندم كما لم يندم أحد قط ، وتصور ذلك في رسائل لم يكتب أحد مثلها قط . بعض هذه الرسائل تكتب إلى عاشقها الحي ، وبعض هذه الرسائل تكتب إلى عاشقها الذي مات . وهي في أثناء ذلك تعيش عيشتها المألوفة ، تستقبل الفلاسفة والأدباء والساسة وتزورهم ، وتغشى الصالونات وتختلف إلى ملاعب التمثيل والموسيقى ، وتسعى في أن ينتخب فلان أو فلان عضواً في المجمع اللغوي الفرنسي ، وتسعى في أن يحقق هذا الوزير أو ذاك لهذا الصديق أو ذاك هذا الأمل أو ذاك ، وتشارك في النقد الأدبي وفي النقد السياسي وفي كل ما يشارك فيه الأدباء والساسة والفلاسفة ، وتكتب إلى أخيها من أختها وأبيها ، وتعني بأمره عند السلطان وتظهره مع امرأته على باريس .

وتكتب في أثناء هذا كله إلى عاشقها الفرنسي ، أو قل ترسل إلى هذا العاشق قطعاً من النار المدمرة التي لا تبقى ولا تذر ، وقطعاً من النسيم الحلو الذي يملأ القلوب أمناً وسلاماً وغبطة وابتهاجاً . ترسل إليه هذا الكتاب القصير الذي أعجب به سانت بوف والذي لا تؤرخه بيوم كذا من شهر كذا من عام كذا ، وإنما تؤرخه بكل لحظة من لحظات حياتها : «أيها الصديق إنني آلم ، إنني أحبك ، إنني أنتظرك» . وأغرب من هذا كله أن الناس لا يعلمون من أمر هذا الحب شيئاً ، وأن دالمبير الذي يعيش معها في دار واحدة لا يعلم من أمر هذا الحب شيئاً ، وإنما يحس فتورها عنه ولا يجد لهذا الفتور تعليلاً .

وقد قضت ظروف الحياة على الكونت دى جيبيير أن يتزوج ، فتألمت مدموازيل دى لسبيناس واثارت وغضبت ، ثم أذعنت لأنها لم تكن تملك إلا الإذعان ، وقد عاهدت نفسها وعاهدت صاحبها على أن تحترم هذا الزواج وتحترم الفضيلة التي ينبغي أن تظله وتسيطر عليه . وقد وفّت بالعهد واحتملت في هذا الوفاء أهوالاً ثقلاً ، وهم صاحبها ذات ليلة أن يخرج عن هذا الوفاء النقي ، كان يقرأ معها بعض رسائلها إليه ، فصبا قلبه واثارت نفسه وججحت عواطفه وطغت غرائزه ، ولكنها ردتته ردّاً منكراً عنيفاً ، فعاد إلى داره متهاكاً متخاذلاً ، وكتب إليها من

ساعته معتذراً نادماً ، ووصل إليها كتابه فاذا هي غارقة في دموعها لأنها كلفت نفسها من الجهد فوق ما تطيق . والفتى يحب لزوجته ، مستبق صلته مع خليلته الأولى في غير إثم كما يقال . ولكن مدموازيل دى لسپيناس تكتب إليه : «ضعنى حيث شئت من حبك القديم ومن حبك الجديد ؛ فلن اقول شيئاً ، ولكن اجتهد فى ألا تنزلنى منزلة مخزية فانى لا أستحق هذا الخزى» .

وقد أخذت العلة تسعى إلى مدموازيل دى لسپيناس ، وأخذت هي تستبطن الموت ، حتى إذا تقدمت العلة فغیرت من شكلها ومن جسمها أوت إلى غرقها ثم إلى سريرها ، ثم أبت أن تلتقى صاحبها لأنها لم ترد أن يراها وقد تغير شكلها على غير ما يهوى .

أبت أن تلقاه ، ولكنها مضت فى الكتابة إليه إلى آخر لحظة . كان يعودها مراراً فى كل يوم فتعلم بمكانه من دارها ، وتسعى الكتب بينها وبينه ، حتى كان آخر شيء كتبتة وهي فى آخر لحظة من لحظات الدنيا وأول لحظة من لحظات الآخرة كتاب حمل إليه ، ولم يكديبلغه حتى كانت تحتضرة تعالج سكرات الموت . وقد ماتت مدموازيل دى لسپيناس ومضت على موتها أعوام وأعوام ، ومات الكونت دى جيبيير أيضاً ، ثم عرف الناس فى أول القرن الماضى وعرف من بقى من أصدقائها أمر ذلك الحب حين نشرت رسائلها إلى الكونت دى جيبيير . وكم كنت أحب أن أتحدث عن هذه الرسائل ، ولكنى لم أكتب هذا الفصل إلا لأغرى القراء بقراءتها فى أصلها الفرنسى وبترجمتها إلى اللغة العربية . فما أعرف أن أدباً من الآداب الحية أو القديمة قد صور الحب والندم والألم والغيرة كما صورتها مدموازيل دى لسپيناس .

طه حسين

انطباعات من أوروبا ومن هيئة الأمم المتحدة^(١)

كنت معتزماً منذ الصيف الذي أمضيته في بلاد الشام، في فلسطين وسوريا ولبنان — أن تكون رحلتي في الشتاء إلى السودان . لكن تحديد اللجنة التحضيرية لهيئة الأمم المتحدة في الأسبوع الأول من شهر ديسمبر اليوم العاشر من شهر يناير بعده موعداً لانعقاد الجمعية العامة الأولى لتلك الهيئة من ناحية ، وتوقائي إلى « الانغماس » في البيئات الدولية التي استمرت اجتماعاتها في مؤتمرات الصلح والاقتصاد ونزع السلاح ودورات عصبة الأمم خلال ربع القرن المنقضى والتي حرمت منها أطول من ست سنين من ناحية ثانية ، دفعا بي فجأة من اتجاه الجنوب على دفئه إلى اتجاه الشمال على برده ، وقضيت الثلاثة الأسابيع الأخيرة من يناير وشهر فبراير والأسبوع الأول من شهر مارس في لندن وبروكسل وباريس أزور هذه للمرة الأولى بعد الحرب ، وبعد غيبة اثنتي عشرة سنة عن الأولى ، وست سنوات ونصف السنة عن الثانية والثالثة . وقد تتبعت طوال إقامتي في لندن اجتماعات هيئة الأمم المتحدة ولاحتقت أعمال مختلف مجالسها ولجانها ، وحضرت في بروكسل يوم الانتخابات البلجيكية العامة وما سبقه من خمسة الأيام الأخيرة من فترة الحملة الانتخابية ، وزرت باريس أو أدت فيها مناسك حجى إلى كعباتها الجامعية والدستورية والفنية وما يتخللها من تيارات اجتماعية منبعثة من حركات المقاومة والتحرر وإعادة التنظيم . ثم عدت بعد ذلك كله بانطباعات عن ثلاث من دول أوروبا الغربية يعملن في

(١) أعجبت مدة إقامتي في العراق ببعض تعبيرات يجري بها الاستعمال هناك وتدل على معانيها دلالة أقوى من دلالة معاني مقابلاتها في الاستعمال المصري أو الشامي ، وبينها التعبير بـ « الانطباع » للدلالة على الأثر الذي يتركه المشهد أو الحديث في النفس ، فأثرت استعماله اليوم ترجمة لكلمة Impression الفرنسية أو الانجليزية .

سبيل التغلب على ما أصابهم من ويلات الحرب ، وعن هيئة الأمم المتحدة التي تحاول إقامة العلاقات الدولية على أسس جديدة .

أما العواصم الثلاث فقد تجلّى لي خلال ما شهدت فيها وماخبرت أن الإنجليز والبلجيكيين والفرنسيين قد أنهكت الحرب أجسامهم وتقوسهم إنها كما في عموم وإن كانت نسبة هذا الإنهاك وأثره في القدرة على رد الفعل يختلفان عند كل فريق باختلاف ملابساته . وقد كانت هذه الحرب هي الأولى التي تفاجىء الإنجليز في جزيرتهم بعد قرون كانت الحروب التي ساهموا فيها طوالها تقع خارج ديارهم . وكانت هي الأولى التي تستعمل فيها القذائف الموجهة التي تصيب الناس من حيث لا يعلمون . وكانت هي الأولى التي تكشف فيها للفرنسيين أنواع وأنواع من كوامن الفوضى والتواكل والاتزلاق إلى مهاوى الخيانة التي كان سوسها ينخر في عظامهم قبل الحرب ذاتها بشهور وسنين . وكانت هي الأولى التي ذاق فيها البلجيكيون مرارة القسوة « النازية » المنظمة وإن لم تكن هي الأولى التي عرفوا فيها نكبات الاحتلال الأجنبي . ولذلك فقد كانت أعصاب الإنجليز هي التي تأثرت ، وكانت نفسية الفرنسي هي التي مُسّت ، وكان البلجيكي هو الذي عملت « مناعته » ، التي اكتسبها من تعاقب الاحتلالات ، على أن يكون أسبق من زميليه إلى العمل والاستعادة .

لاح لي الإنجليز خلال الأسبوع الأول من إقامتي في لندن أن قد أصابهم جميعاً « مس » . أولئك المتحجرون يكثرون تحريك أيديهم والتلويح بأذرعهم ، وأولئك المتشدون يتجهون يميناً ويصححون بعد لحظة اتجاههم يساراً ، يخرجون من الفندق ثم يدخلون إليه مع لقات الباب الدائر . وهم مع هذا وذاك وعلى مقدراتهم على الاحتمال بدءوا يتيهون في دياجير القلق على مستقبلهم ، وبدءوا يتأخون اليأس من استرداد رخائهم ، بل بدءوا يلسمون ما يتهددهم من حرمان على ما يطلب إليهم توفيره في الانتاج لكن ليكون محل تصدير يستهلكه الأجنبي في الخارج على ميسر حاجة الإنجليز إليه في الداخل . وهم من أجل ذلك قد أخذوا يتساءلون : « هل من ضرورة للعمل ؟ وهل من مصلحة في بذل الجهود ؟ » . وبينما هم يعتمدون في استئناف نشاطهم على « القرض الأمريكي » ، إذا ببعضهم يدعو الله ألا تقر الولايات المتحدة طلب القرض ؛ لأنهم يعتقدون أنهم به وبعده سيصبحون عبيداً للأمريكيين على حين هم يؤمنون بنوع من المعجزات

قد يدركهم وينشلهم من همتهم . وفي انتظار المعجزات تبذل الحكومة الإنجليزية جهوداً جبارة في سبيل التفاهم السياسى ، أو في سبيل النفوذ السياسى عن طريق التفاهم حيث لا يجدى طريق العنف ، مع البلاد التى تحسبها لازمة لها لزوماً اقتصادياً . وإذا كان شىء من التميز بين سياسة العمال الذين يتولون الآن الحكم فى إنجلترا . وسياسة المحافظين التى كانوا يتولونها قبلهم لا يستين فى وزارة الخارجية البريطانية ، فان تباين السياسة الاقتصادية والاجتماعية بين الناحيتين منجل فى وضوح . والعمال ملحون فى « تأميم » أكثر ما يستطيعون من وسائل التداول والاقتصاد . وقد فرغوا من تأميم بنك إنجلترا ، وهم يجدون الآن فى سبيل تأميم مناجم الفحم ووسائل النقل الحديدية والبرية والبحرية والجوية . والواقع أن ميلاً إلى اليسار يتضح فى البيئة الإنجليزية على العموم ، وإن كان هذا الميل لم ينجح بعد فى تقريب مسافة الخلف بين الشيوعيين والاشتراكيين . وقد حدث أن تقدم الحزب الشيوعى لحزب العمال بطلب اندماج الهيئتين فى منظمة واحدة عن طريق انضمام الشيوعيين إلى حزب العمال ، فرفض العمال الطلب — وكان رفضهم هذا للمرة الثامنة فى تاريخ محاولات التوفيق بين الجانبين — معلنين أن خير ما يتبقى للشيوعيين « إنما هو أن يحلوا حزبهم وأن يتقدموا أفراداً بطلبات انضمام ينظر مجلس إدارة حزب العمال كل واحد منها على حدة » . لكن الشيوعيين لم يياسوا وهم يعتبرون هذا الرفض صادراً عن اللجنة الإدارية لحزب العمال وحدها ، وسيعرضون الأمر على مؤتمر النقابات — وهو مؤتمر حزب العمال العام — حين ينعقد قريباً .

وأما فى باريس فالذى شاهدته لأول وهلة إنما هو الصخب وإنما هو الضجر . فلم أسمع غير شكوى ، ولم أنصت إلا إلى تفكير فى مغادرة البلاد إلى « أميركا الجنوبية » . على أنك إذا حلت الشكوى وجدتها شكوى نظرية يشترك الشاكي فى المسئولية عن الشكوى التى يضح بها . فالضحيج يعلو من « السوق السوداء » ، لكن هذا الضحيج يصحبه فى الوقت عينه عرض لأصناف تجلب من السوق السوداء . وإنه ليخيل لك — وقد خيل لى بالفعل — أن فرنسا كلها « سوق سوداء » يشترك فيها الفرنسيون جميعاً ويشكون من قيامها جميعاً . . . وإذا كانت السوق السوداء لا تخلو منها بلد من بلاد أوروبا فى هذه الأوقات فانها فى فرنسا تقوم تحت حماية السلطات العامة ، وأكاد أقول وباشتراك هذه

السلطات أيضاً ، في حين أنها في إنجلترا تعرض المقرب منها لأقصى أنواع العقاب .
وحادثان اثنان وقعا قبيل سفرى من باريس بيومين اثنين ، يكفيان للدلالة على
ما انحدرت إليه الأحوال هناك . فقد قبض على عديد من الرؤساء في محافظة
باريس متهمين بالاتجار برخص القيادة والنقل وما إليها من إشارات للسيارات
الصغيرة والكبيرة ، وحدث في اليوم عينه أن دقت النواقيس في عاصمة
« بريتاني » إعلاناً لسر كان متفقاً عليه هو أن موعد القطار الذى يحمل مندوبى
مصلحة الضرائب والمراقبة الاقتصادية المكلفين بالتفتيش على حسابات التجار
من أجل تحديد أرباحهم الاستثنائية قد حل . وإذن فقد هرع التجار ومن إليهم
من أهل المدينة إلى محطاتها وجاؤوا بالقوة دون نزول أولئك المندوبين من القطار
وأكرهوهم على العودة من حيث أتوا ، دون أن يمكنوهم من تأدية واجبهم ؛
لأنهم لا يريدون أن يدفعوا ما يفرضه القانون على أرباحهم الاستثنائية
من ضريبة .

وإذا كانت مظاهر الفوضى هي البادية خلال مثل تلك المواقف بين
الفرنسيين فإن في العاصمة الفرنسية مكاناً يشع منه نور يرى فيه الناس دلالة من
دلالات الأمل في قرب انتظام الأمور ، وهو مقر مجلس النواب الذى تجتمع
فيه الجمعية التأسيسية التى تمضى مسرعة في وضع الدستور الجديد الذى سينبعث
منه استفتاء جديد تتلوه انتخابات جديدة تقوم على أثرها هيئة نيابية جديدة .
وقد عملت الجمعية التأسيسية حتى الآن بروح التغلب على كل صعوبة تقوم في
وجه التوفيق بين مختلف وجهات النظر ، وإن كان البادى هناك أن تيار الاتجاه
إلى اليسار يكاد يكون جارفاً .

على أن الباريسى وسط كل تلك الكوارث التى داهمته لم ينس خاصيته ، ورغم
حرمانه المادى لم ينس غذاءه الفنى ؛ فالمسارح خاصة والمقاعد فيها مبيعة إلى
أسبوعين ، ولو أن دور اللهو التى كانت متفشية في باريس قد هجرت ، والحكومة
تضيق الآن عليها الخناق فتفرض عليها الضرائب باهظة وتحدد ساعات قليلة
لنشاطها . لكن المعارض الأدبية والفنية متتابعة ، ودور الموسيقى محل إقبال
لا مثيل له ، وكذلك المحاضرات والمكاتب . . . ثم إن « السوربون » لا تزال
هى « السوربون » !

أما بروكسل فتختلف الحياة فيها اختلافاً بيناً عن لندن وباريس . فأهلها

تنطق مغنوياتهم بحب العمل وبالإقدام في سبيل الإنتاج لأجل هناءتهم وهناءة بلادهم . وقد كان لبلجيكا حظ اتصالها بالأميركيين عند التحرر ، فقامت لهم بأعمال حربية وأدت لهم خدمات اقتصادية ، أصبحت من جرائها دائنة للولايات المتحدة ، بل الدائنة الوحيدة للولايات المتحدة ، فكسبت عطفها وجاءتها البضائع الأميركية والمواد الغذائية الأميركية تترى ، فانتعشت الحياة الاجتماعية فيها وأصبحت بروكسل تغص مطاعمها بالآكلين و « مبايرها » بالشاربين ، وأصبحت حوانيتها آهلة بأدوات الاستهلاك الضرورية والمترفة أيضاً .

على أن هذا الهناء المعنوي والرخاء الاقتصادي يشوبهما ارتباك سياسي له مضاعفة اجتماعية . ويرجع الارتباك السياسي الذي تجلّى خلال الانتخابات العامة إلى موقف الأمة البلجيكية من الملك ، وقد اتضح أن « الفلمنك » يريدونه وأن « الفالون » لا يريدونه ، وأن الاشتراكيين والشيوعيين أنفسهم لا يعادون « الملكية » في ذاتها بل يريدونها نظاماً لبلجيكا ، لكن شخص الملك هو الذي يعارضونه . وقد أدى هذا الارتباك إلى قيام أزمة تأليف الوزارة المنبعثة من الانتخابات الجديدة مدة طويلة . وأما المضاعفة الاجتماعية فستندة إلى ما يبدو من منافسة قوية بين الاشتراكيين والشيوعيين . وهم مضطرون لأن يتعاونوا لمقاومة أحزاب اليمين وإن كانوا في تعاونهم يتكارهون .

تلك هي الانطباعات العامة التي أعود بها من العواصم الثلاث عن حالات الدول الثلاث . أما هيئة الأمم المتحدة ، فقد كان انطباع الأسبوع الأول من أسابيع دورتها الأولى التي دامت من العاشر من شهر يناير إلى السابع عشر من شهر فبراير انطباع أمل وثقة . ذلك بأنه كان أسبوع الخطب التي انطوت على الترحيب بالمولود الجديد ، وتضمنت الوعود بالعمل لخير العالم الجديد . لكن ما كاد ذلك الأسبوع الأول ينقضي وما كادت المجالس واللجان تتناول أعمالها حتى لاح في الأفق أن « الليلة شبّهة بالبارحة » وأن « الأمم المتحدة » لا يميزها عن « عصبة الأمم » إلا أن المناقشات تجري فيها علنية . أما الرغبة في سيطرة « العظميات » على الصغيرات فواحدة ، وأما الخلافات على هذه السيطرة وما يراود وراءها من نفوذ فواحدة ، وأما سياسة وخز الأير فواحدة ، وكذلك التلويح بطريقة التفاهم على حساب الغير واحد .

انطباعات من أوروبا ومن هيئة الأمم المتحدة

لكن العلنية التي تمتاز بها « الأمم المتحدة » قد كان من شأنها أن جعلت مناقشاتها في متناول المفكرين بمجرد حصولها ، فكنهم ذلك من التعليق عليها في حينها . ويلوح لي أن سيكون لهذا الوضع أثره في دفع « العقلين » في مختلف البلاد إلى الإحساس بأن عليهم أن يرفعوا فكرة التعاون العالمي وأن يحولوا دون تعكير صفوها من جانب الطامعين النهمين من رجال الحكم .
وسيكون هذا طريق السلامة .

محمود عزمي

مشكلة أسبانيا

لا يقتصر التاريخ في أسبانيا على أن يعيد نفسه كما يقولون ، بل إنه يعيد نفسه مراراً ويناقض نفسه تكراراً . فما من بلد تواترت أحداثه وتشابهت ، وتباينت آراء أهله وتناقضت ، مثل أسبانيا بما حفل به تاريخها من ثورات وحروب وتطورات متشابهة حيناً ومتناقضة حيناً آخر . وهل هناك بلد مثل أسبانيا ازدهر فيه الإسلام ونمت أصوله وفروعه وانتشرت آدابه وعلومه ونُفذت أحكامه وتعاليمه أكثر من خمسمائة عام ، ثم لم يكد المسلمون يبعدون عن البلاد على أثر ارتدادهم أمام هجمات الإمارات المسيحية الناهضة في شمال أسبانيا حتى غشيت البلاد صيحة الكنيسة الكاثوليكية ، فلكت على الناس عقولهم وتحكمت في آرائهم وحریاتهم ، ونشطت بين ظهرانيم محاكم التفتيش فقضت على ألوف الأبرياء من المسلمين واليهود والمسيحيين الأحرار ، لا لذنوب اقترفوها سوى أنهم أطلقوا لأنفسهم حرية الفكر والاعتقاد مخالفين بذلك الوحدة الدينية الكاثوليكية التي اعتنقها الناس وتضافرت الكنيسة والحكومة على تحقيقها ولو أدى ذلك إلى إحراق الأفراد ومحاربة الشعوب .

وهل مثل أسبانيا أمة واثتها الفرصة فامتلكت في أوروبا الأراضي المنخفضة ونابلي والبرتغال ، ووافها الحظ السعيد فكشف لها كرسنوف كولب عن أمريكا وصارت إليها خيرات الدنيا الجديدة وما في أرضها من ذهب وفضة ومعادن أخرى احتكرت أسبانيا استخراجها ونقلها إلى بلادها ، حتى أصبحت في فترة وجيزة سيدة البحار وأكثر بلاد العالم مالا وأعز نفراً . ولكن ما كاد أهل البلاد يرتعون في بحبوحة هذا النعيم وذلك الثراء المفاجئ حتى أخذوا إلى الدعة والبذخ وأسرفوا في الاستهلاك بقدر ما أهملوا في الإنتاج ، واستولى عليهم الغرور فاستكبروا وظنوا أن محاكم التفتيش قد تيسر لهم الوحدة السياسية كما يسرت لهم الوحدة الدينية ، فأقاموها في الأراضي المنخفضة لحاكمة الثوار الذين

آزرتهم إنجلترا. وما هي إلا سنوات قلائل حتى تحرك أسطول أسبانيا العظيم المعروف «بالأرمادا» يغزو سواحل إنجلترا، فكانت الهزيمة الماحقة وكان السقوط والانحدار من شامخ المجد إلى الدرك الأسفل.

وبقدر ما كان ارتفاع أسبانيا خاطفاً وعظيماً كذلك كان اضمحلالها شاملاً وسريعاً، فجعلت تفقد ممتلكاتها واحدة تلو أخرى، مبتدئة بالأراضي المنخفضة والبرتغال في القرن السابع عشر، ثم بنابلي في أوائل القرن الثامن عشر، وما انتهى القرن التاسع عشر حتى كانت أسبانيا قد خسرت مستعمراتها في أمريكا الجنوبية والوسطى والشمالية، ولم يبق لها سوى جزر الفلبين في الشرق الأقصى، وكوبا وبورتوريكو في أمريكا. وهذه البقية لم تلبث أن وقعت أيضاً غنيمة سهلة في يد الولايات المتحدة عقب انتصارها في الحرب الأمريكية الأسبانية في نهاية القرن الماضي.

على أن أسبانيا على رغم ما أصابها من ركود وضعف وخمول لم تزل طوال تلك القرون إلى الآن مصدراً لآزمات دولية حادة أدت في أكثر من مرة إلى إثارة الحروب بين الدول.

١ — في سنة ١٧٠٠ مات شارل الثاني آخر ملوك أسرة هابسبرج في أسبانيا دون أن يعقب من يخلفه، فقامت بين الدول حرب ضروس هي حرب الوراثة الأسبانية التي استمرت إلى سنة ١٧١٣، وفيها وقعت قلعة جبل طارق الشهيرة في أيدي الإنجليز، وانتهت الحرب بأن اعتلى عرش أسبانيا أمير من أسرة البوربون هو حفيد لويس الرابع عشر ملك فرنسا، ومن ثم نشأت الصلة الوثيقة التي ربطت بين أسبانيا وفرنسا إلى زمن قريب.

٢ — وفي سنة ١٨٠٨ صمم نابليون وكان في أوج سلطانه على التدخل في شؤون أسبانيا وتعيين أخيه يوسف ملكاً عليها، فأسر ملكها فرديناند السابع ودخلت قواته مدريد، وقام الشعب الأسباني بأول ثورة قومية في أوروبا ضد نابليون، فكانت هذه مقدمة لهضة شعوب أوروبا ضد النظام الذي فرضه نابليون عليها بالقوة.

٣ — وفي سنة ١٨٢٢ قامت في أسبانيا ثورة عسكرية ضد فرديناند السابع لحنثه في يمينه وعدم احترامه لدستور سنة ١٨١٢ الذي وضعه الثوار، فاستنجد فرديناند بمؤتمر الدول الذي انعقد في فيرونا، فقامت فرنسا بقمع الثورة ودخل

مشكلة أسبانيا

الجيش الفرنسي أسبانيا وأعاد الملك إلى عرشه وبقي محتلاً البلاد ست سنوات .
٤ — وفي سنة ١٨٣٣ مات الملك فرديناند السابع ولم يعقب سوى ابنة صغيرة ، فانقسمت أسبانيا إلى معسكرين عظيمين جعلاً يتنازعان السيطرة في البلاد : حزب يناصر الملكة الصغيرة إيزابلا الثانية ومعها أمها ماريا كريستينا الوصية على العرش ، وحزب يناصر أخا الملك دون كارلوس الذي اعتبر نفسه صاحب الحق الشرعي في التاج مستنداً إلى أن النساء ليس من حقهن أن يعتلين العرش . وكان الجيش وأهل المدن والأحرار عامة ينتمون إلى الملكة ومن ورائهم الحكومتان الفرنسية والإنجليزية ، وكان رجال الدين والأشراف والفلاحون ينصرون دون كارلوس وتسندهم الحكومات الرجعية في وسط أوروبا . ومن ثمة شبت أول حرب أهلية في البلاد ، فعتت الفوضى وملئت البلاد رعباً ، وأخذ كلا الجانبين يتنافسان في التنكيل بمعارضيهن وصب الكوارث على رءوسهم حتى أقفرت البلاد ووقف دولا ب الأعمال . واستمر هذا التطاحن الخيف ست سنوات انتهت بانسحاب الكارلوسيين ، وبقيت الملكتان وبطاتهما يقترفون من الشرور والآثام ما لطح التاج الأسباني بالوحل ودنسه بالعار .

٥ — وفي سنة ١٨٦٨ ثار الشعب على الملكة إيزابلا فنفيت من أسبانيا ، وسارعت أسرة هو هتلرن في بروسيا إلى ترشيح أمير من أمرائها لاعتلاء عرش أسبانيا . فما كاد هذا الخبر يصل إلى مسامع نابليون الثالث إمبراطور فرنسا حتى ثارت ثائرتة وخاف أن تصبح فرنسا محصورة بين نارين تشعلهما أسرة هو هتلرن من بروسيا شرقاً ومن أسبانيا جنوباً ، فكلف سفيره في برلين أن يحتج على هذا الأمر وأن يطلب إلى ملك بروسيا أن يسحب ترشيح الأمير البروسي رسمياً ، وأن يعد بعدم ترشيح أمير بروسيا لعرش أسبانيا مرة أخرى . وكان هذا الموقف داعياً إلى إثارة الحرب الفرنسية البروسية التي انتهت بهزيمة فرنسا وكانت من أقوى البواعث على إثارة الحرب العالمية الأولى .

ولقد استعادت أسبانيا عقب الحرب الفرنسية البروسية أسرتها الملكية بعد تجربة قصيرة لحكم الجمهورية الأولى ، فأقامت سنة ١٨٧٤ الفونس الثاني عشر ابن الملكة إيزابلا ملكاً عليها ، وكان على نقيض أسلافه ملكاً مصلحاً اكتسب وهو في المنفى مع أمه خبرة وصلابة ودوراً ، فبدأ في أسبانيا عهد

مشكلة أسبانيا

إصلاحات شملت جميع مرافق البلاد ، وأهمها توطيد الأمن بالقضاء على العصابات الكارلوسية ، وتهدة العناصر المتطرفة بإعادة الدستور والحكم البرلماني وإصلاح مالية البلاد والنهوض بالصناعة والتجارة . ولما مات في سنة ١٨٨٥ كانت شؤون البلاد الداخلية والخارجية قد استقرت بدرجة ساعدت الملكة الوصية على مواصلة العمل في جو هادئ لم تفسده الثورات والانقلابات . ولم يخلف الملك في حياته وارثا للعرش ، ولكن حدث بعد وفاته بستة أشهر أن وضعت الملكة وارثا ذكراً هو الفونس الثالث عشر .

واستمرت حركة الإصلاحات يقوم بها الوطنيون من الأحرار والمحافظين الذين جعلوا يتناوبون الحكم تباعاً ، وقدموا لوطنهم في تلك الفترة أجل الخدمات . ومع أن الحرب الأمريكية الأسبانية التي نشبت في سنة ١٨٩٨ قد انتهت بضياع أملاك أسبانيا في عرض البحار كما قدمنا ، فإن هزيمة أسبانيا وإذلالها في نظر الدول قد خلق في الأسبان روحاً جديدة حفزتهم إلى العمل بعزيمة صادقة للنهوض من كبوتهم واستعادة تالدهم . وما هي إلا سنوات قلائل حتى زحرت أسبانيا بطائفة من كبار الكتاب والعلماء والمؤرخين والفنانين . وافتتحت المناجم ووفدت على البلاد رؤوس الأموال الأجنبية ، فقامت المصانع والمعامل وراجت الأسواق . وبعد أن كانت أسبانيا ركناً منعزلاً في جنوب أوروبا الغربي لا تكاد الدول تحس وجوده بل تراه جزءاً خاملاً أقرب صلة بإفريقية منه بأوروبا ، عادت أسبانيا في أوائل القرن العشرين أمة عزيزة الجانب لها مكاتبا بين الدول . فلم يكذب ينشب الخلاف بين الدول بشأن مراكش حتى وجدت فرنسا أن من مصلحتها أن تعقد معاهدة مع أسبانيا في سنة ١٩٠٤ كما عقدت معاهدة الاتفاق الودي مع إنجلترا . واعترفت فرنسا لأسبانيا في تلك المعاهدة بامتداد نفوذها في المنطقة الشمالية الغربية من مراكش ، وفيها ميناء سبتة ذات الموقع الاستراتيجي الخطير أمام جبل طارق .

ولما قامت الحرب العالمية الأولى احتفظت أسبانيا بحيادتها ، ونالت من وراء ذلك كسباً مادياً ودولياً ، إذ نشطت فيها حركة التجارة والنقل وخطبت ودها الدول المتحاربة . وكانت الحكومة ورجال الأعمال والطبقات الوسطى تميل إلى جانب الحلفاء على حين كان رجال الجيش والكنيسة ينحازون إلى جانب ألمانيا . فلما انتهت الحرب بانتصار الحلفاء كانت أسبانيا في مقدمة الدول التي

مشكلة أسبانيا

دعيت لتأسيس عصبة الأمم، وأخذ شأنها الدولي يكبر حتى فازت بمقعد في مجلس العصبة.

غير أن انتصار المبادئ الديمقراطية بعد الحرب وظهور الحركة البلشفية في روسيا واطراد تقدم البلاد من الوجهتين الصناعية والعالية، قد أدى إلى انتشار المبادئ الاشتراكية في بيئات المدن الصناعية، فترح إلى البلاد عدد من الفوضويين ونشأت جماعات متطرفة نادت بالجمهورية وإلغاء الرهينة والأديار والجماعات الدينية الكاثوليكية، وتضاعف عدد هذه الجماعات المتطرفة في أسبانيا، على أثر تأميم التعليم في فرنسا ومنع رجال الدين من مزاولته، كما زادت ثورة البرتغال ضد الملكية في سنة ١٩١٠ قوة إلى قوتهم. وقد تفاقمت الحال وازدادت سوءاً بسبب اشتغال ضباط الجيش بالسياسة ومحاولتهم تنفيذ رغباتهم بالقوة، وكان لما أصاب الجيش من الخزي والتخاذل أمام قبائل الريف في مرا كش الأسبانية أثره في نشوء حركات في داخل الجيش. يضاف إلى ذلك ظهور الخلافات المتأصلة بين أهل الشمال وهم سكان المناطق الصناعية وأهل الجنوب وهم المشتغلون بالزراعة، ثم رغبة إقليم كتالونيا في شمال شرقي أسبانيا في الانفصال عن أسبانيا، وهو إقليم له لغته وتاريخه واقتصادياته وفيه ميناء برشلونة المشهور. ويبلغ عدد سكان هذا الإقليم ستة ملايين من مجموع سكان أسبانيا الذي يبلغ ٢٥ مليوناً.

لكل ذلك لم يكن عجيبياً أن يعم السخط والتمرد، وأن تكثر الاعتداءات على الملك وعلى الوزراء — وقد اغتيل منهم في هذه الفترة عدد غير قليل — وأن يشتد النزاع بين الحكومة ورجال الدين، وبينها وبين جمعيات الجيش الدفاعية. وقد دما ذلك كله في النهاية إلى ظهور الدكتاتور الأسباني الأول بريمو ده ريفيرا Primo de Rivera في سنة ١٩٢٣.

وقد كان ده ريفيرا قائداً حريصاً لمنطقة كتالونيا، وكان معروفاً بكفايته وغيرته الوطنية، فنادى بالثورة على الحكومة وهدد الوزراء باعتقالهم إذا لم يتخلوا عن مرا كزهم. وجاء الملك من مصيفه في سان سبستيان وعينه رئيساً للحكومة، وأطلق عليها حكومة الإدارة، فألغى الوزارات وعطل الدستور وأعلن الأحكام العرفية مع ما يقتضيه ذلك من منع المظاهرات وفرض رقابة شديدة على الصحف. وقد سار ده ريفيرا في حكمه سيراً حكيماً أنجز فيه إصلاحات شاملة وبخاصة في نظام الجيش وفي مرا كش وفي ناحية الأشغال العامة والعمال. وفي هذه الفترة

مشكلة أسبانيا

زار الملك الفونسو إيطاليا ومعه ده ريفيرا ، واستمدا من الدوتشي العون والبركة لنجاح الدكتاتورية في أسبانيا ، وعقدت بين البلدين معاهدة صداقة كانت أول توجيه دولي لسياسة أسبانيا الخارجية بعد الحرب العالمية الأولى .

واستمر ده ريفيرا يعمل دون أن يحد من سلطانه دستور أو برلمان صحيح لمدة سبع سنوات . وأخيراً استيقظ الوعي الأسباني وعادت إليه سليقته ، فثار على النظام الملكي الدكتاتوري ، فسقط ده ريفيرا ، ونفى الملك الفونسو من البلاد بعد أن حُرم حقوقه المدنية . وقامت حكومة جمهورية في سنة ١٩٣١ وكان رجالها مشبعين بالمبادئ الاشتراكية ، فأعادوا الدستور ، وحرروا التعليم لأول مرة من سلطان رجال الكنيسة ، وأدخلوا إصلاحات اجتماعية بشأن توزيع الأراضي وتنظيم العمل . وكان الاعتدال رائدهم في أول الأمر فسارت الأمور سيراً شعبياً مرضياً . ولكن الاعتدال أمر لا يوافق أمزجة الأسبان ولا يتلاءم مع طبيعة البلاد الجبلية وجوها القاري ، فهم دائماً مسوقون إلى التطرف والمغالاة والتقلب من خمول واستسلام إلى ثورة وعنف وتخريب ، ثم من الثورة والعنف إلى الخمول والاستسلام مرة أخرى ، وهكذا دواليك . وليس بين كل تقيضين من هذه النقائص إلا فترة وجيزة يستجمعون فيها ويستعدون لدورة أخرى . لذلك لم يكن غريباً أن ينتصر حزب اليسار من الجمهوريين في انتخابات سنة ١ٹ٣٦ وأن تظهر آثار التطرف الجديد في عدائهم للكنيسة ومصادرتهم لأملاتها وتعرضهم لحرية العبادة ولحقوق كبار الملاك وغير ذلك ، مما جعل الناس يعتقدون أن الحكومة الجديدة إنما تعمل على إقحام البلاد في نطاق النظام الشيوعي ، وهو نظام إن وافق أهواء أهل المدن والأقاليم الصناعية مثل كتالونيا فانه غريب على كثرة الشعب الذين درجوا في أحضان الكنيسة وعاشوا في ظل الإقطاع دهوراً طويلة .

وعلى ذلك تجمعت العناصر التي أذكت نيران الثورة الوطنية العسكرية بزمامة فرنكو ضد نظام الجمهورية . وكان زعيم الثورة ، على ماجرى به العرف في تاريخ أسبانيا ، من ضباط الجيش . وكان فرنكو متولياً رئاسة أركان حرب الجيش وحاكماً على جزر قناريا أو الخالدات في أغسطس سنة ١٩٣٦ حين طار إلى تطوان في مراكش الأسبانية لرأس الثورة . وقد انضم إليه جميع ضباط الجيش ونصف قوات الأسطول . وفي أكتوبر سنة ١٩٣٦ أعلن فرنكو نفسه رئيساً للدولة ،

وأخذ ينظم حكومته على أساس دكتاتوري فاشستي ، وقد انضمت إليه الأقاليم الواقعة جنوبي أسبانيا ووسطها وشماليها الغربي ، أما الشرق والشمال الشرقي فظل مواليا للحكومة الجمهورية ، وقد استعاضت الحكومة عن الجيش بتسليح العمال وأفراد الشعب .

وسرغان ما تحولت الحرب الأهلية في أسبانيا إلى مظهر من مظاهر الكفاح الدولي بين المبادئ الفاشستية التي يمثلها فرنكو ومن ورائه إيطاليا وألمانيا وبين المبادئ الاشتراكية الدولية التي عرفت في ذلك الوقت بالجهة الشعبية وتمثلها حكومة الجمهورية وتؤازرها فرنسا وروسيا . وكان تأييد الدول للمعسكرين المتحاربين في أسبانيا نظريًا وسريًا في أول الأمر ، ثم أخذ هذا الميل يتحول تدريجاً إلى حرب حقيقية لا ينقصها سوى الإعلان الرسمي ، فكانت إيطاليا ترسل إلى فرنكو جيوشها ومدافعها ، وألمانيا تمدّه بدباباتها وطائراتها ومهندسيها وعمالها الفنيين . وكانت فرنسا شديدة العطف على الجمهوريين فأرسلت لمؤازرتهم الكتيبة الدولية ، وكذلك روسيا كانت عظيمة الاهتمام بمصائر الجمهوريين فأمدتهم بالأسلحة والطائرات . ولكن شتان بين ما كانت ترسله إيطاليا وألمانيا وما كانت تستطيعه روسيا بسبب المسافات الشاسعة التي تفصل روسيا عن أسبانيا . لذلك تفوقت قوات فرانكو وأخذت تستولي على معاقل الجمهوريين حصناً بعد حصن ، حتى سقطت مدريد في أبريل سنة ١٩٣٩ بعد حصار دام سنتين ونصف سنة ، وقد حالفهم النصر لتفوقهم في الطائرات والمدفعية والتغذية . ولما استتب الأمر لفرنكو غادر زعماء الجمهوريين البلاد وتفرقوا بين فرنسا وأمريكا اللاتينية . ولم يسع الدول في آخر الأمر سوى الاعتراف بحكومة الجنرال فرنكو .

وقد سار فرنكو في حكمه سيرة فاشستية ، فألف حزب الفلانج Falange على نمط الحزب الفاشستي في إيطاليا ، وجمع في يده السلطات كلها ، ولكنه اتجه في سياسته خطة وطنية بحتة راعى فيها مصلحة أسبانيا قبل كل شيء . فقد حاولت دولتا المحور ضم أسبانيا إليهما في محالفة عسكرية فاعتذر فرنكو بنقص استعداده وعدم كفاية موارده ، وآثر أن تبقى أسبانيا وهي لا تزال في دور النقه بعيدة عن مزلق السياسة الدولية مكثفياً بموافقته على ميثاق مكافحة الشيوعية في مايو سنة ١٩٣٩ . ومما دل على سياسة فرنكو الوطنية أنه لم يلق

بالأى إلى رغبة إيطاليا فى ضم إحدى جزر البليار إليها لتتخذها قاعدة تعرقل منها نشاط فرنسا وإنجلترا فى غرب البحر الأبيض المتوسط .

وقد أكد فرنكو خطته الاستقلالية عندما أعلنت الحرب العالمية الثانية . ورأى مع بالغ الدهشة أن هتلر قد تعاقد مع روسيا البلشفية التى كانت تنهض ثورة الوطنيين الأسبان ، فسارع فرنكو بإعلان حيده أسبانيا . فلما انقلب هتلر على روسيا وهاجمها فى صيف سنة ١٩٤١ ، لم ير فرنكو بدءاً من الاستجابة إلى رغبة حزبه فى الانتقام من روسيا ، فأرسل الفرقة الزرقاء من متطوعي الأسبان للقتال فى الميدان الشرقى إلى جانب الألمان ، وبذلك أُرصد فرنكو لأسبانيا فى ذمة روسيا ديناً ثقيلاً من المقت والبعض والعداوة .

ولم يكن ميل كثرة الأسبان فى هذه الحرب كما كان فى الحرب الأولى إلى جانب الحلفاء ، بل كان ميل الرأى العام الوطنى ، على العكس ، إلى جانب دول المحور . ومع ذلك لم يضعف فرنكو أمام ألمانيا المنتصرة التى احتلت فرنسا ، ولم يبق ثمة ما يفصلها عن أسبانيا سوى جبال البرانس . ولو أن ألمانيا فى ذلك الوقت اخترقت شبه جزيرة إيبيريا لهددت جبل طارق ، ولتعذر على الحلفاء أن يتزلوا بجيوشهم على ساحل إفريقية الشمالى لمناهضة قوات رومل . وتدل الوثائق التى نشرتها الولايات المتحدة أخيراً على أن اتفاق فرنكو مع دولتى المحور كان قيد البحث ، وأنه طالب بجبل طارق ومراكش الفرنسية ثمناً لانضمامه ، ولكن شيئاً من ذلك لم يتحقق ، واكتفى هتلر بأن اتخذ من سواحل أسبانيا مخابئاً للغواصات الألمانية ومحطات تتغذى منها سفنها وطائراتها .

ويقول فرنكو فى الدفاع عن خطته أنه عاون الفرنسيين الأحرار أيضاً فى اثناء الاحتلال الألمانى ، ولم يحل دون اتصا لهم بساحل إفريقية الشمالى . وكل ما استفادته أسبانيا من انحلال فرنسا أنها أعلنت انتهاء النظام الدولى فى طنجة وضمتها إلى حكمها .

ولما لاحت فى أفق الدول المتخاربة بوادر النصر ، بدأ فرنكو يستمع إلى رغباتهم ، فأبطل تصدير بعض المعادن التى كانت تقيد منها ألمانيا عسكرياً ، وأبعد « سيراو سونر » وزير خارجيته المتطرف فى مبادئه الفاشستية ، وحاول أن يستغفر لخطاياها الماضية ولكن بدون جدوى ، فقد ظلت تهمة الفاشستية لاصقة به ، وما نشبت الحرب إلا للقضاء على النظم النازية والفاشستية . وإذن فلم يكن

هناك معنى وقد انتصرت المبادئ الديمقراطية لابقاء الحلفاء على دولة فاشستية قد تصبح بعد قليل من الزمن عشًا تبيض فيه النازية وتفرخ من جديد . لذلك لم يدع الحلفاء فرصة لإعلان مبعثهم لنظام فرنكو ورغبتهم الصادقة في أن يزول حكمه عن البلاد . ونتج من ذلك أن بقيت أسبانيا بمعزل عن مجموعة الأمم المتحدة ، وفقدت ما كان لها من مزايا في طنجة ، وكاد الروس ينجحون في ضم اسم فرنكو إلى قائمة مجرمي الحرب .

والآن تبدو مشكلة أسبانيا معقدة غاية التعقيد ؛ فإن الجمهوريين من الأسبان قد استغلوا الفرصة الدولية الحالية وأنشأوا لهم في المكسيك حكومة جمهورية رئيسها « باريوس » Barrios ورئيس حكومتها « جيرال » Giral من وزراء أسبانيا السابقين . وتجمع الجمهوريون أخيراً جنوبي فرنسا عند « تولوز » وأخذوا يتربصون الفرض للزحف عبر البرانس على أسبانيا ، وهم يعدون خططهم سرّاً وعلانية لقلب حكومة فرنكو دون حاجة إلى إراقة الدماء كما يقولون . ولكن كيف يكون ذلك ؟ وإلى جانب الجمهوريين هناك الملكيون ، وهم قد نشطوا كذلك نشاطاً عظيماً ، وانتقل الأمير « دون جوان » بن الفونس الثالث عشر المطالب بالعرش من سويسرا إلى إنجلترا ومنها إلى البرتغال ، واتخذ له ولأتباعه مقراً قريباً من لشبونة حيث استقبله سفير أسبانيا وهو شقيق فرنكو . والجنرال فرنكو لا يعادى الملكية في أسبانيا ؛ فقد كان من أول أعماله حين تولى السلطة أن أعاد في سنة ١٩٣٨ الحقوق المدنية للملك السابق الفونسو . ويقولون إن هناك اتفاقاً سرياً على أن تعود الملكية إلى أسبانيا في الوقت الذي يراه فرنكو مناسباً .

وتختلف الدول فيما بينها على طريقة التخلص من حكومة فرنكو : ففرنسا وروسيا تريدان العمل المباشر ضد فرنكو بوساطة هيئة الأمم المتحدة . أما بريطانيا وأمريكا وسائر الدول الديمقراطية فإنها تصرح بأرائها ضد فرنكو ولكنها لا تريد أن تتبع القول بالعمل وتفضّل أن يقوم الشعب الأسباني باختيار الحكومة التي توافق إرادته في ظل استفتاء برلماني صحيح .

وقد أعلن مستر بيثن وزير خارجية إنجلترا عند ما تولت وزارة العمال الحكم « إن نظام الحكم في أسبانيا مسألة تخص الشعب الأسباني . . . وإن أي تعرض

من جانب الدول لشؤونها الداخلية لا بد أن يثير الشعب الأسباني ويجعله يؤيد فرنكو في موقفه ضد هذا التدخل الأجنبي . وجاء في البيان الثلاثي الذي أرسلته إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة إلى أسبانيا في أوائل مارس أنه « ليس في النية التعرض لشؤون أسبانيا الداخلية ، فإن على الشعب الأسباني نفسه أن يعمل لتكييف مصيره » .

وأضعف حلقة في نظام فرنكو أنه وليد التدخل الأجنبي ، وأنه لولا مساعدة إيطاليا وألمانيا ما استطاع فرنكو أن يخضع الشعب لحكمه . وإن حكومة لا تستند في حكمها على رغبة الشعب الحقيقية لا تستحق أن تعيش . ومع ذلك فهما هم أولاء الجمهوريون يلوذون بحكومتى فرنسا وروسيا ويستنصر منهما على حكومة فرنكو . وها نحن أولاء نرى حكومة فرنسا لا تكتفي بإرسال البيان الثلاثي ، بل تنفرد فتعلن أسبانيا بأن الحدود بين البلدين مغلقة ، وها هو ذا فرنكو يستثير حماسة الشعب فيرد على الإنذار بمثله ويعلن إغلاق الحدود بينه وبين فرنسا ، ويزيد على ذلك حشد جيش عظيم من حزب الفلانج لحراسة الحدود .

وأغلب الظن أن فرنسا لن تترك أسبانيا حرة في تنظيم بيتها ؛ لأن فرنسا لا تزال تعتبر أسبانيا امتداداً جغرافياً لها ، ولأنه يهمها أن تصون المواصلات بينها وبين مستعمراتها في شمال إفريقيا عن طريق أسبانيا برّاً وجزر البليار التابعة لأسبانيا بحراً . فإذا لم تكن حكومة أسبانيا موالية لفرنسا تعرضت مواصلات فرنسا ومصالحها الحربية في أوروبا وإفريقية لأعظم الخطر .

ولكننا نشك في أن تستطيع فرنسا الآن وهي في مرحلة دقيقة من تاريخها أن تؤيد الجمهوريين في أسبانيا بالقوة ، لا سيما أنها تعرف أن جيش فرنكو لا تنقصه الكفاية أو الاستعداد . والجمهوريون وحدهم غير قادرين على قهر فرنكو ما لم يتجه البندول الوطني في أسبانيا نحو الثورة . فهل استجم الشعب الأسباني واستعاد نشاطه إلى الدرجة التي تدعوه إلى تكرار مأساة سنة ١٩٣٦ ؟ وإذا تكررت المأساة ولم ينتصر فيها فرانكو فهل هناك ما يمنع أن تدور الحلقة المفرغة دورتها ويظهر فرانكو آخر من جديد ؟ هذه هي مشكلة أسبانيا .

الانتداب والصاية والاستعمار

اتهينا من مقالنا الماضى ^(١) إلى أن الاستعمار قد أشاع الفوضى والفساد فى الشؤون والعلاقات الدوائية . فلم يكن فى ميدان التكالب الاستعمارى متسع لإطفاء جميع الشهوات وإرضاء جميع الرغبات ؛ وذلك لأن طائفة من الدول كانت لها ميزة السبق فى هذا الميدان ، فبسطت نفوذها وفرضت سلطانها على كثير من الأقطار فى مختلف القارات والأقاليم ، تجعل منها « مستعمرات تاج » أو « حمايات » أو « مناطق نفوذ » أو « قواعد عسكرية » أو غير ذلك من الأسماء والنعوت التى اشتمل عليها قاموس الاستعمار الحديث . وأصبح لهذه الدول السابقة فى الميدان حقوق مكتسبة مقررة ، ولم تترك للدول « اللاحقة » أو المتخلفة ، سوى لقيات خشنة جافة لا غناء فيها للنفوس الشرهة ، ولا رى فيها للظلم الاستعمارى الذى يحرق قلوب أصحابه .

كذلك أفسد الاستعمار الأخلاق السياسية ، وانحط بها إلى الدرك الأسفل من الكذب والرياء ، وإخلاف العهود ، والحنث بالآيمان والمواثيق ، حتى كانت دولة محترمة مبعجة مثل بريطانيا ، يطلق عليها الكتاب فى أوربا اسم ألبينون الحانث *perfidious Albion* ، ومع أن بريطانيا قد تكون عدلت عن هذه الخطة قليلاً أو كثيراً فيما بعد ، غير أننا رأينا هذه البذرة الشريرة تنمو وتتكاثر على مدى الزمن ، حتى رأيناها تنضج فى أكمل صورة وأضخمها فى سياسة ألمانيا النازية ، التى جعلت من نقض المعاهدات فناً من الفنون أو علماً من العلوم ، وطبقت فيها هذا فى القارة الأوروبية نفسها ، وهى الميدان الوحيد الذى تحامته السياسة الاستعمارية الحديثة . فكأن الدول الاستعمارية العظيمة مثل فرنسا وبريطانيا أرادت أن تبتعد عن القارة الأوروبية ، وأن تنأى بنشاطها الاستعمارى

(١) الكاتب المصرى عدد ٦ مارس ١٩٤٦ .

إلى « ما وراء البحار » لأن المسرح الأوربي واقع تحت سمع العالم وبصره ، وتعرض فيه السياسة الاستعمارية للمؤاخذه الشديدة ، مع أن في الأقطار البعيدة عن أوربا ميداناً أوسع ، ومجالاً أرحب ، وتجنباً للنقد واللوم . أما ألمانيا فلم تكن ممن يهمة مثل تلك الاعتبارات ، وقد أغلق باب التوسع وراء البحار ، وهى على كل حال لم تفعل أكثر من أن اتبعت في أواسط وشرق أوربا نفس الأساليب والخطط التى سارت عليها الدول الاستعمارية في قارتى آسيا وإفريقية . وكأنها أرادت أن تذهب في التقليد إلى أبعد مدى ، فلم تحاول أن تبتكر أسماء أو مصطلحات جديدة ، بل أطلقت على بلاد تشيكوسلوفاكيا بعد ضمها في مارس سنة ١٩٣٩ اسم « حماية » بوهيميا ومورافيا . ولو منحت ألمانيا فسحة من الوقت لجعلت من بلاد المجر ويوجوسلافيا ورومانيا وبولنده ودانماركة حمايات أخرى . ولكن الدول التى تحرض على التوازن في أوربا لم تطق صبراً على هذه الحال ، فنشأت الحرب العالمية الثانية ، التى أنزلت بالعالم أشد الويلات وأفظع الكوارث .

وهكذا نرى أن ليس من الإسراف فى شيء ما ذهبنا إليه فى إختتام المقال السابق من أن سياسة الاستعمار لها الفضل الأكبر ، سواء أكانت السبب المباشر أم غير المباشر ، فى قيام الحرب العالمية الأولى والثانية ، وما جرته على الشعوب من الويلات .

وكان من الطبيعى أن تعلن الدول المعادية للمحور ، أنها تشهر حرباً « مقدسة » ، وأنها بعيدة كل البعد عن مظنة التوسع والتملك . وهذا التبرؤ نفسه ، اعتراف صريح بأن سياسة الاستعمار شيء ينبغى التنصل منه ، كأنه وصمة تآبى تلك الدول أن توصم بها ، وسبة لا تريد أن تلحق بها .

ولكن الحرب الحديثة تنتهى دائماً بهزيمة ساحقة لأحد الفريقين ، ويترك الفريق المهزوم أسلاباً ومخلفات لا بد من التصرف فيها . وكانت السنة القديمة تقضى بتوزيع الأسلاب واقتسام الغنائم بين الدول المنتصرة ، من غير أدنى تخرج أو تردد . غير أن الدعايات الإنسانية الجليلة ، التى قامت بها الدول المتحالفة فى الحرب الأولى ، والأمم المتحدة فى الحرب الثانية ، كانت قد ملأت البقاع والأصقاع ، وانتشرت فى الشرق والغرب . وبلغت من الشدة والحدة مبلغاً لم يجعل من الممكن للدول الظافرة أن ترجع إلى سياسة الاستعمار السافر ،

الانتداب والصاية والاستعمار

ولم يكن بدّ من أن تعدل عن الخطة القديمة وأن تنهج في التصرف في مخلفات الدول المهزومة نهجاً جديداً . ولذلك سنت مبدأ الانتداب في المرة الأولى ومبدأ الوصاية في المرة الثانية . وكان هذا المسلك الجديد اعترافاً ضمنيّاً بأن الاستعمار من الشرور التي لا بد من الابتعاد عنها ، أو هو على الأقل عورة من العورات التي تؤذي العيون ، فلا بد من سترها وتغطيتها بغطاء جديد .

ومع ذلك فإن الدول المنتصرة بعد الحرب العالمية الأولى لم تسلك مسلكاً ينطبق على المنطق السليم ؛ إذ لو كان الاستعمار في نظرها شراً من الشرور ، لبادرت بتطبيق الانتداب على جميع المستعمرات والحمايات والممتلكات . لكنها لم تفعل هذا ، ورأت أن السيطرة على الأراضي القديمة حق مكتسب ، لا معنى للتخلي عنه ، وأن المبدأ الجديد لن يطبق إلا على الأراضي التي زالت عنها سلطة العدو المهزوم .

وجدير بنا الآن أن ننظر إلى نظام الانتداب هذا ، وإلى تطبيقه ومظاهره المختلفة ، حتى نرى إلى أي مدى نستطيع أن نعدّه شيئاً جديداً في السياسة الدولية ، يتمشى مع المبادئ الإنسانية ، التي تورط الحلفاء في الدعاية لها ؛ أو أنه لم يكن سوى ثوب جديد تستربه الشهوة الاستعمارية ستراً جيداً أو ستراً رديئاً . لقد كان بين المنادين بفكرة الانتداب والداعين لها جماعات وأفراد ممن يعطفون حقاً على الشعوب الضعيفة ، ويتمنون لها السعادة والرفق والرخاء . ولكن هذه الجماعات لم تكن هي التي قامت بتنفيذ الانتداب وتحويل الفكرة الصالحة إلى سياسة صالحة ، بل قام بتنفيذ الانتداب نفس الدول ، التي لم يكن مسلكها الاستعماري فوق النقد واللوم الشديد . ولذلك كان مما يسترعى الانتباه أن ننظر هل تستطيع تلك الأيدي ، التي لم تكن طاهرة الطهارة كلها ، أن تنقلب فجأة إلى أداة كلها طهر ونبل وإخلاص ؟

تعريف الانتداب

لم يتناول الانتداب جميع الأقطار التي سلخت من ألمانيا وتركيا والنمسا والمجر وبلغاريا ، فإن حدود الدول قد عدلت في أوربا بإضافة مساحات من الأرض إلى فرنسا أو إيطاليا أو رومانيا أو يوجوسلافيا وغيرها ، واعتبرت

هذه الإجراءات مجرد تعديل في الحدود . فلم تعد إيطاليا منتدبة على إقليم تونتينو ، ولا فرنسا منتدبة على ألاس ولورين ، ولا رومانيا على ترانسلفانيا وهلم جرا ، بل أصبحت هذه الأراضي جزءاً متعماً للدول التي ضمت إليها . وأصبح مبدأ الانتداب مقصوراً على الأراضي التي زال عنها حكم تركيا وألمانيا في قارتى آسيا وإفريقية . أى إنه كان مقصوراً على القارات ، التي كانت تدخل عادة في نطاق التوسع الاستعماري ، وعلى الأقطار التي كانت مطمح أنظار الدول الاستعمارية .

عرف أحد أقطاب السياسة البريطانية مبدأ الانتداب بأنه :

«A self-imposed limitation by the conquerors on the sovereignty which they obtained over conquered nations.»

(هو عبارة عن حد ، فرضه الفاتحون على أنفسهم ، من حق السيادة التي أحرزوها على الأمم التي قهروها .)

هذا التعريف أدلى به اللورد بالفور في اجتماع لمجلس إدارة عصبة الأمم في شهر مايو سنة ١٩٢٢ وذلك بمناسبة الكلام على فلسطين . ومن المهم أن تتم النظر في هذا التعريف ، الذي يلقي شيئاً من الضوء على العقلية الاستعمارية ، وأسلوبها في التفكير . فنلاحظ في هذا التعريف :

أولاً : أنه يشير إلى الحد من حق السيادة ، ولم يقل التزول عن تلك السيادة ، كأن الانتداب لا يحول دون الاحتفاظ ببعض الحقوق التي ترتبت على الفتح والانتصار على العدو .

ثانياً : وإشارته إلى أن هذا التحديد من السيادة أمر قد فرضه الفاتحون على أنفسهم ، تنبئ من غير شك بأنهم أصحاب الشأن في تحديد مدى هذا «التحديد» .

ثالثاً : أن وصفه للدول المتحالفة بأنها فاتحة غازية ، وصف أقل ما يقال فيه أنه يناقض تلك الدعايات الإنسانية التي كثر التحدث بها في الدول الغربية .

رابعاً : أغرب شيء في هذا التعريف أنه يصف الانتصار على دولة تركيا مثلاً ، بأنه قهر للأمم العربية ، مع أنه لولا مساعدة العرب لما أمكن غزو سوريا ولبنان وطرده الجيش التركي منها .

فهذا التعريف لمعنى الانتداب يفيدنا في تفهم عقلية الساسة الذين تولوا تطبيق

الانتداب ، ولكنه لا ينفعنا في فهم المعنى الذي رمى إليه أولئك الأفراد الذين كان لهم الفضل الأول في سن هذا المبدأ .
وربما كان أقرب إلى تعريف مبدأ الانتداب ، ما جاء في أول المادة الثانية والعشرين من ميثاق عصبة الأمم ، حيث نجد العبارة التالية تحت عنوان نظام الانتداب :

« المستعمرات والأقطار التي زالت عنها ، بسبب الحرب ، سيادة الدول التي كانت تحكمها من قبل ، والتي يعيش فيها سكان لا يستطيعون أن يقفوا بأنفسهم في الظروف المجهدة القاسية للعالم الحديث ، يجب أن يطبق عليها المبدأ القاضي بأن رفاهية هؤلاء السكان وتقدمهم أمانة مقدسة في أعناق الدول المتمدنة ، ومن الواجب أن يتضمن هذا الميثاق الضمانات اللازمة لتأدية تلك الأمانة على الوجه الأكمل »

هذا النص أدنى إلى ما كان يجول بخاطر الذين سنوا مبدأ الانتداب ، والفرق بين هذا التعريف ، وبين ما ذهب إليه اللورد بالفور هو الفرق بين عقلية واضعي نظام الانتداب وعقلية الساسة الذين قاموا على تنفيذ هذا النظام .

أنواع الانتداب

وقد جعل الانتداب جزءاً لا ينفصل من عصبة الأمم ، وهي الهيئة التي أنشئت للسهر على الأمن ، ولتنظيم علاقات الشعوب طبقاً لمبادئ العدل والتعاون . وقد خصصت المادة الثانية والعشرون من ميثاق العصبة لبيان معنى الانتداب وأغراضه وأنواعه .

ونصت تلك المادة على أن يكون الانتداب من ثلاثة أنواع ، وذلك تبعاً لدرجة تقدم السكان في الوعي السياسي ، والنمو الاقتصادي والثقافي ، وغير ذلك من الاعتبارات البشرية والجغرافية .

فأما النوع الأول فيشمل تلك الأقطار التي كانت من قبل جزءاً من الدولة العثمانية ، وقد بلغ سكانها منزلة من التقدم تجعل من الممكن الاعتراف بهم كأمم مستقلة ، وفي هذه الحالة يكون واجب الدولة التي تتولى الانتداب مقصوراً على

الانتداب والوصاية والاستعمار

بذل الارشاد والمساعدة ، إلى أن تبلغ تلك الأمم مرتبة النضج السياسى الكامل، وتمتع بالاستقلال التام . ومن الواجب أن يستأنس برأى هذه الأمم فى اختيار الدولة التى تنتدب لإرشادها ومساعدتها .

أما انتداب الدرجة الثانية فيشمل المستعمرات الألمانية فى غرب وشرق إفريقيا فى المنطقة الاستوائية ، وهذه الأقطار يجب أن تتولى الدولة المنتدبة إدارتها، مع مراعاة مصلحة السكان ورفاهيتهم والعمل على تقدمهم من جميع الوجوه . أما انتداب الدرجة الثالثة فيشمل إفريقيا الجنوبية الغربية . وهى قطر نصف صحراوى قليل السكان متاخم لاتحاد إفريقيا الجنوبية . وكذلك يشمل الجزر الكثيرة الواقعة فى المحيط الهادى التى كانت من قبل تابعة لألمانيا . وفى هذه الحالة تحكم تلك الأقطار كجزء لا ينفصل من بلاد الدولة صاحبة الانتداب . ولذلك كان هذا النوع أقرب شئ إلى النظام الاستعمارى القديم .

توزيع الانتدابات

كان الواضعون لمبدأ الانتداب ، والذين دعوا اليه يظنون أن توزيع الأقطار التى يطبق عليها نظام الانتداب سيجرى بطريقة خلاف التى اتبعت فعلاً فيما بعد . كانوا يرون أن توزيع تلك الأقطار جميعاً تحت تصرف عصبة الأمم ، وللعصبة الحق فى أن تنتدب من تشاء من الدول للاضطلاع بهذا العبء ، وأن تخصص لكل دولة القطر الذى تشرف على إدارته أو تتولى إرشاده ومساعدته . بل وللعصبة الحق فى نظرهم أن تتولى هى الإشراف على أى قطر من تلك الأقطار ، وأن تعين الهيئة التى تتولى الانتداب بالنيابة عنها . وقد حاول أصحاب هذا رأى أن ينبصوا على هذا فى ميثاق عصبة الأمم ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يجدوا التأييد اللازم لرأيهم واضطروا الى التزول عنه .

ونظراً لأن الانتداب بالصورة التى حددها ميثاق العصبة ، عبء ثقيل تضطلع به الدولة المكلفة به . وهو غرم وليس بغنم ، كان المنتظر أن تتردد الدول فى قبول هذا التكليف الثقيل ، وأن تتريث كل منها قبل أن ترشح نفسها لهذه التضحية المرهقة . ولكن الذى حدث فعلاً هو أنه كان هنالك تراحم شديد على تولى الانتداب ، ورغبة حارة فى الاستكثار منه جهد الطاقة . ولذلك لم تر الدول

الانتداب والصاية والاستعمار

الظافرة في الحرب أن تترك أمر توزيع الانتدابات الى هيئة مستقلة — أو شبه مستقلة — مثل عصبة الأمم ، وفضلت أن تجرى بينها المساومات والمفاوضات في اجتماعات خاصة تعقدتها حتى يتفق رأيها على ذلك التوزيع .

وفي النهاية عقدت الدول الكبيرة مؤتمراً في سان ريمو بإيطاليا ، في ربيع عام ١٩٢٠ ، واتفقت على توزيع الانتدابات بين الدول ، وخرجت بريطانيا وفرنسا من هذا التوزيع بنصيب الأسد ، واختصت اليابان بحجز المحيط الهادى ، ماعدا جزيرة ساموا التى تركت لزيلندة الجديدة ، وكلّفت استراليا بإدارة الجزء الألمانى من جزيرة غينا الجديدة . وطلبت بلجيكا أن يكون لها نصيب من هذه الأشياء فأعطيت ، على سبيل جبر الخاطر ، قطعة من شرق إفريقيا الألمانى ، وهى القطعة التى تشتمل على إقليم رواندا وأرندى . أما إيطاليا فلم تعط شيئاً مطلقاً ، وخرجت من المؤتمر صفر اليدين ، مع أنه عقد فى أرضها ، وتحت سمائها الجميلة .

وهكذا لم يخل توزيع الانتدابات من ظاهرة التكالب والتراحم والتدافع التى رأيناها من قبل فى النشاط الاستعمارى فى القارة الإفريقية .

ولا بد لنا أن نلاحظ أن توزيع الانتدابات على هذه الصورة لا يخلو من التناقض مع روح نظام الانتداب نفسه . فإن هذا النظام يقضى بأن تكون الدولة المنتدبة مسئولة عن أعمالها أمام عصبة الأمم . فمن الغريب أن تكون دولة مسئولة أمام هيئة لم تنتدبها ، ولم تكلفها النهوض بتلك الأعمال التى مستأهلها عن تأديتها .

تفسير الانتداب

والآن لا بد لنا أن ننظر كيف يودى الانتداب وظيفته ، طبقاً للنظم التى قررتها عصبة الأمم . فهناك هيئات مكلفة بالإشراف — ولو من بعيد — على نظام الانتداب ، ومحاسبة الدولة المنتدبة عن أعمالها ، ولو حساباً يسيراً .

والهيئة الأولى صاحبة الشأن فى مراقبة الانتداب من بعيد هى مجلس عصبة الأمم ، المؤلف من بضع عشرة دولة . وهو المرجع الأكبر للبت فى جميع الشؤون المتصلة بالانتداب ، فإليه ترفع التقارير والشكاوى ، والمقترحات الخاصة بتعديل شروط الانتداب ، أو إلغاء الانتداب فى أى قطر من الأقطار ، وإحلال أى نظام آخر محله .

وعلى الرغم من أن مجلس العصبة هو الهيئة المختصة بمسائل الانتداب ، فليس هنالك مانع يمنع أى عضو من أعضاء العصبة من إثارة أى موضوع خاص بالانتداب فى اجتماعات الجمعية العامة ، التى تضم جميع أعضاء العصبة . ولكن نظراً لأن هذه الجمعية لا تعقد جلساتها سوى مرة واحدة فى كل عام ، كان أثرها فى مسائل الانتداب ضئيلاً لا يستحق الذكر .

ولكن هنالك هيئة أخرى كان لها شأن خطير فى شؤون الانتداب ، وهى الهيئة التى أطلق عليها اسم لجنة الانتداب ، وتتألف من أشخاص فنيين لهم دراية خاصة بشؤون الحكم والاستعمار ، يختارهم مجلس العصبة لمساعدته وإرشاده فى كل أمر يتصل بالانتداب . كانت هذه اللجنة تعقد اجتماعاتها مرة فى كل عام على الأقل ، وتتلقى التقارير الرسمية ، التى ترفعها الدول المنتدبة عن الأقطار التى كلفت بإدارتها أو الإشراف عليها ، ويحضر مندوب خاص من كل دولة صاحبة انتداب ، لكى يجيب عن الأسئلة التى توجهها إليه اللجنة .

ولعل هذه اللجنة هى الأداة الرئيسية فى نظام الانتداب ؛ لأنها هى التى كانت تتولى فعلاً مناقشة مندوبى الدول صاحبة الانتداب ، ومحاسبتهم عن أعمالهم . ولكنها لا تملك من السلطة أكثر من أن ترفع بياناً يبحثها هذا إلى مجلس العصبة ، لكى يتصرف فى الأمر كما يشاء . وفوق ذلك لم يكن من حق اللجنة أن تحاسب الدول صاحبة الانتداب إلا بمقدار ما تسمح به نصوص وثيقة الانتداب نفسها .

هذه الوثيقة التى أطلق عليها أحياناً اسم « صك الانتداب » هى التى تتضمن الشروط التى يقوم عليها الانتداب ، فلا يمكن مؤاخذة الدولة المنتدبة على أمر من الأمور إلا إذا كان مخالفاً لبنود تلك الوثيقة . ومن المهم هنا أن نلاحظ أن هذه الوثيقة قد وضعتها الدولة صاحبة الانتداب نفسها ، وهى التى رتبت فصولها وبنودها ، ثم رفعتها بعد ذلك إلى مجلس العصبة لكى يقرها . ومن الجائز أن يعدل المجلس فيها تعديلاً طفيفاً ، ولكنه قلنا عيس جوهر تلك الوثيقة . وهذا من غير شك عيب كبير فى نظام الانتداب كله وإجراء معكوس من أوله إلى آخره . فلقد كانت الدولة تنتدب أولاً على قطر من الأقطار ، ثم تقوم هى بوضع شروط الانتداب ، ثم تعرضها على المجلس للموافقة . وكان الواجب يقضى بأن تكون هنالك هيئة مستقلة — ولكن السكرتارية العامة لعصبة

الانتداب والصاية والاستعمار

الأمم — تضع شروط الانتداب لكل قطر طبقاً لروح ونصوص ميثاق عصبة الأمم . وبعد أن يوافق المجلس على هذه الشروط يختار الدولة التي تقبل الانتداب طبقاً لتلك الشروط .

وذلك الإجراء المعكوس قد مكّن بعض الدول من أن تضع في صك الانتداب أموراً لا تتفق مع ميثاق العصبة ، أو أن تجعل شروط الانتداب مرنة سهلة ، بحيث لا تقيدها في أعمالها بقيود جدية ، وتجعل من الصعب محاسبتها على أي إجراء شاذ تقوم به . وعلى سبيل المثال نذكر هنا أن لجنة الانتداب في سنة ١٩٢٤ حاولت أن تؤاخذ فرنسا على تقسيمها سوريا إلى أربعة أقسام سياسية منفصلة . ولكن اللجنة لم تستطع أن تخرج من هذا الجدال بنتيجة لأن صك الانتداب الفرنسي على سوريا ، لم يكن يشتمل على نص يمنع تقسيم البلاد وتمزيقها إلى عدة قطع .

وهكذا نرى أن أكبر ما يميز الانتداب عن الاستعمار هو هذه الرقابة الملطفة التي يقوم بها مجلس عصبة الأمم بمعاونة لجنة الانتداب . ولا يفوتنا أن نذكر أن ليس للجنة أو المجلس حق التفتيش أو القيام بأي إجراء في داخل القطر الواقع تحت الانتداب ، بل يجب الاكتفاء بالتقارير الرسمية التي ترفعها الدولة المنتدبة ، وبالشكاوى الحرة التي تأتيه أحياناً من مختلف الهيئات والأفراد . كذلك لم يكن في ميثاق العصبة أي نص يخولها أن تؤاخذ الدولة المنتدبة على أي إجراء تقوم به أو أي جزاء توقعه عليها ، مثل سحب الانتداب ، ونقله إلى دولة أخرى ، أو أي إجراء مماثل . ولعل هذا النقص جزء من النقص العام في كيان العصبة ، ومظهر آخر من مظاهر عجزها عن إرغام الدول على القيام بالتزاماتها .

سير الانتداب

إن غرضنا الأول من هذا المقال أن نوضح الأركان الأساسية لنظام الانتداب ، وليس لدينا هنا متسع لأن نتبع سير الانتداب في كل قطر من الأقطار . ولكن لا بد لنا مع ذلك أن نذكر هنا بشيء من الإيجاز بعض الأحوال التي نجمت عن الانتداب في بعض الجهات ، لكي ندرك إلى أي درجة كان هذا النظام الجديد

خيراً من النظام الاستعماري القديم ١ وحسبنا الآن أن نشير إلى الأمثلة الآتية :

١ — تولت اليابان الانتداب على عدد كبير من جزر المحيط الهادي ، ثم لم تلبث أن خرجت من عصبة الأمم كلها ، واحتفظت بتلك الجزر ، وأخذت تجعل منها قواعد حربية ، وتديرها كأنها ملك لها لا تؤدي عنه حساباً أو تصدر عنه بياناً لآية هيئة من الهيئات أو دولة من الدول .

٢ — ارتكبت فرنسا في انتدابها على سوريا مخالفات خطيرة ، أهمها قمع الحركة الوطنية بأساليب بالغة منتهى العنف ، مع أن الميثاق صريح في أن واجبها الأول تأييد الحركة الوطنية والسير بها إلى الاستقلال التام . وارتكبت فرنسا فوق ذلك ما هو أجل من هذا خطراً ؛ فقد نزلت لتركيا في عام ١٩٢٠ عن إقليم قليقية ، ثم نزلت لها في عام ١٩٣٩ عن سنجق الاسكندرونة . وقامت بكلا الاجراءين ، وهما يشتملان على مخالفات صريحة لصك الانتداب ، دون الرجوع إلى عصبة الأمم .

٣ — بدأت بريطانيا سياستها في العراق بقمع الحركة الوطنية ، وإرسال جيش بقيادة الجنرال سير آيسر هولدين لهذا الغرض في عام ١٩٢٠ ؛ ثم اضطرت بعد أن اقتنعت بإخفاق سياسة العنف إلى إيجاد ذلك الحل الجديد المبتكر ، وهو أن تنشئ معاهدة بينها وبين حكومة العراق ، لتحل محل الانتداب . وهكذا استبدل العراق بقيود الانتداب قيوداً جديداً قبله بمحض اختياره .

٤ — ولا يتسع المقام هنا للإشارة إلى الانتداب الفلسطيني الشاذ . ولكن أمره على كل حال معروف للقراء في جميع الأقطار العربية . وربما كانت هنالك ناحية واحدة لهذا الانتداب الشاذ لا يذكرها أكثر الكتاب ، وهي أن مشكلة فلسطين مشكلتها بريطانيا خلقاً عن عمد وعن سبق إصرار ، لكي تُشَبِّت أقدامها في هذا الركن الخطير من أركان العالم . فقد أدركت السياسة البريطانية أن لفلسطين من الموقع الحربي ، والأهمية الروحية لجميع الشعوب ما يجعل السيطرة عليها أمراً لازماً لدولة مثل بريطانيا . ورأى الساسة البريطانيون أن ميثاق العصبة ينص صراحة على أن سكان فلسطين يؤلفون أمة ذات كيان مستقل ، ولا محتاج إلا لقليل من الإرشاد والمساعدة لكي تنال الاستقلال التام . فلم يكن بد من إدخال عنصر جديد في السكان ، بطريقة توغر صدور العرب . وبذلك يسود البلاد النزاع والشقاق ، وتشتد الحاجة إلى حاكم محايد لكي يفصل

الانتداب والوصاية والاستعمار

بين المختصين ؛ وبذلك تضمن بريطانيا بقاءها في فلسطين إلى أجل غير مسمى . وهكذا عمدت بريطانيا إلى خلق مشكلة مفتعلة من أجل تثبيت أقدامها في فلسطين . ولكيلا يكون لدى القارئ أدنى شك في هذا ، فإنني أسوق إليه دليلين من شهادة كاتبين من كبار الكتاب البريطانيين أنفسهم . فقد جاء في الجزء الرابع من كتاب المؤرخ العظيم الأستاذ تيمرنى عن مؤتمرات الصلح العبارة التالية :

« كان لدى بريطانيا أسباب خاصة دعته إلى السياسة التي اتبعتها في فلسطين . وهذه الأسباب قد تبينها في المزايا البديهية لتغطية قناة السويس من الناحية الشرقية ، في إقليم يسكنه عنصر من الناس يرى مصلحته في تأييد بريطانيا ومؤازرتها ، هذا إلى جانب ماتئاله من تأييد اليهود في جميع أنحاء العالم . هذه هي النظرة البعيدة التي اقتضتها المصالح البريطانية الاستعمارية . »^(١)

هذه العبارة ذات المدلول الواضح جاءت في كتاب من الطراز الأول ، لمؤلف من كبار المؤرخين البريطانيين . وكنا نستطيع الاكتفاء بها ، ولكننا رغبة في زيادة الإيضاح نشير إلى ما جاء في كتاب آخر لمؤلف وسياسى مشهور وهو السرمارتن كونواى^(٢) . وقد استطاع أن يعالج هذا الموضوع بصراحة يشكر عليها . قال حضرته : « إن الخطر الحقيقي على قناة السويس لا يجىء من الغرب بل من الشرق . فمن ناحية فلسطين يجىء الخطر الجدى دائماً . . . ومن وراء فلسطين سوريا ، ومن وراء سوريا الأتراك ، ومن وراء الأتراك أية دولة قد تكون معادية لبريطانيا — ألمانيا في الماضي أو روسيا في المستقبل . . . من يدري ؟ ولقد أثبت الفرنسيون أنهم أنداد ينافسوننا ، لا أصدقاء يعاونوننا . ولذلك كان قبض بريطانيا على فلسطين مصلحة إمبراطورية من الطراز الأول .

«Great Britain's hold on Palestine is an Imperial interest of the first order.»

ثم يمضى الكاتب بعد ذلك لكي يشرح فائدة وجود طائفتين مختصين في

(١) Harold Temperly, *History of the Peace Conference*, vol. IV, p. 171 (1920-24).

(٢) Sir Martin Conway, *Palestine and Morocco*, chapter XII (1932).

فلسطين ، وما يتطلبه هذا من وجود هيئة خارجية محايدة لكي تمنح كل فريق من عدوان الآخر . وهذه في نظره حالة مثالية Ideal لأنها تتطلب بقاء بريطانيا في فلسطين إلى أجل غير محدد .

وهكذا يرى القارئ أننا لا نظلم بريطانيا أقل ظلم حين نقرر أنها خلقت المشكلة الفلسطينية خلقاً من أجل تثبيت أقدامها في فلسطين ، وأنها جعلت من الانتداب وسيلة لمتابعة سياستها الاستعمارية .

الانتداب والصاية

واضح مما تقدم أن الانتداب قد ارتكبت في ظله آثام وشرور جعلته بغضاً إلى العيون والأسماع . حتى آمن الناس جميعاً بأن نظام الانتداب ماهو إلا مظهر جديد من مظاهر الاستعمار ، بل إن بعض مظاهره قد تكون أبشع وأفظع مما عرف في تاريخ الاستعمار كله .

من أجل ذلك أراد المرحوم الرئيس روزفلت أن يخلق نظاماً جديداً ، وأن يجعل له اسماً جديداً ، واختار للحالة الجديدة اسم « الصاية » بدلاً من الاسم القديم المكروه . وقد أراد رحمه الله أن يدخل جميع المستعمرات والحمايات ومناطق النفوذ ضمن نظام الصاية الجديد ، وألا يكون هذا النظام مقصوراً على الأراضي التي سلبت من إيطاليا واليابان بسبب الحرب العالمية الثانية . ولكن الأجل لم يمهل الرئيس الجليل ، ففضى نخبه قبل انعقاد مؤتمر سان فرانسيسكو بأسبوعين اثنين ، وهو المؤتمر الذي أنشأ نظام الصاية الجديد ، ووضع بنوده ونصوصه ، وضمنها ثلاثة فصول من ميثاق الأمم المتحدة ، وهي الفصل الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر .

وأريد أن أتجنب مضايقة القارئ فلا أشرح له تفاصيل نظام الصاية ، كما سبق لي أن شرحت نظام الانتداب . فإن مثل هذا الشرح التفصيلي يستدعي تكراراً مملاً . وحسبي أن أذكر هنا النواحي الهامة التي يختلف فيها نظام الصاية عن الانتداب ، من الناحية النظرية الصرفة . وتتلخص هذه الاختلافات فيما يلي :

١ — تمتاز وثيقة الصاية بأنها تتناول المستعمرات والأقطار التي لا تدخل تحت نظام الانتداب القديم أو نظام الصاية الجديد . وذلك بأن تعهدت الدول فيما يختص

بتلك الأقطار بأمور هامة ، إذ أعلنت أن مصالح هذه الأقاليم لها المقام الأول ، وأنها ترى أن من واجب كل دولة أن تعمل على تنمية رفاهية سكان هذه الأقاليم ، وأن تكفل تقدم هذه الشعوب في السياسة والاقتصاد والتعليم ، وأن تنمي فيها الحكم الذاتي ، وأن تقدر الأمان، السياسية لتلك الشعوب حق قدرها . وأن ترسل — فوق ذلك — بيانات عامة في مواعيد منتظمة عن أحوال كل قطر إلى الأمانة العامة للأمم المتحدة .

٢ — أدخلت في نظام الوصاية ظاهرة جديدة ، وهي تقسيم الأقطار إلى قسمين : أقطار ذات صفة عسكرية ، وأخرى ليست ذات صفة عسكرية . والمفهوم أن هذا التقسيم قد عمل إرضاء للرأي العام الأمريكي الذي أبدى تمسكه بجزر المحيط الهادى ، ليجعل منها قواعد عسكرية لمنع العدوان اليابانى ، أو أى عدوان آخر في المستقبل .

٣ — تكون الأقطار ذات الصفة العسكرية تحت إشراف مجلس الأمن . أما الأقطار الأخرى التى توضع تحت نظام الوصاية فتكون تحت إشراف مجلس الوصاية ، وهو هيئة تابعة للجمعية العامة .

٤ — لمجلس الوصاية حق التفتيش وزيارة الجهات الخاضعة لنظام الوصاية .
٥ — يجوز أن تسند الوصاية على أى قطر إلى هيئة الأمم المتحدة نفسها لا إلى دولة من الدول .

هذه هي الفروق الجوهرية بين النظام الجديد والقديم . ونلاحظ أنه ليس في الميثاق نص على كيفية توزيع الأقطار بين الدول الوصية . وكذلك ليس هناك نص يمكن هيئة الأمم المتحدة من خلع أحد الأوصياء إذا أساء الوصاية ، على الرغم من الجهود الكثيرة التى بذلت لإدخال مثل هذا النص .

وهكذا يرى القارىء أن نظام الوصاية لا يخرج كثيراً عن كونه صورة ملطقة ، أو طبعة جديدة من نظام الانتداب . وليست العبرة على كل حال بالنصوص النظرية التى تضمنها هذا الميثاق أو ذاك ؛ فقد رأينا أن نصوص الانتداب لم تكن فى ذاتها رديئة . وإنما العبرة بتطبيق هذه النظم ، وبالروح التى تعامس بها كل دولة عملها ، وتؤدى بها رسالتها ، وتنفذ عهودها .

بين الحرب والجغرافيا

الحروب العالمية وموقع مصر

تعتبر الحرب مظهراً من مظاهر النشاط البشرى على وجه الأرض . وهى كغيرها من تلك المظاهر يصح أن تدرس من نواح مختلفة غير الناحية الفنية الخالصة . فيدرسها علماء النفس مثلاً من حيث إنها تتصل بحالات نفسانية معينة ، تدفع الناس إلى الشر والتطاحن دفعاً ، وتؤثر بذلك فى سلوك الأفراد من ناحية ، وسلوك الجماعات من ناحية أخرى . ويدرسها علماء الحياة (البيولوجيون) من حيث إنها ظاهرة تتصل بحياة الإنسان ككائن يتأثر فى تطوره بالكفاح من أجل بقاء الأصلح ؛ فتتيح فرصة يغلب فيها القوى الضعيف ، ووسيلة يأتى بها الصالح على غير الصالح . ويدرسها كذلك علماء الأخلاق من حيث إنها شر أو خير ، ومن حيث إنها دليل فساد الطبع أو صلاحه ؛ فهى قد ترجع إلى الأثرة الغريزية والفهم الفطرى وما يصحبهما من قسوة جاهلة أو من دهاء ماكر ، وهذا دليل الشر فى الإنسان . وقد ترجع إلى روح الإيثار والأتفة وتنطوى على كثير من حب التضحية وإنكار الذات ، وهذا دليل الخير فى الإنسان . والحرب يدرسها أيضاً علماء الاجتماع والاقتصاد ، من حيث إنها تستلزم نظاماً اجتماعياً واقتصادياً معيناً يوجه جهود المجتمع فى الكفاح ، ويرتب الحقوق والواجبات بين المحاربين وغير المحاربين من أبناء المجتمع ، ويغذى أداة الحرب ويلهب سعيها ويشد عصيها بما يضمن النصر ، أو يدرأ الكارثة عند الهزيمة . ويدرسها كذلك علماء التاريخ العام ، والتاريخ السياسى بنوع خاص ؛ فهى حلقة فى سلسلة من الحوادث ، ترتبط أسبابها بالماضى ، وتمتد نتائجها إلى المستقبل ؛ وهى لا تقوم لغير سبب ولا تنتهى إلى غير غاية . وكلما اشتدت فى عنفها واتسعت فى نطاقها كان ذلك دليل عمق أسبابها فى الماضى وبعد نتائجها فى المستقبل . وقد ترتب على هذه الظاهرة أن أصبح جانب هام من تاريخ كثير

من الأمم ، بل من تاريخ العالم ، ترديداً للحروب وما يتصل بها من احتكاك مسلح بين الأمم .

على أن هناك ناحية أخرى من دراسة الحرب قد تكون جدية بالعناية ؛ تلك التي تتصل بالمرشح الذي تجرى عليه حوادثها ، وبالظروف الجغرافية الطبيعية التي تملئ على قادتها ما يرسمون من خطط وما يتخذون من وسائل (١) . ومثل هذه الدراسة ضرورية لتفهم مجرى الحرب ، لأسباب كثيرة أبرزها أن الإنسان لا يحارب في الفضاء ، وإنما يحارب في « المكان » ، وأن ظروف هذا المكان كثيراً ما تحدد نجاح المحارب إن هو أحسن استغلالها والإفادة منها ، أو إخفاقه إن هو لم يقدر صعوباتها حق قدرها ولم يستجب لما تقتضيه من عمل إيجابي ، أو ريث سالب . والقائد الماهر في الحرب هو الذي يرسم الخطة التي تلائم الطبيعة ، ويرسم الطريق الذي لا تحفه للمهالك . وفوق ذلك فإن الحروب الكبرى في التاريخ يمكن أن ينظر إليها على أنها حروب بين « أوطان » و « أقاليم » ، كما أنها حروب بين « أمم » و « شعوب » . فالأمة القوية والشعب القاهر في حرب من الحروب إنما يستمدان القوة والمنعة من الإقليم الذي يعيشان فيه ، ومن القاعدة التي يستندان إليها . ويندر في تاريخ الحروب أن تهزم قوة تعرف كيف تجعل الطبيعة في جانبها ، وكيف تستعين بظروف الميدان الطبيعية على العدو . بل كثيراً ما غلبت فئة قليلة فئة كثيرة ؛ لأن ظروف البيئة الطبيعية أو الموقع الجغرافي كانت تقضي بذلك .

والحرب في عرف الجغرافيين ثلاثة أنواع : حرب محلية أو أهلية تبدأ وتنتهي في وطن صغير واحد ، وبين أفراد أمة واحدة . وحرب إقليمية تقوم بين أمم قليلة متجاورة ، ولا تتعداها إلى مناطق أو جهات بعيدة . وحرب عامة أو عالمية تتسع لتشمل جانبا كبيرا من العالم ، وتمتد بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب . وليس يعنينا من هذه الحروب الآن ، وفيما يتصل بموقع

(١) ينبغي أن نميز هنا بين الخطط الاستراتيجية ، وهي الخطط العامة والتوجيهات الأساسية للحرب ، وبين الخطط التكتيكية التي تتصل بالحركات المحلية في الميدان . وتنفى الجغرافيا العسكرية العامة بالناحية الأولى ؛ أما الناحية الثانية فتتصل بما يعرف بعلم الطبوغرافيا المحلية وبدراسة الجرائط التفصيلية وتحديد حركات الجند لمكان المعارك ؛ وهي ناحية فنية خالصة ، لا سبيل بنا إليها في مثل هذا المقال .

مصر بذوع خاص ، غير هذا النوع الأخير ، وإن كان الحديث سيجر بالضرورة بعضه بعضاً ، فيتناول طرفاً أو أطرافاً مما يتصل بالحروب الإقليمية في الشرق الأدنى بين حين وحين .

ومصر أمة قديمة ذات تاريخ طويل . وقد أصابها في تاريخها هذا من الحرب شيء كثير . ولكننا نستطيع أن نميز بين قسمين كبيرين من تاريخ مصر العسكري ، بل من تاريخها القومي العام ، تفصل بينهما غزوة الإسكندر في النصف الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد . فأما القسم الأول ، ويشمل العصر الفرعوني وما سبقه من عصر ما قبل الأسرات ، فقد امتاز بالحروب الأهلية ، التي انتهت بتوحيد الوجهين ، ثم تجددت بعد ذلك في فترتين أو فترات قليلة متقطعة ؛ كما امتاز ببعض الحروب الإقليمية التي شاركت مصر فيها بنصيب كبير لا سيما أيام الدولة الحديثة ، وتكوين الإمبراطورية المصرية في الشرق القريب . ويظهر أن مجد مصر العسكري ، بل مجدها العام في هذا القسم من تاريخها قد ارتبط بمواردها المحلية وحسن استغلالها . ففي العهود التي استكملت فيها البلاد وحدتها المحلية ، وأحسن استغلال مواردها الطبيعية ، استطاعت مصر أن تدفع عن نفسها خطر الغزو وأن توسع سلطانها وتمدد نفوذها في ناحية الشرق ؛ وفي العهود التي أهملت فيها مرافق البلاد ، وساد التنازع بين أقاليمها المحلية ، وظهر نظام الإقطاع ، ضعفت البلاد وطمع فيها الغزاة الذين جاء أغلبهم من الشرق وقايل منهم من صحارى لوبيا المجاورة . فكان مصر في هذا القسم من تاريخها العام كان يدها مفتاح تاريخها وزمامه . أما في القسم الثاني الذي تلا غزوة الإسكندر وحروبه العالمية ، فقد أفلت زمام ذلك التاريخ من يد مصر ، واتصل بعوامل أخرى « عالمية » لا سبيل بمصر إلى التحكم فيها . ذلك أن حروب الإسكندر ربطت الشرق بالغرب ، فأبرزت قيمة موقع مصر الجغرافي كحلقة اتصال تتحكم في مواصلات البر ومواصلات البحر على حد سواء . ومنذ ذلك الوقت طمع في مصر الطامعون وسعى إليها الغزاة من أدنى الأرض حيناً ، ومن أقصاها حيناً آخر ، وإن كانت هذه البلاد قد استطاعت في فترات معينة أن تجمع لنفسها من القوة ما تغالب به طمع الطامعين ، وما يمكن لها من السيطرة على المواصلات العالمية ، والإفادة من موقعها الجغرافي إلى أبعد الحدود .

وقد كانت حرب الإسكندر بحق أول حرب عالمية ، احتك فيها العالم اليوناني ببقية الشرق الأدنى وفارس وبلاد الهند والصين . وقبل عهد الاسكندر لم تكن الحروب تتعدى أقاليم محدودة . ففتوح تحتمس الثالث مثلاً ، رغم عظمتها وما تجلّى فيها من فن ومقدرة على القيادة والتنظيم ، لم تتجاوز أرض الفرات الأوسط . وحروب ملوك فارس الأخمينيين لم تتجاوز مصر أو أرض اليونان . وحروب ملوك الهند والصين لم تخرج عن بلاد كل منهما إلا إلى ما جاورها مباشرة . فهي كلها تعتبر حروباً « إقليمية » ، وليس بينها ما يمكن أن يعتبر حرباً عالمية بالمعنى الصحيح . أما الإسكندر فكان أول محارب صال بجيوشه بين مغارب العالم المعروف ومشاركه ؛ فبدأ من بلاد اليونان ، وفتح الأطراف القريبة من إمبراطورية الفرس ؛ ثم انطلق نحو مصر فاستقبلته استقبال المنقذ من حكم الفرس ومفاسده . ومن مصر سار غرباً أول الأمر حتى بلغ حدود برقة وواحة سيوة ، حيث وضع الكاهن الأكبر ، فيما يقال ، على رأسه قرني آمون ، ومن هناك عاد إلى أرض النيل ، ثم اندفع بجيوشه صوب فارس من جديد ، فاخترق الجزء الشمالي منها إلى بحر قزوين وتركستان ؛ وهناك شرّق حتى بلغ حدود إمبراطورية الصين بين تركستان الغربية والشرقية ؛ ثم اتجه جنوباً إلى أفغانستان وشمال الهند ، ومنها عاد في رحلة كشفية طيراً بلاد بلوخستان وجنوب فارس إلى أرض العراق حيث قضى نحبه بعد حرب استمرت حوالي اثنتي عشرة سنة ، ولكنها تعتبر حرباً خاطفة إذا ما نحن راعينا العصر الذي تمت فيه ، والبلدان التي دوّخها الإسكندر ثم ربط بين أطرافها بنظام من الحكم العسكري والفلسفة السياسية العامة ، التي لولا موت صاحبها لغيرت وجه التاريخ في كثير من ملامحه وتفاصيله .

ويعيننا من حرب الإسكندر أنها تكشف عن إدراك صحيح لظروف البيئة الجغرافية ومقتضياتها العسكرية . وقد تمثل ذلك بوضوح في عدة مسائل ، ربما كان أظهرها أنه عند ما أراد أن ينقض على الإمبراطورية الفارسية ، لم يتسرع في ذلك ، وإنما عمد أولاً إلى تأمين جناحه الغربي في مصر ، فانحرف من أرض الشام إلى فلسطين وطريق القرما ودلتا النيل . وقد ضمن بذلك أشياء كثيرة : منها أنه تسلط بأقل مجهود ممكن على هذه الأرض الغنية ، التي تصلح أن تكون قاعدة تغذي جيشه عند الحاجة ببعض ما قد يحتاج إليه ، رغم اضطرار إنتاجها

في أواخر أيام الحكم الفارسي ، أو أنه على الأقل قد قطع بتسلطه على مصر الطريق على أي جيش يستطيع الحاكم الفارسي فيها أن يعدّه ليهجم به من الخلف على جيوش الإسكندر ، بعد أن تتقدم نحو قلب الإمبراطورية الفارسية في الشرق . وفوق ذلك فقد تجلّى بُعدُ نظر الإسكندر كفاتح عسكري وكواضع أسس إمبراطورية لم يتح له القدر أن يتربع على عرشها الموحد ، في مسائل تفصيلية كثيرة : منها أنه فتح مصر عن طريق شبه جزيرة سيناء ، ولم يحاول أن يغزوها بالبحر من بلاد اليونان مباشرة ، وقد كان غزو مصر عن طريق مدخلها الشمالي الشرقي أسرفاً فيما يبدو من غزوها عن طريق البحر ، ومنها أنه بعد أن فتح أرض وادي النيل لم يكتف بذلك ، وإنما أدرك أن الصحاري هي دروع مصر الطبيعية ، وأنه لا بد للسلطة الحاكمة في الوادي من أن تمد أيديها إلى تلك الدروع تمسك بها وتتمكن منها في الشرق والغرب جميعاً ، فقام برحلته المعروفة إلى حدود برقة وسيوة . ومهما قيل عن الباعث لمثل هذه الرحلة ، فإن من يدرس الجغرافيا العسكرية لا يملك أن يتجاهل قيمتها في تأمين حدود مصر من ناحية البدو اللويين ، وقد كانوا على الدوام مصدر قلق للحياة الآمنة المستقرة بأرض الوادي ودلتاه . كذلك تجلّى حسن إدراك الإسكندر في أنه لم يكن فاتحاً فقط ، وإنما هو أراد أن يضع أسس ملك دائم ، فرأى أن يعترف بالامر الواقع ، وهو أن مصر بلاد ذات حضارة عريقة ومجد تليد ، فاحترم تقاليد البلاد ، وبلغ به ذلك أن تسمى « بابن أمون » ؛ ولكنه في الوقت نفسه شرع في أن يوجه مصر توجيهاً سياسياً جديداً نحو البحر المتوسط وبلاد اليونان ، فوضع تخطيط الإسكندرية لتكون عاصمة تحل محل منف ، وترمز إلى التوجية الجديد نحو الحياة البحرية ونحو الشمال . وكان ذلك بدءاً تحول خطير في حياة مصر واتصالاتها الخارجية ، مما كان لموقعها الجغرافي فيه أثر بعيد . وبعد موت الإسكندر كانت مصر من نصيب أسرة البطالسة ، الذين بدءوا أولاً بتنظيم استغلال موارد مصر المحلية ؛ فشقوا ترع الري ، ووسعوا الأراضي الزراعية ، وعملوا على تحسين وسائل الزراعة ، واعتنوا بالمحاصيل الغذائية والتجارية ، ونظموا طرق المواصلات والتجارة ، وأعادوا تنظيم أداة الحكم والإدارة . وبذلك كله ازدهرت مصر ، وغدت قاعدة قوية صالحة للتوسع والأخذ بأسباب السيطرة على طرق المواصلات البرية والبحرية . وفعلاً لم يلبث

الامر بالبطالسة أن اتسعت أطماعهم ؛ فلم يقنعوا بأن تكون لهم مصر ، وإنما هم اتخذوها قاعدة لتنفيذ سياسة ترى إلى « السيطرة العالمية » أو ما يسميه مؤرخو الألمان باسم *Weltnacht Politik* وقد ترتب هذا كله على أن حروب الإسكندر عرّفت الغرب بالشرق ، وأن حسن تنظيم البطالسة لموارد مصر ، واستخدامهم لها كقاعدة تتحكم في طرق التجارة العالمية ، قد مكّن لهم من أن يجعلوا منها دولة تستطيع أن تستفيد من موقعها الجغرافي . ولولا أن الأمر قد استحال بالبطالسة المتأخرين إلى استغلال غير منظم ، وإلى كثير من الترف والفساد ، لما انتهى الأمر بمصر أن تطمع فيها الإمبراطورية الرومانية ، عندما انقلبت قوة مصر ضعفاً ومنععتها إغراء بالفتح والعدوان .

ولكن الدرس الهام الذي نخرج به من أول حرب عالمية في التاريخ هو أنها أبرزت قيمة مصر أكثر مما أبرزت قيمة أى إقليم آخر من أقاليم الشرق القديم . فقد قسمت إمبراطورية الإسكندر بين قواده ؛ ولكن مملكة بطليموس التي لم تكن قبل الإسكندر تعدو أن تكون ولاية مهمة من ولايات إمبراطورية فارس المتطرفة ، قد انقلبت في فترة وجيزة إلى دولة فتية ، هي أقوى دول الشرق القريب ، تتحكم في مواصلات العالم وفي تجارتها ، وتشق طريقها فوق ذلك إلى أن تصبح بمدينتها الإسكندرية مركز الفكر والثقافة في العالم . ومن الغريب ، أو لعله ليس غريباً ، أننا نستطيع أن نخرج بهذا الدرس نفسه أو بمثله من كل حرب عالمية تلت ذلك في تاريخ مصر بعد الإسكندر .

وليس يعنيننا أن تفصل القول في كل حرب من هذه الحروب العالمية التي فتح سيرتها الإسكندر . بل قد يكفي أن نختار أمثلة تظهر لنا مكانة مصر من كل كفاح عالمي ، لاسيما ذلك الذي يمس صلات الشرق بالغرب ، أو صلات أهل البلاد المعتدلة بأهل البلاد الحارة ؛ ثم مبلغ تأثير مصر بهذه الحروب إبان استعارها من جهة ، وبعد هدوء العاصفة من جهة أخرى . وسنختار أمثلة نجمل القول فيها إجمالاً ، مكتفين بما تلقيه دراستها من ضوء على قيمة موقع مصر الجغرافي ، وتاريخها لمقال قادم تفصيل الحديث عن آخر حرب عالمية ، وهي التي بدأت عام ١٩١٤ وانتهت ، أو يرجى أن تكون قد انتهت ، في عام ١٩٤٥ .

ولعل أول حرب عالمية احتك فيها الشرق بالغرب احتكاكاً صحيحاً بعد العهد الإغريقي الروماني هي حرب الصليبيين . أما فتوح الإسلام الأولى فقد احتك

فيها بعض الشرق ببعضه الآخر احتكاكا عنيفاً ، وحاول الشرق أن ينفذ إلى الغرب الفرنجي من بابه الخلفي في إسبانيا ؛ ولكن الاشتباك هناك كان اشتباكاً جزئياً وغير حاسم ؛ بل إن الدولة الإسلامية في الشرق الأدنى نفسه لم تفعل أكثر من أن اقتطعت من إمبراطورية الروم ولاياتها في غرب آسيا وشمال إفريقيا ؛ فهي لم تتخط البحر إلى بلاد الروم نفسها . ولذلك بقي احتكاك الإسلام بالغرب وبالفرنجة المسيحيين إقليمياً في مداه ؛ هادئاً في مجلته ، حتى جاءت الحروب الصليبية ، فاتخذت العلاقات شكلاً جديداً ؛ إذ طمع الغرب في أن يتسلط على جانب من قلب الشرق القريب . وقد استمر الكفاح من أواخر القرن الحادي عشر حتى أواسط القرن الثالث عشر . ولكن الصليبيين أخطأوا منذ البداية في رسم خططهم وتلمس طريقهم ، وقاسوا نتيجة هذا الخطأ حتى النهاية . ذلك أنهم عندما تقدموا أول الأمر لم يأتوا الشرق العربي الإسلامي من بابه الصحيح ؛ وإنما غزوه عن طريق القسطنطينية وآسيا الصغرى ، فأصابهم الهلاك في مطلع هجومهم ، ثم وصلوا بعد ذلك إلى الأرض المقدسة ، ولكنهم أغفلوا شأن مصر التي كانت مفتاح الموقف كله ، ونقطة الارتكاز الأساسية لمن يريد التوغل في الشرق القريب والسيطرة عليه . ومع أنهم حاولوا فتحها في عامي ١١٦٧، ١١٦٨ م . فإن محاولتهم جاءت متأخرة مترددة ، وانتهت بالإخفاق أو الارتداد على كل حال . واستتب الأمر في مصر بعد ذلك لصالح الدين الذي اتخذ منها قاعدة صالحة أعد نفسه فيها ، وقوى جيوشه بفضل ثروة البلاد ومواردها ، ثم انطلق بهذه الجيوش في اتجاهات كثيرة ، فحرر البلاد المقدسة أو جانباً كبيراً منها ، وتوسع نحو اليمن وبلاد النوبة وبرقة وطرابلس ، وكون إمبراطورية أو شبه إمبراطورية ، وقفت بقوتها وثروتها في وجه الصليبيين فكسرت شوكتهم في وقت بلغت فيه حماسهم أقصاها . ولقد عاد هؤلاء الصليبيون فتنهوا آخر الأمر إلى أهمية مصر وحاولوا غزوها بالبحر عن طريق دمياط والمنصورة ، ولكنهم أخفقوا في ذلك مرتين في عامي ١٢٢١، ١٢٤٨ م . ذلك أن تنبهم هذا لم يجيء إلا بعد قوات الأوان . ولو أن الصليبيين اتجهوا أول الأمر نحو مصر فوطدوا أقدامهم فيها ثم استندوا إليها كقاعدة للتوسع نحو الشرق القريب ، كما فعل صلاح الدين وكثيرون من قبله ومن بعده ، لتغير وجه التاريخ لعدة قرون .

وفي أعقاب الحرب الصليبية ظهرت حرب عالمية أخرى . ولكن كان مصدرها

ومعها في هذه الحالة من الشرق البعيد ، حيث ظهرت قوة الرعاة المغول في سهول منغوليا الشرقية في النصف الأول من القرن الثالث عشر ، ثم اندفعت جموعهم نحو الغرب ، فبلغت أواسط أوروبا في ربع قرن أو أقل ، وكانت بذلك إحدى حروب التاريخ الخاطفة ، وربطت ما بين الصين ووسط آسيا وهضبة إيران وسهول روسيا وأوروبا الشرقية . ومع ذلك فيظهر أن هؤلاء الرعاة قد استهواهم استواء السطح وكثرة المرعى في سهول روسيا الجنوبية ، فاندفعوا بخيلهم وركبهم في ذلك الاتجاه ؛ ولم يصب الشرق الأدنى في غرب آسيا غير جانب من ضغطهم انتهى بتخريب بغداد على يد هولاكو في عام ١٢٥٨ م . ولكن قوة المغول ما لبثت أن تلاشت في هذا الاتجاه ، واستطاع سلاطين مصر هزيمتهم في عين جالوت عام ١٢٦٠ م . ثم في حمص بعد ذلك . وأنقذت مصر بهذين النصرين الشرق العربي من التخريب الشامل على يد المغول . ولو أن هؤلاء الرعاة الجبابرة استطاعوا أن يكتسحوا سوريا وفلسطين وأن يفتحوا مصر لقاست مدينة العرب والإسلام على أيديهم في هذه الأقطار مثل ما قاست بغداد ، ولكن مماليك مصر استطاعوا من قاعدتهم أن يردوا الشر وأن يدفعوا الخطر في آخر لحظة ؛ وكانت انتصاراتهم نقطة تحول في التاريخ انتهت عندها حروب المغول الخاطفة ، واستعادت بعدها مصر مكانتها ، فتحكم المماليك من جديد في طريق التجارة البحرية ، وأتقذت مصر بلاد الشرق القريب وحضارته من خطر داهم من الشرق المغولي ، كما أنقذته في القرن السابق من خطر متسلل من الغرب المسيحي .

فإذا ما نحن تركنا القرون الوسطى ووصلنا إلى العهد الحديث ، وجدنا حلقة أخرى من الكفاح العالمي أثارها نابليون في حملته الشهيرة على مصر في آخر القرن التاسع عشر . وقد كان نابليون أحد هؤلاء العسكريين الذين يدركون قيمة المواقع الجغرافية ويحسون بطبيعتهم في أي اتجاه ينبغي أن تسدد الضربات ؛ فنفذ ببصيرته الثاقبة إلى أن مصر التي كانت طريق التجارة بين الهند وأوروبا خلال العصور القديمة والوسيطة ، ينبغي أن تكون طريق الوصول العسكري إلى الهند . وقد يقال في ذلك إن نابليون سبق البريطانيين إلى كشف أهمية موقع مصر من هذه الناحية . وقد يقال أيضاً إن البريطانيين كانوا يدركون من جانبهم احتمال ما قد يكون لمصر من أهمية في الاتصال بالهند للتجارة وغيرها ،

ولكنهم شاءوا عن قصد أن يبقى هذا الطريق مجهولاً مهملًا ، وأن تحافظ بريطانيا على طريق البحر الطويل حول إفريقيا حيث لا ينافسها منافس . وسواء أصبح القول الأول أم الثاني ، فإن الحق الذي لا مريّة فيه أن حملة نابليون كشفت عن قيمة موقع مصر الجغرافي مرة أخرى ، ونهت العالم إلى ما للشرق الأدنى كله من قيمة لآية قوة تريد أن تسيطر على مواصلات العالم . ومع ذلك فقد أخفق نابليون في الغرض المباشر من حملته . وربما كان أحد أسباب ذلك أنه بلغ مصر ثم انقطعت به الطريق بعد تحطيم أسطوله على يد نلسون . ولكن قد يكون هناك سبب آخر هو أن نابليون تسرّع في التقدم من مصر نحو الشرق القريب قبل أن يستتب له الأمر في مصر نفسها إلى درجة تسمح له باستخدامها كقاعدة لذلك التقدم . ومهما يكن من أمر فإن القدر لم يشأ أن يستغل نابليون موقع مصر ؛ وإنما شاء أن يخلفه في هذا الموقع عسكري وحاكم آخر : محمد علي الكبير . ولعل التاريخ قد أعاد سيرته مرة أخرى ؛ فكما أبرز الإسكندر بحروبه قيمة موقع مصر ثم ورثه في الحكم بطليموس ، كذلك كشف نابليون بحربه الموجه إلى قلب الشرق والعالم الإسلامي عن موقع مصر وقيمتها ثم خلفه فيها محمد علي ؛ مع فارق ظاهر هو أن الحاكم الجديد رغم نزعة القوية إلى التجديد والاقتراس من الغرب كان يمثل جانباً هاماً من روح الشرق الذي أيقظته حملة نابليون وصدمة العنيفة من سباته الطويل العميق .

وقد أدرك محمد علي منذ البداية ما في هذه البلاد وأهلها من حيوية كامنة ، وما يمكن أن يكون لها من شأن لو أن مصادر القوة فيها وُجّهت التوجيه الصحيح ؛ وكان في ذلك نافذ البصيرة صادق الحكم . فنفخ في روح مصر ، ووجه نهضتها توجيهاً عملياً ، واستطاع في ربع قرن أو نحو ذلك أن يدفع بنفسه وبهذه البلاد إلى المقدمة في القوة والجاه . ولكنه عند ما أراد أن يستغل موقع مصر الجغرافي لم يشأ أن يتحكم في طرق التجارة ، ولأن يأخذ بمشروعات وصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر ، ولا أن يحاول الإفادة من مرور التجارة العالمية كما أفاد غيره من حكام مصر السابقين أيام البطالسة ثم أيام المماليك . ذلك أنه أدرك ، وكان صادقاً في إدراكه ، أن مصر مهما قويت واشتد ساعدها فلن تكون لها من القوة ما يناظر قوة أهل الغرب وذوى المصالح في تجارة الشرق . وما دام الأمر كذلك فأولى لمصر أن تتواضع وأن تقتصد فيما قد ترمى إليه من

وراء التحكم في المواصلات العالمية تحكما قد ينطوي على المغامرة بكيانها نفسه . ومع ذلك فإن محمد علي لم يتوان من جهة أخرى في استغلال موقع مصر العسكرى ومواردها المادية عن طريق آخر . فلم يكد الأمر يستقر له في هذه القاعدة حتى اندفع منها بجيوشه نحو الجنوب في السودان ، ونحو الشرق في بلاد العرب ، ونحو الشمال في بلاد اليونان ، ثم أخيراً نحو الشمال الشرقى في آسيا الصغرى . ولولا ما كان من تألب دول الغرب على هذه الأمة الناهضة وهذا الحاكم العظيم ، لكان لمصر واهلها إذ ذاك وبعد ذاك شأن آخر . . . بل إننا لا نجاوز حد المعقول إذا نحن نسبنا إلى هذا التدخل تحول الأمور عن مجراها الطبيعى ، الذى كان يقضى بأن تجنى مصر ثمار نهضتها لخيرها وخير الشرق القريب كله . فقد قطع التدخل الأجنبى الطريق على مصر وحال بينها وبين أن تصبح قاعدة لتكوين كتلة متماسكة في الشرق الأدنى تخلف إمبراطورية العثمانيين المتداعية في مواجهة الغرب الطامع . بل إن تدخل أوربا كان أبعد أثراً من ذلك ؛ فهو قد وقف نمو النهضة المصرية وشل حركة تطورها الطبيعى من جهة ، كما أظال دور التزع في الإمبراطورية العثمانية الفانية من جهة أخرى . وترتب على ذلك أن دخلت ولايات الشرق الأدنى بما فيها مصر في دور من الاضطراب أفسد أمورها ، وعطل نهضتها ، وفتح الطريق أمام الغرب الأوربى في أن يتلاعب بشؤونها ويتكالب من أجل السيطرة عليها . وكانت مصر أول فريسة وقعت للعدو من ولايات إمبراطورية الرجل العجوز ؛ فانقلبت الأوضاع ، وباعد التدخل ثم الاحتلال بين مصر وبين أن تتابع نهضتها الداخلية أو أن تترغم الشرق في نهضته العامة ، فشغل أبناءؤها بمجاهداتهم من أجل حريتهم المفقودة ، وهم لا يزالون ينفقون في ذلك من الجهد ما كان أولى بهم أن ينفقوه في دعم نهضة بلادهم أو في الأخذ بيد إخوانهم في بلاد الشرق التى عرفت في مصر رائدتها الأولى في كثير من نهضاتها التاريخية .

وهكذا بشرت نهضة محمد علي في أول الأمر بأن يكون موقع مصر مصدر بركة وخير لها وللشرق القريب كله . ولكن هذا الموقع ذاته ما لبث أن انقلب بسبب تدخل الدول الأوربية وموت الإمبراطورية العثمانية موتاً بطيئاً إلى مصدر خطر لا تزال نعانى شره حتى الآن . وليس ما حدث خلال الأربعين سنة الأخيرة وفي هذه الحرب العالمية الكبرى التى يقال إنها انتهت منذ أقل

من عام ، إلا نتيجة طبيعية لما كان من تشابك المصالح وتطاحن الدول من أجل هذا الشرق القريب والسيطرة على موقعه الجغرافي . ولكن قصة هذا التشابك والتطاحن أكثر تعقيداً من أن نستطيع تناولها في هذا المقال .

على أننا نستطيع أن نخرج من هذه الدراسة التاريخية بحقيقة كبرى فيما يختص بمصر وموقعها الجغرافي . ذلك أنه لم تحدث حرب « عالمية » بالمعنى الكامل الصحيح لهذه الكلمة ، منذ فتح الإسكندر باب هذا النوع من الحروب إلا كانت مصر طرفاً فيها . ولم تستطع هذه البلاد بموقعها الجغرافي القذ عند ملتقى الشرق بالغرب والشمال بالجنوب أن تجنب نفسها مثل هذه الحروب التي دُفعت إليها دفعاً أو انسأقت إليها انسياقاً ، فهي قد مستها حروب الإسكندر وحروب الرومان وفتوح العرب وحروب الصليبيين وغزوات المغول وفتح الأتراك وغزوز نابليون وما تلاها من تشاحن في الشرق لا تزال في أعقابه حتى اليوم . كذلك كانت مصر طرفاً في تأليف إمبراطوريات عالمية متتالية أيام الرومان والعرب والأتراك والبريطانيين . وإذا كان تاريخ المصريين أيام الفراعنة وقبل الإسكندر قد ارتبط بعامل جغرافي أساسي هو البيئة المحلية ومبلغ استغلالهم لها استغلالاً يعتبر مقياساً لازدهار المجتمع وقوة الدولة في تلك الأيام ، فإن تاريخهم بعد ذلك قد اتصل بعامل جغرافي آخر لا يملكون التنصل منه ولا تجنب آثاره ، ذلك هو موقع بلادهم الجغرافي الذي أطمع فيهم الطامعين وأفلت بسببه زمام التاريخ من أيديهم إلا في فترات قليلة عرف فيها أبناء البلاد وصادتها كيف يستغلون هذا الموقع لصالحهم ، وكيف يحققون لبلادهم من القوة والمنعة ما يناظرون به القوة الخارجية ، وكيف يتخذون من بلادهم قاعدة للتوسع في الشرق أو التحكم في التجارة العالمية ، كما حدث أيام البطالسة أو أيام صلاح الدين والمماليك ، وكما كان يجب أن يحدث لو أن نهضة محمد علي سارت سيرها الطبيعي . . . ولعلنا نذكر بعض هذه الفترات وما فيها من عبر ودروس عند ما نتطلع إلى المستقبل في أعقاب هذه الحرب المنتهية . . . والذكرى تنفع المؤمنين .

عليان مزين

الجنح الأبيض

هُزَّ الْجَنَحَ ——— أَحَ وطِيرَ كَأَنِّدَاءِ السَّحَرِ
 كَغَامَةِ بَيْضَاءَ، كَالزَّبَدِ الْجَمِيلِ عَلَى النَّهْرِ
 مَا أَبْهَجَ الْآفَقَ الْفَسِيحَ ! وَطَلَاةَ الْحَقْلِ الصُّبُوحَ !
 وَوَضَاءَ الْمَاءِ السَّبُّوحَ !

هُزَّ الْجَنَحَ ——— أَحَ وطِيرَ كَأَخْلَامِ الْوَلِيدِ
 مَا أَسْعَدَكَ ! فِي مَوْكِكَ ! تَطْوِي السَّمَاءَ كَمَا تُرِيدُ !
 وَتَرْوَحُ يَحْمَلُكَ النَّسِيمُ بِأَنَامِلٍ نَعِيمِ الْأَدِيمِ
 كَأَدِيمِ طِفْلِ نَاضِرٍ

أَسْرَابُكَ الْبَيْضُ الْخَفُوقَاتُ الْجَنَاحُ
 كَغَلَائِلِ الْخَزْ الرَّقِيقَةِ إِذْ تُعَابِثُهَا الرِّيحُ
 تَعْدُو إِلَى الرُّوْضِ الْغَضِيرِ وَتَحْطُّ فِي الدَّوْحِ النَّضِيرِ
 كَلَّالِيءِ الْبَحْرِ الْعَمِيقِ

سُبْحَانَ رَبِّي ! جَلَّ صُنْعُكَ ! مَا أَرَى ؟
 الْفَتْنَةُ الْبَيْضَاءُ تَنْبِتُ فِي الْغُصُونِ وَفِي الدَّرَى
 زَهْرًا بِهِ نَفْسُ الْحَيَاةِ ثَمَرًا يَعِزُّ عَلَى الشَّفَاةِ
 يَغْدُو الْقُلُوبَ بِسِحْرِهِ

الجنح الأبيض

هَزُّ الْجَنَاحِ وَطِرُهُ كَمَا يَهْفُو الْخِيَالُ
يَهْفُو يُؤَلِّفُ بَيْنَ أَشْتَاتِ الْمَعَانِي وَالْجَمَالِ
يُطْفِئُ بِالْمِيَاهِ وَبِالْثَّرَى طِفْءَ الْقُصُورِ وَبِالْقُرَى
وَأَجْمَعَ أَهَازِيحَ الرِّوَاكِ

عُدْ يَا حَبِيبَ النُّجُورِ فَالنُّورُ ذَوَى !
عُدْ يَا طَلِيقَ الرُّوحِ قَبْلَ اللَّيْلِ فَالطَّبَرُ أَوْى !
عُدْ ، كَمْ تُرْنَحُكَ الرِّيحُ فَتَعْمَالُ نَمٍّ حَتَّى الصَّبَاحِ
حَتَّى يُنَادِيكَ السَّحَرُ !

حَمَلْتُكَ (١) نَحْوَ عَوَالِمِ الشُّوقِ الْبَعِيدِ !
حَمَلْتُكَ نَحْوَ الْعُشِّ ، نَحْوَ النُّورِ وَالرُّوضِ الْنَضِيدِ
أَعْطَيْتُكَ آفَاقَ السَّمَاءِ وَغَدَّتْكَ أَطْيَافُ الضِّيَاءِ
وَحَبَّتْكَ بِاللَّحْنِ الْجَدِيدِ

عُدْ ، كَمْ تَرْنَحُكَ الرِّيحُ وَكَمْ تَرَى
مِنْ لَهْفَةٍ فِي نَفْسِكَ الظَّمَايَ تَجُوبُ بِهَا الْفَضَا
لَمْ يَشْفِهَا جُوبُ السَّمَاءِ أَوْ يُطْفِئَهَا ذَوْبُ الضِّيَاءِ
بَلْ زَادَهَا الْجُوبُ صَدَى

هَزُّ الْجَنَاحِ وَطِرُهُ تَتَابَعُكَ الْعَيْنُونَ
تَرْتَوِي لَخْفَقِ جَنَاحِكَ الصَّافِي ، بِأَشْوَاقِ السَّجِينِ
يَا لَيْتَنِي أَهْفُو مَعَكَ مَا بَيْنَ آفَاقِ الْفَلَكَ !
وَأَهْمِي كَالرُّوحِ الطَّلِيقِ !

ملكة عبد العزيز

جان بول سارتر ومواقفه

الادراك والخيال

ليس بين كتاب فرنسا اليوم من بلغت شهرته مبلغ شهرة سارتر . وليس هناك من حديث يدور عن كتاب اليوم في الصالونات والأندية العامة أو الخاصة بل في مركبات سكك الحديد إلا تناول ذكر سارتر ؛ فيقول أحدهم : ألم تقرأ كتاب سارتر الأخير ؟ وما رأيك في مقال « الفيجارو » عنه ؟ ويقول آخر في حسرة : آه ! لم تتح لي قراءة سارتر إذ عند ما سمعت به ورغبت في شراء مؤلفاته وجدتها كلها قد نفذت ، وهل من يعيرني نسخة من « الحائط » ؟ أو « الوجود والعدم » ؟ أو « الذباب » ؟ .

من هو سارتر ؟ وما سر هذه الضجة حوله ؟ يجب ألا نخيل إلينا أن قراءة بعدونه سيداً من سادة الأدب ، ورجلهم ، معلماً لذوقهم وانموذجاً لفنهم ، أو لأسلوبهم ، أو لما يحبون أن يكون عليه الأسلوب الفرنسي . هذا كان ولعله لا يزال شأن أندريه جيد و بول فاليري .

ولا يدعى سارتر لنفسه شيئاً من هذا ، ونجدده يقرر أن أحداً من الناس لا يستطيع أن يسمى نفسه سيداً أو معلماً في الأدب ، ويسخر من هؤلاء الذين يبحثون عن كاتب هو السيد أو المعلم ، وعن كتاب هو الكتاب المثالي أو القاعدة ، ويرى أن مثل هذه الدعوى لا تصح إلا بعد أن يكون قد مر قرن أو قرون على الكتاب وكتبهم .

وليس هناك رجل أبعد من سارتر عن الجماهير . وهو يعتقد قبل كل شيء أنه كفكر يجب أن يعيش وحده منفرداً منعزلاً : المفكر يفكر في طبيعته كفرد وفي مصيره وهو يعيش ويموت وحيداً . ولكن سارتر رجل النقائض ،

إذ نراه في الظاهر يغشى الأنذية بل يكتب في الأنذية ، بل لا يكاد يكتب إلا في الأنذية . وعند ما يلتقي محاضرة يختار مكاناً معداً للمجتمعات العامة والسياسية بنوع خاص ، ومكاناً يسع جمهوراً كبيراً .

لا عجب إذن أن يكون موضوع حديث ومناقشة . فهو يعمل ما في وسعه على إبعاد الناس من حوله ، ويعمل ما في قدرته على جمع الناس من حوله ، ولكنه سواء جمع الناس حوله أو أبعدهم ، فهو بين همس الناس وضوضائهم ، يعمل ما في وسعه على أن يحقق شخصيته ، شخصية قوية فريدة .

لست أعرف شيئاً عن صباه وشبابه الأول . أعرف فقط أنه من أسرة وسطى أو من « البورجوازية » الفرنسية — وهو من أشد نقاد البورجوازية وأعدائها — كما أن زوجه سيمون دي بوقوار من أسرة عريقة في البورجوازية ، ولو أنها تكره البورجوازية وقيمها ، والارستقراطية وتقاليدها .

لا أدري سنه بالضبط ، ولكني لا أظنه يتجاوز الأربعين . وسارتر دميم الخلقة ، قصير القامة ، بدين قوى ، يكاد رأسه يلتصق بكتفيه ، وشعره لالون له ، بين الأحمر القاتم والأخضر الرمادي . وهكذا قل عن لون بشرته ، غير متميز ، بين الأصفر والأزرق . وله عينان جاحظتان ، وفم غليظ الشفتين ، لا استقامة في خطه . وسارتر في ملبسه مهمل قدر ، وكان فيما مضى أشد قدارة في مظهره وأكثر إهمالا للملبسه . ولذا لم تغرم به الفتيات ، بل كن ينفرن منه ويهجرن مجلسه . وكان هذا مرّاً شديد المرارة على سارتر . ولا شك أن هذا يفسر إلى حد معين مكانة المسألة الجنسية من مؤلفاته .

في عام ١٩٢٤ نجح سارتر في مسابقة دخول مدرسة المعلمين العليا بباريس وهي من أصعب المسابقات . ولما تقدم لمسابقة الأجر يجاسيون أخفق ، فأعاد الكرة ونجح في سنة ١٩٢٩ أو في سنة ١٩٣١ ، أعنى أنه يكون رسب ثلاث دفعات أو خمس دفعات . ولا شك في أنه ليس لهذا الإخفاق أدنى أهمية في تكوين فكر سارتر وتنمية شخصيته الثقافية ، ولكنه بدون شك أثبت في ذهن سارتر فكرة أن الجامعيين عاجزون عن تقدير الموهبة الفلسفية الحقة ، وعاجزون عن الحكم على النبوغ الأدبي أو الفكري .

وعين سارتر أستاذاً في مدرسة روان ثم نقل إلى الهافر . ويحكى أنه كان يجلس مع طلبته في قاعة الدرس ومعظمهم لم يتجاوز السابعة عشرة ، ويوزع عليهم الدخان والسجائر ويدخنون جميعاً وهو يلقي عليهم درساً فلسفياً . وأحب الطلبة سارتر وأقبلوا على درسه ، لا للتدخين فحسب بل للاستماع له وللمناقشة معه . وكان ينتقل بهم من الدروس المرسومة بالبرنامج إلى موضوعات خارجة عنه من أحاديث أدبية وسياسية ، ومن هذه دون شك إلى أحاديث خاصة شخصية . وكان سارتر يحب طلبته ويخلص لهم ويرعاهم حين يذهبون إلى الجامعة ، فيعين بعضهم في أعداد شهاداته ويكتب لبعضهم الآخر بحوثه . أما هو فصمم ألا يكتب للدكتوراه ، وألا يعمل شيئاً للارتقاء إلى التدريس الجامعي ، بل عول على أن يبقى طول حياته أو طول مدة تدريسه على الأقل في المدارس الثانوية .

ولا شك أن حياته في الهافر منذ سنة ١٩٣٥ كانت قاسية عليه ، شديدة الوطأة ، وهي التي أملت عليه كتاب « الغثيان » . ويحوى هذا الكتاب فيما يحويه وصفاً رائعاً للهافر ، سادسة مدن فرنسا ، وصفاً لأهلها وعاداتهم وتقاليدهم . يصف سارتر فيه لون المنازل ولون الماء ولون السماء ، وتكثيف الناس بهذه الألوان ، وأثر هؤلاء في هذه المدينة ، سادسة مدن فرنسا وأبعثها للسامية والضجر . وصف سارتر يدور على أشياء لا تحملها النفس ، وصف تضيق به النفس كما كانت نفس سارتر تضيق بالأشياء وبالمدينة ، وصف يجعل شعورنا بالحياة مرّاً ، كما كانت حياة سارتر بالهافر مرّة أشد المرارة .

شرح سارتر يكتب وهو في الهافر ، ولكنه لم يبدأ بكتابة « الغثيان » بل كان أول كتاب له في سنة ١٩٣٥ « الخيال » . والكتاب فلسفي في عنوانه وفي مضمونه ، يدرس طبيعة الخيال والصورة الخيالية ، ويعالج النظريات الفلسفية التي تناولت فعل الخيال والصورة الخيالية ، يفسرها ويفسر مترلتهما من حياة النفس ومن المعرفة . وإن ابتداء سارتر بالتأليف الفلسفي ليعنى شيئاً كثيراً ، يعنى أننا يجب أن نعتبر سارتر في المبدأ فيلسوفاً ليس غير . ومضمون الكتاب وطريقة العرض فيه والمناقشة يدلان على أن سارتر فيلسوف من الطبقة الأولى ، له صبر حتى مع من لا يقر رأيهم من الفلاسفة ، وله قوة على النقد والهدم ، وله عمق في التحليل لم يبلغه أي فيلسوف معاصر .

ودراسة سارتر للخيال مناقشة أكثر منها عرضاً، وهي تحليلاً نقدياً أكثر منها وصفاً موضوعياً. وخلاصة الكتاب أن سارتر يرفض فيه جميع النظريات السابقة للخيال، وأنه يتجه في نهايته إلى موقف ظن أنه يحوى الحقيقة عن الخيال، فيفحص عن هذا الموقف فيجده غير مقنع. ويقف كتاب سارتر عند هذه الملاحظة، ويترك القارئ يبحث عن موقف نهائى دون أن يهتدى إليه.

لم هذه المناقشة؟ ولم عرض سارتر لهذه المشكلة؟ وما العلاقة بين هذه المناقشة الدقيقة وما سيصدر عن سارتر فيما بعد من المؤلفات الأدبية الرائعة؟ هل نجد هنا ما يعد مؤلفاته، ما يعد ثورته الفكرية؟ لا يمكن أن نجيب على هذه الأسئلة ما لم نعين بالضبط مضمون الكتاب، حتى ولو كان فى هذا التعيين ما يبعدنا عن ميدان الأدب والفن وما يقيدنا بشروط فلسفية دقيقة.

لما درس الفلاسفة المحدثون طبيعة الخيال، وجهوا نظرهم إلى الصورة الخيالية ولم يعنوا بفعل الخيال فى ذاته. واعتقدوا أن الصورة الخيالية، صورة هذا المثلث أو تلك الدائرة مثلاً. الصورة التى لدى الآن عن شخص معين، لا تختلف عن الإحساس بهذا المثلث أو بهذه الدائرة أو بهذا الشخص. وكما أن الإحساس والادراك الحسى أبعد الأشياء عن العقل والادراك العقلى، فكذلك الصورة الخيالية. وكما أن الإحساس والادراك الحسى يعوقان النفس عن التفكير الصحيح، فكذلك تعوق صور الخيال أفعال التفكير. ونجد عند ديكارت نصوصاً يكاد يقرر فيها أن الخيال جسمى، وأن الصورة الخيالية تقوم فى المخ أو فى ركن من أركان المخ. ونجد عنده أن الإنسان إن تخيل فلائه يوجه انتباهه إلى جسمه، ولأنه متحد بجسمه. ثم نجد عند اسپينوزا أن الخيال يقابل تأثر جسمنا بالأجسام المجاورة ويجعل النفس لا تفكر فى الأشياء إلا عن طريق هذا التأثر. والنفس وهى تحت سلطة الخيال لا تفكر فى الأشياء كما هى فى ذاتها، ولا فى علاقاتها الموضوعية، بل تفكر فيها من جهة الجسم المتحد بها، ومن جهة علاقات الأجسام بهذا الجسم. وما دامت النفس تحت سلطة الخيال، فهى إذن عاجزة عن معرفة الأشياء فى ذاتها وفى علاقاتها.

يسأل سارتر : كيف أن نفساً طبيعتها الفعل تحمل في ذاتها ما يناقض الفعل ؟ كيف يمكن أن تحمل النفس شيئاً مثل الصورة الخيالية التي هي جسم أو شبه جسم ؟ أو ليس هذا تناقضاً صريحاً ؟ واحد إذن من أمرين : إما أن ننكر وجود الخيال جملة ، وفي هذا الإنكار ما يخالف الواقع ، أو أن نقرر وجود الخيال بحيث لا يكون في تقريرنا هذا ما يعارض طبيعة النفس المفكرة الفعالة . ولكن كيف يصح هذا والصورة الخيالية تقوم في الذهن أو في المخ — إذا أردت — كما يقوم المثلث أمام عيني أو كما يظهر هذا الشخص الآن أمامي ؟

قد حاول برجسون في أواخر القرن الماضي أن يخفف من هذه الصعوبات عند ما اعتبر الأجسام كلها صوراً أو مركبات صور ، وعند ما قرر أن المادة المطلقة ، تلك التي تعارض طبيعة الروح المطلقة ، لا وجود لها إلا في أذهان الفلاسفة ، وأن طبيعة الأشياء ليست روحاً بالمعنى الدقيق ، مثل روجي أنا أو مثل روح فلان ، وليست جسماً جامداً بلا حراك ، بل إنها بين الاثنين عبارة عن مجموعة صور، إن تركزت واتحدت فيما بينها اقتربت مما نسميه روحاً وفكراً ، وإن تشعبت وتبددت اقتربت مما نسميه مادة وجسماً . ومن ثم ليس هناك فارق جوهري بين الصورة الخيالية والروح من ناحية ، وبين هذه الصورة والأجسام من ناحية أخرى . ثم ليس هناك إذن أي إشكال في قبول التصور الخيالي في النفس ما دامت النفس في أصلها جملة صور وكانت هذه الصور في أصلها شيئاً غير المادة البحتة . ولكن ثمة نتيجة أخرى أشد خطورة : ليس هناك اختلاف جوهري بين الإدراك الحسي والتصور الخيالي إن كان الإدراك الحسي حضور صورة أو صور لمجموعة صور أخرى ، والتصور الخيالي مثول صورة أخرى لنفس هذه المجموعة من الصور . ويقوم الفرق الوحيد بينهما في أن حضور الصور للنفس في الإدراك الحسي له متزلة حيوية عملية ، ومتعلق أشد بالتعلق بمطالب النفس الآنية ، في حين لا ينحضع حضور الصور للنفس في الخيال لمثل هذه الشروط ، سواء تركزت الصور وتركبت فيما بينها على نحو جديد أو تحررت كلية من مطالب الحياة المشتركة الاجتماعية . ومن هنا كان الخيال ابتكاراً ، ومن هنا تكونت الأحلام .

يتعجب سارتر من موقف برجسون ومما صادفه من النجاح عند الفلاسفة

وعلماء النفس . كيف يقنع الفيلسوف بموقف ينتهى به إلى إنكار ذات الحقيقة التى يعتمد عليها فى تفهه وفى حكمه على الأشياء وتقديره لها ، أقصد حقيقة الفكر الخالص ، حقيقة الذهن الفعال ؟ إذ سواء قربت النفس من الجسم كما يفعل الماديون أو الجسم من النفس كما يفعل برجسون ، فأنت تهمل دون شك مزية النفس على الجسم واستقلالها عنه . وسواء اعتبرت الصورة الخيالية نسخة من الإحساس يعوق الذهن فى تفكيره كما يفعل ديكرت أو رجعت هذا التفكير إلى جملة صور كما يفعل برجسون ، فأنت تعترف بأن الخيال لن يتميز عن الإحساس ولن يتعدى حدود الإحساس والإدراك الحسى .

ولكن ثمة نتيجة مهمة أخرى لموقف برجسون ، كانت متضمنة فى مواقف ديكرت وأسبينوزا : إن كان التقريب بين الإحساس والصورة الخيالية مشروعاً والتبادل بينهما جائزاً ، لم يعد هناك أى داع للتمييز بين الموضوعات الخارجية وصور الخيال ، أو — كما يقول ديكرت — بين اليقظة والأحلام ، بين إدراكي الآن فى الوقت الحاضر لهذه المائدة كما هى أمامى أو لهذا الرداء الذى ألبسه ، وبين صورتى المائدة والرداء فى ذهنى حين أكون نائماً أحلم .

ولكن ألسنا مخطئين حتى فى استعمال كلمة « صورة » ؟ ألسنا نعرض أنفسنا بهذا الاستعمال للوقوع فى الخلط بين إدراك الموضوع الخارجى وتصوره الخيالى ، للخلط بين الجسم المائل أمامنا ، وحضور هذا الجسم عندما نحلم به ؟ زد على ذلك أن من يتكلم عن « صورة » فهو يقصد « نسخة » من شىء خارجى ، ومن يتكلم عن الصور التى فى الذهن عن الموضوعات الخارجية ، فكأنه يحمل الذهن نسخاً للموضوعات الخارجية ، كما تحمل العدسة الفوتوغرافية صور الأشخاص والأجسام . ولكن إذا كان الفكر فكراً حقيقياً ، وإذا كان الشعور شعوراً حقيقياً ، فلا محل فيهما لا للصور ولا للنسخ ، وإذا كان الفكر فعالاً ، فأحواله دائماً أفعال مهما اختلفت شروطها وموضوعاتها . لنترك إذن لفظة « الصورة » جانباً ولنتكلم فحسب عن الخيال وموضوعاته ، كما نتكلم عن الإدراك الحسى وموضوعاته .

ما الإدراك الحسى ؟ وما الخيال ؟ أقل ما يمكن أن يقال الآن ، هو أن الإدراك الحسى تمثل للأشياء فى حضورها الحى ، أو كما يقول هورسل « بلحمها وعظمها » . والخيال تمثل لنفس الأشياء ، ولكن فى غيابها بالذات . وإذا

لم يقيم فارق بين الإدراك والخيال فهذا معناه أن لا فارق بين الأجسام الحاضرة والأجسام الغائبة ، أى إلى حد ما بين وجود الأجسام وعدمها . ولكن الفلسفة تبدأ بتمييز أساسى بين اتجاهين للنفس ، أحدهما يرمى إلى تقرير وجود الأجسام ، إلى تقرير حضورها فعلياً لا مرأى فيه ، والآخر يرمى إلى التفكير فى الأجسام فى غيابها غياباً حقيقياً .

يلتقى سارتر فى هذه اللحظة مع المدرسة الألمانية المعاصرة التى يترجمها هورسل ، هذه المدرسة التى تطلق على نفسها اسماً غريباً هو « الفنونولوجيا » . والاسم يعنى حرفياً « دراسة الظواهر » . وإنما يقصده فى نظر هذه المدرسة ، موقفاً يظهر الحقائق للعيان ، فلسفة تصف الشعور وأفعاله وموضوعاته فى خصائصها الجوهرية .

اعترف سارتر بدينه للفلسفة الألمانية لما قامت به من التمييزات الهامة ، وخاصة عند ما وصفت فعل الإدراك الحسى فى اتجاهه نحو موضوعاته ، عند ما وصفت الكيفية التى يتجه بها الإدراك نحو موضوعاته ، والنحو الذى تمثل به هذه الموضوعات للذهن فى الإدراك . وعمل سارتر على فهم موقف هذه الفلسفة من الخيال وموضوعاته ، ولكنه لم يجد مفرّاً من الاعتراف بأن هذه الفلسفة ، وهورسل خاصة ، قد عجزا عن حل مشكلة الخيال .

يريد سارتر أن يحدد طبيعة الخيال ، والخيال غير منفصل فى الوجود عن موضوعاته . يجب عليه إذن أن يحدد أيضاً طبيعة هذه الموضوعات وكيفية مثولها للذهن فى الخيال . إذ لا يكفى إن تقول أن الخيال تصور لموضوعات غائبة الآن عنا ، ولا يكفى أن تقول إن موضوع الخيال لا يمثل للذهن « بلحمه وعظمه » حسب تعبير هورسل ، كما هو الحال للموضوع الحسى . بل إن مشكلة المشاكل هى هذه : كيف يتأتى لما كان موضوعاً حسيّاً ، أى موضوعاً يمثل للإنسان « بلحمه وعظمه » ، أن يمثل للإنسان وهو غائب عنه بالذات ؟ وكيف يتأتى للإنسان أن يتصور هذه الموضوعات الحسية ، وهى منعزلة عن شروط الموضوعات الحسية بالذات ؟ وبتعبير آخر ، كيف يصح لما كان موضوعاً حسيّاً أن يحضر للذهن دون أن يكون حاضراً للذهن ؟ وكيف يصح لكائن مثل الإنسان يقوم بالإدراك الحسى أن يقوم بفعل يعارضه تمام المعارضة ؟

هذا سؤال أو هذه أسئلة سارتر في الكتاب الذي أصدره سنة ١٩٣٥ .
والسؤال له خطره لأن الإجابة عنه ستحملنا دون شك على أن نقرر قيام فعل
للذهن متصل أشد الاتصال بالإدراك الحسى مع أنه متميز عنه كل التميز .
وستدعونا الإجابة عن هذا السؤال إلى أن نقرر موضوعات هي أقرب الأشياء
لموضوعات الحس والعالم الخارجى ، ولكنها مع ذلك أبعد الأشياء عنها ،
موضوعات موجودة لأنها حاضرة للذهن المفكر ، وغير موجودة الآن بالفعل .
والسؤال مهم لأن الإجابة عنه أو محاولة الإجابة تتصل عنه أشد الاتصال بمسألة الفن
وموضوعاته : فإن كانت قوة الفنان ، قصصياً كان أو مثالاً أو مصوراً ، تقوم
في خياله ، فالفنان يتصور إذن موضوعات غير موجودة ، أو هو يتصور عدماً ،
أو ما هو أسوأ من ذلك ، يعطى للعدم وجوداً . وسيؤدى بنا البحث فى هذه
المسائل إلى الإجابة عن سؤال خطير : إذا كانت الموضوعات الخارجية وعلامتها
الوجود تمثّل للذهن أحياناً كأنها غير موجودة ، فهل يعنى هذا أن الوجود
يتخلله العدم ، أو أن الوجود يحمل فى ذاته ما يعدمه ؟

نجيب بلمرى

رحلة في برقة

٢ (١)

الى المرج : برقة وطمية

الطريق من الشحات إلى المرج حوالى مائة كيلومتر ، ومن المرج إلى طمية حوالى الثلاثين . والمرج هو الاسم المتداول اليوم لمدينة برقة ، كما أن طمية هي بطليموس أو بطلاميد مدينة البطالمة . والاولى من مؤسسات الاغريق فى القرن السادس قبل الميلاد ، كما ان الثانية أخذت اسمها عن بطليموس الثالث يورجيتيس (٢٤٦-٢٢١ ق.م.) الذى ورث برقة بحكم زواجه من بيرينيس ابنة أميرها . وكانت طمية منذ تأسيسها ميناء برقة ؛ ولكنها سرعان ما بلغت المرتبة الاولى بين مدن برقة الخمس (بنطابوليس) وتفوقت على برقة نفسها لاهتمام البطالمة بأمرها ، وتشجيعهم لسكانها .

والطريق إلى برقة يناطح فى جماله وروعته الطريق إلى رأس الهلال ، لاسيما فى وادى الكوف^(٢) حيث تضيق ممراته ضيقاً شديداً ، وترتفع الجبال على جانبيه ارتفاعاً عمودياً شاهقاً مروعاً ، وتنفجر من بطن الجبل على علو كبير كهوف واسعة وعميقة ، هى الكهوف التى سكنتها فرق المجاهدين العرب ضد الاستعمار الايطالى ، أنزلوا إليها بالجبال ، وأتاهم إخوانهم من أعلى الجبل بالمؤن والعتاد ، فاستطاعوا من مخابئهم الحصينة أن يقطعوا على الايطاليين الطريق دون الوصول إلى إقليم برقة الشرقى سنين عدة ؛ ولم يتمكن الغزاة من كبخ جماحهم

(١) الكاتب المصرى عدد ٦ (فبراير ١٩٤٦) .

(٢) الكوف : جمع كاف . يقال لأنها مشتقة من أصل أوربى cave ومعناها كهف .

رحلة في برقة

واستئصال مقاومتهم إلا بعد أن نزلوا من البحر عند درنة ثم ساروا عليهم من الشرق والغرب في وقت واحد تحرّسهم طائرات الهجوم من علي . أما طريق طلميتة فيبدأ قبيل الوصول إلى برقة شرقاً ، وهو طريق شديد الوعورة ، قائم على أساس الطريق الذي شقه الإمبراطور تراجان في القرن الثاني الميلادي مع تعديلات طفيفة .

وتقع برقة في سهل زراعي خصيب متسع الأرجاء ، اشتهر في التاريخ القديم بإنتاج الغلال وتربية الخيول . وآثار برقة قليلة ، منها مقبرة إنغريقية قديمة منقورة في الصخر على بعد خمسة كيلومترات عند بداية المرتفعات الشرقية ، ثم بقايا كنيسة مسيحية من بنيان الإمبراطور جستنيان حوالي سنة ٥٣٥ م ، تشبه عمدها كنيسة في أبولونيا . وعلى الساحة الكبرى التي تتوسط المدينة والتي تدعى الآن « ساحة مونتجومري » يوجد حصن كبير بناه الأتراك سنة ١٨٤٠ من الحجر الرمل ، وهو الآن المركز الرئيسي للحكومة البريطانية الحربية بإقليم برقة ، وعند مدخله توجد عدة لوح وشواهد بالخط الكوفي القديم المزخرف . وبجانب ذلك الحصن يوجد « الأوتيل » الكبير الذي تأنق الإيطاليون في بنائه ، وجلبوا له الرخام الملون والأثاث والرياش وأدوات الترف من إيطاليا ، وهو الآن نادي الضباط ، نزلت فيه فرأيته قطعة من أحسن منازل أوروبا . وایس في المرج إلا شارع رئيسي واحد هو الذي يقطع الساحة الكبرى أمام الحصن العثماني ويمر بالسوق والجامع حيث الحي الوطني بأزقته وبيوته المتلاصقة . أما الحي الأوربي فهو حول الحصن ، وتمتاز بيوته بالسعة والنظام والبساتين الفسيحة .

وإذا كانت برقة فقيرة في آثارها القديمة ، فإن طلميتة على العكس من ذلك غنية بها . وبقدر تفاهة القرية الحديثة كان عز طلميتة القديم واتساع أرجائها ، فإن ما بقي منها يدل على أنها كانت تمتد من الساحل في عرض السهل إلى التلال الجنوبية ، وأنها من حيث تنسيقها لا تقل عن مدن البطالمة الأخرى بما فيها الإسكندرية ، فشوارعها مستقيمة ، ومبانيها فاخرة ، يدخلها الزائر من الباب الغربي القديم الذي لا زال قائماً إلى ارتفاع يزيد عن ستة أمتار ، وعلى جدرانها نقوش إنغريقية وعربية كثيرة ، وفي الجنوب آثار جسر للمياه كان يصل عيناً جارية على بعد أربعين كيلومتراً في الجبل بخزان الماء العظيم الذي يعد من أعظم

رحلة في برقة

وأكل الأمثلة لخزانات الماء الرومانية ، ينزل الإنسان إليه من مدخل معين ، فيجده عبارة عن سبع حارات عميقة تقطع سبعاً أخرى في زوايا قائمة ، عروشها معقودة وسميكة . وفوق هذا الخزان السوق (الفوروم) ، يتوسطه هيكل وبعض أعمدة قد تكون جزءا من معبد لعبادة القياصرة . والمدينة عامرة بآثار المباني اليونانية الرومانية الفخمة ، قام الأثريون بإصلاح أحدها وهو قصر لثرى من أثريائها لا زالت تلوح عليه علامات البذخ والترف بأجلى مما تظهر به حتى في قصر جانوس العظيم بأ كروبول قورينا . وربما كان أمتع ما فيه الفسيفساء البديعة التي تزدان بها أرض حجراته من حيث دقة الصنع وجمال الرسوم النباتية والحيوانية وبهجة ألوانها ، لا سيما صورة لرأس ميدوسا الميثولوجية تعد تحفة بما فيها من حياة وبريق وألوان زاهية صافية . ووسط هذا القصر نافورة وحمام للسباحة يحيط بهما صف من العمود الكبيرة المزخرفة الجميلة الصناعة . وفي دور سفلى توجد الحمامات والمخازن ومساكن الخدم وعدد من الحيوانات الجانبية بحذاء الطريق العام الخارجي . وفي طلمبة غير ذلك آثار لدار تمثيل يونانية وملعب روماني ومدرج للألعاب المصارعة . غير أنه يفوق كل ذلك مبنى الكنيسة الكاتدرائية العظمى التي ترجع إلى القرن الرابع المسيحي ؛ لأن بانها هو الأسقف سينيزيوس آخر شخصية كبيرة في عالم الأدب والفلسفة الإغريقي القديم . ومن آثاره المنشورة تتكون مئات من الرسائل اليونانية البليغة التي يندب فيها حظ بلاده في عصر الاضطراب والفوضى عند ما اكتسح البربر مدائن برقة الخمس بعد أن هدم اليهود حصونها وذبحوا أهلها . وقد اهتم الإيطاليون بكنيسة سينيزيوس اهتماماً عظيماً ، وأعادوا بناء كثير من أجزائها كما كانت . وهي بلا نزاع من الأمثلة الفريدة للمباني الدينية المحضة في عهد القلاقل والثورات . فدخلها عبارة عن منفذ صغير لا يسمح لأكثر من رجل أو رجلين بولوجه ، وحوائلها الخارجية كجيطان الحصون في ضخامتها ، ويعلوها طريق لسير الحراس وجنود المقاومة ، وفي ردهاتها آبار وصهاريج لاختزان المياه تحت الأرض لتموين حاميتها إذا طال حصارها . وفوق كل ذلك يقول علماء الآثار إن بينها وبين الكنائس المصرية الرومانية شبيهاً ملموساً من ناحية الفن والمعمار وتنسيق ردهاتها وهياكلها وقبابها مما لا يتسع المقام للكلام عنه . وفي طلمبة دار للتحف تحتوى على كثير

رحلة في برقة

من التآثيل والأعمدة والرسوم الملونة وقطع من الفسيفساء وغير ذلك مما تجدر رؤيته ويصعب حصره في هذا المقام .

طقرة وبنغازي

هذه هي المرحلة الأخيرة من رحلة طويلة . والمسافة ما بين المرج وبنغازي حوالي مائة وعشرة من الكيلومترات . وتقع طقرة على أقل من منتصف الطريق إلى بنغازي . وطقرة مثل طلميتة كانت في الماضي إحدى موانئ مدينة برقة ، ولكنها الآن أعظم اتساعاً ، وأكثر تنسيقاً ، وألطف هواءً ، وأخف روحاً من طلميتة ، إلا أن آثارها عبارة عن أكوام لم تمسها بعد يد الحفارين والآثرين المنقبين بمجد ، فهي لذلك حقل بكر للبحث والإنتاج .

وطقرة الحديثة قائمة إلى الداخل بعيداً عن الساحل ، في حين توجد المدينة القديمة بجوار قلعة تركية على شاطئ البحر . وحوائط المدينة البيزنطية كاملة الدائرة من عهد الإمبراطور جستنيان في القرن السادس الميلادي ، وليس في برقة القديمة بأكثر مما يضارع هذا الحائط في احتفاظه بكيانه . وداخل المدينة من ناحية الحصن العثماني الطريق الرئيسي الذي يخترقها من الشرق إلى الغرب وهو مستقيم مرصوف بالحجارة ، وإلى جانبه من الناحية الشرقية الجنوبية آثار هيكل وعمود رخامية ورءوس عمد مهشمة عليها صلبان بيزنطية تدل على أن بالمكان كنيسة من ذلك العصر . كما يلاحظ أن على بعض أجزاء تلك العمود نقوشاً عربية من عهد متأخر . وفيما دون ذلك لا يكاد الرائي يميز شيئاً معيناً بين خرائب المدينة التي يختلط في تلالها وأكوامها الرماد بالحجارة والأعمدة المتكسرة . وخارجها نحو الشرق على مقربة من الناحية الأخرى للحصن التركي ، توجد آثار مقبرة منقورة في الصخر ، كشف عنها طيار بريطاني في العهد الأخير ، وتقل محتوياتها المتواضعة من عظام وآنية فخارية وزجاجية وأدوات مختلفات إلى دار المتحف الصغيرة في منزل الإدارة بالمدينة الحديثة .

أما بنغازي فيدركها المسافر في أرض منبسطة ، وفي حدودها الجنوبية الشرقية منطقة الملاحه التي تغمرها مياه ملحة قليلة الغور ، يستخرجون منها الملح على غرار ما هو حاصل في بحيرة مريوط عند الاسكندرية . ويلاحظ الانسان

لأول وهلة من دخوله إياها أن ما نالها من وطأة الغارات الجوية لم ينل مدينة أخرى بشمال إفريقية غير طبرق . فانك لا ترى طريقاً من طرقها إلا والمتخرب من مبانيه يعدو العامر . أما العمار الكبري التي بالغ الإيطاليون في الإسراف على بنائها وتجميلها مبالغة تفوق حد الحسبان ، فما لم يهدم منها بكامله ، أصابت القنابل بعض أجزائه ، وأصلح البريطانيون الأجزاء الباقية ليستعملوها للدواوين والسكنى . وميناء بنغازي العظيم أصبح قليل النفع لكثرة الغارق فيه من السفن . وربما كانت الأحياء التي لم تصبها القنابل بإصابات كبيرة تنحصر في منطقتي الكاتدرائية العظمى والسوق الوطنية . وجو بنغازي غير جذاب تغلب عليه الحرارة التي ليس فيها من جفاف الهواء ما يشفع لها ويخفف من وطأتها . وبالرغم من أن بنغازي ذات مكانة في التاريخ القديم ، حينما كانت تحمل اسم برنيقة Berenice زوجة بطليموس الثالث ، فهي خالية من الآثار التي تدل على مجدها التليد . وكل ما يمت لذاك التاريخ بصلة هو أن الأقدمين حددوا موقع الجحيم والنعيم كما وردا في أساطير الآلهة الميثولوجية ، عند نقطة قريبة من بيرينيس في جهة تدعى « لیتی » على عشرة كيلو مترات من بنغازي على طريق مطار بنينة الشهير .

وهذا الجحيم الميثولوجي ^(١) يختلف عن جهنم ذات السعير التي نعرفها في كتبنا المقدسة ، فهو عبارة عن مغارة عميقة في بطن الأرض واصله إلى العالم السفلي . نزلت عشرات الدرج إلى فوهتها مع زميل يقودني بين أحراش كثيفة ، فإذا ما وصلنا إلى حيث تبدأ الرحلة الأبدية أوقدنا مشاعلنا ، وهبطنا في الغار متوكلين على الله عز وجل ، طالبين السلامة ، وكلما تعمقنا فيه ضاق بنا الموضع ، وانخفض الصخر المتدلى على رؤوسنا ، فأنحنينا وانحنينا حتى كادت ظهورنا تنقسم من شدة الانحناء . وأخيراً علا الصخر واتفرج المكان فجأة ، ولكن الظلمات تكاثفت حتى كأن سوادها قد امتص ضوء المشاعل ، فكنا نرى لهاها قاتراً ولا نرى مدى الضوء من حلقة هذا الليل الأبدی ، ثم عبرنا قنطرة صغيرة ، وإذا بقائدي يصبح بي أن قف ، ولن تستطيع إلى ما بعد ذلك سييلا .

(١) مغارة لیتی التي يسميها العرب الشق الكبير اعتبرها الكتاب الأقدمون أمثال بليني وسترابون وبطليموس الجغرافي بما فيها من للمياه نهراً من أنهار الجحيم الميثولوجي تشرب منه أرواح الموتى فتنشى أفراحها وأتراحها في الماضي على الأرض .

رحلة في برقة

فشعرت بقشعريرة غريبة لا أدرى أهي ترجع لعامل الخوف الغريزي الذي يعتري المرء في أعماق الظلمات وهو لا يعرف إلى أين يسوقه القدر وتسوقه القدم ، أم هي البرودة التي يشعها ذلك الماء المثلج الذي يملأ بقية المغارة إلى مسافات طويلة ، وبالذي من أجله استوقفتني زميلي عند تلك النقطة ؟

عدنا أدراجنا من جديد نتخبط في تلك الظلمات ، وطلبت من صديقي أن يريني جنة الآلهة اليونانية التي حدثني عنها لتعويض ما نالني من جحيمهم ، فصعدنا إلى دنيانا نحن الأناسي^(١) ، وعبرنا الطريق المجاورة ، وإذا بصديقي يشير إلى مساحة من الأرض الحرام ، كتب على بابها أنها مخصصة لوزارة الطيران الحربي ، ثم قال : هذه هي الجنة^(١) التي تنشد رؤيتها . فكان بذلك حسن الختام ، إذ لم تمض أيام معدودة حتى امتطيت متن الطائرة التي أقلتني إلى أهلي ووطني من مطار بنينة في هذه المنطقة بعينها .

عزيز سرريال عطية

(١) هذه المنطقة معروفة في كتب الإيثولوجيا باسم Hespérides ويقال إن زيوس وهرقل وغيرها من آلهة اليونان كان لهم مغارات مشهورة في هبتيها .

الملكة شجرة الدر

١

لما توفي السلطان الناصر صلاح الدين ملك مصر والشام في سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣ م) ترك مملكة شامخة ، ولكنها مفككة العرى ؛ وكانت وفاته خاتمة لعهد من أمجد عهود الإمبراطورية الإسلامية المصرية ، ففيه حطمت المملكة الصليبية في فلسطين ، واستردت بيت المقدس (٥٨٣ هـ) ومزقت قوى الصليبيين في سائر الأنحاء . وخلف صلاح الدين في ملك مصر ولده الملك العزيز ، وكان نائبه بها ، وخلفه في الشام ولده الأفضل ، وفي حلب ولده المظفر . وبذا انقسمت المملكة المصرية الشامخة إلى ثلاث ممالك ، وأخذت قواها التي حشدت من قبل مجتمعة لمحاربة الصليبيين ، تتبدد في سلسلة لانهاية لها من الحروب الأهلية ، ونشبت الحرب حيناً بين العزيز وأخيه الأفضل . ولما توفي العزيز بعد قليل في سنة ٥٩٥ هـ ، وخلفه على عرش مصر ولده المنصور طفلاً ، سنحت الفرصة للأفضل فقدم إلى مصر بدعوة من الأمراء ، واستولى على زمام الأمور بضعة أشهر ، ولكن الحرب نشبت بينه وبين عمه العادل وانهى الأمر بهزيمة واستيلاء العادل على عرش مصر والشام . وهنا آانس الفرنج ضعف المملكة المصرية ، وقدمت حملة صليبية جديدة إلى مياه فلسطين ، وطمع الفرنج في استرداد بيت المقدس ، ونشبت بينهم وبين العادل عدة مواقع انتهت بعقد الهدنة بين الفريقين (٦٠٠ هـ - ١١٩٨ م) . وفي عصر الملك العادل هبط النيل هبوطاً شديداً ، وعانت مصر من القحط والغلاء أهوالاً مروعة يصفها لنا عبد اللطيف البغدادي تزيل مصر يومئذ وصفاً يرتجف له القواد فرقا (١) . وفي سنة ٦١٥ هـ عاد الصليبيون إلى مهاجمة مصر ، وزحفوا على مدينة دمياط ،

(١) راجع هذا الوصف في كتاب « الافادة والاعتبار » لعبد اللطيف البغدادي (مصر) ص ٤٩ وما بعدها .

الملكة شجرة الدر

وسار الكامل ولد العادل ونائبه بمصر لمقاومتهم ؛ وقدمت عساكر الشام بقيادة أخيه الملك المعظم ، ولكن الصليبيين استولوا على دمياط بعد معارك شديدة ، وارتدت القوات المصرية إلى قرية المنصورة جنوباً ؛ ومات الملك العادل أثناء ذلك وخلفه على عرش مصر ولده الكامل ، وفي الشام ولده الملك المعظم . وحاول الصليبيون أن يسيروا من دمياط إلى الداخل ، ولكنهم ردوا على مقربة من المنصورة (٦١٨ هـ) . وانهى الأمر بعقد الصلح بين الفريقين على أن يخلى الفرنج دمياط ، ويستردوا بيت المقدس عدا الأحياء والمعاهد الإسلامية . وحكم الملك الكامل زهاء عشرين عاماً ، وامتد حكمه إلى الشام واستقرت الأمور في عهده وتوطدت أركان المملكة ، واتفقت قواها المبددة . وتوفي سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) .

تخلفه على عرش مصر ولده الأصغر الملك العادل أبو بكر وكان نائبه بها ، وكان ابنه الأكبر الصالح نجم الدين نائباً عنه بحلب وبلاد الشرق فلم يرقه هذا التصرف ، ورأى أنه أحق بملك مصر من أخيه ؛ وسار في أنصاريه معلناً الخلاف ، ووصل إلى جنوبي الشام بعد عدة وقائع وخطوب . وهنا دبر له الناصر داود صاحب الكرك كميناً وأسره وزجه سجيناً إلى القلعة مع بعض حشمه وجاريتيه شجرة الدر أم ولده خليل (صفر ٦٣٧ هـ) ، فلبث يرسف في أسره سبعة أشهر . ولما علم أخوه العادل باعتقاله أرسل إلى صاحب الكرك يطالبه بتسليمه نظير فدية كبيرة ، فأبى الناصر وطالب مقابل تسليمه بنيابة دمشق ؛ فعندئذ اتفق العادل مع عمه الصالح صاحب دمشق أن يسير كلاهما لقتال الناصر ويحصرانه بذلك من الشمال والجنوب . وفي أثناء ذلك تفاهم الناصر مع أسيره الصالح نجم الدين ، وأطلق سراحه وتحالف معه على أن يقطعه الشام ويستقل هو بملك مصر .

وكان العادل ملكاً سيئ السيرة ، يقضى وقته في اللهو والمجون الصاخب ، ويطلق يد الندماء والعابثين في شؤون الدولة ، فحقد عليه معظم الأمراء ، وكانت منهم جماعة من المماليك الكاملية تخشى سوء العاقبة وتري في الملك العادل فتى طائشاً لا يصلح للملك وتتربص الفرص للوثوب عليه . فلما سار العادل لمحاربة الناصر صاحب الكرك ، رأوا الفرصة سانحة للعمل فساروا إليه في معسكره بيلبليس ، وأحاطوا بخيمته وقبضوا عليه ، وكتبوا إلى الصالح نجم الدين يستدعونه

لتولى الملك . فسار الصالح إلى مصر في عصبته ، ودخل قلعة الجبل وجلس على العرش (٢٥ ذى الحجة سنة ٦٣٧) وقبض على أخيه العادل وزجه إلى ظلام السجن ، فلبث فيه عدة سنين ، ثم دس عليه الصالح من خنقه (٦٤٦هـ) ؛ وبذا لقي نهايته المحزنة .

٢

كان الملك الصالح نجم الدين حينما جلس على عرش مصر فتى في نحو الرابعة والثلاثين من عمره ، وكان مولده بمدينة القاهرة في سنة ٦٠٣هـ (١٢٠٦ م) وبها نشأ وترعرع . ولما استولى الفرنج على دمياط أيام أبيه الكامل (٦١٥هـ) وعقد الصلح بينهم وبينه ، أرسله أبوه مع نفر من الأمراء رهينة إلى الفرنج مقابل رهائتهم حتى تنفذ شروط الصلح . ولما استولى الكامل على الديار الشرقية (آمد وغيرها) عين ولده الصالح نائباً عليها (٦٢٩هـ) ثم أرسله في سنة ٦٣١هـ لمقاتلة الروم (البيزنطيين) . ولبت الصالح نائباً على الديار الشرقية ، حتى توفي أبوه في سنة ٦٣٥هـ ولقي ما لقي من الخطوب حتى استطاع أن يستخلص عرش مصر لنفسه من أخيه العادل حسباً قدمنا .

ودخل الصالح مصر في أواخر سنة ٦٣٧هـ ومعه شجرة الدر حظيته وأم ولده الأصغر خليل . وقد كان مقدم شجرة الدر يومئذ ، فيما يبدو ، أول عهد لها بمصر . ولا تذكر الرواية اسمها قبل ذلك إلا حينما سجنّت مع سيدها في قلعة الكرك قبل ذلك بأشهر قلائل ، وهو في طريقه إلى مصر . وتقول لنا الرواية إنها كانت في صحبة الصالح مذ كان نائباً عن أبيه بالمشرق ، ثم صحبته عند سيره إلى مصر ، وشاطرته آلام المحنة والاعتقال بشجاعة وصبر .^(١)

فمن هذه المرأة التي سطعت غير بعيد في بلاط مصر ، والتي قدّر لها أن تتولى عرش مصر فيما بعد ، وأن تغدو بتبوءها الملك مثلاً فريداً في صحف التاريخ الإسلامي ؟

كانت شجرة الدر حسباً تصفها الرواية « جارية » تركية أو أرمنية أوروبية ، اشتراها الملك الصالح أيام إقامته بالمشرق . وهنا يبدو السبب في عجز الرواية عن

(١) التجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٣ .

الملكة شجرة الدر

أن تقدم إلينا شيئاً عن حقيقة أصلها ونشأتها ، فهي لم تكن إلا واحدة من ألوف الجوارى اللاتي كانت تعص بهن قصور الخلفاء والسلاطين في تلك العصور ، ولا تعرف الرواية عنهن شيئاً إلا حينما يسطع نجمهن فيغدون « أمهات ولد » ينجن الخلفاء والسلاطين ، أو يجزن بذكائهن وقوة سحرهن إلى ميدان السلطة والنفوذ ، ويشاطرن في توجيه الشؤون .

وهكذا فإننا نقف على ذكر شجرة الدر لأول مرة في سنة ٦٣٧ هـ وهي مع سيدها الملك الصالح في طريقه إلى مصر ، وتصفها الرواية عندئذ « بجاريته وحظيته وأم ولده خليل » . وإذن فقد كانت شجرة الدر عندئذ ما تزال جارية وأم ولد فقط ، ولم تكن قد غدت زوجة شرعية للملك الصالح . وقد كان ولدها « خليل » يومئذ فيما يبدو طفلاً لا يتجاوز بضعة أعوام ثلاثة أو أربعة ، وقد مات كما نعلم وهو ما يزال في طور الطفولة . وتزيد الرواية على ذلك أن شجرة الدر حينما زُجّت مع سيدها إلى قلعة الكرك ، كانت حاملاً فأسقطت غمماً وروعاً . فإذا فرضنا أن هذا هو حملها الثاني بعد ولدها خليل ، وإذا ذكرنا أن سيدها الملك الصالح اشتراها مذ كان نائباً بالمشرق حوالي سنة ٦٣٠ هـ فإننا نستطيع أن نقدر سنّها حين دخولها إلى مصر على الأقل بنحو خمسة وعشرين عاماً .

وكانت شجرة الدر امرأة بديعة الخلال وافرة الجمال والسحر ، حسنة الثقيف ، بارعة في القراءة والكتابة . وتنوّه الرواية فوق ذلك بوفرة ذكائها ودهائها وحسن تصرفها للأمر . وإذن فلم تكن شجرة الدر غانية قصر فقط ، ولكنها كانت فوق ذلك تتمتع بشخصية قوية ، وقد استطاعت غير بعيد أن تحرز بخلالها وقوة تفكيرها مكانة ممتازة لدى سيدها ، فكانت حظيته الأثيرة ، وتوثقت مكاتها بمولد ولدها خليل ، وبرزت الأمومة من بين صفاتها . فعرفت « بأم خليل » وغلب عليها هذا اللقب حتى بعد وفاة ولدها ، ولازمها طول حياتها ، ولقبت به حين تولت العرش . فعرفت « بالملكة عصمة الدين أم خليل شجرة الدر »^(١)

(١) تختلف الرواية الإسلامية في صحة اسم الملكة شجرة الدر ، فتذكر بعض الروايات أنه شجر الدر وليس شجرة الدر . ومن أوردته بالصيغة الأولى أي شجر الدر جمال الدين ابن واصل وهو مؤرخ معاصر وقد ذكرها على هذا النحو مراراً في كتابه « مفرج الكروب في أخبار بني أيوب » (مخطوط دار الكتب ج ٢ لوحة ٣٣١ و ٣٦٢) .

ولما ابتسم الدهر للملك الصالح ، وتولى عرش مصر تألق نجم جاريته وحظيته شجرة الدر إلى جانب نجمه . وكان فوق حبه العميق لها يقدر مواهبها ، ورجحان عقلها ؛ وكانت مذجع القدر بينهما تعاونه في تدبير الأمور بحكمتها وصائب رأيها ، فلم تلبث أن تبوأَت في البلاط وفي الدولة أسمى مكانة ، وغدت ملكة غير متوجة ، يغلب نفوذها وسلطانها كل نفوذ وسلطان ؛ ولم تلبث أن غدت مرجع الأمر والنهي كله . ورأى الملك الصالح أن هذه المرأة الموهوبة الساحرة التي فتنته بخلاها الرفيعة ، تستحق أن تكون أكثر من حظية وأم ولد ، فأعتقها وتزوجها . ولم تبق شجرة الدر بعد جارية تسمو بجماها وسحرها ولكنها غدت غير بعيدة سيدة القصر الشرعية . كانت هذه الجارية التركية أو الرومية تلعب يومئذ في بلاط القاهرة نفس الدور الذي لعبته من قبل صبح النافارية جارية الحاكم المستنصر وأم ولده المؤيد في بلاط قرطبة . ولما توفي ابنها خليل طفلاً بعد ذلك بقليل ، لم تصدع هذه الضربة الآلية من مركزها بل لبثت محتفظة بنفوذها وسلطانها .

(٣٧٢) وكذلك أبو الفداء في تاريخه (ج ٣ ص ١٤٠ و ١٤١ و ١٤٢ و ١٩٢) وابن خلدون (ج ٥ ص ٣٦٢ و ٣٦٣ و ٣٧٧) وأخذ بعض المستشرقين بهذه التسمية (دائرة المعارف الإسلامية في مقال شجر الدر ، وكذلك للمستشرق لايڤ بول في كتابه عن تاريخ مصر ص ٢٥٥) ولكن فريقاً آخر من المؤرخين ولا سيما للتأخرين يأخذ بالتسمية الأخرى أعني شجرة الدر ومن هؤلاء الصفيدي في « الوافي بالوفيات » وابن قزأوغلي في « مرآة الزمان » (وقد نقل عنهما صاحب النجوم الزاهرة) والمقرئزي في كتاب السلوك وفي المخطط) وابن شاذان الكتيبي في (فوات الوفيات ج ١ ص ٩٧) وابن تفرى بردى في (النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٣ وما بعدها) ولو أنه في كتابه المنهل الصافي يسميها شجر الدر (مخطوط دار الكتب ج ٢ ص ١٧٦ و ١٧٧) والسيوطي في حسن المحاضرة (ج ٢ ص ٣٨ و ٣٩) وابن إياس في (بدائع الزهور في ج ١ ص ٨٩) . ومن الغريب أن ابن خلكان وهو قريب من هذا العصر لا يذكر اسم شجرة الدر في سائر المواطن التي لها علاقة بها مع أنه يتحدثنا عن حياة الملك الكامل والصالح والعاقل وغيرهم .

ومع أنه يبدو أن اسم شجر الدر هو التسمية الأصح من الناحية الرسمية خصوصاً وأن ابن واصل وهو مؤرخ معاصر عرف الملكة واتصل ببلاطها يؤيد هذه التسمية فإنه يلوح لنا من جهة أخرى أن اسم شجرة الدر هو الاسم النال الذي كانت تعرف به الملكة في البلاط وفي الحكومة ، أو بعبارة أخرى هو الاسم الشعبي الذي شلب عليها . ولهذا فضله وأخذ به معظم المؤرخين المصريين وفي مقدمتهم المقرئزي . وقد رأينا نحن من جانبنا أن نأخذ بهذه التسمية الأكثر ذيوعاً .

وكان الصالح نجم الدين ملكاً متين الخلق وافر الحشمة شديد الهيبة ، يحقت المجون والعبث ، ويؤثر العزلة ويميل إلى صحبة أهل الفضل والتقى ، ولا يختلط كثيراً بالشعب . وكان يكل شؤون الدولة إلى كتابه ، وله شغف خاص بلعب الصوالة ، وإنشاء الأبنية الفخمة . وأما شجرة الدر فتصفها الرواية بأنها كانت إلى جانب خلاها الشخصية البديعة امرأة وافرة الهيبة تميل إلى التدين وتشغف بحب الخير وأعمال البر ، ولها في هذا السبيل ما أثر لا تحصى .^(١)

ولم يكن للملك الصالح في الوقت الذي بلغت فيه شجرة الدر أوج نفوذها سوى زوجة حليّة أخرى وهي المعروفة ببنت العالمة ، وكانت زوجاً لملوكه الجوكندار (حامل الصولجان) . فلما توفي تزوجها من بعده . ولم يكن بين جواريه العديّات من تدانى شجرة الدر في مركزها أو تتسامى إلى نفوذها .

٣

ومعنى الملك الصالح منذ تبوئه العرش بإصلاح الأمور وتوطيد الدولة ، وتوثيق روابطها المفككة ، وحالفه التوفيق فاستولى على دمشق من عمه الصالح إسماعيل وعين نائبه بها صاحب جمال الدين يحيى بن مطروح ، وعين ولده المعظم توران شاه نائباً على البلاد الشرقية . واستولى بعد ذلك على عسقلان ، وافتتح الكرك وأعمالها من صاحبها الناصر داود حليفه القديم . ولم تمض أعوام قلائل حتى استطاع أن يبسط سلطانه على معظم أنحاء المملكة المصرية القديمة وأن يقضى على أطماع الخوارج والمتغلبين في النواحي .

وحالفه التوفيق أيضاً في محاربة الصليبيين فهزمهم في عدة وقائع محلية ، وزحف جنده على بيت المقدس وهزموا الفرنج وأحرقوا أحياءها النصرانية التي سلت إليهم أيام الملك الكامل ، وأعادوها إلى حظيرة الإسلام مرة أخرى (٦٤٢ هـ ١٢٤٤ م) .

والملك الصالح هو منشئ فرقة المماليك البحرية التي لعبت أعظم دور في تاريخ مصر في القرنين السابع والثامن للهجرة (الثالث عشر والرابع عشر من الميلاد)

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٩ .

وتبوا عرش مصر منهم ثبت حافل من الملوك العظام . وكان الملك الصالح يشغف باقتناء الممالك الترك ، وقد اقتنى منهم عدداً وافراً حتى ضاقت القاهرة بهم ، وضع الناس من عبثهم واعتداءاتهم على النفس والمال ، وهو مما وصفه شاعر العصر بقوله :

الصالح المرتضى أيوب أكثر من ترك بدولته يشر محبوب
قد آخذ الله أيوبا بفعلته فالناس كلهم في ضر أيوب

عندئذ رأى الصالح أن يبعدهم عن العاصمة ، فابتنى لهم في جزيرة الروضة على مقربة من المقياس قلعة خاصة أسكنهم بها ، وسماهم الممالك البحرية ، وزودهم بأسطول نهري من الشواني المسلحة التي أعدت لقتال الصليبيين ، وكانت عدتهم زهاء ألف مملوك ، وقد عرفوا فيما بعد برجال (الحلقة) أو الحرس السلطاني ، وكانوا بما أئز عنهم من الشجاعة والبراعة في القتال قوة لا يستهان بها .

وأصاب الملك الصالح في أواخر عهده مرض عضال بدت أعراضه الخطيرة في أوائل سنة ٦٤٦ هـ وقد وصف بأنه ناسور وعسر بول تلتته قرحة في الرئة . وكانت حوادث الشام يومئذ تزعج السلطان حيث استولى لؤلؤ الأميني صاحب حلب على حمص ، فسار السلطان بالرغم من مرضه إلى الشام لإنجاد حمص ، وحمل في محفة ، وهناك بلغته الأنباء بأن حملة صليبية ضخمة في طريقها إلى مصر . فاضطر إلى النزول عن حمص للمتعلم عليها ، وعاد إلى مصر في محفته ، وقد اشتد به المرض ، ونزل بقواته في أشموم طنّاح على مقربة من دميّاط التي كانت في ذلك الحين مجاز الصليبيين المفضل لاقتتاح مصر ، وكان ذلك في المحرم سنة ٦٤٧ هـ .

والواقع أن مصر كانت تواجه عندئذ أعظم حملة صليبية سیرت إليها ، وهي الحملة الصليبية السابعة التي قصدت مصر بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا المعروف بالقدیس لويس . وكان الغزاة قد أمضوا الشتاء في قبرص ثم ساروا إلى مصر في أسطول ضخم ، ووصلوا إلى المياه المصرية تجاه دميّاط في ٢١ صفر سنة ٦٤٧ هـ (يونيه سنة ١٢٤٩) . وفي الحال أوفد لويس التاسع رسلاً إلى ملك مصر بكتاب ينذره فيه بوجوب الخضوع والتسليم ، ويؤكد له أن المقاومة عبث وأنه سيصل إليه بالرغم من كل شيء ، وأنه جاء بعسكر كعدد الحمص . وكان الملك الصالح

الملكة شجرة الدر

مريضاً كما قدمنا ، وكان البلاط في حيرة ، ولكن شجرة الدر كانت يومئذ إلى جانب السلطان ، وكانت تبعث بشجاعتها وثباتها إلى السلطان وبلاطه روح الثقة والعزم . فلما وصل كتاب ملك الفرنج حزن السلطان واغرو رقت عيناه بالدمع ، ولكنه تذرّع بالشجاعة والأمل ، وبعث إلى ملك الفرنج بكتاب من إنشاء كاتبه القاضي بهاء الدين زهير الشاعر الأشهر يرد فيه الوعيد بالوعيد ، وينوه بقوة مصر وما أحرزته على الصليبيين من الانتصارات ، وينذر فيه ملك الفرنج بأنه سيغدو صريع عدوانه وبغيه .^(١)

وفي اليوم التالي نزل الفرنج إلى البر ، وكان السلطان قد حصن دمياط وشحنها بالمقاتلة والسلاح ، وكان من المنتظر أن تقاوم الغزاة مدى حين . ولكن الفرنج حينما نزلوا إلى البر الغربي ، ووقعت بينهم وبين المسلمين المناوشات الأولى انسحب المسلمون إلى البر الشرقي ، وعندئذ دب الدعر إلى الحامية ، فما كاد الليل يرخي سدوله حتى غادر المسلمون قواعدهم وارتدوا إلى المعسكر السلطاني في أشموم طنّاح ؛ وهرع في أثرهم أهل دمياط فارين هلعين ، ودخل الفرنج دمياط في صباح اليوم التالي دون قتال ولا مقاومة ، واستولوا على ما فيها من الذخائر والأقوات الوفيرة . واستشاط السلطان حنقاً لما وقع وعنف قائد الحامية المهزومة الأمير نحر الدين يوسف ، وأمر بخنق عدة كبيرة من مقدمي الجند جزاء جبنهم وتخاذلهم .

ثم ارتد السلطان بمعسكره محمولا في مخفته إلى المنصورة ، وهي المحلة التي أنشأها أبوه الملك الكامل على النيل حينما هاجم الصليبيون دمياط لأول مرة في سنة ٦١٥ هـ ونزل بقصرها المتواضع . وأمر السلطان بتجديد المنصورة وتحصينها ، وإعدادها لتزول الجند ، واجتمعت القوات المصرية في تلك القاعدة الجديدة ، وقدم أسطول نهري من الشوانى الحربية ورابط في النيل تجاه المدينة ، وأتقنت الأوامر بحشد الجند إلى سائر الأنحاء ، وتوافد على المعسكر السلطاني سيل من الجند المتطوعة والعربان ، وبذل المسلمون غاية جهدهم في الأهبة لمواجهة الخطر الداهم . وكان الفرنج في أثناء ذلك قد استقروا بدمياط وشحنوها بالمقاتلة والسلاح ، وأخذوا يتأهبون للزحف صوب الجنوب .

(١) راجع نص هذين الكتاين في « الملوك في دول الملوك » للمقرئ ج ١ .

الملكة شجرة الدر

وكانت المناوشات تقع أثناء ذلك سجالاً بين المسلمين والفرنج ، وكلما سقطت جماعة من الفرنج أسرى في يد المسلمين أرسلت إلى القاهرة وطيف بها لتقوية الروح المعنوية لدى الشعب القاهري الذي ساد عليه الوجوم منذ سقطت دمياط . واستطاعت عساكر الشام من جهة أخرى أن تهاجم الصليبيين وأن تنتزع منهم مدينة صيداء ، فجاء سقوطها معزراً للثقة والأمل .

واستمر الأمر على ذلك زهاء ستة أشهر من صفر إلى أوائل شعبان (من يونيو إلى نوفمبر سنة ١٢٤٩) والسلطان الصالح أثناء ذلك يعاني أوصاب المرض ويسير إلى الموت بخطى بطيئة . وفي أوائل شعبان اشتدت عليه وطأة السيل ثم أصابه إسهال عجل بالختامة ، فتوفي في قصره المتواضع بالمنصورة ليلة ١٥ شعبان سنة ٦٤٧ هـ (٢١ نوفمبر سنة ١٢٤٩ م) وهو في الرابعة والأربعين من عمره . وأوصى قبيل موته بالعرش لولده الملك المعظم توران شاه نائبه في الديار الشرقية ، وكان يومئذ في حصن كيفا من أعمال ديار بكر ، فأثقلت إليه الكتب تدعوه إلى مصر على عجل .

٤

كانت وفاة السلطان في تلك الآونة العvisية ضربة مؤلمة ، وكانت كفة يله بأن تقضى على كل تدبير وأهبة للقاء العدو المغير . ولكن القدر كان رحيماً بمصر ، وقد شاء القدر أن يختار لإيقاد الموقف واتقاء الكارثة ، تلك الشخصية القوية الحازمة ، شجرة الدر .

كانت شجرة الدر إلى جانب زوجها السلطان المريض في قلب المعسكر السلطاني ، تشرف على تدبير الشؤون وإيقاد الأوامر بمعاونة رجال الخصاص المخلصين ، وفي مقدمتهم الأمير نحر الدين يوسف ، ومحسن الطواشي . وكانت ترقب سير المرض بجزع ، وتتوقع موت السلطان من وقت لآخر . فلما وقعت الخاتمة المحزنة ، كانت على قدم الأهبة ، وكانت قد قررت أمرها ، واتخذت أهبتها لمواجهة كل احتمال . كانت تلك المرأة الذكية تعرف أن وفاة السلطان سوف تثير الأحقاد الدفينة ، وتمزق وحدة الجيش والامة ، وتذكرى ضرام الحرب الأهلية المخربة ، كل ذلك والبلاد تواجه خطر الغزو الداهم ، والعدو المغير جاثم في أرضها يتأهب لا يزال ضربته القاضية .

وهنا تبدو عبقرية تلك المرأة المدهشة . ذلك أن السلطان ما كاد يسلم النفس الأخير ، حتى استدعت الأمير نحر الدين يوسف كبير الخاص ، ومحسن الطواشي وأوصتهما بكتمان موت السلطان خوفاً من سوء العواقب ، واتفقت معهما على تدبير أمور الدولة حتى يحضر ولد السلطان الملك المعظم من حصن كيفا ، فأذعنا للأمر . وكان الأمير نحر الدين رجلاً وافر العقل والتدبير ، فبذل لتنفيذ هذه الخطة ، أصدق العون ، فأخذ العهد على كل من وقف على موت السلطان من رجال الخاص والأطباء والعلماء ، وتولى غسل جثمان الملك أحد الأطباء المغالين ، ووضع الجثمان في تابوت حمل تحت جناح الظلام إلى الروضة ، ثم دفن فيما بعد في تربته بجوار المدرسة الصالحية بالقاهرة . وبقيت الخدمة السلطانية على حالها ، والأمراء يحضرون للخدمة كالعادة ، وشجرة الدر تقول لهم « السلطان مريض ما يصل إليه أحد » . وكان السباط السلطاني يمد في مواعيده ، وكأن السلطان حي يتناول طعامه كالعتاد ، وكانت الأوامر والكتب والمناشير تخرج كل يوم ممهورة بالعلامة السلطانية (توقيع السلطان) . وهنا تختلف الرواية في تفسير هذا اللغز المحكم ، فيقول البعض إن السلطان حينما شعر بدنو أجله وقع على عدد كبير من الأوامر للاستعانة بها على إخفاء موته حتى يحضر ولده . ويقول البعض الآخر إن شجرة الدر كانت لبراعتها في الكتابة تقلد العلامة السلطانية على الأوامر بمهارة . وفي رواية ثالثة أن الذي كان يقوم بتقليد العلامة السلطانية هو غلام من غلمان السلطان يدعى سهيل^(١) .

وعلى أي حال فقد استطاعت شجرة الدر أن تنفذ خطتها الجريئة ببراعة تثير الإعجاب . وفي غداة وفاة السلطان استدعت أمراء العسكر وقالت لهم إن السلطان قد رسم بأن يحلفوا له ولابنه الملك المعظم توران شاه ، أن يكونا سلطاناً بعده ، وللاأمير نحر الدين يوسف أن يقوم بقيادة الجيش وتدبير أمور المملكة ، فأذعن الأمراء للأمر باعتبار أن السلطان ما يزال حياً ، ولكن يعجزه المرض عن القيام بالأمر . وأنفذت شجرة الدر في نفس الوقت إلى الأمير حسام الدين نائب السلطان بالقاهرة أمراً مهوراً بالعلامة السلطانية أن يقوم بتجليف أكابر الدولة

(١) راجع ابن واصل في «مفرج الكروب» (مخطوط دار الكتب ج ٢ . لوحة ٣٦٢) والسلوك في دول الملوك (ج ١-٢ ص ٣٣٩ و ٣٤٠) والنجوم الزاهدة من مرآة الزمان (ج ٦ ص ٣٣٣) .

الملكة شجرة الدر

ومقدمى الجند بالقاهرة على ماتقدم ، فقام بتنفيذ الأمر بحضرة قاضى القضاة
وكاتب الانشاء الشاعر بهاء الدين زهير ، وصدرت الأوامر إلى خطباء الجوامع
بالدعاء للملك المعظم توران شاه بعد الدعاء لآبيه .
وسارت الأمور حيناً على هذا النحو والأمير نحر الدين يوسف يقوم بتدبير
الشؤون وإنقاذ الأوامر بإشراف شجرة الدر وتوجيهها . وسار لاستدعاء الملك
المعظم من حصن كيفا زعيم المماليك البحرية فارس الدين أقطاي .

محمد عبد الله عنانه

(البحث بقية)

أريتريا

مشاهدات وآمال

١

أليس من حق كل مصرى أن يتشوق إلى رؤية بلاد تربطه بها علاقات سياسية وثقافية وتاريخية : بلاد تجاور بلادنا بل تتاخم حدودنا وقلما نغيرها اهتماماً ، رحلت إلى أريتريا وأنا أطلع لأرى ما تركناه فيها من أثر بعد صلات طويلة مستمرة وتاريخ حافل . فاستعدت ما وعته الذاكرة من هذا التاريخ فتلاحقت عصوره نصب غيني :

خلفت الصلات التجارية بين مصر الفرعونية وأريتريا جاليات مصرية على سواحل أريتريا قبل عصر البطالسة ، ثم ازدادت هذه الصلات في عصر البطالسة ، ولعل أظهر الموانئ في تلك العصور ميناء « عدول » التي تقع أطلالها الآن جنوبى « مصوع » . وقد أخذت في الاضمحلال بعد هجرة العرب إليها في القرنين الأول والثانى للهجرة . وقد تغنى بها شعراء العرب فذكروا سقنبا ورماحها . وكانت عدول حلقة الاتصال بين تجار الحبشة والهند واليمن من جهة وتجار مصر من جهة أخرى . وظلت الجاليات المصرية في أريتريا تحمل التجارة منها إلى مصر حتى القرون الأولى للبلاد ، إذ دخلت أريتريا تحت سلطان ملوك « أكسوم » الذين كانت بينهم وبين مصر صلات ود مكين . وقد حافظت أريتريا على استقلالها الداخلى تحت إشراف ولاية من قبل إمبراطور الحبشة . وكان الولاة يستقلون بها بين حين وآخر كلما وجدوا فرصة مواتية . وقد كان مظهر التنافس القائم بين الدول الكبرى لبسط سلطانها على البحر الأحمر يتجلى في أريتريا . ففي القرن السادس عشر الميلادى استولى المصريون أيام الحكم التركى على بعض موانئ ومناطق في أريتريا وظلت فى يدهم إلى عهد قريب . هذا وإليك استعراضاً سريعاً فى صورة شريط سينمائى عن أهم الحوادث والتطورات التى وقعت فى أريتريا منذ عام ١٨٦٥ .

في عام ١٨٦٥ أراد الخديوى إسماعيل أن يربط ميناء «مصبوع» بالنيل بخط جديدي بعد أن نزل له السلطان عن ميناءى سواكن ومصبوع في تلك السنة . وفي عام ١٨٦٩ ازداد تسابق الدول الكبرى وهى بريطانيا وفرنسا وإيطاليا بعد فتح قناة السويس إلى الحصول على مناطق تقوذاً في البحر الأحمر . وقد تمكنت إحدى شركات الملاحة الإيطالية من شراء منطقة في خليج «عصب» بمال قليل من سلطانها الذى كان تابعاً للحكم المصرى . وطعن الخديوى إسماعيل في صحة البيع ، وطالب بريطانيا بإخلاء الجزر حتى لا تمنع الدول في الجرى على هذه السنة .

وفي عام ١٨٧٠ احتجت مصر على إيطاليا لهذا التصرف ، وأرسلت حملة إلى سلطان «عصب» ، ولكن الحملة لم تتمكن من النزول فاضطرت إلى العودة . وفي عام ١٨٧٢ استولت مصر على منطقة «كيرين» و«بوجوس» ، وظلت في يدها إلى أن أخرجت إلى سحب قواتها عام ١٨٨٤ بعد قيام ثورة المهدي . وفي عام ١٨٧٩ احتل الطليان خليج «عصب» احتلالاً عسكرياً .

وفي عام ١٨٨١ هاجم الدنا كل بعثة إيطالية كانت راجعة من الحبشة فاحتجت وزارة الخارجية الإيطالية بالاتفاق مع جلادستون على الحكومة المصرية باعتبارها مسئولة سياسياً ، وطلبت منها إجراء تحقيق في الحادث .

وفي عام ١٨٨٢ كان رد الطليان على احتجاج الحكومة المصرية في مسألة عصب صدور مرسوم في هذه السنة يضم «عصب» إلى المستعمرات الإيطالية التابعة للتاج .

وفي عام ١٨٨٥ استولى الطليان على ميناء «ييلول» بعد موافقة بريطانيا ، ثم أنزلوا أول فرقة إيطالية في «مصبوع» واغتصبوها من الحامية المصرية وأنزلوا العلم المصرى وأجبروا الحامية المصرية على الجلاء ، ثم احتلوا المدينة مدينياً بعد أن احتلوها عسكرياً . وقد وصل خبر هذا الاحتلال من محافظ «مصبوع» بطريق «سواكن» إلى الحكومة المصرية ، فقررت الاحتجاج ، وأبلغ الجناب العالى في مصر الذات الشاهانية في الآستانة بالخبر ، وكانت الدولة العلية في شغل شاغل بالبلقان ، وكانت انكثرا ماكفة على الانتخابات ، فلم محتج الدول على هذا احتجاجاً رسمياً ، إلا أن ذلك زاد في أعداء إيطاليا في أوروبا .

وفي عام ١٨٨٧ هاجم الراس (أولا) حصن « سحاتى » وقامت معركة دوجالى ، وحررت المناطق التى كان الطليان قد احتلوها من « سحاتى » إلى « مصوع » . ثم عادت إيطاليا فأعلنت الحماية على « حباب » واستردت « سحاتى » . فخضعت لها عدة قبائل .

وفي عام ١٨٨٨ أعلنت إيطاليا حمايتها على قبيلة بنى عامر .
وفي عام ١٨٨٩ احتل الطليان « كيرين » ثم « أسمرا » التى كانت تحت حكم الحبشة ، ثم استولوا على معظم أرتريا الحالية ، فاضطرت الحبشة فى شهر مايو من هذه السنة إلى عقد معاهدة « أوتشالى » معترفة بسلطان إيطاليا على المناطق التى فى شمال خط « أرافالى — هالاي — ساجانييتى — أسمرا — أتص يوحانس » .
وفي عام ١٨٩٠ استمر الطليان فى سياسة التوسع ، وتمكنوا من معاهدة سلطان « الأوسا » وقد حملوه على الاعتراف بحماية إيطاليا على الدناكل وهى المنطقة التى تمر فيها التجارة بين مقاطعة « شوا » وميناء « عصب » ثم احتلوا منطقة « عدوا » .

وصدر حينئذ مرسوم من ملك إيطاليا بتوحيد جميع الممتلكات الإيطالية على سواحل البحر الأحمر وضمها إلى مستعمرة واحدة تحمل اسم أريتريا ، نسبة إلى بحر أريتريا وهى التسمية اليونانية للبحر الأحمر (وكلمة أرتروس باليونانية معناها الأحمر) .

وفي شهر يونيه من هذه السنة هاجم الدراويش « أجوردات » واستولوا عليها وحصنوها .

وفي عام ١٨٩١ فى شهر مارس من هذه السنة حددت مناطق النفوذ بين إيطاليا وبريطانيا فى أفريقيا الشرقية . واضطر الطليان رأس (منجشا) وبعض رؤساء قبائل « التيجرى » إلى الاعتراف لإيطاليا بالمناطق التى فى شمال خط « مارب — بيليسا — مونا » .

وفي عام ١٨٩٣ انهزم الدراويش فى « أجوردات » .

وفي عام ١٨٩٤ احتل الطليان مدينة « كسلا » ثم انسحب منها الدراويش إلى ما وراء العظيرة . وهزم الطليان جيش القائد الحبشى (باتا أجوس) .

وفي عام ١٨٩٦ انتصر الأحباش على الطليان فى معركة عدوا ، واضطرت إيطاليا أن تعترف لاتيونيا باستقلالها . ولكن الطليان تمكنوا بعد ذلك من

الاستيلاء على « عديجرات » ومن ثم على « كسلا » ، إلا أن الأمر صدر من روما « انقلبوا إلى منازلكم » أي إلى أريتريا .

وفي عام ١٨٩٧ استرد الجيش المصرى « كسلا » من يد الطليان ، وحولت إيطاليا حكومة أريتريا من عسكرية إلى مدنية طلباً لاستغلالها .

وفي عام ١٨٩٨ فى ديسمبر من هذه السنة اتفق على الحدود بين أريتريا والسودان .

وفي عام ١٩٠٠ عقدت إيطاليا معاهدة مع الحبشة لتثبيت الحدود بين أريتريا والحبشة .

وفي عام ١٩٠١ تم بروتوكول الاتفاق على الحدود بين إريتريا والصومال الفرنسى .

وفي عام ١٩٠٢ اضطرت إيطاليا الحبشة إلى النزول عن منطقة قبائل « الكوناما » وضمها إلى أريتريا ، وقد وافقت بريطانيا على هذا .

وفي عام ١٩٠٣ اتفقت أريتريا مع السودان على إدخال تعديلات يسيرة فى الحدود .

وفي عام ١٩٠٨ وقع اتفاق بين أريتريا والحبشة لتحديد مسافة ستين كيلو متراً بين الشاطئ وبين حدود الحبشة ، وهى منطقة « الدناكل » التابعة لأريتريا .

وفي عام ١٩١٥ أبرمت معاهدة سرية فى لندن بين فرنسا وبريطانيا وروسيا ، هذا نص المادة ١٣ منها : « إذا اتسعت أملاك فرنسا وبريطانيا فى أفريقيا على

حساب المستعمرات الألمانية ، فإن فرنسا وبريطانيا ستتساهلان فى توسع إيطاليا فى أريتريا والصومال وليبيا وفى المناطق المتطرفة من المستعمرات الفرنسية

والبريطانية على سبيل التعويض » . هذا هو النص كما نشره الطليان ، إلا أن الفرنسيين أذاعوه بشكل مختلف هو هذا : « إذا وسعت فرنسا وبريطانيا

ممتلكاتهما الاستعمارية فى أفريقيا على حساب ألمانيا تعترف هاتان الدولتان بحق إيطاليا فى المطالبة ببعض تعويضات فيما يتعلق بالتوسع فى حدود أريتريا

والصومال وليبيا والمستعمرات الفرنسية أو البريطانية المجاورة » . وبما يلاحظ أن هذه المعاهدة التى تتمسك بها إيطاليا يجب أن تسقط من الحساب ؛ إذ أن

فرنسا وبريطانيا لا تملكان حق التصرف فيما عهد إليهما فى الإشراف عليه . أضف

إلى هذا أن روسيا تخلّت عن تلك المعاهدة ، وأن دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الأولى قد غير من سير هذه الحرب .

وفي عام ١٩١٦ اعترف مؤتمر نابلي لشؤون المستعمرات لإيطاليا بحدود أريتريا الطبيعية على العظبة ، وضمن الصلات التجارية بين أريتريا وسواحل البحر الأحمر .

وفي عام ١٩١٩ عقد مؤتمر روما ، ولم يكن الغرض منه الاتفاق على حدود أريتريا بل كان هدفه تثبيت ملكية الصومال الفرنسي والصومال البريطاني ، وكان من نتيجته أن أحيطت الحبشة من جميع الجهات .

وفي عام ١٩٣٥ كانت أريتريا الباب الذي تدفقت منه المعدات والقوات لغزو الحبشة .

وفي عام ١٩٤١ استولى الحلفاء على أريتريا .

هذا استعراض لتاريخ يدل على تهافت الدول على هذا البلد الذي يعتبر قلب البحر الأحمر وطريق التجارة بين الحبشة والعالم الخارجي . وقد أظهرت الدول العظمى أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها اهتماماً كبيراً بأريتريا ، وكان هذا الاهتمام قد هدأ بعض الشيء في الفترة بين الحربين . وإن هذا الاهتمام من شأنه أن يثير في نفس المسافر إلى أريتريا روح التطلع وقوة الانتباه إلى ما يجري هناك حتى يفهم مصدر هذا الاهتمام .

أعطى البطالسة للعالم القديم معلومات جغرافية عن سواحل أفريقيا الشرقية ، ولكن بعد الشقة جعل من هذه السواحل أرضاً خرافية . ثم ظهر الإسلام فكان حاجزاً بين الحبشة المسيحية والعالم مما جعل الأوروبيين يؤلفون أسطورة « القسيس يوحنا » الملك المسيحي الذي يحكم على السود . ولكن الإرساليات التبشيرية الكاثوليكية من فرنسيسكان ويسوعيين ومعظمهم من البرتغال ، تطرقوا إلى أريتريا منذ القرن الرابع عشر ، فاضطرت الحبشة وأريتريا إلى إغلاق حدودها منذ القرن السابع عشر في أوجه المبشرين ، إلى أن تجرأ الرحالة الاسكتلندي « بروس » في القرن الثامن عشر ، ودخل الحبشة ومن ثم تابعت الإرساليات الفرنسية والإنجليزية والألمانية والإيطالية والسويدية .

كل هذا حدث تحت أنوف المصريين الذين لم تنقطع علاقاتهم بأريتريا منذ عهد

الفراعنة ، بل ازدادت قوة في العصور المسيحية وتوطدت في العصور الإسلامية . وعدد سكان أريتريا يبلغ نصف مليون نسمة ، تتساوى بينهم نسبة المسيحيين والمسلمين . ومعظم المسلمين شافعية ومنهم قبائل الهدندوة وبنو طامر وهم بدو رحاة . وحباب وبلين وساهو ودنا كل وغيرها يسكن معظمهم القرى . وهناك الأريتريون المسيحيون ، وهم يقيمون في المدن ويحترفون الزراعة ، وكذلك الوثنيون منهم كالباريا والكوناما . وهناك عناصر أخرى هاجرت إلى أريتريا في عصور مختلفة منهم العرب والهنود والسودان والصومال واليونان .

أما الموانئ فهي أهم وسائل المواصلات من الوجهة الاقتصادية للتصدير والاستيراد ، تؤدي إليها السكك الحديدية أو الطرق البرية حاملة البضائع من داخلية البلاد . وقد اهتمت إيطاليا قبل الحرب العالمية الثانية بأن تقرب بين أريتريا وإيطاليا بخطوط الملاحة وأرصفت الشحن والتفريغ وتنظيم البريد والمواصلات التلغرافية والراديو . وذلك لأنها أدركت أن سهولة المواصلات تساعد على إنباء الثروة الفردية والثروة العامة ، وهذا من شأنه أن يخلق جواً صالحاً لعيش الأوروبي في المستعمرات . واهتمام الطليان بالتقريب بين أريتريا وإيطاليا بشتى الطرق جعلهم يشعرون في أريتريا بصلتهم الدائمة بإيطاليا .

وفي أريتريا خط حديدي واحد يصل ميناء « مصوع » بالعاصمة « أسمرا » ومنها إلى السودان فصر . وقد برع الطليان في مد شبكة من الطرق البرية لتسير عليها سيارات الشحن أو الأوتوبوس ، أهمها طريق من ميناء مصوع إلى أديس أبابا ماراً بأسمرا ، وآخر من ميناء عصب إلى أديس أبابا ماراً بديسى . ولعل أغرب هذه الطرق الطريق الحديدي من ميناء « مصوع » إلى « أسمرا » وطوله ١٢٠ كيلومتراً ، إذ يصعد بك القطار من مضوع الواقعة على مستوى البحر تاركاً وراءه حرارة ورطوبة لا تحتل إلى أسمرا التي ترتفع حوالى ألفين وثلاثمائة متر فوق سطح البحر بيردها وجفافها في نحو ثلاث ساعات في طريق متعرج جميل . وتتركز حركة أريتريا في بعض مدن أهمها ميناء مصوع . وهذه اشتقت اسمها — ومعناه « مكان النداء » — من فعل صَوَعَ بلغة (التيجرى) أى « نادى » . وذلك لأن الواقف على الشاطئ يمكنه أن ينادى الواقف في الجزيرة الموازية . وعدد سكان « مصوع » خمسة عشر ألف نسمة من الأريتريين ، وخمسة آلاف من الطليان . ويلاحظ أن نسبة عدد الطليان إلى عدد السكان كبيرة . ويرجع ذلك إلى

أن حركة التجارة مركزة تقريباً في مصوع ، وخاصة بعد أن وسع الطليان أرصفة الميناء وأقاموا عليها رافعات كبيرة قبل غزوهم للحبشة ، لتسهيل إنزال المواد الحربية الثقيلة . ويقاسى الأجانب كثيراً من جو مصوع ؛ فهي تعتبر من أشد بلاد العالم حرارة . ويستخرج فيها الملح . وقد أدى صيد الأسماك هناك إلى قيام صناعات كبيرة . وتعد مصوع أوسع وأهم ميناء في البحر الأحمر ، تجتمع فيها تجارة الهند والحبشة وأوروبا ، وقد كان يسميها الطليان « باب الإمبراطورية » . وهناك ميناء « عصب » وبها سبعة آلاف أريتري وثمانمائة إيطالي . وهي أول مراكز الاحتلال الإيطالي تبعد ٣٨ ميلاً عن ساحل بلاد العرب . وهي بعيدة عن أن تقاس بميناء « مصوع » ؛ لأن نسبة الحركة فيها إلى حركة ميناء مصوع نسبة واحد إلى أربعين . وقد فكر الطليان في مد خط حديدى يربط أديس أبابا بعصب عن طريق « ديسى » ، ولكن هذا المشروع لم ينفذ . وتعتبر « عصب » الميناء الطبيعية للحبشة على قدر « مصوع » و « جيبوتى » . ولكن وجود الخط الحديدي بين أديس أبابا وجيبوتى كان سبباً في ضعف ميناء « عصب » . ومع ذلك احتفظت بأهميتها في الاتجار مع اليمن ، فهي ميناء للفرا كس الشراعية . بها حتى قديم معظم سكانه من « الدناكل » ، أما الحى الجديد فيسكنه العرب . وفي عصب ملاحات كبيرة . وسيكون لعصب مستقبل تجارى لقربها من بلاد العرب ومن « عدن » ومن منطقة « الأوسا » ومنطقة « الوللوجالا » . أما أسمرا فهي عاصمة صغيرة ، جوها جميل معتدل جاف يعيل إلى البرودة طوال السنة ، ومبانيها متناسقة جديدة . ومعنى اسمها : « الغابة المزهرة » لنضرتها وكثرة زهورها . وحقاً إنى ما كنت أتوقع أن أرى في تلك البقعة من بقاع العالم مدينة تشبه في تخطيطها ومبانيها أحدث المدن في أوروبا . وبها حتى للأوربيين وآخر لأهالى البلاد . ويندر أن ترى أحد الأهالى فى الحى الأوربى ما عدا الخدم . وعدد سكانها ٥٣,٠٠٠ إيطالي و ٤٥,٠٠٠ أريتري ، وهي تقع على ارتفاع ٢٣٤٧ متراً فوق سطح البحر .

أما مدينة « كيرين » فيها تسعة آلاف أريتري وسبعائة إيطالي ، وكانت حصناً مضرباً ، ترتفع فوق سطح البحر قرابة ١٤٠٠ متر تسكنها قبائل البوجوس والباين ، وهي تقع وسط منطقة خصبة تنتج البن والصبار والدخان والموز والحبوب ، وقد كانت ملتقى قوافل السودان من « كسلا » إلى « مصوع » .

إلا أن إنشاء الخط الحديدي من « الخرطوم » إلى « سواكن » أضاع قيمتها الاقتصادية ، غير أنها حافظت على مركزها بالنظر إلى التجارة الداخلية .
وهناك مدينة تستحق الذكر وهي « ساجانيتي » بها ألفان من الأريتريين وبعش عشرات من الطليان ، وهي تقع على ارتفاع ٢٢٠٠ متر فوق سطح البحر ، وأهلها من الأرثوذكس ، ويقطن المنطقة الجبلية منها مسلمون من قبيلة « الساهو » ، وهي وسط زراعي ، أرضها خصبة وجوها معتدل . وقد أطلق الأوربيون على هذه المنطقة « سويسرا أريتريا » . واشتهرت « ساجانيتي » بتجارة الماشية التي تكثر وترعى في تلك المنطقة . وهي تتوسط طريق النقل بين « التيجري » و « أسمرا » . وبجانب هذه المدن تجد مدناً أخرى صغيرة مثل « عدي أوجري » و « أجوردات » و « وعدي قاي » و « بارتو » ؛ وكل منها مركز تجاري للقبائل المحيطة بها .

السياسة : تلك لمحات تاريخية جغرافية اقتصادية سريعة أطمعت دولاً ستاً في بلاد أريتريا ، وكل منها تطالب بحقوقها وتجاهد في إثبات حجتها . وهذه الدول هي : أثيوبيا وإيطاليا والسودان وبريطانيا والروسيا ومصر . ولعل استعراض مطالب هذه الدول ومساغها يجعلنا نعرف موقف مصر بإزائها ، أو نرى ما يمكن أن تحققه مصر هناك من آمال .

أثيوبيا : بدأت أثيوبيا منذ عام ١٩٤٤ بتنظيم جهودها في المطالبة بضم أريتريا إلى أمها أثيوبيا فتكوّن في أديس أبابا اتحاد أطلق على نفسه اتحاد أثيوبيا — أريتريا ، وأصدر جريدة أسبوعية (بأريتريا دمص) أي « صوت أريتريا » . وكذلك نظم هذا الاتحاد المظاهرات والاحتجاجات في أديس أبابا . وفي ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٤٥ طاف المتظاهرون بالمفوضيات في أديس أبابا وقدم رئيس الاتحاد طلباً باسم نصف مليون من سكان أريتريا بالانضمام إلى أثيوبيا ، ثم توجت هذه الجهودات بمذكرة من وزارة الخارجية الأثيوبية مقدمة إلى مؤتمر وزراء الخارجية في لندن ، ووزعت على كثير من الهيئات في الدول المختلفة أملاً في النظر بعين الإنصاف إلى مطالب أثيوبيا وهي ضم أريتريا والصومال الإيطالي إليها .

إيطاليا: تحيرت إيطاليا في الطريقة المثلى التي تقنع بها الحلفاء لاسترداد مستعمراتها. وقد طالعنا السنيور دي جاسبري وزير خارجيتها في شهر سبتمبر سنة ١٩٤٥ في مجلس وزراء الخارجية بأن لجنة الحلفاء الفرعية تبحث مشروعاً أمريكياً في مسألة المستعمرات لم ينشر بعد، وقال إن مسألة المستعمرات في نظر إيطاليا الآن لا تبدو بالروح الإمبراطورية التي كانت رائد إيطاليا قبل الحرب العالمية الثانية، ولكنها مسألة ذات صبغة اجتماعية. وزاد أن خمسين سنة في العمل والمساهمة في التقدم العالمي لا يجوز أن تذهب هباء. وقال أيضاً إنه لا يمكن إعادة تنظيم الحياة الاستعمارية الإفريقية إذا أبعاد الشعب الإيطالي أو جعل العمل مستحيلاً عليه وبخاصة أن الحركة الديمقراطية على أتم استعداد لمنح المستعمرات الحكم الذاتي. وفي شهر نوفمبر سنة ١٩٤٥ تبين مما تبودل من مذكرات نشرت في واشنطن وروما أن الحكومة الإيطالية تقدمت بمطلب صريح عن استرداد سيادتها على أريتريا وطرابلس والصومال، مع قبولها إنشاء منطقة حرة في مصوع. وقد ذكرت إيطاليا أنها تريد مستعمراتها كوسيلة لامتصاص ما يزيد على ما تتسع له إيطاليا من الرجال، وليس غرضها أن تكون المستعمرات أداة تعمل على بث روح الإمبراطورية.

وقد توصلت إيطاليا إلى حجة أخرى للاحتفاظ بمستعمراتها وهي استدلالها بأنها قد حصلت على أريتريا والصومال وطرابلس وبرقة بتأييد البريطانيين وموافقتهم. ويقول الطليان إن بريطانيا أيدت إيطاليا في استعمار الصومال وطرابلس وبرقة، وإن بريطانيا نظرت بعين الارتياح إلى احتلال عصب ومصوع؛ إذ أن الحكومة البريطانية التي كان عليها أن تتدخل في الشؤون المصرية في ثورة عرابي أغرت إيطاليا باحتلال هذين الميناءين حتى يمكن سحب القوات المصرية في السودان عن طريقهما في ثورة المهدي. وقالوا أيضاً إن موقف إيطاليا في شرق أفريقيا كان قد دبر مع بريطانيا قبل أن يتمكن اللورد كتشنر من كسر شوكة المهدي.

الرداء: في شهر سبتمبر عام ١٩٤٥ صرح السودانيون بأرائهم على صفحات الجرائد فيما يتعلق بأريتريا، ولكنهم لم يوحّدوا جهودهم ولم ينظموا صفوفهم فتشعبت آراؤهم. فتجدد يطالبون تارة بإعادة الأقاليم التي اقتطعت من

حدود السودان الشرقية ، وهى إقليم تسكنه جزء من قبيلة بنى طامر السودانية ، وإقليم شرق القلابات ، ومنطقة المتمة ، وإقليم قويا الذى تسكنه قبائل القمر والهمج ، وإقليم بنى شنقول وهو إقليم خصب به مناجم للذهب وقد كان جزءاً من السودان فى عهد الحكم المصرى .

ثم تجدهم تارة يعرضون النزول عن منطقة بنى شنقول التى استولت عليها الحبشة فى ظروف غامضة ، ويساومون فى أخذ منطقة بحيرة طانا بدلاً عنها ، وهى منطقة تهم السودان على حين أنها ليست بذات بال للأحباش — على حد تعبيرهم . وقد بدأ السودانيون فى رسم خططهم إزاء أريتريا فصرحوا بأن فيها ثلاثة اتجاهات سياسية :

١ — سكان من المسيحيين ينادون بالانضمام إلى الحبشة ويؤيدهم اتحاد أثيوبيا — أريتريا .

٢ — سكان من المسلمين يريدون الاستقلال التام أو الانضمام إلى السودان .

٣ — سكان السواحل من قبائل الساهو والمتطوعين وهم يطالبون بأن تفصل أراضيهم عن الأراضى التى يسكنها غيرهم وأن تكون لهم حكومة ساحلية .

وبعد عرض هذه الاتجاهات وجدت الحكومة السودانية من صالحها تشجيع الاتجاه الثانى . ونسمع فى أوائل هذا العام بوصول وفد من أريتريا إلى الخرطوم قوامه اثنان وعشرون من الأعيان وزعماء العشائر . وقد خصصت الحكومة السودانية بضعة آلاف من الجنهات للحفاوة بهم واستقبالهم استقبالا شعبيا . وقد اهتم بمقدم هذا الوفد السيد على الميرغنى باشا إذ يدين له كثير من سكان أريتريا بالولاء من الناحية الدينية . وقد صرح الوفد بطلب ضم أريتريا إلى السودان لأن أريتريا لا تستطيع أن تستقل بنفسها اقتصاديا بسبب قلة مواردها ومحل أرضها .

بريطانيا : بعد أن احتل الحلفاء أريتريا عام ١٩٤١ بقليل استولت عليها وحدات من جيش الولايات المتحدة الأمريكية وأنشأت فيها المصانع والمباني ، واستبشر الأهالى بأن عهد رخاء سيعم البلاد . ولكن تسلم البريطانيون الإدارة ومن ثم المصانع والمباني ، وأصبحت البلاد فى يد بريطانيا وحدها دون غيرها

من الحناء ، ونزل لهم الأمريكان عن هذا الجزء من الأرض لسبب لا يعلمه إلا أهل السياسة . وبديهي أن بريطانيا لا تحتاج في أريتريا إلى دعاية أو مطالبة ، فهي هناك بحكم الواقع . ولكن ربما أمكنها أن توجه الرأي العام في الاتجاه الذي تراه صالحاً . فقد اقترح البريجادير كندى كوك الذي كان حاكماً لكسلا في شهر سبتمبر من العام الماضي إنشاء نظام ثنائي انجليزي — إيطالي على أريتريا ، وهذا بعد القيام بتعديلات إقليمية في الأراضي المنخفضة المجاورة للسودان . ثم استطرد بأنه إذا استحال تنفيذ هذا الاقتراح ، وخاصة إذا ظلت ولاية النمر الحبشية تابعة لاثيوبيا ، فإنه يقترح ضم مستعمرة أريتريا كلها إلى السودان على أن يفرض عليها نظام شبيه بنظام الانتداب .

وقد تقدم البريجادير لونجبرج مدير شؤون أريتريا باقتراح آخر وهو ضم الأراضي المرتفعة من أريتريا إلى السودان وفرض الوصاية البريطانية أو الأمريكية أو الدولية على المنطقة الساحلية وبها مصوع وولاية النمر الحبشية . هذه بعض المقترحات التي أوحى بها بريطانيا إلى بعض المسئولين من رجالها . إلا أن التاريخ سيثبت لنا مقدرة بريطانيا على الاحتفاظ في أي صورة كانت بأريتريا أو على الأقل بمصوع التي تعتبر قلب البحر الأحمر .

الروميا : وقد أدلت روسيا بدلوها في الدلاء وطالبت بمصوع . وحجتها في ذلك أنها تريد أن يكون لها رقابة في البحر الأحمر . ولا يعدو طلبها هذا خلق مشكلة سياسية جديدة .

مصر : أكثر هذه البلاد اتصالاً بأريتريا من النواحي التاريخية والثقافية والدينية بل الاقتصادية . ولكن كل ما أمكنني أن أُلْسِه من المظاهر والمجهودات التي بذلت في المطالبة بحق أو شبه حق لا يتعدى بعض عبارات وردت ضمن مقالات في الصحف . والله أعلم .

أبو عبيدة

٣ (١)

أين نلتمس بحث هذه المسألة وتبين الوجه فيها (٢) ؟ قد يقال إن كتاب النقائض هو أكبر المصادر وأقربها وأوفاهما بما نتساءل عنه ، وهو كتاب مجموع متحد الموضوع . ويقول الأستاذ أحمد أمين عنه إنه أكبر أثر لأبي عبيدة بين أيدينا يدل على طريقته ومنهجه في التأليف ولغته وأسلوبه . ولكن في نسبة هذا الكتاب ، في صورته التي بين أيدينا ، لأبي عبيدة نظراً نرجو أن نرجع إلى بيانته . فلنتركه الآن ، ولنجعل أصلنا الذي نرجع إليه في تبين أسلوب أبي عبيدة وخصائصه في قصصه في تلك الفصول التي نقلها عنه أبو الفرج في أغانيه . فمن المتفق عليه أن أبا الفرج ثقة فيما ينقل ، مثبت من الأصل الذي ينقل عنه ، كما يصفه ابن النديم بقوله : « وأكثر تعويله كان على الكتب المنسوبة الخطوط أو غيرها من الأصول الجياد » . وهو — فيما نخيل إلينا — نقل في كتابه معظم كتاب الأيام لأبي عبيدة ، وهذا إلى أنه كان ينقل — فيما يبدو — دون اقتضاب أو تصرف .

والذي يظهر لأول وهلة من قراءة هذه الفصول أن أبا عبيدة كان راوية مدققاً ، وقد اصطنع أسلوب المحدثين فيما يروى عن الأعراب ، إذ يسند الأخبار إلى أصحابها ، ويتحرى في هذه النسبة الصدق والدقة ، حتى إذا اشتبه عليه الأمر في أحد هؤلاء الذين يسند إليهم ، عبر عن شبهته ، وذكر الأمر كما وقع

(١) الكاتب المصري عدد ٦ (فبراير ١٩٤٦) .

(٢) تساءل الكاتب في نهاية الجزء الأول من المقال : ماذا صنع أبو عبيدة بالأخبار والآفاميص

أو بمارة أخرى ماهو أسلوبه وخصائصه في رواية الحياة العربية ؟

له ، فيقول مثلاً : « وحدثني رجل يخيل إلى أنه أبو يحيى الغنوى » . ومثل هذا التحرى غريب في مثل هذه المواضع ، ولكنه يدلنا على أن الرجل كان شديد التحرج في الأخذ بطريقة المحدثين ، في رواية هذه الأخبار .

ومن هذا القبيل أيضاً ما يأخذ به نفسه من إيراد الروايات المختلفة ، إذ كان يروى عن غير واحد في الموضع الواحد ، فيقارن بين هذه الروايات بعضها وبعض ، حين يحتاج الأمر إلى المقارنة ، وذلك حين يقع الاختلاف بينهما كان حين الأمر طقيفاً . ولدينا من ذلك مثل قريب في « مقتل زهير بن جذيمة العبسي » حين يذكر موطن زهير وموطن بني عامر ، فأبو سوار الغنوى يذكر أن بني عامر كانوا قريباً من أسرة زهير ولا يُشعر بهم . ثم يعقب أبو عبيدة على ذلك بقوله : « قال عبد الحميد وأبو حية : بل بنو عامر بدمخ وزهير بالنفرات ، وبينهما ليلتان أو ثلاث » . ثم لا يفتح ضميره الروائي بذلك ، فيضيف رواية ثالثة عن سليمان بن المزاحم المازني عن أبيه أن بني عامر كانت بالجريرة وزهير بالنفرات .

ومثل هذا كثير عند أبي عبيدة مما قد يضيق به البعض ، ولكنه على كل حال مظهر من مظاهر الدقة التي نلاحظها دائماً عنده ، والتي يتميز بها عن رجل كالأصمعي ، كما سنرى بعد .

وهناك ظاهرة بينة في الروايات التي يرويها أبو عبيدة عن الأعراب تصدر ذلك المصدر ، وهو التفصيل في الصور التي تؤديها هذه الروايات . وربما كان هذا التفصيل من الأشياء التي كان خصومه يستندون إليها في اتهامه بالكذب واختلاق الأخبار . ولكنه عندنا مظهر من مظاهر النزوع إلى الدقة التي تدفعه إلى الاستيفاء ؛ فهو حريص كما رأينا على استيفاء الروايات المختلفة كما سمعها ، وهو حريص على استيفاء أجزاء الصورة وأن يؤديها كما رويت له ، في العبارة والمعنى . ومن ذلك كانت رواياته لأيام العرب أصدق صورة وأدقها للحياة العربية ، كما كان يمثلها هؤلاء الأعراب ، وهم أقرب الناس صلة بها ، وأدناهم إلى تمثلها : فالعبارة عربية بدوية ، والسياق عربي بدوي ، والصور عربية بدوية خالصة ، والتفصيل في أجزاء هذه الصور هو ما نعهد في الصور التي نراها في الشعر الجاهلي ، كما في شعر لبيد مثلاً .

ولعلنا نستطيع أن تتمثل ذلك كله تمثلاً قوياً إذا نحن نظرنا في هذه الصورة

التي نجى في فصله عن « مقتل خالد بن جعفر » وهي تصور ناقة في حال حلبها :

« . . . فأتى الابل ، فوجد حالبين يحلبان ناقة لهن يقال لها اللفاع ، وكانت لبونا كأغزر الإبل ، إذا حلبت اجتزت ، ودمعت عيناها ، وأصغت برأسها ، وتفاجت تفاج البائل ، وهجت في المحلب هجماً حتى تسنمه ، وتجاوبت أحاليها بالشخب هشا وهشياً حتى تصف بين ثلاثة محالب . »

فهذه القطعة تعتبر من أروع مثل الفن التصويري الفطري ، دقة في الوصف ، واستيفاء لمقومات الصورة التي تمثلها من نواحيها المختلفة ، وصدقاً في العبارة التي تعبر عنها بمعاني ألفاظها وجرسها ونبرات حروفها جميعاً ، تعبيراً طبيعياً لا صنعة فيه ولا تكلف .

على أن هذا النزوع إلى الدقة الذي نراه في تلك الظواهر كما يكون مرجعه إلى الروح العلمية التي تفرض على صاحبها الأمانة في الرواية ، والدقة في النقل عن الرواية ، كما هو الشأن عند المحدثين ، يمكن أن يكون مرجعه أيضاً إلى الروح الفنية التي ترى في هذه الدقة مظهراً من مظاهر الكمال الفني ، في إخراج الصورة حية نابضة ، وفي إبرازها بجميع أجزائها وملاحظاتها وقسماتها ، وفي شتى الملابس التي تلبسها وتحيط بها وتنشر الظلال حولها وتكيف الجو الطبيعي لها .

ويظهر أن كلا من الروحين : الروح العلمية والروح الفنية ، كان عاملاً قوياً الأثر في عقلية أبي عبيدة ، وقد كانا يجتمعان في هذا النزوع إلى الدقة ، ويختلفان في بعض المظاهر الأخرى ، وإن كنا نرجح أن الروح الفنية كانت شديدة السيطرة عليه ، بعيدة الأثر في احتفاظه بهذه الصور كاملة مفصلة على النحو الذي نراه . أما الروح العلمية فنرى من مظاهرها ذلك الحرص على تمييز الروايات المختلفة ، وإفراد كل رواية على حدة ، وإن ترتب على ذلك تشتيت أجزاء الصورة الواحدة بين هذه الروايات التي تتكامل فيما بينها . ولولا هذه الروح العلمية المتحرجة لاستطاع دائماً أن يجمع بين هذه الروايات في رواية واحدة ، تضم أجزاء الصورة جميعاً :

ولا بد لنا من مثال يوضح هذا المنهج الذي يصدر عن هاتين الروحين معاً ، وليكن هذه القطعة من خبر ورقاء بن زهير ، وهي التي تمثل شاس بن زهير وهو حائد من عند النعمان .

ففي هذه القطعة نرى أبا عبيدة يورد روايتين ، تشتمل كل واحدة منهما على بعض أجزاء الصورة ، وتظهرها من إحدى ناحيتيها . فالأولى تصور ما كان شأس يحمله معه من لدن الملك النعمان : « مسكا وكُسًا وقُطُفًا وطنافس » ، وتصور حالة الجو حين أناخ راحلته ، وموضع الإناخة : « في يوم شمال وقر » ، على ردهة في جبل ، ورياح بن الأسك أحد بني رباع . . . على الردهة ، ليس غير بيته بالجبل . وهذا هو أحد جانبي الصورة أبرزته هذه الرواية ، ثم تجمل صورة اغتساله ومقتله بعد ذلك ، وتطويها في سرعة . فأما الرواية الثانية فتجمل هذه الصور التي عنيت الرواية الأولى بإبرازها مفصلة ، وتفصل ما أجملته ، فتصور وقت الإناخة بأنه كان في الظهيرة ، ثم تذهب تبرز الجانب الآخر من الصورة ، فتصور شأس بن زهير وقد « ألقى ثيابه » ، ثم قعد يُهريق عليه الماء ، وتصوره وهو قاعد عريان : « فاذا هو مثل الثور الأبيض » ، ثم تصور ما كان بين رياح وامراته إزاء ذلك المشهد ، إذ يقول لها : « أنطيني قوسى ، فمدت إليه قوسه وسهما ، واتترعت المرأة نصله لثلا يقتله » . ثم تفصل صورة مقتله بسهم ليس فيه نصله : « فأهوى عجلا ن إلىه ، فوضع السهم في مستدق الصلب بين فقارتين ، فقصلهما ، وخر ساقطاً . وحفر له حفراً ، فهدمه عليه ، ونحر جمه وأكله » . وإلى هنا يمكن أن يقال : إن الصورة تمت ، واستطاع القارئ أن يتمثلها من جوانبها المختلفة . ولكن أبا عبيدة يلاحظ — ولترعته الفنية شأن كبير في هذه الملاحظة كما يبدو — أنه لا يزال في الصورة موضع خلل ، فما بال هذه الهدايا التي كانت مع شأس ؟ وبذلك نراه يستكمل هذا النقص ويسد ذلك الخلل ، فيعقب على ذلك بقوله : « وقال عبد الحميد : أكل ركوبته وأولج متاعه بيته » .

فهذا مثال يبين لنا كيف كان يصنع أبو عبيدة بالروايات التي يرويها عن الحياة العربية ، وكيف كان في سبيله التي اتخذها في ذلك يتردد بين الروح الفنية والروح العلمية التي كانت بيئة البصرة إذ ذاك تفرضها فرضاً ، وكانت دراسته للحديث وفن الرواية ، وتلقيه عن مثل أبي عمرو ، يأخذه بها أخذاً شديداً . ومع ذلك استطاع — كما رأينا — أن يوفق بينها وبين الروح الفنية ذلك التوفيق ، وقد أعانه عليه ما ذكرنا منذ قليل من اشتراكهما في تطلب الدقة . ولعلنا نستطيع أن نتبين أسلوب أبي عبيدة في هذا فوق ما أوردنا إذا نحن

قارناه بغيره ، كأسلوب الأصمعي مثلاً . وللأصمعي قطعة بين أيدينا تصور ذلك الموضوع نفسه الذي رأينا ، فلننظر ماذا صنع ، ولنقارن صورة بصورة . يقول الأصمعي : « حدثني غير واحد من الأعراب أن سبب مقتل زهير العبسي أن ابنه شأس بن زهير وفد إلى بعض الملوك ، فرجع ومعه حباء قد حبى به ، فر بأبيات من بنى عامر بن صعصعة ، وأبيات من بنى غنى ، على ماء لبنى عامر أو غيرهم . قال : فاغتسل فناداه الغنوى : استتر ، فلم يحفل بما قال ، فقال : استتر ويحك ! البيوت بين يديك ، فلم يحفل ، فرماه الغنوى رياح بن الأسك بسهم ، أو ضربه ، فقتله . والحى خوف » .

فلندع ما تفقده في هذه القطعة من الروح العلمية التي نراها عند أبي عبيدة ظاهرة ، وإن تكن مع ذلك متجملة ، ولننظر فيما وراء ذلك نظرة سريعة . فسرى الفرق واضحاً بين الرجلين : بين ما يعرضه أبو عبيدة في رواياته المتفرقة وما يعرضه الأصمعي في رواياته المجمعة . فبالرغم من تشتت أجزاء الصورة عند أبي عبيدة نراها واضحة الملامح بينة الظلال حية نابضة ، وقد استطاع أن يضع هذه الأجزاء ، كما تؤديها الروايات المختلفة ، في سياق فنى . أما الأصمعي فلا نكاد نجد عنده شيئاً من ذلك . فهذه القطعة التي رأيناها لا تستطيع أن تحدث لنا تلك المتعة الفنية التي أحسنها عند أبي عبيدة ، إذ كانت لا تنقل إلى خيالنا إلا الخطوط الأولية للصورة ، أو الهيكل العظمى للقصة ، أما ملامح الصورة ونبضاتها وروحها المقومة لها ، فلا أثر له فيها . وكما أن هذه المقارنة بين هاتين القطعتين جدرة بأن تبين لنا عقلية أبي عبيدة والنزعات التي كانت تسيطر عليه ، فانها توضح لنا الفرق بين هذين الرجلين اللذين جمعهما عصر واحد ، وبيئة واحدة .

وبعد ، فقد كان أبو عبيدة — في جملة القول — رجلاً مرهف الحس ، دقيق التصور ، قوى الخيال ، حاد الذكاء . وكان يجمع بين خصائص العلماء وخصائص رجال الفن . وبذلك استطاع أن يؤدي صور الحياة العربية واضحة قوية ، وأن يظفر في ذلك بثقة معاصريه به وإكبارهم له . ولو أن تراثه من هذه الناحية وصل إلينا كاملاً لكان لنا أن ندعى العلم بالحياة العربية علماً أدق وأوفى وأشمل .

مصرع طائر

كأنني أرحسُ ارتعاشَ الغدير
 وماه ، على غيرة ، قانصٌ
 لمن مدَّ في الأفقِ دامي الجناح ؟
 على جانبيه زيفُ الدماء
 ويشمخُ حتى يُعْبُ الشُعاع
 ويُرسِلُ آخرَ الحانه
 خفيفُ الجناحِ بأحلامه
 تُناديه في الأرضِ ذكرى هواه
 فيسقطُ حتى يشمَّ التراب
 يلوكُ الدماءُ بمنقاره
 كأنَّ على طرفه ومضة
 وإذ هو من تحتِ مجهل
 وإذ قلبه قبضة من رماذ
 تناساهُ في الرّوضِ أترابه
 رُوِّيدك لم يبق إلا صداهُ

[حلب]

هنايل نصراني

LE POUVOIR DES MOTS

ROGER CAILLOIS

سلطان اللفظ^(١)

[نلفت القراء إلى هذا الفصل الذى يذكرهم بأصول البلاغة العربية القديمة حين كان بشر بن المعتمر وأبو هلال وعبد القاهر يدعون إلى أن تدل كل كلمة على معناها الدقيق ، وإلى أن يكون لكل كلمة مع صاحبها مقام .]

قرأت لشاعر أقصوصة عجيبة ، تخيل فيها أن بعض الأشخاص القاطنين في الحواضر من هؤلاء الذين ليسوا أهلاً للوجود ، والذين انعدمت شخصيتهم فهم لا شيء ، ينتهزون فرصة العدد الكبير من السكان الذين تزدهم بهم هذه المدن ، فيندسئون وسط الجمهور ، ويتظاهرون مفلحين بالاستمتاع بحظ من الوجود الواقعى لا يقل عن حظ أولئك الذين يسايرونهم . فهم يتجولون ويشغلون أنفسهم ويسيطرون سيرة غيرهم من الأفراد الذين من حولهم حتى إنهم يخذعونهم فى يسر . ولكن القاص يذكر أن العين المتدربة تستطيع تبينهم ، وأن فى مطاردتهم عندئذ كثيراً من التفكه . وحين ينكشف أمر هذه الظلال الطامحة ، تسعى إلى الفرار ، وهى تتجهّد وتُسْعَمُها فى الإفلات من متبعتها مستعينة على ذلك بكل الوسائل . فتخترق الحوانيت الكبرى ، تدخل من باب وتخرج من آخر بعد أن تكون قد حاولت الاندماج فى غمرة المشتريين ، أو

(١) صاحب هذا المقال روجيه كايوا من خريجي مدرسة المعلمين العليا بباريس . انضم فى أول حياته الأدبية إلى أصحاب مذهب السوربالزم ، وما لبث أن هجرهم وقطع الصلة بينه وبينهم فأخذ يدافع عن ضرورة خضوع الأثر الأدبى للفكر والنظام ، وعن ضرورة التشدد والزهد فى الأدب ، وهو فى هذا يناهض أيضاً المذهب الرومانتيكى . وقد عين أثناء الحرب الماضية مديراً للمعهد الفرنسى للآداب فى الأرجنتين ، وبقي طوال الحرب فى هذا البلد حيث أنشأ مجلة « الآداب الفرنسية » التى ذاع صيتها وكان لها أثر كبير فى أدب أمريكا الجنوبية بصفة خاصة . لم يكتب قصصاً أو شعراً ، وآثاره الأدبية كلها تعتبر على الحدود بين الأدب والفلسفة والنقد .

تستقل مركبة تنزل منها أثناء سيرها في وقت لا يمكن أن تتوقع فيه النزول . وهي تدخل منازل ذات منفذين تكون قد استدلت عليها من قبل . ويحمل القول أنها تلجأ إلى كل حيلة قد تكفل الهرب . على أن المهم ألا تغيب عن بصر الذين يقتفون آثارها . فإذا أقبل المساء كانت هذه الأشباح منهوكة القوى وأخذت تقلع عن الجهد . حينئذ تترك الأماكن المكتظة التي يكثر فيها تردد الناس ، والتي كانت ترجو إلى ذلك الوقت أن تضيع فيها ، وتسعى متجهة نحو الضواحي . هناك تؤثر أن تسلك الأزقة المظلمة الخاوية ، وقد كادت تشف أجسامها — إذا جاز لنا أن نستعمل لفظ « أجسام » بالقياس إليها — وأحاط بها شيء يشبه أن يكون إطاراً « مضيئاً » وكأنها تضمحل . لقد أدركت نهايتها . ويعتمد الشخص منها فجأة على حائط فيختفي على الفور ، ولا يبقى على الجدار إلا بقعة عفنة تتخذ من بعيد جداً شكلاً إنسانياً .

١ — الألفاظ والمعاني

ولا إخال الأقصوصة تخلو من المغزى خلواً تاماً . فإن لم تصدق بالقياس إلى الناس فهي صادقة بالقياس إلى الألفاظ التي تجري على ألسنتهم . ولطالما استعملوا هذه الألفاظ ، واستعملوا قدراً كبيراً منها ، منذ ذلك اليوم الذي أخذوا فيه يتحدثون ويكتبون ، مدفوعين دائماً إلى استحداث الجديد منها . وهم في تسرعهم يستخدمون هذا اللفظ أو ذاك دون تمييز بينهما . ولقد نشأ عن ذلك كله ظهور ألفاظ كثيرة لا تغني شيئاً . وهذه الألفاظ تسير ، شأن غيرها ، وتتألف مثلها من حروف تتجمع في مقاطع ، وتثبت في المعاجم ، شأن غيرها أيضاً . على أن وجودها زائف خداع ؛ فهي لا تنمو ولا تنجح في نموها إلا بفضل غفلة عامة ؛ لأنها لا تمثل حقيقة واقعة متميزة عن غيرها ، أو فكرة واضحة محدودة يمكن تعريفها تعريفاً لا يحتمل اللبس ويظهر بموافقة إجماعية . ولكنها مع ذلك تبعث الوهم مادامت لم تعصر ، وقبلما تعصر . لذلك يظل كل إنسان مطمئناً إلى أنها ملأى مثل غيرها ، لا فارغة كما هي في الواقع . ثم إنه يستحيل إلغاؤها إلغاءً تاماً ؛ لأن الخلدعة لا تحب العزلة . فليست هذه الألفاظ معينة متميزة يكفي أن تعرف لتحكم عليها ، بل هي خاتلة غدارة لا يمكن أن تأخذها اليد ، تستخفي

وراء مقطع من هذه المقاطع الإضافية التي توضع في أول الكلمة أو في علامة من تلك العلامات التي تلحق بآخر الكلمة . ومصدر الكلمة لا يثير خشية ولا ريباً ؛ فهو معروف قد فهم معناه منذ نشأ . وهذا هو الذي ينجم الريبة ، إن كانت قد استيقظت . غير أن كل اشتقاق يخفى شركاً ؛ فهو في أول الأمر مظهر من مظاهر العمل الفكري يوسع المعنى ويبسطه بسطاً قد لا يكون ملائماً حين يقع ، ولكنه يولد فيما بعد نوعاً من الغش يصعب كشفه . وقد يخرج اللفظ عن الحقيقة إلى المجاز كما يقال ؛ فتكون الخدعة هذه المرة في الاستعارة أو في نسيانها بعد حين لكثرة الاستعمال ، وهذا سريع الحدوث . فهذه الوسائل وبكثير أخرى غيرها ينشأ منذ أول الأمر بين الألفاظ وبين ما تعني علامات مربية غير محدودة . فالألفاظ تتوالد ، كما تتوالد معانيها ، على مدى أوسع حتى يستحيل التمييز بين تلك التي تدل على شيء من الحقيقة الواقعة وتلك التي وجدت كأنما هربت تهريباً . ويزداد الأمر خطراً على مر الزمن . وحين تكتسب الألفاظ هذا القدر من الأهمية تتخذ وسيلة للتعرف على الأشياء واختبارها ، تقوم في ذلك مقام الأشياء نفسها . فهي تفرض نفسها على أذهان ساذجة وتكاد تشغلها إطلاقاً فتخفى عليها الواقع بدلاً من أن تيسر لها سبل التعبير عنه . وهي تغير هذا الواقع وتفسده ، وتخلط كل شيء ، وتجمع تحت عنوان واحد كاذب أشياء متنوعة وأفكاراً متباينة لا يربط بينها إلا الإشارة إليها برمز واحد . وهذا الرمز ليس من شأنه إلا التضليل ؛ إذ أنه يخيل وجود روابط وعلاقات بين الأشياء ليست قائمة في حقيقة الأمر .

والشخص الذي يستعمل لفظاً قلما يفكر في تحديد معناه . وهو إذ يتحدث أو يكتب يدل به على معنى ثم على آخر ، ولا يقدر أن هذه المعاني لا يمكن الجمع بينها . وكلما زاد اللفظ إيهاماً سهل عليه إدراجه في حديثه . وحتى إذا جهل مداه جهلاً تاماً فليس ما يمنعه من استعماله حسبما يرغب دون أن يتقيد بأي حال ولا يقف أي اعتراض في سبيل اندفاعه . لذلك كثيراً ما نرى أشخاصاً يلد لهم أن يجمعوا في آلاف من الجمل الرنانة ألفاظاً يظنونها تفيض سحراً ، ولكنهم يعجزون عن تحديد ما تنطوي عليه من معنى لو طلب إليهم ذلك . وكأنهم ينظمون ألواناً من الخرز ، فأى رادع يقف في سبيلهم ! وهم يرصنون ألفاظاً منقادة طيعة لا تحقق شيئاً ، ولا يجد فيها العقل معنى يثبت له بحيث يستطيع

أن يتعلق به ، كما أنه لا يلقي فيها المقاومة إن أراد أن يشتد عليها في النقد والتحليل فليست إلا أصواتا أو مجموعة متلاحقة من الحروف تختلف معانيها باختلاف الحاجة التي تدعو إليها . ولا شك في أن هذه الطواعية تجعل من السيرجدا على فكر حاذق نشيط أن يجمع بينها في غير تحرّج ، وهو ينظمها حسبما يحضره من خاطر ، لا يكلف نفسه لحظة عناء السؤال عن المعنى الذي يؤديه . وهذا الإهمال نفسه يصبح مصدر حرّيته التي تتيح له هذه السهولة والتي قد توهم الذكاء ، وما هي إلا تائق زائف وتسلط كاذب يشبه القبض على الريح . وقد يكون هذا الذهن الرخيص باهراً خلافاً ، فحسبه ألا يفكر ؛ لأن كل تفكير يقلل من نزواته وقد يحرم عليه إبداء الرأي ويضطره إلى الاحتياط ، وهو يظهره على مصاعب في الأشياء والأفكار لم تكن لتظهرها له ألقاظه الجوفاء التي لا تدل على شيء . ولو قد ظهرت له وكان أميناً نزيهاً لنزل من غروره عن شيء كثير . ولا بد من شيء من الخلق المتين ليمتنع الإنسان عن تكلف الذكاء ، وليحاول أن يكون ذكياً بالفعل دون أن يعتمد إظهار ذلك إلى حد ما . على هذا النحو وحده أستطيع أن أفسّر ذلك الميل الدائع الذي يدفع بعض الناس إلى استعمال ألقاظ لا يدركون معناها تمام الإدراك . فليس لذلك مصدر إلا أنهم في مثل هذه الحالة أقل تبرماً بالألقاظ مما لو فهموا معانيها . فاذا قيل : مائدة ، أو ألم ، أو خبث ، فهم كل امرئ ما تعنى هذه الألقاظ ؛ لأنه خبر هذه الأشياء خبرة كافية ، فليس خداعه عنها سهلاً . ولكن إذا قيل « استدلال » مثلاً أو « سُمُو » فجال الحرية واسع أمامنا ، ويتعرض كل واحد منا لاختلاط الأمر عليه والاندفاع إلى الخطأ والانخداع . فاذا ذكرت « العدل » أو « الحرية » دون أن تبين ما تريد من ذلك ، فكل شيء يباح لك ، حتى أن تطلق هذين اللفظين على الظلم والطغيان ؛ إذ أن قوام كل أمر متروك إلى تعريفه . ومن ذا الذي لا يذكر أن بعض الغزاة استعمل لفظ الحماية يدل به على الإخضاع والإذلال ، وكان التحليل ظاهراً ، فلم يضل أحداً ! ولكن لا أخاف هذا التضليل المكشوف ، وإنما أخاف التهور الساذج والمظاهر المختلفة التي تتخذ في غير شعور . وهذه المظاهر مع الأسف موجودة دائماً في كل مكان ، فما نكاد ننظر في أية صحيفة حتى نراها ماثلة في كل مكان . وواضح أن هنا على الأقل إغراضاً عن طواعية ورضا عن استعمال الألقاظ في معانيها الحقيقية . أصدر هذا عن سذاجة أم عن دهاء ؟

لعله صدر عن الأمرين جميعاً . إذ الدقة . ووضع سخر لأنها لا تظفر بريح ، على حين تستغل بعض الألفاظ لما توحى به من غواية وإغراء . وقد تحدث فكتور هوجو عن « خطاف أشهب » . . . كذلك نراهم يتحدثون عن « الحب المستقل للوطن » . . . وليس للعبارة معنى ، ولكن ما الحرج في ذلك ؟ فالذي يستعمل هذا اللفظ هنا يريد أن يكسبه الدلالة التي يشعر أنها لازمة له في عبارة « قيمة مستقلة للأشياء »

وهذا النحو هو الذي ينحوه التاجر حين يعلن أن بضاعته « ترف اقتصادي حقا » ، وهو الذي ينحوه أيضاً رجل السياسة . ومن ذا الذي يستطيع أن يتقى العدوى كل الالتقاء ؟ والحق أن الإنسان يجد نفسه أمام مغامرة غريبة خطيرة ، وهي استعمال الألفاظ ، لا لما تدل عليه من معنى ، بل لما تحدثه من أثر .

٢ - العبارات

ويزداد الخطر حين يؤلف بين الألفاظ ، فإنني إذ أستمع الناس يتحدثون عن « الأمم الشابة » أراني حائراً مرتبكاً . ولست أجهل ما يقصد بالشباب عند فرديولك وينمو ويهرم ثم يموت ؛ فهذا التحول مرسوم رسمياً واحداً نهائياً بالقياس إلى مختلف الأفراد . إذ أن الذي يقصد بالشباب مرحلة محددة تحديداً دقيقاً من مراحل تطور مستمر . ولكن حين نطلق هذا اللفظ على أمة يلتبس الأمر فوراً : أيراد بالأمّة الشابة الأمّة القريبة العهد بدستورها ؟ أم تلك التي نشأت حديثاً فاحتد بها الشعور الوطني وكان فيها أشد حساسية منه في غيرها ؟ أم يقصد بها الأمّة التي ارتفعت فيها نسبة الشباب بشكل واضح وانخفضت فيها نسبة الشيوخ بشكل واضح أيضاً ؟ أم يراد بهذا اللفظ أن الذين يتولون شؤونها ويشغلون المراكز الأساسية بها في سنّ الشباب ، فإذا لم يكونوا شباباً في السن أظهروا على الأقل حدة الشباب وحماسهم واقتحامهم للصعاب وميلهم إلى المجازفة وغير ذلك من الصفات التي اتفق على نسبتها إلى الشباب ؟ أم يراد بذلك أيضاً أن السلطان السياسي والاقتصادي للأمّة في مرحلة من النمو والتوسع بحيث ينافس الدول التي سبقتها في التوطد منافسة جديدة خطيرة ؟ لا يمكن الاختيار بين كل هذه المعاني ، ومع ذلك فلن يقطع أحد بأن كل هذه الخصال يجب أن تلتقي في

وقت واحد في هذه العبارة . وليس ما يدل على أنه لا يمكن أن ينفصل بعضها عن بعض . كان ينبغي إذن التمييز بينها لو أريد ذكر شيء دقيق يسنده الواقع ويكفله . ولكن هل أريد ذلك ؟ فالسحر يتلاشى حين نعلم إلى حصر المعنى في تحديد دقيق ؛ لأن الأمر لا يعدو حينئذ بيان بعض مزايا ضئيلة أو غير مؤكدة ، كما لو قصدنا بالعبارة أن تلك الأمة حديثة التكوين ، أو أن أفرادها حديثو السن ، أو أن مقاليد الحكم بها في أيدي فتیان يافعين أو مجترئين ، أو أن يكون اقتصادها مزدهراً مبسوط النفوذ . في حين أن الوصف بالشباب يكفل تفوقاً مطلقاً وحماسياً لا جدال فيه ؛ إذ الجدل لا يمكن أن ينصب إلا على موضوعات محدّدة

فلفظ « شاب » هنا لا يعبر عن واقع ، بل يعنى تفوذاً يتلاشى ويتبدد إذا ألحنا في تحديده ، أى إذا التمسنا له تفسيراً دقيقاً ، لأنه لم يكن يعتبر عن شيء ، بل كان أشبه « بشيك » لا يقابله رصيد . ولا يفكر أحد مع الأسف أن يقدم هذا الشيك إلى البنك ، يمنع الكسل من ذلك ؛ فهو يحوّل مغمض العينين إلى غيره من الاغرار . وتداول مثل هذه العملة من الورق يزداد باستمرار ؛ لأن هذه القيمة الباطلة تتوالد بسرعة مروعة . وبالتدرّج تقل العادة في المقابلة بين هذه الاشارات الزائفة ، وبين الأمور أو الآراء التي يتصور أنها تمثلها . ولا يعبأ بإدراك الأشياء نفسها ومعرفة خواصها ، بل يجمع على سبيل المصادفة إشارات لا حول لها ولا قوة ، وليس لها إلا أن تطيع . . . وأن تضلل .

كنت أقرأ ذات يوم هذا التعريف للرجل السياسى البارع : « الرجل الذى يرى الأشياء كما هى ويرسم خططه وفقاً لها » . هذا التعريف لا يضارع ، بشرط ألا يخطر على البال أن المعلومات التى يجب أن يلم بها الرجل السياسى من التعدد والتعقد بحيث يخرج عن مقدور الفكر الإنسانى إمكان الوصول إلى رؤية الأشياء كما هى .

فهذه العبارة نفسها تحير الفكر وتربكه . فهل تحتفظ بمعناها حتى حين لا يراد بها — كما هو الحال هنا — أشياء معينة ومحددة تحديداً دقيقاً ، بل حالات واتجاهات ومصالح ومجموعة من العناصر غير الثابتة وغير المحددة التى تختلف حتى طبيعتها العقلية باختلاف الطريقة التى ترسم بها حدودها ، بل أكثر من ذلك

بإختلاف الأهمية التي تضاف إليها ؟ فإن هذه العناصر رهينة أحياناً بمقدار ما نعلق عليها من اعتبار ، فهي تصبح حاسمة إذا خيفت ، أو مهمة القيمة إذا احتقرت . ومثل هذه الأشياء المزعومة ليست موجودة . أريد أنها لا توجد وجوداً صلباً ثابتاً كما يوحى بذلك لفظ « موجود » أو لفظ « شيء » . على أنها حتى لو تمتعت بهاتين الصفتين فلن يستطيع الرجل السياسي أن يراها بالضبط كما هي إلا أن يكون إلهاً . وعلى أي حال فسيراها كما تظهر له ، وستظهر له على الصورة التي يستطيع أن يراها بها وعن طريق مزاجه وماداته ومعتقداته ومخاوفه وآماله ، أي عن طريق جميع مشيرى السوء الذي يفسدون الحكم ، والذين لا يستطيع أي فرد أن يتخلص منهم تخلصاً كاملاً . وعلى ذلك فالسياسي البارع سيرى الأشياء على نفس النحو الذي سيراها السياسي الرديء ، كما لمّح بذلك مؤلف الكتاب الذي استقيت منه التعريف . ألا يوجد إذن أي اختلاف بين هذا وذاك ؟ لا شك أن بينهما أوجه خلاف . فهذا أشد حرصاً في القرارات التي يتخذها ، وذاك أكثر طلاقة . أحدهما يخضع في يسر لما توصى به مقتضيات الواقع ، والآخر ينقاد لغريزته وشهوته ، ويخيل إليه في حسن نية أن جميع الظروف تعضد مشروعه . ولكن كليهما معرض لنفس الأخطاء تعرضاً متفاوتاً . ولا يلاحظ بينهما إلا اختلاف في الدرجة ، على حين أن التعريف الذي أسمى يزعم لإيجاد اختلاف في الطبيعة . وقد يقال لي : « ألا تستطيع أن تطرح جانباً هذه الدقائق ، فتغفر للغة عدم إحكامها البريء الذي لا يعتبر الأشياء في مجموعها بحال ؟ ما بالك توجد هنا تمييزاً بين الدرجة والطبيعة ؟ إن هو إلا تمييز فقهي » . وأنا أرجو المَعذرة ، فما أزال مصرّاً على تشددي ؛ لأنني أعلق أهمية خطيرة على أن تكون التفرقة في الدرجة لا في الطبيعة . فلو أنها كانت في الطبيعة لما جاز لي أن أقول شيئاً ، ولا أصبح السياسي البارع ذلك الذي وصف ، أي ذلك الرجل الذي منح بصيرة إلهية لا يعوضها شيء ، على حين يبدو الآخر على هيئة رجل هائس يتجه حتماً نحو الإخفاق ، ومصيره أن يلبث في الظلمات الخارجية مدى حياته كلها . أما إذا كان الاختلاف في الدرجة ولم يقصد إلا زيادة في الدرجة أو نقصان ، فإنّ التعريف تسقط قيمته على الفور ؛ لا لأن نظرة الرجل السياسي قد تكون حسب الظروف أقرب إلى الموضوع وأشدّ مطابقة له أو أبعد عنه وأقلّ مطابقة له ، وأنه يستطيع على أي حال أن يصلح هذه النظرة إذا أظهر على خطئه ، بل لأن من

المشكوك فيه أن الكمال يعتمد على فطنة ممعنة في الحذق وعلى مجموعة كاملة وافية من البيانات الصحيحة ، بل قد ينشأ ، على العكس من ذلك ، من مزج بين بعض الامتثال للظروف وبعض الحماسة ! هذه الحماسة التي تدفعه من ناحيته إلى عدم التعلق بأشد البيانات دلالة حين تفرضها هذه الظروف . ولا أقصد أن هذه الحماسة تستند على نوع من الإدراك أو الإيحاء ينبئ العبقري أن ليس أمامه هنا أكثر من مجرد مظهر بسيط لا يخفى شيئاً ؛ فإن الأمر لا يعدو في هذه الحالة أن يكون تعمقاً في الفطنة ، وإن شئت فقل نتيجة لنظرة إلى الأشياء أشد ثباتاً . أعني بذلك أن حماسة الرجل السياسي وإرادته وذكاءه ومناورات ومثابرته كثيراً ما تنجح في تغيير الظروف نفسها ، وهي في الواقع قابلة للتشكيل والتحويل ، وتتألف من نسب قابلة للتعديل ، ومن قوى تعمل للذين يعرفون كيف يأسرونها واثقين بها . وجغرافيا الرجل السياسي المتسعة لا تقتصر على مجموعة معقدة من الجداول والقيم والممرات الضيقة ، بل تشمل أيضاً جبلاً شامخة تبدو مستقرة ثابتة حتى يقوم إيمان عنيف غير قابل للتفسير ، ولا يمكن أن يتنبأ به عقل أو منطق ، فيدفعها إلى الحركة . ويطلعنا التاريخ على كثير من هذه المعجزات الظاهرية ، وكثيراً ما رأينا في المسائل الانسانية المرونة السهلة الصياغة أن التعصب يصل إلى تحقيق غاياته حيث يعجز عن ذلك العلم وصواب الحكم النافذ . وأحياناً يرجع التغلب على الصعاب إلى إنكارها وعدم الاعتراف بها ، أو إلى الاندفاع العنيف الذي يغمض عيني البطل بقدر يجعله لا يكاد يراها ، ويمنحه بذلك حظاً من اليأس يعينه على قهرها . وطبيعي أن المقصود ليس الاندفاع مع إغفال كل عامل ، فقد يعثر المتحمس عشرة سخيفة ويتحطم كالزجاج ، لأنه إزاء صعوبة ما لم يقدر ما تنطوي عليه من مقاومة حق قدرها . لذلك كنت أقول إن الخير في مزاج يلائم بين مقادير من العوامل المختلفة . وتعريف المؤلف الذي ذكرته لم يكن ليشر بذلك ، بل كان يستبعد حتى مجرد التفكير فيه . إنما المهم في رأيي هو هذا . كما أن المهم أن يظهر أن هناك فارقاً بين الاختلاف في الدرجة والاختلاف في الطبيعة . ولم أكن أناقش في هذه العبارة إلا معناها لاسداد حكمها ؛ لأنني أريد أن أبين كيف أن الألفاظ تفر . فليس يعني أن أتحقق من دقة التعريف أو قصوره ، ولو أنني حاولت ذلك لاضطرت إلى العدول عنه فوراً . لأن مرجع الأمر ما يقصد بالسياسي

البارع : أيقصد به الماهر ؟ أم الأمين ؟ أم الخير ؟ وهل مقياس ذلك نجاح مشروعاته أو سمو خلقه أو حسن ما يبلغ من النتائج ؟ ووجهات النظر الثلاث لها ما يبررها . ويمكن إذن الاعتماد على كل منها وتعريف السياسي البارع . على أن اختيار أحدها دون سواها يكون موضع نزاع لا ينتهي . ومن ذا الذي يأخذ نفسه بذلك !

٣ - فروع اللفاظ

على أن الجملة المذكورة كانت خلاصة المظهر ، كانت منسجمة تلذ السمع ، ولكنها لم تشتمل إلا على ألفاظ لا تصلح لأداء المعنى ، وعبارات لاحظ لها من الإفصاح . وقليلة تلك الجمل التي لا يخلب مظهرها ، غير أنه ليس من المستطاع تحليلها جميعاً . لكن ذلك واجب ، فليست هناك علامة خارجية تميز الجمل التي لا تنطوي إلا على ألوان من الاضطراب والسراب عن غيرها . فهي حسنة التركيب ، تتألف من ألفاظ عادية ، وتخضع في نظامها لقواعد النحو المألوفة . وهي تملأ الحديث والكتابة ، وكل منا يسمعها ويردها ، ولا يلبث أن يؤلف غيرها دون أن يعنى بتحليلها كما ينبغي ، شأن موظفي الجمارك الذين يتعذر عليهم فتح جميع الحقائق ؛ وهكذا تمر باستمرار بعض المهربات الضئيلة . ولكن إذا ما توقف ذهن يقظ لحظة عن القراءة أو الكلام أو الاستماع ، وحاول أن يختبر الالفاظ التي يستعملها أو مشتقاتها المختلفة ليعرف ماذا تعني وأية حقيقة واقعة زعم التعبير عنها ، هنالك ينهار كل شيء ، وينكشف البهرج الذي لم يكن يخفى إلا غروراً أجوف . ولم يكن الكلام إلا بناء غير متين أسبغ عليه غشاء يخدع الأبصار عنه طلاء غليظ . وكان الفكر المتسرع أو الغافل قد قدر أن له معنى ، لأنه اعتاد — وهذا هو الخطر — أن يقنع بالالفاظ المألوفة التي لا يصدمه فيها سخف ظاهر . فقد يكون عسيراً أن تبدو على الالفاظ سخافة . وأيسر من ذلك أن تأتلف ألفاظ لا يؤذي الجمع بينها ، بل يدعو بعضها بعضاً ، وتسرع بنفسها إلى اللسان أو القلم . ويمجد الانسان في هذا اليسر الخطر غبطة ورضا ، على حين يشق العقل على نفسه ، وينحرف عن طريقه ، ويمتنع على الكسل حين يؤلف بين ألفاظ يؤذيه الجمع بينها . لذلك يلاحظ أن معظم الجمل التي نلقاها يبدو عليها مسحة

ظاهرة من المعنى ، لكنها لا تعدو المسحة الظاهرة ، ولا تقوى على المقاومة عند أول اختبار لها . وأغلب الظن أن يكفي في معظم الأحوال محاولة الإحداق بمعناها ومحاصرتها ليتبين أنها خالية من المعنى .

ولا بد لهذا الاختبار من أن يقع . هناك يثوب العقل إلى نفسه فجأة بعد أن هام بين الألفاظ كأنه أنشئ بها ، فتعاوده الرغبة في أن يعتمد على شيء أشد ثباتاً . وهو يريد أن ينفذ خلال الألفاظ ليصل إلى الحقائق الواقعة ، أي يريد أن يلمس المعدن الذي لا مرأى فيه والذي يكفل هذه الكمية الوافرة من أوراق النقد المصرفي . والواقع أن التجربة وحدها هي التي تبين لنا أن لفظاً من الألفاظ يساوي أكثر من الصوت الذي يحدثه حين تكشف عن أن اللفظ يستند إلى حقيقة قاطعة من تلك الحقائق التي دعمت دعماً نهائياً بالحواس أو بأى طريق آخر من طرق المعرفة والتحقيق . هنالك يخضع كل أمر لامتحان شديد ، فيمتنع الخلط بين الأشياء أو إمكان انكارها أو رفضها . فكل ما يحاط به علماً قد عرف عن طريق اليقين . ويبقى في النفس أثر كأنه التثام للجرح الناشئ عن هذا الاستكشاف الذي قد يكون مألوفاً بالقياس إلى بعض الناس أو نادراً بالقياس إلى البعض الآخر . هكذا يحتفظ كل واحد بكريات تتكون منها ثروته الشخصية ويقابل بين هذه الكريات وبين الألفاظ حين يريد أن يتحقق من صفتها ومن قيمتها . فمن وراء المجموعات الرنانة من الألفاظ التي يصادفها في القراءة أو الحديث يريد أن يصل إلى بعض المعلومات التي لا يمكن تقضها ، ولا يستسلم قبل أن يصل إلى غرضه . ولا ريب أن الأحاديث أو الصفحات التي تثبت للتجربة قليلة ؛ ففي مرحلة من مراحل التحقيق إذ يوالى الفكر التعمق في البحث تبدو هذه الألفاظ مجرد تكديس وتنتثر الأعضاء التي تتألف منها الجمل قبل أن يتمكن من وضع يده على حقيقة يتثبت منها . تخيب حينئذ آماله ولا يبقى أمامه إلا تركيب نحوى وعناصر مضطربة يعجز عن ربطها ببعض ويضطر أن يعيدها إلى المعجم لعجزه عن فهم ما بينها من علاقات . وفي الحق أنه لم يكن وراء ذلك شيء آخر : فمن ناحية قالب من هذه القوالب العادية الدارجة التي تضعها اللغة تحت تصرف الفكر فيستعملها الفكر ليصب فيه ما يريد الإفصاح عنه . ومن ناحية أخرى ألفاظ تلقى الآذان في غير وعي واستعملت على الفور دون أن يدل بها على معانٍ محقة قد استقصاها العقل

استقصاء دقيقاً ورتب بعضها على بعض كما ترتب النتائج على المقدمات ترتيباً لا سبيل إلى تقضه .

ولكن من ذا الذى لا يقنع بأن يتخذ من الألفاظ نفسها ضماناً يحميه من خداعها؟ ومن ذا الذى يفرض على نفسه أن يتزل فى كل مرة إلى الحقائق الأولية المؤكدة أو على الأقل أن يتحقق من أن الطرق التى تؤدى إليها مأمونة؟ الخير فى هذه الحالة التزام الصمت ، وأظن أن أرقى الأذهان يضطر إلى ذلك فى نهاية الأمر . ولكنى أقصر على الأذهان المتوسطة وما يحيط بها من ظروف عادية . فمن المحقق أن الذين يتخذون الاحتياطات الواجبة فى مثل هذه الحالات قليلون نادرون . ثم إنه لن يستطيع أحد أن يتخذ دائماً هذه الاحتياطات فى هذه الحالات نفسها . ينشأ عن ذلك أن تغمر الألفاظ كل شئ ، ولا ينتظر لاستعمالها أن تكون التجربة قد أسبغت عليها أقل قيمة . وعلى العكس من ذلك ، فبمقدار ما يقل معناها بالقياس إلى الذى يستعملها يزداد ادعاءه أن من حقه أن يفرغها فى أية عبارة ، ظناً منه أنه بهذه الحيلة يزداد فى معناها . فترى أحدهم يقول : « ما العدالة إلا قرار من . . . » كفى . فقد عرفت أن العدالة قابلة لتعاريف أخرى . عرفت ذلك مما يبذل من جهد ليحوّلنى إلى عكس ما أعتقد . على حين يؤكد آخر : « إن الديمقراطية الحقيقية فخواها . . . » هأنذا قد أخذت حذرى؛ فقد اتخذ عدته إذا لم أوافق له ليزعم أن تصوّرى للديمقراطية ليس التصور الصحيح . فما الداعى إلى المناقشة ! وثالث يكتب : « إن الذين يحسنون قراءة أفلاطون يتبينون فى آثاره . . . » ما باله لا يعمد إلى الصراحة فيقول إنى إذا لم أتبين فى آثار أفلاطون ما تراءى له فذلك أنى لم أحسن قراءته . وهكذا . فبالألفاظ والعبارات يمكن كل إنسان أن يسترسل فى الحديث والكتابة كما يشاء ، دون حاجة إلى تجربة أو تفكير . وفيما يحرم الناس أنفسهم ذلك ؟ وإن منهم لمن أنفق حياته كلها لم يتحدث فيها إلا على هذا النحو . فما أيسر من أن يتحدث الإنسان عما لا يعرف . بل إن ذلك لا سبيل إلى تجنبه ، كما أنه أقل لفتاً للنظر من أى شئ آخر . فلن يترجع أحد إذا تحدث كاتب إلى قراءه عن شجر الساج الذى رآه وقد كانت الديدان تنخره ، أو إذا تألم فى شكل رسمى من أن الفضيلة لا تلقى ثواباً فى كل حالة . ومع ذلك فإن الديدان لا ترقى أبداً إلى شجر الساج ، والفضيلة لو أنها أثبتت دائماً لما كانت فضيلة ، بل

لأصبحت شيئاً يصعب التمييز بينه وبين المصلحة والتدبير الحاذق . ليراجع كل واحد نفسه . فأى الناس يستطيع أن يؤكد أنه لم ينكر بوجه من الوجوه ألا يكون للدائرة زوايا !

وما عسى أن يكون الأمر لو أنه لم يقتصر على عبارات وجيزة منعزلة ؟ فالذهن يميل إلى جمع الألفاظ بحيث تتبادل المعونة ، وتؤلف في النهاية شيئاً كأنه شبكة ضخمة يكاد يكون في وسعها أن تحل محل العالم أو على الأقل أن تقف بين الإنسان وبين المعرفة التي يحاول أن يبغيها عن هذا العالم . فهو معرض منذ نشأته لهذا الشرك الذي تنصبه له المذاهب . فالألفاظ هي التي يراها أول الأمر ، وسرعان ما تكون حاجزاً يحجب عنه الواقع . وهذه الألفاظ تهاجم الفكر وتخدّره بعددها وخطتها واضطرابها . وهي تسبق تجاربه بدلاً من أن تجيء في الوقت المناسب أي حين ينتهي من هذه التجارب ويشعر بالرغبة في تحقيقها والتثبت منها . وهكذا يعتاد في حديثه أن يعطى الألفاظ أهمية تفوق أهمية الأشياء . فلا يراها على أنها إشارات لا تعدو مهمتها التعبير عن هذه الأشياء . هنالك يستلزم الأمر للتخلص من سلطان الألفاظ صرامة فكرية نادرة . وكيف لا يكون الحال كذلك وهذه الألفاظ تغزو كل رأس مسكين أول ما يتنبه إلى نفسه ! فالمدرسة ، والصحف ، والكتب ، والإذاعة ، كل شيء يتآمر على ملئه بضجيج الألفاظ بدلاً من ملئه بضجيج العالم . وهذا الرأس لا يتلقى شيئاً إلا عن طريقها . وها هو ذا قد أعدّ إعداداً طيباً ليصير ضحية لكل خدعة من خدع الألفاظ . بل أكثر من ذلك فقد يحدث أن يطمئن لهذه الحالة . فالفكر الذي به بعض النشاط سرعان ما يعرف كيف يستفيد من ذلك . وهذا الجمهور قد احتشد في الميدان العام فاغراً فاه ، ينتظر حضور المشعوذ وما سيعرض عليه من ألعايب . ولن يعدم المشعوذ أغراً يخدعهم بحيلة .

رومي طبر

(للبحث بقية)

نقله عن الفرنسية الدكتور توفيق شحانه

العراق

صلتى بالعراق قديمة تعود إلى زمن كنت ما أزال فيه بظهر الغيب . فأبى قد
أنحدر من جباله الشمالية إلى مصر طالباً للعلم ثم مستوطناً . وكان لا يفتأ يذكر
العراق ويتمدح به ويتمنى لو يعود مرة أخرى إلى أحضان الجبال . فلما نفست عليه
الأيام ما أراد تمنى على الله أن تذهب ابنته إلى العراق لتخدم شعباً أحبه وأخلص
له الوداد حتى اللحظة الأخيرة . وكانت الفكرة خلافة ، وخاصة لفتاة لم تكن
قد خبرت من الحياة شيئاً ، ولا ميزت بعد بين حلوها ومرها . . وقد كان أن
انصلت بالعراق مرة أخرى . وكم جدول في الأرض راجع منبعه !



هبطت بغداد منذ ثمانية أعوام طوال . ذهبت لأدرس في مدارسها . وكانت
فكرة مشاركتي في رفع مستوى الفتاة العراقية ، ولا زالت تلهبني حماساً ،
وتزيدني إيماناً بالشرق والفتاة الشرقية وتملأ قلبي بالآمال الكبار والأمانى
الجسام . على أن كل ذلك لم يكن يخفى عني قسوة ما أخذت على عاتقي من رسالة
في الحياة اخترتها وفضلتها ثم آثرتها على كل الرسائل لأنها رسالة مقدسة قل من
يفيها حقها من الرجال !

لم تكن فكرتي عن بغداد صحيحة ؛ ولعل السبب في ذلك راجع إلى مدرس
التاريخ ومدرس الجغرافيا حفظهما الله ! أذكر أن مدرس التاريخ قال لنا إن بغداد
« دار السلام » مدينة مدورة لم يبن مثلها من البلاد في العصور الوسطى .
وأذكر أن مدرس الجغرافيا قال إن بغداد مدينة بناها من بناها على الضفة
الشرقية من دجلة لحسن موقعها . وأذكر أن خيالي صور لي صوراً متألفة بهجة
تروح فيها الجوارى وتغدو الغلمان ، ويطوف بها الهمس والألحان والأنغام .
ولشدها دهشت حينما لم أجد شيئاً من هذا . فبغداد ليست مستديرة اليوم

ولا مربعة . وبغداد تحتل ضفتي دجلة احتلالاً رائعاً . وبغداد آخر الأمر بلد منكش على العمل ، كادح ، يسير العصر ويحاول ألا يتخلف عن موكب الحياة ! طردت عن خاطري الأشباح ، شبح مدرس التاريخ ، وشبح مدرس الجغرافيا ، وشبح ألف ليلة وليلة ، وبدأت من فوري أتصل بالواقع الملموس والتاريخ الحي المسطور ، والجغرافيا النابضة الحية . على أن جولتك الأولى في بغداد لا تعطيك — ولن تعطيك — فكرة قيمة عن البلدة . وهذه حال يفهمها كل مسافر وكل رحالة . ولكنه يفهمها في بغداد والعراق أكثر من أي بلد وقطر آخر . فأمر العراق مستسر يدق عن الفهم للوهلة الأولى . وقد لا أعدو الحقيقة إن قلت إنني أسفت ، وإن قصارى عزائي كان أنني سأبقى بها سنة دراسية واحدة لا أكثر . ولكنني لن أعدو الواقع إن قلت إنني بقيت بها ثمانية أعوام طوال عراض ولا يعلم إلا الله متى أعود . وأكبر ظني أن ذلك لن يكون إلا إذا فرغ ما في قلبي من حب للعراق وناشئته ، وانقض عن ذهني ما فيه من استمتاع في التقدم بالفتاة العراقية ورفع مستواها ! وهذا — في أكبر اليقين — لن يكون !

قلت بقيت ببغداد ثمانية أعوام عرضت لي فيها من الأحداث ما قد يتنكب بالصبور عن سبيله التي رسمها لنفسه ، وعرضت لي فيها من الفرص ما كان أيسره جديراً أن يجعلني بأمريكا أدرس وأتم تعليمي وثقافتي منذ زمن بعيد . ولكنني صبرت وصابرت الأيام حتى اكتحلت عيني بثمار غرسي ؛ وصبرت وكأفت حتى نجحت في عدم السفر إلى أمريكا ! والحمد لله على الفوزين !



خير لي أن أرسم لك صورة صغيرة ترى منها العراق كما أراه : كانت أول ما تعلمت من لهجة العراق كلمة « جُبَل » حينما سألت عن وزارة المعارف . و « جُبَل » هذه معناها إلى الأمام . وعدت أسأل عن وزارة فقيـل لي ثانية ، وثالثة ، ورابعة : « جُبَل » — إلى الأمام . . . ومن سار على الدرب وصل ! « جُبَل » هو شعار العراق ؛ كذلك علمتني المشاهدة والتجربة . فالعراق يتقدم في كل مرافق حياته الاجتماعية والفكرية والاقتصادية والعمرانية « جُبَل » دون أن ينظر إلى الخلف . فان فعل فأنما ليري كم قطع من الطريق وهي طريقة يستطيع بها أن يقدر بالضبط ما يجب عليه أن يقطعه ليبلغ نهاية

الشوط دون أن يخامر اليأس أو يدب فيه الكلال، وهو في هذا أشبه شيء
رجل يشرب كأسه الأولى، فهو ينظر إلى مقدار ما أفرغ في جوفه حتى يدرك
مقدار ما عليه أن يكرع !

لم تكن ترى في بغداد منذ أمد قريب سافرة واحدة اللهم إلا اليهوديات
و قليلا من المسيحيات . تعال اليوم واشهد الصراع والتنازع بين السفور والحجاب ،
بين الجديد والقديم . لن تجده « دراميا » عنيفا كما كان في مصر أيام قاسم أمين
ولكنك تجد أن الجديد - السفور - يتقدم « جُبل » دون مبشر يتمدح
بمزاياه ويعدد مناقبه . السفور يتقدم تقدم الواثق الظافر . فما حاجته إلى العداء
وإثارة البغضاء . قالت لي إحدى الصديقات عن السفور إنه أمر لو جرؤت عليه
عراقية منذ عشرين سنة لكان مصيرها رهناً بمشيئة الجن الأحمر ، ولكنها
أقدمت على السفور فكان مصير المسكينة أن نظر لها أبوها الغاضب المحقق نظرة
شرراء قاسية . . . طويلة جدا .

والتعليم هو الآخر يتقدم « جُبل » ، دون توقف . واختلاط طلاب العلم
وطالباته في المعاهد تحت أجنحة الملائكة الموكلة بطلاب العلم يحدث دون أن
تحول التقاليد أو تثور أو تنادي بفصل الجنسين ، كما حدث في مصر منذ سنوات
قليل ! إن العراق يعلم أن التقاليد إنما هي عادات جمدت . وكيف يرضى بالعادات
الجامدة شعب قوى يتقدم في موقف الحياة « جُبل » ؟ ! . حقا أن لها سلطانا
قويا لا يستهان به ، ولكن هذا الفهم لها يحده من سطوتها ويكسر من شوكتها
بحيث إننا لا نكاد نحس ببطشها أو وخزاتها حتى باحتجاجها إلا قليلا ! تيار
التقدم الجارف أقوى من كل شيء .

المدارس تزداد للجنسين بشكل يدعو إلى الإعجاب ؛ وما أظن أن مدينة تخلص
من مدرسة للبنين وأخرى للبنات . وأعرف مدينة أريد أن تنشأ فيها مدرسة
للبنات فقامت قيامتها ، وأجمعت الآراء على مقاومة هذا العمل « الشنيع » فما
كان من الحاكم إلا أن استأجر بيتاً علق على بابه قطعة كتب عليها « مدرسة . . .
لبنات الموظفين فقط » ! ولم يعترض أهل المدينة . فالموظفون غرباء عن المدينة
فهم أحرار في بناتهم ! ونمت المدرسة وكبرت ، وأنشئت مدرسة أخرى ثانوية
ولكن ليس لبنات الموظفين فقط !

ولمساء بغداد جمال عجيب : ترى الموظفين ، صغارهم وكبارهم ، يتأبطون كتبهم

ويهزعون إلى مدارسهم حتى يستدركوا ما فاتهم تحصيله في وقت لم تكن المدارس فيه إلا شيئاً تنظر إليه التقاليد النظرات الشرراء . يقبلون على العلم ، وينهلون من موارده ، ولو على الشموع ، ولو في البرد القارس أو الحر الخائق . . . على أن أعظم ما يعجبني هو نهضة الفتاة العراقية وصحوتها وتقدمها . وتلك سمات كان من الممكن للملاحظ العادي أن يظن إليها لو أنه نظر إلى الفتاة العراقية وهي تمشي . فهي تمشي ممشوقة كالسهم فلا تلكؤ ولا تلتكع ، ولا تخلع ، ولا التفات إلى يمين ويسار بل هدف انطلق إليه سهم مريش ! وإنني لن أعدو الحقيقة إذا قلت إنه لو أتيح للفتاة العراقية تلك الفرص التي أتيحت وتتاح للفتاة المصرية - إذا فويل للمصرية من أختها ! وكثيراً ما فكرت في هذا ، وأنا أعلم الطالبات ، وأدربهن على التدريس ، وأترك لهن حرية التحدث والنقاش وإبداء الرأي ، ومعالجة شتى الأمور . وكثيراً ما أدهشني مرهن وهن يتولين مرافقهن في كفاية محيرة !

وإن أنس لن أنسى الاعتماد على النفس . فهي مزية شعبية إجماعية ، لا يكاد يتفاضل فيها أهل العراق قاطبة . ولعل أبرز ما يصورها قصة رواها من أثق بروايته : كان له صديق عراقي يدرس معه في الجامعة المصرية . واتفق أن سارا في شارع سليمان باشا . فسأل المصري زميله العراقي : أعندكم ببغداد مثل هذا ؟ فيجيب العراقي في صبر الحليم : لا . وطفق المصري يسأل ، فطفق العراقي يجيب بلا ، حتى ضاق العراقي فسأل زميله المصري : ولكن قل لي : أعلى أكتافكم أتم قامت هذه الأشياء الجميلة التي لا نجد مثلها في بغداد ؟ وكم يملك المصريون منها ؟ وما نصيبهم من الاشتراك في هذا التقدم ؟ وكان ما قاله العراقي صحيحاً . فإن بغداد تتقدم في كل مرافقها على أكتاف العراقيين وحدهم ، وحدهم أفهمت ؟ « وليُقسَ ما لم يقل » كما يقول أهل النحو !

أحسبني أطلت عليك . ولكن لا أريد أن أتهى من مقالتي هذا دون أن أعتذر إليك عن عجزى عن الإحاطة بالموضوع كله ؛ ولكنى أعتقد أن كلمة « جَبَل » ستم لك ما تركته ناقصاً ، وسترسم لك ما لم أصوره « جَبَل » ! جاءني مصري حديث العهد بالعراق وأخبرني أن أول ما سمعه من لهجة العراق هو كلمة « جَبَل » فلم أدهش . كنت أعرف ذلك ! وسألني عن معناها فتبسمت وقلت « إلى الامام » . فصاح وهو ضيق الصدر : « كل شيء جبل ، جبل شيء »

العراق

يجن . أما عندهم شيء آخر ؟ » . قلت : « لا إني هذه أول كلمة تعلمتها .
وأحسبها آخر كلمة ستنساها إذا أحسنت معرفتك بالعراق » . واشتكى المصري
الحديث العهد فيما اشتكى منه ، ببطء الناس في السير . قال : « امشي في شارع
الرشيد . فأرى الناس يتقدمون في بطء . أدفعهم فلا هم يندفعون ولا هم
يفسحون لي الطريق » . فقلت له : « أسمعت المثل الإنجليزى القائل : يبطء ولكن
في ثقة » .

بسم الله

جناية

توهمت أنى الشرقى « المتأمر ك » الوحيد بين ركب الباخرة التى بعث بها الرئيس روزفلت إلى الشرق لتعود بالأميركيين إلى ولاياتهم المتحدة قبل أن تقطع الطريق عليهم الحرب الوحشية الوقوع بين أمريكا واليابان وحليفتيها . توهمت ذلك ، لأننى لم أر ساعة رفعت الباخرة مراسيها وأخذت تبتعد عن الميناء مودعاً واحداً يلوح بمنديل ، ولا بصراً واحداً رنا لراكب واحد من ركاب هذه الباخرة التى ستشق طريقها بين عجاجات الجحيم المستعرة بين أنصار الحرية وأشباع الفردية .

ألقيت النظرة الأخيرة على ميناء بيروت ، ولما اختلطت الرؤى وصرت لا أميز بالعين المجردة إلا أشباح جبال لبنان الضاربة قممها فوق الغيوم دون أشجار الصنوبر الخالدة ، طفقت أرود الباخرة أتطلع إلى ركبها الأميركيين . إن الروح الجماعية أصيلة فى خلق الأميركان تستميلهم المغريات كالفرنسيين ، ويدفع بهم حب الاطلاع إلى معرفة ما خفى من الأمور وما استتر من الأشياء وخفيا الناس أيضاً . وهم لا يتورعون عن المراهنة على كل حدث أو خاطرة ، فهذه الخاصة هى التى حفزت أكثر الركب ، وقد تعارفوا وتآلفوا ، إلى معرفة طوية رجل « متأمر ك » آخر سواى ، تقور جالس فوق كرسي مستطيل من كراسى الباخرة ، لا يجيب عن سؤال راغب ، ولا يلتفت إلى طلب أى طالب ، وقد استعان هؤلاء الطلعة بى وكانت رغبتهم فى معرفة ازورار مواطنى الشرقى تكاد تنقلب شهوة ملحاحاً أكثر لجاجة من حب الرهان .

قالت لى فتاة رفاة البشرة : « أحسب صاحبك عاشقاً لأن الحزن يغشى نفسه بعشاء من اليأس » . وقالت سيدة فقدت حيثها فى مغالطة نفسها فتركها لأقدار الزمن : « صاحبك هذا قوى الغرام ، وهذه حالة تنتاب الكهول حين يشعرون بالهرم » . وقال شيخ : « قد يكون سبب حزنه عدم إتمامه بناء القصر الذى بناه فى قريته فتركه تعشش فيه الخفاش والبوم وعاد إلى أميركا يجمع الدولارات ليتم

جنائه» ولكنى فى بطنى ، وهو يضحك ، لكمة لولا تعود بطون الأميركان
تحمّلها لأفرغت ما فيها من كل منفذ . وقال آخر يتعمل الرصانة : « الجنسية
الأميركية للبنانيين حصانة تقى أطماهم من طغيان إخوانهم الأقوياء » . فقالت
الفتاة الصبيّة مخاطبة هذا المترصّن : « كنت دائماً ياعمى العزيز تكبر فى اللبنانيين
مقدرتهم فى شق طريقهم للحياة رغم تحاملك عليهم » . قلت وقد قطعت على هؤلاء
النقادة حبل استرسالهم : « هذا بحث فى خصال قومى سأحاسبكم عليه فى ظرف
مناسب . أما الآن وغايتكم معرفة أسباب صدوف مواطنى عنكم فأنى أتكفل
بإشباع رغبتكم وإرضاء فضولكم » .

البحر والوحدة أنجع دواء للشفاء من لوعة الحزن ، بل لا حرج على القائل : إذا
انطلق لسان المحزون بالشكوى فقد زال نصف دائه ، وإذا لقيت شكواه قلباً
واعياً انتقلت إليه . لقد استطعت بوسائلى الخاصة حل عقدة لسان هذا الحزين
وهو من مدينة فى لبنان اشتهر سكانها بالفطانة والذكاء وعرفوا بالصلافة والعناد
والأريحية والشم لتأصل صفات الحرية فيهم . فقال لى :

— أتعرف حتى البرازيل فى زحلة ؟ قلت : أعرف الابنية الجميلة المزخرفة
القائمة على ضفاف « البردوني » . قال : يوجد فى عاصمة البرازيل حتى يشبهه فى
هندسة البناء يدعى الحى الزحلى . قلت : ما علاقة هذا بذاك ؟

قال : لست أبالغ إذا قلت لك إن جل طلاب الكلية الشرقية فى تلك المدينة
كانوا يتوجهون وجهة الهجرة إلى البرازيل ، ولم يكن يجول فى خواطرهم إلا
نيل شهادة الدراسة والرحيل إلى البرازيل والحقاق بإخوان سبقوهم إليها ،
وهمهم العمل والكسب يبنون بناية جديدة فى الحى الزحلى فى البرازيل ثم العودة
إلى زحلة يشيدون قصرًا فخماً فى الحى البرازيلى الفخم .

قلت : أعرف روح المغامرة فى الزحليين دون سواهم من المهاجرين من لبنان .
قال : ما كدت أفوز بالشهادة المدرسية حتى رغبت إلى والدى أن يأذنا لى
فى السفر إلى البرازيل وقد وافقنا مكرهين .

كانت الباخرة التى أقلتني آنذاك تعج بمئات من المهاجرين أمثالى ، وكانت
مناديل المودعين ترفرف كأجنحة الحمام ، والعيون ترنو بين ساهمة ودامعة ،
والقلوب تتحقق خفقان حنان وحب ورجاء .

كنت مشرد اللب ساعتذاك ، أنظر إلى أمي وأبي بعين الولد البار ، وأنظر إلى فتاة كانت بجانبها بعين قلبي . لم تكن الفتاة غريبة عني بل كانت من أقاربي الأبعدين ، وقد جاءت من « كفر شيا » خصيصاً لوداعي . كانت معرفتي بها بسيطة محدودة ، أما في ذلك الموقف ، موقف الوداع ، فقد انفتحت لها جوارحي فأحسست فجأة بأن كل ذرة من كياني الذاتي تدعوني إليها ، وأنها هي المتممة لتكامل وجودي في الحياة . فوثبت على غير وعي وثبة قلب محفوز ، وأخذت أدفع الناس حتى شققت طريقى إلى سلم الباخرة ، فهرولت نحو والدى ، فأخذت بد الفتاة بيدي اليمنى ، ويد أمي بيدي اليسرى وقلت لوالدى هاك « أنيسة » خطيبتى بل زوجتى بالروح ، احتفظا يا والدى بها . لن يطول غيابى ، سأقتحم البحر ، وأشق المنجم حتى أصل إلى الذهب أقتلعه من أصوله فأقدمه عربوناً للزواج من حبيبتي أنيسة هذه . وقبّلت جبينها قبلة خاطفة فيها كل الدوافع والبواعث والخواطر .

قال محدثي : غمر البحر معالم الأرض ، ولم تعد العين ترى إلا قبة مكورة فوق وجه الماء ، وكنت أرى بعين البصيرة وجه أنيسة الصبوح وعينيها الصافيتين الناعستين تدفعني دفعاً إلى الأرض الجديدة التي سأنبش تربتها كالخلد وأقضم خيراتها كالجراد .

بدت منابت الأمل في تقسى تمتد سوقها ، وتبرز براعمها وتورق وتزهر ، وأخذ خيال السعادة يحيطني بشملة من فرح ترينى وجه المستقبل نضراً بساماً ، فوددت لو أستحث الباخرة أن تثب فوق اليم فتجتاز المحيط ساخرة من أنوائه وعواصفه ، فأصل طفرة إلى حلبة الجهاد والعمل .

لقننى مواطني في البرازيل بضع كلمات من لغة البلاد ، وبعد أيام معدودات وسقت أكيامى بأنواع من جوارب ومناديل وأدوات زينة أعطانها تاجر سورى . أخذت أطوف شوارع عاصمة البرازيل أقرع أبواب المنازل أعرض على ربّاتها بضاعتي . كنت أحسن الشفقة بي والضحك من رطانتى .

كان تقبل البرازيليين إياي على هذا النحو يحز في كبريائي فانتقلت إلى الضاحية . جبت الريف وتوغلت في القرى النائية أسعى على أقدامى . وكلما نقصت بضاعتي كنت أرسل في طلب سواها من عميلي الذي استأمننى ولا ضامن لى عنده سوى أنى موطنه !

لله در الأميركاني يا صديقي من عطف شفيق ، ولكنه طلعة مغامر مراهن .
تستضيفه فيطعمك ويؤويك ، لاجن كرم ولا بدوات خاطر ، بل عن فضول حافر
ملح إلى الاستطلاع والمعرفة .

ركنت إلى الريف أبيع فيه سلعى لا أفرط بمصروف إلا نادراً في شراء
سيجارة أو كوب شراب أو إرضاء رغبة متواضعة . وإن هبطت المدينة فإنما
أهبطها لأدفع ما على من دين لعميل أو أودع المصرف ما يتبقى معي من مال .
أخذت أرقام ريالاتي تزداد أسبوعاً بعد أسبوع وشهراً بعد شهر ، فصرت
أسخو بتحويل عشرات منها لوالدي ولأنيسة .

لم يكن شيء في الوجود يعادل فرحي حينما كنت أقرأ كتاباً وارداً لي من
والدي يقول أبي في ختامه : «أما خادمك أنيسة فتهدى إليك السلام وتقبل يدك .»
كنت أغتفر لوالدي تمسكه بعادات أصيلة واعتبارات تقليدية في كينونة
المرأة ، وكنت أطلق أعنة خيالي تجول في عوالم الرؤى أتصور نفسي ملقى عند
أقدام خادمتي أنيسة أقبل يديها .

أجل يا صاحبي ا كنت أبعث بكتاب فيه تحويل مالي وألحف بطلب إيصال
بالتسلم لأقرأ تحيات بريئة ساذجة ولازمة مستحبة لا يجيد والدي عن تسطيرها
بالنص الواحد في كل كتاب « خادمك أنيسة تهدي إليك السلام وتقبل يدك . »
اتقدت نيران الحرب العالمية عام ١٩١٤ وامتدت ألسنتها المحرقة إلى جميع
أرجاء العالم القديم . أما العالم الجديد برغم اشتراكه فيها في الساعة الأخيرة فقد
راجت أسواقه التجارية وعم الرخاء كل الناس . كنت إن أعجب من شيء فعجبي
من أخبار كانت تنشرها صحفنا العربية في أميركا عن بؤس الناس في لبنان وموت
بعضهم جوعاً . ولم يكن يخامرني شك في أن أنيسة المحبوبة ووالدي العزيزين أبعد
من أن ينالهم ما ينال الناس الذين تكلمت عنهم الصحف وأطالت في وصف حالهم
انقطعت أسباب الاتصال بيني وبين أهلي ، ولكنني كنت أغالط نفسي ،
أعتمد المغالطة فأرسل الرسائل والتحاويل المالية كالعادة إليهم بدون انقطاع
وأتهم إدارات البريد بالتقصير في القيام بالواجب . وكنت أطمئن إلى المغالطة
المستحبة لتحديد بي عن مجابهة الحقيقة . وما كادت أجراس الهدنة تدق معلنة
وجوع الإنسان إلى وعيه وانعتاقه من وحشيته التي لا يسته طوال أربعة أعوام
حتى عقدت العزم على العودة إلى الشرق .

عند سفرى إلى أميركا كان الأمل يحدونى وقد افترلى ثغره وابتسم ، فصار حين عودتى منها إلى وطنى يحدونى الشوق والفرح . فهل ينضحاننى يا ترى بآنداء السعادة ؟ كنت فى الذهاب أستحث الباخرة لتصل بى إلى ميدان الجهاد والعمل ، وقد توسلت إليها فى الإياب أن تسرع السير لأصل إلى مقام الحبيبة ومقر الوالدين ، فهل يلزمنى الحظ فى هذه المرة أيضاً ؟ كان دنو الباخرة من الشرق ينسل خيوطاً من غشاوات غالطت نفسى فى تبين ما وراءها ويلقيني فى غبش صبح يتنفس الرئيب والشكوك . وكثيراً ما كنت أستيقظ من أحلامى ، أنقض صور الذعر وأطرد الخيالات المرعبة ، ولكنى كنت أتجملد وأبتسم .

كل شىء فى ميناء الوطن باق على ما كان عليه إلا مظاهر مجلوبة ورطانة مقتبسة . يعمت المدينة ، لم ألتفت إلى همّة ناشطة فى حركة البناء والتعمير ، بل شقت سيارتى طريقها إلى الجبل . صدمتنى مشاهد بيوت خربة وقرى مهجورة . أما قريتنا (كفر شيا) مسكن الحبيبة أنيسة فقد كانت مثلاً بارزاً للأطلال الدارسة . أين أبى وأمى ؟ أين أنيسة ؟ أسأل الجار ولا جار ، وسألت الناس وإذا بهم غير الناس . جبت الدساكر المتناثرة حول القرية ، لجأت إلى دير « القرققة » إلى القساوسة ، استعنت بالعجائز على التعرف على أهلى وأقربائى ففزت منهم بفيض من الأخبار المرتجلة والأكاذيب المفتعلة .

ذهبت إلى مدينة زحلة أسأل عن أمى وأبى فقبل لى إنهما رحلا عن المدينة منذ سافرت ! قد يكون الموت اخترم والدى الشيخين ، ولكن أنيسة ، الربابة الشباب ، الغريضة الصبا هل يقوى الموت اللعين أن يمد إليها يداً ؟ هذا محال بل المحال هو هذا !

لا يستنم الأمل فى نفسى ولا يهجع ، سأترصد الرجاء وأقاوم شبهات اليأس وأجد أنيسة . سأجدها لأنى أرى بصيصاً من روحها يشع فى أعماق نفسى ، وأصغى إلى هاتف روحها يدعونى . إذن سأجدها .

استعادتنى أشغالى المتعطلة إلى أميركا . . . استغرقتنى الأعمال أو كادت تنخرق بى عن اتجاه بصيص أمل كنت أطلع إليه .

كان خيال أنيسة يلزمنى دائماً فى الفراغ وفى العمل ، ولم أكن أذكر والدى المسكينين إلا قليلاً أستترل عليهما الرحمة . لم يكن نداء أنيسة آتياً من وراء المجهول بل كنت أسمعها وأراها وأحس بها تتقلب على أذرع الوجود !

هل تزوجت ؟ أشقية هي ؟

في ذات يوم من أيام ربيع عام ١٩٣٧ لعج بي لاعج خفي ، فنازعني نفسي ودفعت بي إلى العودة إلى الوطن أعياد الكرة في الاستقصاء والاستخبار . لم أمهل عقلي مهلة لهديني إلى الممكّنات ويريني المستحيلات بل لبّيت الهاتف الخفي وعدت إلى لبنان ، إلى رحلة .

وفي صبيحة يوم إذ كنت أصعد الجبل إلى كروم العنب والتين ، وإذا بي ألقى فتاة تحمل سلة على كتفها مغطاة بورق الدوالي . نظرت إليها فإذا بها وضاحة المحيّا ، ساجية الطرف ، مليحة المعارف . استوقفتها فأجفّلت . لمحت في عينيها نور نفس أنيسة . صرخت على رغم مني : أنيسة ، أنت أنيسة ؟

وقفت الفتاة مبهوتة تجيل نظرة حيرى من عيني غضيضيتين مغرورقتين يدموع رقيقة وقالت :

لست أنيسة يا سيدى ، بل أنا بمعنى ، اسمى معنى .

معنى ! معنى من ؟ أين أمك ، من هو أبوك ؟

ألقيت أسئلتى بنبرات سريعة جافية كادت تربك الفتاة ، ولكنى استدركت الأمر بتهذئة اضطرابى فتعملت الابتسام لأدخل الطمأنينة على نفسها فقلت : هل لك أن تحدثينى عن والدتك وأين هي الآن ؟

قالت بصوت مختنق : تعيش أنت يا سيدى ! لقد ماتت أمى ومات أبى من زمن بعيد .

قلت : أتذكرين صورة أمك وما وصفها ؟

قالت : مات والدى قبل اكتمال وعي ، وكل ما أعرفه عن أمى أنها ماتت نقساء وأنها تدعى أنيسة الخشتاوى . أما أبى فأرمنى لا يحسن أحد نطق اسمه . واستطردت كأنها أحست تشوقى إلى الاستطلاع فقالت : إن أسرة بطرس بك قد ضمتنى إليها ، وقد نشأت واستيقظت نفسي بين أولاده وخدامه .

كادت عبارتها في وصف يقظة نفسها تشغلنى عن غرضى وقد أحسست بعاملين قوين وثبا على وأغارا على مشاعرى : عامل الأمل وقد تحقق بلقيا هذه الفتاة التى لاشك أنها ابنة أنيسة ، وعامل نفسانى يماثل يقظة الحب الذى استيقظ حين رأيت أمها إلى جانب والدتى ساعة الوداع في الهجرة الأولى .

رافقتها إلى بيت مخدومها . وإذا كنا في الطريق كنت ألمح فيها طمأنينة الطفل

إلى جوار أمه ، وكانت الأفكار ، والصور والتخيلات ومرآتي الماضي والحاضر والمستقبل تهاوى على ذهني فتزدحم فيه وتكتظ .

طلبت من بطرس بك يد خدمته يعني فلم يمانع في الطلب بل علقه على رضا زوجته التي كان يعز عليها فقد خدمتها اليتيمة .
لم أدع يعني تشعر طوال أيام الخطوبة أنني كنت أعرف أمها ، وقد غامت أو كادت تمحي من ذهني صور الماضي التي تقمصت وانبثقت متجسدة في شخص يعني .

أخذت أوقظ نفسها وأشعرها ، رويداً رويداً ، بوجدانها الذاتي كإنسان له كامل الحق في وجوده وحرية في الحياة . كانت تصغي إلى أقوالى بوعي وتتلقفها بعينها . صرنا نقرأ الكتب فاندججت روحها بروحي ، وما عثمت أن تحولت من تلميذة نجيبة إلى فتاة تدرك وتدرى وتتذوق وتمرد .

كم تمنيت مطاولة الزمن لأيسر لها مجالات الروح في حلبة الحياة بدراية وفرح ، وكدت أنسى فوارق العمر وقد ناهزت الحسین وهى تشرف على العشرين ، لذلك أسرعت في عقد إكليل .

صمت محدثي قليلا وقد علت وجهه سحابة غراء ، ولكن ما برح حتى أشرق جبينه وقال :

جعلت داني أنا الرجل الكهل فاتحة غرام لزوجتي الصبية وقلت : أترى تكون بنيتي هذه خاتمة غرامى كما كانت مقدمة كتاب حياتى ؟
كان مجرد هذا الخاطر ، وقد داهم ذهني ليلة الزفاف ، كافياً لأن يبتعث في حيوية بكراً ويدفعني إلى أن أولى على نفسى وقف وجودى وما أملك على زوجتي ابنة حبيبتى .

كم تمنيت في ساعات الغبطة والهناء التي كانت تُفيضها زوجتي على أن تطبق بأصابعها أجفاني فأنام أسعد نومة أبدية ، ولكن سرطان ما كنت أنتفض مذعوراً إذ أتخيل استجابة أمنيته فأقبض بذراعى القويتين على جسم زوجتي البض اللدن أتشبث به كالطفل ، وأتمم بكلمات متقطعات اغمغمها بلا وعى استحياء منها ومن نفسى الملتعجة .

لا تعجب يا صاحبي إذا قلت لك إنى كنت أحيأ بشخصيتين وأعيش بماضيين .
وقد كنت أقوى على صهر روجى في بوتقة لا دخل فيها ولا زيف ، وعرفت

السعادة معرفة خسية واستبدلت بأنواع منها عامة شائعة نوعاً لذيئاً روحياً
بجناً .

أذكر يا صاحبي فوارق العمر ، وتنوع الاختبارات ولا تنس فواصل العقل
وتزومات المشاعر ، ولك أن تقدر بعد هذا أن اضطرابي وخلجات نفسي ووساوسي
ليست سوى مجرد أوزان قلقة لرجل يغالط الخمسين من عمره ليعيش في جنون
العشرين .

ضحكت طويلاً من الزمن وانتقمت كثيراً منه ، وسخرت من تقديرات أناس
يعيشون في الضباب ويقدررون علة في زهرة لم تتفتح أوراقها في الربيع حاسبين
وجوب انطباق علم النبات على عالم الإنسان ، جاهلين النفس ومعجائب الغريزة
وأسرار الروح وقد تفتحت أكام روحى في غيز فصل الربيع .

انقضى الصيف والخريف ثم الشتاء والربيع وأنا قابع في داري أرتع بنعم
تقيضها على زوجتي المحبوبة ، مشمول بعناية خاصة منها . وكانت كلما اطأنت نفسي
بالغبطة تهيئها بغريزتها لغبطة جديدة . وهكذا كنت أرى الأوضاع مقلوبة كأنى
أنا وليست هى الطفل الخليل بالتدليل .

لم أكن لها زوجاً بل أباً ، ولم تكن لى سوى ابنة معبودة . وكان هذا
الإحساس المختلط يحفزنى إلى إشعارها بأنى زوج قبل كل شيء ! أقول لك
يا صاحبي : إن الغريزة امرأة ، والمرأة إرادة ، والإرادة تمحيل على البقاء والخلود .
ولكل هؤلاء غاية واحدة هى حفظ النسل . وقد تجمعت هذه الادعاءات
وانسجمت متوحدة فى ذهنى حين همست زوجتى فى أذنى : إنا سنصبح أبوين .
سوف أصبح أباً ؟ يا لجنون السرور ، بل يا لسرور المجنون ! أحقاً يكون
لى ولد له لطف الملائكة ولغتهم وصفاء السماء وتفتح الزهرة ؟ إذن سأسميه باسم
المرحوم والدى ، سيبقى اسم أسرتنا بعدى إلى الأبد . ولكن أترانى أعيش حتى
أراه رجلاً يستعجله الطمع فى الاستيلاء على أموالى ؟ سيان عندى . . . سأعود
إلى العمل ، وأضاعف ثروتى لا لتكون حجاباً بين ولدى والفاقة بل سلباً يتوكل
عليه ليبلغ قمة المجد الزمنى . هذا ماجال فى خاطرى ساعة وافتنى البشرى
السعيدة .

غدوت يا صاحبي فى فردوس من الغبطة والسعادة يرف على خمائلها خيالى
الفياض ، وتبدع فى زخرفتها وتنميقتها تصوراتى . لم أكن ذلك الراعى وقد

جناية

صدمت هراوته جرة السمن فاندلقت أحلامه وتلاشت آماله وأمانيه ، بل كنت ذلك المحارب الهمجي الظافر لم يصدته النهم عن الاسلاب والسبايا ، ولم ينقص الحرس والحيلة في ادخاره استعداداً لحرب مقبلة

مادت إلى أطماع طافرة ، وتنهت هواجسى وظنونى : خلت الأيدى التى تعمل فى إدارة أعمالى تنهب حيرائى ، وصور لى شيطان الحرس أن عمالى الأمناء ائتمروا بولدى ليحرموه مما كسبته طوال أعوام الشباب .

لقد انقلبت طفلاً ولاستنى حالة جديدة ليس فى وسعى تصويرها . صرت أرعى زوجى الحامل كراية الأم رضيعها ، وأصدف عن الصحاب وأزورت إذ ألقى ضيوفاً فى منزلى . وددت لو أحتاز خيرات العالم أقدمها هدية لولدى العزيز .

قلت لصاحبى فى شىء من المباشطة بغية إقشاع السحب المنتشرة فوق نفسه : بخيل إلى أن العامل الخفى فى زوجتك هو الذى جعلك لجوجاً وثاباً تقدر الأشياء بمقدار التخيل والتصور . وقد لا يؤذيك إذا قلت لك بصراحة الصديق الصادق : إن بلوغك سر المرأة ابتعث فيك الشهوة عنيفة حادة .

أطرق قليلاً وأجاب : الشهوة حيلة إرادة الحياة الكبرى على البقاء . نحن يا صاحبي نخلق الجمال ونعطى المعانى للأشخاص والأشياء ، فالمعنى الصحيح لسر المرأة الراحة والطمأنينة . ثم تابع قوله : كانت زوجتى . . .

فقاطعت كلامه قائلاً : انتقل من الموضوع بارع ، ثم تقول : كانت زوجتى ، و « كانت » هذه تدل على فعل ماض . فأوماً أن تريث وتابع الكلام :

كانت زوجتى . أجل ! كانت زوجتى على شىء عظيم من عزة النفس والكبرياء والمغالبة ، وأنا أنا الذى أنميت فيها هذه الصفات وتعهدها بدراية وحكمة . كان يلد لى أن تسألو حجتها على حجتى فأذعن للحق ، وأن يصدىم عنادها عنادى فننتهى إلى الرضا . ولم يبلغ كبرياؤنا فى ظرف من الظروف حد الغرور ، بل كنا نخلق الخصومة نورى بها الذهن فنستصبح بومضات الروح منبثقة من ظلمات المجهول . من هذا التناسق والاتحاد جعلنا مواد بناء حياتنا الزوجية .

وقد استخلصنا من ضروب أنواع الحب فى فوضى الحياة خيطاً كان لنا بمثابة « البارمونى » من نشيد العمر يرتفع بفرحة الغاية من الوجود الإنسانى إلى أسمى مقام . أما خيط حياتى هذا فقد انقطع ، أنا الذى قطعته بيدي ، أجل يا صاحبي أنا الذى قطعته بيدي . لقد حطمت جرة السمن فاندلقت

أحلامي أنا انا الراعى الغبي ، وانساح أملى فى الرمل أنا الحى الضائع !
واستطرد يقول :

نظرت إلى عينيه فإذا بنورهما قد ناص كمصباح نضب زيته ، وأجفانهما
تكسرت وجدت فيهما دمعتان . ثم قال :

ذهبت أنا وزوجتى ذات عشية إلى وادى العرايش ، وما كدنا نأخذ مكاناً
قرب النهر حتى توافد الصباح فالتسعت الدائرة واتسقت صفوف الأقداح
وشعشت النفوس فانطلقت الألسنة .

لم تهدأ جلبة السكارى إلا حين ارتفع صوت المغنى يشدو « العتابه » برنين
شجى وصوت رخيم تشترك مع معانى العتاب فى تطريب النفس وإثارة ما فيها
من حزن وفرح . وقد استفاض صدرى بإحساس مضطرب إذ سمعت المغنى
ينشد « غربوا أحبائى » وشعرت كأن أحبائى تنادىنى .

لقد فاض الدمع من عيني وانهمر . لاشك أنه دمع حنان النفس التى تضطرب
فيها الآلام جميعاً !

فى هذه اللحظة تلاقى نظراتى بنظرات زوجتى فاعتلج فى صدرى شوق
مفاجىء يدعونى بإلحاح إلى العودة إلى أميركا حيث أموالى المتروكة فى بلاد
الناس . وعند ما عدنا إلى البيت سألتنى زوجتى : متى نساقر إلى أميركا ؟ فى تلك
الساعة عقدت النية على العودة إلى الوطن الثانى ، وفى تلك الليلة المشئومة انتهى
كل شىء !

أجل يا صاحبى ، فى تلك الليلة الملعونة انتهى كل شىء فى وجودى وبقيت
وحدى كحروف رسالة بليدة جائمة على قرطاس .

ثم أخذ صوت محدثى يرتفع ونبراته تشتد ومسك يدى بقبضة متصلبة وقال :
أنت تعرف أبنية زحلة متلاصقة ومنازلها متلاحمة لا يفصلها من الجيران فاصل .
قلت أعرف ذلك . قال : كنت أسكن بيتاً من هذا الطراز القديم لأنه أقرب إلى
إحساسى وألصق بذكرى طفولتى ، هذا البيت الذى كنت إخاله بقعة اقتطعتها
الملائكة من فراديس النعيم قد انقلبت بلحظة واحدة إلى قبر فى الجحيم تحيط به
نيران قلبى وألسنة الناس . قلت : اكتشاف جناية ؟

فنظر إلى نظرة استخفاف خلتها تهز مكن كبريائى فخجلت . واستطرد قائلاً :
فى هدأة الليل حيث كل شىء نائم إلا عيون السماء ، دوّى الوادى ، أوتوهمت

أنه دوى ، بصوت استغاثة قريب صادر عن قلب هلوع : الحرامى ... الحرامى ...
النجدة ... النجدة ! وتلاه ولولة امرأة مخلوعة اللب وعويل أولاد ... استيقظت
بلا وعى أترخ من الذعر أو من الشجاعة . تناولت مسدسى من تحت الوسادة
وهرعت لأقتنص السارق . لم يكن فى وسعى ترتيب التصورات المتداعية
والخيالات التى تراكت فى ذهنى وازدحمت فيه مبللة مشوّهة . توهمت السارق
صميداً من عمداء الجبابة سلطته قوى مجهولة تتربص بى لتنتزع منى زوجتى أم
ولدى ، وارث أموالى ومخلد ذكرى . لقد جن جنون أنانيتى وثار فى فطرة
الإنسان أوغريزة لبوة بكريّة اقتحم وحش ضار عرينها فهبت تدافع عن أشبالها .
كنت أروح وأجىء وأتوهم أنى أقفز من سطوح إلى سطوح ، أدور حول
نفسى كاللؤلؤ ، أنادى السارق بصوت متهدج أجش .

اختلط صوتى بعجيج أصوات عشرات الشبان الذين خفوا مسلحين للفتك
بالسارق . إن السطو على منزل فى زحلة عروس مدن لبنان إنما هو تحد لكرامة
أهلها واستهانة بتقاليدهم ونخوتهم .

لمحت شخصاً ماثلاً قبالتى ، فتصورته عملاقاً من الجن ينقض على . أحسست
بالعملاق الجبار يرفع يديه ليسحقنى . . . أطلقت رصاصة ، أو انطلقت من
المسدس رصاصة ردد الوادى صداها ، أصابت الهدف فسقط الجسم بدون حراك .
أبقظنى الانتصار من غفوة الدهول فتنبهت إلى نفسى وإذا أرى حولى
طائفة من الجيران أقبلت على صوت الطلق النارى .

سمعت صراخاً وعويلاً وتأسفات فيها كل معانى الألم والحزن والشفقة . . .
أشعلت الأنوار ، تجمع الناس ، تبينت الوجوه فإذا بالعيون تحدجنى بنظرات
أسى وخيرة ملتاعة مضطربة .

دهمنا الجند فإذا بهم يطبقون على القاتل مجردونه من سلاحه وقد دل
الجيران عليه .

يا للإجناد الأجلاف ! يا لرجال التحقيق ما أطيب قلوبكم ! لقد منّوا على
تكرماً منهم بإطلاق حررتى ريثما أرافق جثمان زوجتى فأواريه التراب !

ويلاه ! لقد جمدحسى فى تلك الساعات وتبلد شعورى وزاغت نظراتى ، كنت
أبغض عيني أستجدى قلبى قطرة من دمه ، ولسانى كلمة واحدة أنطق بها .
كنت أرى جثمان يمنى مسجى فى النعش على رأسها أزهار الليمون التى زانتها

جناية

يوم إكليلنا وقد غطي الورد ثوبها الأبيض الغارق بالدم ، وكنت كقمة الجبل الشاهق جوداً وبرودة . وهأنذا أحس بالوقائع ماثلة أمامي أصورها لك مثل الرؤى والشعور .

أحسست الأرض تدور بي والآلام تنساب في نفسي تهب وتنوش أعصابي . أما محدثي فقد اعتدل في جلسته واشتدت نبرات صوته وقال :

من السخرية الاستعانة بالعدل الإلهي واحترام شرائع الناس ! أليس رعوته أن تبرأ مساحة القاتل ويطلق من عقاله ولما يجف دم المقتول بعد ؟ أليس ظلماً أن تعاد إليّ حريتي أنا القاتل الأثيم ؟ أين القصاص من الحياة ؟ أمن العدل أم من الظلم أن أجوب الأرض ، أتسكع في الشوارع ، أطوف حول الذكريات ، أتلمس آثار الحياة وأنا ميت القلب والروح ؟

اسمع يا صاحبي : ليس العدل والشرائع والقوانين والأديان نفسها نستطيع أن تشفى أدواء الناس ، إنما الذي يستطيع ذلك هو الضمير . وسأنفذ أحكامه التي أرتضيها لنفسي كما يحكموماً .
ثم استسلمنا كلانا للصمت .

توهمت صاحبي المسكين لا يواصل رحلته إلى أميركا بل يترك الباخرة عند أول ميناء ثم يتطوع للحرب حتى الموت . ولكن سرعان ما استمع هذا المخاطر يتوارى في طيات كلامي حتى قال لي ضاحكاً : أتحسب الموت يقضي على الموت ؟ قلت : لأفهم ماذا تعني . قال : ولا أنا أيضاً أفهم كيف أقضي بيدي على حياة ألقيتها في غيابات العدم ، بل أفهم أنني سأبقى في فراغ يتساوى والعدم ، وسأستمهل الموت حتى ألقى في كل ساعة ميتة تكفر عن جنايتي .

طفرت دمة كبيرة من عيني المسكين فتلقاها بعندينه . وعندما هم بالنهوض تخاذل وخافته قواه ، فتأبط ذراعه وأسندته على كتفي حتى بلغ غرفته في الباخرة . وإذا كنت عائداً لقيت الطلعة من الأميركان وقد تهيّبوا سؤالي وانصرفوا يتبع بعضهم بعضاً .

مبيب الزمردوي

من هُنا وَهُنا لـ

جولة مستطلع

من حبر الشريط السينمائية التي وردت علينا هذا الشتاء شريط إنجليزي اسمه « هنرى الخامس » . وليس قدر هذا الشريط في الموضوع ولا في التمثيل . فالموضوع منحصر في حملة هنرى الخامس أحد ملوك إنجلترا في المئة الخامسة عشرة ، وما اتصل بهذه الحملة من شؤون حرب وسياسة وغرام في أرض فرنسة . وأما التمثيل فكانت صفته صفة التمثيل الانجليزي على وجه العموم : اقتضاب في الحركة واقتصاد في النطق . وكان التمثيل حسناً ، على أنه لم يكن قريداً في حسنه .

إن قدر هذا الشريط في النص والإخراج . والنص من قلم وليم شكسبير . ولو كان بدا للأميركيين أن يبرزوا مسرحية « هنرى الخامس » لكانوا هجموا على النص فجرؤاً على التبديل والتحريف حتى يعدلوا الموضوع على قدر أذواقهم . ولكن المسرحية لم تعبر المحيط الأطلسى هذه المرة ، فظلت في العالم القديم الذي يحترم القديم .

ويبلغ نص المسرحية لغة السماء أحياناً . فكان يرفع الناظر كلما بلغها . والجميل أن أصحاب الشريط لم يخشوا أن يرفعوا شعراً خالصاً تلعب في صفحاته آيات المجاز وتنبض في طياته دقائق الفكر المتفكر . . . جئونا تلك الليلة بين يدي رب من أرباب البيان . وقد حسنت الجثوة ، لأن البصر أعان السمع على الاستمتاع بالطائف .

والذي جعل البصر يعين ذلك العون أن العين سحرت بإخراج ناعم نبذ الطريقة السائدة في السينما الأميركية والفرنسية مثلاً ، فعد إلى أسلوب يغلب التخيل على التبيين وينصر الهمس من الزعق . ومدار هذا الأسلوب المعروف في المسرح المستحدث ترك إبراز الواقع في شكله الجاف مع دس خواطر شعرية ومعان فيضية في المشاهد والمواقف والمجالس . من ذلك أن طائفة من مناظر الطبيعة ، من أشجار وورود وأودية ومروج ، كانت تنبسط من خلال النوافذ أو من تحت الأجنحة ، كأن ساحراً ذا اقتنان هبط بها من الجنة العليا : ألوان وخطوط مفروشة على بساط من نور شفيف . تلك مناظر مرسومة في كثير من الحلق والطاقة ، مدرجة في تلافيف الشريط . والذي رسمها مشيع بصره بنضارة الأرض الفرنسية في أيام الربيع ، مدرب مرققة على أسلوب بعض المحدثين من المصورين الفرنسيين مثل Le Douanier Rousseau . من هنا تلك الطرارة الساذجة في المناظر كأنما المنظور طي الضمير كامن لا في الفضاء ، في الوهم منتشر لا على الأرض .

أكتب هذا وأنا أدري أن ناساً يدهشهم ما أكتب . فقد صارحتي فريق أن هذا الشريط لم يحسن عندهم ، بل رأيت جماعة يتركون القاعة في أثناء العرض . فلما عدت إلى نفسي فكرت في ذلك النفور ، فعرض لي سبيان : أما الأول فلاحق بصناعة السينما ، وأما الثاني فراجع إلى ثقافة كثير من النظارة في مصر . ولا بأس من الإشارة إلى السبيين .

تساقط علينا الشرط من ناحية أميركة في غالب الأمر ، ودأبها في الإخراج محاكاة الواقع الظاهر ، وإبراز المشاهد إبرازاً يذكر كآلة التصوير . فلا وحي ولا همس ولا شعر . وقد اعتاد النظارة هذا اللون من الإخراج الآلى ، فتنى عدل بهم مخرج من خشونة المنظور إلى نعومة ما وراءه حزنوا . ثم إنهم ألفوا مع تلك الشرط السهولة ، أو الابتذال في ألفاظ الحوار ، فكيف يأنسون بأشعار ، بأشعار نطق بها لسان لا يقف في اندفاعه سد ، هو لسان شكسبير . . . هل السينما عناء ؟ .

وأما السبب الثانى فاشتهز كثير من موضوع المسرحية . قصة ذلك أن في صدور فئة من النظارة عندنا هوى لفرنسة داخلهم من طرق منها طريق الثقافة على وجه التخصيص . ولا عيب ألبتة في ذلك . وكأني بهذا الهوى يشط فيميل بالقوم عن مسرحية تحكى ظفر الانجليز ظفراً فيه امتهان لفرنسة ، ذلك أن المسرحية تدور على هزيمة الفرنسيين في قرية Azincourt (Agincourt) ، وهى هزيمة انكسرت بها شوكة فرنسة وبذخ عز انجلترا . تلك مسرحية كأنيما شكسبير أراد أن يتفنى فيها بجلال إنجلترا وبمجد أبنائها (وإن كانوا أئمنوا في الفرنسيين حتى إنهم قتلوا بعض الأسرى !) .

*

مما يورث الأسف أن فرق الممثلين التى تهبط مصر ينظمها ناظم في بلد من البلدان الأوروبية على غير توفيق أو على غير تدقيق . فنصيب في كل فرقة ثلاثة ممثلين أو أربعة على دراية وكفاية . ثم نجد غيرهم دونهم قليلاً أو كثيراً ، حتى إننا إذا شاهدنا مسرحية أفسد المتخلف في فنه مما يبذله المتقدم فأبطل بعض متعتنا .

أقول هذا بعد مشاهدة الفرقتين اللتين قدمتا هذا الشتاء ، إحداها فرنسية تنتسب في جلتها ، مع كثير من التجوز ، إلى « الكوميدي فرانسيز » ، والأخرى انجليزية . ولكن ماذا نصنع ؟ هذا الذى تقدر عليه ، أو هذا الذى يريد بعضنا أن تقدر عليه ، فالصبر ، الصبر ! حتى تنشق الطريق إلى جهة الكمال (١) .

لست بمحدثك عن الفرقة الفرنسية ، فقد بلغك خبرها . إنما أحدثك عن تمثيل الفرقة الانجليزية مسرحية « هملت » .

يقول فريق من الانجليز إن الممثل الأول واسمه جلجد J. Gielgud يخرج المسرحية في شكل جديد ، ويؤدى دور هملت على أسلوب طريف .

والحق أنى لم أر الإخراج ذاهباً في الجودة . فإن كان جلجد أبى أن يسلك طريقة المخرج الانجليزى العظيم إدورد جردن كريج E. G. Craig فلم يتخيل هملت « كأنه روح موضوعه في فضاء بارد لا نهاية له » فانه استوحى كريج في الفصل الأول : هذه الستائر المسدولة ، وهذا الظلام ينعمه ضوء قمر مستتر أو كالمستتر ، ثم هذه الرهبة المنتشرة سراً في الجو . كل ذلك عرفته في إنجلترا وفي غير إنجلترا . وليس الإخراج في الفصول التالية بغريب ، فن السهل أن يقطن

(١) برع من الممثلين الانجليز في مسرحية « هملت » من أدى دور هملت ودور الملكة ودور الملك ودور بولونييس . وأخفت التى أدت دور أوفيليا مظهراً وتمثيلاً .

من هنا وهناك

فطن لسعي الخرج في تيسير العناصر الظاهرة من أشكال وأضواء وألوان ثم حشدها في سبيل إبراز الممثل أشار أو تحرك أو اضطرب . وذلك النهج معروف أيضاً في الاخراج الحديث . وأما من جهة الآراء فإن جلجد حقيق بالاعظام . ما أجل نطقه السهل الحافل للون ! ثم إنه أقبل على النص يتفهمه هو ويستخرج منه ما لم يخرج لغيره ، على ما أعلم . فما راقني في هذا الباب تعليقه لاسراع للملكة أم هملت إلى الزواج بأخي الملك المتوفى ، وهو اسراع فيه طيش واستهتار ، ثم هو زواج فيه خروج على العرف واستخفاف بالمروءة ، وفيه التجدار لأن الملك الجديد (قاتل أخيه) على غير أخلاق الملوك كما كان أخوه . وقد علل الخرج هذا الاسراع وهذا الزواج تعليلاً فيه الصواب كله ؛ إذ أبرز الملكة غير مرة وهي تبدى شغفها بالملك على غير استحياء ، فتستدعي قبلته وضمته ، وقد تطيل التقييل والانضمام . وفي المسرحية ما يؤيد هذا ساعة يقبل هملت على أمه باللوم فيوجهها ، ثم يغلظ لها وهو يكشفها بأن الشبق وحده الذي قذف بها بين ذراعي عمه :

proclaim no shame

When the compulsive ardour gives the charge,
Since frost itself as actively doth burn,
And reason pandars will.

إلى آخر ما ينتف به في وجهها [الفصل الثالث ، للشهر الرابع ، طبعة أكسفر
سنه ١٩٣٤] .

ويزيد اذاك التعليل صحة أن في المصدر الذي استقى منه شكسبير قصته — وهو « تاريخ الدنمركيين » للنحوي Saxo أو « مآسي » François de Belleforest — أن أم هملت كانت خلية القاتل وأنها ما اتفكت بعد الزواج صبة به . وفي المصدر الأخير أيضاً أن هملت يصيح في وجه أمه أنها من سواقط العواهر لأنها تنقاد رغبة مشتاقة لفاجر أثيم . هذا ، وأراد جلجد أن يبرع في تفهمه لنفسية هملت . فقد درج المثلون والخرجون من قبل على أن يغلبوا الحيرة والذبذبة والسخرية والسويداء المتقلصة على حركة هملت ونطقه . غير أن جلجد غلب الحماسة والحدة ، ولم تكونا من تكلف الجنون بل كاتتا من عنفوان الشباب . وذلك أن جلجد رأى في هملت الفتوة قبل كل شيء ، فلم يسلبه الرغبة الفعالة ولم ينكر عليه الاقدام كل ذلك الانكار الذي يميل إليه غيره .

وإني لاخشى أن يكون جلجد ذهب إلى أبعد مما يحسن الذهاب عنده . ففي ثنايا المسرحية ما يدعم غير ما رأى : فهذا هملت لا يدري أيؤثر الحياة على الموت أم يؤثر الموت على الحياة To be or not to be ، فيقول : « إن الوجدان يردنا جميعاً أهل جين » :

Thus conscience does make cowards of us all;

[الفصل الثالث ، للشهد الأول]

ثم يعترف إلى شيخ أبيه أنه « ابن متلكيء (العزم) » tardy son .

[الفصل الثالث ، للشهد الرابع]

من هنا وهناك

ثم بناجى نفسه فيبدو رجلا يطيل الروية ويزن ما للأمر العارض له وما عليه فيقر بأن
« ثأره رخو » dull revenge .

[الفصل الرابع ، المشهد الرابع]

ولكنه سينشط منذ هذا الحين فتدخل الحماسة قلبه ، فيقول : « لتكن أفكارى مشربة
بدم منذ الآن » . [آخر المشهد المذكور] . ومن هنا نرى هملت [الفصل الخامس ،
المشهد الثاني] يدع الاحجام وينبذ الرخاوة ويعزم على أن يثأر يده من الذى قتل أباه
وحرص أمه على الفحش .

والتحقيق أن هملت لا يبدو من لفظ شكسبير ذا فورات وهبات إلا فى الختام . فهذا
هو يهدد أخا حبيبته أفيليا فيقول : « إني وإن لم أكن غضائياً ولا عنيفاً لنى شيء ذو خطر
يحسن بحكمتك أن تخشاه » .

For, though I am not splenitive and rash,
Yet have I something in me dangerous,
Which let thy wisdom fair.

[الفصل الخامس ، المشهد الأول]

وعندى أن هذا الشيء الذى فى صدر هملت ، هذا الشيء الذى يحمل الخطر إنما هو
بلوغ السخط حد الثورة . ما أعظم شكسبير ! . درج يبطله هملت وبنا خطوة خطوة ، فأخذ
يدفع هملت من باب التأمل إلى ساحة الغضب ، من التردد إلى الاقدام ، من النية للمهمة إلى العمل
الصريح . كل ذلك ونحن نتعقب قلق النفس المتألمة ، الضجرة ، المريضة ، ومرضاها لن يزول لأن
اختلال العالم لن يزول ، ولأن خبث الشهوة لن يزول ، ولأن حيرة العقل بازائها لن تزول .
لا عدنا ممثلين ومخرجين مثل جلجد يتفهمون فى جد ويحدثون فى إخلاص ! إنما بنيتهم
خدمة الفن وأربابه وأصحابه ، فيثيرون مثل هذا التعليق ويعزونا عما كتب لنا أن نشاهده
الآن فى لغتنا الكريمة .

*

فى القاهرة ، فى حى قصر الدوبارة دار متواضعة ، نائية عن الجلبة ، اسمها « دار السلام »
يقصد إليها الحين بعد الحين نفر من المشغولين بلطائف الوجدان ، فيستمعون إلى متحدث
قد يسر إليهم بطوابع روحانية ولوائح قدسانية .

فى الرابع عشر من شهر فبراير استمعت إلى حديث كله طرافة وبعد . وكان المتحدث
للمستشرق الفرنسى الذائع الصيت الأستاذ لويس ماسينيون L. Massignon . وهو من أقدر
الناس على كشف الحجب ، فهو صاحب انتباه وانزعاج وتلقى وترق ، على حد قول الصوفية ،
وهم أهل وده ولهم عنده ذمة . وهو أيضا صاحب علم بصير باللغات السامية ودراية فائقة
بالفكر العربى ، يشهد بذلك تأليف له متداولة .

ذلك المساء استمعت إلى هذا الموضوع « خصائص الحياة الباطنة في التاريخ الأدبي للثقافة العربية ». والحق أن أفقاً اتسع تجاهي من بعد ضيق ، وهو قابل للاتساع بعد . ولا أشك أن الأستاذ ماسينيون ذاهب في جنباته ، موغل في أطرافه ، على عادته ، يوم يخرج إلى الناس كتابة ما كان ألقى به في آذان قُر مناهم . فكان حديثه في ذلك المساء كان من باب الجس لعله أن ينهنا إلى ما في النفس ظمأ إليه .

تكلم الأستاذ باللغة الفرنسية ، فوطاً لحديثه بمقدمة لغوية خرج منها بأن النطق يعبر أحياناً عن اعتراف دفين أو عن فكرة أخذت من صاحبها مأخذها في مسرى الحياة الروحانية ، فليس النطق إذن — في كل حال — وسيلة تفاهم حسي وتجاذب وضعي .

ثم انتقل الأستاذ إلى تعيين المراحل التي تقطعها اللغة وهي ترفع عن بساط المادة نزهاً . فابتدأ بمن اللغة وضرب مثلاً كلمة « الرحمة » ، فحروفها ر ح م تدل في العربية على العطف وفي العبرية على الدفء ، وفي السريانية على الحب . وزاد مثلاً آخر كلمة « الصبر » فقادها في العربية الاحتمال ، وفي العبرية الأمل ، وفي السريانية التفكير .

ذاك التزه من شأن متن اللغة . وأما الذي يخص بناء الألفاظ فخرج من طور النكرة إلى طور المعرفة ، من التنوين إلى التعريف . هذا ، وأما الذي يتصل بنظم الألفاظ فانتقال من أغراض حروف العطف إلى الفكرة الثابتة للوجود ، بأن يتجسم شأن التكلم ويتغلب على سياق الجملة ، فينقلب الفعل إلى جهة الفاعل ويصير ذاتياً بعد أن كان في جهة الحدوث يسائر تقلاته .

ومما نشأ عن ذلك التبدل في اللاتن lexique والبناء morphologie والنظم syntaxe أن الأسلوب style دخل في طريق الحزم وقد هذب للمواد التي فيها اشتباه ambivalence مثل مادة ح ر م ، س ل م ، ك ف ر .

غير أن التعبير عن الحياة الباطنة باللغة العربية — وهي لغة « متصرفة » flexionnelle — أمر فيه صعوبة لا نكاد نجد لها في اللغات « الوصلية » أو « اللصقية » agglutinantes مثل التركية . ومن دلائل هذه الصعوبة اضطراب اللغة العربية إلى إثارة الإيجاز في أحاديث الوجدان . من ذلك قول رابعة المتصوفة (توفيت سنة ١٨٥ هـ) : « الجار ثم الدار » (تريد : الله ثم الجنة) . وقول أبي يزيد البسطامي (توفي سنة ٢٦١ هـ) مخاطب الله : « أريد ألا أريد إلا ما تريد » .

ثم من هذا الإيجاز خرج الأسلوب للتسلسل enchainé بفضل الإقبال على فلسفة يونان وعلى علم للنطق . من ذلك أقوال للحلاج . وهنا ذكر الأستاذ ماسينيون مثلاً قاتني . وإني أقترح مثلاً آخر على هذا الأسلوب مستأذناً . وهذا هو : قال الحلاج : « نزول الجمع ورطة وغبطة ، وحلول الفرق فكاك وهلاك ، وبينهما يتردد الخاطران ، إما متعلق بأستار القدم أو مستهلك في بحار العدم (١) » .

وقد تلا هذا التعبير للتسلسل أسلوب الاعترافات ، ومنها « وصايا » أو « نصائح » المحاسبي (٢) (توفي سنة ٢٤٣ هـ) ، ومنها « المتقذ من الضلال » للغزالي . وفي أمثال هذه

(١) « أخبار الحلاج » نشره ماسينيون وكراوس ، باريس سنة ١٩٣٦ ، ص ٥٥ .

(٢) راجع مقال ماسينيون في دائرة المعارف الإسلامية E.I. مادة Muhâsibî .

من هنا وهناك

الاعترافات تشرق تلقينات من دأبها أن تنزع النفس من المشتبهات الخارجية والمشتبهات
ambiguïtés الخلقية ، فكأنما المتكلم يجد نفسه من بعد فقدان وقد وثبت به الحضرة
الالهية présence divine ، ساعة الجلوة ، إلى الأنس والهيبة .

بشر فارس

ذكريات أدبية

سجل مسيو أندريه جيد في يومياته عام ١٨٩٠ ما يلي :

« يجب ألا يعني الانسان بأن يظهر وإنما المهم حقا هو أن يكون .
ولا ينبغي أن يندفع الانسان بالفرور إلى أن يتمجل ظهور حقيقته .
« ومن هنا يجب ألا يلتبس الانسان الكون رغبة في الظهور ، وإنما
يجب أن يكون الانسان لأن من الملائم أن يكون كما هو . »

هذه الفكرة قانون التزمه أندريه جيد في حياته كلها . فكان مخلصا في نشاطه الأدبي كله ،
وكان مخلصاً حينما تحدث إلينا في مساء الثلاثاء ١٢ مارس في قاعة المحاضرات بالليسيه فرنيه . ولذلك
لم يلق علينا محاضرة ، وإنما تحدث إلينا ببعض ذكرياته كما استجابت لذهنه حين دعاها إليه .
وقد استحضر السماء الأدبية الفرنسية في أول عهده بالأدب ، فأنبأنا بأنها كانت غير هذه
السماء التي تراها الآن ، لم تكن تلمع فيها تلك النجوم التي تألقت فيما بعد حينما اتصلت فرنسا
بالبلاد الأجنبية اتصالاً قوياً . فلم يكن الشباب الفرنسيون يحفلون بأبسن أو دستوفسكي أو جوت :
وإنما كانوا يعنون بالأدباء الفرنسيين ويتأثرونهم . وكان أبرز هؤلاء الأدباء مالرميه مؤسس
مذهب الرمزية في الشعر . وكان هذا الشاعر معنياً بعناية خاصة باللفظ والصورة ، يتجه في ذلك
اتجاهاً يذكر باتجاه الشعراء الشرقيين في العربية والفارسية ، إن صح ما نقل إلى أندريه جيد .
ولم يكن فن مالرميه وحده هو الذي يجيبه إلى الشباب ويجذب الشباب إليه ، وإنما كان
نبله ونقاء حياته من أعظم المؤثرات في ذلك .

وكان الشبان يعنون بمذهب آخر في الأدب هو مذهب الطبيعيين . ولا يحب أندريه جيد
هذا المذهب ولا يطمئن إليه ؛ لأنه يرى أن أصبحا قد اتخذوا تصوير الحقائق الواقعة وسيلة
إلى التشاؤم دائماً والاسفاف البغيض أحياناً . وأندريه جيد لا يرضى بحال من الأحوال عن
هذه للمغامرة التي يتخذ فيها الأدب والفكر والعمل سبيلاً إلى اليأس . فأندريه جيد وزملاؤه
قد رأوا أن في الحياة من الحصب والتنوع ما يمكن من جعلها جميلة رائعة ، وهم قد حاولوا
ذلك ووفقوا له .

وقد ذكر جيد بيئة أخرى هي بيئة « المركور دي فرانس » التي كانت في أوائل القرن
التاسع عشر بعيدة الأثر في نشر الأدب ، يشرف عليها ريميه دي جورمون وتؤثر فيها زوجته
الذكية البارة راشيل ويختلف إليها جماعة من الأدباء . ولكن جيد لم يحب هذه البيئة لأنها
لم تكن ترتفع بالأدب إلى حيث يجب له من السمو وإنما كانت تنحط به عن السمو ، ولا تطمح
به إلى المستقبل وإنما كانت تنحط به إلى تراب الماضي العتيق .

من هنا وهناك

وقد حدثنا جيد عن مورييس بارس ، فأعاد إلينا رأيه المعروف فيه . فهو يعيب على بارس شيئين : أحدهما مذهبه في السياسة والاجتماع ، وهو مذهب السلطان القوى المستأثر الذي أحبه الفرنسيون في ذلك الوقت ؛ لأنه كان مذهباً فرنسياً . فلما رأوه يقبل عليهم من ألمانيا في العهد الأخير أبغضوه أشد البغض . والثاني نصحه للشبان بأن يرسلوا أنفسهم على سجيئتها حينما يكتبون أو ينشئون دون تأتق في الكتابة أو احتفال بالفن . فقد يكون في إرسال النفس على سجيئتها شيء من النفع والاجابة ؛ ولكن هذا نادر لأن الاتقان لا يكتسب إلا بالعناية والجهد .

وقد تحدث أندريه جيد في كثير من البساطة عن الموازنة بين الجيلين الأديين الذين عاش أولهما بعد الحرب العالمية الأولى ويعيش ثانيهما بعد الحرب العالمية الثانية . فالجيل الأول لم يقطع الصلة بين الماضي والمستقبل وإنما هبط من الماضي إلى المستقبل في هدوء ودعة كما ينحدر النيل من شلالاته إلى السهل ، على حين قطع الجيل المعاصر أو كاد يقطع الصلة بين غده وأمه ، فهو ينحط من الماضي إلى المستقبل في ضجيج وعجيج واكتساح لكل شيء كما ينحط الماء من شلالات نياجرا غير مبق على شيء . وقد استكشف الشباب للمعاصرون حقيقة جعلوها لأنفسهم غاية على حين كنا نجعلها نحن لأنفسنا مبدأ . وهذه الحقيقة هي أن الانسان يصنع لنفسه العالم الذي يعيش فيه . فأما نحن فقد اتخذنا هذه الحقيقة مبدأ للشروط ، فحاولنا أن نصنع عالمنا وأن تزينه بالمباهج والطموح إلى الخير . وأما هم فقد جعلوا من هذه الحقيقة آخر الشروط ، يصنعون لأنفسهم عالماً يقفون عنده ويقىمون فيه ولا يحاولون تجاوزه . وهذا العالم الذي صنعه سارتر قبيح ، حائل ، حزين ، قدر ، لا يشبه في ذلك إلا العالم الذي صنعه هويسمانس ، وقد انتهى هويسمانس إلى الفرق في التصوف حين أمضه عاله البغيض . أما سارتر فلا يكاد يظهر أنه يتجه حتى إلى هذا الفرق . ومع ذلك فأندريه جيد ليس يائساً ولا متشائماً لأن طبيعته لا تجب اليأس ولا التشاؤم ، وإنما هو واثق بأن شيئاً إيجابياً سيخرج من هذا العالم السلي المضطرب الذي تملؤه القوضى . وهو يرى أن مبدأ حرية الفرد قد أصابه من الانحلال والفساد في العالم الجديد ما يعرضه لخطر عظيم ويجب إنتقاذه مهما تكن الظروف . ولم ينس أندريه جيد أنه يتحدث إلى المصريين في وطنهم مصر ، فيذكرهم بأنهم يجدون في بلادهم التي لم تصطل نار الحرب مثل ما يجد غيرهم من الناس في البلاد التي اصطلت هذه النار . ولم يشك في أن المصريين سيشاركون غيرهم من الأمم المتحضرة في استنقاذ للقيم الانسانية الخالدة التي لا تعيش الشعوب إلا بها .

ومن نافلة القول أن نصف ما قوبل به أندريه جيد حين أقبل وحين تحدث وحين انصرف من التقدير والاعجاب ؛ فقد كان حديثه بسيطاً سهلاً يتجه مباشرة إلى القلوب ، لأنه كان يسوقه في غير تكلف ولا تصنع كأنما كان يتحدث إلى كل فرد من المستمعين حديثاً خاصاً تزينه النوادر والفكاهات . ولم يتعود الجمهور المصري مثل هذا اللون من المحاضرات .

ومن الناس من أسف لأن أندريه جيد لم يقدم إلى مستمعيه ما تعودوا أن يسموه رسالة أو نداء ومنهم من كان ينتظر أن يعرض عليهم مذهباً في السياسة والأخلاق الاجتماعية . ولو أن أولئك وهؤلاء قرءوا آثار أندريه جيد لرءوا فيها رسالته ونداءه ومذهبه في السياسة والأخلاق الاجتماعية . وهو لم يزر مصر ولم يتحدث إلى أهلها ليبلغ رسالة أو يصدر نداء ؛ فقد أتق في تبليغ الرسالة وإصدار النداء حياته الطويلة الخصبه .

النهضة الأدبية في العراق وموقف الصحافة منها

حضرة صاحب العزة الدكتور طه حسين بك عميد الأدب العربي ... أرجو التفضل بملاحظة هذه الخاطرة التي أوجتها إلى مجلة «الكاتب المصري» الغراء ، فإن شئتم نشرها فلكم شكرى الجزيل ومعى عشرات من أدباء العراق ، وإلا فلتكن سرّاً بيني وبينكم .

لا يسعنى فى صدر هذه الكلمة إلا أن أشكر لجلتكم العاصرة خروجها عن العزلة الإقليمية التي سارت عليها كثرة الصحف المصرية منذ نشأتها حتى الآن ؛ فكان من جراء ذلك فقدان الرابطة الأدبية بين مصر وسائر البلاد العربية ومن أهمها العراق . فلم تعد مصر — ولا مبالغة — تعرف عن النهضة الأدبية الحديثة فى العراق إلا النذر اليسير ، ولم يصل إليها من تاريخ العراق الحديث إلا الشيء العابر ، لالسبب سوى ابتعاد الصحافة المصرية والأدباء المصريين عن مسيرة التطورات الأدبية فى العراق منذ بدأت النهضة الحديثة . وإذا كانت التبعة فى ذلك تقع على الصحافة المصرية وحدها فلائها منتشرة فى البلاد العربية انتشاراً كبيراً وعلى الأخص العراق الذى كان نصيبه أوفر الانصباء من مطالعة الصحف المصرية على اختلاف أنواعها واتجاهاتها ، والمطبوعات المصرية قديمها وحديثها ، وقلما تجد أدبياً عراقياً كاتباً أو شاعراً يجهل التيارات الفكرية فى مصر . ولا أغالى إذا قلت إن أدباءنا فى العراق يقرءون أدباء مصر البارزين قبل أن يقرأهم مصر ، حتى أخذ معظم الشباب العراقي فى السنوات الأخيرة يترصد الأسواق لمباغثة الكتب المصرية وشرائها ومطالعتها وتقددها وما إلى ذلك . وإن من الصعب على الأديب العراقي اليوم ألا تكون مكتبته حافلة بمؤلفات الدكتور طه حسين والعقاد وأحمد أمين والملازنى والرافعى وزكى مبارك وغيرهم من قادة الأدب العربى فى مصر ، على حين يقابل ذلك فى مصر أن الشباب ، حتى الشيوخ منهم ، لا يعرفون من أدباء العراق الحديثين إلا الزهاوى والشيبى والرصافى والكاظمى والكرملى . ولو قدر للصحافة العراقية والمطبوعات العراقية أن تنال مكانة فى مصر لكان الشأن غير هذا ، ولعرفت مصر مقدار ما وصلت إليه النهضة الحديثة الجبارة فى العراق . فقد يعجب بعض المصريين — ولا عجب — إذا علم أن العراق أصدر أكثر من ثلثمائة صحيفة أدبية وسياسية منذ الحرب العالمية حتى الآن ، وأن المطابع العراقية أخرجت مئات المطبوعات من مؤلفات تاريخية وأدبية ودوائى شعرية لمختلف العصور ولا سيما العصر الحاضر . ولا ينكر أحد أن الوثبات الشعرية فى العراق لم تقف عند حد ، وقد بلغت أوجها فى العصر الحاضر على ألسنة الشباب للفكر . ولعل أكثر أدباء اللغة العربية يشهدون للعراق بمقامه الرفيع فى عالم الشعر ، وسيتفق معى على هذه الدعوى معظم الأدباء المصريين الذين زاروا العراق ؛ فقد شهد أكثرهم الأسواق الأدبية على ضفاف الفرات ودجلة وحضروا تلك للمهرجانات التي كانت تقام لهم فى بغداد والنجف والبصرة . ومع ذلك فإنا لم نقرأ فى الصحف المصرية ما يدل على العناية بهذا الأدب الزاخر إلا ما جرى به قلم الدكتور زكى مبارك وقليلين من أمثاله ، على أنها لا تخرج عن حدود الكتابة المجملة ، على حين نجد العراق قد عنى عناية كبيرة بالأدب المصرى الحديث ، وشجعت هذه العناية وزارة المعارف العراقية بما أدخلته فى مناهج التعليم الثانوى للأدب العربى ، فقررت دراسة شوقي وحافظ والبارودى

وللنفلوطي والرافعي والامام محمد عبده وسعد زغلول، إلى جنب الأدباء العراقيين . وهذه المناسبة يسرني أن أذكر تلك الأصوات التي دوت على ضفاف اليرافدين بمناسبة وفاة المغفور له سعد زغلول والحفلات التأيينية التي أقيمت له ، وقد جمع ما قيل فيه من شعر ونثر وطبع في العراق . وكذلك صنع العراق في وفاة حافظ وشوقي على حين يقابل ذلك ما فعلت إحدى الصحف الأسبوعية الادبية في مصر فكتبت عن الرصافي بعد موته مالا يليق بأي إنسان فضلاً عن شاعر كالرصافي .

إن في العراق نهضات ادبية تعاقبت في القرنين الأخيرين ، فكانت صفحة كبرى من تاريخ العرب وسجلاً خالداً من أدبهم الحديث . وكانت هذه النهضة تمثل جانباً كبيراً من النشاط الاجتماعي والسياسي والمحافظة على التراث العربي في أواخر الفترة المظلمة التي كادت تشل الحركة الادبية في الشرق العربي . وهذه المناسبة أرى من المستحسن أن أذكر بعض أولئك الأدباء الذين تغنوا على شواطئ دجلة والفرات وورثهم أبناءهم وحفدتهم فأخذوا عنهم هذا الفن الرفيع . ومن أبرز هؤلاء الشيخ عبد الباقي العمري الموصلی ، والآخرين البغدادي والشيخ كاظم الأذري ، وآل الألوسي ، وآل كبن في بغداد ، والسيد حيدر الحلي ، والكوازي ، والكبي ، وآل النحوي ، وآل القزويني ، في الحلة . وكان أكثر هؤلاء من الشعراء والمؤلفين ، وقد طبعت آثارهم في مختلف مطابع الشرق ، ولا سيما ديوان الحلي والعمري والآخرين الذين كانوا محور الحركة الادبية في القرن الماضي . وجاءت على أثرهم طبقة أخرى من الشعراء لا تقل نصيباً عنهم وكان موطنها النجف . ومن هذه الطبقة السيد سعيد الجبوري فقد كان عالماً وشاعراً كبيراً وقائداً من قواد الثورة ضد الانجليز في سنة ١٩١٤ وتوفي بعدها بسنة ، والسيد جعفر الحلي ، والسيد ابراهيم بحر العلوم ، والشيخ عباس النجفي شهيد الغرام ، والشيخ محمد جواد الشيباني ، والشيخ هادي كاشف الغطاء ، والسيد رضا الهندي ، والسيد محمد حسين الكيشوان أحد العرويين .

وكانت « معركة الخميس » من أشهر الأسواق الادبية في النجف بين هذه الطبقة حيث كانت تعقد يوم الخميس من كل أسبوع مناظرة كبرى بين هؤلاء في النواحي الادبية والعلمية دامت سنوات عدة ثم ماتت بموتهم . ولا يخفى على البديعين وجه تسميتها بمعركة الخميس .

وجاء بعد هؤلاء شعراء الوثبة الفكرية الحديثة في العراق ، الزهاوي ، والرصافي ، والكاظمي — ضيف مصر حياً وميتاً — وقد كان هؤلاء الثلاثة أثر كبير في مقاومة الاستعمار والاستبداد ، وكان لهم الفضل في تنمية الحركة الفكرية في ربوع العراق .

ومن الأحياء اليوم سماحة الامام الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء أعظم علماء العراق الدينيين ورائد الوحدة الاسلامية ، وهو — إلى جنب علمه الغزير — شاعر وخطيب مفوه ، ومواقفه الخطائية معروفة في العراق وفلسطين وغيرها .

ومعالي الأستاذ الجليل الشيخ محمد رضا الشيباني أحد أقطاب الحركة الوطنية والفكرية في العراق ، وقد طبع ديوانه في مصر قبل سنوات ، وهو ديوان يمثل حياته العقلية أحق التمثيل ، ويصور نضاله السياسي في مقاومة الاستعمار أصدق التصوير .

والأستاذ الشيخ علي الشرقي الشاعر البصري ، ولو قدر لديوانه أن يطبع لكان ثمرة كبرى للمكتبة العربية ، فهو مجموعة من سياسة وفلسفة واجتماع .

والعلامة السيد حبيب العبيدي مفتي الموصل وهو عالم وشاعر ، وله آثار قيمة في اختصاصه .

من هنا وهناك

والشيخ محمد السماوي أحد المؤرخين والعلماء ، وصاحب المكتبة المعروفة — في النجف — بمخطوطاتها النفيسة .

والدكتور محمد مهدي البصير أحد شعراء الثورة العراقية ، وهو يتمتع بثقافتين : الأولى من العراق والثانية من باريس .
والاستاذ باقر الشيبلي صاحب البيت للشهور :

المستشار هو الذي شرب الطلا فعلام يا هذا الوزير تعربد ؟

والحاج عبد الحسين الازري الشاعر والصحفي المعروف . والاستاذ أحمد الصافي النجفي نزيل دمشق اليوم . وشاعر الجيل الحديث الاستاذ محمد مهدي الجواهري الذي يعد بحق صاحب رسالة شعرية أثرت في كثير من الشباب العراقي ، ولاشك أن مجلة « الكاتب المصري » قد تعرفت إليه أحسن التعرف . والدكتور مصطفى جواد اللغوي والمؤرخ الشهير . والاستاذ طه الراوي الأديب المطلع .

هؤلاء طائفة ممن استعرضتهم الذاكرة من العلماء والشعراء العراقيين الذين يرجع إليهم الفضل الكبير في بناء النهضة الحديثة في العراق ، وكان لاكثرهم الشأن الخطير في السياسة ومقاومة الاستعمار ومعالجة النواحي الاجتماعية . وهناك طائفة أخرى من شعراء الشباب وكتابهم لا يستطيع هذه الكلمة أن تأتي على ذكرهم ، وهم ينتظمون في بغداد والنجف والموصل والبصرة وسائر المدن العراقية ، ويتمثل جانب كبير من أديبهم على صفحات المجلات والجرائد العراقية أدبية وسياسية . فهذه المجلات « عالم الند » و « الحضارة » و « الرابطة » و « الهاق » وصاحبها من الكتاب المنتجين و « الفري » و « الوادي » و « الاعتدال » وغيرها . ومن الجرائد « البلاد » للاستاذ رفائيل بطي المعروف بانتاجه وخدمته للأدب العربي في مختلف الصحف التي أصدرها في بغداد ، و « الاخبار » و « الساعة » و « الرأي العام » صحيفة الشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري ، و « صوت الأهالي » التي تمثل جانباً من الوعي الاجتماعي في العراق ، و « الزمان » وغير ذلك من الصحف التي تصدر في بغداد وسائر المدن العراقية .

هذه نبذة قصيرة عن النهضة الأدبية والعلمية في بلاد الرافدين ، ولم يتسن لي البحث بأكثر من هذا ، فقد تركت عشرات الشعراء والكتاب ، وقد يفضيئون على لعدم درج أسمائهم هنا . ولو اتسع لي صدر المجلة لكتبت لها فصلاً قدر استطاعتي عن النهضة الحديثة في العراق وعن أبرز الشعراء والكتاب الذين أسهموا في بناء هذا الكيان .

أما السبب في كتابة هذه الكلمة فإن فضله يرجع — كما أسلفت — إلى مجلة « الكاتب المصري » التي أخذت تتبع سير الحركة الأدبية في العراق وتشر لأدبائه ما استطاعت وتهتم بشؤونهم . ولعل الصحف المصرية الأخرى تخرج من عزلتها فتعمل على توحيد الجهود الأدبية في أقطار الضاد كما صنع أقطاب السياسة في بناء « الجامعة العربية » ، فتسعى لبناء « جامعة أدبية » ينتظم في سلكها رجال الفكر العربي ، فتكون خير كفيل لبعث النشاط والتقدم ، فإن الأدباء شأناً في التاريخ السياسي والاجتماعي أكثر من غيرهم ، وعليهم تعتمد الأمة في كل ما تصبو إليه من أمان وآمال .

من هنا وهناك

وكل ما أرجوه ألا تكون هذه الكلمة غير عتاب رقيق لبعض الصحف الأدبية في مصر
العريضة ، فأنها من عراقى يجعل مصر في الطليعة و يعلق عليها الآمال في مستقبل الشعوب العربية .

ابراهيم الوائلى

الرجوع إلى باريس

« البحر »

لم تكن سفيلتنا سفينة زينة ، فقد قدر لها أن تنجو من مصير أخواتها اللاتي ذهبن ضحية
الحرب ، فهي سفينة بضائع لم تصنع لمتعة الراكب . . بل ألفت مرساها على بورسعيد كسفن
التجارة الفينيقية التي تأتي السوق حتى ينفض فهي تنتظر أياماً وليالي في بورسعيد ولا يعلم
ركبها أيان تبحر وهي معلقة على صفقة « خروب وعدس » لتحملها إلى الجزائر . . . ومن
استطاع أن يجد موضعاً بعد الخروب والعدس كان سعيداً . . ففى جيوب حول « زكائب »
البضاعة يهبط إليها سلم عميق نام أكثر الركب من أبناء لبنان ومصر ، وأولئك طلاب
يهاجرون فى سبيل العلم . وما بهذه السفينة من فضيلة أجل من مقاصد هؤلاء الذين يسارعون
فى ولوج باب أوصدته الحرب ستة أعوام فهم راضون بكل ما يلقون من شظف العيش ، ليس لهم
سلطان إلا على أنفسهم ، وكل خادم لنفسه من دون ثورة على شيء ، وهذه السفينة رغم خشوتها
كانت آخر باب من أبواب الأمل لمن شاء أن يدرك العمام الدراسي قبل أن ينصرم زماته .

فى ليل الند المجهول أشغال فى عالم الشعراء . وما تقبل الأنفس على باب الند حتى يهز أوتارها
الآمل والاشفاق والرغبة والايمان . وقد سألت عن نور يكشف لى حجب الغيب ويهدينى
سواء السبيل ، حتى تردد على سمعى دماء حكيم : ضع يدك فى يد الله ، فذلك أهدي لك من
كل نور وأسلم لك من كل علم . وتجاوزت فى هذا القلب أصداء ما كان لى أن يعتزل آثارها
التي أصغى فى سكون الليل إلى ما يتردد فى أفئدة الذين أحببتهم وأحبونى ؛ فهم يصحبوننى
بفكرتهم بالليل والنهار ، ويقاسموننى آملى وقوتى ويفرضون على الصلاة فى الأحداث والعزة
فى الأهوال . وفى ثنایا الشرف المصعد ضياء مبین تبعته ذكرى الوفاء لا سلطان لأحد عليه
ولا يحجبه فراق ولا موت ولا ليل ولا نهار .

قد رددت فى نفسى هذه الفكر فى ليل لم يرد أن يسمعى سوى ثورة البنى ولم يرد أن
يجعل منى باغياً ولا ظالماً ولا عدواً . ورأيتنى أتسلل فى الظلماء إلى ظهر السفينة . قد جاوزت
فى الحلاء صياح الصائحين ونجوت من عدد النابحين ، واستقر بى القدر على سفينة فى البحر
لا تمتد إليها يد أحد ممن تربصوا للخير وجعلت أتلو :

عَدَس مَا لَعِبَادُ عَلَيْكَ إِمَارَةً نَجُوتَ وَهَذَا تَحْمِلِينَ طَلِيقَ

ولم يرد ليلنا أن يجعل من هذه الحرية نشوة ، بل جعل منها مزيجاً من الخوف والرجاء .
في ليل الهول بارق من نور ، وأنا أمد يدي إلى الله ليسلك بي مسالك الغد وليطمئن قلبي
وإيماني ؛ فقد قضيت ليلي أستمتع لأشياء مبهمة في نفسي لم تبرح سمعي حتى غلب النوم على سمعي
وبصري وكانت هذه اليد التي تثير ما سكن من وجدى وتظهر ما خفي من شواغل قلبي ترسل
النفس بين الضلال حتى أوجس خيفة على من ودعت من شيوخ دارى . ثم لا يلبث هذا
الضلال أن ترق حواشيه وأن يحويه صوت من عند الله ويتردد على سمعي قول طيب جميل
كيف يخاف الأحداث مؤمن (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور) .

قدادة هذا الحديث استقبلت الفجر وهو يرسل ألوانه الوردية إيذاناً بطلوع الشمس فألمات
هذا الفجر آلاماً وأحيا هذا الفجر آثاراً . والشعراء أحياء كالطير تشدو في مشارف
الأرض للشرفة على آيات الله . وموكب الشمس أول النهار أدعى لنشيد الخير والحب والشجاعة
والأمل . وكان آباؤنا الأولون يؤمنون بكل قوة من هذه القوى كأنها إله ولى حميم . وكانوا
لا يذهبون مذهباً مجهولاً قبل أن يدخلوا معابد هذه الآلهة كيما تصحبهم بالسعد وتجنّبهم
ما يكرهون . وقضيت بين يدي الشمس ساعة من نهار على حين يتجاوب في قلبي دماء من
الأمل الحافز للخير ، وتهليل وجوه الحب التي صاحبت شبابي . وسمعت نداء أمتي ووطني ، ولم
أبرح هذه الصلاة حتى استقر إيماني وقلبي .

ثم غدت على عيني سفن في سكون الليل ووضح النهار . وأبحرت سفينتا ذات مساء ،
فسقطت عنى شواغل نفسي كأنما اتخذت النفس من ألقها القريب وسيرتها المعلومة الموضوعة
ومما حولها من جمود الأحياء والأشياء سيلاً إلى الضجر . ووسوس لها الشيطان الوسوس ،
فهي عرضة ساعة لصرعة الحسد ، وساعة لحساب الكبرياء ، وساعة للضعف وساعة للصلف .
وكان النفس حل تثقل موازينه إذا خفت موازين الحياة ، فليس للانسان ما يشغله عن نفسه ،
فلا يشكو حسد الحاسدين إلا الفارغون ، ولا يعيش في الأحلام إلا الفارغون . وقد عييت
هذا الفراغ النفس قبل أجلها وتنطق جذوة الروح قبل أن يموت الجسد . ومن الناس من
تجف أرواحهم وهم لا يعلمون ، وأولئك يكرهون الأمل والتوئب كما يكره المريض
صحة الأصحاء .

وقد جاوزت في السفينة هذه النفس إلى نفس أخرى ؛ فقد جاءني النجوم في كبد الليل
بأشغال ، وجاءني البحر الفسيح للمديد بأشغال ، وتقد النسيم إلى قلبي بأرواح ، وتوالت كلها
أثراً بعد أثر ، وأشرقت الشمس على عالمنا بألوان ، وأرسلت شعاعاً طيباً وضاء فأحيا ما كاد
يذبل من رוחي وآتى على بعدي سعيد جديد .

وفي سكون الليل حديث يجلو الليل بمجوله وغامضه ، إنما الامواج سر ما أصاب الناس من
هز وذل ، والذي علم الانسان سيادة الموج أوحى إليه أن سيادة البحر سيادة الأرض والذين
يكونون إن قادروا ديارهم ويريدون أن يعيشوا ويموتوا عند ظل الشجرة التي غرسها آباؤهم
أولئك لا يعلمون سر العالم ، ولا يدرون سبيل المجد والثراء . غيرات الأرض جميعاً والبحر
معها طوع يمين الذين يملكون البحر . والذين يملكون البحر يستحلون كل سبيل . وتاريخ
للمدنيات التي ظهرت حول البحر الأبيض المتوسط شبيه بهذه الموجات التي تسترسل من كبد
البحر ثم تعلو فتكون قمماً ، ثم تهبط فتتوارى في جوف اليم ، وهي جميعاً من ماء واحد ،
فهما تبدلت صورها ، واختلفت طاقتها . ولا تقوم مدنية حول هذا البحر حتى يسود أهلها

للموج . وكل هزيمة في البحر مقدمة لزوال ملك ونذير بذهاب مجد . والذين أوتوا الملك والمجد يعلمون هذه الحقيقة ؛ فقد شرع القائد الاغريق تيموستوكليس يحرق سفن حلفائه بعد ما هزم بها جنود الفرس لكيلا تجد أثينا منافساً للسيادة ، وذهب سلطان قرطاجنة بذهاب أسطولها . واتبع الرومان فعل سياسة تيموستوكليس لكيلا يكون لأحد سبيل على سلطانهم . ومدنيات العصر الحديث تقر بما حدث الليل .

ومكثت سفينتنا تقبل في البحر على ميناء الجزائر ست ليال وخمسة أيام ولم تشبه ليلة من ليالينا أخواتها البارحة ولا يوم من أيامنا أمس ؛ فتحن ندخل آفاقاً يشتد ريحها وموجها ويتلبد الليل بالسحاب ، وتتق للطر الذي يهبط على سفينتنا ، وهي ترفع عقيرتها فوق سطح الموج ، وتهوى برأسها في منخفض الموج ، ويتطاير زبد الموج على جانبي السفينة وهي مصرة دائبة . ونسمع صفير الريح ساعة تعصها جبال السفينة الحديدية ، وماء البحر قائم حينئذ يتطاير من موجه زبد أبيض حتى أقصى الأفق الذي تتراعى إليه أبصارنا ، ونخال هذه الليلة إذا عصفت ليلة الأبد ، ولكنها لا تلبث أن تنام كما ينام الأحياء ، ويصحو النهار بفجر ذهبي ، وتشرق الشمس فتؤنس وحشة الأحياء ؛ فهي رفيق الأحياء للؤنس في البر والبحر ، وهي الأب الرحيم الذي يغذي الكون بعنصر الحياة . وترى الناس يضيقون ذرعاً بالسحاب إذا حجب عنهم عجلة الشمس . وإذا صفا جوهر السماء واستقر النسيم وسكن للموج داعب عينيك ضياء النهار الناصع الساطع وزرقة البحر العميقة ، ويسترسل بصرك حتى أقصى الأفق . وتمضي سفينتنا تقبل في البحر على شاطئ طبقات إفريقية وتحسب ساعة هذا الأترساكنة لا تتجدد ، ثم تشرع بصرك فتري وراء الهواء طبقة كثيفة يحار في تأويلها الناظرون ، ثم لا تلبث أن يقبل علينا رسول الأرض ، وهو طائر أبيض يحلق وراء السفينة كلما دنت من الأرض . وهذا الطير سر من أسرار الزمان ، فن ذا الذي يحدثنا حديثه ؛ فهل تراه طيراً سائلاً يلتقط ما ترمى السفينة من فتات اللوائد ؟ إن كان ذلك أمره فما هو بسر ، أم تراه شيئاً من سر الزمان الخالي يعصم السفن من صخور الأرض ، ويهديها سبيلها ؛ فإن كان ذلك أمره فهو سر . وليت شعري من علمه الهداية والرشد . وأقبلت السفينة حتى دنت من شاطئ صخري ذي صخور مسودة محمرة طاية تدنو حيناً وتفرج أحياناً . وغربت الشمس من وراء هذه الصخور . وهبط الليل عن يميننا وجاءت جرة قرص الغروب بلونها المحمر اللامع ، فانبسطت فوق الصخور العاتية المحمرة وامتدت إلى زرقة البحر العميقة ، ثم ذهبت هذه الألوان كلها تحت أصابع الليل . وصحبت السفينة هذا الشاطئ ليلاً عن شمالها ، وفي ثنايا الشاطئ في حجب الليل بيوت تم عنها مصاييحها . وعلم الراكب أن السفينة تلتق مرساها غداة غد على الجزائر .

على مافظ

شهرات

شهرية السياسة الدولية

أورثت هيئة الأمم المتحدة العالم الدولي ، إذ انتهت أعمال القسم الأول من دورتها الأولى في التاسع عشر من شهر فبراير الماضي ، تركمة مثقلة : المشكلة الإيرانية ، والمعضلة اليونانية ، والقضية الأندونيسية ، والمسألة السورية اللبنانية . وقد طرأت على كل منها منذ ذلك التاريخ إلى ساعة كتابة هذه الشهرية مضاعفة أو أكثر كان لها أثر في « كهرية » الجو الدولي الذي زلذه ذبذبة فألقاء مستر تشرشل في أميركا من خطب وما رد به الرفيق ستالين من أقوال .

المنطقة الإيرانية

وقد كانت المشكلة الإيرانية حين استودعها مجلس الأمن الدولتين المتنازعتين كي تتناولها بالحسنى هي مشكلة احتلال الجنود السوفيتين لأذربيجان . وكانت الحكومة الإيرانية تطالب بجلاء هؤلاء الجنود عن جزء من أراضيها ، وكانت حكومة الاتحاد السوفيتي تقول : إن اليوم الثاني من شهر مارس — الذي لم يكن حل يومذاك — هو الموعد المحدد في اتفاقية طهران للجلاء ، وأن هناك أموراً يجب أن يتم التفاوض عليها بين الطرفين قبل الجلاء ، وكانت تلوح في الوقت نفسه بأن بين الاتحاد السوفيتي وإيران معاهدة معقودة في سنة ١٩٢١ تتيح للأولى احتلال بعض أراضي الثانية . وبدأت المفاوضات في موسكو ، وظن المتفائلون أول الأمر أن المفاوضات ستكون بالنجاح ، ولا سيما أن الذي يتولاها من الجانب الإيراني هو رئيس الوزارة الجديدة « قوام السلطنة » المشهور بميله للرؤس . لكن المتفاوضين قد انفضوا دون الوصول إلى نتيجة ، واليوم الثاني من شهر مارس قد انقضى دون جلاء القوات السوفيتية ، وكل ما أذيع عن كلا الأمرين أن الرفيق مولوتوف قد يذهب إلى طهران لاستئناف المفاوضات ، وأن حكومة أذربيجان المستقلة ، قد تعلن رغبتها في بقاء القوات السوفيتية داخل أقاليمها إلى حين ، وإن كان قد أعلن كذلك أن الاتحاد السوفيتي لا يقتضئ بيع كل يوم إلى إيران بقوات أكثر ومعدات أضخم ، كما أعلن أن أنباء هذه المعدات والقوات إنما هي أنباء غير صحيحة يذيعها خصوم قوام السلطنة عمداً قصد إحراج وزارته وإسقاطها . وكانت مضاعفة دولية قد طرأت لمناسبة ما عرف من أن محاولات قد بذلت من جانب سوفيتي قصد الحصول في كندا على معلومات خاصة بأسرار القنبلة الذرية ، وعلى مواد تستعمل فيما يتصل بهذه القنبلة الذرية . فلما انقضى اليوم الثاني من شهر مارس وهو الموعد المحدد لجلاء القوات السوفيتية عن إيران بعثت الولايات المتحدة إلى الاتحاد السوفيتي بمذكرة ساءلت بها عن سبب عدم تنفيذ التعهد بالجلاء ، ومضت عشرة أيام أعلن بعدها الرد السوفيتي

شهرية السياسة الدولية

على المذكرة الأميركية متضمناً أن هناك مسائل يرادها قبل الجلاء ، ومذكراً بأن الولايات المتحدة لا تزال محتلة « كوبا » على الرغم من أنه كان محدداً لجلاء قواتها عنها نفس الوقت الذي كان محدداً لجلاء القوات السوفيتية عن إيران وهو مدى ستة أشهر بعد انتهاء الحرب ، وبأن الجيوش الأميركية لا تزال في مصر إلى الآن . وأغلب الظن أن مثل هذا التذكير ستدفع به حكومة موسكو إلى الحكومة البريطانية بالنسبة لبقاء قواتها في العراق ، وفي اليونان . على أن دعاية هائلة قد أخذت الصحف الانجلوسكسونية في إنجلترا ، وفي أميركا توجيهها ضد الاتحاد السوفيتي تريد إظهاره بمظهر الملوح بالحرب المهدد بولاياتها الراغب في اقتحام البلاد المجاورة . ولا شك أن تلك الدعاية ترمى إلى إلقاء الرعب في نفوس من يتقدمون إلى بريطانيا العظمى هذه الأيام بمطالبهم كي تصل بهم إلى السكوت عنها أو تأجيل بحثها . والمقول أن المشكلة الإيرانية ستعرض من جديد على مجلس الأمن في اجتماعه الذي يبدأ في الخامس والعشرين من شهر مارس إذا لم يصل الاتحاد السوفيتي إلى تفاهم قبل هذا التاريخ مع إيران . ويلوح أن هذا الاقتراض يستساغ إذ أعلن في لندن أن وزير خارجيتها مستر بيغن لن يحضر بشخصه اجتماع مجلس الأمن في نيويورك إلا إذا حضره وزير الخارجية السوفيتية الرفيق مولوتوف أو نائبه « فيشنسكي » الذي كانت له معه في لندن « جولات » .

المعضلة اليونانية

وأما المعضلة اليونانية فكانت واقعة عند حد ما تقرر لدى مجلس الأمن من أن وجود القوات البريطانية في اليونان إنما هو بناء على طلب الحكومة اليونانية بالذات ، وأنه لا محل إذن لاعتبار وجودها هناك خطراً مهدداً سلام العالم . وكان المفروض أن تنتقل الأحوال اليونانية إلى إجراء الانتخابات التي يسفر عنها تعيين نوع الحكم الملكي أو الجمهوري ، وينبثق منها مجلس النواب الجديد تتولى الحكومة التي تنال ثقته شؤون البلاد . وكان المفروض أن يشهد الانتخابات ممثلون للحكومات الانجليزية والأميركية والفرنسية ، وكانت هناك محاولات لانضمام ممثلين سوفيتيين إلى هيئة المشاهدين . لكن جماعة «أيام» — وهي جماعة اليساريين في بلاد اليونان — قامت تطالب بتأجيل الانتخابات حتى تنهأ لها فرصة مقاومة التدابير التي دعمها الرجعيون طوال المدة التي انقضت منذ وجود القوات البريطانية في اليونان ، وكانت روسيا هي المنفردة بتأييد هذا الطلب ، لكن فرنسا مقدمة على إعلان انضمامها إليه بما أذيع عن اتجاه لجنة الشؤون الخارجية في الجمعية التأسيسية .

القضية الأندونيسية

وكذلك القضية الأندونيسية لا تزال معلقة . فقد قيل لدى مجلس الأمن إنها مسألة هولندية يقوم الخلاف فيها بين هولندا ومستعمرة من مستعمراتها ؛ إذ أن وجود القوات الانجليزية لا يرجع إلا إلى مهمة نزع السلاح عن اليابانيين الذين لا يزالون ملتجئين إلى جزرها . وفي الأنباء الأخيرة أن جنوداً هولنديين قد بدءوا ينزلون بعض هذه الجزر . ويلوح أن هذه الحركة إنما يقصد بها التمشي مع النظرية التي قررت أمام مجلس الأمن . وفي الوقت عينه كانت الحكومة

شهرية السياسة الدولية

البريتانية قد أوفدت أحد أساطينها الدبلوماسيين لمعالجة التوفيق بين الاندونيسيين الوطنيين والسلطات الهولندية . لكن شيئاً لم يذع بعد عن نتائج هذه المعالجة .

المسألة السورية اللبنانية

وقد خطت المسألة السورية اللبنانية خطوة ، بأن حدد موعد إتمام جلاء القوات الأجنبية عن سوريا في غضون شهر إبريل المقبل . ولا يزال موعد جلائها عن لبنان محل أخذ ورد في باريس بين ممثلي لبنان وممثلي الحكومتين الفرنسية والانجليزية . وقد عرض من الجانب الفرنسي فترة ستة كاملة حتى يتم جلاء القوات الفرنسية . لكن الجانب اللبناني يستطيل هذه المدة من ناحية ، ويلح في احترام مبدأ جلاء القوات كلها الانجليزية وفرنسية في وقت واحد من ناحية ثانية . وأغلب الظن أن سينتهي الأمر إلى اتفاق ، إذ قد تغير الجو بالنسبة للمسألة السورية اللبنانية في فرنسا بعد ابتعاد الجنرال ديغول عن دفة الحكم .

مضاعفات

ولم تقف الحال خلال الشهر المنقضى عند حد معالجة المسائل التي عرضت على مجلس الأمن العالمي ، بل إن مضاعفات قد جاءت تضاف إليها وتزيد الجو الدولي تعقيداً . فقد راح مستر تشرشل يخطب في الولايات المتحدة داعياً إلى نوع من الاتحاد يربط بين الولايات المتحدة وجامعة الأمم البريتانية وتاركا في نفوس سامعيه أنه إنما يقصد بهذا الاتحاد قيام جبهة أيجلوسكسونية في مواجهة الجبهة السوفيتية . وقد أثارت أقوال مستر تشرشل غير قليل من التلق ، لا عند السوفيتيين وحدهم بل عند الأميركيين والانجليز أنفسهم . فقام النواب والشيوخ في أميركا يعترضون على أقوال الزعيم البريتاني وقام عدد من أعضاء البرلمان البريتاني زاد على المائة يحتجون على ما تضمنه خطاب زعيم المعارضة من تلميحات وتصريحات . وقام الرفيق ستالين يرد عليه بعبارات قاسية ، إذ شبه بهتلر ووصفه بأنه مثله « تاجر حرب » وأنه مثله يدعو إلى التفوق العنصري وإلى سيطرة العنصر المتفوق — وهو في نظره عنصر المتكلمين باللغة الانجليزية — على العالم جميعاً . ويلوح أن رد الفعل كان قوياً ، فألقى مستر تشرشل خطبة ثانية تراجع فيها كثيراً عن تلميحاته الأولى وتهديداته ، وأعلن في صراحة أن الروس لا يريدون إعلان حرب الآن . وراح صديقه العتيق الجنرال سمطس يشد أزره بإعلانه نفس الرأي في نفس اليوم . ذلك أن ربحاً قد عصفت داخل حزب المحافظين وهي تدعو إلى تخلي مستر تشرشل عن زعامة المعارضين في مجلس العموم ، وهو ما يعني تخليه عن زعامة المحافظين وحزبهم .

وتتوج المضاعفات بمضاعفة جديدة أخرى هي مضاعفة الموقف من حكومة الجنرال فرنكو بأسبانيا . وقد كان فرنكو من أعوان المحور أثناء الحرب ، ومن أجل هذا لم تكن أسبانيا بين الدول المدعوة إلى مؤتمر سان فرنيسكو أو القبول طلب انضمامها إلى هيئة الأمم المتحدة بعد تكوينها . وقد أقدم فرنكو أخيراً على أعمال من العنف ضد طائفة من الجمهوريين أو الوطنيين الذين تحتضنهم فرنسا ، فاعتبرت حكومة باريس هذه الأعمال موجهة

شبهية السياسة الدولية

ضدّها ، فطالبت بقطع علاقات الدول العظمى بالحكومة الأسبانية مادام يتولى شؤونها الجنرال فرنكو . وطلبت إلى الحكومتين البريطانية والأميركية أن تنضما إليها ، ولكنهما أجابتا بما لا يرضى فرنسا ؛ إذ انطوت الاجابة على نوع من الماطلة والاحالة إلى الشعب الأسباني بحجة عدم التدخل في شؤون الغير الخاصة . وقد قررت الحكومة الفرنسية رفع الأمر إلى مجلس الأمن في اجتماعه الذي يعقد في الخامس والعشرين من شهر مارس .

الخلاصة

والخلاصة عندى أن انعدام الثقة بين الجانب السوفيتي والجانب الانجلوسكسوني ، لا يزال هو العامل السائد للعلاقات الدولية ، وأن هذا العامل هو الذى يدعو كل فريق إلى الوقوف من الفريق الآخر ما ترى من مواقف . فروسيا تستمسك بموقفها في إيران لأنها ترى انجلترا مستمسكة على خطوات منها بموقفها في العراق ، وبمساعيها بين العراق وتركيا . وهى تستمسك بمطالبها في الدردنيل مقابل ما تستمسك به انجلترا من موقف في قناة السويس وفي اليونان . وهى تلح في المطالبة بشيء لها في جزر « دوديكانيز » أو في طرابلس و « أيرترية » مقابل ما ترى لبريتانيا العظمى من نفوذ في البحرين المتوسط والأحمر . والدولتان السكسونيتان تتفان الآن من فرنكو ذلك الموقف اللين لانهما قد محتاجان إليه لتهديد فرنسا إذا ما قوى فيها الاتجاه الشيوعي نحو روسيا . وإذن فالعالم لا يزال هو العالم : الانانية طبيعته ، والتنافس وسيلته .

محمد عزمى

شهرية المسرح

رسالة من باريس

موسم التمثيل

ليس من اليسير أن نستعرض في إلمامة الموسم التمثيلي في باريس ، وذلك لأسباب عدة : منها أن هذا الموسم يبدأ عادة أواخر شهر أكتوبر أو أوائل نوفمبر ، ولا ينتهي إلا وسط الصيف في آخر أيام شهر يونيو أو أول أيام يوليو حين يشتد القيظ ، فتبلغ الحرارة ٣٥ درجة في الظل . فامتداد هذا الموسم يقيم صعباً عسيرة . هذا فضلاً عن أن كثيراً من المسارح تغير برنامجها خلال الموسم . والعقبة الثانية في سبيل دراسة الحياة المسرحية في باريس دراسة جلية واضحة ترجع إلى وجود نحو من خمسين مسرحاً في العاصمة ، وقد استبعدنا بطبيعة الحال ، الأوبرا ، والأوبرا كوميك ، والجيتي ليريك ، وكثيراً من المسارح الاستعراضية ، والملاعب الشعبية ، والكازينوات ، وما يسميه الفرنسيون « غلب الليل » ، وهي المسارح الصغيرة المعدة للفناء المضحك ، وغير هذه من الملامح المختلفة التي يرتادها الجمهور لقضاء عصر يوم من الأيام أو مساءه . فإلى جانب امتداد الموسم التمثيلي امتداداً طويلاً ، نجد لهذا الموسم مظاهر لا تحصى ، وترجع إلى العدد الهائل من المسرحيات التي تمثل . وأخيراً ، وقد تكون هذه العقبة من أشد العقبات ، فليس بين هذه المسارح المختلفة أقل وحدة ، أو أقل تناسقاً . ومرد ذلك إلى شخصية مديريها الذين يقررون اختيار المسرحية التي تعرض ، وإلى اختلاف الممثلين الذين ، سيقومون بأدوارها ، وإلى تنوع عرض المناظر والملابس والضوء ، أي إلى مجموعة العوامل التي تطبعها بطابع خاص . على أن هذا التباين العجيب في الموضوعات وفي الأساليب وفي موهبة الممثلين بل في الجمهور نفسه ، هو الذي يرجع إليه ما يمتاز به الموسم الباريسي من رونق وازدهار ، شأنه شأن الماس الذي ترتفع قيمته ويزداد بريقه بتعدد وجهاته . يتبين من ذلك كله الصعوبة التي يلقاها من يريد أن يصور لقراء بعيدين تصويراً تراعى فيه بعض الدقة ما يعثر الآن في عاصمة الفنون والآداب !

١ — سنبدأ بالحديث عن المسارح التي تسمى « بالمسارح الوطنية » لأن الدولة تمنحها إعانة . وفي باريس مسرحان من هذا النوع فيما يتصل بالتراجيديا ، والكوميديا (١) وما « المسرح الفرنسي » الشهير ، ويطلق عليه في بعض الأحيان اسم « الكوميدي فرانسيز » وفي أحيان أخرى اسم « بيت مولير » . وعلى الضفة اليسرى لنهر السين مسرح الأوديون القديم (وقد جمع للمسرحان حديثاً تحت إدارة واحدة) . ولا نريد أن ندخل في تفاصيل نظامهما ، وحسبنا أن نقول إنهما تابعان للحكومة ، وإنهما لذلك مصطبغان بصبغة رسمية ، وإن

(١) « الأوبرا » و « الأوبرا كوميك » معتبران أيضاً من « المسارح الوطنية » ، ولكن لا يمثل فيهما ، بل بهما غناء ورقص .

شهرية المسرح

ممثلها يختارون عادة بين الممتازين من خريجي معهد التمثيل ، وهذا المعهد نفسه منشأة وطنية . ويستثنى في بعض الأحوال من شروط الاختيار ممثلون موهوبون قد برعوا في قتهم وجذبوا الأنظار إليهم واكتسبوا حظاً كبيراً من ذبوع الصيت ، فيرقون ويصبحون موظفين في الكوميدي فرانسيز أو شركاء بها . وقد عومل على هذا النحو للممثل الشهير ريمو الذي كثيراً ما أتيح للجمهور المصري مشاهدته والاعجاب به في الأفلام الفرنسية التي عرضت في مصر . والواقع أنه ضم إلى الكوميدي فرانسيز في عهد الاحتلال ، ولم يمثل إلا في رواية « البورجوازي النسيب » (١) الكوميديا الشهيرة التي ألفها مولير ، وكان هذا من ثلاث سنوات . ولم يظهر بعد ذلك على مسرح الكوميدي فرانسيز منذ ذلك التاريخ .

ولهذين المسرحين بطبيعة الحال برنامج محدد ، يتراوح بين الروايات الكلاسيكية والروايات الحديثة . وهذه الروايات الأخيرة تخضع في اختيارها لكثير من الاعتدال ومن التدقيق ؛ لأن هذا المسرح قد جرى على الاحتفاظ بمستوى تمثيلي ممتاز يحرص الفرنسيون على استبقائه حرصاً شديداً . فليس من السهل دائماً الاستقرار على قيمة مؤلف مسرحي معاصر ، أو تقرير أن آثاره التي يعلن عنها إلى جانب آثار راسين أو موسيه ، مصيرها البقاء ، وسيعتبر مرحلة ممتازة في التاريخ المجيد للمسرح الفرنسي فيحتل مكانه في هذا اللون من ألوان الأدب . على أن الاختيار لا يصيبه التوفيق دائماً . مثال ذلك أن الكوميدي فرانسيز كانت منذ عهد قريب تمثل للمرة الثامنة والعشرين منذ سنة ١٩٣٩ رواية من تأليف مسيو بول راينال عنوانها « تعذب في عهد بونس بيلات » ، أقل ما يقال عنها أنه مشكوك في قيمة موضوعها (وهو يرمي إلى رد اعتبار يهوذا بطريقة ماهرة على هامش الانجيل) وفي صفاتها الأدبية بل المسرحية ! ومسرح الأوديون من ناحيته عرض تمثيلية عنوانها « أسطورة معاصرة في ثلاثة عهود : طولون » تأليف مسيو جان ريشار بلوك ، وهي تصور إغراق الفرنسيين لأسطولهم في ذلك الميناء سنة ١٩٤٢ . وليس ضعف الرواية مقصوراً على أسلوبها (في الحوار والقطع الطويلة) وعلى تأليفها والحركة فيها ، بل إن الفكرة التي أوحى إلى الكاتب بهذا الموضوع أقرب إلى الدعاية السياسية منها إلى الأدب أو الفن . لذلك رأينا ذات مساء بعض الطلبة قد استقر رأيهم على أن يهوشوا على التمثيل حتى تسحب الرواية نهائياً ، لكنهم لم يفلحوا في تحقيق غرضهم ؛ فان جمهوراً كبيراً من النظارة لم يشاركهم في وجهة نظرهم واعترض على ضجيجهم ، ليل هذا الجمهور إلى الخلط بين الوطنية والأدب الرفيع .

ونظراً للظروف التي عرضناها ، والتي يدعن لها كل من الكوميدي فرانسيز و الأوديون فإنه يندر عرض روايات جديدة في هذين المسرحين . ومع ذلك فقد عرضت بعض الروايات الجديدة في هذه السنوات الأخيرة . ثلاث منها تستحق الذكر ، مثلت في الكوميدي فرانسيز . أولاهما « الحذاء الحريري » تأليف الشاعر الكبير بول كلوديل (وهو اليوم الشاعر الكبير الوحيد بعد وفاة بول فاليري) . وهي تتطلب إخراجاً خاصاً جداً ، ويمتد تمثيلها لوقت طويل يقرب من خمس ساعات ، لذلك مثلت أثناء الحرب ، ولم يستأنف تمثيلها بعد . ثانيتهما « رينو وأرميد » وهي تراجيديا شعرية مستقاة من القرون الوسطى لشاعر آخر معاصر هو جان كوكتو ويظهر أنها لم تنجح نجاحاً كبيراً . ولعل

(١) Le Bourgeois Gentilhomme

شهرية المسرح

بعض السبب يرجع إلى شخصية المؤلف الغريبة . وآخر هذه الروايات « انطوان و كليبواترا » تأليف شكبير ، في الترجمة الرائعة التي قام بها أندريه جيد . وهذه التراجيديا العظيمة التي نقلها الكاتب الفرنسي الشهير إلى الفرنسية في شكل رائع تمثل على وجه التقريب كل أسبوع . والاخراج ، وقد تولاه الممثل جان لوى بارو (وهو من أذكي ممثلي الكوميدي فرانسيز) يمتاز بقوة التي تمثيل . حدث بسيط جداً عالمياً تفسره الحياة . ومناظر القصة تمثل الاسكندرية في عهد البطالسة ، مما هياً للرسام جان هوجو (وهو من حفدة الشاعر العظيم) أن يتدع مناظر خلابة ، وملابس نخمة وأضواء بارعة . ويساهم في عظمة هذه المسرحية إلقاء الممثلين الرائع الاثنان (هذا الإلقاء الذي اشتهر في العالم أجمع وكسب الكوميدي فرانسيز هذا الصوت البعيد) . والموسيقى البديعة التي وضعها لهذه الرواية المؤلف للموسيقى المعاصر جاك إيبيير .

على أن جميع حفلات الكوميدي فرانسيز ليست مع الأسف بهذا القدر من الامتياز . فهذا المسرح يشكو منذ أن حررت فرنسا أزمة خطيرة جداً لم تعالج بعد ، وقد دفعت الكثيرين إلى الكتابة عنها ، وشنفت الصحافة الباريسية ، فان الفرنسيين يعنون بالمسائل المسرحية عناية خاصة مثلهم في ذلك مثل الآثينيين في عصر بريكليس . ومصدر هذه الأزمة أن الموظفين والشركاء في الكوميدي فرانسيز يرون أن مرتباتهم غير كافية ، فيتجهون اتجاهات متزايدة نحو السينما ذى الأجور المرتفعة ، والذي يجعلهم ، بسبب ذبوعه العجيب يظفرون في سر بشهرة عظيمة ، لا يصلون إليها إذا اقتصروا على إخلاصهم لذكرى مولير وبيتيه . ومما لا ريب فيه أن أسماء مثل تالما وراشيل ومونيه سولي وساره برنار لم تدع في العالم كله لأن أصحابها كانوا ذوى موهبة نادرة فحسب ، بل لأن الفلم لم يكن وصل بعد إلى الخفض من مستوى الفن وإلى قلب بعض التيم التي كان يظن أنها استقرت استقراراً نهائياً . فليس من اللبسور لأي شخص أن يشاهد في الكوميدي فرانسيز مسرحية لكورنى أو راسين ، وعلى العكس من ذلك في وسم جميع الناس أن يشاهدوا بت ديفيز أو كلارك جابل ، ومع ذلك فن الخير من الناحية الثقافية بل من ناحية للمتعة الفنية ، مشاهدة النوع الأول دون الثاني . هذا هو السبب الذي من أجله يستقيل بعض الممثلين والممثلات استقالة نهائية ، على حين لا يدعن غيرهم لأنظمة هذا المسرح ، أو لا يحفظون الأدوار التي يعهد بها إليهم إلا حفظاً سطحياً لا يتكلفون فيه أية عناية ، أو يخلقون على المسرح شخصيات رديئة ، فقد فقدوا الاقتناع الايمان اللازمين لنجاح الرواية . وأضرب مثلاً لذلك : فبناسبة مرور ثلاثمائة وأربع وعشرين سنة على تاريخ ميلاد مولير مثلت الكوميدي فرانسيز رواية « عدو الانسان » (١) وكانت طريقة تمثيل هذا الأثر الفني الرائع مخيبة للآمال ، لم تنفق إطلاقاً والتقاليد الجيدة لهذا المسرح الذي كان يعتبر إلى عهد قريب أعظم مسرح على الأرض وأشهره .

٢ — أما وقد ألمعنا بالمسارح الوطنية فسننتقل إلى غيرها ، ويبلغ عددها نحو ثمانية وأربعين ! وهي التي يطلق عليها إجمالاً اسم « مسارح البولقار » مع ملاحظة أنها تسمية خاطئة ، إذ أن عدداً كبيراً منها بعيد عن البولقار ، بل إن بعضها قائم على الضفة الأخرى للسين . أما الروايات التي تمثل أثناء هذا الموسم فتقتصر عادة على رواية واحدة في كل مسرح تبدأ في

(١) Le Misanthrope ، مثلت مساء يوم الثلاثاء ١٥ يناير ١٩٤٦ .

شهر نوفمبر أو ديسمبر ، ويواصل تمثيلها حتى نهاية الربيع أو حلول الصيف . ولا تضطر الإدارة إلى تغيير برنامجها إلا إذا كانت الرواية لا تجذب جمهوراً كافياً ، وهذا لا يحدث الآن في أى مسرح للأسباب التي سنوردها في نهاية هذا الحديث . وللتمييز بين الروايات سنعرض تباعاً للمرحيات المستعادة ، ثم المؤلفات المترجمة أو المقتبسة من الخارج ، فالروايات الحديثة التي وضعها كتاب ذوو قيمة (وهم في معظم الأحوال فلاسفة أو شعراء ، وقلما يكونون روائيين حقيقيين) وهي لذلك مقصورة على نخبة ممتازة من الجمهور ، وأخيراً الروايات التي توضع وتمثل للترفيه عن جمهور كبير جداً ، والتي لا يقصد منها إلا قضاء ساعتين أو ثلاث ساعات من الوقت .

أولاً — الروايات المستعادة :

ولنفرق بادئ الأمر بين ما يستفاد من الروايات الكلاسيكية وما يستفاد ومن الروايات التي وضعت قبل هذه الحرب أو منذ نحو ثلاثين عاماً .

ففي الحى اللاتيني مسرح ضئيل اسمه النوكتامبول على مسافة خطوتين من السوربون الوقور ، فرقة محببة من الشباب للتحسين . وهي تمثل مندبضة أساييس رواية « المضيّف » تأليف موليير ، وتلتزم في تمثيلها أمانة تامة لهذه الرواية الخالدة ، وترعى بصفة خاصة في إخراجها ومناظرها وملابسها إلى الرفع من شعر المؤلف وإظهار قيمته ، على حين تقوم في مسرح موتبارناس الذي يديره جاستون باتي الممثلة المغرورة « مارجريت جاموا » بتمثيل أبداع دور في مسرحية « لورينزا تشيو » . تأليف الفريد دي موسيه على أسوأ الوجوه . وتصور مسيو باتي للفن المسرحي يختلف كل الاختلاف عن تصور الممثلين الشبان في النوكتامبول فانه يضحى بالحوار في سبيل إخراج ممتاز بلا شك ، ولكنه أقل امتيازاً من نثر الشاعر الرومانتيكي العظيم ومن آرائه الفلسفية .

وهذه الاستعادات من المرحيات الكلاسيكية كثيراً ما يريد بها أصحاب المسارح الصغيرة أن يثبتوا أن في وسعهم إجادة تمثيلها على نحو يضارع تمثيل الكوميدي فرانسيز أو الأوديون ، إن لم يتفوق عليه . (وهذا صحيح أحياناً ، وكان صحيحاً على كل حال فيما يتصل بممثلة عبقرية هي ساره برنار) . كما تستعاد أيضاً مسرحيات معاصرة ثبت نجاحها . فيمثل مسرح هيبيرتو رواية « الديوث العظيم » ، وهي دعابة مضحكة لا تخلو مع ذلك من عمق بيسكولوجي ، وضعها الكاتب البلجيكي فرنان كرومليوك بعد الحرب العالمية الأولى بمدة وجيزة ، وهي بعض قصة زوج تأكله الفيرة إلى حد أن يلزم زوجته بحجباته حتى يصل بذلك إلى يقين يرجو أن يكون أشد إراحة له من الشك وما فيه من كرب أليم ، ولكن بعد أن يصل عن طريق ما بذل من جهد شنيع إلى هذا العمل الجنوني العجيب ، يجد نفسه أعظم بؤساً مما كان قبلاً . وقد استعيد في الجنائز (وهذا فعلاً من مسارح البولقار) رواية « الآباء للزيجون » تأليف جان كوكتو . وهذه التراجيديا الحديثة القوية كانت قد أخرجت مدة وجيزة قبل الحرب ، وسريعاً ما وقفت إزاء السخط الذي أثارته ، لأنه رثي أنها مخالفة للخلق مخالفة فاضحة . وموضوعها أن أمّاً بها بعض الشذوذ تحب ابنها إلى حد لا تطيق وجود امرأة معه ، وحين تعلم بوجود خلية له تنتحر . واليوم ، وقد قضت فرنسا خمس سنوات بين حرب واحتلال وبعد أن مرت بجميع ألوان الاضطراب المأدى والمعنوي ، يقبل الفرنسيون على

شهرية المسرح

هذه القصة . و نستطيع عن طريق هذه الاستجابة الجديدة الصادرة عن جمهور جديد أيضاً أن نقيس المسافة التي تفصل عقلية فرنسي سنة ١٩٣٨ عن تلك التي ظهرت بها سنة ١٩٤٦ .

ثانياً — الروايات المترجمة أو المقتبسة من الخارج :

بعد أن حررت باريس مباشرة ، أي في نهاية صيف سنة ١٩٤٤ ، أسرع رجال المسرح إلى إخراج روايات كان يستحيل عليهم تمثيلها أثناء وجود الألمان ، أي روايات المسرح الانجليزي والأمريكي ولا سيما الروسي ، وبصفة أخص الروايات التي تكون من وضع كاتب إسرائيلي أو إسباني جمهوري ، أو أي كاتب آخر عرف بمناهضته للفاشية . وإذ نحت فرنسا هذا النحو أرادت في الوقت نفسه أن تشكر محرريها وأن تكرم الأدب المسرحي الأجنبي . لذلك رأينا ، وفي بعض الأحوال لا تزال نرى ، رواية « مقتل في الكاتدرائية » من تأليف ت.س.اليوت تمثل في القيو كولومبيه و « مرتفعات ويذرنج » المقتبسة من رواية إميلي برونتي ، و « تحول خطر » تأليف ج. ب. بريستلي في مسرح لوفر . وتخرج بعض المسارح من وقت لآخر مسرحيات قصيرة للكاتب الروسي أنطون تشيكوف ، منها « الدب » و « مساويء التبغ » و « عيد ميلاد المؤسسة » .

على أن التمثيليات الأسبانية هي التي تلي أشد الرواج ، سواء في ذلك رواياتها الموضوعة في القرن السادس عشر (« السلستين » التي تمثل في مسرح البالاس) والأحدث منها (« ألفاظ إلهية » وتمثل في مسرح الماتوران) وهاتان الروايتان للشاعر المعاصر فيديريكو جارسيا لوركا الذي قتله أنصار فرانكو رمياً بالرصاص سنة ١٩٣٦ ، وهما « بيت برنادا » وتمثل في ستوديو الشانزليزيه و « ماريانا بينيدا » في مسرح روشفور . وأولاهما دراما عنيفة تصور لنا « برنادا » وهي امرأة عجوز مستبدة ، فقدت زوجها ، فتتولى على أثر ذلك شئون منزلها وبناتها الخمس وخادمتها . والوقائع كلها تحدث في هذه الغرف أو في صحن الدار ، التي يسحقها الغيظ والصمت ، وبين هؤلاء النساء الثمان ، دون أن يظهر رجل أثناء الفصول الثلاثة ، وكبرى بناتها على وشك الزواج ، وهي قبيحة المنظر ، ولكن دافع المال قائم . وإحدى أخواتها تبادل خطيبها الحب ، فتحاول « برنادا » الطاغية أن تحبس ابنتها ، فتجنق هذه الأخيرة نفسها . وستتخذ المنزل الحداد لمدة ثمانية أعوام . والقصة كلها مركزة في الجو المتوتر الذي يغمر هذا المسكن الضال في قرية صغيرة من قرى أسبانيا حيث لا تزال بعض التقاليد العائلية القديمة جداً قائمة .

ثالثاً — التمثيليات الجديدة :

والواقع ان التمثيليات التي تكسب خطورتها من موضوعها أو قيمتها الأدبية ، قليلة الآن في باريس . ولعل تفسير ذلك أنه على أثر هذه السنوات القائمة يشعر الناس بالحاجة إلى الاسترسال والضحك . نعم إن رواية « أنتيجون » التي كتبها أنوى استمر تمثيلها أكثر من سنة (وقد مثلت حديثاً في القاهرة) ، هذا على الرغم من أنها ليست في مستوى رواية كوكتو ، بل لا تقاس من بعيد إلى ذلك الأمر الرائع الخالد الذي وضعه سوفوكل . ولكن عرض هذه الرواية يرجع إلى أسباب سياسية وطاقية أكثر مما يرجع إلى أسباب فنية بحجة ، فقد رأى الباريسيون أن النزاع الذي يقع بين الطاغية كريون وأنتيجون الحرة ، يذكر

شهرية المسرح

بذلك الذى يقع بين النازية والديمقراطية ، وبين الطغاة والمضطهدين ، وهذا ما دفعهم إلى أن يتجسروا للرواية مثل هذا النجاح .

بقيت رواية « كاليجولا » للكاتب ألبير كامو وقد اتخذ الكاتب حجة من الجنون الذى يذكره التاريخ عن الامبراطور الرومانى ، فحاول أن يبين ما يصل إليه رجل يريد أن يكون حراً حرية مطلقة ، أو بالضبط يريد أن يحرر نفسه من كل شيء . فهو يبدأ بتكديس السخافات ، ثم بتكديس الجرائم ، ولا يشعر بالخلاص حقاً إلا حين يموت . وهى دراما متقنة الكتابة قوية التركيب ، ولكن موضوعها ليس جديداً . وحسبنا من ذلك أن نقرأ رواية إيسكولوس المسماة « بروثيوس منلولا » . وهذه الرواية التى تشبه التراجيديات دون أن تخلص لها قد غلب عليها التفكير البحت ، ففى من أجل ذلك لا تلقى إلا نجاحاً ضعيفاً .

وليس فى هذا الموسم المسرحى إلا حدث تمثيلى واحد حظير ، وهو عرض آخر قصة تركها جان جيرودو . وقد أخرجها كريستيان بيرار إخراجاً رائعاً ، وقدمها الممثل المخرج المدير الشهير لوى جوفيه . وهذه النصّة وعنوانها « مجنونة شايبو » تجذب إليها عدداً عظيماً من النظارة بحيث يصعب جداً مشاهدتها فى الوقت الحاضر ، إن لم يكن ذلك من المستحيل . ولما كان جيرودو أبرع المؤلفين فى المسرح الفرنسى للعدة التى وقعت بين الحربين ، فقد اتخذ المتكفرون وسيلة من وسائل الفرور ، وأصبح حديث الصالونات الباريسية مقصوراً على هذا الكاتب .

رابعاً - التمثيلات الخفيفة :

أما الكوميديا والفودفيل والمناظر الاستعراضية ، فحسبنا أن نمر بها مرأً سريعاً . وهى مناظر جيدة التأليف والعرض فى كثير من الأحوال ، وتسبح بقضاء بضع ساعات مرضية جداً فى المساء أو بعد ظهر أيام الاحاد . وهى من أسهل الأنواع التى تعرض على المسارح ، لذلك تجذب إليها أكبر الجماهير . ويكفى أن نذكر لذلك مثلاً واحداً ، ففى مسرح الباليه رويال مثلت رواية « مومو » أكثر من ثمانمائة مرة .

وإذا أردنا أن نستخرج خلاصة لكل هذا ، فينبغى أيضاً أن نتحدث فى تفصيل عن شخصية الممثلين ، ومقدار اشتهارهم ، وأوجه نشاط المديرين والمديرات (فكثير من المسارح الباريسية يديرها نساء) ، وأخيراً عن النقاد المسرحيين الذين يكتبون عن تلك الروايات كل يوم فى جميع الصحف والمجلات الأسبوعية والشهرية وغيرها . ونظراً إلى أن صحف العاصمة لم يبلغ عددها فى يوم من الأيام ما بلغه فى الوقت الحاضر ، فإن فى هذا مجهوداً جباراً يقتضى ساعات عدة من القراءة وجمع المذكرات ، فضلاً عن أنه لا داعى إليه لأسباب : منها ، أولاً أن من الخير أن يذهب الانسان ، كلما استطاع ذلك ، فيشاهد بنفسه جميع الروايات المهمة : ثانياً : أن معظم هؤلاء الصحفيين ليسوا أهل خبرة ، بل هم قليلو الدراية بشؤون المسرح مع استثناء مسيو روبيير كى محرر جريدة « لى موند » ، فقالاته كلها تتم عن ذكاء عميق وثقافة واسعة جداً ، وهو فى الوقت الحاضر بمثابة فرانيسك سارسيه أو جول ليمير فى عصرهما .

ولكن إذا كانت دراسة الممثلين والمديرين والنقاد المسرحيين تدفع بنا بعيداً جداً ، فإن أقصر طريق وأضمنه لنكون لانفسنا فكرة دقيقة عن موسم سنة ١٩٤٥/١٩٤٦ وعن العقليّة

شهرية المسرح

الجديدة التي تغمر المسرح سواء فيما يتعلق بالممثلين أم بالنظارة ، هو أن تقمص بعض الشيء الجمهور الحالي وندرس انفعالاته . نلاحظ أولاً أن المسارح في باريس لم تلق يوماً مثل الاقبال الذي تلقاه الآن ، وذلك على الرغم من الحفلات الموسيقية العديدة ، بل على الرغم من العدد الكبير لصالات السينما في العاصمة . والحصول على تذكرة في المسرح يعتبر في الوقت الحاضر من المشكلات ، إذ ينبغي أن تتخذ العدة لذلك قبل شهود التمثيل بأيام ، ثم يجب انتظار الدور أثناء ساعات أمام شباك التذاكر . « فالعدد كامل » كل مساء . هذا فضلاً عن أن ثمن التذاكر مرتفع جداً ، فلا يمكن الحصول على قوتيل أوركستر جيد بأقل من مائة وخمسين فرنكاً . وأى قوتيل حقير يتراوح ثمنه بين ستين وثمانين فرنكاً . وهذا الاقبال العجيب على المسرح يرجع إلى ثلاثة أسباب على الأقل :

الأول ، سبب عام يقوم في جميع الأوقات وبالتياس إلى جميع البلاد ، ذلك أن المسرح قد اتخذ مركزاً وسطاً بين أرفع أسباب الترفيه مثل الموسيقى أو معارض الرسم والتصوير أو المحاضرات الأدبية والعلمية ، وبين أنواع التسلية البتذلة مثل الشرك والاستعراضات الشعبية وصالات الرقص ، وبصفة خاصة السينما منذ أكثر من ربع قرن . فهو لذلك يرضى حاجة عدد كبير من الناس المتنوعين إما إلى صفوة مثقفة قوامها الأرستقراطية والبروجوازية الكبيرة أو جمهور متوسط من البروجوازية الصغيرة أو من أبناء الشعب الذين يرتقون شيئاً فشيئاً عن مستواهم الاجتماعي .

والسبب الثاني لهذا النجاح العظيم الذي تلقاه المسارح الباريسية يرجع إلى الظروف الخاصة التي مرت بها فرنسا . فعلى أثر خمس سنوات طوال ملأى بالآلام وبمختلف ألوان الحرمان والدموع والدماء ، والهدم والحداد ، يشعر الشعب بحاجة ملحة إلى الترفيه عن نفسه وإلى التسلية والليسان . وهذا شعور طبيعي ومشروع .

والسبب الثالث الذي يدفع هذا العدد العظيم من النظارة يرجع أيضاً إلى الحرب . فبفضل هذه الحرب أثرى كثير من الناس عن طريق التجارة والسوق السوداء وعمليات مالية متنوعة . فبين أفراد الجمهور الباريسي في الوقت الحاضر عدد كبير من المحدثين ومن أثرياء الحرب .

الآن وقد استعرضنا الأسباب التي تقرر ازدحام المسارح بالنظارة ، بقي علينا أن ندرس النتائج التي تنشأ عن ذلك فيما يتعلق بتطور الذوق ، وأن نبحث عن تعليل ما يلاحظ من اتجاه نحو السهولة والابتذال في موسم مثل هذا الذي نتحدث عنه .

وبديهي أن أية أزمة سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية لها تأثيرها في ميادين الخلق والفنون والآداب . فإما دامت أمام فرنسا مشكلات تحتاج إلى الحل وتتصل بنظامها السياسي وهيئتها الاجتماعية وتجاريتها ، فإن للمسرح سيتأثر حتماً بهذه الظروف .

ثم إن من الطبيعي أن يؤثر ذوق الجمهور في المؤلفين والمديرين والممثلين . فهوارة التمثيل المحدثون الذين أشرنا إليهم يدفعهم إلى هوايتهم ميلهم إلى الظهور وقدرتهم على الاتفاق . فإذا ما ذهبوا كل مساء تقريباً إلى المسرح واتخذوا لأنفسهم أغلى الأماكن ، استطاعوا أن يظهرُوا مبلغ ثروتهم ومركزهم الاجتماعي . وعلى ذلك فلا يهم ما يجري على المسرح ، ولهم أن يتحدثوا موضحاء ، وأن يتحدثوا بصوت مرتفع ، ويفركوا الورق الشفاف الذي تلف به طب الخلود . وما داموا قد أتفقوا من أموالهم فإن لهم جميع الحقوق .

شهرية للمسرح

لذلك يلاحظ (وهذا ما يدعو إلى الأسف) أن المؤلفين والمخرجين والممثلين ينزلون إلى مستوى هؤلاء النظارة الذين أوجدتهم الحرب ، والذين لا حظ لهم من ثقافة فيقتنعون بالقليل . وهذه العوامل الاقتصادية تنتقل انتقالاً متزايداً من الجمهور إلى رجال المسرح . فان المسرحيات الجيدة النادرة التي لا تتم إلا عدداً قليلاً من النظارة الممتازين ، لا تسمح للمديرين الذين تولوا إخراجها ولا للممثلين الذين قاموا بتمثيلها بتغطية نفقاتهم ، فضلاً عن الحصول على أرباح . وأوضح نتيجة لهذه الحالة أن مثل هذه الحاجة التي ترضى في سر تستتبع حتماً قداناً تاماً لروح النقد ، وانحطاطاً للذوق في إصدار الأحكام ، ويشمل هذا جميع الناس . فليس أقدر على العدوى من التصفيق . ونرى الآن إسرافاً عجيباً فيما يقدم من مدح وثناء لمسرحيات لا قيمة لها ولممثلين رديئين .

وهناك أمر آخر يدعو إلى الأسف . فأمام الموقف السلبي القانع الذي يتخذه الجمهور وأمام جوده الراضى لا يشعر الممثل بالدافع الخلقى الذى يحتم عليه إجادة التمثيل ولا تعدو مهنته أن تكون مصيدراً من مصادر كسب العيش . وهذا هو الخطر الجدى الذى يهدد المسرح فى فرنسا ؛ فان هذا المسرح عرضة للتحويل إلى مشروع اقتصادى واسع ، إلى اتجار بالفكر ، إلى مساومة محزنة للأدب والفنون .

ولا نريد أن نختم هذه الالامة بهذه النظرة القائمة ؛ ففى باريس التى لا تزال تثقلها أعباء الحرب ، تأثر بعض المفكرين النابيين من هذا الانخفاض المعنوى من مستوى المسارح هذا العام ، وبادروا ببذل ما فى وسعهم من قوى ليعيدوا تنظيم المسرح الفرنسى ويرفعوه إلى المستوى الذى طالما اشتهر به حتى الآن . فالمؤلفون موجودون وكثيرون . وحسبنا أن نذكر أسماء جان كوكتو ، وجان أنوى ، والبير كامو ، وجان بول سارتر ، بل فرانسوا مورياك نفسه الخ . . . أما الممثلون فعددهم لا يحصى . وإذا تقصتهم العبقرية فان لديهم على الأقل كثيراً من الخبرة والمرانة ، ولدى الشباب منهم كثير من الموهبة والحماسة . وهناك كثير من الممثلين قد اتفق على قيمتهم ، نذكر منهم بين النساء وبترتيب السن : مارجريت مورينو ، ومارسيل جينيا ، وجيرمين ديرموز ، وجابى مورلاى ، ومادلين رينو ومارى بل . أما الرجال فنهم : ريمو ، ولوى جوفيه ، وبيير بلانشار ، وبيير دو كس ، وكلود دوغان ، وبيير براسور ، وريمون رولو . ومن بين الممثلين الذين ظهرت اثناء الحرب أهم من نذكر : ماريا كازاريس ، وجان دافى ، وبصفة خاصة جان لوى بارو ، ولم يكن معروفاً قبل سنة ١٩٣٩ ، فقد جمع بين مواهب ممتازة باعتباره ممثلاً ، وصفات نادرة باعتباره مخرجاً ومديراً مسرحياً . وكما أن جوفيه قد بسط نفوذه على المسرح الفرنسى فى المدة التى فصلت بين الحربين ، فيرجى أن يقوم الآن جان لوى بارو بعمل جديد عظيم رائع .

وأخيراً فان الفنانين أنفسهم كثيرون ، سواء منهم المخرجون والمديرون ، والمشرّفون على الملاضاء والمناظر والملابس والمالكياج الخ . . . وحسبنا أن نذكر اسم جان هوجو ، ذى المواهب الرائعة الفريدة والذى تعتبر تصميماته ورسومه للملابس من آيات الذوق والفن . فاذا ما تجمعت هذه المواهب المختلفة وأضيف إليها حسن الاستعداد والشعور بالواجب الذى ينبغى على السلف أن يزودوا به الخلف ، فشرارة واحدة تكفى لتتهب هذه المواهب وتضىء المسرح الباريسى بسطوع لا يضارع . وحين يشتعل هذا اللهب الذى سيجذب إليه

شهرية السينما

هواة التمثيل الاصليين ، والذى سيشارك في أن يعود إلى باريس اسم « مدينة النور » ، سيكون ذلك إيذاناً بأن العاصمة قد استردت أئمن الأشياء في الأرض ؛ لأن أصعب الأشياء إرضاء هو الذوق .

مؤنس طه حسين

باريس — فبراير سنة ١٩٤٦

شهرية السينما

لعبة الست (شركة أفلام الشرق الأوسط)

يعرض الآن في سينما ستوديو مصر شريط « لعبة الست » من تمثيل الأستاذ محيىب الريحانى والراقصة تحية كارىوكا . والأستاذ محيىب قد آثر في المدة الأخيرة المرح على السينما وحرم جمهوره من تمثيله السينمائى . ولا ندرى ما سبب هذا الإيثار مع أن شريطيه السابقين ظفرا بنجاح كبير .

وقصة « لعبة الست » قصة ظريفة تكثر فيها الفكاهة والنكت التى اعتدناها في تمثيلات الريحانى وبديع خيرى . يبدأ الفيلم في قاعة محاضرات في مدينة القاهرة حيث يدخل حسن أبو طبق مصادفة . وكان هناك شاب يلقي محاضرة عن السعادة وكيف يمكن أن يحظى بها المرء بالوفاء والاخلاص والاستقامة لا بالمال . ولم يرق هذا الحديث صاحبنا المتعطل ، فحاول أن يناقش المحاضر ، ولكن المستمعين يضطرونه إلى الخروج من القاعة ، فيخرج . وبينما هو سائر ، إذ تقع حادثة من سيارة كاد يذهب ضحيتها شيخ مسن ، فيساعده حسن على النهوض ، ويقوده إلى الرصيف . وبعد انصراف الشيخ ، يسترعى نظر هذا المتعطل قطعة نقود ذات الخمسة قروش ، فيلتقطها مبتهجا . ولكنه سرعان ما يلحظ أنها مزيفة ، ومع ذلك احتفظ بها . فتجلب له الحظ ، إذ يجد وظيفة بائع في محلات إيزاك عير ، وفي هذه الليلة يجد له أيضاً مأوى هو عبارة عن حجرة حقيرة على سطح منزل قديم . وبينما هو يعد حجرتة ، إذ تدخل عليه « لعبة » ، وهى فتاة هربت من منزل أبيها في يوم زفافها ، لأن خطيبها محمود بلالكا لا يروقها . فيخفيها حسن في حجرتة حينما يحضر الخطيب باحثاً عنها ، وتحدث بعد ذلك غارة جوية ، تقرب بين الشابين الفتى والفتاة ، وتضطر لعبة أن تقضى ليلتها في حجرة حسن ، بينما يتفق حسن ليلته على سطح الدار . ثم تمضى الأيام فيواتى فيها الحظ حسناً ولعبة . فهو ينال مركزاً محترماً في عمله ، بينما تصبح هى نجمة سينمائية ذات صيت بعيد ، فيتزوجان ويعيشان عيشة هنيئة لا يعكس صقوها إلا عمل لعبة في الاستوديو وغيره زوجها حسن أبو طبق . وفي ذات يوم سافرت لعبة مع أسرتهما إلى لبنان لأخذ المناظر الخارجية للفيلم . وأخذت ترسل كل يوم رسالة إلى زوجها ، ثم انقطعت رسائلها عنه ، وعاش حسن في جو قلق حزين . ذلك أن لعبة التقت في لبنان بثرى لبنانى — وجيه بك — عرض عليها الزواج ، وقد أفهم أنها غير متزوجة ، ويقضيان معاً في

شهرية السينما

ربوع لبنان ، وقتاً سعيداً . ثم تعود لعبة ، وقد أصبح اسمها فانتسا ، إلى القاهرة وتنتهي روحها حسن بأنها لا يطيب لها العيش معه ، وتطلب أن يطلقها . ولكنه يأبى لكي ينتقم منها لحياتها وغدرها ، ولأنه كان يحبها حب هيام ، ويعتقد أنها تبادل له حباً بحب ، وأن إعراضها عنه لم يكن إلا لارغام والديها لها أن تسلك هذا السيل لكي يتسنى لها أن تتزوج من وجيه بك الثرى اللبناني . وأخيراً يضطره إعراضها الشديد عنه أن يطلقها ، ويحدث أن يشتري حسن المحل الذى يعمل به من صاحبه فى الحرب ، أيام هجوم الألمان على العلمين ، وأن يعلم وجيه بأن محبوبته فانتسا متروكة ، وقد تركت زوجها من أجله ، فيأبى أن يكون سبباً فى هدم سعادة الزوجين ، فتعود لعبة إلى حسن تطلب إليه المغفرة مؤكدة له حبها وإخلاصها .

والقصة متقنة تمام الاتقان ، وإن كان ثمة مجال للنقد فى بعض نواحيها ، فكان يجب مثلاً أن يكون مغزى القصة مستوراً ، يستنبط من الحوادث نفسها . ولم يكن ثمة من حاجة إلى أن يلتجئ المؤلفان إلى بيان المغزى وإلقاء موعظة على النظارة فى الاخلاق .

والممثلون جيئاً أهل للثناء عليهم فى أداء أدوارهم . فالأستاذ نجيب الريحانى من الممثلين القليلين فى مصر الذين يتقنون فن التمثيل ، بل ربما كان الممثل الوحيد الذى يتقن الفن إتقاناً لا يشاركه فيه غيره . وقد أثبت صراراً فى مسرحياته وأفلامه مقدرته الفنية الفائقة . وهو علاوة على إتقانه للكوميديا ، ممثل قدير فى الدراما . والفيلم بالرغم من صبغته المرحية لا يخلو من مواقف مثيرة . وفى هذه المواقف تجلّى فن الأستاذ الريحانى الرفيع . وإذا كان المسرح فى مصر أخذاً فى النهوض ، فأعظم الفضل فى ذلك للأستاذ نجيب الريحانى ومجهوداته الجبارة . أما الآنسة نحية كاريوكا فهى بلا ريب أمهر راقصة فى مصر ، رشاقة وجودة فن . وقد أفعمت الفيلم بهجة ومرحاً بنائها ورقصها . وقد نأخذها بمحاولتها تقليد الراقصة كارمن ميراندا . فلابتعادها عن قها الأصل فى هذا المشهد ، بدت رقصتها فاترة كل الفتور . أما تمثيلها فقد لمسنا فيه شيئاً من الضعف ، يرجع إلى أنها حديثة عهد بالتمثيل .

وأحسن أيضاً الأستاذ عزيز عثمان فى دور خطيب لعبة إذ كان له حظ كبير من الاجادة فى غنائه وتمثيله .

ولن نؤدى إلى الباقين من الممثلين كسليمان نجيب بك وبشارة واكيم وحسن فايق وعبد الفتاح القصرى والسيدة ماري منيب حقهم من الثناء حين نمتدح تمثيلهم الموفق كل التوفيق .

صمى (مينزفا — ر . ك . و) (١)

لم نحرمنا الحرب للرحيقات الفرنسية لحسب بل حرمنا الافلام الفرنسية أيضاً ، نعم لقد استمتعنا بفضل « أصدقاء الثقافة الفرنسية فى مصر » وأصحاب سينما كورسال ببعض أفلام يرجع عهداها إلى ما قبل الحرب . ولكن كل هذا لم يكفنا وخاصة بعد أن سمعنا أن الافلام الفرنسية قد خطت خطوات حسنة ، وأنها من الناحية الفنية تضارع ما تنتجه السينما الأمريكية .

شهرية السينما

وجاء فيلم «العودة الابدية» للكاتب جان كوكتو آية فنية رائعة يثبت هذا التقدم . وقد تلتها أفلام أخرى إن لم تضارعه جمالا وروعة ، فهي على الأقل إنتاج حسن موفق . ومنها نذكر فيلم « حمى » الذي عرض في سينما أوديون .

في دير من أديار الجنوب في فرنسا ، قس شاب يمتاز عن زملائه بصوته الجميل . فهو للشرف على الموسيقى والتريل في الكنيسة . ولهذا القس مأساة دفعته إلى حياة التقشف والزهد .

كان في بادئ حياته مفتياً من المشهورين ، له زوج وديعة تحبه حباً جما ، وتسهر على سعادته وراحته . ولكن سرعان ما ظهر في حياته الزوجية ما فرق بينهما وأفسد هواءهما . ففي كل ليلة ينفي فيها في الأوبرا ، كان يرى في اللوح الأمامي امرأة جميلة اعتادت أن ترسل له مع الخادم خطابا تضرب له فيه موعداً . أهملت هذه الخطابات في بادئ الأمر . وفي ذات صباح كان الشاب يسجل أسطوانة في إحدى الشركات فوجيء بدخول هذه المرأة في قاعة التسجيل . فقطع غناءه وطلب إليها أن تنادر المكان . ولكنها أبت ، فاضطر هو إلى إرجاء عمله وانصرف بملاؤه الحلق على هذه المناسرة . غير أن سحر جمالها قد أثر في نفسه وأخذ بلبه ، فذهب إلى منزلها في المساء حيث قضى السهرة ، تاركاً زوجته يخالجها إحساس خيائته . وتعددت مقابلاته لتلك المناسرة ، وأهمل حياته الزوجية ، ونسى فنه أو كاد ينساه . وفي ذات ليلة أظهرت فيها عشيقته ميلا شديداً للشاب أسباني كان هو ينفذه اشد البغض ، فعاد إلى منزله مبكراً . فلقى طبيب العائلة مصادفة خارجاً من بيته إذ كان يعود زوجته . فأنبأه بأنها مريضة وأنها في حاجة إلى عناية شديدة وراحة تامة . فدخل الزوج منزله ويحجد زوجته وقد شحبت لونها من شدة التعب . فيعرض عليها أن يسافرا معاً . فرفض هي مشعرة إياه بخيائته وغدره . ولكنه يقسم لها أنه قد تاب وأناب ، ويعاهدها على الحب من جديد ، ثم يتفقان على أن يسافرا معاً . وتصادف أن غنى الزوج في الليلة التالية في حفلة خيرية ، وترك زوجته في المنزل تعاني آلام المرض . ولكنها لم تنس أن تستمع إلى زوجها . ويحفزها الشوق ان تذهب إلى الحفلة ، فتذهب . وحينما تصل إلى حجرة زوجها حيث كان يستريح ، تجده بين ذراعي عشيقته . ومن هول الصدمة ، تنصرف عائدة إلى منزلها على قدميها ، وكان المطر يتساقط شديداً . ويعلم الزوج أن امرأته حضرت ، وأنها رأتها في أحضان عشيقته ، فيمتنع أولاً عن الفناء من شدة اضطرابه ، ثم يعود فيعلن الجمهور أنه سينفي أعز أغنية عنده ، إذ أنها مهداة إلى زوجته المحبوبة . وفي هذه اللحظة كانت الزوج قد وصلت إلى منزلها مبللة للملابس فارتجت على سريرها صريعة المرض . ولما سمعت هذا الاعلان من المذيع نسيت خيانة الزوج وغفرت له . وبينما هي تستمع إلى تلك الأغنية التي تذكرها بحبهما في أول عهده تلفظ النفس الأخير .

وامام هذه المحنة ، يعتزل الزوج المسرح ، ويهجر باريس إلى قرية صغيرة على شاطئ البحر في جنوب فرنسا . وهناك يعيش سنتين مع صياد ارتبط معه بصداقة متينة . وكان هذا الصياد يهيم بقتاة من القرية ، ويريد الزواج منها . ولكنها كانت لعوباً مستهتره . فتسبب في شجار بينهما ينتهي بجرح الصياد جرحاً خطيراً . وقد أثر هذا الحادث تأثيراً بليغاً في نفس صاحبنا ، فدفعه إلى أن يقصد الدير المجاور للقرية ليقضي فيه بقية حياته .

وكان إخراج الفيلم جد دقيقاً . فالمناظر تامة لا ينقصها شيء من التفاصيل التي تخلق جو الرواية ويثبتها . والصور جميلة تدل على فن مترف ، وذوق سليم .

شهرية السينما

وقد مثل مسيو تينو روسي شخصية هذا المخني الشاب الذي وقع في شرك امرأة شريرة ، مهملًا زوجته حتى تسبب في وفاتها ، ثم ذهب إلى الدير ليجد راحة الضمير ويكفر عن ذنوبه . وشتان بين الشخصية التي رسمها مؤلف القصة ، والشخصية التي ساقها إلينا هذا الممثل الضئيل المواهب . كان فائراً في تمثيله لا يدري ماذا يصنع يديه ، ولا كيف يعبر عن شعوره بإيماءات أو نظرات أو ابتسامات هي الدليل على الألم بالفن المسرحي وعلى القدرة الفنية . وكانت تمثل إلى جانب مسيو تينو روسي مدام مدلين سولوني التي رآها الجمهور المصري في رواية « العودة الأبدية » وأعجب بها وقدرتها الرفيع . وبالرغم من أن دورها لم يطل فقد ملأت الفيلم بشخصيتها ، وأخذت على عاتقها النهوض بالرواية حتى تنقذها من إخفاق محتوم كان سيؤدي إليه تمثيل زملائها ، إذ أن مسيو تينو روسي لم يكن الوحيد الذي أخفق في تمثيله ، بل شاركته في هذا الإخفاق مدام جاكلين ديلوباك ، وكان عليها أن تمثل شخصية امرأة مستهترّة ، أرادت أن تتخذ من أحد المغنين المشهورين عشيقاً لها ، لا بدافع الحب ، بل لمجرد إشباع رغبتها . وثمة برود في تمثيلها ، يتناقى مع الدور الذي قامت به . لم تكن مغربة كما يجب ، ولا لعباً كما ينبغي . وكانت المشاهد الغرامية التي دارت بينها وبين تينوروسي خالية من الحرارة التي كانت تتوافر لو أن الممثلين كانا أقدر فناً وأحسن تمثيلاً . وكانت مدام جيتيت لكثير تمثل دور هذه الفتاة اللعوب التي حاولت أن تستأثر بصديق خطيبها فبثت بين الرجلين الشقاق الذي أدى بهما إلى مشاجرة دامية . كانت حقاً موفقة كل التوفيق في تمثيلها . وشتان بينها وبين مدام ديلوباك ، مع أن الدورين اللذين مثلتهما متشابهين كل الشبه . ولولا للموسيقى والأغاني التي كانت تتخلل حوادث الرواية لما احتل هذا الفيلم دار السينما ثلاثة أسابيع متتالية . ونذكر من المقطوعات الموسيقية قطعتين إحداهما Ave Maria للموسيق Schubert والأخرى من أوبرا Don Juan من وضع Mozart .

مأساة الوادي (مترو جلدوين ماير) (١)

من الأشرطة الأمريكية الجيدة التي قدمتها إلينا شركة مترو جلدوين ماير في هذا الموسم نذكر فيلم « مأساة الوادي » الذي مثله جريجوري بيك وجيرير جارسون . ويتوافر في هذا الشريط روعة القصة ، وحسن الإخراج ، وجمال التمثيل ، وقد استحققت جيرير جارسون لدورها في هذا الفيلم الجائزة الأولى للتمثيل في أمريكا عن عام ١٩٤٥ . تقع حوادث القصة عام ١٨٧٥ في بيتسبرج ، المدينة الصناعية ، حيث تعيش أسرة بات رافرتي العامل في مصنع الفولاذ الذي تملكه أسرة سكوت . وكان بات بسبب حادث أفعده ، يحقد على أصحاب المصنع الرأسماليين ، ويث بين العمال آراء الاشتراكية حتى نجح في حملهم على الاضراب طالبين الاعتراف بنقابتهم ورفع أجورهم اليومي وتحديد وقت العمل وما شاكل ذلك من المسائل المتصلة التي تفصل دائماً العمال وأصحاب العمل . وإلى جانب قصة العمال هذه ، قصة غرامية أخرى نقية طاهرة كان بطلها ماري ابنة الثائر

شهرية السينما

رافرتى ، وبيتر اين سكوت صاحب المصنع . ومن هنا يظهر لنا ما عترى هذا الغرام من مصاعب من جانب الاسرتين ، وما لقيه الفتى والفتاة من عذاب فى سبيل هئائهما . فقد أغضب هذا الغرام بات رافرتى الذى كان يحارب أسرة سكوت الرأسالية ، وساءه أن يرى ابنته تريد الزواج من أحد أفراد هذه الأسرة . كما لم يرق هذا الغرام لمسز سكوت بالرغم من عطفها الشديد على مارى . فأبعدتها مع ابنتها التى سافرت إلى إنجلترا مع زوجها . ولما علم الأب بالغرام الذى كان يربط ابنه وخادمته ، استدعى مارى من إنجلترا واستقبلها كما تستقبل أية سيدة ذات مركز اجتماعى محترم ، وبارك زواجها من ابنه . وحدث هنا أن قامت حركة العمال ، وحاولت مارى أن تهدى من حدة أبيها ، وتتوسط بين العمال وأصحاب المصنع لانهاء الاضراب . فلم تفلح ، إذ تدخل فى الحركة بعض المشاغبين ومنهم والد مارى فأطلق الرصاص وانتهت المعركة بموت بات رافرتى بعد أن لعن ابنته وذريتها ، وبموت رب أسرة سكوت أيضاً . كان لهذه اللعنات أثر سيء فى نفس مارى . فأبت أن تزوج من بيتر ، وطاشت منفردة . أما بيتر فقد تزوج فيما بعد من فتاة كانت تريد الزواج منه لاهيامها به ، بل طمعاً فى ماله . وقد عذبت عذاباً مراراً . وبالرغم من كل هذه الحوادث واصلت مسز سكوت العطف على مارى ، وأورثتها نصيبها من أسهم المصنع ، وطلبت إليها أن تحول بين خروج بقية الأسهم من أيدي الأسرة . وفعلوا حول الأخوة سكوت ، بعد وفاة الأم — ما عدا بيتر — أن يبيعوا الأسهم فأقنعت مارى بعضهم بالامتناع ، فامتلوا لنصحها ، وهكذا أُنقذت للمصنع وأبقت لبيتر الذى أخذ يديره بعد وفاة أبيه . ودبت الغيرة فى قواد زوجة بيتر ، فأهانت مارى فى حضرة زوجها . فاضطر هو أمام تصرفات زوجته وبنفسها له أن يطردها ، وواصل الحياة مع محبوبته .

وقيمة القصة فى الصور التى تقدمها إلى النظارة . فهى أولاً سجل لآراء يتيبتين مختلفتين إحداهما بيئة العمال والأخرى بيئة الرأساليين أصحاب المصنع ، وما تتج من احتكاك بين أولئك وهؤلاء . هذا إلى جانب الدراسات النفسية التى تملأ الفيلم . فكل شخصية من شخصياته يمثل حالة نفسية بيئية ، محللة تحليلًا دقيقاً . فهذه تمثل الفتاة فى سن المراهقة ، والعالم الذى تخيلته لتعيش فيه ، عالم كله سعادة وحب وهناء . وهذا مثال الشاب المستقيم الجاد فى عمله ، على حين يمثل الآخر الشاب المستهتر الذى لا يستغنى عن نشوة الخمر ليعيش .

والتصوير فى الفيلم دقيق متقن ، فالمنظر جميلة . فتارة نرى المصنع من فوق هضبة عالية فيبدو دقيقاً كأنه لعبة صغيرة ، وتارة تقترب الصورة فيبدو ضخماً هائلاً ينبض حياة ونشاطاً . هذا إلى جانب مناظر داخلية متقنة شاركت فى نجاح الفيلم نجاحاً تاماً .

أما التمثيل فيكنى أن نذكر ممثلى الفيلم لنعلم أنه كان فى الغاية من الابداع . ولا داعى للكلام عن فن جرير جارسون فقد تجلى منذ أمد بعيد فى الروايات التى عرضت علينا . أما جريجورى بيك ، فهو ممثل ناشئ وصل سريعاً إلى مرتبة الكواكب بتمثيله البسيط البعيد عن أى تكلف أو تصنع . وهو من الممثلين الأمريكيين القليلين الذين لا يستندون إلى وسامة اللطلة ، وأتانة لللبس لينالوا شهرة لا يستحقونها . وإنما اعتمد على التمثيل البارع ، والفن الرفيع .

مشرى لامل

من كتب الشرق والغرب

النقد في كتاب الموازنة

يعد كتاب الموازنة من أهم كتب النقد العربي ؛ لأن الصفة الغالبة عليه صفة المقارنة والتقدير ، لذا رأيت أن اكتب عن النقد فيه .
وسأبدأ بالكتابة عن شروط المتعرض للنقد عند الآمدي صاحب الكتاب ، ثم عن طريقته هو في النقد ، وأخيراً عن قواعد النقد في كتابه . وأنا في كل ما سأكتبه بين مؤيد أو مفسر أو مخالف .

شروط المتعرض للنقد

الفطرة والطبع — فلا بد أولاً من الطبع والقريحة ؛ فكل إنسان مستعد لجنس من العلوم ومن يصلح لهذا قد يفسد لذلك . ومعنى هذا أن الانسان يولد ومعه استعداده وعليه هو أن يتعرفه أو يتبينه أو يترك لغيره ذلك . اللهم ألا يخاطر بنفسه فيما لا يوائم ملكاته أو يزج بنفسه فيما لا يناسب قواه ؛ «إذ قد يتأتى جنس من العلوم لطالبه ويسهل ، ويمتنع آخر ويتعذر ؛ لأن كل امرئ إنما يتيسر له ما في طبيعة قبوله وما في طاقته تعلمه » . وبهذا يفضل أهل الخداقة بكل علم وصناعة من سواهم ممن تقتصت قريحته ولم يكن له طبع يتقبل به تلك الطباع .
الدراية والخبرة — وهي التجربة الذاتية للنقد والتجربة العقلية فيه . فالمفروض في الناقد المقوم لما بين يديه والحكم على ما يعرض عليه أن يكون منوع التجارب أكثراً منها فهي ثروته ومدده وهي قواعده وشواهدده وهي أدلته وبراهينه ؛ كلما زاد نصيبه منها كان حكمه أقرب إلى الصواب وكلما اختلف حظه منها كان ميزانه أدنى إلى العدل ، فلا يعود بعد ذلك فيج الرأى محدود الأفق ضيق النطاق جاهلاً بما بين يديه . بل لا بد من طول التجربة الذاتية للنقد وكثرة الممارسة له ولا بد من طول النظر في تجارب الخبراء فيه والعلماء به حتى يسهل ويتيسر .
الفطنة والتمييز — وهي الميزة العقلية . فلن يغنى عن الناقد كل ما تقدم ما انعدم عنده التأمل أو انعدم النظر ، بل لا مناص من مقدرة على الفهم والتعمق فيه ، ولا مندوحة عن إتمام البحث بعقل يحسن الوعي ويجيد الإدراك ؛ وبذلك يجعل من التأمل والنظر علماً مشمراً مفيداً .
فليس الناقد ناقداً بتوافر القريحة لديه أو بطول التجربة عنده ، بل هو كذلك بصفاء الذهن أيضاً وبسلامة التمييز والفطنة .

الانصاف — وهو الصفة الخلقية : فليس يكفي ذلك ، بل يستند ويعينه عليه مزية خلقية بكرامة ، لا بد منها ولا مفر ، وهي خلقية أن تتوافر له وحرية أن تلازمه . ثم هي أليق به

وأُنسب له ، حتى لا يتحكم فيه هوى طارىء أو تنحرف به نزعة جامحة . وهل أكرم لمن ينصب نفسه حكماً على سواه من أن يكون خالص النية برئ الغرض ، لا ينجاز بحكمه رغبة ولا رهبة ، ولا يخضع ضميره لمؤثر سوى الحق والصدق .

ثقافة الناقد — ولا ينسى الآمدى أن يرجع عليها وأن يجلوها بمقدرته ودقته ، فلا بد من سعتها وشمولها . فالناقد بوضعه الطبيعي أفسح مجالاً من المنقود وأشمل ، وأكبر ثروة منه وعدة . خبضونه تقارن الأنوار وبمقدرته تقاس المقدرات . وإذا لا بد له من إحاطة بالمنطق والفلسفة والجدل والفقه وحفظ اللغة ومعرفة لمقاييسها . ثم ما نعرفه نحن من إشارة الآمدى إلى الهندسة (ص ١٠٦ طبعة بيروت) تدلنا على سعة ثقافته هو وتنوعها ، وعلى اختلاف معارفه وتعددتها . ولن يصل المرء إلى ذلك بشير « المعاناة والمزاولة » مع العناية المتصلة حتى لا تكون هذه الثقافة مجرد قشور أو محض عبث بالعناوين . ويضع الآمدى بعد ذلك الثقافة في موضعها وراء الطبع وبعد القريحة ، فهي لن تجدى دونه ولا تفيد بغيرها .

وكأنما كان الآمدى يتكلم بلسان المحدثين حين راح يعدد شروط الناقد هذه . تلك الشروط التي يجب أن تتوافر دائماً في كل الناقد وفي جميع العصور وعند جميع الأمم . فالآمدى هنا يستحق التأييد والاعتبار إذ أثبت شيئاً كتب له البقاء . بل لقد يندر أن يجمع ناقد وحده كل تلك الشروط الواجبة دفعة واحدة وبمثل هذا الفهم الواضح والدقة الكاملة .

طريقة في النقد — وهي أن يعرض البيت من الشعر أمامك بعد أن يكون قد انزعه من يتيته . قلما يذكر جيران بيت أو يعنى بذكرها ؛ وكأنه في ذلك إنما يعتبره وحدة مستقلة يسهل فصلها ؛ وكثيراً ما يدفعه ذلك إلى ما يشبه التحكم ، أو على الأقل كثيراً ما يجعله بعيداً عن جو المعنى وروحه . فحين عاب على أبي تمام يتيته في مدح المعتصم :

لو كان في عاجل من آجل بدل لكان في وعده من رفته بدل

قال الآمدى (ص ١٠١ نفس الطبعة) : « لم لا يكون في عاجل من آجل بدل؟ الناس كلهم على اختيار العاجل وإيثاره وتقديمه على الآجل » . فبصرف النظر عما في هذا القول من مادية أو واقعية ، ومن اعتداد بالمألوف في تصرفات الناس ، فقد ظهرت هنا غرته تماماً عن روح المعنى وجوه . فأبو تمام لم يقصد هنا مجرد العاجل والآجل ، ولكن العاجل الذي لا يثنى ، والآجل المعنى . فلما لم تكن هناك نفس رشيدة ترضى بالعاجل الذي هو عدم ، دون الآجل الذي هو حقيقة ، وكانت قد رضيت من الممدوح أو على استعداد أن ترضى بوعده العاجل — مع عدم فئائه عن رفته الآجل — فقد أصبح هذا الممدوح بمنزلة استوى فيها عاجلة بأجله ووعده برفته . ولكن الآمدى لم يلتبه إلى جو القصيدة وهو المديح ، ولا لروح المعنى الذي هو وصف للممدوح بصدق الوعد وتحقيقه ، ولا للبيئة التي وجد البيت بينها ، وسؤال الشاعر أن يأتي بالمعنى مفصلاً كما يؤتى به في النثر خروج بالشعر عن أسلوبه . ولو قد ذكر الآمدى بيتاً قبل هذا البيت وبيتاً بعده — أى لو انتبه إلى بيئة البيت التي يحيا فيها — لكان رأى الشاعر قد أوضح معناه إيضاحاً فيه كفاية .

وبعد أن يعرض الآمدى البيت وحيداً يأخذ في عرضه على المعنى التقليدي المتعارف عليه

عند الأقدمين ، فإذا اتفقا فالمعنى الذى يزنه جائز وجيل ، وإن اختلفا كان « سخيفاً » و « خطأً » . وهو فى هذا العرض لا يأتى بالمفاهيم المتعددة والمعانى المحتملة للجملة أو التركيب . وكذلك لا يعرض الجوانب المتعددة من مفهوم اللفظ ؛ وإنما يفرض عليك — أو فى الحقيقة — على الشاعر معنى بعينه يلزمه به ويحاكمه عليه . وربما احتل الأسلوب معنى آخر يصح به وتطمئن النفس والذوق إليه .

ربما كان ذلك آتياً من شغفه بتقليد الجاهليين ومحاكاة طريقتهم فى التصوير والتعبير ، والتزامه حدود ما ذهبوا إليه من المعانى والأخيلة ؛ حتى لم يعد يتعدى بنفسه فى حقائق الشعور ، ولم يعد يصطنع الدقة فى توجيه المعانى واختيار ما يمكن أن يكون مناسباً لما بين يديه مستقلاً بنفسه مختاراً .

والآمدى لا يستعين ولا يعتد بنية الشاعر فى فهم مراده ، ولا يحاول أن يستحضرها فيما يعالجه من نقد . بل يأخذ الكلام بعيداً عن قائله فى ناحية ما ، ليطبقه على القوالب اللغوية وليرى قدر اتفاقه مع العرف الأدبى والتقاليد التعبيرية عند الأقدمين (ص ٩٣) . ويغلب على ظنى أنه لم يكن يعنى بتفسير المعنى الاستعمال للفظ ، أو يلتفت إلى مسألة تطور المعانى حسب تطور البيئة والزمن والذوق والحضارة . فكثيراً ما كان يعيب على أبى تمام المعنى لمجرد مخالفته لاستعمال الجاهليين . وربما تجاوز فاعتمد استعمال الاسلاميين الأول . فهو يعيب على أبى تمام وصفه للحلم بالركة لمجرد أن ذلك على حد قوله ص ٧٤ : « لأنى ما علمت أحداً من شعراء الجاهلية والاسلام وصف الحلم بالركة » . ثم قال : « وإنما يوصف الحلم بالعظم والرجحان والثقل والرزانة ونحو ذلك » . فلم ينتبه الآمدى هنا إلى أثر الحضارة فى مفهوم اللفظ وهو الحلم ، وفى اختلاف تصور النفس له وشعورها به عما كان أيام البداوة . ولم ينتبه إلى صلة الصور الخيالية بالبيئة البغدادية المترفة الناعمة . أو إلى ذوق أبى تمام الخاص المتأثر بحياة المدن الاجتماعية والعقلية والمفرم بالآغراب والمباينة . ولا انتبه كذلك إلى المناسبة التى أورد فيها المعنى . فأبو تمام يصف رجلاً عظيماً من الطبقة المترفة بالحلم ، فأراد أن يثبت له فى هذا الحلم صفات اللين والتلطف والوداعة ، لا صفات الغضب والجهامة والصلابة والخشونة ، فقال إن للمدوح يندى عليك فى حلمه كما يندى البرد .

قواعده فى النقد — يحتكم الآمدى فى أحكامه النقدية أولاً إلى المعروف من عادة العرب وتقاليدهم ، وإلى المشهور من كلامهم ومعانيهم وخیالاتهم وتصوراتهم ؛ فهذه أهم قاعدة يزن بها الكلام . وهو لا يؤمن بهذه القاعدة جزافاً ، بل ذكر الأدلة والعلل فى ثنايا الكتاب وفى أماكن متعددة منه . قال (ص ٨٣) : « لا يجوز أن يحدث الانسان لغة غير معروفة وينسب إلى العرب ما لم تعلمه ولم تنطق به » . لماذا ؟ لأن « المتأخر إنما يحتذى على أمثلتهم ويقتدى بهم » (ص ١١٣) . وقال (ص ١١٨) : « إنما ينبغى أن ينتهى فى اللغة إلى حيث انتهوا ولا يتعدى إلى غيره فان اللغة لا يقاس عليها » إلى كثير من أمثال هذا الكلام .

ثم إن الآمدى يقيس المجاز والتشبيه والاستعارة بالصواب والخطأ (ص ١٠٧ ، ١١٥) لا بالدقة فى نقل الأحوال النفسية . وهو يقيد الخيال ويحكم عليه بواقع الحياة اليومية ، وبالحقائق الخارجية العرفية ، وكذلك بالمصطلحات العلمية والعادات المتفق عليها عند عامة الناس ، كرفضه أن يكون للزمن عرض ، وأن يكون الدمع مما يزيد التوقد فى جرة اللوعة ، لأن ذلك « خلاف ما عليه العرب وضد ما يعرف من معانيها » (ص ١٠٩) حتى قال مرة فى صراحة

« كل مادنا من المعاني بالحقائق — ويريد بها الواقع الخارجى — كان ألوط بالنفس وأجلى » .

وهو دائماً يمتد المعانى الجديدة ، ويريد أن يضع حدوداً للتصور والتذوق والروح لا تتعداها النفس ولا تتجاوزها ، كما قال مثلاً فى مسألة المجاز (ص ١٠٣) حين رفض أن يكون العرض فى الدهر من سبيل المجاز قال : « لأن المجاز فى هذا له صورة معروفة ، وألفاظ مألوفة لا يتجاوز فى النظر بها إلى ما سواها » .

وأخيراً نلاحظ على الآمدى أموراً نذكرها موجزين :

١ — أنه ضيق على الفنان دائرة شعوره وتذوقه حين حرمة من سعة النفس والافق ولذة الشعور والاحساس الحر القائم على التجربة الشخصية . وضيق عليه دائرة عمله حين حرمة من التوسع فى التعبير والتصور والتخيل ، وحين حرمة من القياس على ما جاءت به العرب وما جاء به القرآن الكريم (ص ١١١) . ولعل هذا هو أكبر نقص يمكن أن يلاحظ على النقد العربى عامة .

٢ — أنه أخضع الخيال — وهو من أهم وسائل الفن فى التعبير — للواقع الخارجى والمصطلحات والحقائق العلمية ، مما يمكن أن يؤدى إلى جود الصور وتجزئتها ، أو يؤدى إلى التكرار والسآمة وعدم التنوع والتجديد .

٣ — وبخضوعه للمتقدمين اضطر أن يقف دون تطور النفس وتطور البيئة من حولها مما يمكن أن يسبب لها الضمور والانكماش ويصيبها بالموات والعقم . وبخضوعه هذا أيضاً أطلق الشعراء يدورون فى حومة محدودة وحلقة مفرغة ودائرة مغلقة : يقلد بعضهم بعضاً ويكرر أحدهم ما قال الآخر ويتنفس الواحد منهم ما يقيته سواه . حتى لم يكن يحسب الرقات الشعرية عيباً ، لأنها فى معان معروضة للجميع . ولكن من حق الآمدى أن نذكر له مزاياه النقدية وفضيلته ، خاتمين بها هذا البحث القصير .

١ — فحاولته التعليل لأغلب ما يذهب إليه قاعدة تحمى النقد من الواغليين والأدعياء والذين يحتمون بالقاعدة للبتدلة من أن الذوق لا يعلل .

٢ — إنه حاول أن يجعل للنقد القواعد والاصول الثابتة التى ينهض عليها ، فكأنه كان ينظر إليه نظرة جديّة حديثة .

٣ — وإن تتبعه لتلك الشروط اللازمة للناقد يمثل هذه الدقة والاحاطة لخير ما يمكن أن يتاح لباحث الوصول إليه فى هذه الناحية ، وهو أهم فى الحقيقة من كل ما فى الكتاب .

٤ — ثم إن توسعه فى فهم الثقافة هذا الفهم الشامل وضرورتها عنده للناقد ، لدليل على قيمة النقد فى نظره ، وعلى أنه ليس مما يسهل على كل متصده ، وعلى أنه ليس عملاً هيناً سهلاً تمكنى فيه الرغبة وتشفع فيه المزاولة .

على إبراهيم الاقطم

من وراء البحار

قصور السلام

كتب مستر ريتشارد جتشر في مجلة « القرن التاسع عشر » وما بعده الانجليزية (عدد فبراير ١٩٤٦) يقول إنه في ذلك الشهر أو في الشهر الذي يليه على الأكثر سيكون الاحتفال بجنازة عصبة الأمم بجنيف ، ولا يحضر هذه الجنازة غير واحد من أقرباء المتوفاة وهو بريطانيا العظمى . ولقد سبق أن نشر في هذه العصبة ، وألقيت الخطبة على قبرها ، ألقاها السكرتير العام السابق لها الذي حذر العالم بأن العصبة لم تحقق وإنما الأمم هي التي أخفقت في استعمالها . وهذه فكرة يجب أن ينعم النظر فيها فلاسفة السياسة ورجال الأخلاق ، وهي كذلك موضوع جدير بأن يسقط عليه الشعراء فيتخذونه رمزاً . فإذا يكون مصير قصر السلام الذي أقيم في جنيف ، وثبت في أرض أوربا مع مبالغة — فيما يظهر لنا الآن — في مظاهر الكبرياء التي يستطيعها فن البناء ؟ وماذا ينتظر أن يحدث للقصر التالي الذي يقام تحت اسم نظام الأمم المتحدة في أمريكا ؟ هل سيكون مصير هذا القصر أيضاً أن يهجر إلى مكان أكثر أمناً ؛ مكان تحت الأرض أو قصر حقيق من الثلج على مقربة من القطب الشمالي ؟ ففي فترات متعاقبة يكون السلم حائراً يبحث عن بيت جديد ، ويكون في ذلك أشبه بالمهاجر . لعل هذه الصورة من البحث الطويل عن مسكن ترسم أمام مصور ساخر ذي خيال بعيد كخيال الأنبياء .

موطن رئيس الولايات المتحدة

نشرت المجلة « الوطنية الجغرافية » التي تصدر في أمريكا (عدد مارس سنة ١٩٤٦) مقالاً طريفاً عن أهل إقليم ميسوري ، وهو الاقليم الذي ولد فيه الرئيس ترومان . وهذا المقال مزين بصور عدة بعضها ملون وهي صور في غاية الاتقان شأن كل ما يظهر في هذه المجلة من صور ، وقد قالت إنه يسكن هذا الاقليم ثلاثة ملايين وستمائة ألف من السكان ، ولقد أرسلوا من الجند في الحرب الأهلية الأمريكية — بين الولايات الشمالية والجنوبية — أكثر من أي إقليم آخر إذا قيس ذلك بنسبة عدد السكان وأنشأوا تجارة واسعة في الفراء حول نهر ميسوري . وهم قوم أشداء لا يركنون إلى الدعة بل يحبون المغامرات . وهم مزيج من مهاجري شعوب الأرض ، ففي مدينة سانت لويس مثلاً تجد عدداً كبيراً من الشرقيين إلى جانب الأوربيين . ويوصف أهل ذلك الاقليم بالحذر ، وتملك الأعصاب والتكلم ؛ فقد تجد الرجل منهم حائراً على وسام رفيع ولكنه لن يثبتك بذلك ، وإنما تقف على أمره من زميله . وقد تجد الرجل في لباس زري فتحتقره وهو في الحقيقة رجل ذو مكانة . وروى الكاتب أنه كان جالساً مع مستر كنجزبرى من كبار تجار التفاح في ذاك الاقليم ، فإذا بأحد زارعي التفاح يخرج إليهم من بين مزارعه فيتحدث معهم عن الجو ،

من وراء البحار

والمحصول والأجور وما شابه ذلك من موضوعات ، ثم يعود إلى حقله ، فبعد أن اختفى بين الأشجار ، قال كنجزبرى : « إنه لأعقل من البوم . (وهذا الطير يوصف في أمريكا بالعقل) قد رأى في أحد المزادات في الريف في الربيع الماضي كومة من هـ هـ صورة قديمة بين أدوات بلية أخرى ، فاشترها جميعاً بعشرة سنتات (الدولار مائة سنت) ثم أرسل هذه الصور القديمة إلى بائع الصور في نيويورك ، فباعها وبلغ ثمن بعضها سبعة عشر دولاراً ، إذ أنها كانت من تصوير كاريار وإيفز » .

ملاحظات عن مصر

لقد أمضى الدكتور أدوين كالفرلى الأستاذ بجامعة هارفرد وبرنستون ورئيس تحرير مجلة العالم الاسلامى الأمريكية سنة في القاهرة ، وأحدث حضور هذا المستشرق الكبير حركة في الأوساط العلمية . ولقد نشر أخيراً في تلك المجلة ملاحظات عن زيارته لمصر ، وهي ملاحظات كانت جديدة بالنقل إلى اللغة العربية بأجمعها لما حوته من آراء قيمة جديدة بانعام النظر . على أننا لا نستطيع هنا إلا أن نلخص هذه الملاحظات ، ويمكن الاطلاع على المقال بأكمله في عدد يناير ، وهو عدد طريف حافل بمقالات شيقة عن مصر والشرق .

يرى الدكتور كالفرلى أن مصر الحالية تعكس ثلاثة عصور : مصر القديمة ، ومصر القرون الوسطى ، ومصر العصر الحديث ؛ فصر القديمة عجيبة بأهرامها ومبانيها وقبورها وبدائع متاحفها ، وهي البلد الذى غذى بحضارته الأمم الأخرى ، والمصريون الحديثون هم سداة هذا الكنز الذى هو منبع للثروة والشرف ، كما اتسعت دائرة الاكتشافات العلمية . ومصر القرون الوسطى جميلة براقية بهيجة الألوان ، وتراها في المساجد والمناظر والآثار الباقية من عصر الفاطميين والإيوبيين . وفي القاهرة شوارع وأسواق لا تزال تحتفظ بجو تلك العصور الحالية .

ويحتفظ المصريون اليوم في لغتهم وآرائهم وعاداتهم بالكثير من عادات أسلافهم الأقدمين . وقد لا يستمر هذا الميراث أمام دفعة التريية الحديثة ، والحياة الصناعية الحديثة . ولكن بعض الصفات قائمة على الطبيعة الأساسية للشعب والبلاد ؛ فليس من المحتمل كثيراً أن يستمر المصريون بلاداً أخرى لأنهم متعلقون بأرض وطنهم تعلقاً شديداً . ومن المرجح أن يستمر المصريون على رى الأراضى ، بل الحداثى باغراقها بالماء بدلاً من رشها ، فهم قد تعلموا من الطبيعة فيضان نهر النيل بدلاً من تساقط المطر ، ولكنهم قد يقلعون عن ترك القطط الصغيرة طعاماً للطير أو استعمال الفلاح الأجير في رفع ماء النهر لكى يفيض على الحقول .

وتوجد في المصريين أيضاً بعض العادات والآراء من ميراث القرون الوسطى جاء بها بعض المهاجرين ، أو بعض الجيوش الفاتحة ، واستوطنت في البلاد بمرور الزمن . فالمصريون الأقباط تلقوا منهم من الخارج ، ثم مزجوه بحضارتهم وطرائقهم وصار جزءاً أساسياً منهم . والمصريون المسلمون قبلوا دين النبي العربى ، وصاروا يعقيدتهم ورغبتهم أمة عربية بين الأمم العربية ، وفي أكثر الوجوه أكبر ممثلى العالم العربى .

ولكن المصريين اليوم يعيشون أيضاً في العالم الحديث . فان الآراء والتيارات الجارية في بقية أنحاء العالم تهتم بها طائفة كبيرة من المصريين اهتماماً كبيراً ويتصلون بها ، فاذا كان

مما لا ريب فيه أن أكثر المصريين من المحافظين على التقاليد في آرائهم وطرائق تفكيرهم ، فإن هنالك فريقاً كبيراً لم يكتف بقبول طرق الغرب في الملبس والسكن ، بل هو اتخذها في نظره إلى الحياة الفردية والاجتماعية .

ولقد تعلم كثيرون من المصريين في أوروبا أو في مدارس مصرية حديثة . وبين هؤلاء عدد كبير من النشطاء ، فأراؤهم تختلف مع آراء آبائهم وإخوتهم الذين تربوا تربية قديمة . والتعليم مزدهر الآن في مصر ، والحكومة غير قادرة على مواجهة الاقبال على التعليم . ولا يسع الباحث في المؤلفات والطبوعات الجارية إلا أن يتعجب لمبلغ النشاط العقلي . فعدد الكتب والمجلات والصحف كبير جداً لا يحده إلا صعوبة الحصول على الورق ، وتنقد طبعات الكتب سريعاً . وهذا النشاط الفكري في مصر ليس جديداً بها ، ولكنه لم يكن قط كبيراً على هذا النحو . وقد بلغت مصر الحديثة تفوقاً على العالم الاسلامي في ميادين عدة من نواحي النشاط . فليس في بلد إسلامي آخر مثل هذا الانتاج الكبير في الادب ، ومثل هؤلاء الكتاب في الطبقة الاولى ، ومثل هؤلاء الزعماء في مناحي الادب . والمستقبل يبشر بمجد ثقافي أكبر عند ما تنشر كنوز الماضي الثمينة وفهارس الكتب .

وفي عالم السياسة نجد مصر كذلك في الطليعة بين الشعوب المتكلمة بالعربية ، فهي العاملة على تحقيق تأليف جمعية الأمم العربية . والمصريون محبون للحرية والسلم . فمن المنتظر أنهم يرغبون أن تتحقق لجيرانهم مثل هذه الحرية ، وأن يبذلوا مجهوداً سلبياً للوصول إلى هذا الغرض . وليس من الواضح لصاحب المقال أن مصر ستظل زعيمة الأمم الاسلامية في عالم الدين ، فصر قد قبلت الآراء الحديثة في جوانب النشاط الانساني ، وحصلت على حقوق فردية واجتماعية بعد أن بذلت مجهوداً كبيراً ، ويكون من العجيب ألا تتطور في آرائها الدينية . ولقد كان لمصر في القرن الماضي زعيم ديني اعتبرت تعاليمه في عصره بعيدة في التجديد ولكن آراءه الآن محترمة وذكراه محمودة . وقد يجد الزعماء الذين ينصحون ببعض الاصلاحات التي لها علاقة بالدين كثيراً من المعارضة في بلد كصر يحافظ على التقاليد ، ولكنه من المنظور أن تتقدم مصر لا على الرغم من الدين بل في حدود الدين ، حتى تتمتع بكل ما تتمتع به الأمم الحديثة .

رحلة في سويسرا

استطاع مستر سيرل كونولي محرر مجلة هورايزن الشهرية أن يزور بلاد سويسرا في يوليو الماضي ، وكان من أثر ذلك أن صدر عدد فبراير سنة ١٩٤٦ من هذه المجلة وكله حديث عن سويسرا ومقتبسات من آراء أدبائها وشعرائها ورجال الفن فيها . وقد وصف مستر كونولي رحلته من باريس إلى تلك البلاد في جو شديد الحرارة كما يحدث أحياناً في شهر يوليو ، فوصف هذه الرحلة بأنها حلم مزعج فيما مر به من ألوان المتاعب . فقد ظل المسافرين منذ الساعة التاسعة مساءً حين بارحوا باريس إلى أن وصلوا في ظهر اليوم التالي إلى الحدود السويسرية وهم بلا ماء ولا طعام ، وكان أكثرهم واقفاً في طرقات القطار لا يجد سيلاً للجلوس ، ثم تبدت لهم فجأة ما يشبه أرض كتعان وهي تدر لبناً وعسلاً ، وهجم راكبو القطار على طعام من السمك واللحم والنيذ الأبيض وأخذوا يشعرون بعد الحرمان بأنهم من السياح . ولا يقصد

من وراء البحار

بلفظة السياح هنا هؤلاء الناس المدينون الذين يشك في أمرهم وكانوا يرون في القطارات العسكرية بل سياح من النوع المألوف قبل الحرب الذين يحملون أدلة السفر والصحف وعلب السجائر . وسار بهم القطار وهم يستمتعون بجمال الطبيعة حتى بلّوا بحيرة نيوشاتل التي ذكرتهم أن ماء البحيرات قد يتخذ ألواناً في الطبيعة ، ثم أخذت الاسماء تنتقل ألمانية واختفت كروم العنب ووصل المسافرون إلى برن عاصمة الاتحاد السويسري حيث نزل مستر كونولي في أحد الفنادق ، وجلس على شرفة الفندق بعد أن كاد يتسنى أن للفنادق شرفات . وأخذ يتأمل في منظر من أجل مناظر العالم حيث يطل على قمم الجبال الدائمة البياض على حين يشق الصخر في جريه السريع نهر الآركانه سيف عملاق . وكان يتناول طعام فطوره على هذه الشرفة وأمامه كمية وافرة من القهوة والفاكهة وفي يديه جريدة سويسرية ، وهو ينظر إلى أجساد المستبحين في النهر . ومن عادة أهل برن في استحمامهم أنهم يرمون بأنفسهم في الماء ويتركون للتيار حملهم فيه فيكونون كأعواد القباب . وتبدو مدينة برن لمن ذاق الحرمان خمس سنوات في إنجلترا أشبه بوهم من الأوهام بما فيها من حوانيت مزينة كأنها شجرة عيد الميلاد وما يرى في حوانيت باعة الساعات من العجائب التي تلمع بالذهب وتوقظ الرغبة في نفوس المتفرجين ، ثم حوانيت للملابس وبائعي السجائر حيث تجد أنواعها بالئات ، ويرى المحروم من هذه الأشياء ما يدفعه في آخر الأمر إلى أن يكره هذه الحوانيت ، وليس في العالم القديم بلد أتقن صناعة الحياة مثل سويسرا حيث بلغ الاتقان غاية لذوى المال ، فالقطارات السويسرية جنات تسير على عجلات ، وهي نظيفة ساكنة سريعة ذات نوافذ محكمة ، والفنادق يعجز الوصف عن ذكر محاسنها ، ومدن بلغ تناسق الأبنية فيها غايته بين الحديث والقديم ، والاضاءات على طرق جديدة في نهاية الطرافة .

والذي يطير من لندن إلى زوريخ مثلاً يكون قد انتقل من مدينة ثلاثة أرباعها قدر غير صحي مخرب ، إلى بلدة صناعية هي أكثر بلاد أوروبا تقدماً فيها خير المساكن للعمال وأصح المصانع ، حيث تجد هواء جميلاً يشجع على التفكير الجديد والابداع في الفن ، كما يثبت ذلك سكنى جديون ودادا وجويس ويونج لهذه المدينة .

ماذا دفعت سويسرا ثمناً لهذا التقدم للمادى ؟ إنها دفعت بعض الشعور بالجريمة والوحدة ، وهما ثمن لمن بقي على الحياة ؛ فهي لم تلق عليها القنابل ولم تقز ولم تتخرب في سبيل الحرية مع أنها بلد حب الحرية فيه ميراث ، وذلك يوجد شعوراً بعدم الرضا . وقد دفعت كذلك ثمناً داخلياً هو أن سويسرا بلد مشرق بالكاليات محتق بما فيه من ذهب ، ولكن ضرورات الحياة فيه نادرة مرتفعة الثمن .

واسترسل الكاتب في وصف أهل سويسرا الذين هم من عنصر ألماني وفرنسي وإيطالي وكيف كانوا يتطلعون إلى مونيخ أو فينا وباريس وميلانو ، وإذا هم الآن لا يجدون شيئاً . ووصف جنيف ومحاسنها ، ثم تكلم عن لوزان ، ثم وصف لوسيرن حيث تقص الباحثين عن اللهو من لاعبي التنس والجولف والأمراء المنفيين . وقال إنها أشبه شيء بمتحف لذوى الثراء . وإنه يشعر بالرغبة كما شعر في كثير من المدن السويسرية بأن يطلق عليها جماعاً من السنغاليين السود أو من البحارة الفرنسيين أو العمال أو من نساء أمريكيات سكارى أى جماعة من أولئك الذين هم عمد للسفالة الأخلاقية الذين يسبرون غير آبهين على الحشائش أو يصقون في النقايات التي تسير بين الجبال على أسلاك معلقة في الهواء .

نظر حديثاً

كليمينسو وميامن العاصفة تأليف ليون دوديه ، تعريب الأستاذ حسن محمود (دار
الكاتب المصري)

يظهر أن للأستاذ حسن محمود كلفاً شديداً بالساسة البارعين الذين يتركون في حياة أوطانهم
آثاراً ذات خطر عظيم . ويظهر أنه في الوقت نفسه يجب أن يشرك مواطنيه المصريين في
العناية بهؤلاء الساسة وتتبّع حياتهم والارتفاع بما يعلأ هذه الحياة من تجارب خصبة ،
ويظهر بعد هذا وذاك ، أنه يجب تصوير الكتاب الفرنسيين لهؤلاء الساسة يرى فيه من
الوضوح والاعتلاف وملاءمة المنطق ما يلائم مزاجه ومزاج المصريين الذين هم آخر الأمر من
أهل البحر الأبيض المتوسط .

قد ترجم الأستاذ حسن محمود ، منذ أعوام ، كتاباً للأديب الفرنسي أندريه مورو ،
صور فيه حياة السياسي الإنجليزي البارع دزرائيلي ، وهو الآن يترجم كتاباً للأديب
الفرنسي ليون دوديه ، صور فيه حياة السياسي الفرنسي العظيم كليمينسو . وليست براعة
ليون دوديه بأقل من براعة مورو في التصوير ، وليس كليمينسو بأقل أثراً في حياة فرنسا
وعظمتها من دزرائيلي .

والناس جميعاً يعرفون من أمر كليمينسو أنه كان سياسياً فرنسياً عظيماً ، شارك أعظم
المشاركة في إنشاء الجمهورية الثالثة بعد الهزيمة الفرنسية سنة ١٨٧٠ ، وأثر في حياة هذه
الجمهورية الثالثة آثاراً عظيمة مختلفة ، منها ما رضى عنه الفرنسيون ، ومنها ما ضاقوا به .
والناس جميعاً يعرفون كذلك أن كليمينسو كان برلمانياً من الطراز الأول ، وخطيباً قل أن
تعرف له فرنسا نظيراً منذ عهد الثورة ، وأنه قد أمتاز بأسقاط الوزارات ، حتى سمي
النمر . والناس يعرفون بعد ذلك أن كليمينسو هو الذي أقر الجمهورية الثالثة ، بل أقره
فرنسا في الحرب العالمية الأولى ، وقادها إلى النصر ، واستحق تقدير الوطن الفرنسي ، وكفى
أبا النصر ، وتنت فرنسا كلها باسمه تاماً كاملاً بعد انتهاء الحرب .

كل هذا يعرفه الناس ، لكثرة ما تناقلته الأحاديث وجرت به الألسنة والأقلام . ولكنه
لا يبدو أن يكون ظاهراً من العلم ، ليس له حظ من العمق ، ولا نصيب من الدقة ، وهو
من أجل ذلك يدعو إلى هذا الإعجاب اليسير الذي لا يعتمد على أساس متين .

فالكتاب الذي يهديه الأستاذ حسن محمود اليوم إلى قراء العربية ، يرد هذا العلم
بأمر كليمينسو إلى أصوله ، ويقم هذا الإعجاب بعظمة كليمينسو على أساسه الصحيح ، ويتيح
لقراء فرصاً كثيرة جداً للتفكير والتدبر والتأمل والاعتبار . وهو في الوقت نفسه يبيع
لهم ألواناً كثيرة مختلفة من لذة العقل والقلب والذوق جيداً ، كما يظهرهم على فنون كثيرة من
الحياة الفرنسية المتنوعة المتناقضة التي لا تكاد تحصر ولا تحصى .

وليس هذا الكتاب ترجمة دقيقة لكليمينسو بالمعنى المألوف من معاني هذه الكلمة ، وإنما
هو مصاحبة له في حياته الطويلة التي أشرفت على تسعين عاماً مصاحبة متقطعة لاتتبع الرجل

العظيم في دقائق حياته ، وإنما تلقاه بين حين وحين في مواقفه الخاصة ، وفي أشد أطوار حياته خصباً وأبعدها أثراً في نفسه ، وفي نفس أمته ، وفي الحياة السياسية الأوربية ، بل في الحياة السياسية العالمية وفي الحياة العقلية الانسانية أيضاً .

فالمؤلف لا يفصل لنا مولد كليمنصو ، ولا نشأته ، وإنما يتحدثنا عنه في طور من أطوار حياته حين تم تكوين عقله وخلقه ومزاجه ، وحين أصبح رجلاً من رجال السياسة الفرنسية في أواخر القرن الماضي . وهو يصوره لنا في أول أمره شديد النشاط ، شديد الذكاء ، شديد الايمان ، قوى الشخصية ، يعرض نفسه على جميع الذين يتصلون به من قريب ثم من بعيد ، ثم يفرض نفسه على جميع مواطنيه .

وقد تكونت شخصيته المعنوية من عناصر لزمته طول حياته ، أولها حرية العقل ، هذه الحرية التي جعلت منه ثائراً متصل الثورة على كل قديم ، وبطلا من أبطال الحياة الحديثة في تحرير العقل الانساني ، وخصماً عنيداً لرجال الدين . وثانيها إيمانه بالتقدم الانساني ، وثيقته بأن الانسان طامح بطبعه إلى الرقي ، قادر بطبعه على أن يحقق هذا الرقي ، وبفضه من أجل ذلك للمحافظين الذين لا ينظرون إلا إلى وراء ، وللجامدين الذين لا يسعون إلى أمام . وهو قد اكتسب هذين العنصرين من حياة القرن التاسع عشر كلها ، ومن تأثره العميق بفلسفة أوجست كونت واستيوارت مل .

العنصر الثالث إيمانه بوطنه فرنسا ، وحنقه على ألمانيا التي هزمت هذا الوطن ، وحرصه على الثأر وإصراره على أن تسترد فرنسا الألاس والبورين . أضف إلى هذه العناصر ذكاء حاداً ، ومزاجاً عنيفاً ، وثقة بالنفس لا حد لها ، وازدراء للمصاعب والعقبات ، واستخفافاً بما يفسد حياة الناس من الكيد والدس والنفاق ، وقدرة على العمل ، واستعداداً قوياً جداً للمرح ، وزهداً شديداً جداً في الثناء ، وانصرافاً عن الشهرة ، وإعراضاً عن الخوف من آراء الناس . كل هذه الخصال هي التي تكون هذه الشخصية الفذة التي تركت في حياة الفرنسيين أبعاد الأثار وأبقاها .

وقد عرض مؤلف هذا الكتاب علينا شخصية كليمنصو مجتمعة كاملة ، لم يعرض لها بالتفصيل وإنما أظهرنا على هذا الرجل العظيم وهو يضطرب في حياته الخاصة وفي الحياة الفرنسية العامة وتركنا نرى إقدامه وإحجامه ، ونسمع نواياه وخطبه ، ونقرأ آثاره المكتوبة ، فنتبين هذه الشخصية شيئاً فشيئاً ، ونردها نحن إلى أصولها وعناصرها ، دون أن نجد في ذلك كثيراً من البناء . فنحن نرى كليمنصو بعد إنشاء الجمهورية الثالثة ، زعيماً لحزب الراديكاليين ، ومديراً لجريدة العدالة ، وعضواً خطيراً في مجلس النواب ، مطالباً بالثأر ، مقاوماً للنفوذ الألماني ، مبغضاً للحركة الاستعمارية ، التي كانت تلهي فرنسا ، يسيطرن نفوذها من وراء البحار ، عن الثأر من عدوها المجاور لها ، والذي يتربص بها الدوائر ويتنظر أن ينير عليها سرة أخرى . ونحن نراه مختلفاً إلى الأندية متردداً على الصالونات محاوراً في هذا كله مشاركاً في الأدب والفن والعلم ، مدافعاً عن الإصلاح الاجتماعي ، وإنصاف الطبقات الضعيفة ، مناهضاً في الوقت نفسه للاشتراكية التي كان سلطانها يعظم من يوم إلى يوم ، فارغاً في أثناء هذا كله لحيته ولذته لا يصرفه الجد عن الدعاية ولا تصده الدعاية عن الجد ، ونحن نراه حين تتنكر له الأيام ويخذه الانصار وينصرف عنه الأصدقاء ويضطر إلى العزلة والانصراف عن السياسة حيناً والفراغ للانشاء الأدبي صابراً جليداً ساخراً واثقاً بالمستقبل على كل حال . ثم

راه حين يعود إلى السياسة وحين ينهض بأعباء الحكم فيستقبل أموره حازماً صارماً لا يحب
الحوادة ولا الملاينة وإنما يعفى في طريقه كأنه السهم لا ينحرف عن غايته إلى يمين أو شمال ثم
نراه معارضاً ولا سيما في أثناء الحرب يدير صحيفته «الرجل المثلول» ويصلي فيها رئيس الجمهورية
ورؤساء الوزارات تاراً حامية . ثم نراه وقد نهض برياسة الوزارة حين أوشك الحلفاء أن
يخسروا الحرب ، وكان شيخاً قد قارب الثمانين فإذا هو يسترد شباباً غريباً وقوة غير مألوفة ،
وإذا هو يفرض نفسه لا على فرنسا وحدها بل على الحلفاء جميعاً ، وإذا هو يدير الحرب من
وراء الميدان كما يديرها فوش في الميدان . وإذا هو يقود الحلفاء إلى النصر ويملي على
المتهمين معاهدات الصلح . ثم نراه يجنى بعد ذلك بوقت غير طويل جزاء ما قدم لوطنه من
معروف وما أسدى إليه من جميل جحوداً بغضباً مرأياً ، فقد أبى مواطنوه عليه رياسة
الجمهورية واختاروا لهذه الرياسة رجلاً أديباً ضعيفاً انتهى إلى الجنون . وقد كثر الكيد له
والتشيع عليه ، وقد أخذ الذين كانوا يتلقونه ينصرفون عنه شيئاً فشيئاً ، وإذا هو يعود إلى
عزلته ويلتس في هذه العزلة هذا العزاء الذي لا يلتمسه إلا عظماء الرجال ، عزاء الحياة العقلية
وإذا هو طائف على التأليف منصرف إلى الكتابة ساخر من كل شيء إلا من العقل ، وساخر من
كل إنسان إلا من الانسان العنوي الذي لم ينكره قط ولم يشك قط في أنه مستعد بطبعه للرقى ،
قادر بطبعه على الرقى ، بشرط أن يتحرر عقله من قيود القديم وأن يتخذ العلم لنفسه سراجاً وإماماً .
وقد أحس كليمنصو دنوه من الموت في التاسعة والثمانين من عمره ، فكتب وصيته وهي
آية في رقص النفاق وازدراء للناققين ومثورة الفرد على التقاليد وعلى النظم الاجتماعية كلها ،
فقد أبى أن يحتفل أحد بجنائزه وأمر أن تحمل جثته في سيارته في غير احتفال ، بل في غير مظهر
من مظاهر الاحتفال ، وأن تمضي هذه السيارة بجثته إلى تلك المقبرة التي دفن فيها أبوه وأن يوارى
في التراب هناك في قبر بسيط يسور بسور من حديد ولا يكتب عليه شيء ما . وكذلك نشأ هذا
الرجل عظيماً ، وعاش عظيماً ، ومات عظيماً ، وكانت البساطة هي المظهر الرائع لهذه العظمة .
وأنت لا تقرأ في هذا الكتاب حياة كليمنصو وحده ، وإنما تقرأ فيه حياة باريس ، بل
حياة فرنسا من نواحيها المختلفة في السياسة والأدب والعلم والفلسفة . ولعلك لا تعجب فيها
بشخص كليمنصو وحده ، وإنما تعجب فيها بشخصيات كثيرة أخرى قد شاركت في الحياة
الفرنسية الحاضرة أكثر من نصف قرن . وربما كان من أهم هذه الشخصيات شخصية المؤلف
ليون دوديه الذي كان محافظاً شديداً المحافظة ، مسيحياً ممعناً في المسيحية ، ملكياً متطرفاً
في الملكية ، والذي أحب على هذا كله كليمنصو الديمقراطي المتطرف ، الجمهوري الملحد الذي
لم يحارب شيئاً قط ، ولم يبغض شيئاً قط بعد ألمانيا كما حارب المحافظة والملكية والدين .
فالأستاذ حسن محمود حين يهدي إلى مواطنيه هذا الكتاب إنما يهدي إليهم متعة فنية رائعة
وكنزاً من كنوز المعرفة ، لا يكاد يقدر ، وسفرأ من هذه الأسفار التي تمتلئ بالصبر والعظات .
وترجمته سهلة سمحة ، لا يجبد القارئ فيها مشقة ولا عسراً ولا تكلفاً وإن كنت آسف أشد الأسف لأنه
لم يسلم مما يتورط فيه المترجمون عادة من هذا الخطأ اللغوي الذي يمكن اتقاؤه بشيء قليل من العناية .
فالأستاذ حسن محمود يتجافى طامداً أو غير طامد عن بعض الأصول التي لا ينبغي أن يتجافى
عنها الكتاب . قاعدة التذكير والتأنيث تلتقي منه عناء شديداً . وفي الكتاب أغلاط نحوية
لا أدري أحملها عليه هو أم أحملها على الخطأ اللطبي ، ولكنها على كل حال لا تطاق ولا
يصح أن تشوه جمال كتاب كهذا الكتاب .

وما أحب أن أمثل لما في الكتاب من خطأ في اللغة والنحو ، فسيجد القراء هذا الخطأ ، وسيعرفونه بأنفسهم ، وسيغيظهم ذلك كما غاظني ، ولعل الأستاذ حسن محمود يعتبر بذلك فيعني بقلته ونحوه أولاً ، ويصلح ما في هذا الكتاب من خطأ حين يعيد طبعه إن شاء الله .

واژه الارواح تأليف أندريه موروا ، ترجمة الأستاذ عبد الحليم محمود (دار الكتاب للصوى)

لست أدري أأثني على الأستاذ عبد الحليم محمود لأنه أقدم على الترجمة أم لأنه أحسن في الترجمة . ولعل من الحق أن أثني عليه للأمرين جميعاً . فالأستاذ عبد الحليم محمود شيخ من شيوخ الأزهر ، تخرج في معهدنا الدينى العظيم ، ثم سافر إلى فرنسا فتعلم لغتها ، وأخذ من ثقافتها بحظ ، وتخرج في الفلسفة وعاد فاستأنف في الأزهر حياة جديدة لم تخل من بعض الجهد . وهو الآن يقدم إلينا قصة فرنسية ، قد ترجمها إلى العربية . وكل شئ جاز ، حتى أن يترجم شيوخ الأزهر قصص أندريه موروا . وما من شك في أن هذه آية من الآيات التى تدل على تغير الزمان ، وعلى أن مصر تمتضى حقاً إلى أمام لاتدأعب في ذلك ولا تحب المزاج . ومن الحق أن نسجل للأستاذ عبد الحليم محمود أنه لم يترجم فكاهة ، ولا مجوناً ، ولا تمالكاً في الحب ، ولا إيماناً في الفرام ، وإنما ترجم قصة إن لم تكن فلسفة فهي شئ يتصل بالفلسفة اتصالاً متيناً . ويكفى أن تعلم أن موضوع القصة هو البحث عن خلود الروح . وقد صدق الله العظيم في قوله الكريم :

« ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » .

والقصة التى ترجمها الأستاذ عبد الحليم محمود تنتهى إلى أن الروح من أمر الله ، وإلى أن الناس لم يؤتوا من العلم إلا قليلاً . فهى قصة طبيب قرأ في بعض الصحف أثناء الحرب العالمية الأولى أن زميلاً له في الطب قد استكشف أن وزن الجسم الانسانى ينخفض بعد الموت انخفاضاً مفاجئاً ، جرب ذلك مرة ومرة ، فلما استيقنته استنبط منه أن هذا الانخفاض دليل قاطع على وجود الروح ، وأن الجسم إنما ينخفض وزنه لأن الروح يفارقه .

قرأ الطبيب جيس هذا في الصحف ، ففنى به واستأنف التجربة فصحت له ، ولكنه لم يقف عند هذا الحد ، وإنما مضى في تجربته إلى مدى أبعد ، فحاول أن يستخلص هذا الذى يفارق الجسم الانسانى بعد الموت ويحصره في حيز ضيق ، ويوصل إلى ما أراد فاستخلص شيئاً من النور حصره في أنبوبة زجاجية ضيقة ، وعرف أنه هو الطاقة التى تمنح الحياة ، ثم مضى في تجربته إلى مدى أبعد من هذا المدى فجمع بين هذه الطاقة التى تستخلص من شخصين ميتين . فرأى شيئاً عجيباً ، رأى ابتهاجاً هائلاً في هذا الضوء حين يستخلص من شخصين محتجين ، ويجمع في حيز واحد ، فاستيقن أن هذه الطاقة لها حظ من وعى وأنها تسعد بالحلب إذا اجتمعت إلى الطاقة المستخلصة من شخص الحبيب ، فتزداد بالامتزاج تألقاً وإشراقاً . وقد أحب هذا الطبيب نفسه فتاة كلف بها أشد الكلف ، ولم يفكر إلا في شئ واحد وهو أن يسعد بحبها في حياته ، وأن يسعد بحبها بعد موته . فأظهر صديقه — مؤلف

ظهر حديثاً

القصة — على بحوثه وتجاربه . وعهد إليه بأن ينفذ هذه التجربة في شخصه وشخص حبيبته إذا أدركهما الموت . وكانت حبيبته مريضة لا أمل في شفائها وكان هو قد قرر أن يموت إذا ماتت حبيبته ، وأن ينبيء صاحبه قبل ذلك بوقت كاف لإجراء التجربة . وقد فعل ، ولكن صديقه كان بعيداً عن فرنسا فلم يصل إلى الحبيين الميتين إلا بعد فوات الوقت ، ولم يستطع الطبيب البائس أن يسعد بالحب بعد موته لأن الروح كما يقول الله عز وجل من أمر الله وما أوتي الناس من العلم إلا قليلاً .

فالقصة كما ترى علم وفلسفة وتجربة . والترجمة سهلة يسيرة صادقة ، وفي أسلوبها العربي رصانة وجمال . وكنت واثقاً بأن لن أجد فيها خطأ نحوياً أو لغوياً لمكان الشيخ المترجم من علوم اللغة والنحو ، ولكني رأيت الرأس مؤثراً ، فلا حمل ذلك على الخطأ المطبعي . ولأشكر للأستاذ جهده ولاهنته بما أتيح له من توفيق ولأتمن له المزيد من هذا الجهد ومن هذا التوفيق .

صفاه غليظة وقصصه أخرى للأستاذ محمود تيمور (مطبعة الاستقامة)

الأستاذ محمود تيمور كاتب خصب بأدق معاني هذه الكلمة وأوسعها ، لا تكاد تخفى أسايع حتى يهذى إلى قرائه طرفة قيمة من هذه الطرف الممتعة التي تعينهم على أن يحتملوا أثقال الحياة . ولو لم يكن للأستاذ محمود تيمور على قرائه الذين لا يحصون إلا هذا الفضل لكان ذلك خليقاً أن يضمن له في نفوسهم مكاناً محموداً . فأثقال الحياة بغیضة في هذه الأيام سواء منها الخطير واليسير ، والناس يستقبلون العيش بقلوب لا تكاد تعرف الرضا ونفوس لا تكاد تألف الابتسام . فإذا استطاع كاتب كالأستاذ محمود تيمور أن ينسجم نفوسهم ويصرفهم عن قلوبهم ساعة من ليل أو ساعة من نهار ، فقد ضمن لهم راحة نادرة ، وأتاح لهم سعادة لن يجدوها عند أنفسهم المظلمة ، ولا عند قلوبهم الساخطة ، ولا في هذه الحياة الكثيبة التي تأخذهم من كل وجه .

وليس هذا بالشئ التليل ، بل هو الشئ الكثير حقاً . والأستاذ محمود تيمور متعب للنقاد لمكانه من هذا الخصب من جهة ولتنوع آثاره واختلافها من جهة أخرى . فلو أراد النقاد انصافه حقاً لكتبوا عنه في كل شهر ، وقد كدت أمل في كل أسبوع لأن آثاره كثيرة متلاحقة ، وأنا أتمنى على الله أن يزيد لها كثرة وتلاحقاً . وانصافه ليس بالشئ اليسير ، فتتويع هذه الآثار واختلافها يضطر النقاد إلى أن ينوعوا تقديمهم ويخالفوا بينه ، مع أنهم مضطرون إلى هذا التنويع وهذه المخالفة بالقياس إلى آثار الكتاب الآخرين . ويكفي أن أذكر أن أمانى الآن للأستاذ تيمور كتباً ثلاثة مختلفة كلها يدعو إلى القراءة ، ثم إلى النقد ، أحدها هذا الكتاب الذي أتحدث عنه الآن ، والثاني قصته التمثيلية « حواء الخالدة » ، والثالث قصته الروائية « كليوباترة في خان الخليل » .

ولست في حاجة إلى إن أقول أن شخصية الأستاذ محمود تيمور واحدة في هذه الكتب الثلاثة ولكنها على ذلك مختلفة متباينة باختلاف مذاهبه في الانشاء وتنوع ما بث في كتبه من آراء . وليس الأستاذ محمود تيمور كاتباً فحسب ، ولكنه شاعر ، قد اتخذ القصص وسيلة لاهداء شعره إلى الناس . فكل قصة من قصصه قصيدة من الشعر الجميل . وما ينبغي أن تطلب إليه

ظهر حديثاً

جزالة الفرزدق أو رصانة جرير وإبداع أبي تمام وتكاف المتنبى ، فهو أدنى إلى البسر والسذاجة وإلى الحياة من هذا كله ومن هؤلاء جميعاً . هو رجل يعيش في عصره ويحيا بحياة أهل عصره ويحب الناس الذين يحيا بينهم . وهو من أجل ذلك يصورهم لأنفسهم تصويراً صادقاً كل الصدق ، ولكنه قريب منهم كل القرب . وهو من أجل ذلك أيضاً يعرض عليهم في هذه الصور ما في حياتهم من خير ليألفوه وما في حياتهم من شر ليعافوه . وهو من أجل هذا أيضاً يظل بينهم لا يرتفع عنهم كثيراً ، ولا يكلفهم أن يصعدوا معه إلى أطباق السماء ، وإنما يكلف نفسه أن يهبط إليهم على ظهر هذه الأرض البائسة .

وهو من أجل هذا كله كاتب يتعب النقاد ولكنه يريح القراء . وأى بأس عليه من أن يتعب النقاد ما دام قد ضمن لقراءه حظاً من الراحة والسعادة والاستمتاع .

والكتاب الذى أتحدث عنه الآن طائفة من القصص توشك أن تكون ديوانا من الشعر قد ائتلف من قصائد ومقطوعات كلها قريب جداً لا يثقى على القارئ في فهمه والاستمتاع به ، وأكثرها بعيد جداً مع ذلك يستطيع أن يدفع القارئ إلى تفكير عميق متصل . فهذه الشفاء الغليظة التى تفتن القاص في أول الكتاب يسيرة كل البسر يتفق القارئ بفضلها ساعة سهلة مريحة ويلهو فيها بهذا الذى تفتنه الشفاء الغليظة ، وبهذه الفتاة الماهرة التى تحسن اختلاس العقول والأموال جميعاً ، وبهذه المناظر التى نلقاها في كل يوم فلا نكاد نحفل بها أو نلتفت إليها . غير أن القارئ الذى يحب التفكير ، ويتعمق ما يقرأ لا يستطيع أن يمر مسرعاً بهذه الشفاء الغليظة التى تستأثر وحدها بحب القاص فتملك عقله وقلبه وتكلفه احتمال ما لم يتعود أن يحتمل . فلماذا تفتنه الشفاء الغليظة وحدها دون غيرها من محاسن هذه الفتاة ؟ هذه مسألة نفسية يعنى بها الذين يحلون دقائق الفتنه والعشق . والتعلات المختلفة التى تكلفها الفتاة كلما أخذت متلبسة بالجريمة تصور كيد النساء تصويراً حسناً . وهذه الأسباب التى تدعوها إلى السرقة والاختلاس ، والتى تتصل بفساد النظام الاجتماعى تحمل القارئ على أن يفكر في الإصلاح الاجتماعى وفي أن جيلنا الذى نعيش فيه يكاد يجرقه الظلم إلى العدل . والقصة بعد هذا كله تذكرنا ، لا أدري لماذا ، بمقامات الحريري أو بمقامات الهمداني ، فهذه الفتاة التى تؤخذ ثم تفلت محتالة في ذلك متفوقة في الاحتيال تذكر هؤلاء الأشخاص الذين يتحدث الحريري والهمداني عن براعتهم في الاحتيال والافلات . ومع ذلك فليس بين الأستاذ محمود تيمور وبين أصحاب المقامات شبه ما . فهو لا يتكلف ، ولا يتضع ، ولا يسجع ، ولا يذهب مذهبا من هذه المذاهب التى لا تحتمل في هذه الأيام .

ولو أنى ذهبت أتحدث عن كل قصة من قصص هذا الكتاب كما تحدثت عن هذه الشفاء الغليظة لملت هذا الباب من أبواب المجلة أكثر مما يطيق . ومع ذلك فكل القصص التى يشتمل الكتاب عليها ممتازة بهاتين الخصلتين : فهى قريبة يسيرة لمن أراد أن يقطع الوقت ويستريح وهم بعيدة عميقة لمن أراد أن يروى ويفكر . وما أحب أن أختتم هذا الحديث القصير دون أن أذكر « القبة النائية » التى تذكر بآيات ألف ليلة وليلة ودون أن أذكر قصته الأخرى التى اتخذ لها هذا العنوان « حكاه من السماء » ، والتى جدد فيها حياة الأساطير بطريقة رائعة في بساطتها وبسرهما حقاً .

طه حسين

غُلُوء « قصة » للشاعر إلياس أبي شبكة (مطبعة صادر — بيروت)

هذه قصة فتاة من لبنان ، كتبها شاعرها بين سنتي ١٩٢٦ و ١٩٣٢ ونشرها في هذه الأيام . وقد حرص الشاعر على أن يذكر هذا التاريخ في صدر القصة ليذكر أنه « ليس فيها من حياة المؤلف في مطلع شبابه إلا شطر ضئيل » ، و « أنها قصيدة لا تاريخ ! » ولعل في حرص المؤلف على إثبات هذا القول في صدر القصة ما يحمل بعض القراء على لون من الحدس كان الشاعر يريد أن يبعده عن أذهان القراء ، فهو نقي يشبه الالتيات ! وغُلُوء هذه فتاة يصفها الشاعر فيقول :

غُلُوء — ما أحلى اسمها للمطارا — صبية تغبطها العذارى
لا يستطيع شاعر أن يبدع قصيدة أجمل منها مطالعا
تصور الأزهار في نوار تتعشها ارتعاشة الأنوار

ويعمى في وصف مفاتيح الطبيعة على اختلاف فنونها في أسلوب غزلي بديع ، حتى ينتهي إلى أن يقول :

وانظر أخيراً نظرة سريعة مختلف الجمال في الطبيعة
تعرف إذن معرفة علياء كيف السماء أبدعت غُلُوء !

وكان لغُلُوء هذه التي يصفها الشاعر فيبدع ويفتن قرية في صور اسمها وردة يصفها فيقول :

جالها يحمل للجنون وميضه الشهوة للعيون
تشعر من جسدها المشتعل في كل عرق بدماء رجل
تصور البركان في ثورته

ويعمى في وصف شرور الطبيعة حتى ينتهي إلى أن يقول :

وانظر أخيراً نظرة سريعة مختلف الشرور في الطبيعة
يبد لك المقت إذن فتعلم كيف أرادت « وردة » جهنم !

ودهمت غُلُوء إلى صور لزيارة قريبتها وردة ، قالت للملك الاتي بشيطانة ، هنا فتاة تقية الضمير صافية الروح ، وهناك فتاة عابثة مستهتره ، تتبع نفسها للشيطان ، واطلعت غُلُوء على منظر بغيس من مبادل قريبتها ومضيقتها وردة :

وأرسلت نظرة بر طاهر فهاها في الخدع المجاور
فاجرة على ذراع فاجر !

وكانت مفاجأة هزت كيان غُلُوء هزاً عنيفاً وملأت خيالها بالآوهام ، وبدلت نظرتها إلى نفسها وإلى الحياة :

واستيقظت من نفسها المحنومه من « وردة الحبيبة » الاليمه
صارخة أخيلة الجريمة !

ظهر حديثاً

وجحظت في صدرها الآلام كجفتها المحوم لا تنام
وانتقل الأثم بها انتقاله أجرت على خيالها خياله
فظم الوهم ، وفي الأوهام أفتك بالعتل من البرسام
وقام في أحلامها المعبه رؤيا كأنما هي المرتكبه

واستبد بها الوهم منذ تلك الليلة ، من هول الجريمة المنكرة التي شهدتها عيناها ، فكأنما هي — في نظر نفسها — تلك الآثمة الشهوى ، فلم تجد كفارة لهذا الذنب الذي قام بنفسها أنها هي التي اترفته دون غيرها إلا أن تقطع ما بينها وبين الناس ، حتى فتاها شفيق الذي كان يملأ خياله قلبها ، وكان خيالها يملأ قلبه — قد قطعت وباعدت ما بينها وبينه ، وراح الفتى يزلف إليها وهي تأبى ، ضناً به على مثلها وهي — فيما ترى — آثمة مقترفة !

ومضى الوهم بها إلى غايته حتى أشرفت على التلف من الندم ووخز الضير على غير ذنب . ومضى الوجد بالفتى إلى غايته حتى أشرف مثلها على الهلكة من الشوق والاهنة . والفتى لا يدري ما بها ، وهي لا تدري ما شأن نفسها ، وإنما هي من حى الوهم في هذيان !

والتقيا ذات يوم في الربيع ، وقال لها وقالت له ، وكان يمد إليها يداً وهي تردده عنها يدين ، وطال بينهما الحديث والنجوى ، وأحست أوهامها تسرب رويداً رويداً ، فتتنشق النشاوة بين قلبيهما قليلاً قليلاً ، وعرف الفتى كل ما هنالك ، وانكشفت له الحقيقة ، وصفا ما بينهما من الوداد .

وشفيت غلواء من أوهامها لكنها لم تشف من آلامها !

هذه هي القصة كما صورها الشاعر إلياس أبو شبكة : قصة بسيطة لا تكاد ترى فيها حادثة زوى ، ولكنها إلى ذلك معقدة أشد التعقيد ؛ لأن حوادثها تجري في باطن النفس لا في ظاهر الحياة . وهي قصة فريدة للموضوع ، وإن كانت صورها النفسية مما يمكن أن يعرض لكل ذى حس مرهف وشعور دقيق حين تشهد عيناها حدثاً منكراً تسمثر منه الفطرة وتنفعل به النفس . على أن جمال القصة لا يبدو في موضوعها كما يبدو في فن الشاعر وجمال معرضه ودقة ملاحظته لما يتعاقب على النفس من ألوان الوجدان وعلى الطبيعة من فنون الجمال . هي قطعة جميلة من أدب لبنان ، لشاعر مبدع من شعراء لبنان ، يصور فيها لبنان ، عاطفة ووجداناً وموطناً من مواطن الحسن والفتنة !

محمد سعيد العربي

جائزة الكاتب المصري للقصة

أقبل الأدباء على جائزة القصة إقبالاً كبيراً ، وألفت الدار لجنة من حضرات الدكتور طه حسين بك والأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني والأستاذ محمود تيمور بك والدكتور محمد عوض محمد بك والأستاذ حسن محمود لمراجعة هذه القصص وينتظر أن يصدر حكم اللجنة في أوائل شهر مايو .

في مجلات الشرق

التواكل

في مقال بعنوان «القول في انكالتنا» للاستاذ محمد كرد علي بمجلة «المجمع العلمي العربي» بدمشق ، الجزء الثالث والرابع من المجلد الحادى والعشرين :

« كانت أعمال الأفراد في معظم العصور أكثر تفعا وأوفر عائدة مما تتولاه الدول . ذلك لأن عمل الفرد تظهر فيه المسئولية فيحتاج إلى التدقيق ، وفي عمل الدولة تختفى التبعات ، ويزيد الاسراف في النفقات ، ويتهاون بالجزئيات وأحياناً بالكليات . ولذا رأينا السكك الحديدية والمعامل والمدارس وكل ما تديره الحكومات في الغرب والشرق من المشاريع أقل ريعاً وأكثر نفقة مما يديره الأهليون .

« ومتى ضعفت ثقة الناس بعضهم ببعض ، تفتحت للحكومات منافذ التدخل في أمور الرعية ، فتستتبع بعض طبقاتهم على ما تهوى ، ويقوى بذلك سلطانها ، وتتشعب فروع أعمالها ، وتتضاءل سلطة الفرد ، ويفنى في المجموع . وإذا قل اعتماد الناس بعضهم على بعض يكون إلى ولايتهم أمورهم ، وبطلبون إليها العناية بما ليس من واجبها معاناته ، ويطالبونها أن تتولى منهم ما يتولاه الوصى من أمر اليتامى جعلوا تحت وصايته ! »

الفكر

من مقال للباحث الرحالة الأستاذ حنا خباز في العدد الثانى من مجلة « الفكر » التى تنشر بحوث الندوة الثقافية بدمشق :

« رفيق لم يفارقنى خمسة وسبعين عاماً . هو ألقى بي من أبى وأمى ، وأخى وأختى ، وزوجى وأولادى . لم أدرك شيئاً من أمره وأنا جنين فى بطن . ولكنه طاماً بدأت أزحف على وجه الأرض بدأت مطالعه تنجلي . أفادنى فى فهم لغة الأم وبعض لغات الأعاجم . ورافقنى فى الكتاتيب والمدارس . فأضفى كثيراً من العلوم على أنواعها . أعطانى معرفة شىء زهيد من كل موضوع ، ولكنه لم يعطنى كل شىء فى موضوع ، فلم أختص بشىء . وقد قادنى إلى الاتصال بكثيرين عاشوا قبل . إن خمسة يستغنون عنه فقط ، وهم : الموتى ، والنائمون ، والمجانين ، والسكران ، والأطفال . وقد يلحق بهؤلاء ثلاثة آخرون ، وهم : العشاق ، ووطنيو الشوارع ، وبعض الصحفيين ! »

امرأة ولعها كل امرأة ١

وللأديب الشاعر الاستاذ مواهب الكيالي في العدد نفسه من مجلة « الفكر » :

أنت ، يا من صفتها بالأمس كأثا لشرابي
وبها ذوبت حرمانى وشوقى وعذابى
لهنى كم كنت مجنوناً بأحلام كذاب
لم أقق منها وفى كفى شيء من شبابى !

أنت ، من أنت ؟ دعى عنك أكاذيب الأمانى
لست إلا جسداً تقنيه أحداث الزمان
لم تكونى مرة روحاً يناجيه اقتنانى
أنت جسم ، وأنا لست بمن يهفو لفنانى ؟

آه من أمسى وقد كان دموماً فى المآقى
آه أشواقى وهل مثلك يدرى ما اشتياقى ؟
من تكونين فأعطيك مع الفجر انطلاقى ؟
من تكونين وما أنت سوى :
تدى وساق !

آداب البلاد العربية

سأل مراسل مجلة « الأديب » البيروتية فى مصر الاستاذين العقاد والمازنى عن رأيها فيما
قد يكون هناك من فروق بين الأدب المصرى وآداب البلاد العربية تحمل مصر على عدم
العناية بشير ما ينتجه أدباؤها
فقال العقاد — عدد مارس سنة ١٩٤٦ من مجلة « الأديب » :

« والذين يلومون أدباء مصر ويعتقدون بأنهم لا يسيرون الكتب اللبنانية اهتماماً ، هؤلاء
قوم مخطئون ولا صحة لدعواهم هذه ؛ فإنا من كتاب وصل إلى مصر إلا وأعطته حقه من
العناية ، وقد مضى زمن كانت مصر هى الميدان الوحيد لأقلام الأدباء والشعراء من بلاد
العربية جماء ، واشتهر أدباء سوريون ولبنانيون بما كتبوه وطبعوه ووزعوه فى الديار
المصرية . . . إن الجائزة الأولى فى كتاب سلسلة « اقرأ » قد منحت لأديب فلسطينى بناءً
على اختيار القراء المصريين ، فليست المسألة أن مصر لا تلتفت إلى أدباء الأمم الأخرى ، بل

في مجلات الشرق

أن فريقاً من الأدعياء لا يطبقون أن يذكر الأدباء المصريون في غير بلادهم ، وهم لم يبلغوا هذه الشهرة بدسيسة أجنبية ، ولا بحيلة من الحيل المصطنعة ، ولكنهم بلغوها لأنهم أهل لها ... وسيظلون أهلاً لها من غير حاجة إلى استئذان أولئك الأدعياء ! »

وقال المازني :

« وقد كنا في مصر إلى عهد قريب والأدب اللبناني هو السائد ، ولا يزال أثره باقياً في صحافتنا ؛ فإن الصحف اللبنانية الأصل من أقوى الصحف المصرية وأقدمها وأرسخها قدماً . ولعل هناك دورة نهوض محلي ، فليس ثم مانع من أن يبرز الأدب اللبناني ويشيع في الأقطار العربية وتكون له الغلبة والمرتبة الأولى ثم يتبعه بعد زمن أدب مصرى فيظهر ويستولى على الميدان ، ثم يلي ذلك عهد نهضة للأدب السوري ، ولكنه — على كل حال — أدب عربي ومن الخطأ جداً أن تفرق بينه ، وأن نطلق عليه هذه الأوصاف المحلية فنقول هذا لبناني ، وذاك عراقي ، والثالث سوري أو مصري ؛ لأنه كله عربي كما أسلفت ... »

الأدب الحجازي

وفي عدد صفر سنة ١٣٦٥ من مجلة « المنهل » التي تصدر في مكة المكرمة ، رأى الاستاذ محمد عمر توفيق في استفتاء موضوعه « أدبنا وهل يصلح للتصدير أم لا ؟ وكيف يصلح له ؟ » يقول :

« إنني أريد أن أقول — وسيقول الكثيرون — إن أدب الحجاز مغفور كأدب الزنوج إن صح أن لهم أدباً مدفوناً في ذلك الجانب المقفر من الدنيا ؛ ولست أعني أن هناك أدباً حجازياً أثمرته أقلام كتاب هذه البلاد وشعرائها وألفت به في النار ، أو في قبور من الأوراق اللطوية ، وإن كان الحديث يجري بأن بعض من نعرف من الأدباء قد أثمرت دراسته مؤلفاً أو مؤلفات من النثر والشعر ، فتلك مجموعة مستورة لا يتسنى لنا أن نتخذ منها قاعدة لتقرير قيمة الأدب الحجازي للمغفور ما لم تنشر على الناس . ولكن ما أعنيه هو هذا الأدب المنشور من قبل ومن بعد في الصحف والمجلات وفي كتب قلائل لعل بعضها أرث من بعضها ... » ولعلنا غير مغالين أو مبالغين إن قلنا إن بعضاً مما تنشره الصحف والمجلات المصرية للمنازة ، وبعضاً مما يذيعه المؤلفون هناك ، لا يكاد يلحق ببعض ما أتيجه وينتجه الشعراء والكتاب في هذه البلاد ! »

البيت والمدرسة

وفي عدد يناير سنة ١٩٤٦ من مجلة « المعلم الجديد » التي تصدرها وزارة المعارف العراقية في بغداد ، مقال للأستاذ حسن طه المدرس في الإعدادية المركزية ببغداد ،

عنوانه « التربية المدرسية والبيتية » يتحدث فيه عن أثر البيت العراقي في تعويق عمل المدرسة ،
ومنه قوله :

« تتميز العائلة العراقية قبل كل شيء بزعامة الأب فيها . . . وقد أثر هذا في مستوى المرأة الثقافي وأخرها أشواطاً بعيدة عن التطورات الاجتماعية . ولما كان الطفل أشد اتصالاً بأمه من أبيه فانه يتأثر بإرشادها حتماً أكثر مما يتأثر بأبيه ، ولما كانت أمه جاهلة منعزلة عن الدنيا فلا بد إذن أن يكون إرشادها قاصراً . . . ثم إن العائلة العراقية ولا سيما الأب ، لا يمتلك شعور الحياة المنزلية Home-life الذي تتميز به أكثر العائلات الغربية ، فتجد الرجل يقضي أكثر أوقاته خارج البيت ولا يعود إلى بيته إلا لينام ، فلا يعلم ما حل بأطفاله وبمائلته طول اليوم ، وهذا ما يعدم بطبيعة الحال كل مظهر من مظاهر التعاون بين الوالدين على تربية أطفالهما . . . »

الفن والأدب والخبز

وفي العدد ٤٢٩ من مجلة « المكشوف » التي تصدر في بيروت مقال بهذا العنوان بقلم
رؤيف خوري ، يقول فيه :

« هل من علاقة بين الفن والأدب من جهة ، وخبز الشعب من جهة ؟ هذا هو السؤال الذي أتصور أنه يعرض لذهنك كلما وجدتني أو وجدت أديباً أو فناناً يتصدى للحديث عن
خبز الشعب . . . »

« إذا كان فن فن يصنعه ؟ وإذا كان أدب فن ينتجه ؟ . . . إن الإنسان هو الذي يصنع
الفن وينتج الأدب ، وهو لا يصنع الفن ولا ينتج الأدب إلا بصفته كائناً اجتماعياً يعيش في
مجتمع ما . ثم إنه إنما يصنع الفن وينتج الأدب لهذا المجتمع الذي يعيش فيه ، فالفن والأدب ،
إذن ، كلاهما صنع وتناج اجتماعي ، وكل حالة تعلق بالمجتمع كان الإنسان هو منشأ الفن
والأدب . . . »

« إن الحاجة العقلية والعاطفية هي أم الفن والأدب ، وإن هذه الحاجة ليس يتأتى للإنسان
أن يحس بقوتها وإلحاحها عليه إلا بعد أن تستقيم له حاجته للمادية . فالإنسان الذي يقع على
طاقته العبء الثقيل من الكدح الدائم في سبيل حاجته للمادية لا يستطيع أن يصنع أدباً ولا أن
ينتج فناً . . . »

« هذه الجماهير الكثيفة تستطيع أن تغذي الفن والأدب بما تحتضنه منهما ، بل تستطيع
أن تجعل للفنان والأديب استقلالاً يكفل له الحرية ويكفيه مثونة العيش المشرّد أو الحياة على
هامش بلاط أو وظيفة . والفنان والأديب اللبناني ، والعربي على وجه الأجمال ، كلاهما في
حاجة إلى هذا الاستقلال وهذه الحرية . إن مرض الحياة على هامش بلاط أو وظيفة قد
أزمن في فنانينا وأدبائنا . لقد مات المتنبي متجسراً على منصب يتولاه ونحن بعد ألف سنة لم
نكده نخطو ، ولو أن المتنبي بعث حياً لما أدهشني أن أراه هاجماً في الهاجين على « السراي »
يلتس حتى قائمقامية ! »

من حولنا

قصص مصرية

تأليف محمد سعيد العريان

جيل من الناس في أفراحه وآلامه ،
يرى كل قارئ في مرآته صورة من
نفسه ، أو صورة من حوله ، في
إطار قصصي رائع في بيانه وفي فنه .

٢٦٠ صفحة

الثنى ٢٥ قرشاً (البريد ٢٠ ملياً)

الباب الضيق

تأليف

اندريه جيد

تعريب نزيه الحكيم

مع رسالة من أندريه جيد الى المترجمين
ورود طه حسين الى أندريه جيد

*

قصة الحب النقي الممتاز الذى يرتفع
عن خطوب الحياة اليومية ، ويرفع
أصحابه عن هذه الخطوب ، وما يزال
يرتفع ويرفع أصحابه حتى يبلغ بنفسه
وبهم نوعاً من التصوف يمتزج بالحب
الالهى امتزاجاً .

١٤٦ صفحة

الثنى ١٨ قرشاً (البريد ١٢ ملياً)



حكايات فارسية

بقلم يحيى الخشاب

كتاب يحمل إلى قراء العربية عبيراً
رقيقاً حسن الموقع فى النفس من
هذه الحياة الفارسية الممتازة بما فيها
من رقة وفطنة وفكاهة .

١٩٦ صفحة

الثنى ٢٠ قرشاً (البريد ١٦ ملياً)



صورة دورين جري

تأليف أوسكار وايلد

تعريب لويس عوض

صورة الصراع بين الإثم
والضمير ونقد الحياة الاجتماعية
الانجليزية في مزاج من الهزل والجد.

طبعة مزينة بصور مختارة من فيلم

"م.م.ج.م."

٣٠٠ صفحة

الثنى ٣٠ قرشاً (البريد ٣٤ ملماً)

شبح كاتريفيل

تأليف أوسكار وايلد

تعريب لويس عوض

سجل للمحن الطريفة المضحكة
التي تلم بشبح قصر كاتريفيل وموازنة
بين العقل الانجليزى المحافظ والعقل
الامريكى المجدد.

طبعة مزينة بصور مختارة من فيلم

"م.م.ج.م."

١٢٨ صفحة

الثنى ١٨ قرشاً (البريد ١٦ ملماً)

المقامر

تأليف فيدور دوستويفسكى

تعريب شكرى محمد عياد

قصة شاب ممتحن بداء القمار
لقى من هذا الداء في حياته شرا
عظيماً . وهى قصة عنيفة تستأثر
بجاجة القارئ إلى الاستطلاع .

١٦٩ صفحة

الثنى ١٨ قرشاً (البريد ١٦ ملماً)

الحب الأول

تأليف إيثان ترجنيف

تعريب محمود عبد المنعم مراد

قصة ساذجة تصور قلب شاب
ناشئ يندفع إلى الحب في غير احتياط
ولا تحفظ وما يصيبه من يأس حينما
يعلم أنه كان يحب عشيقته أبيضه .

١٠٤ صفحة

الثنى ١٥ قرشاً (البريد ١٢ ملماً)



تحت الطبع

فَاتِحُ الْفَلَسْفَةِ الْأَوَّلِيَّةِ فِي الْعَصْرِ الْوَسْطِيِّ

تأليف

الأستاذ يوسف كرم
مدرس الفلسفة بكلية الآداب
بجامعة فاروق الأول

تحت الطبع

مدرسة الزوجات

يلها روير و جينييف

تأليف

أندريه جيد
تعريب صبرى فهمي

تباع كتب

دار الكاتب المصري
في المكتبات الشهيرة

وإن أردتم أن تصلكم كتبنا
رأساً بالبريد فارسلوا إلى الدار ثمن
ما تختارون منها مع إضافة أجرة
البريد المحددة .



تحت الطبع

فَهْرَ عَلَى نَهْرٍ الْقَاصِي

تأليف

موريس بارس
تعريب عبد الحميد عنبر
وعبد الحميد عابدين



VALEURS

CAHIERS TRIMESTRIELS DE CRITIQUE ET DE LITTÉRATURE
PUBLIÉS AVEC LA COLLABORATION DES ÉCRIVAINS DE FRANCE
ET DU PROCHE-ORIENT.

Directeur: ETIEMBLE.

SOMMAIRE DU CINQUIÈME CAHIER

GUSTAVE FLAUBERT
LETTRES INÉDITES À MAXIME DU CAMP

JULES SUPERVIELLE
ÉLÉMENTS D'UNE POÉTIQUE

ETIEMBLE
ÉVOLUTION DE LA POÉTIQUE CHEZ SUPERVIELLE

ALBERT CAMUS
LA PESTE

EDITH BOISSONAS
POÈMES

RAYMOND GUERIN
APRÈS LA FIN

NICOS ENGONOPOULOS
BOLIVAR

(traduction, avec une introduction de R. Levesque)

GWYN WILLIAMS
VENUS MUTILÉE

SAINT-BEUVE
DEUX LETTRES INÉDITES

REVUE DES LIVRES FRANÇAIS,
LETTRES ARABES, LETTRES ÉTRANGÈRES,
REVUE DES REVUES, NOTULES, BULLETIN.

Dans les numéros 6 - 8 VALEURS publiera notamment
des inédits de:

*Charles Baudelaire, Jean Paulhan, Marcel Proust, Alexei
Remizov, Théophile Gautier, Georges Bataille, Georges
Dumézil, Michel Leiris, Raymond Queneau, Jean Tardieu, etc...*

LA REVUE DU CAIRE

REVUE DE LITTÉRATURE ET D'HISTOIRE

SOMMAIRE DU NUMERO DE MARS

- ROBERT HENRIQUES. Récits de guerre.
ALEX. PAPADOPOULO. Stéphane Mallarmé (*à suivre*).
BORIS POLEVOI . . . Le sapeur Nicolas Kharitonov.
PIERRE EMMANUEL . Poèmes.
ANDRE CLOVIS Été 1944, aux lisières du Maquis (*fin*).
RENE SUDRE Traitements chimiques des maladies infectieuses.

CHRONIQUES

DUSSANE — Raymond COGNIAT

وازن الأرواح

للكاتب الفرنسي أندريه موروا (عضو المجمع اللغوي الفرنسي)

تعريب عبد الحليم محمود (مدرس علم النفس بكلية اللغة العربية)

سياحة في عالم الأرواح . . . يقرأها المؤمنون ، ليزدادوا إيماناً

والشاكوك ، ليعودوا إلى نعيم اليقين

والملاحدون ، ليجدوا الدليل على عكس منطقهم

الثنى ٢٠ قرشاً

(البريد ١٦ ملياً)



ظهر حديثاً

كليمنصو وَحَيَاتُهُ الْعَاصِفَةُ

تأليف ليون دوديه

تعريب حسن محمود

كليمنصو... مسقط الوزارات... النمر
الرجل الذي عاش حراً فأصبح مغلولاً
الرجل الذي طلب أن يدفن واقفاً في القبر

*

زعيم في السياسة بقلم زعيم في الادب

طبعة مزينة بالصور

وصفحة ملونة تبين كيف كان لهذا الزعيم بعد فظية

٢٨٨ صفحة

الثنى ٣٥ قرشاً (البريد ٢٤ ملياً)

ظهر حديثاً



الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

تصدرها دار الكاتب المصري

شركة مساهمة مصرية

والطبع بمطبعها

رئيس التحرير

طه حسين

سكرتير التحرير

حسن محمود

إدارة الكاتب المصري

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة

الاشتراك

يدفع مقدماً باسم « الكاتب المصري »

١٠٠ قرش في السنة لمصر والسودان

١٢٠ قرشاً في السنة للخارج أو ما يعادلها

مجلة الكاتب المصري تعني بكل ما يرد إليها من المقالات
والرسائل ولكنها لا تلتزم بنشرها ولا ردها

التمن بمصر : ١٠ قروش

الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرست

طه حسين	مورتان	٥٥٣
محمد رفعت	مشكلة فرنسا في إفريقية الشمالية	٥٧٤
محمود عزمي	إيطاليا ومؤتمر الصلح	٥٨٢
سليمان حزين	الشرق الأوسط والحرب	٥٨٦
بشر فارس	وحي (قصيدة)	٦٠١
محمد عبد الله عنان ...	الملكة شجرة الدر	٦٠٢
سلامة موسى	الطفولة والصبا	٦١٣
سيد قطب	الوعي في الشعر	٦٢١
عبد الرحمن صدق ...	على النيل (قصيدة)	٦٣٠
لويس عوض	برنارد شو	٦٣١
أحمد فؤاد الأهواني .	قضية العلم بين الغزالي وابن رشد ...	٦٤٦
حسين عرب	النفس المغتربة (قصيدة)	٦٥٤
روجيه كايوا	سلطان اللفظ	٦٥٦
ريمون فرئيس	مسرحيات أندريه جيد	٦٦٤
ماري مكارثي	رجع الصدى (قصة)	٦٧٦

من هنا وهناك (عبد العزيز أحمد ، عطاء حمدي)

شهرية العلم — شهرية السياسة الدولية — شهرية الفن

شهرية المسرح والسينما

من كتب الشرق والغرب — من وراء البحار — ظهر حديثاً

في مجلات الشرق



تصدرها دار الكاتب المصري

شركة مساهمة مصرية

القاهرة

وازن الأرواح

للكاتب الفرنسي أندريه موروا (عضو المجمع اللغوي الفرنسي)

تعريب عبد الحليم محمود (مدرس علم النفس بكلية اللغة العربية)

هل توجد الروح ؟ ... وكم تزن ؟ ...
هل يمكن الاحتفاظ بها ؟
هل يمكن أن تتمتع بعد الموت روحان كانتا مؤتلفتين أثناء الحياة ؟

الثنى ٢٠ قرشاً (البريد ١٦ ملياً)

جَنَّةُ عَلَى نَهْرِ الْعَاصِي

للكاتب الفرنسي موريس بارس (عضو المجمع اللغوي الفرنسي)

تعريب محمد عبد الحميد عنبر وعبد المجيد عابدين

غرام أقرب إلى العبادة ، ومغامرات أقرب إلى الأحلام
على ضفاف نهر العاصي
حيث تملأ السواقي بأنينها أجواز الفضاء

الثنى ١٨ قرشاً
(البريد ١٦ ملياً)



ظهر حديثاً

جميع الحقوق محفوظة لدار الكاتب المصري

الكتاب المصري



مايو ١٩٤٦

جمادى الثانية ١٣٦٥

مجلد ٢ — عدد ٨

ثورتان

كانت إحداهما في إيطاليا أثناء القرن الأول قبل المسيح ، وكانت ثانيتهما في العراق أثناء القرن الثالث للهجرة . وقد عرّضت أولاهما الجمهورية الرومانية كلها لخطر عظيم ، وعرّضت ثانيتهما الخلافة الإسلامية كلها لخطر عظيم ، وقد كانت لكل واحدة منهما أعقاب كثيرة خطيرة ظهرت آثارها فيما بعد ، كما كانت لكل واحدة منهما خصائص أظهرت أبطالاً من المختصمين يستحقون الدرس والبحث ، ويستوجبون العناية ، ويدعون إلى كثير من التفكير .

فأما أولاهما فهي ثورة الرقيق في إيطاليا ، تلك التي قادها سبرتا كوس ، وأما ثانيتهما فهي ثورة الزنج في البصرة ، تلك التي قادها عبد الله بن محمد المعروف بصاحب الزنج .

وقد يسأل القارئ فيم تعرضي لهذا الموضوع وقد ذهب الرق و انتهت أيام الأرقاء ، وليس في حياة الناس الآن ما يدعو إلى التفكير في مثل هذا الموضوع والعناية به . وأحب أن ألاحظ قبل كل شيء أن من الجائز أن يكون الرق الفردي قد ذهب وانقضى عصره ، وإن كنت لا أثق بذلك ولا أطمئن إليه ، ولكن الرق الاجتماعي لم يذهب بعد ولم ينقض عصره . ولست أدري متى يذهب ومتى تنقضي أيامه . فهناك شعوب تسترق شعوباً ، وهناك طبقات من الناس تسترق طبقات من الناس . ومع ذلك ، فأنا لم أختَر هذا الموضوع لأتحدث عن استرقاق الشعوب للشعوب واستغلال طبقات الناس لطبقات الناس ؛ وإنما اخترت هذا الموضوع لسبب آخر سيعرفه القارئ بعد حين . وأحب أن ألاحظ

بعد ذلك أن ثورة الزنج في البصرة لم تكن في حقيقة الأمر بدءاً من حياة المسلمين ؛ فقد عرف المسلمون قبل أن ينتصف القرن الأول للهجرة سحق الساجدين على النظام السياسي والاجتماعي ، وثورة الثأرين بالنظام السياسي والاجتماعي ، ولقيت دولة بني أمية كما لقيت دولة بني العباس من طلاب العدل السياسي والاجتماعي ألواناً من العناء يعرفها الذين يدرسون تاريخ الخوارج ويتبعون تطور مذاهبهم منذ كانت نظرية التحكيم . فليست ثورة الزنج في حقيقة الأمر إلا مظهراً من مظاهر المطالبة بالعدل الاجتماعي قد اعتمد على مذهب الخوارج أكثر مما اعتمد على أي شيء آخر . ويكفي أن نلاحظ أن صاحب الزنج قد كتب على رايته بالخضرة والحمرة الآية الكريمة : « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ » إلى آخر الآية . فالثورة في مظهرها خارجية ، قد باع الثائرون فيها أنفسهم لله يقاتلون في سبيله فيقتلون ويقتلون ، كما كان الخوارج يصنعون من قبل ، وكما كانوا يصنعون من بعد ، وكما كان خارجي آخر يصنع في الوقت نفسه ، فيكلف الدولة عناءً ثقيلاً ، يقاتل ومعه أصحابه كما كان يزعم في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وهو مساور الذي خرج على الدولة في أعماق إيران .

وأحب أن ألاحظ آخر الأمر أن ثورة الرقيق على الجمهورية الرومانية في إيطاليا قد أثارت كثيراً من القول ، فكتب فيها المؤرخون القدماء وكتب فيها المحدثون ، بل تأثر بها بعض المحدثين في آرائهم الاجتماعية والسياسية ، وما زالت تلهم الكتاب الأوروبيين إلى الآن ، وهذا هو الذي دفعني إلى أن أعرض لهذا الموضوع في هذا الحديث .

فقد قرأت في هذه الأيام الأخيرة قصة رائعة للكاتب المجري أرتور كوسلر ، موضوعها « سبارتا كوس و ثورة الرقيق على روما » فسألت نفسي ما بال ثورة الزنج لم تحدث في حياتنا الأدبية مثل ما أحدثته هذه الثورة الإيطالية القديمة ؟ لقد سجل المؤرخون أحداثها كما سجل المؤرخون الرومانيون أحداث الثورة الإيطالية ، وقال الشعراء المعاصرون في الثورة كثيراً من الشعر ، كما تحدث الأدباء الرومانيون من قبل في اللاتينية واليونانية عن ثورة سبارتا كوس . ولكن الأوروبيين لم ينسوا تاريخ روما وأحداثها ، ولم ينظروا إليه على أنه تاريخ ليس غير ، وإنما جعلوه جزءاً من حياتهم ومن حياتهم

الواقعة التي يحيونها بالفعل ؛ فهم يستلهمونه كما يستلهمون التاريخ اليوناني وكما يستلهمون أساطير اليونان والرومان، وكما يستلهمون التوراة فيما يكتبون من نثر وما يقرضون من شعر . فأما نحن فنعرض عن التاريخ العربي إعراضاً يوشك أن يكون تاماً ، لا نكاد نحفل منه إلا بعصر البطولة الذي نجتمع كلنا على حبه والإعجاب به . فنحن نتحدث عن عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين ، ونحن نذكر دمشق عاصمة أمية ، ونذكر بغداد عاصمة بني العباس ، ونذكر القاهرة عاصمة الفاطميين ، نذكر هذا كله نلتمس فيه الفخر بالقديم ونلتمس فيه العبرة والعظة أيضاً ، وقد نلتمس فيه ما يدفعنا الى الجد ويشير فينا النشاط ، ويعزينا عن بعض ما تلقى مما لا يلائم كرامتنا ولا يوافق مجدنا القديم . وكل هذا حسن من غير شك ، ولكن من الخير أيضاً أن ننظر إلى تاريخنا على أنه مصدر من مصادر الإلهام الأدبي ، وعلى أنه جزء من حياتنا الواقعة لم تنقطع بيننا وبينه الأسباب ، فنحن ما نزال نشارك القدماء فيما شعروا وفيما أحسوا ، لا يفرق بيننا وبينهم إلا هذا التطور الذي لا بد منه للأحياء .

وربما كان من الطريف أن نلاحظ أن كثيراً منا يفكرون في العدل الاجتماعي ، ويحسون حاجة الجماعات إليه ، ولكنهم ينظرون إلى ما وراء البحر الأبيض المتوسط ، ليلتمسوا في أوروبا مصادر هذا الشعور بالحاجة إلى العدل الاجتماعي ، ومظاهر المطالبة به والسعى إليه ، ينظرون إلى الديمقراطية المعتدلة وينظرون إلى الاشتراكية الدولية وإلى الاشتراكية الوطنية وقد ينظرون إلى الشيوعية في كثير من التردد والاستحياء . ولكنهم لا ينظرون أو لا يكادون ينظرون إلى فكرة المطالبة بالعدل الاجتماعي كما وجدها المسلمون قبل أن ينتصف القرن الأول للهجرة ، وقليل منهم بل أقل من القليل أولئك الذين يحاولون أن يتابعوا نشأة هذه الفكرة وتطورها في البيئات الإسلامية الشائرة ، وما أنتجت من ألوان الأدب ، قبل أن تتأثر بالثقافات الأجنبية وبعد أن تأثرت بهذه الثقافات ، وما كان لها من أثر في حياتنا العقلية المعقدة في الفلسفة والكلام وفي الفقه والأصول ، فضلاً عن أن يفكروا في استلهم هذا اللون من ألوان الحياة الإسلامية حين يكتبون النثر أو ينظمون الشعر . ومع ذلك فقد كان للمطالبة بتحقيق العدل الاجتماعي أبطال من حقهم أن يدرسوا ومن حقهم أن يلهموا الكتاب والشعراء ، كما جرت المطالبة بالعدل الاجتماعي على المسلمين في

جميع أقطار الأرض الإسلامية خطوباً هائلة من حقها أن تدرس وتبلى ، ومن حقها أن تلهم الكتاب والشعراء حين يكتبون وينظمون .

وأنا بالطبع لا أريد في هذا الحديث أن أدعو إلى إحياء حركات الخوارج والزنج والقرامطة ، كما أنى لا أريد أن أدعو إلى أن نستعير من أوروبا هذا المذهب أو ذاك من مذاهب المطالبين بتحقيق العدل الاجتماعى ، وإنما أحب أن ألفت أدباءنا إلى أن لنا فى المطالبة بالعدل الاجتماعى تاريخاً حافلاً عظيم الغناء يستحق أن نرجع إليه بين حين وحين ، فلعلنا إن فعلنا عرفنا أن المتطرفين من قدمائنا قد سبقوا إلى طائفة من الأصول فى تنظيم الحياة الاجتماعية لم تستكشف فى أوروبا إلا أثناء القرن التاسع عشر أو فى عصر الثورة الفرنسية الكبرى .

فنحن إذن لسنا عيالا ولا يمكن أن نكون عيالا على المطالبين بتحقيق العدل والناشرين على الظلم الاجتماعى من الأوروبيين ، وإنما نحن أبعد منهم عهداً وأشد منهم ممارسة لهذا النحو من محاولة الإصلاح . من قدمائنا من طلب الإصلاح الاجتماعى فى رفق ولين ، ومنهم من طلبه فى ثورة وعنف ، ومنهم من أثارها حرباً شعواء على النظم القائمة فعرضها للخطر ، وكاد يمحو سلطانها محواً .

والثورتان اللتان أريد أن ألم بهما فى هذا الحديث تصوران لونا من ألوان السخط يستحق أن يطيل الأدباء التفكير فيه . فقد نشأت ثورة الرقيق على روما من عادة بشعة كان الرومانيون قد ألفوها ، ولكنها لم تلبث أن تجاوزت مصدرها الضيق وأصبحت ثورة شاملة على النظام الاجتماعى كله فى إيطاليا .

هذه العادة البشعة التى أنشأت هذه الثورة هى عادة الاستمتاع بمنظر الرقيق المصطرعين . فقد ألف الرومان أن يشتروا الرقيق ويثقفوهم فى فنون الصراع الذى ينتهى إلى الموت ، حتى إذا برعوا فى هذه الفنون عرضوهم على النظارة فى الملاعب وأغروا بعضهم ببعض ، وجعل النظارة يستمتعون بما يكون بينهم من كبرٍ وفر ومن إقدام وإحجام ، وبما يسفك بينهم من دماء ، وبما يزهق بينهم من نفوس . وكان الرومانيون يؤثرون هذه اللذة الآثمة على كل شئ ، ينعمون حين يصرع الانسان الانسان ، وينعمون حين يصرع الحيوان الحيوان ، وينعمون حين يكون الصراع بين الانسان والحيوان . وكانوا فى أعقاب الجمهورية وفى أيام الإمبراطورية يطلبون إلى سادتهم وقادتهم ، كما هو معروف ، شيئين اثنين : الخبز واللعب .

ففي مدينة من المدن الإيطالية كان رجل من أصحاب الملاعب قد جمع طائفة من الرقيق يشقفهم هذه الثقافة البغيضة ، ويعرض صراعهم على النظارة بين حين وحين ، فهربت جماعة الرقيق من مدرسة هذا الرجل في مدينة كابو ، وكان عددها ينيف على السبعين ، وانطلقت أمامها لا تلوى على شيء ، واستعان صاحبها بالشرطة فلم تقدر على ردهم ، ولكنهم لم يكادوا يتقدمون في هربهم حتى انضمت إليهم أعداد أخرى من الرقيق ، لم تكن تتخذ للصراع وإنما كانت تتخذ للخدمة على اختلاف ألوانها . وما هي إلا أن ينتشر النبا ويتسامع به الناس حتى ينتشر معه هرب الرقيق وانضمامهم إلى هؤلاء الأبقين . ثم لا يقف الأمر عند الرقيق وإنما يتجاوزهم إلى أشباه الرقيق من الفقراء والبائسين الذين يعملون في الأرض والذين لا يعملون ، والذين يحتملون من ألوان البؤس ما يطاق وما لا يطاق ، وإذا الجماعة تضخم شيئاً فشيئاً حتى تصبح خطراً تحسب له الجمهورية حساباً . ثم يتجاوز الأمر هؤلاء جميعاً إلى ألوان من الناس لم يكونوا رقيقاً ولم يكونوا أحزراً فقراء وإنما كانوا ساخطين على النظام الاجتماعي ، يرون فيه ظلماً يجب أن يرفع ويطنحون إلى مثلٍ عليا يجب أن تتحقق . من هؤلاء من كان معنياً بالأدب والبيان ومنهم من كان معنياً بالقضاء والمحاماة ، وكل هؤلاء قد نسوا مدرسة الصراع وهرب المصارعين ، وأصبحوا لا يفكرون إلا في النظام الاجتماعي السيء الذي كانوا يحاولون تغييره . ولست في حاجة إلى أن أصور سوء النظام الذي كان هؤلاء الناس يشعرون به ويسخطون عليه ، وإنما يكفي أن ألاحظ أن الثروة الرومانية الضخمة كانت قد انحصرت في أيدي طائفة قليلة من الناس يمكن احصاؤهم ، فهم الذين يملكون الأرض ويسخرون فيها الرقيق ويقصون عنها الأحرار ، وهم الذين يحتكرون التجارة داخل إيطاليا من وراء البحار ، وهم الذين يحتكرون الحكم في جميع أرجاء الإمبراطورية ويستغلونه لأنفسهم لا للشعب . وهم بحكم هذه الثروة الضخمة التي صارت إليهم يستطيعون أن ينشئوا الجيوش على نفقاتهم الخاصة ، ينشئونها في الأرض الإيطالية ، وينشئونها في أقاليم الإمبراطورية ويستعينون بها على تحقيق ما يريدون من المآرب والآمال .

في ذلك الوقت كانت كثرة الأحرار من أهل إيطاليا متعطلة قد فقدت ما كانت تملك من الأرض وأصبحت حالة على الأغنياء ، تعيش لهم وبهم ، تتلقى منهم رزقها وتمنحهم أصواتها في الانتخاب كما تمنحهم سواعدها حين يجد الجند

وتثار الحرب . وفي هذا الوقت كانت الثورات في الأقاليم منتشرة عنيفة : فتورة في أسبانيا ، وأمر مضطرب في آسيا . وفي هذا الوقت كان البحر ثائراً على روما ، قد استبد به جماعة من القرصان فتحكموا في المواصلات كما تحكموا في التجارة ، وقضوا على سلطان أساطيل الدولة قضاء يوشك أن يكون تاماً . فلا غرابة أن يضطرب مجلس الشيوخ الروماني أشد الاضطراب حين يثور الرقيق وتعظم جماعة الثائرين منهم ، وينضم إليهم عدد ضخم من الأحرار ، ويتعرض النظام كله لهذا الخطر العظيم . وقد أرسل مجلس الشيوخ جيشاً لقهر هؤلاء الثائرين وردهم إلى مواليهم ، فمضى الجيش حتى ألبأ الثائرين إلى قمة جبل لاذوا بها وحاصروهم الجيش هناك وقطع عنهم الميرة ، وأقام واثقاً بأنهم سينزلون على حكمه في يوم من الأيام . ولكن الثائرين احتالوا حتى انحدروا من الجبل إلى مكان أمين وداروا حول الجبل حتى أخذوا الجيش على غرة ، فهزموه هزيمة منكرة وقتلوا منه مقتلة عظيمة ، وغنموا ما كان في المعسكر من سلاح ومؤنة وأداة ، فاشتد بذلك بأسهم وعظمت قوتهم ، واشتد خوف مجلس الشيوخ في روما فأرسل إليهم جيشاً آخر لم يكن حظه خيراً من حظ الجيش الأول . ثم أرسل جيشاً آخر يقوده القنصلان ، فلم يصنع هذا الجيش شيئاً ، وإنما انهزم كما انهزم الجيشان اللذان سبقاه . وكان انتصار الثائرين في كل مرة ينشر لهم الدعوة في إيطاليا نشراً هائلاً ، ويحرض الرقيق أن يأتقوا ليلحقوا بهم ، ويحرض البؤساء على أن ينضموا إليهم ، حتى كثف جمعهم ، وحتى فقدت المدن الإيطالية الأمن أمام الخطر الداهم الذي يأتها من خارج من هذا الجيش الضخم ، والذي يأتها من داخل من هؤلاء الرقيق الذين يعملون في الدور والقصور والأرض ودور التجارة . ولذلك اهتمت روما لهذا الأمر اهتماماً خاصاً ، فاختارت لقتال هؤلاء الثائرين رجالاً ممتازاً من رجالها ، ممتازاً بشيئين ، بالثروة الضخمة التي لم تكن ثروة أخرى تعدلها في روما ، والتي أتاح لها أن يتحكم في الأغنياء والفقراء جميعاً ، وبالطموح الهائل الذي لم يكن يعدله إلا عجز الرجل وقصوره عن النهوض بمجلائل الأعمال . وهو مع ذلك قد كان يرى أصحابه وأترابه يشغلون المناصب العليا ويدبرون شؤون الدولة ويحكمون الأقاليم ، وكلهم كان مديناله بالمال القليل أو الكثير . هذا هو ماركوس كراسوس الذي اختارته روما لقتال الثائرين ، وأرسلت معه جيشاً ضخماً حسن العدة . فما زال يتتبع الثائرين يقهرهم حيناً ويقهرونه حيناً

حتى أُلجأهم إلى شبه جزيرة ، يأخذهم البحر من أكثر أقطاره ويأخذه هو من قطره الأخير . وهناك حصر الثائرين ، فاحتفر بينه وبينهم خندقاً وأقام على هذا الخندق سوراً منيعاً وانتظر أن يُلقوا إليه بأيديهم . وقد تعرض الثائرون لجهد هائل ، فقد انقطعت عنهم الميرة حتى ألح عليهم الجوع والظما والمرض ، وهم زعيمهم سبارتا كوس أن يستعين بالقرصان على تموينهم ، فعبثوا به وأخذوا منه ماله ولم يمنحوه إلا المواعيد . وهم أن يصلح القائد الروماني على أن يترك للناس حريتهم يصنعون بها ما يشاءون ، ويأخذ القادة ليصنع بهم ما يشاء ، ولكن كراسوس أبى إلا التسليم بلا قيد ولا شرط ، كما يقول الناس في هذه الأيام . وقد استيأس سبارتا كوس واستيأس أصحابه وأبوا أن يلقوا بأيديهم ، فاحتالوا حتى عبروا الخندق وتقدموا للموقعة اليائسة . هنالك تقدم سبارتا كوس بين الصفين فنحر فرسه وقال لأصحابه إن أقتل فلست في حاجة إليه وإن أنتصر فلن أعدم فرساً مكانه . ثم كانت الموقعة وقتل سبارتا كوس وقتل أكثر أصحابه وأمر سائرهم ، وعاد كراسوس وقد جعل من هؤلاء الأسارى نكالا للذين يحاولون الثورة على النظام الاجتماعي ، فأقام الصلبان على طول الطريق بين ساحل البحر وروما ، وجعل كلما تقدم أميالا صلب جماعة من الأسارى ، حتى امتلأت الطريق بين البحر وروما صياحاً وعويلا ودماء . وكان كراسوس يظن أن هذا الفوز على الثائرين سيكفل له التسلط على روما ، ولكن الشيوخ لم يقدرُوا هذا الفوز إلا تقديراً متواضعاً لأنه كان فوزاً على العبيد لا على الجيوش ذات العدة . وقد استطاع كراسوس مع ذلك بفضل ثروته الضخمة وغناه العريض أن يحالف قيصر وپومبيوس ، وأن يفرض الثلاثة أنفسهم على روما ، وأن يقتسموا الإمبراطورية بينهم . وكانت آسيا نصيب كراسوس ، فذهب إليها ومعه جيشه الضخم ، ولكنه لم يعد منها كما لم يعد منها جيشه . اندفع إلى حرب البارثيين وغرته قوته ولم تسعفه مهارة ولا سياسة ولا علم بفنون الحرب ولا استماع لنصح الناصحين ، فقتل ابنه أولاً وقتل هو بعد ذلك ومحق جيشه محققاً .

وقد نستطيع أن ننظر من أمر هذه الثورة إلى بطلين من أبطالها : أحدهما سبارتا كوس قائد الثورة ، والآخر كراسوس ماحق الثورة . فأما أولهما فقد كان راعياً للقطعان في تراقيا ، وقد جلب منها فيمن كان يجلب من العبيد ، فتنقل به الرق من مكان إلى مكان ومن يد إلى يد ، حتى انتهى إلى صاحب ملعب

المصارعين في تلك المدينة الإيطالية . وكان رجلا صمحا النفس ، طيب القلب ، ساذج الطبع ، كان راعيا من رعاة القطعان بأوضح ما لهذه الكلمة من معنى ، لا يحب قتلا ولا قتالا ، ولا يريد شرًا ولا خصومة ، وإنما يؤثر هذه الحياة السهلة الراضية على خشوتها ، يتبع قطعانه في مراعيها ، كل همه أن يرد عنها الشر ويصد عنها العدوان ، ولكنه لم يستطع أن يرد عنها ولا عن نفسه شرا ، ولا أن يصد عنها ولا عن نفسه عدوانًا ، فأخذ في بعض الغنائم كما أخذت قطعانه ، ويبيع في بعض الأسواق كما بيعت قطعانه أيضا . وهم سيد من ساداته أن يقدمه إلى الموت كما كانت قطعانه تقدم إلى الموت ، فهرب فيمن هرب من المصارعين ، لا يريد بغيا ولا اعتداء ، وإنما يريد أن ينجو بنفسه من أن يكون قاتلا أو مقتولا ، وأن ينجو بنفسه كذلك من أن يكون سلعة تباع وتشتري ، وأداة تسخر لغير ما تريد ، مع أن لها قلبا يشعر ، وعقلا يفكر ، وإرادة تعرف ما تقصد إليه .

وكان سبارتا كوس رجلا قوى الجسم ، مرتفعًا في السماء ، عريضا في الفضاء ، شجاعا لا يعرف الخوف ، مصمما لا يحب التردد ، قانعا لا يطمع إلا في أن يعيش حرا ، ولا يتمنى إلا أن يعود إلى وطنه في تراقيا ويستأنف حياته تلك مع قطعانه ينتقل بها في الرياض والمروج . ولو أطاعه أصحابه لكان من الممكن أن يبلغ من ذلك ما أراد ، وقد كان ينصح لهم دائما ويلح عليهم في النصيح أن يخرجوا من هذه الأرض الظالم أهلها ، وأن يعبروا الألب ويتفرقوا بعد ذلك فيمضي كل واحد منهم إلى وطنه ، ويستأنف حياته الهادئة التي كان يحياها قبل أن ييسط الرق عليه يده الظالمة . ولكن أصحابه لم يطيعوه ولم يسمعوا له ، كانوا قلة ضئيلة ثم أصبحوا كثرة عظيمة ، فأعجبته كثرتهم ولكنها لم تغن عنهم من الموت شيئا .

ولم يكن سبارتا كوس يبغض شيئا كما كان يبغض النهب والسلب والإغارة على المدن الآمنة . ولو سمع له أصحابه بعد أن رفضوا العودة إلى أوطانهم لاستقروا في هذه الناحية أو تلك من نواحي إيطاليا وعاشوا من كسب أيديهم ، ولا انتشرت دعوتهم في هدوء وسلم ، ولكن من الممكن أن ينعموا بحياة مطمئنة ، وأن يدافعوا عن هذه الحياة إن احتاجوا إلى الدفاع عنها . ولكن أصحابه لم يسمعوا له ، فقد كانت قلوبهم مغيظة محنقة ، وكانت نفوسهم ساخطة واجدة ، وكانوا

مظلومين ، فلم يكفهم أن يخرجوا أنفسهم من الظلم ، وإنما أرادوا أن يظلموا الناس كما ظلمهم الناس ، وأن يذيقوا سادتهم مثل ما أذاقهم سادتهم من الذل والهوان . ولذلك اعتدوا على المدن ، فخرقوا وخرّبوا وقتلوا ومثلوا وملأوا أيديهم مما لا يحل لهم من أموال الوادعين الهادئين ، فأحفظوا الناس على أنفسهم من جهة وأغروا الضعفاء وأصحاب المطامع باتباعهم من جهة أخرى . وكانوا لا يمر بهم يوم إلا ازداد إقبال الناس عليهم وبغض الناس لهم ، فكانوا يستكثرون في كل يوم من الأعداء والأولياء جميعاً . وقد همّ سبارتاكوس أن يأخذ أصحابه بالحزم ويحملهم على الجادة ويمنعهم من اقتراف الآثام ، فأبى بعضهم أن يسمع له وفارقوه إلى حيث لقوا حتفهم ، وسمع له الآخرون وقتاً ما ثم لم يلبثوا أن ضاقوا بهذه الحياة الهادئة التي يعتدي عليهم فيها ولا يعتدون على أحد ، فعادوا إلى سيرتهم وملأوا الأرض من حولهم شرّاً حتى انتهوا إلى تلك العاقبة التي صورتها آتفاً . وأما قانع الثورة كراسوس فقد كان كما رأيت رجلاً لاهداً لثرائه ولا حد لمطامعه ولا حد مع ذلك لعجزه وقصوره . ولم يكن ماهراً إلا في شيء واحد هو جمع المال يأخذه بحقه قليلاً ويأخذه بغير حقه كثيراً ، كان مرانياً مفحشاً في الربا ، ولكنه يشتط على الضعفاء وييسر الأمر تيسيراً للأغنياء وأصحاب الجاه ، يأخذ من أولئك أموالهم لأنه لا ينتظر أن يأخذ منهم شيئاً آخر . أما هؤلاء فيعطيهم ماله ، ولا يأخذ منهم ربحاً مالياً ؛ لأنه ينتظر أن يأخذ منهم الجاه والسلطان . فلما ارتفع أمره واحتاج إلى جاه الأغنياء وسواعد الفقراء ، طابت نفسه عن المال لأولئك ودّ هؤلاء جميعاً ، فكان يؤمّ الولائم لأهل روما كافة . كان يقيم الوليمة التي تشتمل على ألف مائدة ، وكان يتلقى الناس على اختلاف طبقاتهم في كثير من البشاشة والإيناس . كان كما يقول أبو نواس :

فتى يشتري حسن الثناء بماله ويعلم أن الدائرات تدور

ولكنه لم يكن يشتري حسن الثناء وحده بالمال ، وإنما كان يشتري معه سوء القالة وبغض البائسين . فقد كان يتتبع المحتاجين يشتري منهم ما يملكون بأبخس الأثمان . ولعله كان يدفع الناس إلى الحاجة ويضطرهم إلى أن يبيعوه ما يملكون ، كان يتتبع الحريق هنا وهناك ويشتري الدور التي تشب فيها النار وكان قد احتكر إطفاء الحريق وألف لذلك فرقة منظمة قوية ؛ فكان إذا شبت

النار في دار من الدور فاوض المالك في بيعها ، ولم يرسل فرقة المطافي لاطفاء النار حتى يتم البيع . وكان قد احتكر مواد البناء على اختلافها وصناعة البناء على تنوعها ، واتخذ من الرقيق والاحرار فرقاً تعمل في هذا كله ؛ فكانت مدينة روما كلها أو أكثرها ملكاً له ، وكانت له أملاك واسعة في مدن كثيرة أخرى ، وكانت له أرض زراعية لا يكاد يبلغها الإحصاء ، وكانت غلات هذا كله تؤول إلى خزائنه فينفق منها عن سعة ويشتري بها ما يشاء مما يباع وما لا يباع . وكانت هذه الثروة على ضخامتها لا ترضيه ولا تقنعه ؛ فقد كان يطمع في السلطان ، يريد أن يكون قنصلاً وحاكماً من حكام الأقاليم وقائداً للجيوش ومنتصراً على الأعداء ومنتحكماً في الأولياء . وكان يرى أن ثروته يجب أن تبلغه من هذا كله ما يريد . ولم يكن مخطئاً ؛ فقد كان النظام السياسي والاجتماعي من الفساد بحيث بلغت ثروته من هذا كله ما أراد . اشترى بومبيوس واشترى قيصر واشترى أعضاء مجلس الشيوخ واشترى أصوات الناخبين ، وارتقى إلى أعلى مناصب الدولة ، وسيطر على آسيا وتحكم في ملوكها ، وسعى في كثير من الطغيان والجبروت حتى لقي الموت كما يلقاه غيره من الناس ، كأنه لم يملك من الثروة ما ملك ، ولم يبلغ من السلطان ما بلغ ، ولم يتحكم في أشراف روما وملوك آسيا ما تحكم .

وكذلك قتل زعيم الثورة سبارتاكوس ، كما قتل قانع الثورة كراسوس . جاهد أولهما في سبيل حريته وحرية أصحابه وفي سبيل العدل ، فظفر بالحرية التي انتهت به وبأصحابه إلى الموت ، ولم يظفر من العدل لنفسه ولا لغيره بشيء ، بل لم يستطع أن يحقق العدل في معسكره ، ولا أن يمنع أصحابه الذين كانوا يطلبون العدل من أن يملأوا الأرض جوراً وظلماً . وجاهد ثانيهما في سبيل نفسه ، فأذل نفوساً لا تحصى وأزهق نفوساً لا تحصى ، وأهان الفضيلة في سبيل المظالم وازدري الحق والواجب في سبيل الشهوات ، وخدع الشعب واستذل سلطانه وأكرهه على ما لم يكن يريد ، ثم قاد الجيوش لا إلى النصر ولا إلى الهزيمة ، بل إلى الموت الساحق الملاحق الذي لا يبقى ولا يذر . كل هذا كان في إيطاليا أثناء القرن الأول قبل المسيح . فأما أحداث العراق فقد كانت تشبه هذا كله من وجوه كثيرة وتخالفه من وجوه كثيرة أيضاً ، ولم تكن أقل منه هولاً على كل حال .

لم يكن عبد الله بن محمد صاحب الزنج غنيًا ولا شيئًا يشبه الغنى . وأكبر الظن أنه لم يكن شيئًا مذكوراً ، ولولا هذه الثورة لجعله التاريخ كما يجهل الملايين التي لا تحصى من الناس في كل جيل . ولكنه كان فيما يظهر ذكي القلب بعيد الأمل دقيق الحس حاد المزاج ، ضابطاً لأمره مالكا لإرادته ، يصبر نفسه على المكروه في غير مشقة ولا جهد . كان يعيش ، فيما يقول المؤرخون ، ببغداد متصلاً ببعض الخدم المعروفين في قصر الخلافة ، وكان يرى الفساد يملأ الأرض من حوله : كان يرى فساد السياسة وفساد النظام الاجتماعي وفساد الأخلاق وعبادة اللذة هنا وعبادة المطامع هناك . كان يرى الحياة من حوله مغامرات لا تنقضي : رفيع يتضع ووضع يرتفع ، فقير تنهض به المغامرة إلى الثروة العريضة وغنى تنحط به المغامرة إلى البؤس الضيق ، وأغمار يأتون من هنا وهناك فإذ هم يرقون إلى أعلى المناصب ويستأثرون بشؤون الخلافة ويتحكمون في حياة الخلفاء . كان يرى ذلك من قرب فتكره نفسه أشد الانكار . أكانت نفسه تنكر هذا لأنها كانت نفساً كريمة تحب الخير وتكره الشر وتطمع في العدل وتؤثر المعروف ، أم كانت نفسه تنكر هذا لأنها كانت نفساً طموحاً تريد أن تشارك فيما يشارك فيه المغامرون وأن تأخذ نصيبها من الدنيا ؟ مسألة فيها نظر . يرى المؤرخون أنه لم يكن إلا مغامراً شريراً ، آثر نفسه بالخير وطمع لها في الرياسة واقترب في سبيل ذلك آثماً يشيب لها الولدان . والمؤرخون لا يسمونه إلا الخبيث واللعين ، ولا يصفونه إلا بأنه عدو الله وعدو المسلمين . ولكن بماذا كان المؤرخون يسمونه لو أنه انتصر ؟ وبماذا كان المؤرخون يصفونه لو أتيح له الفوز ؟

فالناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهي ، ولأم الخاطئ الهبل

منها يكن من شيء فقد كرهه عبد الله بن محمد ما رأى في بغداد ، وكره ما كان يحمل إلى بغداد من أخبار الاقطار الإسلامية . فقد كان عرش الخلافة يضطرب أشد الاضطراب ، يعيث الاتراك به في الحيرة ويستبدون من دون الخليفة بالامر ويسومون الخلفاء من الذل والهون ما يريدون . وكان الأمراء والعمال والناجون في الأطراف يستبدون بما في أيديهم وينشئون الدول المستقلة في الشرق والغرب ، يصانعون السلطة المركزية حيناً ويبادونها بالعدوان والحرب في أكثر الأحيان . وكان لكل قوى ضعفاء يستذلهم ، ولكل غنى فقراء يستغلهم .

فأى غرابة فى أن ينكر عبد الله بن محمد هذا كله ، وفى أن يتحدث بهذا كله أو ببعضه إلى نفر من أصحابه ، وفى أن يؤامرهم على أن يغامروا كما غامر الناس ويحاولوا تغيير هذا الشر كما حاول الناس من قبل ، وكما كانوا يحاولون فى أيامه تغيير هذا كله ! وقد ارتحل بنيتة هذه من بغداد إلى كَجَر فحاول أن يحدث فيها حدثاً ، وكاد ينجح لولا أن أثبت حوله العصبية وكثر القتل بين أصحابه وخصومه ، فكرهه الناس وضائق به هجر ، فانتقل منها إلى الأحساء ، ثم ضاقت به الأحساء ، فانتقل منها إلى البادية ، وجعل يطوف بأحياء العرب يدعوهم إلى مذهبه ، والعرب يستجيبون له حيناً ، ويمتنعون عليه حيناً آخر حتى ضاقت به البادية أيضاً ، وجعل يفكر فى وجه يقصد إليه ليبدأ مغامرته ولينتهى بها إلى غايتها .

وهنا يتحدث المؤرخون عنه بالأعاجيب فيزعمون أنه أطل التفكير ذات يوم فإذا سحاب يظهر فى السماء ثم يبرق ويرعد ، وإذا هو يسمع فى صوت الرعد ، أو ينبىء أصحابه أنه سمع فى صوت الرعد أن وجهته يجب أن تكون البصرة . وقد زعم المؤرخون أنه كان يتحدث إلى أصحابه ألواناً من الحديث يزعم أنها من ألوان الغيب فقد ظهرت له آيات فيما يقول على إمامته ، فحفظ سوراً من القرآن ألقيت فى روعه فجاءة ولم يكن يحفظها من قبل ، وكتب له على الحائط كتاب كان يقرأ فيه ، يراه هو ولا يراه أحد من أصحابه ، وعرضت عليه النبوة فيما قال ، أو فيما زعم المؤرخون أنه قال ، فأياها ، واكتفى بالإمامة ؛ لأن أعباء النبوة أثقل من أن يستطيع النهوض بها .

ومن الجائز أن يكون عبد الله بن محمد قد زعم هذا كله أو بعضه لأصحابه ؛ فقد كان هذا النحو مذهباً من مذاهب نشر الدعوة ووسيلة إلى إثارة الجماهير . ومن الجائز كذلك أنه لم يقل من ذلك شيئاً ، وإنما تكلف المؤرخون ذلك غصاً منه وتشهيراً به وزرارة عليه ؛ لأن النجاح لم يكتب له . والشئ الذى ليس فيه شك هو أنه قصد إلى البصرة ، وهم أن يثير فيها الفتنة ، فنذر به السلطان ، وأخذ بعض أصحابه وهرب هو ، فعاد إلى بغداد وأقام فيها مع جماعة من رفاقه يحكمون أمرهم . حتى إذا عزل حامل البصرة قصد قصدها ، وهناك بدأ مغامرته الخطيرة سنة خمس وخمسين ومئتين بعد أن اتفق فى التدبير والتمهيد والتجربة ست سنين .

بدأ مغامرته الخطيرة في رمضان سنة خمس وخمسين ومئتين : اتصل بالرقيق الذين كانوا يعملون حول البصرة في كسح السباخ وفي إصلاح الأرض، وفي استخراج الملح وفي غير ذلك من هذه الأعمال التي سخر أهل البصرة لها عشرات الألوف من الرقيق السود . والظاهر أن أصحاب رءوس الأموال كانوا قساة على هؤلاء العبيد، يسومونهم الخسف ويعنفون عليهم في السيرة ويقترنون عليهم في الرزق ويكلفونهم من العمل أكثر مما يطيقون . وآية ذلك أن عبد الله بن محمد لم يكذب يتصل بهم حتى استجابوا له مسرعين وحتى تكاثروا حوله ، وإذا هو يعدم ويمنيهم ، ويمنحهم الحرية ، ويحلف لهم جهد أيمانه أنه سيمألكهم الأرض وسيجعلهم سادة يملكون الرقيق ، بعد أن كانوا رقيقاً يملكهم السادة ، وسيمألكهم سادتهم . والرقيق يسمعون له ويحفظون به ، ويقفون في طاعته ، وهو يبرئ لهم بما وعد ، ويعطيهم ما منأهم . أليس قد حكمهم ذات يوم في بعض وكلائهم ومواليهم ، فأباح لهم أن يطرحوا هؤلاء الوكلاء والموالي وأن يضربوهم بالسياط . ثم هو يتخذ من هؤلاء السود قادة ويؤثرهم على الجند ويسوى بينهم وبين البيض الأحرار ، يغير بهم على القرى ويغير بهم على السفن . فاذا أحرزوا ما في القرى والسفن قسمه بينهم لم يفرق بين عبد وحر ، فقد أصبحوا جميعاً أحراراً ، ولم يفرق بين أسود وأبيض ، فليس لإنسان على إنسان فضل إلا بالطاعة وحسن البلاء .

وكذلك انتشرت الدعوة بين الرقيق ، فتكاثفوا وضمخ عددهم ، وقلق السادة فأرسلوا إليه يفاوضونه يخوفونه غدر هؤلاء السود وفرارهم ، ويعرضون عليه خمسة دنانير عن كل واحد منهم ، فلا يحفل بشيء من ذلك ولا يلتفت إليه ، وإنما يعضى في نشر دعوته وتحرير الرقيق من السود ، وتأليب الأحرار من الفقراء والبائسين ، وإذا هو صاحب جيش ضخم يهتم له السلطان فيرسل إليه الحملة إثر الحملة ، وهو يلتصر على ما يرسل إليه من الجيوش ، وهو يقهر القائد إثر القائد ويهزم الوالى إثر الوالى ، ويزعج أهل البصرة إزعاجاً شديداً بعد أن ألقى في روعهم أنهم أصبحوا في متناول يده ، ليس عليه إلا أن يبسطها ليأخذهم متى شاء وكيف شاء . والسلطان المركزي في بغداد يرسل الوالى إثر الوالى والجيش بعد الجيش فلا يظفر بشيء أو لا يكاد يظفر بشيء ، حتى أخاف صاحب الزنج هذا القسم من العراق ، فأفزع البصرة والابلة والأهواز ونشر الرعب حتى اضطرب الناس إلى

الهجرة والحرب . وهو متنقل بجيشه من مكان إلى مكان ، مخبر بهذا الجيش على مدينة بعد مدينة ، يغير بنفسه حيناً ، ويرسل أصحابه إلى الفارة حيناً آخر ، حتى إذا استيقن القدرة على اقتحام البصرة دفع إليها أصحابه دفعاً نفخ بها تخريباً وقتل أهلها تقتيلاً منكراً ، واستصفي ما كان عندهم من المال ، واضطر من بقي منهم إلى الفرار ، وأخذ الأسرى من أحرار العرب والعجم من خيار الرجال وكرائم النساء ، فوزعهم على أصحابه رقيقاً بعد أن كانوا سادة ، وعرضهم في الأسواق للبيع والشراء كما كانوا يعرضون الزنج في الأسواق للبيع والشراء . وقد جزع الخليفة المعتمد لهذا الأمر جزعاً شديداً ، فكلف أخاه الموفق إدارة هذه الحرب وأعد له جيشاً لم تر بغداد مثله منذ عهد بعيد . وذهب الموفق فلقبت جيوشه صاحب الزنج مرة ومرة ومرة دون أن تباع منها شيئاً ، وإنما كانت الهزيمة تدركها في أكثر الأحيان . واضطر الموفق إلى اعتزال هذه الحرب إما يأساً من الفوز وإما لأن الخلافة كانت في حاجة إليه لحرب أخرى في الشرق لم تكن أهون من حرب الزنج شأنًا ولا أقل منها خطراً . والمهم أن صاحب الزنج استأثر بالأمير كله في هذا القطر من أقطار الدولة الإسلامية ، وملاً العراق رعباً وفرقاً ونقص الحياة على أهل بغداد ، وسلمت له كور وأقاليم جعل يجبي خراجها وينفق منه على تدبير أمره وتقوية جيشه . وكان هذا القطر من أقطار العراق قد نظم الرى فيه أحسن تنظيم وأكمل ، فجرت فيه الأقنية والأنهار من كل وجه واتخذت فيه هذه الأقنية والأنهار وسائل للرى ووسائل للمواصلات ، ثم اتخذت وسائل للحرب أيضاً فكانت هذه الأقنية والأنهار دروعاً يتقى بها العدو حين تتحارب الجيوش على الأرض ، كما كانت هذه الأنهار والأقنية ميادين للقتال حين تتحارب الجيوش على ظهر الماء ، وقد اتخذت الأساطيل النهرية من صغار السفن وكبارها . وكانت جيوش السلطان وجيوش صاحب الزنج تلتقى وتقتل ، على ظهر الأرض وعلى وجه الماء .

ولما عظم أمر صاحب الزنج وأصبح خطراً لا على ما يليه من الكور والأقاليم فحسب ، بل على عاصمة الخلافة وسلطان الدولة كله ، أعاد المعتمد إلى أخيه تدبير أمر الحرب وأطلق يده في أموال الدولة يديرها كما يشاء وينفق منها كما يشاء ، وأطلق يده في جيوش الدولة أيضاً يوجهها حيث يشاء ويكلفها من الأمر ما يشاء . ونهض الموفق لهذه الحرب مصمماً هذه المرة على ألا يعود حتى

يمحق الفتنه محققاً . وقد أتيح له ما أراد ، ولكن بعد أن بذل أى جهد ، وبعد أن احتمل أى عناء ، وبعد أن أنفق أى مال ، وبعد أن ضحى بعشرات الآلاف من الجند وبعد أن عرض نفسه وابنه وقواده لأى مخاطرة ، يكفى أن تعلم أنه أنفق فى هذه الحملة الأخيرة أعواماً متصلة غير قابلة لم يرح فيها ولم يسترح ، ولم ينفذ فيها أحكامه وأوامره حسب العرف المألوف ، وإنما فرضها دكتاتورية عنيفة شملت أكثر أقطار الخلافة واستغرقت أكثر مرافقها . وينظر الموفق ذات يوم وإذا أخوه أمير المؤمنين قد ضاق بهذه الدكتاتورية ولم يطق صبراً على ماتفرض عليه وعلى جنده من الضيق ، وإذا هو يظن بأخيه الظنون ، وإذا هو يخرج ذات يوم من بغداد قاصداً إلى الغرب ، يريد أن يأوى إلى مصر ليعيش فى ظل ابن طولون مغاضباً لأخيه . ولكن الموفق كان أحزم من ذلك وأمضى رأياً وأوسع حيلة ، فبأمر بعض قواده فى الأقاليم أن يتاقى الخليفة ووزرائه وقادته ، وأن يقبض عليهم ويردهم إلى بغداد كارهين إن لم يعودوا إليها راضين . والقائد يطيع أمر مولاه ، ويرد أمير المؤمنين وأصحابه إلى العاصمة . وقد ضبط الموفق الأمر وأحكمه فى الأقاليم التى كانت خاضعة لسلطان الخلافة ، ومضى فى الحرب لا يعرف هوادة ولا رفقا ولا ليناً ، يقدم ابنه أبا العباس بين يديه وينتظر منه أن يخاطر بنفسه ليخاطر القواد بأنفسهم وليخاطر الجنود بأنفسهم أيضاً ، أليس هو يخاطر بنفسه كلما سنحت الفرصة !

وكان أمر صاحب الزنج قد بلغ من العلو والارتفاع أن اتخذ لنفسه ولقواده المدن الجديدة ، ينشئها إنشاءً ، ويحصنها تحصيناً هائلاً ، فهو يقيم فى المدينة المختارة ، وقائد آخر يقيم فى المدينة المنيعه ، وقائد ثالث يقيم فى المدينة المنصورة . وقد ملئت الأرض من حول هذه المدن بالجند وأداة الحرب ، وملئت الأنهار والأقنية بالسفن ، فينشئ الموفق لنفسه مدينة يتخذها قاعدة للحرب يسميها الموفقية ، ويجمع فيها كل ما يجتمع فى العواصم الكبيرة من المرافق والصناعات التى يحتاج الناس إليها فى السلم والحرب . وما يزال بجيوش صاحب الزنج الأشهر والأشهر ، ثم العام بعد العام ، حتى يضطرها إلى أن تترك خطة الهجوم وتلتزم خطة الدفاع فى مدنها وحصونها . ثم ما يزال بهذه المدن والحصون حتى يستخلصها مدينة مدينة وحصناً حصناً ، وحتى يضطر الفلول المنهزمة إلى المدينة المختارة حيث يقيم صاحب الزنج ، وإذا الناس

يكثر في هذه المدينة حتى تضيق بهم ، وحتى تقصر مرافقها عن إرضاء حاجاتهم . ولكن الموفق يتقدم حتى يضرب حولها الحصار ، ويقطع عنها الميرة . وهنا يظهر الموفق من النبوغ والامتياز ما لم يكن يمكن أن يظهره كراسوس في حرب سبارتا كوس . ففوة الموفق هائلة لا تقهر ، وهو قادر على أن يأخذ المدينة بالحصار ، يضيق عليها حتى يلقى أهلها بأيديهم ، وهو قادر على أن يقتحم المدينة وإن كلفه ذلك خسائر هائلة . ولكنه يبدأ فيعرض الأمان على صاحب الزنج ، فإذا رفض التسليم مضى في حرب غريبة حقاً ، فحارب بالرهبة التي لا تعدلها رهبة ، وبالرغبة التي لا تشبهها رغبة ، فهو يبذل الأمان والعفو والخلع السنية لمن شاء من قواد صاحب الزنج وجنوده لا يبخل من ذلك بشيء . فإذا استأمن إليه بعض الناس تلقاه فغفا عنه وأحسن إليه وخلع عليه وكرمه أجمل التكريم ، ثم عرضه في سفينة من السفن في هيئته الجديدة ليراه المشرفون من السور فيطمعوا في مثل ما أتيح له من النعيم . وما أكثر ما كان هذا المنظر يطمع ويغري ! وما أكثر ما كان قواد صاحب الزنج يتأثرون بهذا الإبطاع والاغراء ، ويستأمنون للموفق ويصبحون له على قائدهم ورئيسهم ظهيرا !

وإذا أخذ أصحاب الموفق بعض الأسرى وأبوا أن يستأمنوا ضرب أعناقهم ، ثم يجمع رؤوسهم إلى رؤوس الذين يقتلون في الموقعة ، ثم ينصب هذه الرؤوس على السفن ليراها المشرفون من السور فتمتلئ قلوبهم فزعاً وروعاً . وقد يقتل القائد الوجيه فيحتر رأسه ثم يرى به من وراء السور ، ومعه المنشور من منشورات الموفق قد ملأه الترغيب والترهيب . وكذلك أخاف الموفق كثيراً من الناس ، وأطمع كثيراً من الناس ، واجتذب إلى نفسه كثيراً من الناس ، حتى إذا آن له وقت الهجوم أمر بهدم الأسوار واقتحام المدينة وتهديم الحصون حصناً حصناً ، والدور داراً داراً ، وجد في ذلك حتى بلغ منه ما أراد بعد مشقة شاقة وجهد عنيف .

كل ذلك وعبد الله بن محمد صاحب الزنج يقاوم كأحسن ما تكون المقاومة ، ويدافع كأعنف ما يكون الدفاع ، لاتقل عزمه خيانة الصديق ولا يثبط همه قتل الأنصار ، وإنما هو يقاوم في مدينته ما وسعته المقاومة ، ثم يقاوم في داره حتى تقتحم عليه ، ثم يقاوم في كل شبر من الأرض حتى يتفرق عنه أنصاره ، منهم من

قتل ومنهم من أخذ ومنهم من لاذ بالفرار ، وهو قائم يدافع لا يترشح عن مكان إلا ليثبت في مكان آخر ، حتى إذا أحيط به لم يستسلم ولم يلق السلاح ، وإنما قاتل حتى قتل ، وحتى احتر رأسه وحمل إلى الموفق . وقد ثبت معه جماعة من قواده دافعوا كما دافع ، وأبلوا كما أبلى ، قتل بعضهم في الميدان ، وأخذ بعضهم إلى بغداد ، فقتلوا وصلبوا على شاطئ النهر .

وظن الناس أن ثورة الزنج قد انتهت . ولكنها أعوام تمضي ، وإذا ثورة أخرى تظهر في العراق فتملاً الأرض هولاً ، لا في العراق وحده ولكن في جزيرة العرب وفي الشام ، وقد تصل أطراف منها إلى مصر . كانت البصرة ضحية ثورة الزنج ، ثم صارت الكوفة ضحية ثورة القرامطة . ألم يكن هناك سبب بين هاتين الثورتين؟ بلى قد كان هناك سبب أي . سبب طابعهما واحد ، هو الخروج على النظام السياسي والاجتماعي والانتساب إلى آل علي ، وغايتها واحدة هي تحقيق العدل في الأرض بعد أن أفسدها الظلم والجور ، ونتيجتهما واحدة هي هذا الروع الذي ملأ القلوب وهذا الهول الذي سفك الدماء وأزهق النفوس ودمر الأمصار وهذا الجهد الضائع الذي لم يُزل ظمناً إلا ليقيم مكانه ظمناً آخر ، والذي يحاول أن ينصف الناس فلا يبلغ من الإنصاف شيئاً . أكتب على الإنسانية إذن أن تكون الجهود التي تبذلها في سبيل الإصلاح مضيعة ، وأن يصبح الذين يحاولون إزالة الظلم وإقرار العدل أنصاراً للظلم وأعداء للعدل ؟ كانوا يريدون أن ينقذوا أنفسهم وينقذوا الناس من ظلم الظالمين ، فلم يكتفوا بالإيقاد ، وإنما جزوا السادة ظمناً بظلم ، فكان هذا أول الشر ، ثم تجاوزوا ظلم الظالمين من الأعداء إلى ظلم الأنصار والاتباع ، فأصبحت الحرية استبداداً ، وأصبحت المساواة استثناءً ، وأصبح الإنصاف بغياً وعدواناً . ومضت كلمة القضاء في الناس : سعى متصل إلى المثل العليا ، وعجز متصل عن تحقيق هذه المثل أو الوصول إليها ، وظلم متصل في أثناء ذلك للظالمين وغير الظالمين .

وقد أظهرت ثورة سبارتاكوس رجلين اثنين هما قائد الثورة وقامعها . أما ثورة الزنج فقد أظهرت رجلاً كثيراً لا أستطيع بالطبع أن أتحدث عنهم ، وإنما ألاحظ مسرعاً أنها أظهرت رجلين اثنين من رجال الدولة المحافظين على النظام ، وأظهرت طائفة من الناس كلهم ممتلئ خليق أن يحفظ التاريخ اسمه من فاحية الثورة . فلم ينهض بالثورة عبد الله بن محمد وحده ، ولم يعتمد فيها على الزنج

وحدهم ، وإنما نهض معه قوم من أصحابه كانوا في مثل سنه ، منهم من خرج من غمار الناس لم تكن له سابقة ولا لأسرته ذكر ، كهذا البحراني الذي كان كياناً في وطنه قبل أن تتصل أسبابه بصاحب الزنج ، فأصبح بعد ذلك قائداً مجرباً ، وسياسياً لبقاً ، ومدبراً داهية . ومنهم من كان من أهل البيوتات ، ومن الأسر الأرستقراطية العريقة ، كعلي بن أبان المهدي ، هذا الذي ينتسب إلى قانع ثورة الخوارج أيام بني أمية والذي أصبح خارجياً مع صاحب الزنج ، والذي أظهر براعة في الحرب ودهاء في السياسة وصبراً على المكروه لا يشبهه فيها إلا أبو العباس بن الموفق . ومنهم آخرون جاء بعضهم من عرض الطريق فكشفت الأحداث منهم عن رجال أفذاذ حقاً ليسوا أقل استعداداً للنهوض بمجلائل الأعمال وعظائم الأمور من هذه الأرستقراطية التي احتكرت شؤون الحكم احتكاراً . فاذا دل هذا كله على شيء فإنما يدل أولاً على أن روح المغامرة قد كان شائعاً منتشراً في جميع الطبقات ، وعلى أن انتشار الثقافة قد فتح للناس وللمغامرين منهم خاصة أبواباً لم تكن تفتح لهم من قبل ، وأشعرهم بأن ما يفرض عليهم من نظم الحكم تلك التي اشتملها الفساد ، وما يفرض عليهم من نظم الاجتماع تلك التي قامت على الظلم والجور ، كل هذا خليق أن يغير ، فحاولوا تغييره ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً . نجحوا أول الأمر هنا وهناك ، ثم أدركهم الإخفاق في كل مكان ؛ لأن تقدم العقل لم يكن قد بلغ طوره الذي يمكنه من أن يسيطر على الإرادة والغريزة . وأظنك توافقني على أن تقدم العقل لم يبلغ هذا الطور إلى الآن . فما أكثر الثورات التي قامت في العصر الحديث لتغير النظم السياسية والاجتماعية وترد الناس إلى العدل والمساواة ، فلم تبلغ من ذلك إلا أقله ، وما زال أكثره أملاً يرقب ولا يتاح الوصول إليه !

ولنقف وقفة قصيرة جداً عند قائد ثورة الزنج عبد الله بن محمد ، وقامع هذه الثورة أبي أحمد الموفق بن المتوكل . فأما أولهما فقد كان رجلاً من غمار الناس حقاً ، زعم المؤرخون أنه انتسب إلى آل علي ولم يكن منهم في شيء ، وأنه تردد في سلسلة نسبه إلى زيد بن علي بن الحسين ، وزعم المؤرخون أيضاً أن نسبه في عبد القيس . وجائز أن يكون نسبه في عبد القيس ، وجائز أيضاً ألا يكون له نسب في قبيلة من قبائل العرب . وأكبر الظن أنه لم يكن يحفل بشيء من ذلك فيما بينه وبين نفسه وفيما بينه وبين أصحابه ، وإنما كان يتكلف بعض ذلك ليستهوى قلوب

العامّة ويجمعهم حوله . فقد كانت العامّة في العراق وبلاد العرب وأجزاء من بلاد الفرس مؤمنة بأن تغيير النظم السياسية إن قدر له أن يكون فلن يقع إلا على يد علوية تتصل بأهل البيت .

والشيء المحقق هو أن عبد الله بن محمد قد كان رجل حزم وجلد كما كان رجل طمع وطموح . كل شيء في سيرته يدل على صلابة الرأي ومضاء العزم والثبات على المبدأ ، والشجاعة التي لا تعرف ضعفاً ولا فتوراً ، والمرونة التي لا تعرف تردداً ولا حيرة أمام المشكلات . وقد يضيف المؤرخون إليه سيئات كثيرة منكرة . وأكبر الظن أنه قد اقترف كثيراً من هذه السيئات ، فأسرف في القتل والتدمير ، وأنهب أصحابه الأموال ، ورد الأحرار إلى الرق كما رد الرقيق إلى الحرية ، ولكن كثيراً من سيئاته هذه لا ينبغي أن يحمل عليه وحده ، وإنما ينبغي أن يحمل على عصره وعلى الذين كانوا يعيشون في ذلك العصر ، سواء منهم من حافظ على النظام القديم ومن أراد تغييره . وكل ثورة خطيرة على النظم السياسية والاجتماعية تستتبع ألواناً من الهول لا يسيغها الخلق ولا يقرها العقل ولا يرضاها الدين ، ولكنها تقع مع ذلك لأن الغريزة هي التي تدفع إليها ، ولأن الغريزة هي التي تثور . وإذا ثارت ، فقلّ أن تعرف لنفسها حدّاً تنتهي إليه . والناس يعرفون أهوال الثورة الفرنسية كما يعرفون أهوال الثورة الشيوعية ، والناس لا يكرهون الثورة عبثاً ، وإنما يكرهونها لما تدفع إليه من هول وما تورط فيه من إثم وما يقترف الناس فيها من المنكرات . ومع ذلك فقد يخطئ المؤرخون ، وينسون أنهم يكتبون عن عدو الله الخبيث اللعين صاحب الزنج . قد يخطئ المؤرخون وقد ينسون هذا كله ، فيذكرون أموراً تدل على الصدق والرفق ، ولا تصدر عن خائن خبيث يتعمد الشر ويتخذ الشيطان له إماماً . فهو يأبى مثلاً أن يأذن بالإغارة على قرية لأن رجلاً من أهلها قتل رجلاً من أصحابه ، يريد قبل الايقاع بهذه القرية أن يتبين ويتثبت لعل أهل القرية أبرياء لم يعينوا أصحابهم ولم يشاركوا في إثمهم . وهو يلقي بعض أهل القرى وقد أقبلوا يعرضون عليه أموالهم لينصرف عنهم ، فيجزئهم خيراً ويترك لهم أموالهم ولا يلقاهم بكيد . وهو يحس أن الزنج يشفقون من أن يتركهم أو يسلمهم لكثرة ما كان يوجه إليه من إغراء ، فيجمعهم ويؤمنهم ويطلب إليهم أن يحيطوه بجماعة منهم ترقب سيرته ، فإن رأت منه انحرافاً عن العهد أو ميلاً

إلى الاغراء ، فتكت به . وهو يوفى عهده ، ويثبت على مبدئه ، فلا يستأمن حين يعرض عليه الأمان ، ولا يستسلم حين يستيئس من الفوز ، ولا يحاول أن ينجو بنفسه بعد أن فقد الأمل ، وإنما يقاتل حتى يقتل . أما خصمه أبو أحمد فلم يكن كما رأيت من عامة الناس ، وإنما هو من سلالة الخلفاء ، أبوه المتوكل بن الرشيد . وقد كانت سلالة الخلفاء من حوله قد أدركها الضعف ، وانتشر فيها الحمول ، وأترفت حتى تحكمت فيها اللذة ، ثم تحكمت فيها الرقيق من الخدم في القصور والجند خارج القصور . فظهور أبي أحمد في هذه البيئة المترفة التي أفسدها الترف حتى غلبت على أمرها ، وتفوقه هذا الرائع في إدارة السياسة والاقتصاد والحرب ، كل ذلك آية على أنه قد كان رجلاً نابغة كأكمل ما يكون الرجل النابغة . وقد نطلمه أقبح الظلم إذا وازنا بينه وبين كراسوس قانع الثورة الإيطالية . قد كان أبو أحمد مناقضاً لهذا الرومانى المترف العاجز الذى أفسده الثراء ، فلم يبق له شجاعة ولا خلقاً ولا ديناً كل المناقضة : كان أبو أحمد أشجع بنى العباس فى عصره ، وأشجع من كان يعمل لبنى العباس من قادة الترك والموالى عامة ، وكان يملك الشجاعة بأروع معانيها وأرفعها . فهو قوى على نفسه ، ثم قوى على أهله وذوى قرابته قبل أن يكون قوياً على غيره من الناس ، يخاطر بنفسه فى المواقع ، ويحمد من ابنه مخاطرته بنفسه فى المواقع . فاذا أحس من أخيه أمير المؤمنين تردداً أو ضعفاً أو اضطراباً ، أخذه بالحزم وورده إلى القصد ، وأكرهه على الاعتدال . وإذا رأى من ابنه نفسه بعد الفوز إسرافاً فى الجموح أو الطموج ، قسا عليه أشد القسوة ، وألقاه فى غيابات السجن ، لم يحفل بحبه له وعطفه عليه . والناس يثورون غضباً للامير الشاب ، ولكن أبا أحمد يلقي التأثيرين ويردهم إلى الهدوء ويسألهم : أترون أنكم أحب له وأحذب عليه من أييه . وأبو أحمد لا يعرف الهدوء ولا الاستقرار . كانت شؤون الدولة مضطربة أشد الاضطراب ، فكان مضطرباً مثلها ، يدافع الشرحيث ينجم الشر ، يحاول أن يقهر ابن طولون فى الغرب ، ويقمع الثورة فى العراق كما يقمعها فى شرق الدولة ، ينهض لذلك بنفسه ، لا يريج ولا يستريج حتى حين يثقل عليه المرض وحين يعجز عن الحركة ، ويضطر إلى لزوم الفراش ، فهو يدبر الأمر من سريره ، ثم يعاد إلى بغداد ، وقد عجز عن الركوب ، فيحمل فى سرير ، يتناوب نقله أربعون رجلاً . وهو يحس أن حامله يشقون بحمله فيقول لهم فى

بعض الطريق : وددت لو أنى كنت واحداً منكم ، أسعى كما تسعون ، وأشقى كما تشقون ، ولا ألقى من الألم والعجز ما ألقى . ولكنه على أمله وعجزه ، يدبر أمور الدولة إلى آخر لحظة من لحظات حياته ، ويفرضها دكتاتورية حازمة لا يعنى من سلطانها ابنه ولا أخاه .

أليس يرى كتابنا وشعراؤنا أن فى أحداث التاريخ العربى القديم ما يستطيع أن يلهمهم حين يكتبون النثر أو ينظمون الشعر ؟ أليس يرى كتابنا وشعراؤنا أن من حق هذه الأحداث عليهم أن ينظروا فيها بين حين وحين ، كما ينظرون إلى أحداث أخرى وإلى ألوان أخرى من التاريخ ؟

هـ حسين

في أفق السياسة العالمية

مشكلة فرنسا في إفريقية الشمالية

يحق لفرنسا أن تباهى بامتلاكاتها في شمال إفريقية ، فهي منها على مسافة قريبة لا يفصلها عنها سوى مياه البحر المتوسط الذي تلاطم أمواجه سواحل فرنسا الجنوبية كما تلامس سواحل إفريقية الشمالية ، ولا تزيد المسافة بين تولون قاعدة فرنسا البحرية في الجنوب وبين بونة إحدى قواعد بلاد الجزائر على أربع مائة ميل أو أكثر قليلا يقطعها المسافر على متن الجو أو البحر في ساعات قليلة . وتمتد ممتلكات فرنسا هذه على ساحل البحر المتوسط من تونس شرقا إلى ساحل المحيط الأطلسي غربا ، ومن وراء ذلك داخل الصحراء الكبرى إلى بحيرة تشاد جنوبا . ولا يقل عدد سكان هذه الأقاليم عن عشرين مليونا من الأنفس . هذا عدا ما لفرنسا من مصالح مادية وثقافية في بلاد المشرق ومصر ، وما لها من الزعامة بين الطوائف الكاثوليكية في جميع هذه الأرجاء .

ولذلك كان اعتزاز فرنسا بأملاتها وملحقاتها في شمال إفريقية عظيما ، وكان تصميمها على الاحتفاظ بسلطانها لا يقبل طعنا أو نقضا مهما اختلفت الحكومات في فرنسا وتنوعت نظم الحكم فيها . ففي عهد الملكية أرسلت حكومة شارل العاشر سنة ١٨٣٠ حملتها الحربية لاحتلال الجزائر ، وفي عهد الإمبراطورية الثانية توطن سلطان فرنسا في الجزائر واستطاعت أن تقضي على الحركة الوطنية التي قامت بزعامة الأمير عبد القادر لمناوئة الحكم الفرنسي .

وفي عهد الجمهورية الثالثة أعلنت الحماية على تونس سنة ١٨٨١ ومنها زحفت فرنسا غربا إلى مراکش في أوائل القرن العشرين .

وهاهي ذي فرنسا في عهد الجمهورية الرابعة تولى إفريقية الشمالية من الاهتمام ما هو خليق بالأرض الطيبة التي فتحت أبوابها لآيواء الفرنسيين

الأحرار حين احتل الألمان فرنسا وضيّقوا عليهم الخناق في أوروبا ، فاستقبلت إفريقية الشمالية جمعية التحرير الوطني الفرنسية وأكرمت وفادتها وأضافتها حتى تم تحرير فرنسا نهائياً .

ومع أن هذه الإمبراطورية الواسعة قد نشأت واتسعت وازدهرت تحت جمع دول أوروبا وبصرها فان الدول لم تتحرك بصفة جدية طوال القرن الماضي لمناهضة فرنسا أو مقاسمتها ذلك الغم الكبير . أما إنجلترا فكانت قد تحالفت مع فرنسا منذ سنة ١٩٠٤ ، وخلاها الميدان للعمل في مصر والسودان . وأما إيطاليا فقد رضيت بنصيبها في طرابلس وبرقة . وأما روسيا فكانت تتمخض عن ثورتها البلشفية الكبرى فلم تكن تتطلع إلى مد نفوذها ، ولم تنشأ لها مطامع في البحر المتوسط إلا في أعقاب الحرب العالمية الثانية . وكانت فرنسا على اتفاق مع أسبانيا كما كانت على اتفاق مع إنجلترا . وبمقتضى هذا الاتفاق أصبح لأسبانيا منطقة صغيرة في الشمال الغربي ، وظلت طنجة ميناء دوليا حتى لا يتخرج مركز بريطانيا في جبل طارق .

أما ألمانيا فقد حاولت بمختلف الطرق أن تضع قدمها على ساحل إفريقية الشمالية ، ولكن المحاولة الانجليزية الفرنسية كانت كفيلة بردها عما تحاول . ففي سنة ١٩٠٥ زار وليم الثاني إمبراطور ألمانيا طنجة ليبرهن للعالم أن سلطان مراكش لا يزال ملكاً مستقلاً حقيقياً بزيارة إمبراطور ألمانيا ، وأن إنجلترا وفرنسا لا تستطيعان أن تفرضوا إرادتهما على العالم في غيبة ألمانيا . ولكن هذه المناورة لم تُجْدِ نفعاً ، ولم يكن لها أثر سوى دعوة الدول إلى مؤتمر عقد في الجزيرة أحد موانئ أسبانيا الجنوبية ، وفيه تقرر سياسة الباب المفتوح في مراكش مع المساواة الاقتصادية لجميع الدول . وفي سنة ١٩١١ دخلت القوات الفرنسية مدينة فاس ، فتحرّكت ألمانيا للمرة الثانية وأرسلت إحدى سفنها الحربية لاحتلال ميناء أغادير على ساحل الأطلنطي ، وكادت الحرب تنشب بين فرنسا وألمانيا لو لم تعلن الحكومة الانجليزية تصميمها على الوقوف إلى جانب فرنسا ومنع ألمانيا من النزول بأية بقعة من شمال غربي إفريقية . فهدأت الحال قليلاً وسارعت فرنسا إلى استرضاء ألمانيا بالنزول لها عن جزء من أملاكها في إقليم الكنفوز الفرنسي مقابل اعترافها بمركز فرنسا الخاص في مراكش . ثم نشبت الحرب العالمية الأولى وانتصر الحلفاء ، فحسرت ألمانيا

جميع مستعمراتها وخرجت نهائياً من ميدان المنافسة الاستعمارية تاركة فرنسا تتمتع بأكبر نفوذ استعماري في حوض البحر المتوسط جنوبيه وشرقيه .

وقد سارت فرنسا في سياستها الاستعمارية في شمال إفريقيا وفق خطة منظمة صريحة ، أساسها أن يبقى الحكم مركزاً بيد الحكومة الفرنسية ، وأن تهيأ المستعمرات أولاً وأخيراً لخدمة فرنسا بالذات . فمن الوجهة الاقتصادية يجب أن يكون معظم صادراتها و وارداتها لمصلحة فرنسا . فكانت فرنسا تشتري قبل الحرب من مجموع صادرات كل من الجزائر وتونس ومراكش ما يعادل ٨٤ ٪ و ٥٦ ٪ و ٤٥ ٪ على التوالي ، وتبيع إلى تلك البلاد من مجموع الواردات ما يوازي ٧٥ ٪ و ٦٢ ٪ و ٣٥ ٪ . وكان يهم فرنسا من الوجهة الحربية وهي تعاني اطراد النقص في مواليدها أن تلتزم العوض من ذلك بتجنيد رجال المستعمرات دون أي تفرقة بين الفرنسي أو الأوربي أو الوطني ؛ وبذلك استطاعت فرنسا أن تحتفظ بمكاتها كدولة كبرى أمام منافساتها من الدول التي تباهى بكثرة سكانها ووفرة مواردها .

وفي مقابل ما تجنيه فرنسا من مستعمراتها من خير ، وما تستخدم من رجال كان مذهب الحكومة الفرنسية في خارج بلادها ، كما كان شأنها في الداخل ، أن تنشر المبادئ الإنسانية الكبرى التي ورثتها عن الثورة الفرنسية بشأن حقوق الإنسان . فهناك كما في فرنسا أعلنت الإخاء والمساواة بين الجميع ، ولكنها حرصت على أن تحتفظ بالمبدأ الثالث مبدأ الحرية السياسية للمواطنين الفرنسيين دون غيرهم . وليس في برنامج السياسة الفرنسية الاستعمارية ، كما يكون أحياناً في السياسة الانجليزية ، مكان ملحوظ لتهيئة الوطنيين لحكم أنفسهم وتقرير مصيرهم . كما أنه لم يكن لظهور مبدأ الاقتداب في ميثاق عصبة الأمم بدلا من نظام الاستعمار القديم أي أثر في طريقة حكم فرنسا لمستعمراتها في شمال إفريقيا أو في المشرق حيث كانت فرنسا منتدبة . لذلك كانت الحكومات الفرنسية تتعثر وترتبك وتخطئ وتعمن في الخطأ كلما ثار بعض هذه الشعوب على الحكم الفرنسي ، وقاموا يطالبون بالاستقلال أو الحكم الذاتي . وكانت فرنسا — ولا تزال — تقابل مثل هذه الحركات بمنتهى القسوة واعنف وسائل القمع . ذلك لأنها تعتقد مخلصاً عن خطأ أو عن صواب أنها مبعوثة المدنية والثقافة الأوربية إلى هذه الشعوب ، وأنها على

خلاف دول أوربا جميعاً تؤمن بمبادئ المساواة والإخاء وتطبقها دون تمييز بين الأجناس والألوان أو العقائد ، وأن غايتها العليا من حكمها إنما هي « فرنسة » هذه الشعوب كما كانت تفعل روما قديماً ، ومنحهم جميعاً نفس الحقوق التي يتمتع بها الفرنسي في بلاده . ويا له من أمل تطاول إليه الأعناق وتبذل في سبيله المهج والأرواح !

وما دمننا قد ذكرنا موضوع « الفرنسية » وهي سياسة الإدماج التي يعبر عنها بالفرنسية والانجليزية بكلمة assimilation ، فيجدر بنا أن نفرق بين السياسة التي تتبعها فرنسا في بلاد الجزائر والسياسة التي تتبعها في مراکش وتونس . ففي هذين البلدين لا يزال عهد الفرنسيين حديثاً ولا تزال السلطة الشرعية في البلاد قائمة ، وما يرح ولي الأمر الشرعي يصدر المراسيم ويعين الوزراء ، ولكن كل هذا لا يتم إلا بمشورة المقيم الفرنسي ؛ إذ هو وحده المسئول أمام الحكومة الفرنسية رأساً عن حكومة البلاد وأمنها . ويساعد المقيم الفرنسي طائفة من الموظفين وقوات حربية كافية لحراسة البلاد وحفظ النظام بها .

أما في الجزائر — وهي الموضوع الأصلي لهذا الحديث — فإن عهد الفرنسيين فيها يرجع إلى أكثر من مائة وخمسة عشر عاماً . وتعتبر البلاد — ماعدا إقليم الصحارى — في حقيقة الأمر جزءاً من فرنسا ، حتى إنها تتبع في إدارتها وزارة الداخلية الفرنسية بدلا من وزارة المستعمرات أو وزارة الخارجية . وهي مقسمة إلى دوائر انتخابية ، وكان لها ثلاثة شيوخ وعشرة نواب يمثلونها في البرلمان الفرنسي . ويحكمها حاكم عام يساعده مجلسان استشاريان .

وفي بلاد الجزائر بصفة خاصة اتبعت فرنسا سياسة « الفرنسية » أو الإدماج . وتقضى هذه السياسة بأن ينشأ الأهالي على اختلاف أجناسهم وألوانهم على النظم الفرنسية في التربية والتعليم والمعاملات ، وأن يطبق القانون الفرنسي عليهم جميعاً على السواء ؛ فليس ثمة مانع من أن يتجنس البربر والعرب واليهود بالجنسية الفرنسية فيخدموا في الجيش والأسطول ، ويعينوا في الوظائف الحربية والمدنية ، ويشتركوا في جميع الحقوق التي يتمتع بها المواطن الفرنسي ، ومن ذلك حق التصويت والانتخاب للبرلمان الفرنسي . ولم يستعص على هذه السياسة إلا المسلمون ؛ فقد عجز نظام « الفرنسية » أو الإدماج عن هضمهم أو تمثيلهم في الوطن الفرنسي .

ونشأت عن ذلك مشكلة سياسية ذات خطر عظيم . ذلك أن المسلمين في الجزائر يؤلفون الكثرة العظمى ، فلو سمح لهم بالتمتع بالحقوق السياسية كغيرهم من المواطنين الفرنسيين لأصبحت لهم الغلبة في الانتخابات واكتسحوا الدوائر البرلمانية كلها أو جلها ؛ فسكان الجزائر يبلغون الآن نحو ثمانية ملايين من الأتقاس منهم مليون واحد من المواطنين الفرنسيين أو المتفرنسين .

وإنما نشأت هذه المشكلة لأن الحكومة الفرنسية — وهي أول حكومة علمانية في أوربا ليس للدولة فيها دين رسمي — قد تعهدت حين دخولها الجزائر بأن تترك لأهالي البلاد المسلمين حرية العبادة، وألا تتدخل في شؤونهم الدينية . ولما كانت المعاملات بين المسلمين تجرى وفق الشريعة السمحة، وفيها من القواعد والنصوص الشرعية ما يناقض القانون الفرنسي العام . وخاصة في شؤون الميراث والزواج والطلاق، فقد تعذر على أولى الأمر أن يخولوا المسلمين جميع حقوق المواطنين الفرنسيين ما داموا لا يخضعون للقانون الفرنسي في مسائل تعتبرها الحكومة الفرنسية ذات أهمية بالغة . وترتب على ذلك أن سياسة «الفرنسة» أو الإدماج التي اتبعتها الحكومة في الجزائر قد شملت كل شيء تقريبا ما عدا تمتع جميع الوطنيين المسلمين بالحقوق السياسية التي لغيرهم .

وبدأت الحكومة تعالج هذه المشكلة، فأصدرت في سنة ١٨٦٥ قانونا يبيح لكل وطني مسلم أن يتمتع بحقوق المواطن الفرنسي إذا تقدم بطلب ذلك، وفي هذه الحالة يصبح خاضعا للقانون المدني الفرنسي في جميع أحكامه . ومعنى ذلك أن الوطني إذا أراد أن يباشر حقوقه السياسية فعليه أن يتزل عن القواعد والحقوق التي جاء بها الإسلام وجرى بها الشرع والعرف بين المسلمين في جميع الأنحاء على اختلاف العصور . لذلك لم يكن غريبا أن يؤثر المسلمون دينهم على أن يصيبوا من الحقوق السياسية شيئا لا يغني عن عذاب الآخرة قليلا .

ثم حاولت الحكومة الفرنسية إصلاح هذا القانون في سنة ١٩١٩ فاشتترط للتمتع بحق المواطن الفرنسي أن يكون الوطني عازبا أو متزوجا من واحدة فقط كما اشتترط ألا تقل سنه عن ٢٥ سنة، وأن يكون قد أدى الخدمة العسكرية في الجيش، أو يكون ملما بالقراءة والكتابة باللغة الفرنسية، أو موظفا عاملا في الحكومة أو بالمعاش . ولكن هذه الشروط أيضا لم تغر الوطنيين على طلب التمتع بحقوق المواطن الفرنسي، ولم يكن مما يشرف الوطني أن يخالف قومه وعشيرته

مشكلة فرنسا في إفريقية الشمالية

فيطلب لنفسه مزايا قد تحط من قدره وتعرضه للوم والسخط في نظر مواطنيه .

ولما تعذر على فرنسا تطبيق مبدأ «الفرنسة» بحذافيره اضطرت أمام ضخامة المشروع وعظم خطره أن تعتمد إلى سياسة أخرى أقل عمقا من سياسة الإدماج وهي سياسة المشاركة association . ولا تتطلب هذه السياسة أن يتزل الوطني المسلم عن قانون أحواله الشخصية لكي يصبح مواطنا فرنسيا ، بل تركت له أن يجمع بين الميزتين . وقد أملت فرنسا بهذا النظام أن تجتذب الصفوة الممتازة من الأهلالي فتحملهم على «التفرنس» ، وتترك سواد الشعب يتقدم على مهل ، مع العمل على تعميم اللغة الفرنسية وتحسين مستوى الشعب الاجتماعي بقدر ما تسمح به الظروف .

ووجه الخطر من سياسة المشاركة هذه أنها سبيل إلى التفرقة بين أبناء الشعب الواحد وانقسامه ، فتظهر فيه أقلية ضئيلة تتمتع بمزايا وحقوق ليست ميسرة لسائر الشعب ، ويظل الشعب محروما من قاداته وزعمائه ، ومن جهود صفوة أبنائه .

وسواء اتبعت فرنسا في خطتها الاستعمارية سياسة الإدماج أو المشاركة ، فإن الأمر الذي لا شك فيه أنها لم تستهدف يوماً استقلال الشعوب الخاضعة لها ، ولم تأخذ بيدها مخلصاً في هذا الطريق . لذلك كان من المتوقع أن تغري هزيمة فرنسا أمام ألمانيا في سنة ١٩٤٠ وتدهور كيانه السياسي شعوب إفريقية الشمالية على الثورة والانتفاض على المستعمرين . ولكن هذه الشعوب تمسكت أمام محنة فرنسا بفضليتي الكرم وضبط النفس ، فأخلدت إلى السكينة والهدوء وظلت موالية لفرنسا حتى انتشعت الغمة وزال الخطر . ويظهر أن كراهة الوطنيين لإيطاليا كانت من أقوى العوامل التي ساعدت على توثيق الروابط بين الوطنيين والمستعمرين ، فتاريخ إيطاليا الفاشية في ليبيا وما قاساه السنوسيون من البشريد والتعذيب والتقتيل كان يحفظه الوطنيون في صدورهم ؛ فخافوا أن يبدلوا استعماراً بآخر ، وأن يتخلصوا من فرنسا فيقعوا آخر الأمر بين يرائن الطليان .

ولما تألفت حكومة الجنرال ديغول المؤقتة في سنة ١٩٤٤ رأت أن تكافئ أهل الجزائر على حسن ضيافتهم للفرنسيين الأحرار ، فأصدرت في مارس ١٩٤٤

قانوناً يمنح الفرنسيين المسلمين في بلاد الجزائر جميع الحقوق التي يتمتع بها الفرنسيون غير المسلمين دون أي مساس بحق تمتعهم بقانون أحوالهم الشخصية . إلا الذين يعلنون صراحة أنهم يريدون أن يخضعوا في أحوالهم الشخصية للقانون الفرنسي . أما الحقوق السياسية فقد تركت الحكومة للجمعية التأسيسية أن تنظر في منحهم جميعاً حق المواطنين الفرنسيين ، وبقي عدد منهم لا يزيد على ٣٥٠٠٠ قد استوفى شروطاً معينة تخوله التمتع بهذه الحقوق . وظاهر أن هذا القانون يؤكد سياسة المشاركة التي أشرنا إليها .

ويبدو أن الوطنيين في الجزائر لا ترضيهم سياسة الإدماج أو سياسة المشاركة ، فهم كإخوانهم في تونس ومراكش يريدون أن يكون لهم كيان وطني مستقل يستعيدون به سابق مجدهم أيام خير الدين بربروس في غربي البحر المتوسط وفي المحيط الأطلسي وبحر الشمال حين كان رؤساؤهم وقرصانهم يسيطرون على البحار ويلقون الرعب في قلوب البحارة من جميع الأمم إلا من أدى لهم الفدية أو الجزية . وإنهم ليتغنون حتى اليوم بمواقف بطلمح الوطني «الريس حميدو» في القرن التاسع عشر ، ويسمرون بقصصه ومفاخره . والوطنيون يعلمون تمام العلم أن سياسة الاستعمار القديمة قد أصبحت بالية غريبة عن روح العصر ، وأنها لا تلائم سياسة الوصاية التي جاء بها ميثاق الأمم المتحدة ، كما أنها لا تتلاءم مع مظاهر النهضة العربية الحديثة التي أدهشت العالم الغربي ، وفرضت عليه الاعتراف بقوتها وحققها في الاستقلال والحرية . وشعوب شمالي إفريقيا تربطهم بالشعوب العربية وشائج نسب وقربى وتجمعهم لغة وديانة وآداب ومشاعر واحدة ؛ لذلك اشتدت الحركة الوطنية ضد الفرنسيين في الصيف الماضي وخاصة في قسنطينة حيث قتل وجرح مئات من الفرنسيين والوطنيين . وقد لجأ الفرنسيون في قمع الحركة إلى الشدة الحربية الماثورة عنهم . لكن يلوح أن الاتجاه الاشتراكي الجديد للحكومة الفرنسية الذي أوحى إليها أن تتفق مع السوريين واللبنانيين بعد تشدد وعناد ، يؤذن بأن فرنسا ستتجنب العثرات منذ اليوم في طريقها الاستعماري . وأمامها المثل ظاهرة للعيان ؛ فهناك مجموعة الأمم البريطانية التي تتمتع باستقلال ذاتي لا شك فيه ، وهناك أملاك الولايات المتحدة المستقلة استقلالاً ذاتياً في جزر الفلبين وكوبا . وهانحن أولاء نشهد مسلك

مشكلة فرنسا في إفريقيا الشمالية

بريطانيا تجاه الهند . فإذا كانت فرنسا تصبو حقاً إلى التماسك فما أجدرها أن تعلم بأن التماسك بين الشعوب لا يقوم على الماديات وحدها ! فهناك الترابط المعنوي والأدبي والثقافي الذي يقوم على حسن التفاهم وتبادل الثقة والمنافع ، وهو رباط لا يقل في قيمته عن الرباط المادي إن لم يفقه ؛ لأن الرباط المعنوي يستتبع الرباط المادي ولا عكس . وليس هناك سبيل إلى توثيق هذا الرباط المعنوي إلا إذا راجعت الدول الكبرى سيااسة الاستعمار وقلبتها من أساسها ، واعترفت بأدب ذي بدء بحق الشعوب التي أخضعتها الدول الغربية قهراً وعدواناً وعلى كره منها ، في أن تحيا الحياة التي ترضاها ، وأن تعيش حرة كريمة على نفسها وعلى أصدقائها .

محمد رفعت

إيطاليا ومؤتمر الصلح

الانكماش بعد التوسع

كان المتوقع أن ينعقد مؤتمر الصلح بباريس في اليوم الأول من شهر مايو لسنة ١٩٤٦ . ولكن مضاعفات دولية جاءت ترجىء انعقاده إلى الموعد الذي يحدده « وزراء الخارجية » الذين يجتمعون في الخامس والعشرين من شهر ابريل ، بل جاءت تنذر بأنه قد لا يعقد بالمدى الذي كان قد أعلن ذهابه إليه ، إذ قد لا يتوافر إجماع الرأى لدى « وزراء الخارجية » فيؤثر عقد معاهدات منفردة على عقد مؤتمر للصلح عام .

ومهما يكن من أمر الاتجاه الذي ستسفر عنه الملبسات فإن معاهدة الصلح مع إيطاليا هي التي تشغل « الدبلوماسية » العالمية هذه الأيام ، والتخوم الإيطالية هي التي تنال أكبر نصيب من شغل هذه الدبلوماسية .

وقد خرجت الحبشة بالفعل من نطاق الإمبراطورية الرومانية الجديدة التي كان يحلم بها موسوليني ، ولا بد أن ستخرج من السيطرة الإيطالية أتريا وأن يخرج الصومال أيضاً ، وهما القطران المجاوران للذان لا تفتأ الحبشة تطالب بهما ، كما تعنى إنجلترا بمصيرهما وهما على حدود السودان وبعض مستعمراتها الإفريقية . وكذلك سيكون شأن جزر الدوديكانيز التي كانت إيطاليا قد استولت عليها سنة ١٩١١ من تركيا وكانت قد احتلتها واحتلت رودس معها على اعتبار أنها وريثة البندقية والمسيحية اللاتينية في القرون الوسطى . وجزر الدوديكانيز إغريقية تريد اليونان أن تعود إليها ، وإن كان الاتحاد السوفيتي إذ يشعر أنه وريث « الإمبراطورية الشرقية القديمة » — يداعب أمل الاستيلاء عليها أو على بعضها حتى تكون له منها نقطة ارتكاز فيما وراء البوسفور والدرديل .

ويجىء بعد ذلك دور ليبيا ، وهي التي وجه منها الهجوم على وادي النيل ، واتجهت منها الأنظار إلى ما وراء وادي النيل من الأقطار الآسيوية

إيطاليا ومؤتمر الصلح

الموصلة إلى إيران وإلى الهند . ويصدر عن إنجلترا والولايات المتحدة وفرنسا ميل إلى وضعها تحت الوصاية ، على أن تكون هذه الوصاية من نصيب إنجلترا بالنسبة لبرقة ، ومن نصيب إيطاليا ذاتها بالنسبة لطرابلس . وتعارض روسيا إرجاع النفوذ الايتالى إلى طرابلس ، وتطالب بأن تكون لها هي الوصاية على ليبيا كلها إذا لم يعلن استقلالها . وتنادى مصر وسائر البلاد العربية بضرورة استفتاء الأهلىن فإما إلى استقلال وإما إلى وصاية الجامعة العربية دون سواها

وهكذا تصنى الممتلكات الايتالية السابقة فى إفريقيا الشرقية وفى إفريقيا الشمالية وفى شرق البحر المتوسط . ويرجع بالبصر إلى إيطاليا الأوربية ذاتها فتوضع امامه مسائل ثلاث : تصحيح التخوم طوال جبال الألب الفرنسية ، وتبعية التيرول ، ومصير تريستا ، وقد يضاف إليه مصير جزيرة بانتليريا فى قناة صقلية ، وهى الجزيرة الصغيرة التى تتوسط المسافة بين صقلية وتونس والتى كان موسولينى قد جعل منها قاعدة بحرية تصلح لالتجاء النساكات والغواصات كما تصلح حاملة طائرات ثابتة فى ممر إجبارى . وأغلب الظن أن بريتانيا العظمى ستطالب بترع السلاح عن هذه الجزيرة وإن لم يكن لها أى أثر جدى فى مضايقة حركات البحرية البريتانية خلال الحرب العالمية الثانية .

أما تصحيح التخوم عند جبال الألب الفرنسية ، فيرجع الأمر فيه إلى ما تراه النظرية الفرنسية من أن بعض القرى التى اختارت انضمامها إلى فرنسا فى استفتاء سنة ١٨٦٠ ولكن ألحقت بإيطاليا تمكيناً لملكها من الاحتفاظ بالمساحات اللازمة لصيده ، يجب أن تعود إلى فرنسا ، ولا تزال رغبة الأهلىن فى تلك القرى هى التى أعلنها جدودهم منذ ست وثمانين سنة . وهذا إلى أن بعض المراعى الواقعة فى المنحدر الفرنسى والتى تصلح لغذاء ماشية القرى الفرنسية للقريبة ملحقة بإيطاليا .

ويخص الفرنسيون بالذكر حالة وادى أوست ، وأهله يتكلمون الفرنسية من قرون ، ويحسون بقلوبهم أنهم فرنسيون . وقد أراد موسولينى أن « يُتَلِّينهم » فكانت محاولاته عبثاً . لكن هذا الوادى واقع على المنحدر الايتالى ، فيجب إرضاء لأهله وتحقيقاً لرغباتهم القومية تصحيح التخوم لإعادتهم إلى فرنسا وإلحاق وادىهم بها . ولكن منطقهم قريبة من مدينة تورينو التى يتصلون بها اتصالاً تجارياً وثيقاً .

وتدعم النظرية الفرنسية اتجاهها السابقة الألتاس والورين ، وتدعو إلى استفتاء أهل القرى الواقعة على التخوم الفرنسية الإيطالية ليختاروا مصيرهم بأنفسهم ، كما كان هو الحال بالنسبة للتخوم الفرنسية الألمانية .

وأما مسألة التيرول الجنوبي فأمرها راجع إلى أن الإمبراطورية النمساوية المجرية كان لها إلى الجنوب من ممر بزنر إقليم واسع كانت عاصمته مدينة ترنتي ، وكان أهل قسمه الشمالي من الألمان وأهل قسمه الجنوبي من الإيطاليين ، وقد ضم كله بقسميه إلى إيطاليا سنة ١٩١٨ عند انتهاء الحرب العالمية الأولى ، بحجة أن الحدود الدفاعية كان ينبغي أن تمر ببرنر .

وحاولت إيطاليا « تلينة » السكان الألمان ، وكانت النمسا تتكرر احتجاجاتها على هذه المحاولات الإيطالية . فلما تحالف هتلر وموسوليني رضى أولهما أن يترك لثانيهما شأن المتكلمين بالألمانية في ذلك الإقليم . لكن النمسا الجديدة التي عادت إلى الوجود بعد الحرب العالمية الثانية قامت تطالب الآن بإجراء استفتاء يعرب به الأهلون عن ميولهم ، وقامت إيطاليا الجديدة من جانبها تقترح للقسم النمساوي استقلالاً ذاتياً ثقافياً إن لم يكن إدارياً في دائرة الدولة الإيطالية .

وتبقى المسألة الثالثة مسألة تريستا ، وهي المسألة الشائكة حقاً التي يخشى بعض المتطيرين أن يندلع منها لهب حرب أوروبية أو عالمية ثالثة .

وكانت تريستا قبل الحرب العالمية الأولى عاصمة إقليم استريا النمساوي الذي كانت تتبعه ميناء بولا الحربية . وكانت فيومي إلى الجنوب الشرقى مدينة إيطالية اللغة ولكنها ميناء مصرية ، كما كان إقليم دالماسيا إلى الجنوب أيضاً . وكانت إيطاليا تطالب بإقليم استريا و دالماسيا على اعتبار أنهما كانا فيما مضى من أقاليم جمهورية البندقية وإن كانا آهلين من قديم بالصقالبة ، إذا استثنيت موانئ تريستا وفيومي وزارا الآلهة بالإيطاليين .

وقد عرض مؤتمر قرساي للتراع وقضى فيه بالحقاق تريستا وإقليم استريا بإيطاليا و دالماسيا وزارا بيوجوسلافيا ، واحتفظ بحل آخر لفيومي التي قصد إليها دانوتزيو برجاله واقتطعها اقتطاعاً . وظلت الحال على هذا المنوال إلى أن سقطت إيطاليا بسقوط موسوليني ، فهب صقالبة إقليم استريا و طردوا الشرطة الإيطالية وأعلنوا فيه حكمهم ، وجاء الإنجليز والأمريكيون فلم يجدوا إلا الأخذ بإزاءهم بمبدأ الأمر الواقع ، وإن كانوا قد راحوا يحتلون المنطقة كلها دون أن

إيطاليا ومؤتمر الصلح

يمنع احتلالهم الجيش اليوجوسلافي من الوصول إلى خط الدفاع الواقع عند ضواحي تريستا .

وموقف يوجوسلافيا اليوم من المشكلة هو أن إقليم استريا كله يجب أن يكون جزءاً من يوجوسلافيا بتريستا وفيومي وزارا . وتقول إيطاليا إن فيومي وزارا وجزيرتين أو ثلاثاً يتكلم جميع أهلها الإيطالية فيجب أن تلحق كلها بإيطاليا . أما تريستا — وكثرة أهلها هي أيضاً إيطالية — فستنهار اقتصادياً إذا ما ضمت إلى يوجوسلافيا . وتلوح في الأفق نظرية موفقة بين الاتجاهين ، تقول بجعل تريستا مدينة حرة تصبح بمثابة ميناء حرة ، على الادرياتي والبحر المتوسط لأوروبا الوسطى كلها .

وإذن فستخرج إيطاليا بمعاهدة الصلح المنبعثة من مؤتمر شامل أو من مصالحات منفردة ، معدلة حدودها تعديلاً يضعف من شأنها ويفرض عليها الانكماش بعد أن كانت تتيه في أحلام التوسع .

وعجيب هذا القدر ! بدأ موسوليني حياته العامة « اشتراكياً » يمقت الحرب ويحمل على المؤيدين للنزاع الإيطالي التركي ، ويحمل على الموجهين للقوات الإيطالية إلى طرابلس لا تراعها وفتحها ، ثم ينقلب « فاتحاً متوسعاً » يعتدى على الحبشة ويحلم بتحقيق « الامبراطورية الرومانية العظيمة » و« بحره » الخاص ، ثم لا يلبث هذا الحلم أن يتبدد ، ولا تلبث أجزاء تلك الامبراطورية أن تتناثر ولما يمض بعد عام واحد على موته بأيدي شعبه تلك الميتة الشنيعة !

محمد عزمي

بين الحرب والجغرافيا

الشرق الأوسط والحرب

في مقال سابق تناولنا علاقة الحرب بالجغرافيا (١) ، وخرجنا بما يفيد أن أحداث الحروب العالمية واتجاهاتها الأساسية وخطتها الكبرى لا تتأني عفواً وإنما يلاحق بعضها بعضاً ، ويترتب بعضها على بعض . وهي في كل ذلك متأثرة بأبلغ التأثير بظروف الميدان الطبيعية ، وبالمواقع الجغرافية التي يجتذب بعضها المحاربين بما له من قيمة ظاهرة ، وينجذب إلى بعضها الآخر المحاربون أنفسهم بما لهم من بصيرة نافذة يكشفون بها عما لهذه المواقع من قيمة كامنة أو محتملة ، كما خرجنا كذلك بأن من المواقع ذات القيمة الكبرى في الحروب العالمية موقع مصر وما يتصل بها من بلدان الشرق القريب . فقد كان لهذه المنطقة أثرها الكبير وقيمتها الخطيرة في كل نضال من أجل السيطرة العالمية ، ولا شك أنها ستحتفظ بقيمتها هذه مهما تغيرت أحداث المستقبل ، ومهما تطورت فنون الحرب في البر أو في البحر أو في الهواء .

ويعيننا في هذا المقال أن نتتبع كيف أن الحرب العالمية الأخيرة لم تزد قيمة موقع مصر والشرق الأدنى كله — أو ما أصبح يعرف في السنوات الأخيرة « بالشرق الأوسط » (٢) — إلا وضوحاً ، وكيف أن أحداثها جاءت مرددة لما

(١) الكاتب المصري عدد ٧ (ابريل ١٩٤٦) .

(٢) يقصد الجغرافيون « بالشرق الأدنى » منطقة تشمل جنوب البلقان وآسيا الصغرى وغرب إيران والجزيرة العربية كلها وشمال شرق إفريقيا . أما اصطلاح « الشرق الأوسط » فجديد نسبياً على الجغرافيا ، ولم يشع استعماله إلا إبان هذه الحرب الأخيرة . وقد بدأ اصطلاحاً عسكرياً يشمل قيادة الحلفاء في شرق البحر المتوسط والشرق الأدنى إلى حدود الهند . والواقع أن اصطلاح « الشرق الأوسط » كما يفهمه العسكريون الآن لا يختلف كثيراً في مدلوله عن اصطلاح « الشرق الأدنى » كما يفهمه الجغرافيون من قبل ؛ وقد لا يثير كثيراً أن يستعمل أحد اللفظين في موضع الآخر ، ولو أن « الشرق الأوسط » يمتد قليلاً في مساحته إلى ما وراء حدود « الشرق الأدنى » .

الشرق الأوسط والحرب

تجاوب به التاريخ من قبل ، في فترات متقطعة ، منذ فتح الإسكندر باب الحروب العالمية ، التي امتد سعيها بين الشرق والغرب ، والتي لم تكد واحدة منها تشب حتى أصاب الشرق الأوسط منها نصيب يسير أو خطير ، بل حتى غدت هذه المنطقة المتوسطة مسرح النضال وهدف المتسابقين من أجل التحكم في المواصلات العالمية .

والذين يدرسون تاريخ الحروب في العهد الحديث يتفقون فيما بينهم على أن هذه الحرب التي انتهت في الصيف الماضي ، إنما بدأت في عام ١٩١٤ . وغاية ما هناك أن النضال الفعلي جاء في جولتين ، لم تكن الأولى منهما حاسمة ولا فاصلة ، فلم تنكسر جيوش ألمانيا في أرضها مثلاً ، ولم تنهزم هزيمة ساحقة ماحقة ، ولم يصب نظام الصناعة والإنتاج والمواصلات في تلك البلاد بمثل ما أصيب به من خراب إبان الجولة الثانية . . . لا بل إن أداة الحزب في حملتها ونواة الجيش الألماني ذاته تركت سليمة ، أو شبه سليمة ، بعد الجولة الأولى ، وقد احتفظت تلك النواة بروحها العسكري وتقاليدها ولم تسلم قيادتها بالهزيمة ، وإنما نسبتها إلى الثورة الداخلية في ألمانيا . وهكذا لم تنقض عشرون سنة على إعلان الهدنة ^(١) حتى نهض من كبا ، وحتى استطاع المغلوب أن يبدأ بالتحرش والوثوب من جديد .

ومهما قيل في أسباب هذه الحرب وما دفع المتحاربين إليها ، فقد كان الغرض الأول منها والمحرك الأساسي فيها ، إنما هو السعي إلى السيطرة العالمية والتحكم في مصائر الأمم ، وفيما تقوم عليه صلات الغرب بالشرق ، وصلات أهل البلاد القوية والمستعمرة بأهل البلدان الضعيفة والمستعمرة . ولذلك لم يكن بد من أن تمتد الحرب إلى الشرق الأوسط ، لأن الطبيعة قضت بأن يكون ذلك الإقليم باباً ينفذ منه الغرب إلى الشرق ، وجسراً تمتد من فوقه قوات أصحاب السيطرة إلى أولئك الذين قضت ظروفهم أن تكون أرضهم مطعماً للطامعين ، وأن تكون أرزاقهم ، بل جهودهم في الحياة ، مغنا يقتتل من دونه الأقوياء .

(١) قد يكون من الطريف أن نلاحظ من الناحية الفنية الخاطئة أن الجولة الأولى انتهت بإعلان الهدنة من الجانبين في عام ١٩١٨ ؛ على حين انتهت الجولة الثانية بإعلان انتهاء الحرب في أوروبا ، من جانب المنتصرين وحدهم في عام ١٩٤٥ .

وقد تجلى التسابق إلى التسلط على الشرق الأوسط في كل من الجولتين . ولكننا قبل أن نعالج ذلك لا بد لنا من أن نلم بطرف مما يتصل بالقيمة الاستراتيجية التاريخية لبعض مناطق هذا الإقليم الهامة ومداخله الأساسية ؛ فذلك مما يعين على تفهم أهداف الحرب وخططها في هذا القسم من العالم . وأول منطقة تلفت نظرنا في هذا الإقليم هي مصر والركن الشمالى الشرقى من إفريقيا . فقد كان وادى النيل الأدنى ودلتاه على الدوام قاعدة عسكرية هامة يمكن الاستناد إليها والتوسع منها نحو قلب الشرق ؛ وقد تكرر ذلك في التاريخ أكثر من مرة . فمن مصر توسع الفراعنة أيام إمبراطورية الدولة الحديثة ؛ ومنها توسع البطالسة بعد الإسكندر ؛ وإليها ارتكز جانب هام من قوة الرومان في توسعهم إلى شمال بلاد العرب ورأس الخليج الفارسى في أوائل القرن الثانى الميلادى ؛ وفيها قامت دول العرب والمسلمين ؛ ومنها اتسع سلطان صلاح الدين وأمثاله ممن عرفوا كيف يستغلون موقع أرض الزاوية وموارد تربة الكنانة ؛ وفيها تجدد الملك محمد على وامتد نفوذه إلى جهات مختلفة من الشرق القريب ، لولا ما كان من تألب الدول الكبرى عليه وعلى خلفائه . ثم إليها عادت الإمبراطورية البريطانية فارتكزت آخر الأمر ، لا لتؤمن مواصلاتها مع الشرق الهندى والبعيد فقط ، وإنما كذلك لتوسع سلطانها وتمد نفوذها إلى السودان أول الأمر ، ثم إلى شمال الشرق العربى إبان الجولة الأولى من الحرب العالمية وفي أعقابها ، ثم إلى برقة وطرابلس وحتى إلى بلاد اليونان وجزرها في هذه الجولة المنصرمة من الحرب . فكأن الطبيعة قد أرادت أن تكون مصر وأن تبقى على مر الأيام ، مفتاحاً هاماً من مفاتيح الشرق الأوسط وأن يكون مرجع ذلك ومرده إلى موقعها الجغرافى من جهة ، وإلى مواردها الغنية من جهة أخرى .

وموقع آخر هام في الشرق الأوسط هو منطقة المضائق بين آسيا الصغرى والبلقان . وقد كانت قاعدة تحكم منها الإغريق والروم الشرقيون في تجارة البحر الأسود ، ونشر منها البيزنطيون نفوذهم في ذلك البحر وعلى شواطئه ، كما احتفظوا منها بسلطانهم في أراضى المشرق الرومانى القديم . وعادت أهمية هذه القاعدة إلى الظهور في عهد الأتراك الذين امتد نفوذهم في كثير من جهات الشرق الآسيوى القريب وبلاد البلقان . وفي العهد الحديث ازدادت أهمية

المضايق بظهور روسيا وسعيها إلى الخروج من البحر الأسود إلى البحر المتوسط خروجا حراً لا تتحكم فيه إمبراطورية العثمانيين ولا غيرها من الدول الأوربية البحرية التي قد تضغط على العثمانيين أو توحى إليهم بما يتبعونه من سياسة نحو الروس . فلما جاءت الحرب العالمية الأخيرة لم يكن بد من أن تبرز قيمة المضايق كمنطقة عسكرية ذات خطر ، وكمنفذ للبحر الأسود من جهة ، وباب من أبواب الشرق الأوسط من جهة ثانية . وفعلا اتجهت السياسة الألمانية منذ عام ١٩١٤ بل قبل ذلك إلى القسطنطينية وما وراءها من أراضي الإمبراطورية العثمانية ، وأصبحت المضايق نفسها منطقة قتال فعلى شديد في موقعة غاليبولي وما يتصل بها ، واستمر التشاحن بين الدول من أجل تنظيم الإشراف على ممرات الماء خلال الفترة ما بين جولتي الحرب . ويخطئ من يعتقد أن حياد تركيا أثناء الجولة الثانية واستمساكها بموقفها المحايد وبسلطتها الشرعية في الإشراف على المضايق وتحصينها ، سيحول دون تشاحن الدول الكبرى من أجل هذه المنطقة العسكرية الهامة .

وفيما بين برزخ السويس ومضايق تركيا هناك منطقة أخرى يمكن أن تنفذ منها القوة إلى قلب الشرق الأوسط ، تلك هي مجموعة الجزر الواقعة في شرق البحر المتوسط وما يقابلها ويطل على ذلك البحر من شواطئ المشرق العربي في لبنان وسوريا وفلسطين . وقد كانت هذه المنطقة — لا سيما شواطئ لبنان — مجال اتصال واحتكاك في التجارة والثقافة خلال التاريخ ، كما كانت طريقا للتوغل السلمي وبعض التوغل المسلح إلى قلب الشرق . وعادت قيمتها فظهرت في الحرب العالمية الأخيرة بشطريها ، فاقتتل في ميادينها الحلفاء والأتراك (ومن رآهم الألمان) أثناء الجولة الأولى وفي أعقابها ، كما اقتتل فيها البريطانيون وقوات المحور وبقيش في الجولة الثانية . بل جاءت فترة خلال هذه الجولة الأخيرة خيّل فيها أن المحور يستطيع أن يدور من اليونان وجزرها حول تركيا وأن يكيل ضربة شديدة يصيب بها موقف حلفاء الشرق في الصميم .

والمدخل الأخير للشرق الأوسط من ناحية الشمال هو طريق القوقاز وشمال إيران . وهذه منطقة كانت على الدوام تمثل نقطة اتصال الشرق القريب بداخلية آسيا الرعوية . فمن طريق إيران نفذت جيوش الإسكندر إلى تركستان ، ثم جيوش العرب إلى نفس الإقليم . وعن طريق ممر تفليس في القوقاز مرت قوافل

العرب واتصلت تجارتهم بجنوب روسيا وأرض بولندة القديمة في القرون الوسطى . وعن طريق تركستان وقزوين جاءت جحافل المغول والتتار إلى شمال إيران ، ثم إلى أرض الخلافة العباسية في بغداد عام ١٢٥٨ . وعبر شمال إيران وكردستان مرة السلاجقة ثم الأتراك العثمانيون إلى آسيا الصغرى فالقسطنطينية والبلقان . ومع أن التشاحن خف في هذا الركن الشمالي الشرقي من الشرق الأوسط فترة من الزمن فإنه تجدد في أواخر القرن الماضي وخلال القرن الحاضر ، عند ما ظهرت قوة روسيا بشكها القيصرى أول الأمر ، ثم بشكها السوفياتى بعد ذلك ، وسعت إلى أن يكون لها منفذ نحو البحار الدفيئة في خليج فارس ، ثم استمرت المسعى في هذا الاتجاه آخر الأمر ، عند ما رأت أن الطريق إلى تلك البحار غنى بموارد الزيت من جهة ، كما أنه يؤدي إلى قلب العالم العربى وإلى البحر المتوسط من جهة أخرى .

وإلى الجنوب من الشرق الأوسط هناك مدخلان أو مخرجان لذلك الإقليم : أحدهما يمتد مع الخليج الفارسى ، والآخر يمتد مع البحر الأحمر . وكلاهما يبدأ في قلب الشرق الأوسط وينتهى إلى المحيط الهندى وما وراءه من بلاد الشرق . وقد كان التسلط على هذين الدراعين من البحر والسواحل المحيطة بهما غاية كل عسكرى يريد السيطرة على الشرق ومسالكه . منذ بدأ الاتصال بين الشرق والغرب ، وصارت للمسالك البحرية قيمتها في ذلك الاتصال . فقد سعى الفرس إلى ذلك وتسلطوا في أوقات مختلفة على خليجهم بشاطئييه ، وعلى طرق البحر الأحمر في الشمال والجنوب . وسعى الرومان إلى ذلك أيضاً فوضعوا أيديهم على رأس البحر الأحمر في السويس والعقبة ، وعلى رأس الخليج الفارسى في ميناء أبله القديم في شط العرب . وأدرك العرب المسلمون قيمة هذين الطريقين ، فأنشأوا فيهما الموانى ، وأحكموا السيطرة على طرق البحار خلال فترات متقطعة من العهد الإسلامى . حتى إذا ما جاء العهد الحديث ظهر التسابق بين الدول الطامعة في الشرق والمنتكالبة على السيطرة على مسالكه ومداخله ؛ فسعت كل منها إلى أن تمكن لنفسها من أحد هذين الطريقين البحريين ، ومن المسالك البرية المؤدية إليه والمشفرة عليه . فإلى خليج فارس سعت روسيا جهدها طاقها ، ولكن وقعت في سبيلها بريطانيا ، التى جاءت الخليج من طريق الهند أول الأمر ، فبسطت سلطانها على عُمان والبحرين والكويت ، ونشرت نفوذها في

أراضي إيران وشواطئها الجنوبية ، ثم جاءت إلى نفس الخليج من بعد ذلك . وأثناء حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ عن طريق الهند البحري إلى العراق الأدنى ، وكذلك من طريق الشرق العربي الشمالي ، بعد أن كادت الخطر الألماني الذي سعى مع الأتراك إلى العراق . وأما طريق البحر الأحمر فقد سعت إليه بريطانيا ، فوطدت أقدامها في مصر والسودان على شواطئه الشمالية والغربية ، وفي عدن وجزيرة يريم وساحل الصومال في الجنوب . كما سعت إليه فرنسا في جيبوتي ، وإيطاليا في إريتريا . واستمر الكفاح بين هذه الدول مكشوفاً أو مستتراً حتى ظهرت مشكلة الحبشة وحربها مع إيطاليا ، فكان ذلك نذيراً بما انتهى إليه الأمر من نضال مسلح على بعض سواحل هذا البحر خلال الجولة الأخيرة من الحرب العالمية .

وهكذا نجد في هذا الشرق الأدنى كما يسميه الجغرافيون ، أو الشرق الأوسط كما يسميه العسكريون المحدثون ، منطقة كثيرة المداخل ، متعددة المنافذ ، تطل على بحار الشمال وبحار الجنوب ، وتتصل باليابس في الشرق والغرب . فلم يكن بد من أن تتأثر بالحرب التي جاءت ، ومن أن يحاول العسكريون والمحاربون أن ينفذوا إلى قلبها من أي طريق . بل لم يكن بد من أن يمتد إلى هذه المنطقة طبع الحرب وأن يكون لها سببها ، مهما حاولت أن تجنب نفسها موارد التهلكة ومصارع السوء ، أو أن تتقن أهوال الحرب والكفاح المباشر . فهي طرف في كل حرب عالمية ، أرادت أو لم ترد ، والشر يسعى إليها عن كل طريق ، ويأخذها من كل جانب ، لا يحولها عنها محول ، ولا يرددها عنها راد .

بل هكذا قضت الطبيعة أن يكون الشرق الأدنى أو الأوسط ميداناً من ميادين التسابق والمساومة في اقتسام مناطق النفوذ بين كبريات الدول ، حتى قبل أن يبدأ النضال المسلح في عام ١٩١٤ . ففي أوائل هذا القرن كان حلفاء الغرب وأنصارهم في روسيا قد حددوا مناطق نفوذ كل منهم في الشرق الأوسط ومنافذه ، فأطلقت فرنسا يد بريطانيا في مصر وقناة السويس باتفاقية ١٩٠٤ ، واقتسمت بريطانيا وروسيا مناطق النفوذ في الأراضي الفارسية على الجناح الشرقي لهذه المنطقة باتفاقية ١٩٠٧ . ومع ذلك فعندما أعلنت الحرب كانت تركيا العثمانية لا تزال سيدة الجانب الأكبر من قلب هذا الشرق ، ما بين جنوب

شرق البلقان وبحر العرب ؛ فكان طبيعياً أن تحاول ألمانيا أن تنفذ إلى الشرق عن طريق أرض الخلافة ، فهدت للوصول إلى بغداد في طريقها إلى خليج فارس وبعثت بعملاتها ثم بجيوش حلفائها الترك إلى الشام وفلسطين وسينا وقناة السويس على باب مصر الشرقي في عام ١٩١٥ ، وكان غرضها من كل ذلك أن تقطع طريق الهند على بريطانيا ، وأن تمتع حلفاء الغرب في الوقت ذاته من أن يحاولوا تطويقها بالالتفاف حول أراضي تركيا أو شق طريقهم والاتصال بالقوات الروسية في بعض جهات آسيا الغربية . وكانت بريطانيا قبل ذلك وخلال ذلك قد تفاهت مبدئياً مع روسيا (١٩١٢ - ١٩١٣ ثم ١٩١٥) على أن تكون القسطنطينية من نصيب الروس بعد الحرب ؛ فكان من الطبيعي أن يُعقد اتفاق سريٍّ مقابل للدفاع المشترك بين الترك والألمان ؛ واستطاعت ألمانيا بفضل ذلك أن توطد أقدامها في منطقة المضائق . فأذن ذلك بدخول الشرق الأدنى كله في نطاق الحرب ، حتى قبل أن تعلن بصفة رسمية بين العثمانيين والحلفاء .

وفي مطلع الحرب كانت قوة حلفاء الغرب مركزة على الخصوص في مصر ، التي أعلنت عليها الحماية البريطانية ، والتي ما لبثت بريطانيا أن اتخذت منها بالتدريج تلك القاعدة التي طالما استطاع حكامها وسادتها أن يسخروا مواردها ، وأن ينشروا منها نفوذهم ويمدوا سلطانهم في كل اتجاه . وفعلوا بدأ البريطانيون ينظمون شئونهم في مصر وإن كانوا كعادتهم في أمثال هذه المناسبة ، قد بدءوا متأخرين بعض الشيء ، غير مستعدين تمام الاستعداد ، وإنما كانوا معتمدين على مقدرتهم التقليدية على تكييف الأمور ومواجهة الأزمات أولاً بأول . لذلك أعلنوا الأحكام العرفية في مصر في اليوم الثاني من نوفمبر سنة ١٩١٤ ، وأعلنوا معها أنهم يتحملون وحدهم تبعات الحرب ، وأنهم لن يفرضوا على مصر أن تساهم فيها بشيء ؛ ومع ذلك فلم تمض ثلاثة أيام حتى صدرت أوامرهم إلى المدفعية المصرية أن تشخص إلى القناة لتدافع عنها ؛ ولعلنا لا نزال نذكر ما قامت به مصر في عام ١٩١٥ من رد غزوة الأتراك والألمان ، التي جاءت عن طريق شبه جزيرة سيناء ، والتي استطاعت بعض طلائعها أن تعبر القناة . والحق أن هذا كان أول محك لما تستطيع مصر أن تؤديه في حرب كهذه . وليس يضير مصر ألا تكون بريطانيا قد اعترفت إذ ذاك أو بعد ذلك بما أدته مصر لنفسها وللحلفاء ؛ فقد ينصف التاريخ أولئك الأبطال الذين

دافعوا عن القناة يوما ما . ولو وقف البريطانيون وحدهم أمام الغزاة لما ثبتوا لهم ولما ردوهم ، بل لوصل الأتراك والألمان — في رأى كثير من ثقات الحرب — إلى القاهرة في أيام ؛ وكان لذلك ، في أغلب الظن ، من العواقب ما يتغير معه وجه التاريخ .

ولكن هذه الصدمة الأولى نهت بريطانيا إلى خطورة الأمر في الشرق ، كما نهتها إلى أهمية مصر كقاعدة عسكرية لتجمع قوات البر والبحر على السواء . وكان طبيعياً أن تستغل بريطانيا ناحية البحر أول الأمر ، وهى الدولة البحرية الأولى ، فأنحذت عدتها واستخدمت مراكب مصر ومراقبها كقاعدة لتجمع بحرى هائل ، فيما عرف بحملة البحر المتوسط Mediterranean Expeditionary Force التى انطلقت من مصر في عام ١٩١٥ نحو غاليبولي ؛ وكانت غايتها قطع الطريق على الألمان وفتحهم إلى الروس . ولكن عوامل مختلفة أدت إلى إخفاق الحملة التى كان ينقصها عنصر المفاجأة . وكما أخفقت جيوش الترك والألمان عند قناة السويس لأنها كانت على مسافة بعيدة من قواعدهما عند ما ثبت لها المدافعون وردوها على أعقابها ؛ كذلك أخفقت أساطيل الحلفاء في الدردنيل لأنها كانت بعيدة عن مقلها في مصر ولا تستند إلى شئ في الطريق ، فثبت لها الأتراك وبددوا حملتها تبديداً .

ولكن البريطانيين كانوا في الوقت ذاته يوالون تنظيم موارد مصر ، ويتابعون إعدادها لأن تكون أداة فعالة في الحرب ، وإن لم يعترفوا بمركزها كشريكة فيها . حتى إذا ما جاءت المرحلة الثالثة من مراحل الحرب في الشرق (بعد مرحلتى الدفاع عن القناة والهجوم على غاليبولي) برزت أهمية مصر وتجلت مساهمتها الفعالة في صورة جديدة ؛ فتألفت في عامى ١٩١٦ ، ١٩١٧ القوة التى عرفت باسم قوة الحملة المصرية Egyptian Expeditionary Force ؛ وتحولت فرق العمال المصرية التى أعدت من أجل غاليبولي إلى حدود مصر الشرقية ، ثم إلى فلسطين والشام وأرض العراق الأعلى ؛ وارتفع رقم المشتركين في الحملة من المصريين إلى حوالى ١٥٠.٠٠٠ من الرجال يعملون بعقود لمدة ستة أشهر ، أى بمعدل ثلثمائة ألف رجل يشتركون في الحرب خلال العام . وفضلاً عن ذلك فقد سخرت بريطانيا موارد مصر من الأرزاق في الحبوب والدواب والأنعام ، جمعت كلها برضا من حكومة مصر ، ومعاونة فعالة منها ، لتغذية الجيش والحملة

نحو الشرق ، مع أن الأمر في هذه الحملة كان قد انقلب من مجرد الدفاع عن مصر إلى التوسع والفتح في أملاك الإمبراطورية العثمانية والخلافة الإسلامية ! وهنا تجلّى استغلال بريطانيا لمصر وتسخيرها موارد هائل من الرجال والأموال ، إلى جانب استغلالها لموقعها الجغرافي . ومن سخريّة القدر أن تكون بريطانيا قد بدأت باستخدام مصر وتسخيرها في فتح الشرق بحجة تحريره من الأتراك ، فلما استتب لها الأمر فيه وتمكنت قواتها منه ، لم تزدها مصالحها الجديدة في الشرق إلا استمساكاً بهذه الأداة ، وإلا تشبثاً بهذه القاعدة ؛ لعلها أن تفيد مرة أخرى ، وفي يوم قريب أو بعيد ، من هذا البلد الغني ، ذى الموارد الحاضرة وذى الموقع الجغرافي الفريد . وقد كان !

ولكن مصر والدردنيل لم يكونا المدخلين الوحيدين اللذين تسربّ عنهما لهب الحرب إلى الشرق الأدنى ؛ وإنما نشطت بريطانيا كذلك في بحر العرب وفي خليج فارس ، وأرسلت الإمبراطورية حملتها على العراق ، فاحتلت البصرة ، ثم دخلت بغداد في عام ١٩١٧ ، وتقدمت منها في اتجاه الموصل والجزيرة العليا ؛ كما واصلت قوات بريطانيا زحفها من فلسطين إلى الشام وضيوب العراق الأعلى . وفي أعقاب الحرب تعقد الموقف في الشام بتسابق بريطانيا وفرنسا إلى اقتسام مناطق الاحتلال . وبتزول قوات فرنسا في أرض المشرق ، ثم اتفاق الدولتين على اقتسام غنائم الانتداب في مؤتمر الصلح وعصبة الأمم . كما زاد الموقف تعقداً بمحاولة إيطاليا تحقيق أطماعها في جنوب غرب الأناضول ؛ تلك الأطماع التي لوّح لها بها الحلفاء في معاهدة لندن السرية التي دخلت بمقتضاها إيطاليا الحرب في عام ١٩١٥ ؛ ولكن هذه الدولة كانت أضعف من أن تحتفظ بقواتها أو بنفوذها في أراضي تركيا ، رغم أنها كانت تحتل جزر الدوديكانيز منذ عام ١٩١٢ . كذلك انتهت محاولات اليونان ، ومن ورائهم حلفاء الغرب ، في التسلط على أزمير ، باندحارهم أمام قوات الغازي مصطفى كمال على نحو ما هو معروف .

على أن المهم من كل هذا أن لبيب الحرب قد امتد إلى الشرق الأوسط من أكثر من جهة واحدة ؛ وكان ذلك أمراً طبيعياً إذا نحن راعينا كثرة مداخل هذا الإقليم وما آخذ وأهميته الفريدة في صلات الغرب بالشرق . بل كان طبيعياً أيضاً أن يتأثر هذا الإقليم وسكانه بالحرب وأحداثها وتناجها بما قد يزيد على قائل غير من أقاليم الأرض وشعوبها . فقد أطمعت الحرب الظافرين في هذا

الإقليم ومراكزه العسكرية ، وموارده التي لا ينقصها غير حسن الاستغلال . وكان ذلك في وقت زالت فيه سلطة الأتراك ، ودال سلطان الخلافة أو كاد ؛ فتدخلت بريطانيا ومعها فرنسا فاقسمتا قلب الشرق الأوسط بما جعل للأولى نصيب الأسد وللثانية نصيب النمر . ولولا انقلاب الأحوال في روسيا ، وظهور ثورة البلاشفة ، وما صاحب ذلك من انكماش تلك الدولة ثم انطوائها على نفسها ، لكان للروس مطمع في جانب من الغنيمة . كذلك لولا تقاعس أمريكا وتخوفها من الشرق ومشكلات الشرق لكانت تلك الدولة شريكا في بعض أسلاب إمبراطورية العثمانيين .

وانقضت الفترة ما بين جولتي الحرب في قلقه واضطراب ما كان يستقر معهما الشرق الأوسط وأهله على شيء . وقد أغرى اختفاء ألمانيا المؤقت وراء الأفق كلاً من بريطانيا وفرنسا ، فلم تنتبها إلى ما تقضي به الحكمة من إنجاز العهود وإنصاف أهل هذا الإقليم بعد جهادهم في سبيل هزيمة الأتراك ، بل مضت أول الأمر في سياسة أقل ما يقال فيها إنها لم تراع ما استأهله فريق من شعوب الشرق الأدنى من حرية تقرير المصير ، ولو في ميدان الحكم الذاتي الصحيح . ولم تكن تلك السياسة مما يمكن أن يدوم أو أن يؤدي إلى الاستقرار . وقد جربت بريطانيا بصفة خاصة أن تجمع بين المتناقضات في سياستها مع مصر إذ منحتها الاستقلال في ظل الاحتلال ، ومع فلسطين إذ جعلتها للعرب والصهيونيين في آن واحد . وطغت فرنسا في سوريا ولبنان ، فتلاعبت بالعرب ، وشوّهت وحدة بلادهم ، دون رقيب أو محاسب . ولكن انفراد بريطانيا وفرنسا بشئون الشرق لم يكن إلى أجل غير مكتوب ؛ وظهور ألمانيا أو الشبح الألماني ، من وراء الأفق مرة ثانية لم يكن إلا مسألة زمن ؛ كما أن استئناف الكفاح بين الجبابرة من أجل الشرق كان أمراً مفروغاً منه عند من يعرفون بواطن الأمور ، وكانت ساعته آتية لا ريب فيها . ومن أجل ذلك لم تجد بريطانيا وفرنسا بدءاً من أن تحورا سياستهما نحو الشرق . وكانت الأولى بحكم تجاربها ومصالحها المتشابكة ، أسبق في إدراك ضرورة ذلك من الثانية ؛ فلم تلبث أن فرغت من بعض مشكلاتها مع العراق ، ثم عقدت معاهدتها المعروفة مع مصر ، والتي تعتبر ولا ريب أخطر عمل سياسي أنجزته بريطانيا في الشرق ؛ إذ ضمنت به سلامة مواصلاتها ، كما ضمنت استقرار الأمور واستغلال موارد هذه القاعدة

وموقعها الجغرافي بما لا يقل عما حدث في حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ . كذلك عملت بريطانيا على تهدئة الحال بالنسبة للعرب في فلسطين ، فأصدرت كتابها الأبيض بتحديد هجرة اليهود في عام ١٩٣٩ . وفي الوقت نفسه اضطرت فرنسا إلى أن تسلك بعض ما سلكته بريطانيا ، فحاولت — ولو في شيء من المداورة والتردد — أن تنظم علاقاتها مع سوريا ولبنان على أساس جديد من بعض الوجوه . وهكذا ترتب على هذه الخطوات من جانب بريطانيا وفرنسا أن لاحت الحرب الهتلرية ، والشرق الأوسط عند مفترق الطرق . . . قد بدأ يستشف طريقه ويتلمس سبيله إلى حياة الاستقرار أو ما يقرب منه ؛ ولكنه مع ذلك يشفق من المستقبل ولا يطمئن إليه بأكثر مما تسمح به تجاربه خلال ربع قرن كامل . ولكن التاريخ أعاد نفسه في الجولة الثانية من الحرب العالمية ، وإن كانت تفاصيل الكفاح وبعض ميادينه قد تغيرت نظراً لتغير ظروف المحاربين . والشئ المهم أن الهدف الأول من الحرب بقي كما كان ، وهو السيطرة العالمية والتحكم في اتصالات الغرب بالشرق . ولذلك لم يكن بد من أن يصبح الشرق الأوسط طرفاً في الحرب منذ البداية . وقد سعت ألمانيا في هذه المرة إلى قلب الشرق كما سعت في المرة الأولى ؛ ولكن تغير الأحوال جعلها لا تركز في طريق واحد كما فعلت في الجولة الأولى ، عندما اتخذت طريق المضائق دون سواه ؛ فقد وقفت تركيا الجمهورية على الحياد في هذه المرة ، ولم تسمح باستخدام مضائقها في أغراض الحرب لأي فريق من المتحاربين . وترتب على ذلك أن سعت ألمانيا ، أو اضطرت إلى السعي ، نحو الشرق الأوسط من غير هذا الطريق ؛ واختارت بالفعل طرقاً ثلاثة : أولها طريق القوقاز ، وكان وعراً صعباً ، وقفت من دونه جحافل الروس . وثانيها طريق البلقان واليونان والدوديكانيز إلى سواحل المشرق والشام ، وقد سعت فيه ألمانيا إلى منتصفه ، ولكنها لم تسر حتى النهاية ، فاستطاع الحلفاء أن يزحفوا إلى سوريا ولبنان وأن يطردوا قوات فيشي وعملاء المحور منها ، كما لم تجدر ثورة الكيلاني في العراق لأنها كانت حركة منقطعة عن غيرها ، وحلقة لا تتصل بسلسلة الهجوم المحوري . ويظهر أن الألمان لحسن الحظ لم يقدرُوا أهمية هذا المدخل من مداخل الشرق الأوسط ؛ ولو قد فعلوا ذلك ، وحولوا جانباً من قواتهم الضائعة في روسيا إلى البلقان واليونان فسواحل المشرق كما فعلوا في احتلال كريت مثلاً ، لأصبحت لهم قاعدة

الشرق الأوسط والحرب

راسخة في قلب آسيا الغربية ، ولتغير مجرى الحرب في هذا القسم من العالم . كذلك حاول الألمان أن يأخذوا الشرق من مدخل ثالث هو طريق طرابلس وبرقة ومصر ؛ ولكنهم أخطأوا هنا أيضاً فجاءوا متأخرين . ويظهر أن تحالفهم مع الإيطاليين كان عليهم أكثر مما كان لهم ؛ فإن إيطاليا لم تكن فيما يظهر مخلصه في الحرب ولا مقبلة على التضحية من أجل النصر المشترك ؛ فهي مثلاً لم تجاذف بأسطولها في تمكين الصلة بين قاعدة المحور في طرابلس ومواطن التموين في إيطاليا وألمانيا . وعلى كل حال فقد تقدمت جيوش المحور نحو مصر ثم تقهقرت أكثر من مرة ، حتى إذا ما جاءت الواقعة الفاصلة في العلمين كان النصر حليف الجيش الذي استند إلى مصر تلك القاعدة العظيمة التي أدت للجيش الثامن ومكنت له من مواردها وخيراتها ومرافقها ومواصلاتها وجهود أبنائها وإخلاصهم في العمل ، بما كفل له الأمان ساعة الخوف ، والثقة ساعة الاقدام وهكذا ارتد « جيش النيل » وتراجع ، ولكن إلى غير انهيار ؛ حتى إذا ما دقت الساعة تقدّم منتصراً حتى جاوز إفريقية وبلغ قلب إيطاليا بل وشمالها آخر الأمر .

وفي هذا الكفاح الطويل بين المحور والحلفاء في الجناح الغربي من الشرق الأوسط لم تتجل قيمة مصر في الدفاع عن نفسها فقط ، وإنما برزت كذلك قيمتها كقاعدة للتموين والإعداد ، ومركز للتوسع والزحف وإنفاذ الحملات بالبر والبحر والهواء في كل اتجاه . ويكفي أن نذكر هنا أن قوات الحلفاء توسعت من مصر (والسودان) نحو إرترية وشمال الحبشة ، ونحو اليوتان وجنوب البلقان ، ونحو فلسطين وسوريا ولبنان ، ثم نحو برقة وطرابلس وتونس والميدان الجنوبي في أوروبا . وقد تجمعت للحلفاء في مصر جيوش من خمسة وعشرين قطراً وشعباً أو نحو ذلك ، حاربوا جميعاً في أرض مصر ، أو اتخذوها قاعدة لهم إبان الحرب . ولا يكاد التاريخ يذكر أن تجمعت جيوش من مثل هذا العدد الكبير من القوميات والشعوب في بلد من البلدان خلال تاريخ الحروب الطويل .

أما في الجناح الشرقي من الميدان فكانت روسيا في أبلغ الحاجة إلى أن يسند ظهرها ويشد أزرها في جبهة القوقاز والسهل الروسي الجنوبي . ولم يكن هناك طريق يمكن أن يبلغها عنه المدد غير طريق الخليج الفارسي وأرض إيران

الشرق الأوسط والحرب

وكان أن احتل الحلفاء تلك البلاد واستغلوا مواردها وطرق مواصلاتها بما في ذلك الطريق الحديدي الذي أكمله الشاه بين خليج فارس وبحر قزوين ؛ وكانما أنجز ذلك المشروع لينتفع به المحاربون من غير أهل البلاد قبل أنه ينتفع به أبناء إيران . والغريب — أو لعله ليس غريباً — أن إيران قد قاست وستقاس في مقبل الأيام من جراء حاجة المحاربين إليها مثل ما قاست مصر وغيرها من بلدان الشرق إبان الجولتين .

ولكن الحق أن هذه الحرب لم تكن حرب الجبارة وحدهم ، وإنما شارك فيها واكتوى بنارها أبناء الشرق الأوسط وأممهم ؛ وكانت مشاركتهم فيها بمواردهم وأرزاقهم بل وأرواحهم . وإذا نحن أخذنا مصر على سبيل المثال فقد ينفعنا أن نذكر أنها أعلنت على نفسها الأحكام العرفية في مطلع الحرب ، وعلى نحو لم تعلنه بريطانيا ذاتها في بلادها ؛ وأنها قطعت علاقاتها بالمحور وبلداته ، وأصابها من وراء ذلك غرم كثير في التجارة والتبادل انتهى إلى أكثر من الحرمان ؛ بل إنها قلبت نظامها الاقتصادي والإنتاجي كله لتلائم بينه وبين مقتضيات الظروف واحتياجات الحلفاء والجيران في الشرق ؛ كما وضعت مواصلاتها كلها تحت تصرف الحلفاء من انجليز وغير انجليز ، وعلى نحو انطوى على تسخير نظام المواصلات كله من أجل الحرب ؛ فضلاً عن مساهمة جيشها مساهمة فعالة في الدفاع عن القناة والمدن الكبرى ضد الغارات الجوية ، وفي حراسة مرافق البلاد ؛ كما جندت مصر حوالي ربع مليون من أبنائها للعمل في المصانع الحربية والمعسكرات ، وخصصت حوالي نصف مليون من العمال الزراعيين لإنتاج المحاصيل والخضر التي تحتاج إليها الجيوش ؛ واكتوت بويلات الحرب الشديدة في الغارات وحوادث الطرق والأمراض الوافدة ، ومنها الملاريا الخبيثة التي حصدت حوالي الستين ألفاً هم بلا شك من ضحايا الحرب ، والحمى الراجعة التي لا تزال البلاد تعاني بلاءها هذه الأيام . . . إلى غير ذلك من الآفات الاجتماعية ومشكلات البطالة وغيرها بعد الحرب ؛ وهي كلها تدخل ضمن تضحيات مصر في الحرب ومن أجل النصر ، مما يكشف عن أن محاولة « تجنب مصر ويلات الحرب » لم تكن إلا أمنية بعيدة المنال ، بل مستحيلة من الناحية العملية ؛ فهي وإن كانت قد جنبت مصر كثيراً من « ويلات القتال المباشر » فإنها لم تجنبها ويلات الحرب بمعناها المعروف . ومثل هذا يصدق ولو إلى حد ما ، على غير

الشرق الأوسط والحرب

مصر من بلدان الشرق فيما عدا تركيا . وليس كثيراً أن نسجل أنه لولا هذه المساهمات من جانب أهل هذا الإقليم ما كان ذلك النصر الذي انتهت إليه الحرب في جولتها الثانية .

وفوق ما تقدم كله فإن الشيء الذي لا شك فيه أن أعقاب هذه الحرب وتنازُعها لن تقف عند ما أصاب سكان الشرق إبان استعار القتال ، بل هي ستعدي ذلك إلى المستقبل القريب ، وقد تبلغ المستقبل البعيد . وإذا كان صحيحاً أن النضال بين ألمانيا والحلفاء الديمقراطيين في الشرق الأوسط — ذلك النضال الذي بدأ في مطلع القرن الحالي — قد انتهى الآن بانكسار أحد الفريقين انكساراً يبدو كأن لا قيام له من بعده إلى حين بعيد ، فلا شك أن الاتفاق يلوّح بنضال آخر لن يقل عنه شدة وقسوة ، ويخشى — إن هو وقع ، لا قدر الله — أن يكون بين قوتين عظيمتين ، تتمكن إحداها من الشرق وتربض في ربوعه ، وتقف الأخرى على أحد منافذه البرية . وسيزيد من شدة هذا النضال أنه لن يكون من أجل المواصلات والقواعد العسكرية كما كان النضال السابق ، وإنما سيكون فوق ذلك من أجل موارد البترول وغيرها في هذا الشرق الوسيط . ومن الخير لهاتين القوتين العظيمتين ولأهل هذا الإقليم بل للإنسانية جمعاء أن يواجه العالم هذا الخطر الكامن قبل أن يبرز ويستفحل ، وأن يعمل على تلافى أسبابه قبل أن تقع الواقعة . . . ومن يدري ! هل إلى تحقيق هذه الأمنية السعيدة من سبيل !

أما بعد ، فإن الله يداول الأيام بين الناس . وكثيراً ما جعل الله — جلّت قدرته ودقت حكمته — من الحروب سبباً لهذا التداول . والشرق الوسيط الذي نحن بصده الآن إقليم قديم عريق في القدم ؛ قد تداولت عليه أمم وشعوب ، ومر به من الحروب ما غير وجه التاريخ أكثر من مرة . ولكن حرباً واحدة من الحروب القديمة قد تستحق أن يذكرها أهل هذا الشرق — لا سيما الجانب العربي منه — في حاضرهم ، وفيما هم مقبلون عليه من أيام . ذلك أنه أتى حين من الدهر اقتتل فيه الفرس والروم من أجل السيطرة على هذا الشرق ، وكانت هناك أمة غافلة ، أو شبه غافلة ، كان جبايرة الساعة يعتقدون إذ ذاك أنها لم تخلق ليكون لها في العير أو في النفير ؛ بل إنهم حاولوا

تسخيرها وتوجيه أقدارها بما يلائم مصالحهم هم . وترددت هذه الأمة العربية أول الأمر بين الفرس والروم ، ثم مالت نحو هؤلاء الآخرين في مطلع العهد الإسلامي بحكم أنهم من أهل الكتاب على كل حال . ونزلت في ذلك الآية الكريمة : « ألم . غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين . لله الأمر من قبل ومن بعد . ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم » . ولكن هؤلاء الأعراب ما لبثوا أن أدركوا أنه أولى بهم أن يكونوا لله ولا أنفسهم وللإنسانية قبل أن يكونوا للفرس أو للروم . وقد أذن الله أن يتول إليهم الأمر في الشرق بعد أن اقتتل الفرس والروم اقتتال فناء ، وبعد أن حطم الشر الشر ، ودوخ الشيطان الشيطان . والآن يقف أهل الشرق الأوسط موقفاً لا يمثل ذلك الموقف القديم من جميع الوجوه ، ولكنه منه على شيء من الشبه ولو من بعيد . وليس أدل على ذلك من أن هذا الشرق في قرارة نفسه قلق على المستقبل حائر في أمره ، يخشى أهله أن ينحرفوا أو أن يميلوا كل الميل فتأخذهم الريح أو يجرفهم التيار . وقد ينفعهم في هذا الموقف أن يستجمعوا ثقتهم بأنفسهم ، وأن يذكروا ما يفرضه عليهم موقعهم الجغرافي نحو أنفسهم ونحو الإنسانية جمعاء ، وبذلك لا تميل بهم الريح ولا تتلاعب بهم الأهواء . بل قد ينفعهم أن يذكروا ما انتهى إليه الأمر مع أولئك الأعراب القدماء الذين ذكروا أنفسهم فكانت لهم العاقبة ، ولو بعد حين .

قد يبدو هذا الكلام وهماً أو خيالاً ؛ ولكن هذا الشرق الأوسط كان في تاريخه الطويل مهد المعجزات ، وسيتقى كذلك ما بقى التاريخ . والله سبحانه وتعالى قادر ، في يوم قريب أو بعيد ، على أن يخرج الواقع من الوهم ، وعلى أن يخرج الحقيقة من الخيال . وصدق الله العظيم ، وهو القائل في معرض الكلام عن اقتتال الجبابرة من أجل هذا الشرق ، اقتتالا ما كانوا ليقدموا عليه لو أنهم أدركوا عاقبته : « لله الأمر من قبل ومن بعد . . . وهو العزيز الرحيم » .

وحى

وبَّ جَرِّ ثَسْوَر الوهم فيه إلى القضا
تفلا عارفٌ بفيضٍ ، من اللطف مُنتضى
لقف الغيب من رهافة ما خفَّ مومضا
صرف اللب تحت جفن أمينٍ وأغمضا
حسب السرُّ أن كاشفه كفَّ مبغضا
فالتوى مولعا هلوعا وسرطان ما قضى
عفَّ عن تقضيه النسيم وغنى وخفضا
(هفَّ نديَّة الصبايات ثمت على رضا)
لَفَّ الفجر في شجا رفقته ثم أعرضا
فصحا صاحب الرثى خاشع الجفن مرمضا
ذوب الومض في إناء من الشعر أيضا

بشر فارس

الطاهرة ، يولييه ١٩٤٤

الملكة شجرة الدر^(١)

٥

والظاهر أن الفرنج وقفوا من جواسيسهم على نبأ وفاة الملك الصالح بالرغم مما أحيط به من التكتّم ، وقدروا ما يترتب على ذلك من اضطراب الأمور في المعسكر الإسلامي ، فقررروا السير من دمياط لمقاتلة المسلمين ، وزحفوا جنوباً نحو فارس كور^(٢) وسفّهم تسير بحذائهم في النيل ، واقتربت طلائعهم من المسلمين في أواخر شعبان ، فأخذ المسلمون في الاستعداد للقتال . ووصلت هذه الأنباء إلى القاهرة فانزعج الكافة لاقتراب الخطر ، وأخذ الخطباء في الجوامع يحثون الناس على الجهاد ، فهرع كثير من المتطوعة إلى المعسكر السلطاني . وفي أوائل رمضان (ديسمبر سنة ١٢٤٩) وصل الفرنج إلى شرق المنصورة ، وكان يفصل بينهم وبين المسلمين بحر أشموم (البحر الصغير) . واقتربت قواتهم في النيل من المنصورة وكانت فرق المسلمين ترابط إزاءها ، وكان معظم عسكر المسلمين في شرق النيل ، وبعض الفرق ترابط في البر الغربي . وبدأت المعارك المحلية بين الفريقين تنشب متعاقبة في البر والبحر ، وأخصها تبادل الرمي بالنبال والمجانيق ، واستمرت هذه المعارك مدى أسابيع سجّالا بينهما يفقد فيها كل منهما قتلى وأسرى . وكان المسلمون يرسلون أسرى الفرنج تبعاً إلى القاهرة لإنهاض الروح المعنوية بين الشعب . وبذل الفرنج جهوداً عنيفة لإقامة جسر على بحر أشموم يعبرون عليه لكي يستطيعوا مهاجمة المسلمين بسائر قواتهم ، ولكن المسلمين من جانبهم عملوا على إحباط هذه المحاولة ، وقذفت حراقات المسلمين نيرانها المروعة (النار اليونانية) على معسكر الفرنج فأحدثت فيه اضطراباً وذعراً . وكان المسلمون ينفردون يومئذ بمعرفة أسرار

(١) الكاتب المصري عدد ٧ (أبريل ١٩٤٦) .

(٢) هي فارسكور الحديثة .

للكة شجرة الدر

هذا السلاح الذى لعب دوراً عظيماً فى الحروب الصليبية . واستمر الأمر على ذلك حتى أوائل شهر ذى الحجة ، والفرنج فى حيرة واضطراب ، وسرايا المسلمين تفاجئهم بالهجوم ، والنار اليونانية تدهشهم وتروعهم وتحرق خيامهم ومعداتهم ولا يجدون سبيلاً لتقائها . وأخيراً استطاع الفرنج أن يقفوا من بعض الخونة على وجود مخاض إلى الجنوب فى بحر أشموم ، فعبروا منها إلى البر الغربى ، وتقدمت فرسانهم ورماتهم بقيادة الكونت دارتوا أخى ملك فرنسا ، وفاجأوا المعسكر الإسلامى بالهجوم ، وكان قائد المسلمين الأمير نحر الدين فى الحمام فهرع مذعوراً ليقود المعركة فأُتِخ جراحاً وقُتل ، وتفرق فرسانه . وتابع الفرنج هجومهم إلى قلب المعسكر الإسلامى داخل المنصورة ، وتفرقت جموعهم تشخن فى المسلمين هنا وهناك ، ووصلت طلائع المهاجرين إلى أبواب القصر السلطانى ، وكادت الدائرة تدور على المسلمين وتحقيق بهم الهزيمة المروعة .

ولكن حدثت عندئذ مفاجأة لم يتوقعها الفرنج ، وذلك أن الحرس السلطانى المكون من المماليك البحرية أو رجال « الخلقة » وهم مماليك الملك الصالح الذين عرفوا بالمهارة وشدة البأس ، أطبقوا على الفرنج ، بقيادة رئيسهم يبرس البندقدارى ، وحملوا عليهم بشدة متناهية حتى مزقوهم عن آخرهم ، وقتل الكونت دارتوا قائد الفرنج ومعظم رجاله ، ولم يبق من فرسان « الدواية » (١) سوى أفراد قلائل ، وهلكت فى تلك الموقعة زهرة الفرسان الإنجليز والفرنسيين ، وارتدت فلول الفرنج عند مغيب الشمس إلى تل جديدة على بحر أشموم حيث بدءوا هجومهم المشئوم ، وحال الظلام بين الفريقين ، وكان ذلك فى اليوم الخامس من ذى القعدة سنة ٦٤٧ هـ الموافق ٩ فبراير سنة ١٢٥٠ . تلك هى المرحلة الأولى من موقعة المنصورة الشهيرة التى خلدت فى صحف مصر الإسلامية ، بيد أنها لم تكن الخاتمة ، وكان مقدراً أن يشهد الفرنج ذروة المحنة ، وأن يجرعوا الكأس إلى الثمالة ؛ وأرسلت أنباء النصر فى الحال إلى القاهرة ، فاطمأن الناس بعد الاتزاع ، وحل الاستبشار مكان التوجس وزينت المدينة ابتهاجاً بالنصر . وكان يوماً مشهوداً .

(١) الدواية أو فرسان المعبد *The Templars* وهم من أشهر جماعات الفرسان الدينية أيام الحروب الصليبية .

ولم تكن شجرة الدر بمعزل عن هذه الحوادث الخطيرة ، فقد كانت هذه المرأة الباسلة وقت هجوم الفرنج في القصر السلطاني ، ترقب مصائر المعركة . ولما قُتل الأمير نحر الدين يوسف ولاحت طلائع الهزيمة في البداية على المسلمين ، لم يحب عزمها ، بل لبثت رابطة الجأش والجنان ، تعاون برأيها وتشجيعها في توجيه المعركة . ولما زال الخطر ورُدَّ الفرنج إلى مراكزهم ، لم تختار شجرة الدر قائداً جديداً للجيش بل آثرت أن تتولى بنفسها تدير أمر الجند ، ولبثت على ذلك أياماً تعني بشئون الجيش إلى جانب عنايتها بشئون المملكة حتى قدم السلطان الجديد الملك المعظم توران شاه .

٦

ارتدت فلول الفرنج منهزمة عقب الموقعة ، فقصدت إلى مراكزها العامة والمسلمون في أثرها يثخنون فيها . وكانت القوات الفرنجية المتخلفة قد انتهزت الفرصة أثناء ذلك ، فأنشأت خلال اليوم قنطرة على بحر أشموم مما استولت عليه من الأخشاب والعتاد من المسلمين ، فلما ظهرت طلائع المهزومين ، عبرت قوات من الفرنج إلى البر الآخر لحمايتهم ، فعاد المسلمون إلى مراكزهم عند دخول الظلام .

وجمع الفرنج قواتهم في تلك البقعة ، وعدلوا عن خطة الهجوم إلى الدفاع بعد الذي حاق بهم . وكذلك نظم المسلمون صفوفهم ، وأخذوا يحشدون عددهم وذخائرهم لمهاجمة الفرنج وردهم إلى الشمال .

ولم تمض على ذلك أيام قلائل حتى جاءت الأنباء بمقدم الملك المعظم ، وكان قد فادر حصن كيفا بالمشرق قبل ذلك بنحو شهرين ، وعرج في طريقه على دمشق ، ونظم شئون السلطنة فيها ، ووصل إلى الصالحية في ١٦ ذي القعدة أي بعد موقعة المنصورة بعشرة أيام ، فاستقبله هنالك نائب السلطنة الأمير حسام الدين وكبار رجال الدولة وتسلم مقاليد الملك بصفة رسمية ، وأعلنت عندئذ وفاة الملك الصالح لأول مرة ، وكانت شجرة الدر طوال هذه الفترة تحرص على كتمان موته ، وتؤكد لرجال الدولة والقادة أن السلطان مريض لا سبيل إلى الوصول إليه .

وكانت فترة عصبية استطالت زهاء ثلاثة أشهر ، ولكن شجرة الدر لم تفقد ثباتها لحظة واحدة ، وحالفها التوفيق فاستطاعت أن تسهر على وحدة الدولة وسلامة المملكة ، وأن تؤدي مهمتها الفادحة بنجاح منقطع النظير .

وفي اليوم الحادى والعشرين من ذى القعدة وصل الملك المعظم فى ركبه إلى المنصورة ودخل قصر أبيه ، فاستقبلته شجرة الدر بحفاوة وسامت إليه مقاليد الأمور . وكان حريًا أن تنال شجرة الدر شكره وعرفانه ، لما أسدت إلى الوطن والعرش فى تلك الآونة العصبية من جليل الخدمات ، ولما يدين لها من فضل ترشيحه للملك وأخذ العهد له فى غيبته . ولكن توران شاه كان أبعد من أن يشعر نحو تلك المرأة القوية بشكر الصنيعة ، بل كان بالعكس يخشاها ويتوجس من سلطانها ونفوذها ، وسرعان ما تنكر لها وبعث إليها وهى باثقاهرة يهددها ويطلبها بأموال أبيه وذخائره ، فقيل إنها التجأت حيناً إلى بيت المقدس خيفة بطشه وغدره (١) . وكان الملك المعظم فتى تزقاً عنيف الأهواء ، فأساء السيرة وبتش بكثير من رجال الدولة وحطمهم عن مراكزهم ، واضطهد مماليك أبيه الملك الصالح ، فنقم عليه أكابر الدولة وزعماء المماليك وقصيرت نفوسهم عليه وأخذوا يتربصون الفرص لإزالته من طريقهم .

وفى أثناء ذلك كان الفرنج فى مراكزهم فى حيرة واضطراب ، وكانت المؤن تأتىهم فى السفن من دمياط عبر النيل ، فدبر المسلمون خطة لقطع المؤن عنهم والبطش بهم ، وصنعوا عدة سفن قطعاً متفرقة حملت على ظهور الجبال ثم أنزلت فى النيل على مقربة من دمياط وشحنت بالمقاتلة . فلما جاءت مراكب الفرنج محملة بالميرة هاجمها المسلمون بشدة وحطموها وغنموا ما فيها من العدد والأقوات ، وأسروا عدداً كبيراً من الفرنج ، فاشتد الضيق بالفرنج وساءت حالهم . وفى التاسع من ذى الحجة قدم من دمياط أسطول افرنجى جديد مشحون بالأقوات والمؤن ، فلقيته سفن المسلمين على مقربة من دمياط واستولت منه على اثنتين وثلاثين سفينة (مارس سنة ١٢٥٠ م) فتفاقم الأمر على الفرنج ، ودب إليهم الجوع والوهن ، وأخذ المرض يتفشى فيهم ؛ وكانت النيران التى تطلقها حراقات المسلمين على معسكرهم ، تزيد فى بؤسهم وكربهم ،

(١) النجوم الزاهرة (عن ابن قزواغلى) ج ٦ ص ٣٧١ و ٣٧٣ .

وكان لويس التاسع بالرغم من هذا الموقف الخطر يأبى الارتداد حتى غلب نصيح امرائه وقادته ، فاعتزم مفاوضة المسلمين على نفس الشروط التي قبلها الملك الكامل سنة ١٢١٩ هـ . وهي أن يرد الفرنج دمياط إلى المسلمين على أن يستردوا بيت المقدس ؛ ولكن المسلمين لم يقبلوا المفاوضة على هذا الأساس لما يعلمونه من تفاقم حالة الفرنج . فعندئذ بلغ اليأس بالفرنج مبلغه ، وعولوا على الارتداد شمالاً نحو دمياط ، وأحرقوا خيامهم وعتادهم . وفي مساء يوم الثلاثاء الثاني من محرم سنة ٦٤٨ هـ (١٥ ابريل سنة ١٢٥٠ م) بدأ الفرنج ينسحبون تحت جنح الظلام ، وسارت سفنهم في النيل قبالتهم ، ولكن المسلمين كانوا ساهرين يرقبون حركة الفرنج ، وعندئذ جازت قواتهم فوق الجسر الذي أنشأه الفرنج على بحر أشمون ، وطاردهم بشدة ، فما أسفر الصبح حتى أحاطوا بهم من كل صوب ، وكانت الموقعة الشهيرة في تاريخ مصر وتاريخ الحروب الصليبية ، وفيها هزم الفرنج هزيمة شديدة ، ومزقوا شر تمزيق ، وقتل وأسر منهم ألوف عدة وغنم المسلمون معظم خيولهم وعتادهم وأموالهم .

ولجأ لويس التاسع ، أوري أفرنس^(١) كما تسميه الرواية المصرية ، في نفر من خاصته وقادته وفرسانه إلى قرية منية أبي عبد الله الواقعة على النيل على مقربة من فارسكور وطلب الأمان من المسلمين فمنح الأمان ، واقتاده الطواشي جمال الدين محسن مع صحبه من الكبراء وعدتهم نحو خمسين إلى المنصورة ، وهناك اعتقل ملك فرنسا في دار القاضي نحر الدين بن لقمان ووضع القيد الحديدي في يديه ، ووكل بحفظه الطواشي صبيح المعظمي^(٢) . وفي بعض الروايات أن لويس التاسع اقتيد إلى معتقله معزراً مكرماً^(٣) . وكان نصراً باهراً لم يسمع بمثله منذ أيام السلطان الناصر صلاح الدين .

وسار الملك المعظم توران شاه من المنصورة إلى فارسكور ، وهناك نصب

(١) رى أفرنس أوريد أفرنس هي مقابل الفرنسية القديمة Roy de France أو ملك فرنسا . ولم يفت الرواية الإسلامية حقيقة شخصيته وأهمية مقامه . قال ابن واصل مؤرخ العصر : « وكان هذا أريد أفرنس من أعظم ملوك الفرنجة وأشداهم بأساً . وإفرنس هي أمة الفرنج ومعنى ريد أفرنس . ملك إفرنس في لغتهم معناها الملك » (مفرج الكروب) .

(٢) السلوك في دول الملوك ج ١ (٢) ص ٣٥٦ .

(٣) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٦ .

الملكة شجرة الدر

الدهليز السلطاني ، وأقام السلطان إلى جانبه برجاً من الخشب ، وانكب على لهوه وملاذه . وأرسلت البشري إلى سائر الأنحاء فعم السرون والفرح في العاصمتين القاهرة ودمشق . وجاء في رسالة السلطان إلى نائبه في دمشق الأمير جمال الدين بن يغمور في تفصيل الواقعة ما يأتي : « نبشر المجلس السامي الجمالي بل نبشر المسلمين كافة بما من الله به على المسلمين من الظفر بعدو الدين ؛ فانه كان قد استفحل أمره واستحكم شره ، ويئس العباد من البلاد والأهل والأولاد ، فنودوا لا تيأسوا من رحمة الله . ولما كان يوم الاثنين مستهل السنة المباركة فتحنا الخزائن وبذلنا الأموال وفرقنا السلاح وجمعنا العربان والمطوعة وخلقاً لا يعلمهم إلا الله ... فلما كان ليلة الأربعاء تركوا خيامهم وأموالهم وأثقالهم وقصدوا دمياط هاربين وما زال السيف يعمل في أدبارهم عامة الليل ، وقد حل بهم الخزي والويل . فلما أصبحنا يوم الأربعاء قتلنا منهم ثلاثين ألفاً غير من ألقى نفسه في اللجج . وأما الأسرى فحدث عنه البحر ولا حرج . والتجأ الفرنسي (يريد ملك فرنسا) إلى المنية وطلب الأمان فأمنناه وأكرمناه ، وتسلمنا دمياط بعون الله وقوته وجلاله وعظمته . »

والظاهر أن نصر المسلمين على الفرنج وشعورهم بزوال الخطر الداهم كان نذيراً باضطرام الخلاف الداخلي . ذلك أن الملك المعظم أساء السيرة كما قدمنا ، واصطهد كثيراً من رجال الدولة وزعماء المماليك البحرية ، ووضع في مناصبهم رجالاً من خاصته وأصدقائه ، الذين قدموا معه من المشرق ، وأخذ يهدد زوج أبيه شجرة الدر ويطالبها بأموال أبيه وذخائره ، فغضب الأمراء وأكابر الدولة لتصرفاته . وغضب المماليك البحرية لمناوئته إياهم وكذلك لمسلكه الخشن نحو شجرة الدر ونكران فضلها في ضبط المملكة والتمهيد لجلوسه على العرش . وسرعان ما أخذت عوامل السخط تعمل عملها ، وكتبت شجرة الدر من القاهرة إلى زعماء المماليك البحرية تشكو أمرها وتطلب حمايتهم . وشعر المماليك البحرية بما يضره السلطان لهم من الكيد والغدر ، فاتفقوا على قتله قبل أن يبطش بهم . وليس هناك ما يدل على أن شجرة الدر قامت بتجريضهم على ارتكاب مثل هذه الجريمة أو أنها اشتركت معهم في تديرها ، ولكن المؤامرة دبرت وتفذت بسرعة في المعسكر السلطاني . والظاهر أن الذي دبرها بالأخص اثنان من زعماء البحرية هما بيبرس البندقداري وفارس الدين أقطاي . وفي مساء يوم الاثنين ٢٧ محرم

(٦٤٨ هـ) أغنى بعد كسرة الفرنج بنحو ثلاثة أسابيع كان السلطان يجلس إلى السباط في خيمته ، وكان زعماء الحلقة قد دعوا لتناول الطعام معه ، فما كاد ينتهى الطعام ، حتى اقترب الفارس بيبرس من السلطان وضربه بسيفه ضربة تلقاها السلطان براحتة فشقت إلى الذراع ، فوقع الهرج في الخيم السلطاني وهرع السلطان مع بضعة من خاصته إلى البرج الخشبي الذي أقيم وراء المعسكر واحتوى بأعلاه ، فأسرع زعماء الحلقة في أثره وفي مقدمتهم بيبرس وأقطاي وأخذوا يرمونه بالنبال ، ثم ألقوا النار على البرج فاحترق ونزل السلطان وهو يصيح طالباً الغوث والنجدة دون أن يتحرك إنسان لنجدته ، وتلقاه البحرية بالسيوف من كل ناحية وأثخنوه جراحاً ، ولكنه استمر في ركضه حتى ألقى بنفسه في النيل وهم في أثره ، وأجهز عليه الفارس أقطاي بطعنة قاضية ، ثم حملت جثته إلى الجسر وبقيت هنالك ثلاثة أيام في البراء ثم دفنت في مكانها بلا احتفال ولا تكريم .

٧

وهكذا هلك الملك المعظم توران شاه في غمر دامية ، في عنفوانه ، ولم يطل حكمه أكثر من خمسة أسابيع . وشاء القدر أن يختم بموته ثبت ملوك بني أيوب وأن ينتقل عرش مصر من بعده إلى أسرة ملوكية جديدة .

وهنا عرضت مشكلة دقيقة هي : من يخلف الملك القليل على العرش ؟ بيد أن البحرية لم يجدوا صعوبة في حل تلك المشكلة . وكانت شجرة الدر في قصرها بقلعة الجبل ترقب الحوادث ، وكانت هذه المرأة الموهوبة التي أثبتت بخلاها القوية أنها أقدر من عظماء الرجال تلوح لهم معقد الآمال ، ومن ثم فقد اجتمع زعماء البحرية ورجال الدولة وأمرأاء الجند في المعسكر السلطاني واتفقوا على ترشيح شجرة الدر لتبوء عرش مصر الإسلامية .

أجل ! كان تنصيب الملكات في الإسلام بدعة لم يسبق لها مثيل ولم تجلس من قبل امرأة على عرش دولة مسلمة مستقلة . ولكن ألم يكن من الممكن أن تستمد السوابق من نواح أخرى ؟ لقد جلس في العصور الغابرة على عرش مصر ملكات عظام ، وكانت الروايات والأساطير الذائعة يومئذ عن تاريخ مصر القديمة تذكر كثيراً من أولئك الملكات ، وكانت منهن على الأقل واحدة شهيرة معروفة

الملكة شجرة الدر

تحيطها الأسطورة بكثير من الجلال والروعة وهي كليوباترة أو كلاطرة كما تسميها الرواية العربية^(١) بيد أنه كان ثمة سوابق أخرى أقرب وأكثر ذيوفاً، فقد كانت الدولة البيزنطية (دولة الروم) وهي جارة مصر من الشمال دولة عظيمة يقود مصايرها القياصرة . ولكن ألم تجلس الملكات (القيصرات) أيضاً على عرش القياصرة ؟ أجل ! جلس منهن قبل شجرة الدر اثنتان هما الإمبراطورة ايريني معاصرة الخليفة المهدي وولده هرون الرشيد ، وهي التي تعرفها الرواية الاسلامية باسم « ريني » والامبراطورة تيودورا معاصرة الخليفة المستنصر بالله الفاطمي . وكان مثل تيودورا بالأخص معروفاً في مصر ، فقد بعث إليها المستنصر بالله الفاطمي سفارته الشهيرة سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) أيام الشدة العظمى يستمد منها القوات والعون فلم تحقق رجاءه ووقعت الحرب بين الدولتين . وإذن فلم يك تنصيب الملكات بدعة في الدول العظيمة . فلماذا لا تجلس على عرش مصر امرأة كما جلست النساء على عرشها من قبل وكما تجلس النساء على عرش القياصرة ؟ اتفق رأى الزعماء والقادة على تولية شجرة الدر ، وأن تخرج التواقيع السلطانية باسمها ، وأن يكون مقدم الجند الأمير عز الدين أيبك التركماني أحد زعماء البحرية^(٢) . وأخذت البيعة للملكة الجديدة في اليوم العاشر من صفر سنة ٦٤٨ هـ (مايو سنة ١٢٥٠ م) وحمل البشري إليها الأمير عز الدين ، فابتهجت لما وقع وبدأت عهدها الجديد كملكة لمصر الإسلامية .

وكانت ولاية شجرة الدر حادثاً فريداً في التاريخ الاسلامي . وإذا استثنينا ما يقدمه لنا تاريخ بعض الإمارات الهندية المسلمة فانه لم يحدث قط في أية مملكة مسلمة أن تولت الملك امرأة^(٣) وكذلك لم يجلس بعد شجرة الدر إلى يومنا امرأة قط على عرش مملكة مسلمة مستقلة .

(١) ابن خلدون ج ٢ ص ٢٠٠ .

(٢) ابن واصل في « مفرج الكروب » (مخطوط ج ٢ لوحة ٣٧٢) .

(٣) وأشهر ما يقدمه إلينا تاريخ الإمارات الهندية المسلمة في ذلك هو مثل السلطنة رضية ملكة دهل (دهلي) التي وليت الملك عقب مقتل أخيها في أواسط القرن السادس الهجري واستقلت بالملك أربع سنين . وكانت تركب سافرة كما يركب الرجال (راجع رحلات ابن بطوطة - مصر ج ٢ ص ٢٢) . وظهرت أيضاً في أوائل القرن السابع في بلاد خوارزم وخراسان أميرة أو ملكة عظيمة الشأن هي ترکان خاتون والدة السلطان محمد بن تيكش وكانت ذات سطوة وسلطان (أبو الفدا ج ٣ ص ١٤٨) .

الملكة شجرة الدر

وكان للحادث أعظم وقع في العالم الاسلامي ، حتى قيل إن الخليفة المستعصم بالله العباسي نعى على مصر أن تجلس على عرشها امرأة وأرسل إلى بلاط مصر يقول : « إن كانت الرجال قد عدمت عنكم فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً (١) . » ونعاه بعض فقهاء العصر واعتبروه خروجاً على الدين ، وشعر الزعماء الذين ولوا شجرة الدر أنفسهم بهذا الشذوذ ، ومن ثم كان اختيارهم للأمير عز الدين أيبك ليكون مقدماً على المعسكر وليعاون شجرة الدر في نفس الوقت على تصريف الشئون . وقبضت شجرة الدر على زمام الأمور بحزم ، وكانت يومئذ في نحو الأربعين من عمرها تفيض قوة وعزماً ، واختارت لوزارتها الصاحب بهاء الدين علي بن محمد المعروف بابن حنا ، وكان أول عهده بالوزارة ، واتخذت لنفسها طائفة من الألقاب الطريفة ، فهي الملكة عصمة الدين شجرة الدر ، وهي « الستر العالي » « والدة خليل » وهو ولدها المتوفى من الملك الصالح . وكانت هذه علامتها على الأمور والمراسيم ، ودعى لها على المنابر بدعوات جديدة مبتكرة مثل « اللهم أدم سلطان الستر الرفيع والحجاب المنيع ملكة المسلمين والدة الملك خليل » ومثل « واحفظ اللهم الجهة الصالحة ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين أم خليل المستعصمية صاحبة الملك الصالح » . وكذلك نقش اسمها على السكة بالعبارة الآتية « المستعصمية الصالحة ملكة المسلمين والدة الملك المنصور خليل أمير المؤمنين (٢) . » وقد اعتقد العلامة الأستاذ لاين پول أن هذه الألقاب تدل بأن شجرة الدر كانت جارية للخليفة المستعصم (٣) قبل أن تكون جارية للملك الصالح . ولكن هذا الاستنتاج بعيد الاحتمال . وأكبر الظن أن كلمة « المستعصمية » التي أطلقت على شجرة الدر كانت تعني انضواءها تحت لواء الخليفة العباسي من الوجهة الدينية مثل ما كان عليه سلاطين آل أيوب إذ كانت ترد إليهم الخلعة والتشريف عند تولي الملك من الخليفة العباسي . وكان أول ما عنت به الملكة شجرة الدر هو تصفية الموقف مع الفرنج

(١) السلوك ج ١ (٢) ص ٣٦٨ وابن أبي عمير ج ١ ص ٨٩ . والسيوطي في حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٩ .

(٢) راجع كتاب الأستاذ لاين پول المشار إليه ص ٢٥٥ .

(٣) وتوجد في المتحف البريطاني قطعة من النقود من عصر شجرة الدر تحمل الألقاب الشاهي إليها وهي القطعة الوحيدة من نوعها (يراجع A History of Egypt, by Lane Poole, p. 255, note

الملكة شجرة الدر

وإجلالهم عن الأراضى المصرية ، فندبت الأمير حسام الدين محمد نائب السلطنة السابق لمفاوضة الملك الأسير لويس التاسع . وكان ثمة جماعة من الزعماء يؤثرون الاحتفاظ به وعدم إطلاق سراحه ، ويرون في ذلك مصلحة كبيرة لمصر والاسلام . ولكن المفاوضات انتهت بالاتفاق على الافراج عنه وعن باقى الأمراء المأسورين معه لقاء فدية قدرها ثمانمائة ألف دينار ، وأن يسلم الفرنج دمياط فوراً للمسلمين ، وأن يطلقوا جميع الأسرى المسلمين ، وأن يطلق المسلمون كذلك أسرى الفرنج المعتقلين منذ أيام العادل والكامل والصالح ، ثم خفضت الفدية المشترطة بعد ذلك إلى نصفها أى إلى أربعمائة ألف دينار . وكانت مرجريت دى بروقانس ملكة فرنسا وزوج الملك الأسير يومئذ فى دمياط تعاني آلام المرض والمحنة ، فبذلت لجمع الفدية المطلوبة جهوداً فادحة ؛ ودخل المسلمون دمياط فى الثالث من صفر (٦٤٨ هـ) وعلى أثر ذلك أفرج عن الملك لويس التاسع وزملائه من الأمراء ورجال الدولة ؛ وكان من رفاقه فى المعتقل مستشاره ومترجمه المؤرخ دى جوانفيل وهو الذى ترك لنا عن أخبار الحرب الصليبية السابعة وحوادث مصر يومئذ مذكرات قيمة شائعة^(١) . وغادر الفرنج أراضى مصر تواقاً وركب لويس التاسع وفلول جيشه ومن أفرج عنه من أسرى الفرنج وقد بلغوا يومئذ عدة آلاف ، البحر فى سفنهم إلى ثغر عكا وكان ذلك فى شهر مايو سنة ١٢٥٠ م . وهكذا سحقت تلك الحملة الصليبية العتيدة فى الأراضى المصرية ، وقامت مصر عندئذ بدورها التاريخى مرة أخرى فردت عادة الغزاة الصليبيين عن مصر وبلاد المشرق ، وعملت على حماية الإسلام والمدنية الاسلامية من عدوان هذه الحملات البربرية ، وقضت على قوة من أعظم القوى النصرانية التى سیرت لغزو مصر باسم الدين . وقد ترك لنا الشاعر الكبير جمال الدين بن مطروح نائب دمشق فى تلك الموقعة أبياتاً شهيرة ما زالت ترددها الأجيال يقول فيها :

قل للفرئيس^(٢) إذا جئته مقال نصح من قؤول فضيح
آجرك الله على ما جرى من قتل عباد يسوع المسيح

(١) وقد وضعها دى جوانفيل De Joinville, Histotre de St. Louis (تاريخ القديس

لويس) ولها ترجمة انجليزية بعنوان : *Memoirs of the Crusades* .

(٢) يريد هنا لويس التاسع ملك فرنسا .

أتيت مصر تبتغي ملكها
فساقك الحين إلى أدم
وكل أصحابك أودعتهم
سبعون ألفاً لا يرى منهم
وفقك الله لأمثالهـا
إن كان باباكم يذا راضياً
وقل لهم إن أضمرنا عودة
دار ابن لقمان على حالها
تحتب أن الزمر ياطبل ريج
ضاق به عن ناظريك القسيح
بحسن تديرك بطن الضريح
إلا قتيل أو أسير جريح
لعل عيسى منكم يستريح
فرب غش قد أتى من نصيح
لأخذ ثأر أو لفعل قبيح
والقيد باق والطواشي صبيح

محمد عبد الله عنانه

(البحث بقية)

الطفولة والصبا

عند ما يقترب الإنسان من نهاية العمر يشرع ذهنه في سرد الذكريات التي حفلت بها بدايته . وأجدني في الوقت الحاضر أدنو من عتبة الستين ، وأسأل وأتساءل عن الأصل والأرومة وعن العوامل الوراثية والبيئية التي تكونت منها هذه الشخصية التي قد تزول بعد بضع سنوات ، إذا اعتبرنا متوسط الأعمار في مصر ، أو قد يمتد بها العمر عشر سنوات أو عشرين سنة أخرى ، وهو متوسط السن في عائلتنا .

وقد رأيت القرن التاسع عشر بعين الطفولة . ورأيت وهو خلو من الغش لم يلبسه شيء من مخترعات القرن العشرين . وهذا مالا يستطيع أن يقوله أوربي لأن إرهابات القرن العشرين كانت تبدو واضحة في أواخر القرن التاسع عشر في أوروبا أما في مصر فقد حدث العكس ، وهو أن تراث القرن التاسع عشر بل بعض القرون التي سبقت بقيت عالقة ببداية قرننا هذا . وما زلنا في سنة ١٩٤٦ نرى هذا التراث على أثقله في طبقاتنا الفقيرة . وليس هذا من ناحية الوسط فقط حيث الفقر المذل ، بل من ناحية النفس أيضا ، حيث الرضا بالحظ المقسوم والايمان بالخرافات والتسليم بالنظم الاقطاعية كأنها الشيء الطبيعي لمجتمعنا .

أجل ! لقد ركبت الحمار من محطة القاهرة إلى عابدين ، ورأيت الجاموسة تحضر كل يوم من العزبة إلى منزلنا بالقازيق كي تحلب ثم تعود . وضربت من أختي لأنى ناديتها باسمها من الشارع ، إذ كان يعد من الشعائر الاجتماعية العامة ألا تعرف أسماء الفتيات . وعشت في القازيق حين لم تكن تعرف المصاييح ، حتى إتنا كنا حين تزور بعض أقاربنا ، نحمل معنا « فانوساً » نسترشده في ظلام الشوارع . ورأيت أحد المجرمين يشنق في ميدان القازيق ، وبقيت نحو عام وأنا أفزع من اسمه ، وكان يدعى سيد أهله . ولم أكن أستطيع النوم إلا وأنا متعلق

يعتق أىء ، ولم أكن أستطيع الدخول فى المرحاض إلا بمرافقة الخادم . وكان من المؤلف الذى كنا لا نحس فيه وخزاً أو عيباً أن يجرى خلفنا الفلاح نحو ساعة ونحن على الحمير وهو يلهث كأنه والحمار سواء .

وكانت لنا دار « قوراء » فى الزقازيق تتسع لمار أو بغل فى فناءها الذى يستقبل السماء وتقرش أرضه أشعة الشمس . وكانت هذه المطايا أومبيلات العائلة وفقاً لشعائر القرن التاسع عشر . ولعل إرماد عيني فى صباى كان يعود إلى روث هذه البهائم .

والزقازيق بلدة جديدة لا يرجع تاريخها إلى أكثر من ثمانين عاماً . وجميع طائلاتها لهذا السبب ينتمون إلى بلدان أخرى . وكذلك كانت أسرتى فانها ترجع إلى البياضية فى مديرية أسيوط . وقد تركنا البياضية منذ نحو ١٤٠ سنة أى فى نهاية الحكم الفرنسى وبداية حكم محمد على . وأسرتنا فى مديرية الشرقية تعرف بلقب « العفى » ولا يزال هذا اللقب فى البياضية على الرغم من فرقة تقارب قرناً ونصف قرن . والأصل والفرع يعيشان فى يسر ، فان عمدة البياضية لا يزال من عائلة العفى . ولكن ليس هناك أى تعارف بين أعياء البياضية وأعياء الشرقية . ولم تزر هذه القرية منذ ١٤٠ سنة .

أما لماذا هجر فرعنا الحاضر فى مديرية الشرقية هذه القرية الصعيدية ، فاننا نجهل تفاصيله ، ولكنى أرجح هذا التفسير التالى :

لما غزا نابليون مصر فى أواخر القرن الثامن عشر انتعش الأقباط . ولم يكن الشعب المصرى ، مسلمين ومسيحيين ، يحس الوجدان الوطنى الذى نحسه فى عصرنا ، وذلك لأن الوجدان الدينى كان يقوم مقامه . وفرح الأقباط بدخول نابليون واستطاعوا أن يجرءوا على تغيير ملابسهم وأن يرحلوا عن قراهم فى الصعيد إلى القاهرة وبلدان الوجه البحرى . وكانوا إلى ذلك الوقت يتعممون بالعمائم السود مع أزياء أخرى يختصون بها ويتخذونها مضطرين منذ القرون المظلمة . وكانت هذه الأزياء الخاصة تمنع تنقلهم وارتياحهم مدن القطر . فلما جاء نابليون نزعوا هذا الزي واتخذوا الزي المصرى العام الذى كان ينفرد به إخوانهم المسلمون ، وبذلك أتيح لهم التنقل . وأنا أعد هذا السبب الأصلى لنزوح أبى جدى من البياضية إلى القاهرة ، ثم إلى القراقرة فى مركز منيا القمح ثم إلى الزقازيق .

الطنولة والصبا

ومما يؤيد هذا التفسير قول الجبرتي في حوادث ١٢٣٣ هجرية :

« فيه نودى على طائفة المخالفين للملة من الأقباط والأروام بأن يلزموا زيهم من الأزرق والأسود ولا يلبسون العباءم البيض ؛ لأنهم خرجوا عن الحد في كل شيء . ويتعممون بالشيلا ن الكشميري الملونة والغالية في الثمن ، ويركبون الرهوانات والبغال والخيول ، وأمامهم وخلفهم الخدم يطردون الناس عن طريقهم . ولا يظن الرائي لهم إلا أنهم من أعيان الدولة . ويلبسون الأسلحة وتخرج الطائفة منهم إلى الخلاء ويعملون لهم نشانا يضربون عليه بالبنادق الرصاص وغير ذلك . فما أحسن هذا النهى لودام . »

ولكنه لم يدم كما اشتهى العالم الأزهرى الجبرتي . ويبدو أن الأقباط والأروام عادوا فتوسلوا بالقناصل الفرنسيين والايطاليين إلى مجد على فألغى هذا التمييز ، فاستطاع الأقباط أن يختلطوا بسائر الشعب وأن يرحلوا ويتنقلوا كما شاءوا . وواضح أن الأزياء السابقة التي كانوا يتخذونها منذ الحاكم بأمر الله كانت تجردهم في قراهم لأنهم كانوا إذا انتقلوا إلى مدينة غريبة صاروا عرضة ، على الأقل ، للتهزئة والتعيير ، إن لم يكن لأكثر من هذا .

وهجر أبو جدي قرية البياضية حوالى ١٨٠٠ أو ١٨١٠ في عمارة بيضاء . وكان هذا من الانتصارات الخطيرة للقرن التاسع عشر على القرون السابقة . وجميع أفراد عائلتنا يعدون بحسب الترتيب المزاجى لكرتشمير ، انطوائيين . يتسمون بالوجه الطويل والقامة النحيفة والاعتكاف أو كراهة الاختلاط . وأحيانا يبدو هذا المزاج فى مبالغة شاذة حتى إنى أعرف أشخاصا فى أسرة العنى حاشوا كأنهم كانوا رهبانا يتوقفون المجتمع ولا يحضر أحدهم عرسا أو جنازة إلا بضغط ، وقد لا يجدى الضغط . ولكن هذا الشذوذ كان بالطبع نادرا .

ومات أبى ولما يبلغ عمرى السنتين . ونشأت لذلك فى بيت لا يزوره ضيف ، إلا إذا كان من الأعمام أو الأخوال ، فزادنى هذا الظرف انزواء على ما ورثت من المزاج الانطوائى . وقد صار هذا الانزواء بعد ذلك فضيلتى و رذيلتى معا . فقد كانت تمنى على السنة والسنتان لأعرف فيها القعود على القهوة . كما أنى إلى الآن أجهل ألعاب الحظ البسيطة بالورق أو غيره مما يتسلى به غيرى . وما زلت أفر من المجتمعات فى استحياء أو كراهة . ومع أنى أحسن الكتانة فأنى أسئ

الخطابة ؛ لأن الأولى تؤدي في انفراد ، والثانية تحتاج إلى مجتمع . وقد عانيت كثيراً من هذا النقص الاجتماعي في حياتي بعد ذلك ولكنني أعزو إلى انطوائيتي هذا الاعتكاف في مكتبتى ، وهو الذى بسط لى آفاقاً واسعة وأمتعنى بمجنات نضرة وغرس فى نفسى ديانة بشرية سامية .

وأولى الذكريات التى تمثل فى ذهنى من أيام الطفولة ، صورة أمى وهى قاعدة إلى فراشى تصلى من أجلى وأنا مريض . ولا أعرف كنه هذا المرض الذى ألزمنى الفراش نحو عام أو عامين . والأغلب أنى مرضت به وأنا فى الخامسة أو السادسة ، ولعله كان حمى الملاريا ؛ لأن الزقازيق كانت فى ذلك الوقت حافلة بالبرك الآسنة . ولما قاربت الشفاء كان خادمنا عطية يحملنى إلى ضريح ولى مسلم يدعى أباً عامر . ولا يزال ضريحه قائماً بقرب الزقازيق . وكان يشتري الشمع ويتصدق بقروش ، ويدور بى حول الضريح ويتمسح به ويقرأ الفاتحة جملة مرات وأنا على عاتقه . وكان عطية متعلقاً بى يهمل شئون البيت كي يقعد بجوارى ويلعبنى وأنا مريض . وبقي أكثر من عشر سنوات بعد ذلك بمنزلنا . وكان حبه لى ساذجاً يطغى ، فكان يلقمنى الطعام حتى أعجز عن البلع . وكان هذا العجز علامة الشبع عنده . ولم يتركنا الا بعد أن اشترى فداناً وآثر الفلاحة على الخدمة المنزلية .

وأدخلت الكتاب ، ولم تكن بدعة المدارس قد ظهرت فى الزقازيق ، وقضيت من السنين مالا أذكره وأنا أجهل القراءة . وكانت غاية العريف أن يعلمنى عن ظهر قلب بعض الصلوات . فلما حفظت « نعظمك يا أم النور » وهو دعاء إلى العذراء ، رافقنى إلى البيت وقعد هو أمام أمى وانطلقت أنا أسرد الدعاء . وناولته أمى على أثر ذلك جنياً .

وتألفت فى الزقازيق جمعية خيرية من الأقباط ، وكان أول نشاطها أن أنشأت مدرسة « عصرية » أى إنه كان بها مقاعد من الخشب ومعلمون فى زى أوربى . وانتقلنا من الكتاب إليها . وشرعنا تتعلم وندرس فى جدد . ثم ظهرت المدرسة « الأميرية » فدخلناها . وكان التلاميذ يلبسون الجلاليب إلى أن زار الخديوى عباس هذه المدرسة حوالى ١٨٩٩ فطالبونا باتخاذ الزى الأوربى . وحصلت المدرسة من كل تلميذ على ٢٥ أو ٣٠ قرشاً ثمن بذلة بيضاء لكل منا . وزارنا الخديوى ونحن فى هذا الزى الأبيض الناصع . ولم نعد بعد ذلك إلى الجلاليب .

ولا يستطيع مصرى التحق بالمدارس المصرية الابتدائية والثانوية الاميرية فيما بين ١٩٠٠ و ١٩٢٠ أن يقول إنه كان هنيئاً بالحياة المدرسية . فقد كانت هذه المدارس ثكنات ، وكان كل ما يستحق الاهتمام فيها هو النظام أى الطاعة . ولم نكن نعرف ذلك الروح الديمقراطي الذى يعم المعاهد التعليمية فى هذه السنين . وكذلك لم تكن هناك أية ألفة بين المدرس والتلميذ . وكانت هذه الصفات أبرز فى المدارس الثانوية منها فى المدارس الابتدائية ، حتى كان العام يمر والتلاميذ لا يعرفون اسم المعلم الانجليزى الذى كان ينطق صمته قبل حديثه بالطرسة . وكان المعلم يسرع إلى العقوبة لأقل إيماءة مخالفة من التلميذ وكانت العقوبة المألوفة أن يحرم التلميذ من الغداء ويعطى زغيفاً يأكله وهو واقف إلى جنب زملائه القاعدين إلى المائدة . ولست أظن أنه كان يقصد بهذه العقوبة سوى تعميم الذلة والهوان بيننا .

وكان التعليم فى المدارس الابتدائية أقل ذلة ، لأن المعلمين كانوا مصريين ، ولكن حتى هنا كان القزب التاسع عشر يثب علينا بأساليب فى الضغط والعريضة . فكان المعلم أحياناً يعمد إلى أسلوب فى العقاب يفشى بيننا الكراهية والوقية . ذاك أنه إذا أخطأ أحدنا وردته تلميذ آخر إلى الصواب حمد هذا الثانى إلى لطم الأول على خده . فإذا تلطف هذا الضارب وأدى العقوبة تأدية شكلية استعاده المعلم وطالبه بالضرب الجدى . فإذا انطلقنا بعد ذلك من الفصل فى الفسحة أمسك المضروب بمخناق الضارب وانتقم منه .

ولكننا كنا ننهنا بالإجازات المدرسية التى كنا نقضيها فى الريف . وهى لا تزال تبرز فى ذهني كأجل وأنصح ذكرياتي . وفى هذا الريف اكتسبت كثيراً من الاختبارات التى لا تتحقق لأطفال المدن . وكانت قريتنا تبعد عن الزقازيق نحو ساعة على الحمار . وكنا نلعب مع صبيان المزارعين إلى الساعات الأولى من الصباح . وأحياناً كنا ندبر السرقات فى الحقول للخيار أو البطيخ . ولا يزال عالقاً بذاكرتي بعض الاقتحامات والصبوات . فقد تسلقت ذات مرة شجرة كان فى أطرافها العليا عش . فلما بلغت فيه فرخى غراب . فأمسكتهما يدي وشرعت أهبط . ولكنى ماكدت أترك العش حتى وجدت ثورة من اللطم المؤلم والعض الشنيع تغمر رأسي ووجهي . وطار عقلي وأنا فى هذا الاضطراب ، فلم أتنبه إلى أن هذه الثورة هى أم الفرخين يساعدها أب أو عم . ولو

كنت أدركت خلقت عن الفرخين ونزلت في سلام . ولكنني لفرط الألم والرعب بقيت في غشية مغمض العينين وأنا ممسك بالفرخين أتحمس طريق الخطرة على فروع الشجرة إلى أن مسست الأرض . وهنا أفقت وفتحت عيني فوجدت ثلاثة أو أربعة من الغربان وهي تصرخ بي وتسب وتهترأ بعد أن ألتخنتني وضربت رأسي ووجهي بالدماء .

ومرة أخرى في إحدى جولاتي سمعت خشخشة في ديس عند حرف القناة . فلما اقتربت وجدت حجراً وظننت أنني قد هبطت على عش سأخرج منه بغنيمة . فلما أدخلت يدي قبضت على جسم طري ، فجررته فاذا به ثعبان . ولكن الريف لم يكن كله على غرار هذه المفازع . فان مباهجه ، والأنسة الديمقراطية التي كانت تنعقد بيني وبين الصبيان الذين كانوا في سني ، والليالي التي كنا نحياها في السمر أو اللعب ، والاستحمام في النهر ، وركوب الفرس ، والجولة إلى السوق الأسبوعية ، ثم إلى ذلك معيشة الريف الساذجة ، كل هذا كانت تحفل به حياتنا في الصبا ، وكنا نجد اهتمامات تشغلنا . ولم تكن كلها صبيانية ؛ فإني أذكر أن ولادة الجاموسة حركت عقلي وقلبي جملة أيام ، وما زالت صورتها إلى الآن ترسم في مخيلتي وهي في حرج الولادة تن وتلهث وتتلفت ، وجميعنا حولها في عطف تتألم لها ، وكان بعضنا يدعو لها بالسلامة كأنها صديق من البشر ، حتى خرج المولود بعينه الواسعتين وهو يترنخ ونحن نسندنه وأمه تحنو عليه وتلحسه .

وحصلت على الشهادة الابتدائية في سنة ١٩٠٣ . ولا أعرف بالضبط كم كان عمري . لأن إثبات الميلاد لم يكن في أيامنا من القواعد الصارمة . ولكن أغاب الظن أنني ولدت حوالي ١٨٨٨ . ودخلت السنة الأولى في المدرسة الأميرية وأنا في الحادية عشرة وهي السن التي نال فيها ابني بعد ذلك هذه الشهادة . . . ومع ذلك كنت أعد من صغار السن في الفصول ؛ إذ كان بيننا من بلغوا العشرين .

وعند ما أقارن بين ما تعلمته بالمدرسة الابتدائية بالضرب وسائر العقوبات بما تعلمته عفواً في الريف من اختبارات في الحياة ، أجد أن الريف قد علمني أكثر وأكسبني من المعارف الذهنية والروحية ما يعد تربية حققة ما زلت أتنفع بها إلى الآن . فقد اكتسبت من الريف هذا الحب للطبيعة الذي جعلني أحس سائر

حياتي أن الأرض هي الأم . وأكاد وأنا في الريف أشعر ، مثلما شعر ذلك الراهب في قصة «الإخوة كرامازوف» لدستويفسكي ، حين انبطح على الأرض قبلها ، أنني أحس مثل هذه العاطفة المقدسة . وثلثي أن هذه العاطفة هي المبعث الذي انبعث منه بعد ذلك وجداني الديني البشري واستطلاعى الدائم لعالمى النبات والحيوان واهتمامى بشئون العمال .

وكانت حياتنا بالريف سليمة من الناحية الصحية . فانه على الرغم من أننا كنا ندوس الحقول ونخوض القنوات بلا حذاء ونستحم في النهر ، فأننا لم نعرف البلهارسيا أو الأنكلستوما . وذلك لأن التربة لم تكن قد استشبعت بالماء كما هي الحال الآن ، بعد أن عمت مشروعات الري التى أحالت أرض القطر المصرى كلها تقريباً إلى عزبة لا إنتاج القطن دون أى اعتبار لصحة الفلاحين . وأذكر أن التربة كانت أيام الجفاف تتشقق ، وكان عرض الشق يزيد على عشرة سنتيمترات ويغور نحو نصف متر . وفى مثل هذا الوسط لم تكن الديدان تستطيع الحياة . وكانت صحة الفلاحين سليمة وأجسامهم قوية . ولكن الانجليز المتسلطين على بلادنا وقتئذ رأوا أن إنتاج القطن خير لهم من صحة الفلاحين .

وكانت الحياة الدينية أبرز من الحياة الاجتماعية أو المدنية فى العائلات القبطية . وهذا على عكس ما نرى الآن . فأنى أذكر أنه كان لعيد الميلاد رجة عظيمة تمتاز بمقدمات ولواحق . وكنا نعد له الأيام ونتهياً بالملابس والنقل والذبايح . وكانت تفتد إلى بيتنا عجوز تقضى فى كل عيد نحو شهر لا أعرف أصلها ولكنى أذكر اسمها خريستا وكانت تقص علينا الأساطير البديعة كما تصنع لنا أنواعاً من الكعك المزخرف .

وقد ورث الأقباط التعاليم الكنسية كما كانت حين تجمدت فى الدولة البيزنطية فيما بين القرن الرابع والقرن السادس . ولذلك كانت «العذراء» بارزة بروزاً يبرر وصف الأوربيين للعقيدة المسيحية فى مصر فى نهاية القرن الماضى وأوائل الحاضر بأنها «ماريلوجية» . ولكن انتشار المذهب البروتستنتى فى مصر استنزف الكنيسة القبطية وأثارها إلى الوجدان المسيحى . وكثير من الأقباط يأسفون على انتشار المذهب البروتستنتى فى مصر ويجدون فيه شقاً لم يكن ضرورياً . ولكنى أظن أنه لولا هذا المذهب لما تنهت كنيستنا ولما استيقظت من نعاس القرون الماضية .

وكانت المرأة ، مسالمة أو قبطية ، تعيش في ظلام الحجاب لا تجالس الضيوف من الرجال . وكان هؤلاء يزورون أو يزارون في « منظره » لا تشترك في لقاءهم المرأة . وكان البرقع طاماً لا تخرج امرأة إلا ووجهها مقنع . وأذكر أن أمي وأخواتي المتزوجات التزمن البرقع إلى حوالي سنة ١٩٠٧ و١٩٠٨ حين تركته . وظنى أن هذا الترك كان من أثر البروتستنت أيضاً لأنهم كانوا ألصق بالغريين وأكثر أخذاً بطرقهم منا نحن الأقباط الأرثوذكس .

سلامه دوسى

الوعي في الشعر

هل يستمد العمل الفني عناصره كلها من الوعي ومعين الذهن؟ أم هل يستمد عناصره كلها من « وراء الوعي » وينابيع الإلهام؟ أم هل يزاوج بين الوعي وما وراء الوعي ويستعين بهذه القوي وتلك على السواء؟ للإجابة على هذه الأسئلة يجب ألا نستشير القواعد النظرية وحدها، فهذه القواعد قد تقودنا إلى منطق ذهني بعيد عن الواقع العملي، إنما يجب أن نستشير كذلك التجارب العملية التي مآناها بعض رجال الفن، فلا نقضى في الأمر في غيبة عن شهوده المجريين.

وحين تقول « عناصر العمل الفني » لا نعني أن هذه العناصر منفصلة، أو أنه يمكن البحث عن كل عنصر منها على انفراد. ولا تقع في الغلطة التي وقع فيها القدماء كما وقع فيها كثير من المحدثين، حينما راحوا يقسمون الكلام الفني إلى لفظ ومعنى، ثم راحوا يتجادلون: أيهما يكون فيه الابتكار، وبه يكون تقويم الكلام.

ذلك جدل لا يؤدي إلى شيء؛ فالعمل الفني كله وحدة لا يقوم أحد عناصرها بذاته، ولا يرى منفصلاً عن بقية العناصر.

فإذا نحن تحدثنا عن العناصر المختلفة، فذلك مجرد فرض يسهل علينا الفهم والتصور. تلك حقيقة أودُّ تقريرها بقوة؛ وعندئذ لا يصبح من الخطر أن نتحدث عن عناصر العمل الفني المسمى بالشعر.

كل من عانى نظم الشعر يعرف أن هناك مراحل يتم فيها هذا النظم. وسرد هذه المراحل قد يساعدنا على تبين العناصر التي تبرز في كل مرحلة منها بوضوحاً خاصاً.

فهناك فى أول المراحل مؤثر ما يقع على الحس أو النفس فيسبب انفعالا على وجه من الوجوه . هذا المؤثر قد يكون حادثا ماديا ، أو حالة شعورية ، أو شيئا ما بين هذين الطرفين المتباعدين : فقد يكون منظرا تقع عليه العين ، أو صوتا يتسرب إلى الأذن ، أو تجربة نفسية تمر بالشاعر ، أو حكاية تجربة وقعت لسواه ... إلى آخر المؤثرات المادية والمعنوية التى يتعرض لها الفرد ، وتعرض لها الإنسانية فى جميع الأزمان .

وهناك فى المرحلة الثانية استجابة لهذا المؤثر فى صورة انفعال . وهذه الاستجابة تتكيف بعوامل كثيرة ، منها طبيعة المؤثر ، ومدى حساسية المتأثر به ، وطبيعة مزاجه ، وتجاربته الشعورية الماضية ، وعدد ضخيم من العوامل التى تجعل كل فرد يستجيب للمؤثرات المتحددة نوما بطرق مختلفة كل الاختلاف عن استجابة الأفراد الآخرين .

هذا الانفعال الشعورى ينصرف معظمه إلى طاقة عضلية وعصبية عند غير الفنانين وينصرف أقله عن هذا الطريق عند رجال الفنون بينما معظمه ينصرف على صورة أخرى ، هى الصورة الفنية التى نسمى لونا منها بالشعر ... فكيف يتم هذا فى الشعر خاصة ؟

إن هذا الانفعال يتبلور فى صورة لفظية وإيقاع موسيقى يمتزج أحدهما بالآخر تمام الامتزاج ، ويؤديان فى اتحادهما إلى كلام ذى موسيقية خاصة ، يرمز إلى الخواطر والمشاعر التى صاحبت ذلك الانفعال فى النفس ، ويصور كذلك الجو الشعورى الذى عاش الانفعال فيه . وإذا نحن سمينا جانبا من هذه الخواطر والمشاعر « معانى » فإن جانبا منها لا تشملها هذه التسمية ولا تدل عليه ، وذلك هو جانب الجو الشعورى الذى عاشت فيه هذه المعانى ، واكتسبت منه ألوانها ودرجة حرارتها ، ومقدار اندفاعها ، ومدى ما ترمز إليه فى النفس من انفعال مبهم ليست الألفاظ إلا رموزا له ، تشير إليه ولا تعبر عنه ؛ إنما يعبر عنه ذلك الإيقاع الموسيقى العام ، كما تعبر عنه الظلال الخاصة التى تلقىها الألفاظ بجرسها أو بالصور التى تنبعث منها والتى هى زائدة فى الحقيقة على معناها اللغوى الذى يفهمه الذهن منها .

وكثير من هذا الذى نقول يحتاج إلى تفسير . والمثال هو أقرب أدوات التفسير .

ونبعد مؤقتاً عن الشعر لنل على أن أوزان الشعر ليست وحدها هى التى تحدد موسيقيته ، وأن الإيقاع الموسيقى الذى يعبر عن الجو العام قد يكون ناشئاً عن بناء الألفاظ ذاتها وطريقة تواليها فى النص الأدبى ، ولو لم توجد التفعيلات والأوزان .

نأخذ مثالا من القرآن :

« كلا إذا دُكَّتِ الأرضُ دُكًّا دَكًّا ، وجاء ربُّك والملك صفًّا صفًّا .
وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأتَّى له الذكرى ؛ يقول يا ليتنى
قدمت لحياتى فيومئذ لا يعذب عذابه أحدٌ ، ولا يوثق وثاقه أحدٌ
يا أيُّها النفسُ المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى ،
وادخلى جنَّتى » .

فى الفقرات الأولى إيقاع موسيقى قوى شديد ، وفى الفقرات الأخيرة إيقاع
موسيقى رخىٌ مديد . وبينهما إيقاع متوسط كأنه يهيمٌ للانتقال ؛ وفى كل مرة
يشترك بناء الألفاظ ذاتها ، وبناء التعبير عند اجتماعها فى تلوين ذلك الإيقاع ،
الذى يصور الجو الشعورى المصاحب للمعنى . وهذا الجو الشعورى زائد
بطبيعة الحال عن المعانى التى تدل عليها الألفاظ والعبارات ؛ ولكنه جزء
لا يتجزأ من العمل الفنى الذى تمثله هذه الآيات .
ومثال آخر نضربه للظلال التى تلقىها الألفاظ ، وتؤلف جزءاً من العمل الفنى
زائداً على المعنى اللغوى والذهنى :

« أذلك خيرٌ نزلًا أم شجرةُ الزَّقُّومِ ؟ إنا جعلناها فتنةً للظالمين ، إنها
شجرةٌ تنخرجُ فى أصل الجحيم ، طلعُها كأنه رءوسُ الشياطينِ » . .

فليس هناك مدلول ذهنى لرءوس الشياطين ، التى يشبهها طلع شجرة الزقوم .
ولكن هناك ظلالاً خيالية تلقىها الألفاظ وتشترك فى رسم الصورة التى يعنىها
النص . وهناك كلمة الزقوم . وهى تلقى بجرسها فى الأذن صورة خشنة شائكة
تنحز الحلق والبلعوم ! وهذه الصورة المتخيلة من جرس اللفظ زائدة بطبيعة
الحال عن المعنى اللغوى ، ولكنها جزء أصيل من العمل الفنى الذى يمثله النص .

ومثال ثالث من الشعر فى هذه المرة :

للعقاد قصيدة فى الجزء الأول من ديوانه أسماها « سباق الشياطين » تخيل فيها أن شياطين الكبرياء . والحسد . واليأس . والندم . والحب . والكسل . والرياء . قد اجتمعت كلها فى حضرة الشيطان الأكبر « إبليس » فى مباراة ، وقام كل منها يعدد ما ثره ويعرض مزاياه . والجائزة فى النهاية هى « مقاليد الجحيم » تسلم للفائز العظيم !

وفى هذه القصيدة ، وهى من بحر واحد وقافية متعددة ، يبدو تناسق الإيقاع الموسيقى وجرس الألفاظ ، مع الدلالة اللغوية والمعنوية للمفردات والنصوص ، مع الجوانب الخاص لكل مقطوعة يقولها شيطان ، فيتم فيها التناسق الفنى بين الجو الشعورى والتعبير اللفظى ، والإيقاع الموسيقى . ولكن شاهدنا فيها هو أن الإيقاع فى ذاته ، وجرس الألفاظ كذلك ، عنصر زائد على المعنى المتعارف للنص ، وهو داخل فى البناء الفنى للقصيدة . وتبدأ القصيدة هكذا :

يا شياطين الدجى حىّ هكلا وتغنى الآن بالفعل الذمىم
أَيْكُمْ فى الناس أعلى منزلا فله عندى مقاليد الجحيم

فتحس فى الإيقاع الموسيقى كله وفى بعض مفردات الألفاظ تراقص الشياطين وتواثبها عن الشمال واليمين ! والشرط الأول « يا شياطين الدجى حىّ هلا » يمثل إيقاعه « شقلبة » شيطان رشيق !

ثم يتقدم شيطان الكبرياء — وفى تقدمه تناسق فنى مع طبيعته . ولكن هذا لا يعنينا هنا ، إنما يعنينا الرنين والضجيج والامتداد والتهويل الذى نلمسه فى التعبير على النحو التالى :

رنّ فى الندوة صوت الكبرياء رائع الصبيحة مرهوب الصدى
قال : إني أنا داء الأعلياء أنا داء لهمو فيه الردى
ماليّ بالغىظ قلب الضعفاء تاركُ النباهِ فيهم أوحدا

الخ . . .

الوعى فى الشعر

ثم يتمشى شيطان الحسد ، فندم فى الايقاع كما ندم فى المعانى صورة أخرى
متسقة مع تلوى الحسد وتثنيه :

ومشى الشيطان شيطان الحسد	مشية الأفعى إلى وكر القطا
شاخب السحنة مهضوم الجسد	خائفاً فى جنبه قد أفرطا
قال : لو شئت لما جاز أحد	منكم السبق وإن جد الخطا

... الخ

ثم يستوى للقول شيطان اليأس ، فندم فى الايقاع والمعانى صورة ثالثة
ففى التلكؤ والتراجع ، تتفق مع صورة اليأس فى الخيال ، ويساعد سكون
القافية على تمثل الوقوف ثم الارتقاء :

واستوى للقول يأس مُعضل	كلما همّ تولاه الضجر
قال : ما لليأس فيكم مأمل	لا ولا يرجو مقاليد سقر
بيد أنى قاتل لا يعقل	ومن القتل حياة للبشر

ثم يبدى الليل شيطان الندم ، الذى لا يتقدم بنفسه ، ولكن يديه الليل ،
فاذا صورة راجفة منزوية لشبح دقيق الكيان مرضوض ، ويبدو ذلك كله فى
الايقاع كما يبدو فى المعانى على السواء :

ثم أبدى الليل شيطان الندم	ضارعا يفرق من خفق الهواء
أخرس المقول من غير بكم	ولقد ينطق حيناً بالبكاء
يمقت الأثم ويغرى من أثم	بذنوب ماله منها وقاء

... الخ

ثم يمشى صوت من جانب شيطان الحب يبدو فى أوله لنا وجيها ولكنه ينفج
كالشواظ ويثير الفزع والصراخ . فندم فى الايقاع الموسيقى ، وفى جرس الالفاظ

ما يتسق مع خطوات الحب فى النفس ، من مبدئه اللين الخفى ، إلى نهايته
اللافة الملهبة :

ومشى من جانب الحب أنين كشواظ النار يرمى بالشرار
لفح القوم فهبوا صارخين وهمو فى الخاق من مارج نار
أنا شيطان الهوى أفرى الوتين كل من أغشاه مسلوب القرار
الح . . .

ثم يدعو الداعى بشيطان الكسل ، فما ينهض وحده وما يتقدم بنفسه ، وما
يلبى أول دعاءه ، وسنامح فى الايقاع والمعانى ذلك التناسق الذى ذكرناه ، كما
نلمحه فى جرس الألفاظ وظلالها المتخيلة :

ودعا الداعى بشيطان الكسل فتمطى ساعة لا ينطق
قال : لو راودتُ نحيما لأفل وثوى فى أفقه لا يشرق
آفة القول جميعاً والعمل وبلاء الله فيما يخلق

ثم يرى شيطان الكسل شيطان الرياء فيتنجى له ، ويهتف النظارة : ما أجمله !
وهو يزوى عنهم الوجه الديميم . فإذا تحدث لمخنا ذلك التناسق الذى أسلفناه :

قال : إني أنا شيطان الرياء صاحب الوجهين أملود اليد
وأبيت النفس فى طى الخفاء فهى تحيا كالرفات الملحد
الح . . .

وهذا المثال يفيدنا — فوق بيان وظيفة الصور والايقاع — فى إيضاح
حالة خاصة . فقد لا يكون الانفعال الشعورى ناشئاً عن مؤثر خارجى غير إرادى .
بل يكون هذا المؤثر صورة استحضرها المؤلف وعاش فى جوتها ، حتى انقلبت
كالمؤثر الخارجى . وعندئذ تأخذ طريقها إلى الظهور فى عمل فنى كما لو كانت
ناشئة عن مؤثر غير إرادى .

وهذه الحالة تفسر لنا طريقة العمل الفنى عند شعراء الملحمة والتمثيلية ،
وعند شعراء المدح والرثاء ، وسائر الأغراض التى يبدو أن المؤثر فيها ليس ذاتياً .
مما تقدم نستطيع أن نحدد — على وجه التقريب — عمل الوعى وما وراء

الوعى فى الشعر . فنستطيع أن نقول إن الشعر يستمد معظم مؤثراته وانفعالاته من وراء الوعى ، وأن الوعى إنما يبدأ عمله عند مرحلة النظم التى لا بد فيها من اختيار ألفاظ خاصة تعبر عن معان خاصة ، وتنسيقها على نحو معين لتنشئ وزناً معيناً وقافية معينة .

ولكن هذا القول لا يمس على إطلاقه . ففى حالات شعورية خاصة ، يبلغ فيها التأثير والانفعال درجة عالية ، قد تتم عملية النظم ذاتها بلا وعى كامل ؛ لأن الانفعال يستدعى الألفاظ والعبارات بطريقة شبه تلقائية . وهذه هى أجل لحظات الشعر بلا جدال .

ولا معنى لأن ينكر أحد هذه الحالة الواقعة لمجرد بناء نظريات منسقة ، ولدينا من التجارب العملية عند الشعراء المعاصرين ما نستطيع الارتكان إليه . فالصنعة على النحو الذى يفسره بها بعض من كتبوا فى الموضوع تكاد تنتفى فى حالات شعورية كثيرة ، وإغفال هذه الحالات لا يكون إلا مجرد انسياق وراء رأى مفتعل لا يتفق مع حقائق التجارب العملية .

ثم إن الإيقاع الموسيقى الذى يتألف جانبه الظاهرى من الوزن الخاص - وهو البحر - وجانبه الباطنى من جرس الألفاظ ومن الإيقاع الناشئ من نوالها على نحو معين ، يستقى فى حالات كثيرة من وراء الوعى ؛ فكثيراً ما يجد الشاعر نفسه ينظم من بحر معين ، وينسق ألفاظه فى تعبير معين ، دون وعى كامل ؛ لأن هذا كله يتسق مع الحالة الشعورية للقصيدة .

وهذا يجعلنا نعيد تقديرنا على أساس جديد لقيمة الإيقاع الموسيقى فى الشعر . بوصفه جزءاً من العمل الفنى يصور أجل جانب فيه وأصدقه ، وهو تسجيل الجو الشعورى الذى عاش فيه الشاعر حين كان ينظم قصيدته ، وتأديته إلى القارئ أو المستمع بعد ذلك بعشرات السنين أو بألافها .

ولا شك أن هذه النظرة إلى الإيقاع الموسيقى تختلف عن نظرة المدرسة العقلية فى الشعر العربى ، كما تختلف عن نظرة المدرسة الإيقاعية على السواء . فالمدرسة العقلية أصغرت من قيمة الإيقاع الموسيقى جملة ، فى سبيل تحقيق المعانى ودقة الأداء ذهنى . والمدرسة الإيقاعية عنت بحلاوة الإيقاع ومهولته ، دون أن تنظر إلى التناسق بين لون الإيقاع والجو الشعورى العام للقصيدة ، وهو الجو الذى نحس أنه كان يحيط بنفس الشاعر

وهو ينظمها ، والذي صاحب الانفعالات التى دفعته إلى النظم للتعبير عنها . ثم إن لما وراء الوعى دخلا كذلك فى اختيار الألفاظ ؛ فكثيراً ما يجد الشاعر الملهم كلمات وعبارات تقفز إلى منطقة الوعى فى نفسه من حيث لا يدرى وقد لا يكون واعياً لمعانيها بدقة وهو ينظمها ، وقد يعجب بعد انتهائه من النظم ، وعودته إلى الحالة الشعورية العادية كيف انثالت هذه الألفاظ والعبارات عليه انثيالاً — كما يقول الجاحظ بحق — ثم قد يدرك فيما بعد أو لا يدرك أن لهذه الألفاظ أو لهذه العبارات ظلالاً فى نفسه ، تتسق مع الجو الشعورى الذى نظم فيه قصيدته ، سواء كان هذا الجو من صنع مؤثر خارج عن إرادته ، أو بسبب استحضاره هو له . وحقيقة أن للوعى فى الحالة الأخيرة نصيباً أوفى . ولكن الوعى قد يقف عمله نهائياً عند استحضار الجو وتخيل المؤثر . لأن نفس الشاعر سريعة التأثر بالإيحاء والتخيل ، حتى لينقلبان فيها إلى مؤثرات حقيقية فى كثير من الأحيان ، وبذلك يتحقق الصدق الفنى ، ولو لم يتحقق الصدق الواقعى ١.

وهذه الظلال المصاحبة للألفاظ والتعبيرات كامنة فيما وراء الوعى لملايسات خاصة بالشاعر ، أو خاصة بهذه الألفاظ والعبارات ذاتها . فـالألفاظ أرواح ، ولكل لفظة تاريخ ، وليست الألفاظ إلا رموزاً لملايسات شتى متشابكة فيما وراء الوعى . وقد يختلف هذا بين شاعر وآخر ، ولكن تبقى اللفظة رمزاً على الظلال والمعانى التى حملتها فى تاريخها الطويل . والشاعر الملهم هو الذى يستوحى الألفاظ رموزها العميقة ، ويستدعيها فى اللحظة المناسبة . وإن يكن هذا العمل يتم غالباً فى غيبة عن الوعى عند الشعراء الملهمين .

وهذه الحقيقة تجعلنا نعيد تقديرنا على أساس جديد لقيمة الألفاظ والعبارات ، فنرد إليها اعتبارها الذى أهدرته المدرسة العقلية والمدرسة اللفظية على السواء . فالأولى كان رائدها دقة الأداء المعنوى دون نظر إلى الظلال التى تلقىها الألفاظ بجرسها أو بتاريخها فى عالم اللغة وعالم الإحساس ، مما يفسد الجو الشعورى الذى تعيش فيه القصيدة ، ويحدث نوعاً من « النشاز » الموسيقى أو التصويرى فى السياق . والمدرسة الثانية كان ههما عذوبة اللفظ أو جزالة العبارة ، بدون نظر إلى هذه الملايسات التى تختلف فى قصيدة عن قصيدة ، وفى حالة شعورية عن حالة . . . وهكذا .

هذه القضية ليست جديدة فى النقد العربى ، فلقد أثبتت فى العصر القديم . فكان الأصمعى يقول عن زهير وأصحابه إنهم « عبید الشعر » لأن صناعة النظم والتجويد فيه واختيار الألفاظ وتعديل العبارات قد استغرقتهم وأبعدتهم عن الطبع الذى ينظم فى سهولة ويسر . وكان « الآمدى » يقول عن أبى تمام « شديد التكلف ، صاحب صنعة ومستكره الألفاظ والمعانى ، وشعره لا يشبه أشعار الأوائل ، ولا على طريقتهم ، لما فيه من الاستعارات ، والمعانى المولدة » بينما كان يقول عن البحتري : « أعرابى الشعر مطبوع على مذهب الأوائل ، وما فارق عمود الشعر المعروف ، وكان يتجنب التعقيد ومستكره الألفاظ » .

ومن الحق أن تقول إن القضية لم تعرض لهم إلا من ناحية الكد فى تجويد النظم ، أو اليسر فى الأداء . ومن ناحية الاعتماد على التصورات الحسية ، أو الغوص وراء المعانى الذهنية . وهذا جانب من القضية لا كل جوانبها . ولكننا بهذه المناسبة لا نتردد فى إظهار الصور فى الشعر على المعانى ، وفى إظهار الانطلاق المستمد مما وراء الوعى على التعقيد الذى يصنعه الوعى فى أغلب الأحيان .

ثم عرضت هذه القضية مرة أخرى فى العصر الحديث ، فى معرض الجدل بين مدرسة شوقي وحافظ المعنية بالإيقاع الموسيقى والجمال اللفظى ، ومدرسة العقاد وشكرى ، المعنية بالصدق الشعورى ، والتدقيق المعنوى .

وقيل كلام كثير فى معرض الجدل ليس كله صواباً بطبيعة الحال ! ونحن فى هذه المناسبة لا نتردد فى أن نرد إلى الإيقاع الموسيقى والجمال التعبيرى اعتبارهما — ولكن على أساس آخر غير الأساس الذى يفهمه الشوقيون والتعبيريون على العموم ، وأن تقول إن الصدق الشعورى لا يبدو كاملاً فى الشعر إلا إذا اكتمل فيه الإيقاع الموسيقى ، وإلا إذا تسقت ظلال الألفاظ والعبارات مع هذا الإيقاع ، وتناسقت جميعاً مع الجو الشعورى للقصيدة . وذلك هو الكمال الفنى الذى يختل حين ينهار أحد أركانه .

وكما فاض الشعور فطغى على الوعى وانطلق يستمد من الرواسب النفسية ، ويستوحى الظلال الشعورية ، كان يجرى فى ميدانه الأصيل ، وينشئ أجمل آثاره ، وذلك مع عدم إغفال مقومات الشعر الأخرى من عمق وسعة واتصال بالحياة وتفاذ إلى الأسرار الكونية الخالدة .

صفحات مطوية

على النيل

ليلة تلك من ليل إلى السُّعُودِ أَسْلَفْتُنَا بِالْحَبِّ طَعْمَ الْخُلُودِ
 ليلة النيل يَحْتَوِينَا عَلَيْهِ زُورِقٌ سَاجٌ كَطَيْفٍ شَرُودِ
 نَامَ رُبَّانُهُ الصَّغِيرَ فَأَسْرَى يَتَهَادَى طَوْعَ الطَّوَائِي السُّودِ (١)
 كَالْحَيَارَى فِي مَعْبَدِ اللَّيْلِ ، لَا تَلْغُو بِحَرْفٍ فِي رَوْقِهِ الْمَمْدُودِ (٢)
 فِي خَشْوَعٍ تُصْنِغُنِي إِلَى الصَّمْتِ ، وَالصَّمْتُ بَلِيغُ الْإِيحَاءِ وَالتَّوَلِيدِ
 حَوْلَنَا الْكَوْنُ سَاكِنُ الْحُسْنِ سَاجٍ شَاكِبُ الرِّسْمِ مُسْتَسْرِ الْحُدُودِ
 نَحْسِبُ النَّهْرَ حَالِمًا ، وَالْمَرَاثِي هِيَ رُؤْيَا فِي حُلُمِهِ الْمَشْهُودِ (٣)
 وَحَدَّنَا فِي الْوُجُودِ رَحْبًا عَظِيمًا فَلَنَّا نَحْنُ كُلُّ هَذَا الْوُجُودِ
 فَوْقَنَا قَبْةُ الْفَضَاءِ يَغِيبُ الْحِظُّ فِي غُورِهَا الْبَهِيمِ الْبَعِيدِ
 وَهَنَا النَّيْلُ تَحْتَنَا زَاخِرُ الصَّدِ رُبَّ تَارِيخِهِ الْمُعْتَمَى التَّلِيدِ (٤)
 أَذْهَلْتَنَا عَلَيْهِ هَدَاهِدُ الْمَوِ جَ رَخِيَّ التَّصْوِيبِ وَالتَّصْعِيدِ
 فَذْهَلْنَا عَنْ فَلَكِنَا وَسَبَحْنَا كَالْقُدَامَى مَعَ الْخِيَالِ السَّعِيدِ (٥)
 وَسَمِعْنَا عَرَائِسَ الْجَنِّ تَشْدُو كَلَامًا لَجَّ مَوْجُهُ فِي النُّشِيدِ
 وَكَأَنَّآ فِي الْمَاءِ مِنْذُ قَدِيمٍ بَعْضُ أَرْبَابِهِ الْخَوَالِي الصَّيْدِ (٦)
 قَدْ عَرَفْنَا الْخُلُودَ ، وَالْحَبُّ فِي اللَّيْلِ عَلَى النَّيْلِ نَفْحَةٌ مِنْ خُلُودِ

عبد الرحمن صمدى

(١) الطوائى: الأمواج . (٢) الروق كالوراق: السقف . (٣) المراثى: اللطمات .
 (٤) للمسى: ما خلق معناه . (٥) القدائى: القدماء .
 (٦) الصيد: جمع الأصيد وهو الرافع الرأس من عظمه .

برنارد شو

لبرنارد شو دين فى أعناقنا ثقيل ؛ فهو الذى دافع عن مصر أمجد دفاع أيام
محنة دثشواى ، وهو الذى بسط قضيتنا فى مقدمة مسرحيته « جزيرة جون بول
الأخرى » فأيقظ الرأى العام الانجليزى إلى مساوىء الاستعمار البريطانى حتى
انتهى الأمر بسحب اللورد كرومر من مصر . فما أجدرنا بأن نذكر هذا الصديق
الوفى كلما ألمت بنا المحن ! وما أخلقنا بأن نعز بصداقته ووفائه ؛ فأصدقائنا
الأوفياء فى الغرب قليلون !

١

ولد جورج برنارد شو فى ٢٦ يوليو عام ١٨٥٦ بدبلين حاضرة إيرلندا
لأسرة إيرلندية منحدره من أصل انجليزى . والمعروف عن آل شو أنهم نزحوا
من انجلترا إلى إيرلندا فى أواخر القرن السابع عشر . وقد كان أسلافه من
أوساط الناس فى المكانة الاجتماعية ، فمنهم الممولون والقساوسة والسامرة
وموظفو الدولة ، بل حملة الألقاب كذلك ، وقد كانوا جميعاً يعتزون بنسبهم
أشد اعتزاز ، حتى إن شو كثيراً ما يذكّر مذهباً أنه سليل « ما كدف » أحد
أشخاص مسرحية « ما كبت » ويفخر بأن جدّاً من أجداده الأول قد ورد
ذكره فى أعمال شكسبير . أما أبوه جورج كار شو فقد كان يملك متجرّاً للدقيق ،
ولكن إفراطه فى الشراب وجهله بأسرار الدقيق أفضيا إلى إفلاسه .

وكانت تنشئة برنارد شو الأولى فى مدرسة ويزلى بدبلين ، دخلها فى العاشرة
من عمره ، ولم يمكث فيها طويلاً لبلادته من ناحية ولسوء حال ذويه من ناحية
أخرى . ويؤثر عن تلمذته أنه كان عزوفاً عن الرياضة البدنية متأخراً فى الحساب

واللغات . وهو يذكر تلك الأيام الأولى بشركثير ، حتى لقد سأله إحدى المدارس ذات مرة أن يأذن لها في اختيار بعض مناظر من مسرحيته « جان دارك » لإدماجها في كتاب مدرسي فقال : « كلا . لن أقبل بحال من الأحوال . وأنا أصب لعنتي الأبدية على كل من يجعل من أعماله كتباً مدرسية سواء في الحاضر أو في المستقبل ، فيجعل التلاميذ يكرهونني كما يكرهون شكسبير . إن مسرحياتي لم يقصد بها أن تكون أدوات للتعذيب ، وكل مدرسة تسعى في طلبها متظفر بهذا الجواب ، ولن تظفر بغيره من جورج برنارد شو . » وقد بلغ من فقر أسرته في تلك الأيام أن أمه تزحت إلى لندن لترزق من تعليم الموسيقى للبنات . ويزعم شو أنه ولد ملماً بالقراءة والكتابة ! ودليله على ذلك أنه لا يذكر أنه تعلمها في يوم من الأيام . بل هو يزعم أنه كان يعرف كل كلمة في اللغة الإنجليزية وردت في مسرحيات شكسبير أو في دائرة المعارف البريطانية منذ أن خرج إلى الوجود ! ودليله على ذلك أن عهد التلمذة لم يضاف إلى محصولة اللغوى كلمة واحدة .

مهما يكن من شيء فإن ظروف الحياة قد ألزمت شو بأن يقطع دراسته لكسب قوته وهو ما يزال في الخامسة عشرة من عمره . فالتحق بشركة لبيع الأراضي ، وظل بها خمس سنوات كان إبتانها نموذجاً للموظف الجاد الأمين ، ولم يعلم أحد بأنه كان يمقت عمله مقتاً لا مزيد عليه حتى استقال منه وهو في العشرين من عمره ، وقصد لندن كعبة المغامرين ليحرب حظه في الأدب والحياة . ولكن تربيته الأولى شكلت حياته تشكيلاً قوياً . فقد كانت أمه قبل انتقالها إلى لندن تشتغل بالموسيقا الليل والنهار وتشارك في غناء الأوبرات مع الفرق المحترفة لا مع هواة دبلن وحدهم ؛ فكان من ذلك أن تعلم شو قصارى ما كتبه واضعو الأوبرات وهو بعد تلميذ . وقد قال في ذلك إنه أجدى على الإنسانية أن تعلم المدارس تلاميذها كيف يصفرون سيمفونيات بيتهوفن من أن تطالبهم باستظهار أشعار هوراس . هذا ما أخذه عن أمه . أما ما أخذه عن أبيه فهو التشكك في الدين . ففي الكنيسة وفي مدرسة الأحد تعلم شو أن الله بروتستانتي وچنتلمان ، وأن جميع الكاثوليك آيلون إلى الجحيم ، ولكن أباه كان يأذن له منذ صباه بشهود المجادلات الدينية التي تشتبك الأسرة فيها ، وقد سمع خاله ذات مرة يقول إن إحياء يسوع لليعازر بعد موته كان باتفاق

بينهما سابق على أن يتماوت ليعازر ليحييه يسوع شأن الحواة ، وأعجبت الفكرة الغلام شو وشجعتة على الاستخفاف بالدين وهو بطبعه هازل . فألحد وهو صبي ، وذهب يبشر بالكفر بين التلاميذ . ومما يروى عنه أيام التحاقه بشركة بيع الأراضى أن صاحب الشركة انتهى إليه أن شو الصغير يجادل الموظفين في دينهم ، فأمره بأن يكف عن التفلسف في ساعات العمل .

ولما نرح شو إلى لندن كانت أمه قد سبقتة إليها فأقام معها ، وظل متعطلا بإرادته زهاء عشر سنوات ؛ فقد توسط له بعض أصدقاء الأسرة جملة مرات ليلتحق بالشركات المختلفة ، ولكنه كان يلتمس أتفه المعاذير لرفض ما يعرض عليه من أعمال ، مؤثراً أن تعوله أمه على أن يضطلع بعمل لا يتفق مع مواهبه . غير أن قلمه كان أسوأ مورد للرزق عرفه إنسان ؛ ففي السنوات التسع بين ١٨٧٦ و ١٨٨٥ ربح شو من قلمه ستة جنيهات ، منها خمسة تقاضاها عن صيغة إعلان كتبه لشركة من شركات الأدوية ، وخمسة عشر شلناً تقاضاها عن مقال يحض فيه الناس على اختيار أسماء معقولة لأبنائهم ، وخمسة شلنات تقاضاها عن قصيدة أراد بها المزاح فظنها المحرر عملاً جدياً . وفي هذه الفترة من حياته كتب خمس قصص لا قيمة لها رفضها جميع الناشرين بلا استثناء .

وإلى جانب اشتغاله بالكتابة العقيمة اشترك شو في كثير من جماعات المناظرات التي كانت منتشرة في لندن يومئذ ، كجماعة «الاتحاد الديموقراطى» التي أدارها الثائر الانجليزى المعروف هندمان . وقد حدث عام ١٨٨٢ ، حين كان شو فى السادسة والعشرين من عمره ، أن سمع الثائر الأمريكى هنرى جورج يلقي ببلندن محاضرة فى موضوع تأميم أراضى إنجلترا ، فامتلاً بالحماسة وأدرك أن المفكر فى العصر الحديث لا غنى له عن دراسة علمى الاقتصاد والسياسة . وقصد شو إلى «الاتحاد الديموقراطى» حيث أراد أن يشير موضوع تأميم الأراضى فقيل له إن الإنسان لا يكون أهلاً لمناقشة هذا الموضوع إلا إذا قرأ كارل ماركس . فقصد شو إلى المتحف البريطانى لقوره ، وهناك قرأ كتاب ماركس « رأس المال » فى طبعة فرنسية ؛ لأن الترجمة الانجليزية لم تكن قد صدرت بعد ، وفى ذلك يقول : « وكان هذا نقطة تحول فى حياتى ؛ فقد وجدت فى ماركس إلهامى . ولقد عرفت فيما بعد أن نظرياته المجردة فى الاقتصاد خاطئة ، ولكنه مزق لى القناع وفتح عيني لحقائق التاريخ وأسس الحضارة ،

وهداني إلى فهم لطبيعة الكون جديد ، وزودني بهدف ورسالة في الحياة . »
ويقول : « إن من يقرأ كارل ماركس لن يجوز عليه تضليل جلادستون وأمثاله . »
وعاد شو إلى « الاتحاد الديمقراطي » ليجادل أعضائه في النظريات الماركسية ،
ولكنه لم يجد بينهم من قرأ ماركس ، اللهم إلا هندمان . ولقد كانت دراسة
ماركس نقطة تحول في حياته حقاً ؛ فقد قضى برنارد شو اثني عشر عاماً بعد ذلك
يخطب ثلاث مرات أسبوعياً في الشوارع وفي الأسواق وفي القاعات وفي الحدائق
العامة داعياً إلى الاشتراكية ، ولم يتناول لقاء ذلك بنساً واحداً . ومن تلك
الخطب التي لا تعد ، خطبتان لم ينسهما شو قط في حياته ، واحدة استغرقت
ساعة كاملة ألقاها في هايد بارك على جمهور قوامه ثلاثة من المتسكعين استلقوا
أمامه على الحشيش ، وكلما سكت شو ليسترد أنفاسه الضائعة صاح أحدهم
قائلاً : « برافو ! » . وأخرى تجاوزت الساعة ألقاها في هايد بارك كذلك ، والمطر
ينهمر مدراراً ، على جمهور قوامه ستة من رجال البوليس كانوا مكلفين
بمحافظة النظام .

وكان بين الجماعات اليسارية الكثيرة المنتشرة في لندن جماعة اسمها « إخوان
الحياة الجديدة » أسسها فيلسوف اسكتلندي صغير اسمه توماس دايفيدسون ،
وانضم إليها بعض عظماء المستقبل من الشباب كرامزي ماكدونالد رئيس الوزارة
البريطانية ، وهاقيلوك إليس الفيلسوف الانجليزي العظيم . وكان أحد أغراض
هذه الجماعة إنشاء مستعمرة اشتراكية في البرازيل يعيش فيها الأعضاء على قدم
المساواة . ولكن الجماعة انشقت على نفسها لأن فريقاً يرأسه رجل يدعى
هيوبرت بلاند رأى أنه ليس من الضروري الزواج إلى البرازيل لإجراء هذه
التجربة الاشتراكية ووجد أن إجراءها في إنجلترا ممكن ومجد معاً . وبانشقاق
بلاند وأتباعه ولدت « الجماعة النفاية » المشهورة في تاريخ إنجلترا الحديث .
وانضم شو إلى « الجماعة النفاية » عام ١٨٨٤ ثم انضم إليها سيدني وب وسيدني
أوليفيه وجراهام والاس وهم من أذكاء الأرسقراطيين الذين آمنوا
بالاشتراكية . وسرعان ماتولى هؤلاء الأربعة قيادة الجماعة وتوجيهها . وأصدرت
الجماعة أول بحث من بحوثها وعلى غلافه العبارة التالية التي تفسر اسمها : « لا بد
أن تنتظر اللحظة المناسبة كما انتظرها فايوس من قبل في حربه مع هانيبال
بصبر عظيم رغم لوم الكثيرين ، ولكن حين تحل اللحظة المناسبة لا بد أن

تضرب الضربة القاضية كما فعل فايوس من قبل ، وإلا ضاع انتظارك أدراج الرياح ولم تجن من صبرك ثماره . »

وفي ١٣ نوفمبر سنة ١٨٨٧ ، المعروف في تاريخ الحركة العمالية الانجليزية يوم الأحد الدامى ، مرّ شو و «الجماعة الفابية» في تجربة مريرة غيرت نهجها تغييراً خطيراً . فقد تزعم الفاييون مظاهرة كبيرة من المتعطلين وأرادوا قيادتها إلى ميدان الطرف الأغر ، فشنت البوليس المتظاهرين بالعنف ، وأخفقت المظاهرة ، وكان شو بطبيعة الحال بين من طلبوا النجاة . وكانت خيبة أمله كبيرة لأنه كان شديد الإيمان بقوة الجماهير ، فلما رأى الجموع المحتشدة تفر أمام نفر من رجال الأمن قليل أدرك أن الشعب الأعزل لا حول له أمام قوة السلاح . ومنذ ذلك التاريخ اتجهت «الجماعة الفابية» اتجاهاً سلميًّا ، وقد كانت من قبل تضم من المفكرين أشكالا وألواناً ، ففيها الفوضويون وفيها الثوريون وفيها العدميون وفيها البوهيميون ، فأقصى عنها كل هؤلاء ولم يبق فيها سوى الاشتراكيين الدستوريين الذين يؤمنون بالنور أكثر من إيمانهم بالنار ، ويشقون بالبحوث والنشرات العلمية أكثر من وثوقهم بالمتاريس و قتال الشوارع .

ثم اشتغل شو بالنقد الموسيقي ست سنوات بين ١٨٨٨ و ١٨٩٤ . أولاً في صحيفة «النجم» ثم في صحيفة «العالم» ، واشتغل بالنقد المسرحي أربعاً أخرى . وقد نلخص نظرياته في الموسيقى في كتابه «القاجنرى الكامل» ونلخص نظرياته في المسرح في كتاب «خلاصة الإيسنية» . ثم سئم النقد ، وتزوج عام ١٨٩٨ من مليونيرة تدعى شرلوت من تاو نشند ، وانقطع لتأليف الكوميديات ولم يكف عن ذلك حتى اليوم . وبدء سنوات النقد في تاريخ حياته نهاية بثوسه ؛ فقد ارتفع نجمه رويداً رويداً حتى بلغ السميت وسطح في العالمين وهو ما يزال في السميت لا يريد أن يتزعزع رغم أنه بلغ التسعين .

٢

كلما ذكر برنارد شو ذكر المسرح الواقعى ؛ لأنه واضع أساسه في إنجلترا ، وقد أخذ هذا الأساس عن هنريك إبسن النرويجى ، وروج له نظريًّا في كتابه «خلاصة الإيسنية» وروج له عمليًّا بمسرحياته العظيمة . فالمسرح اليوم بفضل

شو مسرح إبسن وهو يختلف عن مسرح شكسبير ، مسرح عصر الرئيساس . وهذا الاختلاف عظيم يتناول الأصول والقواعد ، والبعد بينهما عظيم لا يقل عن البعد بين المسرح اليوناني القديم ومسرح عصر الرئيساس . أى إن الثورة التى استحدثها إبسن على الأساليب الشكسبيرية لا تقل خطراً عن الثورة التى استحدثها شكسبير على أساليب سوفوكليس . فقيم يتلخص الفرق إذا ؟

كان مسرح شكسبير مسرح الأشراف ، أما مسرح إبسن فمسرح الرجل العادى . وليس المقصود بهذه العبارة أن شهود التمثيل فى عصر الملكة اليزابيث كان مقصوراً على النبلاء دون أبناء الشعب ؛ فشعبية المسرح الإليزابيثى أمر مقرر فى كل كتاب يؤرخ للأدب ، بل ظاهرة هامة كان لها أثرها فى توجيه الدراما عند شكسبير ومعاصريه . إنما المقصود بهذا القول أن أبطال الدراما عند شكسبير كلهم من طبقة الأشراف ، والدراما الشكسبيرية تصوير للحياة الأرستقراطية دون سواها . فهى تروى لنا سير الملوك الأولين والملكات الغابرات ، وتحدثنا عن الأشراف وسيدات القصور ، وما كان بين هؤلاء وهؤلاء من غرام عاصف أو حقد مكين أو نضال من أجل المطامع أو كفاح لصيانة المثل العليا . ولقد يختلف الزمان من العالم القديم إلى العصور الوسطى ، ولقد يختلف المكان من روما الإمبراطورية إلى فيرونا ، ولكن الملوك والأشراف لا يتغيرون .

وقد ظل فن الإنشاء التمثيلى يسير على هذا النسق ثلاثة قرون كاملة لا فرق فى ذلك بين الكوميديا والتراجيديا ، فلا يتعرض المؤلفون فيه إلا لأهل النبالة ولا يرون بطولة إلا فيهم ، حتى استكشف إبسن الرجل العادى وصور حياته وسجل بطولته . وقد كان شكسبير معذوراً فى النهج الذى نهج ؛ لأنه عاش قبل الانقلاب الصناعى بزمان ، وتاريخ المجتمع حتى أيامه لم يكن سوى طائفة من قصص الملوك والنبلاء ، أما الطبقة المتوسطة فلم يكن لها وجود تاريخى فعال ، وأما الشعوب فلم يكن لها وجود تاريخى أصلاً . كانت الأمم يومئذ تعيش فى رؤسائها ، لا اقتصاد لها إلا اقتصادهم ولا ثقافة لها إلا ثقافتهم ، فلا عجب أن كان الفن أرستقراطياً فى مبناه ومعناه . فلما كان الانقلاب الصناعى تغير حال المجتمع ، وأصبحت الطبقة الوسطى طبقة يحسب لها حساب ، ومن بعدها اشتد ساعد الطبقة العاملة بفضل الخبرة الفنية والتضامن الاجتماعى

والوعى الطبقي الذي اكتسبته في عصر الآلة ، وظهر الرجل العادى بعد أن لم يكن موجوداً ، أو بتعبير أدق أصبح الرجل العادى قوة في المجتمع لا يستهان بها ، وأصبحت مشاكله اليومية ومشاكله الدائمة من مسائل الحياة الكبرى . فكان طبيعياً أن تجد في المجتمع ثقافة جديدة هي ثقافة الرجل العادى ، وكان طبيعياً أن يجد فن طريف هو فن الرجل العادى أى الفن الذي يصور حياة الكثرة المطلقة من أبناء الشعب ويعبر عن آلامهم وآمالهم ، ويبحث في أهدافهم العامة والخاصة وفيما يخضعون له من عوامل . ولكن الدراما الأوربية رغم ذلك ظلت محافظة على طابعها القديم بقوة القصور الذاتى ، ودأبت على التماس أبطالها إن في الكوميديا وإن في التراجيديا بين أبناء الطبقة الأرستقراطية المنقرضة ، كما دأبت على تصوير حياة السادة النبلاء ومعالجة مشاكلهم القلبية والاجتماعية والأخلاقية . فلما جاء إبسن خرج على هذا التقليد الذي فقد مسوغاته في الحياة ، والتمس أبطاله بين رجل الشارع ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وبذا وضع أساس المسرح الحديث .

وعلى إبسن العظيم تتلمذ شو العظيم . ولقد راع شو في صدر حياته ما وجدته من عبادة مسرفة لشكسبير ، فهاجم شكسبير في قوة وعناد ، ودعا إلى إقامة مسرح واقعى دعائمه حوادث الحياة لا خيالات الكتاب ، وأبطاله لحم ودم لا نماذج تقرأ عنها في القصص وكتب التاريخ .

فأبطال شو إذاً ليسوا مارك أنطونىوس ولا القائد كريو لانوس ولا الأمير هاملت ولا الملك رتشارد الثانى ، ولكنهم « مستر » جاك تانر و « الكابتن » بلنتشلى و « الأستاذ » هجز و « العبد » أندروكليس وبائعة الزهور إليزا والبت الفلاحة من دومري . والمشكلات التي يعالجها شو ليست مشكلات شخصية خاصة بأصحابها ، كعنت الآباء الذي قتل جوليت ، أو كيد القضاء الذي صرع روميو ، أو الانتقام الذي أهرق الدماء غزارا في قصر إلسينور ، أو الحماقة التي عصفت بعرش لير . وأردت ابنته الوفية ، أو الغيرة التي أزهقت بيد سوداء مرديدمونة الطهور ، أو الجشع الذي حطم ما كبث الأمين ، أو الكبرياء التي أودت بحياة كريو لانوس حامى الدمار ، ولكنها مشكلات اجتماعية تتناول العام قبل الخاص كالجنديّة وشرفها المزعوم (الإنسان والسلاح) والزواج وقديسيته التقليديّة (مهنة مسز وارد) والدين وثقاف المتدينين (الميچر باربارا) .

والاستعمار وتعميره الكاذب (جزيرة جون بول الأخرى) وفصل الطبقات ومظاهره الزائفة (ييجاليون) . والعواطف التي يشرحها شو في كوميدياته ليست العواطف المشبوبة الفذة التي لا يملكها إلا صفوة الناس في المجتمع ولا تحدث إلا مرة في كل جيل ، بل العواطف المألوفة التي لا تضيق عنها قلوب الرجال العاديين . وأشخاص شو لم يكونوا في يوم من الأيام من أصحاب الشخصية الجبارة وذوى التفرد الذين تكن عظمتهم في تفردهم ، بل كانوا دائماً نماذج اجتماعية يمكن أن تتكرر ولا يصعب العثور عليها في الشارع وفي المقهى وفي المصنع وفي النادي . والدراما في هذا الانتقال من تصوير الحياة الخاصة إلى تصوير الحياة العامة قد نحت من التراجيديات وما يلزمها من عاطفة وخيال إلى الكوميديا وما يلزمها من فكاهة ونقد . كذلك ماتت الدراما الشعرية وحلت محلها الدراما النثرية . ولا شك في أن هذا التحول نتيجة من نتائج ظهور الرجل العادي وانقراض الرجل غير العادي ؛ لأن ثقافة الرجل العادي وظروفه لم تترك في حياته شعراً أو في حديثه سحراً أو في رأسه خيالا ضخماً أو في قلبه عاطفة كبيرة . ولا شك كذلك أن في هذا خسارة على الفن لا تعوض . ولكن المجتمع يدخل منذ الانقلاب الصناعي في طور حضارى جديد خطير من شأنه أن يرد لقطعان البشرية إنسانيتها ، ويعنى بمشكلات الكناسين والغسالات عناية المجتمع القديم بمشكلات الفرسان والأميرات ، وفي سبيل هذه الغاية تهون بكل تضحية . وإذا كانت أوربا الزراعية الإقطاعية المسيحية قد استطاعت أن تعيش خمسة عشر قرناً متصلة بغير تراجيديات أو كوميديات أصلاً ، فلا أوربا الصناعية الحق في مثل هذه الحقبة تجرب فيها ما تشاء من ألوان الفن وتجنّب فيها على الأدب ما تحب أن تتجنّب . وليس لنا أن نبتئس لأن شكلاً حياً من أشكال الأدب قد اختفى ولأن شكلاً آخر من أشكاله قد أوشك أن يختفى ، فلعل محنة الأدب فيهما مؤقتة ، ولعل لهما بعثاً جديداً بعد أن تستتب أصول الحضارة الجديدة وتفرغ البشرية من مشكلاتها الاجتماعية ويسترد كل فرد فرديته .

والانتقال من أدب الخاصة إلى أدب الجماهير قد نمحاً بالمرح وبفن الإنشاء التمثيلي من الخيالية إلى الواقعية . فمرح شكسبير كان مسرحاً زمزياً بسيطاً لا يعرف أساليب الإخراج والإضاءة والديكور التي نعرفها اليوم . وقد استلزم نقص هذه الأشياء جميعاً أن يُكثر صاحب المسرح وصاحب المسرحية من

الافتراض وأن يكثر الجمهور المشاهد من التسليم . فلورنزو وجسيكا في « تاجر البندقية » يتناحيان في نور القمر ، ولا سبيل إلى معرفة أن الليلة جميلة قراء إلا بالإصغاء إلى ما يتبادلان على المسرح من قريض . ولقد يرى الجمهور المشاهد ممثلاً يحمل مصباحاً فيفهم أنه رمز للقمر ، أو يحمل غصناً فيفهم أنه رمز لغابة . وعلى الجملة فقد كان عليهم أن يستخدموا خيالهم لاستحضار الجو الذي تجري فيه حوادث التمثيلية بمجرد سماعهم للشعر الذي يروى على المسرح ، وكان عليهم أن يسلّموا بحقيقة ما يشاهدون من رموز ويكتفوا بها عن مشاهد الحياة الواقعة . بل كان عليهم أن يسلّموا بما هو أخطر من ذلك كله : كان عليهم أن يسلّموا بأن للفن منطقاً غير منطق الحياة ، وبأن منطق الفن سليم متماسك رغم تعارضه مع منطق الحياة . ففي الحياة ، يتحاور الناس ثراً أما في الفن فالناس يتحاورون شعراً . وما هذا بمستغرب ؛ لأن أشخاص المسرح أبطال وليس كثيراً على الأبطال أن يتحدثوا بلغة الشعر . ومن سلّم بهذا التقليد الخطير لم ترعه بقية التقاليد الشكسبيرية ، فهي جزئية ومتفرعة كلها من هذا التقليد الخطير . نعم ! لم يجد حرجاً في أن يحدث هاملت نفسه على انفراد حديثاً مرتباً متصلاً بصوت عال يسمعه كل موجود ، وهو أمر لو أتاها إنسان في الحياة الواقعية لقليل إنه مخبول . كذلك لم يجد حرجاً في أن يرى إياجو منتحياً من المسرح أحد طرفيه محدثاً نفسه بصوت عال يسمعه آخر من بالقاعة ولا يسمعه عطيل الواقف إلى جواره ! كذلك لم يجد بأساً في أن يتوقف الممثل يريدج أو الممثل هيمنج عن التمثيل ليرد على ملاحظات الجمهور أوليتبادل النكات مع الجمهور بما يمليه وحى اللحظة ، أو ليرتجل إضافات من عنده إلى نصوص شكسبير .

أما المسرح الواقعي الذي أنشأه إيسن ودعّمه شو فيختلف عن ذلك كل الاختلاف ؛ لأنه يقوم على ما يسمونه بنظرية الحائط الرابع . والأصل في هذه النظرية أن المشاهد لحظة أن يبتاع تذكرة الدخول يفترض أنه أخذ من صاحب المسرح وصاحب المسرحية عهداً بأن يعرضاً عليه جوانب من الحياة كما هي في الواقع لا كما يتخيلها الفنانون . فالمشاهد الحديث إذاً رجل فضولي يريد أن يستطلع أخبار الناس ، أو رجل عملي يريد أن يدرس أخوالهم ، وهو لذلك ينظر إلى خشبة المسرح نظره إلى غرفة حقيقية في بيت حقيقي بداخلها أناس حقيقيون يتجادلون في مشاكلكهم الحقيقية ، لا إلى ممثلين مدربين يزيّفون لأحداث الحياة .

فلا يبقى إذن إلا أن يرفع صاحب المسرح وصاحب المسرحية الحائط الرابع الذى نعرفه بالستار ، ذلك الحائط الذى يحول بينه وبين رؤية ما يجرى فى بيوت الناس ، وهما يفعلان ذلك لقاء ما تناولا من أجر . فينبغى أن تكون المناظر متقنة ومستمدة من الحياة لا أثر للخيال فيها ، واقية لا تعتمد على الرمز ؛ حتى تخدع المشاهد فيتوهم أنه إزاء منظر من مناظر الحياة الفعلية ، وكذلك الإخراج وكذلك الإضاءة وكذلك الممثلون . وأهم من هذا وذاك أن تكون المسرحية ذاتها واقعية فى موضوعها وصياغتها . فالناس فى الحياة الواقعية لا يتجادثون شعراً ولكن يتجادثون ثراً ، والدراما الشعرية من أساسها زائفة ولا محل فى الفن إلا للدراما النثرية . ولقد يكون للشعر مقامه العالى فى الغنائيات وفى الملاحم ، ولكن لا مجال له فى أدب المسرح . ومن الناس من لا يتحدث ثراً وإنما يتحدث بلغة ملتوية مهشمة فى النطق أو فى النحو ، فلا بد أن يحتفظ كل على المسرح بلهجته وعاداته فى التعبير وطريقته فى الإشارة والتنغيم التى يستخدمها فى الحياة . وفى المسرح الواقعى بطلت سائر التقاليد الشكسبيرية كالحديث المنفرد والحديث الجانبي والاتصال بالجمهور ؛ لأنها لا تتفق مع الأمانة فى تصوير الحياة .

٣

أدب شو أدب النقد الاجتماعى ، وأسلحته فى هذا النقد الفكاهة والسخرية والتعريض . وبين برنارد شو وأوسكار وايلد مواطن شبه قوية ، إلا أن الاختلاف بينهما جوهري . هما يشتركان فى المولد ، فكلاهما من إيرلندا ، وكلاهما ضاق بدبلن الصغيرة وهاجر إلى لندن الكبيرة ، وكلاهما اتجهت مواهبه إلى التأليف المسرحي وإلى الكوميديا بوجه خاص ، وكلاهما صاحب أسلوب فى النثر الانجليزي قل أن يبارى ، وكلاهما سيد فى طرق الحوار ليس له نظير ، وكلاهما عرف بالتردد على الأوضاع المألوفة ، وكلاهما هاجم المجتمع عامة والمجتمع البورجوازي خاصة ، وكلاهما صاحب ثقافة أصولها فى القارة الأوروبية إلى حد بعيد .

أما الاختلاف بينهما فجوهري ؛ لأن وايلد يمثل الفنان الفردي الذى يقدر شخصية الفنان ويدعو إلى تحريرها من قيود المواضعات والتقاليد ، وهو يعلن

أن الفنان نسيج وحده لأنه خلّاق له جميع الحقوق وليس عليه واجب واحد ، وينادى بالفن للفن ، ولا يكتفى بذلك بل يطالب بأن يصبح الناس فنانين يتذوقون الجمال ويخلقونه ، وأن تصبح الحياة ذاتها فنّاً جميلاً . أما شو فيمثل الفنان الاجتماعي الذي يقدر المجتمع ، ويطلب الحرية لا للفنان ولكن للمجتمع . وهو يعتقد أن الفنان ليس نسيج وحده بل ظاهرة اجتماعية هامة ، وهو لهذا عليه من الواجبات أكثر مما على الفرد العادي . وبمقدار ما أوتي من عظمة تزداد واجباته نحو الجماعة . أما نداء الفن للفن الذي بلغ مسميه في أواخر القرن الماضي فيقول فيه : « ولو كنت أنتج من أجل الفن وحده لما أضنيت نفسي بكتابة سطر واحد » . ويقول : « إن الفنان الفيلسوف هو بين الفنانين الطراز الوحيد الذي أهتم به اهتماماً تاماً » . وهو لذلك يطالب بأن يصبح الفنانون أناساً يحسون إحساس الناس ويضطربون لمشاكلهم . وإذا كان وايلد قد دعا إلى تحرير الفرد من نير الجماعة فقد دعا شو إلى تحرير الجماعة من نير الفرد . وقد كان وايلد لاهياً ماجناً لا يجد في الحياة ما يستحق التوضيح من أجله . أما شو فجاء متعصب لأفكاره محب للجهد . لذلك قصر شو في ميدان الفكاهة الخالصة حيث تفوق وايلد ، وقصر وايلد في ميدان النقد الاجتماعي حيث تفوق شو . ولذلك كانت الصالونات والمآدب منبر وايلد ، وكانت أركان الشوارع والميادين والحدائق العامة منبر شو . هاجم وايلد الرأسمالية لأن الفقر يفسد جمال الحياة ، وهاجم شو الرأسمالية لأن الفقر يسم ينابيع الحياة . وفيما يلي نموذج من سخريته بالنظام الرأسمالي ورد في مسرحيته عن إيرلندا التي يسميها « جزيرة جون بول الأخرى » ، وهو يصوّر فيها كيف يثرى رجال الأعمال باستغلال الضعفاء ، ويفضح تمجيدهم للكفاية في الإنتاج وهو المبدأ الذي يسوّغون به استثمار الدولة للدولة والفرد للفرد :

برودبنت : — لن تندم على هذا يا ماستر كييجان . أقسم لك بشرفي أنك لن تندم عليه . سوف أثمر المال في هذا المكان . سوف أدفع الأجور . سوف أقيم المؤسسات . سوف أبني مكتبة ومدرسة للصناعات يدخلها الجميع بلا تمييز بين الملل والأديان بطبيعة الحال . سوف أنشيء معهداً رياضياً ونادياً للكريكيت وربما أنشأت مدرسة للفنون . سوف تتحول بلدة روسكولن بفضلني إلى حديقة

غناء . وسوف أتولى إصلاح البرج المستدير إصلاحاً تاماً فأعيدنه إلى ما كان عليه في أيامه الأولى .

كيجان : — نعم ! وسوف يصبح محل التعذيب في بلدنا نظيفاً ومرتباً كأحسن ما رأت عيني في إيرلندا ، فنحن نسميه بلغة الشعراء سجن النعيم . . .

برودبنت : — سأضرب صفحاً عن تهكمك يا مستر كيجان ، ولكن لا أرى قد أصاب في جوهر الموضوع ، فالعالم لا يتسع إلا للأكفاء .

كيجان [بهم مؤدب] : — أطلب الصفح منكم أيها السادة ، ولكن صدقوني حين أقول إنى أقدر كفايتكم وكفاية تقابتم . ولقد تبنون الفندق كذلك على أكمل وجه إذا وجدتم حاجتكم من البنائين الأكفاء والنجارين الأكفاء والسباكين الأكفاء ، ولكنى أشك في أنكم واجدون ما تطلبون . [يكف عن تهكمه] وحين يقلس الفندق سوف تضمنون إنجاز التصفية بكفاية لا نظير لها جرياً على عادتكم معشر الانجليز الأكفاء . ثم تبنون المشروع على أساس جديد يقوم على الكفاية ، ثم تشرفون على تصفيته بكفاية بعد إفلاسه للمرة الثانية . [يتبادل برودبنت ولاري النظرات لانهما يجدان في كلام النس كيجان إيجاء جيلاً ، ولا يخيفهم إلا أن يكون القس خيراً في شئون المال يعكر بهم .] نعم سوف تتخلصون من حملة الأسهم القدامى بكفاية بعد أن تسكتوا الدائنين بشلنات قليلة عن كل جنيه ، وبذلك يؤول الفندق اليكم . . . وسوف لا تنقصكم الكفاية لإرغام هافيجان على الرحيل إلى أمريكا ، أما بارتني دوران ذو اللسان السليط والأساليب الإرهابية فسوف يسوق لكم عما لكم سوق العبيد بكفاية لا نظير لها . [ينخفض صوته ويعبر عن المرارة] نعم ، سوف تصير هذه الناحية الريفية الجرداء إلى أتون صاحب نكدح فيه جميعاً لنأتيكم بالمال ، وفي مدرسة الصناعات نتعلم الكفاية في الكدح . وفي حاناتكم ينطق ذكاء أذكئائنا ، فمن نجوا منها أطفأت المكتبة ذكاهم . وسوف تيجنون ستة بنسات عن كل زائر للبرج المستدير ، وسوف تزينون الناحية بأسباب اللهو وتبيعون المرطبات في كل مكان . وحين يتم لكم كل ذلك سوف ينفق حملة الأسهم في إنجلترا وأمريكا ما أتيناكم من مال

بكفاية فائقة في الصيد والقنص وفي عمليات السرطان والزائدة ، وفي
الولائم وفي المقامرة . أما ما يدخرونه فسوف تستثمرونه في مشروعات
جديدة لإصلاح الأراضي . إن العالم ظل أربعة قرون إجرامية يحلم بالكفاية ،
ويا له من حلم سخيف لا يريد أن ينتهي ، ولكن النهاية آتية لا ريب فيها .

ولكن أقوى تصوير للطبقة الرأسمالية ومساوئها جاد به قلم شو تجده في
« ميچر باربارا » . فبطل هذه المسرحية أندر شافت ، رجل من كبار رجال
الاعمال يملك مصانع للأسلحة ويبيع الموت للصديق والعدو على السواء .

شيرلى [غاضبا] : — من أذاك بملايينك ؟ أنا وأمثالي . إنما غناك من فقرنا .
أنا لا أَرْضَى أن يكون لى ضميرك ولو أوتيت كل دخلك !

أندر شافت : — وأنا لا أَرْضَى أن يكون لى دخلك ولو أوتيت كل ضميرك
يا مستر شيرلى .

وأندر شافت ليس رجلا بسيطاً يشتغل بجمع المال فحسب ، بل هو رجل
حصيف ذو فلسفة في الحياة واضحة منظمة . والفقر عنده ليس نقصاً بل جريمة ،
وهو ليس جريمة كالجرائم المألوفة بل هو الجريمة الكبرى في الحياة .

أندر شافت : — إن الجرائم الأخرى بلا استثناء تعد فضائل بالنسبة إليه .
الفقر يعصف بالمدن ويزيلها من الوجود . الفقر ينشر الطواعين المهلكة . الفقر
شبح يهوى بمعوله على كل شيء في متناوله . . . إنما يخشى الجريمة السفهاء ، أما
الفقر فيخشاه الجميع .

وهو إلى جانب ذلك رجل صريح لأنه قوى بما له وعتاده ، وهو لهذا لا يتحرج
من أن يتحدث إلى ولده الساذج ستيقن عن الحكومة البريطانية في احتقار
لا مزيد عليه ، وجين يغضب ولده لما يسمع يكشف له أندر شافت عن أسرار لم
تدر بخلاعه من قبل .

أندر شافت : أنت تحدثنى عن حكومة بلادك . إذا فاعلم هذه الحقيقة :

«أنا» الحكومة . نعم ، أنا وزميلي لازار ! أتحسب أن قبضة من أمثالك الأغرار يثرثرون في جماعة المناظرات التي تسمونها البرلمان يستطيعون أن يحكموا أندر شافت ولازار ؟ كلا يا صديقي . سوف تعملون ما يعود علينا «نحن» بالربح . سوف تعلنون الحرب حين تناسبنا الحرب ، وسوف تصونون السلم حين يناسبنا السلم . ويوم نرى أن الإنتاج بحاجة إلى قوانين معينة سوف تنادون بضرورة تلك القوانين . ويوم أحتاج إلى شيء يصون نصيبي في الأرباح سوف تعلنون أن حاجتي ضرورة قومية . فإذا أراد غيري أن ينتقص من نصيبي في الأرباح دعوهم البوليس والجيش لنجدي . وفي مقابل كل ذلك تطبل لكم صحنى وتكيل سخى الثناء . وفي مقابل ذلك تتوههون أنكم ساسة دهاة وتسعدون بهذا الوهم ! هيا امض يا ولدى واعبث بافتتاحياتك وأحزابك العريقة وزعمائك الأقطاب ومشكلاتك الخطيرة وبقية ألعابك الصبانية . أما أنا فراجع إلى مصبري لأدفع أجر الزامرين وآمرهم بما يزمرون .

ولكن شو الذى مزق الطبقة الرأسمالية إرباً إرباً لم يصفح عن غباوة الطبقة العاملة ، وكثيراً ما عرض بها في كتاباته . وجميع مسرحياته تدور حول فكرة اجتماعية ، وهذه الفكرة الاجتماعية هي في الأغلب الأعم استغلال الأغنياء للفقراء . ولكنه كذلك يهزأ بالأفكار الاجتماعية الكبرى هزأ متصلاً فيقول : «أتم أيها البسطاء تتحدثون عن قدسية الزواج . أما أنا فأقول لكم إن الفقراء يتزوجون لأنهم لا يملكون أجر خادمة ، وأوساط الناس يتزوجون لأنهم لا يملكون أجر عشيقة ، والأغنياء لا يتزوجون أصلاً ، فان تزوجوا فلأنهم بحاجة إلى وريث . أتم أيها البسطاء تحسبون أن الرجل يقهر المرأة في معركة الحب ، أما أنا فأقول لكم ما قاله جاك تانر لعاشق آف : أقرأت كتاب مترلنك عن النحلة ؟ إن فيه عظة للناس أى عظة . أنت تحسب أنك تطلب يد آف . أنت تحسب أنك المطارد وأنها المطاردة ، أنت تحسب أنك تلعب دور المتودد ثم المقنع ثم المتغلب ثم المسيطر ، فيالك من غرأحمق ! وإنما أنت المطارد وإنما أنت التضحية ، وإنما أنت الفريسة المرموقة . » وهكذا دواليك .

هذه إلحابة عن الأديب الاشتراكي برنارد شو روعى فيها الحياد الدقيق . ولا شك أن بعض ناقديه من الأدباء يهتمونه باستخدام مسرحياته أدوات

للدعاية ، ويصمونه لذلك بالركافة الفنية ؛ لأن الضمير الفني يأبى على الفنان أن يفرض آراءه على جمهوره أو أن يأذن لشخصيته بالظهور في فنه . ولا شك أن بعض ناقديه من الاشتراكيين يهتمونه بالبورجوازية ؛ لا بتعاده عن التيار الماركسي الأصلي ، ويصمونه لذلك بالذبذبة السياسية التي تلازم أكثر المفكرين بحكم موقعهم الاجتماعي المتوسط بين الرأسماليين والعمال . ولكن لعل أثره العظيم في تنوير الرأي العام شفيع له عن جنايته الفنية . ولعل انتسابه إلى دولة إمبراطورية قد جعل من العسير عليه أن يتجاوز في اشتراكه الحدود التي يمكن لبريطاني أن يكون فيها اشتراكياً .

لورس عوصه

قضية العلم

بين الغزالي وابن رشد

موضوع القضية

هذه قضية خطيرة حقًا كان لها أعظم الأثر في حياة المسلمين ومستقبل حضارتهم ، إذ عليها تتوقف الأسس التي تقوم عليها العلوم المختلفة ، فيتسنى بذلك أن يُرسم الطريق الذي يسلكه العلماء في بحوثهم المختلفة ، ويعضون فيه فيجدونه مفتوحاً أمامهم مذللاً مؤدياً إلى أهداف يمكن تحقيقها ، أو ينصرفون عنه لأنه طريق وعر شائك مملوء بالعقبات التي تصدهم عن البحث ، وتلويهم عن النظر إلى الظواهر الطبيعية التي تؤلف بنيان العلم .

فإن سلمنا بوجود أسس يقوم العلم عليها أمكن التقدم العلمي ، وإن أنكرنا هذه الأسس وقف العلم عن التقدم .

ولقد أخذ المسلمون بالرأي الذي ينكر على العلم أسسه فكان ذلك علة التأخر في ميدان العلوم ، وأخذت أوروبا بالوجهة الأخرى من النظر فسار العلم شوطاً بعيداً في سبيل التقدم مما نلمس أثره الآن .

وكان على رأس المهاجمين للعلم أبو حامد الغزالي المتوفى ٥٠٥ هـ هجرية ، الذي ألف كتابه « تهافت الفلاسفة » يعترض فيه على الفلاسفة والمتكلمين ويبين فساد آرائهم جملة وتفصيلاً ، ويبطل قولهم بقدم العالم وأبديته ، وأبدية الزمان والحركة ، والقول بأن الله لا يعلم الجزئيات ، والقول بضرورة الأسباب والمسببات ، وغير ذلك من المسائل .

ولم يسكت الفلاسفة على هذه الدعاوى فكتب ابن رشد فيلسوف قرطبة المتوفى ٥٩٥ هـ هجرية كتاب « تهافت التهافت » يقرع الحجج فيه بالحجة والدليل بالدليل .

وكان الجمهور هو القاضي أو الحكم في هذه الخصومة الفلسفية ، فانتصر للغزالي وخلع عليه لقب حجة الإسلام ، وغضب على ابن رشد ، فاتهم بالكفر والزندقة وحرقت كتبه . ولسنا نتعرض لأسباب هذا الاضطهاد فقيه أقوال كثيرة مذكورة في التاريخ ، ولكننا نرجح أن ميول العامة كانت تعارض آراء الفلاسفة عموماً ، وتسخط على ابن رشد على وجه الخصوص .

وترجمت كتب ابن رشد إلى اللاتينية ، وظلت آراؤه تدرس في جامعات أوروبا حتى القرن السادس عشر الميلادي ، بل أبعد من هذا .

لقد اصطنعت الحضارة الأوروبية آراء ابن رشد الفيلسوف في العلم فنهضت نهضتها العلمية التي تشهد ثمرتها في العصر الحاضر ، وسار المسلمون وراء الغزالي فتأخروا علمياً مما هو واقع أمام بصرنا .

وإذا كان المسلمون خاصتهم وعامتهم قد اقتنعوا بأدلة الغزالي ، فلهم أعذار كثيرة . فالغزالي من أئمة الجدل دون نزاع ، برع في المناظرة ، ورسخت قدمه في المنطق ، وملك عنان الموضوع الذي يجادل فيه الخصوم . وهو لا يخاطب العقل وحده ، بل يتجه إلى القلب فيلعب على أوتار العاطفة الدينية ، وهي أقوى العواطف في ذلك العصر الذي كان الدين آخذاً فيه بالقلوب في كل ناحية من نواحي الحياة . وإلى جانب ذلك نجد أنه يحسن عرض الموضوع ويضرب الأمثلة الكثيرة المتنوعة ، ويتخذ في الكتابة أسلوباً بسيطاً يفهمه صاحب الثقافة اليسيرة . وموضوع النزاع هو الأسباب والمسببات : هل بينهما صلة ضرورية حتى إذا ما وجد السبب نشأ عنه المسبب بالضرورة ، أم أن هذه الصلة غير ضرورية ؟ ويرى الغزالي أن هذه الصلة غير ضرورية ، وفي ذلك يقول : « فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر ، ولا من ضرورة عدم أحدهما عدم الآخر مثل : الري والشرب ، والشبع والأكل ، والاحتراق ولقاء النار ، والنور وطلوع الشمس ، والموت وجز الرقبة ، والشفاء وشرب الدواء ، وإسهال البطن واستعمال المسهل ، وهلم جرا إلى كل المشاهدات من المقتربات في الطب والنجوم والصناعات والحرف . »

فأنت ترى أنه ينفي مبدأ النسبية ، ويسوق لذلك مثلاً بعد مثال من المشاهدات العامة ليؤكد المسألة تأكيداً لا يقبل الشك . ولكن هذا النفي الحاسم لا يضطرب له جنان ابن رشد الذي يبادر فيقول : « أما إنكار وجود

الأسباب الفاعلة التي تشاهد في المحسوسات فقول سفسطائي ، والمتكلم بذلك إما جاحد بلسانه لما في جنانه ، وإما منقاد لشبهة سفسطائية . »
فالغزالي وابن رشد على طرفي تقيض ، الأول ينكر مبدأ العلية وينكر أن المسببات مستمدة من الأسباب ، والثاني يقرر هذا المبدأ أو يثبتته .

سخرية الفلاسفة ورد الغزالي

ولما رأى الفلاسفة إنكار الخصوم للمشاهدات المحسوسة ، ردوا عليهم ساخرين ، إذ متى انعدمت الصلة الطبيعية الضرورية بين الأشياء ، لم تثبت على حال ، وجاز أن يقع كل شيء . ومن وضع كتاباً في بيته فمن الجائز أن يكون قد انقلب عند رجوعه إلى بيته غلاماً أمرد طاقلاً متصرفاً أو انقلب حيواناً ، ومن ترك غلاماً في بيته فليُجَوِّز انقلابه كلباً ، أو ترك الرماد فليجوز انقلابه مسكاً ، وانقلاب الحجر ذهباً والذهب حَجَراً . وإذا سئل أحد عن شيء من هذا فيتبغى أن يقول لا أدري ما في البيت الآن ، وإنما القدر الذي أعلمه أتى تركت في البيت كتاباً ولعله الآن فرس ، أو أتى تركت في البيت جرة من الماء ولعلها انقلبت شجرة تفاح .

فإذا كان رد الغزالي على هذه السخرية ؟

قال : لم ندَّعِ أن هذه الأمور واجبة بل هي ممكنة يجوز أن تقع ويجوز ألا تقع . واستمرار العادة بها مرة بعد أخرى ترسخ في أذهاننا جريانها على وفق العادة الماضية ترسخاً لا تنفك عنه .

وأجاب ابن رشد : ما أدري ما يريدون باسم العادة ، هل يريدون أنها عادة الفاعل ، أو عادة الموجودات ، أو عادتنا عند الحكم على هذه الموجودات ؟ ومحال أن يكون لله تعالى عادة ؛ فإن العادة ملصقة بكتسبها الفاعل توجب تكرار الفعل منه على الأكثر والله تعالى يقول : « ولن تجد لسنة الله تبديلاً » . وإن أرادوا أنها عادة الموجودات فالعادة لا تكون إلا لدى نفس ، وإن كانت في غير ذي نفس فهي في الحقيقة طبيعية . . . وإما أن يكون عادة لنا في الحكم على الموجودات فإن هذه العادة ليست شيئاً أكثر من فعل العقل الذي يقتضيه طبعه ، وبه صار العقل عقلاً :

الله هو الفاعل

ثم اختار الغزالي مثال النار والاحتراق وناقشه قائلاً : إن الخصم يدعى أن فاعل الاحتراق هو النار فقط ، وهو فاعل بالطبع لا بالاختيار فلا يمكنه الكف عما هو طبعه . ولكن هذا غير صحيح إذ أن فاعل الاحتراق هو الله تعالى بواسطة الملائكة أو بغير واسطة ، وأما الغار فهي جماد لا فعل لها . وليس للفلاسفة من دليل على قولهم إلا مشاهدة حصول الاحتراق عند ملاقة النار ، والمشاهدة تدل على الحصول عنده ولا تدل على الحصول به .

هذا الرأي قريب الشبه من مذهب مالبرانش صاحب مذهب المناسبات occasionalisme المشهور . وحاصل هذا المذهب الذي يقول به تلميذ ديكارت هو أن كل شيء يحدث بواسطة الله ، أما الأسباب الظاهرة فهي « مناسبات » الإرادة الإلهية .

وهو رأي جميع الذين يردون كل شيء إلى الله لا رأي الغزالي و مالبرانش وحدهما .

ونعود إلى الجدل بين الغزالي وابن رشد . فقد أنكر الفلاسفة وقوع سيدنا إبراهيم عليه السلام في النار مع عدم الاحتراق وبقاء النار ناراً ، وزعموا أن ذلك لا يمكن إلا بسلب الحرارة من النار ، أو بانقلاب ذات إبراهيم وبدنه حجراً أو شيئاً لا تؤثر فيه النار . ويرد الغزالي عليهم بأن صفة الإحراق في النار غير ضرورية بل ممكنة ، كما أن في مقدورات الله تعالى غرائب وعجائب ، ونحن لم نشاهد جميعها ، فلا ينبغي أن تنكر إمكانها ونحكم باستحالاتها .

ويبدو أن التعرض للإلهيات كان مثيراً لخوف شديد من جانب الفلاسفة ، إذ تكفي تهمة الزندقة أو إنكار ما جاء في الشرع أن توقع بصاحبها شراً عظيماً . لهذا السبب بادر ابن رشد بنفي هذه التهمة بما يفصح عن الخوف الكامن في نفسه من نسبة الكفر إليه ، وهذا ما يرجح عندنا أن محنته كانت لهذا السبب دون غيره ، فقال يرد على الغزالي : « أما ما نسبته من الاعتراض على معجزة إبراهيم عليه السلام فشئ لم يقله إلا الزنادقة من أهل الإسلام ، فإن الحكماء من الفلاسفة ليس يجوز عندهم التكلم ولا الجدل في مبادئ الشرع . وفاعل ذلك عندهم محتاج إلى الأدب الشديد » .

معجزة النبي

ولعل الغزالي كان مضطراً إلى فسخ المجال للممكنات ونفى ضرورة الظواهر الطبيعية ليتسنى له تفسير معجزات الأنبياء تفسيراً يتلاءم مع المذهب الذي يتصوره . وحاصل هذا المذهب أن الظواهر الطبيعية ليست ثابتة بحيث يمكن القول بوجود الأسباب والمسببات ، بل هي ممكنة وقد تتغير ، والله تعالى هو الذي يغيرها ، وفي مقدورات الله أن يدير المادة بما ليس معهوداً لنا . ولما كانت نفس النبي من الصفاء والاتصال بحيث يطلع على الممكن من الغيب ، وقعت المعجزة ، مثل جواز نزول الأمطار والصواعق وتزلزل الأرض بقوة نفس النبي .

بل أكثر من ذلك فإن في مبادئ الاستعدادات غرائب وعجائب لم نشهدها ولم نعرفها ، ولهذا توصل أرباب الطلسمات بمعونة الطوائع ومزج القوى السماوية بالخواص المعدنية ، أي بمزج علم خواص الجواهر المعدنية وعلم النجوم ، إلى إحداث أمور غريبة في العالم ، « فربما دفعوا الحية والعقرب عن بلد إلى غير ذلك » . ومن استقرأ عجائب العلوم لم يستبعد من قدرة الله ما يحكى من معجزات الأنبياء بحال من الأحوال .

واظنك في غير حاجة إلى معرفة الجواب الذي سوف يدلى به ابن رشد عن هذه المسألة الجديدة ، فقد سبق أن أجاب عنها حين تعرض لمعجزة إبراهيم ، وهو أن الكلام في المعجزات ليس فيه للحكماء من الفلاسفة قول . غير أن ابن رشد بعد سوق هذه المقدمة التي يدافع فيها عن نفسه وعن الفلاسفة ، ما عدا ابن سينا الذي يثبت له الكلام في المعجزات على النحو الذي يحكيه الغزالي ، عاد إلى تعليل المعجزة بأنها مستحيلة على سائر الناس ، ممكنة للنبي لأنه يأتي بالخواص . ومعنى ذلك أن الأشياء الطبيعية متصلة اتصالاً ضرورياً مع استثناء الخوارق للعادات ، وعلينا تصديقها بالتسليم . ومع ذلك فمعجزة المعجزات وهو كتاب الله العزيز ليس معجزاً وخارقاً من طريق السماع ، كإنقلاب العصا حية ، بل ثبت كونه معجزاً بطريق الحس والاعتبار لكل إنسان وجد ويوجد إلى يوم القيامة . وبهذا طاقت هذه المعجزة سائر المعجزات .

الطبيعة والعقل والله

يتصور ابن رشد أن الأشياء الطبيعية متصلة بعضها ببعض اتصالاً ضرورياً بأسباب محسوسة مشاهدة ، وأن الأسباب فاعلة والمسببات منفعة . والدليل على ذلك أن لكل موجود فعلاً يخصه لأن له طبيعة تخصه . ومعرفتنا بهذه الطبيعة وهذا الفعل هو الذي يسمح لنا أن نطلق على كل شيء اسماً واحداً يخصه . ولو لم يكن لكل شيء اسم يخصه لكانت الأشياء كلها شيئاً واحداً أو لا شيء . وإذن فإطلاق الأسماء على الأشياء إنما نشأ من وجود طبيعة واحدة ثابتة تخصها ، ولكل طبيعة فعل خاص . فما دام اسم النار باقياً لها وحدها فليس ما يوجب أن نسلبها صفة الإحراق ، وإلا فلنطلق عليها اسماً آخر .

والعقل هو الذي يدرك أسباب الموجودات الطبيعية ، فنرفع الأسباب فقد رفع العقل . وإذا رُفِعَ العقل ، وُرفِعَت الأسباب والمسببات فقد بطل العلم ؛ إذ لن يكون هناك شيء معلوم علماً حقيقياً بل ظنياً فقط .

هل يريد ابن رشد أن يقول إن الفاعل الحقيقي والسبب في إحداث الأشياء العقل أم الأشياء الطبيعية ؟

أعتقد أنني لا أعدو الصواب حين أقرر أن رأى ابن رشد هو العقل لا الطبيعة ؛ فقد ناقش هذه المسألة بصدده ما يقولونه عن جريان الأشياء بالعادة ، وأنكر أن تكون عادة الله لأن العادة ملكة مكتسبة ، وأنكر أن يكون الطبيعة عادة لأنها لا تكون إلا لدى نفس ، بقى أن تكون هذه العادة عادتنا في الحكم على الموجودات ، وليست هي « شيئاً آخر أكثر من فعل العقل الذي يقتضيه طبعه وبه صار العقل عقلاً . »

وسوف نعرض في إيجاز فيما بعد لمذهب « كانت » ، ولعلك تجد كثيراً من الشبه بين رأيه في حكم العقل على الأشياء وبين رأى ابن رشد .

ويذكر ابن رشد أنه يتفق مع سائر الحكماء في أن الموجودات المحسوسة ولو أنها فاعلة بعضها في بعض إلا أنها ليست مكتفية بأنفسها في هذا الفاعل ، بل تحتاج إلى فاعل خارج عنها فعله شرط في فعلها . وقد اتفق الحكماء كما يقول ابن رشد على أن الفاعل الأول برىء عن المادة ، وأن فعله شرط في وجود الموجودات

وفي وجود أفعالها . وظاهر أن ابن رشد يريد أن يقول إن هذا الفاعل الخارج عن المادة هو العقل .

والله هو واهب العقل ، وعنده علم أزلي بطبائع الأشياء ، فيستطيع أن يعلم منذ الأزل بما سوف يقع لأن للموجودات طبائع ثابتة .

وطبيعة الموجود تابعة للعالم الأزلي . وعلم الخالق هو السبب في حصول تلك الطبيعة للخلق ، وليس انوقوف على الغيب شيئاً أكثر من الاصلاع على هذه الطبيعة .

نقد هيوم وكانت

وقد يبدو لك أن هذه المناقشات الطويلة بين الغزالي وابن رشد عقيمة ، ما كان ينبغي أن يصرف فيها العقلاء وقتهم دون جدوى . غير أن هيوم في القرن الثامن عشر الميلادي ، أي بعد وفاة ابن رشد بستة قرون ، تناول هذا الموضوع نفسه وأفاض فيه بما لا يخرج عما كتبه الغزالي وابن رشد ولكن بشكل آخر . ذلك أن هيوم ينظر إلى المسألة محلاً العناصر التي يتألف منها عقلنا خاصاً بعمد السببية ، أي إنه ينقد العقل البشري ، على حين أن الغزالي نظر إليها من وجهة نظر الدين ، وابن رشد من وجهة نظر الفلسفة .

وقد كان لنقد هيوم الموجه إلى الدين والفلسفة جميعاً أعظم الأثر في حياة فيلسوف من أعظم فلاسفة القرن الثامن عشر خطراً ، قيل إنه أحدث انقلاباً في الفلسفة شبيهاً بالانقلاب الذي أحدثه كوبرنيك في علم الفلك ، ونحن به كأنت الذي قال : « لقد أيقظني هيوم من سبات الاعتقادات » .

ويرى هيوم أن الحواس مصدر فكرة السببية وجميع الأفكار الأخرى . فالتجربة الحسية هي التي تعلمنا أن كرة البلياردو حين تصطدم بكرة أخرى تحركها وتدفعها إلى اتجاه معين . ونحن لا نعرف بالفطرة أنها تتحرك ولا نعرف اتجاه حركتها . وليس بين ما نسميه علة وما نسميه معلول أية صلة ضرورية توجد بالفطرة . كل ما نعرفه هو أن الأشياء تتابع على نسق معين . فنحن نرى الحرارة تصاحب اللهب ولكننا لا نعلم ما العلاقة بينهما . هل هذه العلاقة مستمدة من الأشياء الخارجية أم مستمدة من التأمل الباطني لعمليات النفس ؟ الواقع لا هذا

ولا ذاك ، بل معنى السببية لا يدل على شيء ، فهو من الالتفات الفاسفية التي اخترعناها وجريتنا وراءها . وكل ما نستطيع أن نقوله هو أن السببية عادة نشأت بتوالي النظر إلى شيئين بينهما علاقة تتابع دائمة .

ونظر كانت إلى المسألة من زاوية أخرى ؛ إذ بدأ الخيال العقل نفسه وما فيه من أحكام . والأحكام أساس التفكير . نقول : الحرارة تمدد الأجسام ، وهو حكم علمي ؛ لأنه ضروري ينطبق على الماضي والحاضر والمستقبل .

بأي حق ثبت أن هذه القضية ضرورية عامة صادقة في جميع الأحوال ؟ هل هي التجربة التي تعلمنا ذلك ؟ ليست التجربة لأنه من الجائز أن الحالات التي لم نشاهدها تختلف عما شاهدناه . فالتجربة وحدها لا تكفي في بناء العلم أو المعرفة العلمية .

ولكي تكون الأحكام ضرورية أي علمية يجب أن تستند إلى مبادئ عقلية أصولها موجودة في العقل كما هي موجودة في الحس بالمشاهدة . فالحواس تقدم مادة الأحكام ، والعقل يقوم بربطها ، ويطبّعها بطابعه ، ويضفي عليها من صورته . في العقل عناصر يضيفها إلى المعرفة الحسية التي يستقبلها من الخارج ، فتكون كعصارة المعدة التي تختلط بالطعام لتضمه .

هذه العناصر الفطرية التي ينكرها الحسيون والتي يحاول « كانت » في تقديمه للعقل الخالص أن يبين وجودها هي المكان صورة الإحساسات الخارجية ، والزمان صورة الإحساسات الداخلية .

وإذن فالحواس تقدم لنا الأشياء في قالبين هما الزمان والمكان ؛ ولذلك لا نعرف الأشياء في ذاتها ، بل كما تبدو لنا خلال هذين المنظرين ، وإليهما يرجع مبدأ السببية العلمي .

أحمد نزار الأهراني

النفس المغتربة

ياسارى الليل ، هلا استصبح السارى
قضى الحفاظ على حبي ومقتبلى
فلست أعجب من شغرى وهاجستى
ذابت أمانى فى نفسى وما برحت
يومى كأسمى ، ولا أصبو إلى أمل
وكم تمرست بالأواء وانخدعت
سئت ظل حياتى جاهداً لغبا
وما أسفت على إفلات سائحة
وقد بكيت لإنسانية ثققت
أنا الهزار تغنى ، ثم أخرسه
هجرت روضى لا مستبدلاً عوضاً

يا سارى الليل ، خذنى فى غياهبه
فما الحياة سوى أشجان مغترب
ويلمها ! برئت الأعلاث معلية
صوت النهى فى رباها خافت وهن
وقد تشابه لونا فى مسارها
إن الصحارى محاريب تنوف على
وما « السعادة » فى رأى سوى شبح

واضرب بنا فى غيابات وأفقار
وما النعيم سوى إدلاجة السارى
سود الضمائر ، وانحطت بأحرار
وفى معالمها ترديد ثرثار
لمح من النور أو لفتح من النار
مراجع حفلت بالإثم والعار !
من الظنون ، تراءى خلف منظار

النفس المغترية

ألوم نفسي ولا ألقى لها خطأ
كأنتى وحياتى حين أبصرها
فإن شكوت فشكوى ضيغم أنف
وقيمة النفس أغلى فى النهى ثمننا
فأنطوى بصباياتى وأسرارى
خوَّاض معركة . جواب أسفار
ورب منتحب فى بأس زار
من أن تباع بدينار وقنطار

سعيت ، لم أدخر عزماً لنافلة
وقد قضيت ، وما كفى بجارمة
ووجدت لم أتنظر خوف إيسار
على دى . فمن المطلوب بالثار ؟

حسين عرب

[مكة]

LE POUVOIR DES MOTS

ROGER CAILLOIS

سلطان اللفظ^(١)

٤ — المذاهب المقررة

والواقع أنه طبيعى جداً أن يخل المشعوذون الميادين العامة ؛ فهي خير الأماكن التى يعرضون فيها أعمالهم البطولية . فلا يحتّم فيها أن يتبع التفكير نهجاً منتظماً ، وليس المهم فيها أن يلتزم الانسان الدقة فى تعبيره ، بل المهم أن يكون له حظ كبير من التهويش . فكلّ يعرف أن التأثير فى الجماهير لا يكون عن طريق المنطق ، بل خير من ذلك الضجيج والعجيج وترديد صيحات معينة عالية ، حتى ينتهى الأمر بهذا الترديد إلى أن يحدث بطريقة آلية الانفعالات التى يتوقعها رجل ماهر أو رجل معتوه يخضع هو نفسه للهديان الذى ينشره . نعم إن العلماء والفلاسفة يدّعون أنهم فى ذلك أشدّ تخرجاً . ولكن كلاً من المفكر والمؤرّج يستعير من اللغة أشراكها . فكلاهما يتملق حاجة مختلفة ، أحدهما يصف تأثير عقايره أو سياسته فى شكل مغرٍ خلاب . والآخر يعرض مذهباً يزعم أنه ينطوى على حل لكل مشكلة وعلى تفسير لأحداث العالم جميعاً . وحسب هذا أن يستهوى معظم الناس . ولاخطباء أن يختاروا ما يعنّ لهم من الوسائل ، فهي كثيرة . فريق منهم يفسّر كل شىء بالصراع بين الطبقات وبتطور الأحوال الاقتصادية . وفريق ثان يفسّره بالتنافس بين الأجناس ، وبجهود أقلها موهبة للتغلب على الأجناس الممتازة الخليفة بالسيطرة العالمية . على حين يردّ فريق ثالث جميع الأمور إلى النشاط الجنسى الذى يبدو تأثيره القوى فى كل شىء . وكان قوم من قبل يفسرون الأحداث بظواهر النجوم ، يسلكون نفس الطريق

(١) الكاتب المصرى عدد ٧ (ابريل ١٩٤٦) .

ويصيبون نفس النجاح . فأساس المبدأ واحد ، والوسيلة لا يمكن أن تحقق . وهي تطبق في كثير من الثقة والاطمئنان . ويكفي وجود أداة مرنة لكي توصف الأشياء بألوان متناقضة في آن واحد ، فتعرض على أنها بيضاء وعلى أنها سوداء في الوقت نفسه ، وسرعان ما تنجح الحيلة . ويسيرُ جداً أن نلحق أية نتيجة بالسبب الذي نكون اخترناه . فيكفي أن يكون بهذا السبب بعض العموم والإبهام . ولا يبقى بعد ذلك إلا أن نظهر أثره بالالتجاء إلى بعض الألفاظ الرئيسية الرنانة التي يقدر أنها تشع الضوء من نفسها . فبعضهم يذكر « المنطق » أو « ارتفاع القيمة » ، وبعضهم الآخر يذكر « الاندفاع » أو « العقدة النفسية » أو « التجيد » ، وفريق ثالث يذكر « طول الجمجمة » . فإذا كل شيء قد استضاء . فمثلاً يرى أحدهم أن في لوحات مصور ترح إلى تاهيتي تعبيراً عن روح التوسع الاستعماري الفرنسي . ويفسر ثاب الاتجاه الرأسمالي في الاقتصاد بتأثير الميول نحو نوع من الشهوات الجنسية الآثمة ، ويقرر في جد أن هذه الميول قد انقلبت من الأفراد إلى الجماعة ، على حين يستكشف ثالث أن في مذبحه سان بارتيليمي أو في الثورة الفرنسية تآمراً من الأجناس الدنيا ضد الأجناس الآرية المصطفاة . وفي كل مرة يكفي الالتجاء إلى لفظ معين ، فإنه وحده يستند ما للتفسير من حظوة واعتبار . وهذا اللفظ يتجدي اللفظ ويعضله ؛ لأنه لا يمكن مناقشة مثل هذه التأكيدات الجازمة القائمة على غير أساس لها . فلم تنشأ إلا من استعمال آلي للفظ عام يصلح استعماله لجميع الحالات الواقعية أو التي يمكن تصورها . والأسباب التي يمتنع لأجلها إثبات أن هذه التأكيدات صحيحة هي نفسها التي تقف في إثبات أنها باطلة . وطابعها التعسفي ذاته يحميها ويجعلها غير قابلة للتفنيد . فليس في وسع أحد أن يثبت أن رسم جوجان ليس حتماً تصويراً للتوسع الاستعماري ، أو أن الاقتصاد الرأسمالي مستقل عن الميول الجنسية الآثمة ، أو أن لعبة الشطرنج ليست تمجيذاً لعقدة « أديب » (فمن الواضح أن الملك الذي يجب قهره في احترام ودون إزالته رمز للأب) . كما أنه ليس من دليل حاسم يمكن الاستناد إليه لاستبعاد الفرض الذي يقضي بأن الاستيلاء على سجن الباستيل مرجعه مؤامرة دبرها رجال ممر اللون ليقاوموا بها سيطرة البشقر ، أو مرجعه اقتران كوكب نبتون بأورانوس في برج ساجيتير . ويسير أن نلغي أية علاقة تصل بين مبدأ عام وحدث خاص . ولنفرض أنه أمكن

تحقيق ذلك عن طريق معجزة ، أو على الأقل بشكل غير مباشر أى بإيضاح صلات أدق وأوثق بين الأشياء ، ففي هذه الحالة نفسها لن يوافق هؤلاء العلماء على أن في هذا انهماكاً لهم . فسيتهمون خصومهم بأنهم ضحية مظاهر خدعتهم ، وأنهم يقفون عند الأشكال الخارجية للأشياء ، على حين أنهم إذا تعمقوا فحسبها وجلالوها تحليلاً دقيقاً فسيستكشفون أن الدوافع التي بينوها هي التي أدت إلى وجود كل شيء . ولا يمكن بحال أن يتعرضوا للخطأ .

وبطبيعة الحال تطغى بعض تعالياتهم على بعض . ولا يذهبون من التنازع فيما بينهم ، بل أكثر من ذلك فهم يحاولون أن يقهر بعضهم بعضاً في نظرياتهم المختلفة ، فيفسر كل منهم تسلسل الأسباب التي أدت إلى إيجاد المذهب الذي يناهضه . وينجح في ذلك دون عسر بفضل حديثه السحري وحده ، هذا الحديث الذي يعتبره الآخر بحق جدلاً لفظياً أجوف ، ولكن دون أن يتبين أن حديثه نفسه في هذا الموضوع لا يفضل في شيء الحديث الذي ينقضه . وكثيراً ما سمعت هؤلاء العلماء يحرّم بعضهم بعضاً . لا يقدمون على ذلك بعد مناقشة حجج الخصم ، بل يسرعون إلى إدراج هذا الخصم بين الذين يستمكروهم مذهبهم الخاص . فالبيسيكولوجي يدرجه بين هؤلاء التعساء الذين يسميهم المكبوتين ، ورجل الاقتصاد يدرجه بين أولئك الذين ينعتهم بالبورجوازيين الذين لا تقوم حججهم إلا على أساس من مصالحهم الخاصة ، ودارس الأجناس البشرية يدرج المتمرد بين الطبقات الدنيا ذات الذهن الهدام (كما يعلم ذلك كل إنسان) ، والمنجم مقتنع أنه حين يقرأ طالع الرجل البائس سيستكشف أنه ولد في ظل نجم سيئ ذي أثر خبيث يمنعه حتى من أن يعترف بما للتنجيم من أساس قوى ودعامة وطيدة .

لذلك فسرعان ما يبت في الموضوع بطريقة حاسمة ؛ لأن مدار الأمر ليس هو مناقشة الآراء والنظريات ، وإنما هو استخلاص الحكم على هذه الآراء والنظريات من أشخاص أصحابها . فلا يضطرب صاحب النظرية بسبب مثل هذا الحادث التافه الحقير الذي كان فضلاً عن ذلك متوقعاً ، والذي يدخل على كل حال في النظام العام للعالم على الصورة التي يصفها المذهب الذي يقدره . فيمر به دون أن يلوى عليه ، ويواصل في يسر تأويل أحداث العالم على المنوال الذي يراه مذهبه . ألم أقل لك إنه معصوم من الخطأ ، وإنه ثابت الجنان لا يتزعج .

ولست أعرف شيئاً أشد احتقاراً للواقع من مثل هذه السيرة . إن تلجأ إليها العقيدة الدينية ، فلا غبار على ذلك ، فهي تقوم في هذا بمهمتها . وأفهم حق الفهم أن رجل الدين يستند على الحقائق التي نزل بها الوحي فلا يتكلف إحاض منطق الملحدين ، فهذا المفظق جاءهم من الشيطان . ورجل الدين يترك أمر الإقناع إلى النعمة التي يمنحها الله ، أو إلى النار التي يحرق فيها الملحدون . أما أن يحذو محترف التفكير هذا الحذو ، وفي غير وعى ، فهذا ما يزعجني ويقلقني . فلا بد من أن يكون للألفاظ متى أطلقت سلطان غير محدود في ألا تعنى شيئاً واضحاً معيناً . وإذا قصرت هذه الألفاظ على وظائفها باعتبارها علامات تحكية ، وإذا جمع بعضها إلى بعض ولم يجمع بينها وبين الأشياء ، فسرعان ما تقوى ويشد بعضها أزر بعض ، وتنفي ماعداها ، فتكون مذهباً منظماً لاسبيل إلى قهره هما يكن تافهما . نعم تصبح ذات بأس ، وكأنه بأس لا حد له . فهي تمحو العالم ، ولا يقف في سبيلها شيء ، لا المعلومات البديهية التي تلمسها الحواس ، ولا العلاقات الحتمية التي يوجدها العقل بين الأفكار ، ولا الحقائق المؤكدة الأدق التي يشعر القلب أنها أشد ثباتاً وأقرب إليه من سواها جميعاً . وكأن العالم كله قد غشيته ظلمة وأقصى إلى مرتبة ثانوية مبهمة غامضة بسبب هذا الستار المضطرب المرن الذي تسدله الألفاظ حين يتقن تأليفها في تركيب عظيم شامل . وليس ينقضى عجبى من اتساع الخدعة ؛ فهي مستمرة عامة تشمل كل شيء ، لذلك لا تلحظ بسهولة . وهي تنجح في أن تغرأ أشد الأذهان حذقاً وأن تجتذب لنفسها حتى المقدرة في التعبير عن الآراء في دقة ، فتخدر بذلك يقظة الأفكار الحذرة بطبيعتها . وأخطارها أشد حين تصوب نحو أذهان أقل سموً ، حين تتجه على العكس من ذلك إلى قوات فظة سريعة الالتهاب ، لا يقيها من الضلال شيء ، تهاج إذ يلوّح لها بمخرقة من القماش الأحمر وتهداً في مثل هذا اليسر . وتنشأ أضرار جمة من مثل هذا الاضطراب الذي قد يستتبع آثاراً بالغة في السوء . ولو أنني اندفعت إلى تعدادها لوقعت في الخطأ الذي أنقده . على أنني ألتبس معذرة في أن أعرض عبارة ذكرها كوتفوس سيوس ، وقد صادفتها في بحث قصد به أيضاً توجيه النقد إلى إساءة استعمال لفظ معين وهو لفظ « متصوف » فقد سئل كوتفوس سيوس عما يوصى به الأمير لنج دي في من إجراء يتخذه لاستعادة السلم ورفع مستوى الخلق في مملكته حيث بلغت الفوضى أقصاها .

أجاب كوفوسنيوس : « وضع الالفاظ موضعها . » ثم شرح فكرته قائلاً : « حين لا توضع الالفاظ في موضعها تضطرب الأذهان ، وحين تضطرب الأذهان تفسد المعاملات ، وحين تفسد المعاملات لا تدرس الموسيقى ولا تؤدي الشعائر الدينية ، وحين لا تدرس الموسيقى ولا تؤدي الشعائر الدينية تفسد النسبة بين العقوبة والإثم ، وحين تفسد النسبة بين العقوبة والإثم لا يدري الشعب على أى قدميه يرقص ولا ماذا يعمل بأصابعه العشر . » ولست أدري أكان مثل هذا الدوران ضروريا ، ولكنى أرى فى هذه الحكمة كثيراً من الصدق والعمق .

٥ - الخطر المنهوى بالحرية

حين تفقد اللغة وضوحها وتستعمل بعض الالفاظ محل بعضها الآخر ، فما المقياس العام الذى يتيح للناس أبسط أوجه التبادل التى لا يشوبها سوء التفاهم ؟ وحين يتعدى كل واحد اختصاصه باستعمال حديث خلاب ، ولكنه حديث يخلو من الدقة ومن المغزى ، فلا يمكن التمييز بين الحكيم من القول وسفيهه ، أو بين الغث والسمين ، ولا يمكن أن ينقل أى تعليم أو أن يفسر . وكأن الأمر متعلق ببال حديثه لا تخرج منها فجأة لغات مختلفة ، بل حتى حين تستعمل لغة واحدة فلا بد للتفاهم من الالتجاء دائماً إلى الترجمة ، والترجمة مستحيلة لأنه لا توجد علاقة وثيقة أكيدة بين ألفاظ مضطربة غامضة لا توحى بنفس الصور إلى الأشخاص المختلفين .

لا تبقى بعد ذلك إلا علامات لا ينتظر منها إلا أن يكون لها آثار الطلاس ، وهى على أى حال إشارات أكثر منها ببيانات موضحة . ويفوز ذلك الذى يعرف كيف يستعمل أغلظ الوسائل لاستغلال هذه الالفاظ ، لا باعتبار ما تعنيه بل باعتبارها طعماً مغرياً ، من شأنها أن تلهب الشهوات وتثير ما يمكن أن يوجد أكبر كم من النشاط النافع لغرض معين ، وفى أقل زمن ممكن . ويتولى فى معامل البيان إخصائيون مجذون صياغة أشد الوسائل تأثيراً ، ويضعون التراكيب والأوصاف التى ينبغى استعمالها للحصول على هذا الانفعال أو ذاك فى ثقة وتأكيد . ففى مثل هذه الأحوال من ذا الذى لا يوافق على أن ألفاظاً تختار فى مهارة ، وتردد ترديداً عاماً ، وتقرن باستمرار بمشاعر معينة ، لا تصل فى جميع

الأحوال تقريباً إلى أن تحدث الانفعالات التي يراد إحداثها . وليس ما يدعو إلى العنف للإيمان في الترويض وحذقه ، فالعلم وحده كفيل بذلك . ويخيل لكل واحد أنه مندفع اندفاعاً طبيعياً ومن تلقاء نفسه ، على حين يدفعه غيره في هذا الطريق الذي مهده له في حساب ماهر حاذق . هذا هو السبيل الذي يسلكه الإنسان . وإن لم يحتط لنفسه فسرعان ما يخضع خضوعاً مطلقاً للانفعالات المنظمة . واستقلال الرجل المفكر آخر الأمر لا سبيل إليه إلا إذا اتبع حكم عقله . أما الألفاظ فينبغي أن ينفذ خلالها فيصل إلى الواقع ليطبق حكمه عليه . وحرية تكون عندئذ في القرار الذي يتخذه بعد الإلمام بجميع الظروف . ولكنه إذا قصر اهتمامه على الألفاظ وحدها ، فأهمل الرجوع إلى تجاربه الشخصية ليحقق ما تعنيه هذه الألفاظ ، فالويل له ، لقد هلك ! وهنالك تستعمل الألفاظ لملء على عمل ما يراد منه ، فيدفع إلى العبودية دون خشية من أن يحس ذلك . وفي وسع الطاغية الخبير المالك لأدوات الطغيان أن يملأه كما تملأ الساعة ، وأن يضبطه كما يروق له . والدعاة ما زال فناً في مهده ، ولكها ظفرت من النتائج بقدر يجعلنا نشك في أن الدولة ستعدل عن استعمال مثل هذه الوسيلة الناجحة الفعالة . لتحصل من الناس على الطاعة ، بل على الحماسة ، وستعدل عن حرمان الفرد حرية بحبسه محتقرة مثل هذه الوسائل ، إذا استطاعت أن تنظم شهواته .

وهذا التصوير القائم ليس وهمياً ، فانه يصف حالة لا خيال فيها ، وفي وسع كل فرد ملاحظها إذا ما استطاع أن ينظر بعينه . فبالقياس إلى كثير من الناس توجد هوة يزداد اتساعها بين تجربة غير كافية وبين مجموعة من الألفاظ تفوقها بكثير لا من حيث الاتساع فقط ، بل من حيث التعقد . وحين يكون الأمر متعلقاً بالألفاظ التي تدل على أشياء تقع تحت الحواس أو على حالات نفسية أولية بسيطة ، فليس ما يدعو بعد إلى الاتزاع . ولكن حين تجمع الألفاظ يبدأ الاتهام ، لأن بعض الفروق تخفى ويظهر الميل إلى المطابقة بين أشياء لا يمكن أن تكون مطابقة إلا من نواح معينة . وقد لفت إلى ذلك كاتب شديد الحساسية إذ قال : « كيف يمكن أن يقال « الأطفال » ؟ فان لفظ طفل لا يمكن أن يجمع ، وإنما هو مفرد له مفهوم لا يحصر . » وكذلك الأمر حين

يجمع لفظ « الرجل » . فليس من الممكن أن نتحدث عن الرجال حديثاً دقيقاً صادقاً إلا إذا اقتصرنا على ما يمتاز به نوعهم ، واستبعدنا ما يتفاوت فيه الأفراد . ومن ذا الذي يأخذ نفسه بمثل هذه الدقة ؟

وأقل لفظ من الألفاظ المجردة أشد خطراً من ذلك ؛ إذ يفترض عمليات شاقة لا ينبغي القيام بها في خفة . واللفظ في براءته الظاهرة ينقلها جاهزة إلى أذهان لا تتصور كنهها بأي حال من الأحوال . فهي تستخدم هذه الإشارة في سذاجة تامة دون أن تنبه إلى ما في ذلك من خطر إذا لم تبدأ بتحديد معناها وباستعادة العملية الذهنية التي يدين هذا اللفظ لها بوجوده . وبهذا الشرط وحده يمكن اقتناء اللفظ ، وإلا فإنه لا يزيد على كونه مستعاراً . وهذه هي مع الأسف حال أغلب الألفاظ بالقياس إلى معظم الناس . لم يزيدوا على أن سمعوها أو قرأوها فرددوها على الشكل الذي يبدو لهم أقرب إلى التصديق والاحتمال . ومثل هذه الألفاظ لا تشتمل على زيادة في التعليم والتحصيل ، بل تعتبر على العكس من ذلك خطراً داهماً . فهذه الحال تجعل الإنسان أعزل وتفسد حكمه ، وتجعل من هذا المخلوق المضطرب فريسة مهلة يستغلها الداعية مهرجاً كان أو ماهراً . ولست أنكر أن أحدهما يحاول التغرير ، وأن الآخر يريد به الخير فيما يقال . ولكن الواقع أن كلا منهما ينزله إلى مرتبة الدمية التي يحركها كيف يشاء .

وقد يشق على الناس أن يقبلوا أن هذا المصير محتوم على الإنسان . وقد يشق عليهم أيضاً أن يجدوا خير الوسائل التي تعينه على التحرر من هذا الرق الخبيث . ولكني لا أشك في أن من الخير له أن تزيد قدرته على الحكم على الأشياء حكماً سليماً ؛ فهذا يحفظ عليه حرите الشخصية كاملة . فإني لا أسأم ترديد القول إنه لا فائدة له في الحرية التي تترك له في ظاهر الأمر إذا عرفت الوسيلة التي تسخر بها إرادته . لذلك أرجو أن يعتاد الاحتراس من الألفاظ ؛ فمن طريق الألفاظ يمكن الوصول في يسر إلى مفاجأته وإخضاعه .

بل أرجو ، ولكنني أخشى أن أرجو المستحيل ، أن يفحصها جميعاً فحماً دقيقاً فيستبعد تلك التي تلقاها على سبيل المصادفة والتي يعجز عن أن يطابق بينها وبين حقيقة من الحقائق الواقعة . ليلغها إذا ما اضطروا وهو يفحصها إلى الاعتراف بأنه يجهل ما تدل عليه وما تشير إليه . وفي هذا مطاردة للأشباح ممثلة

لذلك التي كان يوصي بها القاص . هناك نرى كثيراً من الألفاظ والعبارات والتراكيب الجوفاء تنحل وتزول . وربما تركت هي أيضاً في الذاكرة بقعة من العفن كتلك التي تتركها على الجدران الحشرات التي تخيلها ، تلك الحشرات التي لم يعد لها حق في الوجود ، فلم تكن تستطيع الظهور إلا وسط الجماهير بفضل غفلة عامة ، ولكنها تضطر إلى الزوال حين تطارد ويتبين أنها غير ذات غناء . ولا إخال هذه المطاردة تروق الكثيرين ، أو أنهم يقدرّون عليها . ولا شك أن الحديث يستتبع ، ثمناً لا سبيل إلى تجنبه ، هذا العدد العظيم من الألفاظ الهائجة الجوفاء . وطبيعي أن يلتقطها كل واحد فيستعملها دون كثير من التقيد كما يعنّ له . ولكن بعض الناس يبذلون جهدهم في أن يكون استعمالهم لهذه الملكة الثمينة في الحديث على خير الوجوه وأكملها ، بل يفخرون بذلك . وأظن أن عليهم أن يكونوا قدوة لغيرهم ، وأن أبسط الأمانة تقضى عليهم ألا يسيئوا استعمال السلطة الخطيرة الموكولة إليهم . وهم بلا شك لا يتعرضون لعقاب لو أنهم خانوا الأمانة ؛ بل قد يجدون في ذلك مزايا مختلفة ، أولها تصفيق أولئك الذين يمدحونهم . ولكنهم بذلك يقصرون في القيام بالواجب الذي تفرضه عليهم مكاتبتهم .

ويروى أن الصينيين لم يكونوا يملكون في سالف الزمان للتعبير عما يريدون الا قطعاً صغيرة من الخيط يحدثون فيها عقداً معينة على أوضاع خاصة وفي أوقات متراوحة مناسبة . وكان موضع العقدة وشكلها يبينان في عسر عما يريدون التعبير عنه . ثم اخترعت الكتابة . وظهرت مجموعات ضخمة من الكتب لم تراع فيها الدقة في أداء الفكر . فلم يكن هناك ما يدعو إلى التفكير كثيراً للتعبير قليلاً . بل كان الأمر على العكس من ذلك في معظم الأحوال . وقد قلق أحد الحكماء من هذه الحال وصاح بهم قائلاً : « سأردكم إلى التعبير بعقد الخيط » . وطبيعي أن هذه الصيحة لم تكن إلا مجرد رغبة لا يمكن تحقيقها . على أن هذا الحكيم كان مع ذلك يوصي أتباعه بالتفكير الصامت . والصينيون يكرّمون ذكره لأنهم يرونه أ كبر الحكماء .

موصي لابن

قله عن الفرنسية الدكتور توفيق شحاته

مسر حيات أندريه جيد

من العبث أن نحاول في مقال واحد حصر هذه الآفاق البعيدة التي تبسطها مسرحيات أندريه جيد ، وإنما ننتهز مرور أندريه جيد بالقاهرة ، وتأثير دار «الكاتب المصري» التي نشرت ترجمة عربية للباب الضيق وتوشك أن تنشر تراجم أخرى لثلاثة من كتبه ، فنكشف للقراء عن ناحية من نواحي الانتاج الفنى لأندريه جيد ، لم تتعمق بعد ، وهى أدبه المسرحى .

ولن نتحدث إلا عن قصص أربع وهى : « شاول » سنة ١٨٩٦ (وكان عمر جيد وقتئذ ٢٧ سنة) و « فيلوكتيت » سنة ١٨٩٩ و « الملك كوندول » سنة ١٩٠١ و « أويديپوس » سنة ١٩٣١ ؛ لأن هذه القصص أهم محاولاته التمثيلية . والنية أن نستخلص من هذه المسرحيات ، لأقول علماً متسعاً متماسك الأطراف ، وإنما أقول بعض ملاحظات نفسية وخلقية . فإن جميع الأبطال الذين سُميت القصص بأسمائهم يُثيرون استطلاعنا لا من حيث إنهم يخضعون لقوة تقهرهم وتقودهم إلى حيث لا يريدون فحسب ، بل من حيث إن كل واحد منهم على عكس ذلك يحمل فى طيات نفسه ضرورته الصارمة ، ومأساته الخاصة التي لا يشاركه فيها غيره . وقد لاحظ جيد فى محاضراته التى ألقاها سنة ١٩١٩ ، فى الأساطير اليونانية : « أن كل بطل من هؤلاء الأبطال يحمل سلاحه المقصور عليه » . ونستطيع أن نضيف إلى ذلك أن كل واحد منهم يحمل سلاحه وموقعته وميدان هذه الموقعة .

وقد استعار جيد موضوع قصة « شاول » من التوراة (سفر الملوك) وهو معقد إلى حد ما كأنه صورة مطابقة لما فى نفس هذا الملك من تعقيد وغموض . فإن الستار يرفع عن تحزب مروع وتحالف شيطاني ، ولا يكاد الناظر يشهد هذا المنظر حتى يشعر بأن الصراع سيكون عنيفاً ، وأن النبات لهذه المصاعب العسيرة يقتضى رجلاً فذاً ؛ فقد اصطالح الغضب والجنون والإثم والخوف والتسلط والغرور والفجور على أن يقتحم شخص الملك لتستأثر بنفسه ، والملك معذب قد

عكف على الشراب دون أن يظفر بالسكر ، وقد قتل السجرة جميعاً وهو يريد أن ينفذ إلى المستقبل ، وإلى مستقبله خاصة ، وهو يسأل السماء عن ذلك عبثاً . يحتفظ الملك بسر أو يحاول أن يحتفظ به ، ولكن خاصته في قصره (والمثل يقول : من مأمنه يؤتي الحذر) وهم الملكة ونابال الكاهن الأعظم وجويل الفراش والحلاق قد ائتمروا أن ينفذوا إلى ضمير الملك ، وقد همس الحلاق في أذن الملكة متنبئاً أو موحياً باسم داود ، فلم يكذ الكاهن يسمع هذا الاسم حتى اهتم له وإذا داود يُدعى إلى القصر . ولا يكاد يوناتان بن الملك وولي عهده في أكبر الظن يرى الفتى حتى يكلف به ، وإذا هو يدعوه كما يدعى في أسرته باسمه المصغر دويد والحرب قائمة بين الفلسطينيين وبنى إسرائيل ، وبطل الفلسطينيين جالوت يتحدى في كل يوم أولى البأس من بنى إسرائيل . وإذا داود يدعو إلى المبارزة فيقدم على ذلك وحيداً أعزل .

فإذا كان الفصل الثاني فقد استكشف جويل والحلاق سرّاً وهو أن صموئيل قد رسم داود في بيت لحم ، وقد ارتفعت الأصوات وصيحات الفرح من كل صوب تهتف باسم الفتى المنتصر ، فيغضب الملك لذلك لكنه لا يكاد يرى داود حتى يسقط غضبه كما يسقط النقاب . فهو يجب الفتى ويريد أن يتخذه لنفسه مغنياً . وقد أقبلت الملكة وهي سعيدة لأنها وصلت داود بالقصر ، وهي تثني على منقذ بنى إسرائيل وتوصيه بأن يلاحظ الملك ويحمل إليها أنباءه . وقد ملكها عطفها عليه حتى دفعها إلى أن تمس خدّه . والمملك مستخف وراء أحد العمدة يسمع الحديث ويتبعه (كما يتسمع أويديبوس وكريون لحديث ايثيوكلينس وبولينيس) وإذا هو ثائر قد هجم على الملكة فأرداها . ولا يكاد يخلو إلى نفسه في أثر ذلك حتى يحيط به الشياطين ويأخذوه من كل وجه .

فإذا كان الفصل الثالث فالحلاق وجويل على ما بينهما من ريبة (فلا أمن في ظل ملك تدفعه الغيرة إلى قتل زوجه) يحاولان أن يستكشفا سر شاول .

وقد ظهر يوناتان في شارة الملك التي ينوء بها والتي يفرضها عليه أبوه يهيه بذلك للنهوض بأعباء الملك يوماً ما ، والفتى يتخفف من المعطف والتاج يلقيهما إلى داود فيحملهما دون أن يجد لهما ثقلاً . والمملك يلاحظ ذلك من مخبئه . فإذا سمع داود يقول لابنه : « تعزّ عن ضعفك بين ذراعي » وسمع ابنه يدعو الفتى دويد لم يملك نفسه أن يدخل بينهما . وقد هم الملك أن يخفي نفسه على الناس ، ولعله هم

أن يسترد شيئاً من شبابه ، نأزال لحيته وسعى إلى الساحرة وهى الوحيدة التى أفلتت من الموت ، وهو يطلب إليها أن تستحضر روح صاموئيل فتجيبه إلى ما أراد . فبالها من نبوءة يتبين منها الملك أن العرش صائر إلى داود وأنه وابنه مقتولان . وهو يثور لهذه النبوءة فيقتل الساحرة . ولكنه حين يعود إلى القصر يرى داود ويسمع لايقاعه فيستسلم لأحلامه الحلوة ويدعو الفتى باسم دويد ، فاذا سمع الفتى ذلك ألقى قيثارته فتحطمت وانصرف .

والفصل الرابع أسمى فصول القصة ، ففيه يودّع داود صديقه يوناتان لأنه سينضم إلى الفلسطينيين . ولكنه على ذلك يضرب له موعداً فى كهف يعينه ليلتقيا فى اليوم الثانى من أيام الموقعة . وقد اعتزل شاول فى الصحراء حيث تسلط عليه المغريات التى لا تحصى ، وهو يُرَدُّ إلى القصر أشعث مختلط العقل . والشعب يسخر منه ولا يسمع لهذياناه أحد إلا ساقبه الذى يحبه ، فإنه يرى له ويكى لما صار إليه من الوحدة ، والملك يسأله عن الصديقين فلا يعرف منه شيئاً ، ثم هو يشهد اجتماع الصديقين فى الكهف ويسمع حديثهما .

فاذا كان الفصل الخامس فقد انتهى سقوط شاول إلى غايته . فهو فى مرادقه حريض على العزلة . ولكن شيطاناً فى صورة طفل يرتعد من البرد قد أخذ يغريه ، ومع أن ابنه يوناتان يدعوهُ إلى أن يتبعه ، فان الملك يعرض عن ابنه ويتلقى الصبي وقد أخذت شياطين أخرى تقبل مرتعدة من البرد والملك يقاوم شيئاً ثم يستسلم ، وقد أبى وأصر على الإباء أن يتبع ابنه . وإذا جويل يقتل الملك ثم يرى نفسه وقد قضى داود عليه الموت . وقد قتل يوناتان كذلك . وتنتهى القصة إلى هذه الخاتمة الفاجعة .

وهذه القصة التى توشك الحركة فيها أن تخفى القيمة النفسية لا تعيننا من الناحية التمثيلية وحدها ، فالحوادث فيها كما فى غيرها من المسرحيات تصور الحياة وتعطى كل شخصية سيماء الميزة لها ، ولكنها ليست غاية فى أنفسها وإنما هى كالتصايف الخلقية وسائل إلى قضايا عامة تستنبط منها . وقد استطعنا بفضل محاضرة ألقاها جيد فى بروكسل فى ٢٥ مارس سنة ١٩٠٤ عن تطور المسرح أن نفهم فيم تجاوزت قصة شاول التوراة بل تجاوزت إطار المسرحية نفسها وأصبحت مشخصة لبؤس فردى . فقد أراد جيد أن يتخذ من شاول صورة الملك المذبذب الضارع الذى لا يستجيب الله له على حين أنه فى أشد الحاجة إلى الله . ومصدر

عذابه الذي يثوق عليه ليله ، بما يبعث في نفسه من هموم النهار ، ليس حاجته إلى أن يعرف اسم ولي عهده ، وإنما هو شعوره بأن في قلبه سرّاً مجهولاً « وهذا السر يضطرب في قلبه كما يتخبط الطائر بجنّيات قصصه » . ولكن يؤس شاول أشد من هذا خطراً ؛ فخاصته الذين يحيطون به من زوجه إلى حلاقه لا يعينونه على ما يسمو إليه من يقين مطلق ، وإنما هم يوسعون أمامه هوة الوحدة التي تدعوه إلى نفسها كلما خطا خطوة . وهو يرتاب بامرأته أكثر مما يرتاب بأي شخص آخر . يقول عنها : « إن هذه المرأة تمقتني وإني لها لمبغض » . ويقول لها : « حسبك يا سيدتي وقد استمعت لك وقتاً كافياً » . فإذا أقرت اختيار عازف على القيثارة قال : « أما وقد اختارته هي فيجب أن يكون مصدر شر لي » . ولكن لم يترنح شاول كما يترنح الشيخ الهرم ؟ فإذا اختبر نفسه في الفصل الخامس لم يجد فيها قدرة على المقاومة ، وإذا بطش به جويل لم يصادف منه إلا رجلاً محطاً منهتماً . لماذا يقول داود إن نفسه تذوق عذاباً لا يقاس إليه شيء ؟ إن خلاصة سره هي ما تنبئ به الساحرة ، ولكنها حين تنبئ به لا تجد من يسمع لها من الذين كانوا يحرسون على أن يتعرفوا هذا السر : « أيها الملك الذي أعدّه الشقاء لاستقبال كل طارق : أخلق بابك » . إنما هلك شاول لأنه فتح بابه . . . لأنه استقبل داود ولأنه استقبل الشياطين ولأنه لم يفهم « أن كل ما كان يهجه قد كان له عدواً » .

لم يكن بد لليونان من أن يحصلوا من فيلوكتيت على قوس هرقل وسهامه لينتصروا على الطرواديين . هذا هو منشأ القصة الثانية وموضوعها . وهذه القصة تتألف من خمسة فصول كالقصة التي سبقتها وإن كان الفصل الخامس لم يتجاوز مشهداً واحداً قد صيغ في سطرين . ويصفها فرانسوا اليبير بأنها « مناساة الحاذقين » وأحداثها قليلة جداً . فقد لدغت حية قدم فيلوكتيت ، وكانت آلامه العنيفة تشيع في قوس المحاربين إشفاقاً يلينها كما يقول جيد ، ومن أجل ذلك ترك الجيش فيلوكتيت في جزيرة خالية . وقد أوحى الآلهة أن لا بد من سلاح هرقل لإخراج النصر ، فانتدب أوديسيوس ونيوبتوليم بن أخيل ليأخذاً هذا السلاح من فيلوكتيت . ولكن نيوبتوليم يرى في سيرة اليونان مع فيلوكتيت ظمأً فيرفض أن يعين عليه أوديسيوس . غير أن أوديسيوس ماكر وهو يكر برفيقه القتي ، فيصور له الواجب والوطن تصوراً يضطره إلى الصمت لأنه يقطع حجته .

فإذا اتبها إلى الجزيرة ولقيا فيلوكتيت أخذ هذا يقص عليهما كيف استكشف وحدته ، فقد بدأ ذلك باستكشاف نفسه ، ثم اهتدى إلى معنى الشكوى ثم عرف صفة الألفاظ التي لا تستعمل إلا لتؤدي إلى غاية ، ثم تبين آخر الأمر ما في الأعمال البريئة من ثراء . بعد عن الناس فاتسع قلبه ونسى نفسه وأصبح معنى الطبيعة . وأوديسيوس يسمع لهذا كله فلا يطمئن إليه لأنه لا ينتظر منه خيراً ، فيحاول أن يعطف قلب فيلوكتيت على اليونان ولكن في غير طائل . على أن فيلوكتيت قد كان في بعض الأوقات مستخفياً وراء كثيب من الثلج (وفي كل مسرحية من مسرحيات جيد من يستخفي) فيسمع حوار الرفيقين ويعرف ما يقصدان إليه . وهو مع ذلك يحنو على الفتى ويدفع إليه القوس ليشدها . وإذا الفتى ينحرف عن أوديسيوس ويتهمة بأنه لم يفهم دخيلة فيلوكتيت ، بل يتجاوز ذلك فيخون أوديسيوس ويظهر فيلوكتيت على الزجاجة التي أعدت لتخديره حتى يمكن أن يسرق منه السلاح . وقد عرف ذلك فيلوكتيت وقدر نتائجها ، وأقدم مع ذلك على شرب ما في الزجاجة فأخذه النوم ، حتى إذا أفاق في الفصل الخامس لاحظ أنهما قد أخذتا السلاح فلن يعودا إليه وأنه سعيد بهذا العمل الذي أقدم عليه لا ينتظر منه ثعماً .

فأنت ترى أن موضوع القصة ليس مقصوداً لنفسه ، وإنما هو وسيلة إلى تجربة إنسانية لا تحد بزمان . ونحن نقرأ في قصة أوديسيوس (التي سنتحدث عنها بعد حين) قول الملك لابنيه : « تعلم يا ابني أن كل واحد منا يلقي في شبابه وحشاً يعرض عليه لغزاً يمنعه من أن يمضي إلى أمام . »

فنحن نشهد نيوبتوليم الشاب يمر بهذا الطور الفاجع من حياته وهو في حفرق الطرق يدعو كل طريق إلى نفسه ، ويود لو استطاع أن يختار وأن يتبين وجه الحق ويتمنى أن يعينه معين على هذا الاختيار . هو قابل لا فاعل لأنه شاب ، وهو يسأل أوديسيوس عن الفضيلة لأنها هي الموضوع الذي يعنيه الآن ، كما يسأل بعد حين فيلوكتيت عن معنى الاخلاص ، فلا يصادف جواب هذا ولا ذاك منه قلباً جذباً . لقد سافر إلى تلك الجزيرة الغريبة وهو يجهل المهمة التي سافر من أجلها ، ولكنه كان يشعر أنه مستعد للتضحية . لقد ترك كل شيء غير آسف ليبصر مع أوديسيوس . لقد كان يذكر بنوع خاص دروس أخيل . وهو يقول لأوديسيوس : « لقد علمني أبي ألا أستخدم الكيد أبداً ، كلفني ما شئت إلا

خيانة الصديق ». أما مذهب أوديسيوس وخلاصة تفكيره فيمكن إيجازه في كلمتين : « إن السكيد أقوى من القوة » .

ولكن نيوبتوليم شديد الظلم إلى الوجود، فإذا طلب إلى أوديسيوس فضلاً من التفصيل طلب إليه أن يهدي من جموح عواطفه وأن يذعن لوحى الآلهة وأمر الدولة، وأن يهب نفسه آخر الأمر لليونان. أما الآلهة فإن نيوبتوليم يكبرهم ويؤمن بسلطانهم، وهو يطلب إلى أوديسيوس أن يؤكد له أن ذوس إله الغيب إذا رضى فسيقدر النصر لليونان. ولكن إثاره للحرية يأبى عليه أن يؤمن بأن الآلهة يملكون إكراهنا على الفضيلة كما يصورها له أوديسيوس؛ لأنه يرى أن لا قيمة للفضيلة إذا أجبر الناس عليها. ولكن أوديسيوس يفجؤه بهذا الجواب المروع : « ألا ترى يا نيوبتوليم أن المهم قبل كل شئ أن تنفذ إرادة الآلهة وإن لم يرض الناس عن نقاذها؟ » ومن قبل ذلك سمعه يقول : « إن أوامر الآلهة قاسية لأنها تصدر عن الآلهة » .

أما الإخلاص فى خدمة اليونان فلا غرابة فيه. إنه يعرض نفسه للموت فى غير خوف فى سبيل إنقاذ اليونان. وهل صنع أخيل شيئاً إلا أنه مات فى سبيل الوطن؟ وهو من أجل ذلك يقول فى آخر القصة : « ويحك يا فيلوكتيت ليس من السهل أن يفلت المرء من طاعة اليونان. » على أن فى تصور أوديسيوس لسلطان الوطن كما فى تصور لسلطان الآلهة نوعاً من الإطلاق والسعة لا يطيقه نيوبتوليم. فأوديسيوس يرى أن كل شئ يهون فى سبيل اليونان، وهو يبين لرفيقه الشاب أن فيلوكتيت إنما ترك وحيداً لأنه لم يعد قادراً على خدمة اليونان. وهو من أجل ذلك لا يفهم موقف نيوبتوليم. فكيف يمكن أن يفكر الإنسان لحظة فى إنقاذ فرد وإن أضاع ذلك أمة كاملة. فلا سبيل إلى الموازنة بين فيلوكتيت واليونان، وإنما الوطن أقوم من الصداقة كما أن الوطن كان أقوم عند أجائون من ابنته ايفيجينى. طاعة عمياء للآلهة وإخلاص كامل للوطن، ألا يمكن أن يوجد فى عالم أقرب إلى الانسانية أوامر أقل من هذه الأوامر صرامة؟ وفيلوكتيت ماذا يرى فى هذا كله؟ أليس لديه هو أيضاً سر من أسرار الحياة يستطيع أن يهديه إلى الفتى نيوبتوليم؟ فقد أجاب أوديسيوس حين سأله الفتى بالأجوبة الملقنة والآراء الموروثة والأفكار المقررة. أما فيلوكتيت فقد رأى نفسه ناشئة تسأله وعقلاً يقطأ يتفتح له، فأخذ يعرض الثروة التى اكتسبها من

التجربة فهو يقول له مثلاً : « لم أفهم ما يسمى الفضيلة إلا منذ اعتزلت الناس . » ويقول : « أيتها الفضيلة ، أيتها الفضيلة كم آثرتك منذ كنت وحيداً . » قد علمته عزله التي فرضت عليه أول الأمر ثم اطمأن إليها على مهل أن الإنسان الذي يعيش بين الناس لا يستطيع أن يأتي عملاً بريئاً خالصاً من الغرض . و انتهت به إلى هذه الحكمة البالغة ، وهي أن يكون الإنسان كما هو دون أن يحفل بالمظاهر . والذي يكشفه فيلوكتيت لنيوبتوليم أنه في وحدته قد كف عن الأمل والآنين والأحلام والتنى ، وهو يعود قليلاً قليلاً أن يغير نظره إلى الأشياء كما تعود هو بحيث تظهر الحقيقة مغايرة لصورتها المألوفة . بفضل هذه النظرة الجديدة أصبحت شكاته رائعة وتعبيره ممتازاً ؛ لأن أحداً لم يكن حاضر أمره لسمع له ، فليس شيء مما يصدر عنه بضائع بل كل شيء في نفسه ومن حوله ثابت مستقر ثم راجع إليه يرمقه بهذه النظرة التي تنفذ إلى أعماق الأبد . بون بعيد بين فيلوكتيت وأوديسيوس ؛ ولذلك يقول نيوبتوليم : « إني أشعر بأن الفضيلة ليست واحدة بالقياس إليك وإلى أوديسيوس . » وقد سمي جيد قصته « رسالة المذاهب الثلاثة في الأخلاق » : الآلهة والوطن ، أما المذهب الثالث فلم يوجد بعد ، وقد مارسه فيلوكتيت في جزيرته ، فهو يعلم أن هناك فضيلة عاياً لا يرقى إليها الإنسان إلا قليلاً قليلاً . وهو يقول لنيوبتوليم : « إنما الفضيلة هي أن يتكلف الإنسان ما فوق طاقته . » وهو يفضي بسر المذهب الخلق الثالث إلى نيوبتوليم ولكن الفتى لا يفطن له . وذلك حين يقول : « إن هناك شيئاً فوق الآلهة وهو شخصية الإنسان . »

أما قصة الملك كوندول فهي الوحيدة التي مهد لها جيد بمقدمة يستأنف فيها بعض آرائه في التمثيل ، ويعلن أن من الحق على الكاتب التمثيل أن يتقاضى أبطاله حقائق لا تستطيع الجماعة أن تقبلها في حياتها اليومية . فإذا فرضت الأخلاق والعادات والقوانين تقابها على الإنسانية (كما يرى ذلك في شخص كريون المحافظ في قصة أوديسيوس) وجب على صاحب الفن أن يصطنع من الذكاء والشجاعة ما يمكنه من أن يحرر أشخاصه من هذا النقاب .

دعا الملك كوندول حاشيته ، وهي مكونة من فيليب وسيباس وأركيلايوس وفرناس وسيفاكس إلى ولية في القصر . ولأول مرة تشهد الملكة نسيا هذه الولية وتشهدا حاسرة ؛ فالملك يريد أن يعلم الناس جميعاً أنها رائعة الجمال وأنه

سعيد . وقدم السمك إلى الطاعمين ، وإذا أركيلايوس مجد فيما قدم إليه منه خاتما عليه هذا النقش الغريب « إني أخفى السعادة » وقد أحضر جيبيس الصياد البائس الذي حمل السمك إلى القصر والذي امتحن من ليلته بحريق ذهب بكوخه وشباكه . وقد كان هذا الصياد البائس يعتقد أنه لا يملك إلا امرأته تريكو وبؤسه ، ولكن سيباس يلح بأنه مخطئ حتى في هذا ؛ لأنه داعب تريكو حين كانت تساعد على تهئية الوليمة . ولا يكاد جيبيس يسمع بذلك حتى يقتل امرأته . والملك يعطف عليه ويؤويه في قصره . وقد أزمع أن يبدله من بؤسه نعيما وأن يتخذه لنفسه نديماً . ونحن نراه في الفصل الثاني قد خلا إلى جيبيس ويتحدث إليه في تبسط وقد تغيرت حاله ، فهو يرفل في ثوب نفخ وقد أدار حول عنقه عقداً ملكياً ليكبره أهل القصر فلا يردوا له أمراً . ولكن ثقة الملك بجيبيس قد بلغت أقصاها ، فهو يلح عليه في أن يرى الملكة ، وهو يتحدث إليه بأمر هذا الخاتم الذي يخفي حامله عن الأنظار وهو حاضر يرى كل شيء . وهو يكره جيبيس على أن يحمله . وقد أقبلت نيسيا واثقة بأنها بأمن من الرقباء فهي تفيض حناناً على الملك ، وهي تتجرد من ثيابها ، وقد ثار في نفس الملك صراع عنيف فهو يرد نفسه إلى الحزم ويأخذها بما أزمع من هذه المؤامرة . « من ذا الذي يستطيع أن يقدم على هذا آخر الدهر إن لم تقدم عليه أنت ، تشجع إذن . » وهو ينسل في رفق ويأمر جيبيس بالبقاء .

فإذا كان الفصل الثالث فإن الحاشية التي رأيناها تشهد الوليمة تختصم حول لغز الخاتم الذي وجد في السمكة : فالملك فيما يظهر يطلب هذا الخاتم وهو قلق ؛ فقد اعترفت له نيسيا بأنها في الليلة الماضية قد ذقت أعذب الحب الذي تطمع فيه امرأة . وقد سمع جيبيس هذا الاعتراف فيتزع الخاتم وينبئ الملكة بأنه صاحب تلك الليلة الرائعة .

والملك الذي يمتاز بكرم لا يعدله عند جيد إلا استعداد شاول لتلقى كل إنسان يتحدث إلى أصحابه بأنه منذ الآن حريص على أن يحتفظ لنفسه بامرأته وثروته ، وفي أثناء ذلك تصدر الملكة أمراً إلى جيبيس بأن يقتل زوجها . فيتردد ثم يقدم ، ثم تتخذه نيسيا لها زوجاً ، وينتقل الملك إلى الصياد البائس القديم .

موضوع خطير كما ترى يشبه قصص ألف ليلة وليلة . يسيطر عليه القضاء كما هي الحال في مسرحيات جيد كلها . ورمز القضاء هنا هو خاتم جيبيس ، كما

أن رمزه في قصة شاول هو الاستطلاع ، ولكن قيمة الموضوع هنا شيء آخر . فأمام هذا المنظر الذي يمثل هذه الحاشية المستهتره وقد عنى كل واحد منها بمكانه على المائدة وأخذوا يتضحكون من حياء الملكة ويأسفون لغيبه تريدو ويسكرون حتى يستاقطوا تحت المائدة ، أمام هذا المنظر ينفرد شيخها كوندول وچيچيس ، وقد أخذها جيد من أقصى طرفي السلسلة الاجتماعية : أحدها بأس يرى أن من الخير أن يجد الإنسان قليلا وأن يحتفظ بهذا القليل لنفسه ، رجل قنوع يسأله الملك : « أشرب الخمر أحيانا ؟ » فيجيب : « لا أكاد أذوقها » ، ولكنه فوق كل شيء رجل أبي يدعو نفسه قائلا : « هلم ياچيچيس الأبى » فاذا دعاه الخدم إلى أن يشاركهم في شربهم لأن الملك قد أمر أن يسكر الخدم جميعاً أجاب بأنه ليس خادماً للملك . ونحن نعلم مع ذلك أنه يجب الملك ويألم حين يراه محاطاً بهؤلاء الأغرار المتملقين . وهذا الإباء الذي يمنعه من أن يستغل كرم الملك يدفعه إلى قتل امرأته ، وهو مصدر هذه الحرية التي تشاهد في مظهره وتفكيره والتي تتيح له أن يقول للملك : « أيها الملك لست خادماً لك » والملك يقبل منه هذه اللهجة فهو عظيم الثراء ولكنه عظيم الحظ من الفلسفة . وإذا كان چيچيس حريصاً على أن يحتفظ بشيء لنفسه فان الملك حريص على ألا يحتفظ بشيء ، فهو الكرم نفسه وهو يضيف في قصره كل من يمر به لا عن التماس للمنفعة ولا عن حماقة ، بل كما يقول جيد عن كرم متردد غير مستقر . وليس في حياته شيء من التعالي المهيمن فان ميوله كلها رفيعة ، وهو من أجل ذلك يؤثر سييلاس بالتين الأبيض ، ويثنى على فرناس لذكائه ويهنيء سيفاكس بشعره ويداعب أركيلايوس لأنه يسرف في حب اللاعات : وهو حين يزدرى المتملقين إنما يصدر في ذلك عن تقديره للمودة . وشيء واحد بالضبط هو الذي يحرمه السعادة ، وهو أنه لا صديق له . ولكن كوندول كشاول يحمل في أعماق نفسه مصدر هزيمته . فهذه المبادئ التي تدبر أمره تعطى الحياة معنى لا تلبث أن تفقده . وهو يقول لحاشيته إنه يعتقد « أن البهجة تضاعف حين يقتسمها المرء مع أصحابه ، وإن البهجة التي يستأثر بها الفرد توشك أن تكون مسروقة . وهو على الجملة لا يريد أن يسير سيرة البخيل المحتكر فيستأثر وحده بالنور » . والخاتم هو الذي يثير القلق في نفسه . يشور حين يشرب الناس نخب كوندول أسعد أهل الأرض ، يشور ثم يحاول أن يفسر ثورته ، « فما السعادة ؟ أيمن أن يرى الإنسان

سعادته ؟ أهى فى أن يملك الإنسان شيئاً ؟ » فقد رأينا فيلوكتيت سعيداً حين لاحظ أنه قد تجرد من كل شيء ، أما كوندول فلا يستطيع أن يعرف هذه التجربة لأنه عظيم الثراء ولكن الملك بالقياس إليه ليس احتيازاً وإنما هو تجربة . فسيظل قلقاً ما دام جيبيس لا يحيط بكل ثروته . فقد كان شديد الألم لأنه كان يعرف وحده جمال الملكة ، وقد بلا نفسه بتجربة أولى حين أظهر الملكة للحاشية ، وهو منطقى مع نفسه ، فلا بد من أن يظهرها لجيبيس . وقد رأينا عاقبة ذلك ؛ فقد مات كوندول لأنه أراد أن يعطى كل شيء فكان أشبه بهذا الطائر الذى يتحدث عنه فيلوكتيت والذى « مات لأنه هم أن يطير » .

هذا الصراع الذى شهدناه بين صورتين من السعادة يعرضه علينا جيد فى صورة أشمل حين يعرض علينا قصه أوديپوس . وأنا أمر مسرعاً بخلاصتها . فالشعب ممتحن بالطاعون ، وليس من شك فى أن هذا عقاب من الآلهة فلا بد من أن يهلك من جرّ هذا الشر على الأبرياء ، يجب أن يثار للايوس (ملك ثيبة الذى قتل) حتى يحول الإله هذا الوباء عن المدينة . وأوديپوس يريد أن يلتمس القاتل ولكن الكاهن الأعظم تريسياس يلحّ فى لوم أوديپوس على تهاونه فى الدين . وفى نفس الملك شيء من قلق . ومع أنه كان يكره الحديث عن الماضى فقد أخذ يشرف على البحث بنفسه ، وهو يلحّ فى المسألة على كريون ويوكاستيه يريد أن يعرف كل شيء وأن يصل إلى الأطمئنان ولكن إلى الأطمئنان المشرق الصريح لا مساومة فيه . لماذا تؤجل الحقيقة ؟ إن الحقيقة لا تحب الانتظار . وقد رأى كريون يتنصل ويوكاستيه تراوغ فيستبين له أنه هو الذى قتل لايوس . هنالك تقتل يوكاستيه نفسها ، ويفقأ أوديپوس عينيه ، وقد أراد كريون وأرادت معه الجوقة أن ينقئ أوديپوس نفسه عن المدينة ، وهو يهيم أن ينصرف ولكن تريسياس يعلن أن الآلهة قد قضوا بالبركة للأرض التى يستقر فيها جثمانه إذا مات . فما أسرع ما يتحول كريون وتتحول معه الجوقة وإذا هم يلحون على أوديپوس أن يبتى بينهم ولكن فى غير طائل .

هذه القصة تعرض علينا رجلاً تضطهده الآلهة ويدفعه القضاء إلى مصيره ولكن مع ذلك حريص أشد الحرص على أن يبتى كما هو ، فهو يضجى بنور عينيه فى سبيل نور آخر أعظم منه بهاء وأشد إشراقاً وهو نور الحياة . كان يحمل على

رغمه ؤاباً ىئفى عله الحق ؤولكنه لم ىزل مءءة وىلح فى المء ؤهى ىضعه عن نفسه لانه ىبغض الكذب ولا ىعءل بالحق البىن شىئاً. له شءصفة عئفة؁ فهو من أءل ذاك سعىء لانه لىس مءىناً لأءء بسعاءته؁ وهو لا ىترءء فى إعلاء ذاك بل هو لا ىترءء فى أن ىعلن ألواناً من الشعور لا ؤباح للناس إلا فى كئىر من الاؤىاط والاسءءفاء. كان له رأى ؤطىر فى كرامة الإئسان؁ وكان ىرى أن شىئاً لا ىبغى أن ىقف الإئسان الطامء عن النظر إلى بعىء؁ وهو من أءل ذاك لا ىترءء فى أن ىشىء بمعنى الرءولة؁ وهو لا ىعرف غير هذا ؤواباً لكل المسائل الءى ؤثار له من كل ؤه. هذا الإئمان بشءصفة الفرد الءى نلءظه عئء فىلوكئىء نءء رءع صءاء عئء أوءىپوس؁ وهو ىقول « إئ هذا الرءل الوءىء؁ بالءىاس إلى كل منا؁ هى شءصفة هو ». ومن هنا هذه الءرىة الفاءعة الءى ؤبء للءطوب ؤىن ىئىل أن كل شىء من ؤولها ىنهار؁ وأن العالم لا ىظهر إلا عءاء؁ وأن السعاءة لىس إلا سءرىة؁ وهو ىقول : « إئما أضىى بنفسى عن رضا » وىقول مشىراً إلى أبنائہ : « إئما أنرك لهم عن رضا مملكءة لم ىئضعها الفءء ». وإءا كانت الآلهة قءأراءء أن ىكون النور ؤاطناً للأبصار فقد أراد أوءىپوس ؤراً أن ىئطف بصره هذا النور :

فما أشء الشءوب الءى ؤماز به ؤكة ىوكاسئیه وكرىون أمام هذا الإصرار الءى نءءه عئء أوءىپوس ! إئهما ىقوءاننا إلى عالم من الءرءء والءوم والءماس المنافع. وكرىون ىرى أن الءطر أن ىلقت الشعب إلى مقلل لایوس؁ وىوكاسئیه لا ؤرىء أن ىغض من قءر السكاهن أمام الشباب. ولما ذا ؟ لأن من المقرر أن ؤءهل الشعب مشكلاء الملوك؁ ولأن الناس ؤمىفاً ىعرفون أن السكاهن الأعظم ىءبب أن ىءترم. فهما ىكبران كل ما ىءءقره أوءىپوس؁ وهما على أقل ؤقءىر ىعءرفان بءلك. ىقول كرىون لأوءىپوس : « إئك ؤعلم ؤرصى على الشعور بواءبء الأسرة ». وىرءء الملك : « لءء ؤءءء كل شىء ». وىعءرف كرىون بأن الماضى ىقئىءه فلا ىسءطىع ألا ىكون مءافظاً؁ وهو على إءعانه وموافقته للأصول المقررة قاءر على أن ىئءرء من الماآق.

ولىس أوءىپوس ؤرىصاً على أن ىظل كما هو بالءىاس إلى ىوكاسئیه وكرىون وءءهما؁ فهناك ؤرىسءاس وهو أعظم ؤطراً من سائر الناس بالءىاس إلى الءىن ىقءرون الءقالىء والعاءاء والقوائىن المرسومة؁ هو ىئبى عن الإله الحق الءى ىعرف

مسرحدات أندريه جيد

مسرحدات النفوس ، وهو فى الوقت نفسه يدبر حرباً خفية على اوديبوس ، وهو لذلآك يذكرنا بنابال فى قصة شاول، ولكن نابال كان يريد أن يستكشف الملك لينقذه من القلق على حين يريد ترسياس أن يقلق الملك ليستكشف السر . خطبه ألا يطمئن الملك على سعادته الفاجرة وأن يصدع ابتهاجه ويزعزع ثقته .

من هذا الاختلاف بين هذه الأفكار ، وبين هذه العقليات ، وبين هذه العقائد، مضافاً إليها الضرورة المحتومة، تنشأ مأساة أوديبوس التى يتقبلها جيد فى فنه التمثيلى محاطة بهالة من النور مقصورة عليه .

وقد كتب جيد سنة ١٩١٩ : « إن الأسطورة اليونانية أشبه بحجرة فيليمون التى لا تغيض مهما يشرب منها الظامى حين ينادم جوييتير » . ولذلآك استطاع أن يصنع سنة ١٩٣١ أوديبوس جديداً خلقت من ظمئه . ويتول جيد : « إن الأثر الفنى يمتاز بهذه المعجزة ، وهى أنه يدل دائماً على أكثر مما أراد مبدعه ، وهو يتيح دائماً تفسيراً جديداً . » فكل قارئ إذن أن يتلقى فى قصص جيد ما يمنحها القوة ، وأن يفهم ما فيها من الدروس الانسانية فهماً يلائم طاقته ومزاجه الخاص .

ولنقل من الناحية الأدبية الخالصة . إن المحاولات التى يبذلها كثير من أصحاب القصص ليحربوا أنفسهم فى فن غير الفن الذى ألقوه ، فيخرجوا من القصص إلى المسرح ، هذه المحاولات ليست فى حقيقة الأمر الا خلاصة الفن عند جيد . أريد أن التمثيل هو الأساس لأدب جيد . فنحن حين نقرأ كتاباً من كتب بروسست تتخيل حديثاً بين الكاتب وبين نفسه ، تمضى فيه الجمل متتابعة على خط واحد ، فهو ليس فى حاجة إلى من يرد عليه رجم الحديث لأنه يتبع خاطره . أما فن جيد فشئ آخر : يقتضى ثنائية، ويتغذى من كل المناقضات، ويقتضى عالماً لا « تتجاوب فيه الأصوات والعطور » وحدها بل تتجاوب فيه ألوان الشعور ، وضروب الحس ، وفنون الأفكار . فآثار جيد كلها حوار وهى تمثيلية بالمعنى اللغوى لهذه الكلمة؛ لأنها تنشئ شيئاً لآكل الممكنات ، وكل شئ ممكن بالقياس إلى جيد فى حدود الطبيعة .

فليس غريباً أن يكون التمثيل قد قدم إلى جيد صيغة بسيكولوجية عظيمة الخطر موفورة الغناء .

بمودة فرنسيس

رجع الصدى

[كاتبة هذه القصة — وقد أرسلتها خاصة لهذه المجلة ،
هى مارى مكارثى الأدبية الأمريكية المعروفة التى تقيم فى بلدة
ولفليت . وقد اشتهرت بقصتها الطويلة المسماة « أصدقاءها
الذين تماشروهم » ونشرت لها قصص كثيرة فى أمهات المجلات
الأمريكية الأدبية مثل مجلة نيسن وبارتيزان وسنثرى .]

ظننا كل من رآها لأول وهلة فى ردهة المسرح إحدى راعيات الحفلة ،
ربما كانت إحدى الجدات اللاتي يرعين هذه الحفلات ، وإن كانت هيئتها
الزرية بقبعتها الملتصقة غير المتناسقة وأقراطها القديمة الطراز ، وقد وقفت
بلا سترة ، قلقة مرتبكة متصنعة ، مما ينبئ عن حالتها . ففى الداعية إلى الحفلة ،
أو بالأحرى إحدى أولئك النفيعات المستغلات اللاتي يتسترن فى ثوب
المنظمات ، واللاتي تقترن أسماءهن دائماً بأوساط الخير وحفلات الأندية
السنية والمحاضرات وحفلات الشاى العلمية ، وكل الاجتماعات التى لا ترمى
لجرد التسلية .

كان وجودها خروجا على المؤلف فى المسرح فى هذا الصباح المطير من يوم
الاثنين . فى نيويورك فى جوار ميدان التيمس تكون العلاقة بين الإدارة
والعملاء فى المسرح ذات صبغة مهنية صرفة يسلم بها الجميع .
ولذلك أثار تدخلها فى الأمور على الباب دهشة كل أب وطفل ، ودعا إلى
تحويل انتباههم قليلا .

كانت تسأل كل طفل داخل : « ألم نرك من قبل ؟ » فكان الوجه الذى
يستدير إليها فى كل مرة ترسم عليه علائم دهشة وسرور . منذ لحظة كان
الطفل مجرد متفرج آت إلى مسرح سيعبج بالمتفرجين . ولكن هذا السؤال
السخرى كان يرد كل طفل إلى ذاتيته الأدمية فتحمر وجنتاه ، مالم يكن الطفل

جامداً تماماً . وإذ واصلت السيدة أسئلتها سائلة كل طفل عن اسمه ، فإن الحديث كان يتطرق إلى الأب الذي يتسم في دعة ويشاطر لبرهة قصيرة هذه السيدة المجهولة الملهمة القبيحة الشكل ، الشعور بالمعجزة المباركة في إبراز شخصية طفله . وكان الأطفال يجيبون أحياناً على أسئلتها ، ويرددون أسماءهم في صوت خافت وفي احترام ، ولكن في أغلب الأحيان كان الخجل والسرور يعقدان ألسنتهم فيتولى الأب الإجابة عن طفله . وحينئذ تميل السيدة على الأب تغمره هامة : « هذا من أجل صاني » . وهو إيضاح وإن كان لا يبين عن شيء ، فمن يدري ؟ من يكون هذا الصاني مثلاً ، إلا أنه يدل على عدم فطنته ، فقد كان حرياً به أن يستشف القصد النفي لهذا السؤال . وعلى كل فقد كان الأب يداف واجماً مخيباً إلى داخل الصالة الشبيهة بالمعتمة وعلى وجهه بقايا الابتسامة العذبة المحيرة تترجح على ثنايا فمه .

ولا تلبث رؤية أكثر الأماكن خالية — إذ لم يكن هناك جلوس أكثر من عشرين شخصاً — أن تبعث شعوراً من الرثاء للمرأة الواقعة في الخارج . لا بد أن حالة هذه الفرقة كانت أليمة . فلم يكن المطر ولا يوم الاثنين ولا حتى أجر الدخول الباهظ ليفسر أو يبرر قلة عدد الحضور . كان جو الإخفاق يحيم على الحفل كله وتمتد عدواه إلى الحضور فيسرى إلى نفوسهم عبق السقم المالي الجاثم . كان ذلك حتى بدا أصبح الأولاد والآباء وأغنائهم ، وقد جلسوا جماعات متفرقة في الضوء المعتم ، وقد انتشرت حولهم رائحة كرائحة صوف مبلى أو بقايا سجائر بدوا كحطام سفينة تجمع معاً .

كان البؤس صارخاً مجسماً . وأحس بعض الآباء الذين لهم حظ من الحساسية بشعور دافع لأن ينسحبوا وأبناءهم من منزل الموت هذا . ولم يقف أمامهم أولاً سوى صعوبة التنفيذ « كيف يبررون خروجهم ! » ثم هذه الفروسية التي منحناها كعادة نحو الفقراء والتعساء . والفأر إذا لم يغادر السفينة الغارقة فإن ملجأه الوحيد هو أن يربط بمصيره بمصيرها . ومادام الآباء قد تورطوا في هذا المشروع المتداعي فقد أحسوا على الفور بأعراض تضامن ، وأخذوا يقنعون أنفسهم بأن الأشياء ليست حقاً على هذا القدر من سوء . (وعلى كل فالיום مطير ، وهو يوم الاثنين) . وأصبح قدوم أحد جديديبعث في نفوسهم لوناً من الإحساس بالفوز الشخصي . بل أخذوا يستديرون في مقاعدهم ويقابلونهم بنظرات تشجيع ، تماماً

كما يفعل الركاب في سيارة متعثرة حين يميلون إلى الأمام كأنما هم يشجعونها على صعود طريق طويل .

وقطع هذه التمرينات في السحر التي كانوا يمارسونها جميعاً ، وتدل عليها عيونهم المغمضة وأيديهم المنقبضة — قطعها ظهور امرأة أخرى أصغر سناً ، ولكن أقوى شخصية ، وهي أقرب ما تكون إلى مدرسات المدارس العصرية إذا لم تكن منهن . فهي معتادة على إصدار الأوامر في قالب الرجاء . وأخذت تربت على أكتاف بعض الآباء الدهشين قائلة : « هل تتكرمون بالجلوس على الكراسي الجانبية ؟ »

وامتثل بعض الآباء والأمهات لما طلبت على الفور ، وفعلوه في شيء من الاعتذار ، وأبطأ آخرون وأبدوا شيئاً من الضيق لأن ينزلوا عن حق لهم . على حين تجاهل البعض من ذوي النعمة واليسار الطلب وأولوها ظهورهم التي لم تبد حراكاً لتقول لها : « إن هذا شيء لا ينطبق على » .

ولما وضع لها أن أمرها لن يطاع إلا إذا أردفته بمسوح له ، وأن لهجة الأمر التي خاطبتهم بها قد أثارت تحديهم ، هم الذين يشفقون عليها ولكن لن يذعنوا لأوامرها ، مشيت خلال صف طويل خال من المقاعد ثم أمسكت بظهر أحدها في أسلوب المحاضر المتبسط ، وقالت في هدوء مفرط يوحى بأنه هدوء متكلف لا يستدعيه الموقف ، ولكنه نزول منها لتزوير الأغبياء : « إننا نريد أن يتجمع الأطفال في وسط القاعة . إن روايات الدمى هذه مقصود بها الإطفال ونحن نريد أن نعرف أثرها فيهم متجمعين ومتحررين من تأثير الكبار . نريد رد فعل صادق » .

وقد كان في هذا ما مس كلاً منهم حتى أبدهم حساً ، فقد اشعر كل كبير في القاعة أن وجوده غير مرغوب فيه ، وأنه عبء على الحضور ، بل إنه من المخجل حقاً أن يكون كبيراً .

وعلت ضوضاء الانتقال وثقل القبعات والستر والحقائب ، وسقطت من الأمهات لفائف الحلوى على الأرض ، وبكت البنات الصغار ، وأخيراً تم التعديل وفصلت الأغنام عن الخراف .

وأخذ الحضور في نوع من الخبث الاجتماعي ، فكلموا وفد قادم جديد — لاسيما إذا كان أمماً أو جدة — تركوها تستريح إلى مقعد في الوسط قبل أن ينبهوها إلى

وجوب الانتقال ، وساد الجميع هذا الشعور ، وعاودهم ثانية شكهم المطبق في القائمين بالحفلة . ومتجت تقوسهم هذا التحكم في توزيع المقاعد ، فكانوا يغتبطون لهذا الارتباك الذي يقع فيه كل قادم جديد ، وقد تركوا أمر تنبيهه إلى القائمين بالنظام ، وظلوا لا يحركونهم ساكناً كأنما سادهم نوع من حب الشغب السلبي مما يجعلهم يشغفون بمجرد رؤية شغب هم بعيدون عنه . ولقد كان بين هؤلاء الحاضرين غير المكترئين لشيء هذه الأقلية الحتمية في الحفلات من الأنصار المتحمسين الذين يغتبطون للانصياع فوراً وفي زهو لاي أمر . هؤلاء الذين يركعون لكل إشارة أو منع أو تحذير ، والذين يقيمون أنفسهم متطوعين نيابة عن كل شخص ذي صفة رسمية يكون قريباً منهم . هؤلاء الأنصار أخذوا يهززون ويربتون على الأكتاف ويهمسون في الأذان ويشيرون ويبعثون برسائلهم همساً عبر الصفوف الطويلة من الأطفال للبعيدون . وذلك حتى أشعروا كل كبير جالس في غير محله بخروجه عن المألوف لينسحب مرتبكا إلى المقاعد الجانبية .

وما حان وقت رفع الستار حتى كان الكبار جميعاً يحفون بثلاثة من جوانب القاعة التي توسطها جمع من الأطفال لا حاجز أمامهم لتلقى أثر المسرح . وبمجرد هذا التضح علة ما طلبته السيدة الأولى فقد ارتفعت الستائر وريدا عن دمية صغيرة جداً ارتدت ملابس صبي وأخذت تنحني وترقص إفراطاً في الترحيب بالأطفال .

كان هذا صاني وبدأ قائلاً : « هالو ! أصدقائي وصديقاتي .. لقد شرفتم مسرحنا » . قالها في صوت مبجوح كعادة الدمى . ورد طفل جرى لا بد أنه من أبناء أحد الأنصار قائلاً : « هالو ! صاني » . هذا طفل ممن كانوا هناك من قبل ! وقد فعل ما كان ينتظر منه . وردت الدمية صائحة « هالو ! جون . كيف حالك اليوم ؟ » ثم أخذت تنتقل من طفل لآخر مخاطبة كل منهم باسمه الخاص .

ونظر أغلب الأطفال إلى بعضهم في دهشة واستغراب لا يدرون كيف تعرفت الدمية إلى أسمائهم ، ولم يربطوا المقدمات بالأسباب ، فقد نسوا بلا شك السؤال الذي سئلوه وأجابوا عنه في ردهة المسرح .

وما زال عنهم تهيبهم حتى أخذت إجاباتهم للدمية تعلو وتطرد ، واندمجوا

في الحفل وأخذ كل منهم يتسابق في التعرف إليها، ثم سرعان ما ارتفعت الكلفة بينهم وبينها الأمر الذي شجعه صاني مقابلا كل نكته جريئة من طفل بضحكات طالية مصطنعة، وما لبث صاني أن احتوى الأطفال جميعا في جو من الانطلاق . لم يستثن منه إلا أصغرهم سنًا أو أشدهم خجلا .

وسرى بين الآباء شعور بالارتياح وتخلصوا مرتاحين من شكوكهم الأولى : يكفي أن الأطفال قد اندمجوا في روح الحفل . وهذا التآلف بين الممثل وجمهوره الذي فقدناه منذ الروايات الدينية في العصور الوسطى والذي أسف لفقده كل أساتذة الدراما قد استعيد . ماذا يهم لو كانت النكات تافهة غير مستملحة ؟ وماذا يهم إذا كان التمثيل قائما على استغلال سذاجة الأطفال وأن الدمية التي تدعى أنها تعرفهم لا تعرف سوى مجرد أسمائهم ؟

وفيما يتعلق بنظام الجلوس ربما كانت الأمور الطبيعية في العالم الحديث لا بد من أن تمتد إليها يد التنظيم تماما كما في الزراعة أو في الحياة الجنسية . إن التأثير الضاد لم يأت من تلقاء نفسه ، بل كان نتاج سلسلة من المناورات وأسدت الستائر على صاني بين صياح الأطفال : « وداعا » .

وقبل أن يرتفع الستار عن الرواية الرئيسية وهي رواية « الصغيرة ذات القلنسوة الحمراء » بقليل ، إذا بجماعة تحضر متأخرة وتظهر عند مدخل القاعة ، كانوا في مجموعهم نحو ثمانية أو عشرة أطفال تصحبهم معلمة شابة بدا عايتها الحمول . واختار الأطفال مقاعدهم في أول صف بالذات وجلسوا في ببطء ثم أخذوا يتبادلون مقاعدهم مع بعضهم البعض . ولا بد أن المعلمة كانت إما غير مسموعة الكلمة بينهم أو من المتحررات كلية من النظام ؛ إذ لم تبذل أى مجهود حقيقي لتمارس سلطتها في ردهم . وتحركت الستائر فوق المسرح شبه قلقة ، ثم ظهرت يد إنسان ووجه ضخم أضخم مما تعودت الدمي أن تكون ، ثم اختفيا بسرعة . وكان ظهورها هذا مخيفاً للجميع ما عدا أولئك الذين ظهر لينخيفهم وهم التلاميذ الذين في الصف الأول . فقد استمروا في تهريجهم لم يؤثر فيهم حجم الوجه ، فهم لا يعرفون الفروق بين الأحجام . وقد ظهر الوجه واختفى سريعا حتى أن أحدا لم يستطع أن يتبين ما إذا كان وجه رجل أو امرأة وإن كان قد ترك في نفس الجمهور شعورا بأن شخصا ما غاضب ، كأنه إله غير راض .

تساءل الآباء متعجبين :

— أتمكن أن يكون هذا صانى ؟

أخيرا هدأت الجماعة التى تحتل الصف الأول فى مقاعدها وأزيمحت الستائر عن « الصغيرة ذات القلنسوة الحمراء » بسلتها ، وفتح صندوق صغير فى يسار المسرح وخرج منه صانى مجهزا بخطبة تحت الأطفال على مشاهدة « الصغيرة ذات القلنسوة الحمراء » والنظر إليها كأخت لهم . ثم أغلق الصندوق عليه وبدأ التمثيل وامتلأ الأولاد لنصيحة صانى .

كانت الصغيرة تخرج من منزلها وتتبعها من الأطفال التحذيرات والتنبؤات بما سوف يصيبها ! وأخذ الأطفال يصيحون : « احذرى ! لا تتبعى أوامر أمك . كلئ أنت ما فى السلة ! » وبين كل هذه التحذيرات لم يكن هناك أكثر صياحاً ممن كانوا فى الصف الأول . لقد كان هؤلاء الأطفال خير جمهور لصانى وفرقتهم . فكان الأثر الصادق متجسماً لحما ودما . وبينما كان بعض الأطفال يتهايمسون بتعليقاتهم أو يرددون كالبغاء صيحات الأطفال الأكثر جرأة . كان الذين فى الصف الأول أغزر ابتكاراً وتنوعاً حتى لقد بدا متعذراً أن تستمر الرواية بغير أن يلبي الممثلون ما يطلبه الصغار .

صار من الواجب أن تخرج الصغيرة ذات القلنسوة الحمراء عما حفظته من عبارات لتخترع عبارات أخرى على طريقة الروايات الهزلية الإيطالية التى تعرف باسم كوميديا الفن . ولكن الدمى استمرت فى التمثيل محافظة على نص القصة متجاهلة المقاطعات والاقتراحات ، ولذا انقلب الموقف وأصبح الممثلون هم الذين لا يتجاوبون مع الجمهور لا العكس .

وما قارب التمثيل منتصف المنظر الثانى حينما يظهر الذئب حتى كانت القاعة كلها تموج بالانفعال . بعض الأطفال يناصر الذئب ويحثونه على تهيئة غذاء طيب لنفسه ، والآخرى المحافظون لا يزالون على اخلاصهم للفتاة . وبذا انتقل النضال القائم على المسرح إلى ظهور المشاهدين .

وفى نهاية الفصل الثانى خرج صانى مرة أخرى وعادلت جرأة الأطفال هذه المرة حركاته التى كان ينبغى بها تحريك شعورهم ، فكانت الأسئلة الجريئة منهم تقابل بإجابات ماكرة وقد بلغ صانى أقصى مبلغ من نفسه . فمن وقت لآخر كانت نكتة من الجمهور تقضى على توازنه فيرتدى على المسرح وهو يلث ويخرج من فيه آخر

قبرات صوته المتعب وهو يقهقه : « ها ! ها ! ها ! » وعمت الحرية والمساواة بين الحضور إلى حد أن صعود طفل من الصف الأول إلى خشبة المسرح ليتحدث رأساً مع صاني مرةً كأمٍ عادى رقيب الحضور بغير شعور بخروجه على المؤلف ، ولكن الدمية تراجعت إلى الصندوق كلما اقترب منها الولد وأخذ جسمها المصنوع من القماش يهتز ويتعثر في ضيق واضطراب وخوف . ولما مد الولد يده ليلمس الدمية ظهرت بها حيوية لا شك فيها ، وكأنما سرت فيها رعشة فتدافعت إلى الخلف في اتجاه الستائر ولقت نفسها حتى لا تترك ملمساً تمتد إليها منه يد المعتدى . ولكن يده تقدمت وبدأ أن شيئاً لن يصده عن كشف حقيقة الدمية فصرخت صرخة إنسان حقيقى لادمية وصاحت امرأة من خلف الستائر في صوت منزعج « إن صانى لا يحب هذا . » وكأنما نفذت صيححتها العصبية إلى نفس الولد فعدل عن تفكيره ورجع أدراجه ولكنه اصطدم بالسلم فوقع في مكان الموسيقى . واندفع أبواه نحوه وانضمت إليهما المعلمة ، وقد أطلت منزعجة من الحاجز ، ولكن الطفل أخرج سليماً لم يصب بأذى ، وردوه إلى مكانه حيث أجلسوه ثانية . في خلال هذه الضجة كان صانى قد اختفى ، ولحسن الحظ لم يحس باختفائه الأطفال ، فقد شغلوا ساعتئذ بمعرفة الطريقة التى وقع بها زميلهم أكثر من اهتمامهم بالوقوع نفسه ، وأخذوا يسألون أمهاتهم : « ما هو مكان الموسيقى ؟ » وقام البعض منهم قاصداً إليه ليتحقق بنفسه بين صيحات الأمهات : « دعوا هذا الآن ! دعوا هذا الآن ! إن التمثيل سيبدأ حالا ثانية . »

ولكن هل التمثيل سيبدأ حقيقة ؟ لقد عجب الآباء وهم يتبادلون النظرات مع بنينهم ألم يروا بأعينهم الآن إحدى هذه السقطات التى لا قومة منها ولا إصلاح لها تلك التى لا يعالجها الوقت ، أو تداخل أصدقاء أو إقناع أو رجاء .

وكضيوف جالسوا إلى مائدة قامت عنها المضيفة منفعلة . تامل الآباء انتظاراً لشيء يحدث فيبر بقاءهم ، فلا يخرجون عائدِينَ إلى بيوتهم ليواجهوا أمام أنفسهم فشل تدبيراتهم . كانوا على ثقة في قرارة أنفسهم أن لا شيء أمامهم سوى أن يذهبوا ، وأن يذهبوا فوراً قبل أن يحدث حادث آخر ، ولكن التراخى هذا المثبط الأعظم ، أمدهم بالمبررات المعتادة ، فأخذوا يقولون لأنفسهم : « إنهم يطلقون العنان لخيالهم ، وما حدث ليس على أى خطورة ، معاملة مهيئة أتاحت لتأديدها فرصة ليسى السلوك . » وكلما مرت الدقائق ولم تتحرك الستائر انقلب شعور الحاضرين بمحبة ضدهذه

المعلمة، وهمس أب أحد الأطفال إلى إحدى الأمهات الرشيقات وكانت تصحب ابنتها :
« ما أغنى هذه المرأة الحقاء ! » ، وردت المرأة وقد أشرقت أساريرها : « لو
كنت أنا لما أرسلت طفلي إلى مدرسة هي فيها . » وكأنما أحست المعلمة بما يقال
فيها ، فتشبثت بمقعدها وركزت نظرها إلى الأمام متجاهلة الموضوع .
وكان الأطفال في وسط القاعة يقلبون هم الآخرون أوجه الموضوع محاولين
بسذاجتهم تحديد اللوم . وإذ لم يكونوا ذوي بصيرة وخبرة كأبائهم ، فقد علت
وجوههم أسارير غضب .
وقالت فتاة صغيرة : « هل كان هذا ولداً شقياً ؟ » وردت أمها على الفور :
« بالطبع . »

فقال الفتاة « أوه » وإن بقيت نظرتها تائهة غير مستقرة .
وظهر صاني مرحاً كالعادة صائماً : « والآن يا أصدقائي وصديقاتي إن الفصل
الثالث على وشك الابتداء » وما من شك أن الدمية كانت هي .
فقد انحنى وشفقت يديها ورقصت وزعقت زعقاتها المرحية .
كان ما حدث قد مات وانتهى كل شيء ، وغاض مرة ثانية في مرح الطفولة .
على أن الأطفال كانت على وجوههم مسحة من الحذر وأخذوا يلتفتون نحو
آبائهم منتظرين تعاليمهم ، فقد أصبحوا لا يعرفون ما ينبغي عليهم أن يفعلوا .
ولما ظل الأطفال برهة مترددين لوى الآباء وجوههم ليضحكوهم حتى
توزعت نظراتهم بين آبائهم والمسرح الذي وقعت عليه انتسامة منشرة عريضة
تدعوهم لأن يتمتعوا أنفسهم .

وأخذ الأطفال الرقيقو الحس يضحكون وقد يكون هذا الضحك افتعالا ،
ولكن مالبث الآخرون أن انضموا إليهم . وخلال لحظات قلائل كانت الأزيمة
قد فانت وسمت ثانية روح التبسط ورفع الكلفة ، واستمر التمثيل ، ومالبث الأطفال
أن أخذوا يتصايحون ويتعاونون كالذئاب وأخذت الصغيرة ذات القلنسوة الحمراء
ترتجف هلعاً من الخوف . وسرى الارتياح في نفوس الآباء فجلسوا في هدوء وقد
سرههم أن صباحاً آخر قد انقضى بغير أن يقع شيء للأطفال يشغل على عواطفهم .
وانزاح آخر وسواس من نفوسهم حينما أنقذت الصغيرة واتته الرواية
بأمان . وأسدت الستائر ولكن الأطفال لم يتأهبوا للقيام بل ظلوا في مقاعدهم
يصفقون ويهتفون بينما كان آباؤهم يجمعون قبعاتهم ومعاطفهم .

وفي هذه اللحظة التي زال فيها أى خطر وبدا أن كل مخاوفهم كانت ظنونا وربما كانت شذوذاً ، وثب الطفل الصغير نفسه من مقعده وألقى إلى معلمته بسؤال ، فردت عليه بصوت رن في أذن الجميع قائلة : « أى نعم أظن أنك تستطيع الآن أن تذهب إلى كواليس المسرح » واستوقف الجميع شئ في لهجة المعلمة وشعر الآباء الذين أرادوا أن يسحبوا أولادهم ، ووقفوا برهة يراقبون هذه الجماعة التي أخذت تصعد سلام المسرح في شبه موكب — أن الرواية لم تنته وأن لا بد من ترضية من الدمية للطفل ، ولا بد أن يمكك الطفل بالدمية وأن يتصالحا في احتفال خلف المسرح ويرضاء الدمية .

وبعدم اكتراث انتظر الحضور حتى وصل الموكب إلى المسرح ووقف بعض الأطفال المتحفزين يتبعون الموكب بأنظارهم ، وإذ بالستائر تنفرج ، وإذا بالسيدة التي التقى بها الجميع في ردهة المسرح ، وقد تشعث شعرها الأبيض وعلت تقاطيع وجهها ملمات الغضب ، كأنما هي السخط المجسم ، تطل بوجهها هذا من بين الستائر صارخة : « ارجعوا ارجعوا من هنا . . . ارجعوا » ووقفت في طريق الموكب صائحة : « أيها الأطفال الأشقياء الفظائع » . وكان الصوت الصائح مألوفاً ، بالطبع كان صوت صانى . ولقد أخذت تكرر : « أتم أيها الأطفال الفظائع . . . الفظائع » في لثغة ، واستدار الأطفال وجروا وهي تتبعهم حتى سلام المسرح وترتجف في حنق شديد وفي هيئة يتبين فيها الانسان بقايا مضيئة ودمية .

وجاء من خلف الستائر شخص أمسك بها ، وهرب رجل من المقصورة إلى المعلمة يهدئ منها وقد أخذت ، وقد رآته قادماً ، تكرر القول : « هذا ليس أسلوباً تخاطبين به طفلاً » .

ولم ينتظر الحضور ليروا ما سوف يحدث ، بل تسالوا خلال المطر في صمت وخزى ، ولا تزال ترن في آذانهم أصوات بكاء تختلط بكلمة « طفل » كما نطقها المعلمة في رنة وعطف وتجلة ، وقد أخذت تذوب كما تذوب نغمات المرتلين .

من ههنا وههنا

رسالتان عن المعذنين فى الأرض

!

رويت لنا قصة جماعة من الناس يعدون بالملايين فى مصر ، صورتها فى شخص صالح الذى تجسم فيه الشقاء والحرمان ، وهى فى الوقت نفسه قصة الانسانية فى كل العصور ، وعند جميع الأمم .

فالشقاء يصيب الكثرة المطلقة من الشعوب ، والحرمان يلزم سواد الناس ، فلا يظفر بالنعيم إلا خاصتهم ، وما أقلهم .

على أنى أرجو ألا تنسى فريقاً آخر ينتظمهم سلك المعذنين فى الأرض ، وإن كانت حياتهم المادية سهلة ميسرة ، وإن كانوا ينعمون بملذات الحياة ويسعدون بمهجاتها فى ظاهر الأمر ، وهم فى الواقع حقيقون بالرثاء والاشفاق .

فليس المعذبون فى الأرض ، عندى ، هم وحدهم أولئك الذين عاشوا فى البؤس وانفسوا فى حماة ، فهم ينظرون إلى ما فى أيدى الناس وفى أعينهم عبرة وفى قلوبهم حسرة . وليسوا هم أولئك الذين لفظتهم أمهاتهم ونبذهم آباؤهم ، فأصبحوا عالة على المجتمع ، مشردين فى الطرقات ، تتتابهم العلل والأمراض ، حتى استحقوا رحمة الانسانية وعطف المحسنين .

وليسوا أولئك الذين أضناهم الشقاء فضويت أجسامهم وذبلت قسرة شبابهم واقتحمتهم الاعين وتقرزت من منظرهم النفوس .

ليس واحد من هؤلاء وأمثالهم — وإن كانوا يعدون بالملايين — بأشد عذاباً وأكثر بؤساً من جماعة أخرى ، وإن كانت قلة وفى نظر الغير سعيدة .

فليس الحرمان المادى والعذاب الجسمى بأشد أنواع العذاب وأقوى مظاهر الشقاء ؛ فإن شقاء أساسه الحرمان ومادته الحاجة قد يصبح مع الالف عادة ، وكلما طال الأمد بالمحروم ألف الحرمان ونسى بؤسه وغفل عن شقائه .

وغير بعيد منك هؤلاء الأطفال الذين يتسكعون فى الطرقات ، وأولئك الكبار الذين لا يجدون الكفاف ، ومع ذلك قلما شعروا بمحالمهم . . . تجدهم يسرحون ويمرحون ، لا يعبأون بشيء ولا يفكرون فى شيء ، مات حسهم ، وتبدل شعورهم ، بل قد لا نبالغ إن قلنا إن كثيراً منهم قد إنسانيته أو كاد ، فأصبح لا يشعر بنفسه ولا يدرك وجوده كأنسان . إنما الذى يحس وجوده ويأسى لحاله هو ذلك الغير ممن لم تنزع الرحمة من قلبه ، ذلك الذى

من هنا وهناك

يرى أن من حق ذلك المخلوق الشارد أن يعيش إنساناً كما خلقه الله ، يشعر بإنسانيته ويحرص عليها ويدافع عنها ، فلا يفقده المجتمع لبسكه في عداد جنس آخر من المخلوقات .
إنما المعذبون في الأرض — وعذابهم أشد — هم أولئك الذين ابتلوا بالحس المرهف والشعور الدقيق والتلب الرقيق .

هم أولئك الذين منوا بالضمير الحى واليقظة الحادة والالتباه القوى .
هم أولئك الذين يذكرون غيرهم وينسون أنفسهم ، يضحون براحتهم في سبيل إسعاد الآخرين ، يذكرون الواجبات ويسرفون في أدائها ، وينفلون أو يتنافلون عن حقوقهم والمطالبة بها .

هم أولئك الذين يؤرقهم الفكر ، فوم يستعرضون بالليل ما تدموا بالنهار ، يحاسبون أنفسهم على الجليل والحقير ، ويحصون ما ارتكبوا من أخطاء ، ويتجاوزون عما قدموا من حسنات ، فكل همهم تسجيل ما عليهم لا ما كان لهم .
هم أولئك الذين يصادفهم سوء الطالع ، يسعون لاحسان جاهدين فتسبق إليهم الاساءة ، ويحرصون على حسن الصنيع فينكبون بالجحود .

يفرضون على أنفسهم واجبات لم يطلبها منهم أحد ، وقد لا يفكر فيها أحد ، تأسرهم الكلمة الطيبة والمجاملة الرقيقة ، فتصبح ديتاً في أعناقهم تجب المبادرة إلى أدائه والتفانى في سبيله ، وهم لا يهدءون إلا إن ساروا في الشوط إلى نهايته ، لا يبنون من وراء ذلك جزاء ولا شكوراً .

يحملون أنفسهم تبعات قد لا تجرى على خاطر غيرهم ، ولكنهم يعدونها فريضة ، يبررونها طوراً بحق الصداقة ، وآناً بدافع المودة ، وحيناً هى واجب قومى ، فان أعوزتهم الحيلة ، فلا أقل من شعورهم بأن هذا واجب إنسانى !

وهل أسى من الشعور بأنك تؤدى واجباً إنسانياً ؟ ولن تنتظر طبعاً أن تجزيك الانسانية على صنيئك . . . وهل تجسمت الانسانية شخصاً تقتضيه الجزاء ؟

فلست تفكر فى شيء إلا أنك تلبى نداء الضمير وتستجيب لدعاء الواجب .
كل هاتيك الخواطر والصور تمثلتها حين قص على صديق قصته ، وأعطها واحدة من صور مختلفة الأشكال متعددة الألوان ، ينعكس عليها فى آخر الأمر مظهر من مظاهر عذاب النفس وحيرة الضمير .

قال صديق :

« ضمنى وبعض الصاحب مجلس ، فدخل زائر تربطه بالحاضرين صلة الصداقة ، فكان طبيعياً أن يتم التعارف . . . على أنى تذكرت أنا التقينا مرة منذ سنين . . . اتصل الحديث فترة ثم افترقنا على غير موعد أو تفكير فى لقاء . . . فما كانت إلا زيارة عارضة .

« سمعت بعد أيام أن فلانا مبتكف ، وتداعى الصاحب لزيارته . . . أما أنا فاعتذرت ، فليس بيننا من الصلات ما يجيز الزيارة ، ولا يصح أن أدخل بيتاً لا عهد لى بأهله . . . وكان تصرفى سليماً فى رأى .

« ولكنى علمت فى اليوم التالى أن فلاناً هذا مريض ، عند ذاك تنازعتنى عواطف مختلفة واتبائنى شعور غريب ، دفعتنى إلى التفكير والمساءلة : ألا ترى أن الزيارة واجبة وأن المرض يقتضيها ؟ ولكن ! كيف تزور من لم تلقه إلا مرة قريبة وأخرى طواها النسيان ؟

من هنا وهناك

وبأى حق تستبيح السؤال عن لا يعرفك إلا بالاسم ؟ وهل جرى العرف أن يهتم الإنسان من لا يعرفه ؟ ثم على أى نحو تؤول الزيارة ؟ وأى فضول هذا حتى تقتحم عليه عزله ؟ « إذا . . . من الخير ألا أذهب ، فما من سبب يرجح الزيارة بل إن الموانع كثيرة . »
« ولكنى أعود فأقول : هل يليق بك أن تحجم وقد عاده جمع من أصدقائك ؟ أليست تعرفه من زمن بعيد وإن لم تلقه إلا قريباً . . . وإن لم تجالسه إلا مرة أو مرتين ؟ ألم تحمل إليه يوماً رسالة من صديق عزيز أنفذتها إليه من بعيد فكتب إليك ينبئك بوصولها ؟ ألا تعلم أنه يدين لذلك الصديق بالحب والاعجاب ؟ بلى ! »

« لقد اجتمعتما ، إذاً ، على إكبار ذلك الصديق والوفاء له . فهل من رابطة أقوى من هذه وأمتن ؟ »

« كل هذه العوامل جعلت شخص فلان قريباً إلى قلبي ، ماثلاً في خاطري ، أضمر له الصداقة الخالصة وإن لم أعلنه ، وأنظر إليه نظرة الأخوة الصادقة وإن لم أصارحه ، فما كان هذا إلا شعوراً داخلياً لا يتعداني إلى سوى ، فمن الحق إظهاره ، إن لم يكن تصويره نوعاً من الوهم قد تجسم حتى خلته حقيقة . وهل يجوز أن أخلق من الوهم حقيقة ؟ أليست هذه خواطر جالت بذهني وحججا قد أكون امتحنتها لأبرر بها الزيارة ، ولا ظل لها في الواقع ولا صدى في نفس غيري . »

« اختلط على الأمر ، وحررت بين الموانع والدواعي حتى اهتديت إلى حل خلته موقفاً ! »
« وماذا على لو ذهبت فتركت بطاقة؟ ود فعلت ، على أني ما همت بالانصراف حتى دعيت للدخول . »

« كان لقاء كريم واستقبال حسن بددا ما علق بذهني من الآوهام ، وأحسست بالنبذة لاني وقت لاداء واجب دفعتني إليه فطرتي . . . »

« اتصل الحديث بعض الوقت ، ثم استأذنت وكأنيهم لم يكرهوا زيارتي أو يضيئوا بها ، فلقد تفضلوا ودعوني إلى ألا أقصر على واحدة . . . على أني وأنا أتياً للانصراف عرضت عليهم التطوع لقضاء أمر فلم ينكروه ولم يروا مانعاً من إنفاذه ، ولعلني ابتهجت لهذه المواقفة . . . »
« وكذلك عدت في اليوم التالي لاداء ذلك الواجب الذي التزمت . . . ويا ليتني لم أفكر في واجب ولم أسع إلى فعله . . . ولكن الطبع غلاب ! »

« كانت الساعة قد قاربت النانية والنصف حين دخلت ، وقد وجدت من أنس فلان ولطفه ما جعلني أرسل نفسي على نسجيتها وفي غير تكلف أو احتياط ، فتشعب الحديث وتنوعت للموضوعات وتناقشنا واستعرضنا الأشخاص وأبدى كل رأييه في صراحة المطنئين ولا حرج . . . »
« كنت أعرف منه كمال العقل وصفاء الفكر ، إلى خبرة بالحياة وبصر بالأمور . كذلك كنت أعتقد — مبالغه مني في حسن الظن — أنني أتحدث إلى أخ كريم وصديق قديم . فلا بأس من التحلل من المجاملات ! »

« ألهاني الجدل والمناقشة للمنطقية آنا ، والمعتمدة على المناظرة حيناً والاستطراد من موضوع إلى آخر ، عن الوقت ، فلم أذكر أنني نظرت إلى الساعة أو حدثت الزمن ، ولم أتنبه لذلك إلا بعد أن همت بالخروج . . . حين ذاك أدركت أنني أسرفت على القوم فأطلت الجلوس . . . بل عرفت أكثر من هذا . يقيناً — أو ظناً — أنهم لم يتغدوا بعد . . . لقد شاهدت ، وأنا في طريقى إلى السلم ، مائدة مهيأة ! »

« لمن تنتظر إلى تلك الساعة ؟ ولمن تكون إلا لهم ! ازعجتني الملاحظة وكدت أعود لأهتذر ولكن كيف ألقاهم بعد أن أجهدتهم وكلفتهم ذلك العناء ؟ »

« فهل نسيت أنني أعود مريضاً هو أحوج ما يكون إلى الراحة ؟ وأنى في حضرة شيخ مسن يشمه المكث الطويل ؟ أبلغت من سوء التقدير هذا الحد ؟ أينعكس على الغرض ؟ أسمى للقيام بواجب أعتقده فأنتكب عن سبيله ؟ وأهل البيت ؟ أكانوا قد تناهوا في الأدب وحسن الذوق ، فلم يشعروا الغريب بضجر أو ملل ؟ نعم لقد أحس بعد فوات الوقت أنه غريب فقد تبخرت من رأسه كل الفروض والأوهام . . . »

« أكنت من الغفلة بحيث لم ألمح قممات الوجوه ولم أفطن إلى نبرات الصوت فأستشف ما تكنه ضمائرهم أو تخفيه سرائرهم ؟ »

« أهمني ذلك بقية يومى وأرقنى طول ليلى ، فأصبحت ولا هم لى إلا الإصلاح . . . ولم أطلق العودة إلى منزلى قبل أن أعمل على محو ما قد أكون سببته من مشقة ومضايقة ، فان ضيرى قلق وتقى مضطربة . »

« ولكن علام القلق والحيرة ؟ ولم لا تدع ما كان ولا تلقى بالا إلى ما يكون ؟ »
« لا . . . لا بد من الاعتذار فذلك أكرم . . . اتحيت ناحية من مقهى ، وكتبت ما ظننته اعتذاراً وأرسلته ، وبذلك أزحت عنى بعض ما شعرت به من هم ! »
« ثم مرت أيام كانت أطول من سنين تبينت خلالها من شواهد لاحتها من بعيد أن ظنى صدق وأن الأمر فوق ما قدرت . »

« عدت من جديد أستعرض الأحداث كلها . . . ماذا قلت ؟ وفيم تحدثت ؟ ثم ماذا كتبت ؟ »
« لعلى أهتدى من وراء ذلك إلى مأخذ أو أدرك سبباً واضحاً وتعليلاً صحيحاً لهذا التحول للفاجيء ، ولكن أنى لى هذا فقد أعوزتنى الحيلة ؟ »

« دارت برأسى أسئلة كثيرة وتعاقت خواطر مختلفة . »
« أترانى لم أحسن الاعتذار كما أخطأت فى بواعثه ؟ لقد كان من الممكن ألا أخطيء ، وكان ميسوراً ألا أسئء ولكنه الحظ العاثر . . . »

« وما الدافع إلى كل هذا الاهتمام وذلك التفكير ؟ وماذا يعينك من أمر فلان هذا ؟ »
« أيهمك أن يتصل جبل المودة وأن تقوى رابطة الصداقة ، فأنت تشفق من القطيعة ؟ »
« أترجو فلاناً هذا فيهمك رضاه ويؤذيك سخطه ؟ وهل تفكر فى منفعة عاجلة أو آجلة فأنت تخاف أن تقوتك ؟ أم هل تتوقع أن تراه بين آن وآن فأنت تخشى هذا اللقاء ويزعجك أن ينصرف عنك أو يتجههم لك ؟ »

« لست ممن يحرصون على التحدث عن الصداقات والفخر بالتعرف إلى فلان أو فلان . ثم إن مقابلتكما كانت عارضة وبعدها فرقة قد تكون إلى الأبد . . . لقد التقيتما مصادفة وجمعت بينكما ظروف طارئة ، ومن المحقق أنه إذا قدر لقاء فى المستقبل القريب أو البعيد فلن يكون إلا مصادفة أيضاً فلا يجمع بينكما بلد ولا وطن . . . الأقطار متباعدة والأسباب تكاد تكون منقطعة . . . »

« فما هذا الأسى الذى يعتريك ؟ ولم ترهق أعصابك بالتفكير فيما لعله أن يكون بدر منك ؟ »
« فهل أتيت ذنباً ينكر أو شيئاً يعاب ؟ »

« وماذا عليك لو أرحت قفلك وأعفيتك مما يعينها ؟ »

« أليس الأولى بك أن تنسى صفحة ما كادت تنشر حتى طويت ؟
 « ولكن لا . . . ليس ذلك من طبعي ولا هو من عادتي ، فالضمير والخلق يفرضان علي أن أحسن لا أن أسوء . ومن الواجب وقد لقيت إنساناً على خير حال أن افارقه كذلك على الود فلا أرضى لنفسي أن يقترب عنده اسمي بذكريات سيئة لو جرى على لسانه ، و مر بخطأه فكيف السبيل ؟ وما العمل لتنقية الجو من أدرانته ؟ ثم أسدل الستار على هذه النهاية الأليمة ؟
 « فلأشرع في تحسس الجو ، وقد أتيت لي الفرصة . . . على أنني ما كدت أزد الزم حتى لمحت من خلال الأفق حجاً صفيقاً وهدوءاً هو بالعاصفة أشبه ، وتبينت ، من بعض الغلايسات ، أن الأمر إلى فساد ليس بعده صلاح .
 « لم ؟ وكيف ؟ وما السبب في اضطراب الجو وتسممه ؟ لا أدري ! .
 « استعرضت من جديد ما بقي عالقاً بالذاكرة من أحاديثي ، وما يمكن أن يتصور من اتجاهاته أو يحتمل التأويل من عباراته . . .
 « أكانت الأحاديث هي السبب ؟ لقد كانوا إذاً ملائكة . . . فهل بهرني نورهم فعميت من ذلك الضرام المستعر وهذه النار المشتعلة ؟ فلم أر إلا إشراقها وسنا ضوئها !
 « أكانت الرسالة أس البلاء ومصدره ؟ فإذا كتبت ؟ وهل أخطأت التعبير ؟ أم ماذا بين السطور ؟
 « لا أذكر نص الرسالة وإن لم أنس موضوعها . . . فما زادت على أن تكون كلمة اعتذار وشكر .
 « كتبته في ساعة حيرة وقلق ، ولا شك أنني ما أردت إلا الخير فكيف انقلبت الأوضاع ؟
 « لو كنت أفضيت بذات نفسي إلى إنسان لعدت إليه أستوضحه لله يرشدني ويهديني السبيل .
 « ولكن أتني لي هذا ؟ فأنا السائل وأنا المجيب .
 « وهكذا أضناني الفكر فأنا أقضي الأيام أحاول التعليل والتأويل وأراجع الحساب . . . ولا أزال . . .
 « فأى ذنب جنيت وأى درس أفدت ؟
 « لقد مر في نفسي — ولو إلى حين — أن الثقة بالناس وهم باطل وأن الاطمئنان المطلق إلى الأشخاص حق وضلال .
 « كنت أقيس شعور الناس بشعوري ، وأزن الأمور بميزاني الذي نصبه لي العقل أو الهوى ، أمنيح ودي صافياً لمن توسمت فيه نقاء الضمير وصدق الطوية ، وإن لم يطل عهدي بصداقته ، فلم أكن أدخل الزمن في حسابي لتقويم الصداقات أو تقديسها .
 « ولم أكن أعرف النفاق ولا أحبه ، وأثر الصراحة وأخدع بمن يدعيها ، ولكنني كنت أتحمّل نتائجها . وهكذا تراني أخلق لنفسي الهم وأستوى بناره ، فأنا أعيش في جو قائم حافل بصنوف العذاب والالم التي صنعتها أنا ، على سلامة ضميري وصفاء نفسي .
 « لقد أضناني الضمير القلق والنفس الحائرة ، فأنا مع الناس ولست منهم . ولو عرفت ألا أبالي بشيء ولا أهتم للخلق ، لكنت في حياة رغدة وعيش هنيء ، ولكن هكذا قدر أن أكون . »
 هذه قصة الصديق ، يا سيدي الدكتور . أفلا ترى معي أنه واحد من هؤلاء المعذنين

من هنا وهناك

في الأرض ؟ فهو وإن لم يزججه قندان الكسرة والمليت على الطوى ، وإن لم يضنه الحرمان ،
قد قدما هو أعز وأغلى ، إنه قد قد نفسه ولم يهتد إليها ، فهو معذب يشكو يؤس الحياة
الروحية وما أقساه !

أو ليس أمثال هذا أشد يؤسا وشقاء ممن قد قعدوا متعة الجسد وحرموا المنفعة المادية ،
فهم على نعمتهم الظاهرة وسعادتهم الملاحظة في عذاب أليم وشقاء دائم ؟
أليس هؤلاء أحق بالرحمة من سواهم ، لأن لهم « قلوباً تشعر ونفوساً تحس وضماً تر
تستحي ؟ »

لقد تضحك — يا سيدى — من سخفهم ، كما تأملت لغيرهم حين رأيتهم كثرة هائلة .
ولكن هذا الضحك لن ينير من الواقع شيئاً ، ولن يرد عليهم هدوءهم الذى قدوه ،
ولا طأ نيتهم التى يبحثون عنها فلا يظفرون بها .
فهل حدثنا عنهم ؟ وهل عندك الدواء لذلك الداء العياء ؟

عبد النزيه احمد

[بيروت]

٢

لا أجهل أن وقتك ثمين ، وأنه آثم من أن يصرف بعضه في قراءة كلتي هذه التى أبشها
إليك مشنوعة منى بتجلى وإكبارى . لكن حافظاً في قلبى نزع إلى أن أكتب إليك ،
حافظاً ملحاً شديداً أشعر بثقل عبئه على قلبى إن بقى فيه مكبوتاً ولم يخرج من فى الفاظاً تتنفس
بها نفسى وتأخذ روحى بعض راحتها وسلوانها .

أكتب إليك ومجلة « الكاتب المصرى » بين يدي ، هذه المجلة التى آثر لطفك وظرفك
أن تكون مجلة التارىء لا مجلتك ، ليجد فيها كل ما يتلمسه فى دنيا العلم والثقافة من معرفة
ومتعة . هاهى ذى أمامى بعددها الأخير ، أقرأ فيها القصة المخرجة التى دمجها براعك الصناع ،
القصة التى قلت عنها إنها ليست بقصة بل هى حديث سرده . وهل كانت قصص الحياة وعبرها
وآلامها إلا أحاديث يرويها التاريخ بقم الدهر ، وإذ أصيب الدهر من قديم بالحرس والعى
كنتم أنتم يا أدباءه وتوابنه اللسان الناطقة المعبرة عن حب الانسانية وبنفسها وآلامها
وهنائها . هذه القصة التى قدمتها إلى الذين يحرقهم الشوق إلى العدل ، وإلى الذين يؤرقهم
الخوف من العدل . وهل كان هذا الشرق العريض الفسيح إلا أمة انقسمت على نفسها إلى
معكرين كبيرين متنافرين ، هؤلاء ظالمون وأولئك مظلومون ، وما فتىء المظلوم يتحرق إلى
حقه حتى يجد الثوبة على صبر بذله ونفس استنزفها ، وما فتىء الظالم مؤرق الجفن خشية من
نقمة العدل وثورة الموقور . وحديث الشرق والظلم فى الشرق والجهل ووأد الحريات وقتل
القبليات وحكم المحسوبيات وسلطانها حديث أخشى عليك مما يسوقه إليك من حزن وألم
ومرارة وإن كنت أنت أعلم منى بأدوائه ، وأشفق عليه من أهله وأبنائه .

قصبتك هذه يا دكتور قصة الشرق عامة ، وقصتنا نحن العرب المسلمين خاصة ، قصة أخذت
لها من فنك وبنائك ريشة الرسام البارع وليقته فجوت منها صورة شرقية عربية صادقة تصور

من هنا وهناك

للجيل الحاضر وللأجيال المقبلة ما كان عليه الشرق وما هو على بعضه اليوم من ظلم اجتماعي يسوغ وجود الطبقات ويجوز تسخير البشر واسترقاقه ويصور ما فيه من ضحول في الرحمة وجذب في الفضيلة وقسوة تكفي لأن تنسى النني ما يلاقه أخوه النقيير وجاره ذو المتربة . ثم هي تصور ما كان عليه الشرق في قترته المظلمة وما هو على بعضه اليوم من جهل مستحكم ورشوة فاشية وسوء تربية وعقم تعليم زيادة على ما تصوره من سوء فهم للدين وتحريف للشرعة وتسخيرها بحسب الهوى والمصلحة الفردية . فهل قصتك يا سيدي بعد كل هذا الذي تضمنته تبقى قصة صالح وأمين والحاج على وخديجة وسعيد وحدهم ، أم هي قصتي وقصتك وقصة الشرق كله بلا استثناء ؟

إنها حقيقتنا نحن جميعاً ، حقيقتنا التي أنكرتها نفوسنا يوم أخذتها العزة بالآثم ، ولكنك أظهرتها بكامل ما فيها من محاسن وقبائح ، ولو عريت من حسن فضيحتنا ؛ ولو جاءت كلها محاسن لكانت تلقيناً وخيالاً ورد تهمة واقعة ، ولكنها وسط بين هذا وذاك وإن تكن إلى القبح أميل منها إلى الحسن ، وهل أقبح من الظلم وإزهاق الحقوق واستباحة العرف ! وإني إذ أكتب إليك أشعر بشفقة يحس قلبي بدفئها تترتاح لها نفسي ، شفقة تدفعني إلى الرحمة بهؤلاء الساكنين المغذين بالأرض . وعجيب مني أن أشعر بمثل هذا الشعور وأن أحمل هذه العواطف الحزينة والأحاسيس الدامعة ، حتى لكأنني قد لاقيت ما لاقوه وعذبت بما عذبوا . من سقم وعدم وظلم وأنا المنعم ببلهنية الحياة ونعيمها والحمد للرازق المنعم . والطير الطليق في روضه لا يعلم ما يعانيه قيد الأقتاص حبسها ، ولكني وإن كنت أبدت العجب من نفسي ، لن أتبجح فأعد ذلك مني فضيلة أتفخها في الناس دعوى عريضة ما دمت أشعر في نفسي بأني إنسان ذو عاطفة وقلب وضمير . وإذا تملج نفسي بكل هذه الأحاسيس والعواطف وحب الخير ، أود أن ألفت أنظار المصلحين في هذا الشرق إلى نقطة جوهرية هي أننا معاشر الشرقيين لم نزل نحمل في (طينتنا) بقية من خير ، ولم نزل طبائعنا تحمل بعض الميل إلى العدل والانصاف . فلنتهز وجود هذه الخلة ، ولنبارك فينا هذه الفطرة ، ولنعمل مخلصين قاسطين في إنمائها ونشرها والدعوة إليها ؛ فلعلها تكون اللبنة الأولى التي سيبنى عليها عالم الغد حائط عدله الاجتماعي ، ويقم عليها دستور الحرية والعدل والمساواة بين الناس . وإذا بتفضل الأستاذ الكبير فيقبل مني هذه الكلمة الخالصة يكون لي الشرف بأني أرفع إليه عميم امتناني ووافر تقديري وشكري لما أسداه إلى من جيل .

هؤلاء هم

[بغداد]

شهريات

شهرية العلم

ثورة الفيتامينات

ولدت فكرة الفيتامينات مع الحرب العالمية الماضية ، وبدأت ثورتها وسط عالم مضطرب لم تنسه الاطعام والاضطرابات ركن العمل المقدس ، فعكف علماءه على البحث والاستقصاء حتى أخرجوا للعالم هذا الكشف فتحولت إليه الأنظار وتطلع الناس إليه وعرفته الجماهير ، فتحس العلماء والباحثون وأخرجوا للعالم أنواعا جديدة من الفيتامينات زادت من تعلق الجمهور بها ، فصاروا يعالجون بها كل داء وأصبح وجودها في صيدليات المنازل حدثا عاديا . وقبل أن ندخل في التفاصيل المعقدة يحسن أن نرجع القهقري إلى سجلات التاريخ لتفهم معاً كيف جاء هذا الكشف في مجال الانسان الفكري ، وكيف تبلور وتطور حتى اكتمل نموه على النمط الذي نراه في عام ١٩٤٥ ، فنجد تقدمت الصناعة البحرية لدرجة سمحت بالقيام برحلات بحرية طويلة تستغرق الشهور والأعوام فطن الانسان إلى علاقة هذه الرحلات بانتشار داء الاستقربوط — وهو مرض نزفي يتسبب عن نقص الفيتامين ح — ومنذ عام ١٦٠٠ بعد الميلاد استعمل عصير الليمون للوقاية والعلاج من هذا المرض الخطير .

وقد ذكر «لند» في كتاب عن الاستقربوط نشره عام ١٥٧٣ أن مفعول عصير الليمون كعلاج واق أكيد لاشك فيه ، وأن استعمال الخضر المجففة لا يؤدي إلى الغرض ، ولا بد أن تكون الفواكه أو الخضر طازجة لتقي آكلها من هذا الداء الويل . وتباطأ القوم كمادتهم في الأخذ بكل جديد ، فضت أربعون سنة قبل أن تقرر وزارة البحرية البريطانية صرف جناية خاصة من عصير الليمون لبحارة الأسطول ، وكان ذلك في عام ١٧٩٥ ؛ فلم يمض عامان حتى اختفى هذا المرض وانتفى عهده البغيض الذي فتك فيه بيني البشر قسما ذريعا .

وهنا أسطورة أخرى لا تقل طرافة عن هذه ، وهي قصة «البري بري» Beri-beri وهو مرض انتشر بالشرق الأقصى في سرعة مخيفة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، حتى إن أربعين في المئة من موظفي البحرية اليابانية أصيبوا به بين عامي ١٨٧٨ ، ١٨٨٢ . والسبب في هذا الانتشار الفجائي أنه تصادف مع دخول الأوربيين هذه البلاد أن أتوا معهم بالآلات تصقل الأرض وتزيل غلافه ، وكان أهل تلك البلاد يأكلونه قبل ذلك كما هو فيتمتعون بها في غلافه من الفيتامين ب — وهو الذي يقي من هذا المرض . وقد اثبت العالم ايجكان في عام ١٨٩٠ أن اعطاء الدجاج أرزا مقشورا يولد لديها التهابا في الأعصاب شيئا بالذي يحدث في مرض البري بري ، وأمكن شفاؤها بأعطاؤها قشور الارز . ثبت بهذا أن هذه القشور التي تحتقرها لتفاهتها تحوى المادة التي أصبحت الآن موضع اهتمام الخاص والعام والتي يعتبرها الكثيرون إكسير الحياة وأقصد بها الفيتامين ب .

وتطور البحث وتشعب ، وأجريت التجارب على الحيوانات لاكتشاف الحلقة المفقودة .

شهرية العلم

وأخيراً تمكن هوبكنز وبكهارج من أن يعلنا للملأ أن هناك مواد في غذاء الانسان لم تكتشف بعد غير الزلال والسكر والدهن والأملاح ، ولا بد من وجودها لينمو الانسان نمواً طبيعياً . وفي عام ١٩١٢ أطلق فنك على هذه المواد المجهولة اسم الفيتامين . ثم أخذ الكشف يتلو الكشف حتى أدت البحوث إلى اكتشاف ثلاثة فيتامينات هي الحبر الاساسي لهذا الحدث العظيم الذي منح البشر خيراً عظيماً ، وأطلقوا على الفيتامينات الثلاثة ا ، ب ، ح ، ثم ما لبثت هذه أن تفرعت وتشعبت واكتشفت بجانبها فيتامينات أخرى . ولا يكاد يمضي وقت دون أن يظهر في المجلات العلمية بحث جديد عن نوع من الفيتامينات . ولا يمر عام — وخاصة في العشر السنوات الأخيرة — دون أن يهتدى باحث مدقق إلى كشف فيتامين جديد وخاصة مما يمت إلى الفيتامين ب بصفة . وقد اكتشف منه حتى الآن تسعة أنواع . وتطور البحث إلى تحضير هذه الفيتامينات كيميائياً — أى من غير مصادرها الطبيعية — فقلت نفقات العلاج وهبطت أسعار مستحضرات الفيتامينات هبوطاً ملحوظاً في السنين الأخيرة ولنضرب لذلك مثلاً الفيتامين ب ١ ، فمنذ سنوات ثلاث كان يجب أن يستهلك من الحميرة ما قيمته مائتا جنيه لنستخلص ما زنته جرام واحد من الفيتامين ب ١ ، أما الآن فان تكاليف التحضير بالطريقة الكيميائية لا تتعدى العشرين قرشاً للجرام الواحد .

وليس استعمال الفيتامينات مقصوراً على علاج الامراض الصريحة التي تنتج عن نقصها مثل الاسقربوط والبري بري والبلاجرا ولين العظام ، بل إن هناك درجات متفاوتة من هذا النقص لاتصل أعراضها إلى الدرجة التي يحسها المريض أو الطبيب . ولعلى أتمكن في سياق الكلام من تبيان ما يخفى ويغض من هذه الأعراض .

فاذا بدأنا بالفيتامين ا فأول ما نقوله عنه إنه يمت إلى فصيلة الكاروتينودات — نسبة إلى الكاروتين أى الصبغة الموجودة في نبات الجزر ، والتي يمكن أن تتحول في الجسم إلى فيتامين ا . وتوجد هذه المادة بكثرة في اللبن والزبد والبيض والكبد والخضر والجزر ويحتاج الانسان منها إلى ٥٠ وحدة ويمكنه أن يجدها في كوب من اللبن أو بيضة أو خمسة وعشرين جراماً من الزبدة أو في كمية معتدلة من الخضر والجزر . ويجرى تحويل الكاروتين إلى فيتامين ا في خلايا الكبد ، ولذا كانت أمراض الكبد من أهم أسباب نقص هذا الفيتامين . وكذلك مرض البول السكري فان مقدرة الكبد على هذا التحويل تقل كثيراً فترفع نسبة الكاروتين في الدم ويصفر جلد المريض بدرجة ملحوظة .

ويحتاج الجسم لكميات أكبر في حالات الحمل والارضاع والاصابة بأحد الامراض المعدية . وأول علامات نقص هذا الفيتامين هي عدم القدرة على الرؤية في ظلام الليل . وقد شوهدت هذه الظاهرة بكثرة في البلدان المتحاربة حيث أدى نقص جراحة الزبد المقررة للفرد الواحد إلى قلة الفيتامين ا في الغذاء ، وكذلك ساعدت سياسة الاظلام التام على إظهار هذا العيب في كثير من الناس لم يكونوا لينفطنوا إليه في عهد النور والسلام . وكمن طيار وحده نفسه عاجزاً عن مواصلة الطيران في ظلام الليل فاضطر إلى العودة إلى قاعدته دون إتمام المهمة التي كلف بها ، وكانت نتائج العلاج بالفيتامين ا سريعة ووافية بالفرص .

ووجد كذلك أن لهذا الفيتامين علاقة أكيدة بحيوية الأغشية المخاطية في الأجهزة التنفسية والهضمية والبولية . وحتى جفت خلاياها وماتت أصبحت عرضة للعدوى بمختلف الجراثيم لأنها تفقد قدرتها على مقاومة العدو الخارجي . ولهذا السبب تكثر التهابات الرئوية والشمعية

شهرية العلم

والمعوية والبولية . وإذا امتدت الإصابة إلى القرنية (أى سواد العين) فانها تؤثر في قوة الابصار تأثيراً بالئاً .

ويجوى زيت السمك على ٦٠٠ وحدة من الفيتامين ١ في الجرام الواحد وإعطاء ملعقة صغيرة ثلاث مرات في اليوم في الغرض . وقد ابتدعت أثناء الحرب طريقة إعطاء حقنة واحدة في المضل تحوى مائة ألف وحدة من الفيتامين كعلاج سريع للطيارين الذين يفقدون قدرتهم على الابصار في الليل . وقد استعمل الفيتامين ١ أخيراً كعلاج لضغط الدم وتصلب الشرايين . ويعطون منه كميات كبيرة تبلغ حوالى ثلاثمائة مليون وحدة في اليوم الواحد لمدة أسابيع أو شهور حتى يحدث التأثير المطلوب ، وعندها يقلل عدد الوحدات إلى خمسة وعشرين ألفاً أو مائة ألف وحدة في اليوم حسب الحالة . ويمكن وقف العلاج تدريجياً دون خوف من رجوع الأعراض . وقد أجريت التجارب على مائة مريض فتحسن الضغط تحسناً واضحاً في خمس وعشرين حالة ، وكان التحسن جزئياً في خمسين حالة ، ومعدوماً في الخمس والعشرين للباقية .

وبدأت الباء بسيطة خالية من المظاهر لا يؤنسها في وحدتها إلا تقطعها التقليدية الرابضة في مكائها السفلى المتواضع . وقنعنا نحن الأطباء بوجود ساحر قد ير اسمه الفيتامين ب يشفي مرضاً خطيراً اسمه البرى برى ، من أهم أعراضه شلل الأعصاب وارتشاح عام في الجسم . ثم مرت الأعوام وتشعبت الباء العتيدة وأصبح الجذع شجرة عديدة أغصانها ، إذ بلغت حتى اليوم تسعة لا يزال معظمها في دور التجربة . وأشهر هذه المجموعة ثلاثة : التيامين أو فيتامين ب ١ والريوفلافين وحمض النيكوتيك وهما عضوان من أسرة الفيتامين ب ٢ التي تضم أيضاً عضوين مازالا في سيل النضج وهما فيتامين ب ٦ وحمض الباتوتنك . أما الفيتامين ب ١ أو التيامين أو الفيتامين المضاد لالتهاب الأعصاب فيحتاج الجسم منه إلى ما مقداره اثنان من المليجرامات في اليوم . وفي حالة نقص هذا الفيتامين لا يتيسر لخلايا الجسم تمثيل المواد السكرية والاستفادة منها فيتأثر القلب وتتهب الأعصاب بدرجات متفاوتة حسب درجة النقص . وقد شاع استعمال هذا الفيتامين في الأمراض العصبية دون تمييز ولا روية . والواقع أن فائدته مقصورة على علاج التهاب الأعصاب الناتج عن نقص غذائي أو تأثير الكحول أو مرض البول السكري ، وقد يفيد أيضاً في حالات الارتشاح التي لا تكون مصحوبة بهبوط القلب أو التهاب الكليتين . وغنى عن القول أن تضخم القلب والارتشاح العام اللذين يصحبان مرض البرى برى يختلفان بسرعة تحت تأثير مفعول الفيتامين ب ١ . ومن المعلوم أن فقدان الشهية من علامات نقص هذا الفيتامين ، ولذا جرت العادة أن يصفه الطبيب في هذه الحالات .

ويوجد الفيتامين ب ١ بكثرة في خيرة البيرة والخبز الأسمر والبقول والكبد والبيض ، ولكن نسبته في اللبن ضئيلة .

أما حمض النيكوتيك Nicotinic acid فقد ثبتت فائدته كعلاج لمرض البلاجرا منذ عام ١٩٣٧ . ويلاحظ تحسن حالة الجلد والتهاب الفم بعد أيام قلائل من تعاطي الدواء ، أما الأعراض العصبية فقد تستغرق أسبوعين قبل أن يلاحظ عليها أى تحسن . ولهذا العلاج تأثير السحر في اختفاء أعراض هذا المرض الذي حير العلماء سنين طويلة . وقد أدت تجربته في مصر إلى نتائج باهرة ، يكفي إعطاء المريض ٥٠٠ وحدة في اليوم لتختفي الأعراض تماماً ، ثم

شهرية العلم

يقلل عدد الوحدات تدريجياً . وقد استعمل هذا الفيتامين أخيراً في علاج التهابات الفم الحادة عند ما شوهد تأثيره السحري في التهاب الفم الذي يصحب البلاجرا . وكذلك جرب استعماله في علاج تصلب شرايين المخ والقلب وما يصحبهما من أعراض ؛ لأن حمض النيكوتينك من طبيعته إحداث تمدد في الأوعية الدموية يساعد على تنشيط الدورة الدموية في المخ والقلب فتتحسن الأعراض .

أما الريوفلائين فإنه يوجد في الحنيرة والابن والبيض ، وقد أمكن تحضيره صناعياً في عام ١٩٣٥ ومن علامات نقص هذا الفيتامين ظهور التهاب حول الأنف والفم يصحبه تشقق يبدأ في الشفتين ، ثم لا يلبث أن يمتد إلى الجلد وتحمر الشفتان بشكل واضح ، وفي بعض الحالات تلتهب القرنية فيضعف البصر وتشتد الحساسية للضوء . وتختفي كل هذه الأعراض بسرعة إذا تعاطى المريض من خمسة إلى خمسة عشر مليجرامات من الريوفلائين يومياً . وقد سبق القول أن نقص الفيتامين أ يؤدي إلى ضعف الابصار في الليل ، أما مع نقص الريوفلائين فإن المريض يفقد قوة الابصار عند الفسق أي في الفترة التي تفضي بين غروب الشمس وسواد الليل .

أما حمض البانتوثيك فقد أمكن تحضيره صناعياً في عام ١٩٤٠ . ويوجد بكثرة في نفس المواد الغذائية التي توجد فيها بقية أفراد أسرة الفيتامين ب ٢ — وخاصة في خميرة البيرة . ويحاولون في الوقت الحاضر إيجاد صلة وثيقة بينه وبين الصلع وسقوط الشعر والشيب المبكر . وقد أجريت بحوث عدة وخاصة في صدد الشيب حتى إنهم أصبحوا يطلقون عليه الآن اسم الفيتامين المضاد للشيب .

وقد تبدو أسماء أعضاء أسرة الفيتامين ب معقدة نوعاً ما ، ولكننا إذا أمسكنا بزجاجة لأحد مستحضراته وجدنا هذه الأسماء جميعاً مكتوبة في شكل مسائل جميل يساعدنا على تذكرها وخاصة أن لكل منها فوائد خاصة به تفضي عليه شخصية مستقلة .

ولنتقل بعد هذا إلى الفيتامين ح ويسمونه أيضاً حمض الاسكوربيك ، وقد حضر صناعياً في سنة ١٩٣٣ ، ومنذ ذلك الحين رخص ثمنه وأصبح في متناول الجميع يستفيدون من مزاياه الكثيرة . وهو موجود بكثرة في البرتقال والليمون والجريب فروت والطماطم والكرنب . وهو حساس جداً لا يتحمل عملية الطبخ والتخزين . فإذا غلبنا الكرنب في وعاء مكشوف كان هذا كافياً لازالة عنصر الفيتامين ح منه . ويلزم الفرد منه مالا يتل عن خمسين مليجراماً في اليوم . ويحوى عصير البرتقال الطازج خمسين مليجراماً في كل مائة جرام ، ويوجد في مستحضرات حمض الاسكوربيك ما ينفي عن عصير الفاكهة إذا لم يكن متيسراً ، فيعطى من الأقراص ما يعادل مائة إلى مائتي مليجرام في اليوم على هيئة أقراص صغيرة سهلة الابتلاع ، أو الاذابة في الماء . ومما لا شك فيه أن نقص الفيتامين ح يقل من مناعة الشخص ضد الأمراض ، ويعوق سرعة التئام الجروح والكسور ، ولكن لم يثبت حتى الآن أنه يزيد هذه المناعة في الشخص الذي يتناول غذاء صحياً يحوى جميع العناصر اللازمة . ولا يمنم هذا من إعطائه في مختلف الأمراض كالحميات وأمراض الصدر ؛ إذ يؤدي تحديد الغذاء إلى نقص نسي في الفيتامينات . كذلك لا بأس من إعطائه في حالات الحمل والرضاعة .

أما الفيتامين د فقد اكتشف منه حتى الآن أحد عشر نوعاً ، ولكن اثنان منها فقط لها قيمة عملية وهما : الفيتامين د ٢ ، والفيتامين د ٣ . وأولهما من أصل نباتي ، ويوجد في

شهرية العلم

الحميرة والطحالب المائية على هيئة أرجوسترول ، ولا بد من تعريضه للأشعة فوق البنفسجية ليتحول إلى فيتامين د فعال يمكنه وقاية الطفل من الكساح . أما ثانيهما ، أى الفيتامين د ٣ ، فمن أصل حيوانى ، ويوجد فى زيت السمك وصفار البيض واللبن والزبد . ويحتوى البيض الواحدة على أربعين وحدة ، ويحتوى نصف اللتر من اللبن على عشرين . ويحتاج الطفل فى اليوم الواحد إلى أربعين وحدة ، والشخص البالغ إلى خمسين . وهو يوجد أيضاً فى الطبقة الدهنية تحت جلد الإنسان على هيئة أرجوسترول لا يصبح فعالاً إلا بتعريض الجسم لأشعة الشمس ، وهذا من أهم المصادر التى يستمد منها الجسم حاجته من الفيتامين د . ويساعد الفيتامين د على امتصاص أملاح الجير من الأمعاء وترسيبها فى العظام والأسنان . ونقطة الضعف الأساسية فى لبن العظام هى عدم قدرة الطفل على ترسيب أملاح الجير فى عظامه ، فتكون النتيجة عظماً بلا جير لا تلبث أن تلتوى تحت ثقل الجسم محدثة تشوهات ظاهرة وقد تتكرر فى أكثر من موضع . فإذا أعطينا الطفل أحد مستحضرات الفيتامين د كزيت السمك مثلاً ترسبت أملاح الجير وعادت للعظام صلابتها . وإنى أشبه الطفل الكساح دائماً بطفل غارق فى بركة مركزة بأملاح الجير وهو عاجز عن الارتشاف من المنهل العذب حتى تقدم له الفيتامين د وهو بمثابة الدلو الذى يغترف به ليملاً الكؤوس الفارغة فى أطراف عظامه . وفى حالات لبن العظام يكفى إعطاء ملعقة صغيرة من زيت السمك ثلاث مرات يومياً لمدة شهرين على الأقل ، وخمس نقط من مستحضراته المركزة مثل : الفيجاتول والفيوسترول والكالسفيرول ، ثلاث مرات يومياً . ويبدأ التحسن ، كما يبدو من صورة الأشعة وارتفاع مستوى الجير والفسفور فى الدم ، حوالى اليوم الثانى عشر من بدء العلاج ويتم العلاج من ستة إلى ثمانية أسابيع . وقد ابتدعت أخيراً طريقة لعلاج لبن العظام بإعطاء جرعة واحدة مركزة من الفيتامين د مقدارها ٦٠٠ ألف وحدة تعطى دفعة واحدة فى العضل أو عن طريق الفم ، وهذه نعمة كبرى على الأم والطفل ، فهى تغنيهما عن قيام معركة الدواء بضع مرات فى اليوم لبضعة أسابيع أو شهور . وقد أثبت الفحص بالأشعة السينية أن ترسيب أملاح الجير فى العظام يبدأ من الأسبوع الثانى ويتم الشفاء فى ستة أسابيع بعد تناول الجرعة . ثم يأتى بعد هذا أفراد من أسرة الفيتامينات فى طريقها إلى الظهور ، مثل الفيتامين هـ وهو الذى ينسبون إليه علاقة هامة بالعقم والاجهاض ويعطونه بنجاح للحوامل اللاتى اعتدن الاجهاض أو الولادة قبل الأوان . وهناك نوع أخير وهو الفيتامين ك أو الفيتامين المضاد للتلف ، ويعطى بنجاح كبير فى زف الطفل حديث الولادة والتلف الذى يصحب حالات احتباس الصفرة « اليرقان » وأمراض الكبد عامة . وذلك لأن لهذا الفيتامين علاقة بمادة البروترومين التى تصنع فى خلايا الكبد والتى لها علاقة بكثافة الدم ، فإذا نقص هذا الفيتامين من مستواه الطبيعى حدثت أنزفة مختلفة الشدة من الجلد والأغشية المخاطية كالانف والفم والأمعاء والرئتين . والويل للمريض إذا كان التلف فى مكان دقيق كالخ مثلاً . وهناك أنواع أخرى قد يبدو تفهما عندما يحين الألوان ، فلنتركها فى عهدة مبدأ البقاء للأصلح حتى تثبت كفايتها وتجتاز اختبار الزمان .

دكتور مصطفى البروانى

شهرية السياسة الدولية

سجل الشهر المنتقضى في كتاب السياسة الدولية بعض الحوادث الجسام : فقد حلت خلاله عصبة الأمم ، وعقدت دورة من دورات مجلس الأمن العالمي لهيئة الأمم المتحدة تميزت بمضاعفات لم يسبق لها مثيل ، وأعلنت معاهدة شرق الأردن مع بريطانيا العظمى ، وتم جلاء الجنود الأجنبية عن الأراضي السورية ، وبدأت المفاوضات في القاهرة قصد « إعادة النظر » في المعاهدة المصرية الانجليزية .

حل عصبة الأمم

وقد أعلن حل عصبة الأمم في الساعة الرابعة والدقيقة الثالثة والأربعين بعد ظهر الخميس الثامن عشر من أبريل لسنة ١٩٤٦ بمقرها القديم في جنيف ، مشبعة من ممثلي دولها تشييعا جليلا ذكر فيه الذاكرون فضائلها ، وقرروا ما كان في إمكانها عمله في سبيل الحيلولة دون وقوع الحرب الأخيرة لو أن الحكومات المشتركة فيها أظهرت ولاءها للعصبة ومبادئها ، تخففوا بهذا العرفان من قسوة الحملة التي كانت قد وجهت إليها ، دون مبرر ، خلال الخطاب التي ألقيت في الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة مناسبة افتتاح دورتها الأولى بلندن في العاشر من شهر يناير للماضي .

والحق أن العصبة كمنشأة دولية قد أدت لحكومات العالم ولشعوبه ما لا يستطيع منصف أن ينكره من الخدم ، خلال مكتب العمل ومختلف لجانها الاقتصادية والصحية والاجتماعية . وفي اجتماعات العصبة بل بين أضياف وزارات الخارجية في العالم . وفي مجموعات الاتفاقيات ما يدل دلالة واضحة قاطعة على مدى النشاط الذي بدأ من العصبة في سبيل التنظيم العالمي . أما ما أصاب العصبة في الميدان السياسي البحث من إخفاق فائما يرجع إلى ذنبه الحكومات وضعفها وجبنها أو رباؤها وخداعها دون دخل مباشر لأداة العمل والتوجيه في جنيف .

وقد كانت دورة العصبة الأخيرة — وهي الدورة الحادية والعشرون — دورة تصفية وتحويل إلى هيئة الأمم المتحدة الجديدة . وكان بين ما انتقل إلى هذه الهيئة من مخلفات اختصاص الاشراف على إدارة الدول صاحبات الانتداب . ولم يكن مستطاعا إبقاء هذا الاختصاص والعصبة ذاتها يعلن حلها ، ولا السكوت عنه وهيئة الوصاية التي ينص عليها ميثاق الأمم المتحدة لم تؤلف بعد . فتقرر إبقاء الانتداب بأيدي الدول المنتدبة دون إشراف عليها من هيئة معينة حتى توجد هيئة الوصاية الجديدة فينتقل إليها الاشراف الموقوف .

وقد كان لندوب مصر في هذا الصدد موقف ؛ إذ امتنع عن التصويت على آخر قرار أصدرته العصبة وقد شاءت أن تعبر به عن رضاها عن الطريقة التي قامت بها الدول المنتدبة بالعمل للموكل إليها ، فأراد هو أن يلاحظ أن ذلك لم يكن الشأن فيما يختص بفلسطين وقد وقتت بها الهيئة عند نظام الانتداب حتى الآن في حين قد تمتشت الأجزاء العثمانية المنفصلة

الأخرى — ، تسلطن، لا تقل عنها حالا — إلى الاستتلال الذي حظيت به العراق وسوريا ولبنان وشرق الاردن .

مطاية ابراهه

وإنها حقاً لحكاية ! خلاف قام بين الحكومتين الايرانية والسوفيتية ، أخذ الطرفان في معالجته بالوسائل الدبلوماسية ، ثم أذيع في دهايز الأمم المتحدة في لندن أنه سيعرض على مجلس الأمن لمعالجته . ثم ساد الجو شيء من التردد ، ثم خرج الوفد الايراني من ترده ورفع الأمر إلى الهيئة . وما إن تم هذا الاجراء حتى سقطت الحكومة في طهران وبعثت الحكومة الجديدة للوفد الايراني في لندن بعدم إيمان السير لدى مجلس الأمن وبالاتجاه شطر التفاهم مع الوفد السوفيتي على إجراءات استمرار المفاوضات الثنائية بين الدولتين . وجرى العمل على هذا للنوال ولاح في الأفق بادرة من بوادر خيبة الأمل عند الانجلوسكسونيين . ثم جاءت الدورة الثانية وقيل إن المجلس سينظر في الخلاف ، وطلب مندوب الاتحاد السوفيتي إرجاء النظر إلى اليوم العاشر من شهر أبريل ؛ إذ يحسب اتفاقاً سيعقد بين الطرفين قبل هذا التاريخ فيوفر على المجلس عناءه . لكن المجلس لم يقبل العرض ، فانسحب المندوب السوفيتي ولم يتمكن المجلس من إصدار قرار في الخلاف . وقبل أن يجيء اليوم العاشر من ابريل أعلنت طهران وأعلنت موسكو أحكام اتفاق تم بينهما ، ومن أهم موضوعاته تأسيس شركة روسية إيرانية لاستخراج البترول في إحدى المناطق الايرانية الشمالية . وأعلنت روسيا أنها ستجلو عن كل ما تحتله من إيران قبل اليوم السادس من شهر مايو وطلب مندوبها عدم النظر في الخلاف الروسي الايراني لأنه قد سوى بما عقد بين الطرفين من اتفاق جديد . لكن المجلس أصر على إبقاء الخلاف في جدول الأعمال . وتقدم المندوب الايراني الأول الذي كان المجلس قد استمع إليه طويلاً حين كان يدلي بمؤاخذات إيران للاتحاد السوفيتي ، تقدم هو ذاته بطلب سحب الشكوى الايرانية من حظيرة مجلس الأمن لأن إيران واثقة الثقة كلها من احترام روسيا لوعدها الخاص بتأم الجلاء في الموعد الذي ضربته . لكن المجلس يأبى إلا أن تكون أمامه شكوى ويريد أن يحتفظ بالأمر حتى يتم الجلاء فعلاً ، وحتى تطلعه الحكومتان على تفصيل ما تم بينهما من اتفاق ، وهو الاتفاق على البترول . . . وهو بيت القصيد !

فرانكو

وأمام المجلس مشكلة مستعصية أخرى . وهي مشكلة فرانكو وما يفرضه على أسبانيا من نظام فاشي . وقد ضجت فرنسا — وهي جارة لأسبانيا — وناجت بريطانيا العظمى والولايات المتحدة حتى تقطعا علاقاتهما بأسبانيا الفاشية ، قتلكتاً . أما روسيا فقاطعة علاقاتها من قبل الحرب العالمية الثانية . قلباً ضاق صدر فرنسا طلبت إلى الحليفتين الانجلوسكسونيتين أن يرضا معها الأمر إلى هيئة الأمم المتحدة . فالتا إلى القول بعدم اختصاص هذه الهيئة ؛ لأن نظام فرانكو الداخلي لا يهدد السلم العالمي بمخطر . فجاءت بولونيا — وهي واحدة من أعضاء مجلس الأمن — تعلن أن لديها من الأدلة ما يقطع بأن الجنرال فرانكو يؤوى في

شهرية السياسة الدولية

أسبانيا جماعة من العلماء الألمان ويهيء لهم أسباب العمل في سبيل القنبلة الذرية ، فأسمع هذا الدوي الولايات المتحدة وأمالها بعض الشيء إلى ضرورة النظر في أمر هذا الخطر . وعقد المجلس جلسته وتقدمت بولونيا بطلبها . وبدأت المناقشات في الاجراءات : هل يعرض الأمر أو لا يعرض ؟ ووضح موقف الاتحاد السوفيتي وفرنسا والمكسيك وهو موقف تأييد لبولونيا ، ووضح موقف الولايات المتحدة وبريتانيا العظمى وهولندا والبرازيل مؤيدة لرفض الطلب البولوني ، وقيل إن الصين قد تميل مع الأولين وإن استراليا قد تميل مع الآخرين ، وإذن فيكون صوت مصر الذي لم يبد ولن يبدى إلا آخر الأمر لاحتلال صاحبه منصب الرئاسة في هذه الدورة هو المرجح بين الاتجاهين .

ومهما يكن من أمر ما سيكون من قرار مجلس الأمن بخصوص الموقف من الاتفاق الروسي الإيراني وبخصوص الموقف من الخلاف البولوني الأسباني ، فإن الواضح أن المواقف كلها تخفى وراءها نزاعاً كامناً بين السلافيين والانجلوسكسونيين . وهما الكتلتان اللتان تقسمان النفوذ الآن في العالم .

معاهدة شرق الأردن

كان مستر بيتن وزير الخارجية البريطانية قد أعلن حين عرض لسياسة دولته بشأن الانتداب في خطابه الافتتاحي بهيئة الأمم المتحدة أن شرق الأردن سيحظى قريباً بسيادته واستقلاله . وقد أعلن خلال الشهر المنقضى نبأ معاهدة عقدت بين الأمير عبد الله والحكومة الانجليزية ونبأ ملاحق لهذه المعاهدة بخاصة .

وقد أعلن في المعاهدة مبدأ استقلال شرق الأردن وسيادته ، ومبدأ تحالف عسكري يقوم بين الدولة المستقلة الجديدة وبريتانيا العظمى العتيقة . وتنطق نصوص التحالف وأحكام الملحقات بأنها تجعل من شرق الأردن مستودعاً للقوات البريطانية وللأسلحة البريطانية في الشرق الأوسط . والمقول أن الحركة البريطانية منطوية على استخلاص شرق الأردن من مشاكل الانتداب والوصاية المعقدة بإعلانه مستقلاً عن فلسطين حتى يخلو الجو دون مراقبة أحد ودون مساهمة شريك . وقد قوبلت المعاهدة الأردنية بشيء من الوجوم في البلاد العربية وبصرح الاحتجاج من الحكومة اللبنانية التي طالبت جامعة الدول العربية بمشاركتها في هذا الاحتجاج .

الجنود عمره سوريا

وتم جلاء الجنود الأجنبية عن سوريا دون أن تكون مقيدة بأحكام انتداب أو وصاية أو معاهدة ودون أن تكون خاضعة لغير التزامات ميثاق هيئة الأمم المتحدة ، فخطيت بالاستقلال الصحيح والسيادة غير المشوبة ، فنالت ما تستحقه رجولتها وتستأهلها حكمة قادتها وقد عرفوا أن يصعدوا للمغريات وعرفوا أن يفيدوا من تقابل التيارات الدولية وتلاطم أمواجها ، فحاضوا لجحها ولم يتهيبوا أن يصيبهم منها بلل . واستطاعوا باقدامهم وحسكتهم أن يجعلوا المسألة السورية من المسائل التي كانت موضع بحث اجتماع الأقطاب في بوتسدام .

المفاوضات في مصر

وقد وصلت هيئة المفاوضات البريطانية — ما عدا رئيسها مستر بيثن وزير الخارجية — إلى مصر قصد التفاوض مع الحكومة المصرية في سبيل إعادة النظر في المعاهدة المصرية الانجليزية للمعقودة بين الطرفين في سنة ١٩٣٦ .
وتؤثر ألا نسبق الحوادث فتستبق التعليق على هذه المفاوضات إلى الشهرية المقبلة .

محمد عزمى

شهرية الفن

الصالون السادس والعشرون للقاهرة

يجدر بي أن أبادر فأقول إن الذى يزور الصالون السادس والعشرين للقاهرة سيخيب أملة إن كان قد ذهب إليه وفي نفسه أمل كبير أو حتى مجرد استعداد حسن . وإذا استثنينا بعض الآثار النادرة جداً فإن البقية في مجموعها رديئة رداءة مؤلة . فلام ترجع هذه الرداءة؟ أليس في مصر فنانون مجيدون؟ بلى ! فإن ذلك يبدو في وضوح في الآثار القليلة التي أشير إليها فيما بعد ، وفي المعارض الفردية ، وفنانو هذه المعارض الأخيرة لم يمثلوا جميعا في الصالون . فهل كان هذا الاغفال من قبلهم أو من قبل لجنة الاختيار؟ وإذا أفكر في المصورين الذين لم تعرض لهم آثار يتجه ذهني إلى أحمد صبرى ، وبديع مارتان ، ولوسين إبرون ، وحامد عبد الله . ثم لماذا لم يمثل عبد القادر رزق بين المثاليين المعارضين في الصالون؟ وهذا الأمر من دواعي الأسف الشديد ، سواء أكان ذلك بالقياس إلى الجمهور الذى لا يتاح له الاطلاع اطلاقاً تماماً — في حدود المستطاع — على حالة الفن في مصر ، أم بالقياس إلى الفنانين أنفسهم . فانه (وأنا خجلى من تكرار مثل هذا الفكرة الدارجة) إذا كان من المرغوب فيه أن يأوى الفنان إلى العزلة لمصلحة فنه ، فإن نتيجة هذه العزلة ينبغى على العكس من ذلك أن تعرض على ذوق الجمهور الذى يختلف درجة ثقافته الفنية زيادة أو نقصاناً ، وقد تكون ، مع الأسف ، أقرب إلى النقصان . وإذا كان للجنة أن تختار بين الآثار فيجب على الأقل أن يكون هناك مجال للاختيار .

والآن لنصل إلى الآثار المعروضة . والرداءة البادية ترجع فيما يخيل إلى عوامل متعددة ، ولأبدر بذكر أقبح هذه العوامل حتى أخلص منه ، وهو الادعاء ، هذا العيب المحبب إلى كثير من سكان بلادنا الشرقية ، والذى يزين لكل واحد مقدرة فائقة في نفسه . هذا إلى أنه كثيراً ما تخلو الآثار من فكرة ، أعنى بذلك أنه يجب أن يكون وراء كل أثر شيء من الالهام والحب اللذين يدفعانه إلى أن يولد ، ثم إلى الصناعة العلمية الفنية التي تسبح

شهرة الفن

له بأن يوجد ، وعلى النكرة التي تجعله مجي . أما في معظم الآثار المعروضة فإن وجدت صناعة فنية فليس فيها إلهام أو روح ، وإذا وجد الروح . . . وأظن أنك قد فهمت عنى ما أريد . ثم إن بعض هذه الآثار لا تشتمل على واحد من هذه الحصال الأربع . فما الداعي إذن إلى التصوير والحفر ؟ وما الذى يدعو إلى أن تمس الفن أيد لا تدين له بالاجلال ؟ ثم لماذا تفرض على الجمهور هذه المناظر الرديئة الكريهة ؟ وإذا كانت هناك بيئة ينبغي أن تقضى عنها الرذالة فهي بلا شك بيئة الفن أكثر من سواها .

وهذه بعض الانطباعات الشخصية البحتة عن تلك الآثار ، عرضتها متبعة ترميم الفهرس :
أبدأ برسمين لعبد العزيز درويش ، وهما « طاحنة الحبوب » و « منظر » (رقم ٤ و ٥) وهو عمل واضح مضى يبدو فيه الاجتهاد ، كما ينبعث من هذه الخطوط شعور بتنفس هادئ وجهد في غير عناء وصناعة متقنة . ومن دواعي الابتهاج أن تلقى أخيراً منظرأ مصرياً لا تصدم فيه الألوان العنيفة التي كثيراً ما تنسب إلى جونا وإلى ضوءه الناصع ، وهو في لوحة الآنسة چاكلين جيناند « غاصفة على بولاق » تنبث منها عذوبة مجعدة . ولوحة مسيو جوليان « الميناء » غاية في النقاء وفي التوازن ، وهي بدقتها الجميلة الواضحة تستوقف الزائر أمام الأحجام اللينة الرصينة التي تبدو على سفنه ، تلك السفن التي يشعر الانسان مع ذلك بأنها تكاد تنشط . و « المنظر اللباني » الذي تعرضه تحية وهبه يعيد إلينا ذكريات حلوة للعطلات الصيفية التي قضيناها في لبنان . ولكن فيها شيئاً من الضعف ، فهي ابقسامة هاقئة تريد التعبير عن الضحكة العريضة المزدهرة للأرض الحمراء بين أشجار الصنوبر السوداء . وواضح أن رسوم السيدة سالا رسوتا تبين عن مقدرة كبيرة في الصناعة الفنية ، ولكن لماذا لا نشعر بأى جاذبية ، بأى شئ يستهويننا في هذه الآثار ذات الصناعة الماهرة ؟

رسوم كاريكاتورية من نوع جديد لطاهر العبرى . أهى ظريفة حقاً ؟ ثم إنى أعترف بأن بعض الجراءة دفعتني إلى التردد : أأبسم للآثار المعروضة ، أم لعنواناتها التي تشبه أن تكون أحكاماً مقرررة ؟ ولينظر القارئ : « مهندس ذو مستقبل » (رقم ٣١٨) ، « مضور سينما قدير » (رقم ٣٠٣) ، « سياسي ممتاز يشرف بلاده » .

أما في الحفر فهناك قطعة بديعة لمدام آنا بارفيس بالسامادجيخا : « صدى » محفورة على الخشب . فالمادة التي استعملتها غاية في الروعة (ولماذا لا يحفر فنانونا على الخشب أكثر مما تعودوا إلى الآن ؟) هذا إلى أن القطعة تتنتنا واسترعت اهتمامنا لوقت طويل : يالها من رشاقة ، ومن قوة دفينية ، ومن موهبة رفيعة !

وقد عرضت في الطابق الأول بعض آثار لطلبة مدرسة الفنون الجميلة العليا ولطالبات معهد الفنون الجميلة للبنات . ولن يستطيع إلا الفنيون الاختصاصيون أن يحكموا حكماً صحيحاً على القيمة المستقبلية لكل من هذه الآثار التي كثيراً ما ينعكس فيها نفس النموذج . وأظن أنى لن أغضب أحداً إن أخذت بعض الشئ على هذه الآثار طابعها الأكاديمي . على أن هناك استثناء : فقد استرعت نظري ، ثم اجتذبتني مجموعة من ثلاثة صور صغيرة (وأظنها خالية من التوقيع) كانت من قوة الايماء بحيث دفعتني إلى أن أقول : « إنما هذا تصوير لوقائع كتاب الأيام » . وحين قرأت بعد ذلك النص الذي يصحب كل صورة استوقفت من صحة المصدر الذى أوحى بها . ولم أستطع ، كما ذكرت ، أن أتبين اسم هذه الفتاة الناشئة التي يرجع إليها الايماء المتع . بفضل هذه الصور الجميلة الثلاث اللأى بالفكاهة الباسمة الخفيفة ، والشعور العميق

شهرية الفن

بل (ولعلنى لم أخطئ في تقديرى) والاحترام . وإنى واثقة أن هذه الحاسة المدركة ستجول على أثر العمل والجهد إلى مقدره رائمة .
ولا يسعنى إلا أن أبدي أسفى من أنى لم أدون هنا إلا ما أخذ أخشى ان أكون قد تشددت فيها بعض الشيء . على أنى واثقة من أنه لن ينظر إليها إلا على أنها تعبير عما تجد قتاة مصرية من الرغبة الصادقة الشديدة فى أن يظهر ما لمواطنيها من مزايا فنية لاشك فيها .

معرض صور الرسام حامد عبد الله (قاعة فريدمان)

[الفن هو الفن الأبدى . إن سميت إليه
فله ، وإلا اقترسك .]
انطوان بروديل

العمل ، والبحث ، والمشاكل التى تعرض باستمرار أمام الذهن القلق الفنان ، والحل لهذه المشاكل الذى يجىء مستحيياً وجلابدى الأمر ، ثم يتثبت ، وقد يطرحه الفنان جانباً بعد ذلك ، هذه هى الانطباعات التى توحىها لأول وهلة الآثار الفنية التى يعرضها الأستاذ حامد عبد الله . ثم إذ نأخذ فى تعمق هذا الفن شيئاً فشيئاً لا تلبث أن تقوم فينا رويداً رويداً ألوان شتى من الانفعال والتفكير والرضا بل الامتناع . تظهر هذه المشاعر متوالية ، كأنها تتتابع فى انتظام .

على أن هذه الآثار الفنية ليست كلها هدوءاً وصفاء (ولو كانت كذلك لما وجد فن) . وليست هى من ناحية أخرى ذلك القلق للمرف الذى يوجده الاضطراب ، ولا هى التوازن والتناسق البالذين حد الكمال . إنما هى طريق تتخللها بعض نترات حلوة جذابة ، وكثيراً ما يكون مسلكها شاقاً وعراً ، ولكنها تشعر الانسان أنها تسو فى عزم نحو تحقيق غرض معين ، فهل أصبح الفن وشيك الحل ؟

أن يكون العمل والجهد بل الاخفاق من الضرورات اللازمة للفنان ، هذا كلام مألوف بعيد عن متذرين . ولكنه يصور بصفة خاصة حقيقة تبدو بشكل جلى واضح فى آثار حامد عبد الله . والذين أتبع لهم أن يتبعوا جهود هذا الرسام المصرى الشاب لابد أن يكونوا تبيينوا فيها زغبته فى التقدم بفنه ، وبخاصة فى معظم الأحيان فى تحقيق هذه الرغبة . وهذا التقدم لا يدل على أنه تنقل بين مذاهب مختلفة فى الفن ، بل يشعر على العكس من ذلك أنه طاون على تثبيت شخصيته وتأكيدها .

وحامد عبد الله فيما أعلم من الرسامين الذين وفقوا فى محاولاتهم لفهم الاقليم المصرى وتصويره ، سواء انظرنا إلى الناحية المحسوسة لوطننا أم إلى الناحية المعنوية . على أن هذه المحاولات موضع تأملات هذا الرسام وبحوثه . ولاوضح ذلك بعض الشيء سأعرض بعض آرائه . فهو يرى أن فى الجو المصرى عنصرين من شأنهما أن يضعفا حدود الاشياء

شهرية الفن

وهما الضوء الوهاج والغبار . فالضوء لا يقتصر على أن يسطع ، وكأنه متأجج ، حول صور الأجسام ، ولكنه يشع أيضاً من هذه الأجسام نفسها ، فيكون بذلك عند الحدود التي ترسمها خطوطها شيئاً يشبه الهالة . ويحاول حامد عبد الله أن يعبر عن تألق هذه الهالة ، عن طريق إطار أبيض يديره حول الأجسام التي يصورها . ويتنلب الضوء دائماً على الظل في الصراع الذي يقع بينهما . وتنلبه من القوة والاطلاق بحيث إن التباين في الألوان الذي كثيراً ما يلاحظ في البلاد الأخرى لا يوجد في مصر . ثم يضيف حامد عبد الله إلى ذلك أن الظل الذي صار من جراء ذلك شفافاً إلى حد بعيد ، تزداد رفته فضلاً عن ذلك بسبب انعكاس الضوء . ينتج من هذه الظروف الجوية أن المناظر تبدو لنا في أجرامها على بعدين لا على ثلاثة أبعاد . أما البعد الثالث فإن حامد عبد الله يعبر عنه بالتشدد في رسم حدود الأجسام ، وهذا التشدد هو الذي سيميز دون غيره بين قيم الأشياء . ومن الخواص التي تتميز بها مصر في رأي هذا الرسام تقلقل الضوء تقلقاً من شأنه أن يوجد بريقاً في المناظر الطبيعية ، مع احتفاظ هذه المناظر على الرغم من ذلك بشيء من الاستقرار الأبدى . وهذا الاهتزاز الخفيف في السماء البيضاء أو الرمادية ، والتي لا تبدو في الواقع زرقاء على الإطلاق ، هذا الاهتزاز الذي يسعى أصحاب المذهب الانطباعي إلى تصويره عن طريق الوسائل المشهورة عنهم ، يحاول الرسام المصري الشاب أن يصوره في لوحة سماها « الصهد » ، وقد لجأ في ذلك إلى وسيلة تشبه أن تكون تمجزة للون الفولاذي للسماء الذي يضمحل في لونه الأبيض . وعلى ذلك ، فإذا استثنينا ساعات النسق التي صور الرسامون الفرنسيون تدرج ألوانها في براعة ودقة فائتين ، فإن الموضوع في نظر حامد عبد الله يتصل بالضوء أكثر من اتصاله باللون . فاللون ، وقد استعمله في شح على قطعة من الورق تميل إلى الرمادية — كما هي الحال في اللوحة المسماة « نساء أسوان » — هذا اللون سيعطي إضاءة كافية ، وهذا ينتهي بي إلى الآثار التي استرعت إعجابي بصفة خاصة ، وأعني بها الرسوم بالتلم . وهذه الرسوم كثيرة ، يكفي عددها ليشعر النظارة بما ينلب على هذا المعرض ، وهو الاحساس بالعمل الخصب المشج . ولكنها معروضة بشكل حي لا تائق لا يراد به جلب النظر . فنحن في معرض ولسنا في مصنع الفنان ، وتعرض فيه آثار هذا الفنان لا مسوداته كما حدث ذلك أحياناً . والعناصر الأساسية التي يتألف منها النص (فإن هذه الرسوم ناطقة ، وهي بليغة العبارة ، مؤثرة شديدة التأثير) مرسومة في خط متصل دون أن تضطر التفاصيل الدقيقة ، وقد اقتصر على الضروري منها ، إلى العودة بالتلم فيما رسم . ومما استرعى اهتمامي بصفة خاصة بين اللوحات المتعددة تلك المرقمة ٧٥ . وهي تصور رجلاً من سكان أسوان . بدا مظهره ، وهو أظهر من شأنه ، بسبب الطول الذي يمتد به والحيز الذي يشغله في المستطيل الأبيض ، حافظاً لصاحبه كرامة قد يفقده إياها البؤس الاليم الذي حل به والذي صوره الرسام عن طريق شيء من الانحراف في الحركة والمشية . وهناك لوحة أخرى تصور لنا هذه التعاسة التي تضى شعبنا تصويراً مرأياً مجزأ ، فهي تصور امرأتين يرتسم شكلهما وقد قصفتا ، في منظر طبيعي تصفت فيه المنازل أيضاً بل قصف للسجد نفسه على نفس الهيئة .

ولكن على أن أختتم حديثي وأترك القارئ يستكشف بنفسه هذه الطريق المتعددة المناظر التي أشرت إليها آنفاً . ومن هذه التجربة المستمرة الناشئة من جهة وبصفة خاصة من صلة هذا الرسام بأرض وطنه ، ومن جهة أخرى من اتصاله بأعلام الفن في العالم ، هذا

شهرية المسرح

الاتصال الذي لا ينبغي مطلقاً أن يطغى على نضوج الشخصية المصرية ، وقد يوجد فيما بعد — بسبب هذا الفنان — اتجاه يطلق عليه في يوم من الأيام اسم «المدرسة المصرية» . ولعل هذا الرسام إذ يستبدل بلفظ « تشيكي » لفظ « مصرى » يكون أجاب دون أن يدري النداء الذي توجه به بورديل في نهاية المحاضرة التي ألقاها بتاريخ أول مارس سنة ١٩٠٩ في النادي الأهلي براج حيث قال : « ... أيها الفنانون ، أصدقائي ! زملائي ! كونوا تشيكيين وابقوا تشيكيين في آثاركم . فنظر زوجاتكن يتسمن لكم وأخواتكم يسعين إليكم ، أروع من كل المشاهد المألوفة التي تعلمتموها . أيها الفنانون الشباب ، معركتكم أتم ، إلى جانب مشرعكم وإلى جانب علمائكم ، هي البحث عن الحقيقة . وعليكم في هذا أن تنحتوا روح شعبكم . . . »

أمنية طه حسين

شهرية المسرح

سلاح اليوم

ليس الأستاذ نجيب الريحاني في حاجة إلى أن يعرف إلى الناس ولا إلى أن يهدي إليه الثناء ؛ فقد عرفه الناس كأحسن ما يعرف الفنان البارع ، وأهدى إليه الثناء حتى لم يدر ماذا يصنع به . ولست أكتب هذه الكلمة وأنا على جناح سفر إلا لأسجل إعجابي الذي لا حد له بالقصة الأخيرة التي يعرضها الأستاذ نجيب الريحاني على النظارة في هذه الأيام . فسلاح اليوم قصة طريفة حقاً . والغريب أن طرافتها تأتي من أنها لا تعرض على الناس شيئاً مبشكراً وإنما تعرض عليهم حياتهم التي يحيونها في كل يوم . وهي من هذه الناحية درس من أقوم الدروس التي تلقى على الناس ، لا في الأخلاق وحدها ، بل في تصوير الحياة الاجتماعية وما تشتمل عليه من عناصر الفساد التي لا سبيل معها إلى بقاء أو إلى استقرار . فسلاح اليوم في قصة الأستاذ الريحاني ليس جدياً ، ولا جهداً ، ولا كفاية ، ولا عملاً خصباً منتجاً ، ولا صدقاً في القول ، ولا إخلاصاً في العمل ، ولا وفاء للصديق ، ولا اعترافاً للجميل ، وإنما هو كل ما يناقض هذه الخصال من الأخلاق . وهو ليس سلاحاً يصطنعه فريق من الناس دون فريق ولا طبقة منهم دون طبقة ، وإنما هو سلاح شائع يصطنعه كل من قدر عليه ، والناس جميعاً يحرصون على أن يقدروا عليه ويصطنعوه ؛ لأنهم جميعاً يريدون أن يخبروا من حالهم ويخرجوا عن أطوارهم ويبلغوا منازل أرقى من المنازل التي قدرت لهم . يريدون أن يصلوا ، ولا يترددون في سلوك السبيل التي تنتهي بهم إلى ما يريدون مهما تكن شائكة ومعوجة ، بل هم يسلكون السبيل الشائكة المعوجة لأنها وحدها التي توصل في سرعة إلى ما يريد الوصوليون . فالصديق وهو من الطبقة الدنيا يتماق صديقه الموظف في أحد المصارف حتى يجده له عملاً في المصرف الذي هو موظف فيه . ثم لا يلبث أن يخونه في صراحة ووقاحة لا حد لها ، وهو يأخذ عمله ، ويستهوئ صديقه ، ولا يزال يرق من خداع إلى خداع ومن كيد إلى كيد ، ويرقى مع ذلك من درجة إلى درجة ومن خيانة إلى خيانة حتى يخون مدير المصرف ، ويشتري

شهرية المسرح

منه مصرفه بضمن بنحس ، وقد رشا أعضاء مجلس الادارة جميعاً . هو يعبث ما شاء أن يعبث ويقصد ما وجد إلى الفساد سبيلاً ، وينعم من أجل ذلك بلذات الحياة كلها لا يستثنى منها شيئاً لأنه لا يهمل من وسائلها شيئاً . وهو في أثناء ذلك لا يجد من الناس إلا ثناء وحمداً . فإذا استكشف أحد بعض أوزاره وهم أن يعرضها على مجلس الادارة لم يجد من يسمع له أو يحفل به ، وإنما وجد الاعراض والازدراء والتهديد بالوقوف أمام القضاء . وليس هذا إلا رسماً يسيراً قصيراً مقارباً للموضوع الذي تدور القصة حوله ؛ فبراعة القصص عند الأستاذ الريحاني لا تأتي من الموضوع وحده ، وإنما تأتي من الحوار الذي يصور العنل المصري على اختلاف طبقات المصريين أدق تصوير وأصدق ، ومن التمثيل الذي يخلب النظارة منذ المنظر الأول ، ومن أصوات الممثلين وفخامتهم حين يتكلمون ، ومن أشياء كثيرة لا سبيل إلى تصويرها في هذا الحديث القصير . والأستاذ الريحاني معلم يلقى دروسه الاجتماعية والحلقية على المصريين منذ أكثر من ربع قرن ، وهو في الوقت نفسه صاحب فكاهة رائعة حلوة مرحة في وقت واحد ، يسلي المصريين عن همومهم وأحزانهم العامة . والخاصة منذ أكثر من ربع قرن أيضاً . فليعرف المصريون له ذلك وليقدروه قدره وما أراهم يفعلون . وإنه لمن المؤلم حقاً أن ينفق الأستاذ الريحاني حياته كلها معلماً للمصريين ومسلماً لهم عن الهوم والأحزان ، وأن يؤثر المصريون أنفسهم بدروسه وفكاهته دون أن يجد من الدولة عناية أو تشجيعاً . والفريب أن الدولة تفكر في إنشاء جامعة شعبية . ولتعدرنى الدولة إذا قلت إن مسرح الأستاذ الريحاني هو خير قسم من أقسام هذه الجامعة الشعبية .

طه حسين

تأليف المرأة ألكسندر دumas الابن (١)

لسنا ندري لماذا كانت الفرقة المصرية في اختيارها للأدب المسرحي الغربي مشغوفة بالمسرحيات العتيقة التي لا يقبل عليها شباب اليوم المثقف ، غير حافلة بالأدب المسرحي الحديث مع غناه وملاءمته للتسلية الحاضرة ومشكلات عصرنا . ويبدو لمن يقرأ براجمها أن المسرح الفرنسي مثلاً لا يقدم إلا هذه القصص القديمة التي نسيها الناس في فرنسا مما كتب ألكسندر دumas أو فكتور هوجو أو كازمير دلافيني . لعل الفرقة ترمى إلى النجاح السهل المضمون الذي لا يتطلب عناء أو يكلف مجهوداً بتقديم مسرحيات تلائم ذوق الجمهور المصري . ولكن هل واجب الفرقة المصرية أن تخضع لذوق الجماهير وتنزل بفننها إلى حيث ترضيه ؟ أليس من واجبها أن تهض بترية ذوق النظارة فتتخذ من المسرح أداة للتثقيف المحب الذي لا يخلو من الترفيه والتسلية ؟

أين نحن اليوم من مسرح ألكسندر دumas ، هذا المسرح الذي بلى وأصبحت موضوعاته عتيقة لا يحفل بها المعاصرون ؟ أو لا تزال قضية المرأة من الخطورة بحيث رآها ألكسندر دumas بل بحيث رآها قاسم أمين بعدما ظفرت المرأة بما ظفرت من الحقوق الاجتماعية في أكثر أقطار الأرض ، ومن الحقوق السياسية في كثير جداً من هذه الأقطار ؟ أو لا تزال نحن في

Alexandre Dumas fils, *Denise*. (١)

شهرية المسرح

حاجة إلى أن ندرس الآن مشكلة امرأة غرر بها شاب ثم غدر بها ؟ إن أى إنسان متعذر يعطف على هؤلاء النسوة اللاتي أخطأن لا بدافع الرذيلة ولكن لأن آثماً غرر بهن بعد أن وعدهن بالزواج . وإذا كانت الفرقة المصرية تد شعرت بأن المجتمع المصرى فى حاجة إلى مثل هذه الدراسات الأخلاقية ، فقد كان عليها أن تختار مسرحية أخرى غير مملّة كالتي اختارتها . فنصيب الحوادث فى تلك المسرحية ضئيل جداً ؛ لأن المؤلف أراد أن يجعل منها دفاعاً عن المرأة ، فجاءت فصولها الأربعة تقاشاً متصلاً ومنازعات بين الأشخاص على هذه المرأة التي زلت . وقد كان الجدال قبيحاً عند نظارة القرن الماضى ؛ أما الآن فانه يعرض علينا بديهيّات نرى الاطالة فيها لغواً لا حاجة إليه .

ولعل ما يجب الفرقة المصرية فى هذه الروايات أنها لا تكلف عناء كبيراً فى الإخراج . غنى لا تتطلب كالمسرحيات الحديثة ابتكاراً وتجديداً يحتاجان إلى اطلاع متصل وثقافة واسعة ، وإنما يكفي أن يرجع المخرج إلى ما نشر من مذكرات عن المسرح فيها من البيانات عن الإخراج والتمثيل ما يغنى عن الابتكار والتجديد .

فاذا كانت الفرقة المصرية تريد أن تهض بالمسرح والموسيقا — وهذا على ما يبدو هو فرضها الأول — فيجب عليها أن تخلع هذا الثوب الرث الذي تحرص على ارتدائه وأن تمنع النظر فى اختيار مسرحياتها ومخرجيها وممثلها ، وأن يكون بين أولئك وهؤلاء تعاون متين أساسه خدمة الفن . فى ذلك النفع كل النفع للفرقة خاصة ولمصر عامة .

ومهما يكن من أمر فإن الفرقة المصرية لها حسنات أخرى تستحق الثناء عليها ؛ لأنها أتقنت الجمهور من روايات مسرحية دامية لا ترتاح إليها نفوسنا ، ومن تمثيل لا يستسيغه الذوق . وقد يكون فى تمثيل بعض أعضاء الفرقة المصرية تكلف فى الإيماء وعنف فى التعبير ، إلا أن البعض الآخر يلازم أسلوباً رقيقاً فى أداء أدوارهم وخاصة فى مسرحية تاج المرأة . وتذكر من هؤلاء الأستاذ سراج منير والسيدة إحسان شريف .

أما عن الترجمة فجاءت سهلة يسيرة ، ليس فى الأسلوب ما يعجز النظارة عن تتبع حوادث للمسرحية .

.. ك.

شهرية السينما

الماضى المجهول (شركة أفلام قفرتي)

إن فى عالم السينما فى مصر أناسا يتخيلون أن فى مقدورهم الجمع بين التأليف والإخراج والتمثيل . والجمع بين هذه الأمور الثلاثة يتطلب عبقرية ومواهب قلما تجتمع لواحد من الناس ولا سيما فى بلد كمصر ما زال حديث عهد بهذا الفن . ومع ذلك رأينا فى الموسم الأخير مؤلفين يخرجون قصصهم ويمثلونها . ومن هؤلاء نذكر الأستاذ أحمد سالم مؤلف ومخرج وممثل فيلم « الماضى المجهول » . ولقد غالى أحمد سالم فى تقدير مواهبه وعبقريته حينما قام بهذه الأدوار الثلاثة معا ، فلم يبلغ ما أراد من الفوز .

ولنلاحظ أولاً ان أحمد سالم قد أساء إلى الفن وإلى المهنة في وقت واحد . فهو لم يتكرر قصته وإنما أثار على فيلم أمريكي غير فيه بعض الشيء فأفسده ثم أضافه إلى نفسه ، فتورط بذلك في خطيئة مضاعفة . ولست أدري متى يشعر هذا المؤلف وأمثاله بأن للفن والمهنة وللجمهور حقوقاً يجب أن تحترم وكرامة يجب أن ترعى .

والفيلم الذي اغتصبه أحمد سالم وشوّهه وسماه « الماضي المجهول » هو « عودة الأسير » . وهو فيلم لم ينسهِ الجمهور المصري بعد ، وقد لقي نجاحاً كبيراً . وقد لقي أيضاً فيلم « الماضي المجهول » نجاحاً كبيراً ، ولكن عند طبقة من المشاهدين تنقصهم الثقافة الكافية ليتبينوا الصالح من الفاسد والجيد من الرديء . وما نؤاخذ القصة به من الاضطراب والاحالة نجمله فيما يلي :

١ — يعود الأسير في الفيلم الأمريكي وقد فقد الذاكرة بالفعل . أما مريض هذه القصة فلم يفقدها ، ولكن الطبيب يتنبأ له بفقدائها قبل أن يتبين حاله بالضبط ويتحقق من أعراض المرض . وفي الأطباء قوم مهرة بارعون ، ولكن الطب شيء والكهانة واختراق حجب الغيب شيء آخر .

٢ — لا يكاد هذا المصاب يدخل المستشفى حتى تكلف به إحدى الممرضات كلفاً شديداً . وقد أهمل المؤلف أن يرينا متى نشأ هذا الحب وكيف نشأ ، وهل كان هذا الحب في بادئ الأمر شفقة ثم تطورت هذه الشفقة إلى هذا الكلف الشديد أم هل نشأ حباً من أول الأمر ؟ ولنلاحظ أن الفتاة في الفيلم الأمريكي لا تمجبه إلا بعد أن تعنى به عناية متصلة وتألنه إلماً طويلاً . فالمثير المصري يسبق الحوادث هنا كما سبقها في الملاحظة الأولى وهو يسبق الحوادث هنا بخالف طبيعة الأشياء ويقسد الفيلم الأمريكي .

٣ — عند ما شفى هذا المصاب وعادت إليه ذاكرته رجع إلى منزله . ودير له عمه مؤامرة ليزوجه ابنته . ومن الغريب أن أحمد سالم يخفق في تدبير مثل هذه المؤامرات ! دخلت ابنة العم غرفة الشاب وخلعت ثوبها وأخذت تنظفه ، وبينما كانت في هذا الوضع نادى الشاب . وما كاد يدخل الغرفة حتى تظاهرت بالسقوط فأسرع إليها وأسندها . وفي اللحظة نفسها دخل أبو الفتاة ورأى ابنته في أحضان ابن عمها ، فغضب ، وثار ثم عاوده الهدوء فجأة والتمس للشابين عذراً وهو أنهما متحابان بلا شك على غير علم منه ، وخرج منتبهاً ليهيئ حفلة العرس . كل هذا والشاب لم يحاول أن يدافع عن موقفه أو يفسره ، وقبل أن يتزوج من فتاة لا يحبها دون أن يدفعه إلى ذلك أى دافع منطقي .

٤ — أظهر المؤلف الأسرة المصرية في صورة غير كريمة وغير مطابقة للواقع لحسن حظ المصريين : فالفتاة المصرية لمحب ، والآب المصري متهاون يدفع ابنته إلى الرذيلة ، والعلم سفيه لا يأفف من تبديد أموال ابن أخيه .

ولم يكن الاخراج بأحسن من التأليف . وكيف لا يكون كذلك والمؤلف والمخرج هما شخص واحد ! فأحمد سالم المخرج يضع مكتباً بشكاتب الدائرة في بهو القنصلية التي يقطنها بطل القصة . وهذا يناقض الذوق السليم ولا يمكن أن يرى في منزل راقٍ محترم . ومما يدعو إلى الدهشة أن تغنى ممرضة في غير العمليات مع وجود مريض في حالة خطيرة . وقد أراد المخرج أيضاً أن يظهر لنا دقته التي لا تفوقها دقة في الاخراج ، فاستبقى منظر عملية جراحية أكثر من خمس عشرة دقيقة مع أن هذه العملية ليست بذات شأن في حوادث القصة .

وقد شغل الاخراج أحمد سالم عن العناية بتمثيله وتمثيل من عاونوه في هذا الشريط المهم إلا اثنين أعتد أنهما في غنى عن إرشادات أحمد سالم التمثيلية ، وهما بشارة وإكليم الممثل

شهرية السينما

الموهوب الذي اشتهر في الأدوار المضحكة على المسرح وفي السينما ؛ والثاني محمد كامل ، وقد اعتدنا أن نراه في أدوار الخادم أو البواب السوداني .

هذا هو الفيلم الذي يعرض منذ ثلاثة أسابيع على جمهور مشغوف به لسذاجته ، مع أنه في أشد الاحتياج إلى من يرشده ويثقفه ويرتفع به إلى حيث يستطيع المراقبة والنقد لا إلى من يستغل جهله وسذاجته ليظهر منه بهذا النجاح الرخيص الذي يضر أكثر مما ينفع .

امرأة سقطت (اتحاد الأفلام الفرنسية) (١)

كثر إنتاج الأفلام في هذا الوقت حتى هبط مستواها وقيمتها هبوطاً ملموساً . ونرى هذه الظاهرة واضحة في الأفلام المصرية والفرنسية والأمريكية على السواء . فالسينما الفرنسية مثلاً لم تعرض علينا إلا فيلمين لها قيمة فنية ، وهما « العودة الأبدية » و « البارون الشبح » ، وأفلامها الأخرى مثل « جمى » أو « الحيلة الكاذبة » أو « امرأة سقطت » لا تداني هذين الفيلمين تأليفاً وإخراجاً وتمثيلاً . ومن الانصاف أن نذكر أن الأخير كان أحسنها تمثيلاً ، ولو أن قصته ذات حوادث ملفقة لا يستسيها العقل . ولا عجب في ذلك ما دام مؤلفها هو ألفريد ماسار الكاتب الفرنسي الذي اشتهر بنوع من الأدب لا ترتاح إليه النفوس السليمة .

وفيلم « امرأة سقطت » يسوق إلينا قصة فتاة اسمها ماري ، أحبت فتى يدعى جان يسكن حانة القرية . كانا يتقابلان أيام الآحاد في الحانة ويمضيان هذا اليوم منفردين بينان قصوراً من الأمل . وفي ذات يوم أنبأت الفتاة عشيقها أنها حامل . ففرح جان لهذا الخبر ووعدهما بالزواج بعد عودته من رحلة كانت ستقوم بها الباخرة التي يعمل عليها بحاراً . وما كادت الفتاة تنصرف حتى اضطر جان إلى السفر سرياً لأن السفينة بكرت بالرحيل . ولم ينس أن يترك لمحبوبته خطاباً مع خادمة الحانة ينبئها فيه بما حدث . وكانت خادمة الحانة هذه تهيم بالشاب هيماً شديداً ، فأخفت الخطاب كما أخفت سائر الرسائل التي بعث بها جان إلى ماري أثناء رحلته الطويلة . ولما رأت ماري أن عشيقها تركها دون أن يبدي لها سبباً ، وأنه لم يرسل إليها أى كتاب اعتقدت أنه غدر بها . فلما حان موعد وضعها تركت منزل أمها وهربت .

عاد جان إلى قريته ، وبحث في غير طائل عن ماري فلم يجدها ؛ لأنها كانت قد سافرت إلى باريس حيث تزوجت من رجل ثرى كان يطف عليها وعلى ابنتها عطقاً شديداً . وجاءت الحرب فاشترك فيها الزوج . وعند الهدنة عاد إلى منزله ومعه رفيق قد أنقذه من موت محقق أثناء إحدى المعارك ، ولم يكن هذا الرفيق سوى جان . التقى العاشقان بعد هذا الفراق الطويل ، فاذا بحبهما على عنقه . لقد شاءت الظروف أن تصفو الأمور بينهما ويتحقق كل منهما أنه لم يغير عن أحب . ولكن ما الحل وماري متزوجة وسعيدة بهذا الزواج ؟ لاشيء سوى التضحية بحبهما .

شهرية السينما

والقصة كما هو واضح تافهة جداً ، وظروفها ملفقة . ولولا أن ممثلي الفيلم أجادوا تمثيله لأخفق إخفاقاتاً تاماً . قامت مدام رينيه سان سير بدور ماري فأثقتته كل الالتقان ، كانت السعادة تغمرها وهي ذاهبة لمقابلة جان قبيل سفره ، فلا بتسامية لا تترك شفتيها والسعادة تبدو في نبرات صوتها . وسافر جان فاثقلت هذه السعادة بؤساً يفصح عنه وجهها الحزين وعيناها المنكسرتان . وهما هي ذى التقي معه أخيراً فتفتابها رعدة خفيفة عند رؤيته ويظهر في إيماءاتها الاضطراب ما كانت معه ، وأخيراً هاهى ذى مستسلمة للأقدار راضية بالتضحية في سبيل زوجها وابقتها . ولم يكن مسيو روجيه دوشين ومسيو جان مورات أقل منها إتهاناً في التثيل . غير أن أدوارهما بقصرها لم تتح لهم فرصة التجويد مثل ما أتيتحت لها . وما تؤاخذ الشريط به هو رداءة تسجيل الصوت إذ كان أحياناً لا يبدو واضحاً مسموعاً . وكذلك كان الأمر في التصوير .

شعري كامل

جائزة الكاتب المصرى للقصة

تعتذر دار الكاتب المصرى لعدم استطاعتها نشر نتيجة مسابقة القصة في الشهرين القادمين وذلك لسفر الدكتور طه حسين بك إلى الخارج . وستعلن النتيجة في هذه المسابقة عند عودته .

من كتب الشرق والغرب

شارلوت برونتي وقصة «شيرلى»

[هذا المقال كتب خاصة للمجلة ، كتبه الأستاذ يونامي
دوبريه من أكبر الأدباء الناقدين في إنجلترا ، وقد شغل
منصب أستاذ الآداب الانجليزية عدة سنوات بجامعة فؤاد
الأول في عهدهما الزاهر .]

يظهر الكتاب المخلصون لفنهم — وشارلوت برونتي كانت مغلصة في كل عرق من جسدها —
فيما يخلقونه من أشخاص خياليين ، تلك الصفة في بنى البشر التي يعجبون بها أكثر من غيرها
من الصفات أو التي يظنون أنها أهم الصفات . لذلك نجد في قصص شارلوت برونتي شخصاً
أو أكثر من الأشخاص فيه من صفة الاحتمال ما يكاد يزيد عن مقدور البشر ، وعادة يكون هذا
الاحتمال من النوع الصامت ، فهم يستطيعون أن يثبتوا لأشد المصائب مرارة دون أن
يشملوا ، إذ يندمجون فيما لهم من فلسفة قاعة . ونرى مثلاً لذلك في جين إير في القصة التي تحمل
هذا الاسم ، ولوسى ستو في قصة « قيليت » . على أن الكتاب الذين ارتبطوا إلى مجلة الحياة
لسبب ما ارتباطاً لا يسعهم معه أن يفصلوا بين قنم وبين تجاربهم ، لا يستطيعون إلا أن
يرددوا لحنا واحداً ، لذلك نرى أن شارلوت برونتي (وأختها آن كذلك) تكرر دائماً قصة
المرية المهمة ، أو كما سميت فكرة قصة سندريلا وذلك ما نلاحظه في «جين إير» و«قيليت» ، وفي
هذين الكتابين فضلاً عن ذلك نجد صفة أخرى من صفات الكتاب الذين لم يروا إلا التليل
من التيارات الأساسية في الحياة شأن آل برونتي . وأقصد بذلك ابتعاد القصة عما يشغل
الإنسانية بوجه عام ، عن مصالحها ومصادماتها الدنيوية . والسير في هذا الابتعاد قد يبلغ
مدى بعيداً ، فيصير كأنه منظر نستبين به الحقيقة كما في رواية «مرتفعات وذرنيج» لاميلى برونتي .
ولكن الأمر يحتاج إلى فن كبير يبلغ مبلغ فن إميلى برونتي حتى يمكن بناء عالم صلب ومفهوم
من مجرد اندفاع العاطفة حيث نجد الحياة الجسدية إن هي إلا رمز للحياة النفسية ، وليس الجسد
إلا غلافاً زائلاً للروح . ولم تقارب شارلوت هذا المستوى إلا في قصة «قيليت» . على أن هذا الكتاب
يحتوى على الكثير مما تنطوى عليه نفسها الدنيوية ، والكثير من الخيال البعيد الذي حاولت به
أن تعوض عن الحياة التي جعلت منها سندريلا قلقة لا تظهر وظلت كذلك إلى نهاية حياتها تقريباً .
إن قصة الأخوات برونتي هي من أكبر القصص المؤثرة في العالم ، وهي تحتوى فوق ذلك
على آلام المأساة كما أنها تحمل معها الشعور الحقيقي في المآسى : وهو أن شيئاً عظيماً تطلب عليه
شيء شريز أو بليد أو غير صالح . ولكننا نريد أن نتكلم هنا عن كتب شارلوت ولانريد أن
تعرض لقصتها إلا بقدر ما تاق ضوء أعلى كتبها لاسمها قصة «شيرلى» التي تختلف بعض الاختلاف
عن كتابها العظيم (اماقصة «الأستاذ» فانها لم تبلغ هذه المرتبة) . فما يسترعى الأنظار أولاً في

من كتب الشرق والغرب

هذه القصة أنها القصة الوحيدة التي لم تكتبها شارلوت برونتي بضمير المتكلم ، وكأنها تضع كتاباً في ترجمة حياتها ، وهذا مما يجعل فارقاً بين المؤلف والقصة ويجعل موضوعها أكثر اتساعاً . لذلك نجد في شيرلى اتصالاً مع عالم الأعمال الخارجى ، وهذا الاتصال معدوم أو يكاد يكون معدوماً في بقية كتبها حيث نجد مظاهر النشاط الأخرى أو طرق الحياة والعاطفة قائمة في الخلف لا تكاد تستبين . أما في هذا الكتاب فإن مشاغل الحياة الدنيا تلعب دورها وتؤثر في حياة الناس الذين يقومون بهذا الدور . فالثورة الصناعية لا تقتصر على أن يظهر دخانها القائم على قطعة من القماش يقف أمامها المثلون . وليست هميتها وضجيج آلاتها ، واجتماع العمال المتعطلين الذي يتضورون جوعاً في منتصف الليل ، ونداءات أبواق الجند ، ليست هذه مجرد مناظر مصاحبة . ولكننا نجد البطل هو رجل مشترك فعلاً في هذا النضال ، وأن مصير أشخاص آخرين يرتبط ارتباطاً كبيراً بما يقع له من حوادث .

وليس معنى ذلك أن الصفات الخاصة بشارلوت برونتي قد أقتضيت ، لا ! هذا غير صحيح . إن هذه الصفات قد اندمجت في شيء أكثر اتساعاً ، وهذا ما يجعل رواية « شيرلى » أسهل في الفهم وأكثر اتصالاً بمناظر الحياة عن الروايات الأخرى . قصة « شيرلى » وحدها بين كتب برونتي التي ينطبق عليها كل الانطباق اسم القصة التي من عملها أن ترسم الهيئة الاجتماعية لنفسها وتطلعيها على ما تقوم به . ومع ذلك ففيها جميع الصفات الأخرى ، ففي « كارولينا هليستون » قوة الاحتمال الروحية ، وفي « شيرلى » قوة الاحتمال الجسدية ، فهي مثل إميلي برونتي في الحياة تكوى جرحها دون تردد ، إذ يعضها كلب قد يكون مريضاً ، بمكواة من الحديد المحمى بالنار . ونجد في صورة كارولين الفكرة التي قامت عليها قصة سنديلا بعد أن غيرت شيئاً ما ، ونجد هذه الفكرة وقد نقلت إلى الجنس الحشن في صورة لويس مور ، ونجد فوق ذلك مرة بعد أخرى ذلك التعارض ، الذي لا تستطيع شارلوت إلا أن ترسمه ، بين الحياة للمادية والحياة الروحية . ففي ذلك المنظر الذي رسمته في سواد الليل حين يتجادل مور وهليستون واللوذيون فيما بينهم عن « المال والطعام والحياة » نجد شيرلى وكارولين تنظران إلى ما فوقهما « وحيدتين مع الليل الصديق ونجومه الصامتة وأشجاره الهائمة » . ونرى في صفحات الكتاب ، كما في سائر كتب شارلوت ، تلك الصرخة اليائسة من أجل الحب — لا الحب الخفيف الذي نجده في قصة « مرتفعات وذرنيج » ، ولكن الحب الذي هو « فضيلة إلهية » ، وهو « نارية آتى بها من مذبح مقدس » وهو على أنه « أصدق وأبقى وأحلى . . . الأشياء التي نعرفها » هو أيضاً « أمرها مذاقاً » .

لنا بمنكرين أن مؤلفات شارلوت برونتي تحتوى على درجة من العمل العاطفى ، وعلى شيء من الاغراق في الحزن والفرح ، ولكن لاخطر في ذلك الأمر الأخير ما دام التدفق الطبيعى يدفعه ، وليس النرض منه مجرد قشعريرة أبداننا . وإن ما يضايقتنا شيئاً ما في شارلوت برونتي هو المصادفات الغريبة للباغته التي تناجأ بها ، كما في شيرلى حين تتضابق لأن مسز برايور ظهرت على الصورة التي ظهرت بها أخيراً . وليس ثمة خطر من العاطفة عند ما تكون صادرة عن شعور صادق وموضوع العاطفة جديراً بها . ولكن إذا كان القصد منها تحريك مشاعرنا بغير ضرورة ، وإذا كان لا علاقة لها بالقصة ، بل هي تحول دون وضع تأثيرنا في موضعه الحقيقى ، فإن التذرع بأثرة العاطفة هو خطأ يدعو للأسف . وقد فرضت علينا الكاتبة مثل هذه العاطفة الحاطة حين طلبت إلينا أن نذرف الدمع على موت جيسى يورك قبل

ذلك بسنوات ، على حين كنا نحن في تلك اللحظة على استعداد لمشاركة كارولين هليستون في شكوكها المؤلمة في أمر روبرت أهو سيأتي أم لا ؟

لقد ارتكبت شارلوت برونتي هذه الخطيئة ، خطيئة العاطفة المتصنعة ، أكثر من مرة ، ومع ذلك نراها تحذر الوقوع فيها . ولسنا نشعر أنها كانت تأتى هذا الخطأ عن عمد إرضاء لذوق الجمهور — وهو ما يقول به أكثر المفسرين — وقد نشعر بأن تحذيرها لقراءها بالألا ينتظروا مواقف « غرام أو عاطفة أو شعر أو خيال » ولا مواقف « شهوة وتأثر واندفاعات قوية » إنما هو تحذير لنفسها بأن تبتعد عن كتابة هذه الأشياء بقدر ما هو تحذير لقراءها بالألا يحاولوا البحث عن هذه الأشياء في كتبها . ولقد كانت شارلوت في حياتها صلبة تحاول أن تجرد نفسها من الأحلام الزائفة في السعادة كما هو شأن لوسي سنو في قصة « فيليت » ولكن الخيال الذى يأبى إلا أن يكون عوضاً عن هذا النزول لا يزال يبرز في كتبها ، فإذا لم تكن هنالك مواقف الغرام لم يبق غير اليأس . لذلك نجد في كتبها غراماً وعاطفة وشعراً ، وكل الأشياء التى قالت لقراءها فى أول كتابها إنها لن تكتب عنها . إننا كنا نعجب كيف تحمل الحياة الواقعة وهى تكتب هذا الكتاب لو لم ينطو كتابها على هذه الأشياء . ففي هذه الفترة مات أخوها برانول الذى كان عزيزاً عليها ولكنه غير ناجح في الحياة ، وماتت أختها إيميلي التى كانت تعبدها ، وماتت آن التى كانت تحبها حباً عميقاً ، فالعالم الذى كانت تعيش وتناضل في بطولته من أجله انهار من حولها ، ولكنها ظلت تسعى في طريقها .

فليس من المستغرب إذن أن يكون هذا الكتاب أقل مرحاً في نهايته منه في مبدئه ، بل الواقع أنه ليس في الكتاب من عبارات مرحة مثل العبارة التى ابتدئ بها : « لقد تساقط غلى شمال فرنسا في السنوات الأخيرة مطر من القس حتى كادوا ينطون سفوح التلال . . . » ومع ذلك ففي القصة حتى نهايتها شيء من الفكاهة سواء في مجرى حوادثها المتقن أو في تقديمها الاجتماعي ، وهذا ما يجعل « شيرلى » قصة تشابه القصص العادية ، فقد كان القصصى ترولوب يستطيع أن يرسم حوادث آل يورك ولكنه ما كان يستطيع أن يسير بها كما فعلت شارلوت . ولقد تعلم أكثر من كاتب بعدها أو منها كيف يصور القس الثقلاء ومسر سيمسون المكروهة . ليست صورة روبرت مور مما يبعد عن تناول القصصيين ، فإن أخطاءه نتيجة للضعف الإنسانى العادى لا نتيجة للقوة كما هو شأن ميسوبول في قصة « فيليت » ، ولا هى نتيجة لقوة العاطفة كما هى في روتشستر في قصة « جين إير » . ولعل في لويس مور من حسن الصورة ما يجعلها غير حقيقية . ولعل صورة شيرلى نفسها التى صورت فيها إيميلي برونتي في ظروف أسعد من ظروفها هى أقرب إلى صور المجامع الفنية منها إلى صورة مخلوق ذى لحم ودم ، غير أن مجموع الأشخاص في تلك القصة اللذيذة المؤثرة سواء رأينا مثلاًهم في روايات الآخرين أم كانوا من خصائص تصوير برونتي يعيشون بقوة وصفات هى خاصة بهم . ومنها كان رأينا في مؤلفات شارلوت برونتي إذ عمدحها لسمو خيالها أو نرثعش لعمق تفكيرها أو لما تفتحه لنا من آفاق فيما وراء نظرنا العادى ، أو مهما أسفنا من جهة أخرى على ما فيها من نقائص ومن ستطبات أحياناً أو إهمال للمشاعر اليومية في الحياة ، فلا يمكن لآى إنسان أن ينكر ما فيها من موهبة أساسية ، بنيرها تكون جميع المزايا تافهة ، وهى التى تفتى على كثير من الأخطاء ، وهى موهبة الحيوية الكبيرة .

من وراء البحار

انجلترا والتجارة العالمية

رى مستر هنرى كلاى الذى ظل عشر سنوات مستشاراً اقتصادياً لبنك انجلترا ، وكان أستاذاً للاقتصاد فى جامعة مانشستر ، وهو الآن مراقب فى كلية نوفليد بأوكسفورد ، أن الدور الذى تقوم به انجلترا فى التجارة العالمية آخذ فى الاضمحلال . وقد شرح هذا الرأى فى مقال كتبه بمجلة الشؤون الخارجية الأمريكية (عدد أبريل سنة ١٩٤٦) وفيه بسط مركز انجلترا فى تجارة العالم قبل الحرب العالمية الاولى ، حيث اتخذ هذا المركز دليلاً على ما أصاب هذه التجارة من نقصان . فقد كان مركز انجلترا قبل تلك الحرب من حيث سياستها الاقتصادية وتنظيمها فى السنوات العشرين السابقة على سنة ١٩١٤ فريداً فى بابها ليس له مثيل فى عصر آخر أو فى بلد آخر . فأولاً كانت حرية التجارة مطلقة وتقل الأموال حراً ، وكان احتياطي الذهب يتراوح بين ثلاثين وأربعين مليوناً من الجنيهات الانجليزية فقط ، ومع ذلك كانت الثقة فى الأسواق لا تنزعزع ، ومثل هذه الحرية دليل على التوازن فى العلاقات التجارية والمالية بين أهم بلاد العالم .

وكانت العلاقات الخارجية تعكس صورة الصناعة البريطانية فى الداخل ؛ فقد كانت قائمة على التخصص الكبير فى الصناعة من أجل الإصدار والتجارة الدولية . وكان أهم الصناعات المنسوجات والفحم والآلات الهندسية وبناء السفن . وكان الغرض الأساسى الذى تعمل له هذه الصناعات هو الإصدار أولاً وآخراً . وأدى هذا التوسع إلى خاصة أخرى من خصائص انجلترا هى أنها أهملت الزراعة ، فكان عدد المشتغلين بها ٧٪ فقط . فكانت انجلترا أكبر دولة تجارية فى العالم وهى مركز نشاط اقتصادى دولى لم يكن له مثيل فى التاريخ بعد الامبراطورية الرومانية .

ثم قامت الحرب العالمية الاولى ، ولسنا نعرف حتى الآن مدى تأثيرها . ومن الطبيعى أن انجلترا لم تكن لتستطيع أن تحتفظ طويلاً بمركزها الممتاز حتى لو لم تغم الحرب . على أن من أوائل آثار الحرب أنها تقف النشاط فى التجارة وتقطع من أوصالها ، وتحول دون المرونة فى التغير تبعاً لظروف الأحوال . لذلك وجدت الصناعة البريطانية نفسها فى سنة ١٩٣١ أمام تغير فى الأسواق استمر ست سنوات ، واضطرت إلى أن تعمل على التحول بحيث تلائم هذه التغيرات ، مع وجود ضعف فى التجارة .

على أن بريطانيا لم تكن عناية جديّة بهذا التغير ، وظلت عشر سنوات تظن أن السبب فى الأزمة هو الانخفاض الدورى فى التجارة ، وفى هذه الأثناء صار التحول ثابتاً . ولم يعد فى الامكان اكتساب بعض ما فقد بالرغم من إضرار الانجليز على التطلع لما قبل الحرب .

ثم قامت الحرب العالمية الثانية . ولنتظر قليلاً إلى ما ينتظر أن يكون عليه موقف انجلترا فى التجارة : هل هنالك من شك فى أن موقفها سيكون مثله فى الحرب العالمية الاولى ، بل على الغالب أسوأ حالا ؟ لقد عرفت الأسواق الخارجية كيف تقوم بحاجاتها ، وشجعت

من وراء البحار

انجلترا نفسها على ذلك ، فالهند الآن لها صناعة قطنية تزيد على صناعة لنكشير . وهي قادرة على اكتساب كثير من الأسواق الخارجية القليلة التي بقيت لنكشير ، وفي أستراليا صناعة صلب أرخص في جهات كثيرة عن الصناعة الانجليزية . وفي الهند وأستراليا صناعة تعدين ومهندسة أوجدتها الحرب . ولا شك في أن ذلك سيسبب قيام مشكلة حادة في انجلترا بالنسبة للبطالة فما بعد الحرب . ومن المحتمل أن تعمل الحكومة الانجليزية على تشجيع السوق الداخلية ، فيقوم الاقتصاد الوطني على حماية السوق الوطنية بدلاً من الاصدار الخارجي ، أجل ! إن انجلترا ستظل دولة تجارية عظيمة ، ولكن لن تكون مركز الصناعة القائمة على الاصدار للخارج .

قد يترض بأن اهتمام انجلترا بالاصدار ليس بنتيجة اختيار وإنما هو نتيجة اضطرار . فتعدادها سبعة وأربعون مليوناً ، وهي لا تستطيع أن تطعم نفسها ولا أن تموّن صناعاتها بالمواد الأولية إلا بالاستيراد الواسع النطاق ، وإذن فلا بد لها من الاصدار . ومن الأمور القاطعة أن انجلترا لا تستطيع أن تستغل بمواردها عن العالم .

على أن انكماش الصناعة في انجلترا لم يؤد إلى نزول في مستوى المعيشة لدى السكان ، بل تحسن هذا المستوى . ولا نقول إن نقص الصادرات كان سبباً في هذا التحسن ، بل الأصح أن نقول إن الأمرين قد يسيران معاً .

ثم إنه لوحظ أن انجلترا تستطيع أن تسكف نفسها في الحرب بحسب الأحوال . فقد خفضت وارداتها إلى النصف ، وزادت في إنتاج طعامها محلياً نحو ثلاثين في المائة وزادت صناعاتها في التسليح زيادة عظيمة ، وذلك يدل على مرونة في التكيف بحسب الظروف . وإذا كان من المحتمل أن تصير التجارة الخارجية أقل شأنًا ، فإنه ليس في استطاعة انجلترا أن تقلل مما تدفعه في الخارج ، وقد تستطيع أن تسد هذه الهوة بالاستدانة مؤقتاً ، ولكنها لا تستطيع أن تستمر على ذلك طويلاً .

كتاب فرنسي جديد

ظهر في عالم الكتب بفرنسا كتاب جديد قابل للنقاد مقابلة حماسية وأثنوا عليه ، وهو كتاب « قصص غير مثالية » من تأليف فرنسوا ثرينيه .

والمؤلف شاب فرنسي توفي بمقتل داشاو ، وهو المعتقل الألماني الشهير ، في ٢٦ مارس سنة ١٩٤٥ إذ أصيب بحمى التيفوس فأنتهت حياته وهو في السابعة والعشرين من عمره . وكان معروفًا في أوساط المقاومة باسم ستير ، وقد سجن قبل نقله إلى المعتقل الألماني في غرفة صغيرة بسجن فرين غخط على حوائط غرفته ستين قصيدة من الشعر ستشر قريباً في ديوان مستقل .

وقد نشر أول كتاب له وهو في التاسعة عشرة من عمره ، واسمه « ذلك الوقت السعيد » . ونشر له في باريس في سنة ١٩٤٤ كتاب اسمه « لن تموت » نقله أحد الفرنسيين في حقيقته إلى معتقل داشاو ، ولكنه لسوء الحظ وصل متأخراً إذ كان المؤلف قد دخل في دور النزع .

وكتاب القصص غير المثالية عبارة عن مجموعة من ست قصص كتبها في تلك الأيام الخمسة

من وراء البحار

التي مرت بفرنسا، فوصف رجال فرنسا ووقع الاختلال الأجنبي في نفوسهم وما يجول بخواطرهم من آلام وآمال .
وقد أطلق على أشخاص القصص أسماء رمزية استعارها أحيانا من الأساطير القديمة ، وأحيانا من الأسماء التي تطلق على الصور في أوراق اللعب ، فبا الأشخاص في ذلك الزمن التمس إلا لعبة للأقدار . ولقد فهم قزينة ما في موقف رجال فرنسا حين ذاك من روح صناعية ، وشعر بما في هذه السنوات من هذه الروح ووصفها بين شاعر . ولقد صدق حين جعل أحد أشخاص قصة من قصصه يقول : « إن هنالك شيئاً واحداً يحملك على أن تعشق الحرية إلى الأبد ، وهو أن تكون قد خضعت مرة لسلطان الظلم » .

جومون واختراعاته السينمائية

اخترع مسيو ليون جومون المخترع السينمائي الشهير ، وهو الآن في الثالثة والثمانين من عمره ، اختراعاً جديداً كما تروى نشرة الأخبار الفرنسية .
فهو يعيش في ضيعة بجهة توريل على مقربة من بلدة سانت مكسيم بفرنسا ، يعيش وحيداً بعيداً عن معمله ، ومع ذلك أخذ يضع القواعد لفكرة جديدة لا بد أن يكون لها تأثير في العادات ، ولا بد أن تحدث ثورة في الحياة العملية ، وهذا الاختراع هو أقرب إلى الأساطير والتكهنات منه إلى الحقيقة ، فهو عبارة عن « الرسالة الحية بواسطة السينما » وذلك بأن تعد ورقة بسيطة من أوراق الرسالة إعداداً خاصاً حتى يمكن عليها تسجيل صوت المرسل وصورته . فينشأ عن ذلك أن المرسل إليه ، بواسطة طريقة مشابهة للوحة الحاسبة ، يسمع صوت المرسل ويرى صورته .
وليس تحضير ورقة الرسائل مشابهاً لما في التصوير الشمسي ، الذي يكون بواسطة الحمام المحتوى على الأملاح ، وإنما يكون تحضيرها بواسطة عملية غازية .
ولا شك أن عالم السينما يذكر مسيو ليون جومون بما له من اختراعات عدة ، أهمها « الكرونوفون » الذي قدمه لأكاديمية العلوم بفرنسا في سنة ١٩١٠ ، وفيه وافق بين الصورة والصوت ، وكان هو أول من أخرج شريطاً بالألوان في سنة ١٩١٩ اسمه « موكب النصر » .

المجلس البريطاني ونشاطه

في يولية سنة ١٩٤٥ أي على أثر نهاية الحرب العالمية الثانية ، كان المجلس البريطاني — كما جاء في تقريره عن سنة (١٩٤٤ — ١٩٤٥) — قد بلغ عشر سنوات من نشاطه .
إذا أنشئ هذا المجلس بقصر سان جيمس في يولية سنة ١٩٣٥ . وفي هذه السنوات العشر تداول رياسته أربعة من رجال الإنجليترا البارزين ، وهم لورد تيرل ، ولورد استانس بيرسي ولورد لويد ، والسير مالكولم روبرتسون ، وارتفعت للاعانة التي خصصت له من خمسة آلاف جنيه عند إنشائه إلى مليونين وستمائة ألف في نهاية هذه السنوات العشر ، لما بدأ من نفقه ، إذ أصبح عاملاً مهماً في العلاقات بين بريطانيا والبلاد الأخرى .

من وراء البحار

ويتبين من هذا التقرير أن نشاطه امتد إلى إحدى وثلاثين دولة أجنبية أو مستعمرة بريطانية ، وله ممثلون فيها يمثل هذا العدد . وقد أنشأ تسعة وتسعين معهداً بريطانياً في البلدان المختلفة ، كما امتد نشاطه إلى اليونان ويوغسلافيا وإيطاليا وإلى البلاد المحتلة من ألمانيا في ربيع سنة ١٩٤٥ . وزاد عدد الجمعيات الثقافية التابعة للمجلس في أمريكا الجنوبية من ٢٧ جمعية في سنة ١٩٤١ إلى ٤٦ جمعية في سنة ١٩٤٥ . وفي مارس سنة ١٩٤٥ كان المجلس يدرس اللغة الانجليزية لأكثر من عشرة آلاف طالب في تركيا .

وعين بفضل مجهودات المجلس ٣٧ أستاذاً بريطانياً في الجامعات الأجنبية ومعاهد التربية العليا ، وأرسل ١٦١ من متخرجي الجامعات الأجنبية إلى بريطانيا ليتزودوا من العلم فيها .

وفي سنة ١٩٤٠ كان المجلس قد بدأ يطبع سلسلة من النشرات باللغة الانجليزية ، وبلغت هذه السلسلة في سنة ١٩٤٥ ستاً وعدد اللغات تسعاً ، وأخرج المجلس في هذه الفترة ثمانين شريطاً سينمائياً وزع في أربع وثمانين جهة ، وقد استعمل في شرحها اثنتان وعشرون لغة . وقد حدث في السنين الأخيرة تطوران هامان في تنظيم المجلس : أولهما إنشاء لجنة استشارية للدراسات الأدبية ، وثانيهما إنشاء قسم زراعي تابع للقسم العلمي .

ومن البلاد التي يشملها نشاط المجلس غير البلاد التابعة للامبراطورية البريطانية أو الداخلة البلجيكي ، وليس بها معهد تابع للمجلس الآن ، وإنما أظهر المجلس نشاطاً فيها وأرسل أساتذة عديدين لتعليم اللغة الانجليزية ، وعين مستر بليك ممثلاً للمجلس في تشيكوسلوفاكيا ، وأخذ المجلس في تعيين ممثل في فنلندا .

وفي فرنسا كان المجلس قد افتتح داراً سنة ١٩٣٩ في الشاتلزيه فعاد رجاله إليها كما أعيد افتتاح المعهد البريطاني في شارع السربون حيث وجدت مكتبته سليمة بفضل موظفيها من الفرنسيين وحماية جامعة باريس .

وفي اليونان عاد المجلس إلى نشاطه الذي ابتدأه قبل الحرب . وبدأ المجلس نشاطاً جديداً في أيسلاندا ، كما بدأ نشاطاً جديداً في إيطاليا وفي هولاندا . وفي البرتغال نظم المجلس في عاصمتها زيارات ومعارض ومسرحيات وحفلات موسيقية ، وأمدتها بالكتب الانجليزية والمدرسين . وفي أسبانيا ثلاثة معاهد بريطانية ، يبلغ عدد طلبتها نحو خمسة آلاف . وبدأ المجلس منذ ثلاث سنوات نشاطاً في السويد ، وتألفت إدارات للاستعلامات عن المسائل الانجليزية ، وأبدى نشاطاً في خدمة الفنون والآداب . وفي تركيا يتزايد الاقبال على منشآت المجلس ومعاهده ومكتباته . وفي أثيوبيا افتتح عدة معاهد في مدن تلك الدولة . وفي العراق توجد خمسة معاهد ومدرسة لتربية الاطفال ، وفي إيران توجد أربعة معاهد في مدن مختلفة ، وكان نشاط المجلس عظيماً .

وللمجلس أيضاً نشاط عظيم في الأرجنتين والبرازيل وشيلي وكولومبيا وكوبا والمكسيك وبيرو واكوادور وباراجواي وبوروغواي وفينزويلا وخمس من دول أمريكا الوسطى . وله نشاط عظيم في أرجاء الصين .

ولسنا في حاجة إلى ذكر مجهودات المجلس في أنحاء القطر المصري . ولا ريب في أن هذا التقرير مفيد جداً لمن يريد أن يطلع على نشاط الثقافة الانجليزية في أنحاء العالم .

الدعاية في أواسط إفريقية

في المجلة الجغرافية الانجليزية (عدد مارس ١٩٤٦) بحث شيق في تجربة قامت بها الدعاية الانجليزية في إفريقية لتثقيف جماهير الافريقيين من الذين يعيشون عيشة بدائية في أواسط تلك القارة وشرقها . وقد كتب هذا البحث مستر أليك دكسون الذى أشرف على هذه التجربة ، ولم يكن الغرض منها إلا الدعاية للحرب .

ابتدأت التجربة أولاً تحت ضئط الحاجة إلى المتطوعين في قيادة شرق إفريقية ، فقد ذهب الزمن الذى كان يتقاطر فيه أهل البلاد للخدمة العسكرية البريطانية في جميع أنحاء تلك الجهات . ويرى مستر ديكسون أن بعض أهل البلاد كانوا يتدرون موقف بريطانيا ، وقد كتب طالب في إحدى المدارس يقول : « إن الرق ليس غريباً عن الافريقيين ولكنهم يضارون بالألمان أكثر من غيرهم ، إذ أن هتلر يعتبرهم من القروء . »

هذا ما كتبه الطالب ، ولكن كثرة الافريقيين من المتعلمين أو أنصاف المتعلمين على قول مستر ديكسون يفكرون تفكيراً آخر ، فهم يقولون : « لقد أقنعنا الأورليون بأن نعدل عن الحروب ، وهاهم أولاء يتقاتلون » أو هم يرون « أن الكثير من الأمم الأوربية لا تفهم كيف تؤثر فيها الحرب ولذلك بقيت على الحياد ، إذن كيف يفهم الافريقيون أن الحرب تؤثر فيهم ؟ » ثم إنه كانت هنالك دعايات أخرى انتشرت بينهم لاسيما في بوجندا، إذ أخذ الناس يزعمون أن الحقن التى تعطى للجنود قبل رحيلهم تسبب العقم . ولا ريب في أن الدعاية الألمانية كانت قد بلغتهم . ولعل أكبر أنواع تلك الدعاية كانت الانتصارات الكبيرة التى تردد صداها في أنحاء العالم . فلقد سمع أحد رجال الدعاية الانجليزية رجلاً من أهل تلك الجهات يسأل عند ما رأى شريطاً سينمائياً يمثل الدبابات الانجليزية : « عجبا ! هل لدى الانجليز دبابات أيضاً ! » رأت القيادة البريطانية في تلك الجهات أن تلج هذا الأمر ، فقرر رأيها على أن تعتمد على فريق من العساكر المدربين الذين يمثلون خير أبناء تلك الجهة ، لكي يشرحوا لمواطنيهم الحرب والغرض منها . وكانت هذه الفرقة تنتقل في أرجاء تلك البلاد الواسعة ، وقد قطعت ما يزيد على ثلاثين ألف ميل وحضر العرض أكثر من مليون من الأنفس .

وكان أساس هذا العرض قائماً على التمرينات الرياضية ، فإن عرض الأسلحة لدى هؤلاء الشعوب قد يكون خطراً ، وقد يكون مخيفاً . أما التمرينات الرياضية فاتها تأثير فيهم عند ما يرون أبناء جلدتهم وهم يقومون بها . ولقد كتبت إحدى الوطنيات تصف تأثير هذا العرض فيها تقول : « إنهم حمل بعضهم بعضاً كالقردة ، وتسلق بعضهم فوق بعض كاللائكة ! » ووصفت أخرى قفزاتهم السريعة بأنها شبيهة بنور البرق في العاصفة .

وقد استعملت مكبرات الصوت في وصف العرض ولكن كثيراً ما كان تأثيرها في بعض القبائل منيراً لما أرادوا العارضون .

وكان من المناظر المؤثرة في الأهالي عرض الجنود الافريقيين في أزياء قديمة ثم في أزيائهم الحديثة التى يرتديها الجنود الآن .

ويرى مستر ديكسون أنه من السهل الاستمرار في تثقيف الجمهور الافريقي في زمن السلم ، على أن يعهد في ذلك لوحدة من وحدات الجيش ، وأن يكون العمل تحت إمرة الجيش .

ظـهـر حـدـيـثـا

مبته على نهر العاصي تأليف موريس بارس عضو المجمع الاكاديمي الفرنسي وترجمة
الاستاذين محمد عبد الحميد عنبر وعبد الحميد عابدين (دار الكاتب المصري)

عند ما كتب هنري بريمون العضو في الاكاديمية الفرنسية مقاله الرائع عن موريس بارس في مجلة « كوريسبوندان » الفرنسية على أثر وفاة ذلك المؤلف الكبير ، ذكر في هذا المقال كيف قوبلت قصة « جنة على نهر العاصي » عند ما نشرت لأول مرة ، وما دار حولها من جدل عندئذ ، وكيف تكلم عنها النقاد فوصفوها بعضهم بأنها قصة ناعمة ، يقصدون بذلك الاشارة إلى أنها تافهة ، وتساءل بعضهم ألم يحزن الوقت لنبد الخيالات والاعراق فيها . وذكر بريمون في ثنايا هذا المقال كيف جاءه بارس زائراً في مدينة بو في ربيع سنة ١٩٢١ وقال : « إني أحمل إليك عصقوراً صغيراً » ، وكان يبدو عليه شيء من التردد الحقيقي ، وكان ما يحمله هو تلك القصة . لقد وجد من اللذة في كتابتها ما لم يجد في أكثر مؤلفاته الأخرى ولكنه لم يكن على ثقة من نجاحه فيها . وقد ترك المخطوط لصديقه بريمون لبضع ساعات كي يطلع عليه ويبدى رأيه فيه ، وكان بادى الرغبة في أن يتعرف هذا الرأي وبادى القلق . ويقول بريمون إنه لم يتردد لحظة في الحكم لهذه القصة ، لا لأنها سحرته ، فهو يفضل العشرات من مؤلفات بارس عليها ، وهو يستقد أن محي بارس يوافقونه على هذا الرأي ، غير أن هذا لم يحمله على التردد في الاشارة بنشرها .

إذا كان الناقدون عندئذ لم يحسنوا استقبال هذه القصة ، فإن شباب الأدباء تحمسوا لها تحمساً كبيراً . ويرى بريمون أن هذه القصة إذا لم تكن من خير قصص الأديب الكبير فهي على الأقل في المرتبة الأولى من مؤلفاته وأنه بدأها بوصف رائع : « تلك الجلسة على نهر العاصي ، وتلك السواقي التي تتابع دورانها ليل نهار » .

والواقع أننا إذا أردنا أن نتبين أسباب هذه الحملة من النقاد ، فالتا نجد أهمها في تطور ذلك العصر ، منه في القصة نفسها ، فقد كانت أرض الأدب مهياً عندئذ لبروست وامثاله من زعماء الأدب الواقعي ، وقد أخذ الناس يتحولون عن الأدب القائم على الخيال عندئذ . ولا شك في أن بارس ، وهو في هذه القصة بالذات ، من أكبر ممثلي هذا النوع الأخير من الأدب .

أما الآن فإن القراء قد عادوا بعد أهوال الحرب العالمية ينزعون إلى الاقبال على الأدب الخيالي ، ليريحوا أنفسهم قليلاً من الهموم التي عرّفوها والمشكلات التي تنتظرهم .

لذلك كان من حسن الاختيار أن وفق الأديبان الأستاذ محمد عبد الحميد عنبر والأستاذ عبد الحميد عابدين إلى نقل هذه القصة لئلا العربية ، وقد تشارك الأستاذان أولهما بما له من مقدرة في اللغة الفرنسية ، والآخر بما له من اطلاع واسع في الآداب العربية ، على إظهار هذه

القصة في ثوبها الوطني ؛ إذ أن حوادثها تقع في بلد عربي وتسبق صفحاتها بعبيق شرقي . ولست أحب أن أختتم هذه المقدمة دون الإشارة إلى مارأيته في إخراجها من جبال فن الطباعة . ولا ريب في أن دار الكاتب المصري ، قد وضعت مستوى عالياً في مجال الطباعة مما يبشر بنهضة عامة في هذا الفن الجميل ومما يجعل الكتاب يأملون في المستقبل القريب في أن يروا مؤلفاتهم وقد ظهرت في تلك الطباعات الخاصة الانيقة التي يعرضها هواة الكتب ، وترفع شأن الكتاب والأدباء .

المالك ديوان شعر من نظم الأستاذ محمود حسن اسماعيل (شركة فن الطباعة)

الأستاذ محمود حسن اسماعيل شاعر مطبوع عرف الناس أناشيده في الترية وعرفوه في أغاني الكوخ ، ولمسوا فيها تلك الروح التي ترسل الشعر على سجيته فتفيض بكاملها الاحساسات دون تعمل . فالشعر في هذه الحالة يسر عن عاطفة صادقة . وهو في هذا الديوان قد انتقل إلى الحضر ، وتطلعت عيناه إلى أكبر مظاهره ، فأجاد وعبر أيضاً عن شعور صادق . انظر إلى قوله من قصيدة بعنوان « لما رآك الجارى » :

خلوا هوانا يذبح الوجد أحيانا	فما وهبنا سوى التريده سلوانا
نمشي على الكون اطيّاراً ، فان سكنت	بنا الاغانى مشينا فيه عيدانا
وما لنا في فضاء الله أجنحة	حتى نطير إذا لم تصغ دنيانا
لكنه قدر فينا يسيرنا	شجوا ، وشدوا ، وأوتاراً ، وألمانا
نحن الاغانى وما الأشباح غير صدى	مجد ظنه الرءوت أبدانا
أشبه إنس . . . وفينا كل بارقة	من السماء ترد السحر حيرانا
لا تمذلونا إذا ما الشعر أذهلنا	فهكذا هوله الجيار سوانا
مشى الريح إلى قلبي قلت له	لا أعرف الحسن أزهاراً وأغصانا

إلى أن يقول :

تلفت اليوم في الوادى نجد ملكا	هو الريح خيلات وأفنانا
إذا مشى أينعت أفنان خطوته	ظلا ونبعا وأثماراً وربحانا
وإن تلفت ألقى نور لفته	فجراً وطيباً على الأرواح ربانا
وإن أشار فن إيماء أصبعه	يفيئ شئ دغاه الناس إيماننا
وإن تحرك منه أى جارحة	فصر تدفعا هفا واسكانا
وإن تكلم أجرى النيل منطقه	بصرة كم جرى فيها قدامنا

واقراً قصائده عن ركاب هيسى ، ويوم الفقير ، وهذى فلسطين ، ومن ذلك الفارس ، نجد فيها أمثلة من ديوان كله من الشعر الرصين .

تاريخ التعليم في مصر من زهابه حكيم محمد على الى أوائل حكم توفيق (١٨٤٨ — ١٨٨٢) للدكتور أحمد عزت عبد الكريم (مطبعة النصر) الجزء الاول : عصر عباس وسعيد .

أراد الدكتور أحمد عزت عبد الكريم أن يتابع البحث في تاريخ التعليم في مصر ، أو بالحرى في سياسة التعليم في مصر ، وكان قد وضع منذ سنوات كتابه الاول « تاريخ التعليم في عصر محمد على » حيث بحث سياسة ذلك الرجل الكبير الذى رأى بذهنه الثاقب أن يدخل الاساليب الأوروبية في التعليم لينهض بالبلاد التى اختارته للجلوس على عرشها .

وهو في هذه المجلدات الأربعة الضخمة يتابع هذا البحث ، فيرسم لنا عصر عباس الاول حين يتراجع الاهتمام بالتعليم الحديث وتنتشر الهمم في السير بالاصلاح . ثم يأتي عصر سعيد (١٨٥٤ — ١٨٦٣) فيحاول أن يستأنف النهضة ولكنه أراد أن يبني بناء جديداً بدلاً من أن يتابع البناء على الأسس التى أقامها أبوه ، فلم يمهله الزمن .

وفي الجزء الثانى الذى يقع في مجلدين عالج المؤلف سياسة التعليم في عهد إسماعيل الذى عمل همه على أن يجعل بلاده قطعة من أوربا ، فكانت عنايته بالتعليم بالغة ونهضته موقفة ، ثم قدر أن تعصف بها الظروف والخطوب فتحول دون استمرارها .

وهذه المجلدات الثلاثة تدل على مقدار الجهد الذى بذله المؤلف في البحث والاستقصاء في كل ما يتعلق بسياسة التعليم . فترى كيف أنه زرع أرضاً بكرأ لم تكسب تمسها الايدي من قبل إلا مساً خفيفاً فجاء بمحصاد كبير .

وقد جمع في الجزء الرابع طائفة جليسة من الوثائق التى يحتاج إليها كل باحث في تلك الفترة من الزمن .

فهذا الكتاب بلا ريب يدل على مجهود كبير جدير بالحمد والتقدير . وقد نشر هذا السفر القيم على نفقة وزارة المعارف وكتب له الأستاذ محمد شفيق غربال بك مقدمة بما له من الاطلاع الغزير على تاريخ مصر الحديث .

حسن محمود

الأهم من الدكتور توفيق الطويل (مطبعة التوكل بالقاهرة)

لقيت الدكتور توفيق الطويل اول مالمقته في ليلة من ليالى رمضان منذ بضع سنين في دار صديق كريم ، واستمعت إليه أول ما استمعت وهو يتحدث عن النيب ، والوحى ، والالهام ، والرؤيا ، والايمان المطلق بالعقل ، وتحدثت إليه قبل أن أعرفه واستمع إلى ، ثم اقتربنا ، وأحسبني لم ألقه بعدها قط ، أو لعل لقيته ولا أذكر ، ولكنى لا أزال منذ تلك الليلة البعيدة من ليالى رمضان ، كلما عرض اسم أو ذكره وثبت إلى نفسى صورته ورن في مسمى صدى حديثه ذاك في تلك الليلة ، عن النيب ، والوحى ، والالهام ، والرؤيا ، والايمان المطلق بالعقل . وما هو ذاك يترأى لي اليوم في صورته التى أعرفها ولا أعرف غيرها ، في

ظهر حديثاً

كتابه هذا الذى عقده عن « الأحلام » وعرض فيه للحديث عن الغيب ، والوحي ، والالهام ، والرؤيا ، والإيمان المطلق بالعتل ، فلا أكاد أفرغ من كتابه ومن الحديث الذى عرض له فيه حتى يعود بن القهقرى ، فاذا نحن فى ليلة من ليالى رمضان ، يدور فيها حديث من نوع هذا الحديث الذى فرغت من قراءته منذ لحظات ، وإذا صورته اليوم هى صورته بالأمس ، وإذا رنين حديثه هو ذلك الرنين ، فكأنما كان ذلك اللقاء البعيد وذاك الحديث المنتطح هو « رؤيا » صادقة أجد تعبيرها بعد بضع سنين ، ولكن الدكتور توفيق الطويل مع ذلك يكاد يكفر بالرؤيا الصادقة !

كتاب الأحلام هذا هو دراسة عقلية لموضوع « الأحلام » كما يتراءى للباحث الذى يؤمن بعلم النفس الحديث إيماناً يحمله على أن يرد إليه كل مظهر من مظاهر الحركة العقلية فى الحس الظاهر أو فى الوعي الباطن . وقد بدأ المؤلف نهجه فى البحث بدراسة شاملة للمذاهب الإسلامية المختلفة على توالى العصور ، بين فلسفية وصوفية ودينية ، مع تتبع هذه المذاهب إلى منابعها فى الدين والتراث اليونانى والشرقى القديم ، وبيان ما يقابلها عند المحدثين من علماء النفس . وانتهى من بحثه إلى ترجيح عدم اعتبار الرؤيا وحياً إلهياً ، لم يقطع فى ذلك برأى سلبى ولا إيجابى على كثرة ما جهد فى البحث والاستقصاء والتحرى ؛ إذ لم يجد فى كل ما وصل إليه من أسباب هذا البحث ما يحمله على يقين جازم « لأن طبيعة الموضوع ، مع قصور أدوات المعرفة التى توصل إليها حتى أيامنا الراهنه ، تجعل الحكم الحاسم إسرافاً لا يبيحه منهج البحث العلمى » و « لأن العلم لم يقل كلمته الأخيرة فى هذا الموضوع ، ولعله لن يقولها أبداً ... ومن الخير ألا يزعم القدرة على إعلانها ! »

هو إذن كتاب من تلك الكتب الثمينة التى يكتبها كاتبوها مؤمنين بالعلم ، وهو إلى ذلك كتاب جديد فى بابه ، قريب إلى كل نفس بموضوعه . فما أحرى كل ذى نفس بأن ينظر فيه نظرة يفيد منها علماً بنفسه ، وبما يتراءى له فى يقظته أو منامه من رؤى صادقة أو من أضغاث أحلام ، فهو وإن كان بذهب مؤلفه وطرائقه فى البحث « كتاباً خاصاً » فإن فى موضوعه معنى « العموم » الذى يعنى كل قارئ وإن لم يكن من ذوى الاختصاص فى الفلسفة وعلم النفس وتاريخ العقول الإنسانية .

إيليا أبو ماضى للاستاذ نجدة فتحى صفوة (مطبعة الحكومة — بغداد)

إيليا أبو ماضى : شاعر من شعراء المهجر — كما يريد المعاصرون أن يسموه — نشأ فى لبنان وعاش فترة غير قصيرة من عمره فى مصر ، ثم شد رحاله إلى أمريكا منذ بضع وثلاثين سنة ، فطاب له العيش كما طاب من قبله لآلاف المهاجرين من أبناء العربية ، فاستوطنوا واطمأننت بهم الحياة ، على أن وطنهم هذا الجديد لم يقطع ما بينهم وبين وطنهم العربى من أسباب ، فاشوا هنالك عرباً ، لساناً ودماً وعاطفة !

ولاول مرة منذ انحسرت موجة التفتح العربى ، وانحصر العرب فى داخل حدود بلادهم — سمعنا صوتاً عربياً يتردد صدها فى الآفاق آتياً من وراء البحار ، وكان ذلك صوت المهاجرين للعرب فى أمريكا يؤذنون أبناء عمومتهم فى المشرق أنهم لا يزالون هنالك عرباً لهم مكانهم

وكيانهم ولسانهم ، ومنهم الكاتب والشاعر وصاحب الرأي والجاه . وكان من بين الأدباء الذين ذاع لهم صيت ونبه ذكر : إيليا أبو ماضي الذي أخرج الأستاذ مجدة فتحى هذا الكتيب للتعريف به وبيان مذهبه فى الشعر وطرائق البيان .

هو كتيب لا يزيد على بضع وتسعين صفحة صغيرة . يبدأ بمقدمة للاستاذ رفايل بطى صاحب جريدة « البلاد » التى تصدر فى بغداد ، يعيب فيها على الأدباء عدم عنايتهم بالأدب المعاصر وإغفالهم دراسة الأدباء المعاصرين ، إلا قليلا من الكتب لقليل من الكتاب . وهى مقدمة طويلة تشتمل من صفحات هذا الكتيب أكثر من ثلثه ؛ على حين تشتمل بعض الصفحات الأخيرة قصيدة طويلة من شعر إيليا أبى ماضى أوردها المؤلف فى الحاشية لتكون نموذجاً ، أو شاهداً على بعض ما قدم من الحكم . وفيما بين المقدمة والحاشية بضع وخمسون صفحة شتمها المؤلف بالحديث عن إيليا أبى ماضى ، وعن أدب الموجر ، وأسباب الهجرة التى هبأت لهؤلاء العرب أن يهاجروا ، وأن يستوطنوا ذلك المهجر البعيد ، وأن ينشئوا أدباً يتميز بخصائصه ويعرف بطابعه . ويبدو أن الأستاذ مجدة لم يكن يقصد حين بدأ هذه الدراسة أن ينهى كتاباً ، وإنما طلب إليه الأستاذ رفايل بطى أن يهد « لمعة من أدب أبى ماضى وشخصيته الشعرية » ليقدمه لقراء « البلاد » لمناسبة ظهور « الحائل » الديوان الرابع للشاعر ، فكان هذا الكتيب هو جواب هذا الطلب الذى طلبه إليه صديقه محرر « البلاد » . ثم كان فراغ المؤلف من هذه الدراسة على هذا الوجه حافظاً له على أن يصدر « سلسلة الشعراء المعاصرين » فى كتب صغيرة متتابعة ، كان أولها هذا الكتاب ، يتلوه كتاب آخر عن « المازنى شاعراً » .

على أن هذه الدراسة على وجازتها ووضيقي حزمها حافلة بكل ما يعنى المعجبين بالشاعر إيليا أبى ماضى أن يعرفوه ، فهى حقيقة بأن تكون نموذجاً جيداً لما يحاوله بعض الكتاب من « مختصرات التعريف » ببعض أهل الأدب ؛ فإن فيها غناء وفائدة ومذهباً سديداً فى النقد والتحليل .

كيف تفهم الناس للدكتور إبراهيم ناجى (دارالمكتب الثقافى الدولى بالقاهرة)

وهذا كتاب يتصل اتصالاً ما بيلم الاجتماع ، وهو مجموعة دراسات نفسية مبسطة تتيج لكل ذى نفس أن يدرس نفسه دراسة تعينه على فهم الناس ، ومن هنا كان عنوان الكتاب . والدكتور إبراهيم ناجى طبيب وشاعر ، وهو بهاتين الصفتين حقيق بأن يدرك من حقائق النفس وحقائق الجسد ما يستطيع به أن يكون باحثاً نفسياً له رأى . وأحسبه فى هذا الكتاب قد بلغ شيئاً من هذه المنزلة وإن كان لم يظهر بوضوح بخصائصه الذاتية فيما يخص من أقواله علماء النفس فى هذه الفصول ، وتوارى خلف غيره من علماء هذا الفن ، فيما عدا لمحات ضئيلة لا تبدل دلالة واضحة على مقدار ما يملك من الأهلية للإنتاج الذاتى فى هذا الباب ؛ فجاء كتابه هذا أشبه بالملخصات المدرسية منه بالكتاب الذى كان ينتظره القارئ من الطبيب الناصر للرهبان الوجدان إبراهيم ناجى ، ولكنه على كل حال كتاب جديد فى موضوعه بالنسبة للنرض الذى أنشئ من أجله وللقارئ الذى قدم إليه !

محمد سعيد العريانه

في مجلات الشرق

تاريخ المسرح التونسي

في العدد الحادي والعشرين من « مجلة للباحث » التي تصدر في تونس ، بحث ضاف بهذا العنوان كتب الأستاذ عثمان الكماك ، نقبس منه ما يلي :

« إن المسرح عندنا مشروع فني للتأيين به ، ومادة سلوة وموضوع اعتبار للمتفرجين فيه . أما عند القدماء فقد كان المسرح مؤسسة دولية ومشروعاً حكومياً ، فالتثيل لا يتم إلا من بعيد إلى بعيد وفي مناسبات معينة وتحت ظل ديانة رسمية ورياسة أهل الحل والعقد وبمحضر جميع السكان ... بحيث إن الرجل الوثاق الجدير بهذه الصفة ما كان لينخلف قط عن حضور المشاهد حتى لو كان ذلك مقضياً به إلى السكل والمثل ؛ لأن في تخلفه اعتداء على الطقوس وسوء أدب نحو الحاكين .

« على أن الأفارقة لم يكونوا في حاجة قط إلى مزيد تمجيد ، فقد كانوا مواعين بالمشاهد إلى درجة الجنون ، يدلك على ذلك العدد العديد من النقوشات الحجرية المرسومة باللغة اللاتينية والمغشور عليها بالتراب التونسي ... الخ »

حكومة اليمن

وفي « مجلة المنتدى » التي تصدر في فلسطين (العدد الثالث من المجلد الأول) حديث عنوانه « مشاهداتي في اليمن » بقلم هارولد أنجزامز حاكم عدن السابق . جاء فيه ما يأتي :

« الحكم في اليمن في يد الامام والاشياد ، ومركز الامام يجمع بين السلطين الدينية واللدنية ، والامام ينتخبه جماعة العلماء ، وهم من طبقة الاشياء ، والذي يتقدم لهذا المنصب ينبغي له أن يتوافر لديه ١٤ شرطاً ، ومن ثم انتخابه أصبح ملكاً يتمتع بكل سلطة الملوك ورئياً دينياً له كل ما للبأبا من سلطة دينية بين أتباعه . وإذا ذكرنا هذه الحقيقة المهمة سهل علينا أن نفهم كثيراً من الظواهر الغامضة في حياة اليمن : فالأهام مثلاً لم ير البحر في حياته . وسبب ذلك أنه لا يستطيع أن ينادر بلاده ، فهي مرتبطة به ارتباطاً وثيقاً ، حكومة ودينياً ...

« ومن القوانين الأساسية في البلاد أن الأجانب لا يجوز لهم ان يملكوا شيئاً في اليمن ، وإذا هاجر اليمني من وطنه استولت الحكومة على كل أملاكه ، وهذا القانون ينطبق على المسلمين كما ينطبق على اليهود . ومع أن جلالة الامام يعتقد أن سلطته حق مشروع إلا أنه يقر بصعوبة الاحتفاظ بهذا النوع من الحكومة في العهد الحاضر ، وهو لذلك لا يرحب بالنفوذ الأجنبي والمؤثرات القرية مهما كان نوعها . والمستشارون الأجانب في اليمن لا سلطة

لهم ، فرؤساء الدوائر كلهم من الأسياد وهم الذين يقررون ما يفعله الزراعيون أو الأطباء أو للمهندسون الأجانب . وجلالة الامام مقتصد للغاية ولا يرضى بالتقدم السريع . »

الشعوبية والشيوعية

وفي مجلد العدد الرابع والخامس في مجلة « عالم الند » التي تصدر في بغداد مقال بقلم الأستاذ سعيد أبو الحسن المحامي بدمشق ، عنوانه « العرب بين شعوبية القرون الوسطى وأمية القرن العشرين » يحاول فيه أن يبرز نوعاً من التشابه بين دعوة الشعوبية التي ظهرت في وقت ما في الدولة الإسلامية فآلت بها إلى التفكك والانحلال وجعلتها آخر الأمر تسلم أمرها إلى الأعاجم فاستبدوا بالسلطان وأقصوا العرب عن مراكز الحكم — وبين الأمية التي تدعو إليها وتمثلها بعض المذاهب السياسية اليوم ، داعية إلى إغفال القوميات الخاصة والتهوين من شأن الروابط العنصرية التي تجمع أبناء الوطن الواحد على فكرة واطقة ، ويرى في أوجه الشبه بين تلك الشعوبية وهذه الأمية ما يحمله على أن يجزم بأن هذه الدعوة ليست إلا لوناً جديداً من الشعوبية التي قوضت ملك العرب فيما غير من تاريخهم . فتراه يقول بعد أن يورد من أوجه الشبه بين هاتين الدعوتين ما يؤيد به رأيه :

« فالقومية التي تدين بها والتي تدعو إليها تجددية تحررية تدين بالمساواة وتترف لكل أمة بحقوقها في الحياة ، ولكنها إلى ذلك تقرر من الوجهة الفكرية والعلمية أن لكل أمة شخصية خاصة وعبقرية خاصة لا يمكن أن تشابه سواها من الأمم ... »

الفكرة القومية في مراحل تطورها الحديث

وفي عدد أبريل من مجلة « الأدب » البيروتية مقال للمحرر بهذا العنوان يحاول فيه أن يتحدث عن الصلة بين الاسلام والقومية العربية ، فتراه ينكر أن يكون هذا الدين من مشخصات القومية العربية أو من عناصر وجودها ، وإنما هو — فيما يراه — مظهر من مظاهر يقظتها وتعبير عن قوة الوعي فيها في فترة ما من التاريخ ، فيقول :

« والحقيقة التي تبدى على البحث المجرد الدقيق أن الدين لم يكن إلا « تعبيرة البتة » في إحساس الطبيعة العربية التي شعرت بالتحاض ، فلا بدع إذا اشتقت عباراتها وابتدعت جملها ومقاطعها المعبرة من أعماق المسيرات المعنوية للكائن الحي يومذاك ، لجاء الدين تعبيراً قومياً متنسقاً مع الاعتبارات القصوى التي كانت تهيم وتسيطر وتدفع صعداً في خط الاتجاه ، كما سبق لهذه الطبيعة أنها استخدمت أساليب أخرى من التعبير عن الذات والخصائص الثابتة ، كالقروسية حيناً وتوسيع المجال الحيوي حيناً آخر . »

« ففي مفهومنا أن الدين بازاء القومية العربية لم يكن إلا « كحادث الاثر » ، اما « حادث السبب » فليس إلا القومية التي شعت وشاعت فيها يقظة الخصائص ... ولهذا الذي قررته معنى واضح ليس يسمح بريب أو تخوف ، كما ليس يستنح بتزويد أو اقتيات . »

علامات الجمال

وفي العدد نفسه من مجلة « الأديب » مقال ممتع بقلم الآنسة روز غريب بهذا العنوان ،
تقول فيه :

« والتوازن لازم في الطبيعة كما في الفن ، لازم لراحة الشيء واستقرار وضعه وراحته الناظر إليه ؛ لأن الاخلال بالتوازن يثقل واضطراب . ولهذا نرى الباحث « الآن » يحدد الجمال بقوله إنه الهدوء والانضباط حتى في مواقف العنف والهياج . إن اضطراب الأعصاب وعدم التوازن دليل الضعف والمرض ، وهياج الأهواء العنيفة كالغضب والحسد والحقد والهوى للذنب ، كل هذه أعداء الجمال ؛ لأنها تترك في الوجه والجسم علامات القلق واختلال التوازن وتشوه محاسنها . والجسم الجميل حقا هو المتزن الحركات . والرشاقة سهولة في الحركة أساسها التوازن واعتدال الشكل . والوجه الجميل هو الهادي المنبسط الأسارير الذي تنعكس فيه نفس صافية متزنة لا تؤثر في هدوئها أعاصير الحياة . لهذا يندر الجمال عند الشعوب الفطرية التوحشة لاتصافها بانطلاق الغرائز ، ويكثر عند الشعوب العريقة بالتمدن للموصوفة بالانضباط ، ومن هنا كانت الثقافة أحد مصادر الجمال . »

بعد سقوط الأندلس

وفي عدد نوفمبر سنة ١٩٤٥ من مجلة « الثريا » التي تصدر في تونس بحث طريف عنوانه « حجاج الأندلس بعد سقوطها » للأستاذ عثمان الكماك ، تدرج فيه إلى الحديث عن اللغة في الأندلس قبل سقوطها وبعده ، ثم إلى شئون أخرى ، فقال :

« كانت اللغة الرسمية في أسبانيا الإسلامية هي العربية الفصحى ، وكان شرطاً أساسياً على كل رئيس دولة أو موظف فيها أن يحسن العربية حواراً وكتابة ؛ فقبلي الرؤساء والوزراء في حذقها والبراعة في إنشائها ، حتى كان أكبر الكتاب من الرؤساء والوزراء ... ولكن الناس في حياتهم اليومية كانوا يتكلمون لهجة دارجة قد خالطها الكثير من المفردات اللاتينية والأسبانية ، وكان إلى جانب ذلك لهجة أسبانية متولدة من اللاتينية الدارجة وهي النموذج الأول للغة الأسبانية الحالية ... ويفسر هذا أن مسلمي الأندلس كانوا يتزوجون بالأسبانيات الأعجميات ، وكان الأسبان الأعاجم يتطوعون أو ينخرطون في الجيش العربي ... وذكر ابن حزم أن القبائل الضاربة بأحواز قرطبة قد تعاجت ألسنتها وتطرق إليها الكثير من المفردات والتراكيب الأسبانية حتى بعدت عن العربية بمراحل ... وقد درس العلامة الأسباني ريبيرا هذه اللهجة الأسبانية القرطبية فوجدها تمت بسبب إلى البرتغالية القديمة ، أو لغة الجلالة ، أو اللغة البطلونية التي تشبه لغة سكان جنوب فرنسا . »

أثر الأعياد في الأدب العربي

وفي مجلة « الاعتدال » التي تصدر في النجف — العراق ، بحث بهذا العنوان للدكتور السيد محمد باقر حواد فضل فيه أثر الأعياد في الأدب العربي شعراً ونثراً ، ثم يجعل بحثه الضافي في خلاصة وحيدة يقول فيها :

« وخلاصة القول أن الأعياد أثرت في الأدب العربي تأثيراً عظيماً وأحدثت فيه ثلاثة أنواع جديدة ، أولها « أدب التهنئة » بالشعر والنثر ، وقد بلغ من الشيوع أن الإنسان قلما تصفح ديوان شعر أو ديوان رسائل ولا يرى فيه جملة من أدب التهنئة . وكان الخليفة الناصر لدين الله العباسي (٥٧٥ — ٦٢٢ هـ) قد أحدث للشعراء الكبار سجلاً أثبت أسماءهم فيه وسماهم شعراء الديوان وأجرى عليهم جرايات ورواتب ، فتهنأت لأدب التهنئة يومئذ حماية من الدولة ورعاية من الخليفة . والنوع الثاني هو أدب الأعياد الفارسية من مهرجان ونيروز وسنق ، وكان لهذا الأدب فضل في تقدم شعر الطبيعة عند العرب . والثالث الأدب الديراني وهو أدب جمع بين وصف الطبيعة والجمال والحجر ، وخلف كتباً كثيرة عزفت بالديارات ، كديارات علي بن محمد الشاشي وابن فضل الله العمري . وهذا النوع الثالث ، وأعني الأدب الديراني ، هو الأدب الذي صدقت فيه العواطف وصحت فيه الأوصاف وصور عدة حالات اجتماعية للعرب أبدع تصوير وسجلها أبرع تسجيل ؛ فهو من الأدب الكامل الذي لا تبلى جدته الدهور ، أولاً تمل عذوبته الأذواق السليمة على اختلاف العصور . »

الخلود الأدبي

وفي المجلة نفسها مثال بهذا العنوان للأستاذ السيد محمد شرارة يتحدث فيه عن معنى الخلود الأدبي ، ويسأل : « ما رأيك ؟ هل تنكر الخلود الأدبي ؟ وهل تنكر أن في الأدب آثاراً تعبر عن أدق ما في الحياة من أحاسيس ؟ » .

ثم يقول :

« هذه الأسئلة التي تلوح شبيهة بالتحدي أكثر من الأسئلة المادية ، يتوقف الجواب عليها على معنى الأدب وأثره في الحياة . فإن كان الأدب « تصويراً » للحياة — وهو ما تؤمن به — فخلوده بدور في الفلك الذي دارت به الحياة ... فقد قيل عن قصة « روميو وجوليت » في الأدب الانكليزي إنها خالدة ، ولكن القصة الانكليزية أحيطت بظروف وعادات وفترة لم يبق لها أثر في الحياة الانكليزية الحديثة . وإذا كانت العناصر التي استمدت القصة منها روحها قد زالت في العصر الجديد فكيف يمكن أن يبقى الشيء خالداً وهو معدوم الروح ؟ وقيل عن قصة « قيس وليلى » في الأدب العربي إنها خالدة ؛ وقصة الحبيبين العربيين كقصة الحبيبين الانكليزيين محاطة بتقاليد بدوية وعنعنات صحراوية أدت إلى الجبلولة بين لقاء

في مجلات الشرق

الحبيبين ، ونشأ من ذلك ما نشأ من حرقة ولوعة كان من أثرها ذلك الشعر الحزين الباكي
لـ الأدب العربي وغيره . وقيل عن قول أبي العلاء :

مل للقبام فكم أعاشر أمة أمرت بنير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

إنه خالده . ولكن هذا الخلود لا مصدر له إلا ما نراه من التشابه بين العصر الذي نعيش
في ظلاله وبين عصر أبي العلاء . . . فإذا كان الرائي يرى في هذين البيتين خلوداً فليس له
مصدر إلا ما ذكرناه . فلو تغيرت الأوضاع وساد العدل — وذلك غير بعيد — لبقيت هذه
المعاني سجلاً تاريخياً يعبر عن فترة من النترات التي مرت بها الإنسانية لا أكثر . . .
ويتهى الباحث من مقاله قبل أن يقطع برأى في معنى خلود الأدب أو يجيب على سؤال ،
أو لعله قد قطع برأيه وأجاب جوابه في جملة ما استطرد إليه من الحديث مشفقاً من التصريح
بالرأى الذي يؤمن به ، وهو أن خلود الأدب ليس إلا أمنية ليس وراءها حقيقة !

في زحمة الميدان !

وهذه مجلة جديدة صدر الجزء الأول منها في أبريل — عن بيروت — اسمها « الأدب
الجديد » ينشئها طائفة يسمون أنفسهم « إخوان القلم » يقدمونها إلى القراء بكلمة عنوانها
« حقيقتنا » يقولون فيها :

« لقد مل الحرف ترديد اللفظ ، وسئم اللفظ تكرار المعنى ، فبلدت الأفكار في الأقلام ،
وأنثت الأقلام في المحابر ، حتى جف المداد واصفر الورق !

« جمود وتقليد . . .

« إقطاعية تستثمر الأدب ، وأنانية تحتكر الشهرة .

« مجلات ودور نشر : تهمل قيمة الأدب وتناجر باسم الأديب !

« لقد شاخ أدباؤنا فشاخ أدبنا ، لأن دم الشباب مكبوح الجماح .

« فتحن نريد أن نطلق العاطفة المكبوتة . . . نريد . . . نريد . . . نريد . . .

ويختتمون هذه المقدمة قائلين :

« هذه همزة في الأدب ، غايتها تحطيم الأصنام ، ورفع القيم فوق الأسماء

« إن نضالنا طويل ، فلن تدعى الفوز القريب ، لأننا في مستهل الطريق . »

أترى هؤلاء الشباب يستطيعون أن يحققوا هذا البرنامج ؟ أم هي همزة طابرة وفورة من
فورات الشباب الذين يتعجلون الناية قبل الأوان ؟ أم هي طبعة ثانية من للمركة التي نشبت
في القاهرة منذ قريب بين من سموا أنفسهم « أدباء الشباب » و « أدباء الشيوخ ؟ »
أسئلة ندع الجواب عنها الساعة حتى نرى ماذا يكون « إخوان القلم » في غد وبأى لون
من « الأدب الجديد » يريدون أن يطالعونا في الأعداد القادمة ، ونأمل لهم التوفيق !

فهرس المجلد الثاني

فبراير — مايو ١٩٤٦

دراسات أدبية

أحمد فتّاد الأهواني	طه الحاجري
قضية العلم بين الغزالي وابن رشد . ٦٤٦	أبو عبيدة ٢٧٦ و ٤٦٣
جيران (ريمون)	كاويوا (روچيه)
* مقاومة الذعر من الواقع (١) ٧٢٠ و ٢٩٠	* سلطان اللفظ (٢) ٤٦٩ و ٦٥٦
ريمون فرنسيس	لويس عوض
مسرقيات أندريه جيد ٦٦٤	برنارد شو ٦٣١
سيد قطب	محمد كامل حسين
الوعى فى الشعر ٦٢١	مختار متشابهتان ٥٨
طه حسين	نجيب بلدى
فى الحب ٣	جان بول سارتر ومواقفه ٤٢٧
الساحرة المسحورة ٣٦٩	

دراسات اجتماعية واقتصادية

بهية فرج الله	عزيز سوريال عطية
العراق ٤٨١	رحلة فى برقة ٢٥٦ و ٤٣٥
سلامة موسى	مراد كامل
الآفاق الاوربية تتفتح لى ٦٥	عامان فى الحبشة ٩٧
الطفولة والصبا ٦١٣	اريتريا — مشاهدات وآمال ٤٥٢

* كل مقال أمامه هذه العلامة كتب خاصة للمجلة بقلم كاتب أوروبى أو أمريكىين

Raymond Guérin, *Contre une terreur des faits*. (١)

Roger Caillois, *Le Pouvoir des mots*. (٢)

فهرس المجلد الثاني

دراسات تاريخية

- سليم حسن طه حسين
الكاتب المصرى ومبكانته فى المجتمع. ٨٧ ثورتان ٥٥٣
محمد عبدالله عنان الملكة شجرة الدر ٤٤١ و ٦٠٢

دراسات سياسية

- سليمان حزين محمد عبدالله عنان
وحدة وادى النيل ٣٩
تاريخ يعيد نفسه فى شرق الأردن ٢٤٣
الحرب العالمية وموقع مصر ٤١٤
الشرق الأوسط والحرب ٥٨٦
محمد رفعت
مشكلة ايران ١٩
بين تركيا وروسيا ٢١٤
مشكلة اسبانيا ٣٩١
مشكلة فرنسا فى افريقية الشمالية ٥٧٤
محمود عزمى
انطباعات من أوروبا ومن هيئة الأمم
المتحدة ٣٨٥
إيطاليا ومؤتمر الصلح ٥٨٢

دراسات علمية

- محمد محمود غالى بعيدا عن نواة الذرة ١٢١

دراسات أدبية

- أحمد فكرى العمارة فى الأندلس ١٠٩

قصص ومسرحيات

- حبيب الزحلاوى طاغور
جناية ٤٨٦
حسن محمود طه حسين
مغامر ٣٠٤
مهير القلماوى محمود تيمور
قصة معبد ٢٢٨
مكارثى (مارى) * رجع الصدى (١) ٦٧٦

The Unspoiled Reaction, by Mary McCarthy. (١)

فهرس المجلد الثاني

سعر

ابراهيم محمد نجبا	ليلة في الصحراء ١١٨	خليل هنداوى	مصرع طائر ٤٦٨
بشر فارس	وحى ٦٠١	عبد الرحمن صدقي	عيونك الزرقى ١٣١
حسين سرحان	المشيب ٤١	على التيل ٦٣٠	على الخطيب
حسين عرب	النفس المغتربة ٦٥٤	ملكة عبد العزيز	في ردهة الرقص ٢٢٥
		الجناح الأبيض ٤٢٥	

من هنا وهناك

ابراهيم الوائلى	النهضة الادبية في العراق وموقف الصحافة منها ٥٠٥	عطاء حمدي	رسالة عن المعذنين في الأرض ٦٩٠
ارقانا بران	من ذكريات أيام الاحتلال ١٤٠	على حافظ	الرجوع الى باريس ٥٠٨
بشر فارس	جولة مستطلع ٤٩٨	مبارك ابراهيم	رأى في حدوث اللغة ونشأة الحروف ١٣٦
راجية فهمى	ادجار آلن پو ٣٣٠	محمود عزمى	أين تجتمع الأمم المتحدة ١٤٤
مهير القلماوى	عودة فرنسا ١٣٢	العالم في مهب الريح ٣٢٣	مؤنس طه حسين
عبد العزيز أحمد	رسالة عن المعذنين في الأرض ٦٨٥	الثقافة الفرنسية في الخارج ١٤٥ و ٣٢٥	

		ذكريات أديبه ٥٠٣	

شهرية العالم

ثورة الفيتامينات ٦٩٢

فهرس المجلد الثاني

شهرية السياسة الدولية

فبراير (ط) ١٤٩ ، مارس (ط) ٣٣٥ ، أبريل (محمود عزمى) ٥١١ ، مايو (محمود عزمى) ٦٩٧

شهرية الفن

الصالون السادس والعشرون للقاهرة ٧٠٠ ، معرض صور الرسام حامد عبد الله ٧٠٢ .

شهرية المسرح

الرسول ١٥٢ ، الحب البغيض ١٥٣ ، أوديب ملكا ١٥٤ ، الأجناء المشاكسون ١٥٥ ،
صراع الحب والموت ٣٣٦ ، هدوء السر ٣٣٧ ، ليلة أكتوبر ٣٣٨ ، انتيجون ٣٣٨ ،
بريتانيكوس ٣٣٩ ، سلاح اليوم ٧٠٤ ، تاج المرأة ٧٠٥ .
رسالة من باريس لمؤنس طه حين : موسم التمثيل ٥١٥ .

شهرية السينما

لجنة الت ٥٢٣ ، حمى ٥٢٥ ، مأساة الوادى ٥٢٦ ، الماضى المجهول ٧٠٦ ، امرأة
سقطت ٧٠٨ .

من كتب الشرق والغرب

تلسلى (فرانك) سيد قطب
* قصة عشرين قرنا (١) ٣٤١ أغانى شيراز ١٥٦
دوبريه (بونامى) على ابراهيم الاقطش
* شارلوت برونتى وقصة شيرلى (٢) ٧١٠ النقد فى كتاب الموازنة ٥٢٨
فؤاد وصفى أبو الذهب الأدب الفرنسى فى عهد الاحتلال .. ٣٤٣

من وراء البحار

معرض صور تيت بلندن وقيمته الفنية ١٦٦ ، مؤتمر التعليم فى لندن ١٦٨ ، الحركة الفنية
والأدبية بفرنسا ١٦٩ ، أحاديث المانية بعد الهزيمة ٣٤٨ ، انباء الأدباء فى فرنسا ٣٤٩ ، مسرحية
جديدة لجيرودو ٣٥٠ ، جائزة الموسيقى دبوسى ٣٥١ ، قصور السلام ٥٣٢ ، موطن رئيس
الولايات المتحدة ٥٣٢ ، ملاحظات عن مصر ٥٣٣ ، رحلة فى سويسرا ٥٣٤ ، انجلترا والتجارة
العالمية ٧١٣ ، كتاب فرنسى جديد ٧١٤ ، جومون واختراعاته السينمائية ٧١٥ ، المجلس
البريطانى ونشاطه ٧١٥ ، الدعاية فى أواسط أفريقيا ٧١٧ .

The Story of Twenty Centuries, by Frank Tilsley. (١)

Charlotte Bronte's Shirley, by Bonamy Dobrée. (٢)

ظهر حديثاً

دوديه (ليون)	٧٢٢	ابراهيم ناجي	كيف تفهم الناس.....
تعريب حسن محمود		احمد الشايب	تاريخ القائض في الشعر العربي
كليمنصو وحياته العاصفة.....	٥٣٦	أحمد عزت عبد الكريم	تاريخ التعليم في مصر
صلاح المنجد	٣٥٧	إلياس أبو شبكة	غملوا.....
نساء طائقات.....	٣٥٩	بارس (موريس)	تعريب محمد عبد الحميد غنيم ، عبد الحميد عابدين
علي عبد الواحد وافي	٧٢٠	جنتة على نهر العاصي.....	ترجنيث (إيثان)
المثولية والجزاء	٣٥٨	محمد سعيد العريان	تعريب شكري محمد عباد
من حولنا	١٧٤	محمود تيمور	الحب الأول.....
شفاه غليظة.....	٥٤٠	محمود حسن اسماعيل	توفيق الطويل
الملك.....	٧١٩	ممدوح مصطفى عبد الرازق	الأحلام
صاحب الزمار ، أنس الوجود ،		من الريف.....	جولد تسير (إجناس)
من الريف.....	٣٥٩	موروا (أندريه)	تعريب محمد يوسف موسى ، عبد العزيز عبد الحق ، علي حسن عبد القادر
وازن الأرواح	٥٣٩	تعريب عبد الخليم محمود	العقيدة والشريعة في الاسلام.....
نجمدة فتحي صفوة		وايلد (أوسكار)	جيد (أندريه)
ايليا أبو ماضي	٧٢١	تعريب لويس عوض	تعريب نزيه الحكيم
صورة دوران جراي	١٧٢	شبح كاترفيل.....	الباب الضيق.....
يحيي الخشاب		دستويشسكي (فيدور)	تعريب شكري محمد عباد
حكايات فارسية.....	١٧٣	المناصر.....	

في مجهرات الشرق

طبعة العقاب وتأثيره ١٧٥ ، الحقائق العارية ١٧٥ ، لنحطم السدود ١٧٥ ، أعمال الأدباء
التونسين ١٧٦ ، انزلوا إلينا ١٧٦ ، إصرار ١٧٧ ، سيوف من خشب ١٧٧ ، زيادة الخير
شر ١٧٨ ، كيف نحارب الطائفة ١٧٨ ، أغلاط الافرنج ٣٦٠ ، واجب كل عربي ٣٦٠ ،
أدباؤنا المعاصرون ٣٦٠ ، الفنانون يكرهون الحياة ٣٦١ ، وحدة الثقافة العربية ٣٦١ ، التواكل
٥٤٤ ، الفكر ٥٤٤ ، امرأة واعلمها كل امرأة ٥٤٥ ، آداب البلاد العربية ٥٤٥ ، الأدب
الحجازي ٥٤٦ ، البيت والمدرسة ٥٤٦ ، الفن والأدب والحزب ٥٤٧ ، تاريخ المسرح التونسي ٧٢٣ ،
حكومة اليمن ٧٢٣ ، الشعوية والشوعية ٧٢٤ ، الفكرة القومية في مراحل تطورها الحديث
٧٢٤ ، علامات الجمال ٧٢٥ ، بعد سقوط الأندلس ٧٢٥ ، أثر الأعياد في الأدب العربي ٧٢٦ ،
الخلود الأدبي ٧٢٦ ، في زحمة الميدان ٧٢٧ .

رسالة للجاحظ

تنشر مجلة الكاتب المصري في العدد

القادم رسالة كاملة للجاحظ لم يسبق

نشرها من قبل

ليون دوديه

كايخسرو وحياة العاصفة

تعريب حسن محمود



الثنى ٣٥ قرشاً
(البريد ٢٤ مليماً)



طبعة مزينة بالصورة

VALEURS

CAHIERS TRIMESTRIELS DE CRITIQUE ET DE LITTÉRATURE
PUBLIÉS AVEC LA COLLABORATION DES ÉCRIVAINS DE FRANCE
ET DU PROCHE-ORIENT.

Directeur: ETIEMBLE.

SOMMAIRE DU CINQUIÈME CAHIER

GUSTAVE FLAUBERT
LETTRES INÉDITES À MAXIME DU CAMP

JULES SUPERVIELLE
ÉLÉMENTS D'UNE POÉTIQUE

ETIEMBLE
ÉVOLUTION DE LA POÉTIQUE CHEZ SUPERVIELLE

ALBERT CAMUS
LA PESTE

EDITH BOISSONAS
POÈMES

HENRI CALET
LE DIEU DES FLANDRES

NICOS ENGONOPOULOS
BOLIVAR

(traduction, avec une introduction de R. Levesque)

JEAN GRENIER
POÉSIE DE L'ESPACE

SAINT BEUVE
DEUX LETTRES INÉDITES

REVUE DES LIVRES FRANÇAIS,
LETTRES ARABES, LETTRES ÉTRANGÈRES,
REVUE DES REVUES, NOTULES, BULLETIN.

Dans les numéros 6-8 VALEURS publiera notamment
des inédits de:

*Charles Baudelaire, Jean Paulhan, Marcel Proust, Alexei
Remizov, Théophile Gautier, Georges Bataille, Georges
Dumézil, Michel Leiris, Raymond Queneau, Jean Tardieu, etc..*

LA REVUE DU CAIRE

REVUE DE LITTÉRATURE ET D'HISTOIRE

SOMMAIRE DU NUMERO D'AVRIL

ROBERT LEVESQUE	Sikellanos.
VLADIMIR PROTOPOPOV	N. A. Rimsky-Korsakow.
AHMAD RACHAD	Théodore Dreiser.
JEAN DUPERTUIS	Ecrivains et leur Peuple : I. Charles Péguy (à suivre).
JEAN GALLOTTI	Urbanisme d'hier et d'aujourd'hui.
ALEXANDRE PAPADOPOULO	Stéphane Mallarmé (fin).

CHRONIQUE

René DUMESNIL

تباع كتب

دار الكاتب المصرى
فى المكتبات الشهيرة

وإن أردتم أن تصلكم كتبنا
رأساً بالبريد فارسلوا إلى الدار ثمن
ما تختارون منها مع إضافة أجرة
البريد المحددة .

تحت الطبع

فَاتِحُ الْفَلَسْفَةِ الْاَوْتِيَسِيَّةِ
فِي الْعَصْرِ الْوَسْطِيِّ

تأليف

الأستاذ يوسف كرم
مدرس الفلسفة بكلية الآداب
بجامعة فاروق الأول

الحَقِيقَةُ وَالشَّرِيعَةُ

فِي الْإِسْلَامِ

تاريخ التطور العقدي والتشريعي في الديانة الإسلامية

للمستشرق العظيم إجناس جولدتسيهر

نقله إلى اللغة العربية

وعلق عليه

محمد يوسف موسى

عبد العزيز عبد الحق

المدرس بكلية أصول الدين
بالجامع الأزهر

علي حسن عبد القادر

المدرس بكلية أصول الدين
بالجامع الأزهر

أبواب الكتاب :

محمد صلى الله عليه وسلم والإسلام — تطور الفقه

نمو العقيدة وتطورها — الزهد والتصوف

الفرق — الحركات الدينية الأخيرة

ولسكل باب حواش من المؤلف وتعليقات من المعربين

كتاب ضخيم يقع في ٤٠٠ صفحة

الثن ٨٥ قرشا (البريد ٤٠ مليا)



الكاتب المصري

• مجلة أدبية شهرية

تصدرها دار الكاتب المصري

شركة مساهمة مصرية

وتطبع بمطبعها

رئيس التحرير

طه حسين

مكتبة التحرير

حسن محمود

أدارة اللاتب المصرى

ه شارع قنطرة الدكة بالقاهرة

الاشتراك

يدفع مقدماً باسم « الكاتب المصري »

١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان

١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو ما يعادلها

مجلة الكاتب المصرى تعنى بكل ما يرد اليها من المقالات
والرسائل ولكنها لا تلتزم بنشرها ولا ردها

التمن بمصر : ١٠ قروسه

